(فهرسة الجزء الرابع من تفسير الخطيب الشربيني)

(تمت)

الجزء الرابع من السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض
معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للشيخ الامام
الخطيب الشربيني قدس الله روحه
وعمّ بالرحمة ضريحه
آمين



(سورة الاحقاف مكية)

الاقوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله الآية والافاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل الآية والاووصينا الانسان بوالديه الثلاث آيات وهى خمس وثلاثون آية وستمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفا (بسم الله) الذى لايذل من والى ولايعز من عادى (الرحمن) الذى سبقت رحمته غضبه (الرحيم) الذى خص حزبه بعمل الابرار للفوز فى دار القرار وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) مرارا وقرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بامالة الحاء محضة وقرأ ورش وأبو عمرو بامالتها بين بين وفتحها الباقون وقيل المراد بحم حكمة محمد صلى الله عليه وسلم التى هى النهاية فى الصواب والسداد أحكمها الذى أحاطت قدرته فهو لايخاف المعاد وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أى الجامع لجميع الخيرات بالتدريج على حسب المصالح (من الله) أى الجبار المتكبر المختص بصفات الكمال (العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه لانه لم يفعل شيأ الافى أوفق محاله وأنه الخالق للخير والشر وأنه يعز أولياءه ويذل أعداءه (ماخلقنا) أى على مالنا من العظمة الموجبة للتفرد بالكبرياء (السموات والارض) على مافيهما من الآيات (ومابينهما الا) خلقا ملتبسا (بالحق) أى الامر الثابت من القدرة التامة والتصرف المطلق ليدل على قدرتنا ووحدانيتنا (وأجل) أى وبتقدير أجل (مسمى) ينتهى اليه وهو يوم القيامة (والذين كفروا عما أنذروا) أى خوفوا به من القرآن من هول ذلك اليوم الذى لابد لكل خلق من انتهائه اليه (معرضون) أى لايؤمنون به ولايهتمون للاستعداد له ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء المعرضين أنفسهم لغاية الخطوب منكرا عليهم تبكيتا وتوبيخا

(أرأيتم)

(أرأيتم) أى أخبرونى عن حال آلهتكم بعد تأمّل وروية باطنة (ماتدعون) أى تعبدون ثم نبه على سفولهم بقوله تعالى (من دون الله) أى المالك الاعظم الذى كل شئ دونه فلا كفء له مفعول أوّل وقوله تعالى (أرونى) أى أخبرونى تأكيد وقوله (ماذا خلقوا) مفعول ثان وقوله تعالى (من الارض) بيان لما أى ليصح ادّعاء أنهم شركاء فيها باختراع ذلك الجزء (أم لهم) أى الذين تدعونهم (شرك) أى مشاركة (فى) خلق (السموات) أى بنوع من أنواع الشركة مع الله تعالى وأم بمعنى همزة الانكار ولما كان الدليل أحد شيئين سمع وعقل قال تعالى (ائتونى بكتاب) أى منزل على دعواكم فى هذه الاصنام أنها خلقت شيأ أو أنها تستحق أن تعبد *(تنبيه)* أبدل ورش والسوسى الهمزة من ائتونى فى الوصل ياء وحققها الباقون وأما الابتداء بها فجميع القراء أبدلوها ياء بعد الابتداء بهمزة الوصل مكسورة (من قبل هذا) أى القرآن الذى أنزل على كالتوراة والانجيل والزبور وهذا من أعلام النبوّة فانها كلها شاهدة بالوحدانية لو أتى بها آت لشهدت عليه ولما ذكر تعالى الاعلى الذى لا يجب التكليف الا به وهو النقل القاطع سهل عليهم فنزل الى مادونه فقال (أو أثارة) أى بقية (من علم) يؤثر عن الاوّلين بصحة دعواكم فى عبادة الاصنام أنها تقربكم الى الله تعالى وقال المبرد أثارة ما يؤثر من علم كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ومن هذا المعنى سميت الاخبار بالآثار يقال جاء فى الاثر كذا وكذا وقال الواحدى وكلام أهل اللغة فى هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال الاوّل الاثارة واشتقاقها من أثرت الشئ أثيره اثارة كأنها بقية تستخرج فتثار والثانى من الاثر الذى هو الرواية والثالث من الاثر بمعنى العلامة وقال الكلبى فى تفسير الاثارة أى بقية من علم يؤثر عن الاوّلين أى يسند اليهم وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل رواية عن الانبياء قال الرازى وههنا قول آخر أو أثارة من علم هو علم الخط الذى يخط فى الرمل والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور روى أنه صلى الله عليه وسلم قال كان نبى من الانبياء يخط فمن وافق خطه خطه علم علمه فعلى هذا الوجه معنى الآية ائتونى بعلم من قبل هذا الخط الذى تخطونه فى الرمل يدل على صحة مذهبكم فى عبادة الاصنام فان صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وأقوالهم ردلائلهم ثم أشار الى تقريعهم بالكذب اذلم يقيموا دليلا على دعواهم بقوله (ان كنتم صادقين) أى عريقين فى الصدق على ماتدعون لانفسكم ولما أبطل سبحانه قولهم فى الاصنام بعدم قدرتها أتبعه ابطاله بعدم علمها بقوله تعالى (ومن أضل) وهو استفهام بمعنى النفى أى لا أحد أضل (ممن يدعو) أى يعبد مالا قدرة له ولا علم ومن انتفت قدرته وعلمه لم تصح عبادته ببديهة العقل وأرشد الى سفولها بقوله عز وجل (من دون الله) أى من أدنى رتبة من رتب الذى له صفات الكمال فهو يعلم كل شئ ويقدر على كل شئ فهو بحيث يجيب الدعاء ويكشف البلاء ويحقق الرجاء اذا شاء ويدبر عبده لما يعلم من سره وعلنه بما لا يقدر هو على تدبير نفسه به ويريد العبد فى كثير من الاشياء مالو وكل فيه الى نفسه وأجيب الى طلبته كان فيه حتفه فيدبره سبحانه بما تشتد كراهته له فيكشف الحال على أنه لم يكن له فرج الا فيه (من لا يستجيب له) أى لا توجد الاجابة ولا يطلب ايجادها من الاصنام وغيرها لانه لا أهلية له لذلك

والمعنى انه لا أحد أبعد عن الحق وأقرب الى الجهل ممن يدعو من دون الله الاصنام فيتخذها آلهة ويعبدها وهي اذا دعيت لا تسمع ولا تجيب لا في الحال ولا في المآل (الى يوم القيامة) وانما جعل ذلك غاية لان يوم القيامة قد قيل ان الله تعالى يحييها ويخاطب من يعبدها فلذلك جعله الله تعالى حدا وقيل المراد عبدة الملائكة وعيسى وأنهم يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين (وهم عن دعائهم) أي دعاء المشركين اياهم (غافلون) أي لهم هذا الوصف لا ينفكون عنه لا يعلمون من يدعوهم ومن لا يدعوهم وعبر بالغفلة التي هي من أوصاف العقلاء للجماد تغليبا ان كان المراد أعم من الاصنام وغيرها مما عبدوه من عقلاء الانس وغيرهم ولما غيا سبحانه بيوم القيامة فأفهم أنهم يستجيبون لهم فيه بين ما يحاورونهم به اذ ذاك فقال تعالى (واذا حشر) أي جمع بكره على أيسر وجه وأسهل أمر (الناس) أي يوم القيامة (كانوا) أي المدعوون (لهم) أي الداعين (أعداء) ويعطيهم الله تعالى قوة الكلام فيخاطبونهم بكل ما يخاطب به العدو عدوه (وكانوا) أي المعبودون (بعبادتهم) أي الداعين وهم المشركون اياهم (كافرين) أي جاحدين لانهم كانوا عنها غافلين كما قال تعالى في سورة يونس عليه السلام وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون ثم بين تعالى أنهم في نهاية الغباوة بانكار ما لا شيء أبين منه بقوله سبحانه (واذا تتلى) أي تقرأ من أي قارئ كان على وجه المتابعة (عليهم) أي هؤلاء البعداء البغضاء (آياتنا) التي لا أعظم منها في أنفسها باضافتها الينا وهي القرآن وقوله تعالى (بينات) أي ظاهرات حال قالوا هكذا كان الاصل ولكنه تعالى بين الوصف الحامل لهم على القول فقال عز وجل (قال الذين كفروا) أي ستروا تلك الانوار التي أبرزتها تلك التلاوة لها هكذا كان الاصل ولكن قال تعالى (للحق) أي لاجله (لما) أي حين (جاءهم) أي من غير نظر وتأمل (هذا) أي الذي يتلى (سحر) اي خيال لا حقيقة له (مبين) أي ظاهر في أنه خيال باطل وقوله تعالى (أم يقولون افتراه) اضراب عن ذكر تسميتهم اياه سحرا الى ذكر ما هو أشنع وانكار له وتعجب ثم بين تعالى بطلان شبهتهم بقوله تعالى (قل) أي يا أشرف الخلق (ان افتريته) أي تعمدت كذبه على زعمكم وأنا انما أريد به نصيحتكم فالذي أفتريه عليه وأنسبه اليه يعاقبني على ذلك ولا يتركني أصلا وذلك هو معنى قوله (فلا تملكون) اي أيها المنصوحون بوجه من الوجوه ولا في وقت من الاوقات (لي من الله) أي المتكبر الحليم (شيأ) من الاشياء ما يرد عني انتقامه لان الملك لا يترك من كذب عليه مطلق كذب فكيف من يتعمد الكذب عليه في الرسالة بأمور عظيمة وملازمته مساء وصباحا فأي حامل لي حينئذ على افترائه ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام بقوله (هو) أي الله سبحانه (أعلم) أي منكم ومن كل أحد (بما تفيضون فيه) أي بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه بأنه سحر (كفى به شهيدا) أي شاهدا بليغ الشهادة لانه أعلم بجميع أحوالنا (بيني وبينكم) أي أن القرآن جاء من عنده فيشهد لي بالصدق ولكم بالكذب وقد شهد بصدقي بعجزكم عن معارضة شيء من هذا الكتاب الذي أتيت به فثبت بذلك أنه كلامه لاني لا أقدر على ما تقدرون عليه فرادى ولا مجتمعين وأنتم عرب مثلي بل وأنا أمي وفيكم أنتم الكتبة والذين خالطوا العلماء وسمعوا أحاديث الامم وضربوا في بعد بلاد العرب في بلاد

المجم فظهر بذلك ظهور الشمس أنكم كاذبون (وهو) أي وحده (الغفور) أي الذي من شأنه أن يمحو الذنوب أعيانها وآثارها فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (الرحيم) أي الذي يكرم بعد المغفرة ويتفضل بالتوفيق لما يرضيه قال الزجاج هذا دعاء الى التوبة ومعناه غفور لمن تاب منكم رحيم به ولما حكى تعالى طعنهم في كون القرآن معجزا بقولهم انه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه الى أنه كلام الله تعالى على سبيل الفرية حكى عنهم شبهة أخرى وهو انهم كانوا يقترحون عليه معجزات عجيبة ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله عز وجل (قل) أي لهؤلاء الذين نسبوك الى الافتراء (ما كنت) أي كونا تاما (بدعا) أي منشئا مبتدعا محدثا مخترعا بحيث أكون أجنبيا منقطعا (من الرسل) أي لم يتقدم لي منهم مثال في أصل ما جئت به وهو التوحيد ومحاسن الاخلاق بل قد تقدمني رسل كثيرون أتوا بمثل ما أتيت به ودعوا اليه كما دعوت اليه وصدقهم الله تعالى بمثل ما صدقني به فثبت بذلك رسالتهم وسعد بهم من صدقهم من قومهم وشقي من كذبهم فانظروا الى آثارهم واسألوا عن سيرهم من أتباعهم وأنصارهم وأشياعهم *(تنبيه)* البدع والبديع من كل شئ المبدأ والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودا قبله وفي الحديث كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار قال البقاعي معناه والله أعلم أنه يبتدع ما يخالف السنة اذا كانت البدعة ضد السنة فاذا أحدث ما يخالفها كان باحداثه ضالا مشركا وكان ما أحدث في النار ولم يدخل تحت هذا ما يخترعه الانسان من أفعال البر يسمى بدعة لعدم فعله قبل ذلك ويخرج عما ذكر اه وقال ابن عبد السلام البدعة منقسمة الى واجبة ومحرمة ومندوبة ومكروهة ومباحة قال والطريق في ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة فان دخلت في قواعد الايجاب فهي واجبة كالاشتغال بعلم النحو أو في قواعد التحريم فمحرمة كمذهب القدرية والمجسمة والرافضة قال والرد على هؤلاء من البدع الواجبة أو في قواعد المندوب فمندوبة كبناء الربط والمدارس وكل احسان لم يحدث في العصر الاول كصلاة التراويح أو في قواعد المكروه فمكروهة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف أو في قواعد المباح فمباحة كالمصافحة عقب الصبح والعصر والتوسع في المآكل والملابس وروى البيهقي باسناده في مناقب الشافعي رضي الله تعالى عنه انه قال المحدثات ضربان أحدهما ما خالف كتابا أو سنة أو اجماعا فهو بدعة وضلالة والثاني ما أحدث من الخير فهو غير مذموم واختلف في تفسير قوله تعالى عن قوله عليه الصلاة والسلام (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) على وجهين أحدهما أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا والثاني أن يحمل على أحوال الآخرة أما الاول ففيه وجوه أحدها أن معناه لا ادري ما يصير اليه أمري وأمركم ومن الغالب منا ومن المغلوب ثانيها قال ابن عباس في رواية الكلبي لما اشتد البلاء بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة رأى في المنام أنه يهاجر الى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما بهم من أذى المشركين ثم انهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذي قلت متى تهاجر الى الارض التي رأيتها في المنام فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى قل ما كنت بدعا من الرسل

وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم هو شئ رأيته فى المنام (ان) اى ما (أتبع) اى بغاية جهدى وجدى (الاما) أى الذى (يوحى) اى يجدد القاؤه ممن لا يوحى بحق سواه (الى) على سبيل التدريج لا يطلع عليه حق اطلاعه غيرى ثالثها قال الضحاك لا أدرى ما تؤمرون به ولا ما أومر به من التكاليف والشرائع ولا من الابتلاء والامتحان (وما أنا) اى باخبارى لكم عما يوحى الى (الا نذير مبين) أى بين الانذار رابعها كأنه يقول ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا اموت او أقتل كما قتل الانبياء قبلى ولا أدرى ما يفعل بكم ايها المكذبون اترمون بالحجارة من السماء او يخسف بكم أو يفعل بكم ما يفعل بسائر الامم قال السدى ثم أخبره الله تعالى أنه يظهر دينه على الاديان بقوله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقال فى أمته وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فأخبره الله تعالى بما يصنع به وبأمته * وأما من حمل الآية على أحوال الآخرة فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا فأنزل الله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر الى قوله تعالى وكان ذلك عند الله فوزا عظيما فقالت الصحابة هنيأ لك يارسول الله قد علمنا ما يفعل بك فما يفعل بنا فأنزل الله عز وجل ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار الآية وأنزل وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا فبين لهم ما يفعل به وبهم وبهذا قال أنس والحسن وعكرمة وقالوا انما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه لانه انما أخبر به عام الحديبية فنسخ ذلك قال الرازى وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول من وجهين أحدهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لا بد وأن يعلم من نفسه ومتى علم كونه نبياء علم أنه لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له واذا كان كذلك امتنع كونه شاكا فى أنه هل هو مغفور له أولا ثانيهما أن الانبياء ارفع حالا من الاولياء وقد قال تعالى فى حقهم ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذى هو رئيس الانبياء وقدوة الأولياء شاكا فى انه هل هو من المغفور لهم فثبت ضعف هذا القول (قل) يا أفضل الخلق لهؤلاء المصرين على التكذيب (أرأيتم) أى أخبرونى (ان كان) أى هذا الذى أتيتكم به وهو القرآن (من عند الله) أى الملك الاعظم (وكفرتم به) أى أيها المشركون (وشهد شاهد) واحد أو أكثر (من بنى اسرائيل) أى الذى جرت عادتكم أن تستفتوهم وتثقوا بهم (على مثله) أى مثل ما فى القرآن من ان من وحد فقد آمن ومن أشرك فقد كفر وأن الله تعالى أنزل ذلك فى التوراة والانجيل وجميع أسفارهم فتطابقت عليه كتبهم وتظافرت به رسلهم وتواترت على الدعاء اليه والأمر به أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام (فآمن) أى هذا الذى شهد هذه الشهادة (واستكبرتم) أى أوجدتم الكبر بالاعراض عنه طالبين بذلك الرياسة والفخر فكنتم بعد شهادة هذا الشاهد معاندين من غير شبهة فضللتم فوضعتم الشئ فى غير موضعه فانسد عليكم باب الهداية واختلف فى هذا الشاهد فقال قتادة والضحاك وأكثر المفسرين هو عبد الله بن سلام شهد بنبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم وآمن به واستكبرت اليهود فلم يؤمنوا به كما روى أنس

قال

قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فنظر الى وجهه فعلم أنه ليس وجه كذاب وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر فقال له انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد الى أبيه أو الى أمه فقال صلى الله عليه وسلم أخبرني بهن جبريل آنفا قال جبريل قال نعم قال ذلك عدو اليهود من الملائكة فقرأ من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله ثم قال أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام تأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت واما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه واذا سبق ماء المرأة نزعته فقال أشهد انك لرسول الله حقا ثم قال يا رسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أى رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال أفرأيتم ان أسلم عبد الله بن سلام فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج اليهم عبد الله فقال أشهد ان لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت أخاف منه يا رسول الله قال سعد بن أبي وقاص ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لاحد يمشي على الارض انه من أهل الجنة الا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت هذه الآية وشهد شاهد من بني اسرائيل وقيل الشاهد هو موسى بن عمران قال الشعبي قال مسروق في هذه الآية والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لان آل حم نزلت بمكة وانما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وانما نزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت بالمدينة وأجاب الكلبي بأن السورة مكية الا هذه الآية فانها مدنية وان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين وقيل المراد بالشاهد موسى ومثل القرآن هو التوراة فشهد موسى على التوراة ومحمد على الفرقان فكل واحد يصدق الآخر لان التوراة مشتملة على البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن مصدق للتوراة وجواب الشرط ألستم ظالمين دل عليه قوله تعالى (ان الله) أى الملك الاعظم ذا العزة والحكمة (لا يهدى القوم) أى الذين لهم قوة على القيام بما يريدون (الظالمين) اى الذين من شأنهم وضع الامور في غير مواضعها فلاجل ذلك لا يهديكم اذ لا احد ارسخ منكم في الظلم الذى تسبب عنه هلاككم (وقال الذين كفروا) اى تعمدوا تغطية الحق (للذين) اى لاجل ايمان الذين (آمنوا) اى سبقوهم الى الايمان (لو كان) اى ايمانهم بالقرآن (خيرا) اى من جملة الخيور (ما سبقونا اليه) ونحن أشرف منهم وأكثر اموالا واولادا وأعلم بتحصيل العز والسودد الذى هو مناط الخير كما لم يسبقونا الى شئ من هذه الخيرات التى نحن فائزون بها وهم صفر منها لكن ليس بخير فلهذا سبقونا اليه (واذ) اى وحين (لم يهتدوا به) اى بالقرآن كما اهتدى به اهل الايمان (فسيقولون هذا) أى القرآن الذى سبقتم اليه (افك) اى شئ مصروف عن وجهه الى قفاه (قديم) اى افك غيره وعثر هو عليه فأتى به ونسبه الى الله تعالى كما

وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم هو شئ رأيته فى المنام (ان) اى ما (أتبع) اى بغاية جهدى وجدى (الاما) أى الذى (يوحى) اى يجدد القاؤه ممن لا يوحى بحق سواه (الى) على سبيل التدريج لا يطلع عليه حق اطلاعه غيرى ثالثها قال الضحاك لا أدرى ما تؤمرون به ولا ما أومر به من التكاليف والشرائع ولا من الابتلاء والامتحان (وما أنا) اى باخبارى لكم عما يوحى الى (الا نذير مبين) أى بين الانذار رابعها كأنه يقول ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا اموت او أقتل كما قتل الانبياء قبلى ولا أدرى ما يفعل بكم ايها المكذبون اترمون بالحجارة من السماء او يخسف بكم أو يفعل بكم ما يفعل بسائر الامم قال السدى ثم أخبره الله تعالى أنه يظهر دينه على الاديان بقوله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقال فى أمته وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فأخبره الله تعالى بما يصنع به وبأمته * وأما من حمل الآية على أحوال الآخرة فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا فأنزل الله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر الى قوله تعالى وكان ذلك عند الله فوزا عظيما فقالت الصحابة هنيأ لك يارسول الله قد علمنا ما يفعل بك فما يفعل بنا فانزل الله عز وجل ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار الآية وأنزل وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا فبين لهم ما يفعل به وبهم وبهذا قال أنس والحسن وعكرمة وقالوا انما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه لانه انما أخبر به عام الحديبية فنسخ ذلك قال الرازى وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول من وجهين أحدهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لا بد وأن يعلم من نفسه ومتى علم كونه نبيا علم أنه لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له واذا كان كذلك امتنع كونه شاكا فى أنه هل هو مغفور له أولا ثانيهما أن الانبياء ارفع حالا من الاولياء وقد قال تعالى فى حقهم ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذى هو رئيس الانبياء وقدوة الاولياء شاكا فى انه هل هو من المغفور لهم فثبت ضعف هذا القول (قل) يا أفضل الخلق لهؤلاء المصرين على التكذيب (أرأيتم) أى أخبرونى (ان كان) أى هذا الذى أتيتكم به وهو القرآن (من عند الله) أى الملك الاعظم (وكفرتم به) أى أيها المشركون (وشهد شاهد) واحد أو أكثر (من بنى اسرائيل) أى الذى جرت عادتكم أن تستفتوهم وتثقوا بهم (على مثله) أى مثل ما فى القرآن من ان من وحد فقد آمن ومن أشرك فقد كفر وأن الله تعالى أنزل ذلك فى التوراة والانجيل وجميع أسفارهم فتطابقت عليه كتبهم وتظافرت به رسلهم وتواترت على الدعاء اليه والامر به أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام (فآمن) أى هذا الذى شهد هذه الشهادة (واستكبرتم) أى أوجدتم الكبر بالاعراض عنه طالبين بذلك الرياسة والفخر فكنتم بعد شهادة هذا الشاهد معاندين من غير شبهة فضللتم فوضعتم الشئ فى غير موضعه فانسد عليكم باب الهداية واختلف فى هذا الشاهد فقال قتادة والضحاك وأكثر المفسرين هو عبد الله بن سلام شهد بنبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم وآمن به واستكبرت اليهود فلم يؤمنوا به كما روى أنس

قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فنظر الى وجهه فعلم أنه ليس وجه كذاب وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر فقال له انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد الى أبيه أو الى أمه فقال صلى الله عليه وسلم أخبرني بهن جبريل آنفا قال جبريل قال نعم قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله ثم قال أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام تأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت واما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه واذا سبق ماء المرأة نزعته فقال أشهد انك لرسول الله حقا ثم قال يارسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أي رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال أفرأيتم ان أسلم عبد الله بن سلام فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج اليهم عبد الله فقال أشهد ان لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله فقالوا اشرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت أخاف منه يارسول الله قال سعد بن أبي وقاص ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لاحد يمشي على الارض انه من أهل الجنة الا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت هذه الآية وشهد شاهد من بني اسرائيل وقيل الشاهد هو موسى بن عمران قال الشعبي قال مسروق في هذه الآية والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لان آل حم نزلت بمكة وانما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وانما نزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت بالمدينة وأجاب الكلبي بأن السورة مكية الا هذه الآية فانها مدنية وان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين وقيل المراد بالشاهد موسى ومثل القرآن هو التوراة فشهد موسى على التوراة ومحمد على الفرقان فكل واحد يصدق الآخر لان التوراة مشتملة على البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن مصدق للتوراة وجواب الشرط ألستم ظالمين دل عليه قوله تعالى (ان الله) أي الملك الاعظم ذا العزة والحكمة (لا يهدي القوم) أي الذين لهم قوة على القيام بما يريدون (الظالمين) اى الذين من شأنهم وضع الامور في غير مواضعها فلاجل ذلك لا يهديكم اذ لا احد ارسخ منكم في الظلم الذي تسبب عنه هلاككم (وقال الذين كفروا) اى تعمدوا تغطية الحق (للذين) اى لاجل ايمان الذين (آمنوا) اى سبقوهم الى الايمان (لو كان) اى ايمانهم بالقرآن (خيرا) اى من جملة الخيور (ما سبقونا اليه) ونحن أشرف منهم وأكثر اموالا واولادا وأعلم بتحصيل العز والسودد الذي هو مناط الخير كما لم يسبقونا الى شيء من هذه الخيرات التي نحن فائزون بها وهم صفر منها لكن ليس بخير فلهذا اسبقونا اليه (واذ) اى وحين (لم يهتدوا به) اى بالقرآن كما اهتدى به اهل الايمان (فسيقولون هذا) أى القرآن الذي سبقتم اليه (افك) اى شيء مصروف عن وجهه الى قفاه (قديم) اى افك غيره وعثر هو عليه فأتى به ونسبه الى الله تعالى كما

قالوا اساطير الاولين (ومن) اى قالوا ذلك والحال انه كان فى بعض الزمن الذى من (قبله) اى القرآن (كتاب موسى) كليم الله تعالى حال كون كتابه وهو التوراة (اماما) اى يستحق ان يؤمه كل من سمع به (ورحمة) لما فيه من نعم الدلائل على الله تعالى والبيان الشافى وفى الكلام محذوف تقديره وتقدمه كتاب موسى اماما ورحمة ولم يهتدوا به كما قال تعالى فى الآية الاولى واذلم يهتدوا به (وهذا) اى القرآن (كتاب) أى جامع لجميع الخيرات (مصدق) اى لكتاب موسى عليه السلام وغيره من الكتب التى تصح نسبتها الى الله تعالى فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله تعالى وقوله تعالى (لسانا) حال من الضمير فى مصدق وقوله (عربيا) صفة للسانا وهو المسوغ لوقوع هذا الجامد حالا أى فى أعلى طبقات اللسان العربى مع كونه اسهل الكتب تناولا وابعدها عن التكلف ليس هو بحيث يمنعه علوه بفخامة الالفاظ وجلالة المعانى ودقة الاشارة عن سهولة الفهم وقرب التناول وقوله تعالى (لينذر) اى الكتاب بحسن بيانه وعظم شأنه (الذين ظلموا) اى سواء كانوا عريقين فى الظلم ام لا وقرأ نافع وابن عامر بالتاء خطابا اى ايها الرسول والباقون بالياء غيبة بخلاف عن البزى (وبشرى) أى كاملة (للمحسنين) أى المؤمنين بأن لهم الجنة * ولما قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المتكبرين وأجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة المحققين فقال تعالى (ان الذين قالوا ربنا) أى خالقنا ومولانا والمحسن الينا (الله) وحده (ثم استقاموا) أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم والاستقامة فى الامور التى هى منتهى العلم وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل وتوقف اعتباره على التوحيد (فلا خوف عليهم) أى من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) أى على فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط (أولئك) أى العالون الدرجات (أصحاب الجنة خالدين فيها) خلودا لا آخر له جوزوا بذلك (جزاء بما) أى بسبب ما (كانوا) طبعا وخلقا (يعملون) أى على سبيل التجديد المستمر * ولما كان رضا الله تعالى فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما كما ورد به الحديث حث عليه بقوله تعالى (ووصينا) أى بما لنا من العظمة (الانسان) أى هذا النوع الذى أنس بنفسه (بوالديه) وقرأ (حسنا) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الحاء وسكون السين وقرأ الكوفيون بسكون الحاء وقبلها همزة مكسورة وفتح السين وبعدها ألف فهو منصوب على المصدر بفعل مقدر أى وصيناه أن يحسن اليهما احسانا ومثله حسنا وقرأ (حملته أمه كرها) أى على مشقة (ووضعته كرها) أى بمشقة الكوفيون وابن ذكوان بضم الكاف فيهما والباقون بالفتح وهما لغتان بمعنى واحد مثل الضعف والضعف وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر وليس المراد ابتداء الحمل فان ذلك لا يكون بمشقة لقوله تعالى فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت فحينئذ حملته كرها ووضعته كرها *(تنبيه)* دلت الآية على أن حق الام أعظم لانه تعالى قال ووصينا الانسان بوالديه حسنا فذكرهما معا ثم خص الام بالذكر فقال حملته أمه كرها ووضعته كرها وذلك يدل على أن حقها اعظم وان وصول المشاق اليها بسبب الولد كثيرة والاخبار كثيرة فى هذا الباب (وحمله وفصاله) أى من الرضاع (ثلاثون شهرا) كل ذلك بيان لما تكابده الام فى تربية الولد ومبالغة فى الوصية

بها وفى ذلك دلالة على أن اقل مدة الحمل ستة أشهر لانه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا وقال تعالى والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين فاذا أسقطنا الحولين الكاملين وهى أربعة وعشرون شهرا من ثلاثين بقى مدة الحمل ستة أشهر روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اذا حملت المراة تسعة أشهر أرضعت أحدا وعشرين شهرا واذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا وروى عن أبى بكر ان امراة دفعت اليه وقد ولدت لستة اشهر فأمر برجمها فقال عمر لا رجم عليها وذكر الطريق المتقدمة وعن عثمان نحوه وأنه هم بذلك فقرأ ابن عباس رضى الله عنهما عليه الآية وأما مدة اكثر الحمل فليس فى القرآن ما يدل عليه واختلاف الائمة فى ذلك فعند الشافعى أربع سنين وقوله تعالى (حتى اذا بلغ أشده) لابد فيه من جملة محذوفة تكون حتى غاية لها أى عاش واستمرت حياته حتى اذا بلغ أشده قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء الاشد ثمان عشرة سنة وقيل نهاية قوته وغاية شبابه واستوائه وهو ما بين ثمانى عشرة سنة الى أربعين سنة فذلك قوله تعالى (وبلغ أربعين سنة) وقال السدى والضحاك نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وقيل نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأبيه أبى قحافة عثمان بن عمرو وامه أم الخير بنت صخر بن عمرو وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الآية فى أبى بكر الصديق أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لاحد من المهاجرين أبواه غيره أوصاه الله تعالى بهما ولزم ذلك من بعده وكان أبو بكر يصحب النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبى صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة فى تجارته الى الشام فلما بلغ أربعين سنة وتنبأ النبى صلى الله عليه وسلم آمن به ثم آمن أبواه ثم ابنه عبد الرحمن وابن عبد الرحمن أبو عتيق ثم ان أبا بكر دعا ربه بأن (قال رب أوزعنى) أى ألهمنى وقرأ ورش والبزى بفتح الياء فى الوصل والباقون بسكونها (أن أشكر نعمتك التى أنعمت) أى بها (على) أى وعلى أولادى (وعلى والدى) وهى التوحيد وأكثر المفسرين على أن الاشد ثلاث وثلاثون قال الرازى مراتب الحيوان ثلاثة لان بدن الحيوان لا يكون الا برطوبة غريزية وحرارة غريزية والرطوبة الغريزية زائدة فى أول العمر ناقصة فى آخره والانتقال من الزيادة الى النقصان لا يعقل حصوله الا اذا حصل الاستواء فى وسط هاتين المدتين فثبت أن مدة العمر منقسمة الى ثلاثة أقسام فأولها أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية وحينئذ تكون الاعضاء عظيمة التمدد فى ذواتها وزيادتها فى الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشء والثانية وهى المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سن الوقوف وهو حين الشباب والمرتبة الثالثة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا النقصان على قسمين فالاول هو النقصان الخفى وهو سن الكهولة والثانى هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة قال المفسرون لم يبعث نبى قط الا بعد الاربعين سنة قال الرازى وهذا يشكل بعيسى عليه السلام فانه تعالى جعله نبيا من أول عمره الا أنه يجب أن يقال الاغلب انه ما جاء الوحى

لا بعد الاربعين وهكذا كان الامر فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم ثم ان أبا بكر دعا أيضا فقال (وأن أعمل صالحا ترضاه) قال ابن عباس أجاب الله تعالى دعاء أبى بكر فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله تعالى منهم بلال ولم يرد شيأ من الخير الا أعانه الله عليه ودعا أيضا فقال (وأصلح لى فى ذريتى) فأجاب الله تعالى دعاءه فلم يكن له ولد الا آمن فاجتمع له اسلام أبويه وأولاده جميعا بأدرك أبواه وابنه عبد الرحمن وابن ابنه أبو عتيق النبى صلى الله عليه وسلم وهم مؤمنون ولم يكن ذلك لاحد من الصحابة * (تنبيه) * أصلح يتعدى بنفسه لقوله تعالى وأصلحنا له زوجه وانما تعدى بفى لتضمنه معنى الطف بى فى ذريتى أو لانه جعل الذرية ظرفا للاصلاح والمعنى هب لى الصلاح فى ذريتى وأوقعه فيهم (انى تبت) أى رجعت (اليك) عن كل ما يقدح فى الاقبال عليك وأكده اعلاما بأن حاله فى الاقبال على الشهوات حال من يبعد منه الاقلاع فينكر اخباره به وكذا قوله (وانى من المسلمين) أى الذين أسلموا ظواهرهم وبواطنهم فانقادوا أتم انقياد (أولئك) أى العالون الرتبة القائلون هذا القول أبو بكر وغيره (الذين يتقبل) بأسهل وجه (عنهم) وأشار بصيغة التفعل الى أنه يعمل فى قبوله عمل المعتنى والتقبل من الله هو ايجاب الثواب له على عمله وقوله تعالى (أحسن ما عملوا) أى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا (فان قيل) كيف قال الله تعالى أحسن والله تعالى يتقبل الاحسن وما دونه (أجيب) بوجهين أحدهما ان المراد بالاحسن الحسن كقوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وكقوله الناقص والاشج أعدلا بنى مروان أى عادلا بنى مروان ثانيهما ان الحسن من الاعمال هو المباح الذى لا يتعلق به ثواب ولا عقاب والاحسن ما يغاير ذلك وهو المندوب أو الواجب ولما كان الانسان محل النقصان وان كان محسنا نبه على ذلك بقوله تعالى (ويتجاوز) أى بوعد لا خلف فيه (عن سيآتهم) أى فلا يعاقبهم عليها وقرأ حفص وحمزة والكسائى بنون مفتوحة قبل الفوقية من يتقبل ونصب أحسن ونون مفتوحة قبل الفوقية من يتجاوز والباقون بياء مضمومة قبل الفوقية من يتقبل ويتجاوز ورفع أحسن وقوله تعالى (فى أصحاب الجنة) فى محل الحال أى كائنين فى جملة أصحاب الجنة كقولك أكرمنى الامير فى أصحابه أى فى جملتهم وقيل خبر مبتدا مضمر أى هم فى أصحاب الجنة وقوله تعالى (وعد الصدق) مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة لان قوله تعالى أولئك الذين يتقبل عنهم فى معنى الوعد فيكون قوله تعالى يتقبل ويتجاوز وعدا من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز والمعنى يعامل من صفته ما قدمنا بهذا الجزاء وذلك وعد من الله تعالى صدق لكونه مطابقا للواقع (الذى كانوا يوعدون) أى يقع لهم الوعد به فى الدنيا ممن لا أصدق منهم وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام حين أخبروا بقوله تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات * ولما وصف تعالى الولد البار بوالديه وصف الولد العاق لهما بقوله تعالى (والذى قال لوالديه أف لكما) والمراد به الجنس وقال ابن عباس والسدى نزلت فى عبد الله بن أبى وقيل فى عبد الرحمن بن أبى بكر قبل اسلامه كان أبواه يدعوانه الى الاسلام وهو يأبى وهو قوله أف لكما وقال الحسن وقتادة

انها نزلت فى كل كافر عاق لوالديه وعلى ثبوت انها نزلت فيمن تقدم لا ينافى ان المراد الجنس فان خصوص السبب لا يوجب التخصيص وفى أف قرا آت ذكرت فى سورة بنى اسرائيل (أتعدانني) أى على سبيل الاستمرار بالتجديد فى كل وقت وقرأ هشام بادغام النون الاولى فى الثانية وفتح الياء نافع وابن كثير وسكنها الباقون (أن أخرج) أى من مخرج ما يخرجني من الارض بعد أن غبت فيها وصرت ترابا يحييني كما كنت أول مرة (وقد) أى والحال انه قد (خلت) أى مضت على سنن الموتى (القرون) أى الامم الكثيرة مع صلابتهم (من قبلي) أى قرنا بعد قرن وتطاولت الازمان ولم يخرج منهم أحد من القبور (وهما) أى والحال انهما كلما قال لهما ذلك (يستغيثان الله) أى يطلبان بدعائهما من له جميع صفات الكمال أن يغيثهما بالهامه قبول كلامهما ويقولان ان لم ترجع (ويلك) أى هلاك بمعنى هلكت (آمن) أى أوقع الايمان الذى لا ايمان غيره وهو الذى ينقذ من كل هلكة ويوجب كل فوز بالتصديق بالبعث وبكل ما جاء عن الله تعالى ثم عللا أمرهما على هذا الوجه مؤكدين فى مقابلة انكاره بقولهما (ان وعد الله) أى الملك المحيط بجميع صفات الكمال (حق) أى ثابت أعظم ثبات لانه لو لم يكن حقا لكان نقصا من جهة الاخلاف الذى لا يرضاه لنفسه أقل الملوك فكيف بملك الملوك (فيقول) مسببا عن قولهما ومعقبا له (ما هذا) أى الذى تذكرانه من البعث (الا أساطير) أى أكاذيب (الاولين) التى كتبوها (أولئك) أى البعداء من العقل والمروأة وكل خير (الذين حق) أى ثبت ووجب (عليهم القول) أى الكامل فى بابه بأنهم أسفل السافلين وهذا كما قال البيضاوى يرد على من قال انها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر لانه يدل على أنه من أهل الذلك وقد جب عنه ان كان لاسلامه وقال البقاعى وهذا يكذب من قال انها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فانه أسلم وصار من أكابر الصحابة فحقت له الجنة ولما أثبت لهم هذه الشنعة بين كثرة من شاركهم فيها بقوله تعالى (فى) أى كائنين فى (أمم) أى خلائق كانوا بحيث يقصدهم الناس ويتبع بعضهم بعضا (قد خلت) أى تلك الامم (من قبلهم) وكانوا اقدوتهم وأدخل الجار لان المحكوم عليه بعض السالفين (من الجن) لان العرب كانت تستعظمهم وتستجيرهم وذلك لانهم يتظاهرون لهم ويؤذونهم ولم يقطع أذاهم لهم وتسلطهم عليهم ظاهرا وباطنا الا القرآن فانه أحرقهم بأنواره وجلاهم عن تلك البلاد بتجلى آثاره (والانس) ولا نفعتهم كثرتهم ولا أغنت عنهم قوتهم وقوله تعالى (انهم) أى كلهم (كانوا) أى جبلة وطبعا وخلقا لا يقدرون على الانفكاك عنه (خاسرين) أى عريقين فى هذا الوصف تعليل للحكم على الاستئناف (ولكل درجات مما عملوا) قال ابن عباس يريد من سبق الى الاسلام فهو أفضل ممن تخلف عنه ولو ساعة وقال مقاتل ولكل واحد من الفريقين يعنى البار بوالديه والعاق لهما درجات فى الايمان والكفر والطاعة والمعصية (فان قيل) كيف يجوز اطلاق لفظ الدرجات على أهل النار وقد روى الجنة درجات والنار دركات (أجيب) من وجوه أحدها ان ذلك على جهة التغليب وثانيها قال ابن زيد درج أهل الجنة تذهب علوا ودرج أهل النار تذهب هبوطا وثالثها المراد بالدرجات المراتب المتزايدة

فدرجات أهل الجنة فى الخيرات والطاعات ودرجات أهل النار فى المعاصى والسيآت وقوله تعالى (وليوفيهم أعمالهم) أى جزاءها معلله محذوف تقديره جازاهم بذلك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام وعاصم بالياء التحتية اى الله والباقون بالنون أى نحن وقوله تعالى (وهم لا يظلمون) أى شيأ بنقص للمؤمنين ولا بزيادة للكافرين اما استئناف واما حال مؤكدة (ويوم) أى واذكر يا أفضل الخلق لهؤلاء يوم يعرضون هكذا كان الاصل ولكنه تعالى أظهر الوصف الذى أوجب لهم الخزى بقوله تعالى (يعرض الذين كفروا على النار) أى يصلون لهيبها ويقلبون فيها كما يعرض اللحم الذى يشوى وقيل تعرض عليهم النار ليروا أهوالها مقولا لهم على سبيل التنديم والتقريع والتوبيخ والتشنيع لانهم لم يذكروه تعالى حق ذكره عند شهواتهم بل نالوها عند مخالفة أمره سبحانه وتعالى (أذهبتم طيباتكم) أى لذاتكم باتباعكم الشهوات وقرأ ابن كثير وابن عامر قبل الدال بهمزتين مفتوحتين الاولى محققة بلا خلاف والثانية مسهلة بخلاف عن هشام وأدخل هشام بينهما ألفا ولم يدخل ابن كثير وابن ذكوان والباقون بهمزة واحدة محققة (فى حياتكم الدنيا) أى القريبة الدنية المؤذن وصفها لمن يعقل بحياة أخرى بعدها فكان سعيكم فى حركاتكم وسكناتكم لاجلها حتى نلتموها (واستمتعتم) أى طلبتم وأوجدتم انتفاعكم (بها) وجعلتموها غاية حظكم فى رفعتكم ونعمتكم والمعنى أن ماقدر لكم من الطيبات والدرجات فقد استوفيتموه فى الدنيا فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شئ منها وعن عمر رضى الله عنه لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ولكنى أستبقى طيباتى قال الواحدى ان الصالحين يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل لان هذه الآية لا تدل على المنع من التمتع لانها وردت فى حق الكافر وانما وبخ الله تعالى الكافر لانه تمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ويدل على ذلك قوله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق نعم لا ينكر ان الاحتراز عن النعم أولى لان النفس اذا اعتادت النعم صعب عليها الاحتراز والانقياد وحينئذ ربما جل الميل الى تلك الطيبات على فعل مالا ينبغى روى عمر قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو على رمال حصير قد أثر الرمال بجنبه فقلت يارسول الله ادع الله تعالى أن يوسع على أمتك فان فارس والروم قد وسع عليهم وهم يعبدون غير الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا وعن عائشة رضى الله عنها قالت ماشبع آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنها أنها قالت كان يأتى علينا الشهر مانوقد فيه نارا وماهو الا الماء والتمر وعن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير والاحاديث فى هذا كثيرة ولما كانت الاستهانة بالاوامر والنواهى استهانة بيوم الجزاء سبب عنه قوله تعالى (فاليوم تجزون) أى على اعراضكم عنا (عذاب الهون) أى الهوان العظيم المجتمع الشديد الذى فيه ذل وخزى (بما كنتم) أى جبلة وطبعا (تستكبرون)

أى تطلبون الترفع وتوجدونه على الاستمرار (فى الارض) التى هى لكونها ترابا وموضوعة على الزوال والخراب أحق شئ بالتواضع والذل والهوان (بغير الحق) أى الامر الذى يطابقه الواقع وهو أوامرنا ونواهينا (وبما كنتم) أى على الاستمرار (تفسقون) أى بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله تعالى * (تنبيه) * دلت الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لان الله تعالى علل عذابهم بأمرين أولهما الكفر وثانيهما الفسق وهذا الفسق لابد وأن يكون مغايرا لذلك الكفر لان العطف يوجب المغايرة فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب فى حقهم ولا معنى للفسق الا ترك المأمورات وفعل المنهيات * ولما كان قوم عاد أكثر أهل مكة أموالا وقوة وجاها من أهل مكة ذكر تعالى قصتهم ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه فى الدنيا فقال عز من قائل (واذكر) يا أشرف الرسل لهؤلاء الذين لا يتعظون (أخا عاد) وهو أخوك هود عليه السلام الذى كان بين قوم أشد من قومك ولم يخف عاقبتهم وأمرهم ونهاهم ونجيناه منهم فهو لك قدوة وفيه اسوة واقومك فى قصدهم اياك بالاذى من أمره موعظة وقوله تعالى (اذ أنذر) بدل اشتمال من أخا (قومه) أى الذين لهم قوة على القيام فيما يحاولونه (بالاحقاف) قال ابن عباس واد بين عمان ومهرة وقال مقاتل كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بموضع يقال له مهرة اليها تنسب الابل المهرية وكانوا أهل عمد سيارة فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا الى منازلهم وكانوا من قبيلة ارم قال قتادة ذكر لنا ان عادا كانوا احيا من اليمن كانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر (وقد) أى والحال أنه قد (خلت النذر) أى مرت ومضت الرسل الكثيرون (من بين يديه) أى قبل هود كنوح وشيث وآدم عليهم السلام (ومن خلفه) أى بعده والمعنى أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو انذاره والجملة حال أو اعتراض ولما أشار الى كثرة الرسل ذكر وحدتهم فى أصل الدعاء فقال مفسرا للانذار معبرا بالنهى (أن لا تعبدوا) أى أيها العباد المنذرون بوجه من الوجوه شيأ من الاشياء (الا الله) أى الملك الذى لا ملك غيره ولا خالق سواه ولا منعم الا هو فانى أراكم تشركون به من لم يشركه فى شئ من تدبيركم والملك لا يقر على مثل هذا (انى أخاف عليكم) لكونكم قومى وأعز الناس على (عذاب يوم عظيم) أى لا يدع جهة الا ملأها عذابه ان أصررتم على ما أنتم فيه من الشرك (قالوا) له فى جوابه منكرين عليه (أجئتنا) أى يا هود (لتأفكنا) أى لتصرفنا عن وجه أمرنا الى قفاه (عن آلهتنا) فلا نعبدها ولا نعتد بها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب سموا الوعيد وعدا (ان كنت) أى يقال عنك كونا ثابتا (من الصادقين) فى أنك رسول من الله وانه يأتينا بما تخافه علينا من العذاب ان أصررنا (قال) أى هود مكذبا لهم فى نسبتهم اليه ادعاء شئ من ذلك (انما العلم) أى المحيط بكل شئ عذابكم وغيره (عند الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال فهو ينزل علم ما توعدون به على من يشاء ان شاء ولا علم لى الى الآن ولا لكم بشئ من ذلك ولا قدرة (وأبلغكم) أى فى الحال والاستقبال وقرأ أبو عمرو بسكون الباء الموحدة وتخفيف اللام والباقون بفتح الموحدة وتشديد اللام

(ماأرسلت به) ممن لامرسل فى الحقيقة غيره سواء أكان وعدا أم وعيدا أم غيرذلك ولم يذكر الغاية لان ماأرسل به صالح لهم ولغيرهم (ولكنى أراكم) أى أعلمكم علما كالرؤية وقرأ نافع والبزى وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وأمال الالف بعد الراء ورش بين بين وأمالها أبو عمرو وحمزة والكسائى محضة والباقون بالفتح (قوما تجهلون) أى باستعجال العذاب فان الرسل بعثوا مبلغين منذرين لامقترحين (فلما رأوه) أى العذاب الذى توعدهم به (عارضا) أى سحابا أسود بارزا فى الافق ظاهر الامر عند من له أهلية النظر حال كونه قاصدا اليهم (مستقبل أوديتهم) أى طالبا الان يكون مقابلا لها وموجدا لذلك (قالوا) على عادة جهلهم مشيرين اليه بأداة القرب الدالة على أنهم فى غاية الجهل لان جهلهم به استمر حتى كاد أن يواقعهم (هذا عارض) أى سحاب معترض فى عرض السماء أى ناحيتها (ممطرنا) قال المفسرون كان حبس عنهم المطر أياما فساق الله تعالى اليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فقال الله تعالى (بل هو) أى هذا العارض الذى ترونه (ما استعجلتم به) أى طلبتم العجلة فى اتيانه وقوله تعالى (ريح) بدل من ما (فيها عذاب أليم) أى شديد الايلام روى أنها كانت تحمل الفسطاط فترفعه فى الجو وتحمل الظعينة فى الجو فترفعها وهودجها حتى ترى كأنها جرادة وكانوا يرون ما كان خارجا عن منازلهم من الناس والمواشى تطير بهم الريح بين السماء والارض ثم تقذف بهم ثم وصف تلك الريح بقوله تعالى (تدمر) أى تهلك اهلاكا عظيما شديدا (كل شئ) أى أتت عليه من الحيوان والناس وغيرهما هذا شأنها فان سلم منها كهود عليه السلام ومن آمن به فسلامته أمر خارق للعادة كما أن أمرها فى اهلاك كل مامرت عليه أمر خارق للعادة (بأمر ربها) أى المبدع لها والمربي والمحسن بالانتقام من أعدائه (فان قيل) مافائدة اضافة الرب الى الريح (أجيب) بأن فائدة ذلك الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد بعظيم قدرته لانها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده وذكر الامر وكونها مأمورة من جهته عزوعلا يعضد ذلك ويقويه فليس من تأثير الكواكب والقرانات قيل ان أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى أن أول ماعرفوا به انه عذاب أليم انهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والارض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم وأمال الله عليهم الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية ايام لهم أنين ثم أمر الله تعالى الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمت بهم فى البحر وروى ان هودا عليه السلام لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا الى جنب عين تنبع وكانت الريح التى تصيبهم ريحا طيبة هادية والريح التى تصيب قوم عاد ترفعهم من الارض وتطير بهم الى السماء وتضربهم على الارض وعن ابن عباس اعتزل هود ومن معه فى حظيرة مايصيبهم من الريح الا مايلين على الجلود وتلذه الانفس وانها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة وأثر المعجزة انما ظهر فى تلك الريح

من

من هذا الوجه قال صلى الله عليه وسلم ما أمر الله تعالى خازن الريح أن يرسل على عاد الا مقدار الخاتم وذلك القدر أهلكهم بكليتهم كما قال تعالى (فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم) أى فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لو حضرت بلادهم لا ترى الا مساكنهم وقرأ عاصم وحمزة بالياء التحتية المضمومة ورفع النون من مساكنهم لقيامه مقام الفاعل والباقون بالتاء الفوقية مفتوحة مبنيا للفاعل ونصب مساكنهم مفعولا به وأمال الالف بعد الراء ورش بين بين وأبو عمرو وحمزة والكسائى محضة وكذلك من القرى (كذلك) أى مثل هذا الجزاء الهائل فى أصله أو جنسه أو نوعه أو شخصه من الاهلاك (نجزى) بعظمتنا دائما اذا شئنا (القوم المجرمين) أى العريقين فى الاجرام الذين يقطعون ما حقه الوصل وذلك الجزاء هو الاهلاك على هذا الوجه الشنيع وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى الريح فزع وقال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به واذا رأى مخيلة أى سحابة قام وقعد وجاء وذهب وتغير لونه فنقول له يا رسول الله ما تخاف فيقول انى أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا هذا عارض ممطرنا فاحذروا أيها العرب مثل ذلك ان لم ترجعوا (فان قيل) قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم فكيف يحصل التخويف (أجيب) بأن ذلك كان قبل نزول الآية ثم أخبر الله تعالى عن مكنة عاد بقوله سبحانه (ولقد مكناهم) أى تمكينا تظهر به عظمتنا (فيما) أى فى الذى (ان) نافية أى ما (مكناكم) يا أهل مكة (فيه) من قوة الابدان وطول الاعمار وكثرة الاموال وغيرها ثم انهم مع ذلك ما نجوا من عذاب الله تعالى فكيف يكون حالكم * (تنبيه) * قال البقاعى وجعل النافى ان لانها أبلغ من ما لان ما تنفى تمام الفوت لتركبهما من الميم والالف التى حقيقة ادراكها فوت تمام الادراك وان تنفى أدنى مظاهر مدخولها فكيف بما وراءه من تمامه لان الهمزة أول مظهر لفوت الالف والنون لمطلق الاظهار هذا الى ما فى ذلك من عذوبة اللفظ وصونه عن ثقل التكرار الى غير ذلك من بديع الاسرار اه وقال الزمخشرى ان نافية أى فيما ما مكناكم فيه الا أن ان أحسن فى اللفظ لما فى مجامعة ما مثلها من التكرار المستبشع ومثله مجتنب ألا ترى أن الاصل فى مهما ماما فلبشاعة التكرير قلبوا الالف هاء ولقد أغث أبو الطيب فى قوله * لعمرك ما ما بان منك لضارب * وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال * لعمرك ما ان بان منك لضارب * وقد جعلت ان صلة مثلها فيما أنشده الاخفش رحمه الله تعالى

يرجى المرء ما ان لا يراه * وتعرض دون أدناه الخطوب

وتؤول بانا مكناهم فى مثل ما مكناكم فيه والوجه هو الاول (وجعلنا لهم) أى على ما اقتضته عظمتنا (سمعا) وأفرده لقلة التفاوت فيه (وأبصارا) وجمعه لكثرة التفاوت فى أنوار الابصار وكذا فى قوله تعالى (وأفئدة) أى فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعا فما استعملوه فى سماع الدلائل وأعطيناهم أبصارا فما استعملوها فى دلائل ملكوت السموات والارض وأعطيناهم أفئدة أى قلوبا فما استعملوها فى طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى الى طلب

الدنيا ولذاتها فلاجرم قال تعالى (فما أغنى عنهم) فى حال ارسالنا اليهم الرحمة على لسان هود عليه السلام ثم النقمة بيد الريح (سمعهم) وأكد النفى بتكرير النافى بقوله تعالى (ولا أبصارهم) وكذا فى قوله تعالى (ولا أفئدتهم) لما أردنا اهلاكهم وأكد باثبات الجار بقوله تعالى (من شئ) أى من الاشياء وان قل وقال الجلال المحلى انّ من زائدة وقوله تعالى (اذ) معمولة لاغنى وأشربت معنى التعليل أى لانهم (كانوا) أى طبعا وخلقا (يجحدون) أى يكررون على مر الزمان الجحد (بآيات الله) أى الانكار لما يعرب عن دلائل الملك الاعظم (وحاق) أى نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) لانهم كانوا يطلبون نزول العذاب على سبيل الاستهزاء ولما تم المراد من الاخبار بهلاكهم على مالهم من المكنة العظيمة ليتعظ بهم من سمع أمرهم اتبعهم من كان مشاركا لهم فى التكذيب فشاركهم فى الهلاك فقال تعالى (ولقد أهلكنا) أى بمالنا من العظمة (ما حولكم) يا أهل مكة (من القرى) كحجر ثمود وعاد وأرض سدوم وسبأ ومدين والايكة وقوم لوط وفرعون وأصحاب الرس وغيرهم ممن فيهم معتبر (وصرفنا) أى بينا (الآيات) أى الحجج البينات (لعلهم) أى الكفار (يرجعون) أى ليكونوا عند من يعرف حالهم فى رؤية الآيات حال من يرجع عن الغى الذى كان يرتكبه لتقليد أو شبهة كشفتها الآيات وفضحتها الدلالات فلم يرجعوا فكان عدم رجوعهم سبب اهلاكهم (فلولا) أى فهلا ولم لا (نصرهم الذين) أى نصر هؤلاء المهلكين الذين (اتخذوا) أى اجتهدوا فى صرف أنفسهم عن دواعى العقل حتى أخذوا (من دون الله) أى الملك الذى هو أعظم من كل عظيم (قربانا) أى متقربا بهم الى الله تعالى (آلهة) معه وهم الاصنام ومفعول اتخذوا الاول ضمير محذوف يعود على الموصول أى هم وقربانا المفعول الثانى وآلهة بدل منه (بل ضلوا) أى غابوا (عنهم) وقت نزول النقمة وقرأ الكسائى بادغام اللام فى الضاد والباقون بالاظهار (وذلك) أى اتخاذهم الاصنام آلهة قربانا (افكهم) أى كذبهم (وما كانوا) أى على وجه الدوام لكونه فى طباعهم (يفترون) أى يتعمدون كذبه لانّ اصرارهم عليه بعد مجئ الآيات لا يكون الا كذلك لانّ من نظر فيها مجردا نفسه عن الهوى اهتدى (واذ) أى واذكر اذ (صرفنا) أى أملنا (اليك نفرا) وهو اسم يطلق على مادون العشرة وسيأتى فى ذلك خلاف (من الجن) أى جن نصيبين اليمن أوجن نينوى (يستمعون القرآن) أى يطلبون سماع الذكر الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس وأنت فى صلاة الفجر فى نخلة تصلى بأصحابك (فلما حضروه) أى صاروا بحيث يستمعونه (قالوا) أى قال بعضهم لبعض ورضى الآخرون (أنصتوا) أى اسكتوا وميلوا بكليا تكم واستمعوا احفظا للادب على بساط الخدمة وفيه تأدب مع العلم فى تعلمه قال القشيرى فأهل الحضور صفتهم الذبول والسكون والهيبة والوقار * (تنبيه) * ذكروا فى كيفية هذه الواقعة قولين أحدهما قال سعيد بن جبير كان الجن تستمع فلما رجموا قالوا هذا الذى حدث فى السماء انما حدث لشئ فى الارض فذهبوا يطلبون السبب وكان قد اتفق أنّ النبى صلى الله عليه وسلم لما أيس من أهل مكة أن يجيبوه خرج الى الطائف ليدعوهم الى الاسلام

فلما انصرف الى مكة وكان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن فمر به نفر من أشراف جن نصيبين كان ابليس بعثهم ليعرف السبب الذى أوجب حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن فعرفوا ان ذلك هو السبب والقول الثانى ان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن ويدعوهم الى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن فصرف الله تعالى اليه نفرا من الجن يستمعون منه القرآن وينذرون قومهم * روى أن الجن كانوا يهودا لان فى الجن مللا كما فى الانس من اليهود والنصارى وعبدة الاوثان والمجوس وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون * سئل ابن عباس هل للجن ثواب قال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى أبواب الجنة ويزدحمون على أبوابها وروى الطبرانى عن ابن عباس ان أولئك الجن كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا الى قومهم وعن زر بن حبيش كانوا تسعة أحدهم زوبعة وعن قتادة ذكر لنا أنهم صرفوا اليه من نينوى وروى فى الحديث ان الجن ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون واختلفت الروايات هل كان عبد الله بن مسعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن أولا وروى عن أنس قال كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم وهو بظاهر المدينة اذ اقبل شيخ يتوكأ على عكازة فقال النبى صلى الله عليه وسلم انها المشية جنى ثم أتى فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم انها النغمة جنى فقال الشيخ أجل يارسول الله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم من أى الجن أنت فقال يارسول الله أنا هام بن هيم بن لاقيس بن ابليس فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا أرى بينك وبين ابليس الا أبوين قال أجل يارسول الله قال كم أتى عليك من العمر قال أكلت عمر الدنيا الا القليل كنت حين قتل هابيل غلاما ابن اعوام فكنت اتشرف على الآكام وأصطاد الهام وأورش بين الانام فقال النبى صلى الله عليه وسلم بئس العمل فقال يارسول الله دعنى من العتب فانى ممن آمن مع نوح عليه السلام وعاتبته فى دعوته فبكى وأبكانى وقال والله انى لمن النادمين واعوذ بالله أن اكون من الجاهلين ولقيت هودا فعاتبته فى دعوته فبكى وأبكانى وقال والله انى لمن النادمين واعوذ بالله ان اكون من الجاهلين ولقيت ابراهيم وآمنت به وكنت بينه وبين الارض اذ رمى به فى المنجنيق وكنت معه فى النار اذ ألقى فيها وكنت مع يوسف اذ ألقى فى الجب فسبقته الى قعره ولقيت موسى بن عمران بالمكان الاثير وكنت مع عيسى بن مريم عليهما السلام فقال لى ان لقيت محمدا فاقرأ عليه السلام قال أنس فقال النبى صلى الله عليه وسلم وعليه السلام وعليك يا هام ما حاجتك قال ان موسى علمنى التوراة وان عيسى علمنى الانجيل فعلمنى القرآن قال أنس فعلمه النبى صلى الله عليه وسلم سورة الواقعة وعم يتساءلون واذا الشمس كورت وقل يا أيها الكافرون وسورة الاخلاص والمعوذتين (فلما قضى) أى فرغ من قراءته (ولوا) أى رجعوا (الى قومهم) الذين فيهم قوة القيام بما يحاولونه (منذرين) أى مخوفين لهم ومحذرين عواقب الضلال بامر من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس جعلهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم رسلا الى قومهم * ولما كان كأنه قيل ما قالوا لهم فى انذارهم قيل (قالوا يا قومنا) مترفقين لهم ومترفقين بهم بذكر ما يدل على أنهم منهم يهمهم ما يهمهم (انا سمعنا) أى ما بيننا وبين القارئ واسطة واشاروا الى انه لم ينزل بعد التوراة شئ جامع لجميع ما يراد منه مغن عن جميع الكتب غيرهذا وبذلك عرفوا أنه ناسخ لجميع الشرائع بقولهم (كتابا) أى ذكرا جامعا لا كما نزل بعد التوراة على بنى اسرائيل (أنزل) أى ممن لا منزل غيره وهو ملك الملوك لان عليه من رونق الكتب الالهية ما يوجب القطع لسامعه بأنه منها فكيف اذا انضم الى ذلك الاعجاز وعلموا قطعا بعربيته أنه عربى وبأنهم كانوا يضربون مشارق الارض ومغاربها ويسمعون قراءة الناس لما يحدثونه من الحكم والخطب والكهانة والرسائل والاشعار وأنه مباين لجميع ذلك (من بعد موسى) فلم يقتدوا بما أنزل بين هذا الكتاب وبين التوراة من الانجيل وما قبله لانه لا يساوى التوراة فى الجمع وروى عن عطاء والحسن انما قالوا ذلك لانهم كانوا يهودا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الجن ما سمعوا أمر عيسى فلذلك قالوا من بعد موسى ولما أخبروا بأنه منزل أتبعوه ما يشهد له بالصحة بقولهم (مصدقا لما بين يديه) أى من جميع كتب بنى اسرائيل الانجيل وما قبله ثم بينوا تصديقه بقولهم (يهدى الى الحق) الامر الثابت الذى يطابق الواقع فلا يقدر أحد على ازالة شئ مما يخبر به الكامل فى جميع ذلك (والى طريق) موصل الى المقصود (مستقيم) لا عوج فيه (يا قومنا) الذين لهم قوة العلم والعمل (أجيبوا داعى الله) أى الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال فان دعوة هذا الداعى عامة لجميع الخلق فالاجابة واجبة على كل من بلغه أمره وفى هذه الآية دلالة على انه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن كما كان مبعوثا الى الانس (وآمنوا به) أى أوقعوا التصديق بسبب الداعى وهو النبى صلى الله عليه وسلم لا بسبب آخر فان المفعول معه مفعول مع الله تعالى (فان قيل) قوله تعالى أجيبوا داعى الله أمر باجابته فى كل ما أمر به فيدخل فيه الامر بالايمان فكيف قال وآمنوا به (اجيب) بانه انما ذكر الايمان على التعيين لانه أهم الاقسام واشرفها وقد جرت العادة فى القرآن العظيم بان يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه اشرف أنواعه كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال وقوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح * ولما أمر تعالى بالايمان ذكر فائدته بقوله تعالى (يغفر لكم) أى الله تعالى (من ذنوبكم) أى بعضها من الشرك وما شابهه مما هو حق لله تعالى وكذا ما يجازى به صاحبه فى الدنيا بالعقوبات والنكبات والهموم ونحوها مما أشار اليه قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وأما المظالم فلا تغفر الا برضا أربابها وقيل من زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم وقيل بل فائدته أن كلمة من هنا لابتداء الغاية والمعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهى الى غفران ما صدر عنكم من ترك الاولى والاكمل (ويجركم) أى يمنعكم منع الجار لجاره لكونكم بالتحيز الى داعيه صرتم من حزبه (من عذاب أليم) قال ابن عباس فاستجاب لله تعالى لهم من قومهم نحو سبعين رجلا من الجن فرجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوافوه فى البطحاء فقرأ عليهم القرآن

وأمرهم ونهاهم *(تنبيه)* اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أولا فقيل لا ثواب لهم الا النجاة من النار ويقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم واحتجوا على ذلك بقوله تعالى ويجركم من عذاب أليم وهو قول أبي حنيفة والصحيح أن حكمهم حكم بني آدم يستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية وهو قول ابن أبي ليلى ومالك وتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا نحو ذلك قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون لان كل دليل دل على أن البشر يستحقون الثواب فهو بعينه قائم في حق الجن والفرق بينهما بعيد جدا وذكر النقاش في تفسيره حديثا أنهم يدخلون الجنة فقيل هل يصيبون من نعيمها قال يلهمهم الله تعالى تسبيحه وذكره فيصيبهم من لذته ما يصيب بني آدم من نعيم الجنة وقال أرطاة بن المنذر سألت ضمرة بن حبيب هل للجن ثواب قال نعم وقرأ لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وقال عمر بن عبد العزيز ان مؤمني الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها *ولما أفهم كلامهم أنهم ان لم يجيبوا ينتقم منهم بالعذاب الاليم أتبعوه ماهو أغلظ انذارا منه فقالوا (ومن لا يجب) أي لا يجدد منه أن يجيب (داعي الله) أي الملك الذي لا كفء له (فليس بمعجز) أي لا يعجز الله عز وجل بالهرب منه (في الارض) فيفوته فانه أي مكان سلك فيها فهو في ملكه وملكه وقدرته محيطة به (وليس له من دونه) أي الله تعالى الذي لا مجير عليه (أولياء) يفعلون لاجله ما يفعل القريب مع قريبه من الذب عنه والاستشفاع له والافتداء (أولئك) البعيدون من كل خير (في ضلال مبين) ظاهر في نفسه أنه ضلال مظهر لكل أحد قبح احاطته بهم *(تنبيه)* ههنا همزتان مضمومتان من كلمتين ولا نظير لهما في القرآن العظيم قرأ قالون والبزي بتسهيل الاولى كالواو مع المد والقصر وسهل الثانية ورش وقنبل بعد تحقيق الاولى ولهما أيضا ابدال الثانية ألفا وأسقط الاولى أبو عمرو مع المد والقصر والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد (أولم يروا) أي يعلموا علما هو في الوضوح كالرؤية (أن الله) ودل على ما دل عليه هذا الاسم الاعظم بقوله تعالى (الذي خلق السموات) على ما احتوت عليه بما يعجز الوصف من العبر (والارض) على ما اشتملت عليه من الآيات المدركة بالعيان والخبر (ولم يعي) أي ولم يتعب ولم يعجز (بخلقهن) أي بسبب من الاسباب فانه لو حصل له شئ من ذلك أدى الى نقصان فيهما أو في احداهما *وأكد الانكار المتضمن للنفي بزيادة الجار في خبران فقال (بقادر) أي قدرة عظيمة (على أن يحيي) أي على سبيل التجديد مستمرا (الموتى) والامر فيهم لكونه اعادة وكونه جزأ يسيرا مما ذكر اختراعه أصغر شأنا وأسهل صنعا وأجاب بقوله تعالى (بلى) لان هذا الاستفهام الانكاري في معنى النفي أي قد علموا أنه قادر على ذلك علما هو في ايقانه كالبصر لانهم يعلمون أنه المخترع لذلك وأن الاعادة أهون من الابتداء في مجاري عاداتهم ولكنهم عن ذلك غافلون لانهم عنه معرضون *وقوله تعالى (انه على كل شئ قدير) تقرير للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود كانه لما صدر السورة بتحقيق المبدا اراد ختمها باثبات المعاد *ولما أثبت البعث بما أقام من الدلائل ذكر بعض ما يحصل في يومه من الاهوال بقوله تعالى (ويوم) أي واذكر يوم (يعرض) أي بأيسر أمر

من أوامرنا (الذين كفروا) أى ستروا بغفلتهم وعناديهم الادلة الظاهرة (على النار) عرض الجند على الملك فيسمعون من تغيظها وزفيرها ما لو قدر أن أحدا يموت فى ذلك اليوم لماتوا من معاينته وهائل رؤيته ثم يقال لهم (أليس هذا) أى الامر الذى كنتم به توعدون ولرسلنا فى اخبارهم به تكذبون (بالحق) أى الامر الثابت الذى يطابقه الواقع أم هو خيال وسحر (قالوا) أى مصدقين حيث لا ينفعهم التصديق (بلى) وما كفاهم البدار الى تكذيب أنفسهم حتى أقسموا عليه بقولهم (وربنا) أى انه لحق هو اثبت الاشياء وليس فيه شئ مما يقارب السحر *(تنبيه)* المقصود من هذا الاستفهام التهكم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده (قال فذوقوا العذاب) أى باشروه مباشرة الذائق باللسان ومعنى الامر الاهانة بهم والتوبيخ لهم ثم صرح بالسبب فقال تعالى (بما كنتم) أى خلقا مستمرا (تكفرون) فى دار العمل* ولما قرر تعالى المطالب الثلاثة وهى التوحيد والنبوة والمعاد وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجرى مجرى الوعظ والنصيحة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لان الكفار كانوا يؤذونه ويوحشون صدره فقال تعالى (فاصبر) أى على مشاق ماترى فى تبليغ الرسالة وعلى أذى قومك قال القشيرى الصبر هو الوثوق بحكم الله تعالى والثبات من غير بث ولا استكراه (كما صبر أولوا العزم) أى الثبات والجد فى الامور وقال ابن عباس رضى الله عنهما أولوا الحزم وقوله تعالى (من الرسل) يجوز فيه أن تكون من تبعيضية وعلى هذا فالرسل أولو عزم وغير أولى عزم ويجوز أن تكون للبيان وعليه جرى الجلال المحلى فكلهم على هذا أولو عزم قال ابن زيد كل الرسل كانوا أولى عزم وحزم ورأى وكمال عقل وانما أدخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما يقال اشتريت أكسية من الخز وأردية من البز وقال بعضهم الانبياء كلهم أولوا العزم الا يونس لعلة كانت فيه ألا ترى أنه قيل لنبينا صلى الله عليه وسلم ولا تكن كصاحب الحوت وقال قوم هم نجباء الرسل وهم المذكورون فى سورة الانعام وهم ثمانية عشر لقوله تعالى بعد ذكرهما ولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقال الكلبى هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشفة مع أعداء الله تعالى وقيل هم ستة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهم المذكورون على النسق فى سورة الاعراف والشعراء وقال مقاتل هم ستة نوح صبر على أذى قومه وابراهيم صبر على النار واسحق صبر على الذبح ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره ويوسف صبر فى الجب والسجن وأيوب صبر على الضر وقال ابن عباس وقتادة هم نوح وابراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع فهم مع محمد صلى الله عليه وسلم خمسة ونظمهم بعضهم فى بيت فقال

محمد ابراهيم موسى كليمه * فعيسى فنوح هم اولوا العزم فاعلم

قال البغوى ذكرهم الله تعالى على التخصيص فى قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وفى قوله تعالى شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا الآية وعن مسروق قال قالت عائشة رضى الله عنها قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة ان الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ياعائشة ان الله لم يرض من أولى العزم

الا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ولم يرض الا أن كافهم ما كافهم قال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وانى والله لابد لى من طاعته والله لاصبرن كما صبروا ولاجهدن ولا قوة الا بالله * ولما أمره الله تعالى بالصبر الذى هو من أعلى الفضائل نهاه عن العجلة التى هى من أمهات الرذائل فقال عز من قائل (ولا تستعجل لهم) أى لا تطلب العجلة وتوجدها بأن تفعل شيأ مما يسوءهم فى غير حينه الاليق به فانه نازل بهم فى وقته لامحالة قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم ضجر من قومه وأحب أن ينزل الله تعالى العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال * ثم أخبر أن ذلك العذاب اذا نزل بهم يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال تعالى (كأنهم يوم يرون ما يوعدون) أى من العذاب بهم فى الآخرة (لم يلبثوا) أى فى الدنيا (الا ساعة من نهار) استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار أو كأنه لم يكن لهول ما عاينوا ولان ما مضى وان كان طويلا صار كأنه لم يكن قال الشاعر

كأن شيأ لم يكن اذا مضى * كأن شيأ لم يكن اذا أتى

(تنبيه) تم الكلام ههنا وقوله تعالى (بلاغ) خبر مبتدا محذوف قدره بعضهم تلك الساعة بلاغ لدلالة قوله تعالى الا ساعة من نهار وبعضهم هذا أى القرآن بلاغ أى تبليغ من الله تعالى الحكيم وجرى عليه الجلال المحلى (فهل) أى لا (يهلك) أى بالعذاب اذا نزل (الا القوم) أى الذين هم أهل القيام بما يحاولونه من اللدد (الفاسقون) أى العريقون فى ادامة الخروج عن الانقياد والطاعة وهم الكافرون قال الزجاج تأويله لا يهلك مع فضل الله ورحمته الا القوم الفاسقون ولهذا قال قوم ما فى الرجاء لرحمة الله أقوى من هذه الآية * وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاحقاف كتب الله له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا حديث موضوع

(سورة محمد صلى الله عليه وسلم مكية)

وتسمى القتال والذين كفروا وهى ثمان وثلاثون آية وخمسمائة وتسع وثلاثون كلمة وألفان وثلثمائة وتسعة وأربعون حرفا

(بسم الله) الملك الاعظم الذى أقام جنده للذب عن حماه (الرحمن) الذى عمت رحمته تارة بالبرهان وتارة بالسيف واللسان (الرحيم) الذى خص حزبه بالحفظ فى طريق الجنان واختلف فى قوله تعالى (الذين كفروا) من هم فقيل هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعقبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم وقيل كفار قريش وقيل أهل الكتاب وقيل كل كافر لانهم ستروا أنوار الادلة وضلوا على علم (وصدوا) اى امتنعوا بأنفسهم ومنعوا غيرهم لعراقتهم فى الكفر (عن سبيل الله) أى الطريق الرحب المستقيم الذى شرعه الملك الاعظم (أضل) أى أبطل ابطالا عظيما يزيل العين والاثر (أعمالهم) كاطعام الطعام وصلة

الارحام وفك الاسارى وحفظ الجوار وغير ذلك فلا يرون لها فى الآخرة ثوابا ويجزى عليها فى الدنيا من فضله تعالى *(تنبيه)* أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة * ولما ذكر تعالى أهل الكفر معبرا عنهم بأدنى طبقاتهم ليشمل من فوقهم ذكر أضدادهم كذلك ليعم من كان منهم من جميع الفرق بقوله تعالى (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان باللسان (وعملوا) تصديقا لدعواهم (الصالحات) أى الاعمال الكاملة فى الصلاح بتأسيسها على الايمان * ولما كان هذا الوصف لا يخص أتباع محمد صلى الله عليه وسلم خصهم بقوله تعالى (وآمنوا) أى مع ذلك (بما نزل) أى ممن لا منزل الا هو منجما مفرقا ليجددوا بعد الايمان به اجمالا الايمان بكل نجم منه (على محمد) النبى الامى العربى القرشى المكى المدنى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وهو) أى هذا الذى نزل عليه صلى الله عليه وسلم موصوف بأنه (الحق) أى الكامل فى الحقيقة ينسخ ولا ينسخ كائنا (من ربهم) أى المحسن اليهم بارساله أما احسانه الى أمته فواضح وأما سائر الامم فبكونه هو الشافع فيهم الشفاعة العظمى يوم القيامة وأمته هى الشاهدة لهم جملة معترضة وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى وهو بسكون الهاء والباقون بضمها (كفر عنهم سيئاتهم) أى ستر أعمالهم السيئة بالايمان وعملهم الصالح (وأصلح بالهم) أى حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد (ذلك) أى الامر العظيم الذى ذكرهنا من جزاء الطائفتين (بأن) أى بسبب أن (الذين كفروا) أى ستروا مرائى عقولهم (اتبعوا) أى بغاية جهدهم ومعالجتهم (الباطل) من العمل الذى لا حقيقة له فى الخارج تطابقه وذلك هو الابتداع والميل مع الهوى فضلوا (وأن الذين آمنوا) أى ولو كانوا فى أقل درجات الايمان (اتبعوا) أى بغاية جهدهم (الحق) أى الذى له واقع يطابقه وذلك هو الحكمة وهو العلم بموافقة العمل وهو معرفة المعلوم على ما هو عليه (من ربهم) أى الذى أحسن اليهم بايجادهم وما سببه من حسن اعتقادهم فاهتدوا (كذلك) أى مثل هذا الضرب العظيم الشأن (يضرب الله) أى الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (للناس) أى كل من فيه قوة الاضطراب والحركة (أمثالهم) أى امثال أنفسهم أو امثال الفريقين المتقدمين أو امثال جميع الاشياء التى يحتاجون الى بيان أمثالها مبينا لها مثل هذا البيان ليأخذ كل أحد من ذلك جزاء حاله فقد علم من هذا المثل أن من اتبع الباطل أضل الله تعالى عمله ووفر سيئاته وأفسد باله ومن اتبع الحق عمل به ضد ذلك كائنا من كان وهو غاية الحث على طلب العلم فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل بها * ولما بين تعالى أن الذين كفروا أضل أعمالهم وان اعتبار الانسان بالعمل ومن لا عمل له فهو همج اعدامه خير من وجوده سبب عنه قوله تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا) أيها المؤمنون فى المحاربة وقوله تعالى (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافا الى المفعول ضما الى التأكيد الاختصار والحكمة فى اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الاعضاء أن المؤمن هنا ليس بدافع انما هو رافع وذلك لان من يدفع الصائل لا ينبغى أولا ان يقصد

مقتله بل يتدرج ويضرب غير المقتل فان اندفع فذاك ولا يرقى الى درجة الاهلاك فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم من وجه الارض فاذا ينبغى أن يكون قصدكم أولا الى قتلهم بخلاف دفع الصائل فالرقبة أظهر المقاتل وقطع الحلقوم والاوداج مستلزم للموت لكن فى الحرب لا يتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة فى الحرب ففى ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولاسيما فى الحرب وفى قوله تعالى لقيتم ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لان قوله تعالى لقيتم يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قوله لقيكم ولذلك قال تعالى فى غير هذا الموضع فاقتلوهم حيث ثقفتموهم (حتى اذا أثخنتموهم) أى أكثرتم فيهم القتل وهذه غاية الامر بضرب الرقاب لا لبيان غاية القتل (فشدوا) أى فأمسكوا عن القتل وأسروهم (الوثاق) أى ما يوثق به الاسرى وقوله تعالى (فاما منا بعد) أى فى جميع ازمان ما بعد الاسر (واما فداء) فيه وجهان أشهرهما أنهما منصوبان على المصدر بفعل لا يجوز اظهاره لان المصدر متى سيق تفصيلا لعاقبة جملة وجب نصبه باضمار فعل لا يجوز اظهاره والتقدير فاما أن تمنوا منا أى باطلاقهم من غير شئ واما أن تفتدوا فداء أى تفادوهم بمال أو أسرى مسلمين ومثل هذا قول القائل

لاجهدن فاما درء واقعة * تخشى واما بلوغ السؤل والامل

والثانى قاله أبو البقاء انهما مفعولان بهما العامل مقدر تقديره أولوهم منا واقبلوا منهم فداء قال أبو حيان وليس باعراب نحوى وقوله تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) أى أثقالها من السلاح وغيره بأن يسلم الكافر أو يدخل فى العهد مجاز وقيل هو من مجاز الحذف أى أهل الحرب وهو غاية للقتل والاسر والمعنى أثخنوا المشركين بالقتل والاسر حتى تدخل الملل كلها فى الاسلام ويكون الدين كله لله فلا يكون بعده جهاد ولا قتال وذلك عند نزول عيسى عليه السلام وجاء فى الحديث الجهاد ماض منذ بعثنى الله الى أن يقاتل آخر أمتى الدجال وقال الفراء حتى لا يبقى الا مسلم أو مسالم * (تنبيه) * اختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قوم هى منسوخة بقوله تعالى فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم وبقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واليه ذهب قتادة والضحاك والسدى وابن جريج وهو قول الاوزاعى وأصحاب الرأى وقالوا لا يجوز المن على من وقع فى الاسر من الكفار ولا الفداء وذهب آخرون الى ان الآية محكمة والامام بالخيار فى الرجال العاقلين من الكفار اذا وقعوا فى الاسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم فيطلقهم بغير عوض أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين واليه ذهب ابن عمر وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثورى والشافعى وأحمد واسحق قال ابن عباس رضى الله عنهما لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الاسارى فاما منا بعد واما فداء وهذا هو الاصح والاختيار لانه عمل به صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه فى سارية من

سوارى المسجد فخرج اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما عندك يا ثمامة فقال عندى خير يا محمد ان تقتلنى تقتل ذا دم وان تنعم تنعم على شاكر وان كنت تريد المال فسل ما شئت حتى كان الغد فقال له صلى الله عليه وسلم ما عندك يا ثمامة قال عندى ما قلت لك ان تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى اذا كان بعد الغد قال ما عندك يا ثمامة قال عندى ما قلت لك قال أطلقوا ثمامة فانطلق الى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله والله ما كان على وجه الارض وجه أبغض الى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه الى والله ما كان من دين أبغض الى من دينك فأصبح دينك أحب الدين الى والله ما كان من بلد أبغض الى من بلدك فقد أصبح بلدك أحب البلاد الى وان خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل صبوت قال لا ولكن أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم وعن عمران بن حصين قال أسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف وقوله تعالى (ذلك) يجوز أن يكون خبر مبتدا مضمر أى الامر ذلك وان ينتصب باضمار افعلوا قال الرازى ويحتمل أن يقال ذلك واجب أو مقدم كما يقول القائل ان فعلت فذاك أى فذاك مقصود ومطلوب قال المفسرون ومعناه ذلك الذى ذكرت وبينت من حكم الكفار (ولو يشاء الله) أى الملك الاعظم الذى له جميع الكمال (لانتصر منهم) أى بنفسه من غير أحد انتصارا عظيما فيهلكهم بأن لا يبقى منهم أحدا وكفاكم أمرهم بغير قتال (ولكن) أمركم بذلك (ليبلو) اى يختبر (بعضكم ببعض) أى يفعل فى ذلك فعل المختبر ليرتب عليه الجزاء فيصير من قتل من المؤمنين الى الجنة ومن قتل من الكافرين الى النار (فان قيل) فما فائدة الابتلاء مع حصول العلم عند المبتلى فاذا كان الله تعالى عالما بجميع الاشياء فأى فائدة فيه (أجيب) بأن هذا السؤال كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ولم خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر وجوابه لا يسئل عما يفعل * ونزل يوم أحد لما فشا فى المسلمين القتل والجراحات (والذين قتلوا فى سبيل الله) أى لاجل تسهيل طريق الملك الاعظم المتصف بجميع صفات الكمال (فلن يضل) أى لا يضيع ولا يبطل (أعمالهم) وقرأ أبو عمرو وحفص بضم القاف وكسر التاء مبنيا للمفعول على معنى أنه أصاب القتل بعضهم كقوله تعالى قتل معه ربيون والباقون بفتح القاف والتاء وألف بينهما أى جاهدوا (سيهديهم) أى أيام حياتهم فى الدنيا الى أرشد الامور وفى الآخرة الى الدرجات بوعد لا خلف فيه (ويصلح بالهم) أى يرضى خصماءهم ويقبل أعمالهم (ويدخلهم الجنة) أى الكاملة فى النعيم (عرفها) أى أعلمها وبينها (لهم) أى بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة قال مجاهد يهتدى أهل الجنة الى مساكنهم منها لا يخطؤن كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا ويستدلون عليها وعن مقاتل ان الملك الذى وكل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شئ أعطاه الله تعالى وعن ابن

عباس رضى الله عنهما عرفها لهم طيبها مشتق من العرف وهو الريح الطيبة يقال طعام معرف أى مطيب (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بذلك (ان تنصروا الله) أى دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم (ينصركم) أى على عدوكم فانه الناصر لا غيره من عدد أو عدد (ويثبت أقدامكم) أى فى القيام بحقوق الاسلام والمجاهدة مع الكفار ولما بين تعالى ما لاهل الايمان بين ما لاهل الكفران بقوله تعالى (والذين كفروا) وهو مبتدأ أى ستروا ما دل عليه العقل وقادت اليه الفطرة الاولى وخبره تعسوا يدل عليه قوله تعالى (فتعسا لهم) أى هلاكا لهم وخيبة من الله تعالى وقال ابن عباس أى بعدا لهم وقيل التعس الجر على الوجه والنكس الجر على الرأس وقوله تعالى (وأضل أعمالهم) عطف على تعسوا أى ابطلها وان كانت ظاهرة الاتقان لاجل تضييع الاساس وهو الايمان وقوله تعالى (ذلك) يجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجار بعده أو خبر مبتدأ مضمر أى الامر ذلك (بأنهم) أى بسبب أنهم (كرهوا ما أنزل الله) أى الملك الاعظم الذى لا نعمة الا منه من القرآن وما أنزل الله تعالى فيه من التكاليف والاحكام لانهم قد ألفوا الاهمال واطلاق العنان فى الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم والذى أنزله من القرآن وغيره هو روح الوجود الذى لا بقاء بدونه فلما كرهوا الروح الاعظم بطلت أرواحهم فتبعتها أشباحهم وهو معنى قوله تعالى مسببا بيانا لمعنى اضلال أعمالهم (فأحبط) أى أبطل ابطالا لا اصلاح معه (أعمالهم) بسبب أنهم أفسدوا بنياتهم فصارت وان كانت صورها صالحة ليس لها أرواح لكونها واقعة على غير ما أمر به الله الذى لا أمر الا له ولا يقبل من العمل الا ما حده ورسمه ثم خوف الكفار بقوله تعالى (أفلم يسيروا فى الارض) أى التى فيها آثار الوقائع (فينظروا كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (الذين من قبلهم دمر الله) أى أوقع الملك الاعظم الهلاك (عليهم) بما عم أهاليهم وأموالهم وكل من رضى أفعالهم أو مقالهم وعدل عن أن يقول ولهؤلاء الى قوله تعالى (وللكافرين) تعميما وتعليقا للحكم بالوصف وهو الغراقة فى الكفر (أمثالها) أى أمثال عاقبة من قبلهم (ذلك) أى الامر العظيم وهو نصر المؤمنين وقهر الكافرين (بأن الله) أى بسبب أن الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال (مولى) أى ولى وناصر (الذين آمنوا) فهو يفعل معهم بماله من الجلال والجمال ما يفعل القريب بقريبه الحبيب له قال القشيرى ويصح أن يقال أرجى آية فى القرآن هذه الآية لان الله تعالى لم يقل انه هادى العباد وأصحاب الاوراد والاجتهاد بل علق ذلك بالايمان (وان الكافرين) أى الغريقين فى هذا الوصف (لا مولى لهم) فيدفع العذاب عنهم وهذا لا يخالف قوله تعالى وردوا الى الله مولاهم الحق فان المولى فيه بمعنى المالك ثم ذكر سبحانه وتعالى ما للفريقين بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع الصفات (يدخل الذين آمنوا) أى أوقعوا التصديق (وعملوا) تصديقا لما ادعوا أنهم أوقعوه (الصالحات) أى الطاعات (جنات) أى بساتين عظيمة الشأن موصوفة بأنها (تجرى من تحتها) أى من تحت قصورها (الانهار) فهى دائمة النمو والبهجة والنضارة والثمرة (والذين كفروا يتمتعون) أى فى الدنيا بالملاذ كما تتمتع الانعام

ناسين ما أمر الله تعالى به معرضين عن كتابه (ويأكلون) على سبيل الاستمرار (كما تأكل الانعام) أى أكل التذاذ ومرح من أى موضع كان وكيف الاكل من غير تمييز الحرام من غيره اذ ليس لهم همة الا بطونهم وفروجهم لا يلتفتون الى الآخرة لان الله تعالى أعطاهم الدنيا ووسع عليهم فيها وفرغهم لها حتى شغلتهم عنه هوانا بهم وبغضا لهم فيدخلهم نارا وقودها الناس والحجارة كما قال تعالى (والنار مثوى لهم) أى منزل ومقام ومصير ولما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله تعالى أفلم يسيروا فى الارض ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبى صلى الله عليه وسلم مثلا تسلية له فقال تعالى (وكأين) أى وكم (من قرية) أريد أهلها أى كذبت رسولها (هى أشد قوة) وأكثر عددا (من قريتك) مكة أى أهلها وقوله تعالى (التى أخرجتك) روعى فيه لفظ قرية وقوله تعالى (أهلكناهم) أى بأنواع العذاب روعى فيه معنى قرية الاولى (فلا ناصر لهم) يدفع عنهم الهلاك كذلك نفعل بهم فاصبر كما صبر رسلهم قال ابن عباس لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الغار التفت الى مكة وقال أنت أحب أرض الله الى الله وأحب بلاد الله الى ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك فأنزل الله تعالى هذه (أفمن كان) أى فى جميع أحواله (على بينة) أى حجة ظاهرة البيان فى أنها حق (من ربه) أى المربى والمدبر له المحسن اليه وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (كمن زين له) بتزيين الشيطان بتسليطنا له عليه (سوء عمله) فرآه حسنا وهم أبو جهل والكفار (واتبعوا أهواءهم) فى ذلك ولا شبهة لهم فى شئ من أعمالهم السيئة فضلا عن دليل * ولما تكرر ذكر الجنة فى هذه السورة بين صفتها بقوله تعالى (مثل) أى صفة (الجنة) أى البساتين العظيمة التى تستر داخلها من كثرة أشجارها (التى وعد المتقون) أى الذين جعلتهم تقواهم بعد الوقوف عن فعل لم يدل عليه دليل على أن اسمعوا منك فانتفعوا بما دللتهم عليه من أمور الدين *(تنبيه)* اختلف فى اعراب هذه الآية على أوجه أحدها أن مثل مبتدأ وخبره مقدر وقدره النضر ابن شميل مثل الجنة ما تسمعون فما تسمعون خبره وفيها أنهار مفسر له وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة والجملة بعدها أيضا مفسرة للمثل ثانيها أن مثل زائدة تقديره الجنة التى وعد المتقون (فيها أنهار) ونظير زيادة مثل هنا زيادة اسم فى قول القائل

الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ثالثها ان مثل الجنة مبتدأ والخبر قوله تعالى كمن هو خالد فى النار فقدره ابن عطية أمثل أهل الجنة كمن هو خالد فقدر حرف الانكار ومضافا ليصح وقدره الزمخشرى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد والجملة من قوله تعالى فيها أنهار حال من الجنة أى مستقرة فيها أنهار (من ماء) ولما كان ماء الدنيا يختلف الطعوم مع اتحاد الارض ببساطها وشدة اتصالها الدلالة على أن الفاعل ذلك قادر مختار وقد يكون آسنا أى متغيرا عن الماء الذى يشرب بريح منتنة من أصل خلقته أو من عارض عرض له من منبعه أو مجراه قال تعالى (غير آسن) أى ثابت له فى وقت ما شئ من الطعم أو اللون أو الريح بوجه من الوجوه وان طالت اقامته وان أضيف اليه غيره فانه لا يقبل التغير بوجه بخلاف ماء الدنيا فيتغير

لعارض وقرأ ابن كثير بقصر الهمزة والباقون بمدها وهما لغتان (وأنهار من لبن) ولما كان التغير غير محمود قال تعالى (لم يتغير طعمه) أى بنفسه عن أصل خلقته وان أقام مدى الدهر بخلاف لبن الدنيا لخروجه من الضرع وهذا يفهم أنهم لو أرادوا تغييره لشهوة اشتهوها تغير وانه مع طيبه على أنواع كثيرة كما كان فى الدنيا متنوعا (وأنهار من خمر) ولما كان الخمر يكره طعمها وانما يشربها شاربوها لاثرها وانه متى تغير طعمها زال اسمها عرف ان كل ما فى خمر الجنة فى غاية الحسن غير متعرض لطعم فقال تعالى (لذة) أى لذيذة (للشاربين) فى طيب الطعم وحسن العاقبة بخلاف خمر الدنيا فانها كريهة عند الشرب (وأنهار من عسل) ولما كان عسل الدنيا لا يوجد الا مخلوطا لخروجه من بطون النحل بالشمع وغيره من القذى قال تعالى (مصفى) أى هو صاف صفاء ما اجتهد فى تصفيته من ذلك وهذا الوصف ثابت له دائما لا انفكاك له فى وقت ما *(تنبيه)* قال أبو حيان فى حكمة ترتيب هذه الانهار انه بدأ بالماء الذى لا تستغنى عنه المشروبات ثم باللبن اذ كان يجرى مجرى المطعومات فى كثير من أوقات العرب ثم بالخمر لانه اذا حصل الرى والمطعم تشوقت النفس الى ما تتلذذ به ثم بالعسل لان فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المطعوم والمشروب اهـ (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى الخمر لذة للشاربين ولم يقل فى اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال فى العسل مصفى للناظرين (أجاب) الرازى بأن اللذة تختلف باختلاف الاشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال لذة للشاربين بأسرهم ولان الخمر كريهة الطعم فى الدنيا فقال لذة أى لا يكون فى خمر الآخرة كراهة الطعم وأما الطعم واللون فلا يختلف باختلاف الناس فان الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد لكن قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعما واحدا وكذلك اللبن فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجة *(فائدة)* روى عن كعب الاحبار أنه قال نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ونهر الفرات نهر لبنهم ونهر مصر نهر خمرهم ونهر سيحان وجيحان نهر عسلهم وهذه الانهار الاربعة تخرج من نهر الكوثر وقال ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ان كعب الاحبار سئل هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله عز وجل خبرا فقال اى والذى فلق البحر لموسى انى لاجده فى كتاب الله تعالى ان الله عز وجل يوحى اليه فى كل عام مرتين يوحى اليه عند جريه ان الله يأمرك أن تجرى فيجرى ما كتب الله تعالى له ثم يوحى اليه بعد ذلك يا نيل غر حميدا وعن كعب أيضا أنه قال أربعة أنهار من الجنة وضعها الله تعالى فى الدنيا فالنيل نهر العسل فى الجنة والفرات نهر الخمر فى الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن فى الجنة وعنه أيضا أنه قال النيل فى الآخرة يكون عسلا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل ودجلة فى الآخرة لبنا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل والفرات خمرا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل وجيحان ماء أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل وأصل هذا كله ما فى الصحيح فى وصف الجنة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة ولما كانت الثمار

ألذ مستطاب بعد منافع الشراب قال تعالى (ولهم فيها) وقوله تعالى (من كل الثمرات) فيه
وجهان أحدهما ان هذا الجار صفة لمقدر ذلك المقدر مبتدأ وخبره الجار قبله وهو لهم وفيها
متعلق بما تعلق به والتقدير ولهم فيها ازوجان من كل الثمرات كأنه انتزعه من قوله تعالى فيهما
من كل فاكهة زوجان وقدره بعضهم صنف والاول كما قال ابن عادل أليق ثانيهما أن من
مزيدة في المبتدا (ومغفرة من ربهم) فهو راض عنهم مع احسانه اليهم بما ذكر بخلاف
سيد العبيد في الدنيا فانه قد يكون مع احسانه اليهم ساخطا عليهم وقوله تعالى (كمن هو خالد
في النار) خبر مبتدا مقدر أي أمن هو في هذا النعيم كمن هو مقيم اقامة لا انقطاع معها
في النار التي لا ينطفئ لهيبها ولا ينفك أسيرها ووحده لان الخلود بعم من فيها على حد سواء
(وسقوا) أي عوض ماذكر من شراب أهل الجنة (ماء حميما) هو في غاية الحرارة (فقطع
امعاءهم) أي مصارينهم فخرجت من أدبارهم وهو جمع معى بالقصر وألفه عن ياء لقولهم
معيان (ومنهم من يستمع اليك) أي في خطب الجمعة وهم المنافقون والضمير في قوله تعالى
ومنهم يحتمل أن يعود الى الناس كما قال تعالى في سورة البقرة ومن الناس من يقول آمنا بالله
بعد ذكر الكفار ويحتمل أن يعود الى أهل مكة لان ذكرهم سبق في قوله تعالى هي أشد قوة من
قريتك التي أخرجتك ويحتمل أن يرجع الى معنى قوله تعالى هو خالد في النار وسقوا ماء حميما
أي ومن الخالدين في النار قوم يستمعون اليك (حتى اذا) أي واستمر بهم الحال لانفسهم
في الاصغاء حتى اذا (خرجوا) أي المستمعون والسامعون (من عندك قالوا) أي الفريقان
تعاميا واستهزاء (للذين أوتوا العلم) بسبب تهيئة الله تعالى لهم من صفاء الافهام بتجردهم
عن النفوس والحظوظ وانقيادهم لما تدعو اليه الفطرة الاولى منهم ابن مسعود وابن عباس
(ماذا قال) أي النبي صلى الله عليه وسلم (آنفا) أي قبيل افتراقنا وخروجنا عنه روى مقاتل
أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين فاذا خرجوا من المسجد سألوا
عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال محمد آنفا أي الساعة أي لا نرجع اليه وقرأ البزي بقصر
الهمزة بخلاف عنه والباقون بالمد وهما لغتان بمعنى واحد وهما اسما فاعل كحاذر وحذر
(أولئك) أي البعداء من كل خير (الذين طبع الله) أي الملك الاعظم (على قلوبهم) أي
بالكفر فلم يفهموا فهم انتفاع لان مثل هذا الجود لا يكون الابذلك (واتبعوا) أي بغاية
جهدهم (أهواءهم) أي في الكفر والنفاق فلذلك هم يتهاونون بأعظم الكلام ويقبلون
على جمع الحطام فهم أهل النار المشار اليهم قبل آية مثل الجنة بأنهم زين لهم سوء عملهم ثم ذكر
تعالى اضداد هؤلاء بقوله سبحانه (والذين اهتدوا) أي اجتهدوا باستماعهم منك في الايمان
والتسليم والاذعان بأنواع المجاهدات وهم المؤمنون (زادهم) أي الله الذي طبع على قلوب
الكفرة (هدى) بأن شرح صدورهم ونورها بأنوار المشاهدات فصارت أوعية للحكمة
(وآتاهم تقواهم) أي ألهمهم ما يتقون به النار قال ابن برجان التقوى عمل الايمان كما أن
اعمال الجوارح عمل الاسلام (فهل) أي ما (ينظرون) أي ينتظرون وجودها اشارة الى شدة

قربها

قربها (الا الساعة) وقوله تعالى (أن تأتيهم) أى الكافرين بدل اشتمال من الساعة أى ليس الامر الا أن تأتيهم (بغتة) أى فجأة من غير شعور بها ولا استعداد لها وقوله تعالى (فقد جاء اشراطها) جمع شرط بسكون الراء وفتحها قال أبو الاسود

فان كنت قد أزمعت بالصرم بيننا * فقد جعلت اشراط أوله تبدو

والاشراط العلامات ومنه اشراط الساعة وأشرط الرجل نفسه أى ألزمها أمورا قال أوس

فأشرط فيها نفسه وهو يقسم * فألقى بأسباب له وتوكلا

والشرط القطع أيضا مصدر شرط الجلد يشرطه شرطا قال السهيلى عن ابن سعد عن أنس قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم قال باصبعيه هكذا بالوسطى والتى تلى الابهام بعثت والساعة كهاتين وعن أنس قال لاحدثنكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من اشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الربا ويشرب الخمر وتقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد وعن أبي هريرة قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم اذ جاءه أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة فقيل كيف اضاعتها قال اذا وسد الامر لغير أهله فانتظروا الساعة ومن اشراطها انشقاق القمر المؤذن بآية الشمس فى طلوعها من مغربها وغير ذلك ومابعد مقدمات الشئ الا حضوره (فأنى) أى فكيف وأين (لهم) أى التذكر والاتعاظ والتوبة (اذا جاءتهم ذكراهم) أى الساعة لا تنفعهم نظيره قوله تعالى يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى ولما علم بذلك أن الذكرى غير نافعة اذا انقضت هذه الدار التى جعلت للعمل أوجاءت الاشراط المحققة الكاشفة لها سبب عنه أمر أعظم الخلق تكوينا ليكون لغيره تكليفا فقال (فاعلم أنه) أى الشأن العظيم (لا اله) أى لا معبود بحق (الا الله) أى اذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية فانه النافع يوم القيامة وقيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقال الحسن بن الفضل فازدد علما الى علمك وقال أبو العالية وابن عيينة معناه اذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا ملجأ ولا مفزع عند قيامها الا الى الله (واستغفر لذنبك) أى لاجله أمر بذلك مع عصمته لتستن به أمته وقد فعله قال صلى الله عليه وسلم انى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وقيل معنى قوله لذنبك أى لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات الذين ليسوا من أمتك بأهل بيت وقيل المراد النبى والذنب هو ترك الافضل الذى هو بالنسبة اليه ذنب وحسنات دون ذلك قال صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى كل يوم مائة مرة وقيل هو كل مقام عال ارتفع منه الى أعلى منه وقوله تعالى (وللمؤمنين والمؤمنات) فيه اكرام من الله تعالى لهذه الامة حيث أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لذنوبهم (والله) المحيط بجميع صفات الكمال (يعلم متقلبكم) أى تصرفكم لاشغالكم بالنهار ومكانه وزمانه

(ومثواكم) أى مأواكم الى مضاجعكم بالليل أى هو عالم بجميع أحوالكم لا يخفى عليه شئ منها فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم وقيل يعلم متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم فى الجنة والنار ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى وأن يستغفر ويسترحم وعن سفيان ابن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال ألم تسمع قوله تعالى حين بدأ به فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك فأمر بالعمل بعد العلم وقال اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو الى الآية (ويقول الذين آمنوا) طلبا للجهاد (لولا) أى هلا ولا التفات الى قول بعضهم ان لا زائدة والاصل لو (نزلت سورة) أى سورة كانت نسر بسماعها ونتعبد بتلاوتها ونعمل بما فيها (فاذا أنزلت سورة) أى قطعة من القرآن تكامل نزولها كلها تدريجا أو جملة وزادت على مطلوبهم فى الحسن بأنها (محكمة) أى مبينة لا يلتبس شئ منها بنوع اجمال ولا بنسخ لكونه جامعا للمعاسن فى كل زمان ومكان وقال قتادة كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة وهى أشد القرآن على المنافقين (وذكر فيها القتال) أى الامر به (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) أى شك وهم المنافقون (ينظرون اليك) شزرا بتحديق شديد كراهية منهم للجهاد وجبنا منهم عن لقاء العدو (نظر المغشى) والاصل نظرا مثل نظر المغشى (عليه من الموت) الذى هو نهاية الغشى فهو لا يطرف بعينه بل شاخص لا يطرف كراهية القتال من الجبن والخوف والمعنى أن المؤمن كان ينتظر نزول الاحكام والتكاليف ويطلب تنزيلها واذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشئ من العبادة خوفا من أن لا يؤهل لها وأما المنافق فاذا أنزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ذلك فحصل التباين بين الفريقين فى العلم والعمل وقوله تعالى (فأولى لهم) وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه وقوله تعالى (طاعة وقول معروف) مستأنف أى طاعة ومعروف خير لهم وأمثل أى لو أطاعوا وقالوا قولا معروفا لكان أمثل وأحسن وساغ الابتداء بالنكرة لانها وصفت بدليل قوله تعالى وقول معروف فانه موصوف فكأنه تعالى قال طاعة مخلصة وقول معروف خير وقيل يقول المنافقون قبل نزول السورة المحكمة طاعة رفع على الحكاية أى أمرنا طاعة أو منا طاعة وقول معروف حسن وقيل متصل بما قبله واللام فى قوله تعالى لهم بمعنى الباء أى فأولى بهم طاعة الله ورسوله وقول معروف بالاجابة أولى بهم وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء ثم سبب عنهما قوله تعالى مسندا الى الامر ماهو لاهله تأكيدا لمضمون الكلام (فاذا عزم الامر) أى فاذا أمر بالقتال الذى ذكر فى أول السورة وغيره من الاوامر أمر المجزوما به مقروحا عليه (فلو صدقوا الله) أى الملك الاعظم فى قولهم الذى قالوه فى طلب التنزيل (لكان) أى صدقهم له (خيرا لهم) أى من تعللهم وجملة لو جواب اذا نحو اذا جاءنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك وقيل محذوف تقديره فاصدق كذا قدره أبو البقاء وعزم الامر على سبيل المجاز كقوله *قد جدت الحرب فجدوا* أو يكون على حذف مضاف أى عزم أهل الامر وقوله تعالى (فهل عسيتم) فيه التفات عن الغيبة أى لعلكم (ان توليتم) أى أعرضتم عن الايمان والجهاد (أن تفسدوا) أى

توقعوا

توقعوا الافساد العظيم الذى يستمر تجدده (فى الارض) بالمعصية والبغى وسفك الدماء الذى يسخط الله تعالى ويغضبه أشد غضب على فاعله وتكونوا فى غاية الجراءة عليه وترجعوا الى الفرقة بعدما جمعكم الله بالاسلام وقرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها (وتقطعوا) أى تقطيعا كثيرا (أرحامكم) أى تعودوا الى أمر الجاهلية فى الاغارة من بعض على بعض وغير ذلك قال قتادة كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الارحام وعصوا الرحمن وقال بعضهم هو من الولاية قال الفراء يقول فهل عسيتم ان توليتم أمر الناس أن تفسدوا فى الارض بالظلم نزلت فى بنى أمية وبنى هاشم (أولئك) أى المفسدون (الذين لعنهم الله) أى طردهم أشد الطرد الملك الاعظم لما ذكر من افسادهم وتقطيعهم ثم سبب عن لعنهم قوله تعالى (فأصمهم) أى عن الانتفاع بما يسمعوه (وأعمى أبصارهم) أى عن الانتفاع بما يبصرون فليس سماعهم سماع ادراك ولا ابصارهم ابصار اعتبار فلا سماع ولا ابصار (أفلا يتدبرون) بقلوب منفتحة منشرحة ليهتدوا الى كل خير (القرآن) أى يجهدوا أنفسهم فى أن يتفكروا فى الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين الحق والباطل حتى لا يجسروا على المعاصى (فان قيل) قال تعالى فأصمهم وأعمى أبصارهم فكيف يمكنهم التدبر فى القرآن وهو كقول القائل للاعمى أبصر وللاصم اسمع (أجيب) بثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من بعض الاول تكليف ما لا يطاق جائز والله تعالى أمر من علم منه بأنه لا يؤمن أن يؤمن فلذلك جاز أن يصمهم ويعميهم ويذمهم على ترك التدبر الثانى أن قوله أفلا يتدبرون القرآن المراد منه الناس الثالث أن يقال ان هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة كأنه تعالى قال أولئك الذين لعنهم الله أى أبعدهم عنه أو عن الصدق أو الخير أو غير ذلك من الامور الحسنة فأصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يبصرون طريقة الاسلام فاذا هم بين أمرين اما لا يتدبرون القرآن فيبعدون عنه لان الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق والقرآن منهما هو الصنف الاعلى بل النوع الاشرف واما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مقفلة تقديره أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعدين (أم) أى بل (على قلوب) أى من قلوب الفاعلين لذلك (أقفالها) فلا تعى شيأ ولا تفهم أمرا ولا تزداد الا غباوة وعنادا لانها لا تقدر على التدبر قال القشيرى فلا يدخلها زواجر التنبيه ولا ينبسط عليها شعاع العلم فلا يحصل لهم فهم الخطاب والباب اذا كان مغلقا فكما لا يدخل فيه شئ لا يخرج ما فيه فلا كفرهم يخرج ولا الايمان الذى يدعون اليه يدخل اه (فان قيل) ما الفائدة فى تنكير القلوب (أجاب) الزمخشرى بقوله يحتمل وجهين أحدهما أن يكون للتنبيه على كونه موصوفا لان النكرة بالوصف أولى من المعرفة كأنه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة الثانى أن تكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لان النكرة لا تعم تقول جاءنى رجال فيفهم البعض وجاءنى الرجال فيفهم الكل والتنكير فى القلوب للتنبيه على الانكار الذى فى القلوب وذلك لان القلب اذا كان عارفا كان معروفا لان القلب خلق للمعرفة فاذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف قلبا

فلا يكون قلبا يعرف كما يقال للانسان المؤذى هذا ليس بانسان فكذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر واذا علم هذا فالتعريف اما بالالف واللام واما بالاضافة بأن يقال على قلوبهم أقفالها وهى لعدم عود فائدة اليهم كأنها ليست لهم (فان قيل) قد قال تعالى ختم الله على قلوبهم وقال تعالى فويل للقاسية قلوبهم (أجيب) بأن الاقفال أبلغ من الختم فترك الاضافة لعدم انتفاعهم رأسا (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى أقفالها بالاضافة ولم يقل أقفال كما قال قلوب (أجيب) بأن الاقفال كأنها ليست الا لها ولم يضف القلوب اليهم لعدم نفعها اياهم وأضاف الاقفال اليها لكونها مناسبة لها أو يقال أراد به اقفالا مخصوصة هى اقفال الكفر والعناد * ولما أخبر تعالى باقفال قلوبهم بين منشأ ذلك فقال تعالى (ان الذين ارتدوا) أى من أهل الكتاب وغيرهم (على أدبارهم) أى رجعوا كفارا (من بعد ما تبين) أى غاية البيان (لهم الهدى) أى بالدلائل التى هى من شدة ظهورها غنية عن بيان مبين (الشيطان سوّل لهم) أى زين وسهل لهم اقتراف الكبائر (وأملى) أى ومدّ الشيطان (لهم) فى الآمال والامانى بارادته تعالى فهو المضل لهم وقرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء والباقون بفتح الهمزة واللام وسكون الالف المنقلبة وأمالها حمزة والكسائى محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح قال فى الكشاف فان قلت من هؤلاء قلت اليهود كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى وهو نعته فى التوراة وقيل هم المنافقون (ذلك) أى اضلالهم (بأنهم) أى بسبب انهم (قالوا) أى المنافقون (للذين كرهوا) أى وهم المشركون (ما) أى جميع ما (نزل الله) أى الملك الاعظم على التدريج بحسب الوقائع تنزيلا فى اعجاز الخلق فى بلاغة التركيب مع فصاحة المفردات وجزالة التراكيب السهولة فى النطق والعذوبة فى السمع والملاءمة للطبع (سنطيعكم فى بعض الامر) أى أمر المعاونة على عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيط الناس عن الجهاد معه قالوا ذلك سرا فأظهره الله تعالى (والله) أى قالوا ذلك والحال ان الملك الاعظم المحيط بكل شئ علما وقدرة (يعلم) أى على ممر الاوقات (اسرارهم) أى كلها هذا الذى أفشاه عليهم وغيره مما فى ضمائرهم مما لم يبرز على ألسنتهم ولعلهم لم يعلموه فضلا عن أقوالهم التى تحدثت بها أنفسهم فبان بذلك انه لا أديان لهم ولا عقول ولا مروآت وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر الهمزة مصدرا والباقون بفتحها جمع سر (فكيف) أى حالهم (اذا توفتهم الملائكة) أى قبضت رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه أرواحهم كاملة وقوله تعالى (يضربون وجوههم وأدبارهم) تصوير لتوفيهم بما يخافون منه ويجبنون عن القتال له وعن ابن عباس لا يتوفى أحد على معصية الا يضرب من الملائكة فى وجهه ودبره وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى التوفى الموصوف (بأنهم) أى بسبب انهم (اتبعوا) أى عالجوا فطرتهم الاولى فى أن اتبعوا (ما أسخط الله) أى الملك الاعظم وهو الكفر وكتمان نعت الرسول صلى الله عليه وسلم وعصيان الامر (وكرهوا) بالاشراك (رضوانه) بكراهتهم أعظم أسباب رضاه وهو الايمان فهم لمادونه بالقعود عن الطاعات أكره لان ذلك ظاهر غاية الظهور فى أن فاعله غير معذور فى ترك

النظر فيه (فأحبط) أى فلذلك تسبب عنه انه أفسد (أعمالهم) أى الصالحة فأسقطها بحيث لم يبق لها وزن أصلا لتضييع الاساس من مكارم الاخلاق من القرى والاخذ بيد الضعيف والتصدق والاعتاق وغير ذلك من وجوه الارفاق (أم حسب الذين) وكان الاصل أم حسبوا اضعف عقولهم كما أفهمه التعبير بالحسبان ولكنه عبر تعالى بما دل على الآفة التى أدتهم الى ذلك بقوله تعالى (فى قلوبهم) أى التى اذا فسدت فسد جميع أجسادهم (مرض) أى آفة لاطب لها حسبانا هو فى غاية الثبات كما دل عليه التأكيد فى قوله تعالى (أن لن يخرج الله) أى يبرز من هو محيط بصفات الكمال للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التجديد والاستمرار وقوله تعالى (أضغانهم) جمع ضغن وهى الاحقاد أى احقادهم على المؤمنين فيبديها حتى تعرفوا نفاقهم وكانت صدورهم تغلى حنقا عليهم (ولو نشاء لاريناكهم) من رؤية البصر وجاء على الافصح من اتصال الضميرين ولو جاء على اريناك اياهم جاز وقال الرازى الاراءة هنا بمعنى التعريف وقوله تعالى (فلعرفتهم) عطف على جواب لو (بسيماهم) أى بسبب علاماتهم التى نجعلها غالبة عليهم عالية لهم فى اظهار ضمائرهم غلبة لا يقدرون على مدافعتها بوجه ولم يذكرهم سبحانه بأسمائهم ابقاء على قراباتهم المخلصين من الفتن وقوله تعالى (ولتعرفنهم) جواب قسم محذوف (فى لحن القول) أى الصادر منهم ولحنه فحواه أى معناه ومايدل عليه ويلوح عليه من ميله عن حقائقه الى عواقبه ومايؤل اليه أمره مما يخفى على غيرك قال أنس ماخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية شئ من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم وعن ابن عباس لحن القول هو قولهم مالنا ان أطعنا من الثواب ولا يقولون ماعلينا ان عصينا وقيل اللحن ان تلحن بكلامك أى تميله الى نحو من الانحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا * واللحن يعرفه ذووا الالباب

وقيل للمخطئ لاحن لانه يعدل بالكلام عن الصواب وقال أبو حيان كانوا اصطلحوا على ألفاظ يخاطبون بها الرسول صلى الله عليه وسلم مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح (والله) أى بماله من الكمال (يعلم أعمالكم) كلها الفعلية والقولية جليها وخفيها علما ثابتا غيبيا وعلما راشحا شهوديا يتجدد بحسب تجددها مستمرا باستمرار ذلك (ولنبلونكم) أى نعاملكم معاملة المبتلى بأن نخالطكم بما نأمر من العظمة بالاوامر الشديدة على النفوس والنواهى الكريهة اليها (حتى نعلم) أى بالابتلاء علما شهوديا يشهده غيرنا مطابقا لما كنا نعلمه علما غيبيا فنستخرج من سرائركم ماجبلناكم عليه مما لايعلمه أحد منكم بل ولا تعلمونه حق علمه (المجاهدين منكم) فى القتال وفى سائر الاعمال والشدائد والاهوال امتثالا للامر بذلك (والصابرين) أى على شدائد الجهاد وغيره من الانكاد قال القشيرى فبالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال فيظهر المخلص ويفتضح المماذق وينكشف المنافق اه وعن الفضيل انه كان اذا قرأ هذه الآية بكى وقال اللهم لاتبتلنا فانك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا (ونبلوا أخباركم) أى نخالطها

بأن تسلط عليها من يحرفها فيجعل حسنها قبيحا وقبيحها احسنا ليظهر للناس العامل لله والعامل للشيطان فان العامل لله اذا سمى قبيحه باسم الحسن علم ان ذلك احسان من الله تعالى اليه فيستحى منه ويرجع واذا سمى حسنه باسم القبيح وأشهر به علم ان ذلك لطف من الله تعالى به لكى لايدركه العجب أو يهاجمه الرياء فيزيد فى احسانه والعامل للشيطان يزداد فى القبائح لان شهوته عند الناس محط نظره ويرجع عن الحسن لانه لم يوصله الى ما أراد به من ثناء الناس عليه بالخير (ان الذين كفروا) أى غطوا ما دلتهم عليه عقولهم من ظاهر آيات الله لاسيما بعد ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم المؤيد بواضح المعجزات (وصدوا) أى امتنعوا ومنعوا غيرهم زيادة فى كفرهم (عن سبيل الله) أى الطريق الواضح الذى نهجه الملك الاعظم (وشاقوا الرسول) أى الكامل فى الرسالة المعروف غاية المعرفة (من بعد ما تبين) أى غاية البيان بالمعجز (لهم الهدى) بحيث صار ظاهرا بنفسه غير محتاج ما أظهره الرسول من الآيات الظاهرة وهم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر (لن يضروا الله) أى ملك الملوك (شيأ) بما هم عليه من الكفر والصد أولن يضروا رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته (وسيحبط) أى يفسد فيبطل بوعد لاخلف فيه (أعمالهم) من المحاسن لبنائها على غير أساس (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بألسنتهم (أطيعوا الله) أى الملك الاعظم تصديقا لدعواكم طاعة لشدة الاجتهاد فيها أنها الخالصة وعظم الرسول صلى الله عليه وسلم بافراده فقال تعالى (وأطيعوا الرسول) لان طاعته من طاعة الذى أرسله فاذا فعلتم ذلك حصنتم أنفسكم وأعمالكم فتكون صحيحة بنائها على الطاعة بتصحيح النيات وتصفيتها مع الاحسان للصورة فى الظاهر ليستكمل العمل صورة وروحا (ولا تبطلوا أعمالكم) قال عطاء بالشك والنفاق وقال الكلبى بالرياء والسمعة وقال الحسن بالمعاصى والكبائر وقال أبو العالية كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون انه لا يضر مع الايمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا الكبائر ان تحبط الاعمال وقال مقاتل لا تمنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبطلوا أعمالكم نزلت فى بنى أسد قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وعن حذيفة فخافوا ان تحبط الكبائر أعمالهم وعن ابن عمر كنا نرى انه ليس شئ من حسناتنا الا مقبولا حتى نزل ولا تبطلوا أعمالكم فقلنا ما هذا الذى يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فكففنا عن القول فى ذلك فكنا نخاف على من اصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها وعن قتادة رحم الله عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ وعن ابن عباس لا تبطلوا بالرياء والسمعة أعمالكم وعنه أيضا بالشك والنفاق وقيل بالعجب فان العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (ان الذين كفروا) أى أوقعوا الكفر بفعلهم فعل الساتر لما دل عليه العقل من آيات الله المرئية والمسموعة (وصدوا عن سبيل الله) أى الملك الاعلى عن الواضح المستقيم الموصل الى كل ما ينبغى ان يقصد كل من أراده بتماديهم على باطلهم واذاهم لمن خالفهم (ثم ماتوا) بعد المد لهم فى مضمارهم بالتطويل فى أعمارهم (وهم) أى

والحال انهم (كفارفلن يغفرالله) أى المحيط بجميع صفات الكمال الذى يمنع من تسوية المسىء بالمحسن (لهم) فلا يمحو ذنوبهم ولا يستر عيوبهم بل يفضح سرائرهم ويردهم على أعقابهم فى كل ما يتقلبون فيه لانهم قد أبطلوا أعمالهم بالخروج عن دائرة الطاعة فلم يبق لهم ما يغفر لهم بسببه وقد دلت هذه الآية على ما دلت عليه آية البقرة من ان احباط العمل فى المرتد مشروط بالموت على الكفر قيل نزلت فى أصحاب القليب قال الزمخشرى والظاهر العموم ثم رغب تعالى فى لزوم الجهاد محذرا من تركه بقوله تعالى (فلا تهنوا) أى تضعفوا ضعفا يؤدى بكم الى الهوان والذل (وتدعوا) أعداءكم (الى السلم) أى المسالمة وهى الصلح (وأنتم) أى والحال انكم (الاعلون) أى الظاهرون الغالبون قال الكلبى آخر الامر لكم وان غلبوكم فى بعض الاوقات وأصل الاعلون الاعليون فأعل وقرأ حمزة وشعبة بكسر السين والباقون بفتحها ثم عطف على الحال قوله تعالى (والله) أى الملك الاعظم الذى لا يعجزه شىء ولا كفء له (معكم) أى بنصره ومعونته وجميع ما يفعله الكريم اذا كان مع عبده ومن علم انه سيده وعلم انه قادر على ما يريد لم يبال بشىء أصلا (ولن يتركم) أى ينقصكم (أعمالكم) أى ثوابها كما يفعل مع أعدائكم فى احباط أعمالهم لانكم لم تبطلوا أعمالكم بجعل الدنيا محط أمركم (انما الحياة) وأشار الى دناءتها تنفيرا عنها بقوله (الدنيا) أى الاشتغال بها (لعب) أى أعمال ضائعة سافلة تزيد فى السرور وما يسرع اضمحلاله فيبطل من غير ثمرة (ولهو) أى مشغلة يطلب بها اثارة اللذة كالغناء (وان تؤمنوا وتتقوا) أى تخافوا فتجعلوا بينكم وبين غضبه سبحانه وتعالى وقاية من جهاد أعدائه وذلك من أعمال الآخرة (يؤتكم) أى الله سبحانه الذى فعل ذلك من أجله فى الدار الآخرة (أجوركم) أى ثواب كل أعمالكم بينائها على الاساس ولانه غنى لا ينقصه الاعطاء (ولا يسألكم) أى الله فى الدنيا (أموالكم) أى لنفسه ولا كلها لغيره بل يقتصر على جزء يسير مما تفضل به عليكم كربع العشر وعشره (ان يسألكموها) أى كلها (فيحفكم) أى يبالغ فى سؤالكم ويبلغ فيه الغاية حتى يستأصلها فيجهدكم بذلك فالاحفاء المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شىء يقال احفاه فى المسئلة اذا لم يترك شيأ من الالحاح واحفى شاربه استأصله (تبخلوا) فلا تعطوا شيأ (ويخرج أضغانكم) أى ما تضغنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير فى يخرج لله تعالى أو الرسول أو السؤال أو البخل واقتصر عليه الجلال المحلى قال قتادة علم الله تعالى ان فى مسئلة الاموال خروج الاضغان يعنى ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم فى الطلب لبخلتم كيف وأنتم تبخلون باليسير فكيف لا تبخلون بالكثير (ها أنتم) وحقر أمرهم بقوله تعالى (هؤلاء) أى أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى (تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) أى الملك الاعظم الذى يرجى خيره ولا يخشى غيره استئناف مقرر لذلك أوصلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما (فنكم من يبخل) أى ناس يبخلون وحذف القسم الآخر وهو ومنكم من يجود لان المراد الاستدلال على ما قبله من البخل ولما كان بخله عن اعطاء المال بجزء يسير منه انما طلبه لينفع المطلوب منه فقط زاد التعجب بقوله تعالى (ومن) أى

والحال انه من (يبخل) بذلك (فانما يبخل) بماله بخلا ضارا (عن نفسه) فان نفع الانفاق وضر البخل عائدان اليه والبخل يعدى بعن وعلى لتضمنه معنى الامساك والتعدى فانه امساك عمن يستحق (والله) أى الملك الاعظم الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (الغنى) وحده عن نفقتكم (وأنتم) أيها المكلفون خاصة (الفقراء) لاحتياجكم فى جميع أحوالكم اليه (وان تتولوا) عطف على وان تؤمنوا وتتقوا (يستبدل قوما غيركم) أى يخلق قوما سواكم على خلاف صفتكم راغبين فى الايمان والتقوى (ثم لايكونوا أمثالكم) فى التولى عنه والزهد فى الايمان كقوله تعالى ويأت بخلق جديد قيل هم الملائكة وقيل الانصار وعن ابن عباس كندة والنخع وعن الحسن العجم وعن عكرمة فارس والروم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القوم وكان سلمان الى جنبه فضرب على فخذه وقال هذا وقومه والذى نفسى بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس رواه الترمذى والحاكم وصححاه ومارواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة محمد كان حقا على الله تعالى ان يسقيه من أنهار الجنة حديث موضوع

(سورة الفتح مكية)

وهى تسع وعشرون آية وخمسمائة وستون كلمة وألفان وأربعمائة وثمانية وثلاثون حرفا (بسم الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (الرحمن) الذى عم خلقه بنعمه (الرحيم) الذى خص أهل وداده بمزيد فضله روى زيد بن أسلم عن أبيه ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض اسفاره فسأله عمر عن شئ فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه قال عمر فحركت بعيرى حتى تقدمت امام الناس وخشيت أن يكون نزل فى قرآن فما نشبت ان سمعت صارخا يصرخ بى فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال لقد أنزلت على الليلة سورة هى أحب الى مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ (انا فتحنا لك) أى بما لنا من العظمة التى لاتثبت لها الجبال (فتحا مبينا) أى لالبس فيه على احد واختلفوا فى هذا الفتح فروى عن أنس انه فتح مكة وقال مجاهد فتح خيبر والاكثرون على أنه صلح الحديبية قال أنس نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم انا فتحنا لك الى آخر الآية عند مرجعه من الحديبية وأصحابه مخالطوا الحزن والكآبة فقال نزلت على آية هى أحب الى من الدنيا جميعها فلما تلاها نبى الله صلى الله عليه وسلم قال رجل من القوم هنيأ مريأ قد بين الله لك ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فأنزل الله تعالى ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار حتى ختم الآية وقيل فتح الروم وقيل فتح الاسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان وقيل الفتح الحكم لقوله تعالى فافتح بيننا وبين قومنا بالحق وقوله تعالى ثم يفتح بيننا بالحق فمن قال هو فتح مكة قال لانه مناسب لآخر السورة التى قبلها من وجوه أحدها انه تعالى لما قال ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله الى ان قال ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه بين تعالى انه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل

لهم اضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا الضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم الاعلى أنفسهم ثانيها ما قال
تعالى والله معكم وقال تعالى وأنتم الاعلون بين برهانه بفتح مكة فانهم كانوا هم الاعلون ثالثها
ما قال تعالى فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وكان معناه لا تسألوا الصلح بل اصبروا فانكم تسئلوا
الصلح كما كان يوم الحديبية فكان المراد فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين
ومسلمين ومستسلمين (فان قيل) ان كان المراد فتح مكة فمكة لم تكن فتحت فكيف قال تعالى
فتحنا بلفظ الماضى (أجيب) من وجهين أحدهما فتحنا فى حكمنا وتقديرنا ثانيهما ما قدره
الله تعالى فهو كائن فأخبر بصيغة الماضى اشارة الى أنه أمر واقع لا دافع له وأما حجة قول
الاكثرين على انه صلح الحديبية فلما روى البراء قال تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة
فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة
والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على
شفيرها فدعا بإناء فتوضأ ثم تمضمض ودعا وصبه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه
وقيل جاش حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقال الشعبى فى قوله تعالى انا فتحنا لك
فتحا مبينا قال فتح الحديبية غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر واطعموا نخل خيبر وبلغ الهدى
محله وظهرت الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس قال الزهرى
ولم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك ان المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم
فتمكن الاسلام فى قلوبهم واسلم فى ثلاث سنين خلق كثير وكثر سواد الاسلام وقال البغوى انا
فتحنا لك فتحا مبينا أى قضينا لك قضاء مبينا وقال الضحاك أى بغير مال وكان الصلح من الفتح
واختلف قول المفسرين فى معنى اللام فى قوله تعالى (ليغفر لك الله) أى الملك الاعظم فقال
البيضاوى علة للفتح من حيث انه مسبب عن جهاد الكفار والسعى فى اعلاء الدين وازاحة
الشرك وتكميل النفوس الناقصة وقال البغوى قيل اللام لام كى معناه انا فتحنا لك فتحا
مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح وقال الجلال المحلى اللام للعلة الغائية
فمدخولها مسبب لا سبب وقال بعضهم انها لام القسم والاصل ليغفرن فكسرت اللام تشبيها
بلام كى وحذفت النون ورد هذا بأن اللام لا تكسر وبأنها لا تنصب المضارع قال ابن عادل وقد
يقال ان هذا ليس بنصب وانما هو بقاء الفتح الذى كان قبل نون التوكيد بقى ليدل عليها ولكنه
قول مردود وقال الزمخشرى فان قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة قلت لم يجعل علة
للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدد من الامور الاربعة وهى المغفرة واتمام النعمة وهداية الصراط
المستقيم والنصر العزيز كأنه قال يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين
واغراض الآجل والعاجل ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث انه جهاد للعدو سببا للمغفرة
والثواب اه قال ابن عادل وهذا الذى قاله مخالف لظاهر الآية فان اللام داخلة على المغفرة
فتكون المغفرة علة للفتح والفتح معلل بها فكان ينبغى أن يقول كيف جعل فتح مكة معللا
بالمغفرة ثم يقول لم يجعل معللا اه وقيل غير ذلك والاسلم ما اقتصر عليه الجلال المحلى واختلف أيضا

فى الذنب فى قوله تعالى (ماتقدم من ذنبك) فقال البقاعى أى الذى تقدم فى القتال أمرك بالاستغفار له وهو ماتنتقل عنه من مقام كامل الى مقام فوقه أكمل منه فتراه بالنسبة الى أكملية المقام الثانى ذنبا وكذا قوله تعالى (وماتأخر) وقال الرازى المغفرة المعتبرة لهادرجات كما ان الذنوب لهادرجات حسنات الابرار سيئات المقربين وقال عطاء الخراسانى ماتقدم من ذنبك يعنى ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك وماتأخر ذنوب أمتك بدعوتك وقال سفيان الثورى ماتقدم ماعملت فى الجاهلية وماتأخر كل شئ لم تعمله قال البغوى ويذكر مثل ذلك على سبيل التأكيد كما يقال أعطى من رآه ومن لم يره وقيل ماتقدم من حديث مارية وماتأخر من امرأة زيد وقيل المراد به ترك الافضل وقيل الصغائر على طريق من جوز الصغائر على الانبياء وقيل المراد بالمغفرة العصمة ومعنى قوله تعالى وماتأخر قيل انه وعد للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه لاذنب بعد النبوة وقيل ماتقدم على الفتح وماتأخر عنه وقيل المراد ذنب المؤمنين وقيل غير ذلك والاولى فى ذلك هو الاول واختلف أيضا فى النعمة فى قوله تعالى (ويتم نعمته عليك) فقال البقاعى بنقلتك من عالم الشهادة الى عالم الغيب ومن عالم الكون والفساد الى عالم الثبات والصلاح الذى هو أخص بحضرته وأولى برحمته واظهار أصحابك من بعدك على جميع أهل الملل وقال البيضاوى باعلاء الدين وضم الملك الى النبوة وقال الجلال المحلى بالفتح المذكور وقيل ان التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج وهو آخر التكاليف والتكليف نعمة وقيل باجلاء الارض لك عن معانديك فان من يوم الفتح لم يبق للنبى صلى الله عليه وسلم عدو فان بعضهم قتل يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح وقيل ويتم نعمته عليك فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فباستجابة دعائك فى طلب الفتح وفى الآخرة بقبول شفاعتك وقيل غير ذلك والاول أولى واختلف أيضا فى معنى الهداية فى قوله تعالى (ويهديك صراطا) أى طريقا (مستقيما) أى واضحا جليا فقال البقاعى أى بهداية جميع قومك * ولما كانت هدايتهم من هدايته أضافها سبحانه اليه اعلاما له أنها هداية تليق بجنابه الشريف سرورا له وقال البيضاوى فى تبليغ الرسالة واقامة مراسم الرياسة وقيل يهدى بك وقيل يديمك على الصراط المستقيم وقيل جعل الفتح سبب الهداية الى الصراط المستقيم لانه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بفوائده العاجلة والآجلة وقيل المراد التعريف أى لتعرف انك على صراط مستقيم (وينصرك الله) أى على ملوك الامم نصرا يليق اسناده الى اسمه المحيط بسائر العظم (نصرا عزيزا) أى يغلب المنصور به كل من ناواه ولا يغلبه شئ مع دوامه فلاذل بعده لان الامة التى تتصف به لا يظهر عليها أحد والدين الذى قضاه لاجله لاينسخه شئ (فان قيل) ان الله تعالى وصف النصر بكونه عزيزا والعزيز من له النصر (أجيب) من وجهين أحدهما ماقال الزمخشرى انه يحتمل وجوها ثلاثة الاول معناه نصرا ذا عزة كقولك فى عيشة راضية أى ذات رضا ثانيها وصف النصر بما يوصف به المنصور اسنادا مجازيا يقال له كلام صادق كما يقال لمتكلمه صادق ثالثها المراد نصرا عزيزا صاحبه الوجه الثانى أن يقال انما يلزم ماذكره الزمخشرى اذا قلنا

العزة فى الغلبة والعزيز الغالب وأما اذا قلنا العزيز هو النفيس القليل النظير والمحتاج اليه القليل الوجود يقال عز الشئ فى سوق كذا أى قل وجوده مع انه محتاج اليه فالنصر كان محتاجا اليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله تعالى من الكفار المقيمين فيه من غير عدد ولا عدد (هو) أى وحده (الذى أنزل) أى فى يوم الحديبية وغيره (السكينة) أى الثبات على الدين والطمأنينة (فى قلوب المؤمنين) أى الراسخين فى الايمان وهم أهل الحديبية بعد ان دهمهم فيها ما من شأنه ان يزعج النفوس ويزيغ القلوب من صد الكفار ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم فلم يرجع أحد منهم عن الايمان بعد ان هاج الناس وزلزلوا حتى عمر مع انه فاروق ومع وصفه فى الكتب السالفة بانه قرن من حديد فما الظن بغيره وكان عند الصديق من القدم الثابت والاصل الراسخ ما علم به انه لم يسابق ثم ثبتهم الله تعالى أجمعين وقال الرازى السكينة الثقة بوعد الله والصبر على حكم الله وقيل السكينة ههنا معنى يجمع فوزا وقوة وروحا يسكن اليه الخائف ويتسلى به الحزين وأثر هذه السكينة الوقار والخشوع وظهور الحزم فى الامور اه وقال أكثر المفسرين ان هذه السكينة غير السكينة المذكورة فى قوله تعالى يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ويحتمل أن تكون هى تلك لان المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلب (ليزدادوا) أى بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال لهم انه لا بد أن تدخلوا مكة وتطوفوا بالبيت (ايمانا) عند التصديق بالغيب (مع ايمانهم) الثابت من قبل هذه الواقعة أو بشرائع الدين مع ايمانهم بالله واليوم الآخر وقال القشيرى بطلوع اقمار عين اليقين على نجوم علم اليقين ثم بطلوع شمس حق اليقين على بدر عين اليقين وقال ابن عباس بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا اله الا الله فلما صدقوا زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج ثم الجهاد حتى أكمل لهم دينهم فكلما أمروا بشئ فصدقوه ازدادوا تصديقا الى تصديقهم وقال الضحاك يقينا مع يقينهم وقيل ازدادوا ايمانا استدلاليا مع ايمانهم الفطرى (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى حق الكفار انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولم يقل مع كفرهم وقال فى حق المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم (أجيب) بأن كفر الكافر عنادى وليس فى الوجود كفر فطرى ولا فى الامكان كفر غير عنادى لينضم الى الكفر العنادى بل الكفر ليس الا عنادا وكذلك الكفر بالفروع لا يقال انضم الى الكفر بالاصول لان من ضرورة الكفر بالاصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الايمان بالاصول الايمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد ولهذا قال تعالى ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم (ولله) أى الملك الاعظم الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين (جنود السموات والارض) فهو قادر على اهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون اهلاك أعدائه بأيديهم فيكون لهم الثواب وجنود السموات والارض الملائكة وقيل جنود السموات الملائكة وجنود الارض الجن والحيوانات وقيل الاسباب السماوية والارضية (وكان الله) أى الملك الاعظم أزلا وأبدا (عليما) أى بالذوات والمعانى (حكيما) فى اتقان ما يصنع وقوله تعالى (ليدخل) متعلق

بمحذوف أى امر بالجهاد ليدخل (المؤمنين والمؤمنات) الذين جبلتهم جبلة خير بجهاد بعضهم ودخول بعضهم فى الدين بجهاد المجاهدين ولو سلط على الكفار جنوده من أول الامر فأهلكوهم أودمر عليهم بغير واسطة لفات دخول أكثرهم الجنة وهم من آمن منهم بعد صلح الحديبية (جنات) أى بساتين لا يصل الى عقولكم من وصفها الا ما تعرفونه بعقولكم وان كان الامر أعظم من ذلك (تجرى من تحتها الانهار) فأى موضع أردت أن تجرى منه نهرا قدرت على ذلك لان الماء قريب من وجه الارض مع صلابتها وحسنها (خالدين فيها) أى لا الى آخر (فان قيل) ما الحكمة فى انه تعالى ذكر فى بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفى بعضها اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كقوله تعالى قد أفلح المؤمنون وقوله تعالى وبشر المؤمنين (أجيب) بأنه فى المواضع التى فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالخير الموعود به مع مشاركة المؤمنات لهم ذكرهن الله تعالى صريحا وفى المواضع التى فيها ما لا يوهم ذلك اكتفى بدخولهم فى المؤمنين كقوله تعالى وبشر المؤمنين ولما كان ههنا قوله تعالى ليدخل المؤمنين متعلقا بالامر بالقتال والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها فصرح الله تعالى بذكرهن (ويكفر) أى يستر سترا بليغا (عنهم سيئاتهم) فلا يظهرها (فان قيل) تكفير السيئات قبل الادخال فكيف ذكره بعده (أجيب) بأن الواو لا تقتضى الترتيب وبأن تكفير السيئات والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الادخال فى الذكر بمعنى انه من أهل الجنة (وكان ذلك) أى الادخال والتكفير (عند الله) أى الملك الاعظم ذى الجلال والاكرام (فوزا عظيما) لانه منتهى ما يطلب من جلب نفع ودفع ضر * (تنبيه) * عند متعلق بمحذوف على أنه حال من فوزا * ولما كان من أعظم الفوز اقرار العين بالانتقام من العدو وكان العدو الكاتم أشد من المجاهر المراغم قال تعالى (ويعذب المنافقين) المخفين للكفر المظهرين للايمان (والمنافقات) لما غاظهم من ازدياد الايمان (والمشركين والمشركات) أى المظهرين الكفر للمؤمنين وقدم المنافقين على المشركين فى كثير من المواضع لانهم كانوا أشد على المؤمنين من الكفار المجاهرين لان المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر ويخالط المنافق لظنه ايمانه وكان يفشى أسراره والى هذا اشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ولهذا قال الشاعر

احذر عدوك مرة * واحذر صديقك ألف مره

فلربما انقلب الصديق * فكان أخبر بالمضره

وقوله تعالى (الظانين بالله) أى المحيط بصفات الكمال صفة للفريقين وأما قوله تعالى (ظن السوء) فقال أكثر المفسرين هو أن لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولا يرجعهم الى مكة ظافرين (عليهم دائرة السوء) أى دائرة ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم لا يتخطاهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين والباقون بالفتح وهما الغتان كالكره والكره والضعف والضعف من ساء الا أن المفتوح غلب فى أن يضاف اليه ما يراد ذمه من كل شئ

واما

وأمّا السوء بجار مجرى الشر الذى هو نقيض الخير (وغضب الله) أى الملك الاعظم بماله من صفات الجلال والجمال فاستعلى غضبه (عليهم) وهو أنه تعالى يعاملهم معاملة الغضبان بما لا طاقة لهم به (ولعنهم) أى طردهم طردا بزوايه أسفل السافلين فبعدوا به عن كل خير (وأعد) أى هيأ (لهم) الآن (جهنم) تلقاهم بالعبوسة والتغيظ والزفير والتجهم كما كانوا يتجهمون عباد الله مع ما فيها من العذاب والحر والبرد والاحراق وغير ذلك من أنواع المشاق (وساءت) أى جهنم (مصيرا) أى مرجعا وقوله تعالى (ولله) أى الملك الاعظم (جنود السموات والارض) تقدم تفسيره وفائدة الاعادة التأكيد وجنود السموات والارض منهم من هو للرحمة ومنهم من هو للعذاب وقدم ذكر جنود السموات والارض قبل ادخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين ملائكة الرحمة فتبشرهم على الصراط وعند الميزان فاذا دخلوا الجنة أفضوا الى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه فلا حاجة لهم بعد ذلك الى شئ وأخر ذكر جنود السموات والارض بعد ذكر تعذيب الكفار والمنافقين ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقونهم أبدا كما قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم (فان قيل) قال الله تعالى وكان الله عليما حكيما وقال هنا (وكان الله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه أزلا وأبدا (عزيزا) أى يغلب ولا يغلب (حكيما) أى يضع الشئ فى أحكم مواضعه فلا يستطاع نقض شئ مما ينسب اليه (أجيب) بأنه لما كان فى جنود السموات والارض من هو للرحمة ومن هو للعذاب وعلم الله تعالى ضعف المؤمنين ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية وكان الله عزيزا حكيما (انا) أى بما لنا من العز والحكمة (أرسلناك) أى بما لنا من العظمة الى الخلق كافة (شاهدا) على أفعالهم من كفر وايمان وطاعة وعصيان من كان بحضرتك فبنفسك ومن كان بعد موتك أو غائبا عنك فبكتابك مع ما أيد نالك به من الحفظة من الملائكة الكرام (ومبشرا) أى لمن أطاع بأنواع البشائر (ونذيرا) أى مخوفا لمن خالفك وعصى أمرك بالنار ثم بين تعالى فائدة الارسال بقوله سبحانه (لتؤمنوا بالله) أى لا يسوغ لاحد من خلقه والكل خلقه التوجه الى غيره (ورسوله) أى الذى أرسله من له كل شئ ملكا وخلقا الى جميع خلقه (ويعزروه) أى يعينوه وينصروه والتعزير نصر مع تعظيم (ويوقروه) أى يعظموه والتوقير التعظيم والتبجيل (ويسبحوه) من التسبيح الذى هو التنزيه عن جميع النقائص أو من السبحة وهى الصلاة قال الزمخشرى والضمائر لله عز وجل والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله ومن فرق الضمائر فقد أبعد وقال غيره الكنايات فى قوله ويعزروه ويوقروه راجعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها تم الكلام فالوقف على ويوقروه وقف تام ثم يبتدئ بقوله تعالى ويسبحوه (بكرة وأصيلا) أى غدوة وعشيا أى دائما وعن ابن عباس صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر على أن الكناية فى ويسبحوه راجعة الى الله عز وجل وقال البقاعى الافعال الثلاثة يحتمل أن يراد بها الله تعالى لان من سعى فى قمع الكفار فقد فعل فعل المعزر الموقر فيكون اما عائدا على المذكور واما أن يكون جعل الاسمين واحدا اشارة الى اتحاد المسميين

فى الامر فلما اتحد أمرهما وحد الضمير اشارة الى ذلك اه فعنده أنه يصح رجوع الثلاثة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه فسر ويسبحوه بقوله ينزهوه عن كل وخيمة بخلاف الوعد بدخول مكة والطواف بالبيت الحرام ونحو ذلك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء فى الاربعة على الغيبة رجوعا الى قوله تعالى ليدخل المؤمنين والمؤمنات والباقون بالتاء على الخطاب ولما بين تعالى أنه مرسل ذكر ان من بايع رسوله فقد بايعه فقال تعالى (ان الذين يبايعونك) يا أشرف الرسل بالحديبية على أن لا يفروا (انما يبايعون الله) أى الملك الاعظم لان عملك كله من قول أو فعل له تعالى وما ينطق عن الهوى وسميت مبايعة لانهم باعوا أنفسهم فيها من الله تعالى بالجنة قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة الآية وروى يزيد بن أبى عبيد قال قلت لسلمة بن الاكوع على أى شئ بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية قال على الموت وعن معقل بن يسار قال لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ونحن أربعة عشر مائة قال لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر قال أبو عيسى معنى الحديثين صحيح بايعه جماعة على الموت أى لا نزال نقاتل بين يديك مالم نقتل وبايعه آخرون وقالوا لا نفر وقوله تعالى (يد الله) أى المتردى بالكبرياء (فوق أيديهم) أى فى المبايعة يحتمل وجوها وذلك أن اليد فى الموضعين اما أن تكون بمعنى واحد واما أن تكون بمعنيين فان كانت بمعنى واحد ففيه وجهان أحدهما قال الكلبى نعمة الله عليهم فى الهداية فوق ما صنعوا من البيعة كما قال تعالى بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ثانيهما قال ابن عباس ومجاهد يد الله بالوفاء بما وعدهم من النصر والخير أقوى وأعلى من نصرتهم اياه يقال اليد لفلان أى الغلبة والقوة وان كانت بمعنيين فى حق الله تعالى بمعنى الحفظ وفى حق المبايعين بمعنى الجارحة قال السدى كانوا يأخذون بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبايعونه ويد الله تعالى فوق أيديهم فى المبايعة وذلك أن المتبايعين اذا مد احدهما يده الى الآخر فى البيع وبينهما ثالث يضع يده على أيديهما ويحفظ أيديهما الى أن يتم العقد ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر لكى يلزم العقد ولا يتفاسخان فصار وضع اليد فوق الايدى سببا لحفظ البيعة فقال تعالى يد الله فوق أيديهم يحفظهم على البيعة كما يحفظ المتوسط أيدى المتبايعين قال البقاعى فلعنة الله على من حمله على الظاهر من أهل العناد ببدعة الاتحاد وعلى من تبعهم على ذلك من الذين شاقوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وسائر الائمة الاعلام ورضوا لانفسهم بأن يكونوا أتباع فرعون اللعين وناهيك به من ضلال مبين اه وقد مر ان التأويل فى الآيات المتشابهات مذهب الخلف ومذهب السلف السكوت عن التأويل وامرار الصفات على ما جاءت وتفسيرها قراءتها والايمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل (فمن نكث) اى نقض البيعة فى وقت من الاوقات فجعلها كالكساء والحبل البالى الذى ينقض (فانما ينكث) أى يرجع وبال نقضه (على نفسه) أى فلا يضر الا هى (ومن اوفى) أى فعل الاتمام والاكثار والاطالة (بما عاهد) وقدم الظرف فى قوله

(عليه الله) أى الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما من هذه المبايعات وغيرها اهتماما به وقرأ حفص بضم الهاء قبل الاسم الجليل والباقون بكسر الهاء والترقيق (فسيؤتيه) بوعد مؤكد لاخلف فيه (أجرا عظيما) لاتسع عقولكم شرح وصفه قال ابن عادل والمراد به الجنة وقرأ أبو عمرو والكوفيون بالياء التحتية والباقون بالنون * ولما ذكر تعالى أهل بيعة الرضوان وأضافهم الى حضرة الرحمن ذكر من غاب عن ذلك الجناب وأبطأ عن حضرة تلك العمرة بقوله تعالى (سيقول) أى بوعد لاخلف فيه (لك) أى لانهم يعلمون شدة رحمتك ورفقك وشفقتك على عباد الله فهم يطمعون فى قبولك من فاسد عذرهم مالا يطمعون فيه من غيرك من خلص المؤمنين (المخلفون) أى الذين خلفهم الله تعالى عنك فلم يرضهم لصحبتك فى هذه العمرة فجعلهم كالشئ التافه الذى يخلفه الانسان لانه لافائدة فيه فلا يعبأ به وقال تعالى (من الاعراب) ليخرج من تخلف بالجسد من خلص الانصار وغيرهم ممن كان حاضرا معه صلى الله عليه وسلم بالقلب قال ابن عادل وابن عباس ومجاهد يعنى بالاعراب أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير الى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر من حول المدينة من الاعراب والبوادى ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأحرم بالعمرة وساق معه الهدى ليعلم الناس أنه لايريد حربا فتثاقل كثير من الاعراب وتخلفوا واعتلوا بالشغل فأنزل الله تعالى فيهم سيقول لك المخلفون أى الذين خلفهم الله تعالى من الاعراب عن صحبتك اذا رجعت اليهم من عمرتك وعاتبتهم على التخلف (شغلتنا) أى عن اجابتك فى هذه العمرة (أموالنا وأهلونا) أى النساء والذرارى فانا لو تركناهم لضاعوا لانه لم يكن لنا من يقوم بهم وأنت قد نهيت عن ضياع المال والتفريط فى العيال ثم سيبوا عن هذا القول المراد به السوء قولهم (فاستغفر) أى اطلب المغفرة (لنا) من الله تعالى ان كنا أخطأنا وقصرنا فكذبهم الله تعالى فى اعتذارهم بقوله سبحانه وتعالى (يقولون بألسنتهم) أى فى الشغل والاستغفار وأكد ما أفهمه ذكر اللسان من أنه قول ظاهرى نفيا للكلام الحقيقى الذى هو النفسى بكل اعتبار بقوله تعالى (ماليس فى قلوبهم) لانهم لم يكن لهم شغل ولا كانت لهم نية فى سؤال الاستغفار فانهم لايبالون استغفر لهم الرسول أم لا (قل) ياأشرف الرسل لهؤلاء الاغبياء واعظا لهم مسببا عن مخادعتهم لمن لاتخفى عليه خافية اشارة الى أن العاقل يقبح عليه أن يقدم على ماهو بحيث تخشى عواقبه (فمن يملك لكم) أى أيها المخادعون (من الله) أى الملك الذى لاأمر لاحد معه لانه لا كفء له (شيأ) يمنعكم (ان أراد بكم ضرا) أى نوعا من أنواع الضر عظيما أو حقيرا فأهلك الاموال والاهلين وأنتم محتاطون فى حفظها فلم ينفعها حضوركم وأهلككم أنتم وقرأ حمزة والكسائى بضم الضاد والباقون بفتحها (أو أراد بكم نفعا) يحفظهم به فى غيبتكم فلا يضرهم بعدكم عنهم ويحفظكم فى أنفسكم (بل كان الله) أى المحيط ازلا وأبدا بكل شئ قدرة وعلما (بما تعملون) أى أيها الجهلة (خبيرا) يعلم بواطن أموركم هذه وغيرها كما يعلم ظواهرها (بل ظننتم) أى فأنتم واقفون مع الظنون الظاهرة ليس

لكم نفوذا الى البواطن وقرأ الكسائى بادغام اللام فى الظاء والباقون بالاظهار وأشار الى
تأكد ظنهم على زعمهم بقوله تعالى (أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا) أى
ظننتم ان العدو يستأصلهم ولا يرجعون لما فى قلوبكم من عظمة المشركين وحقارة المؤمنين
فحملكم ذلك على أن قلتم ماهم فى قريش الا أكلة رأس (فان قيل) ما الفرق بين حرفى الاضراب
(أجيب) بأن الاضراب الاول اضراب معناه رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوه واثبات الحسد
والثانى اضراب عن وصفهم باضافة الحسد الى المؤمنين أى وصفهم بما هو أعم منه وهو الجهل
وقلة الفقه (وزين ذلك) أى الامر القبيح الذى هو خراب الدنيا (فى قلوبكم) حتى قلتموه
(وظننتم) أى بذلك وغيره مما يترتب عليه من اظهار الكفر وما يتفرع عنه (ظن السوء) أى
الذى لم يدع شيأ مما يكره غاية الكراهة الا أحاط به وقوله تعالى (وكنتم قوما بورا) جمع بائر أى
هالكين عند الله تعالى بهذا الظن وهذا بالنظر الى الجمع من حيث هو جمع لا بالنسبة الى كل
فرد فانه قد أخلص منهم بعد ذلك كثير وثبتوا ولم يرتدوا (ومن لم يؤمن) أى منكم ومن غيركم
(بالله) أى الذى لا موجود على الحقيقة سواه (ورسوله) أى الذى أرسله لاظهار دينه (فانا)
على مالنا من العظمة (اعتدنا) أى له هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى معللا للحكم
بالوصف (للكافرين) ايذانا بأنه لم يجمع الايمان بهما فهو كافر وأعد له (سعيرا) أى نارا
شديدة (ولله) أى الملك الاعظم وحده (ملك السموات والارض) أى من الجنود وغيرها
يدبر ذلك كله كيف يشاء (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى لا اعتراض لاحد عليه
لانه لا يجب عليه شئ ولا يكافئه أحد وليس هو كالملوك الذين لا يتمكنون من مثل ذلك لكثرة
الاكفاء المعارضين لهم فى الجملة وعلم من هذا أن منهم من يرتد فيعذبه ومنهم من يثبت على
الاسلام فيغفر له لانه لا يعذب بغير ذنب وان كان له أن يفعل ذلك لانه لا يسئل عما يفعل وملكه
تام فتصرفه فيه عدل كيف كان (وكان الله) أى المحيط بصفات الكمال أزلا وأبدا لم يتجدد له
شئ لم يكن (غفورا) أى لذنوب المسيئين (رحيما) أى مكرما بعد الستر بما لا تسعه العقول
وقدرته على الانعام كقدرته على الانتقام (سيقول) أى بوعد لا خلف فيه (المخلفون) أى الذين
تخلفوا عن الحديبية (اذا انطلقتم) أى سرتم أيها المؤمنون (الى مغانم لتأخذوها) أى مغانم
خيبر وذلك ان المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية على صلح من غير قتال ولم يصيبوا من المغانم شيأ
وعدهم الله تعالى فتح خيبر وجعل غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة عوضا عن غنائم أهل مكة
حيث انصرفوا عنهم ولم يصيبوا منهم شيأ (ذرونا) أى على أى حالة شئتم من الاحوال الدنيئة
(نتبعكم) أى الى خيبر لنشهد معكم قتال أهلها وفى هذا بيان كذب المخلفين عن الحديبية حيث
قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا اذ لم يكن لهم هناك طمع فى الغنيمة وهنا قالوا ذرونا نتبعكم حيث
كان لهم طمع فى الغنيمة (يريدون) أى بذهابهم معكم (أن يبدلوا كلام الله) أى يريدون
أن يغيروا مواعيد الملك الاعظم لاهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة وهذا قول جمهور المفسرين
وقال مقاتل يعنى أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حيث أمره أن لا يسير معه منهم أحد

الى

الى خيبر وقال ابن زيد هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم أطلعه الله تعالى على ظنهم وأظهر له نفاقهم وقال للنبي صلى الله عليه وسلم فاذا استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا وقرأ حمزة والكسائي بكسر اللام بعد الكاف ولا ألف بعد اللام والباقون بفتح اللام وألف بعدها (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المبعدين اذا بلغك كلامهم أنت بنفسك فان غيرك لا يقوم مقامك في هذا الامر المهم قولا مؤكدا (لن تتبعونا) أي وان اجتهدتم في ذلك وساقه مساقة النفي وان كان المراد به النهي مع كونه آكد ليكون علما من أعلام النبوة وهو أزجر وأدل على استهانتهم (كذلكم) أي مثل هذا القول البديع الشأن العالي الرتبة (قال الله) أي الذي لا يكون الا ما يريد وليس هو كالملوك الذين لا قدرة لهم على الغفران لمن شاؤا والعقاب لمن شاؤا (من قبل) أي من قبل مرجعنا اليكم ان غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب* ولما كانوا منافقين لا يعتقدون شيأ من هذه الاقوال بل يظنون انها حيل على التوصل الى المرادات الدنيوية تسبب عن قوله لهم ذلك قوله تعالى تنبيها على جلافتهم وفساد ظنونهم (فسيقولون) ليس الامر كما ذكر مما ادعى أنه قول الله تعالى (بل) انما قلتم ذلك لانكم (تحسدوننا) فلا تريدون أن يصل الينا من مال الغنائم شئ وقرأ هشام وحمزة والكسائي بادغام اللام في التاء والباقون بالاظهار (بل كانوا) أي جبلة وطبعا (لا يفقهون) أي لا يفهمون فهم الحاذق الماهر (الا قليلا) أي في أمر دنياهم ومن ذلك اقرارهم باللسان لاجلها وأما أمور الآخرة فلا يفهمون منها شيأ (قل) أي يا أشرف الرسل (للمخلفين) وزاد في ذمهم بنسبتهم الى الجلافة بقوله تعالى (من الاعراب) اى أهل غلظ الاكباد (ستدعون) بوعد لا خلف فيه (الى قوم أولي) أي أصحاب (بأس شديد) أي شدة في الحرب وشجاعة قال ابن عباس ومجاهد هم أهل فارس وقال كعب الروم وقال الحسن فارس والروم وقال سعيد بن جبير هوازن وثقيف وقال قتادة هوازن وغطفان قوم حنين وقال الزهري ومقاتل وجماعة هم بنو حنيفة أصحاب اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب وقال رافع بن خديج كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر الى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم وقال أبو هريرة لم يأت تأويل هذه الآية بعد قال ابن الخازن وأقوى هذه الاقوال قول من قال انهم هوازن وثقيف لان الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده قول من قال انهم بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب وقوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) فيه اشارة الى وقوع أحد الامرين اما المقاتلة منكم واما الاسلام منهم فان لم يسلموا كان القتال لا غير وان أسلموا لم يكن قتال لان الغرض ليس الا اعلاء كلمة الله تعالى (فان تطيعوا) أي توقعوا الطاعة للداعي الى ذلك (يؤتكم الله) أي الذي له الاحاطة (أجرا حسنا) دنيا وهو الغنيمة وأخرى وهي الجنة (وان تتولوا) أي تعرضوا عن الجهاد (كما توليتم من قبل) أي عام الحديبية (يعذبكم) أي يخالطكم بعقوبة تزيل العذوبة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما (عذابا أليما) لاجل تكرر ذلك منكم فلما أنزلت هذه الآية قال أهل الزمانة كيف بنا يا رسول الله فأنزل الله عز وجل

(ليس على الاعمى) أى فى تخلفه عن الدعاء الى الخروج مع النبى صلى الله عليه وسلم أومع غيره من أئمة الهدى (حرج) أى ميل بثقل الاثم لانه لايمكنه الاقدام على العدو والطلب ولايمكنه الاحتراز منه ولا الهرب (ولا على الاعرج) وان كان نقصه أدنى من نقص الاعمى (حرج) وفى معنى الاعرج الزمن المقعد والاقطع (ولا على المريض) أى بأى مرض كان يمنعه (حرج) وفى معناه صاحب السعال الشديد والطحال الكبير والذين لايقدرون على الكر والفر فهذه اعذار مانعة من الجهاد ظاهرة ومن وراء ذلك اعذار أخر دون ماذكر كتمريض المريض الذى ليس له من يقوم مقامه عليه *(تنبيه)* جعل تعالى كل جملة مستقلة تأكيدا لهذا الحكم وقدم الاعمى على الاعرج لان عذر الاعمى مستمر لايمكن الانتفاع به فى حرس ولا غيره بخلاف الاعرج وقدم الاعرج على المريض لان عذره أشد من عذر المريض لامكان زوال المرض عن قرب (ومن يطع الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال المفيض من آثار صفاته على من يشاء ولو كان ضعيفا المانع منها من يشاء وان كان قويا (ورسوله) من المعذورين وغيرهم فيما ندبا اليه بأى طاعة كانت (يدخله) أى الله الملك الاعظم جزاء له (جنات تجرى من تحتها الانهار) أى من أى موضع أردت أجريت نهرا (ومن يتول) أى يعرض عن الطاعة ويستمر على الكفر والنفاق (يعذبه) أى على توليه فى الدارين أو احداهما (عذابا أليما) أى مؤلما وقرأ نافع وابن عامر ندخله ونعذبه بالنون فيهما والباقون بالياء التحتية ولما بين تعالى حال المخلفين بعد قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله عاد الى حال بيان المبايعين بقوله تعالى (لقد رضى الله) أى الذى له الجلال والكمال (عن المؤمنين) أى الراسخين فى الايمان أى فعل بهم فعل الراضى بما جعل لهم من الفتح وما قدر لهم من الثواب وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين فخذلهم فى الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور مشاهدة وقوله تعالى (اذ) أى حين (يبايعونك) منصوب برضى واللام فى قوله تعالى (تحت الشجرة) للعهد الذهنى وكانت شجرة فى الموضع الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم نازلا به فى الحديبية ولاجل هذا الرضا سميت بيعة الرضوان وقصتها أن النبى عليه الصلاة والسلام حين نزل الحديبية بعث جواس بن أمية الخزاعى رسولا الى أهل مكة فهموا به فمنعه الاحابيش واحدها حبوش وهو الفوج من قبائل شتى فلما رجع دعا عمر ليبعثه فقال انى أخافهم على نفسى لما أعرف من عداوتى اياهم وما بمكة عدوى يمنعنى ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب اليهم عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم أنه لم يأت لحرب وانما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته فوقروه وقالوا ان شئت أن تطوف بالبيت فافعل فقال ما أفعل قبل أن يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتبس عندهم فأرجف انهم قتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس الى البيعة فبايعوه تحت الشجرة روى البغوى من طريق الثعلبى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة وقال سعيد بن المسيب حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت

الشجرة قال فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها اوروى أن عمر مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال أين كانت فجعل بعضهم يقول ههنا وبعضهم يقول ههنا فلما كثر اختلافهم قال سيروا قد ذهبت الشجرة وروى جابر بن عبد الله قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أنتم خير أهل الارض وكنا ألفا وأربعمائة ولو كنت اليوم مبصرا لأريتكم مكان الشجرة وقيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها قال عبد الله بن المغفل وكنت قائما على رأسه وبيدى غصن من الشجرة اذب عنه فرفعت الغصن عن ظهره وبايعوه على الموت دونه على أن لا يفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم خير أهل الارض وكان عدد المبايعين ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين وروى سالم عن جابر قال كنا خمس عشرة مائة وقال عبد الله بن أبى أوفى كنا أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة ولما دل على اخلاصهم بما وصفهم سبب عنه قوله تعالى (فعلم) أى بماله من الاحاطة (مافى قلوبهم) أى من الصدق والوفاء فيما بايعوا عليه (فأنزل السكينة) أى الطمأنينة والامن بسبب الصلح (عليهم) أو بالتشجيع وسكون النفس فى كل حالة ترضى الله ورسوله فلم يخافوا عاقبة القتال لما ندبوا اليه وان كانوا فى كثرة الكفار كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود (وأثابهم) أى أعطاهم جزاء لهم على ما وهبوه من الطاعة (فتحا قريبا) هو فتح خيبر عقب انصرافهم وعن الحسن فتح هجر ونبه تعالى بصيغة منتهى الجموع فى قوله تعالى (ومغانم) على أنها عظيمة ثم صرح بذلك بقوله تعالى (كثيرة تأخذونها) وهى مغانم خيبر وكانت أرضا ذات عقار وأموال فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم (وكان الله) أى الذى لا كفء له (عزيزا) يغلب ولا يغلب (حكيما) أى يقضى ما يريد فلا ينقض فحكم لكم بالغنائم ولاعدائكم بالهلاك على أيديكم لثنبيكم عليه (وعدكم الله) أى الملك الاعظم (مغانم) وحقق نعمناها بقوله تعالى (كثيرة تأخذونها) أى فيما يأتى من بلدان شتى لا تدخل تحت حصر وليس المغانم كل الثواب بل الجنة والنظر الى وجهه الكريم قدامهم وانما هى كعاجلة عجل بها ولهذا قال تعالى (فعجل لكم) أى من الغنائم (هذه) أى مغانم خيبر (وكف أيدى الناس عنكم) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قصد خيبر وحاصر أهلها همت قبائل من أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة فكف الله تعالى أيديهم بالقاء الرعب فى قلوبهم فنكصوا وقيل أيدى أهل مكة بالصلح وقوله تعالى (ولتكون) أى هذه المعجلة عطف على مقدر أى لتشكروه ولتكون (آية) أى علامة فى غاية الوضوح (للمؤمنين) أى أنهم من الله تعالى بمكان أو صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى وعدهم فتح خيبر فى حين رجوعه من الحديبية أو وعدهم الغنم أو عنوانا الفتح مكة (ويهديكم صراطا) أى طريقا (مستقيما) أى يثبتكم على الاسلام ويزيدكم بصيرة ويقينا بصلح الحديبية وفتح خيبر وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذى الحجة وبعض المحرم ثم خرج فى سنة سبع الى خيبر روى أنس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا غزا بنا قوما لم يكن

يغزو بنا حتى يصبح وينظر فان سمع أذانا كف عنهم وان لم يسمع أذانا أغار عليهم قال فخرجنا الى خيبر فانتهينا اليهم ليلا فلما أصبح ولم يسمع أذانا ركب وركبنا وركبت خلف أبي طلحة وان قدمي لتمس قدم النبي صلى الله عليه وسلم قال فخرجوا الينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا والله محمد والخميس أى الجيش فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وروى اياس بن سلمة قال حدثني أبي قال خرجنا الى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعل عمى عامر يرتجز بالقوم ثم قال

تالله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا * فثبت الاقدام ان لاقينا

* وأنزلن سكينة علينا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا قال أنا عامر فقال غفر لك ربك وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحد الا استشهد قال فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له يا نبى الله لولا متعتنا بعامر قال فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول

قد علمت خيبر انى مرحب * شاكى السلاح بطل مجرب

* اذا الحروب أقبلت تلتهب *

قال فبرز له عامر بن عثمان فقال

قد علمت خيبر أنى عامر * شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب فى ترس عامر فرجع سيف عامر على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى فقلت يا رسول الله بطل عمل عامر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال ذلك قلت ناس من أصحابك قال من قال ذلك بل له أجره مرتين ثم أرسلنى الى على وهو أرمد فقال لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فاتيت عليا فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصق فى عينيه فبرئ وأعطاه الراية وخرج مرحب وقال

أنا الذى سمتنى أمى مرحب * شاكى السلاح بطل مجرب

فقال على كرم الله تعالى وجهه

أنا الذى سمتنى أمى حيدره * كليث غابات كريه المنظره

* أكيلكم بالسيف كيل السندره *

قال فضرب رأس مرحب فقتله ثم كان الفتح على يديه ومعنى * أكيلكم بالسيف كيل السندره أى أقتلكم قتلا واسعا ذريعا والسندرة مكيال واسع قيل يحتمل أن يكون اتخذ من السندرة وهى شجرة يعمل منها النبل والقسى والسندرة أيضا العجلة والنون زائدة قال ابن الاثير وذكرها الجوهرى فى هذا الباب ولم ينبه على زيادتها وروى فتح خيبر من طرق أخر فى بعضها

زيادات وفي بعضها نقصان عن بعض وقوله تعالى (وأخرى) صفة مغانم مقدر امبتدا وقيل هي مبتدأ والخبر (لم تقدروا عليها) وهي كما قال ابن عباس فارس والروم وما كانت العرب تقدر تقاتل فارس والروم بل كانوا اخولا لهم حتى قدروا عليهما بالاسلام وقال الضحاك هي خيبر وعدها الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم قبل أن يصيبها ولم يكونوا يرجونها وقال قتادة هي مكة وقال عكرمة حنين وقال البقاعي هي والله أعلم غنائم هوازن التي لم يحصل قبلها ما يقاربها (قد أحاط الله) أي المحيط بكل شئ قدرة وعلما (بها) أي علم انها ستكون لكم (وكان الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال أزلا وأبدا (على كل شئ) منها ومن غيرها (قديرا) أي بالغ القدرة لانه بكل شئ عليم (ولو قاتلكم الذين كفروا) وهم أهل مكة ومن وافقهم وكانوا قد اجتمعوا وجمعوا الاحابيش ومن أطاعهم وقدموا خالد بن الوليد طليعة لهم الى كراع الغميم ولم يكن أسلم بعد (لولوا) أي بغاية جهدهم (الادبار) منهزمين (ثم) أي بعد طول الزمان وكثرة الاعوان (لا يجدون) أي في وقت من الاوقات (وليا) أي من يفعل معهم فعل القريب من الشفقة (ولا نصيرا) ينصرهم ولما كانت هذه عادة جارية قديمة مع أولياء الله تعالى حيثما كانوا من الرسل وأتباعهم وان جندنا لهم الغالبون قال تعالى (سنة الله) أي سن المحيط بكل شئ علما غلبة أنبيائه وأتباعهم (التي قد خلت من قبل) أي فيمن مضى من الامم كما قال تعالى لاغلبن أنا ورسلي (ولن تجد) أيها السامع (لسنة الله) أي الذي لا يخلف قوله لانه محيط بجميع صفات الكمال (تبديلا) أي تغييرا من مغير ما يغيرها بما يكون بدلها ثم عطف على ما تقديره هو الذي سن هذه السنة العامة قوله تعالى (وهو الذي كف) أي وحده (أيديهم) أي الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم فان الكف مشروع لكل أحد (عنكم وأيديكم) أيها المؤمنون (عنهم ببطن مكة) أي بالحديبية وقيل التنعيم وقيل وادي مكة وقيل داخل مكة (من بعد أن أظفركم) أي أظهركم (عليهم) وهذا تبيين لما تقدم من قوله تعالى ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار بتقدير انه كما كف أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم روى ثابت عن أنس بن مالك ان ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخذهم سلمان فاستحياهم فنزلت هذه الآية وقال عبد الله بن مغفل المزني كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن وعلى ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة فرفعته عن ظهره وعلي بن أبي طالب بين يديه يكتب كتاب الصلح فخرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله أبصارهم فقمنا اليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جئتم في عهد أو هل جعل لكم أحد أمانا قالوا اللهم لا فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن ابن عباس أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت وقيل ان ذلك كان يوم فتح مكة وبه استشهد أبو حنيفة على ان مكة فتحت عنوة لا صلحا (وكان الله) أي المحيط بالجلال والاكرام أزلا وأبدا وقرأ (بما يعملون) أبو عمرو بالياء

التحتية أي الكفار والباقون بالتاء الفوقية أي أنتم (بصيرا) أي محيط العلم ببواطن ذلك كما هو
محيط بظواهره ولما كان مامضى من وصف الكفار يشمل كفار مكة وغيرهم عينهم بسبب كفهم
النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن البيت الحرام بقوله تعالى (هم) أي أهل مكة ومن لاقهم
(الذين كفروا) أي أوغلوا في هذا الوصف ببواطنهم وظواهرهم (وصدوكم) زيادة على كفرهم
في عمرة الحديبية (عن المسجد الحرام) أي منعوكم الوصول الى مكة ونفس المسجد والكعبة
للاحلال مما أنتم فيه من شعائر الاحرام بالعمرة روى الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن
مخرمة ومروان بن الحكم كل منهما يصدق حديث صاحبه قالا خرج رسول الله صلى الله عليه
وسلم من المدينة عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه يريد زيارة البيت لا يريد قتالا وساق
معه سبعين بدنة والناس سبعمائة رجل وكانت كل بدنة عن عشرة نفر فلما أتى ذا الحليفة
قلد الهدى وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عينا له من خزاعة يخبره عن قريش فسار النبي صلى
الله عليه وسلم حتى اذا كان بغدير الاشطاط قريبا من عسفان أتاه عتبة الخزاعي وقال ان قريشا
قد جمعوا لك جموعا وقد جمعوا لك الاحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت الحرام فقال
النبي صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس أترون انى أميل على ذراري هؤلاء الذين
عاونوهم فنصيبهم فان قعدوا قعدوا موتورين وان لجوا تكن عنقا قطعها الله أو ترون نؤم البيت
فمن صدنا عنه قاتلناه فقال أبو بكر يا رسول الله انما جئت عامدا لهذا البيت لا نريد قتال أحد
ولا حربا فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه قال امضوا على اسم الله فنفروا قال النبي صلى الله
عليه وسلم ان خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ماشعر بهم
خالد حتى اذا هم بغبرة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى
اذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس حل حل فألحت فقالوا
خلأت أي حرنت القصواء فقال النبي صلى الله عليه وسلم ماخلأت القصواء وماذاك لها بخلق
ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم الى خطة يعظمون
فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ثم زجرها فوثبت قال فعدل حتى نزل بأقصى
الحديبية على ثمد قليل من الماء يتبرضه الناس تبرضا فلم تلبث الناس ان نزحوه وشكا الناس
الى النبي صلى الله عليه وسلم العطش فنزع سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه يقال له
ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبي صلى الله عليه وسلم فنزل في البئر فغرزه في جوفه فوالله مازال
يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه فبينما هم كذلك اذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه
وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة فقال اني تركت كعب
ابن لؤي وعامر بن لؤي نزلا مع جمع أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك
وصادوك عن البيت الحرام فقال النبي صلى الله عليه وسلم انا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا
معتمرين وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاؤا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين
الناس فان أظهر فان شاؤا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا والا فقد جموا وان أبوا

فوالذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ولينفذن الله أمره فقال بديل سأبلغهم ماتقول فانطلق حتى أتى قريشا فقال انا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فان شئتم ان نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشئ وقال ذوالرأى منهم هات ماسمعته يقول قال سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بماقال النبى صلى الله عليه وسلم فقام عروة بن مسعود الثقفى فقال أى قوم ألستم بالوالد قالوا بلى قال أولست بالولد قالوا بلى فقال فهل تتهمونى قالوا لا قال ألستم تعلمون انى استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى قالوا بلى قال فان هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته قالوا ائته فأتاه فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك اى محمد أرأيت ان استأصلت قومك فهل سمعت أحدا من العرب اجتاح أصله قبلك وان تكن الاخرى فوالله انى أرى وجوها وأشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر الصديق امصص بظر اللات والعزى أنحن نفر عنه وندعه فقال من ذا قالوا أبو بكر فقال أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لاجبتك قال وجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة قائم على رأس النبى صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده الى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع عروة رأسه وقال من هذا قالوا المغيرة بن شعبة فقال أى غدر ألست أسعى فى غدرتك وكان المغيرة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أما الاسلام فهدم ماقبله وأما المال فلست منه فى شئ ثم ان عروة جعل يرمق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعينيه قال فوالله ماتنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ومايحدون النظر اليه تعظيما له فرجع عروة الى أصحابه فقال أى قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى والله ان رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه مايعظم أصحاب محمد محمدا والله ان تنخم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا أصواتهم ومايحدون النظر اليه تعظيما له وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بنى كنانة دعونى آته فقالوا ائته فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال النبى صلى الله عليه وسلم هذا فلان من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثوها له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فلما رجع الى أصحابه قال رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الاحابيش فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه

فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاده من طول الحبس عن
محله رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعظاما لما رأى فقال يا معشر قريش
انى قد رأيت ما لا يحل صدّه الهدى فى قلائده قد أكل أوتاده من طول الحبس عن محله قالوا له
اجلس فانما أنت رجل أعرابى لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش والله ما
على هذا حالفنا كم ولا على هذا عاقدنا كم أن تصدّوا عن بيت الله من جاءه معظما له والذى نفس
الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له أولا نفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد فقالوا مه كف
عنا يا حليس حتى نأخذ لانفسنا ما نرضى به فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال دعونى
آته فقالوا ائته فلما أشرف عليهم قال النبى صلى الله عليه وسلم هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل
يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه اذ جاء سهيل بن عمرو وقال عكرمة لما رآه النبى
صلى الله عليه وسلم قال قد سهل لكم من أمركم قال الزهرى فى حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال
هات نكتب بيننا وبينك كتابا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فقال اكتب
بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل أما الرحمن فلا أدرى ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما
كنت تكتب فقال المسلمون والله لا نكتبها الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبى صلى الله عليه
وسلم لعلى اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل والله
لو كنا نعلم انك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم والله انى لرسول الله وان كذبتمونى اكتب محمد بن عبد الله قال
الزهرى وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم
اياها فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عشر
سنين يأمن الناس فيه ويكف بعضهم عن بعض فقال له النبى صلى الله عليه وسلم وعلى ان تخلوا
بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل والله لا تحدث العرب انا أخذنا ضغطة ولكن ذلك
من العام المقبل فكتب فقال سهيل وعلى أن لا يأتيك منا رجل وان كان على دينك الا رددته
الينا فقال المسلمون سبحان الله كيف يرد الى المشركين وقد جاء مسلما وروى ابن اسحق عن البراء
قصة الصلح وفيها قالوا لو نعلم انك رسول الله ما منعناك شيأ ولكن أنت محمد بن عبد الله قال
أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله ثم قال لعلى امح رسول الله فقال والله لا أمحوك أبدا فقال
فأرنيه فأراه اياه فمحاه النبى صلى الله عليه وسلم بيده وفى رواية فأخذ رسول الله صلى الله عليه
وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله قال البراء صالح على ثلاثة
أشياء على أن من أتى من المشركين يرده اليهم ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه وعلى أن يدخلها
من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه وروى
فى صلح الحديبية طرق اخر فى بعضها زيادات وفى بعضها نقصان عن بعض وقوله تعالى
(والهدى) معطوف على كم من صدوكم أى وصدوا الهدى وهو البدن التى ساقها رسول الله
صلى الله عليه وسلم وكانت سبعين وقوله تعالى (معكوفا) أى محبوسا حال وقوله تعالى

(أن يبلغ محله) أى مكانه الذى ينحر فيه عادة وهو الحرم بدل اشتمال (ولولا رجال) أى مقيمون بين أظهر الكفار بمكة (مؤمنون) أى عريقون فى الايمان فكانوا لذلك أهلا للوصف بالرجولية (ونساء مؤمنات) أى كذلك حبس الكل عن الهجرة العذر لان الكفار لكثرتهم استضعفوهم فمنعوهم الهجرة على أن ذلك شامل لمن جبله الله تعالى على الخير وعلم منه الايمان وان كان فى ذلك الوقت كافرا (لم تعلموهم) أى لم يحط علمكم بهم من جميع الوجوه لتميزوهم بأعيانهم عن المشركين لانهم ليس لهم قوة التميز منهم وانتم لاتعرفون أماكنهم لتعاملوهم بما هم له أهل ولاسيما فى حال الحرب والطعن والضرب ثم أبدل من الرجال والنساء قوله تعالى (أن تطؤهم) أى تؤذوهم بالقتل أو مايقاربه من الجراح والضرب والنهب ونحو ذلك ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اشدد وطأتك على مضر (فتصيبكم) أى فيتسبب عن هذا الوطء أن تصيبكم (منهم) أى من جهتهم وبسببهم (معرة) أى مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار بذلك والاثم بالتقصير فى البحث مفعلة من عره اذا عراه مايكرهه وقوله تعالى (بغير علم) متعلق بأن تطؤهم أى غير عالمين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا أناسا مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم باهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم (فان قيل) أى معرة تصيبهم اذا قتلوهم وهم لايعلمون (أجيب) بأنهم يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين انهم فعلوا بأهل دينهم مثل مافعلوا بنا من غير تمييز والمأثم اذا جرى منهم بعض التقصير وقوله تعالى (ليدخل الله) أى الذى له جميع صفات الكمال متعلق بمقدر أى كان انتفاء التسليط على أهل مكة وانتفاء العذاب ليدخل الله قال البغوى اللام فى ليدخل متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام يعنى ليدخل الله (فى رحمته) أى فى اكرامه وانعامه (من يشاء) بعد الصلح قبل أن يدخلوها من المشركين بأن يعطفهم الى الاسلام ومن المؤمنين بأن يستنقذهم منهم على أرفق وجه وقوله تعالى (لو تزيلوا) يجوز أن يعود على المؤمنين فقط أو على الكافرين أو على الفريقين والمعنى لو تميز هؤلاء من هؤلاء (لعذبنا) أى بأيديكم بتسليطنا لكم عليهم بالقتل والسبى (الذين كفروا) أى أوقعوا ستر الايمان (منهم) أى أهل مكة (عذابا أليما) أى شديد الايجاع قال قتادة فى الآية ان الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكافرين كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركى مكة ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بين وقته وفيه بيان العلة فقال تعالى (اذ) أى حين (جعل الذين كفروا) أى ستروا ماتراءى من الحق فى مرائى عقولهم وقوله تعالى (فى قلوبهم) أى فى قلوب أنفسهم يجوز أن يتعلق بجعل على انها بمعنى ألقى فتتعدى لواحد أى اذ ألقى الكافرون فى قلوبهم الحمية وأن يتعلق بمحذوف على أنه مفعول ثان قدم على أنها بمعنى صير (الحمية) أى المنع الشديد والاباء الذى هو فى شدة حره ونفوذه فى أشد الاجسام كالسم والنار وأنشدوا

الا انى منهم وعرضى عرضهم * كذا الرأس يحمى أنفه أن يهشما

وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر

الهاء وضم الميم وأظهر الذال عند الجيم نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون وقوله تعالى (حمية الجاهلية) بدل من الحمية قبلها ووزنها فعيلة وهي مصدر يقال حميت من كذا حمية وحمية الجاهلية هي التي مدارها مطلق المنع سواء كان بحق أم باطل فتمنع من الاذعان للحق ومبناها على التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء قال مقاتل قال أهل مكة قتلوا أبناءنا واخواننا ثم يدخلون علينا فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخلونها علينا فهذه حمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم (فأنزل الله) أي الذي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء بسبب حميتهم (سكينته) أي الشيء اللائق اضافته اليه سبحانه من الفهم عن الله والروح الموجب لسكون القلب المؤثر للاقدام على العدو والنصر عليه انزالا كافيا (على رسوله) الذي عظمته من عظمته ففهم عن الله مراده في هذه القضية فجرى على أتم مارضيه (وعلى المؤمنين) أي الغر يقين في الايمان لانهم اتباع رسوله وانصار دينه فألزمهم قبول أمره وحماهم من همزات الشياطين ولم يدخلهم ما دخل الكفار من الحمية فيقاتلوا غضبا لانفسهم فيبتعدوا حدود الشرع (وألزمهم) أي المؤمنين الزام اكرام وتشريف لا الزام اهانة وتعنيف (كلمة التقوى) فانها السبب الاقوى وهي كل قول أو فعل ناشئ عن التقوى وأعلاه كلمة الاخلاص المتقدمة في القتال وهي لا اله الا الله التي هي أحق الحق ولا بد من قول محمد رسول الله والا لم يتم اسلامه وعن الحسن كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ومعنى اضافتها الى التقوى انها سبب التقوى وأساسها وقيل كلمة أهل التقوى وقيل هي بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله (وكانوا) أي جبلة وطبعا (أحق بها) أي كلمة التقوى من الكفار (وأهلها) أي وكانوا أهلها في علم الله تعالى لان الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير (وكان الله) أي المحيط علما وقدرة (بكل شيء) من ذلك وغيره (عليما) أي محيط العلم وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى في المنام في المدينة عام الحديبية قبل خروجه انه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين ويحلقون ويقصرون فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا فلما خرجوا معه وصدهم الكفار بالحديبية رجعوا وشق عليهم ذلك وراب بعض المنافقين فأنزل الله قوله تعالى (لقد صدق الله) أي الذي لا كفؤ له المحيط بجميع صفات الكمال (رسوله) الذي هو أعز الخلائق عنده وهو غني عن الاخبار عما لا يكون أنه يكون فكيف اذا كان المخبر رسوله (الرؤيا) التي هي من الوحي أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علوا كبيرا فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله تعالى صدقوا ما عاهدوا الله عليه وروى عن مجمع بن حارثة الانصاري قال شهدنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انصرفنا عنها اذا الناس يهزون الاباعر فقال بعضهم ما بال الناس قالوا أوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فخرجنا نرجف فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم واقفا على راحلته على كراع الغميم فلما اجتمع عليه الناس قرأ انا فتحنا لك فتحا مبينا فقال عمر أوفتح هو يا رسول الله قال نعم والذي نفسي بيده ففيه دليل على ان

المراد

المراد بالفتح صلح الحديبية وتحقيق الرؤيا كان فى العام المقبل فقال جل ذكره لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق أخبر ان الرؤيا التى أراه اياها فى مخرجه الى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدق وحق وقوله تعالى (بالحق) فيه أربعة أوجه أحدها انه يتعلق بصدق ثانيها أن يكون صفة مصدر محذوف أى صدقا ملتبسا بالحق أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وذلك مافيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص وبين من فى قلبه مرض ثالثها ان يتعلق بمحذوف على أنه حال من الرؤيا أى ملتبسة بالحق رابعها انه قسم وجوابه (لتدخلن) أى بعد هذا دخولا قد تحتم أمره (المسجد) أى الذى يطاف فيه بالكعبة ولا يكون دخوله الا بدخول الحرم (الحرام) أى الذى أجاره من امتهان الجبابرة ومنعه من كل ظالم قال الزمخشرى وعلى تقديره قسما اما أن يكون قسما بالله تعالى فان الحق من أسمائه تعالى واما أن يكون قسما بالحق الذى هو نقيض الباطل (فان قيل) ما وجه دخول (ان شاء الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال (أجيب) بأوجه أحدها أنه تعالى ذكره تعليما لعباده الادب لان يقولوا فى عداتهم مثل ذلك متأدبين بآداب الله ومقتدين بسنته لقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ثانيها أن يريد لتدخلن جميعا ان شاء الله ولم يمت منكم أحد ثالثها ان ذلك كان على لسان ملك فأدخل الملك ان شاء الله رابعها انها حكاية ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه وقص عليهم وقال أبو عبيدة ان بمعنى اذ مجازه اذ شاء الله كقوله تعالى ان كنتم تعلمون خامسها انها للتبرك وقيل هى متعلقة بآمنين فالاستثناء واقع على الامن لا على الدخول لان الدخول لم يكن فيه شك كقوله صلى الله عليه وسلم عند دخول المقبرة وانا ان شاء الله بكم لاحقون فالاستثناء راجع الى اللحوق لا الى الموت وقوله تعالى (آمنين) حال من فاعل لتدخلن وكذا (محلقين رؤسكم) أى كلها (ومقصرين) أى بعضها أى منقسمين بحسب التحليق والتقصير الى قسمين لا تخشون الا الله تعالى وفيه اشارة الى أنهم يتمون الحج من أوله الى آخره فقوله لتدخلن فيه اشارة الى الاول وقوله محلقين ومقصرين اشارة الى الآخر (فان قيل) محلقين حال الداخلين والداخل لا يكون الا محرما والمحرم لا يكون محلقا (أجيب) بأن قوله آمنين معناه متمكنين من أن تتموا الحج محلقين ومقصرين وأشار بصيغة التفعيل الى الكثرة فيهما غير أن التقديم يفهم ان الاول أكثر وقوله تعالى (لا تخافون) أى لا يتجدد لكم خوف بعد ذلك يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون حالا ثالثة اما من فاعل لتدخلن أو من ضمير آمنين أو محلقين أو مقصرين فان كانت حالا من آمنين أو حالا من فاعل لتدخلن فهى حال للتوكيد وآمنين حال مقارنة وما بعدها حال مقدرة الا قوله لا تخافون اذا جعل حالا فانها مقدرة أيضا (فان قيل) قوله تعالى لا تخافون معناه غير خائفين وذلك يحصل بقوله تعالى آمنين (أجيب) بأن فيه كمال الامن لان بعد الحلق يخرج الانسان عن الاحرام فلا يحرم عليه القتال وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال تدخلون آمنين وتحلقون ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الاحرام (فعلم) أى الله فى الصلح من المصلحة (ما لم تعلموا) من المصالح فان الصلاح

كان فى الصلح وانّ دخولكم فى سنتكم سبب لوطء المؤمنين والمؤمنات وهو قوله تعالى ولولا
رجال مؤمنون ونساء مؤمنات الآية (فان قيل) الفاء فى قوله تعالى فعلم فاء التعقيب
فقوله تعالى فعلم وقع عقب ماذا (أجيب) بأنه ان كان المراد من فعلم وقت الدخول فهو عقب
صدق وان كان المراد فعلم المصلحة فالمراد علم الوقوع والشهادة لاعلم الغيب والتقدير
لما حصلت المصلحة فى العام القابل فعلم مالم تعلموا من المصلحة المتجددة (فجعل) أى بسبب
احاطة علمه (من دون) أى أدنى رتبة من (ذلك) أى الدخول العظيم فى هذا العام (فتحا قريبا)
يقويكم به من فتح خيبر ووضع الحرب بين العرب بهذا الصلح واختلاط بعض الناس بسبب
ذلك ببعض الموجب لاسلام ناس كثيرة تتقوون بهم فتكون تلك الكثرة والقوة بسبب هيبة
الكفار المانعة لهم من القتال فقتل القتلى ترفقا بأهل حرم الله اكراما لهذا النبى الكريم صلى
الله عليه وسلم وقوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله) أى الذى لارسول أحق منه باضافته اليه
(بالهدى) أى الكامل الذى يقتضى ان يهتدى به أكثر الناس تأكيد لبيان صدق الله تعالى
للرؤيا لانه لما كان مرسلا لرسوله ليهدى لايريه مالايكون فيحدث الناس فيظهر خلافه فيكون
ذلك سببا للضلال (فان قيل) الرؤيا اللواقع قد تقع لغير المرسل (أجيب) بأن ذلك قليل لايقع
لكل أحد * (تنبيه) * الهدى يحتمل أن يكون هو القرآن كقوله تعالى أنزل فيه القرآن هدى
للناس وعلى هذا قوله تعالى (ودين الحق) هو مافيه من الاصول والفروع ويحتمل أن يكون
الهدى هو المعجزة أى أرسله بالمعجزة فيكون قوله تعالى ودين الحق اشارة الى ماشرع والالف
واللام فى الهدى يحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى ذلك هدى الله يهدى به من يشاء وأن
تكون للتعريف أى كل ماهو هدى * (تنبيه) * دين الحق يحتمل أن يكون المراد دين الله لانّ
الحق من أسماء الله تعالى ويحتمل أن يكون الحق نقيض الباطل فكأنه قال ودين الامر الحق
(ليظهره) أى دينه (على الدين كله) أى جميع باقى الاديان (وكفى بالله) أى الذى له الاحاطة
بجميع صفات الكمال (شهيدا) أى على أنك مرسل بما ذكر كما قال تعالى (محمد رسول الله)
أى الملك الذى لاكفؤ له فهو الرسول الذى لارسول يساويه فانه رسول الى جميع الخلق من
أدرك زمانه بالفعل فى الدنيا ومن تقدمه بالقوة فيها او بالفعل فى الآخرة يوم يكون الكل تحت
لوائه وقد أخذ على الانبياء كلهم الميثاق بأن يؤمنوا به ان أدركوه وأخذ ذلك الانبياء على أممهم
واشار بذكر هذا الاسم بخصوصه فى سورة الفتح الى أنه صلى الله عليه وسلم هو الخاتم بما أشارت
اليه الميم التى مخرجها ختام المخارج واستنبط بعض العلماء من محمد ثلثمائة وأربعة عشر
رسولا فقال فيه ثلاث ميمات واذا بسطت كل منهما قلت فيه م ى م وعدتها بحساب الجمل
الكبير تسعون فيحصل منها مائتان وسبعون واذا بسطت الحاء والدال قلت دال بخمسة وثلاثين
وحاء بتسعة فالجملة ماذكر والاسم واحد فتم عدد الرسل كما قيل انهم ثلثمائة وخمسة عشر وقد
تقدم الكلام على أولى العزم منهم فى سورة الاحقاف * (تنبيه) * يجوز أن يكون محمد خبر
مبتدا مضمر لانه لما تقدم هو الذى أرسل رسوله دل على ذلك المقدر أى هو أى الرسول بالهدى

محمد ورسول الله بدل أو بيان أو نعت وأن يكون محمد مبتدأ وخبره رسول الله وقيل غير ذلك ولما ذكر الرسول ذكر المرسل اليهم فقال تعالى (والذين معه) أى بمعية الصحبة من الصحابة وحسن التبعية من التابعين لهم باحسان (أشداء) أى غلاظ (على الكفار) منهم لا تأخذهم بهم رأفة بل هم معهم كالاسد على فريسته لان الله تعالى أمرهم بالغلظة عليهم لا يرحمونهم (رحماء بينهم) أى متعاطفون متوادون كالوالد مع الولد كما قال تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وعن الحسن بلغ من تشددهم على الكفار انهم كانوا يتحرزون من ثيابهم ان تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من تراحمهم فيما بينهم انه كان لا يرى مؤمن مؤمنا الا صافحه وعانقه ومن حق المسلمين فى كل زمان أن يراعوا هذا التذلل وهذا التعطف فيشددوا على من ليس من دينهم ويتحاموه ويعاشروا اخوانهم المؤمنين فى الاسلام متعطفين بالبر والصلة والمعونة وكف الاذى والاحتمال منهم * (تنبيه) * والذين معه مبتدأ خبره أشداء على الكفار ورحماء بينهم خبر ثان وقيل غير ذلك ثم بين تعالى الحامل لهم على ذلك بقوله سبحانه وتعالى (تراهم) أى أيها الناظر لهم (ركعا سجدا) أى دائمين الخشوع فأكثر أوقاتهم صلاة قد غلبت صفة الملكية على صفاتهم الحيوانية فكانت الصلاة آمرة بالخير مصينة عن كل نقص وضير ثم أشار الى اخلاصهم بقوله تعالى (يبتغون) أى يطلبون بذلك وغيره من جميع أحوالهم بغاية جهدهم تغليبا العقولهم على شهواتهم وحظوظهم (فضلا) أى زيادة من الخير (من الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال من الجلال والجمال الذى أعطاهم ملكة العظمة على الكفار بما وهبهم من جلاله والرأفة على أوليائه (ورضوانا) أى رضا منه عظيما بما نالهم من رحمته التى هياهم بها للاحسان الى عباله فنزعوا الهوى من صدورهم فصاروا يرونه وحده سيدهم المحسن اليهم لا يرون سيدا غيره ولا محسن سواه ثم بين كثرة صلاتهم بقوله تعالى (سيماهم) أى علامتهم التى لا تفارقهم (فى وجوههم) ثم بين تعالى العلامة بقوله (من أثر السجود) وهو نور وبياض فى وجوههم يوم القيامة كما قال تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه رواه عطية العوفى عن ابن عباس * وعن أنس هو استنارة وجوههم من كثرة صلاتهم وقال شهر بن حوشب تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر * وقال مجاهد هو السمت الحسن والخشوع والتواضع والمعنى ان السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن الذى يعرفون به وقال الضحاك هو صفرة الوجه وقال الحسن اذا رأيتهم حسبتهم مرضى وماهم بمرضى وقال عكرمة هو أثر التراب على الجباه قال أبو العالية لانهم يسجدون على التراب لا على الثياب وقال عطاء استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل لان من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار قال بعضهم دخل فى هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس قال البقاعى ولا يظن ان من السيما ما يصنعه بعض المرائين من أثر هيئة السجود فى جبهته فان ذلك من سيما الخوارج وفى نهاية ابن الاثير فى تفسير الثفنات ومنه حديث أبى الدرداء انه رأى رجلا بين عينيه مثل ثفنة البعير فقال لو لم يكن هذا كان خيرا يعنى كان على جبهته أثر السجود

وانما كرهها خوفا من الرياء عليه وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انى لابغض الرجل وأكرهه اذا رأيت بين عينيه اثر السجود وعن بعض المتقدمين كان نصلى فلا يرى بين أعيننا شئ ونرى أحدنا الآن يصلى فيرى بين عينيه ركبة البعير فلا ندرى أثقلت الرؤس أم خشنت الارض وانما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق ثم أشار تعالى الى علو مرتبة ذلك الوصف بقوله سبحانه (ذلك) اى هذا الوصف العالى جدا البديع المثال البعيد المنال (مثلهم) أى صفتهم (فى التوراة) وههنا تم الكلام فان مثلهم مبتدأ وخبره فى التوراة وقوله تعالى (ومثلهم فى الانجيل) أى الذى نسخ الله تعالى به بعض أحكام التوراة مبتدأ وخبره (كزرع) أى مثل زرع (أخرج شطأه) أى فراخه يقال أشطأ الزرع اذا فرخ وهل يختص ذلك بالحنطة فقط أو بها وبالشعير أولا يختص خلاف مشهور قال الشاعر

أخرج الشطأ على وجه الثرى * ومن الاشجار أفنان الثمر

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء والباقون باسكانها وهما لغتان كالنهر والنهر وأدغم أبو عمرو الجيم فى الشين بخلاف عنه ثم سبب عن هذا الاخراج قوله تعالى (فآزره) أى قواه وأعانه وقرأ ابن ذكوان بقصر الهمزة بعد الفاء والباقون بالمد (فاستغلظ) أى فطلب المذكور من الزرع والشطء الغلظ وأوجده فتسبب عن ذلك اعتداله (فاستوى) أى قوى واستقام وقوله تعالى (على سوقه) متعلق باستوى ويجوز أن يكون حالا أى كائنا على سوقه أى قائما عليها هذا مثل ضربه الله تعالى لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الانجيل أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون قال قتادة مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الانجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيل الزرع محمد صلى الله عليه وسلم والشطء أصحابه والمؤمنون وروى مبارك بن فضالة عن الحسن قال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أبو بكر الصديق أشداء على الكفار عمر بن الخطاب رحماء بينهم عثمان بن عفان تراهم ركعا سجدا على بن أبى طالب يبتغون فضلا من الله العشرة المبشرون بالجنة كمثل زرع محمد صلى الله عليه وسلم أخرج شطأه أبو بكر فآزره عمر فاستغلظ عثمان يعنى استغلظ عثمان بالاسلام فاستوى على سوقه على بن أبى طالب رضى الله عنه استقام الاسلام بسيفه (يعجب الزراع) قال المؤمنون (ليغيظ بهم الكفار) قول عمر لاهل مكة بعد ما أسلم لا يعبد الله سرا بعد اليوم روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ارحم أمتى أبو بكر وأشدهم فى أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأفرضهم زيد وأقرؤهم أبى وأعلمهم بالحرام والحلال معاذ بن جبل ولكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح وفى رواية أخرى وأقضاهم على وروى بريدة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من مات من أصحابى بأرض كان نورهم وقائدهم يوم القيامة * (تنبيه) * يعجب حال أى معجبا وهنا تم الكلام وقوله تعالى ليغيظ بهم الكفار فيه أوجه أحدها أنه متعلق بمحذوف دل عليه تشبيههم بالزرع فى نمائهم وقوتهم قال الزمخشرى أى شبههم الله تعالى بذلك ليغيظ ثانيها أنه متعلق بما دل

عليه قوله تعالى أشداء متعلق على الكفار الخ أى جعلهم بهذه الصفات ليغيظ ثالثها أنه متعلق بقوله تعالى (وعد الله) أى الملك الاعظم (الذين آمنوا) لان الكفار اذا سمعوا بعزة المؤمنين فى الدنيا وما أعد الله لهم فى الآخرة غاظهم ذلك وقوله تعالى (وعملوا الصالحات) فيه اشارة الى تصديق دعواهم ومن فى قوله تعالى (منهم) للبيان لا للتبعيض لانهم كلهم كذلك فهى كقوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان * ولما كان الانسان وان اجتهد مقصرا عما يجب لله تعالى من العبادة أشار الى ذلك بقوله تعالى (مغفرة) أى لما يقع منهم من الذنوب والهفوات (وأجرا عظيما) بعد ذلك الستر وهو الجنة وهما أيضا لمن بعدهم ممن يأتى. * (فائدة) * قد جمعت هذه الآية الخاتمة لهذه السورة جميع حروف المعجم وفى ذلك بشارة تلويحية مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم وعلو نصرهم رضى الله عنهم وحشرنا معهم نحن ووالدينا ومحبينا وجميع المسلمين بمنه وكرمه قال وهذا آخر القسم الاول من القرآن وهو المطول وقد ختم كما ترى بسورتين هما فى الحقيقة للنبى صلى الله عليه وسلم وحاصلهما الفتح بالسيف والنصر على من قاتله ظاهرا كما ختم القسم الثانى المفصل بسورتين هما نصره له صلى الله عليه وسلم بالحال على من قصده بالضر باطنا اه وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة حديث موضوع وقال ابن عادل روى أن من قرأ فى أول ليلة من رمضان انا فتحنا لك فتحا مبينا فى التطوع حفظ فى ذلك العام ولم أره لغيره اه

﴿سورة الحجرات مدنية﴾

وهى ثمان عشرة آية وثلثمائة وثلاث وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الجبار المتكبر الذى أعز رسوله صلى الله عليه وسلم (الرحمن) الذى من عموم رحمته الآداب للتوصل الى حسن المآب (الرحيم) الذى خص أولى الالباب بالاقبال على ما يوجب لهم دار الثواب * ولما نوه سبحانه فى القتال بذكر النبى صلى الله عليه وسلم وصرح فى ابتدائها باسمه الشريف وسمى السورة به وملأ سورة الفتح بتعظيمه وختمها باسمه ومدح اتباعه لاجله افتتح هذه السورة باشتراط الادب معه فى القول والفعل فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (لا تقدموا) من قدم بمعنى تقدم أى لا تتقدموا وحذف المفعول ليعم كل ما يصح تقديمه فيذهب الوهم كل مذهب ويجوز أن يكون حذفه من غير قصد اليه أصلا بل يكون النهى موجها الى نفس التقدمة أى لا تتلبسوا بهذا الفعل (بين يدى الله) أى الملك الاعظم الذى لا يطاق انتقامه (ورسوله) أى الذى عظمته ظاهرة جدا لانهاية له لان عظمته من عظمته ولذلك قرن اسمه باسمه واختلف فى سبب نزول ذلك فقال الشعبى عن جابر انه فى الذبح يوم الاضحى قبل الصلاة أى لا تذبحوا قبل أن يذبح النبى صلى الله عليه وسلم وذلك أن أناسا ذبحوا قبله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يعيدوا الذبح وقال من ذبح قبل الصلاة فانما هو لحم عجله لاهله ليس من

النسك في شئ وعن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنه في النهي عن صوم يوم الشك أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم وعن ابن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر أمر القعقاع بن معبد بن زرارة وقال عمر بل أمر الاقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت الا خلافي فقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت هذه الآية قال ابن الزبير فكان عمر لا يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه وعن ابن أبي مليكة نزل يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم وهذا أنسب وقال الضحاك يعني في القتال وشرائع الدين أي لا تقطعوا أمرا دون الله ورسوله قال الرازي والاصح أنه ارشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل افتيات وتقدم واستبداد بالامر واقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة *(تنبيه)* معنى بين يدي الله ورسوله أي بحضرتهما لان ما بحضرة الانسان فهو بين يديه ناظر اليه وحقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعا كما يسمى الشئ باسم غيره اذا جاوره ودا ناه في غير موضع وقد جرت هذه العبارة هنا على ضرب من المجاز وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا وقيل المراد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعالى تعظيم له واشعار بأنه من الله تعالى بمكان يوجب اجلاله (واتقوا الله) اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الاعظم وقاية فان التقوى مانعة من أن تضيعوا حقه وتخالفوا أمره أو تقدموا على شئ لم تعلموا رضاه فيه (ان الله) أي الذي له الاحاطة بصفات الكمال (سميع) لاقوالكم (عليم) بأعمالكم ونزل فيمن رفع صوته عند النبي عليه الصلاة والسلام (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) أي في شئ من الاشياء عند النطق اذا نطقتم (فوق صوت النبي) اذا نطق *(تنبيه)* في اعادة النداء فوائد منها ان في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كقول لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله يا بني انها ان تك يا بني أقم الصلاة لان النداء تنبيه للمنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه فاعادته تفيد تجدد ذلك ومنها أن لا يتوهم أن المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا فان من الجائز أن يقول القائل يا زيد افعل كذا وكذا يا عمرو فاذا أعاد مرة أخرى وقال يا زيد قل يا زيد قل كذا وقل كذا يعلم أن المخاطب أولا هو المخاطب ثانيا ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود وليس الثاني تأكيدا للاول كقولك يا زيد لا تنطق ولا تتكلم الا بالحق وأنه لا يحسن أن يقول يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين (ولا تجهروا له بالقول) أي اذا كلمتموه سواء كان ذلك مثل صوته أو أخفض من صوته فان ذلك غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء (كجهر بعضكم لبعض) أي ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من ذلك فانكم ان لم تفعلوا ذلك لم يظهر فرق بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين غيره (فان قيل) ما الفائدة في ولا تجهروا بعد لا ترفعوا (أجيب) بأن المنع من رفع الصوت هو أن لا يجعل كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصوته والنهي عن الجهر منع من المساواة

أي

أى لاتجهروا له بالقول كما تجهرون لنظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا ثم حذرهم بقوله تعالى (أن) أى كراهة أن (تحبط) أى تفسد فتسقط (أعمالكم) التى هى الاعمال بالحقيقة وهى الحسنات كلها (وأنتم لاتشعرون) أى بأنها حبطت فان ذلك اذا اجترأ الانسان عليه استخف به واذا استخف واظب عليه واذا واظب عليه أوشك أن يستخف بالمخاطب فيكفر وهو لايشعر روى أنس بن مالك قال لما نزل قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم الآية جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال أنا من أهل النار واحتبس عن النبى صلى الله عليه وسلم فسأل النبى صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال ياأبا عمرو ماشأن ثابت أشتكى فقال سعد انه لجارى وماعلمت له شكوى قال فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت نزلت هذه الآية وقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال بل هو من أهل الجنة وروى لما نزلت هذه الآية قعد ثابت فى الطريق يبكى فمر به عاصم بن عدى فقال ومايبكيك ياثابت قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فى وأنا رفيع الصوت أخاف أن يحبط عملى وأكون من أهل النار فمضى عاصم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول فقال لها اذا دخلت بيت فرشى فسدى على الضبة بمسمار فضربت عليه بمسمار وقال لاأخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره فقال اذهب فادعه لى فجاء عاصم الى المكان الذى رآه فيه فلم يجده فجاء الى أهله فوجده فى بيت الفرش فقال له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك فقال اكسر الضبة فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم مايبكيك ياثابت فقال أنا صيت فأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أماترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال رضيت ببشرى الله ورسوله لاأرفع صوتى أبدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عزوجل (ان الذين يغضون) أى يخفضون ويلينون لما وقع عليهم من السكينة من هيبة حضرته قال الطبرى وأصل الغض الكف فى لين (أصواتهم) تخشعا وتخضعا ورعاية للادب وتوقيرا (عند رسول الله) أى الذى من شأنه أن يعلو كلامه على كل كلام لانه مبلغ عن الملك الاعظم وعبر بعند الذى للظاهر اشارة الى أن أهل حضرة الخصوصية لايقع منهم الاكمل الادب (أولئك) أى عالو الرتبة (الذين امتحن الله) أى فعل المحيط بجميع صفات الكمال فعل المختبر (قلوبهم للتقوى) أى اختبرها وأخلصها لتظهر منهم من امتحن الذهب اذا أذابه وميز ابريزه من خبثه فان الامتحان اختبار بليغ يؤدى الى خبر فالمعنى أنه طهر قلوبهم ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب والفضة بالاذابة والتنقية والتخليص من كل غش لاجل اظهار مابطن فيها من التقوى ليصير معلوما للخلق فى عالم الشهادة كما كان له سبحانه فى عالم الغيب (لهم مغفرة) أى لهفواتهم وزلاتهم (وأجر عظيم) لغضهم وسائر

طاعاتهم والتنكير للتعظيم قال أنس فكنا أى بعد نزول هذه الآية فى حق ثابت ننظر الى رجل
من أهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان فى يوم حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض
الانكسار فانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء ثم قال ثابت لسالم مولى أبى حذيفة ما كنا
نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا وقاتلا حتى قتلا واستشهد
ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام فقال له اعلم أن فلانا رجل من المسلمين
نزع درعى فذهب بها وهى فى ناحية من العسكر عند فرس يستن فى طوله وقد وضع على درعى
ثوبه فائت أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل له ان على دينا حتى يقضيه عنى
وفلان من رقيقى عتيق فأخبر الرجل خالدا فوجد درعه والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع
وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤية فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس لا أعلم وصية أجيزت بعد
موت صاحبها الا هذه واختلف فى سبب نزول قوله عز وجل (ان الذين ينادونك من وراء
الحجرات) فقال ابن عباس رضى الله عنهما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى بنى
العنبر وأمر عليهم عتبة بن حصن الفزارى فلما علموا اهربوا وتركوا اعيالهم فسباهم عتبة وقدم
بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءهم بعد ذلك رجالهم يفدون الذرارى فقدموا وقت
الظهيرة ووافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا فى أهله فلما رأتهم الذرارى اجهشوا الى
آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرة فعجلوا أن يخرج
اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادون يا محمد اخرج الينا حتى أيقظوه من نومه فخرج
اليهم فقالوا يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبريل عليه السلام فقال ان الله تبارك وتعالى يأمرك أن
تجعل بينك وبينهم رجلا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أترضون أن يكون بينى
وبينكم شبرمة بن عمرو وهو على دينكم فقالوا نعم فقال شبرمة أنا لا أحكم بينهم وعمى شاهد وهو
الاعور بن بسامة فرضوا به فقال الاعور أرى أن تفادى نصفهم وتعتق نصفهم فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم قد رضيت ففادى نصفهم وأعتق نصفهم فأنزل الله تعالى ان الذين
ينادونك من وراء الحجرات جمع حجرة وهى ما تحجره من الارض بحائط ونحوه كان كل واحد
منهم نادى خلف حجرة لانهم لم يعلموه فى أيها مناداة الاعراب بغلظة وجفاء (أكثرهم) أى
المنادى والراضى دون الساكت لعذر (لا يعقلون) أى محلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم
فلم يصبروا بل فعلوا معه صلى الله عليه وسلم كما يفعل بعضهم ببعض (ولو أنهم) أى المنادى
والراضى (صبروا) أى حبسوا أنفسهم ومنعوها عن مناداتهم والصبر حبس النفس عن أن
تنازع الى هواها وهو حبس فيه شدة وصبر (حتى تخرج اليهم) من تلقاء نفسك عند فراغ
ما أنت فيه مما يهمك من واردات الحق ومصالح الخلق (لكان) أى الصبر (خيرا لهم) أى
من استعجالهم ايقاظك فى الهاجرة ومما لو قرعوا الباب بالاظافر كما كان يفعل غيرهم من
الصحابة قال أبو عثمان الادب عند الاكابر يبلغ بصاحبه الى الدرجات العلا والخير فى الاولى
والعقبى اه فانهم لو تأدبوا لربهم لزادهم صلى الله عليه وسلم فى الفضل فأعتق جميع سبيهم

واطلقهم

وأطلقهم بالافداء (والله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (غفور) أي ستور ذنب من تاب من جهله (رحيم) أي يعاملهم معاملة الراحم فيسبغ عليهم نعمه وقال قتادة نزلت في ناس من أعراب تميم جاؤا الى النبي صلى الله عليه وسلم فنادوا على الباب اخرج الينا يا محمد فان مدحنا زين وذمنا شين فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول انما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين فقالوا نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبي صلى الله عليه وسلم قم فأجبه فاجابه وقام شاعر فذكر أبياتا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فأجابه فقام الاقرع بن حابس فقال ان محمد المولى تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولا ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يضرك ما كان من قبل هذا ثم أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم وكان قد تخلف في ركابهم عمرو بن الاهيم لحداثة سنه فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما اعطاهم فأزرى به بعضهم وارتفعت الاصوات وكثر اللغط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل فيهم يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآيات الاربع الى قوله تعالى غفور رحيم وقال زيد بن أرقم جاء ناس من العرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض انطلقوا بنا الى هذا الرجل فان يكن نبيا فنحن أسعد الناس به وان يكن ملكا نعش في جناحه فجاؤا فجعلوا ينادون من وراء الحجرات يا محمد فأنزل الله تعالى ان الذين ينادونك الآية وقيل المراد بأكثرهم كلهم لان العرب تذكر الاكثر وتريد الكل احترازا عن الكذب واحتياطا في الكلام لان الكل ما لا يحيط به علم الانسان في بعض الاشياء فيقول الاكثر وفي اعتقاده الكل ثم ان الله تعالى مع احاطة علمه بالامور اتى بما يناسب كلامهم وفيه اشارة الى لطيفة وهي ان الله تعالى يقول مع احاطة علمي بكل شئ جريت على عادتكم استحسانا لتلك العادة وهي الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها واجعلوا اختياري ذلك في كلامي دليلا قاطعا على رضاي بذلك منكم * (تنبيه) * جعل الزمخشري أنهم من ولو أنهم فاعلا بفعل مقدر أي ولو ثبت صبرهم وجعل اسم كان ضميرا عائدا على هذا الفاعل ولكن مذهب سيبويه أنها في محل رفع بالابتداء وحينئذ يكون اسم كان ضميرا عائدا على صبرهم المفهوم وجرى على الاول البيضاوي وعلى الثاني الجلال المحلي واختلف في سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم) أي في وقت من الاوقات (فاسق) أي خارج من ربقة الديانة (بنبأ) أي خبر يعظم خطبه فيشير شرا (فتبينوا) صدقه من كذبه فقال أكثر المفسرين نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخو عثمان لامه وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه الى بني المصطلق بعد الوقعة واليا ومصدقا أي يأخذ منهم الصدقة وكان بينه

وبينهم عداوة فى الجاهلية فلما سمع به القوم تلقوه تعظيما لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال انهم منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدى اليه ماقبلنا من حق الله فبدا له فى الرجوع فخشينا أنه انما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا وانا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث خالد بن الوليد خفية فى عسكره وأمره أن يخفى عليهم قدومه وقال انظر فان رأيت منهم مايدل على ايمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وان لم تر ذلك فاستعمل فيهم ماتستعمل فى الكفار ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتى المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم الا الطاعة والخير وانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر فنزل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (أن تصيبوا) أى بأذى (قوما) أى هم مع قوتهم النافعة لاهل الاسلام برآء مما نسب اليهم (بجهالة) أى مع الجهل بحال استحقاقهم لذلك (فتصبحوا) أى فتصيروا ولكنه عبر بذلك لان أشنع الندم ما استقبل الانسان صباحا وقت انتباهه وفراغه واقباله على لذاته (على مافعلتم) أى من اصابتهم (نادمين) أى غريقين فى الاسف على مافات مما أوقع الله تعالى فى نفوسكم من أمور ترجف القلوب وقال الرازى هذا ضعيف لان الله تعالى لم يقل انى أنزلتها لكذا والنبى صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه قال وردت الآية لبيان ذلك حسب غاية مافى الباب أنها نزلت فى ذلك الوقت وهو مثل تاريخ نزول الآية ومما يصدق ذلك ويؤيده أن اطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد لانه توهم وظن فأخطأ والمخطئ لايسمى فاسقا فكيف والفاسق فى أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الايمان كقوله تعالى ان الله لايهدى القوم الفاسقين وقوله تعالى ففسق عن أمر ربه وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار الآية الى غير ذلك اه وقال ابن الخازن فى تفسيره وقيل هو عام نزلت لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق وهذا أولى من حمل الآية على رجل بعينه *(تنبيه)* قوله تعالى أن تصيبوا مفعول له كقوله تعالى أن تحبط قال الرازى معناه على مذهب الكوفيين لئلا تصيبوا وعلى مذهب البصريين كراهة أن تصيبوا وقرأ حمزة والكسائى بعد النون المثناة ثاء مثلثة وبعد الباء الموحدة تاء مثناة فوق من التثبت أى فتوقفوا الى أن يتبين لكم الحال والباقون بعد التاء المثناة بياء موحدة وبعدها ياء تحتية وبعدها نون من البيان (واعلموا) أى أيتها الامة (أن فيكم) أى على وجه الاختصاص بكم وياله من شرف (رسول الله) أى الملك الاعظم المتصف بالجلال والاكرام فلا تقولوا الباطل فان الله يخبره بالحال (لو يطيعكم) وهو لايحب عنتكم ولاشيأ يشق عليكم (فى كثير من الامر) أى الذى تريدونه على فعله من أنه يعمل فى الحوادث على مقتضى مايعن لكم وتستصوبونه ليكون فعله معكم فعل المطواع لغيره التابع له فينقلب حينئذ الحال ويصير المتبوع تابعا والمطاع طائعا (لعنتم) أى

لاثمتم

لاعنتم دونه وهلكتم لان من أراد أن يكون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم تابعا لامره فقد زين له الشيطان الكفران وقوله تعالى (ولكن الله) أى الملك الاعظم الذى يفعل ما يريد (حبب اليكم الايمان وزينه) أى حسنه (فى قلوبكم) فلزمتم طاعته وعشقتم متابعته استدراك من جهة المعنى لا من جهة اللفظ لبيان عذرهم وهو أنه من فرط حبهم للايمان وكراهتهم للكفر كما قال تعالى (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم احماد الفعالهم وتعريضا بذم من فعل قال الرازى هذه الامور الثلاثة فى مقابلة الايمان الكامل المزين وهو التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان فقوله تعالى كره اليكم الكفر وهو التكذيب وهو فى مقابلة التصديق بالجنان وأما الفسوق فقيل هو الكذب كما قاله ابن عباس قال تعالى ان جاءكم فاسق بنبا فسمى الكاذب فاسقا وقال البيضاوى الكفر تغطية نعم الله بالجحود والفسوق الخروج عن القصد والعصيان الامتناع عن الانقياد وقال بعضهم الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة والعصيان هو الصغيرة (أولئك) أى الذين أعلى الله تعالى مقاديرهم (هم الراشدون) أى الكاملون فى الرشد الثابتون الاستقامة وعلى دينهم وفى تفسير الاصفهانى الرشد هو الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه وقوله تعالى (فضلا) مصدر منصوب بفعله المقدر أى فضل وقيل تعليل لكره أو حبب وما بينهما اعتراض فهو امتنان عظيم ودرجة عالية (من الله) أى الملك الاعظم الذى بيده كل شئ (ونعمة) أى وعيشا حسنا ناعما وكرامة (والله) أى المحيط بصفات الكمال (عليم) أى محيط العلم يعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل (حكيم) أى بالغ الحكمة فهو يضع الاشياء فى أوفق محالها وأتقنها فكذلك وضع نعمته من الرسالة والايمان على حسب علمه وحكمته ونزل فى قضية (وان طائفتان من المؤمنين) الآية وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب حمارا ومر على ابن أبى فبال الحمار فسد ابن أبى أنفه فقال ابن رواحة لبول حماره أطيب ريحا من مسكك فكان بين قومهما ضرب بالايدى والنعال والسعف وعن أنس قال قيل للنبى صلى الله عليه وسلم لو أتيت عبد الله بن أبى فانطلق اليه النبى صلى الله عليه وسلم وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون معه وهو بأرض سبخة فلما أتاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال اليك عنى فوالله لقد اذانى نتن حمارك فقال رجل من الانصار منهم والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتما فغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهما ضرب بالجريد والايدى والنعال فبلغنا انها نزلت فيهم ويروى انها لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض وعن قتادة نزلت فى رجلين من الانصار كان بينهما مداراة فى حق فقال أحدهما للآخر لآخذن حقى منك عنوة لكثرة عشيرته وان الآخر دعاه ليحاكمه الى النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه فلم يزل الامر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالايدى والنعال ولم يكن قتال بالسيوف وعن سفيان عن السدى قال كانت امرأة

من الانصار فقال لها أم زيد تحت رجل وكان بينها وبين زوجها شئ فرقى بها الى علية وحبسها فبلغ ذلك قومها فجاؤا وجاء قومه واقتتلوا بالايدى والنعال فنزلت وجمع تعالى قوله سبحانه (اقتتلوا) نظرا للمعنى لان كل طائفة جماعة وثنى الضمير فى قوله تعالى (فأصلحوا) أى أوقعوا الاصلاح ليحصل الصلح (بينهما) نظرا للفظ أى أصلحوا بينهما بالنصح والدعاء الى حكم الله تعالى (فان بغت) أى أوقعت الارادات السيئة الكائنة من النفوس التى لا تأمر بخير (احداهما) أى الطائفتين (على الاخرى) فلم ترجع الى حكم الله الذى خرجت عنه ولم تقبل الحق (فقاتلوا) أى اطلبوا وأوجدوا مقاتلة (التى تبغى) أى توقع الارادة السيئة وتصر عليها وأديموا القتال لها (حتى تفئ) أى ترجع عما صارت اليه من حر القطيعة الذى كأنه حر الشمس حتى نسخه الظل الى ما كانت فيه من البرد والخير الذى هو كالظل الذى نسخته الشمس وهو معنى قوله تعالى (الى أمر الله) أى التزام ما أمر به الملك الذى لا يهمل الظالم بل لا بد من أن يقاصصه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء والباقون بتحقيقهما (فان فاءت) أى رجعت الى ما كانت عليه من التمسك بأمر الله الذى هو العدل (فأصلحوا) أى اوقعوا الاصلاح (بينهما بالعدل) أى بالانصاف ولا يحملنكم القتال على الحقد على المقاتلين فتحيفوا (وأقسطوا) أى وأزيلوا القسط بالفتح وهو الجور بأن تفعلوا القسط بالكسر وهو العدل الذى لا جور فيه فى ذلك وفى جميع أموركم ثم علله ترغيبا فيه بقوله تعالى مؤكدا تنبيها على أنه من أعظم ما يتمادح به ورداعلى من اعله يقول انه لا يلزم نفسه الوقوف عنده الا الضعيف (ان الله) أى الذى بيده النصر والخذلان (يحب المقسطين) أى يفعل مع أهل العدل من الاكرام فعل المحب (انما المؤمنون) أى كلهم وان تباعدت أنسابهم وبلادهم (اخوة) أى فى الدين لانتسابهم الى أصل واحد هو الايمان ولما كانت الاخوة داعية ولا بد الى الاصلاح تسبب عنها قوله تعالى (فأصلحوا بين أخويكم) كما تصلحون بين أخويكم من النسب ووضع الظاهر موضع الضمير مضافا الى المأمور مبالغة فى التقرير والتحضيض وخص الاثنين بالذكر لانهما أقل من يقع بينهما الشقاق وعن أبي عثمان الحيرى ان اخوة الدين أثبت من اخوة النسب فان اخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين واخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب (واتقوا الله) أى الملك الاعظم فى مخالفة حكمه والاهمال فيه (لعلكم ترحمون) أى لتكونوا اذا فعلتم ذلك على رجاء عند أنفسكم أن يكرمكم الذى لا قادر على الاكرام فى الحقيقة غيره بأنواع الكرامات كما رحمتم اخوانكم باكرامكم عن افساد ذات البين وعن الزهرى عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه فمن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة *(تنبيه)* فى هاتين الآيتين دليل على أن البغى لا يزيل اسم الايمان لان الله تعالى سماهم اخوة مؤمنين مع كونهم باغين يدل عليه ماروى عن على بن أبى طالب سئل وهو القدوة فى قتال أهل

البغى عن أهل الجمل وصفين أمشركون فقال لا من الشرك فروا فقيل أمنافقون هم فقال لا ان المنافقين لا يذكرون الله الا قليلا قيل فما حالهم قال اخواننا بغوا علينا والباغى فى الشرع هو الخارج عن الامام العدل بتأويل محتمل وشوكة لهم ومطاع تحصل به قوة الشوكة وان لم يكن لهم امام والحكم فيهم أن يبعث اليهم الامام أمينا فطنا ناصحا ينصحهم ما ينقمون فان ذكروا مظلمة أو شبهة أزالها وان أصروا نصحهم ثم أعلمهم بالقتال فان استمهلوا اجتهد وفعل ما رآه صوابا والحكم فى قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم ويرد سلاحهم وخيلهم اليهم اذا انقضت الحرب وأمنت غائلتهم ولا يستعمل فى قتال الا لضرورة ولا يقاتلون بعظيم كنار ومنجنيق الا لضرورة ولو أقاموا حدا أو أخذوا زكاة وجزية وخراجا وفرقوا اسهم المرتزقة على جندهم صح ما فعلوه وما أتلفه باغ على عادل وعكسه ان كان بسبب قتال فلا ضمان على واحد منهما والا فعلى المتلف الضمان قال ابن سهل كانت فى تلك الفتنة دماء يغرق فى بعضها القاتل والمقتول وأتلف فيها أموال ثم صار الناس الى أن سكنت الحرب بينهم وجرى الحكم عليهم فما رأيته اقتص من أحد ولا أغرم ما لا أتلفه ولو أظهر قوم رأى الخوارج كترك الجماعات وتكفير ذى كبيرة ولم يقاتلوا فلا نتعرض لهم روى ان عليا سمع رجلا يقول فى ناحية المسجد لا حكم الا لله تعالى فقال على رضى الله عنه كلمة حق أريد بها باطل لكم علينا ثلاثة لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ولا نمنعكم الفئ ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نبدؤكم بقتال فان قاتلوا فحكمهم حكم قطاع الطريق وتفريعات أحكام البغاة مذكورة فى الفقه وفى هذا القدر كفاية واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى أوقعوا الاقرار بالتصديق (لا يسخر) أى لا يهزأ والسخرية هى أن لا ينظر الانسان الى أخيه بعين الاجلال ولا يلتفت اليه ويسقطه عن درجته (قوم) أى ناس فيهم قوة المحاولة وهم الرجال وفى التعبير بذلك تنبيه على قيام الانسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص منكرا لما أعطاه الله تعالى من القوة (من قوم) أى من رجال فان ذلك يوجب الشر لان أضعف الناس اذا استهزئ به قوى لما يثور عنده من حظ النفس فقال ابن عباس نزلت فى ثابت بن قيس كان فى أذنه وقر أى ثقل فكان اذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس الى جنبه فيسمع ما يقول فاقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبى صلى الله عليه وسلم من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم فضن أى بخل كل رجل منهم بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لاحد فكان الرجل اذا جاء فلم يجد مجلسا قام قائما فلما فرغ ثابت من صلاته أقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخطى رقاب الناس ويقول تفسحوا تفسحوا فجعلوا يتفسحون حتى انتهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له تفسح فقال الرجل قد أصبت مجلسا فاجلس فجلس ثابت خلفه مغضبا فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال من هذا فقال له أنا فلان فقال له ثابت ابن فلانة ذكر أما له كان يعير بها فى الجاهلية فنكس الرجل رأسه فاستحيا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال الضحاك نزلت فى وفد تميم كانوا يستهزؤن

بفقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مثل عمار وخبيب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوا من رثاثة حالهم ومعنى الآية لا تحقروا اخوانكم ولا تستصغروهم ثم علل النهي بقوله تعالى (عسى) أي لانه جدير وخليق لهم (أن يكونوا) أي المستهزأ بهم (خيرا منهم) فينقلب الامر عليهم وتكون لهم سوء العاقبة قال ابن مسعود البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلبا وقال القشيري ما استصغر أحد أحدا الا سلط عليه ولا ينبغي أن يغتر بظاهر أحوال الناس فان في الزوايا خبايا والحق سبحانه يستر أولياءه في حجاب الظنة وكذا في الخبر كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (ولا) يسخر (نساء من نساء) ثم علل النهي بقوله تعالى (عسى) أي ينبغي أن يخفن من (أن يكن) أي المسخور بهن (خيرا منهن) أي الساخرات روى انها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم عيرن أم سلمة بالقصر وروى عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي ابن أخطب قال لها النساء يهودية بنت يهوديين * (تنبيهان) * أحدهما قال الرازي القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الاطفال لانه جمع قائم والقائم بالامور هم الرجال وعلى هذا ففي افراد الرجال والنساء فائدة وهي أن عدم الالتفات والاستحقار أن يصدر في أكثر الامر من الرجال بالنسبة الى الرجال لان المرأة في نفسها ضعيفة قال صلى الله عليه وسلم النساء لحم على وضم فالمرأة لا يوجد منها استحقار لرجل لانها مضطرة اليه في رفع حوائجها وأما الرجال بالنسبة الى الرجال والنساء بالنسبة الى النساء فانه يوجد فيهن ذلك (الثاني) في حكمة قوله تعالى عسى أن يكونوا خيرا منهم هي أنهم اذا وجدوا منهم التكبر المقتضي الى احباط العمل جعل نفسه خيرا منهم كما فعل ابليس حيث لم يلتفت الى آدم وقال أنا خير منه فصار هو خيرا منه ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى يكونوا أي يصيروا فان من استحقر انسانا لفقره أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير ويقوى الضعيف (ولا تلمزوا) أي تعيبوا على وجه الخفية (أنفسكم) بأن يعيب بعضكم بعضا باشارة أو نحوها فكيف اذا كان على وجه الظهور فانكم في التواصل والتراحم كنفس واحدة أو يعمل الانسان ما يعاب به فيكون الانسان قد لمز نفسه أو يلمز غيره فيكون لمزه له سببا لان يبحث عن عيوبه فيلمزه فيكون هو الذي لمز نفسه (ولا تنابزوا بالالقاب) أي ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء فان النبز يختص بلقب السوء واختلف في هذا اللقب فقال عكرمة هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر وقال الحسن كان اليهودي والنصراني يسلم فيقال له بعد اسلامه يا يهودي يا نصراني فنهوا عن ذلك وقال عطاء هو أن يقول الرجل لاخيه يا حمار يا خنزير وعن ابن عباس التنابز بالالقاب هو أن يكون الرجل عمل السيآت ثم تاب عنها فنهى أن يعير بما سلف من عمله والحاصل أنه يحرم تلقيب الشخص بما يكره وان كان فيه كالاعور والاعمش ويجوز ذكره بنية التعريف لمن لا يعرفه الا به وأما ألقاب المدح فنعما هي فقد لقب الصديق بعتيق وعمر بالفاروق وحمزة بأسد الله وخالد بن الوليد بسيف الله وما زالت الالقاب

الحسنة فى الجاهلية والاسلام قال الزمخشرى الاما أحدثه الناس فى زماننا من التوسع حتى لقبوا السفلة بالالقاب العلية وهب أن العذر مبسوط فما أقول لمن ليس من الدين فى قبيل ولا دبير بفلان الدين لعمرى والله انها الغصة التى لا تساغ ومعنى اللقب اسم زائد على الاسم يشعر بضعة المسمى أو رفعته والمقصود به الشهرة فما كان مكروها نهى عنه ويسن أن يكنى أهل الفضل الرجال والنساء وان لم يكن لهم ولد وأما التكنى بأبى القاسم فهو حرام وقيل انما يحرم فى زمانه صلى الله عليه وسلم فقط وقيل انما يحرم على من اسمه محمد ولا يكنى كافر ولا فاسق ولا مبتدع لان الكنية للتكرمة وليسوا من أهلها بل أمرنا بالاغلاظ عليهم الا لخوف فتنة من ذكره باسمه أو تعريفه كما قيل به فى قوله تعالى تبت يدا أبى لهب واسمه عبد العزى ولا بأس بكنية الصغير ويسن أن يكنى من له أولاد بأكبر أولاده ويسن لولد الشخص وتلميذه وغلامه أن لا يسميه باسمه والادب أن لا يكنى الشخص نفسه فى كتاب أو غيره الا ان كان لا يعرف بغيرها أو كانت أشهر من الاسم *(تنبيه)* ذكر فى الآية ثلاثة أمور مرتبة بعضها دون بعض كما علم من تقريرها (بئس الاسم) أى المذكور من السخرية واللمز والتنابز وقوله تعالى (الفسوق) أى الخروج من ربقة الدين (بعد الايمان) بدل من الاسم لافادة انه فسق لتكرره عادة وروى ان الآية نزلت فى صفية بنت حيى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان النساء يقلن لى يا يهودية بنت يهوديين فقال هلا قلت ان أبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد صلى الله عليه وسلم (ومن لم يتب) أى يرجع عما نهى الله عنه فخفف على نفسه ما كان شدد عليها (فأولئك) أى البعداء من الله تعالى (هم الظالمون) أى الغريقون فى وضع الاشياء فى غير مواضعها وأدغم أبو عمرو والكسائى الباء فى الفاء واختلف عن خلاد والباقون بالاظهار (يا أيها الذين آمنوا) أى اعترفوا بالايمان وان كانوا فى أول مراتبه (اجتنبوا) أى كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا فى جانب بعيد عنكم (كثيرا من الظن) أى فى الناس وغيرهم واحتاطوا فى كل ظن ولا تمادوا معه حتى تجزموا بسببه *(تنبيه)* أفهم ذلك ان من الظن ما لا يجتنب كما فى الاجتهاد حيث لا قاطع وكما فى ظن الخير فى الله تعالى ففى الحديث أنا عند ظن عبدى بى فلا يظن بى الا خيرا بل قد يجب كما فى قوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقيل نزلت فى رجلين اغتابا رفيقهما وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج الى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما الى المنزل فيهيئ لهما طعامهما وشرابهما فضم سلمان الفارسى الى رجلين فى بعض أسفاره فتقدم سلمان الى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيئ لهما شيأ فلما قدما قالا له ما صنعت شيأ قال لا غلبتنى عيناى قالا له انطلق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطلب لنا منه طعاما فجاء سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله طعاما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى أسامة بن زيد وقل له ان كان عندك فضل من طعام فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رحله فأتاه فقال ما عندى شئ فرجع سلمان اليهما

فأخبرهما فقالا كان عند أسامة ولكن بخل فبعثنا سلمان الى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيأ فلما رجع قالا لو بعثناه الى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاآ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما قالا والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحما قال ظللتم تأكلون لحم أسامة وسلمان فأنزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن وقوله تعالى (ان بعض الظن اثم) تعليل مستأنف للامر قال صلى الله عليه وسلم اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث والاثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وجعل الزمخشرى همزه بدلا من واو وقال لانه يثم الاعمال أى يكسرها قال ابن عادل وهذا غير مسلم بل تلك مادة أخرى قال سفيان الثورى الظن ظنان أحدهما اثم وهو أن يظن ويتكلم به والآخر ليس باثم وهو أن يظن ولا يتكلم به وقوله تعالى (ولا تجسسوا) حذف منه احدى التاءين أى لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم بالبحث عنها قال صلى الله عليه وسلم لا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وقال عليه الصلاة والسلام يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله ونظر ابن عمر يوما الى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك وقيل لابن مسعود هل لك فى الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمرا فقال انا نهينا عن التجسس وان يظهر لنا شئ نأخذ به * (تنبيه) * قرأ ولا تنابزوا ولا تجسسوا ولتعارفوا البزى فى الوصل بتشديد التاء والباقون بغير تشديد ولما كانت الغيبة أعم من التجسس قال (ولا يغتب) أى ولا يتعمد أن يذكر (بعضكم بعضا) أى فى غيبته بما يكره قال القشيرى وليس تحصل الغيبة للخلق الا من الغيبة عن الحق وقال أبو حيان قال ابن عباس الغيبة ادام كلاب الناس وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فقالوا لا يأكل حتى يطعم ولا يرحل حتى يرحل فقال النبى صلى الله عليه وسلم اغتبتموه فقالوا انما حدثنا بما فيه قال حسبك اذا ذكرت أخاك بما فيه وفى هذا اشارة الى وجوب حفظ عرض المؤمن فان تمزيق عرض الانسان كتمزيق أديمه ولحمه كما قال تعالى (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه) وقرأ (ميتا) نافع بتشديد الياء والباقون بالسكون ولما كان الجواب قطعا لا يحب أحد ذلك أشار اليه بما سببه من قوله تعالى (فكرهتموه) أى بسبب ما ذكر طبعا فأولى أن تكرهوا الغيبة المحرمة عقلا لان داعى العقل بصير عالم وداعى الطبع أعمى جاهل * (تنبيه) * فى هذا التشبيه اشارة الى أن عرض الانسان كدمه ولحمه لان الانسان يتألم قلبه من قرض العرض كما يتألم جسمه من قطع اللحم وهذا

من باب القياس الظاهر لان عرض الانسان أشرف من لحمه ودمه فاذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الاولى لان ذلك أشد ألما وقوله تعالى لحم أخيه آكد فى المنع لان العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو وفى قوله تعالى ميتا اشارة الى دفع وهم وهو أن يقال ان الشتم فى الوجه يؤلم فيحرم وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه فلا يؤلم فيقال لحم الاخ وهو ميت أيضا لا يؤلم ومع هذا هو فى غاية القبح كما أنه لو اطلع عليه لتألم فان الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه وفيه معنى لطيف وهو أن الاغتياب أكل لحم الآدمى ميتا ولا يحل أكله الا للمضطر بقدر الحاجة والمضطر اذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمى فلا يأكل لحم الآدمى فكذلك المغتاب اذا وجد لحاجته مدفعا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب قال مجاهد لما قيل لهم أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا قالوا لا قيل فكرهتموه أى كما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا قال الزجاج تأويله ان ذكرك من لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك قال الرازى وفى ضمير فكرهتموه وجوه أظهرها أن يعود الى الاكل وثانيها أن يعود الى اللحم أى فكرهتم اللحم وثالثها أن يعود الى الميت فى قوله تعالى ميتا تقديره أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا متغيرا فكرهتموه فكأنه صفة لقوله ميتا ويكون فيه زيادة مبالغة فى التحذير يعنى الميتة ان أكلت فى الندرة تستطاب نادرا ولكن اذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلا فكذلك ينبغى أن تكون الغيبة وذلك يحقق الكراهة ويوجب النفرة الى حد لا يشتهى الانسان أن يبيت فى بيت فيه ميت فكيف يقربه بحيث يأكله ففيه اذا كراهية شديدة وكذلك حال الغيبة وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لما عرج بى مررت بقوم لهم أظافير من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم وقال ميمون بن سنان بينما أنا نائم اذا أنا بجيفة زنجى وقائل يقول لى كل هذا قلت يا عبد الله ولم آكل هذا قال انك اغتبت عبد فلان قلت والله ما ذكرت فيه خيرا ولا شرا قال ولكنك سمعت ورضيت فكان ميمون لا يغتاب أحدا ولا يدع أحدا يغتاب عنده وقوله تعالى (واتقوا الله) أى اجعلوا بينكم وبين الملك الاعظم وقاية بطاعته معطوف على ما تقدم من الاوامر والنواهى أى اجتنبوا واتقوا الله (ان الله) أى الملك الاعظم (تواب) أى مكرر للتوبة وهى الرجوع عن المعصية الى ما كان قبلها من معاملة التائب وان كثر الذنب فلا ييأس أحد وان كثرت ذنوبه وعظمت (رحيم) يزيده على ذلك بأن يكرمه غاية الاكرام *(تنبيه)* ختم سبحانه وتعالى الآيتين بذكر التوبة فقال فى الاولى ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون وقال ههنا ان الله تواب رحيم لكن لما كان الابتداء فى الآية الاولى بالنهى فى قوله تعالى لا يسخر قوم من قوم ذكر النفى الذى هو قريب من النهى وفى الثانية كان الابتداء بالامر فى قوله تعالى اجتنبوا كثيرا فذكر الاثبات الذى هو قريب من الامر وقوله تعالى (يا أيها الناس) أى كافة المؤمن وغيره (انا) أى على ما لنا من العظمة (خلقناكم) أى أوجدناكم من العدم على ما أنتم عليه من المقادير

(من ذكر وأنثى) الآية مبين ومقرر لما تقدم لان السخرية من الغير وغيبته ان كان ذلك بسبب غير الدين والايمان فلا يجوز لان الناس بعمومهم كافرهم ومؤمنهم يشتركون فيما يفتخر به المفتخر لان التكبر والافتخار ان كان بسبب الغنى فالكافر قد يكون غنيا والمؤمن فقيرا وبالعكس وان كان بسبب النسب فالكافر قد يكون نسيبا والمؤمن مولى وعبدا أسود وبالعكس فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون ومتقاربون ولا يؤثر شئ من ذلك مع عدم التقوى كما قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فقوله تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى أى آدم وحواء فأنتم متساوون فى النسب فلا تفاخر لبعض على بعض لكونهم ابناء رجل واحد وامرأة واحدة قال ابن عباس نزلت فى ثابت بن قيس وقوله للرجل الذى لم يفسح له ابن فلانة فقال النبى صلى الله عليه وسلم من الذاكر فلانة قال ثابت أنا يا رسول الله فقال انظر فى وجوه القوم فنظر فقال ما رأيت يا ثابت قال رأيت أبيض وأحمر وأسود قال فانك لا تفضلهم الا فى الدين والتقوى فنزلت هذه الآية ونزل فى الذى لم يفسح له يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس الآية وقال قتادة لما كان فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم وقال الحرث بن هشام أما وجد محمد أغير من هذا الغراب الاسود مؤذنا وقال سهيل بن عمرو ان يرد الله شيأ يغيره وقال أبو سفيان انى لا أقول شيأ أخاف أن يخبره به رب العالمين رب السموات فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالوه فدعاهم وسألهم عما قالوا فاقروا فأنزل الله تعالى هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالانساب والتكاثر بالاموال والازدراء بالفقراء * (تنبيه) * الحكمة فى اختيار النسب مع أن غيره من جملة أسباب التفاخر ولم يذكر الامور التى يفتخر بها فى الدنيا وان كانت كثيرة لان النسب أعلاها لان المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار الغنى المفتخر به عليه والسمن والحسن وغير ذلك لا يدوم والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله تعالى للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة الى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بطريق الاولى (فان قيل) اذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فما فائدة قوله تعالى انا خلقناكم (أجيب) بأن فائدته أن كل شئ يترجح على غيره فاما أن يترجح بأمر فيه يلحقه ويترتب عليه بعد وجوده واما أن يترجح عليه بأمر قبله فالذى بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الاوصاف المطلوبة من ذلك الشئ وأما الذى قبله فاما راجع الى أصله الذى وجد فيه أو الى الفاعل الذى أوجده فالاول كقولك هذا من نحاس وهذا من فضة والثانى كقولك هذا عمل فلان وهذا عمل فلان فقال تعالى لا ترجيح بالنسبة الى فاعلكم لانكم كلكم خلق الله تعالى فان كان عندكم تفاوت فهو بأمور تحصل لكم بعد وجودكم وأشرفها التقوى ولما كان تفصيلهم الى فرق كل منها يعرف به أمر ابا هرا عبر فيه بنون العظمة فقال تعالى (وجعلناكم) أى بعظمتنا (شعوبا) جمع شعب بفتح الشين وهو أعلى طبقات الانسان مثل ربيعة ومضر والاوس والخزرج (وقبائل) أى تحت

الشعوب وذلك أن طبقات النسل التي عليها العرب سبعة الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة والعشيرة وكل واحد يدخل فيما قبله فالقبائل تحت الشعوب والعمائر تحت القبائل والبطون تحت العمائر والافخاذ تحت البطون والفصائل تحت الافخاذ والعشائر تحت الفصائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة والعباس عشيرة قال البغوي وليس بعد العشيرة حي يوصف اه وسمي الشعب شعبا لتشعب القبائل منه واجتماعهم به كتشعب أغصان الشجرة والشعب من الاضداد يقال شعب أي جمع ومنه شعب القدح وشعب أي فرق والقبائل واحدها قبيلة سميت بذلك لتقابلها شبهت بقبائل الرأس وهي قطع متقابلة وقيل الشعوب في العجم والقبائل في العرب والاسباط في بني اسرائيل وقيل الشعب النسب الابعد والقبيلة الاقرب والنسبة الى الشعب شعوبية بفتح الشين وهم جيل يبغضون العرب والعمائر واحدتها عمارة بفتح العين والبطون واحدتها بطن والفصائل واحدتها فصيلة والعشائر واحدتها عشيرة وقال أبو روق الشعوب الذين لا يعتزون الى أحد بل ينتسبون الى المدائن والقرى والقبائل العرب الذين ينتسبون الى آبائهم ثم ذكر تعالى علة الشعب بقوله تعالى (لتعارفوا) أي ليعرف الانسان من يقاربه في النسب ليصل من رحمه ما يحق له لا لتفاخروا (انّ أكرمكم) أيها المتفاخرون (عند الله) أي الملك الذي لا أمر لاحد معه ولا كريم الامن أخبر كم بكرمه ولا كمال لاحد سواه (أتقاكم) أي أرفعكم منزلة عند الله أتقاكم قال قتادة في هذه الآية أكرم الكرم التقوى وألأم اللؤم الفجور وقال عليه الصلاة والسلام الحسب المال والكرم التقوى وقال ابن عباس كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى وعن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه وهو عصا محنية الرأس فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على أيدي الرجال ثم قام فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه فقال الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية يعني كبرها وفخرها الناس رجل تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ثم تلا يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ثم قال أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وعن أبي هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ الناس أكرم قال أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا ليس عن هذا نسألك قال فأكرم الناس يوسف نبيّ الله بن نبيّ الله ابن نبيّ الله بن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألوني قالوا نعم قال خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا بضم القاف على المشهور وحكي كسرها ومعناه اذا تعلموا أحكام الشرع وقال صلى الله عليه وسلم انّ الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم قال الرازي في المراد بالآية وجهان الاول انّ التقوى تفيد الاكرام الثاني انّ الاكرام يورث التقوى كما يقال المخلصون على خطر والاول أشهر والثاني أظهر (فان قيل) التقوى من الاعمال والعلم أشرف لقوله صلى الله عليه وسلم لفقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد (أجيب) بأنّ التقوى ثمرة العلم لقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فلا تقوى

الا للعالم فالتقى العالم أغز علمه والعالم الذى لا يتقى كشجرة لا ثمر لها لكن الشجرة المثمرة أشرف من التى لا تثمر بل هى حطب قال الحسن البصرى انما الفقيه العامل بعلمه أى وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ومن قوله عز من قائل قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (فان قيل) خطاب الناس بقوله تعالى أكرمكم يقتضى اشتراك الكل فى الاكرام ولا كرامة لكافر فانه أضل من الانعام (أجيب) بأن ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم لان كل من خلق فقد اعترف بربه ثم من استمر عليه وزاد زيد فى كرامته ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة (ان الله) أى المحيط بكل شئ علما وقدرة (عليم) أى بالغ العلم بظواهركم يعلم أنسابكم (خبير) أى محيط العلم ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم فاجعلوا التقوى رداءكم ولما قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم والاتقى لا يكون الا بعد حصول التقوى وأصله الايمان والاتقاء من الشرك (قالت الاعراب) أى أهل البادية من بنى أسد وغيرهم الذين هم معدن الغلظة والجفاء (آمنا) أى بجميع ما جئت به فامتثلنا ما أمرتنا به فى هذه السورة ولنا النسب الخالص فنحن أشرف من غيرنا من أهل المدر (قل) يا أشرف الخلق تكذيبا لهم مع مراعاة الادب فى عدم التصريح بالتكذيب (لم تؤمنوا) أى لم تصدق قلوبكم لانكم لو آمنتم لم تمنوا لان الايمان التصديق بجميع ما لله من الكمال الذى منه انه لولا منه بالهداية لم يحصل الايمان فله ولرسوله الذى كان ذلك على يديه المن والفضل (ولكن قولوا أسلمنا) أى أظهرنا الانقياد فى الظاهر للاحكام الظاهرة وأمنا من أن نكون حربا للمؤمنين وعونا للمشركين فأخبر الله تعالى ان حقيقة الايمان هو التصديق بالقلب وان الاقرار باللسان واظهار شرائعه بالابدان لا يكون ايمانا دون التصديق بالقلب والاخلاص فالاسلام هو الدخول فى السلم كما يقال أشتى اذا دخل فى الشتاء وأصاف اذا دخل فى الصيف وأربع اذا دخل فى الربيع فمن الاسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والابدان والجنان كقوله عز وجل لابراهيم أسلم قال أسلمت لرب العالمين ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب وذلك قوله تعالى ولكن قولوا أسلمنا (ولما يدخل الايمان) أى المعرفة التامة لم تدخل الى هذا الوقت (فى قلوبكم) فلا يعد اقرار اللسان ايمانا الا بمواطأة القلب قال ابن برجان فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين وعن سعد بن أبى وقاص قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطا وأنا جالس فيهم فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا منهم لم يعطه وهو أعجبهم الى فقمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فساررته فقلت مالك عن فلان والله انى لاراه مؤمنا فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلما ذكر ذلك سعد ثلاثا وأجابه بمثل ذلك ثم قال انى لاعطى الرجل وغيره أحب الى منه خشية أن يكب فى النار على وجهه وقال الرازى المسلم والمؤمن واحد عند أهل السنة فنقول الفرق بين العام والخاص ان الايمان لا يحصل الا بالقلب والانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان فالاسلام أعم لكن العام فى صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمرا آخر غيره مثاله الحيوان فى صورة الانسان أمر لا ينفك عن

الانسان فلا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيوانا ولا يكون انسانا فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود وكذلك المؤمن والمسلم وسيأتي زيادة على ذلك في الذاريات ان شاء الله تعالى وقال الرازي في الآية اشارة الى بيان حال المؤلفة اذا أسلموا ويكون ايمانهم ضعيفا فقال لهم لم تؤمنوا لان الايمان ايقان وذلك بعد لم يدخل في قلوبهم وسيدخل باطلاعهم على محاسن الاسلام انتهى بل الايمان دخل في قلوبهم ولكن لم يتألفوا بأهل الاسلام *(تنبيه)* التعبير بلما يفهم انهم آمنوا بعد ذلك ويجوز أن يكون المراد بهذا النفي نفي التمكن في القلب لا نفي مطلق الدخول بدليل انما المؤمنون دون انما الذين آمنوا (وان تطيعوا الله) أي الملك الذي من خالفه لم يأمن عقوبته (ورسوله) أي الذي طاعته من طاعته على ما أنتم عليه من الامر الظاهر فتؤمن قلوبكم (لا يألتكم) أي لا ينقصكم (من أعمالكم شيئا) بل يعطيكم ما يليق به من الجزاء لان من حمل الى ملك فاكهة طيبة قدر ثمنها في السوق درهم فأعطاه الملك درهما انتسب الملك الى البخل فهو يعطي ما تتوقعون بأعمالكم وزيادة من غير نقص فلا حاجة الى اخباركم عن ايمانكم بغير ما يدل عليه من الاقوال والافعال وقرأ الدوري عن أبي عمرو بعد الياء التحتية بهمزة ساكنة وأبدلها السوسي ألفا والباقون بغير همز ولا ألف ولما كان الانسان مبنيا على النقص وان اجتهد غاية اجتهاده قال الله تعالى (ان الله) أي الذي له صفات الكمال (غفور) أي ستور للهفوات والزلات لمن تاب وصحت نيته ولغيره ان شاء فلا عتاب ولا عقاب (رحيم) أي يزيد على الستر عظيم الاكرام ثم بين تعالى لهم حقيقة الايمان بقوله تعالى (انما المؤمنون) أي العريقون في الايمان الذي هو حياة القلوب قال القشيري والقلوب لا تحيا الا بعد ذبح النفوس والنفوس لا تموت ولكنها تعيش (الذين آمنوا) أي صدقوا معترفين (بالله) معتقدين جميع ماله من صفات الكمال (ورسوله) شاهدين برسالته وهذا الاثبات هنا يدل على ان المنفي فيما قبل الكمال المطلق والا لقال تعالى انما الذين آمنوا (ثم لم يرتابوا) أي لم يشكوا في دينهم وأيقنوا بأن الايمان ايقان *(تنبيه)* ثم للتراخي في الحكاية كأنه يقول آمنوا ثم أقول شيأ آخر لم يرتابوا ويحتمل أن تكون للتراخي في الفعل أي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما نقل النبي صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر (وجاهدوا) أي أوقعوا الجهاد بكل ما ينبغي أن تجهد النفوس فيه تصديقا لما ادعوه بألسنتهم من الايمان (بأموالهم) وذلك هو النية وقوله تعالى (وأنفسهم) أعم من النية وغيرها وذلك هو الشجاعة وقدم الاموال لقلتها عند العرب (في سبيل الله) أي طريق الملك الاعظم بقتال الكفار وغيره من سائر العبادات المحتاجة الى المال والنفس لا الذين يتخلفون ويقولون شغلتنا أموالنا وأهلونا قال القشيري جعل الله تعالى الايمان مشروطا بخصال ذكرها وذكره بلفظ انما وهي للتحقيق يقتضي الطرد والعكس فمن أفرد الايمان عن شرائطه التي جعلها له فمردود عليه قوله (أولئك) أي العالو الرتبة (هم الصادقون) أي في قولهم وفعلهم انهم مؤمنون ولما نزلت هاتان الآيتان أتت الاعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفون بالله أنهم مؤمنون صادقون

وعلم الله منهم غير ذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء الاعراب مجهلا لهم ومبكتا (أتعلمون الله) أى أتخبرون اخبارا عظيما الملك الاعظم المحيط قدرة وعلما (بدينكم) أى بقولكم آمنا (والله) أى والحال ان الملك المحيط بكل شئ (يعلم ما فى السموات) كلها على عظمتها وكثرة ما فيها (وما فى الارض) كذلك (والله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (بكل شئ) أى مما ذكر ومما لم يذكر (عليم) أى لا تخفى عليه خافية وهو تجهيل لهم وتوبيخ (يمنون عليك) أى يذكرون ذكر من اصطنع صنيعة وأسدى اليك نعمة (أن أسلموا) أى من غير قتال بخلاف غيرهم ممن أسلم بعد قتال منهم ولما كان المن هو القطع من العطاء الذى لا يراد عليه جزاء قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى فى جواب قولهم هذا (لا تمنوا على اسلامكم) لو فرض انكم كنتم متدينين بدين الاسلام الذى هو انقياد الظاهر مع اذعان الباطن أى لا تذكروا الامتنان أصلا لان الاسلام لا يطلب جزاؤه الا من الله تعالى فلا ينبغى عده صنيعة على أحد فان ذلك بفسده (بل الله) أى الملك الاعظم الذى له المنة على كل موجود ولا منة عليه بوجه (يمن عليكم) أى يذكر أنه أسدى اليكم نعمه (أن) أى بأن (هداكم للايمان) أى فهو المان عليكم لا أنتم عليه وعلى (فان قيل) كيف من عليهم بالهداية الى الايمان مع أنه تبين أنهم لم يؤمنوا (أجيب) بأوجه أحدها انه تعالى لم يقل بل الله يمن عليكم ان رزقكم الايمان بل قال أن هداكم للايمان ثانيها انه تعالى من عليهم بما زعموا فكأنه تعالى قال أنتم قلتم آمنا فذلك نعمة فى حقكم حيث تخلصتم من النار فقال تعالى هداكم فى زعمكم ولهذا قال تعالى (ان كنتم صادقين) أى فى قولكم آمنا فانه على تقدير الصدق انما هو بتوفيق الله تعالى وهو الذى خلق لكم قدرة الطاعة فهو الفاعل فى الحقيقة فله المنة عليكم قال القشيرى من لاحظ شيأ من أحواله فان رآها من نفسه كان مشركا وان رآها لنفسه كان مكرا فكيف يمن العبد بما هو شرك أو مكر والذى يجب عليه قبول المنة كيف يرى لنفسه على غيره منة هذا العمرى فضيحة والمنة تكدر الصنيعة اذا كانت من المخلوقين وبالمنة تطيب النعمة اذا كانت من قبل الله تعالى (ان الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يعلم غيب السموات) أى ما غاب فيها كلها (والارض) كذلك ولما أريد التعميم من غير تقييد بالخافقين أظهر ولم يضمر قوله تعالى (والله) أى الذى له الاحاطة بذلك وبغيره مما لا تعلمون (بصير) أى عالم أتم العلم (بما تعملون) أى من ظاهر اسلامكم فى الماضى والحاضر والآتى سواء أكان ظاهرا أم باطنا سواء أكان قد حدث فصار بحيث تعلمونه أنتم أو كان مغروزا فى جبلاتكم وهو خفى عنكم وقرأ ابن كثير بالياء التحتية على الغيبة نظرا لقوله تعالى يمنون وما بعده والباقون بالفوقية على الخطاب نظرا الى قوله تعالى لا تمنوا على اسلامكم الى آخره وفى هذه الآية اشارة الى أنه يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه شئ وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجرات أعطى من الاجر بعدد من أطاع الله وعصاه حديث موضوع

(سورة

(سورة ق مكية)

الا قوله تعالى ولقد خلقنا السموات والارض الآية فمدنية وهى خمس وأربعون آية وثلثمائة وسبع وخمسون كلمة وألف وأربعمائة وأربعة وتسعون حرفا

(بسم الله) أى الذى أحاط علمه بجميع خلقه العاكف منهم والبادى (الرحمن) أى الذى عم خلقه برحمته حين أرسل اليهم بشرائعه أصدق العباد (الرحيم) أى الذى خص بالفوز فى دار القرار أهل الرشاد واختلف فى تفسير قوله عز من قائل (ق) فقال ابن عباس هو قسم وقيل هو اسم للسورة وقيل اسم من أسماء القرآن وقال القرطبي هو مفتاح اسمه قدير وقادر وقاهر وقريب وقابض وقال عكرمة والضحاك هو جبل محيط بالارض من زمردة خضراء ومنه خضرة السماء والسماء مقبية عليه وعليه كنفاها ويقال هو وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة وقيل متصلة عروقه بالصخرة التى عليها الارض والسماء كهيئة القبة وعليه كنفاها قال الرازى وهذا القول ضعيف لوجوه أحدها أن أكثر القراء يقف عليها ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف فى الادراج لان من قال ذلك قال ان الله تعالى أقسم به ثانيها أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الالف والفاء كما يكتب عين جارية ويكتب أليس الله بكاف عبده وفى جميع المصاحف تكتب حرف ق ثالثها ان الظاهر كون الامر فيه كالامر فى ص ون وحم وهى حروف لا كلمات فكذلك فى ق (فان قيل) هو منقول عن ابن عباس (نقول) المنقول عنه ان القاف اسم جبل واما ان المراد ههنا ذلك فلا اه وقيل معناه قضى الامر وقضى ما هو كائن كما قالوا فى حم وفى ص صدق الله قال الرازى وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليكون السامع بسببها يقبل على استماع ما يرد على الاسماع فلا يفوته شئ من الكلام الرائق والمعنى الفائق وذكرنا أيضا ان العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية ظاهرة ووجد فى الجارحية ما عقل معناه ووجد فيها ما لم يعقل معناه كاعمال الحج من الرمى والسعى وغيرهما ووجد فى القلبية ما عقل بالدليل وعلم كالتوحيد وامكان الحشر وصفات الله تعالى وصدق الرسل ووجد فيها ما لم يعقل ولا يمكن التصديق به لولا السمع كالصراط الممدود الأحد من السيف الارق من الشعر والميزان الذى توزن به الاعمال فكذلك ينبغى أن تكون الاذكار التى هى العبادة اللسانية فيها ما يعقل معناه كجميع القرآن الا قليلا منه وفيها ما لا يعقل ولا يفهم كحروف التهجى ليكون التلفظ به لمحض الانقياد للامر لا لما يكون فى الكلام من طيب الحكاية والقصد الى غرض كقولك ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبدا محضا ويؤيد هذا وجه آخر وهو ان هذه الحروف مقسم بها لان الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفا لهما فاذا أقسم بالحروف التى هى أصل الكلام الشريف الذى هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أولى واذا عرفت هذا فنقول القسم من الله تعالى وقع بأمر واحد كما فى قوله تعالى والعصر وقوله تعالى والنجم وبحرف واحد كما فى قوله تعالى ص ون ووقع بأمرين كما فى قوله تعالى والضحى والليل وفى قوله تعالى والسماء والطارق وبحرفين كما قال فى قوله تعالى

قوله كما قالوا فى حم الخ عبارته فى سورة المؤمن وقال الضحاك والكسائى معناه قضى ما هو كائن كأنهما أشارا الى أن معنى حم حم بضم الحاء وتشديد الميم اه

طه وطس وحم وورقع بثلاثة أمور كما فى قوله تعالى والصافات فالزاجرات فالتاليات وقوله تعالى والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود وبثلاثة أحرف كما فى قوله تعالى الم وطسم الر ووقع بأربعة أمور كما فى قوله تعالى والذاريات فالحاملات فالجاريات فالمقسمات وفى قوله تعالى والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين وبأربعة أحرف كما فى قوله تعالى المص والمر ووقع بخمسة أمور كما فى قوله تعالى والطور وكتاب مسطور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور وفى قوله تعالى والمرسلات فالعاصفات والناشرات فالفارقات فالملقيات وفى النازعات وفى الفجر وبخمسة أحرف كما فى قوله تعالى كهيعص وحم عسق ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء الا فى سورة واحدة وهى والشمس وضحاها ولما أقسم بالاشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهو الواو فقال والطور والنجم والشمس وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم فلم يقل وحم وق لان القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسما به فلم يورده فى موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحرف وغيره ولم يدخل القسم بالحروف فى أثناء السورة لانه يخل بالنظم وقوله تعالى (والقرآن) أى الكتاب الجامع الفارق (المجيد) أى الذى له العلو والشرف والكرم والعظمة على كل كلام قسم وفى جوابه أوجه أحدها قوله تعالى قد علمنا ما تنقص الارض منهم ثانيها ما يبدل القول لدى ثالثها ما يلفظ من قول رابعها ان فى ذلك لذكرى خامسها بل عجبوا وهو قول كوفى قالوا لان معناه قد عجبوا سادسها انه محذوف قدره الزجاج والمبرد والاخفش لتبعثن وغيرهم لقد جاءكم منذر وقدره الجلال المحلى بقوله ما آمن كفار مكة بمحمد صلى الله عليه وسلم *(تنبيه)* جوابات القسم سبعة ان المشددة كقوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر وما النافية كقوله تعالى والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك واللام المفتوحة كقوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين وان الخفيفة كقوله تعالى تالله ان كنا لفى ضلال مبين ولا النافية كقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وقد كقوله تعالى والشمس وضحاها قد أفلح من زكاها وبل كقوله تعالى والقرآن المجيد (بل) أى ان تكذيبهم ليس لانكار شئ من مجدك ولا انكار صدقك بل لانهم (عجبوا) أى الكفار وأضمرهم قبل الذكر اشارة الى أنه اذا ذكر شئ خارج عن سنن الاستقامة انصرف اليهم والعجب تغير النفس لامر خارج عن العادة (ان جاءهم منذر منهم) أى رسول من أنفسهم يخوفهم بالنار بعد البعث واقتصر على الانذار لان المقام لتخويف من قدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أومن عليه باسلام أوغيره ولتخويف من أنكر البعث والعجب منهم هو العجب لان العادة عندهم وعند جميع الناس انه اذا كان النذير منهم لم يداخلهم فى انذاره شك بوجه من الوجوه وهؤلاء خالفوا عادة الناس فى تعجبهم من كون النذير وهو أحدهم خص بالرسالة دونهم ولم يدركوا وجه الخصوصية لكونه مثلهم فلذلك أنكروا رسالته وفضل كتابه بألسنتهم تعاندا وحسدا لانهم كانوا معترفين بخصائصه التى رفعه الله تعالى بها عليهم قبل الرسالة فحطهم عجبهم ذلك الى الحضيض من دركات السفه

وخفة الاحلام لانهم عجبوا أن كان الرسول بشرا وأوجبوا أن يكون الاله حجرا وعجبوا أن يعادوا من تراب لم يكن له أصل فى الحياة ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فقال) أى بسبب انذاره بالبعث (الكافرون) وصرح به فى موضع الاضمار ايذانا بأنهم لم يخف عليهم شئ من أمره ولكنهم ستروا تعديا برأى عقولهم الدالة على جميع أمره دلالة ظاهرة وعبر بما دل على النذارة لانها المقصود الاعظم من هذه السورة وجميع سياق الجزات ظاهر فيها (هذا) أى كون النذير منا خصص بالرسالة من دوننا وكون ما أنذر به هو البعث بعد الموت (شئ عجيب) أى بليغ فى الخروج عن عادة اشكاله وقد كذبوا فى ذلك أما من جهة النذير فان أكثر الرسل من الطوائف الذين أرسلوا اليهم وقليل منهم من كان غريبا ممن أرسل اليه وأما من جهة البعث فان أكثر ما فى الكون مثل ذلك من اعادة كل من الملوين بعد ذهابه واحياء الارض بعد موتها واخراج النبات والاشجار والثمار وغير ذلك مما هو ظاهر جدا ولما كان المتعجب منه مجملا أوضحه بقوله تعالى حكاية عنهم مبالغين فى الانكار باقتتاح انكارهم باستفهام انكارى (أئذا متنا) ففارقت أرواحنا أبداننا (وكنا ترابا) لا فرق بينه وبين تراب الارض ولما كان العامل فى الظرف ما تقديره نرجع دل عليه بقوله تعالى دالا بالاشارة بأداة البعد الى عظيم استبعادهم (ذلك) أى الامر الذى فى غاية البعد وهو مضمون الخبر برجوعنا (رجع) أى ردّ الى ما كنا عليه (بعيد) جدا لانه لا يمكن تمييز ترابنا من بقية التراب وقرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية وهى المكسورة وادخال ألف بينها وبين الهمزة الاولى المفتوحة وقرأ ورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال وقرأ الباقون بتحقيقهما وأدخل هشام بينهما ألفا بخلاف عنه والباقون بغير ادخال وكسر الميم من متنا نافع وحفص وحمزة والكسائى والباقون بالضم وقوله تعالى (قد علمنا) أى بما لنا من العظمة (ما تنقص الارض منهم) أى تأكل من أجزائهم المتحللة من أبدانهم بعد الموت وقبله رد لاستبعادهم لان من لطف علمه حتى تغلغل الى ما تنقص الارض من أجزاء الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا وعنه عليه الصلاة والسلام كل ابن آدم يبلى الاعجب الذنب وعن السدّى ما تنقص الارض منهم من يموت منهم ومن يبقى وهذه الآية تدل على جواز البعث وقدرته تعالى عليه لان الله تعالى عالم باجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء واحد بجزء الآخر قادر على الجمع والتأليف فليس الرجع منه ببعيد وهذا كقوله تعالى وهو الخلاق العليم حيث جعل للعلم مدخلا فى الاعادة وهذا جواب ما كانوا يقولون أئذا ضللنا فى الارض أى انه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم فيرجعهم ويعيدهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون (وعندنا) أى على ما لنا من الغنى عن كل شئ (كتاب) أى جامع لكل شئ (حفيظ) أى بالغ فى الحفظ لا يشذ عنه شئ من الاشياء جل أو دق وقيل محفوظ من الشياطين ومن أن يندرس او يغير وعلى الحالين الحفيظ هو اللوح المحفوظ قال الرازى والاول هو الاصح لان الحفيظ بمعنى الحافظ وارد فى القرآن قال الله تعالى وما أنت عليهم بحفيظ وقال تعالى حفيظ عليهم ولان الكتاب للتمثيل

ومعناه العلم عندي كما يكون في الكتاب فهو يحفظ الاشياء وهو مستغن عن أن يحفظ وقوله تعالى (بل كذبوا بالحق) أي الامر الثابت الذي لا أثبت منه اضراب ثان قال الزمخشري اضراب اتبع للاضراب الاول للدلالة على انهم جاؤا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق (لما) أي حين (جاءهم) أي لما ثار عندهم من أجل تعجبهم من ارسال رسولهم من حظوظ النفوس حسدا منهم من غير تأمل لما قالوه ولا تدبر ولا نظر فيه ولا تذكر فلذلك قالوا ما لا يعقل من أن من قدر على ايجاد شيء من العدم وابدائه لا يقدر على اعادته بعد اعدامه له (فهم) اي لاجل مبادرتهم الى هذا القول السفساف (في أمر مريج) أي مضطرب جدا مختلط من المرج الذي هو اختلاط النبت بالانواع المختلفة فهم تارة يقولون سحر وتارة كهانة وتارة شعر وتارة كذب وتارة غير ذلك لا يثبتون على شيء واحد والاضطراب موجب للاختلاف وذلك أدل دليل على الابطال كما ان الثبات والخلوص موجب للاتفاق وذلك أدل دليل على الحقية قال الحسن ما ترك قوم الحق الا مرج أمرهم وكذا قال قتادة وزادوا التبس عليهم دينهم ثم ذكر تعالى الدليل الذي يدفع قولهم ذلك رجع بعيد بقوله تعالى (أفلم ينظروا) أي بعين البصر والبصيرة (الى السماء) أي المحيطة بهم (فوقهم) فان غيرها انما هو فوق ناس منهم لا فوق الكل (كيف بنيناها) أي اوجدناها على مالنا من الجد والعز مبنية كالخيمة الا انها من غير عمد (وزيناها) أي بما فيها من الكواكب الكبار والصغار السيارة والثابتة (وما) أي والحال ان ما (لها) وأكد النفي بقوله تعالى (من فروج) أي فتوق وطاقات وشقوق بل هي ملساء متلاصقة الاجزاء (والارض) أي المحيطة بهم التي هم عليها (مددناها) أي بسطناها بما لنا من العظمة (وألقينا) أي بعظمتنا (فيها رواسي) اي جبالا ثوابت كانت سببا لثباتها وخالفت عادة المراسي في أنها من فوق والمراسي التي تعالجونها أنتم من تحت (وأنبتنا) أي بما لنا من العظمة (فيها) اي الارض وعظم قدرته بالتبعيض فقال تعالى (من كل زوج) أي صنف من النبات تزاوجت اشكاله (بهيج) أي هي في غاية الرونق والاعجاب فكان مع كونه رزقا منتزها (تبصرة) أي جعلنا هذه الاشياء كلها لاجل أن تنظروا بأبصاركم وتتفكروا ببصائركم فتعبروا منها الى صانعها فتعلموا ماله من العظمة (وذكرى) أي ولتذكروا بها تذكرا عظيما بما لكم من القوى والقدر فتعلموا بعجزكم عن كل شيء من ذلك ان صانعها لا يعجزه شيء وأنه محيط بجميع صفات الكمال وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح *(تنبيه)* قال الرازي يحتمل أن يكون الامران عائدين الى السماء والارض أي خلق السماء تبصرة وخلق الارض ذكرى ويدل على ذلك ان السماء وزينتها غير متجددة في كل عام فهي كالشيء المرئي على ممر الزمان وأما الارض فهي كل سنة تأخذ زينتها وزخرفها فتذكر فالسماء تبصرة والارض تذكرة ويحتمل أن يكون كل واحد من الامرين موجودا في كل واحد من الامرين فالسماء تبصرة وتذكرة والارض كذلك والفرق بين التذكرة والتبصرة هو أن فيهما آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسي (لكل عبد) أي

التبصر

لتبصر وتذكر كل عبد بماله من النقص وبما دل عليه هذا الصنع من الكمال أنه عبد مربوب لصانعه (منيب) أى رجاع عما حطه اليه طبعه الى مايغلبه عليه عقله فيرجع من شهود هذه الافعال الى شهود الصفات الى علم الذات ثم ذكر تعالى دليلا بقوله تعالى (ونزلنا من السماء) أى المحل العالى الذى لايمسك فيه الماء عن دوام التقاطر الابقاهر (ماء) أى شيأ فشيأ فى أوقات وعلى سبيل التقاطر ولولا عظمتنا التى لا تضاهى لغلب بماله من الثقل والميوع والنفوذ فنزل دفعة واحدة فأهلك ما نزل عليه فزالت المسرة وعادت المنفعة مضرة (مباركا) أى نافعا جدا كثير البركة وفيه حياة كل شئ وهو المطر فيكون الاستدلال بالسماء والارض ومابينهما وهو انزال الماء من فوق واخراج النبات من تحت (فأنبتنا) أى بمالنا من القدرة الباهرة (به جنات) من الشجر والثمر والزرع والريحان وغيره مما تجمعه البساتين فتجن أى تستر الداخل فيها (وحب الحصيد) أى النجم الذى من شأنه أنه يحصد كالبر والشعير ونحوهما وقوله تعالى (والنخل) منصوب عطفا على مفعول أنبتنا أى وأنبتنا النخل وقوله تعالى (باسقات) أى طوالا حال مقدرة لانها وقت الانبات لم تكن طوالا والبسوق الطول يقال بسق فلان على أصحابه أى طال عليهم فى الفضل ومنه قول ابن نوفل فى ابن هبيرة

يا ابن الذين بمجدهم * بسقت قيس فزاره

وهو استعارة والاصل استعماله فى بسقت النخلة تبسق بسوقا أى طالت قال الشاعر

لنا خمر وليست خمر كرم * ولكن من نتاج الباسقات

كرام فى السماء ذهبن طولا * وفات ثمارها أيدى الجناة

وبسقت الشاة ولدت وأبسقت الناقة وقع فى ضرعها اللبن قبل النتاج وقال سعيد بن جبير باسقات مستويات وأفردها بالذكر لفرط ارتفاعها (لها طلع) يجوز أن تكون الجملة حالا من النخل أو من الضمير فى باسقات ويجوز أن يكون الحال وحده لها وطلع فاعل به وقوله تعالى (نضيد) بمعنى منضود بعضها فوق بعض فى أكمامها كما فى سنبلة الزرع وهو عجيب فان الاشجار الطوال ثمارها بارزة بعضها على بعض لكل واحدة منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز والطلع كالسنبلة الواحدة تكون على أصل واحد وقوله تعالى (رزقا) يجوز أن يكون حالا أى مرزوقا (للعباد) ويجوز أن يكون مفعولا له وللعباد اما صفة واما متعلق بالمصدر (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى عند ذكر خلق السماء والارض تبصرة وذكرى وفى الثمار قال رزقا والثمار أيضا فيها تبصرة وفى السماء والارض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة (أجيب) بان الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الاعادة والثانى البقاء بعد الاعادة فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم وأنكروا ذلك فقال أما الاول فالله القادر على خلق السموات والارض قادر على خلق الخلق بعد الفناء واما الثانى فلأن البقاء فى الدنيا بالرزق والقادر على اخراج الارزاق من النخل والشجر قادر على أن يرزق بعد الحشر فكان الاول تبصرة وتذكرة بالخلق والثانى تذكرة بالبقاء والرزق ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تعالى

تبصرة وذكرى حيث ذكر ذلك بين الآيتين ثم بدأ بذكر الماء وانزاله وانبات النبات *(تنبيه)* لم يقيد هنا العباد بالانابة وقيده فى قوله تعالى تبصرة وذكرى لكل عبد منيب لان التذكرة لا تكون الا للمنيب والرزق يعم كل أحد غير أن المنيب يأكل ذاكرا وشاكرا للانعام وغيره يأكل كما تأكل الانعام فلم يخصص بقيد ولما كان فى ذلك أعظم مذكر للبصراء بالبعث وبجميع صفات الكمال اتبعه ماله من التذكير بالبعث بخصوصه فقال تعالى (وأحيينا به) أى الماء بعظمتنا (بلدة) وسمها بالتأنيث اشارة الى انها فى غاية الضعف والحاجة الى النبات والخلو عنه وذكر (ميتا) للزيادة فى تقرير تمكن الحاجة فيها أو حملا على معنى المكان (فان قيل) ما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله تعالى وآية لهم الارض الميتة حيث أثبت الهاء هناك (أجيب) بأن الاصل فى الارض الوصف فقال الميتة لان معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الاصل فيها الحياة لان الارض اذا صارت حية صارت آهلة وأقام بها القوم وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء لان معنى الفاعلية غير ظاهر فتثبت فيه الهاء واذا كان معنى الفاعل لم يظهر لا تثبت فيه الهاء ويحقق هذا القول قوله تعالى بلدة طيبة حيث أثبت الهاء حيث ظهر معنى الفاعل ولم يثبت حيث لم يظهر (كذلك) أى مثل الاخراج العظيم (الخروج) من قبورهم على ما كانوا عليه فى الدنيا اذ لا فرق بين خروج النبات بعد ما تهشم وتفتت فى الارض وصار ترابا كما كان من بين أصفره وأبيضه وأحمره وأزرقه الى غير ذلك وبين اخراج ما تفتت من الموتى كما كانوا فى الدنيا *(تنبيه)* قال أبو حيان ذكر تعالى فى السماء ثلاثة البناء والتزيين ونفى الفروج وفى الارض ثلاثة المد والقاء الرواسى والانبات فقابل المد بالبناء لان المد وضع والبناء رفع والقاء الرواسى بالتزيين بالكواكب لارتكاب كل واحد منها أى على سطح ما هو فيه والانبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج فلا شق فيها ونبه فيما تعلق به الانبات على ما يقطف كل سنة ويبقى أصله وما يزرع كل سنة أو سنتين ويقطف كل سنة وعلى ما اختلط من جنسين فبعض الثمار فاكهة لا قوت وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت وقوله تعالى (كذبت قبلهم) الآية فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل كذبوا وصبروا فأهلك الله تعالى مكذبيهم ونصرهم ولما لم يكن لهؤلاء المكذبين شهرة يعرفون بها قال تعالى (قوم نوح) الذين كان آخر أمرهم أنه التقى عليهم الماآن نزل عليهم ماء السماء وطلع عليهم ماء الارض فأغرقهم ووسم الفعل بالتاء اشارة الى هوانهم فى جنب هذا المجد وأسقط الجار من قوله تعالى قبلهم اشارة الى أن هؤلاء الاحزاب لقوتهم وكثرتهم كأنهم أهل الارض قد استغرقوا امكانها وزمانها ثم اتبع قوم نوح بمشابهيهم بقوله تعالى (وأصحاب الرس) أى البئر كانوا مقيمين عليها بمواشيهم يعبدون الاصنام ونبيهم قيل حنظلة ابن صفوان وقيل غيره فخسفت تلك البئر مع ما حولها فذهبت بهم وبكل مالهم كما ذكرت قصتهم فى الفرقان ثم اتبع أصحاب الرس بقوم صالح عليه السلام فقال (وثمود) لان الرجفة التى أخذتهم مبدأ الخسف ثم اتبع ثمود بقوم هود عليه السلام فقال تعالى (وعاد) لان الريح التى أهلكتهم أثرت بها صيحة ثمود وقال تعالى (وفرعون) ولم يقل قوم فرعون لانه ليس فى قادة هذه

الفرق كافر غيره والنص عليه يفهم عظمته وانه استخف قومه فأطاعوه (واخوان لوط) أى اصهاره الذين صار بينه وبينهم مع المصاهرة المناصرة بملوكهم على من قاواهم بنفسه وعمه خليل الله ابراهيم عليهما السلام ومع ذلك عاملوه بالخيانة والتكذيب (وأصحاب الايكة) أى الغيضة وهم قوم شعيب والغيضة الشجر الملتف بعضه على بعض ولما كان تبع الحميرى واسمه سعد وكنيته أبوكرب مع كونه فى قومه ملكا قاهرا وخالفوه مع ذلك وكان لقومه نار فى بلادهم يتحاكمون اليها فتأكل الظالم ختم بهم فقال تعالى (وقوم تبع) مع كونه ملكا وهو يدعوهم الى الله تعالى فلا يظن أن التكذيب مخصوص بمن كان قويا لمن كان مستضعفا بل هو واقع بمن شئنا من قوى وضعيف لا يخرج شئ عن مرادنا (كل) أى من هذه الفرق (كذب الرسل) أى كلهم بتكذيب رسولهم فان الكل متساوون فيما يوجب الايمان من اظهار المعجز والدعاء الى الله تعالى (فحق) أى فتسبب عن تكذيبهم لهم أن ثبت عليهم ووجب (وعيد) أى الذى كانوا يكذبون به عند انذارهم لهم اياه فجعلنا لهم منه فى الدنيا ما حكمنا به عليهم فى الازل فأهلكناهم اهلاكا عاما كاهلاك نفس واحدة على أنحاء مختلفة كما هو مشهور عند من له بامثاله عناية واتبعناه ما هو فى البرزخ وأخرنا ما هو فى القيامة الى يوم البعث فثبت باهلاكنا لهم على تنائى ديارهم وتباعد أعصارهم وكثرة أعدادهم أن لنا الاحاطة البالغة فتسل باخوانك المرسلين وتأس بهم وليحذر قومك ما حل بمن كذبهم ان أصروا (أفعيينا بالخلق) أى أحصل لنا مع ما لنا من العظمة الاعياء وهو العجز بسبب الخلق فى شئ من ايجاده أواعدامه (الاول) أى من السموات والارض وما بينهما حين ابتدأناه اختراعا من العدم ومن خلق الانسان وسائر الحيوان مجددا فى كل أوان فى الاطوار المشاهدة على هذه التدريجات المعتادة بعد أن خلقنا أصله على ذلك الوجه مما ليس له أصل فى الحياة ومن اعدامه بعد خلقه جملة كهذه الامم أو تدريجا كغيرهم (بل هم فى لبس) أى شك شديد وشبهة موجبة للتكلم بكلام مختلط لا يعقل له معنى بل السكوت عنه أجمل (من) أى لاجل (خلق جديد) أى بالإعادة ولما ذكر الخافقين أتبعه خلق ما هو جامع لجميع ما هو فيهما فقال تعالى (ولقد) أى والحال أنا قد (خلقنا) أى بما لنا من العظمة (الانسان) وهو أعجب خلقا وأجمع من جميع ما مضى ذكره بما فيه من الانس والطغيان والذكر والنسيان والجهل والعرفان والطاعة والعصيان وغير ذلك من عجيب الشان ووكلنا به من جنودنا من يحفظه فيضبط حركاته وسكناته وجميع أحواله (ونعلم) والحال انا نعلم بما لنا من الاحاطة (ما توسوس) أى تكلم على وجه الخفاء (به) أى الآن وفيما بعد ذلك (نفسه) مما لم يتقدح بعد من خزائن الغيب الى سر النفس كما علمنا ما تكلم نفسه وهى الخواطر التى تعرض له حتى انه هو ربما عجز عن ضبطها فنحن نعلم أن قلوبهم عالمة بقدرتنا على أكمل ما نريد وبصحة القرآن واعجازه وصدق الرسول به صلى الله عليه وسلم وامتيازه وانما حملهم الحسد والنفاسة والكبر والرياسة على الانكار باللسان حتى صار لهم ذلك خلقا وتمادوا فيه حتى غطى على عقولهم فصاروا فى لبس محيط بهم من جميع الجوانب (ونحن) أى بما لنا من العظمة (أقرب اليه) أى قرب علم وشهود من غير

مسافة (من حبل الوريد) لان ابعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضا ولا يحجب علم الله تعالى شئ
والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمها متصلان من الرأس الى الوتين وهو عرق
متصل بالقلب اذا قطع مات صاحبه وهذا مثل في فرط القرب واضافته مثل مسجد الجامع أي
حبل العرق الوريد أولان الحبل أعم فأضيف للبيان نحو بئر ساقية أو يراد حبل العاتق وأضيف
الى الوريد كما يضاف الى العاتق لانهما في عضو واحد وقال البغوي حبل الوريد عرق الفرق وهو
عرق بين الحلقوم والعلباوين يتفرق في البدن والحبل هو الوريد فأضيف الى نفسه لاختلاف
اللفظين قال القشيري وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم وروح وأنس وسكون قلب لقوم
وقوله تعالى (اذ يتلقى) ظرف لاقرب ويجوز أن يكون منصوبا باذكر أي واذكر اذ يتلقى أي بغاية
الاجتهاد والمراقبة والمراعاة من كل انسان خلقناه وأبرزناه الى هذا الوجود (المتلقيان)
أي الملكان الموكلان بعمل الانسان ومنطقه يحفظانه ويكتبانه حال كونهما (عن اليمين) لكل
انسان (وعن الشمال) اي أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فالذي عن اليمين يكتب الحسنات
والذي عن الشمال يكتب السيئات وقوله تعالى (قعيد) أي قاعدان مبتدأ وخبره ماقبله لان
فعيلا يطلق على الواحد والمتعدد كقوله تعالى بعد ذلك ظهير قال ابن عادل والاجود أن يدعى
حذف امامن الاول أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد وامامن الثاني فيكون قعيد الملفوظ
به للاول ومثله قوله رماني بأمر كنت منه ووالدي * بريأ ومن أجل الطوى رماني
وقال مجاهد القعيد المرصد ونحن أعلم منهما وأقرب وانما استحفظناهما لاقامة الحجة بهما على
مجاري عاداتكم وغير ذلك من الحكم (ما يلفظ) أي يرمي ويخرج المكلف من فيه وعمم في النفي بقوله
تعالى (من قول) جل أو قل (الا لديه) أي الانسان أو القول على هيئة من القدرة والعظمة من
أغرب المستغرب (رقيب) من حفظتنا شديد المراعاة في كل من أحواله (عتيد) أي حاضر مراقب
غير غافل بوجه قال الجلال المحلي وكل منهما بمعنى المثنى أي رقيبان عتيدان روى أبو أمامة ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار
الرجل وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا واذا
عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر * (تنبيه) *
اختلف فيما يكتبان فقال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه وقال عكرمة لا يكتبان
الا ما يؤجر عليه أو يوزر فيه * (فائدتان) * احداهما قال الحسن ان الملائكة يجتنبون الانسان
عند حالتين عند غائطه وعند جماعه الثانية قال الضحاك مجلسهما تحت الشعر على الحنك ومثله
عن الحسن وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته (وجاءت) أي أتت وحضرت (سكرة الموت)
أي حالته عند النزع وشدته وغمرته يصير المريض بها كالسكران لا يعي وتخرج بها أقواله وأفعاله
عن قانون الاعتدال مجيأ ملتبسا (بالحق) أي الامر الثابت الذي يطابقه الواقع فلا حيلة
في الاحتراس منه وقيل للميت بلسان الحال ان لم يكن بلسان المقال (ذلك) أي هذا الامر العظيم
العالي الرتبة الذي يحق لكل أحد الاعتداد له بغاية الجهد (ما) أي الامر الذي (كنت) أي جبلة

وطبعا

وطبعا (منه تحيد) أى تميل وتنفر وتروغ وتهرب * (تنبيه) * قيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم قال الرازى وهو منكر وقيل مع الكافر قال ابن عادل والاقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع وهذا أولى وقوله تعالى (ونفخ فى الصور) عطف على قوله تعالى وجاءت سكرة الموت وهوا القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام للموت العام والبعث العام عند التكامل وانقطاع أوان التعامل وهو بحيث لا يعلم قدر عظمه واتساعه الا الله تعالى وهو عليه السلام قد التقم الصور من حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر فيا لها من عظمة ما أغفلنا عنها وأنسانا لها والمراد بهذه نفخة البعث وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى الزمان المفهوم من قوله نفخ لان الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان العظيم الاهوال والاوجال (يوم الوعيد) أى للكفار بالعذاب (وجاءت) أى فيه (كل نفس) أى مكلفة (معها سائق) أى ملك يسوقها اليه (وشهيد) يشهد عليها بعملها قال الضحاك السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم وهو الايدى والارجل وغيرها وهى رواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هما جميعا من الملائكة فالسائق كما قيل لا تعلق له بالشهادة لئلا تقول تلك النفس انه خصم والخصم لا تقبل شهادته وقيل السائق هو الذى يسوقه الى الموقف ومنه الى مقعده والشهيد هو الكاتب والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق الى الجنة وأما الفاجر فالى النار قال تعالى وسيق الذين كفروا وقال تعالى وسيق الذين اتقوا والشهيد يشهد عليها بما عملت * (تنبيه) * يجوز فى جملة معها سائق وشهيد أن تكون فى موضع جر صفة لنفس وأن تكون فى موضع رفع صفة لكل وأن تكون فى موضع نصب على الحال من كل ويقال للكافر (لقد كنت) أى كونا كأنه جبلة لك (فى غفلة) أى عظيمة محيطة بك ناشئة لك (من هذا) أى من تصور هذا اليوم على ما هو عليه من انقطاع الاسباب والجزاء بالثواب أو العقاب لانه على شدة جلائه خفى على من اتبع الشهوات (فكشفنا) بعظمتنا بالموت ثم البعث (عنك غطاءك) الذى كان فى الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك من الغفلة بالآمال فى الحال والمآل وسائر الحظوظ والشهوات (فبصرك اليوم) أى بعد البعث (حديد) أى فى غاية الحدة والنفوذ فلذا تقر بما كنت تنكر فى الدنيا وقال مجاهد يعنى نظرك الى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك والمعنى أزلنا غفلتك فبصرك اليوم حديد وكان من قبل كليلا واختلف فى القرين فى قوله تعالى (وقال قرينه) فأكثر المفسرين على أنه الملك الموكل به فيقول (هذا ما) أى الذى (لدى عتيد) أى حاضر ونقل الكرمانى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه الشيطان الذى سلط على اغوائه واستدراجه الى ما يريد فزين له الكفر والعصيان ويدل لهذا قوله تعالى وقيضنا لهم قرناء وقال تعالى نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال تعالى فبئس القرين فالاشارة بهذا الى المسوق المرتكب الفجور والفسوق والعتيد معناه المعتد للنار ومعناه ان الشيطان يقول هذا العاصى هو شىء عندى معتد لجهنم أعددته لها بالاغواء والاضلال وقوله تعالى (ألقيا فى جهنم) أى النار التى تلقى الملقى فيها بما كان يعامل به عباد الله تعالى من الكبر والعبوسة (كل كفار) خطاب من

الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو الواحد وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل وتكريره كأنه قيل ألق ألق وقيل أراد القيا بالنون الخفيفة فأبدلها ألفا اجراء للوصل مجرى الوقف وقيل العرب تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين تأكيدا كقوله

فان تزجراني يا ابن عفان أزدجر * وان تدعاني أحم عرضا ممنعا

قال ابن عادل وقيل المأمور مثنى وهذا هو الحق لان المراد ملكان يفعلان ذلك اه وهو القول المتقدم (عنيد) وهو المبالغ فى ستر الحق والمعاداة لاهله بغير حجة حمية وأنفة نظرا الى استحسان ما عنده والثبات عليه تجبرا وتكبرا على ما عند غيره ازدراء له كائنا من كان (مناع) أى كثير المنع (للخير) من المال وغيره من كل معروف يعلق بالمال والمقال والفعال وقيل المراد الاسلام فان الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة لما منع بنى أخيه عنه (معتد) أى مجاوز للحدود (مريب) أى داخل فى الريب وهو الشك والتهمة فى أهل الدين وقوله تعالى (الذى جعل مع الله) أى الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (الها آخر) يجوز أن يكون منصوبا على الذم أو على البدل من كل وأن يكون مجرورا بدلا من كفار أو مرفوعا بالابتداء والخبر (فألقياه فى العذاب) أى الذى يزيل كل عذوبة (الشديد) ودخلت الفاء فى الخبر لتضمن المبتدا معنى الشرط ويجوز أن يكون خبر مبتدا مضمر أى هو الذى جعل ويكون فألقياه تأكيدا (قال قرينه) منادياً باسقاط الاداة كدأب أهل القرب ايهاما انه منهم (ربنا) أى أيها المحسن الينا أيتها الخلائق كلهم (ما أطغيته) أى ما أوقعته فيما كان فيه من الطغيان فانى لا سلطان لى عليه وأنت أعلم بذلك (ولكن كان) أى بجبلته وطبعه (فى ضلال بعيد) أى محيط به من جميع جوانبه لا يمكن رجوعه معه فلذلك كان يبادر الى كل ما يغضب الله تعالى * (تنبيه) * هذا جواب لكلام مقدر فان الكافر حين ما يلقى فى النار يقول ربنا أطغانى شيطانى فيقول ربنا ما أطغيته بدليل قوله تعالى لا تختصموا الذى لان المخاصمة تستدعى كلاما من الجانبين ونظيره قوله تعالى فى سورة ص قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم الى قوله تعالى ان ذلك لحق تخاصم أهل النار قال الزمخشرى وهذا يدل على أن المراد بالقرين فى الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذى هو شهيد وقعيد قال الرازى وجاءت هذه الآية بلا واو وفى الاولى بواو عاطفة لان الاولى اشارة وقعت الى معنيين مجتمعين فان كل نفس فى ذلك الوقت تجىء ومعها سائق وشهيد فيقول الشهيد ذلك القول وفى الثانية لم يوجد هنالك معنيان مجتمعان حتى تذكر الواو فان الفاء فى قوله تعالى فألقياه فى العذاب لا تناسب قوله تعالى قال قرينه ربنا ما أطغيته فليس هنالك مناسبة مقتضية للعطف (فان قيل) كيف قال ما أطغيته مع انه قال لاغوينهم أجمعين (أجيب) بأن المراد من قوله لاغوينهم أى لادعونهم على الغواية كما ان الضال اذا قال له شخص أنت على الجادة فلا تتركها يقال انه يضله كذا هنا فقوله ما أطغيته أى ما كان ابتداء الطغى منى وقوله تعالى (قال) أى الله تعالى المحيط علما وقدرة الذى حكم عليهم بذلك فى الازل (لا تختصموا) أى لا توقعوا الخصومة بهذا الجد والاجتهاد استئناف كأن قائلا يقول فماذا قال الله تعالى فأجيب بقال لا تختصموا وقوله تعالى (لدى) أى

فى دار الجزاء بهذه الحضرة التى هى فوق ما كنتم تدركونه من الاخبار عنها بكثير يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغى أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدى وقوله تعالى (وقد قدمت اليكم بالوعيد) أى التهديد وهو التخويف العظيم على جميع ما ارتكبتموه من الكفر والعدوان جملة حالية ولا بد من تأويلها وذلك أن النهى فى الآخرة وتقدمه الوعيد فى الدنيا فاختلف الزمان فكيف يصح جعلها حالية وتأويلها هو أن المعنى وقد صح أنى قدمت وزمان الصحة وزمان النهى واحد وقدمت يجوز أن يكون بمعنى تقدمت فتكون الواو للحال ولا بد من حذف مضاف أى وقد تقدم قولى لكم ملتبسا بالوعيد ويجوز أن يكون قدمت على حاله متعديا والباء مزيدة فى المفعول أى قدمت اليكم الوعيد كقوله تعالى تنبت بالدهن على قول من قال بزيادتها هناك وقيل الباء هنا للمصاحبة كقولك اشتريت الفرس بلجامه أى معه فكأنه قال تعالى قدمت اليكم ما يجب مع الوعيد على تركه والانذار (ما يبدل) أى يغير بوجه من الوجوه (القول لدى) أى الواصل اليكم من حضرتى التى لا يحيط بها أحد من خلقى وعبر بما التى هى للحاضر دون لا التى للمستقبل لان الاوقات كلها عنده حاضرة (وما أنا) وأكد النفى بقوله تعالى (بظلام للعبيد) فأعذبهم بغير ظلم (فان قيل) الظلام مبالغة فى الظلم ويلزم من انتفائه اثبات أصل الظلم فاذا قال القائل هو كذاب يلزم أن يكون كثيرا لكذب ولا يلزم من نفيه نفى أصل الكذب لجواز أن يقال ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحيانا فقوله تعالى ما أنا بظلام لا يفهم منه نفى أصل الظلم وأن الله ليس بظالم (أجيب) بأربعة أجوبة أحدها أن الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر فتكون اللام فى قوله تعالى للعبيد لتحقيق النسبة لان الفعال حينئذ بمعنى ذى ظلم لقوله تعالى لا ظلم اليوم ثانيها قال الزمخشرى ان ذلك أمر تقديرى كأنه تعالى يقول لو ظلمت عبدى الضعيف الذى هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم وما أنا بذلك فيلزم من نفى كونه ظلاما نفى كونه ظالما ويحقق هذا الوجه اظهار لفظ العبيد حيث قال الله تعالى وما أنا بظلام للعبيد أى فى ذلك اليوم الذى أملأ فيه جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول لم يبق فى طاقتى ولم يبق فى موضع لهم فهل من مزيد استفهام استنكار ثالثها انه لمقابلة الجمع بالجمع والمعنى ان ذلك اليوم مع أنى ألقى فى جهنم عددا لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم لانه تعالى قال وما أنا بظلام للعبيد (يوم نقول) أى على ما لنا من العظمة (لجهنم) ولم يقل ما أنا بظلام فى جميع الازمان وخصص بالعبيد ولم يطلق فلذلك خصص المنفى بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق ولم يلزم منه أن يكون ظالما فى غير ذلك الوقت لان التخصيص بالذكر لا يدل على نفى ما عداه لانه نفى كونه ظلاما ولم يلزم منه كونه ظالما ونفى كونه ظلاما للعبيد ولم يلزم منه كونه ظلاما لغيرهم *(تنبيه)* يحتمل أن يكون المراد بالعبيد الكفار كقوله تعالى يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الآية والمعنى أعذبهم وما أنا بظلام لهم ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين والمعنى ان الله تعالى يقول لو بدلت قولى ورحمت الكافر لكنت فى تكليف العباد ظالما لعبادى المؤمنين لانى منعتهم من الشهوات لاجل هذا اليوم فلو كان ينال من لم يأت بما أتى به المؤمن ما يناله

المؤمن لكان اتيان المؤمن بما أتى به من الايمان والعبادة غير مفيد وهذا معنى قوله تعالى لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ويحتمل أن يكون المراد التعميم وهذا أظهر وقوله تعالى لجهنم أى التى هى دار العذاب مع الكراهة والعبوسة والتجهم (هل امتلأت) استفهام تحقيق لوعده عليها وهو قوله تعالى لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين (وتقول) بصورة الاستفهام كالسؤال (هل من مزيد) أى قد امتلأت ولم يبق فىّ موضع لم يمتلئ فهو استفهام انكار وقيل بمعنى الاستزادة رواه أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعلى هذا يكون السؤال وهو قوله تعالى هل امتلأت قبل دخول جميع أهلها فيها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنّ الله تعالى سبقت كلمته لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين فلما سيق أعداء الله اليها لا يلقى فيها فوج الا ذهب فيها ولا يملؤها فتقول ألست قد أقسمت لتملأنى فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت فتقول هل من مزيد قط قط قد امتلأت وليس فىّ مزيد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش وفى رواية رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها الى بعض وتقول قط قط بعد ذلك ولا تزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة ولأبى هريرة رضى الله عنه نحوه ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحدا * (تنبيه) * هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفى أمثاله مذهبان أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وطائفة من المتكلمين انه لا يتكلم فى تأويلها بل نفوض بأنها حق على ما أراد الله ورسوله ونجريها على ظاهرها أولها معنى يليق بها وظاهرها غير مراد المذهب الثانى وهو قول جمهور المتكلمين انها تؤول بحسب ما يليق بها فعلى هذا اختلفوا فى تأويل الحديث فقيل المراد بالقدم التقدم وهو شائع فى اللغة والمعنى يضع الله تعالى فيها من قدمه لها من أهل العذاب وقيل المراد به قدم بعض المخلوقين فيعود الضمير فى قدمه الى ذلك المخلوق المعلوم وقيل يحتمل أن فى المخلوقات من يسمى بهذه التسمية وخلقوا لها قال القاضى عياض أظهر التأويلات أنهم استحقوها وخلقوا لها قال المتكلمون ولا بد من صرفه عن ظاهره لقيام الدليل العقلى القطعى على استحالة الجارحة على الله تعالى وقولها قط أى حسبى حسبى قد اكتفيت وفيها ثلاث لغات اسكان الطاء وكسرها منونة وغير منونة ولما ذكر النار التى هى دار الفجار وقدمها لان المقام للانذار اتبعها دار الابرار فقال تعالى سارّا لهم باسقاط مؤنة المسير وطىّ مشقة البعد (وأزلفت الجنة) أى قربت بأيسر أمر مع الدرجات والحياض الممتلئة (للمتقين) أى الغريقين فى هذا الوصف فاذا رأوها تسابقوا اليها وتركوا ما كانوا فيه فى الموقف من منابر النور وكثبان المسك ونحو هذا وأما غيرهم من أهل الايمان فقد يكون لهم غير هذا الوصف فيساق اليها الذين اتقوا كما مضى فى الزمر وقوله تعالى (غير بعيد) يجوز أن يكون حالا من الجنة ولم يؤنث لانها بمعنى البستان أولان فعيلا لا يؤنث لانه بزنة المصادر قاله الزمخشرى ومنعه أبو حيان وتقدم الكلام على ذلك فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ويجوز أن يكون منصوبا على الظرف المكانى أى مكانا غير بعيد ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف

أى ازلافا غير بعيد وهو ظاهر عبارة الزمخشرى فانه قال أو شيأ غير بعيد (فان قيل) ما وجه التقريب والجنة مكان والامكنة يقرب منها وهى لا تقرب (أجيب) من أوجه أولها أن الجنة لا تزال ولا يؤمر المؤمن فى ذلك اليوم بالانتقال اليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوى المسافة التى بين المؤمن والجنة فهو التقريب (فان قيل) فعلى هذا ليس ازلاف الجنة من المؤمن بأولى من ازلاف المؤمن من الجنة فما فائدة قوله تعالى أزلفت الجنة (أجيب) بأن ذلك اكرام للمؤمن وبيان لشرفه وانه ممن يمشى اليه ثانيها اقريب من الحصول فى الدخول لا بمعنى القرب المكانى ثالثها ان الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء الى الارض فيقربها للمؤمن ويحتمل انها ازلفت بمعنى جمعت محاسنها لانها مخلوقة واما بمعنى قرب الحصول لها لانها تنال بكلمة طيبة وحسنة وخص المتقين بذلك لانهم أحق بها وقوله تعالى (هذا) أى الازلاف والذى ترونه من كل ما يسركم (ما) أى الامر الذى (توعدون) أى وقع الوعد لكم به فى الدنيا يجوز فيه وجهان أحدهما أن يكون معترضا بين البدل والمبدل منه وذلك أن (لكل أواب) أى رجاع الى طاعة الله تعالى بدل من المتقين باعادة العامل ثانيهما أن يكون منصوبا بقول مضمر ذلك القول منصوب على الحال أى مقولا لهم وقرأ ابن كثير بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ونسب أبو حيان قراءة الياء لابن كثير ولابى عمرو وانما هى لابن كثير فقط وقال سعيد ابن المسيب الاواب هو الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الشعبى ومجاهد هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر منها وقال ابن عباس رضى الله عنهما وعطاء هو المسبح من قوله تعالى ياجبال أوبى معه وقال قتادة هو المصلى وقوله تعالى (حفيظ) اختلف فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما هو الذى يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا الحفيظ لامر الله وقال قتادة الحفيظ لما استودعه الله تعالى من حقه والاواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة أى يكون كثير الاوب شديد الحفظ ثم أبدل من كل تتميما لبيان المتقين قوله تعالى (من خشى) أى خاف ونبه على كثرة خشيته بقوله تعالى (الرحمن) لانه اذا خافه مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصى كان خوفه مع استحضار غيرها أولى وقال القشيرى التعبير بذلك للاشارة الى أنها خشية تكون مقرونة بالانس يعنى الرجاء كما هو المشروع قال ولذلك لم يقل الجبار أو القهار ويقال الخشية ألطف من الخوف فكأنها قريبة من الهيبة وقوله تعالى (بالغيب) حال أى غائبا عنه فيحتمل أن يكون حالا من الفاعل او المفعول او منهما وقيل الباء للمصاحبة أى مصاحب له من غير أن يطلب آية أو امرا يصير به الى حد المكاشفة بل استغنى بالبراهين القاطعة التى منها أنه مربوب وهو أيضا بيان لبليغ خشيته ويجوز أن يكون صفة لمصدر خشى أى خشيه خشية ملتبسة بالغيب ومعنى الآية من خاف الرحمن فأطاعه بالغيب ولم يره وقال الضحاك والسدى يعنى فى الخلوة حيث لا يراه أحد وقال الحسن اذا أرخى الستور وأغلق الباب وقوله تعالى (وجاء) أى بعد الموت (بقلب منيب) أى راجع الى الله تعالى صفة مدح لان شأن الخائف أن يهرب فأما المتقى فجاء ربه لعلمه أنه

لا ينبغي الفرار منه والباء في بقلب اما للتعدية واما للمصاحبة واما للسببية والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى اذ جاء ربه بقلب سليم أي سليم من الشرك والضمير في قوله تعالى (ادخلوها) عائد الى الجنة وقوله تعالى (بسلام) حال من فاعل ادخلوها أي سالمين من العذاب والهموم فهي حال مقارنة أو بسلام من الله تعالى وملائكته عليهم فهي حال مقدرة كقوله تعالى فادخلوها خالدين كذا قيل قال ابن عادل وفيه نظر اذ لا مانع من مقارنة تسليم الملائكة عليهم حال الدخول بخلاف فادخلوها خالدين فانه لا يعقل الخلود الا بعد الدخول (ذلك) أي اليوم الذي حصل فيه الدخول (يوم الخلود) أي الدوام في الجنة الذي لا آخر له ولا انفاد لشئ من لذاته أصلا ولذلك وصل به قوله تعالى جوابا لمن قال على أي وجه خلودهم (لهم) بظواهرهم وبواطنهم (مايشاؤن) أي تجدد مشيئتهم أو يمكن مشيئتهم له (فيها) أي الجنة (ولدينا) أي عندنا من الامور التي هي في غاية الغرابة عندهم وان كان كل ما عندهم مستغربا (مزيد) أي عما لا يدخل تحت أوهامهم ليشاؤه فان سياق الامتنان يدل على ان تنوينه للتعظيم والتعبير بلدى يؤكد ذلك (فان قيل) ما الحكمة في أنه تعالى قال ادخلوها بسلام على المخاطبة ثم قال لهم ولم يقل لكم (أجيب) من وجوه أولها أن قوله تعالى ادخلوها فيه مقدر أي فيقال لهم ادخلوها فلا يكون التفاتا ثانيها انه التفات والحكمة الجمع بين الطرفين كأنه تعالى يقول غير مخل بهم في غيبتهم وحضورهم ففي حضورهم الحبور وفي غيبتهم الحور والقصور ثالثها أنه يجوز أن يكون قوله تعالى لهم كلاما مع الملائكة يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم واعلموا أن لهم مايشاؤن فيها فأحضروا بين أيديهم مايشاؤن وأما انا فعندي مالا يخطر ببالهم ولا تقدرون أنتم علمه والمزيد يحتمل أن يكون معناه الزيادة كقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول أي عندنا ما نزيده على ما يرجون ويأملون قال أنس وجابر وهو النظر الى وجه الله الكريم قيل يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل ليلة جمعة في دار كرامته فهذا هو المزيد ولما ذكر تعالى أول السورة تكذيب الامم السابقة ذكر هنا اهلاك قرون ماضية بقوله تعالى (وكم أهلكنا) أي بما لنا من العظمة (قبلهم من قرن) أي جيل هم في غاية القوة وزاد في بيان القوة قوله تعالى (هم أشد منهم) أي من قريش (بطشا) أي قوة وأخذا لما يريدونه بالعنف والسطوة والشدة * (تنبيه) * كم منصوب بما بعده وقدم اما لانه استفهام واما لان كم الخبرية تجري مجرى كم الاستفهامية في التصدير ومن قرن تمييز وهم أشد صفة اما لكم واما لقرن والفاء في قوله تعالى (فنقبوا) عاطفة على المعنى كأنه قيل اشتد بطشهم فنقبوا (في البلاد) والضمير في نقبوا اما للقرن المتقدم وهو الظاهر واما لقريش والتنقيب التنقير والتفتيش ومعناه التطواف في البلاد قال الحرث بن حلزة

نقبوا في البلاد من حذر المو * ت وجالوا في الارض كل مجال

* (وقال امرؤ القيس) *

وقد نقبت في الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالاياب

ولما كان التقدير ولم يسلموا مع كثرة تنقيبهم توجه سؤال تنبيه للغافل الذاهل وتقريع وتبكيت للمعاند الجاهل بقوله تعالى (هل من محيص) أى معدل ومحيد ومهرب وان دق من قضائنا ليكون لهؤلاء وجه ما فى رد أمرنا (ان فى ذلك) أى فيما ذكر فى هذه السورة من الاساليب العجيبة والطرق الغريبة (لذكرى) أى تذكيرا عظيما جدا (لمن كان) أى كونا عظيما (له قلب) أى عقل فى غاية العظمة فهو بحيث يفهم ما يراه ويعتبر به ومن لم يكن كذلك فلا قلب له سليم بل له قلب لاه (أو ألقى السمع) أى استمع الوعظ بغاية اصغائه حتى كأنه يرمى بشئ ثقيل من علو الى سفل (وهو) أى والحال انه فى حال القائه (شهيد) أى حاضر بكليته فهو فى غاية ما يكون من تصويب الفكر وجمع الخاطر فلا يغيب عنه شئ مما تلى عليه وألقى اليه فيتذكر وعطف على قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان قوله تعالى (ولقد خلقنا) أى بما لنا من العظمة التى لا يقدر قدرها ولا يطاق حصرها (السموات والارض) أى على ما هما عليه من الكبر وكثرة المنافع (وما بينهما) من الامور التى لا ينتظم الامر على قاعدة الاسباب والمسببات بدونها (فى ستة أيام) الارض فى يومين ومنافعها فى يومين والسموات فى يومين ولو شاء لكان ذلك فى أقل من لمح البصر ولكنه تعالى سن لنا التأنى بذلك (وما مسنا) لاجل ما لنا من العظمة أدنى مس وعمم فى النفى فقال تعالى (من لغوب) أى اعياء فانه لو كان لاقتضى ضعفا فاقتضى فسادا فكان من ذلك شئ على غير ما أردناه فكان تصرفنا فيه غير تصرفنا فى الباقى وأنتم تشاهدون الامر فى الكل على حد سواء من نفوذ الامر وتمام التصرف (فاصبر) يا أشرف الخلق (على ما يقولون) أى اليهود وغيرهم من انكار البعث والتشبيه وغير ذلك فان من قدر على خلق العالم بلا اعياء قدر على البعث وغيره (وسبح) أى أوقع التنزيه عن كل شائبة نقص ملتبسا (بحمد ربك) أى باثبات الاحاطة بجميع صفات الكمال للسيد المدبر المحسن اليك بجميع هذه البراهين التى خصك بها مفضلا لك على جميع الخلق وقوله تعالى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) اشارة الى طرفى النهار وقوله تعالى (ومن الليل فسبحه) اشارة الى زلفى من الليل وتقريره أنه صلى الله عليه وسلم كان مشتغلا بأمرين أحدهما عبادة الله تعالى والثانى هداية الخلق فاذا لم يهتدوا قيل له أقبل على شغلك الآخر وهو العبادة قبل الطلوع وقبل الغروب لانهما وقتا اجتماعهم ويكون المراد بقوله تعالى ومن الليل أوله لانه أيضا وقت اجتماعهم وقال أكثر المفسرين قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل الغروب الظهر والعصر ومن الليل العشاآن والتهجد (وأدبار السجود) التنفل بعد المكتوبات وقيل الوتر بعد العشاء وقال مجاهد ومن الليل يعنى صلاة الليل أى وقت صلى وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان كقولهم آتيك خفوق النجم وخلافة الحجاج ومعنى وقت ادبار الصلاة أى انقضائها وتمامها والباقون بالفتح جمع دبر وهو آخر الليل وعقبها ومنه قول أوس

على دبر الشهر الحرام فأرضنا * وما حولها جدب سنون تلمع

ولم يحتملوا في وادبار النجوم وقوله تعالى وآدبار معطوف اما على قبل الغروب واما على ومن الليل وقال عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما ادبار السجود الركعتان بعد صلاة المغرب وادبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر وهى رواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما وروى عنه مرفوعا قال البغوى هذا قول أكثر المفسرين عن عائشة رضى الله عنها قالت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على شئ من النوافل أشد معاهدة منه على الركعتين أمام الصبح وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها يعنى بذلك سنة الفجر وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ما أحصى ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل الفجر بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وعن مجاهد وأدبار السجود هو التسبيح باللسان فى أدبار الصلوات المكتوبات وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبح فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير غفرت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وعنه أيضا ان فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم فقال صلى الله عليه وسلم وماذاك فقالوا صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال قال أفلا أخبركم بأمر تدركون به من قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم ولا يأتى أحد بمثل ما جئتم به الا من جاء بمثله تسبحون فى دبر كل صلاة عشرا وتحمدون عشرا وتكبرون عشرا وقوله تعالى (واستمع) اى لما أخبرك به من أحوال القيامة فيه تهويل وتعظيم للمخبر به والمحدث عنه كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل يا معاذ اسمع ما أقول ثم حدثه بعد ذلك وقوله تعالى (يوم) ظرف لاستمع أى استمع ذلك فى يوم (ينادى المنادى) أى اسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادى بالحشر فيقول أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة ان الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء وقيل المنادى جبريل (من مكان قريب) بحيث يسمع الصوت من بعد كما يسمعه من قرب يكونون فى السماع سواء لا تفاوت بينهم أصلا واختلف فى ذلك المكان القريب فأكثر المفسرين انه صخرة بيت المقدس فانها أقرب الارض الى السماء باثنى عشر ميلا وهى وسط الارض وقيل من تحت أقدامهم وقيل من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة أيتها العظام البالية وقوله تعالى (يوم يسمعون الصيحة) بدل من يوم ينادى والصيحة النفخة الثانية وقوله تعالى (بالحق) حال من الصيحة أى ملتبسة بالحق أو من الفاعل أى يسمعون ملتبسين بسماع حق (ذلك) أى اليوم العظيم الذى يظهر به المجد ويعلو بضعفاء المؤمنين الجد (يوم الخروج) أى الذى لا خروج أعظم منه وهو خروجهم من قبورهم من الارض التى خلقوا منها الى المحشر وهو من أسماء يوم القيامة (انا) أى بما لنا من العظمة (نحن) أى خاصة (نحيى ونميت) أى نجدد ذلك شيأ بعد شئ سنة مستقرة

وعادة مستمرة كما تشاهدونه فقد كان منا بالاحياء الاول المبدأ (والينا) أى خاصة بالاماتة ثم الأحياء (المصير) أى فى الآخرة وقيل تقديره نميت فى الدنيا ونحيى فى الآخرة للبعث والينا المصير بعد البعث وقوله تعالى (يوم) بدل من يوم قبله وما بينهما اعتراض وقرأ (تشقق الارض) نافع وابن كثير وابن عامر بتشديد الشين والباقون بالتخفيف (عنهم) أى مجاوزة لهم بعد أن كانوا فى بطنها فيخرجون منها أحياء كما كانوا على ظهرها أحياء حال كونهم (سراعا) أى اجابة لمنادينا وهو جمع سريع. وأشار الى عظمة الامر بقوله تعالى (ذلك) أى الاخراج العظيم جدا (حشر) أى جمع بكره وزاد فى بيان عظمة هذا الامر بدلالته على اختصاصه بتقدم الجار فقال تعالى (علينا) أى خاصة (يسير) فكيف يتوقف فيه عاقل فضلا عن أن ينكره وأما غيرنا فلا يمكنه ذلك بوجه * (تنبيه) * علينا متعلق بيسير ففصل بمعمول الصفة بينها وبين موصوفها ولا يضر ذلك وقال الزمخشرى التقديم للاختصاص وهو ما أشرت اليه أى لا يتيسر ذلك الا على الله تعالى وحده وهو اعادة جواب قولهم ذلك رجع بعيد وقوله تعالى (نحن أعلم) أى عالمون (بما يقولون) أى فى الحال والاستقبال من التكذيب بالبعث وغيره تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) أى بمسلط تجبرهم على الاسلام انما أنت منذر وقد فعلت ما أمرت به ونحن القادرون على ردهم بما لنا من العلم المحيط وهذا قبل الامر بالقتال (فذكر) أى بطريق البشارة والنذارة (بالقرآن) أى الجامع بمجده لكل خير المحيط بكل صلاح (من يخاف وعيد) فانه لا ينتفع به غيره وهم المؤمنون وقرأ ورش باثبات الياء بعد الدال وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ق هوّن الله عليه تارات الموت وسكراته حديث موضوع وتارات الموت بمثلثة وهمزة مفتوحة أهواله

﴿سورة الذاريات مكية﴾

وهى ستون آية وثلثمائة وستون كلمة وألف ومائتان وتسعة وثمانون حرفا

(بسم الله) أى المحيط بصفات الكمال فهو لا يخلف الميعاد (الرحمن) الذى عم الخلائق بنعمة الايجاد (الرحيم) الذى خص من اختاره بالتوفيق لما يرضاه من المراد ولما ختم الله سبحانه وتعالى ق بالتذكير بالوعيد افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه فقال عز من قائل مناسبا بين القسم والمقسم عليه (والذاريات) أى الرياح تذرو التراب وغيره وقيل النساء الوالدات فانهن يذرين الاولاد وقوله تعالى (ذروا) منصوب على المصدر المؤكد والعامل فيه فرعه وهو اسم الفاعل والمفعول محذوف اقتصارا يقال ذرت الريح التراب وأذرته (فالحاملات) أى السحب تحمل الماء وقيل الرياح الحاملة للسحاب وقيل النساء الحوامل وقوله تعالى (وقرا) أى ثقلا مفعول به بالحاملات كما يقال حمل فلان عدلا ثقيلا قال الرازى ويحتمل أن يكون اسما أقيم مقام المصدر كقوله ضربته سوطا (فالجاريات) أى السفن وقيل الرياح الجارية

فى مهابها وقيل الكواكب التى تجرى فى منازلها وقوله تعالى (يسرا) أى بسهولة مصدر فى موضع الحال أى ميسرة (فالمقسمات) أى الملائكة التى تقسم الارزاق والامطار وغيرها بين العباد والبلاد وقوله تعالى (أمرا) يجوز أن يكون مفعولا به كقولك فلان قسم الرزق أو المال وأن يكون حالا أى مأمورة وهذه أشياء مختلفة فتكون الفاء على بابها من عطف المتغايرات والفاء للترتيب فى القسم لا فى المقسم به قال الزمخشرى ويجوز أن يراد الرياح وحدها لانها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه وتجرى فى الجو جريا سهلا وعلى هذا يكون من عطف الصفات والمراد واحد فتكون الفاء على هذا الترتيب الامور فى الوجود وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر سلونى قبل أن لا تسألونى وان تسألوا بعدى مثلى فقام ابن الكواء فقال ما الذاريات قال الرياح قال فالحاملات وقرا قال السحاب قال فالجاريات يسرا قال الفلك قال فالمقسمات أمرا قال الملائكة وكذا عن ابن عباس وعن الحسن المقسمات السحاب يقسم الله تعالى به ارزاق العباد وقد حملت على الكواكب السبعة ويجوز أن يراد الرياح لاغير لانها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه وتجرى فى الجو جريا سهلا وتقسم الامطار بتصريف السحاب (فان قيل) ان كان وقرا مفعولا فلم يجمع وقيل أوقارا (أجيب) بان جماعة من الرياح قد تحمل وقرا واحدا وكذا القول فى المقسمات أمرا اذا قيل انه مفعول به لان جماعة من الملائكة قد تجتمع على أمر واحد * (فائدة) * أقسم الله تعالى بجمع السلامة المؤنث فى خمس سور ولم يقسم بجمع السلامة المذكر فى سورة أصلا فلم يقل والصالحين من عبادى ولا المقربين الى غير ذلك مع ان المذكر أشرف لان جموع السلامة بالواو والنون فى الغالب لمن يعقل ولما كانوا يكذبون بالوعيد أكد الجواب بعد التأكيد بنفس القسم فقال تعالى (انما توعدون لصادق) أى مطابق الاخبار به للواقع وسترون مطابقته له * (تنبيه) * ما يجوز أن تكون اسمية وعائدها محذوف أى توعدونه وأن تكون مصدرية فلا عائد على المشهور وحينئذ يحتمل أن يكون توعدون مبنيا من الوعد وأن يكون مبنيا من الوعيد لانه يصلح أن يقال أوعدته فهو يوعد ووعدته فهو يوعد لا يختلف فالتقدير ان وعدكم أو ان وعيدكم (وان الدين) أى المجازاة لكل أحد بما كسب يوم البعث (لواقع) لابد منه وان انكرتم (والسماء ذات الحبك) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق الحسن المستوى يقال للنساج اذا نسج الثوب فاجاد ما أحسن حبكه وقال سعيد بن جبير ذات الزينة أى المزينة بزينة الكواكب قال الحسن حبكتها النجوم وقال مقاتل والكلبى والضحاك ذات الطريق كحبك الماء اذا ضربته الريح وحبك الرمل والشعر الجعد وهو آثار تثنيه وتكسره قال زهير

مكلل باصول النجم تنسجه * ريح خريق لضاحى مائه حبك

والحبك يحتمل أن يكون مفرده حبيكة كطريقة وطرق أو حباك نحو حمار وحمر قال الشاعر

كأنما جللها الحواك * طنفسة فى وشيها حباك

وأصل الحبك احكام الشئ واتقانه ومنه يقال للدرع محبوكة وجواب القسم (انكم) يا معشر

قريش (لفي قول) محيط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به ابطال الدين الحق (مختلف) فتقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الاولين وفي محمد صلى الله عليه وسلم ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكاذب (يؤفك) أي يصرف (عنه) أي عن النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن أي عن الايمان بذلك (من افك) أي صرف عن الهداية في علم الله تعالى ومعناه حينئذ الذم وقيل انه مدح للمؤمنين ومعناه يصرف عن القول المختلف من يصرف عن ذلك القول ويرشد الى القول المستوى (قتل) أي لعن (الخراصون) أي الكذابون وهم الذين لا يجزمون بأمر بل هم شاكون متحيرون وهم أصحاب القول المختلف ثم وصفهم الله تعالى فقال تعالى (الذين هم) أي خاصة (في غمرة) أي جهل يغمرهم (ساهون) أي غريقون في السهو وهو النسيان والغفلة والحيرة وذهاب القلب الى غير ما يهمه فقاعل ذلك ذو ألوان متخالفة من هول ماهو فيه وشدة كربه (يسألون) النبي استهزاء (أيان) أي متى وأي حين (يوم الدين) اى وقوع الجزاء الذي تخبرنا به ولولا أنهم بهذه الحالة لتذكروا من أنفسهم أنه ليس أحد منهم يترك عبيده واجراءه في عمل من الاعمال الا وهو يحاسبهم على أعمالهم وينظر قطعا في أحوالهم ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم فكيف الظن بأحكم الحاكمين أن يترك عبيده الذين خلقهم على هذا النظام المحكم وأبدع لهم هذين الخافقين وهيأ لاجلهم فيهما كل ما يحتاجون اليه فيتركهم سدى ويوجدهم عبثا وقوله تعالى (يوم هم) منصوب بمضمر أي الجزاء كائن يوم هم (على النار يفتنون) أي يعذبون فيها جواب لسؤالهم ايان يوم الدين وقال الرازي يحتمل وجهين أحدهما أن يكون جوابا عن قولهم ايان يقع فكما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب للعلم كذلك لم يجبهم جواب معلم مبين بل قال يوم هم على النار يفتنون لجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالاول ولا يجوز أن يكون الجواب بالاخفى فلو قال قائل متى يقدم زيد فلو أجيب بقوله يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق لم يصح هذا الجواب ثانيهما أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه في قوله تعالى (ذوقوا فتنتكم) أي تعذيبكم (فان قيل) هذا يفضي الى الاضمار (أجيب) بأن الاضمار لابد منه لان قوله تعالى ذوقوا فتنتكم لا يتصل بما قبله الا باضمار يقال (هذا) أي العذاب الملون (الذي كنتم به تستعجلون) في الدنيا استهزاء ولما بين تعالى حال المجرمين بين بعده حال المتقين فقال تعالى (ان المتقين) أي الذين كانت التقوى لهم وصفا ثابتا (في جنات) أي بساتين عظيمة تجن داخلها أي تستره من كثرة ظلالها لكثرة أشجارها وعظمها (وعيون) جارية في خلال الجنان * (تنبيه) * المتقي له مقامات أدناها أن يتقي الشرك وأعلاها أن يتقي الدنيا والآخرة وأدنى درجات المتقي الجنة فما من مكلف اجتنب الكفر الا ويدخل الجنة وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين والباقون بالضم وقوله تعالى (آخذين) حال من الضمير في خبر ان وقوله تعالى (ما آتاهم ربهم) أي المحسن اليهم المدبر لهم بتمام علمه وشامل قدرته ان كان مما في الجنة فتكون حالا حقيقية وان كان مما آتاهم من امره ونهيه في الدنيا فتكون حالا محكية لاختلاف الزمانين * (تنبيه) * اعلم أن الله تعالى وحد الجنة

تارة قال تعالى مثل الجنة وأخرى جمعها كقوله تعالى هنا ان المتقين في جنات وتارة ثناها قال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان والحكمة فيه ان الجنة في توحيدها الاتصال المنازل والاشجار والانهار كجنة واحدة وأما جمعها فانها بالنسبة الى الدنيا وبالاضافة اليها جنات لا يحصرها عدد وأما تثنيتها فسيأتي الكلام عليها ان شاء الله تعالى في سورة الرحمن وهو قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان فقيل جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته وقيل جنة لخائف الانس وجنة لخائف الجن فيكون من باب التوزيع قال الرازي غير أنا نقول ههنا ان الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وكذلك عند الشراء فقال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وعند الاعطاء جمعها اشارة الى ان الزيادة في الوعد موجودة بخلاف مالو وعد بجنات ثم يقول انه في جنة لانه دون الموعود ومعنى آخذين قابضين ما آتاهم شيأ فشيأ ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لانهاية له وقيل قابلين قبول رضا كقوله تعالى ويأخذ الصدقات أي يقبلها قاله الزمخشري وقوله تعالى (انهم كانوا قبل ذلك محسنين) اشارة الى أنهم أخذوها بثمنها وملكوها بالاحسان في الدنيا والاشارة بذلك اما الدخول الجنة واما الايتاء الله تعالى واما اليوم الدين والاحسان يكون في معاملة الخالق والخلائق وقيل هو قول لا اله الا الله ولهذا قيل في معنى كلمة التقوى انها لا اله الا الله وفي قوله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وقوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان هو الاتيان بكلمة لا اله الا الله ثم فسر احسانهم معبرا عنه بما هو في غاية المبالغة بقوله تعالى (كانوا) أي لما عندهم من الاجلال له والحب فيه بحيث كأنهم مطبوعون فيه (قليلا من الليل) الذي هو وقت الراحات وقضاء الشهوات (ما يهجعون) أي يفعلون الهجوع وهو النوم الخفيف القليل بالليل فما ظنك بما فوقه فما مزيدة ويهجعون خبر كان وقليلا ظرف أي ينامون في زمن يسير من الليل ويصلون أكثره وقال ابن عباس رضي الله عنه كانوا اقل ليلة تمر بهم الا صلوا فيها شيأ اما من أولها أو من وسطها وعن أنس ابن مالك كانوا يصلون من المغرب الى العشاء وقال محمد بن علي كانوا لا ينامون حتى يصلون العتمة وقال مطرف بن عبد الله قل ليلة أتت عليهم هجوعا كلها وقال مجاهد كانوا لا ينامون كل الليل ووقف بعضهم على قليلا ليواخيها قوله تعالى وقليل ماهم وقليل من عبادي الشكور ويبتدئ من الليل ما يهجعون أي ما يهجعون من الليل والمعنى كانوا من الناس قليلا ثم ابتدأ فقال ما يهجعون من الليل وجعله جحدا أي لا ينامون بالليل البتة بل يقومون للصلاة والعبادة وهو قول الضحاك ومقاتل وقيل ان ما بمعنى الذي وعائدها محذوف تقديره كانوا قليلا من الليل الوقت الذي يهجعونه وهذا فيه تكلف ولما كان المحسن لا يرى نفسه الا مقصرا قال تعالى دالا على ذلك وعلى أن تهجدهم متصل بآخر الليل (وبالاسحار) قال ابن زيد السحر السدس الاخير من الليل (هم) أي دائما بظواهرهم وبواطنهم (يستغفرون) أي يعدون مع هذا الاجتهاد أنفسهم مذنبين ويسألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله تعالى وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وان اجتهدوا لقول سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لا أحصي ثناء

عليك

عليك وابراز الضمير دل على أن غيرهم لو فعل هذا الدأب لا يعجب بنفسه ورأى أنه لا أحد أفضل منه وعلى أن استغفارهم فى الكثرة يقتضى أنهم يكونون بحيث يظن أنهم أحق بالتذلل من المصرين على المعاصى فان استغفارهم ذلك على بصيرة لانهم نظروا ما له سبحانه فى الآفاق وفى أنفسهم من الآيات والحكم البالغة فأقبلوا على الاستغفار عالمين بأنه تعالى لا يقدر حق قدره *(تنبيه)* بالاسحار متعلق بيستغفرون والباء بمعنى فى وقدم متعلق الخبر على المبتدا لجواز تقديم العامل وقال الكلبى ومجاهد وبالاسحار يصلون وذلك ان صلاتهم بالاسحار لطلب المغفرة روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله الى السماء كل ليلة حتى يبقى ثلث الليل فيقول أنا الملك أنا الملك من الذى يدعونى فأستجيب له من الذى يسألنى فأعطيه من الذى يستغفرنى فأغفر له وهذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان معروفان أحدهما وهو مذهب السلف وغيرهم أنه يمر كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل وترك الكلام فيه وفى أمثاله مع الايمان به وتنزيه الرب سبحانه عن صفات الاجسام المذهب الثانى وهو قول جماعة من المتكلمين وغيرهم ان الصعود والنزول من صفات الاجسام فالله تعالى منزه عن ذلك فعلى هذا يكون معناه نزول الرحمة والالطاف الالهية والاقبال على الداعين بالاجابة واللطف وتخصيصه بالثلث الاخير من الليل لان ذلك وقت التهجد والدعاء وغفلة أكثر الناس وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يتهجد قال اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وزاد فى رواية وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت ولا اله غيرك زاد النسائى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم * ولما ذكر تعالى معاملتهم للخالق أتبعه المعاملة للخلائق تكميلا لحقيقة الاحسان فقال تعالى (وفى أموالهم) أى كل أصنافها (حق) أى نصيب ثابت (للسائل) أى الذى ينبه على حاجته بسؤال الناس وهو المتكفف (والمحروم) وهو المتعفف الذى لا يجد ما يغنيه ولا يسأل الناس ولا يفطن له ليتصدق عليه وهذه صفة أهل الصفة رضى الله تعالى عنهم فالمحسنون يعرفون صاحب الوصف لما لهم من نافذ البصيرة ولله تعالى بهم العناية وقدم السائل لانه يعرف بسؤاله أو يكون اشارة الى كثرة العطاء فيعطى السؤال فاذا لم يجدهم يسأل عن المحتاجين فيكون سائلا ومسؤلا وقيل قدم السائل لتجانس رؤس الآى وقيل السائل هو الآدمى والمحروم كل ذى روح غيره من الحيوانات المحترمة قال صلى الله عليه وسلم فى كل كبد حراء أجر وهذا ترتيب حسن لان الآدمى مقدم على البهائم وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب السائل الذى يسأل الناس والمحروم الذى ليس له فى الغنائم سهم ولا يجرى عليه من الفئ شئ وقال قتادة والزهرى المحروم

المتعفف الذى لايسأل الناس وقال زيد بن أسلم المحروم هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته وهو قول محمد بن كعب القرظى قال المحروم صاحب الجائحة ثم قرأ انا لمغرمون بل نحن محرومون (وفى الارض) أى من الجبال والبحار والاشجار والثمار والنبات وغيرها (آيات) أى دلالات على قدرة الله تعالى ووحدانيته (للموقنين) أى الذين صار الايقان لهم غريزة ثابتة فهم لذلك يتفطنون لرؤيته مافيها قال القشيرى من الآيات فيها أنها تحمل كل شئ فكذلك العارف يحمل كل أحد ومن استثقل أحدا أو تبرم برؤية أحد فلغيبته عن الحقيقة ومطالعته الخلق بعين التفرقة وأهل الحقائق لايتصفون بهذه الصفة ومن الآيات فيها أنه يلقى عليها كل قذر وقمامة فتنبت كل زهر ونور فكذلك العارف يتشرب مايسقى من الجفاء ولايترشح الا بكل خلق حسن على وشيمة زكية (وفى أنفسكم) آيات أيضا من مبدا خلقكم الى منتهاه وما فى تركيب خلقكم من العجائب (أفلا تبصرون) أى بأبصاركم و بصائركم فتتأملوا مافى ذلك من الآيات فمن تأملها علم أنه عبد ومتى علم ذلك علم أن له ربا غير محتاج الى أحد (وفى السماء) أى جهة العلو (رزقكم) بما يأتى من المطر والرياح والحر والبرد وغير ذلك مما رتبه سبحانه وتعالى لمنافع العباد وقال ابن عباس يعنى بالرزق المطر لانه سبب الارزاق وقيل فى السماء رزقكم مكتوب وقيل تقدير الارزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل فى الارض حبة قوت (وما توعدون) قال عطاء من الثواب والعقاب وقال مجاهد من الخير والشر وقال الضحاك من الجنة والنار ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه فقال عز من قائل (فورب) أى مبدع ومدبر (السماء والارض) أى وما أودع فيهما مما علمتموه ومالم تعلموه (انه) أى الذى توعدونه من الخير والشر والجنة والنار وماذكر من أمر الرزق وماتقدم الاقسام عليه (لحق) أى ثابت يطابقه الواقع (مثل ما أنكم تنطقون) أى مثل نطقكم كما انه لاشك فى أنكم تنطقون ينبغى لكم أن لاتشكوا فى تحقيق ذلك وقال بعض الحكماء معناه ان كل انسان ينطق بلسان نفسه ولايمكن أن ينطق بلسان غيره كذلك كل أحد يأكل رزق نفسه الذى قسم له لايقدر أن يأكل رزق غيره وأنشدوا فى المعنى

مالايكون فلايكون بحيلة * أبدا وماهو كائن سيكون

سيكون ماهو كائن فى وقته * وأخو الجهالة مكمد مغبون

وقيل معناه ان القرآن لحق تكلم به الملك النازل من السماء مثل ماتتكلمون وقرأ حمزة والكسائى وشعبة برفع اللام على أنه نعت لحق وما مزيدة وانكم مضاف اليه أى لحق مثل نطقكم ولايضر تقدير اضافتها لمعرفة لانها لاتتعرف بذلك لابهامها والباقون بالنصب على أنه نعت لحق أيضا كما فى القراءة الاولى واغابنى الاسم لاضافته الى غير متمكن كما بناه القائل فى قوله

فتداعى منخراه بدم * مثل ماأثمر حماض الجبل

بفتح مثل مع أنها نعت لدم وقيل انها نعت لمصدر محذوف أى لحق حقا مثل نطقكم وقوله

تعالى (هل أتاك) أى يا أكمل الخلق (حديث ضيف ابراهيم المكرمين) تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتبشيراً له بالفرج وسماهم ضيفاً لانه حسبهم كذلك ويقع على الواحد والجمع لانه مصدر وسماهم مكرمين عند الله تعالى أولان ابراهيم عليه السلام أكرمهم بأن عجل قراهم وأجلسهم فى أكرم المواضع واختيار ابراهيم لكونه شيخ المرسلين وكون النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا بأن يتبع ملته وكان ابراهيم عليه السلام أكرم الخليقة وضيف الكرام مكرمون وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد لان ابراهيم عليه السلام خدمهم بنفسه وعن ابن عباس سماهم مكرمين لانهم جاؤا غير مدعوين وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (فان قيل) اذا كان المراد من الآية التسلية والانذار فأى فائدة فى حكاية الضيافة (أجيب) بأن فى ذلك اشارة الى أن الفرج فى حق الانبياء والبلاء على الجهلة يأتى من حيث لم يحتسبوا كقوله تعالى فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فلم يكن عند ابراهيم عليه السلام خبر من انزال العذاب مع ارتفاع منزلته قال القشيرى وقيل كان عددهم اثنى عشر ملكا وقيل جبريل عليه السلام وكان معه تسعة وقيل كانوا ثلاثة وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها (اذ) أى حديثهم حين (دخلوا عليه) أى دخول استعلاء مخالف لدخول بقية الضيوف وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الذال عند الدال والباقون بالادغام * (تنبيه) * اختلف فى العامل فى اذ على أربعة أوجه أحدها أنه حديث أى هل أتاك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه ثانيها أنه منصوب بما فى ضيف من معنى الفعل لانه فى الاصل مصدر ولذلك استوى فيه الواحد المذكر وغيره كانه قيل الذين أضافهم فى وقت دخولهم عليه ثالثها أنه منصوب بالمكرمين ان أريد باكرامهم أن ابراهيم عليه السلام أكرمهم بخدمته لهم كانه تعالى يقول أكرموا اذ دخلوا رابعها أنه منصوب باضمار اذكر ولا يجوز نصبه بأتاك لاختلاف الزمانين (فان قيل) انما أرسلوا الى قوم لوط فما الحكمة فى مجيئهم الى ابراهيم عليه السلام (أجيب) من وجهين أحدهما أن ابراهيم عليه السلام شيخ المرسلين ولوط من قومه وعادة الملك اذا أرسل رسولا الملك وفى طريقه من هو أكبر منه يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه ثانيهما أن ابراهيم عليه السلام كان شديد الشفقة حليما فكان يشق عليه اهلاك أمة عظيمة وكان ذلك مما يحزن ابراهيم عليه السلام شفقة منه على العباد فقال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف من هلك ويكون من صلبه فروع الانبياء عليهم السلام (فقالوا سلاما) أى هذا اللفظ (قال سلام) أى هذا اللفظ والمشهور أن السلام الاول المراد به التحية أى نسلم سلاما وقيل ان سلاما معناه حسنا لانه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو ويأثم فكأنهم قالوا قولا حسنا سليما من الاثم فيكون مفعولا به لانه فى معنى القول وأما رفع الثانى فالمشهور أنه التحية فهو مبتدأ وخبره محذوف أى عليكم وقيل انه السلامة أى أمرى سلام لانى لا أعرفكم وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون اللام والباقون بفتح السين واللام وألف بعدها والمعنى واحد

وقوله تعالى (قوم منكرون) أي غرباء لا أعرفهم قال ذلك في نفسه كما قاله ابن عباس خبر مبتدا مقدر أي هؤلاء وقيل انما أنكر أمرهم لانهم دخلوا عليه من غير استئذان وقال أبو العالية أنكر اسلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الارض (فراغ) أي ذهب في خفية من ضيفه فان من آداب المضيف أن يبادر بالقرى حذرا من أن يكفه الضيف أو يصير منتظرا (الى أهله) أي الذين عندهم بقرة (فجاء بعجل) أي فتى من أولاد البقر لانه كان عامة ماله البقر (سمين) قد شواه وأنضجه كما قال تعالى في سورة هود حنيذ أي مشوى (فقربه اليهم) بأن وضعه بين أيديهم ليأكلوا فلم يأكلوا (قال ألا تأكلون) والهمزة اما للانكار عليهم في عدم أكلهم واما للعرض واما للتحضيض فلم يجيبوا (فأوجس) أي أضمر في نفسه (منهم خيفة) لما رأى اعراضهم عن طعامه لظنه أنهم جاؤه لشر وقيل وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا بعذاب فلما رفعوا منه ذلك (قالوا) مؤنسين له (لا تخف) وأعلموه أنهم رسل الله (وبشروه بغلام) يأتيه على شيخوخته ويأس امرأته بالطعن في السن بعد عقمها وهو اسحق عليه السلام (عليم) أي مجبول جبلة مهيأة للعلم ولا يموت حتى يظهر علمه بالفعل في أوانه فان جميع الانبياء بعده من ذريته الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من ذرية اسمعيل عليه السلام *(تنبيه)* ذكر ههنا من آداب الضيافة تسليم المضيف على الضيف ولقاءه بالوجه الحسن والمبالغة في الاكرام بقوله سلام وهو آكد وسلامهم بالمصدر في قوله سلام بالرفع زيادة على ذلك ولم يقل سلام عليكم لان الامتناع من الطعام يدل على العداوة والغدر لا يليق بالانبياء فقال سلام أي امري مسالمة ثم فيها من آداب المضيف تعجيل الضيافة فان الفاء في قوله فراغ تدل على التعقيب واخفاؤها لان الروغان يقتضي الاخفاء وغيبة المضيف عن الضيف ليستريح ويأتي بما ينعه الحياء منه ويخدم الضيف بنفسه ويختار الاجود لقوله سمين ويقدم الطعام للضيف في مكانه ولا ينقل الضيف للطعام لقوله قربه اليهم ويعرض الاكل عليه ولا يامره لقوله تعالى قال ألا تأكلون ولم يقل كلوا وسروره بأكله لا كما يوجد في بعض البخلاء الذين يحضرون طعاما كثيرا ويجعل نظره ونظر أهل بيته الى الطعام حتى يمسك الضيف يده عنه لقوله تعالى فأوجس منهم خيفة لعدم أكلهم ومن آداب الضيف اذا حضر الطعام ولم يكن يصلح له لكونه مضرا به أو يكون ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام أن لا يقول هذا طعام غليظ لا يصلح لي بل يأتي بعبارة حسنة ويقول في مانع من أكل الطعام لانهم أجابوه بقولهم لا تخف ولم يذكروا في الطعام شيأ ولا أنه يضر بهم بل بشروه بالولد اشعارا بأنهم ملائكة وبشروه بالاشرف وهو الذكر حيث فهموه انهم ليسوا ممن يأكلون ثم وصفوه بالعلم دون المال والجمال لان العلم أشرف الصفات ثم أدب آخر في البشارة وهو أن لا يخبر الانسان بما يسره دفعة واحدة لانه يورث مرضا لانهم جلسوا واستأنس بهم ابراهيم ثم قالوا نبشرك (فان قيل) قال تعالى في سورة هود فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم فدل على أن انكاره حصل بعد تقريب العجل اليهم وههنا قال فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ثم قال فراغ الى أهله بفاء التعقيب وذلك يدل على أن تقريب الطعام منهم

بعد حصول انكاره تفاوجهه (أجيب) بأن يقال لعلهم كانوا مخالفين لصفة الناس فى الشكل والهيئة ولذلك قال قوم منكرون أى عند كل أحد واشترك ابراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتم بل قال أنتم منكرون فى أنفسكم عند كل أحد منا ثم لما امتنعوا من الطعام تأكد الانكار لان ابراهيم تفرد بمشاهدة امساكهم فنكرهم فوق الانكار الاول وحكاية الحال فى سورة هود أبسط مما ذكره ههنا فانه هنا لم يبين المبشر به وهنالك ذكره باسمه وهو اسحق وههنا لم يقل ان القوم قوم من وهنالك قال قوم لوط ولما كانا بعيدين عن قبول الولد تسبب عن ذلك قوله تعالى دالا على أن الولد اسحق مع الدلالة على أن خفاء الاسباب لا يؤثر فى وجود المسببات (فأقبلت) أى من سماع هذا الكلام (امرأته) سارة قيل لم يكن ذلك اقبالا من مكان الى مكان بل كانت فى البيت فهو كقول القائل أقبل يفعل كذا اذا أخذ فيه وقوله تعالى (فى صرة) أى صيحة حال أى جاءت صائحة لانها قد امتلأت عجبا (فصكت) قال ابن عباس لطمت (وجهها) واختلف فى صفته فقيل هو الضرب باليد مبسوطة وقيل هو ضرب الوجه باطراف الاصابع فعل المتعجب وهى عادة النساء اذا أنكرن شيأ وأصل الصك ضرب الشئ بالشئ العريض وقيل جمعت أصابعها وضربت جبهتها عجبا وذلك من عادة النساء أيضا اذا أنكرن شيأ (وقالت) تريد أن تستبين الامر هل الولد منها أو من غيرها (عجوز) قال القشيرى قيل انها كانت يومئذ ابنة ثمان وتسعين سنة ومع ذلك (عقيم) فهى حال شبابها لم تكن تقبل الحبل فلم تلد قط ولما قالت ذلك قالوا مجيبين لها (قالوا كذلك) أى مثل ماقلناه من هذه البشرى العظيمة (قال ربك) أى المحسن اليك بتأهيلك لذلك على ماذكرت من حالك وبتأهيلك من قبل الاتصال بخليله صلى الله عليه وسلم (انه هو) أى وحده (الحكيم) أى الذى يضع الاشياء فى أحق مواضعها (العليم) المحيط العلم فهو لذلك لا يعجزه شئ ثم بين سبحانه وتعالى ما كان من حال ابراهيم وحال الملائكة بعد ذلك بقوله تعالى (قال) أى ابراهيم عليه السلام مسببا عما رأى من حالهم وان اجتماع الملائكة على تلك الحالة لم يكن لهذه البشارة فقط (فما خطبكم) أى خبركم العظيم (أيها المرسلون) أى لامر عظيم وهذا أيضا من آداب المضيف اذا بادر الضيف بالخروج قال له ماهذه العجلة وماشأنك لان فى سكوته مايوهم اشتغاله ثم انهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذى لا يسر عن الصديق شيأ وكان ذلك باذن الله تعالى لهم فى اطلاع ابراهيم عليه السلام على اهلاكهم وجبر قلبه بتقديم البشارة بأبى الانبياء اسحق عليه السلام (فان قيل) فما الذى اقتضى ذكره بالفاء ولم لاقال ماهذا الاستعجال وماخطبكم المعجل لكم (أجيب) بأنه لما أوجس منهم خيفة لو خرجوا من غير بشارة وايناس فلما آنسوه قال فما خطبكم أى بعد هذا الانس العظيم ماهذا الايحاش الاليم (قالوا) قاطعين بالتأكيد بأن مضمون خبرهم حتم لابد منه ولا مدخل للشفاعة فيه (انا أرسلنا) أى بارسال من تعلم (الى قوم مجرمين) أى هم فى غاية القوة على مايحاولونه وقد صرفوا ما أنعم الله تعالى به عليهم من القوة فى قطع مايحق وصله ووصل مايحق قطعه يعنون قوم لوط (لنرسل عليهم) أى من السماء التى فيها

ماوعدا لعباد به وتوعدوا (حجارة من طين) أى مهيأ للاحراق والاحتراق (مسومة) أى معلمة بعلامة العذاب المخصوص عليها اسم من يرمى بها وقوله تعالى (عند ربك) أى المحسن اليك بهذه البشارة وغيرها ظرف لمسومة أى معلمة عنده (للمسرفين) أى المتجاوزين الحدود غير قانعين بما أبيح لهم فالمسرف المتمادى ولو فى الصغائر فهم مجرمون أى مسرفون والمجرم قال ابن عباس هو المشرك لان الشرك أعظم الذنوب* وهنا لطيفة* وهى أن الحجارة سومت للمصر المسرف الذى لا يترك الذنب فى المستقبل وذلك انما يعلمه الله تعالى فلذلك قال عند ربك للمسرفين ولما كان الاجرام ظاهرا قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين واللام فى المسرفين لتعريف العهد أى لهؤلاء المسرفين اذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة واسرافهم بأنهم أتوا بما لم يسبقهم به أحد من العالمين وفى هذا دليل على رجم اللائط والفائدة فى ارسال جماعة من الملائكة لهذا الامر وان كان يكفى فيه الواحد منهم اذا الملك العظيم قد يهلك بالامر الحقير كما أهلك النمروذ بالبعوض وكما أهلك فرعون بالقمل والجراد بل بالريح التى بها الحياة اظهارا للقدرة وقد تكثر الاسباب كما فى يوم بدر أمر خمسة آلاف من الملائكة باهلاك أهل بدر مع قلتهم اظهارا لعظيم قدرته* (تنبيه)* قوله تعالى من طين أى ليس من البرد والفاعل لذلك هو الله تعالى لا كما تقول الحكماء فانهم يقولون ان البرد يسمى حجارة فقوله تعالى من طين يدفع ذلك التوهم قال الرازى ان بعض من يدعى العقل يقول لا ينزل من السماء الا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التى يتخذها الرماة قالوا وسبب ذلك أن الاعصار تصعد الغبار من الفلوات العظيمة التى لا عمارة فيها والرياح تسوقها الى بعض البلاد ويتفق ذلك الى هواء ندى فيصير ذلك طينا رطبا والرطب اذا نزل وتفرق استدار بدليل انك اذا رميت الماء الى فوق ثم نظرت اليه رأيته يقطر كرات مدورات كاللآلئ الكبار ثم فى النزول ان اتفق أن تضربه النيران التى فى الجو جعلته حجارة كالآجر المطبوخ فينزل فيصيب من هيأ الله تعالى هلاكه وقد ينزل كثيرا فى المواضع التى لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به فلهذا قال من طين لان مالا يكون من طين كالحجر الذى يكون فى الصواعق لا يكون كثيرا بحيث يمطر وهذا تعسف لان ذلك الاعصار لما وقع فان وقع لحادث آخر لزم التسلسل ولابد من الانتهاء الى محدث ليس بحادث فذلك المحدث لابد وأن يكون فاعلا مختارا والمختار له أن يفعل ذلك وله ان يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار لكن العقل لا طريق له الى الجزم بطريق احداثه ومالا يصل العقل اليه لا يؤخذ الا بالنقل والنص ومن المعلوم أن نزول حجارة الطين من السماء أغرب وأعجب من غيرها ولما أراد الله تعالى أن يهلك المجرمين ميز المؤمنين بقوله تعالى (فأخرجنا) أى بما لنا من العظمة بعد أن ذهبت رسلنا اليهم ووقعت بينهم وبين لوط عليه السلام محاورات معروفة لم يدع الحال هنا الى ذكرها (من كان فيها) أى قرى قوم لوط (من المؤمنين) أى المصدقين بقلوبهم لانا لانسويهم بالمجرمين نخلصناهم من العذاب على قلتهم وضعفهم وقوة المخالفين وكثرتهم (فما وجدنا فيها) أى تلك القرى أسند الامر اليه تشريفا

لرسله واعلاما بأن فعلهم فعله تعالى (غير بيت) أى واحد وهو بيت ابن أخى ابراهيم عليهما السلام وقيل كانت عدة الناجين منهم ثلاثة عشر (من المسلمين) أى العريقين فى اسلام الظاهر والباطن لله تعالى من غير اعتراض أصلا وهم ابراهيم وآله عليهم السلام وانهم أول من وجد منهم الاسلام الاتم وتسموا به كما مرّ فى سورة البقرة وسموا به أتباعهم فكان هذا البيت الواحد صادقا عليه الايمان الذى هو التصديق والاسلام الذى هو الانقياد قال البغوى وصفهم الله تعالى بالايمان والاسلام جميعا لانه ما من مؤمن الا وهو مسلم يعنى لما بينهما من التلازم وان اختلف المفهومان وقال الاصفهانى وقيل كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر وقيل هم لوط وابنتاه وصفوا بالايمان والاسلام أى هم مصدقون بقلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعات * (تنبيه) * فى الآية اشارة الى أن الكفر اذا غلب والفسق اذا فشا لاتنفع معه عبادة المؤمنين بخلاف مالو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ومثاله أن العالم كالبدن ووجود الصالحين كالاغذية الباردة والحارة والسموم الواردة عليه الضارة ثم ان البدن اذا خلا عن النافع وفيه الضار هلك وان خلا عن الضار وفيه النافع طاب ونما وان وجدا فيه معا فالحكم للاغلب واطلاق الخاص على العام لامانع منه لان المسلم أعم من المؤمن فاذا سمى المؤمن مسلما لايدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الاعم منهم الا بيتا من المسلمين ويلزم من هذا أن لايكون هناك غيرهم من المؤمنين (وتركنا) أى بما لنا من العظمة (فيها) أى تلك القرى بما أوقعنا بها من العذاب (آية) أى علامة عبرة على هلاكهم كالحجارة أو الماء المنتن فانا اقتلعنا قراهم كلها وصعدت فى الجو كالغمام الى عنان السماء ولم يشعر أحد من أهلها بشئ من ذلك ثم قلبت واتبعت بالحجارة ثم خسف بها وغمرت بالماء الذى لايشبهه شئ من مياه الارض كما أن جناياتهم لم تكن تشبه جناية أحد ممن تقدمهم من أهل الارض (للذين يخافون العذاب الاليم) أى أن يحل بهم كما حل بهذه القرى فى الدنيا من رفع الملائكة لهم فى الهواء الذارى الى عنان السماء وقلبهم واتباعهم الحجارة المحرقة وغمرهم بالماء المناسب لفعلهم بنتنه وعدم نفعه وما ادخر لهم فى الآخرة أعظم وخص الذين يخافون بالذكر لانهم المعتبرون بها وقوله تعالى (وفى موسى) عطف على قوله تعالى فيها باعادة الجار لان المعطوف عليه ضمير مجرور فيتعلق بتركنا من حيث المعنى ويكون التقدير وتركنا فى قصة موسى آية (اذ أرسلناه) أى بما لنا من العظمة (الى فرعون بسلطان مبين) أى بحجة واضحة وهى معجزاته الظاهرة كاليد والعصا ومع ذلك لم ينتفع بها ولذلك سبب عنها وعقب بها قوله تعالى (فتولى) أى كاف نفسه الاعراض عنها بعد ما دعاه علمها الى الاقبال اليها وأشار الى قواه بقوله تعالى (بركنه) أى بسبب ما ركن اليه من القوة فى نفسه وبأعوانه وجنوده لانهم له كالركن وقيل بجميع بدنه كناية عن المبالغة فى الاعراض (وقال) معلما بعجزه عما أتاه به وهو لايشعر (ساحر) ثم ناقض كما ناقضتكم فقال بجهله عما يلزم على قوله (أو مجنون) أى لاجترائه على مع مالى من عظيم الملك

بمثل هذا الذى يدعو اليه *(تنبيه)* أو رشاعلى بإبهام من الابهام على السامع أو للشك نزل نفسه مع أنه يعرفه نبيا حقا منزلة الشاك فى أمره تمويها على قومه وقال أبو عبيدة أو بمعنى الواو وقال لانه قد قالهما قال تعالى ان هذا الساحر عليم وقال فى موضع آخر ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ورد الناس عليه هذا وقالوا لاضرورة تدعو الى ذلك وأما الآيتان فلا تدلان على أنه قالهما معا فى آن واحد وانما يفيدان انه قالهما أعم من أن يكونا معا أو هذه فى وقت وهذه فى آخر ولما وقعت التسلية بهذا للاولياء قال تعالى محذرا للاعداء (فأخذناه) أى أخذ غضب وقهر بعظمتنا وقوله تعالى (وجنوده) يجوز أن يكون معطوفا على مفعول أخذناه وهو الظاهر وأن يكون مفعولا معه (فنبذناهم) أى طرحناهم طرح مستهين بهم كما تطرح الحصيات (فى اليم) أى البحر الذى هو أهل لان يقصد بعد أن سلطنا الريح عليه فغرقته لما ضربه موسى عليه السلام بعصاه ونشفت أرضه وأيبست ما أبرزت فيه من الطرق لنجاة أوليائنا وهلاك أعدائنا (وهو) أى والحال ان فرعون (مليم) أى آت بما يلام عليه من تكذيب الرسول ودعوى الربوبية وغير ذلك ثم ذكر تعالى قصصا أخر تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم احداها قوله تعالى (وفى عاد) أى اهلاكهم وهم قوم هود عليه السلام آية عظيمة (اذ) أى حين (أرسلنا) بعظمتنا (عليهم الريح) فأتتهم تحمل سحابة سوداء وهى تدر الرمل وترمى بالحجارة كما مرت الاشارة اليه على كيفية لا تطاق (العقيم) أى التى لا خير فيها الا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وهى الدبور ثم بين عقمها واعقامها بقوله تعالى (ما تذر) أى تترك على حالة رديئة وأغرق فى النفى فقال تعالى (من شئ أتت عليه) أى اتيانا أراد مرسلها اهلاكه بها (الا جعلته كالرميم) أى الشئ البالى الذى دهكته الايام والليالى الى حالة الدمار وهو فى كلامهم ما يبس من نبات الارض وديس قاله ابن جرير (فان قيل) الجبال والصخور وغير ذلك أتت عليهم وما جعلتهم كالرميم (أجيب) بأن المراد أتت عليه قاصدة له وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم لانها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة لهم فما تركت شيأ من تلك الاشياء الا جعلته كالرميم ثانيها قوله تعالى (وفى ثمود) أى اهلاكهم وهم قوم صالح عليه السلام آية عظيمة (اذ) أى حين (قيل لهم) أى ممن لا يخلف الميعاد وقرأ هشام والكسائى بضم القاف والباقون بكسرها (تمتعوا) أى بلبن الناقة وغيره مما مكناهم فيه من الزروع والنخيل والابنية فى الجبال والسهول وغير ذلك من جلائل الامور على الوجه الذى أمرناكم به ولا تطغوا (حتى حين) أى وقت ضربناه لآجالكم (فعتوا) أى أوقعوا بسبب احساننا اليهم العتو وهو التكبر والاباء (عن أمر ربهم) أى مولاهم الذى أعظم احسانه اليهم فعقروا ناقته وأرادوا قتل نبيه صالح عليه السلام (فأخذتهم) أى بسبب عتوهم أخذ قهر وعذاب (الصاعقة) أى الصيحة العظيمة التى حملتها الريح فأوصلتها الى مسامعهم بغاية العظمة ورجت ديارهم رجة أزالت أرواحهم بالصعق وقرأ الكسائى باسكان العين ولا ألف قبلها والباقون بكسر العين وقبلها ألف وقوله تعالى (وهم ينظرون) دال على أنها كانت فى غمام وكان فيها

نار ويجوز مع كونه من النظر أن يكون أيضا من الانتظار فانهم وعدوا نزول العذاب بعد ثلاثة أيام وجعل في كل يوم علامة وقعت بهم فتحققوا وقوعه في اليوم الرابع وقال بعض المفسرين المراد منه هو ما أمهلهم الله تعالى بعد عقرهم الناقة وهو ثلاثة أيام بقوله تعالى تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وكان في تلك الايام تتغير ألوانهم فتحمر وتصفر وتسود قال الرازي وهذا ضعيف لان قوله تعالى فعتوا عن أمر ربهم بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله تعالى تمتعوا فاذا الظاهر أن المراد هو ما قدر الله تعالى للناس من الآجال فما من أحد الا وهو ممهل مدة الاجل انتهى ولحسن هذا فسرت الآية به (فما) أي فتسبب عن ذلك انهم ما (استطاعوا) أي تمكنوا وأكد النفي بقوله تعالى (من قيام) أي فما قاموا بعد نزول العذاب وما قدروا على نهوض قال قتادة لم ينهضوا من تلك الصرعة كقوله تعالى فأصبحوا في ديارهم جاثمين وقيل هو من قولهم ما يقوم به اذا عجز عن دفعه (وما كانوا) أي كونا ما (منتصرين) أي لم يكن فيهم أهلية الانتصار بوجه لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم فمطاوعونه في النصرة لان تهوؤهم لذلك سقط بكل اعتبار ثالثها قوله تعالى (وقوم نوح) بالجر وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي عطف على ثمود أي وفي اهلاكهم بماء السماء والارض آية وبالنصب وهي قراءة الباقين أي وأهلكنا قوم نوح (من قبل) أي من قبل اهلاك هؤلاء المذكورين ثم علل اهلاكهم بقوله تعالى (انهم كانوا) خلقا وطبعا لا حيلة لغيرنا من أهل الاسباب في صلاحهم (قوما) أي أقوياء (فاسقين) أي عريقين في الخروج عن حظيرة الدين ثم ذكر ما يدل على تمام القدرة على البعث بقوله تعالى (والسماء بنيناها) أي بما لنا من العظمة (بأييد) أي بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها * (فائدة) * رسمت بأييد بياءين بعد الالف (وانا) على عظمتنا بعد ذلك (لموسعون) أي أغنياء وقادرون ذو وسعة لا تتناهى ولذلك أوسعنا بقدر جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها فالارض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الالهية التي لا تصح معها الشركة أصلا فلسنا كمن تعرفون من الملوك لانهم اذا فعلوا شيأ لم يقدروا على أعظم منه وان قدروا كان ذلك منهم بكلفة ومشقة وسترون في اليوم الآخر ماية لا شيء ما ترون في جنبه ومن اتساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة الى غير ذلك من الامور الخارقة للعوائد وعن الحسن لموسعون الرزق بالمطر وقيل جعلنا بينها وبين الارض سعة (والارض فرشناها) أي بسطناها ومهدناها بما لنا من العظمة فصارت ممهدة جديرة بأن تستقر عليها الاشياء وهي آية على تمهيد أرض الجنة وشققنا انهارها وغرسنا اشجارها (فنعم) أي فتسبب عن ذلك أن يقال في وصفنا نعم (الماهدون) والمخصوص بالمدح محذوف لفهم المعنى أي نحن لكمال قدرتنا فما نزل من السماء شيء ولا نبع من الارض شيء الا بارادتنا واختيارنا وتقديرنا من الازل لانا اذا اصنعنا شيأ علمنا ما يكون منه من حين انشائه الى حين افنائه ولا يكون شيء منه الا بتقديرنا وذلك تذكير بالجنة والنار فما فيهما من خير فهو آية على الجنة وما فيها من شر فهو آية على النار وقوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا) يجوز أن يتعلق بخلقنا أي خلقنا

من كل شئ (زوجين) وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من زوجين لانه فى الاصل صفة له اذ التقدير خلقنا زوجين كائنين من كل شئ أى صنفين كل منهما زاوج الآخر من وجه وان خالفه من آخر ولا يتم نفع أحدهما الا بالآخر من الحيوان والنبات وغيرهما ويدخل فيه الاضداد من الغنى والفقر والحسن والقبح والحياة والموت والظلام والنور والليل والنهار والصحة والسقم والبر والبحر والسهل والجبل والشمس والقمر والحر والبرد اللذين هما من نفس جهنم آية بينة عليها وبناؤها على الاعتدال فى بعض الاحوال آية على الجنة مذكرة بها مشوقة اليها والايمان والكفر والسعادة والشقاوة والحق والباطل والحلو والمر قال الحسن كل اثنين منها زوج والله سبحانه وتعالى فرد لا مثل له (لعلكم تذكرون) أى فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الارض وخلق الازواج ارادة أن تتذكروا فتعلموا ان خالق هذه الاشياء واحد لا شريك له لا يعجزه حشر الاجساد وجمع الارواح وقرأ حفص والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (ففروا) أى اقبلوا والجؤا (الى الله) أى الذى لا سمى له فضلا عن مكافئ وله الكمال كله فهو فى غاية العلو فلا يفر ويسكن أحد الى غير محتاج مثله فان المحتاج لا غنى عنده ولا يفر اليه سبحانه الا من تجرد عن حضيض عوائقه الجسمية الى أوج صفاته الروحانية وذلك من وعيده الى وعده اللذين دل عليهما بالزوجين فتكمل السياق بالتحذير والاستعطاف بالاستدعاء فهو من باب لا ملجأ منك الا اليك أعوذ بك منك قال القشيرى ومن صح فراره الى الله تعالى صح قراره مع الله تعالى قال البقاعى وهو بكمال المتابعة ليس عينا ومن فهم منه اتحادا بذات أو صفة فقد نابذ طريق القوم فعليه لعنة الله (انى لكم منه) أى لا من غيره (نذير) أى من أن يفر أحد الى غيره فانه لا يحصل له قصد (مبين) أى بين الانذار ففرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ومن الكسل الى التشمير حذرا وحزما ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق الى الحق استغراقا فى وحدانيته (ولا تجعلوا) أى باهوائكم (مع الله) وكرر الاسم الاعظم ولم يضمر تعيينا للمراد لانه لم يشاركه فى التسمية به أحد وتنبيها على ماله من صفات الكمال وتعميما لوجوه المقاصد لئلا يظن لو قيل معه ان المراد النهى عن الجعل من جهة الفرار لا من جهة غيرها (الها آخر) ثم علل النهى مع التأكيد بطعنهم فى نذارته فقال (انى لكم منه) أى لا من غيره فان غيره لا يقدر على شئ (نذير) أى محذر من الهلاك الابدى بالعقوبة التى لا خلاص معها ان فعلتم ذلك (مبين) أى لا أقول شيأ من واضح النقل الا ودليله ظاهر (كذلك) أى مثل قول قومك المختلف العظيم الشناعة البعيد من الصواب بما له من الاضطراب وقع لمن قبلهم ودل على هذا المقدر بقوله تعالى مستأنفا (ما أتى الذين من قبلهم) أى كفار مكة وعمم النفى فقال تعالى (من رسول) أى من عند الله تعالى (الا قالوا ساحر أو مجنون) أى مثل تكذيبهم لك بقولهم ذلك لان الرسول يأتيهم بمخالفة مألوفاتهم التى قادتهم اليها أهواؤهم والهوى هو الذى أوجب لهم هذا التناقض الظاهر سواء أكانت أو للتفصيل لان بعضهم قال واحدا وبعضهم

قال

قال آخرا وكانت للشك لان الساحر يكون لبيبا فطنا آتيا بما يعجز عنه كثير من الناس والمجنون بالضد من ذلك (فان قيل) قوله تعالى الا قالوا يدل على انهم كلهم قالوا ذلك والامر ليس كذلك لان ما من رسول الا وآمن به قوم (أجيب) بأن ذلك ليس بعام فانه لم يقل الا قالوا كلهم وانما قال الا قالوا ولما كان كثير منهم قائلين قال تعالى الا قالوا (فان قيل) فلم لم يذكر المصدقين كما ذكر المكذبين وقال الا قال بعضهم صدقت وبعضهم كذبت (أجيب) بأن المقصود التسلية وهي أعلى التكذيب فكانه تعالى قال لا تأس على تكذيب قومك فان اقواما قبلك كذبوا ورسلا كذبوا ثم عجب منهم بقوله تعالى (أتواصوا به) فهو استفهام للتعجب والتوبيخ والضمير في به يعود على القول المدلول عليه بقالوا أي أتواصوا الاولون والآخرون بهذا القول المتضمن لساحر أو مجنون والمعنى كيف اتفقوا على معنى واحد كانهم تواطؤا عليه وأوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وقوله تعالى (بل هم قوم) أي ذو شماخة وكبر (طاغون) اضراب عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم الى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه ثم ان الله تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فتول) أي أعرض (عنهم) أي كلف نفسك الاعراض عن الابلاغ في ابلاغهم ولا تأسف على تخلفهم عن الاسلام (فما أنت بملوم) لانك بلغتهم الرسالة وما قصرت فيما أمرت به قال المفسرون لما نزلت هذه الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم واشتد ذلك على أصحابه وظنوا ان الوحي قد انقطع وان العذاب قد حضر اذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنهم فأنزل الله تعالى (وذكر) أي ولا تدع التذكير والموعظة (فان الذكرى تنفع المؤمنين) فطابت أنفسهم والمعنى ليس التولي مطلقا بل تول وأقبل وأعرض وادع فلا التولي يضرك اذا كان عليهم ولا التذكير يضيع اذا كان مع المؤمنين وقال مقاتل معناه عظ بالقرآن كفار مكة فان الذكرى تنفع من علم الله تعالى انه مؤمن منهم وقال الكلبي عظ بالقرآن من آمن من قومك فان الذكرى تنفعهم * ولما بين حال من قبل النبي صلى الله عليه وسلم في التكذيب بين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله تعالى الذي خلقهم للعبادة بقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) واختلف في تفسير ذلك فأكثر المفسرين على أن المراد بهم العموم ولا ينافي ذلك عدم عبادة الكافرين لان الغاية لا يلزم وجودها كما في قولك بريت هذا القلم لا كتب به فانك قد لا تكتب به هكذا قال الجلال المحلي وأوضح منه ما قاله ابن عادل ان المعنى الا معدين للعبادة ثم منهم من يتأتى منه ذلك ومنهم من لا كقولك هذا القلم بريته للكتابة ثم قد لا تكتب به وقد تكتب انتهى أو ان المراد الا لآمرهم بالعبادة وليقروا بها وهذا منقول عن علي بن أبي طالب أو ان المراد ليطيعوا وينقادوا والقضائي فالمؤمن يفعل ذلك طوعا والكافر يفعل ذلك كرها أو ان المراد الا ليوحدون فأما المؤمن فيوحد اختيارا في الشدة والرخاء وأما الكافر فيوحد اضطرارا في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء وقال مجاهد معناه الا ليعرفون قال البغوي وهذا أحسن لانه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده بدليل قوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقيل المراد به الخصوص أي

ماخلقت السعداء من الجن والانس الا لعبادتى والاشقياء منهم الا لمعصيتى قال زيد بن أسلم قال هو ماجبلوا عليه من السعادة والشقاوة ويؤيده قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس وقيل وماخلقت الجن والانس المؤمنين وقيل الطائعين *(تنبيه)* استدل المعتزلة بهذه الآية على أن أفعال الله تعالى معللة بالاغراض وأجيبوا بوجوه منها ان اللام قد ثبتت لغير الغرض كقوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ومعناه المقارنة فيكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أى خلقتهم وفرضت عليهم العبادة ومنها قوله تعالى الله خالق كل شئ ومنها مايدل على أن الاضلال بفعل الله كقوله تعالى يضل من يشاء وأمثاله ومنها قوله تعالى لايسئل عما يفعل وقوله تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد (فان قيل) ما الحكمة فى أنه لم يذكر الملائكة مع أنهم من أصناف المكلفين وعبادتهم أكثر من عبادة غيرهم من المكلفين قال تعالى بل عباد مكرمون وقال تعالى لايستكبرون عن عبادته (أجيب) بوجوه أحدها ان الآية سيقت لبيان قبح مايفعله الكفرة من ترك ماخلقوا له وهذا مختص بالجن والانس لان الكفر موجود فيهما دون الملائكة ثانيها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن والانس فلما قال تعالى وذكر بين مايذكر به وهو كون الخلق للعبادة وخصص أمته بالذكر أى ذكر الجن والانس ثالثها ان عباد الاصنام كانوا يقولون ان الله تعالى عظيم الشان خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله تعالى وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لانصلح لعبادة الله تعالى فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله تعالى كما قالوا مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فقال تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون ولم يذكر الملائكة لان الامر فيهم كان مسلما من القوم فذكر المنازع فيه رابعها فعل الجن يتناول الملائكة لان أصل الجن من الاستتار وهم مستترون عن الخلق فذكر الجن لدخول الملائكة فيهم * ولما خص سبحانه خلقهم فى ارادة العبادة صرح بهذا المفهوم بقوله تعالى (ماأريد منهم) أى فى وقت من الاوقات وعمم فى النفى بقوله تعالى (من رزق) أى شئ من الاشياء على وجه ينفعنى من جلب أو دفع لانى منزه عن لحاق نفع أو ضر كما يفعل غيرى من الموالى مع عبيدهم فان ملاك العبيد انما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم فاما مجهز فى تجارة ليفئ ربحا أو مرتب فى فلاحة ليغتل أرضا أو مسلم فى حرفة لينتفع بأجرته أو محتطب أو محتش أو مستق أو طابخ أو خابز وما أشبه ذلك من الاعمال والمهن التى هى تصرف فى أسباب المعيشة وأبواب الرزق لانى الغنى المطلق وكل شئ مفتقر الى (وما أريد) أصلا (أن يطعمون) أى أن يرزقون رزقا خاصا هو الاطعام وفيه تعريض بأصنامهم فانهم كانوا يعملون معها ماينفعها ويحضرون لها المأكل فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الاصنام ثم لايصدهم ذلك عن عبادتها وقيل فى الآية حذف مضاف أى وما أريد أن يطعموا أحدا من خلقى وانما أسند الاطعام الى نفسه لان الخلق كلهم عيال الله ومن أطعم عيال الله فقد أطعمه كما صح فى الحديث عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يقول

يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما
علمت ان عبدي فلانا مرض فلم تعده أما تعلم انك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتك
فلم تطعمني قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه
أما علمت انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يارب كيف
أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت انك لو أسقيته لوجدت
ذلك عندي (فان قيل) ما الفائدة في تكرير الارادتين مع أن من لا يريد من أحد رزقا لا يريد أن
يطعمه (أجيب) بأن السيد قد يطلب من العبد المكتسب له الرزق وقد يكون للسيد مال وافر
يستغني به عن التكسب لكنه يطلب من العبد قضاء حوائجه واحضار الطعام بين يديه فقال
لا أريد ذلك ولا هذا وقدم طلب الرزق على طلب الاطعام من باب الارتقاء من الادنى الى الاعلى
(فان قيل) ما فائدة تخصيص الاطعام بالذكر مع أن المراد عدم طلب فعل منهم غير التعظيم
(أجيب) بأنه لما عمم النفي في طلب الاول بقوله تعالى من رزق وذلك اشارة الى التعميم فذكر
الاطعام ونفي الادنى ليتبعه بنفي الاعلى بطريق الاولى فكانه قال ما أريد منهم من غنى ولا عمل
(فان قيل) المطالب لا تنحصر فيما ذكره فان السيد قد يشترى العبد لا لطلب رزق منه ولا للتعظيم
بل يشتريه للتجارة (أجيب) بأن العموم في قوله تعالى ما أريد منهم من رزق يتناول ذلك ثم بين
تعالى انه الرزاق لا غيره بقوله عز من قائل (ان الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال المنزه عن
جميع صفات النقص (هو) أي لا غيره (الرزاق) أي على سبيل التكرار لكل حي وفي كل
وقت (ذو القوة) أي التي لا تزول بوجه (المتين) أي الشديد الدائم (فان قيل) لم لم يقل اني
رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب ان الله هو الرزاق فما الحكمة (أجيب) بأن المعنى
قل يا محمد ان الله هو الرزاق أو يكون من باب الالتفات من التكلم الى الغيبة أو يكون
قل مضمرا عند قوله تعالى ما أريد منهم من رزق ولم يقل القوي بل قال ذو القوة لان المقصود
تقرير ما تقدم من عدم ارادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير وقيد بالمتين لان ذو القوة لا يدل
الاعلى أن له قوة ما فزاد في الوصف المتانة وهو الذي له ثبات لا يتزلزل والمعنى في وصفه سبحانه
بالقوة والمتانة انه القادر البليغ الاقتدار على كل شئ * ولما أقسم سبحانه على الصدق
في وعيدهم الى أن ختم بقوته التي لا تحد لها سبب عن ذلك ايقاعه بالمتوعدين فقال تعالى مؤكدا
لاجل انكارهم (فان للذين ظلموا) أي أوقعوا الاشياء في غير مواقعها (ذنوبا) أي نصيبا
من العذاب طويل الشر كانه من طوله صاحب ذنب (مثل ذنوب أصحابهم) أي الذين تقدم
ظلمهم بتكذيب الرسل من قوم نوح وعاد وثمود والذنوب في الاصل الدلو العظيمة المملوأة ماء
وفي الحديث فأتي بذنوب من ماء فان لم تكن ملأى فهي دلو ثم عبر به عن النصيب قال عمرو
ابن شاس وفي كل حي قد خبطت بنعمة * فحق لشاس من نداك ذنوب
قال الملك نعم وأذنبة قال الزمخشري وهذا تمثيل أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا
ذنوب ولهذا آخر قال الشاعر

لكم ذنوب ولنا ذنوب * فان أبيتم فلنا القليب

وقال الراغب الذنوب الدلو الذى له ذنب انتهى فراعى الاشتقاق والذنوب أيضا الفرس الطويل الذنب وهو صفة على فعول والذنوب لحم أسفل المتن ويقال يوم ذنوب أى طويل الشر استعارة من ذلك ويجمع فى القلة على أذنبة وفى الكثرة على ذنائب (فلا تستعجلون) أى تطلبوا أن آتيكم به قبل أوانه الاحق به فان ذلك لا يفعله الا ناقص وأنا متعال عن ذلك لا أخاف الفوت ولا يلحقنى عجز ولا أوصف به ولا بد أن أوقعه بهم فى الوقت الذى قضيت به فى الازل فانه أحق الاوقات بعقابهم لتكامل ذنوبهم (فويل) أى شدة عذاب (للذين كفروا) أى ستروا ما ظهر من هذه الادلة التى لا يسع عاقلا انكارها (من يومهم الذى يوعدون) أضافه اليهم لانه خاص بهم دون المؤمنين وهو يوم القيامة وقيل يوم بدر وحذف العائد لاستكمال شروطه أى يوعدونه وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وأبو عمرو بكسر الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف عليها فالجميع بكسر الهاء وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا حديث موضوع والله أعلم

(سورة الطور مكية)

وهى تسع وأربعون آية وثلثمائة واثنتا عشرة كلمة وألف وخمسمائة حرف

(بسم الله) الملك الاعظم ذى الملك والملكوت (الرحمن) الذى عم خلقه بالرحموت (الرحيم) الحى الذى لا يموت وقوله تعالى (والطور) وما بعده أقسام جوابها ان عذاب ربك لواقع والواوات التى بعد الاولى عواطف لا حروف قسم كما قاله الخليل والطور هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام وهو بمدين أقسم الله تعالى به وقيل هو الجبل الذى قال الله تعالى وطور سينين وقيل هو اسم جنس *(تنبيه)* مناسبة هذه السورة لما قبلها من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما والمراد بالكتاب فى قوله تعالى (وكتاب مسطور) أى متفق الكتابة بسطور مصفوفة فى حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة هو كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة وقيل القرآن وقيل اللوح المحفوظ وقيل صحائف أعمال الخلق قال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقوله تعالى (فى رق) متعلق بمسطور أى مكتوب فى رق والرق الجلد الرقيق يكتب فيه وقال الراغب الرق ما يكتب فيه شبه كاغد اهـ فهو أعم من كونه جلدا وغيره (منشور) أى مبسوط مهيأ للقراءة وقوله تعالى (والبيت المعمور) مختلف فى مكانه فقيل فى السماء العليا تحت العرش وقيل فى السماء الثالثة وقيل فى السادسة وعلى كل قول هو بحيال الكعبة يقال له الضراح حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الارض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون اليه أبدا ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة وقيل هو بيت الله الحرام لكونه معمورا بالحجاج والعمار والمجاورين وقيل اللام

فى البيت

فى البيت المعمور لتعريف الجنس كانه تعالى أقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة وقوله تعالى (والسقف المرفوع) مختلف فيه أيضا فالاكثر على أنه السماء كما قال تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وقيل المراد به سقف الكعبة وقيل سقف الجنة وهو العرش ونقل عن ابن عباس وقوله تعالى (والبحر المسجور) من الاضداد يقال بحر مسجور أى مملوء وبحر مسجور أى فارغ وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس أنه قال خرجت أمة لتستقى فقالت ان الحوض مسجور أى فارغ ويؤيد هذا ان البحار يذهب ماؤها يوم القيامة وقيل المسجور المسول ومنه ساجور الكلب لانه يمسكه ويحبسه وقال محمد بن كعب القرظى يعنى بالمسجور الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس لما روى انه تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها فى نار جهنم كما قال تعالى واذا البحار سجرت وعن على أنه سال يهوديا أين موضع النار فى كتابكم قال فى البحر قال على ما أراه الا صادقا لقوله تعالى والبحر المسجور وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يركبن البحر رجل الا غازيا أو معتمرا أو حاجا فان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا وقال الربيع بن أنس المختلط العذب بالملح وروى الضحاك عن المنزل بن سمرة عن على أنه قال البحر المسجور هو بحر تحت العرش غمره كما بين سبع سموات الى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الاولى أربعين صباحا فينبتون فى قبورهم وهذا قول مقاتل (فان قيل) ما الحكمة فى القسم بهذه الثلاثة أشياء (أجيب) بأن هذه الاماكن الثلاثة وهى الطور والبيت المعمور والبحر المسجور كانت لثلاثة أنبياء للخلوة بربهم والخلاص من الخلق وخطابهم مع الله تعالى أما الطور فانتقل اليه موسى عليه السلام وخاطب الله سبحانه وتعالى هناك وأما البيت المعمور فانتقل اليه محمد صلى الله عليه وسلم وقال لربه سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وأما البحر المسجور فانتقل اليه يونس عليه السلام ونادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فصارت هذه الاماكن شريفة بهذه الاسباب فأقسم الله تعالى بها وأما ذكر الكتاب فلان الانبياء كان لهم مع الله تعالى فى هذه الاماكن كلام والكلام فى الكتاب *(تنبيه)* أقسم الله تعالى فى بعض السور بجموع كقوله تعالى والذاريات والمرسلات والنازعات وفى بعضها بافراد كقوله تعالى والطور ولم يقل والاطوار والابحار قال الرازى والحكمة فيه ان فى أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة بل هى متبدلة بافرادها مستمرة بأنواعها والمقصود منها لا يحصل الا بالتبدل والتغير فقال والذاريات اشارة الى النوع المستمر لا الى الفرد المعين المستقر وأما الجبل فهو ثابت غير متغير عادة فالواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا فأقسم فى ذلك بالواحد وكذلك فى قوله تعالى والنجم ولو قال والريح لما علم المقسم به وفى الطور علم وقوله تعالى (ان عذاب ربك) أى الذى تولى تربيتك (لواقع) أى ثابت نازل بمستحقه جواب القسم كما مر (ماله من دافع) أى مانع لانه لا شريك له لموقعته لما دلت عليه هذه الاقسام من كمال القدرة وجلال الحكمة قال جبير

ابن مطعم قدمت المدينة لا كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر فدفعت اليه وهو
يصلى بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور الى قوله تعالى ان عذاب
ربك لواقع ماله من دافع فكأنما صدع قلبي حين سمعته ولم أكن أسلمت يومئذ فأسلمت خوفا من
العذاب وما كنت أظن أنى أقوم من مكانى حتى يقع بى العذاب ثم بين تعالى أنه متى يقع بقوله
تعالى (يوم تمور السماء) أى تتحرك وتضطرب وتجىء وتذهب وتتردد وتدور دوران الرحى ويموج بعضها
فى بعض وتتكفأ بأهلها تكفأ السفينة وتختلف أجزاؤها بعضها فى بعض قال البغوى والمور
يجمع هذه المعانى وهو فى اللغة الذهاب والمجىء والتردد والدوران والاضطراب قال الرازى
وقيل تجىء وتذهب كالدخان ثم تضمحل (مورا) أى اضطرابا شديدا (وتسير الجبال) أى تنتقل
من أماكنها انتقال السحاب وحقق معناه بقوله تعالى (سيرا) فتصير هباء منثورا وتكون
الارض قاعا صفصفا ثم بين من يقع عليه العذاب بقوله تعالى (فويل) أى شدة عذاب (يومئذ)
أى يوم اذ يكون ما تقدم ذكره (للمكذبين) أى الغريقين فى التكذيب للرسل (الذين هم) من
بين الناس بظواهرهم وبواطنهم (فى خوض) أى أقوالهم وأفعالهم أفعال الخائض فى الماء
فهو لا يدرى أين يضع رجله (يلعبون) فاجتمع عليهم أمران موجبان للباطل الخوض واللعب
فهم بحيث لا يكاد يقع لهم قول ولا فعل فى موضعه فلا يؤسس على بيان أوحجة (فان قيل) أهل
الكبائر لا يكذبون فيقتضى ذلك انهم لا يعذبون (أجيب) بأن ذلك العذاب لا يقع على أهل
الكبائر لقوله تعالى كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا
فالمؤمن لا يلقى فيها القاء هوان وانما يدخل فيها للتطهير ادخالا مع نوع اكرام فالويل انما هو
للمكذبين وقوله تعالى (يوم يدعون) بدل من يوم تمور السماء أو من يومئذ قبله تقديره فويل
يومئذ يوم يدعون أى يدفعون دفعا عنيفا بجفوة وغلاظة من كل من يقيمه الله تعالى لذلك ذاهبين
ومتهيئين (الى نار جهنم) وهى الطبقة التى تلقاهم بالعبوسة والكراهة وأكد المعنى وحققه
بقوله تعالى (دعا) قال البغوى وذلك ان خزنة جهنم يغلون أيديهم الى أعناقهم ويجمعون
نواصيهم الى أقدامهم ثم يدفعون دفعا على وجوههم وزجا فى أقفيتهم مقولا لهم تسكينا وتوبيخا
(هذه النار) أى الجسم المحرق المفسد لما أتى عليه الشاغل عن اللعب (التى كنتم بها)
فى الدنيا (تكذبون) على التجدد والاستمرار وقوله تعالى (أفسحر) خبر مقدم وقوله تعالى
(هذا) هو المبتدا وقدم الخبر لانه المقصود بالانكار والتوبيخ وذلك أنهم كانوا ينسبون محمدا
صلى الله عليه وسلم الى السحر وأنه يغطى الابصار بالسحر وان انشقاق القمر وأمثاله سحر
فوبخوا به وقيل لهم أفسحر هذا أى الذى أنتم فيه من العذاب مع هذا الاحراق الذى
تصلون فيه (أم أنتم) فى منام أو نحوه (لا تبصرون) بالقلوب كما كنتم تقولون فى الدنيا قلوبنا
فى أكنة ولا بالاعين كما كنتم تقولون للمنذر بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون
(اصلوها) أى اذا لم يمكنكم انكارها وتحققتم أنه ليس بسحر ولا خلل فى أبصاركم فقاسوا
شدتها (فاصبروا) على هذا الذى لا طاقة لكم به (أو لا تصبروا) فانه لا محيص لكم عنه (سواء

عليكم) أي الصبر والجزع فان صبركم لا ينفعكم وقوله تعالى (انما تجزون ما كنتم تعملون) تعليل للاستواء فانه لما كان الجزاء واجبا كان الصبر وعدمه سيين في عدم النفع ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب أتبعه ما للاضداد هم من الثواب فقال تعالى (ان المتقين) أي الذين صارت التقوى لهم صفة راسخة (في جنات) أي بساتين أية بساتين دائما في الدنيا حكما وفي الآخرة حقيقة (ونعيم) أي نعيم في العاجل يعني بما لهم فيه من الانس وفي الآجل بالفعل وزاد في تحقيق التنعم بقوله تعالى (فاكهين) أي متلذذين معجبين ناعمين (بما آتاهم) أي أعطاهم (ربهم) الذي تولى تربيتهم بعملهم بالطاعات الى أن أوصلهم الى هذا النعيم (ووقاهم) أي قبل ذلك (ربهم) أي المتفضل بتربيتهم بكفهم عن المعاصي والقاذورات (عذاب الجحيم) اى النار الشديدة التوقد ولما كان من باشر النعمة وجانب النقمة في غنى عظيم قال مترجما لذلك على تقدير القول (كلوا) أي أكلا هنيأ (واشربوا) أي شربا (هنيأ) وهو الذي لا تنغيص فيه فكل ما تتناولونه مأمون العاقبة من التخم والسقم وغيرهما (بما) أي بسبب ما (كنتم) أي كونا راسخا (تعملون) أي مجددين العمل على سبيل الاستمرار حتى كأنه طبع لكم ثم نبه على أنهم مع هذا النعيم مخدومون بقوله تعالى (متكئين) أي مستندين استناد راحة لانهم يخدمون فلا حاجة لهم الى الحركة (على سرر مصفوفة) أي منصوبة واحد الى جنب واحد مستوية كأنها السطور على أحسن نظام وأبدعه ثم نبه على تمام سرورهم بالتمتع بالنساء بقوله تعالى (وزوجناهم) أي تزويجا يليق بما لنا من العظمة أي صيرناهم ممتعين (بحور) أي نساء هن في شدة بياض العين وسوادها واستدارة حدقتها ورقة جفونها في غاية حسن لا توصف (عين) أي واسعات الاعين في رونق وحسن * (تنبيه) * اعلم انه تعالى بين أسباب التنعم على الترتيب فأول ما يكون المسكن وهو الجنان ثم الاكل والشرب ثم الفرش والبسط ثم الازواج فهذه أمور أربعة ذكرها الله تعالى على الترتيب وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله فقوله جنات اشارة الى المسكن وقال فاكهين اشارة الى عدم التنغيص وعلو المرتبة لكونه مما آتاهم الله وقال كلوا واشربوا هنيئا أي مأمون العاقبة وترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على تنويعهما وكثرتهما وقوله تعالى بما كنتم تعملون اشارة الى أنه تعالى يقول انى مع كوني ربكم وخالقكم وأدخلتكم الجنة بفضلي فلا منة لي عليكم اليوم وانما منتي عليكم كانت في الدنيا هديتكم ووفقتكم للاعمال الصالحة كما قال تعالى بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان وأما اليوم فلا منة عليكم لان هذا انجاز الوعد وقوله تعالى (والذين آمنوا) أي أقروا بالايمان وان لم يبلغوا في الاعمال الصالحة مبتدأ وقرأ أبو عمرو (وأتبعناهم) أي بما لنا من الفضل الناشئ عن العظمة بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية وسكون العين وبعد العين نون مفتوحة بعدها ألف والباقون بهمزة وصل محذوفة وتشديد التاء الفوقية وفتح العين وبعدها تاء فوقية ساكنة وهو معطوف على آمنوا (ذرياتهم) أي الصغار والكبار فالكبار بايمانهم بأنفسهم والصغار بايمان آبائهم فان الولد الصغير يحكم باسلامه تبعا لاحد أبويه (بايمان) أي بسبب ايمان حاصل منهم ولو كان في أدنى درجات الايمان ولكنهم ثبتوا عليه الى

ان ماتوا وذلك شرط اتباعهم الذريات قال البقاعي ويجوز أن يراد وهو أقرب بسبب ايمان الذرية حقيقة ان كانوا كبارا أو حكما ان كانوا اصغارا ثم أخبر عن الموصول المبتدا بقوله تعالى (ألحقنا بهم) تفضلا منا عليهم (ذرياتهم) وان لم يكن للذرية أعمال لانه

* لعين تجازى ألف عين وتكرم * والذريات هنا تصدق على الآباء وعلى الابناء وان المؤمن اذا كان عمله أكثر الحق به من دونه فى العمل ابنا كان أو أبا وهو منقول عن ابن عباس وغيره ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب وهو المحبة فان كان معها أخذ لعلم أو عمل كانت أجدر فتكون ذرية الافادة كذرية الولادة وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب فى جواب من سأل عمن يحب القوم ولما يلحق بهم وقرأ ذريتهم بايمان وألحقنا بهم ذرياتهم نافع بالقصر فى الاولى والجمع فى الثانية مع كسر التاء وقرأ ابن كثير والكوفيون بالقصر فيهما مع ضم التاء وقرأ أبو عمرو بالجمع فيهما مع كسر التاء وقرأ ابن عامر بالجمع فيهما الا أنه يرفع التاء فى الاولى ويكسرها فى الثانية (فان قيل) قوله تعالى أتبعناهم ذرياتهم يفيد فائدة قوله تعالى ألحقنا بهم ذرياتهم (أجيب) بأن قوله تعالى ألحقنا بهم أى فى الدرجات والاتباع انما هو فى حكم الايمان وان لم يبلغوه كما مر ثم أشار الى عدم نقصان المتبوع بقوله تعالى (وما ألتناهم) أى ما نقصنا المتبوعين (من عملهم) وأكد النفى بقوله تعالى (من شئ) أى بسبب هذا الالحاق ولما بين تعالى اتباع الادنى للاعلى فى الخير بين أن الادنى لا يتبع الاعلى فى الشر بقوله تعالى (كل امرئ) من الذين آمنوا والمتقين وغيرهم (بما كسب) أى عمل من خير أو شر (رهين) أى مرهون يؤخذ بالشر ويجازى بالخير وقال مقاتل كل امرئ كافر بما عمل من الشرك رهين فى النار والمؤمن لا يكون مرتهنا لقوله تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين وقال الواحدى هذا يعود الى ذكر أهل النار وهو قول مجاهد أيضا قال الرازى وفيه وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلا بمعنى الفاعل فيكون المعنى كل امرئ راهن أى دائم ان أحسن ففى الجنة مؤبدا وان أساء ففى النار مخلدا لان فى الدنيا دوام الاعمال بدوام الاعيان فان العرض لا يبقى الا فى جوهر ولا يوجد الا فيه وفى الآخرة دوام الاعيان بدوام الاعمال فان الله تعالى يبقى أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقى يبقى مع عمله (وأمددناهم) أى الذين آمنوا والمتقين ومن ألحق بهم من ذرياتهم بما لنا من العظمة (بفاكهة) وقتا بعد وقت زيادة على ما تقدم ولما كانت الفاكهة ظاهرة فيما نعرفه فى الدنيا وان كان عيش الجنة بجميع الاشياء تفكها ليس فيه شئ يقصد به حفظ البدن قال تعالى (ولحم مما يشتهون) من أنواع اللحمان والمعنى زدناهم مأكولا ومشروبا فالمأكول الفاكهة واللحم والمشروب الكاس وفى هذه الطيفة وهى أنه تعالى لما قال وما ألتناهم من عملهم من شئ ونفى النقصان يصدق بحصول المساوى فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوى بل بالزيادة والامداد وقوله تعالى (يتنازعون) فى موضع نصب على الحال من مفعول أمددناهم ويجوز أن يكون مستأنفا وقوله تعالى (فيها) يجوز أن يعود الضمير للشربها ويجوز أن يعود للجنة

ومعنى

ومعنى يتنازعون يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب ويكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة وفيه نوع لذة لانهم يفعلون ذلك هم وجلساؤهم من أقربائهم واخوانهم (كأسا) أى خمرا من رقة حاشيتها تكاد أن لا ترى فى كأسها (لا لغو) أى لا سقط حديث وهو ما لا ينفع من الكلام ولا يضر (فيها) أى فى تنازعها ولا بسببها لانها لا تذهب بعقولهم فلا يتكلمون الا بالحسن الجميل بخلاف المتنادمين فى الدنيا على الشراب بسفههم وعربدتهم (ولا تأثيم) أى لا يكون منهم ما يؤثمهم وقال الزجاج لا يجرى منهم ما يلغى ولا ما فيه اثم كما يجرى فى الدنيا الشربة الخمر قال الرازى ويحتمل أن يكون المراد من التأثيم السكر وقيل لا يأثمون فى شربها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب لغو وتأثيم من غير تنوين والباقون بالرفع فيهما مع التنوين ولما كانت المعاطاة لا يكمل بسطها ويعظم أنسها الا بخدم وسقاة قال تعالى (ويطوف عليهم) بالكؤس وغيرها من أنواع التحف (غلمان) أى أرقاء ولما كان أحب مال الى الانسان ما يختص به قال تعالى (لهم) ولم يقل تعالى غلمانهم لئلا يظن انهم الذين كانوا يخدمونهم فى الدنيا فيشفق كل من خدم أحدا فى الدنيا بقول أو فعل أن يكون خادما له فى الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعا وأفاد التنكير ان كل من دخل الجنة وجد له خدما لم يعرفهم قبل ذلك (كأنهم) فى بياضهم وشدة صفائهم (لؤلؤ مكنون) أى مخزون مصون لم تمسه الايدى قال سعيد بن جبير يعنى فى الصدف لانه فيها أحسن منه فى غيرها ومصون فى الجنة لم تغيره العوارض قال عبد الله بن عمر ما من أحد من أهل الجنة الا يسعى عليه ألف غلام وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه هذه صفة الخادم وأما المخدوم فروى عن الحسن انه لما تلا هذه الآية قال يا رسول الله الخادم كاللؤلؤ المكنون فكيف المخدوم قال فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبيك لبيك وقرأ السوسى وشعبة لولو بالبدل والباقون بالهمز (وأقبل بعضهم) لما ازدهاهم من السرور واللذة والحبور (على بعض يتساءلون) أى يسأل بعضهم بعضا فى الجنة قال ابن عباس يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف فى الدنيا (قالوا) أى قال كل منهم (انا كنا قبل) أى فى دار العمل (فى أهلنا) على ما لهم من العدد والعدد والسعة وانما بهم من جوانب اللذة والدواعى الى اللعب (مشفقين) أى عريقين فى الخوف من الله تعالى لا يلهينا عنه شئ مع لزومنا لما نقدر عليه من طاعته لعلمنا بأنا لا نقدره لما له من العظمة والجلال والكبرياء والكمال حق قدره والمعنى انهم يسألون عن سبب ما وصلوا اليه تلذذا واعترافا بالنعمة فيقولون ذلك خشية الله تعالى أى كنا نخاف الله تعالى (فمن الله) الذى له جميع الكمال بسبب اشفاقنا منه (علينا) بالرحمة والتوفيق (ووقانا) أى وجنبنا بما سترنا به (عذاب السموم) قال الكلبى عذاب النار وقال الحسن السموم من أسماء جهنم والسموم فى الاصل الريح الحارة التى تتخلل المسام والجمع سمائم يقال سم يومنا أى اشتد حره وقال ثعلب السموم شدة الحر أو شدة البرد فى النهار وقال أبو عبيدة

السموم بالنهار وقد تكون بالليل والحرور بالليل وقد تكون بالنهار (انا كنا) أى بما طبعنا عليه وهيأناله (من قبل) أى فى الدنيا (ندعوه) أى نسأله ونعبده بالفعل وأما خوفنا بالقوة فقد كان فى كل حركة وسكون ثم عللوا دعاءهم اياه مؤكدين لان انعامه عليهم مع تقصيرهم مما لا يكاد يفعله غيره فهو مما يتعجب منه غاية التعجب بقولهم (انه هو) أى وحده وقرأ نافع والكسائى بفتح الهمزة والباقون بكسرها (البر) أى الواسع الجود الذى عطاؤه حكمة ومنعه رحمة لانه لا ينقصه اعطاء ولا يزيده منع فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه فربما بره بالنعمة وربما بره بالبؤس فهو يختار له من الاحوال ما هو خير له ليوسع له البر فى العقبى فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه فى شىء من قضائه (الرحيم) أى المكرم لمن أراد من عباده باقامته فيما يرضاه من طاعته ثم بافضاله عليه وان قصر فى خدمته ولما بين تعالى أن فى الوجود قوما يخافون الله تعالى ويشفقون فى أهليهم والنبى صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى لقوله تعالى فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فوجب التذكير فلذلك قال تعالى (فذكر) أى عظ بأشرف الخلق بالقرآن ودم على ذلك ولا ترجع عنه لقول المشركين لك كاهن ومجنون (فما أنت بنعمة ربك) أى بسبب ما أنعم به عليك المحسن اليك من هذا الناموس الاعظم بعد تأهيلك له بما شاك به من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعال وجود الكف وطهارة الاخلاق وجعلك أشرف الناس عنصرا وأكملهم نفسا وأزكاهم خلقا وهم معترفون لك بذلك قبل النبوة وأكد النفى بقوله تعالى (بكاهن) أى تقول كلاما مع كونه سجعا متكلفا أكثره فارغ وتحكم على المغيبات من غير وحى (ولا مجنون) أى تقول كلاما لا انتظام له مع الاخبار ببعض المغيبات فلا يفترك قولهم هذا عن التذكير فانه قول باطل لا تلحقك به معرة أصلا وعما قليل يكون عيالهم لا يغسله عنهم الا اتباعهم لك فمن اتبعك منهم غسل عاره ومن استمر على عناده استمر تبابه وخساره *(تنبيه)* نزلت هذه الآية فى الذين اقتسموا اعقاب مكة يرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكهانة والسحر والجنون والشعر (أم يقولون) أى هؤلاء المقتسمون (شاعر) أى هو شاعر قال الثعلبى قال الخليل كل ما فى سورة والطور من أم فاستفهام وليس بعطف وقال أبو البقاء أم فى هذه الآيات منقطعة وتقدم الخلاف فى المنقطعة هل تقدر ببل وحدها أو ببل والهمزة أو بالهمزة وحدها والصحيح الثانى وقال مجاهد فى قوله تعالى أم تأمرهم تقديره بل تأمرهم (نتربص) أى ننتظر (به ريب المنون) أى حوادث الدهر وتقلبات الزمان لانها لا تدوم على حال كالريب وهو الشك فانه لا يبقى بل هو متزلزل قال الشاعر

تربص بها ريب المنون لعلها * تطلق يوما أو يموت حليلها

(وقال أبو ذؤيب)

أمن المنون وريبها تتوجع * والدهر ليس بمعتب من يجزع

والمنون فى الاصل الدهر وقال الراغب المنون المنية لانها تنقص العدد وتقطع المدد والمعنى بل يقولون يعنى هؤلاء المقتسمين الخراصين شاعر نتربص به ريب المنون حوادث الدهر

وصروفه

وسروفه وذلك أن العرب كانت تحترز عن ايذاء الشعراء فان الشعر كان عندهم يحفظ ويدوّن فقالوا لانعارضه فى الحال مخافة ان يغلبنا بقوة شعره وانما نصبر ونتربص موته ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء وتتفرق أصحابه فان أباه مات شابا ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه والمنون يكون بمعنى الدهر وبمعنى الموت سميا بذلك لانهما يقطعان الاجل ثم انه تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله (قل) أى لهؤلاء البعداء (تربصوا) أى انتظروا بى الموت ولم يعرج على محاججتهم فى قولهم هذا تنبيها على أنه من السقوط بمنزلة مالا يحتاج معه الى رده بمجادلة ثم سبب عن أمره لهم بالتربص قوله (فانى معكم من المتربصين) أى العريقين فى التربص وان ظننتم خلاف ذلك وأكده تنبيها على أنه يرجو الفرج بمصيبتهم كما يرجون الفرج بمصيبته وأشار بالمعية الى أنه مساو لهم فى ذلك وان ظنوا لكثرتهم وقوتهم ووحدته وضعفه ان الأمر بخلاف ذلك قال القشيرى جاء فى التفسير ان جميعهم اى الذين تربصوا به ماتوا قال ولا ينبغى لاحد أن يؤمل نفاق سوقه بموت أحد لتنتهى النوبة اليه فقل من تكون هذه صفاته الا وسبقته المنية ولا يدرك ماتمناه من الامنية (فان قيل) هذا أمر للنبى صلى الله عليه وسلم والفظ الامر يوجب المأمور به أو يبيحه ويجوزه وتربصهم كان حراما (أجيب) بأن ذلك ليس بأمر وانما هو تهديد أى تربصوا ذلك فانى متربص الهلاك بكم كقول الغضبان لعبده افعل ماشئت فانى لست عنك بغافل (أم تأمرهم) أى تزين لهم تزيينا يصيرما لهم اليه من الانبعاث كالامر (احلامهم) أى عقولهم التى يزعمون انهم اختصوا بجودتها دون الناس بحيث انه كان يقال فيهم أولوا الاحلام والنهى فأزرى الله تعالى بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل وذلك أن الاشياء لايعبأ بها الا ان تزينت بعقل أونقل فقال هل ورد أمر سمعى أم عقولهم تأمرهم (بهذا) أى قولهم له ساحر كاهن مجنون وقيل الى عبادة الاوثان وقيل الى التربص أى لاتأمرهم بذلك (أم) أى بل (هم) بظواهرهم وبواطنهم (قوم) ذووقوة على مايحاولونه فهم لذلك (طاغون) أى مفترون ويقولون مالادليل عليه سمعا ولامقتضى له عقلا والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان وكذلك كل شئ مكروه ظاهر قال تعالى لما طغى الماء *(تنبيه)* اعلم ان قوله تعالى أم تأمرهم متصل تقديره أأنزل عليهم ذكر أم تأمرهم أحلامهم بهذا وفى هذه الآية اشارة الى أن كل مالايكون على وفق العقل لاينبغى أن يقال وانما ينبغى أن يقال مايجب قوله عقلا والاحلام جمع حلم وهو العقل فهما من باب واحد من حيث المعنى لان العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لايتحرك من مكانه والحلم من الاحتلام وهو أيضا سبب وقار المرء وثباته لان الحلم فى أصل اللغة هو مايراه النائم فينزل ويلزم الغسل الذى هو سبب البلوغ وعنده يصير الانسان مكلفا فالله تعالى من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة يكمل العقل ويكلف صاحبه فأشار تعالى الى العقل بالاشارة الى مايقارنه وهو الحلم ليعلم انه يريد به كمال العقل (أم يقولون) ماهو أفحش عارا من التناقض (تقوله) أى تكلف قوله من عند نفسه كذبا وليس بشعر ولا كهانة ولاجنون وهم على كثرتهم والمام بعضهم بالعلم وعراقة آخرين

في الشعر والخطب والترسل والسجع بعجزوا عن مثله بل عن مثل شيء منه *(تنبيه)* التقول تكلف القول ولا يستعمل الا في الكذب وهذا أيضا متصل بقوله تعالى أم يقولون شاعر تقديره أم يقولون شاعر أم يقولون تقوله والمعنى ليس الامر كما زعموا (بل لا يؤمنون) بالقرآن استكبارا ثم ألزمهم الحجة وأبطل جميع الاقسام فقال عز من قائل (فليأتوا) أي على أي تقدير أرادوه (بحديث) أي كلام مفرق بجدد اتيانه مع الازمان (مثله) أي القرآن في البلاغة وصحة المعاني والاخبار بالمغيبات مما كان أو يكون على ماهي عليه لا نكافهم أن يأتوا به جملة (فان قيل) الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير والموصوف هنا حديث وهو منكر ومثله مضاف الى القرآن والمضاف الى القرآن معرف فكيف هذا (أجيب) بأن مثلا وغيرا لا يتعرفان بالاضافة وذلك أن غيرا ومثلا وأمثالهما في غاية التنكير لانك اذا قلت مثل زيد يتناول كل شيء فان كل شيء مثل زيد في شيء فالجمار مثله في الجسم والحجم والامكان والنبات مثله في النمو والنشء والذبول والفناء والحيوان مثله في الحركة والادراك وغيرهما من الاوصاف وأما غير فهو عند الاضافة ينكر وعند قطع الاضافة ربما يتعرف فانك اذا قلت غير زيد صار في غاية الابهام فانه يتناول أمورا لا حصر لها وأما اذا قطعت غير عن الاضافة فربما يكون الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كاسماء الاجناس وتجعله مبتدأ أو تريد به معنى معينا *(تنبيه)* قالت المعتزلة الحديث محدث والقرآن سماه حديثا فيكون محدثا وأجيبوا بأن الحديث اسم مشترك يقال للمحدث والمنقول ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم أي متقادم العهد لا بمعنى سلب الاولية وذلك لا نزاع فيه قال بعض العلماء وهذا أمر تعجيز قال الرازي والظاهر أن الامر ههنا على حقيقته لانه لم يقل ائتوا مطلقا بل قال تعالى (ان كانوا) أي كونا هم راسخون فيه (صادقين) أي في أنه تقوله من عند نفسه كما يزعمون فهو أمر معلق على شرط اذا وجد ذلك الشرط يجب الاتيان به وأمر التعجيز كقوله تعالى فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر وفي هذا تشنيع عليهم سواء ادعوا أنه مجنون أم شاعر أم كاهن أم غير ذلك لان العادة تحيل ان يأتي واحد من قوم وهو مساو لهم بما لا يقدرون كلهم على مثله والعاقل لا يجزم بشيء الا وهو عالم به ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتي به فانه صلى الله عليه وسلم مثلهم في الفصاحة والبلد والنسب وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك فلا يقدر على ما يعجزون عنه الا بتأييد الهي وهو المراد من تكذيبهم (أم خلقوا) أي وقع خلقهم على هذه الكيفية المتقنة (من غير شيء) أي خالق خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون لان تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فان أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق (أم هم الخالقون) لانفسهم وذلك في البطلان أشد لان ما لا وجود له كيف يخلق فاذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا وهو الله تعالى فلم لا يوحدونه ويؤمنون به وبرسوله وبكتابه وقال الزجاج معناه أخلقوا باطلا لا يحاسبون

ولا يؤمنون وقال ابن كيسان أخلقوا عبثا وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون كقول القائل فعلت كذا وكذا من غير شيء أي لغير شيء أم هم الخالقون لانفسهم فلا يجب عليهم لله أمر وقيل معناه أخلقوا من غير أب وأم * (تنبيه) * لا خلاف ان أم هذه ليست بمعنى بل لكن أكثر المفسرين على أن المراد ما يقع في صدر الكلام من الاستفهام بالهمزة كانه يقول أخلقوا من غير شيء قال الرازي ويحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذي يقع في أثناء الكلام وتقديره أخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (أم خلقوا) أي على وجه الشركة (السموات والارض) فهم بذلك عالمون بما فيهما على وجه الاحاطة واليقين حتى علموا أنك تقولته ليصير لهم رده والتهكم عليه (بل لا يوقنون) أي ليس لهم نوع يقين والالا آمنوا برسوله وكتابه (أم عندهم) أي خاصة دون غيرهم (خزائن ربك) أي المحسن اليك بارسالك فيعلموا ان هذا الذي أتيت به ليس من قول الله تعالى فيصح قولهم انك تقولته (أم هم) أي لا غيرهم (المسيطرون) أي الرقباء الحافظون المتسلطون الجبارون الرؤساء الحكام الكتبة ليكونوا ضابطين للاشياء كلها كما هو شأن كتاب السر عند الملوك فيعلمون انك تقولت هذا الذكر لانهم لم يكتبوا به اليك (أم لهم سلم) يصعدون به الى السماء (يستمعون) أي يتعمدون السماع لكل ما يكون فيها ومنها (فيه) أي صاعدين في ذلك السلم الى كلام الملائكة وما يوحى اليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن (فليأت مستمعهم) أي مدعي الاستماع (بسلطان مبين) أي بحجة بينة واضحة واشبه هذا الزعم لزعمهم ان الملائكة بنات الله قال تعالى (أم له البنات) أي بزعمكم (ولكم البنون) أي خاصة لتكونوا أقوى منه فتكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم وتردوا قوله من غير حجة فتكونوا آمنين من عذاب يأتيكم منه لضعفه وقوتكم (أم تسألهم) أي أيها الطاهر الشيم البعيد عن مواقع التهم (اجرا) على ابلاغ ما أتيتهم به (فهم من مغرم) أي غرم لك ولو قل والمغرم التزام ما لا يجب (مثقلون) فهم لذلك يكذبون من كان سببا في هذا الثقل بغير مستند ليستريحوا مما جره لهم من الثقل (أم عندهم) أي خاصة بهم (الغيب) أي علم ما غاب عنهم (فهم يكتبون) أي يجددون للناس كتابة جميع ما غاب عنهم مما ينفعهم ويضرهم حتى يحسدوك فيما شاركتهم به منه فيردوه ولذلك وينسبوك الى ما نسبوك اليه مما يعلم كل أحد نزاهتك عنه وبعدك منه وقال ابن عباس معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به واللام في الغيب لا للعهد ولا لتعريف الجنس بل المراد نوع الغيب كما تقول اشتر اللحم تريد بيان الحقيقة لا كل لحم ولا لحما معينا (أم يريدون) أي بهذا القول الذي يرمونك به (كيدا) أي مكرا وضررا عظيما بهلكوك به (فالذين كفروا) وكان الاصل فهم ولكنه قال تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (هم) أي خاصة (المكيدون) أي المغلوبون المهلكون فانهم مكروا به في دار الندوة فحفظه الله تعالى منهم ثم أهلكهم ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدة ما هنا من أم وهي خمس عشرة مرة لان بدرا كانت في الثانية من الهجرة وهي الخامسة عشر من النبوة فقد سبب الله تعالى فيها من الاسباب ما أوجب سعيهم الى

هلاكهم بأمور خارقة للعادة فلو كانت لهم بصائر لكفتهم فى الهداية والردع عن الضلالة والغواية (أم لهم اله) أى يمنعهم من التصديق بكتابنا أو يستندون اليه للامان من عذابنا (غير الله) اى الذى أحاط بجميع صفات الكمال (سبحان الله) الملك الاعظم الذى تعالى عن أن يدانى جنابه شائبة نقص (عما يشركون) من الاصنام وغيرها *(تنبيه)* الاستفهام بأم فى مواضعها للتقبيح والتوبيخ ولما بين تعالى فساد أقوالهم وسقوطها اشار الى أنهم لم يبق لهم عذر فان الآيات والحجج قد ظهرت ولم يؤمنوا فبعد ذلك استحقوا الانتقام وقوله تعالى (وان يروا) أى معاينة (كسفا) أى قطعة وقيل قطعا واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر (من السماء) جهارا نهارا (ساقطا يقولوا) جواب لقولهم فأسقط علينا كسفا من السماء كان الله تعالى يقول لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن قولهم ويقولون لمعاندتهم هذا (سحاب) فان قيل لهم هو مخالف للسحاب بصلابته وغلظته قالوا (مركوم) أى مركب بعضه على بعض فتلبد وتصلب وقوله تعالى (فذرهم) اى اتركهم على شر أحوالهم كقوله تعالى فأعرض عنهم وقوله تعالى فتول عنهم الى غير ذلك فقيل كلها منسوخة بآية القتال قال ابن عادل وهو ضعيف وانما المراد التهديد كقول السيد لعبده الجانى لمن يصحبه دعه فانه سينال جنايته (حتى يلاقوا يومهم الذى فيه) أى لا فى غيره لان ما حكمنا به لا يتقدم ولا يتأخر (يصعقون) أى يموتون من شدة الاهوال وعظم الزلزال كما صعق بنو اسرائيل فى الطور ولكن لا نقيهم كما أفقنا أولئك الا عند النفخ فى الصور لنحشرهم للحساب الذى يكذبون به قال البقاعى والظاهر ان هذا اليوم يوم بدر فانهم كانوا قاطعين بالنصر فيه فما أغنى أحد منهم عن أحد شيأ كما قال أبو سفيان بن الحرث ماهو الا أن القيناهم فمنحناهم اكتافنا يقتلوننا كيف شاؤا ويأسروننا كيف شاؤا وقوله تعالى (يوم لا يغنى) أى بوجه من الوجوه بدل من يومهم (عنهم كيدهم) أى الذى يرمونه بهذه الاقوال المناقضة (شيأ) من الاغناء فى دفع شئ يكرهونه من الموت ولا غيره كما يظنون انه يغنى عنهم فى غير ذلك من أحوال هذه الدار (ولا هم ينصرون) أى يتجدد لهم نصر ما فى ساعة ما يمنعهم من العذاب وقوله تعالى (وان للذين ظلموا) يجوز أن يكون من ايقاع الظاهر موضع المضمر وأن لا يكون والمعنى وان للذين أوقعوا الاشياء فى غير مواقعها كما يقولونه فى القرآن ويفعلونه من العصيان ويعتقدونه من الشرك والبهتان (عذابا دون ذلك) أى غير عذاب ذلك اليوم قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وقال الضحاك هو الجوع والقحط سبع سنين وقال البراء بن عازب عذاب القبر والآية تحتمل هذه المعانى كلها (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن العذاب نازل بهم (فاصبر) أى أوجد هذه الحقيقة لتصبر على ما أنت عليه من أداء الرسالة (لحكم ربك) أى المحسن اليك فانه هو المريد لذلك ولو لم يرده لم يكن شئ منه فهو احسان منه اليك وتدريب لك وترقية فى معارج الحكم وسبب عن ذلك قوله تعالى مؤكدا لما يغلب على الطبع البشرى فى بعض أوقات الامتحان من نوع نسيان (فانك بأعيننا) أى بمرأى منا نراك ونحفظك وجمع لما اقتضته نون العظمة التى هذا سياقها وهى

ظاهرة فى الجمع واشارة الى أنه محفوظ بالجنود الذين رؤيتهم من رؤيته سبحانه وتعالى (وسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى المحسن اليك فأثبت له كل كمال مع تنزيهك له عن كل نقص فلا يكون فى ملكه مالا يريد ولا يريد الا ماهو حكمة بالغة (حين تقوم) قال سعيد بن جبير وعطاء أى قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك فان كان المجلس خيرا ازددت احسانا وان كان غير ذلك كان كفارة له وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جلس مجلسا وكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك الا كان كفارة لما بينهما أى من الذنوب الصغائر وقال ابن عباس معناه صل لله حين تقوم من مقامك وقال الضحاك والربيع اذا قمت الى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك وقال الكلبى هو ذكر الله تعالى باللسان حتى تقوم من الفراش الى أن تدخل فى الصلاة لما روى عاصم بن حميد قال سألت عائشة بأى شئ كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل فقالت كان اذا قام كبر عشرا وحمد الله تعالى عشرا وهلل عشرا واستغفر عشرا وقال اللهم اغفر لى واهدنى وارزقنى وعافنى ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة وقيل حين تقوم لامر ما (ومن الليل) أى الذى هو محل السكون والراحة (فسبحه) أى صل له قال مقاتل يعنى صلاة المغرب والعشاء (وأدبار النجوم) أى صل الركعتين قبل صلاة الفجر وذلك حين تدبر النجوم أى تغيب بضوء الصبح هذا قول أكثر المفسرين وقال الضحاك هى فريضة صلاة الصبح وهذه الآية نظير قوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقد تقدم الكلام عليها قال الرازى قال تعالى هنا وأدبار النجوم وقال فى سورة ق وأدبار السجود فيحتمل أن يكون المعنى واحدا والمراد من السجود جمع ساجد والنجوم سجود قال تعالى والنجم والشجر يسجدان وقيل المراد من النجوم نجوم السماء وقيل النجم مالا ساق له من النبات قال الله تعالى ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض الآية أو المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم فى اللغة أى اذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله كما مر وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والطور كان حقا على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه فى جنته حديث موضوع

(سورة النجم مكية)

ثنتان وستون آية وثلثمائة وستون كلمة وألف وأربعمائة وخمسة أحرف

(بسم الله) الذى أحاط بصفات الكمال (الرحمن) الذى عم الموجودات بصفة الجمال (الرحيم) الذى خص أهل وده بصالح الاعمال (والنجم اذا هوى) قال ابن عباس فى رواية العوفى يعنى الثريا اذا غابت وسقطت وهوت مغيبة والعرب تسمى الثريا نجما وجاء فى الحديث عن أبى هريرة مرفوعا ما طلع النجم قط وفى الارض شئ من العاهات الا رفع وأراد بالنجم الثريا وقال مجاهد هو نجم السماء كلها حين يغرب لفظه واحد ومعناه الجمع سمى الكوكب نجما لطلوعه وكل طالع

نجم يقال نجم السن والنبت والقرن اذا طلع وروى عكرمة عن ابن عباس أنها ما يرجم به
الشياطين عند استراقهم السمع وقال أبو حمزة الثمالى هى النجوم اذا انتثرت يوم القيامة وقيل
المراد بالنجم القرآن سمى نجما لانه نزل نجوما متفرقة فى عشرين سنة ويسمى التفريق تنجيما
والمفرق منجما هذا قول ابن عباس فى رواية عطاء وقال الكلبى والهوى النزول من أعلى الى
أسفل وقال الاخفش النجم هو النبت الذى لاساق له ومنه قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان
وهويه سقوطه على الارض وقال جعفر الصادق يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم اذا نزل من السماء
ليلة المعراج والهوى النزول يقال هوى يهوى هويا والكلام فى قوله تعالى والنجم كالكلام فى
قوله تعالى والطور وحيث لم يقل والنجوم والاطوار وقال والذاريات والمرسلات كما مر *(تنبيه)*
أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها فانه تعالى قال فى آخر تلك وأدبار النجوم وقال تعالى فى
أول هذه والنجم اذا هوى قال الرازى والفائدة فى تقييد القسم به فى وقت هويه أنه اذا كان فى
وسط السماء يكون بعيدا عن الارض لايهتدى به السارى لانه لايعلم به المشرق من المغرب
ولا الجنوب من الشمال فاذا نزل عن وسط السماء تبين بنزوله جانب المغرب عن المشرق والجنوب
عن الشمال وقوله تعالى (ماضل) أى عن طريق الهداية (صاحبكم) محمد صلى الله عليه وسلم
وقتا من الاوقات جواب القسم وعبر بالصحبة لانها مع كونها أدل على القصد مرغبة لهم فيه
ومقبلة بهم اليه ومقبحة عليهم اتهامه فى انذاره وهم يعرفون طهارة شمائله (وماغوى) أى
ومامال أدنى ميل ولا كان مقصده ممايسوء فانه محروس من أسباب غواية الشياطين وغيرها
(تنبيه) الغى جهل عن اعتقاد فاسد بخلاف الضلال وذهب أكثر المفسرين الى أن الغى
والضلال بمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال الضلال فى مقابلة الهدى والغى فى مقابلة الرشد
قال تعالى قد تبين الرشد من الغى وقال تعالى وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا
سبيل الغى يتخذوه سبيلا قال الرازى وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالا فى الوضع
تقول ضل بعيرى ورحلى ولاتقول غى *(فائدة)* قد دافع الله سبحانه عن نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم وأما باقى الانبياء فدافعوا عن أنفسهم ليس بى ضلالة ليس بى سفاهة ونحو ذلك قاله القشيرى
(فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى ماضل صاحبكم وبين قوله تعالى ووجدك ضالا فهدى
(أجيب) بأن المراد من الآية الآتية وجدك ضالا عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك
اليها بخلاف هذه الآية (وماينطق) أى يجاوز نطقه فى وقت من الاوقات لا فى هذا الحال
ولا فى الاستقبال نطقا ناشئا (عن الهوى) أى عن أمره كالكهان الذين يغلب كذبهم صدقهم
والشعراء وغيرهم ومايقول هذا القرآن من عند نفسه (ان) أى ما (هو) أى الذى يتكلم به
من القرآن وكل أقواله وأفعاله وأحواله (الاوحى) اى من الله تعالى وأكده بقوله تعالى
(يوحى) أى يجدد اليه ايحاؤه منا وقتا بعد وقت *(تنبيه)* استدل بهذه الآية من لايرى
الاجتهاد للانبياء (وأجيب) بأن الله تعالى اذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد ومايستند اليه
كله وحيا لانطقا عن الهوى (علمه) أى صاحبكم الوحى الذى أتاكم به ملك (شديد القوى)

فلا تعجبوا من هذه البحار الزاخرة فان معلمه بهذه الصفة التي هو بها بحيث ينفذ كل ما أمره الله تعالى به وهو جبريل عليه السلام فانه الواسطة في ابداء الخوارق روى أنه قلع قرى قوم لوط ورفعها الى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الانبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف ورأى ابليس يكلم عيسى على بعض عقاب الارض المقدسة فنفحه نفحة بجناحه فألقاه في أقصى بلاد الهند (ذومرة) قال ابن عباس ذو منظر حسن وقال أكثر المفسرين ذو قوة وقدرة عظيمة على الذهاب فيما أمر به والطاقة لحمله بغاية النشاط والحدة كأنه ذو مزاج غلبت عليه الحدة فهو صعب المراس في مزاولته ماض على طريقة واحدة على غاية من الشدة لا توصف لا التفات له بوجه الى غير ما أمر به فهو مجتمع القوى مستحكم الشأن شديد الشكيمة لا يسأم في شئ يزاوله ومن جملة ما أعطى من القوة القدرة على التشكل والى ذلك أشار بما تسبب عن هذا من قوله تعالى (فاستوى) أى فاستقام واعتدل بغاية ما يكون من قوته على أكمل حالاته في الصورة التي فطر عليها (وهو) أى والحال أن جبريل عليه السلام (بالافق الاعلى) أى عند مطلع الشمس وذلك أن جبريل عليه السلام كان يأتى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الآدميين كما كان يأتى الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها فأراه نفسه مرتين مرة في الارض ومرة في السماء فأما التي في الارض ففي الافق الاعلى والمراد بالاعلى جانب المشرق وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان بحراء وكان جبريل واعده أن يأتيه وهو بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسد الافق الى المغرب فخر صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فنزل له جبريل عليه السلام في صورة الآدميين (ثم دنا) أى قرب منه (فتدلى) أى زاد في القرب (فكان) منه (قاب) أى قدر (قوسين) أى عربيتين (أو أدنى) من ذلك وضمه الى نفسه حتى أفاق وسكن روعه وجعل يمسح التراب عن وجهه وأما في السماء فعند سدرة المنتهى ولم يره أحد من الانبياء في صورته الحقيقية غير محمد صلى الله عليه وسلم * (تنبيه) * القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والاصبع ومنه لا صلاة الى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين وفي الحديث لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها والقد السوط ويقال بينهما خطوات يسيرة وقال الشاعر * وقد جعلتني من خزيمة اصبعا

(فان قيل) كيف تقدير قوله فكان قاب قوسين (أجيب) بأن تقديره فكان مسافة قربه مثل قاب قوسين فحذفت هذه المضافات كما قال أبو على في قوله * وقد جعلتني من خزيمة اصبعا أى ذا مقدار مسافة اصبع وروى الشيباني قال سألت زرا عن قوله تعالى فكان قاب قوسين أو أدنى قال أخبرنا عبد الله يعني ابن مسعود أنه محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح وبهذا قال ابن عباس والحسن وقتادة وقال آخرون دنا الرب عز وجل من محمد صلى الله عليه وسلم فتدلى فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ومعنى دنوه تعالى قرب منزلة كقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تبارك وتعالى من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا

تقربت اليه باعا ومن مشى الى أتيته هرولة وهذا اشارة الى المعنى المجازى قال البغوى وروينا
فى قصة المعراج من رواية شريك بن عبد الله بن أبى نمر عن أنس فدنا الجبار رب العزة فتدلى حتى
كان منه قاب قوسين أو أدنى وهذه رواية أبى سلمة عن ابن عباس وقال مجاهد دنا جبريل من ربه
وقد تمت الكلام على المعراج وعلى جواز رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه فى أول الاسراء
وقال الضحاك دنا محمد صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل فتدلى فأهوى للسجود فكان منه قاب
قوسين أو أدنى وتقدم الكلام على القاب والقوس مارمى به فى قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن
ابن عباس فأخبر أنه كان بين جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم مقدار قوسين وقال
مجاهد معناه حيث الوتر من القوس وهذا اشارة الى تأكيد القرب والاصل فى ذلك أن الحليفين
من العرب كانا اذا أرادا الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما فالصقا بينهما يريدان بذلك أنهما
متظاهران يحامى كل واحد منهما عن صاحبه وقال عبد الله بن مسعود قاب قوسين قدر ذراعين
وهو قول سعيد بن جبير والقوس الذراع يقاس بها كل شئ أو أدنى بل أقرب وانما ضرب المثل
بالقوس لانها لا تختلف بالقاب (فأوحى) أى الله تعالى وان لم يجر له ذكر لعدم اللبس (الى عبده)
أى جبريل عليه السلام (ما أوحى) أى جبريل عليه السلام الى النبى صلى الله عليه وسلم ولم
يذكر الموحى تفخيما لشأنه وهذا التفسير ماجرى عليه الجلال المحلى وهو ظاهر وقيل فأوحى الى
جبريل بسبب هذا القرب وعقبه الى عبده أى عبد الله ما أوحى أى جبريل وقيل الضمائر كلها
لله تعالى وهو المعنى بشديد القوى كما فى قوله تعالى ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ودنوه منه
برفع مكانته وتدليه جذبه بكليته الى جانب القدس واختلف فى الموحى على أقوال الاول قال
سعيد بن جبير أوحى اليه ألم يجدك يتيما الى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك الثانى أوحى اليه
الصلاة الثالث أن أحدا من الانبياء لا يدخل الجنة قبلك وأن أمة من الامم لا تدخلها قبل أمتك
الرابع أنه مبهم لا يطلع عليه أحد وتعبدنا به على الجملة الخامس أن ما للعموم والمراد كل ما جاء به
جبريل (ما كذب الفؤاد) أى فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم (ما رأى) أى ما رآه ببصره
من صورة جبريل عليه السلام وهذا أيضا ماجرى عليه الجلال المحلى وقال البقاعى ما رأى
البصر أى حين رؤية البصر كأنه حاضر القلب لانها رؤية بصر فقط يمكن فيها الخلو عن حضور
القلب وقال القشيرى ما معناه ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره على الوصف
الذى علمه قبل ان رآه فكان علمه حق اليقين وقرأ هشام بتشديد الذال والباقون بالتخفيف
وقوله تعالى (أفتمارونه) أى تجادلونه وتغلبونه (على ما يرى) خطاب للمشركين المكذبين رؤية
النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل وهذا ما قاله ابن مسعود وعائشة ومن قال ان المرئى هو الله تعالى
اختلفوا فى معنى الرؤية فقال بعضهم جعل بصره فى فؤاده فرآه بفؤاده وهو قول ابن عباس قال
رآه بفؤاده مرتين ما كذب الفؤاد ما رأى وقال أنس والحسن وعكرمة رأى محمد صلى الله عليه
وسلم ربه عز وجل بعينه وروى عكرمة عن ابن عباس قال ان الله تعالى اصطفى ابراهيم عليه
السلام بالخلة واصطفى موسى عليه السلام بالكلام واصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم بالرؤية

وكانت عائشة تقول لم ير محمد صلى الله عليه وسلم ربه وتحمل الرؤية على رؤية جبريل قال مسروق قلت لعائشة يا أمتاه هل رأى محمد ربه فقالت لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ثم قرأت لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ومن حدثك انه كتم شيأ مما أنزل الله تعالى فقد كذب ثم قرأت يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين وروى أبو ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نوراني أراه وحاصل المسئلة أن الصحيح ثبوت الرؤية وهو ما جرى عليه ابن عباس حبر الامة وهو الذي يرجع اليه في المعضلات وقد راجعه أبو عمرو فأخبره انه رآه ولا يقدح في ذلك حديث عائشة لانها لم تخبر أنها سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لم أر وانما اعتمدت على الاستنباط مما تقدم وجوابه ظاهر فان الادراك هو الاحاطة والله تعالى لا يحاط به واذا ورد النص بنفي الاحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير احاطة وأجيب عن احتجاجها بقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الآية بأنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام وبأنه عام مخصوص بما تقدم من الادلة وأما قوله صلى الله عليه وسلم نوراني أراه فقال الماوردي الضمير في أراه عائد الى الله تعالى ومعناه أنه خالق النور المانع من رؤيته أي رؤية احاطة كما مر اذ من المستحيل أن تكون ذات الله نورا اذ النور من جملة الاجسام والله تعالى منزه عن ذلك (فان قيل) هلا قيل أفتماروته على ما رأى بصيغة الماضي لانهم انما جادلوه حين أسرى به فقالوا صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه به وما الحكمة في ابرازه بصيغة المضارع (أجيب) بأن التقدير أفتمارونه على ما يرى فكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقولون فيه والواو في قوله تعالى (ولقد رآه) يحتمل أن تكون عاطفة ويحتمل أن تكون للحال أي كيف تجادلونه فيما رآه وهو قد رآه (نزلة أخرى) على وجه لا شك فيه *(تنبيه)* قوله تعالى نزلة فعلة من النزول كجلسة من الجلوس فلا بد من نزول واختلفوا في ذلك النزول وفيه وجوه الاول أن الضمير في رآه عائد الى جبريل أي رأى جبريل نزلة أخرى أي رأى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلا من السماء مرة أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الارض ومرة في السماء (عند سدرة المنتهى) قال الرازي ويحتمل أن تكون النزلة لمحمد صلى الله عليه وسلم الثاني أن الضمير عائد الى الله تعالى أي رأى الله نزلة أخرى وهذا قول من قال في قوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى هو الله تعالى وقد قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين وعلى هذا في النزول وجهان أحدهما قول من يجوز على الله الحركة من غير تشبيه وثانيهما أن نزوله بمعنى القرب بالرحمة والفضل الثالث أن محمدا رأى الله تعالى نزلة أخرى والمراد من النزلة ضدها وهي العرجة كأنه قال رآه عرجة أخرى قال ابن عباس نزلة أخرى هو أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم عرجات في تلك الليلة لمسئلة التخفيف

فى الصلوات فيكون لكل عرجة نزلة فرأى ربه فى بعضها وروى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده مرتين وعنه أنه رأى ربه بعينه وعلى أن المرئى هو الله تعالى فيكون قوله تعالى عند سدرة المنتهى ظرفا للرائى كما اذا قال القائل رأيت الهلال فيقال له أين رأيته فيقول على السطح وقد يقول عند الشجرة الفلانية وأما قول من قال بأن الله تعالى فى مكان فذلك باطل وان قيل بأن المرئى جبريل عليه السلام فظاهر *(تنبيه)* اضافة السدرة الى المنتهى تحتمل وجوها أحدها اضافة الشئ الى مكانه كقولك أشجار بلدة كذا فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك قال هلال بن كيسان سأل ابن عباس كعبا عن سدرة المنتهى وأنا حاضر فقال كعب انها سدرة فى أصل العرش على رؤس حملة العرش واليها ينتهى علم الخلائق وما خلفها غيب لا يعلمه الا الله تعالى وقيل ينتهى اليها ما هبط من فوقها ويصعد من تحتها وقال كعب تنتهى اليها الملائكة والانبياء وقال الربيع تنتهى اليها أرواح المؤمنين وثانيها اضافة الملك الى مالكه كقولك دار زيد وشجر زيد وحينئذ المنتهى فيه محذوف تقديره سدرة المنتهى اليه قال الله تعالى الى ربك المنتهى فالمنتهى اليه هو الله تعالى واضافة السدرة اليه حينئذ كاضافة البيت اليه للتشريف والتعظيم كما يقال فى التسبيح يا غاية رغبتاه ويا منتهى أملاه وثالثها اضافة المحل الى الحال فيه كقولك كتاب الفقه وعلى هذا فالتقدير سدرة عندها منتهى العلوم فتلقى هنالك قال البقاعى وذلك والله أعلم ليلة الاسراء فى السنة الثالثة عشرة من النبوة قبل الهجرة بقليل بعد ان ترقى فى معارج الكمالات من السنين على عدد السموات وما بينهما من المسافات فانتهى الى منتهى سمع فيه صريرا الاقلام وعظمها بقوله تعالى (عندها) أى السدرة (جنة المأوى) أى التى لا مأوى فى الحقيقة غيرها وهى الجنة التى وعدها المتقون كقوله تعالى دار المقامة وقيل هى جنة أخرى عندها تكون أرواح الشهداء تأوى اليها وقيل هى جنة الملائكة وقوله تعالى (اذ) معمول لرأى أى رأى من آيات ربه الكبرى حين (يغشى السدرة) وهى شجرة النبق وقوله تعالى (ما يغشى) تعظيم وتكثير لما يغشاها واختلفوا فيما يغشاها فقيل فراش أو جراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك قال الرازى وهذا ضعيف لان ذلك لا يثبت الا بدليل سمعى فان صح فيه خبر والا فلا وجه له اه قال القرطبى ورواه ابن مسعود وابن عباس مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وذلك قوله عز من قائل اذ يغشى السدرة ما يغشى وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون اليها متشوقين متبركين بها زائرين كما يزور الناس الكعبة وروى فى حديث المعراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذهب بى الى سدرة المنتهى واذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كقلال هجر قال فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يقدر ان ينعتها من حسنها فأوحى الى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة وقيل يغشاها أنوار الله تعالى لان النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل اليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل

فظهرت

فظهرت الانوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرك الشجرة وخر موسى عليه السلام صعقا ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أبهمه تعظيما له والغشيان يكون بمعنى التغطية قال الماوردى فى معانى القرآن فان قيل لم اختيرت السدرة لهذا الامر دون غيرها من الشجر قلنا لان السدرة تختص بثلاثة أوصاف ظل مديد وطعم لذيذ ورائحة ذكية فشابهت الايمان الذى يجمع قولا وعملا ونية فظلها من الايمان بمنزلة العمل لتجاوزه وطعمها بمنزلة النية لكمونه وريحها بمنزلة القول لظهوره وروى أبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قطع سدرة صوب الله تعالى رأسه فى النار وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال هو مختصر يعنى من قطع سدرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوب الله تعالى رأسه فى النار ثم أكد سبحانه الرؤية وقررها بقوله تعالى (مازاغ) أى مامال أدنى ميل (البصر) أى الذى لابصر لمخلوق أكمل منه فماقصر عن النظر الى ما أذن له فيه ومازاد (وماطغى) أى تجاوز الحد الى مالم يؤذن له فيه مع أن ذلك العالم غريب عن بنى آدم وفيه من العجائب مايحير الناظر بل كانت له الصفة الصادقة المتوسطة بين الشره والزهادة على أتم قوانين العدل فأثبت مارآه على حقيقته وكما هو قال السهروردى فى أول الباب الثانى والثلاثين من عوارفه وأخبر تعالى بحسن أدبه فى الحضرة بهذه الآية وهذه غامضة من غوامض الادب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم *(تنبيه)* اللام فى البصر تحتمل وجهين أحدهما المعروف أى مازاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ان قيل بأن الغاشى للسدرة هو الجراد والفراش فمعناه لم يلتفت اليه ولم يشتغل به ولم يقطع نظره عن مقصوده فيكون غشيان الجراد والفراش ابتلاء وامتحانا لمحمد صلى الله عليه وسلم وان قيل ان الغاشى أنوار الله تعالى ففيه وجهان أحدهما لم يلتفت يمنة ولا يسرة بل اشتغل بمطالعتها الثانى مازاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه السلام فانه قطع النظر وغشى عليه ففى الاول بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم وفى الثانى بيان قوته الوجه الثانى أن اللام لتعريف الجنس أى مازاغ بصره أصلا فى ذلك الموضع لعظم هيبته (فان قيل) لو كان كذلك لقال مازاغ بصره فانه أدل على العموم فان النكرة فى معرض النفى تعم (أجيب) بأن هذا مثل قوله تعالى لاتدركه الابصار ولم يقل لايدركه بصر ولما كانوا قد أنكروا الاسراء انكارا لم يقع لهم فى غيره مثله زاد فى تأكيده على وجه يعم غيره فقال تعالى (لقد رأى) أى أبصر ما أهلناه له من الرسالة تلك الليلة ابصارا ساريا الى البواطن غير مقتصر على الظواهر (من آيات ربه) أى المحسن اليه بما لم يصل اليه أحد قبله ولا يصل اليه أحد بعده (الكبرى) أى العظام أى بعضها واختلف فى ذلك البعض فقيل جبريل عليه السلام رآه فى صورته له ستمائة جناح وقال الرازى والظاهر ان هذه الآيات غير تلك لان جبريل عليه السلام وان كان عظيما لكنه ورد فى الاخبار أن لله تعالى ملائكة أعظم منه والكبرى تأنيث الاكبر فكأنه تعالى قال رأى من آيات ربه آيات هن أكبر الآيات وقيل رأى رفرفا أخضر سد الافق وقيل أراد مارأى فى تلك الليلة فى مسيره وعوده ومن اجتماعه تلك الليلة بالانبياء عليهم الصلاة

والسلام فى السموات ولما قرر تعالى الرسالة ذكر ما ينبغى أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الاشراك فقوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى) اشارة الى ابطال قولهم كما اذا ادعى ضعيف الملك ثم رآه العقلاء فى غاية البعد عما يدعيه يقولون انظروا الى هذا الذى يدعى الملك منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره فلذلك قال تعالى أفرأيتم اللات والعزى أى كما هما فكيف تشركونهما بالله سبحانه وتعالى واللات صنم ثقيف والعزى شجرة لغسان وهما أعظم أصنامهم اشتقوا لهما اسمين من أسماء الله تعالى فقالوا من الله اللات ومن العزيز العزى وقيل العزى تأنيث الاعز وعن ابن عباس كان اللات رجلا يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه وعن مجاهد أن العزى شجرة لغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فجعل خالد يضربها بالفأس ويقول

ياعز كفرانك لاسبحانك * انى رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها ويقال ان خالدا رجع الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال قد قلعتها فقال ما رأيت قال ما رأيت شيأ فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما فعلت فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتث أصلها فخرجت منها امرأة عريانة فقتلها ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال تلك العزى ولن تعبد أبدا وقال الضحاك هى صنم لغطفان وضعها لهم سعيد بن ظالم الغطفانى وذلك أنه لما قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بهما فعاد الى نخلة وقال لقومه ان لاهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم اله يعبدونه وليس لكم قالوا فما تأمرنا به قال انا أصنع لكم كذلك وأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة ونقلهما الى نخلة فوضع الذى أخذه من الصفا وقال هذا الصفا ووضع الذى أخذه من المروة وقال هذه المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها الى شجرة فقال هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فأمر برفع الحجارة وبعث خالد بن الوليد الى العزى فقطعها وقال ابن زيد هى بيت بالطائف كان تعبده ثقيف وأما قوله تعالى (ومناة) فقال قتادة هى صخرة كانت لخزاعة بقديد وقالت عائشة فى الانصار كانوا يهلون لمناة فكانت حذو قديد وقال ابن زيد بيت بالمشلل تعبده بنو كعب وقال الضحاك مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبده أهل مكة وقيل اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها وقوله تعالى (الثالثة الأخرى) نعت لمناة اذ هى الثالثة للصنمين فى الذكر وأما الأخرى فقال أبو البقاء توكيد لان الثالثة لا تكون الا الأخرى وقال الزمخشرى الاخرى ذم وهى المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله تعالى وقالت أخراهم أى وضعاؤهم لاولاهم أى لاشرافهم ويجوز أن تكون الاولية والتقدم عندهم اللات والعزى اه قال ابن عادل وفيه نظر لان الاخرى انما تدل على الغيرية وليس فيها تعرض لمدح ولا ذم فان جاء شئ فلقرينة خارجية اه ووجه الترتيب أن اللات كان وثنا على صورة آدمى والعزى شجرة نبات ومناة صخرة فهى جماد فهى فى أخريات المراتب (فان قيل) ما فائدة الفاء فى

قوله تعالى أفرأيتم وقد وردت فى مواضع بغير فاء كقوله تعالى أرأيتم ماتعبدون من دون الله أرأيتم شركاءكم (أجيب) بأنه تعالى لما تقدم عظمته فى ملكوته وأن رسوله الى الرسل يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته ولا يمكنه مع هذا ان يتعدى السدرة فى مقام جلال الله وعزته قال أفرأيتم هذه الاصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله تعالى مع ماتقدم فقال بالفاء أى عقب ماسمعتم من عظمة آيات الله الكبرى ونفاذ علمه فى الملا الاعلى وماتحت الثرى انظروا الى اللات والعزى تعلموا فساد ماذهبتم اليه *(تنبيه)* مفعول أرأيت الاول اللات وماعطف عليه والثانى محذوف والمعنى أخبرونى ألهذه الاصنام قدرة على شئ مافتعبدونها دون الله القادر على ماتقدم ذكره وقرأ ابن كثير مناة بهمزة مفتوحة بعد الالف والباقون بغير همز* ولما زعموا أيضا ان الملائكة بنات الله مع كراهتهم للبنات نزل (ألكم) أى خاصة (الذكر) أى النوع الاعلى (وله) أى وحده (الانثى) أى النوع الاسفل (تلك) أى هذه القسمة البعيدة عن الصواب (اذا) أى اذ جعلتم البنات له والبنين لكم (قسمة ضيزى) أى جائرة ظالمة ناقصة فيها بخس للحق الى الغاية عوجا غير معتدلة حيث خصصتم به ما أوصلتكم الكراهة له الى دفنه حيا بل كان ينبغى أن تجعلوا الاعظم للعظيم والانقص للحقير لخالفتم العقل والنقل والعادة (ان) أى ما (هى) أى هذه الاصنام (الا أسماء) أى لاحقائق لها فيما ادعيتم لها من الالهية ليس لها من ذلك غير الاسماء وأكد ذلك بقوله تعالى (سميتموها) أى ابتدعتم تسميتها (فان قيل) الاسماء لاتسمى وانما يسمى بها (أجيب) بأن التسمية وضع الاسم فكانه قال أسماء وضعتموها فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها (أنتم وآباؤكم) أى لاغير (ماأنزل الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (بها) أى باستحقاقها للاسماء أو لما سميتموها به من الالهية وأعرق فى النفى فقال (من سلطان) أى حجة تصلح مسلطا على مايدعى فيها بل لمجرد الهوى لم تروا منها آية ولا كلمتكم قط بكلمة تعتمدونها وعلى تقدير أن تتكلم الشياطين على ألسنتها فأى طريقة قويمة شرعت لكم وأى كلام صالح أو بليغ برز اليكم منها وأى آية كبرى ارتكموها (ان) أى ما (يتبعون) أى فى وقت من الاوقات فى أمر هذه الاوثان بغاية جهدهم من انها آلهة وأنها تشفع لهم أو تقربهم الى الله تعالى (الا الظن) أى وهو غاية أمرهم لمن يحسن الظن بهم والظن ترجيح أحد الجائزين على زعم الظان * ولما كان الظن قد يكون موافقا للحق مخالفا للهوى قال تعالى (وماتهوى الانفس) أى تشتهى وهى لمالها من النقص لاتشتهى أبدا الا مايهوى بها عن غايتها أو جها الى أسفل حضيضها وأما المعالى وحسن العواقب فانما يسوق اليها العقل قال القشيرى فأما الظن الجميل بالله تعالى فليس من هذا الباب والتباس عواقب الشخص عليه ليس من هذه الجملة بسبيل انما الظن المعلول فى الله تعالى وأحكامه وصفاته اه ولهذا كان كثير من الفقه ظنيا وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه أنا عند ظن عبدى بى (ولقد جاءهم) أى العجب أنهم يقولون ذلك والحال أنهم قد جاءهم (من ربهم) المحسن اليهم (الهدى) على لسان النبى صلى الله عليه وسلم بالبرهان القاطع أنها ليست بآلهة وان العبادة

لا تصلح الا لله الواحد القهار فلم يرجعوا عما هم عليه وقرأ حمزة والكسائي في الوصل بضم الهاء والميم وقرأ أبو عمرو بكسرهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم (أم للانسان) أي كل انسان منهم (ما تمنى) أي من اتباع ما يشتهي من جاه ومال وطول عمر ورفاهة عيش ومن أن الاصنام تشفع له ليس الامر كذلك (فلله) أي الملك الاعظم وحده (الآخرة) فهو لا يعطي ما فيها الا لمن تبع هداه وترك هواه (والاولى) أي الدنيا فهو لا يعطي جميع الاماني فيها لاحد أصلا كما هو مشاهد ولكنه يعطي منهاما يشاء لمن يريد وليس لاحد أن يتحكم عليه سبحانه في شيء منها (وكم من ملك) أي كثير من الملائكة أي ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ودل على زيادة قوتهم بشرف مسكنهم وهو قوله تعالى (في السموات) أي وهم في الكرامة والزلفى (لا تغني شفاعتهم) أي عن أحد من الناس (شيأ) ثم قصر الامر عليه ورده بحذافيره اليه بقوله تعالى (الا من بعد أن يأذن) أي يمكن ويريد (الله) أي الملك الذي لا أمر أصلا لاحد معه (لمن يشاء) من عباده من الملائكة أو من الناس أن يشفع (ويرضى) أي ويراه أهلا لذلك فكيف تعبد الاصنام مع حقارتها للتشفع لهم (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي لا يصدقون ولا يقرون بالبعث وغيره من أحوال يوم القيامة (ليسمون الملائكة) أي كل واحد منهم (تسمية الانثى) بأن سموه بنتا وذلك أنهم كانوا يقولون الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الايجاد ثم انهم رأوا في الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال سجدت الملائكة فقالوا بنات الله فسموهم تسمية الاناث (فان قيل) كيف يقال انهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكان من عادتهم أن يربطوا مركوبا على قبر من يموت ويعتقدون أنه يحشر عليه (أجيب) بأنهم ما كانوا يجزمون به بل كانوا يقولون لا حشر فان كان فلنا شفعاء بدليل ما حكى الله تعالى عنهم وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وبأنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه الذي وردت به الرسل (فان قيل) كيف قال تسمية الانثى ولم يقل تسمية الاناث (أجيب) بأن المراد بيان الجنس وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لمواخاة رؤس الآي (وما) أي والحال أنهم ما (لهم به) أي بما يقولون وقيل الضمير يعود الى ما تقدم من علم قبول الشفاعة وقيل يعود الى الله تعالى أي ما لهم بالله تعالى (من علم) ثم بين تعالى الحامل لهم على ذلك بقوله تعالى (ان) أي ما (يتبعون) أي بغاية ما يكون من شهوة النفس في ذلك وغيره (الا الظن) أي الذي يتخيلونه (وان) أي والحال ان (الظن) أي مطلقا في هذا وفي غيره ولذلك أظهر في موضع الاضمار (لا يغني) أي اغناء مبتدأ (من الحق) أي الامر الثابت في نفس الامر الذي هو حقيقة الشيء وذاته بحيث يكون الظن بدله والظن انما يعتبر في العمليات لا في العلميات ولا سيما الاصولية (شيأ) أي من الاغناء عن أحد من الخلق فانه لا يؤدي أبدا الى الجزم بالعلم بالشيء على ما هو عليه في نفس الامر فهو ممنوع في أصول الدين فان المقصود فيها تحقيق الامر على ما هو عليه في الواقع وأما الفروع فان المكلف به فيها هو الظن لكن بشرطه المأذون فيه وهو رده الى الاصول المستنبط منها لعجز الانسان عن القطع في جميع الفروع

تنبيهاعلى عجزه وافتقاره الى الله تعالى ليقبل عليه ويتبرأ من حوله وقوته ليكشف له عن الحقائق ولما أن أصروا على الهوى بعد مجىء الهدى سبب عن ذلك قوله تعالى (فأعرض) أى بأشرف الرسل (عمن تولى) أى كاف نفسه خلاف مايدعو اليه العقل والفطرة الاولى (عن ذكرنا) أى القرآن الذى أنزلناه فلم يتله ولم يتدبر معانيه (ولم يرد) أى فى وقت من الاوقات (الا الحياة الدنيا) أى الحاضرة لتقيده بالمحسوسات كالبهائم مع العمى عن دناءتها وحقارتها قال الجلال المحلى وهذا قبل الامر بالجهاد قال الرازى وأكثر المفسرين يقولون بأن كل مافى القرآن من قوله تعالى فأعرض منسوخ بآية القتال وهو باطل لان الامر بالاعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ بها وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم فى الاول كان مأمورا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه بأباطيلهم أمر بازالة شبههم والجواب عن أباطيلهم وقيل له وجادلهم بالتى هى أحسن ثم لما لم ينفع قال له ربه أعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان فانهم لا ينتفعون به ولا يتبعون الحق وقاتلهم والاعراض عن المناظرة شرط لجواز المقاتلة فكيف يكون منسوخابها (ذلك) أى الامر المتناهى فى الجهل والقباحة (مبلغهم) أى نهايةبلوغهم وموضع بلوغهم والحاصل لهم وتهكم بهم بقوله تعالى (من العلم) أى غايتهم من العلم أنهم آثروا الدنيا على الآخرة والجملة اعتراض مقرر لقصور همتهم على الدنيا وقوله تعالى (ان ربك) أى المحسن اليك بالرسالة (هو أعلم) أى عالم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) أى ظاهرا وباطنا تعليل للامر بالاعراض أى انما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب فلا تتعب نفسك فى دعوتهم اذما عليك الا البلاغ وقد بلغت لان النبى صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب للقلوب فأتى على ترتيب الاطباء فى أن المرض اذا أمكن اصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء وما أمكن اصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوى ثم اذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا الى الحديد والكى كما قيل آخر الدواء الكى فالنبى صلى الله عليه وسلم أولا أمر القلوب بذكر الله تعالى فقط فان بذكر الله تطمئن القلوب كما أن بالغذاء تطمئن النفوس والذكر غذاء القلوب ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أولا قولوا لا اله الا الله أمر بالذكر فانتفع مثل أبى بكر ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل وقال أولم يتفكروا وقل انظروا أفلا ينظرون الى غير ذلك فلما لم ينتفعوا أتى بالوعيد والتهديد فلما لم ينفعهم قال أعرض عن المعالجة واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح (فان قيل) ان الله تعالى بين أن غايتهم ذلك فى العلم ولا يكلف الله تعالى نفسا الا وسعها والمجنون الذى لا علم له أو الصبى الذى لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله تعالى (أجيب) بأنه ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكر الله فكان عدم علمهم لعدم قبولهم العلم وانما قدر الله تعالى توليهم ليضاف الجهل الى ذلك فيتحقق العقاب (ولله) أى الملك الاعظم وحده (مافى السموات ومافى الارض) أى من الذوات والمعانى فيشمل ذلك السموات والارض معترض بين الآية الاولى وبين قوله تعالى (ليجزى الذين أساؤا) أى بالضلال (بما عملوا) أى بسببه أو بجنسه امابواسطتك بسيوفك وبسيوف اتباعك اذا أذنت لكم

فى القتال واما بغير ذلك بالموت حتف الانف تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ثم بعذاب الآخرة على جميع ذنوبهم من غير أن يكون عجل لهم فى الدنيا شئ ينقص بسببه عذاب الآخرة * (تنبيه) * اللام فى ليجزى يجوز أن تتعلق بقوله تعالى بمن ضل وبمن اهتدى واللام للصيرورة أى عاقبة أمرهم جميعا للجزاء بما عملوا قال معناه الزمخشرى وأن تتعلق بما دل عليه قوله تعالى أعلم بمن ضل أى حفظ ذلك ليجزى قاله أبو البقاء (ويجزى) أى ويثيب ويكرم (الذين أحسنوا) أى على ثباتهم على الدين وصبرهم عليه وعلى أذى أعدائهم (بالحسنى) أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة وبين المحسنين بقوله تعالى (الذين يجتنبون) أى يكلفون أنفسهم ويجهدونها على أن يتركوا (كبائر الاثم) أى ما عظم الشارع اثمه بعد تحريمه بالوعيد والحد وقرأ حمزة والكسائى بكسر الباء الموحدة وبعدها ياء ساكنة والباقون بفتح الموحدة وبعدها ألف وبعد الالف همزة مكسورة وعطف على كبائر قوله تعالى (والفواحش) والفاحشة من الكبائر ما كرهه الطبع وانكره العقل واستخبثه الشرع والكبيرة صفة عائدة الى الكيفية وقوله تعالى (الا اللمم) فيه أوجه أحدها وهو المشهور أنه استثناء منقطع أى لكن اللمم لانه الصغائر فلم تندرج فيما قبلها ثانيها أنه صفة والا بمعنى غير كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا أى كبائر الاثم والفواحش غير اللمم ثالثها أنه متصل وهذا عند من يفسر اللمم بغير الصغائر قالوا ان اللمم من الكبائر والفواحش قالوا ان معنى الآية الا أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب ويقع الوقعة ثم ينتهى وهو قول أبى هريرة ومجاهد والحسن ورواه عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال عبد الله ابن عمرو بن العاص اللمم مادون الشرك قال السدى قال أبو صالح سئلت عن قول الله عز وجل الا اللمم فقلت هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال لقد اعانك عليها ملك كريم وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال ما رأيت شيأ أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ولمسلم كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والاذنان زناهما الاستماع واللسان زناه النطق واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه * (تنبيه) * ذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف الى انقسام المعاصى الى كبائر وصغائر وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة وقد اختلف فى ضبط الكبيرة بالحد فقال جمع هى ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وقال جمع هى المعصية الموجبة للحد والاول أوجه لانهم عدوا الربا وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ونحوها من الكبائر ولا حد فيها وقال امام الحرمين هى كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وأما تعريفها بالعد فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الى السبعين أقرب وقال سعيد بن جبير هى الى السبعمائة أقرب أى باعتبار أصناف أنواعها وما عدا المحدود من المعاصى فمن الصغائر ولا بأس بذكر شئ من النوعين

فمن الاول تقديم الصلاة أو تأخيرها عن وقتها بلا عذر ومنع الزكاة وترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ونسيان القرآن واليأس من رحمة الله تعالى وأمن مكر الله تعالى وقتل النفس عمدا أو شبه عمد والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم والافطار في رمضان من غير عذر وعقوق الوالدين والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب الخمر وان قل والسرقة والغصب وقيده جماعة بما يبلغ ربع مثقال كما يقطع به في السرقة وكتمان الشهادة بلا عذر وضرب المسلم بغير حق وقطع الرحم والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمدا وسب الصحابة وأخذ الرشوة والسحر والنميمة وأما الغيبة فان كانت في أهل العلم وحملة القرآن فهي كبيرة والا فصغيرة ومن الصغائر النظر المحرم وكذب لا حد فيه ولا ضرر والاشراف على سوآت الناس وهجر المسلم فوق ثلاث والضحك في الصلاة المفروضة والنياحة وشق الجيب في المصيبة والتبختر في المشي والجلوس بين الفساق ايناسا لهم وادخال مجانين وصبيان ونجاسة يغلب تنجيسهم المسجد واستعمال نجاسة في بدن أو ثوب لغير حاجة والاصرار على صغيرة من نوع أو أنواع يصيرها كبيرة الا أن تغلب طاعاته معاصيه كما أوضحت ذلك في شرح المنهاج وغيره (ان ربك) أي المحسن اليك بارسالك رحمة للعالمين والتخفيف عن أمتك (واسع المغفرة) يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ويغفر الكبائر بالتوبة وله ان يغفر ما شاء من الذنوب ما عدا الشرك صغيرها وكبيرها كما قال تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء بخلاف غيره من الملوك فانه لا يغفر لمن تكررت ذنوبه اليهم وان صغرت قال البيضاوي ولعله عقب به وعيد المسيئين لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى اهـ ونزل فيمن كان يقول صلاتنا صيامنا حجنا (هو أعلم بكم) أي بذواتكم وأحوالكم منكم بأنفسكم (اذ) أي حين (أنشأكم من الارض) أي التي طبعها طبع الموت البرد واليبس بانشاء أبيكم آدم عليه السلام منها وتهيئتكم للتكوين بعد ان لم يكن فيكم وأنتم تراب قابلية للحياة بقوة قريبة ولا بعيدة أصلا غير التراب الذي يصلح لتكوينكم منه والذي لا يصلح (واذ) أي وحين (أنتم أجنة) أي مستورون (في بطون أمهاتكم) فهو يعلم اذ ذاك ما أنتم صائرون اليه من خير وشر وان علمتم مدة من العمر بخلافه لانه يعلم ما جبلكم عليه من ذلك وقرأ حمزة والكسائي في الوصل بكسر الهمزة والباقون بضمها وكسر حمزة الميم وفتحها الباقون وأما في الابتداء بالهمزة فالجميع بضمها (فلا تزكوا) أي تمدحوا بالزكاة وهي البركة والطهارة عن الدناءة (أنفسكم) أي حقيقة بأن يثني الانسان على نفسه فان تزكيته لنفسه قال القشيري من علامات كونه محجوبا عن الله تعالى أي من مدح نفسه على سبيل الاعجاب أما على سبيل الاعتراف بالنعمة فحسن أو مجازا بأن يثني على غيره من اخوانه وانه كثيرا ما يثني بشئ فيظهر خلافه وربما حصل له الاذى بسببه وان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا باع أو ذراع الحديث ولذلك علل بقوله تعالى (هو أعلم) أي منكم ومن جميع الخلق (بمن اتقى) أي فانه يعلم المتقي وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب أبيكم آدم عليه السلام فمن

جاهد نفسه حتى حصل منه تقوى فهو يوصله فوق ما يؤمل من الثواب فى الدارين فكيف بمن صارت له التقوى وصفا ثابتا * ولما بين جهل المشركين فى عبادة الاصنام ذكر واحدا منهم بسوء فعله فقال تعالى (أفرأيت الذى تولى) أى عن اتباع الحق والثبات عليه قال مجاهد وأبو زيد ومقاتل نزلت فى الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبى صلى الله عليه وسلم على دينه فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الاشياخ وضللتهم فقال انى خشيت عذاب الله تعالى فضمن الذى عاتبه ان هو أعطاه كذا من ماله ورجع الى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد الى الشرك وأعطى الذى عيره بعض ذلك الذى ضمن ومنعه تمامه فأنزل الله تعالى أفرأيت الذى تولى أى أدبر عن الايمان (وأعطى قليلا) أى من المال المسمى (وأكدى) أى منع الباقى مأخوذ من الكدية أرض صلبة كالصخرة تمنع حافر البئر اذا وصل اليها من الحفر فأكدى أصله من أكدى الحافر اذا حفر شيأ فصادف كدية منعته من الحفر ومثله أجبل اذا صادف جبلا منعه من الحفر وكديت أصابعه كلت من الحفر ثم استعمل فى كل من طلب شيأ فلم يصل اليه أولم يتمه ولمن طلب شيأ ولم يبلغ آخره قال الحطيئة

وأعطى قليلا ثم أكدى عطاءه * ومن يفعل المعروف فى الناس يحمد

وقال السدى نزلت فى العاصى بن وائل السهمى وذلك انه ربما وافق النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الامور وقال محمد بن كعب القرظى نزلت فى أبى جهل وذلك انه قال والله ما يأمرنا محمد الا بمكارم الاخلاق فذلك قوله تعالى وأعطى قليلا وأكدى أى لم يؤمن به ومعنى أكدى قطع وروى ان عثمان رضى الله تعالى عنه كان يعطى ماله فى الخير فقال عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو أخوه من الرضاعة يوشك أن لا يبقى لك شئ فقال عثمان ان لى ذنوبا وخطايا وانى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت وقوله تعالى (أعنده علم الغيب) أى ما غاب هو المفعول الثانى لرأيت بمعنى أخبرنى والمفعول الاول محذوف اقتصارا لاعطى (فهو) أى فتسبب عن ذلك أنه (يرى) اى يعلم ان صاحبه يتحمل عنه ذنوبه (أم) أى بل (لم ينبأ) أى يخبر اخبارا عظيما متتابعا (بما فى صحف موسى) أى التوراة المنسوبة اليه بانزالها عليه وكذا ما تبعها من أسفار الانبياء الذين جاؤا بعده بتقريرها وقدم صحف موسى عليه السلام على قوله (وابراهيم) أى وصحفه لان كتاب موسى عليه السلام أعظم كتاب بعد القرآن مع انه موجود بين الناس تمكن مراجعته ثم مدح ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى (الذى وفى) أى أتم ما أمر به من ذلك تبليغ الرسالة واستقلاله باعباء النبوة وقيامه بأضيافه وخدمتهم اياه بنفسه وانه كان يخرج كل يوم فيمشى فرسخا يرتاد ضيفا فان وافقه اكرمه والانوى الصوم وعن الحسن ما أمره الله تعالى بشئ الا وفى به وصبر على ما امتحن به وما قلق شيأ من قلق وصبر على حر ذبح الولد وعلى حر النار ولم يستعن بمخلوق بل قال لجبريل عليه السلام لما قال له ألك حاجة قال أما اليك فلا وقال الضحاك وفى المناسك وروى عن النبى

صلى

صلى الله عليه وسلم انه قال ابراهيم الذى وفى أربع ركعات من أول النهار وهى صلاة الضحى
وروى الا أخبركم لم سمى الله خليله الذى وفى كان يقول اذا أصبح وأمسى فسبحان الله حين
تمسون وحين تصبحون الى تظهرون وقيل وفى سهام الاسلام وهى ثلاثون عشرة فى التوبة
التائبون وعشرة فى الاحزاب ان المسلمين وعشرة فى المؤمنون قد أفلح المؤمنون وخص هذين
النبيين لان الموعودين من بنى اسرائيل اليهود والنصارى يدعون متابعة موسى عليه السلام
ومن العرب يدعون متابعة ابراهيم عليه السلام ومن عداهم لا متمسك لهم ولا سلف فى نبوة
محققة ولا شريعة محفوظة وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها
ثم فسر تعالى الذى فى الصحف واستأنف بقوله تعالى (أن لا تزر) أى تأثم وتحمل (وازرة) أى
نفس بلغت مبلغا تكون فيه حاملة لوزر (وزر أخرى) أى حملها الثقيل من الاثم وفى هذا ابطال
قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الاثم وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما
قال كانوا قبل ابراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره وكان الرجل يقتل بقتل أبيه
وابنه وأخيه وعمه وخاله وامرأته والعبد بسيده حتى جاءهم ابراهيم عليه السلام فنهاهم عن
ذلك وبلغهم عن الله عز وجل أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولما نفى أن يضره اثم غيره نفى أن ينفعه
سعى غيره بقوله تعالى (وأن ليس للانسان) كائنا من كان (الا ما سعى) فلا بد أن يعلم الحق فى أى
جهة فيسعى فيه ودعاء المؤمنين للمؤمن من سعيه بموادته ولو بموافقته لهم فى الدين فقط وكذا
الحج عنه والصدقة ونحوها وأما الولد فواضح فى ذلك وأما ما كان بسبب العلم والصدقة
ونحوها فكذلك وتضحية النبى صلى الله عليه وسلم عن أمته أصل كبير فى ذلك فان من تبعه
فقد وداده وهو أصل فى التصدق عن الغير واهداء ماله من الثواب فى القراءة ونحوها اليه وقال
ابن عباس رضى الله عنهما هذا منسوخ الحكم فى هذه الشريعة أى وانما هو فى صحف موسى
وابراهيم عليهما السلام بقوله ألحقنا بهم ذرياتهم فأدخل الابناء الجنة بصلاح الآباء وقال
عكرمة ان ذلك لقوم موسى وابراهيم عليهما السلام وأما هذه الامة فلهم ما سعوا وما سعى لهم
غيرهم لما روى ان امرأة رفعت صبيا لها فقالت يا رسول الله ألهذا حج فقال نعم ولك أجر وقال
رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ان أمى انسلت نفسها فهل لها أجر ان تصدقت عنها قال نعم قال
الشيخ تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية من اعتقد ان الانسان لا ينتفع الا بعمله فقد خرق
الاجماع وذلك باطل من وجوه كثيرة أحدها ان الانسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل
الغير ثانيها ان النبى صلى الله عليه وسلم يشفع لاهل الموقف فى الحساب ثم لاهل الجنة
فى دخولها ثم لاهل الكبائر فى الخروج من النار وهذا انتفاع بعمل الغير ثالثها ان كل
نبى وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير رابعها ان الملائكة يدعون ويستغفرون لمن
فى الارض وذلك منفعة بعمل الغير خامسها ان الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط
بمحض رحمته وهذا انتفاع بغير عملهم سادسها ان أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم
وذلك انتفاع بمحض عمل الغير سابعها قال تعالى فى قصة الغلامين اليتيمين وكان أبوهما صالحا

فانتفعا بصلاح أبيهما وليس هو من سعيهما ثامنها ان الميت ينتفع بالصدقة عنه و بالعتق بنص السنة والاجماع وهو من عمل الغير تاسعها ان الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير عاشرها ان الحج المنذور أو الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير حادى عشرها ان المدين الذى امتنع صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة وقضى دين الآخر على ابن أبى طالب وانتفع بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير ثانى عشرها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لمن صلى وحده ألا رجل يتصدق على هذا فيصلى معه فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير ثالث عشرها أن الانسان تبرأ ذمته من ديون الخلق اذا قضاها قاض عنه وذلك انتفاع بعمل الغير رابع عشرها ان من عليه تبعات ومظالم اذا حالل منها سقطت عنه وهذا انتفاع بعمل الغير خامس عشرها ان الجار الصالح ينفع فى المحيا والممات كما جاء فى الاثر وهذا انتفاع بعمل الغير سادس عشرها ان جليس أهل الذكر يرحم بهم وهو لم يكن منهم ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له والاعمال بالنيات فقد انتفع بعمل غيره سابع عشرها الصلاة على الميت والدعاء له فى الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحى عليه وهو عمل غيره ثامن عشرها ان الجمعة تحصل باجتماع العدد وكذلك الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض تاسع عشرها ان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وقال تعالى ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض فقد دفع الله تعالى العذاب عن بعض الناس بسبب بعض وذلك انتفاع بعمل الغير عشروها ان صدقة الفطر تجب عن الصغير وغيره ممن يمونه الرجل فينتفع بذلك من يخرج عنه ولا سعى لهما حادى عشريها ان الزكاة تجب فى مال الصبى والمجنون ويثاب على ذلك ولا سعى له . ومن تأمل العلم وجد من انتفاع الانسان بما لم يعمله مالا يكاد يحصى فكيف يجوز أن تتأول الآية على خلاف صريح الكتاب والسنة واجماع الامة والمراد بالانسان العموم وقال الربيع بن أنس ليس للانسان يعنى الكافر وأما المؤمن فله ماسعى وماسعى له وقيل ليس للكافر من الخير الاما عمله يثاب عليه فى الدنيا حتى لا يبقى له فى الآخرة خير وروى ان عبد الله بن أبى كان أعطى العباس قميصا ألبسه اياه فلما مات أرسل النبى صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفن فيه فلم تبق له حسنة فى الآخرة يثاب عليها (وان سعيه) أى من خير وشر (سوف يرى) أى فى ميزانه من غير شك يوم القيامة بوعد لا خلف فيه وان طال المدى من أريته الشئ أى يعرض عليه ويكشف له (فان قيل) العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه (أجيب) بأنه يرى على صورة جميلة ان كان العمل صالحا قال الرازى وذلك على مذهبنا غير بعيد فان كل موجود يرى والله تعالى قادر على اعادة كل ما عدم فبعيد الفعل فيرى وفيه بشارة للموحد وذلك ان الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غما (ثم يجزاه) أى السعى (الجزاء الاوفى) أى الاتم الاكمل والمعنى ان الانسان يجزى جزاء سعيه بالجزاء الاوفى يقال جزيت فلانا سعيه وبسعيه قال الرازى

الجزاء الاوفى يليق بالمؤمنين الصالحين لان جزاء الطالح وافر قال تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وذلك ان جهنم ضررها أكثر من نفع الآثام فهى فى نفسها أوفر (وان الى ربك) أى المحسن اليك لا الى غيره (المنتهى) أى الانتهاء برجوع الخلائق ومصيرهم اليه فيجازيهم بأعمالهم وقيل منه ابتداء المنة واليه انتهاء الآمال وروى أبو هريرة مرفوعا تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق فان الله تعالى لا يحيط به الفكر وفى رواية لا تتفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره قال القرطبى ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول له من خلق ربك فاذا بلغ ذلك فليستعذ بالله تعالى ولقد أحسن من قال

ولا تفكرن فى ذى العلا عز وجهه * فانك تردى ان فعلت وتخذل

ودونك مخلوقاته فاعتبر بها * وقل مثل ما قال الخليل المبجل

وقيل المراد من الآية التوحيد وفى المخاطب وجهان أحدهما انه عام تقديره الى ربك أيها السامع أو العاقل والثانى انه خطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم فعلى الاول يكون تهديدا وعلى الثانى يكون تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم فعلى الاول تكون اللام فى المنتهى للعهد المعهود فى القرآن وعلى الثانى تكون للعموم أى الى ربك كل منتهى وقوله تعالى (وانه هو) أى لا غيره (أضحك وأبكى) يدل على ان كل ما يعمله الانسان فبقضاء الله تعالى وخلقه حتى الضحك والبكاء وروى انه صلى الله عليه وسلم مر على قوم من أصحابه وهم يضحكون فقال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله يقول لك وانه هو أضحك وأبكى أى قضى أسبابهما فرجع اليهم صلى الله عليه وسلم فقال ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل فقال ائت هؤلاء فقل لهم الله تعالى يقول هو أضحك وأبكى أى قضى أسباب الضحك والبكاء وقال بسام بن عبد الله أضحك اسنانهم وأبكى قلوبهم وأنشد يقول

السن تضحك والاحشاء تحترق * وانما ضحكها زور ومختلق

يا رب باك بعين لا دموع لها * ورب ضاحك سن ما به رمق

وقال مجاهد والكلبى أضحك أهل الجنة فى الجنة وأبكى أهل النار فى النار وقال الضحاك أضحك الارض بالنبات وأبكى السماء بالمطر وقال عطاء بن أبى مسلم يعنى أفرح وأحزن لان الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء وقيل ان الله تعالى خص الانسان بالضحك والبكاء من سائر الحيوان وقيل القرد وحده يضحك ولا يبكى وان الابل وحدها تبكى ولا تضحك وقال يونس بن الحسين سئل طاهر المقدسى أتضحك الملائكة فقال ما ضحكوا ولا كل من دون العرش منذ خلقت جهنم وعن عائشة قالت لا والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ان الميت يعذب ببكاء أحد ولكنه قال ان الكافر يزيده الله ببكاء أهل عذابا وان الله تعالى هو أضحك وأبكى *(تنبيه)* قوله تعالى وانه هو أضحك وأبكى وما بعده يسميه البيانيون الطباق المتضاد

وهو نوع من البديع وهو أن يذكر ضدان أو نقيضان أو متنافيان بوجه من الوجوه وأضحك وأبكى لا مفعول لهما في هذا الموضع لانهما سيقا لقدرة الله تعالى لا لبيان المقدور فلا حاجة الى المفعول كقول القائل فلان بيده الاخذ والعطاء يعطى ويمنع ولا يريد ممنوعا ومعطى واختار هذين الموضعين المذكورين لانهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبائعيين بين لاختصاص الانسان بالضحك والبكاء وجها ولا سببا واذا لم يعلل بأمر فلا بد له من موجد وهو الله تعالى بخلاف الصحة والسقم فانهم يقولون سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ومما يدل على ذلك انهم اذا عللوا الضحك قالوا القوة التعجب وهو باطل لان الانسان ربما بهت عند رؤية الامور العجيبة ولا يضحك وقيل لقوة الفرح وليس كذلك لان الانسان قد يبكى لقوة الفرح كما قال بعضهم

هجم السرور على حتى انه * من عظم ما قد سرني أبكاني

(وانه هو) أى لا غيره (أمات وأحيى) وان رأيتم أسبابا ظاهرة فانه لا عبرة بها في نفس الامر بل هو الذى خلقها أى أمات فى الدنيا وأحيا فى البعث وقال القرطبى قضى أسباب الموت والحياة وقيل أمات الآباء وأحيا الابناء وقيل أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالايمان (وانه خلق الزوجين) ثم فسرهما بقوله تعالى (الذكر والانثى) فانه لو كان ذلك فى يد غيره لمنع البنات لانها مكروهة لغالب الناس وقوله تعالى (من نطفة اذا تمنى) أى تصب يشمل سائر الحيوانات لان ذلك مختص بآدم وحواء عليهما السلام لانهما ما خلقا من نطفة وهذا أيضا تنبيه على كمال القدرة لان النطفة جسم متناسب الاجزاء ويخلق الله تعالى منها أعضاء مختلفة وطباعا متباينة وخلق الذكر والانثى منها أعجب ما يكون ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعى خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى وانه خلق ولم يقل وانه هو خلق كما قال تعالى وانه هو أضحك وأبكى (أجيب) بأن الضحك والبكاء ربما يتوهم أنهما بفعل الانسان والاماتة والاحياء وان كان ذلك التوهم أبعد فيهما لكن ربما يقول به جاهل كما قال من حاج ابراهيم عليه السلام انا أحيى وأميت فأكد ذلك بالفصل وأما خلق الذكر والانثى من النطفة فلا يتوهم احد أنه يخلق أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى الى قوله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى حيث كان الاغناء عندهم غير مستند الى الله تعالى وكان فى معتقدهم ان ذلك بفعلهم كما قال قارون انما أوتيته على علم عندى ولذلك قال هو رب الشعرى فأكد فى مواضع استبعادهم الى الاسناد ولم يؤكد فى غيره (وان عليه) أى خاصا به علما وقدرة (النشأة) أى الحياة (الاخرى) للبعث يوم القيامة بعد الحياة الاولى (فان قيل) الاعادة لا تجب على الله تعالى فما معنى عليه (أجيب) بأنه عليه بحكم الوعد فانه قال انا نحن نحيى الموتى نعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وبعدها ألف ممدودة قبل الهمزة والباقون بسكون الشين وبعدها الهمزة المفتوحة واذا وقف حمزة نقل حركة

الهمزة الى الشين (وانه هو) أى وحده من غير نظر الى سعى ساع ولا غيره (أغنى) قال أبو صالح أغنى الناس بالاموال (وأقنى) أعطى القنية وأصول الاموال وما يدخرونه بعد الكفاية وقال الضحاك أغنى بالذهب والفضة وصنوف الاموال وأقنى بالابل والبقر والغنم وقال الحسن وقتادة اخدم وقال ابن عباس أغنى وأقنى أعطى فارضى وقال مجاهد ومقاتل اقنى أرضى بما أعطى وقنع قال الراغب وتحقيقه انه جعل له قنية من الرضا وقال سليمان التيمى أغنى نفسه وأفقر خلقه اليه وقال ابن زيد أغنى أكثر وأقنى أقل وقرأ يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر وقال الاخفش أقنى أفقر وقال ابن كيسان أولد وقال الزمخشرى أقنى أعطى القنية وهى المال الذى تأثلته وعزمت على أن لا يخرج من يدك * (تنبيه) * حذف مفعولا أغنى وأقنى لان المراد نسبة هذين الفعلين اليه وكذلك باقيها وألف أقنى منقلبة عن ياء لانه من القنية قال الشاعر * الا ان بعد العدم للمرء قنية * ويقال قنيت كذا وأقنيته قال الشاعر * قنيت حياتى عفة وتكرما * (وانه هو) أى لا غيره (رب الشعرى) أى رب معبودهم وكانت خزاعة تعبد الشعرى وأول من سن ذلك رجل من اشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وقال لان النجوم تقطع السماء عرضا والشعرى تقطعها طولا فهى مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة وحمير وأبو كبشة أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته وبذلك كان مشركو قريش يسمون النبى صلى الله عليه وسلم بابن أبى كبشة حين دعا الى الله تعالى وخالف أديانهم تشبيها بذلك الرجل فى أنه أحدث دينا غير دينهم والشعرى فى لسان العرب كوكبان تسمى أحدهما الشعرى العبور وهى المرادة فى الآية الكريمة وهى تطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ويقال لها مرزم الجوزاء وتسمى كاب الجبار أيضا وتسمى الشعرى اليمانية والثانية الشعرى الغميصاء وهى التى فى الذراع والمجرة بينهما وتسمى الشامية وسبب تسميتها بالغميصاء على مازعمه العرب انهما كانا أختين أو زوجتين لسهيل فانحدر سهيل الى اليمن فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميت العبور وأقامت الغميصاء تبكى حتى غمصت عينها ولذلك كانت أخفى من العبور وكان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم (وأنه أهلك عادا الاولى) وهم قوم هود عليه السلام هلكوا بريح صرصر والاخرى قوم صالح وقيل الاخرى ارم وقيل الاولى أول الخلق هلاكا بعد قوم نوح وقرأ نافع وأبو عمرو بتشديد اللام بعد الدال المفتوحة نقلا وهمز قالون الواو وبعد اللام همزة ساكنة والباقون بتنوين الدال وكسر التنوين وسكون اللام وبعدها همزة مضمومة فاذا قرأ القارئ عادا الاولى لقالون وأبى عمرو فله فى الوصل أى وصل عادا بالاولى وجه واحد وهو النقل المذكور وقالون على أصله بالهمزة كما ذكر فاذا وقف على عادا وابتدأ بلولى فله الابتداء بهمزة الوصل وهو ألولى وله أيضا الابتداء بغير همز الوصل وهو لولى وقالون يهمز الواو فى الوجهين الاولين ولم يهمز فى الوجه الثالث الذى هو الاصل ووافقهما ورش فى الاوجه المذكورة فى الوصل

والابتداء لافي الوجه الثالث الذي هو الاصل فانه ليس من مذهبه الا النقل (وثمودا) وهم قوم صالح أهلكهم الله تعالى بصيحة (فما أبقى) منهم أحدا وقرأ عاصم وحمزة بغير تنوين للدال في الوصل وسكون الدال في الوقف والباقون بالتنوين في الوصل والوقف على الالف (وقوم نوح) أي أهلكهم لاجل ظلمهم بالتكذيب (من قبل) أي قبل الفريقين (انهم) أي قوم نوح (كانوا) أي بما لهم من الاخلاق التي هي كالجبلات التي لا انفكاك عنها (هم) أي خاصة (أظلم) أي من الطائفتين المذكورتين (وأطغى) أي وأشد تجاوزا في الظلم وعلوا واسرافا في المعاصي وتجبرا وعتوا التمادي دعوة نوح عليه السلام قريبا من ألف سنة ولانهم أطول أعمارا وأشد أبدانا وكانوا مع ذلك ملء الارض روي ان الرجل منهم كان يأخذ بيد ابنه فينطلق به الى نوح عليه السلام فيقول احذر هذا فانه كذاب وان أبي قد مشى بي الى هذا وقال لي ماقلت لك فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية ابيه ولهذا قال نوح عليه السلام رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وقوله تعالى (والمؤتفكة) منصوب بقوله تعالى (أهوى) وقدم لاجل الفواصل والمراد بالمؤتفكة قرى قوم لوط رفعها الى عنان السماء على جناح جبريل عليه السلام ثم أهواها الى الارض أي أسقطها وأتبعها بحجارة النار الكبريتية وهو قوله تعالى (فغشاها) أي أتبعها ماغطاها فكان لها بمنزلة الغشاء وهو بقوله تعالى (ماغشى) أي أمرا عظيما من الحجارة المنضودة المسومة وغيرها مالا تسع العقول وصفه (فبأي آلاء) أي أنعم (ربك) أي المحسن اليك (تتمارى) أي تشك أيها الانسان وقيل أراد الوليد بن المغيرة وقال ابن عباس تتمارى أي تكذب وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي تشك في اجالة الخواطر في فكرك في ارادة هداية جميع قومك بحيث لاتريد ان أحدا منهم يهلك وقد حكم ربك باهلاك كثير منهم لما اقتضته حكمته فكان بعض خواطرك في تلك الاجالة يشكك بعضها بعضا (هذا) أي النبي صلى الله عليه وسلم (نذير) أي محذر بليغ التحذير (من النذر الاولى) أي من جنسهم أي رسول كالرسل قبله أرسل اليكم كما أرسلوا الى أقوامهم وقال تعالى الاولى على تأويل الجماعة أو هذا القرآن نذير من النذر الاولى أي انذار من جنس الانذارات الاولى التي أنذر بها من قبلكم (ازفت الآزفة) أي قربت الموصوفة بالقرب في قوله تعالى اقتربت الساعة وهو يوم القيامة (ليس لها من دون الله) أي من أدنى رتبة من رتبة الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلما وقوله تعالى (كاشفة) يجوز أن يكون وصفا وأن يكون مصدرا فان كان وصفا احتمل أن يكون التأنيث لاجل انه وصف لمؤنث محذوف تقديره نفس كاشفة أو حال كاشفة أي مبينة متى تقوم كقوله تعالى لايجليها لوقتها الا هو أو ليس لها نفس كاشفة أي قادرة على كشفها اذا وقعت الا الله تعالى غير أنه تعالى لايكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير وان كانت مصدرا فهي بمعنى الكشف كالعافية والمعنى ليس لها من دون الله كشف أي لايكشف عنها ولايظهرها غيره (أفمن هذا الحديث) قال أكثر المفسرين المراد بالحديث القرآن

العظيم

العظيم الذى يأتى على سبيل التجدد بحسب الوقائع والحاجات (تعجبون) أنكارا وهو فى غاية ما يكون من ترقيق القلوب وقرأ أبو عمرو بادغام المثلثة فى التاء المثناة بخلاف عنه (وتضحكون) أى استهزاء من هذا الحديث وتجددون ذلك فى كل وقت (ولا تبكون) أى كما هو حق من يسمعه لما فيه من الوعد والوعيد وغير ذلك وقال الرازى يحتمل أن يكون ذلك اشارة الى حديث ازفت الآزفة فانهم كانوا يتعجبون من حشر الاجساد والعظام البالية وقوله تعالى (وأنتم سامدون) جملة مستأنفة أخبر الله تعالى عنهم بذلك ويحتمل أن تكون حالا أى انتفى عنكم البكاء فى حال كونكم سامدين واختلف فى معنى السمود فقيل هو الاعراض والغفلة عن الشئ أى وأنتم معرضون غافلون عما يطلب منكم وقيل هو اللهو يقال دع عنا سمودك أى لهوك قاله الوالبى والعوفى عن ابن عباس وقال الشاعر

الأيها الانسان انك سامد * كانك لا تفنى ولا انت هالك

فهذا بمعنى لاه لاعب وقيل هو الجمود وقيل هو الاستكبار قال الشاعر

رمى الحدثان نسوة آل سعد * بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضا * ورد وجوههن البيض سودا

فهذا بمعنى الجمود والخشوع وقال عكرمة وأبو عبيدة السمود الغناء بلغة حمير يقولون يا جارية اسمدى لنا أى غنى فكانوا اذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وقال مجاهد اشرون وقال الضحاك غضاب يتبرطمون وقال الراغب السامد اللاهى الرافع رأسه من قولهم بعير سامد فى سيره وقال الحسن السامد الواقف للصلاة قبل وقوف الامام لما روى أنه صلى الله عليه وسلم خرج والناس ينتظرونه قياما فقال مالى أراكم سامدين وتسميد الارض ان يجعل فيها السماد وهو سرجين ورماد وقوله تعالى (فاسجدوا) أى اخضعوا اخضوعا كثيرا بالسجود (لله) أى الملك الاعظم يحتمل أن يكون المراد به سجود التلاوة وأن يكون المراد به سجود الصلاة (واعبدوا) أى اشتغلوا بكل أنواع العبادة ولم يقل واعبدوا الله اما لكونه معلوما من قوله تعالى فاسجدوا لله واما لان العبادة فى الحقيقة لا تكون الا لله ويقوى الاحتمال الاول ماروى عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم سجد فى النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس وعن عبد الله بن مسعود قال أول سورة أنزلت فيها سجدة النجم قال فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه الا رجلا شيخا من قريش أخذ كفا من حصا أو تراب فرفعه الى جبهته وقال يكفينى هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد ذلك قتل كافرا وهو أمية بن خلف كما فى بعض الروايات وروى زيد بن ثابت قال قرأت على النبى صلى الله عليه وسلم والنجم فلم يسجد فيها وهذا يدل على ان سجود التلاوة غير واجب قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان الله تعالى لم يكتبها علينا الا أن نشاء وهو قول الشافعى وأحمد رضى الله عنهما أى فهى مستحبة وذهب قوم الى وجوبها على القارئ والمستمع جميعا وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى وذهب قوم الى انها فى المفصل غير مستحبة ومارواه البيضاوى

تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والنجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحد به حديث موضوع

(سورة القمر وتسمى اقتربت مكية)

الا سيهزم الجمع ويولون الدبر الآيات وهى خمس وخمسون آية وثلثمائة واثنان وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفا

(بسم الله) أى الذى أحاط علمه فتمت قدرته (الرحمن) الذى وسعت رحمته كل شئ فعمت الشقى والسعيد نعمته (الرحيم) الذى خص باتمام نعمته من اصطفاه فاسعدتهم رحمته (اقتربت الساعة) دنت القيامة وفى أول هذه السورة مناسبة لآخر ماقبلها وهو قوله تعالى ازفت الآزفة فكأنه أعاد ذلك مستدلا عليه بقوله تعالى ازفت الآزفة فهو حق اذ القمر انشق وقوله تعالى (وانشق القمر) ماض على حقيقته وهو قول عامة المسلمين الامن لا يلتفت الى قوله وقد صح فى الاخبار ان القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين وعن ابن مسعود قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا وروى أنس بن مالك ان أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما وقال سنان عن قتادة فأراهم انشقاق القمر مرتين وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله لم ينشق بمكة وقال مقاتل انشق القمر ثم التأم بعد ذلك وقيل انشق بمعنى سينشق يوم القيامة وأوقع الماضى موقع المستقبل وهو خلاف الاجماع وقيل انشق بمعنى انفلق عنه الظلام عند طلوعه كما يسمى الصبح فلقا وأنشد النابغة فلما أدبروا ولهم دوى * دعانا عند شق الصبح داع

وانما ذكرت ذلك تنبيها على ضعفه وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش سحركم ابن أبى كبشة فسلوا السفار فسألوهم فقالوا نعم قد رأيناه فأنزل الله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر (وان يروا) أى كفار قريش (آية) أى معجزة له صلى الله عليه وسلم كانشقاق القمر (يعرضوا) عنها (ويقولوا) هذا (سحر مستمر) أى ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم مر الشئ واستمر اذا ذهب مثل قولهم قر واستقر قاله مجاهد وقتادة وقال أبو العالية والضحاك مستمر أى قوى شديد من قولهم مر الحبل اذا صلب واشتد وأمررته اذا أحكمت فتله واستمر الشئ اذا قوى واستحكم وقيل مستمر أى دائم فان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يأتى كل زمان بمعجز فقالوا هذا سحر مستمر دائم لا يختلف بالنسبة الى شئ بخلاف سحر السحرة فان بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل قاله الزمخشرى ومنه قول الشاعر

الا انما الدنيا ليال وأعصر * وليس على شئ قديم بمستمر

وعن حذيفة انه خطب بالمدائن ثم قال الا ان الساعة قد اقتربت وان القمر قد انشق على عهد

نبيكم مستمر دائم مطرد وكل شئ قد انقادت طريقه ودامت حاله قيل فيه قد استمر وقال أبو حيان سبب نزولها ان مشركي قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ووعدوا بالايمان ان فعل ذلك وقال ليلة بدر أي ليلة أربعة عشر في الشهر فسأل ربه فانشق القمر فقالوا سحر مستمر ولم يؤمنوا (وكذبوا) بكون انشقاقه دالا على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وجزموا بالتكذيب عنادا (واتبعوا) أي بمعالجة فطرتهم الاولى المستقيمة في دعائها الى التصديق (أهواءهم) في أنه صلى الله عليه وسلم سحر القمر وأنه خسوف في القمر وظهور شئ في جانب آخر من الجو يشبه نصف القمر وأنه سحر أعيننا وأن القمر لم يصبه شئ فهذه أهواؤهم قال القشيري اذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب لان الله تعالى يلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر والرشد واتباع الرضا مقرون بالتصديق لان الله تعالى ببركات الاتباع للحق يفتح عين البصيرة فيأتي بالتصديق (وكل أمر) أي من أموركم من الخير أو الشر (مستقر) أي بأهله في الجنة أو النار وقال قتادة وكل أمر مستقر فالخير مستقر بأهل الخير والشر مستقر بأهل الشر وقيل مستقر قول المصدقين والمكذبين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعذاب وقيل كل أمر مستقر في علم الله تعالى لا يخفى عليه شئ فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم والانبياء صدقوا وبلغوا كقوله تعالى لا يخفى على الله منهم شئ (ولقد جاءهم) أي أهل مكة في القرآن قبل الانشقاق (من الانباء) أي اخبار اهلاك الامم الماضية المكذبة رسلهم لان الانباء الاخبار العظام التي لها وقع كقول الهدهد وجئتك من سبا بنبا يقين لانه كان خبرا عظيما له وقع وخطر وقال تعالى ان جاءكم فاسق بنبا أي بأمر عظيم له خطر وانما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم و يترتب عليه أمر ذو بال (ما فيه) خاصة (مزدجر) أي عما هم فيه من الباطل ولكن لم يزدجر منهم الا من أراد الله تعالى *(تنبيه)* المزدجر اسم مصدر أي ازدجار أو اسم مكان أي موضع ازدجار والدال بدل من تاء الافتعال وازدجرته وزجرته نهيته بغلظة وما موصولة أو موصوفة وقوله تعالى (حكمة) خبر مبتدا محذوف أو بدل من ما أو من مزدجر (بالغة) أي انها أعظم البلوغ الى أنهى غايات الحكمة لصحتها ووضوحها ففيها مع الزجر ترجئة ومواعظ وأحكام ودقائق (فما تغن) أي تنفع (النذر) أي الانذارات والمنذرون والامور المنذر بها ومنها انما المغني بذلك هو الله تعالى فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن قال البقاعي ولعل الاشارة باسقاط يا تغني باجماع المصاحف من غير موجب في اللفظ الى أنه كما سقطت غاية أحرف الكلمة سقطت ثمرة الانذار وهو القبول *(تنبيه)* يجوز في ما أن تكون استفهامية وتكون في محل نصب مفعولا مقدما أي أي شئ تغني النذر وأن تكون نافية أي لم تغن النذر شيأ والنذر جمع نذير والمراد به المصدر أو اسم الفاعل ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد التعلق بطلب نجاتهم فهو لذلك ربما اشتهى اجابتهم الى مقترحاتهم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فتول عنهم) أي كاف نفسك الاعراض عن تمني ذلك فما عليك الا البلاغ وأما الهداية فالى الله تعالى وحده *(تنبيه)* قال أكثر المفسرين نسختها آية السيف وقال الرازي

ان قول المفسرين فى قوله تعالى فتول منسوخ ليس كذلك بل المراد منه لاتناظرهم بالكلام . وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر أى واذكر يوم (يدع الداعى) وقيل منصوب بيخرجون بعده والداعى معرف كالمنادى فى قوله تعالى يوم ينادى المنادى لانه معلوم قد أخبر عنه فقيل ان مناديا ينادى وداعيا يدعو فقيل الداعى اسرافيل عليه السلام ينفخ قائما على صخرة بيت المقدس قاله مقاتل وقيل جبريل عليه السلام وقيل ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا يقطع حد العلمية ويكون كقولنا جاء رجل فقال الرجل قاله الرازى وقرأ نافع وأبو عمرو بحذف الياء بعد العين وقفا واثباتها وصلا وابن كثير باثباتها وقفا ووصلا والباقون بحذفها وقفا ووصلا (الى شئ نكر) أى منكر فظيع لم يرمثله فينكرونه استعظاما (فان قيل) ماذلك الشئ المنكر (أجيب) بأنه الحساب أو الجمع له أو النشر للجمع (فان قيل) النشر لايكون منكرا فانه احياء ولان الكافر من أين يعرف وقت النشر مايجرى عليه لينكره (أجيب) بأنه يعلم ذلك لقوله تعالى عنهم ياويلنا من بعثنا من مرقدنا وقرأ ابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع ولما بين تعالى دعاءه بما هال أمره بين حال المدعوين زيادة فى الهول فقال تعالى (خاشعاً أبصارهم) أى ينظرون نظر الخاضع الذليل السافل المنزلة المستوحش الذى هو شر حال ونسب الخشوع الى الابصار لان الذل والعز يتبين فى النظر والذل أن يرمى به صاحبه الى الارض مثلا مع هيبة يعرف منها ذلك كما قال تعالى خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين والباقون بضم الخاء ولا ألف بعدها وفتح الشين مشددة أما القراءة الاولى فهى جارية على اللغة الفصحى من حيث ان الفعل وما يجرى مجراه اذا قدم على الفاعل وحد تقول تخشع أبصارهم ولا تقول تخشعن أبصارهم وأما القراءة الثانية فجاءت على لغة طى يقولون أكلونى البراغيث قال الزمخشرى ويجوز أن يكون فى خشعا ضميرهم ويقع أبصارهم بدلا عنه اه وتقدم نظير ذلك فى قوله تعالى فى الانبياء وأسروا النجوى الذين ظلموا وجملة خاشعاً أبصارهم حال من فاعل (يخرجون) أى الناس (من الاجداث) أى القبور (كأنهم جراد) أى فى كثرتهم وتراكم بعضهم على بعض وصغارهم وضعفهم وتموجهم يقال فى الجيش الكثير المائج بعضه فوق بعض جاؤا كالجراد وكالذباب (منتشر) أى منبث متفرق فى كل مكان لكثرتهم لايدرون أين يذهبون (مهطعين) أى مسرعين مادى أعناقهم (الى الداعى) مصوبى رؤسهم اليه لا يلتفتون الى سواه كما يفعل من ينظر فى ذل وخضوع وصمت واستكانة هذا حال الكل وأما الكافر فنبه عليه بقوله تعالى (يقول) أى على سبيل التكرار (الكافرون) أى الذين كانوا فى الدنيا عريقين فى ستر الادلة واظهار الاباطيل المضلة (هذا) أى الوقت الذى نحن فيه لما نرى فيه من الاهوال (يوم عسر) أى فى غاية العسر والصعوبة والشدة وذلك بحسب حالهم فيه كما قال تعالى فى سورة المدثر يوم عسير على الكافرين * ولما فرغ من حكاية كلام الكافرين ومن ذكر علامات الساعة أعاد ذكر بعض الانبياء فقال تعالى (كذبت) أى

أوقعت التكذيب العظيم الذى عموا به جميع الرسالات وجميع الرسل (قبلهم) أى أهل مكة (قوم نوح) مع ما كان بهم من القوة ولهم من الانتشار فى جميع الاقطار وأنث فعلهم تحقيرا لهم وتهوينا لامرهم فى جنب قدرته تعالى (فان قيل) الحاق الضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز وحسن بالاتفاق والحاق ضمير الجمع بالفعل قبيح عند أكثرهم فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ويجوزون كذبت فما الفرق (أجاب) الرازى بأن التأنيث انما جاز قبل الجمع لان الانوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الانوثة للفاعل بسبب فعله بخلاف الجمع لان الجمع للفاعلين بسبب فعلهم (فكذبوا عبدنا) نوحا عليه السلام على ماله من العظمة بنسبته الينا مع تشريفنا اياه بالرسالة (وقالوا) زيادة على التكذيب (مجنون) أى فهذا الذى يصدر منه من الخوارق أمر من الجن (وازدجر) وهل هذا من مقولهم أى قالوا انه ازدجر أى ازدجرته الجن وذهبت بلبه قاله مجاهد أو هو من كلام الله تعالى أخبر الله تعالى عنه بانه انتهر وازدجر بالسب وأنواع الاذى وقالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين قال الرازى وهذا أصح لان المقصود تقوية قلب النبى صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه وأيضا يترتب عليه قوله تعالى (فدعا ربه) وهذا الترتيب فى غاية الحسن لانهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه الذى رباه بالاحسان اليه وبرسالته (أنى) أى بأنى (مغلوب) أى من قومى كلهم بالقوة والمنعة لا بالحجة وأكده ابلاغا فى الشكاية واظهار الذل العبودية لان الله تعالى عالم بسر العبد وجهره فما شرع الدعاء فى أصله الا لاظهار التذلل وكذا الابلاغ فيه وقال ابن عطية غلبتنى نفسى وحملتنى على الدعاء عليهم قال ابن عادل وهو ضعيف (فانتصر) أى أوقع نصرتى عليهم أنت وحدك على أبلغ وجه فانتقم لى منهم (ففتحنا) أى بسبب دعائه فتحا يليق بعظمتنا (أبواب السماء) أى كلها فى جميع الاقطار وعبر بجمع القلة عن جمع الكثرة والمراد من الفتح والابواب والسماء حقائقها فان للسماء أبوابا تفتح وتغلق وقيل هذا على سبيل الاستعارة فان الظاهر ان الماء كان من السحاب فهو كقول القائل فى المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفى قوله تعالى ففتحنا بيان بأن الله تعالى انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله ومن العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف وفى الباء فى قوله تعالى (بماء) وجهان أظهرهما انها للتعدية وذلك على المبالغة فى أنه جعل الماء كالآلة للفتح به كما تقول فتحت بالمفتاح والثانى أنها للحال أى فتحناها ملتبسة بماء (منهمر) أى منصب بأبلغ ما يكون من السيلان والصب كثرة وعظما ولذلك لم يقل بمطر لانه خارج عن تلك العادة واستمر ذلك أربعين يوما (وفجرنا) أى صدعنا بما لنا من العظمة وشققنا وبعثنا وأسلنا (الارض عيونا) أى جميع عيون الارض ولكنه عدل عنه للتهويل بالابهام ثم البيان وافادة أن وجه الارض صار كله عيونا وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بكسر العين والباقون بضمها (فالتقى الماء) أى المعهود وهو ماء السماء وماء الارض بسبب فعلنا هذا وزاد فى تعظيمه بأداة الاستعلاء فقال تعالى (على أمر) أى حال

(قد قدر) أي قضي أي في الازل وهو هلاكهم غرقا بماء مقدر لا يزيد قطرة ولا يهلك غير من أمرناه باهلاكهم (وحملناه) أي نوحا عليه السلام تميما لانتصاره (على ذات) أي سفينة صاحبة (ألواح) أي أخشاب نجرت حتى صارت عريضة (ودسر) جمع دسار ككتاب وهو ماتشد به السفينة من مسمار وحديدا وخشب أو من خيوط الليف ونحوها قال البقاعي ولعله عبر عن السفينة بما شرحها تنبيها على قدرته على مايريد (تجري) أي السفينة (بأعيننا) أي محفوظة من أن تدخل بحر الظلمات أو يأتي عليها غير ذلك من الآفات بحفظنا على مالنا من العظمة حفظ من ينظر الشيء بأعين كثيرة ولا يغيب عنه أصلا وجوزوا أن يكون جمع تكسير لعين الماء وقوله تعالى (جزاء) منصوب بفعل مقدر أي أغرقوا انتصارا (لمن كان كفر) وهو نوح عليه الصلاة والسلام أو الباري تعالى (ولقد تركناها) أي أبقينا هذه الفعلة العظيمة من جري السفينة على هذا الوجه وابقاء نوعها دالة على مالنا من العظمة وقيل تلك السفينة بعينها بقيت على الجودي حتى أدرك بقاياها أول هذه الامة (آية) أي علامة عظيمة على مالنا من العلم المحيط والقدرة التامة (فهل من مدكر) أي معتبر ومتعظ بها وأصله مذتكر أبدلت التاء دالا مهملة وكذا المعجمة وأدغمت فيها وقوله تعالى (فكيف كان) أي وجد وتحقق (عذابي) أي لمن كفر وكذب رسلي (ونذر) أي انذاري استفهام تقرير فكيف خبر كان وهي للسؤال عن الحال والمعنى حمل المخاطبين على الاقرار بوقوع عذابه تعالى بالمكذبين لنوح موقعه وقرأ ورش باثبات الياء بعد الراء وصلا لا وقفا جميع مافي هذه السورة والباقون بغير ياء وقفا ووصلا قال البقاعي ولما كان هذا المفصل مما أنزل أول القرآن تيسيرا على الامة نبه على ذلك بقوله تعالى (ولقد يسرنا) أي على مالنا من العظمة (القرآن) أي على ماله من الجمع والفرق والعظمة المناسبة لكونه وصفا لنا (للذكر) أي الاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم والتشريف والحفظ لمن يراعيه قال ابن برجان أنزلناه باللسان العربي ونزلناه للافهام تنزيلا وضربنا لهم الامثال وأطلناهم في هذه الاعمار ليتذكروا الميثاق المأخوذ عليهم وقال القشيري يسر قراءته على ألسنة قوم وعلمه على قلوب قوم وفهمه على قلوب قوم وحفظه على قلوب قوم وكلهم أهل القرآن وخاصته وليس يحفظ من كتب الله تعالى عن ظهر قلب غيره قاله المحلي (فهل من مدكر) أي معتبر ومتعظ بها وتقدم أصله * ولما انقضت قصة نوح عليه السلام على هذا الهول العظيم ذكر قصة عاد لانها أعظم قصة جرت بعد قوم نوح فيما تعرفه العرب بقوله تعالى (كذبت عاد) أي أوقعت التكذيب العام المطلق الذي أوجب تكذيبهم برسولهم هود عليه الصلاة والسلام في دعائه لهم الى الله وانذاره عذابي (فكيف) أي فعلى أي الاحوال لاجل تكذيبهم (كان عذابي) لهم (ونذر) أي وانذاري اياهم بلسان رسولي قبل نزوله أي وقع موقعه (فان قيل) لم لم يقل فكذبوا هودا كما قال تعالى في قصة نوح فكذبوا عبدنا (أجيب) بان تكذيب قوم نوح أبلغ لطول مقامه فيهم وكثرة عنادهم وأما الآن قصة عاد ذكرت مختصرة ثم بين عذابهم بقوله تعالى (انا أرسلنا) أي بما لنا من العظمة (عليهم ريحا)

وعبر بحرف الاستعلاء اعلاما بالنقمة ثم وصف الريح بقوله تعالى (صرصرا) أى شديدة
الصوت من صرصر الباب أو القلم اذا صوت وقيل الشديدة البرد من الصر وهو البرد وقال مكى
أصله صرّ من صر الشئ اذا صوت لكن أبدلوا من الراء المشددة صادا وهذا قول الكوفيين
وقال الرازى الصرصر الدائمة الهبوب من أصر على الشئ اذا دام وثبت وأكد
شؤمها بذم زمانها فقال تعالى (فى يوم نحس) أى شديد القباحة قيل كان ذلك يوم الاربعاء
فى آخر الشهر وهو شوال لثمان بقين منه واستمر الى غروب شمس الاربعاء آخره فانه قال
تعالى فى سورة الحاقة سبع ليال وثمانية أيام حسوما وقال تعالى فى حم السجدة فى أيام
نحسات فالمراد باليوم هنا الوقت والزمان وقوله تعالى (مستمر) أى دائم الشؤم الى وقت
نفاذ المراد منه يفيد ما تفيده الايام لان الاستمرار ينبئ عن امتداد الزمان كما تنبئ عنه الايام
والحكاية مذكورة هنا على سبيل الاختصار فذكر الزمان ولم يذكر مقداره على سبيل الايجاز
فاستمر عليهم بنحوسه ولم يبق منهم أحد الا أهلكه هذا وصفها فى ذاتها وأما وصفها بفعلها فيهم
فذكره بقوله تعالى (تنزع) أى تأخذ (الناس) أى الذين هم صور لا ثبات لهم بأرواح التقوى
من الارض بعضهم من وجهها وبعضهم من حفر حفروها ليمتنعوا بها من العذاب فتطيرهم
بين السماء والارض كانهم الهباء المنثور فتقلع رؤسهم من جثثهم وقوله تعالى (كأنهم) أى
حين ينزعون فيلقون لا أرواح فيهم (أعجاز نخل) أى أصول نخل قطعت رؤسها حال من الناس
مقدرة وقوله (منقعر) صفة لنخل باعتبار الجنس وأنث فى الحاقة فقال نخل خاوية باعتبار
معنى الجماعة قال ابن عادل وانما ذكر هنا وأنث هنا لمراعاة الفواصل فى الموضعين وقال
الرازى ذكر الله تعالى لفظ النخل فى مواضع ثلاثة ووصفها على الاوجه الثلاثة فقال تعالى
والنخل باسقات وذلك حال عنها وهى كالوصف وقال تعالى نخل خاوية ونخل منقعر فحيث قال
منقعر كان المختار ذلك لان المنقعر فى حقيقة الامر كالمفعول لانه ورد عليه القعر فهو مقعور
والخاوى والباسق فاعل واخلاء المفعول من علامة التأنيث أولى تقول امرأة قتيل
وأما الباسقات فهى فاعلات حقيقة لان البسوق أمر قائم بها وأما الخاوية فهى من باب
حسن الوجه لان الخاوى موضعها فكأنه قال نخل خاوية المواضع وهذا غاية الاعجاز حيث أتى
بلفظ مناسب للالفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ * (تنبيه) * الاعجاز جمع عجز
وهو مؤخر الشئ ومنه العجز لانه يؤدى الى تأخير الامور والمنقعر المنقلع من أصله يقال قعرت
النخلة قلعتها من أصلها فانقعرت وقعرت البئر وصلت الى قعرها وقعرت الاناء شربت ما فيه
حتى وصلت الى قعره وكرر قوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) للتهويل وقيل الاول
لما حاق بهم فى الدنيا والثانى لما يحيق بهم فى الآخرة كما قال أيضا فى قصتهم لنذيقهم
عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وتقدم تفسير قوله تعالى (ولقد يسرنا
القرآن للذكر فهل من مدكر) وكرره ايذانا بأن تفسير القرآن مع اعجازه لا يكون الا بعظمة
تفوت قوى البشر وتعجز عنها منهم القدر * ولما انقضت قصة عاد ذكر تعالى قصة ثمود لانها تلى

قصة عاد فى الفظاعة فقال تعالى (كذبت ثمود) أى قوم صالح عليه السلام وقوله تعالى (بالنذر) جمع نذير بمعنى منذر أى بالانذارات التى أنذرهم بها نبيهم صالح عليه السلام ان لم يؤمنوا به ثم علل ذلك وعقبه بقوله تعالى (فقالوا) منكرين لما جاءهم من الله تعالى غاية الانكار (أبشرا) انكار الرسالة بهذا النوع ليكون انكار النبوة نبيهم على أبلغ الوجوه وهو منصوب بفعل يفسره تتبعه الآتى وقولهم (منا) نعت له أى فلا فضل له علينا فأوجه اختصاصه بذلك من بيننا وقولهم (واحدا) نعت له أيضا ثم عظموا الانكار بقولهم (نتبعه) أى نجاهد أنفسنا فى خلع ما ألفنا وما كان عليه آباؤنا والاستفهام بمعنى النفى والمعنى كيف نتبعه ونحن أشد الناس قوة وكثرة وهو واحد منا ثم استنتجوا من هذا الانكار الشديد قولهم مؤكدين (انا اذا) أى ان اتبعناه (لفى ضلال) أى ذهاب عن الصواب محيط بنا (وسعر) أى ونيران جمع سعير فعكسوا عليه وقالوا ان اتبعناك كنا اذا كما تقول وقيل السعر الجنون يقال ناقة مسعورة قال الشاعر

كأن بها سعرا اذا العيس هزها * ذميل وارخاء من السير متعب

ثم استدلوا بأمر آخر ساقوه مساق الانكار فقالوا (أألقى) أى أنزل (الذكر) أى الوحى الذى يكون به الشرف الاعظم بغتة فى سرعة (عليه) لانه لم يكن عندهم فى مضمار هذا الشأن ولا توسموا فيه قبل اشارته به شيأ منه بل أتاهم به بغتة فى غاية الاسراع ودلوا على وجه التعجب والانكار بالاختصاص بقولهم (من بيننا) أى وفينا من هو أولى بذلك منه سنا وشرفا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الهمزة الاولى المفتوحة وتسهيل الثانية المضمومة كالواو وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا بخلاف عن أبي عمرو ولم يدخل ورش وابن كثير ألفا وأما هشام فله تسهيل الثانية وتحقيقها وادخال الالف بينهما مع التحقيق والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال واذا وقف حمزة فله فى الثانية التسهيل وابدالها واوا والتحقيق ثم أضربوا عن ذلك الاستفهام لانه بمعنى النفى بقولهم (بل هو كذاب) أى بليغ فى الكذب فى قوله انه أوحى اليه ما ذكر (أشر) أى متكبر بطر غلبت عليه البطالة حتى أعجبته نفسه فتجبر فهو يريد الترفع قال الله تعالى (سيعلمون) أى بوعد لا خلف فيه (غدا) أى فى الزمن الآتى القريب وهو يوم القيامة لان كل ما حقق اتيانه قريب عند نزول العذاب فى الدنيا ويوم القيامة وقرأ ابن عامر وحمزة بعد السين بتاء الخطاب وفيه وجهان أحدهما أنه حكاية عن قول صالح عليه السلام لقومه والثانى أنه خطاب من الله تعالى على جهة الالتفات والباقون بياء الغيبة جريا على الغيب قبله فى قوله تعالى فقالوا أبشرا واختار هذه القراءة مكى لان عليها الاكثر (من الكذاب الاشر) أى وهو هم بأن يعذبوا على تكذيبهم لنبيه صالح صلى الله عليه وسلم وروى انهم تعنتوا عليه فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء فقال تعالى (انا) اى بما لنا من العظمة (مرسلو الناقة) أى موجدوها لهم ومخرجوها كما اقترحوا من حجر أهلناه لذلك وخصصناه من بين الاحجار دلالة على ارسالنا صالحا عليه السلام مخصصين له

من بين قومه وذلك انهم قالوا لصالح عليه السلام نريد أن نعرف المحق منا بان ندعوا آلهتنا
وتدعو الهك فمن أجابه الهه علم أنه المحق فدعوا أوثانهم فلم تجبهم فقالوا ادع انت فقال
فما تريدون قالوا تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عشراء وبراء فأجابهم الى ذلك بشرط الايمان
فوعدوه بذلك وأكدوا فكذبوا بعدما كذبوا في أن آلهتهم تجيبهم وصدق هو عليه السلام
في كل ما قال فأخبره ربه سبحانه أنه يجيبهم الى اخراجها (فتنة لهم) أي امتحانا يخالطهم به
فيميلهم عن حالتهم التي وعدوا بها او تخليهم عنها الا ان المعجزة فتنة لان بها يتميز المثاب من المعذب
فالمعجزة تصديق وحينئذ يفترق المصدق من المكذب أو يقال اخراج الناقة من الصخرة
معجزة ودورانها بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال تعالى انا مرسلو الناقة ولم يقل مخرجو
(فارتقبهم) أي كلف نفسك انتظارهم فيما يكون لهم جزاء على أعمالهم انتظار من يحرسهم
(واصطبر) أي عالج نفسك واجتهد في الصبر عليهم وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحولت طاء
لتكون موافقة للصاد في الاطباق (ونبئهم) أي أخبرهم اخبارا عظيما بأمر عظيم وهو (أن الماء)
أي الذي يشربونه وهو ماء بئرهم (قسمة بينهم) أي بين قوم صالح عليه السلام والناقة فغلب
العاقل عليها والمعنى أنا اذا بعثناها كان لهم يوم لا تشاركهم فيه ولها يوم لا تدع في البئر قطرة
يأخذها أحد منهم وتوسع الكل بدل الماء لبنا (كل شرب) أي نصيب من الماء (محتضر)
أي فالناقة تحضر الماء يوم وردها وتغيب عنهم يوم وردهم قاله مقاتل وقال مجاهد ان
ثمود يحضرون الماء يوم غبها فيشربون ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون *(تنبيه)*
الحكمة في قسمة الماء اما لان الناقة عظيمة الخلق فتنفر منها حيواناتهم فكان يوم للناقة
ويوم لهم واما لقلة الماء فلا يحملهم واما لان الماء كان مقسوما بينهم لكل فريق يوم فيوم ورد
الناقة على هؤلاء يرجعون على الآخرين وكذلك الآخرون فيكون النقصان على الكل
ولا تختص الناقة بجميع الماء روي انهم كانوا يكتفون في يوم وردها بلبنها وليس في الآية
الا القسمة دون كيفيتها وظاهر قوله تعالى كل شرب محتضر يعضد الوجه الثالث وحضر
واحتضر بمعنى واحد وقوله تعالى (فنادوا صاحبهم) فيه حذف قبله أي فتمادوا على ذلك
ثم ملوه فعزموا على عقرها فنادوا صاحبهم وهو قدار بن سالف الذي انتدبوه بطرا وأشرا القتل
الناقة وكذبا في وعدهم الايمان واكرامها بالاحسان وكان أشجعهم وقيل كان رئيسهم
(فتعاطى) أي فاجترأ على تعاطي الامر العظيم غير مكترث به (فعقر) أي فتسبب عن ذلك
عقرها وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطي تفاعل الشيء
بتكلف قال محمد بن اسحق كمن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها فانتظم به عضلة ساقها
ثم شد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة ثم نحرها وقال ابن عباس
كان الذي عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقعى يقال له قدار بن سالف والعرب تسمي الجزار
قدارا تشبيها بقدار بن سالف مشؤم آل ثمود (فكيف كان عذابي) أي كان على حال ووجه هو
أهل لان يجتهد في الاقبال على تعرفه والسؤال عنه (ونذر) أي انذاري لهم بالعذاب قبل نزوله

أى وقع موقعه وبينه بقوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (أرسلنا) أى ارسالا عظيما (عليهم صيحة) وحقر شأنهم بالنسبة الى عظمة عذابه بقوله تعالى (واحدة) صاحبها عليهم جبريل عليه السلام فلم يكن لهم بصيحته هذه التى هى واحدة طاقة كما قال تعالى (فكانوا كهشيم المحتظر) وهو الذى يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع وما يسقط من ذلك فداسته هو الهشيم والهشيم المهشوم المكسور ومنه سمى هاشم لهشمه الثريد فى الجفان غير أن الهشيم يستعمل كثيرا فى الحطب المتكسر اليابس قال المفسرون كانوا كالحشب المتكسر الذى يخرج من الحظائر بدليل قوله تعالى هشيما تذروه الرياح وهو من باب اقامة الصفة مقام الموصوف وتشبيههم بالهشيم اما لكونهم يابسين كالموتى الذين ماتوا من زمان أو لانضمام بعضهم الى بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كما يجمع الحاطب الحطب بضعه شيأ فوق شئ منتظرا حضور من يشترى منه قال ابن عادل ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم فى الجحيم أى كانوا كالحطب اليابس الذى للوقيد كقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى فكانوا لجهنم حطبا * (تنبيهات) * أحدها أنه تعالى ذكر فكيف كان عذابى ونذر فى ثلاثة مواضع ذكرها فى حكاية نوح عليه السلام بعد بيان العذاب وذكرها ههنا قبل بيان العذاب وذكرها فى حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه فحيث ذكر قبل بيان العذاب فللبيان كقول العارف حكاية لغير العارف هل تعلم كيف كان أمر فلان وغرضه أن يقول أخبرنى عنه وحيث ذكرها بعد بيان العذاب ذكرها للتعظيم كقول فلان أى ضرب وايما ضرب ويقول ضربته وكيف ضربته أى قويا وفى حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام ثانيها أنه تعالى ذكر فى حكاية نوح عليه السلام الذى للتعظيم وفى حكاية ثمود ذكر الذى للبيان لان عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذى عم العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فانه كان مختصا بهم ثالثها أنه تعالى ذكر فى هذه السورة خمس قصص وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه لان حال صالح عليه السلام كان أتم مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم لانه أتى بأمر عجيب أرضى وكان أعجب مما جاء به الانبياء عليهم الصلاة والسلام لان عيسى عليه السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلا للحياة فقامت الحياة باذن الله تعالى فى محل كان قابلا لها وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانا فأثبت الله تعالى له فى الخشب الحياة باذنه سبحانه لكن الخشبة نبات كان له قوة فى النمو فأشبه الحيوان فى النمو وصالح عليه السلام كان الظاهر فى يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد ليس محلا للحياة ولا محلا للنمو ونبينا صلى الله عليه وسلم أتى بأعجب من الكل وهو المتصرف فى الجرم السماوى الذى يقول المشرك لا وصول لاحد الى السماء وأما الارضيات فقالوا انها أجسام مشتركة المواد تقبل كل واحد منها صورة الاخرى والسماويات لا تقبل ذلك فلما أتى بما اعترفوا بأنه لا يقدر على مثله آدمى كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التى هى أتم من معجزة سائر الانبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم (ولقد يسرنا) أى على مالنا من العظمة

(القرآن) أى الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس (للذكر) أى الحفظ والتذكر والتدبر وحصول الشرف فى الدارين (فهل من مدكر) أى من ناظر بعين الانصاف والتجرد عن الهوى ليرى كل ما أخبرنا به فيعينه عليه * ولما انقضت قصة ثمود بما تعرفه العرب بالاخبار ورؤية الآثار فقال تعالى (كذبت قوم لوط) أى وهم فى قوة عظيمة على ما يحاولونه وان كانوا فى تكذيبهم هذا أضعف من عقول النساء عن التجرد عن الهوى بما دل عليه تأنيث الفعل بالتاء وكذا ما قبلها من القصص (بالنذر) أى بالامور المنذرة لهم على لسان نبيهم لوط عليه السلام ودل على تناهى القباحة فى مرتكبهم بتقديم الاخبار عن عذابهم فقال تعالى مؤكدا توعدا لمن استقر على التكذيب (انا) أى بما لنا من العظمة (أرسلنا عليهم حاصبا) أى ريحا شديدة ترميهم بالحصباء وهى صغار الحجارة الواحد دون ملء الكف فهلكوا (الا آل لوط) وهم من آمن به فكان اذا رأيته فكأنك رأيت لوطا عليه السلام لما يلوح عليه من أفعاله والمشى على منواله فى أقواله وأفعاله (نجيناهم) أى تنجية عظيمة (بسحر) أى بآخر ليلة من الليالى وهى الليلة التى عذب فيها قومه. وانصرف لانه نكرة لانا لا نعرف تلك الليلة بعينها ولو قصد به وقت بعينه لمنع الصرف للتعريف والعدل عن أل هذا هو المشهور وزعم صدر الافاضل أنه مبنى على الفتح كأمس مبنيا على الكسر * (تنبيه) * قال الجلال المحلى وهل أرسل الحاصب على آل لوط أولا قولان وعبر عن الاستثناء على الاول بأنه متصل وعلى الثانى بأنه منقطع وان كان من الجنس تسمحا وقوله تعالى (نعمة) اما مفعول له واما مصدر بفعل من لفظها أو من معنى نجيناهم لان تنجيتهم انعام فالتأويل اما فى العامل واما فى المصدر وقوله تعالى (من عندنا) متعلق بنعمة أو بمحذوف صفة لها (كذلك) أى مثل هذا الانجاء العظيم الذى جعلناه جزاء لهم (نجزى من شكر) أى من آمن بالله تعالى واطاعه قال بعض المفسرين وهو وعد لامة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه يصونهم عن الهلاك العام وقال الرازى ويمكن أن يقال هو وعد لهؤلاء بالثواب يوم القيامة كما أنجاهم فى الدنيا من العذاب لقوله تعالى ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين وقال مقاتل من وحد الله تعالى لم يعذبه مع المشركين (ولقد أنذرهم) أى رسولنا لوط عليه السلام (بطشتنا) أى أخذتنا المقرونة من الشدة بما لنا من العظمة وهى العذاب الذى نزل بهم وقيل هى عذاب الآخرة لقوله تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى (فتماروا) أى تجادلوا وكذبوا (بالنذر) أى بانذاره فكان سببا للاخذ (ولقد راودوه عن ضيفه) أى أرادوا أن يخلى بينهم وبين القوم الذين أتوه فى صورة الاضياف ليخبثوا بهم وكانوا ملائكة فى صورة شباب مرد وأفرد لان المراد الجنس (فطمسنا) أى فتسبب عن مراودتهم ان طمسنا بعظمتنا (أعينهم) أى أعميناها وجعلناها بلا شق كباقى الوجه بأن صفقها جبريل عليه السلام بجناحه وقال الضحاك بل أعماهم الله تعالى فلم يروا الرسل وقالوا قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا فرجعوا فلم يروهم وهذا قول ابن عباس وروى أنهم صارت أعينهم مع وجوههم كالصفحة الواحدة وقال

القشيري مسح بجناحه على وجوههم فعموا ولم يهتدوا للخروج قال ابن جرير والعرب تقول طمست الريح الاعلام اذا دفنتها بما تسفي عليها فانطلقوا هاربين مسرعين الى الباب لا يهتدون اليه ولا يقعون عليه بل يصادمون الجدران خوفا مما هو أعظم من ذلك وهم يقولون عند ذلك لوط سحر الناس وما أدتهم عقولهم الى أن يؤمنوا فينجوا أنفسهم قال القشيري وكذلك أجرى الله تعالى سنته في أوليائه بأن يطمس على قلوب أعدائهم حتى يلتبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ويخلصهم من كيدهم وقوله تعالى (فذوقوا عذابي ونذر) أي انذاري وتخويفي خطاب لهم أي قلنا لهم على لسان الملائكة فذوقوا فهو خطاب مع كل مكذب أي ان كنتم تكذبون فذوقوا قال القرطبي والمراد من هذا الامر الخبر أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط عليه السلام (فان قيل) النذر كيف تذاق (أجيب) بأن المراد ثمرته وفائدته (فان قيل) اذا كان المراد بقوله تعالى عذابي هو العذاب العاجل وبقوله تعالى ونذر هو العذاب الآجل فهما لم يكونا في زمان واحد فكيف قال تعالى فذوقوا (أجيب) بان العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل فهما كالواقع في زمان واحد وهو قوله تعالى أغرقوا فأدخلوا نارا (ولقد صبحهم) أي أتاهم وقت الصباح وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الصاد والباقون بلا اظهار وحقق المعنى بقوله تعالى (بكرة) أي في أول نهار العذاب وانصرف بكرة لانه نكرة ولو قصد به وقت بعينه امتنع الصرف للتأنيث والتعريف (عذاب) أي فقلع بلادهم ورفعها ثم قلبها وحصبها بحجارة النار وخسفها وغمرها بالماء المنتن الذي لا يعيش به حيوان (مستقر) أي ثابت عليهم غير زائل ليس بخيال ولا سحر كما قالوا عند الطمس فانه أهلكهم فاتصل بعذاب البرزخ المتصل بعذاب القيامة المتصل بالعذاب الاكبر في الطبقة التي تناسب أعمالهم من عذاب النار فقال لهم لسان الحال ان لم ينطق لسان المقال (فذوقوا) أي بسبب أفعالكم الخبيثة (عذابي ونذر) *(تنبيه)* قد علم من تكرير هذا أن سبب العذاب التكذيب بالانذار لاي رسول كان وكان استئناف كل قصة منها على انهم أهل على حدتها لان يتعظ بها (ولقد يسرنا) أي على ما لنا من العظمة (القرآن) أي الجامع الفارق بين الحق والباطل ولو شئنا لاعليناه بما لنا من القدرة الى حد تعجز القوى عن فهمه كما أعليناه الى رتبة وقفت القوى عن معارضته (للذكر فهل من مدكر) أي فيخلص نفسه من مثل هذا الذي أوقع فيه هؤلاء أنفسهم ظنا منهم ان الامر لا يصل الى ما وصل اليه جهلا منهم وعدم اكتراث بالعواقب * ولما انقضت قصة لوط عليه السلام أتبعها قصة موسى عليه السلام لانها بعد قوم لوط بقوله تعالى (ولقد جاء آل فرعون) أي فرعون ملك القبط بمصر وقومه الذين اذا رآهم أحد كان كأنه فيهم لشدة قربهم منه وتخلقهم باخلاقه (النذر) أي الانذار على لسان موسى وهرون عليهما السلام فلم يؤمنوا بل (كذبوا) أي تكذيبا عظيما مستهزئين (بآياتنا) التي أتاهم بها موسى عليه السلام (كلها) أي التسع التي أوتيها وهي العصا واليد والسنين والطمس والطوفان والجراد والقمل

والضفادع والدم (فان قيل) كيف قال ولقد جاء ولم يقل فى غيره جاء (أجيب) بأن موسى عليه السلام لما جاء كان غائبا عن القوم فقدم عليهم كما قال تعالى فلما جاء آل لوط المرسلون وقال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم لانه جاءهم من عند الله من السموات بعد المعراج كما جاء موسى قومه من الطور والنذر الرسل ولقد جاءهم يوسف وبنوه الى أن جاءهم موسى عليه السلام وقيل النذر الانذارات * (تنبيه) * ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ أبو عمرو وقالون باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية ولهما أيضا ابدالها ألفا وورش على أصله فى الهمزة المسهلة ومد بعد الجيم حمزة وابن ذكوان والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (فأخذناهم) أى بما لنا من العظمة بنحو ما أخذنا به قوم نوح من الاغراق (أخذ عزيز) أى لا يغلبه شئ وهو يغلب كل شئ (مقتدر) أى لا يعجل بالاخذ لانه لا يخاف الفوت ولا يخشى معقبا لحكمه بالغ القدرة الى حد لا يدرك الوصف كنهه ثم خوف كفار مكة فقال تعالى (أكفاركم) أى الراسخون منكم يا أهل مكة فى الكفر الثابتون عليه يا أيها المكذبون لهذا النبى الكريم الساترون لشموس دينه (خير) فى الدنيا بالقوة والكثرة أو فى الدين عند الله أو عند الناس (من أولئكم) أى المذكورين من قوم نوح الى فرعون الذين وعظناكم بهم فى هذه السورة وهذا استفهام بمعنى الانكار أى ليسوا بأقوى منهم فمعناه نفى أى ليس كفاركم خيرا من كفار من تقدم من الامم الذين أهلكوا بكفرهم *(تنبيه) * قوله تعالى خير مع أنه لا خير فيهم اما أن يكون كقول حسان * فشركما لخيركما الفداء أو هو بحسب زعمهم واعتقادهم أو المراد بالخير شدة القوة أو لان كل ممكن فلا بد وأن يكون له صفات محمودة فالمراد تلك الصفات (أم لكم) أى يا أهل مكة (براءة فى الزبر) أى أنزل اليكم من الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو فى أمان من عذاب الله تعالى والاستفهام هنا أيضا بمعنى النفى أى ليس الامر كذلك (أم يقولون) أى كفار قريش (نحن جميع) أى جمع واحد مبالغ فى اجتماعه فهو فى الغاية من الضم فلا افتراق له (منتصر) أى على كل من يعاديه لانهم على قلب رجل واحد ولم يقل منتصرون لموافقة رؤس الآى ولما قال أبو جهل يوم بدر انا جميع منتصر نزل (سيهزم الجمع) بأيسر أمر بوعد لا خلف فيه وقال مقاتل ضرب أبو جهل يوم بدر فرسه فتقدم من الصف وقال نحن ننتصر اليوم على محمد وأصحابه فأنزل الله تعالى أم يقولون نحن جميع منتصر وقال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لا أدرى أى جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب فى درعه ويقول سيهزم الجمع (ويولون الدبر) فهزموا يوم بدر ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل الادبار لموافقة رؤس الآى (بل الساعة) أى القيامة التى يكون فيها الجمع الاكبر والهول الاعظم (موعدهم) أى للعذاب (والساعة أدهى) أى من كل ما يفرض وقوعه فى الدنيا وأدهى أفعل تفضيل من الداهية وهى أمر هائل لا يهتدى لدوائه فهى أمر عظيم يقال دهاه أمر كذا أى أصابه دهوا ودهيا

وقال ابن السكيت دهته داهية دهواء ودهياء وهى توكيد لها وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وأمر) لان عذابهم للكفار غير مفارق ولا مزايل فهى أعظم نائبة وأشد مرارة من الاسر والقتل يوم بدر وفى رواية ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يثب فى درعه ويقول اللهم ان قريشا جادلتك وتجاهر رسولك بفخرها بخيلها فأخنهم الغداة يقال أخنى عليه الدهر أى غلبه وأهلكه ومنه قول النابغة

أخنى عليها الذى أخنى على لبد * وأخنيت عليه أفسدت ثم قال سيهزم الجمع ويولون الدبر قال عمر فعرفت تأويلها وهذا من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه أخبر عن غيب فكان كما أخبر قال ابن عباس كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين فالآية على هذا مكية وفى البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وانى لجارية ألعب بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر وعن ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قبة له يوم بدر أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا فأخذ أبو بكر بيده وقال حسبك يارسول الله فقد ألحت على ربك وهو فى الدرع فخرج وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم يريد يوم القيامة والساعة أدهى وأمر مما لحقهم يوم بدر (ان المجرمين) أى المشركين القاطعين لما أمر الله تعالى ان يوصل (فى ضلال) أى هلاك بالقتل فى الدنيا (وسعر) أى نار مسعرة أى مهيجة فى الآخرة وقيل فى ضلال أى عمى عن القصد بتكذيبهم بالبعث وسعر قال الضحاك أى نار تسعر عليهم وقيل ضلال ذهاب عن طريق الجنة فى الآخرة وسعر جمع سعير نار مسعرة وقال الحسين بن الفضل ان المجرمين فى ضلال فى الدنيا ونار فى الآخرة وقال قتادة فى عناء وعذاب ثم بين عذابهم فى الآخرة بقوله تعالى (يوم يسحبون) أى فى القيامة اهانة لهم من أى ساحب كان (فى النار) أى الكاملة النارية (على وجوههم) لانهم فى غاية الذل والهوان جزاء بما كانوا يذلون أولياء الله تعالى مقولا لهم من أى قائل اتفق (ذوقوا) لانه لا منعة لهم ولا حمية بوجه (مس سقر) أى حر النار وألمها فان مسها سبب للتألم بها وسقر علم لجهنم مشتقة من سقرته الشمس أو النار أى لوحته ويقال صقرته بالصاد وهى مبدلة من السين قال ذو الرمة

اذا ذابت الشمس اتقى صقراتها * بافنان مربوع الصريمة معبل

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث وقال بعض المفسرين ان هذه الآية نزلت فى القدرية لما روى انه صلى الله عليه وسلم قال مجوس هذه الامة القدرية وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى فى قوله سبحانه ان المجرمين فى ضلال وسعر وفى مسلم عن أبى هريرة قال جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القدر فنزلت هذه الآية الى آخرها قال الرازى والقدرى هو الذى ينكر القدر وينسب الحوادث لاتصالات الكواكب لما مر ان قريشا خاصموا النبى صلى الله عليه وسلم فى القدر ومذهبهم ان الله تعالى مكن العبد من الطاعة والمعصية وهو قادر على خلق ذلك فى العبد وقادر على أن يطعم الفقير ولهذا قالوا انطعم من لو

يشاء الله أطعمه منكرين لقدرته تعالى على الاطعام وقوله صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الامة ان أريد بالامة المرسل اليهم مطلقا كالقوم فالقدرية فى زمانه صلى الله عليه وسلم هم المشركون المنكرون قدرته على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة وان كان المراد بالامة من آمن به صلى الله عليه وسلم فمعناه ان نسبة القدرية اليهم كنسبة المجوس الى الامة المتقدمة فان المجوس أضعف الكفرة المتقدمين شبهة وأشد مخالفة للعقل وكذا القدرية فى هذه الامة وكونهم كذلك لا يقتضى الجزم بكونهم فى النار فالحق ان القدرى هو الذى ينكر قدرة الله تعالى وقد رد عليهم بالكتاب والسنة أما من الكتاب فقوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (كل شئ) من الاشياء المخلوقة صغيرها وكبيرها (خلقناه بقدر) أى قضاء وحكم وقياس مضبوط وقسمة محدودة وقوة بالغة وتدبير محكم فى وقت معلوم ومكان محدود مكتوب ذلك فى اللوح قبل وقوعه وأما من السنة فاروى عبد الله بن عمرو بن العاص انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف عام قال وعرشه على الماء وعن طاوس اليمانى قال أدركت ماشاء الله تعالى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون كل شئ بقدر الله تعالى قال وسمعت من عبد الله ابن عمرو يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شئ بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن بالله عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا اله الا الله وانى رسول الله بعثنى بالحق ويؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر وزاد عبد الله خيره وشره * (تنبيه) * كل شئ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ولما بين سبحانه وتعالى ان كل شئ بفعله بين يسر ذلك وسهولته عليه بقوله تعالى (وما أمرنا) فى كل شئ أردناه وان عظم أمره (الا واحدة) أى فعلة يسيرة لا معالجة فيها وليس هناك احداث قول لانه قديم بل تعلق القدرة بالمقدور على وفق الارادة الازلية وقيل الا كلمة واحدة وهى قوله تعالى كن كما قال تعالى اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ثم مثل لنا ذلك بأسرع ما نعقله وأخفه بقوله تعالى (كلمح بالبصر) واللمح النظر بالعجلة وفى الصحاح لمحه وألمحه اذا أبصره بنظر خفيف أى فكما ان لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه فكذلك الافعال كلها عندنا بل أيسر وعن ابن عباس معناه وما أمرنا بمجئ الساعة فى السرعة الا كطرف البصر (ولقد أهلكنا) أى بما لنا من العظمة (أشياعكم) أى اشباهكم ونظراءكم فى الكفر من الامم السابقة والقدرة عليكم كالقدرة عليهم فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فهل من مدكر) أى بما وقع لهم انه مثل من مضى بل أضعف وان قدرته تعالى عليه كقدرته تعالى عليهم ليرجع عن غيه خوفا من سطوته والاستفهام بمعنى الامر أى اذكروا واتعظوا (وكل شئ فعلوه) قال الجلال المحلى أى العباد وقال أكثر المفسرين أى الاشياع لانه هو المتقدم ذكره (فى الزبر) أى مكتوب فى دواوين الحفظة وقيل فى اللوح المحفوظ وقيل فى أم الكتاب فلتحذروا من أفعالهم فانها غير منسية هذا ما أطبق

عليه القراء بما أدى الى هذا المعنى من رفع كل لانه لو نصب لاوهم تعلق الجار بالفعل فيوهم
انهم فعلوا فى الزبر كل شئ من الاشياء وهو فاسد (وكل صغير وكبير) أى من الخلق وأعمالهم
وآجالهم (مستطر) أى مكتوب فى اللوح المحفوظ ولما وصف الكفار وصف المؤمنين مؤكدا
ردا على المنكر فقال عز من قائل (ان المتقين) أى العريقين فى وصف الخوف من الله الذى
وفقهم لطاعته (فى جنات) أى خلال بساتين ذات أشجار تستر داخلها وقوله تعالى
(ونهر) أريد به الجنس لان فيها أنهارا من ماء وعسل ولبن وخمر أفرده لموافقة رؤس الآى
ولشدة اتصال بعضها ببعض فكأنها شئ واحد والمعنى انهم يشربون من أنهارها وقيل هو
السعة والصفاء من النهار وكما جعل للمتقين فى تلك الدار ذلك جعل لهم فى هذه الدار أيضا جنات
العلوم وأنهار المعارف ولهذا كانوا (فى مقعد صدق) أى حق لا لغو فيه ولا تأثيم ولم يقل
فى مجلس صدق لان القعود جلوس فيه مكث ومنه قواعد البيت والقواعد من النساء ولذا قال
(عند مليك) أى ملك تام الملك (مقتدر) أى قادر لا يعجزه شئ وهو الله تعالى وعند اشارة
للرتبة والكرامة والمنزلة من فضله تعالى جعلنا الله تعالى وتحبينا منهم وما رواه البيضاوى تبعا
للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة القمر فى كل غب أى يقرأ يوما
ويترك يوما بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر حديث موضوع

(سورة الرحمن وتسمى عروس القرآن)

لانها مجمع النعم والجمال والبهجة فى نوعها والكمال مكية كلها فى قول الحسن وعروة وابن الزبير
وعطاء وجابر وقال ابن عباس الا آية منها وهى قوله تعالى يسأله من فى السموات والارض الآية
وقال ابن مسعود ومقاتل هى مدنية كلها قال ابن عادل والاول أصح لما روى عروة بن الزبير
قال أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ابن مسعود وذلك ان الصحابة قالوا
ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط فمن رجل يسمعهموه فقال ابن مسعود أنا فقالوا نخشى
عليك وانما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه فأبى ثم قام عند المقام فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم
الرحمن علم القرآن ثم تمادى بها رافعا صوته وقريش فى أنديتها فتأملوا وقالوا ما يقول ابن أم عبد
قالوا هو يقول الذى يزعم محمد انه أنزل عليه ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه وصح ان النبى صلى
الله عليه وسلم قام يصلى الصبح بنخلة فقرأ بسورة الرحمن ومر النفر من الجن فآمنوا به وهى
سبع وثمانون آية وثلثمائة واحدى وخمسون كلمة وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى ظهرت احاطة كماله بما ظهر من عجائب مخلوقاته (الرحمن) الذى ظهر عموم
رحمته بما بهر من بدائع مصنوعاته (الرحيم) الذى ظهر اختصاصه لاهل طاعته بما تحققوا من
الذل المفيد للعز بلزوم عباداته ولما كانت هذه السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية
والاخروية صدرها بقوله تعالى (الرحمن علم) أى من شاء (القرآن) وقدم من نعمه الدينية
ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقيها وهو انعامه تعالى بالقرآن العظيم وتنزيله وتعليمه لانه أعظم

وحى الله تعالى رتبة وأعلاها منزلة وأحسنه فى أبواب الدين أثرا وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها *(تنبيه)* أوّل هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها الآن آخر تلك مليك مقتدر وأوّل هذه انه رحمن قال سعيد بن جبير وعامر والشعبي الرحمن فاتحة ثلاث سور اذا جمعن كن اسما من اسماء الله تعالى الر وحم ون فيكون مجموع هذه الرحمن ولله تبارك وتعالى رحمتان رحمة سابقة بها خلق الخلق ورحمة لاحقة بها أعطاهم الرزق والمنافع فهو رحمن باعتبار السابقة رحيم باعتبار اللاحقة ولما اختص بالايجاد لم يقل لغيره رحمن ولما خلق بعض خلقه الصالحين ببعض اخلاقه بحسب الطاقة البشرية فأطعم ونفع جاز أن يقال له رحيم وفى اعراب الرحمن ثلاثة أوجه أحدها انه خبر مبتدا مضمر أى الله الرحمن الثانى انه مبتدأ وخبره مضمر أى الرحمن ربنا الثالث انه مبتدأ خبره علم القرآن (فان قيل) كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى وما يعلم تأويله الا الله (أجيب) بأنا ان قلنا بعطف الراسخين على الله فهو ظاهر وان قلنا بالوقف على الله ويبتدأ بقوله تعالى والراسخون فلان من علم كتابا عظيما فيه مواضع مشكلة قليلة وتأملها بقدر الامكان فانه يقال فلان يعلم الكتاب الفلانى وان كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين فى تلك المواضع القليلة وكذا القول فى تعليم القرآن أو يقال المراد لا يعلمه من تلقاء نفسه بخلاف الكتب التى تستخرج بقوّة الذكاء والفكر واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال أكثر المفسرين نزلت حين قالوا وما الرحمن وقيل نزلت جوابا لاهل مكة حين قالوا انما يعلمه بشر وهو رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله تعالى الرحمن علم القرآن أى يسره ليذكر ويقرأ كما قال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر ولما كان كأنه قيل كيف يعلمه وهو صفة من صفاته ولمن علمه قال تعالى مستأنفا ومعللا (خلق الانسان) أى الجنس بأن قدّره وأوجده على هذا الشكل المعروف والتركيب الموصوف منفصلا عن جميع الجمادات وأصله منها ثم عن سائر الناميات ثم عن غيره من الحيوانات وخلقه له دليل على خلقه لكل شئ موجود انا كل شئ خلقناه بقدر وقيل علم القرآن جعله علامة وآية (علمه البيان) أى القوّة الناطقة وهى الادراك للامور الكلية والجزئية والحكم على الحاضر والغائب بقياسه على الحاضر وغير ذلك مما أودعه له سبحانه مع تعبيره عما أدركه عما هو غائب فى ضميره وافهامه لغيره تارة بالقول وتارة بالفعل نطقا وكتابة واشارة وغيرها فصار بذلك ذا قدرة فى نفسه والتكميل لغيره فهذا تعليم البيان الذى مكن من تعليم القرآن وقال ابن عباس وقتادة والحسن يعنى آدم عليه السلام علم أسماء كل شئ وقيل علمه اللغات كلها وكان آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية وعن ابن عباس أيضا وابن كيسان المراد بالانسان ههنا محمد صلى الله عليه وسلم والمراد من البيان الحلال والحرام والهدى من الضلال وقيل ما كان وما يكون لانه بين عن الاوّلين والآخرين وعن يوم الدين وقال الضحاك البيان الخير والشر وقال الربيع بن أنس هو ما ينفعه وما يضره وقال السدى علم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به وقيل بيان الكتابة والخط بالقلم نظيره قوله تعالى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

قوله بسبعمائة ألف لغة فى حاشية الجمل بسبعمائة لغة اه مصححه

(فان قيل) لم قدم تعليم القرآن للانسان على خلقه وهو متأخر عنه فى الوجود (أجيب) بأن التعليم هو السبب فى ايجاده وخلقه (فان قيل) كيف صرح بذكر المفعولين فى علمه البيان ولم يصرح بهما فى علم القرآن (أجيب) بأن فى ذلك اشارة الى ان النعمة فى التعميم لا فى تعليم شخص دون شخص وبأن المراد من قوله تعالى علمه البيان تعديد النعم على الانسان واستدعاء الشكر منه ولم يذكر الملائكة لان المقصود ذكر ما يرجع الى الانسان وقيل تقديره علم جبريل القرآن وقيل علم محمدا صلى الله عليه وسلم وقيل علم الانسان وهذا أولى لعمومه *(تنبيه)* هذه الجمل من قوله تعالى علم القرآن الى هنا جىء بها من غير عاطف لانها سيقت لتعديد نعمه كقولك فلان أحسن الى فلان أكرمه اشاد ذكره رفع قدره فلشدة الوصل ترك العاطف وهى أخبار مترادفة للرحمن ولما ذكر تعالى خلق الانسان وانعامه عليه بتعليمه البيان ذكر نعمتين عظيمتين بقوله تعالى (الشمس) وهى آية النهار (والقمر) وهو آية الليل (بحسبان) فانهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها ولولا الشمس والقمر لفات كثير من المنافع الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فان نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما وانهما بحسبان لا يتغير أبدا ولو كان سيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات فى أوقاتها ومعرفة فصول السنة والمعنى يجريان بحسبان معلوم فأضمر الخبر قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك يجريان بحسبان فى منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها وقال أبو زيد وابن كيسان بهما تحسب الاوقات والاعمار ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيأ ان كان الدهر كله ليلا أو نهارا وقال السدى بحسبان تقدير آجالهما أى يجريان بآجال كآجال الناس فاذا جاء أجلهما هلكا نظيره كل يجرى الى أجل مسمى (والنجم) أى النبات الذى ينجم أى يطلع من الارض ولا ساق له كالبقول (والشجر) أى الذى له ساق كشجر الرمان وتقدم الجواب عن قوله تعالى وأنبتنا عليه شجرة من يقطين فى سورة الصافات (يسجدان) أى ينقادان لله تعالى فيما يريده طبعا انقياد الساجد من المكلفين طوعا وقال الضحاك سجودهما سجود ظلالهما وقال الفراء سجودهما انهما يستقبلان اذا طلعت الشمس ثم يميلان معها حتى ينكسر الفىء وقال الزجاج سجودهما دوران الظل معهما كما قال تعالى يتفيأ ظلاله وقال الحسن ومجاهد النجم نجم السماء وسجوده فى قول مجاهد دوران ظله وقيل سجود النجم أفوله وسجود الشجر امكان الاجتناء لثمارها حكاه الماوردى وقال النحاس أصل السجود فى اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل فهو من الموات كلها استسلامها لامر الله عز وجل وانقيادها له ومن الحيوان كذلك (فان قيل) كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن (أجيب) بأنه استغنى فيهما عن الوصل اللفظى بالوصل المعنوى لما علم ان الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره كأنه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له (فان قيل) أى تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف (أجيب) بأن الشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان فبين القبيلين تناسب من

حيث التقابل فان السماء والارض لا تزالان تذكران قرينتين وان جرى الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لامر الله تعالى فهو مناسب لسجود النجم والشجر (والسماء) أى ورفع السماء ثم فسر ناصبها فيكون كالمذكور مرتين اشارة الى عظيم تدبيره لشدة ما فيها من الحكم فقال تعالى (رفعها) أى حسا قال البقاعى بعدما كانت ملتصقة بالارض ففتقها وأعلاها عنها وقال الزمخشرى وتبعه البيضاوى خلقها مرفوعة قال البيضاوى محلا ورتبة وقال الزمخشرى حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه (ووضع الميزان) أى العدل الذى دبر به الخافقين من الموازنة وهى المعادلة لتنتظم أمورنا كما قال صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت السموات والارض وقال السدى وضع فى الارض العدل الذى أمر به يقال وضع الله الشريعة ووضع فلان كذا أى ألقه وقيل على هذا الميزان القرآن لان فيه بيان ما يحتاج اليه وهو قول الحسين بن الفضل وقال الحسن وقتادة والضحاك هو الميزان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض وهو خبر بمعنى الامر بالعدل يدل عليه قوله تعالى وأقيموا الوزن بالقسط والقسط هو العدل وقيل هو الحكم وقيل المراد وضع الميزان فى الآخرة لوزن الاعمال (ان) أى لاجل ان (لا تطغوا) أى تجاوزوا الحدود (فى الميزان) فمن قال الميزان العدل قال طغيانه الجور ومن قال انه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس قال ابن عباس لا تخونوا من وزنتم له وعنه انه قال يا معشر الموالى وليتم أمرين بهما هلك الناس المكيال والميزان ومن قال انه الحكم قال طغيانه التحريف وقيل فيه اضمار أى وضع الميزان وأمركم أن لا تطغوا فيه (فان قيل) اذا كان المراد به ما يوزن به فأى نعمة عظيمة فيه حتى يعد فى الآلاء (أجيب) بأن النفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد أن يغلبه غيره ولو فى الشئ اليسير ويرى ان ذلك استهانة به فلا يترك خصمه يغلبه فوضع الله تعالى معيارا بين به التساوى ولا تقع به البغضاء بين الناس وهو الميزان وهو كل ما يوزن به الاشياء بين الناس ويعرف مقاديرها به من ميزان ومكيال ومقياس فهو نعمة كاملة ولا ينظر الى عدم ظهور نعمته وكثرته وسهولة الوصول اليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما الا عند فقدهما (وأقيموا الوزن بالقسط) اى افعلوه مستقيما بالعدل وقال أبو الدرداء أقيموا لسان الميزان بالعدل وقال ابن عيينة الاقامة باليد والقسط بالقلب وقال مجاهد القسط العدل بالرومية (ولا تخسروا الميزان) أى لا تنقصوا الموزون أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديد اللتوصية وتقوية للامر باستعماله والحث عليه وقيل كرره لحال رؤس الآى وقيل كرره ثلاث مرات الاول بمعنى الآلة وهو قوله تعالى ووضع الميزان والثانى بمعنى المصدر أى لا تطغوا فى الوزن والثالث للمفعول أى لا تخسروا الموزون قال ابن عادل وبين القرآن والميزان مناسبة فان القرآن فيه العلم الذى لا يوجد فى غيره من الكتب والميزان به يقام العدل الذى لا يقام بغيره من

الآلات ولما ذكر انعامه الدال على اقتداره برفع السماء ذكر على ذلك الوجه مقابلها بعد ان وسط بينهما ما قام به من العدل تنبيها على شدة العناية والاهتمام به فقال تعالى (والارض) أى ووضع الارض ثم فسر ناصبها كما فعل فى قوله تعالى والسماء رفعها فقال تعالى (وضعها) أى دحاها وبسطها على الماء (للانام) أى كل من فيه قابلية النوم أو قابلية الونيم وهو الصوت وقيل هو الحيوان وقيل بنو آدم خاصة وهو مروى عن ابن عباس ونقل النووى فى التهذيب عن الزبيدى الانام الخلق قال ويجوز الانيم وقال الواحدى قال الليث الانام ما على ظهر الارض من جميع الخلق وقال الحسن هم الانس والجن (فيها) أى الارض (فاكهة) أى ما يتفكه به الانسان من ألوان الثمار ونكرها لان الانتفاع بها دون الانتفاع بما ذكر بعدها فهو من باب الترقى من الادنى الى الاعلى اذ التنكير فيها للتعظيم والتكثير نبه عليه بتعريف فرع منها ونوه به لان فيه مع التفكه التقوت وهو أكثر ثمار العرب المقصودين بهذا الذكر بالقصد الاول فقال تعالى (والنخل) ودل على تمام القدرة بقوله تعالى (ذات) أى صاحبة (الاكمام) أى أوعية ثمرها وهو الطلع قبل أن ينفتق بالثمر والاكمام جمع كم بالكسر قال الجوهرى والكم بالكسر والكمامة وعاء الطلع وغطاء النور والجمع كمام وأكمة واكمام والكمامة ما يكم به فم البعير لئلا يعض وكم القميص بالضم والجمع اكمام وكممة والكمة القلنسوة المدورة لانها تغطى الرأس (والحب) أى جميع الحبوب التى يقتات بها كالحنطة والشعير (ذو العصف) قال ابن عباس تبن الزرع وورقه الذى يعصفه الريح وقال مجاهد ورق الشجر والزرع وقال سعيد بن جبير بقل الزرع الذى أول ما ينبت منه وهو قول الفراء والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع اذا قطعوا منه قبل أن يدرك وقيل العصف حطام النبات (والريحان) وهو فى الاصل مصدر ثم أطلق على الرزق قال ابن عباس ومجاهد والضحاك هو الرزق بلغة حمير كقولهم سبحان الله وريحانه نصبوهما على المصدر يريدون تنزيه الله واسترزاقا وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقتادة انه الريحان الذى يشم وهو قول ابن زيد وقال سعيد بن جبير هو ما قام على ساق وقال الفراء العصف المأكول من الزرع والريحان ما لا يؤكل وقال الكلبى العصف الورق الذى يؤكل والريحان هو الحب المأكول وقيل كل بقلة طيبة الريح سميت ريحانا لان الانسان يراح لها رائحة طيبة أى يشم وفى الصحاح والريحان نبت معروف والريحان الرزق تقول خرجت ابتغى ريحان الله وفى الحديث الولد من ريحان الله وقرأ ابن عامر بنصب الحب وذا والريحان بخلق مضمرا أى وخلق الحب وذا العصف والريحان وقرأ حمزة والكسائى برفع الحب وذو عطفا على فاكهة وجر الريحان عطفا على العصف والباقون برفع الثلاثة عطفا على فاكهة أى وفيها أيضا هذه الاشياء ولما دخل فى قوله تعالى والارض وضعها للانام الجن والانس خاطبهما بقوله تعالى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن اليكما المدبر لكما الذى لا مدبر ولا سيد لكما غيره (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها وكرر هذه الآية فى هذه السورة فى احد وثلاثين

قوله الونيم وهو الصوت لم يذكره بهذا المعنى فى القاموس اه

موضعا تقريرا للنعمة وتأكيدا فى التذكير وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها ليفهمهم النعم ويقررهم بها كما تقول لمن تتابع عليه احسانك وهو يكفره وينكره ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا ألم تكن راجلا فحملتك أفتنكر هذا والتكرير حسن فى مثل هذا قال القائل * كم نعمة كانت لكم كم وكم * وقال آخر

لا تقتلى مسلما ان كنت مسلمة * اياك من دمه اياك اياك

(وقال آخر)

لا تقطعن الصديق ما طرفت * عيناك من قول كاشح أشر
ولا تملن يوما زيارته * زره وزره وزر وزر وزر

وقال الحسن بن الفضل التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة قال بعض العلماء والتكرير ههنا كما تقدم فى قوله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر وكقوله تعالى فبما سيأتى ويل يومئذ للمكذبين وذهب جماعة منهم ابن قتيبة الى أن التكرير لاختلاف النعم فلذلك كرر التوقيف مع كل واحدة وقال الرازى وذكره بلفظ الخطاب على سبيل الالتفات والمراد به التقرير والزجر وذكر لفظ الرب لانه يشعر بالرحمة قال وكررت هذه اللفظة فى هذه السورة نيفا وثلاثين مرة اما للتأكيد ولا يعقل لخصوص العدد معنى وقيل الخطاب مع الانس والجن والنعمة منحصرة فى دفع المكروه وتحصيل المقصود وأعظم المكروهات نار جهنم ولها سبعة أبواب وأعظم المقاصد نعيم الجنة ولها ثمانية أبواب فالمجموع خمسة عشر وذلك بالنسبة للانس والجن ثلاثون والزائد لبيان التأكيد وروى جابر بن عبد الله قال قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال مالى أراكم سكوتا للجن كانوا أحسن منكم ردا ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأى آلاء ربكما تكذبان الا قالوا ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد وقرأ ورش فبأى آلاء على أصله بالمد والتوسط والقصر جميع ما فى هذه السورة * ولما ذكر تعالى خلق العالم الكبير من السماء والارض وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال تعالى (خلق الانسان) أى آدم عليه السلام (من صلصال) أى من طين يابس له صلصلة أى صوت اذا نقر (كالفخار) أى كالخزف المصنوع المشوى بالنار وقيل هو طين خلط برمل وقيل هو الطين المنتن من صل اللحم وأصل اذا أنتن *(تنبيه)* قال تعالى هنا من صلصال كالفخار وقال تعالى فى الحجر من حمأ مسنون وقال تعالى فى الصافات من طين لازب وقال تعالى فى آل عمران كمثل آدم خلقه من تراب وكله متفق المعنى وذلك أنه أخذه من تراب الارض فعجنه بالماء فصار طينا ثم تركه حتى صار حمأ مسنونا ثم منتنا ثم صوره كما يصور الابريق وغيره من الاوانى ثم أيبسه حتى صار فى غاية الصلابة فصار كالخزف الذى اذا نقر صوت صوتا يعلم منه هل فيه عيب أولا فالمذكور هنا آخر تخليقه وهو أنسب بالرحمانية وفى غيرها تارة بمبدئه وتارة أثنائه فالارض أمه والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذى هو من فيح جهنم فمن التراب جسده ونفسه ومن الماء روحه

وعقله ومن النار غوايته وحدته ومن الهواء حركته وتقلبه فى محامده ومذامه فالغالب فى جبلته
التراب فلهذا نسب اليه وان خلق من العناصر الاربع كما أن الجان خلق من العناصر الاربع
لكن الغالب فى جبلته النار فنسب اليها كما قال تعالى (وخلق الجان) أى أبا الجن وهو ابليس
وقيل هو أبو هم وليس هو بابليس وقيل هو اسم جنس كالانسان (من مارج من نار) وهو اللهب
الخالص من الدخان وقال القشيرى هو اللهب المختلط بسواد النار فالنار أغلب عناصره
وقال الليث المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد وعن ابن عباس أنه اللهب الذى
يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر وهو مشاهد فى النار ترى الالوان الثلاثة
مختلطا بعضها ببعض ونحوه عن مجاهد وقال أبو عبيدة والحسن المارج المختلط من النار
وأصله من مرج اذا اضطرب واختلط قال القرطبى يروى ان الله تعالى خلق نارين فمرج
احداهما بالاخرى فأكلت احداهما الاخرى وهى نار السموم فخلق منها ابليس *(تنبيه)*
من مارج من نار من الاولى لابتداء الغاية وفى الثانية وجهان أحدهما أنها للبيان والثانى
أنها للتبعيض (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) الناشئة عن مبدئكما ومربيكما وسيدكما
(تكذبان) أى مما أفاض عليكما فى أطوار خلقتكما حتى صيركما أفضل المركبات وخلاصة
الكائنات (رب) أى خالق ومدبر (المشرقين) أى مشرق الشتاء ومشرق الصيف (ورب
المغربين) كذلك (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الذى دبر لكما هذا التدبير العظيم (تكذبان)
أى بما فى ذلك من الفوائد التى لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث
ما يناسب كل فصل فيه الى غير ذلك (مرج) أى أرسل الرحمن (البحرين) أى العذب والملح
فجعلهما مضطربين من طبعهما الاضطراب حال كونهما (يلتقيان) أى يتماسان على وجه
الارض بلا فصل بينهما فى رؤية العين وقال ابن عباس بحر السماء وبحر الارض قال سعيد
ابن جبير يلتقيان فى كل عام وقيل يلتقى طرفاهما وقال الحسن وقتادة بحر فارس والروم
وقال ابن جريج البحر المالح والانهار العذبة وقيل بحر المشرق وبحر المغرب وقيل بحر اللؤلؤ
وبحر المرجان (بينهما برزخ) أى حاجز عظيم فعلى القول بأنهما بحر السماء وبحر الارض فالحاجز
الذى بينهما هو ما بين السماء والارض قاله الضحاك وعلى الاقوال الباقية قال الحسن وقتادة
هو الارض وقال بعضهم هو القدرة الالهية وهذا أولى (لا يبغيان) اختلف فيه فقال قتادة
لا يبغيان على الناس فيغرقانهم كما طغيا فأهلكا من على الارض فى أيام نوح عليه السلام فجعل
بينهما وبين الناس اليبس وقال مجاهد وقتادة أيضا لا يبغى أحدهما على صاحبه فيغلبه
وقيل البرزخ ما بين الدنيا والآخرة أى بينهما مدة قدرها الله تعالى وهى مدة الدنيا فهما لا يبغيان
فاذا أذن الله تعالى فى انقضاء الدنيا صار البحران شيأ واحدا وهو كقوله تعالى واذا البحار فجرت
وقال سهل بن عبد الله البحران طريق الخير والشر والبرزخ الذى بينهما التوفيق والعصمة
وقال الرازى معنى الآية ان الله تعالى أرسل بعض البحرين الى بعض ومن شأنهما الاختلاط
فحجزهما ببرزخ من قدرته فهما لا يبغيان أى لا يتجاوز كل واحد منهما ما حده له خالقه

لا فى الظاهر ولا فى الباطن فتى حفرت على جنب الملح فى بعض الاماكن وجدت الماء العذب وان قربت الحفرة منه قال البقاعى بل كلما قربت كان أحلى فخلطهما سبحانه فى رأى العين وحجزبينهما فى غيب القدرة هذا وهما جمادان لا نطق لهما ولا ادراك فكيف يبغى بعضكم على بعض أيها المدركون العقلاء (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الموجد لكما والمربى (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها فهلا اعتبرتم بهذه الاصول من أنواع الموجودات فصدقتم بالآخرة لعلكم تنجون من عذاب الله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ) وهو كبار الجوهر (والمرجان) وهو صغار الجوهر قاله على وابن عباس والضحاك وقيل بالعكس وقيل المرجان حجر أحمر وقيل حجر شديد البياض والمرجان أعجمى أى بمخالطة العذب المالح من غير واسطة أو بواسطة السحاب فصار ذلك كالذكر والانثى وقال الرازى فيكون العذب كاللقاح للملح وقال أبو حيان قال الجمهور انما يخرج من الاجاج فى المواضع التى تقع فيها الانهار والمياه العذبة فأسند ذلك اليهما وهذا مشهور عند الغواصين قال مكى كما قال على رجل من القريتين عظيم أى من احدى القريتين وحذف المضاف كثير شائع وقيل هو كقوله تعالى نسيا حوتهما وانما الناسى فتاه ويعزى لابى عبيدة قال البغوى وهذا جائز فى كلام العرب ان يذكر شيآن ثم يخص أحدهما بفعل كقوله تعالى يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم وكانت الرسل من الانس وقيل يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان وقيل بل يخرجان منهما جميعا وقال ابن عباس تكون هذه الاشياء فى البحر بنزول المطر والصدف تفتح أفواهها للمطر وقد شاهده الناس فيكون تولده من بحر السماء وبحر الارض وهذا قول الطبرى وقال الزمخشرى فان قلت لم قال منهما وانما يخرجان من الملح قلت لما التقيا وصارا كالشئ الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر وانما يخرجان من بعضه وتقول خرجت من البلد وانما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره وقيل لا يخرجان الا من ملتقى الملح والعذب اه وقال بعضهم كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس فمن الجائز أنه يسوقهما من البحر العذب الى الملح واتفق أنهم لم يخرجوهما الا من الملح واذا كان فى البر أشياء تخفى على التجار المترددين القاطعين المفاوز فكيف بما فى قعر البحر قال ابن عادل والجواب عن هذا ان الله تعالى لا يخاطب الناس ولا يمتن عليهم الا بما يألفون ويشاهدون وقرأ نافع وأبو عمرو يخرج بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول والباقون بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل على المجاز وقرأ السوسى وشعبة بابدال الهمزة الساكنة واوا وصلا ووقفا واذا وقف حمزة أبدل الاولى والثانية (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الملك الاعظم المالك لكما (تكذبان) أبكثرة النعم من خلق المنافع فى البحار وتسليطكم عليها واخراج الحلى العجيبة أم بغيرها (وله) أى لا لغيره (الجوارى) أى السفن الكبار والصغار الفارغة والمشحونة فلا تغتروا بالاسباب الظاهرة فتقفوا معها فتسندوا شيأ من ذلك اليها وقرأ (المنشآت) حمزة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر

الشين بمعنى أنها تنشئ الموج بجريها أو تنشئ السير اقبالا وادبارا أو التي رفعت شراعها أي قلوعها والشراع القلع وعن مجاهد كل ما رفعت قلعها فهي من المنشآت والا فليست منها ونسبة الرفع اليها مجاز كما يقال أنشأت السحابة المطر وقرأ الباقون بفتح الشين وهو اسم مفعول أي أنشأها الله تعالى أو الناس أو رفعوا شراعها *(تنبيه)* الجواري جمع جارية وهي اسم أو صفة للسفينة وخصها بالذكر لان جريها في البحر لا صنع للبشر فيه وهم معترفون بذلك فيقولون لك الفلك ولك الملك واذا خافوا الغرق دعوا الله وحده وسميت السفينة جارية لان شأنها ذلك وان كانت واقفة في الساحل كما سماها في موضع آخر بالجارية كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية وسماها بالفلك قبل ان تكن كذلك فقال تعالى لنوح عليه السلام واصنع الفلك بأعيننا ثم بعد ما عملها سماها سفينة فقال تعالى فأنجيناه وأصحاب السفينة قال الرازي فالفلك أولا ثم السفينة ثم الجارية اه والمرأة المملوكة تسمى أيضا جارية لان شأنها الجري والسعي في حوائج سيدها بخلاف الزوجة فهي من الصفات الغالبة والسفينة فعيلة بمعنى فاعلة عند ابن دريد كأنها تسفن الماء وفعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى مسفونة وقوله تعالى (في البحر) متعلق بالمنشآت وقوله تعالى (كالاعلام) حال اما من الضمير المستكن في المنشآت واما من الجواري وكلاهما بمعنى واحد والاعلام الجبال والعلم الجبل الطويل علما على الارض قال القائل

*اذا قطعنا علما بدا الناعلم * وقال آخر

ربما أوفيت في علم * ترفعن ثوبي شمالات

وقالت الخنساء في أخيها صخر

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم في رأسه نار

أي جبل فالسفن في البحر كالجبال في البر وجمع الجواري ووحد البحر وجمع الاعلام اشارة الى عظمة البحر (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) العظمى التي عمت خلقه (تكذبان) أبتلك النعم من خلق مواد السفن والارشاد الى أخذها وكيفية تركيبها واجرائها في البحر وأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره أم غيرها وقوله تعالى (كل من عليها فان) أي هالك غلب فيه من يعقل على غيره وجميعهم مرادو الضمير في عليها للارض قال بعضهم وان لم يجر لها ذكر كقوله تعالى حتى توارت بالحجاب ورده هذا بأنه قد تقدم ذكرها في قوله تعالى والارض وضعها وقيل الضمير عائد الى الجواري قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلكت أهل الارض فنزل كل شيء هالك الا وجهه فأيقنت الملائكة بالهلاك (فان قيل) الكلام في تعدد النعم فأين النعمة في فناء الخلق (أجيب) بأنها التسوية بينهم في الموت والموت سبب للنقل الى دار الجزاء والثواب (ويبقى) أي بعد فناء الكل بقاء مستمرا الى ما لا نهاية له (وجه ربك) أي ذاته فالوجه عبارة عن وجود ذاته قال ابن عباس الوجه عبارة عنه (فان قيل) كيف خاطب الاثنين بقوله فبأي آلاء ربكما تكذبان وخاطب ههنا الواحد فقال ويبقى وجه ربك ولم يقل وجه

ربكما (أجيب) بأن الاشارة ههنا وقعت الى كل أحد فقال ويبقى وجه ربك أيها السامع ليعلم كل أحد ان غيره فان فلو قال ويبقى وجه ربكما لكان كل أحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب عن الفناء (فان قيل) فلو قال ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل (أجيب) بأن كاف الخطاب فى الرب اشارة الى اللطف والابقاء اشارة الى القهر والموضع موضع بيان الالطاف وتعديد النعم فلهذا قال بلفظ الرب وكاف الخطاب * ولما ذكر تعالى مبا ينته للمخلوقات وصف نفسه بالاحاطة الكاملة فقال تعالى (ذو الجلال) أى العظمة التى لا ترام وهو صفة ذاته التى تقتضى اجلاله عن كل ما لا يليق به (والاكرام) أى الاحسان العام وهو صفة فعله مع جلاله وعظمته (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المربى لكما على هذا الوجه الذى مآله الى العدم الى أجل مسمى (تكذبان) أبتلك النعم من بقاء الرب وفناء الكل والحياة الدائمة والنعيم المقيم أم بغيرها وقوله تعالى (يسأله من فى السموات) أى كلها كلهم (والارض) كذلك مستأنف وقيل حال من وجه والعامل فيه يبقى أى يبقى مسؤلا من أهل السموات والارض بلسان الحال أو المقال أو بهما قال ابن عباس وأبو صالح أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق وأهل الارض يسألونهما جميعا وقال ابن جريج يسأله الملائكة الرزق لاهل الارض فكانت المسئلتان جميعا من أهل السماء وأهل الارض لاهل الارض كما فى الحديث قال القرطبى وفى الحديث ان من الملائكة ملكا له أربعة أوجه وجه كوجه الانسان يسأل الله تعالى الرزق لبنى آدم ووجه كوجه الاسد وهو يسأل الله تعالى الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله تعالى الرزق للبهائم ووجه كوجه النسر وهو يسأل الله تعالى الرزق للطير وقال ابن عطاء انهم يسألونه القوة على العبادة وقوله تعالى (كل يوم) منصوب بالاستقرار الذى تضمنه الخبر وهو قوله تعالى (هو فى شان) والشان الامر روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كل يوم هو فى شان قال من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربة ويرفع أقواما ويضع آخرين وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا وقال أكثر المفسرين من شأنه أنه يحيى ويميت ويرزق ويعز قوما ويذل قوما ويشفى قوما ويفرج مكروبا ويجيب داعيا ويعطى سائلا ويغفر ذنبا الى ما لا يحصى من أفعاله واحداثه فى خلقه ما يشاء وروى البغوى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ان مما خلق الله عز وجل لوحا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيى ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى كل يوم هو فى شان وقال سفيان بن عيينة الدهر كله عند الله تعالى يومان أحدهما اليوم الذى هو مدة عمر الدنيا فشأنه فيه أى فى كل يوم من أيامها الامر والنهى والاماتة والاحياء والاعطاء والمنع والثانى يوم القيامة وشأنه فيه الجزاء والحساب والثواب والعقاب وقال أبو سليمان الدارانى فى هذه الآية له فى كل يوم الى العبيد بر جديد وقال بعض المفسرين شأنه تعالى أنه يخرج فى كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكرا من أصلاب الآباء الى أرحام الامهات وعسكرا من الارحام الى الدنيا وعسكرا

من الدنيا الى القبور ثم يرتحلون جمعا الى الله تعالى وقيل نزلت فى اليهود حين قالوا ان الله لا يقضى يوم السبت شيأ وسأل بعض الملوك وزيره عن هذه الآية فاستمهله الى الغد وذهب كئيبا يتفكر فيها فقال له غلام أسود يا مولاى أخبرنى ما أصابك لعل الله تعالى يسهل لك على يدى فأخبره فقال أنا أفسرها للملك فأعلمه فقال أيها الملك شأن الله تعالى أن يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويشفى سقيما ويسقم صحيحا ويبتلى معافى ويعافى مبتلى ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويفقر غنيا ويغنى فقيرا فقال الامير أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال يا مولاى هذا من شأن الله تعالى وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشف لى قوله تعالى فاصبح من النادمين وقد صح أن الندم توبة وقوله تعالى كل يوم هو فى شان وصح أن القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ماسعى فمعناه ليس له الا ما سعى فما بال الاضعاف قال الحسين يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الامة ويكون فى هذه الامة لان الله تعالى خص هذه الامة بخصائص لم تشاركهم فيها الامم وقيل ان ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله وأما قوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى فمعناه انه ليس له الا ما سعى عدلا ولى أن أجزيه بواحدة ألفا فضلا وأما قوله تعالى كل يوم هو فى شان فانها شؤن يبديها لا شؤن يبتديها فقام عبد الله فقبل رأسه وسوغ خراجه (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المدبر لكما هذا التدبير العظيم (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها (سنفرغ لكم) أى سنقصد لحسابكم وجزائكم وقرأ حمزة والكسائى بعد السين بالياء التحتية والباقون بالنون (أيه الثقلان) أى الانس والجن وذلك يوم القيامة فانه تعالى لا يفعل ذلك فى غيره قال القرطبى يقال فرغت من الشغل أفرغ فراغا وفروغا وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلت وليس بالله تعالى شغل يفرغ منه وانما المعنى سنقصد لمجازاتكم ومحاسبتكم فهو وعيد لهم وتهديد قاله ابن عباس والضحاك كقول القائل لمن يريد تهديده اذا أتفرغ لك أى أقصدك وأنشد ابن الانبارى لجرير

الآن وقد فرغت الى نمير * فهذا حين كنت لهم عذابا

يريد وقد قصدت وأنشد الزجاج والنحاس * فرغت الى العبد المقيد فى الحجل * وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم انه لما بايع الانصار ليلة العقبة صاح الشيطان يا أهل الجباجب هذا مذمم يبايع بنى قيلة على حربكم فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا أزب العقبة أما والله يا عدو الله لا تفرغن لك أى أقصد الى ابطال أمرك وهذا اختيار الكسائى وغيره قال ابن الاثير الازب فى اللغة الكثير الشعر وهو ههنا شيطان اسمه أزب العقبة وهو الحية وقيل ان الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور ثم قال تعالى سنفرغ لكم أيها الثقلان أى مما وعدناكم ونوصل كلا الى ما وعدناه أقسم ذلك وأتفرغ منه قاله الحسن ومقاتل وابن زيد * (تنبيه) * رسم أيه بغير ألف فاذا وقف عليها وقف أبو عمرو والكسائى أيها بالالف ووقف الباقون على الرسم أيه وفى

الوصل قرأ ابن عامر أيه برفع الهاء والباقون بنصبها * (فائدة) * سمى الانس والجن بالثقلين لعظم شأنهما بالاضافة الى ما فى الارض من غيرهما بسبب التكليف، وقيل سموا بذلك لانهما ثقلا الارض أحياء وأمواتا قال الله تعالى وأخرجت الارض أثقالها ومنه قولهم اعطه ثقله أى وزنه وقال بعض أهل المعانى كل شئ له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل ومنه قيل لبيض النعام ثقل لان واجده وصائده يفرح به اذا ظفر به وقال جعفر الصادق سميا ثقلين لانهما مثقلان بالذنوب وقيل الثقل الانس لشرفهم وسمى الجن بذلك مجازا للمجاورة والتغليب كالقمرين والعمرين والثقل العظيم الشريف قال صلى الله عليه وسلم انى تارك فيكم ثقلين كتاب الله عز وجل وعترتى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن اليكما بهذا الصنيع المحكم (تكذبان) أى أبتلك النعم من اثابة أهل طاعته وعقوبة أهل معصيته أم بغيرها (يامعشر الجن) أى ياجماعة فيهم الاهلية والعشرة والتصادق (والانس) أى الخواص والمستأنسين والمأنوسين المبنى أمرهم على الاقامة والاجتماع (ان استطعتم) أى وجدت لكم اطاعة الكون فى (أن تنفذوا) أى تسلكوا بأجسامكم وتمضوا من غير مانع يمنعكم (من أقطار) أى نواحى (السموات والارض) هاربين من الله تعالى من أنواع الجزاء بينكم أو عصيانا غلبة فى قبول أحكامه وجرى مراداته وأقضيته عليكم من الموت وغيره وقوله تعالى (فانفذوا) أمر تعجيز والمعنى ان استطعتم أن تجوزوا نواحى السموات والارض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا يعنى لامهرب لكم ولا خروج لكم عن ملك الله تعالى أينما توليتم فثم ملك الله عز وجل (فان قيل) ما الحكمة فى تقديم الجن على الانس ههنا وتقديم الانس على الجن فى قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن (أجيب) بأن النفوذ من أقطار السموات والارض بالجن أليق ان أمكن والاتيان بمثل القرآن بالانس أليق ان أمكن فقدم فى كل موضع ما يليق به (فان قيل) لم جمع فى قوله تعالى سنفرغ لكم وفى قوله تعالى ان استطعتم وثنى فى قوله أيه الثقلان (أجيب) بأنهما فريقان فى حال الجمع كقوله تعالى فاذا هم فريقان يختصمون وهذان خصمان اختصموا فى ربهم (لا تنفذون) أى لا تقدرون على النفوذ (الا بسلطان) أى الا بقوة وقهر وأنى لكم ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال معناه ان استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والارض فاعلموا ولن تعلموا الا بسلطان أى بينة من الله تعالى * (تنبيه) * فى هذه الآيات والتى فى الاحقاف وفى قل أوحى دليل على أن الجن مكلفون مخاطبون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالانس سواء مؤمنهم كمؤمنهم وكافرهم ككافرهم (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المحسن اليكما المربى لكما بما تعرفون به قدرته على ما يريد (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها وقال البغوى وفى الخبر يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون يامعشر الجن والانس ان استطعتم الآية فذلك قوله تعالى (يرسل عليكما) أى أيها المعاندون قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حين يخرجون من القبور لسوقهم الى المحشر (شواظ من نار) قال مجاهد هو اللهب الاخضر المنقطع من النار وقال ابن عباس

رضى الله تعالى عنهما هو اللهب الخالص الذى لادخان له وقال الضحاك هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس كدخان الحطب وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما اذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ الى المحشر وقيل هو اللهب الاحمر وقال عمرو هو النار والدخان جميعا وحكاه الاخفش عن بعض العرب قال حسان

هجوتك فاختضعت لها بذل * بقافية تأجج كالشواظ

وقرأ ابن كثير بكسر الشين والباقون بضمها وهما لغتان بمعنى واحد مثل صوار من البقر وصوار وهو القطيع من البقر. واختلف فى قوله سبحانه وتعالى (ونحاس) فقيل هو الصفر المعروف يذيبه الله تعالى ويعذبهم به وقيل هو الدخان الذى لا لهب معه قاله الخليل وهو معروف فى كلام العرب وأنشد الاعشى

تضىء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

وقال ابن برحان والعرب تسمى الدخان نحاسا بضم النون وكسرها وأجمع القراء على ضمها اه وقال الضحاك هو دردى الزيت المغلى وقال الكسائى التى لها ريح شديد (فلا تنتصران) أى فلا تمتنعان ولا ينصر بعضكم بعضا من ذلك بل يسوقكم الى المحشر (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المدبر لكما هذا التدبير المتقن (تكذبان) أبتلك النعم فان التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصى بالجزاء والانتقام من الكفار فى عداد الآلاء أم بغيرها (فاذا انشقت السماء) أى انفرجت فكانت أبوابا لنزول الملائكة (فكانت وردة) أى محمرة مثل الوردة (كالدهان) أى كالاديم الاحمر على خلاف العهد بها لشدة حر نار جهنم وقال مجاهد والضحاك وغيرهما الدهان الدهن والمعنى صارت فى صفاء الدهن والدهان على هذا جمع دهن وقال سعيد بن جبير وقتادة المعنى تصير فى حمرة الورد وجريان الدهن أى تذوب مع جريان الدهن حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها وقال الحسن كصب الدهن فانك اذا صببته ترى فيه ألوانا وجواب اذا محذوف أى رأيت أمرا هائلا أعظم الهول (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الخالق والرازق لكما (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما يكون بعد ذلك (فيومئذ) أى فتسبب عن يوم اذ انشقت السماء أنه (لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) أى سؤال تعرف واستعلام بل سؤال تقريع وتوبيخ وملام وذلك أنه لا يقال له هل فعلت كذا بل يقال له لم فعلت كذا على أن ذلك اليوم طويل وهو ذو ألوان تارة يسئل فيه وتارة لا يسئل والامر فى غاية الشدة وكل لون من تلك الالوان يسمى يوما فيسئل فى بعض ولا يسئل فى بعض وقيل المعنى لا يسئلون اذا استقروا فى النار وقال الحسن وقتادة لا يسئلون عن ذنوبهم لان الله تعالى حفظها عليهم وكتبتها الملائكة رواه العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن الحسن ومجاهد لا تسأل الملائكة عنهم لانهم يعرفونهم بسيماهم دليله قوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم ورواه مجاهد عنه أيضا فى قوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين وقوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان قال لا يسألهم ليعرف ذلك منهم ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ وقال أبو العالية لا يسئل

غير المجرم عن ذنب المجرم وقال قتادة يسئلون قبل الختم على أفواههم ثم يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم شاهدة عليهم *(تنبيه)* الجان هنا وفيما يأتى بمعنى الجنى والانس بمعنى الانسى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الذى ربى كلا منكما لا مطمع فى انكاره ولا خفاء فيه (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما أنعم الله تعالى على عباده المؤمنين فى هذا اليوم (يعرف) أى لكل أحد (المجرمون) أى العريقون فى هذا الوصف (بسيماهم) أى العلامات التى صور الله تعالى ذنوبهم فيها فجعلها ظاهرة بعد أن كانت باطنة وظاهرة الدلالة عليهم كما يعرف الآن الليل اذا جاء لا يخفى على أحد أصلا وكذا النهار ونحوهما الغير الاعمى قال البقاعى وتلك السيمى والله أعلم زرقة العيون وسواد الوجوه والعمى والصمم والمشى على الوجوه ونحو ذلك وكما يعرف المحسنون بسيماهم من بياض الوجوه واشراقها وتبسمها والغرة والتحجيل ونحو ذلك وسبب عن هذه المعرفة قوله تعالى مشيرا بالبنا للمفعول الى سهولة الاخذ من أى آخذ كان (فيؤخذ بالنواصى) أى منهم وهى مقدمات الرؤس (والاقدام) بعد أن يجمع بينها فيسحبون بها سحبا من كل ساحب أقامه الله تعالى لذلك لا يقدرون على الامتناع بوجه فيلقون فى النار وقال الضحاك يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره وعنه يؤخذ برجلى الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى فى النار وفعل بالكافر ذلك ليكون أشد لعذابه وقيل تسحبه الملائكة الى النار تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على وجهه (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المنعم عليكما الذى دبر مصالحكم بعد أن أوجدكم (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما وعدان يفعل من الجزاء فى الآخرة لكل شخص بما كان يعمل فى الدنيا أو غير ذلك من الفضل (هذه جهنم) أى يقال لهم اذا ألقوا فيها هذه جهنم (التى يكذب) أى ماضيا وحالا وما لا استهانة ولو ردوا الى الدنيا بعد ادخالهم اياها لعادوا لما نهوا عنه (بها المجرمون) أى المشركون الحقيقون بالاجرام وهو قطع ما من حقه أن يوصل وهو ما أمر الله تعالى به وخص هذا الاسم اشارة الى أنهم ما تلقاهم بالتجهم والعبوسة والكلاحة والفظاظة كما كانوا يفعلون مع الصالحين عند الاجرام المذكور (يطوفون بينها) أى بين دركات النار (وبين حميم آن) أى حار متناه فى الحرارة وهو منقوص كقاض يقال أنى يأنى فهو آن كقضى يقضى فهو قاض والمعنى أنهم يسعون بين الحميم والجحيم فاذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآن الذى صار كالمهل وهو قوله تعالى وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل وقال كعب الاحبار واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم فى الاغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم خلقا جديدا فيلقون فى النار فذلك قوله تعالى يطوفون بينها وبين حميم آن (فان قيل) هذه الامور ليست نعمة فكيف قال عز وجل (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن أيها الثقلان اليكما (تكذبان) (أجيب) من وجهين أحدهما أن ما وصف من هول يوم القيامة وعقاب المجرمين فيه زجر عن المعاصى وترغيب فى الطاعات وهذا من أعظم النعم روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى على شاب يقرأ فى

الليل فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحي من يوم تنشق فيه السماء ويحي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ويحك يافتى مثلها فوالذى نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء من بكائك الثاني أن المعنى ان كذبتم بالنعمة المتقدمة استحقيتم هذه العقوبات وهي دالة على الايمان بالغيب وهو من أعظم النعم * ولما عرف ما للمجرم المجترئ على العظائم وقدمه لما اقتضاه مقام التكذيب من الترهيب وجعله سابعا اشارة الى أبواب النار السبع عطف عليه ما للخائف الذى أداه خوفه الى الطاعة وجعله ثامنا على عدد أبواب الجنة الثمانية فقال تعالى (ولمن خاف) أى من الثقلين ووحد الضمير مراعاة للفظ من اشارة الى قلة الخائفين (مقام ربه) أي قيامه بين يدى ربه للحساب بترك المعصية والشهوة قال القرطبي ويجوز ان يكون المقام للعبد ثم يضاف الى الله تعالى وهو كالاجل في قوله تعالى فاذا جاء أجلهم وقوله تعالى في موضع آخر ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر وقال مجاهد هو الذى يهم بالمعصية فيذكر الله تعالى فيدعها من مخافته عز وجل (جنتان) أى لكل خائف جنتان على حدة قال مقاتل جنة عدن وجنة النعيم وقال محمد بن على الترمذى جنة بخوف ربه وجنة بترك شهوته وقال ابن عباس من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض وقيل جنتان لجميع الخائفين وقيل جنة لخائف الانس واخرى لخائف الجن فيكون من باب التوزيع وقيل مقام هنا مقحم كما تقول أخاف جانب فلان وفعلت هذا لمكانك وأنشد ونفيت عنه * مقام الذئب كالرجل اللعين يريد ونفيت عنه الذئب قال ابن عادل وليس بجيد لان زيادة الاسم ليست بالسهلة وقيل ان الجنتين جنته التى خلقت له وجنة ورثها وقيل احدى الجنتين منزله والاخرى منزل أزواجه كما يفعل رؤساء الدنيا وقيل احدى الجنتين مسكنه والاخرى بستانه وقيل احدى الجنتين أسافل القصور والاخرى أعاليها وقال الفراء انها جنة واحدة وانما ثنى مراعاة لرؤس الآى وأنكر القتيبي هذا وقال لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وانما قال تسعة عشر مراعاة لرؤس الآى وقيل جنة واحدة وانما ثنى تأكيدا كقوله تعالى ألقيا فى جهنم وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الا ان سلعة الله تعالى الا ان سلعة الله تعالى الجنة أخرجه الترمذى قوله أدلج الادلاج مخففا سير أول الليل ومثقلا سير آخر الليل والمراد من الادلاج التشمير والجد والاجتهاد فى أول الامر فان من سار فى أول الليل كان جديرا ببلوغ المنزل روى البغوى بسنده عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص على المنبر وهو يقول ولمن خاف مقام ربه جنتان قلت وان زنى وان سرق يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت الثانية وان زنى وان سرق يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالثة ولمن خاف مقام ربه جنتان قلت الثالثة وان زنى وان سرق يا رسول الله قال وان زنى وان سرق على رغم انف أبي الدرداء * (فائدة) * قال القرطبي فى هذه الآية دليل على أن من قال لزوجته ان لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق انه لا يحنث ان كان هم بالمعصية وتركها خوفا من الله تعالى وحياء منه وقاله سفيان الثورى وأفتى به هذا ومذهب

الشافعي أنه لا يحنث اذا كان مسلما ومات على الاسلام وقال عطاء نزلت هذه الآية في أبي بكر حين ذكر ذات يوم الجنة حين أزلفت والنار حين أبرزت وقال الضحاك بل شرب ذات يوم لبنا على ظما فأعجبه فسأل عنه فأخبر عنه أنه من غير حل فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر اليه فقال رحمك الله لقد أنزلت فيك آية وتلا عليه الآية (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) المربي لكما باحسانه الكبار التي لا يقدر أحد على شيء منها (تكذبان) أبتلك النعمة أم بغيرها من نعمه التي لا تحصى ثم وصف الجنتين بقوله تعالى (ذواتا) أي صاحبتا أو خبر لمبتدأ محذوف أي هما ذواتا وفي تثنية ذات لغتان الرد الى الاصل فان أصلها ذوية فالعين واو واللام ياء لانها مؤنثة ذوو الثانية التثنية على اللفظ فيقال ذاتا وقوله تعالى (أفنان) فيه وجهان أحدهما أنه جمع فنن كطلل وهو الغصن المستقيم طولا تكون به الزينة بالورق والثمر وكمال الانتفاع قال النابغة الذبياني

بكاء حمامة تدعو هديلا * مفجعة على فنن تغني

وفي الحديث أهل الجنة مرد مكحولون أولو أفانين يريد الافانين وهو جمع أفنان وأفنان جمع فنن من الشعر شبه بالغصن ذكره الهروي وقال قتادة ذواتا أفنان أي ذواتا سعة وفضل على سواهما والوجه الثاني أنه جمع فن واليه أشار ابن عباس والمعنى ذواتا أنواع واشكال وقال الضحاك ألوان من الفاكهة واحدها فن الا أن الكثير في فن أن يجمع على فنون وقال عطاء كل غصن فنون من الفاكهة ولذا سبب عنه قوله تعالى (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المحسن اليكما والمدبر لكما (تكذبان) أبتلك النعم من وصف الجنة الذي جعل لكم من أمثاله ما تعتبرون به أم بغيرها * ولما كانت الجنان لا تقوم الا بالانهار قال تعالى (فيهما عينان تجريان) أي في كل واحدة منهما عين جارية قال ابن عباس تجريان ماء بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة وعن ابن عباس أيضا والحسن تجريان بالماء الزلال احدى العينين التسنيم والاخرى السلسبيل وقال عطية احداهما من ماء غير آسن والاخرى من خمر لذة للشاربين وقيل تجريان من جبل من مسك قال أبو بكر الوراق فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل فتجريان في أي مكان شاء صاحبهما وان علا مكانه كما تصعد المياه في الاشجار في كل غصن منها وان زاد علوها (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المالك لكما والمحسن اليكما (تكذبان) أبتلك النعم التي ذكرها وجعل لها في الدنيا أمثالا كثيرة أم بغيرها (فيهما) أي الجنتين (من كل فاكهة) أي تعلمونها أو لا تعلمونها (زوجان) أي صنفان ونوعان قيل معناه أن فيهما من كل ما يتفكه به ضربين رطبا ويابسا وقال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة الا وهي في الجنة حتى الحنظل الا أنه حلو فان قيل قوله تعالى ذواتا أفنان وفيهما عينان تجريان وفيهما من كل فاكهة زوجان كلها أوصاف للجنتين فالحكمة في فصل بعضها عن بعض بقوله تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان مع أنه تعالى لم يفصل حين ذكر العذاب بين الصفات بل قال تعالى يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران مع أن ارسال الشواظ غير ارسال النحاس (أجيب) بأنه تعالى جمع

العذاب جملة وفصل آيات الثواب ترجيحا لجانب الرحمة على جانب العذاب وتطييبا للقلب وتهييجا للسامع فان اعادة ذكر المحبوب وتطويل الكلام فى اللذات مستحسن (فان قيل) فما وجه توسط آية العينين بين ذكر الافنان وآية الفاكهة والفاكهة انما تكون على الاغصان فالمناسبة ان لا يفصل بين آية الاغصان والفاكهة (أجيب) بأن ذلك على عادة المتنعمين اذا خرجوا متفرجين فى البستان فأول قصدهم الفرجة بالخضرة والماء ثم يكون الاكل تبعا (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) التى ادخرها الموجد لكما المحسن اليكما (تكذبان) أبتلك النعم ام بغيرها مما اودعه اليكم من سائر النعم التى لا تحصى * ولما كان التفكه لا يكمل حسنه الامع التنعم من طيب الفرش وغيره قال تعالى مخبرا عن هؤلاء الذين يخافون مقام ربهم (متكئين) أى لهم ماذكر حال الاتكاء والعامل فى الحال محذوف أى يتنعمون متكئين (على فرش) وعظمها بقوله تعالى مخاطبا للمكلفين بما يحتمل عقولهم والا فليس فى الجنة ما يشبهه على الحقيقة شئ من الدنيا (بطائنها من استبرق) وهو ما غلظ من الديباج قال ابن مسعود وأبو هريرة اذا كانت البطائن التى تلى الارض هكذا فما ظنك بالظهارة وقيل لسعيد بن جبير البطائن من استبرق فما الظواهر قال هذا مما قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقال ابن عباس انما وصف لكم بطائنها لتهتدى اليه قلوبكم فأما الظواهر فلا يعلمها الا الله تعالى ونظير ذلك فى الجنة قوله تعالى عرضها السموات والارض وأما الطول فلا يعلمه الا الله عز وجل لكن قال القرطبى وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ظواهرها نور يتلألأ وقيل الظهائر من السندس وعن الحسن البطائن هى الظواهر وهو قول الفراء وروى عن قتادة والعرب تقول للبطن ظهرا فيقولون هذا بطن السماء وظهر الارض وقال الفراء قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة لان كل واحد منهما يكون وجها والعرب تقول هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء لظاهرها الذى نراه وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا وقالوا لا يكون هذا الا فى الوجهين المتساويين اذا ولى كل واحد منهما قوم كالحائط بينك وبين قوم وعلى أديم السماء وقال ابن عباس وصف البطائن وترك الظواهر لانه ليس فى الارض أحد يعرف ما الظواهر * (تنبيه) * قال الرازى الاستبرق معرب وهو الديباج الثخين أى وهذا ومثله لا يخرج القرآن عن كونه عربيا لان العربى ما نطقت به العرب وضعا واستعمالا من لغة غيرها وذلك كله سهل عليهم وبه يحصل الاعجاز بخلاف ما لم يستعملوه من كلام العجم لصعوبته عليهم وذكر الاتكاء لانه حال الصحيح الفارغ القلب المتنعم البدن بخلاف المريض والمهموم (وجنى الجنتين) أى ثمرهما (دان) أى قريب قال ابن عباس تدنو الشجرة حتى يجنيها ولى الله تعالى ان شاء قائما وان شاء قاعدا وان شاء مضطجعا وقال قتادة لا يرد يده بعد ولا شوك قال الرازى جنة الآخرة مخالفة لجنة الدنيا من ثلاثة أوجه أحدها أن الثمرة على رؤس الشجر فى الدنيا بعيدة على الانسان المتكئ وفى الجنة هو متكئ والثمرة تتدلى اليه وثانيها ان الانسان فى الدنيا يسعى الى الثمرة ويتحرك اليها وفى الآخرة هى تدنو اليهم وتدور عليهم وثالثها أن الانسان فى الدنيا اذا قرب من ثمرة شجرة بعد عن غيرها وثمار

الجنة كلها تدنو اليهم فى وقت واحد ومكان واحد (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المربى لكما الذى يقدر على كل ما يريده (تكذبان) أمن قدرته على عطف الاغصان وتقريب الثمار أم من غيرها ولما كان ماذكر لا تتم نعمته الا بالنسوان الحسان قال تعالى (فيهن) أى الجنان التى علم مما مضى ان لكل فرد من الخائفين منها جنتين فصح الجمع وقال الزمخشرى فيهن فى هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى أو فى الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس اهـ قال أبو حيان وفيه أى الاول بعد لان الاستعمال أن يقال على الفراش كذا ولا يقال فى الفراش كذا الا بتكلف ولذلك جمع الزمخشرى مع الفرش غيرها حتى صح له ان يقول ذلك وقيل يعود على الجنتين لان أقل الجمع اثنان وقال الفراء كل موضع فى الجنة جنة فلذلك صح ان يقال فيهن (قاصرات الطرف) أى الاعين على أزواجهن المتكئين من الانس والجن قال الرازى وقوله قاصرات الطرف أى نساء أو أزواج فحذف الموصوف لنكتة وهى أنه تعالى لم يذكرهن باسم الجنس وهو النساء بل بالصفات فقال تعالى حور عين كواعب أترابا قاصرات الطرف حور مقصورات ولم يقل نساء عربا ولا نساء قاصرات لوجهين اما على عادة العظماء كبنات الملوك انما يذكرن باوصافهن واما لانهن لما كان كانهن خرجن عن جنسهن وقوله تعالى قاصرات الطرف يدل على عفتهن وعلى حسن المؤمنين فى أعينهن فيحببن أزواجهن حبا شديدا يشغلهن عن النظر الى غيرهم قال ابن زيد تقول لزوجها وعزة ربى ما أرى فى الجنة أحسن منك فالحمد لله الذى جعلك زوجى وجعلنى زوجك ويدل أيضا على الحياء لان الطرف حركة الجفن والحيية لا تحرك جفنها ولا ترفع رأسها *(تنبيه)* انظر الى حسن هذا الترتيب فانه تعالى بين أولا المسكن وهو الجنة ثم بين ما يتنزه به وهو البستان والاعين الجارية ثم ذكر المأكول فقال تعالى فيهما من كل فاكهة ثم ذكر موضع الراحة بعد الاكل وهو الفراش ثم ذكر ما يكون فى الفراش معه ولما كان الاختصاص بالشئ من أعظم اللذات لاسيما المرأة قال تعالى (لم يطمثهن) أى لم يجامعهن ويتسلط عليهن يقال طمثت المرأة كضرب وفرح حاضت وطمثها الرجل افتضها وأيضا جامعها (انس قبلهم) أى المتكئين (ولا جان) فكانه قال هن أبكار لم يخالطهن أحد فات هذا جمع كل من يمكن منه جماع وفى ذلك دليل على أن الجنى يغشى كما يغشى الانسى ويدخل الجنة ويكون لهم فيها جنيات قال ضمرة للمؤمنين منهم أزواج من الحور فالانسيات للانس والجنيات للجن وقال مقاتل لانهن خلقن فى الجنة فعلى قوله يكونون من حور الجنة وقال الشعبى من نساء الدنيا لم يمسهن منذ أنشئن خلق وهو قول الكلبى أى لم يجامعهن فى هذا الخلق الذى أنشئن فيه انس ولا جان وأما فى الدنيا فقال مجاهد اذا جامع الرجل ولم يسم ينطوى الجنى على احليله فيجامع معه وقال القرطبى لم يطمثهن لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد وهذا شامل لنساء الجنة ولنساء الدنيا بعد انشائهن خلقا جديدا وقرأ الكسائى يطمثهن بضم الميم فى الموضعين بخلاف عنه وتخييرا فى أحدهما وهما لغتان يقال طمثها يطمثها ويطمثها اذا جامعها (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المدبر مصالحكما (تكذبان)

أى بأى نوع من أنواع هذا الاحسان أم غيره (كأنهن الياقوت) أى صفاء (والمرجان) أى اللؤلؤ بياضا والياقوت جوهر نفيس يقال ان النار لا تؤثر فيه والمرجان صغار اللؤلؤ وأشده بياضا وقيل شبه لونهن ببياض اللؤلؤ مع حمرة الياقوت لان أحسن الالوان البياض المشرب بحمرة قال ابن الخازن والاصح انه شبههن بالياقوت لصفائه فانه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استضأته لرأيت السلك من ظاهره لصفائه قال عمرو بن ميمون ان المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء الحلل كما يرى الشراب الاحمر من الزجاجة البيضاء يدل على صحة ذلك ما روى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك لان الله تعالى يقول كأنهن الياقوت والمرجان فأما الياقوت فانه حجر لو ادخلت فيه سلكا ثم استضأته لرأيته من ورائه وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر زاد فى رواية ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء اضاءة لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ومجامرهم الالوة أى بخورهم العود ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المالك الملك المربى ببدائع التربية (تكذبان) أبما جعله مثالا لما ذكر من وصفهن أم بغيره (هل جزاء الاحسان) أى بالطاعة من الانس والجن وغيرهما (الا الاحسان) أى بالثواب وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا اله الا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم الا الجنة وعن أنس بن مالك قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هل جزاء الاحسان الا الاحسان ثم قال أتدرون ما قال ربكم قالوا الله ورسوله اعلم قال يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد الا الجنة وروى الواحدى بغير سند عن ابن عمر وابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتى وتوحيدى الا أن أسكنه جنتى وحظيرة قدسى برحمتى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) الكريم الرحيم الجامع لاوصاف الكمال (تكذبان) أبشئ من هذه النعم الجزيلة أم بغيرها (ومن دونهما) أى من أدنى مكان ورتبة تحت جنتى هؤلاء المحسنين المقربين (جنتان) أى لكل واحد ممن دون هؤلاء المحسنين من الخائفين وهم أصحاب اليمين وقال أبو موسى الاشعرى جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين وقال ابن جريج هى أربع جنان جنتان للمقربين السابقين فيهما من كل فاكهة زوجان وجنتان لاصحاب اليمين والتابعين فيهما فاكهة ونخل ورمان وقال الكسائى ومن دونهما أى أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان الاوليان من ذهب وفضة والاخريان من ياقوت وعلى هذا فهما أفضل من الاوليين والى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول وقال ومعنى ومن دونهما جنتان أى دون هذا الى العرش أى أقرب وأدنى الى العرش وقال مقاتل الجنتان الاوليان جنة عدن وجنة النعيم والاخريان جنة الفردوس وجنة المأوى

(فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المحسن بنعمه لجميع خلقه (تكذبان) أبشئ مما تفضل به عليكم أم بغيره ثم وصف تلك الجنتين بقوله تعالى (مدهامتان) قال ابن عباس رضي الله عنهما خضراوان وقال مجاهد مسوداوان لان الخضرة اذا اشتدت تضرب الى السواد وهذا مشاهد بالنظر ولذلك قالوا سواد العراق لكثرة شجره وزرعه والارض اذا اخضرت غاية الخضرة تضرب الى سواد قال الرازي والتحقيق فيه ان ابتداء الالوان هو البياض وانتهاءها هو السواد فان الابيض يقبل كل لون والاسود لا يقبل شيأ من الالوان (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المحسن اليكما بالرزق وغيره (تكذبان) أبشئ من تلك النعم أم بغيرها ثم وصف تلك الجنتين أيضا بقوله تعالى (فيهما) أي في جنتي كل شخص منهم (عينان نضاختان) قال ابن عباس أي فوارتان بالماء والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة لان النضح بالمهملة الرشح والرش وبالمعجمة فوران الماء وقال مجاهد المعنى نضاختان بالخير والبركة وعن ابن مسعود تنضخ على أولياء الله تعالى بالمسك والكافور والعنبر في دور أهل الجنة كما ينضح رش المطر وقال سعيد بن جبير بانواع الفواكه والماء (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) المربي البليغ الحكمة في التربية (تكذبان) أبتلك النعمة أم بغيرها ثم وصف الجنتين أيضا بقوله تعالى (فيهما فاكهة) وخص أشرفها وأكثرها وجدانا في الخريف والشتاء كما في جنان الدنيا التي جعلت مثالا لهاتين بقوله تعالى (ونخل ورمان) فان كلا منهما فاكهة وادام فلهذا خصا تشريفا وتنبيها على ما فيهما من التفكه وأولهما أعم نفعا وأعجب خلقا ولذا قدمه فعطفهما على الفاكهة من باب ذكر الخاص بعد العام تفضيلا له كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال وقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقال بعض العلماء ليس ذلك من الفاكهة ولهذا قال أبو حنيفة اذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطبا أو رمانا لم يحنث وخالفه صاحباه وقال القرطبي وقيل انما كررها لان النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا لان النخل عامة قوتهم والرمان كالثمرات فكان يكثر غرسها عندهم لحاجتهم اليه وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها فانما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومها وكثرتها عندهم من المدينة الى مكة الى ما والاها من أرض اليمن فأخرجهما من الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها وقيل أفردا بالذكر لان النخل ثمره فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه قال البغوي وعن ابن عباس قال نخل الجنة جذوعها زمرذ أخضر وورقها ذهب أحمر وسعفها كسوة أهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها امثال القلال والدلاء أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم وروى أن الرمانة من رمان الجنة مل‌ء جلد البعير المقتب وقيل ان نخل الجنة نضيد وثمرها كالقلال كلما نزعت عادت مكانها أخرى العنقود منها اثنا عشر ذراعا (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) المحسن الى الثقلين بجليل التربية (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما أحسن به اليكم (فيهن) أي الجنان الاربع أو الجنتين وقصورهما (خيرات حسان) أي نساء الواحدة خيرة على معنى ذوات خير وقيل خيرات بمعنى خيرات فخفف كهين ولين روى الحسن عن أمه عن

أم سلمة قالت قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى خيرات حسان قال خيرات الاخلاق حسان الوجوه وقال أبو صالح لانهن عذارى ابكار قال الحكيم الترمذي فالخيرة ما اختارهن الله تعالى فأبدع خلقهن باختياره فاختيار الله تعالى لا يشبه اختيار الآدميين فوصفهن بالحسن فاذا وصف الله تبارك وتعالى خالق الحسن شيأ بالحسن فانظر ما هناك وقال الرازي في باطنهن الخير وفي ظاهرهن الحسن (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي الكامل الاحسان اليكما (تكذبان) أبنعمة ما جعل لكم من الفواكه أم غيرها ثم زاد في وصفهن بقوله تعالى. (حور) جمع حوراء وهي الشديدة سواد العين الشديدة بياضها (مقصورات) والمقصورات المحبوسات المستورات (في الخيام) وهي الحجال فلسن بالطوافات في الطرق قاله ابن عباس والنساء تمدح بملازمتهن البيوت كما قال قيس بن الاسلت

وتكسل عن جيرانها فيزرنها * وتعتل من اتيانهن فتعذر

ويقال امرأة مقصورة وقصيرة وقصورة بمعنى واحد قال كثير عزة

وأنت التي حببت كل قصيرة * الي ولم يعلم بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد * قصار الخطا شر النساء البحاتر

والخيام جمع خيمة وهي أربعة أعواد تنصب وتسقف بشيء من نبات الارض وجمعها خيم كثمرة وثمر وتجمع الخيم على خيام فهو جمع الجمع واما ما يتخذ من شعر أو وبر أو نحوه فيقال له خباء وقد يطلق عليه خيمة تجوزا وقال عمر الخيمة درة مجوفة وقاله ابن عباس قال وهي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وفي الحديث ان في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي قال بلغنا أن سحابة أمطرت من العرش فخلقن أي الحور العين من قطرات الرحمة ثم ضرب على كل واحدة خيمة على شاطئ الانهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب حتى اذا دخل ولي الله تعالى بالخيمة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها فهي مقصورة قد قصرها الله عن أبصار المخلوقين وقال مجاهد معناه قصرن اطرافهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يبغين بدلا وقال صلى الله عليه وسلم لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على أهل الارض لاضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها *(فائدة)* اختلفوا أيما أكثر حسنا وأتم جمالا الحور أم الآدميات فقيل الحور لما ذكر في وصفهن في القرآن والسنة ولقوله صلى الله عليه وسلم في دعائه في صلاة الجنازة وأبدله زوجا خيرا من زوجه وقيل الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف روي ذلك مرفوعا وقيل ان الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يخلقن في الآخرة على أحسن صورة قاله الحسن البصري قال ابن عادل والمشهور ان الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا انما هن مخلوقات في الجنة لان الله تعالى قال لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات اهـ لكن مر أنه

لم

لم يطمثهن بعد انشائهن خلقا آخر وعلى هذا الادليل فى ذلك (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) الذى صوركم فأحسن صوركم (تكذبان) أبهذه النعم أم بغيرها (لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان) كحور الجنتين الاولين وضميرهم فى قبلهم لاصحاب الجنتين (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) الذى جمل لكم فى الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (تكذبان) أبهذه النعم أم بغيرها (متكئين) أى لهم ماذكر حالة الاتكاء والعامل فى الحال محذوف أى ينعمون متكئين (على رفرف) أى ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج لينة ووسائد عظيمة ورياض باهرة وبسط لها أطراف فاضلة وهو جمع رفرفة لان الله تعالى وصفه بالجمع بقوله (خضر) ووصفه بذلك لان الخضرة أحسن الالوان وأبهجها وقال الجوهرى هو ثياب خضر تتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة واشتقاقه من رف الطائر أى ارتفع فى الهواء ورفرف بجناحيه اذا نشرهما للطيران وقيل الرفرف طرف الفسطاط والخباء الواقع على الارض دون الاطناب والاوتاد وفى الخبر فى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فرفع الرفرف فرأينا وجهه كانه ورقة أى رفع طرف الفسطاط وقال الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول الرفرف أعظم خطرا من الفرش فذكر فى الاولين متكئين على فرش بطائنها من استبرق وقال هنا متكئين على رفرف خضر فالرفرف هو مستقر الولى على شئ اذا استوى عليه الولى رفرف به أى طار به حيثما يريد كالمرجاح وروى فى حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به الى سند العرش فذكر أنه قال طار بى يخفضنى و يرفعنى حتى وقف بى على ربى أى فى محل تنزلات رحمة ربى ثم لما جاء الانصراف تناوله فطار به خفضا ورفعا يهوى به حتى أداه الى جبريل عليه السلام فالرفرف خادم من الخدم بين يدى الله تعالى له خواص الامور من الدنو والقرب كما أن البراق دابة تركبها الانبياء عليهم السلام مخصوصة بذلك وهذا الرفرف الذى سخر لاهل الجنتين الدانيتين هو متكؤهما وفرشهما يرفرف بالولى على حافات تلك الانهار حيث يشاء الى خيام أزواجه وقوله تعالى (وعبقرى) منسوب الى عبقر تزعم العرب انه اسم بلد الجن فينسبون اليه كل شئ عجيب قال فى القاموس عبقر موضع كثير الجن وقرية ثيابها فى غاية الحسن والعبقرى الكامل من كل شئ وقال الخليل هو كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم وقال قطرب ليس هو من المنسوب بل هو بمنزلة كرسى وبختى اه والمراد به الجنس ولذلك قال تعالى (حسان) حملا على المعنى أى هى فى غاية من كمال الصنعة وحسن المنظر لا توصف (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المحسن الواحد الذى لا محسن غيره ولا احسان الا منه (تكذبان) أبشئ من هذه النعم ام بغيرها * ولما دل ما ذكر فى هذه السورة من النعم على احاطة مبدعها بأوصاف الكمال وختم نعم الدنيا بقوله تعالى ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام وفيه اشارة الى ان الباقى هو الله تعالى وأن الدنيا فانية ختم نعيم الآخرة بقوله عز من قائل (تبارك) قال ابن برجان تفاعل من البركة ولا يكاد يذكره جل ذكره الا عند أمر معجب اه ومعناه ثبت ثباتا لا تسع العقول وصفه ولما كان تعظيم الاسم أبلغ فى تعظيم المسمى قال تعالى (اسم ربك)

أى المحسن اليك بانزال هذا القرآن الذى جبلك على متابعته فصرت مظهراله وصار خلقالك فصار احسانه اليك فوق الوصف وقيل لفظ اسم زائد وجرى عليه الجلال المحلى والاول أولى (ذى الجلال) أى العظمة الباهرة (والاكرام) قال القرطبى كانه يريد به الاسم الذى افتتح به السورة فقال الرحمن فافتتح بهذا الاسم فوصف خلق الانسان والجن وخلق السموات والارض وصنعه وانه تعالى كل يوم هو فى شان ووصف تدبيره فيهم ثم وصف يوم القيامة وأهوالها وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان ثم قال فى آخر الصفة تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام أى هذا الاسم الذى افتتح به هذه السورة كانه يعلمهم ان هذا كله خرج لكم من رحمتى فمن رحمتى خلقتكم وخلقت لكم السماء والارض والخليقة والجنة والنار فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه فقال تعالى تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام أى جليل فى ذاته كريم فى أفعاله وقرأ ابن عامر بالواو رفعا صفة للاسم والباقون بالياء خفضا صفة لرب فانه هو الموصوف بذلك روى الثعلبى عن على أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكل شئ عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه حديث موضوع

(سورة الواقعة مكية)

فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء وقال ابن عباس وقتادة الا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى وتجعلون رزقكم انكم تكذبون وقال الكلبى مكية الا أربع آيات منها آيتان أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون نزلتا فى سفره الى مكة وقوله تعالى ثلة من الاولين وثلة من الآخرين نزلتا فى سفره الى المدينة وقدمنا أن فى المدنى والمكى اصطلاحين وان المشهور أن المكى ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها وهى ست وتسعون آية قال الجلال المحلى وهى ست أو سبع أو تسع وتسعون آية اه وثلثمائة وثمان وتسعون كلمة وألف وسبعمائة وثلاثة أحرف

(بسم الله) الذى له الكمال كله فقاوت بين الناس فى الاحوال (الرحمن) الذى عم بنعمة البيان وفاضل فى قبولها بين أهل الادبار وأهل الاقبال (الرحيم) الذى قرب أهل حزبه ففازوا بمحاسن الاقوال والافعال * ولما قسم سبحانه الناس فى تلك السورة الى ثلاثة أصناف مجرمين وسابقين ولاحقين شرح أحوالهم فى هذه السورة وبين الوقت الذى يظهر فيه اكرامه وانتقامه بقوله تعالى (اذا وقعت الواقعة) أى التى لابد من وقوعها ولا واقع يستحق أن يسمى الواقعة بلام الكمال وتاء المبالغة غيرها وهى النفخة الثانية التى يكون عنها البعث الاكبر الذى هو القيامة الجامعة لجميع الخلق فسميت واقعة لتحقق وقوعها وقيل لكثرة ما يقع فيها من الشدائد وانتصاب اذا بمحذوف مثل اذكر أو كان كيت وكيت وقال الجرجانى اذا صلة كقوله تعالى اقتربت الساعة وأتى أمر الله وهو كما يقال جاء الصوم أى دنا وقرب وقوله تعالى (ليس لوقعتها

كاذبة)

كاذبة) مصدر بمعنى الكذب والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر كقوله تعالى
لايسمع فيها لاغية أى لغو والمعنى ليس لها كذب قاله الكسائى أو صفة والموصوف محذوف أى
ليس لوقعتها حال كاذبة أى كل من يخبر عن وقعتها صادق أو نفس كاذبة بأن تنفيها كما نفتها فى الدنيا
وقال الزجاج ليس لوقعتها كاذبة أى لا يردها شئ وقيل ان قيامها جد لا هزل وقوله تعالى
(خافضة رافعة) تقرير لعظمتها وهو خبر لمبتدا محذوف أى هى قال عكرمة ومقاتل خفضت
الصوت فأسمعت من دنا ورفعت الصوت فأسمعت من نأى يعنى أسمعت القريب والبعيد وعن
السدى خفضت المتكبرين ورفعت المستضعفين وقال قتادة خفضت أقواما فى عذاب الله تعالى
ورفعت أقواما الى طاعة الله تعالى وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خفضت أعداء
الله تعالى فى النار ورفعت أولياء الله تعالى فى الجنة وقال ابن عطاء خفضت قوما بالعدل
ورفعت آخرين بالفضل ولا مانع أن كل ذلك موجود فيها والرفع والخفض يستعملان عند
العرب فى المكان والمكانة والعز والاهانة ونسب سبحانه وتعالى الخفض والرفع الى القيامة
توسعا ومجازا على عادة العرب فى اضافتها الفعل الى المحل والزمان وغيرهما مما لا يمكن منه الفعل
يقولون ليل قائم ونهار صائم وفى التنزيل بل مكر الليل والنهار والخافض والرافع فى الحقيقة هو
الله تعالى واللام فى قوله تعالى لوقعتها اما للتعليل أى لا تكذب نفس فى ذلك اليوم لشدة وقعتها
واما للتعدية كقولك ليس لزيد ضارب فيكون التقدير اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها أمر يوجد
لها كاذب اذا أخبر عنه قال الرازى وعلى هذا لا تكون ليس عاملة فى اذا وهو بمعنى ليس لها
كاذب (اذا رجت الارض) أى كلها على سعتها وثقلها بأيسر أمر (رجا) أى حركت تحريكا
شديدا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل قال بعض المفسرين ترتج كما يرتج الصبى فى المهد
حتى ينهدم ما عليها او ينكسر كل شئ عليها من الجبال وغيرها والرجرجة الاضطراب وارتج
البحر وغيره اضطرب وفى الحديث من ركب البحر حين يرتج فلا ذمة له يعنى اذا اضطربت أمواجه
والظرف متعلق بخافضة أو بدل من اذا وقعت * ولما ذكر حركتها المزعجة أتبعها غايتها بقوله
تعالى (وبست الجبال بسا) أى فتتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق اذا لته
قال ابن عباس ومجاهد كما يبس الدقيق أى يلت والبسيسة السويق أو الدقيق يلت بالسمن
أو الزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا قال الراجز

لا تخبزا خبزا وبسا بسا * ولا تطيلا بمناخ حبسا

أو سيقت وسيرت من بس الغنم اذا ساقها وبست الابل وأبسستها الغنمان اذا زجرتها وقلت بس
بس قاله أبو زيد وقال الحسن بست قلعت من أصلها فذهبت ونظيرها ينسفها ربى نسفا وقال
عطية بسطت بالرمل والتراب (فكانت) أى بسبب ذلك (هباء) أى غبارا هو فى غاية الانسحاق
والى شدة لطافته أشار بصفته فقال تعالى (منبثا) أى منتشرا متفرقا بنفسه من غير حاجة الى
هواء يفرقه فهو كالذى يرى فى شعاع الشمس اذا دخل من كوة وعن ابن عباس هو ما تطاير من
النار اذا أضرمت يطير منها شرر فاذا وقع لم يكن شيأ (وكنتم) أى قسمتم بما كان فى جبلا تكم

وطباً معكم فى الدنيا (أزواجاً) أى أصنافاً (ثلاثة) كل صنف يشاكل ماهو منه كما يشاكل الزوج الزوجة قال البيضاوى وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج ثم بين من هم بقوله تعالى (فأصحاب الميمنة) وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم مبتدأ وقوله تعالى (ما) استفهام فيه تعظيم مبتدأ ثان وقوله تعالى (أصحاب الميمنة) خبر المبتدأ الثانى والجملة خبر الاول وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير ومثله الحاقة ما الحاقة القارعة ما القارعة ولا يكون ذلك الا فى مواضع التعظيم * ولما ذكر الناجين بقسميهم أتبعهم اضدادهم بقوله تعالى (وأصحاب المشأمة) أى الشمال وهم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقوله تعالى (ما أصحاب المشأمة) تحقير لشأنهم بدخولهم النار وقال السدى أصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال الى النار والمشأمة الميسرة وكذا الشامة والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى وللجانب الشمال الاشأم وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليمن ولما جاء عن الشمال الشؤم قال البغوى ومنه سمى الشأم واليمن لان اليمن عن يمين الكعبة والشأم عن شمالها وقال ابن عباس رضى الله عنهما أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه فقال الله تعالى لهم هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وقال زيد بن أسلم هم الذين أخذوا من شق آدم الايمن وقال ابن جريج أصحاب الميمنة هم أصحاب الحسنات وأصحاب المشأمة هم أصحاب السيئات وفى صحيح مسلم من حديث الاسراء عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره أسودة قال فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى قال فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال آدم عليه السلام وهذه الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل اليمين أهل الجنة والاسودة التى عن شماله أهل النار وذكر الحديث وقال المبرد أصحاب الميمنة أصحاب التقدم وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر والعرب تقول اجعلنى فى يمينك ولا تجعلنى فى شمالك أى اجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنى من المتأخرين * (تنبيه) * الفاء فى قوله تعالى فأصحاب تدل على التقسيم وبيان ماورد عليه التقسيم كانه قال أزواجاً ثلاثة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون ثم بين حال كل قسم فقال فأما أصحاب الميمنة وترك التقسيم أولا واكتفى بما يدل عليه بأن ذكر الاقسام الثلاثة مع أحوالها (فان قيل) ما الحكمة فى اختيار لفظ المشأمة فى مقابلة الميمنة مع انه قال فى بيان أحوالهم وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (أجيب) بأن اليمين وضع للجانب المعروف واستعملوا منه الفاظاً فى مواضع فقالوا هذا ميمون تيمنا به ووضعوا مقابلة اليمين اليسار من الشئ اليسير اشارة الى ضعفه واستعملوا منه ألفاظاً تشاؤما به فذكر المشأمة فى مقابلة الميمنة وذكر الشمال فى مقابلة اليمين فاستعمل كل لفظ مع مقابله ولما ذكر تعالى القسمين وكان كل منهما قسمين ذكر أعلى أهل القسم الاول ترغيباً فى حسن حالهم ولم يقسم أهل المشأمة ترهيباً فى سوء حالهم فقال تعالى (والسابقون) أى الى أعمال الطاعة مبتدأ وقوله تعالى (السابقون) تأكيد عن المهدوى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال السابقون الذين

اذا أعطوا الحق قبلوه واذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لانفسهم وقال محمد بن كعب القرظى هم الانبياء عليهم السلام وقال الحسن وقتادة السابقون الى الايمان من كل أمة وقال محمد بن سيرين هم الذين صلوا الى القبلتين قال تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقال مجاهد والضحاك هم السابقون الى الجهاد وأول الناس رواحا الى الصلاة وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه هم السابقون الى الصلوات الخمس وقال سعيد بن جبير الى التوبة وأعمال البر قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم ثم أثنى عليهم فقال تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم أربعة منهم سابق أمة موسى عليه السلام وهو حزقيل مؤمن آل فرعون وسابق أمة عيسى عليه السلام وهو حبيب النجار صاحب انطاكية وسابقا أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وقال سميط بن عجلان الناس ثلاثة رجل ابتكر الخير فى حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال وروى عن كعب قال هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة وقيل هم أول الناس رواحا الى المسجد وأولهم خروجا فى سبيل الله وخبر المبتدا (أولئك) أى العالو الرتبة جدا (المقربون) أى الذين قربت درجاتهم فى الجنة من العرش وأعليت مراتبهم واصطفاهم الله تعالى للسبق فأرادهم لقربه ولولا فضله فى تقريبهم لم يكونوا سابقين قال الرازى فى اللوامع المقربون تخلصوا من نفوسهم وأعمالهم كلها لله تعالى دينا ودنيا من حق الله تعالى وحق الناس وكلاهما عندهم حق الله تعالى والدنيا عندهم آخرتهم لانهم يراقبون ما يبدو لهم من ملكوته فيتلقونه بالرضا والانقياد وهم صنفان صنف قلوبهم فى جلاله وعظمته هائمة قد ملكتهم هيبته فالحق يستعملهم فى وصف آخر قد أرخى من عنانه والامر عليه أسهل لانه قد جاوز بقلبه هذه الخطة ومحله اعلى فهو امين الله تعالى فى أرضه فيكون عليه أوسع اه ثم بين تقريبه اهم بقوله تعالى (فى جنات النعيم) أى الذى لا كدر فيه بوجه ولا منغص ولما ذكر السابقين فصلهم بقوله تعالى (ثلة) أى جماعة وقيدها الزمخشرى بالكثيرة وأنشد

وجاءت اليهم ثلة خندفية * تجيش كتيار من السيل مزبد

قال ابن عادل ولم يقيدها غيره بل صرح بانها الجماعة قلت أو كثرت ثم قال والكثرة التى فهمها الزمخشرى قد تكون من السياق اه لكن قال البغوى والثلة جماعة غير محصورة العدد (من الاولين) أى من الامم السابقة من لدن آدم الى محمد صلى الله عليه وسلم من النبيين عليهم السلام ومن آمن بهم (وقليل من الآخرين) وهم من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كان الانبياء عليهم السلام مائة ألف ونيفا وعشرين ألفا وكان من خرج مع موسى عليه السلام من مصر وهو مؤمن به من الرجال المقاتلين ممن هو فوق العشرين ودون الثمانين ستمائة ألف فما ظنك بمن عداهم من الشيوخ ومن دون العشرين من البالغين والصبيان ومن النساء فكيف بمن عداهم من سائر النبيين عليهم السلام المجددين من بنى اسرائيل وغيرهم قال البيضاوى ولا يخالف ذلك

قوله عليه الصلاة والسلام أمتي يكثرون سائر الامم لجواز أن يكون سابقو سائر الامم أكثر من سابقي هذه الامة وتابعو هذه الامة أكثر من تابعيهم قيل لما نزلت هذه الآية شق على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ثلة من الاولين وثلة من الآخرين فقال النبي صلى الله عليه وسلم اني لارجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل نصف اهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني رواه ابو هريرة رضي الله عنه ذكره الماوردي وغيره ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود وكأنه اراد أنها منسوخة قال الرازي وهذا في غاية الضعف لان عدد أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان في ذلك الزمان بل الى آخر الزمان بالنسبة الى ما مضى في غاية القلة والمراد بالاولين الانبياء وكبار أصحابهم وهم اذا اجتمعوا كانوا أكثر من السابقين من هذه الامة ولان هذا خبر والخبر لا ينسخ وقال الحسن سابقو من مضى أكثر من سابقينا فلذا قال تعالى وقليل من الآخرين وقال في اصحاب اليمين وهم سوى السابقين ثلة من الاولين وثلة من الآخرين ولذا قال صلى الله عليه وسلم اني لأرجو أن تكون أمتي شطر أهل الجنة ثم تلا ثلة من الاولين وثلة من الآخرين وروى الطبراني أن الثلة والقليل كلاهما من هذه الامة فتكون الصحابة كلهم من هذه الثلة وكذا من تبعهم باحسان الى رأس القرن الثالث وهم لا يحصيهم الا الله تعالى ومن المعلوم أنه تناقص الامر بعد ذلك الى أن صار السابق في الناس أقل من القليل لرجوع الاسلام الى الحال التي بدا عليها من الغربة بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء أي وهم الذين اذا فسد الناس صلحوا كما فسر به النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال أبو بكر كلا الثلتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فنهم من هو في أول أمته ومنهم من هو في آخرها وهو مثل قوله تعالى فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات وقيل المراد بالاولين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبالآخرين ذرياتهم الملحقون بهم في قوله تعالى واتبعناهم ذرياتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم واشتقاق الثلة وهي مبتدأ من الثل وهو القطع والخبر (على سرر) جمع سرير وهو ما يجعل للانسان من المقاعد العالية المصنوعة للراحة والكرامة (موضونة) قال ابن عباس رضي الله عنهما منسوجة بالذهب وقال عكرمة مشبكة بالدر والياقوت وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا موضونة أي مصفوفة لقوله تعالى في موضع آخر على سرر مصفوفة وقيل مفسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والموضونة المنسوجة وأصله من وضنت الشيء أي ركبت بعضه على بعض ومنه قيل للدرع موضونة لتركب حلقها قال الاعشى

ومن نسج داود موضونة * تسير مع الحي عيرا فعيرا

ومنه أيضا وضين الناقة وهو حزامها المتراكب طاقاته قال عمر رضي الله عنه وهو مار بوادي محسر

اليك تعدو قلقا وضينها * معترضا في بطنها جنينها

* مخالفا دين النصارى دينها *

رواه البيهقي ومعناه ان ناقتي تعدو اليك مسرعة في طاعتك قلقا وضينها وهو حبل كالحزام من كثرة السير والاقبال التام والاجتهاد البالغ في طاعتك والمراد صاحب الناقة فيسن للمار

بوادي محسر أن يقول هذا الكلام الذى قاله عمر رضى الله تعالى عنه ولما ذكر تعالى السرر وبين عظمتها ذكر غايتها فقال سبحانه (متكئين عليها) أى السرر على الجنب أو غيره كحال من يكون على كرسي فيوضع تحته شئ آخر للإتكاء عليه (متقابلين) فلا ينظر بعضهم الى قفا بعض وقال مجاهد وغيره هذا فى المؤمن وزوجته وأهله أى يتكؤن متقابلين قال الكلبي طول كل سرير ثلثمائة ذراع فاذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فاذا جلس عليها ارتفعت وقيل انهم صاروا أرواحا نورانية صافية ليس لهم أدبار ولا ظهور *(تنبيه)* متكئين عليها متقابلين حالان من الضمير فى على سرر ويجوز أن تكون حالا متداخلة فيكون متقابلين حالا من ضمير متكئين ثم بين تعالى انهم فى غاية الراحة بقوله تعالى (يطوف عليهم) أى لكفاية كل ما يحتاجون اليه (ولدان) أى على أحسن صورة وزى وهيئة (مخلدون) قد حكم الله تعالى ببقائهم على ما هم عليه من الهيئة على شكل الاولاد قال الحسن والكلبي لا يهرمون ولا يتغيرون ومنه قول امرئ القيس

وهل ينعمن الا سعيد مخلد * قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقال سعيد بن جبير مخلدون مقرطون يقال للقرط الخلد والقرط ما يجعل فى الاذنين من الحلق وقيل مقرطقون أى ممنطقون من المناطق والمنطقة ما يجعل فى الوسط وأكثر المفسرين انهم على سن واحد أنشأهم الله تعالى لاهل الجنة يطوفون عليهم نشؤا من غير ولادة فيها لان الجنة لا ولادة فيها وقال على بن أبي طالب والحسن البصرى رضى الله عنهم الولدان ههنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة وقال سلمان الفارسى أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة قال الحسن لم تكن لهم حسنات يجازون بها ولا سيآت يعاقبون عليها فوضعوا هذا الموضع والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة وقوله تعالى (بأكواب) متعلق بيطوفون والاكواب جمع كوب وهى كيزان مستديرة الافواه بلا عرى ولا خراطيم لا يعوق الشارب منها عائق عن شرب من أى موضع أراد منها فلا يحتاج أن يحول الاناء عن الحالة التى تناوله بها ليشرب وقوله تعالى (وأباريق) جمع ابريق وهى أوان لها عرى وخراطيم فيها من أنواع المشارب ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين سمى بذلك لبريق لونه من صفائه (وكأس) أى اناء شراب الخمر (من معين) أى خمر صافية صفاء الماء ليس يتكلف عصرها جارية من منبع لا ينقطع أبدا (فان قيل) كيف جمع الاكواب والاباريق وأفرد الكأس (أجيب) بأن ذلك على عادة أهل الشرب فانهم يعدون الخمر فى أوان كثيرة ويشربون بكأس واحد وفيها مباينتهم لاهل الدنيا من حيث انهم يطوفون بالاكواب والاباريق ولا تثقل عليهم بخلاف أهل الدنيا (لا يصدعون عنها) أى بسببها قال الزمخشرى وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها والصداع هو الداء المعروف الذى يلحق الانسان فى رأسه والخمر تؤثر فيه قال علقمة بن عبدة فى وصف الخمر

تشفى الصداع ولا يؤذيك صالبها * ولا يخالطها فى الرأس تدويم

قال أبو حيان هذه صفة خمر الجنة كذا قال لى الشيخ أبو جعفر بن الزبير والمعنى لا تتصدع رؤسهم من شربها فهى لذة بلا أذى بخلاف خمر الدنيا (وقيل) لا يتفرقون عنها (ولا ينزفون) أى تذهب

بعقولهم بوجه من الوجوه أى يفرغ شرابهم من نزفت البئر اذا نزح ماؤها كله وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بكسر الزاى والباقون بفتحها (وفاكهة مما يتخيرون) أى يختارون مايشتهون من الفواكه لكثرتها وقيل المعنى وفاكهة متخيرة مرضية والتخير الاختيار (ولحم طير مما يشتهون) أى يتمنون قال ابن عباس رضى الله عنهما يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلا بين يديه على ما اشتهى ويقال انه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه مايشتهى ثم يطير فيذهب (فان قيل) ما الحكمة فى تخصيص الفاكهة بالتخير واللحم بالاشتهاء (أجيب) بأن اللحم والفاكهة اذا حضرا عند الجائع تميل نفسه الى اللحم واذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه الى الفاكهة فالجائع مشتهٍ والشبعان غير مشتهٍ بل هو مختار وأهل الجنة انما يأكلون لا من جوع بل للتفكه فميلهم للفاكهة أكثر فيتخيرونها ولهذا ذكرت فى مواضع كثيرة فى القرآن بخلاف اللحم واذا اشتهاه حضر بين يديه على مايشتهيه فتميل نفسه اليه أدنى ميل ولهذا قدم الفاكهة على اللحم (فان قيل) الفاكهة واللحم لايطوف بهما الولدان والعطف يقتضى ذلك (أجيب) بأن الفاكهة واللحم فى الدنيا يطلبان فى حال الشرب فجاز أن يطوف بهما الولدان فيناولونهم الفواكه الغريبة واللحوم العجيبة لا للاكل بل للاكرام كما يضع المكرم للضيف أنواع الفواكه بيده أو يكون معطوفا على المعنى فى قوله جنات النعيم أى مقربون فى جنات النعيم وفاكهة ولحم أى فى هذا النعيم يتقلبون * ولما لم يكن بعد الاكل والشراب أشهى من النساء قال تعالى (وحور) أى نساء شديدات سواد العيون وبياضها (عين) أى ضخام العيون وقرأ حمزة والكسائى بخفض الاسمين عطفا على سرر فان النساء فى معنى المتكأ لانهن يسمين فراشا والباقون بالرفع عطفا على ولدان (كأمثال اللؤلؤ المكنون) أى المخزون فى الصدف المصون الذى لم تمسه الايدى ولم تقع عليه الشمس والهواء فيكون فى نهاية الصفاء قال البغوى ويروى أنه يسطع نور فى الجنة فيقولون ماهذا فيقال ثغر حوراء ضحكت فى وجه زوجها ويروى أن الحوراء اذا مشت يسمع تقديس الخلاخل من ساقها وتمجيد الاسورة من ساعديها وأن عقد الياقوت يضحك فى نحرها وفى رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصران بالتسبيح ولما بالغ فى وصف جزائهم بالحسن والصفاء دل على أن أعمالهم كانت كذلك لان الجزاء من جنس العمل فقال تعالى (جزاء) أى فعل ذلك لهم لاجل الجزاء (بما كانوا يعملون) أى يجددون عمله على جهة الاستمرار قالت المعتزلة هذا يدل على أن ايصال الثواب واجب على الله تعالى لان الجزاء لايجوز الاخلال به وأجيبوا بأنه لو صح ماذكروه لما كان فى الوعد بهذه الاشياء فائدة لان العقل اذا حكم بأن ترك الجزاء قبيح وعلم بالعقل أن القبيح من الله تعالى لايوجد علم ان الله تعالى يعطى هذه الاشياء لانها جزاؤه وايصال الجزاء واجب فكان لايصح التمدح به (لايسمعون فيها لغوا) أى شيأ مما لاينفع واللغو الساقط (ولا تأثيما) أى مايحصل به الاثم أو النسبة الى الاثم بل حركاتهم وسكناتهم كلها فى رضا الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما باطلا وكذبا قال محمد بن كعب ولا تأثيما أى لايؤثم بعضهم بعضا وقال مجاهد لايسمعون شتما ولا مأثما وقوله تعالى (الا قيلا) فيه قولان أحدهما أنه

استثناء منقطع وهذا واضح لانه لم يندرج تحت اللغو والتأثيم والثانى أنه متصل وفيه بعد قال ابن عادل فكان هذا رأى أن الاصل لا يسمعون فيها كلاما فاندرج عنده فيه * ثم بين تعالى ذلك بقوله (سلاما سلاما) أى قولا سلاما قال عطاء يحيى بعضهم بعضا بالسلام أو تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم ودل على دوامه بتكريره فقال تعالى سلاما ففيه اشارة الى كثرة السلام عليهم ولهذا لم يكرر فى قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم وقال القرطبي السلام الثانى بدل من الاول والمعنى الا قولا يسلم فيه من اللغو * ولما بين حال السابقين شرع فى بيان حال أصحاب اليمين فقال تعالى (وأصحاب اليمين) ثم فخم أمرهم وأعلى مدحهم لتعظيم جزائهم فقال تعالى (ما أصحاب اليمين) فان قيل ما الحكمة فى ذكرهم بلفظ أصحاب الميمنة عند تقسيم الازواج الثلاثة وبلفظ أصحاب اليمين عند ذكر الانعام (أجيب) بأن ذلك تفنن فى العبارة والمعنى واحد (فى سدر) أى شجر نبق (مخضود) أى لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أى قطع ونزع منه قال ابن المبارك أخبرنا صفوان عن سليم بن عامر قال كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون انا لينفعنا الاعراب ومسائلهم قال أقبل أعرابي يوما فقال يارسول الله لقد ذكر الله تعالى فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هى قال السدر فان له شوكا مؤذيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوليس يقول سدر مخضود خضض الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فانها تنبت ثمرا على اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر وقال أبو العالية والضحاك نظر المسلمون الى وج وهو واد بالطائف مخصب فأعجبهم سدره فقالوا ياليت لنا مثل هذا فنزلت قال أمية بن أبى الصلت يصف الجنة وما فيها

ان الحدائق فى الجنان ظليلة * فيها الكواعب سدرها مخضود

قال مجاهد فى سدر مخضود هو الموقر حملا الذى تنثنى أغصانه كثرة حمله من خضض الغصن اذا ثناه وهو رطب وقال سعيد بن جبير ثمرها أعظم من القلال (وطلح منضود) أى منظوم بالحمل من أعلاه الى أسفله ليست له ساق بارزة متراكم يتركب بعضه على بعض على ترتيب هو فى غاية الاعجاب والطلح جمع الطلحة قال على وابن عباس رضى الله عنهم وأكثر المفسرين الطلح شجر الموز واحده طلحة وقال الحسن ليس هو موزا ولكنه شجر له ظل بارد رطب وقال الفراء وأبو عبيدة شجر عظيم كثير الشوك والطلح كل شجر عظيم له شوك وقال الزجاج هو شجر أم غيلان قال مجاهد ولكن ثمرها أحلى من العسل وقال الزجاج لها نور طيب جدا فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله الا ان فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا وقال السدى طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل وقال مسروق أشجار الجنة من عروقها الى أفنانها نضيدة ثمر كله كلما أكلت ثمرة عاد مكانها أحسن منها (وظل ممدود) أى دائم لا يزول ولا تنسخه الشمس لقوله تعالى ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وقيل الظل ليس ظل أشجار بل ظل يخلقه الله تعالى قال الربيع بن أنس رضى الله عنه يعنى ظل العرش وقال عمرو بن ميمون رضى الله عنه مسيرة سبعين ألف سنة وقال أبو عبيدة تقول العرب للدهر

الطويل والعمر الطويل والشئ الذى لا ينقطع ممدود قال الشاعر

غلب العزاء وكان غير مغلب * دهر طويل دائم ممدود

وفى صحيح الترمذى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤا ان شئتم وظل ممدود وفى هذا الحديث رد على من يقول ان الاشجار لا ظل لها وقد سئل السبكى عن الرجل الذى هو آخر أهل الجنة دخولا اذا رأت له شجرة يقول يارب أدننى من هذه لاستظل فى ظلها الحديث من أى شئ يستظل والشمس قد كورت أجاب بقوله تعالى وظل ممدود وبقوله تعالى هم وأزواجهم فى ظلال اذ لا يلزم من تكوير الشمس عدم الظل لانه مخلوق لله تعالى وليس بعدم بل أمر وجودى له نفع باذن الله تعالى فى الابدان وغيرها فليس الظل عدم الشمس كما قد يتوهم وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى وظل ممدود قال شجرة فى الجنة يخرج اليها أهل الجنة فيتحدثون ويشتهى بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله تعالى عليهم ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو فى الدنيا (وماء مسكوب) أى جار فى منازلهم فى غير أخدود ولا يحتاجون فيه الى جلب ماء من الاماكن البعيدة ولا ادلاء فى بئر كاهل البوادى فان العرب كانت أصحاب بادية وبلاد حارة وكانت الانهار فى بلادهم عزيزة لا يصلون الى الماء الا بالدلو والرشاء فوعدوا فى الجنة خلاف ذلك (وفاكهة كثيرة) أى أجناسها وأنواعها وأشخاصها (لا مقطوعة ولا ممنوعة) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تنقطع اذا جنيت ولا تمتنع من أحد اذا أراد أخذها وقال بعضهم لا مقطوعة بالازمان ولا ممنوعة بالاثمان كما تنقطع أكثر ثمار الدنيا اذا جاء الشتاء ولا يتوصل اليها الا بالثمن وقيل لا يمنع من أرادها شوك ولا بعد ولا حائط بل اذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها قال تعالى قطوفها دانية وجاء فى الحديث ما قطع من ثمار الجنة الا أبدل الله تعالى مكانها ضعفين * ولما كان التفكه لا يكمل الالتذاذ به الا مع الراحة قال تعالى (وفرش مرفوعة) أى رفيعة القدر يقال ثوب رفيع أى عزيز مرتفع القدر والثمن بدليل قوله تعالى متكئين على فرش بطائنها من استبرق فكيف ظهائرها أو مرفوعة فوق السرر بعضها فوق بعض روى الترمذى عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال ارتفاعها كما بين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام قال حديث غريب وقيل هى كناية عن النساء كما كنى عنهن باللباس أى ونساء مرتفعات الاقدار فى حسنهن وكمالهن والعرب تسمى المرأة فراشا ولباسا على الاستعارة دليل هذا التأويل قوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة التى لا يتعاظمها شئ (أنشأناهن) أى الفرش التى معناها النساء من أهل الدنيا بعد الموت بالبعث وزاد فى التأكيد فقال تعالى (انشاء) أى خلقا جديدا من غير ولادة بل جعلناهن من التراب كسائر بنى ادم ليكونوا كأبيهم آدم عليه السلام فى خلقه من تراب لتكون الاعادة كالبداءة ولذلك يكون الكل عند دخول الجنة على شكله عليه السلام وروى النحاس باسناده أن أم سلمة سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى انا أنشأناهن انشاء فقال هن اللواتى قبضن فى الدنيا عجائز شمطا عمشا

رمصا جعلهن الله تعالى بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد فى الاستواء وروى أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه فى قوله تعالى انا أنشأناهن انشاء قال هن العجائز العمش الرمص كن فى الدنيا عمشا رمصا وعن المسيب بن شريك عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى انا أنشأناهن انشاء قال هن عجائز الدنيا أنشأهن الله تعالى خلقا جديدا كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا فلما سمعت عائشة رضى الله عنها ذلك قالت وا وجعاه فقال النبى صلى الله عليه وسلم ليس هناك وجع وعن الحسن رضى الله عنه قال أتت عجوز النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلنى الجنة فقال يا أم فلان ان الجنة لا يدخلها عجوز قال فولت تبكى فقال أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ان الله تعالى يقول انا أنشأناهن انشاء (فجعلناهن) أى الفرش المنشآت وغيرهن بعظمتنا المحيطة بكل شئ (أبكارا) أى عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ولا وجع وذكر المسيب عن غيره انهن فضلن على الحور العين بصلاتهن فى الدنيا وقال مقاتل وغيره هن الحور العين أنشأهن الله تعالى لم تقع عليهن الولادة وقوله تعالى (عربا) جمع عروب كصبور وصبر وهى الغنجة المحببة الى زوجها وقال الرازى فى اللوامع الفطنة بمراد الزوج كفطنة العرب وقيل الحسناء وقيل المحسنة لكلامها وقال ابن عباس رضى الله عنهما هن العواشق وأنشدوا وفى الخباء عروب غير فاحشة * ريا الروادف يعشى دونها البصر وقرأ حمزة وشعبة بسكون الراء والباقون بضمها كرسل ورسل وفرش وفرش وقوله تعالى (أترابا) جمع ترب وهو المساوى لك فى سنك لانه يمس جلدهما التراب فى وقت واحد وهو آكد فى الائتلاف وهو من الاسماء التى لا تتعرف بالاضافة لانه فى معنى الصفة اذ معناه مساويك ومثله خدنك لانه بمعنى مصاحبك قال القرطبى سن واحد وهو ثلاث وثلاثون سنة يقال فى النساء أتراب وفى الرجال أقران وكانت العرب تميل الى من جاوزت حد الفتى من النساء وانحطت عن الكبر وقال مجاهد الاتراب الامثال والاشكال وقال السدى أتراب فى الاخلاق لا تباغض فيهن ولا تحاسد وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا مجعلين أبناء ثلاثين أو قال ثلاثا وثلاثين على خلق آدم عليه السلام ستون ذراعا فى سبعة أذرع وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من مات من أهل الجنة من صغير وكبير يردون بنى ثلاثين سنة فى الجنة لا يزيدون عليها أبدا وكذلك أهل النار وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أدنى أهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم واثنان وسبعون ألف زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء ينظر وجهه فى خدها أصفى من المرآة وان أدنى لؤلؤة عليها لتضئ ما بين المشرق والمغرب وانه ليكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان أدنى أهل الجنة منزلة وما منهم دنى لمن يغدو عليه ويروح عشرة آلاف خادم مع كل واحد منهم طريفة ليست مع صاحبه وفى تعلق اللام فى قوله تعالى (لاصحاب اليمين) وجهان أحدهما انها متعلقة بأنشأناهن أى لاجل أصحاب اليمين والثانى انها متعلقة بأترابا كقولك هذا ترب لهذا اى مساوله ثم بينهم

بقوله تعالى (ثلة من الاولين) اى من أصحاب اليمين (وثلة) اى منهم (من الآخرين) فلم يبين فيهم قلة ولا كثرة قال البقاعى والظاهر ان الآخرين أكثر فان وصف الاولين بالكثرة لا ينافى كون غيرهم اكثر ليتفق مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ان هذه الامة ثلثا اهل الجنة فانهم عشرون ومائة صف هذه الامة منهم ثمانون صفا واربعون من سائر الامم وعن عروة بن رويم قال لما نزل قوله تعالى ثلة من الاولين وقليل من الآخرين بكى عمر وقال يا نبى الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل الله تعالى ثلة من الاولين وثلة من الآخرين فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر فقال قد انزل الله تعالى فيما قلت فقال عمر رضينا عن ربنا وتصديق نبينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم الينا ثلة ومنا الى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها الاسود من رعاة الابل ممن قال لا اله الا الله وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه قال عرضت على الامم فجعل يمر النبى معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى معه الرهط والنبى ليس معه احد ورفع الى سواد عظيم فقلت انهم امتى فقيل لى هذا موسى وقومه ولكن انظر الى الافق فنظرت فاذا سواد عظيم فقيل لى هذه امتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا اما نحن فولدنا فى الشرك ولكنا آمنا بالله ورسوله ولكن هؤلاء هم ابناؤنا فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة ابن محصن فقال ادع الله تعالى أن يجعلنى منهم فقال أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة والرهط دون العشرة وقيل الى الاربعين وعن عبد الله ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال عرضت على الانبياء الليلة باتباعها حتى أتى على موسى فى كبكبة بنى اسرائيل فلما رأيتهم اعجبونى فقلت أى رب من هؤلاء قيل هو اخوك موسى ومن معه من بنى اسرائيل قلت يا رب واين امتى قيل انظر عن يمينك فنظرت فاذا ظراب مكة قد سد بوجوه الرجال فقال هؤلاء امتك ارضيت فقلت رضيت رب قيل انظر عن يسارك فنظرت فاذا الافق قد سد بوجوه الرجال فقيل هؤلاء أمتك أرضيت قلت رب رضيت فقيل ان مع هؤلاء سبعين الفا يدخلون الجنة لا حساب عليهم فقال صلى الله عليه وسلم ان استطعتم ان تكونوا من السبعين فكونوا وان عجزتم وقصرتم فكونوا من اهل الظراب فان عجزتم فكونوا من اهل الافق فانى قد رأيت اناسا يتهاوشون كثيرا وعن عبد الله بن مسعود قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة نحوا من اربعين فقال اترضون ان تكونوا ربع اهل الجنة قلنا نعم قال اترضون أن تكونوا ثلث اهل الجنة قلنا نعم قال والذى نفسى بيده انى لارجو أن تكونوا نصف اهل الجنة وذلك ان الجنة لا يدخلها الا نفس مسلمة وما أنتم فى أهل الشرك الا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الاسود أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الاحمر وتقدم فى الحديث المار انهم ثلثا أهل الجنة ولا منافاة لانه صلى الله عليه وسلم أخبر أولا بالقليل ثم أطلعه الله تعالى على الزيادة * ولما أتم وصف أصحاب الجنة اتبعه اضدادهم بقوله تعالى (وأصحاب الشمال) أى الجهة التى تتشاءم العرب بها ويعبر بها

عن الشيء الاخس والحظ الانقص قال البقاعي والظاهر أنهم أدنى أصحاب المشأمة كما ان أصحاب اليمين دون السابقين من أصحاب الميمنة ثم عظم ذمهم ومصابهم فقال تعالى (ما أصحاب الشمال) أي انهم بحال من الشؤم هو جدير بأن يسأل عنه وسماهم بذلك لانهم يأخذون كتبهم بشمالهم ثم بين متقلبهم وما أعد لهم من العذاب فقال تعالى (في سموم) أي ريح حارة من النار تنفذ في المسام (وحميم) أي ماء حار بالغ في الحرارة الى حد تذيب اللحم (وظل من يحموم) أي دخان أسود كالحمم أي الفحم شديد السواد وقيل النار سوداء وأهلها سود وكل شيء فيها أسود وقيل اليحموم اسم من أسماء النار قال الرازي وفي الامور الثلاثة اشارة الى كونهم في العذاب دائما لانهم ان تعرضوا لمهب الهواء أصابهم السموم وان استكنوا كما يفعل الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان بالكن يكونون في ظل من يحموم وان أرادوا التبرد بالماء من حر السموم يكون الماء من حميم فلا انفكاك لهم من العذاب أو يقال ان السموم تضربه فيعطش وتلتهب نار السموم في احشائه فيشرب الماء فيقطع أمعاءه فيريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل اليحموم وذكر السموم والحميم دون النار تنبيها بالادنى على الاعلى كأنه قال أبرد الاشياء في الدنيا حار عندهم فكيف أحرها وقوله تعالى (لا بارد) أي ليروح النفس (ولا كريم) أي ليؤنس به ويلجأ اليه صفتان للظل كقوله تعالى من يحموم وقال الضحاك لا بارد أي كغيره من الظلال بل حار لانه من دخان شفير جهنم ولا كريم عذب وقال سعيد بن المسيب ولا حسن منظره وكل شيء لا خير فيه ليس بكريم فسماه ظلا ونفى عنه برد الظل وروحه ونفعه من يأوي اليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحو ما في مدلول الظل من الاسترواح اليه والمعنى انه ظل حار ضار الا ان للنفي في نحو هذا شأنا ليس للاثبات وفيه تهكم بأصحاب المشأمة وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لاضدادهم في الجنة * ثم بين استحقاقهم لذلك بقوله تعالى (انهم كانوا) أي في الدنيا (قبل ذلك) أي الامر العظيم الذي وصلوا اليه (مترفين) أي انهم انما استحقوا هذه العقوبة لانهم كانوا في الدنيا في سعة من العيش متمكنين في الشهوات مستمتعين بها متمكنين منها (وكانوا يصرون) أي يقيمون ويديمون على سبيل التجديد لما لهم من الميل الجبلي الى ذلك (على الحنث) أي الذنب ويعبر بالحنث عن البلوغ ومنه قولهم لم يبلغوا الحنث وانما قيل ذلك لان الانسان عند بلوغه اليه يؤاخذ بالحنث أي الذنب وتحنث فلان أي جانب الحنث وفي الحديث كان يتحنث بغار حراء أي يتعبد لمجانبة الاثم نحو تحرج فتفعل في هذه كلها للسلب * ولما كان ذلك قد يكون من الصغائر التي تغفر قال تعالى (العظيم) اي وهو الشرك قاله الحسن والضحاك وقال مجاهد هو الذنب الذي لا يتوبون منه وقال الشعبي هو اليمين الغموس وهو من الكبائر يقال حنث في يمينه اى لم يبرها ورجع فيها وكانوا يقسمون ان لا بعث وان الاصنام انداد الله تعالى فذلك حنثهم (فان قيل) الترفه هو التنعم وذلك لا يوجب ذما (اجيب) بأن الذم انما حصل بقوله تعالى وكانوا يصرون على الحنث العظيم فان صدور المعاصي ممن كثرت النعم عليه أقبح القبائح وفي الآية مبالغات لان قوله تعالى يصرون يقتضي ان ذلك عادتهم والاصرار مداومة المعصية ولان الحنث ابلغ من الذنب لان الذنب يطلق

على الصغيرة ويدل على ذلك قولهم بالغ الحنث اى بلغ مبلغا تحققه فيه الكبيرة ووصفه بالعظيم يخرج الصغائر فانها لا توصف بذلك قال الرازى والحكمة فى ذكره سبب عذابهم ولم يذكر فى أصحاب اليمين سبب ثوابهم فلم يقل انهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين وذلك تنبيه على أن الثواب منه فضل والعقاب منه عدل والفضل سواء ذكر سببه أولم يذكر لا يتوهم بالتفضل نقص وظلم وأما العدل ان لم يعلم سبب العقاب يظن ان هذا ظلم ويدل على ذلك انه تعالى لم يقل فى حق أصحاب اليمين جزاء بما كانوا يعملون كما قال فى السابقين لان أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل بخلاف من كثرت حسناته يحسن اطلاق الجزاء فى حقه (وكانوا) أى زيادة على ما ذكر (يقولون) أى انكارا مجددين لذلك دائما عنادا (أئذا) أى أنبعث اذا (متنا وكنا) اى كونا ثابتا (ترابا وعظاما) ثم أعادوا الاستفهام تأكيدا لانكارهم فقالوا (أئنا لمبعوثون) أى كائن وثابت بعثنا ساعة من الدهر وأكدوا ليكون انكارهم لما دون ذلك بطريق الاولى وقرأ قالون أئذا بتحقيق الهمزة الاولى المفتوحة وتسهيل الثانية المكسورة وادخال الف بينهما وكسر الميم من متنا وهمزة واحدة مكسورة فى ائنا وقرأ ورش بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية ولا ادخال بينهما وكسر ميم متنا وهمزة واحدة مكسورة فى ائنا مع النقل على اصله وقرأ ابن كثير وابو عمرو بالاستفهام فيهما مع تسهيل الثانية الا ان اباعمرو يدخل بينهما الفا فيهما وابن كثير لا يدخل الفا وضما ميم متنا (أو آباؤنا) اى او تبعث آباؤنا (الاولون) اى الذين قد بليت مع لحومهم عظامهم فصاروا كلهم ترابا ولا سيما ان حملتهم السيول ففرقت اعضاءهم وذهبت بها الى الآفاق (فان قيل) كيف حسن العطف على المضمر فى لمبعوثون من غير تأكيد بنحن (أجيب) بأنه حسن للفاصل الذى هو الهمزة كما حسن فى قوله تعالى ما اشركنا ولا آباؤنا الفصل لا المؤكدة للنفى وقرأ قالون وابن عامر بسكون الواو من او والباقون بفتحها ثم رد الله تعالى عليهم قولهم ذلك بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء ولكل من كان مثلهم واكد لانكارهم (ان الاولين) اى الذين جعلتم الاستبعاد فيهم وهم الآباء (والآخرين) وهم الابناء (لمجموعون) اى فى المكان الذى يكون فيه الحساب (الى ميقات يوم) اى زمان (معلوم) اى معين عند الله تعالى وهو يوم القيامة اذ هو من شأنه ان يعلم بما عليه من الامارات والميقات ما وقت به الشئ من زمان أو مكان الى حد (ثم انكم) اى بعد هذا الجمع (أيها الضالون) اى الذين غلبت عليهم الغباوة فهم لا يفهمون فضلوا عن الهدى ثم اتبع ذلك ما اوجب الحكم عليهم بالضلال فقال تعالى (المكذبون) بالبعث والخطاب لاهل مكة ومن فى مثل حالهم (لآكلون من شجر من زقوم) وهو من اخبث الشجر المر بتهامة ينبتها الله تعالى فى الجحيم فهو فى غاية الكراهة وبشاعة المنظر ونتن الرائحة وتقدم الكلام على ذلك فى الصافات * (تنبيه) * من الاولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر (فمالؤن) أى ملاء هو فى غاية الثبات وأنتم فى غاية الاقبال عليه مع ما هو عليه من عظيم الكراهة (منها) أى الشجر وأنثه لانه جمع شجرة وهو اسم جنس قال البقاعى وهم يكرهون الاناث فتأنيثه والله أعلم زيادة فى تنفيرهم وقال الزمخشرى أنث ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ فى قوله منها وعليه وهو

لف ونشر مرتب (البطون) أى يضطركم الى تناول هذا الكريه حتى تملؤا بطونكم منه ثم لما بين ما كلهم أتبعه مشربهم فقال تعالى (فشاربون عليه) أى الاكل أو الزقوم (من الحميم) لاجل مرارته وحرارته يحتاجون الى شرب الماء فيشربون من الماء الحار (فشاربون) أى منه (شرب الهيم) أى الابل العطاش وهو جمع هيمان للذكر وهيمى للانثى كعطشان وعطشى والهيام داء معطش تشرب الابل منه الى أن تموت أو تسقم سقما شديدا وقيل انه جمع هائم وهائمة من الهيام أيضا الا ان جمع فاعل وفاعلة على فعل قليل نحو نازل ونزل وعائذ وعود وقيل انه جمع هيام بفتح الهاء وهو الرمل غير المتماسك الذى لا يروى من الماء أصلا فيكون مثل سحاب وسحب بضمتين ثم خفف باسكان عينه ثم كسرت فاؤه لتصح الياء كما فعل بالذى قبله والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم الى أكل الزقوم الذى هو كالمهل فاذا ملؤا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم الى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم فيشربون منه شرب الهيم (فان قيل) كيف صح عطف الشاربين على الشاربين وهما الذوات متفقة وصفتان متفقتان فكان عطفا للشئ على نفسه (أجيب) بأنهما ليستا بمتفقتين من حيث ان كونهم شاربين الحميم على ما هو عليه من تناهى الحرارة وقطع امعائهم أمر عجيب فشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضا فكانتا صفتين مختلفتين وقرأ نافع وعاصم وحمزة بضم الشين والباقون بفتحها (هذا) أى ما ذكر (نزلهم) أى ما يعد لهم أول قدومهم مكان ما يعد للضيف أول حلوله كرامة له (يوم الدين) أى الجزاء الذى هو حكمة القيامة واذا كان هذا نزلهم فما ظنك بما يأتى بعد ما استقروا فى الجحيم وفى هذا تهكم كما فى قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم فان النزل ما يعد للنازل تكرمة له ثم استدل على منكرى البعث بقوله تعالى (نحن) أى لا غيرنا (خلقناكم) أى بما لنا من العظمة (فلولا) تحضيض أى فهلا (تصدقون) أى بالبعث فان الاعادة أسهل من الابتداء وقيل نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدقون ان هذا طعامكم ان لم تؤمنوا ومتعلق التصديق محذوف تقديره فلولا تصدقون بخلقنا (أفرأيتم) أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة (ما تمنون) أى تصبون من المنى فى أرحام النساء (أأنتم تخلقونه) أى توجدونه مقدرا على ما هو عليه من الاستواء والحكمة بعد خلقه من صورة النطفة الى صورة العلقة ثم من صورة العلقة الى صورة المضغة ثم منها الى صورة العظام والاعصاب (أم نحن) أى خاصة (الخالقون) أى الثابت لنا ذلك وقرأ أفرأيتم فى الثلاثة مواضع نافع بتسهيل الهمزة التى هى عين الكلمة ولورش وجه ثان وهو ابدالها ألفا وأسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق وقرأ أأنتم فى الثلاثة المواضع نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام ولم يدخل بينهما ورش وابن كثير ولورش وجه ثان وهو ابدال الثانية ألفا والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال بينهما ولما كان الجواب قطعا أنت الخالق وحدك أكد ذلك بقوله تعالى (نحن) أى بما لنا من العظمة لا غيرنا (قدرنا) أى تقديرا عظيما لا يقدر سوانا على نقض شئ منه (بينكم الموت) أى قسمناه عليكم فلم نترك أحدا منكم بغير حصة منه واقتنا موت كل بوقت معين لا يتعداه فقصرنا عمر هذا وربما كان

فى الاوج من قوة البدن وصحة المزاج فلو اجتمع الخلق كلهم على اطالة عمره ماقدروا أن يؤخروه لحظة وأطلنا عمر هذا وربما كان فى الحضيض من ضعف البدن واضطراب المزاج فلو تمالؤا على تقصيره طرفة عين لعجزوا وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (وما نحن) أى على مالنا من العظمة (بمسبوقين) أى بالموت أى لاعاجزين ولا مغلوبين (على) أى عن (أن نبدل) أى تبديلا عظيما (أمثالكم) أى صوركم وأشخاصكم (وننشئكم) أى انشاء جديدا بعد تبديل ذواتكم (فى مالاتعلمون) فان بعضكم تأكله الحيتان أو السباع أو الطيور فننشئ أبدانه منها وبعضهم يصير ترابا فربما نشأ منه نبات فأكلته الدواب فنشأت منه أبدانهم وربما صار ترابه من معادن الارض الذهب والفضة والحديد والنحاس والحجر ونحو ذلك وقد لمح الى ذلك قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا الى آخرها ويكون المعنى كما قال البغوى نأت بخلق مثلكم بدلا منكم ونخلقكم فيما لاتعلمون من الصور أى بتغيير أوصافكم وصوركم الى صور أخرى بالمسخ ومن قدر على ذلك قدر على الاعادة وقال الطبرى معنى الآية نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم وما نحن بمسبوقين فى آجالكم أى لايتقدم متأخر ولا يتأخر متقدم وننشئكم فيما لاتعلمون من الصور والهيآت قال الحسن أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم وقيل المعنى ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فيجمل المؤمن ببياض وجهه ونقبح الكافر بسواد وجهه* (فائدة)* فى مامقطوعة فى الرسم (ولقد علمتم النشأة الاولى) أى الترابية لابيكم آدم عليه السلام واللحمية لامكم حواء رضى الله عنها والنطفية لكم وكل منها تحويل من شئ الى آخر غيره فالذى شاهدتم قدرته على ذلك لايقدر على تحويلكم بعد أن تصيروا ترابا الى ماكنتم عليه أولا من الصور ولهذا سبب عما تقدم قوله تعالى (فلولا) أى فهلا ولم لا (تذكرون) أى تذكرا عظيما تكرهون أنفسكم عليه فتعلمون أن من قدر على النشأة الاولى قدر على الثانية فانها أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الاجزاء وسبق المثال وفيه دليل على صحة القياس وفى الخبر عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الاولى وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءة بفتح الشين وبعدها ألف قبل الهمزة والباقون بسكونها ولا ألف بعدها فاذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة الى الشين وخفف ذال تذكرون حمزة والكسائى وحفص وشددها الباقون ثم ذكرهم حجة أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم) أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة مانبهنا كم عليه فيما تقدم فتسبب عن تنبيهكم لذلك انكم رأيتم (ماتحرثون) أى تجددون حرثه على الاستمرار من أراضيكم فتطرحون فيه البذر (أأنتم تزرعونه) أى تنشئونه بعد طرحكم وتجعلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب (أم نحن) خاصة (الزارعون) أى المنبتون له والحافظون روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لايقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت قال أبو هريرة أرأيتم الى قوله تعالى أفرأيتم الآية* ولما كان الجواب قطعا أنت الفعال لذلك وحدك قال تعالى موضحا لانه مازرعه غيره (لو نشاء) أى لو عاملناكم بصفة العظمة

(لجعلناه) اى بتلك العظمة (حطاما) أى مكسورا مفتتا لاحب فيه قبل النبات حتى لا يقبل
الخروج أو بعده ببرد مفرط أو حر مهلك أو غير ذلك فلا ينتفع به (فظلتم) أى فأقمتم بسبب
ذلك نهارا فى وقت الاشغال العظيمة وتركتم ما يهمكم (تفكهون) حذفت منه احدى
التاءين فى الاصل تخفيفا أى تتعجبون مما نزل بكم فى زرعكم وقيل تندمون على ماسلف
منكم من المعاصى التى أوجبت تلك العقوبة قال الزمخشرى ومنه الحديث مثل العالم كمثل
الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء فبيناهم اذغار ماؤها فانتفع بها قوم وبقى قوم يتفكهون
أى يتندمون وقال الكسائى التفكه التلهف على مافات من الاضداد تقول العرب تفكهت
أى تنعمت وتفكهت أى حزنت وتقولون (انا لمغرمون) بحذف القول ومعنى الغرم
ذهاب المال بغير عوض من الغرام وهو الهلاك ومن مجىء الغرام بمعنى الهلاك قول القائل

ان يعذب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالى

وقال ابن عباس الغرام العذاب أى عذبوا بذهاب أموالهم والمعنى ان غرمنا الحب الذى
بذرناه فذهب بغير عوض ومن الغرام بمعنى العذاب قول القائل

وثقت بأن الحلم منك سجية * وأن فؤادى مبتلى بك مغرم

وقرأ شعبة أئنا بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة على الاستفهام والباقون بهمزة واحدة
مكسورة على الخبر (بل نحن) أى خاصة (محرومون) أى ممنوعون رزقنا حرمنا من لا يرد
قضاؤه فلا حظ لنا فى الاكتساب فلو كان الزارع ممن له حظ لأفلح زرعه ثم ذكر تعالى لهم حجة
أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم الماء) أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة مانبهنا عليه فيما
مضى من المطعم وغيره فرأيتم الماء (الذى تشربون) فتحيوا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم
ذكرهم بنعمه التى أنعم بها عليهم بانزال المطر الذى لا يقدر عليه أحد الا الله عز وجل
(أأنتم أنزلتموه من المزن) أى السحاب وهو اسم جنس واحده مزنة قال القائل

فلا مزنة ودقت ودقها * ولا أرض أبقل ابقالها

وعن ابن عباس والثورى المزن السماء والسحاب وقال أبو زيد المزنة السحابة البيضاء أى
خاصة وهى أعذب ماء والجمع مزن والمزنة المطرة (أم نحن) أى خاصة (المنزلون) أى له بما لنا
من العظمة (لو نشاء) أى حال انزاله وبعده قبل أن ينتفع به (جعلناه) أى بما تقتضيه صفة
العظمة (أجاجا) أى ملحا مرا محرقا كأنه فى الاحشاء لهيب النار المؤجج فلا يبرد عطشا ولا ينبت
نبتا ينتفع به وقال ابن عادل الاجاج المالح الشديد الملوحة (فلولا) أى فهلا ولم لا (تشكرون)
أى تجددون الشكر على سبيل الاستمرار باستعمال ما أفادكم ذلك من القوى فى طاعة الله الذى
أوجده لكم ومكنكم منه ثم ذكر تعالى لهم حجة أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم النار) أى أخبرونى
هل رأيتم بالبصر والبصيرة ماتقدم فرأيتم النار (التى تورون) أى تخرجون من الشجر الاخضر
(أأنتم أنشأتم) أى اخترعتم وأوجدتم وأحييتم وربيتم ورفعتم (شجرتها) أى التى يقدح منها
النار وهى المرخ والعفار وهما شجرتان يقدح منهما النار وهما رطبتان وقيل أراد جميع

الشجر الذى توقدبه النار (أم نحن) أى خاصة وأكد بقوله تعالى (المنشؤن) أى لها بما لنا من العظمة على تلك الهيئة فمن قدر على ايجاد النار التى هى أيبس مايكون فى الشجر الاخضر مع مافيه من المائية المضادة لها كان أقدر على اعادة الطراوة فى تراب الجسد الذى كان غضا طريا فيبس * ولما كان الجواب قطعا أنت وحدك قال تعالى دالا على ذلك تنبيها على عظم هذا الخبر (نحن) أى خاصة (جعلناها) أى لما اقتضته عظمتنا (تذكرة) أى شيأ يتذكر به تذكرا عظيما جليلا كما أخبرنا به من البعث وعذاب النار الكبرى وما ينشأ فيها من شجرة الزقوم وغير ذلك وقيل موعظة يتعظ بها المؤمن وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ناركم التى توقدون جزء من سبعين جزأ من نار جهنم قالوا والله ان كانت لكافية يارسول الله قال فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلها مثلها مثل حرها (ومتاعا) أى بلغة ومنفعة (للمقوين) أى المسافرين والمقوى النازل فى أرض القوا بالكسر والقصر والمد وهى القفر البعيدة من العمران والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادى والاسفار فان منفعتهم بها أكثر من المقيم فانهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ويهتدى الضال الى غير ذلك من المنافع وقال مجاهد للمقوين أى المنتفعين بها من الناس أجمعين يستضيئون بها فى الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها فى الطبخ والخبز الى غير ذلك من المنافع ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله تعالى منها وقال ابن زيد للجائعين فى اصلاح طعامهم يقال أقويت منذ كذا وكذا أى ما أكلت شيأ قال الشاعر وانى لاختار القوى طاوى الحشى * محافظة من أن يقال لئيم

وقال قطرب المقوى من الاضداد يقال للفقير مقو لخلوه من المال ويقال للغنى مقو لقوته على مايريد والمعنى فيها امتاعا ومنفعة للفقراء والأغنياء لاغنى لاحد عنها وقال المهدوى الآية تصلح للجميع لان النار يحتاج اليها المسافر والمقيم والغنى والفقير * ولما ذكر تعالى مايدل على وجوب وحدانيته وقدرته وانعامه على سائر الخلق خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم أو كل أحد من الناس بقوله تعالى (فسبح) أى أوقع التنزيه العظيم من كل شائبة نقص من ترك البعث وغيره ولاسيما بعد بلوغ هذه الادلة (باسم) أى ملتبسا بذكر اسم (ربك) أى المحسن اليك بهذا البيان الاعظم * (فائدة) * أثبتوا ألف الوصل هنا فى اسم ربك لانه لم يكثر دوره كثرته فى البسملة وحذفوه منها لكثرة دورها وهم شأنهم الايجاز وتقليل الكثير اذا عرف معناه وهذا معروف لايجهل واثبات ماأثبت من اشكاله مما لا يكثر دليل على الحذف منه ولذا لاتحذف مع غير الباء فى اسم الله ولا مع الباء فى غير الجلالة الكريمة من الاسماء وقد أوضحت ذلك فى مقدمتى على البسملة والحمدلة * ولما كان المقام للعظمة قال الله تعالى (العظيم) أى الذى ملأ الاكوان كلها عظمة فلا شئ منها الا وهو مملوء بعظمته تنزيها عن أن يلحقه شائبة نقص أو يفوته شئ من كمال فالعظيم صفة للاسم أو الرب والاسم قيل بمعنى الذات وقيل زائد أى فسبح ربك واختلف فى لا فى قوله تعالى (فلا أقسم) فقال أكثر المفسرين معناه فاقسم ولا صلة مؤكدة بدليل قوله تعالى بعد ذلك وانه لقسم ومثلها فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والتقدير

ليعلم وقال بعضهم انها حرف نفي وان المنفي به محذوف وهو كلام الكافر الجاهل والتقدير فلا حجة بما يقوله الكافر ثم ابتدأ قسما بما ذكر وضعف هذا بأن فيه حذف اسم لا وخبرها قال أبو حيان ولا ينبغي فان القائل بذلك مثل سعيد بن جبير تلميذ حبر القرآن وهو عبد الله ابن عباس ويبعد أن يقوله سعيد الا بتوقيف وقال بعضهم انها لام الابتداء والاصل فلا ُقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف كقول بعضهم أعوذ بالله من العقراب قال الزمخشري ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لامرين أحدهما ان حقها أن تقرن بها النون المؤكدة والاخلال بها ضعيف قبيح والثاني ان لافعلن في جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال واختلف أيضا في معنى قوله عز وجل (بمواقع النجوم) فقال أكثر المفسرين بمساقطها لغروبها قال الزمخشري ولعل لله تعالى في آخر الليل اذا انحطت النجوم الى المغرب أفعالا عظيمة مخصوصة وللملائكة عبادات موصوفة أو لانه وقت قيام المجتهدين والمبتهلين اليه من عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله تعالى (وانه لقسم لو تعلمون عظيم) وقال عطاء بن رباح أراد بمواقعها منازلها قال الزمخشري وله في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة مالا يحيط به الوصف وقال الحسن مواقعها انكدارها وانتثارها يوم القيامة وقال ابن عباس والسدى المراد نجوم القرآن أى أوقات نزولها وقال الضحاك هى الانواء التى كانت الجاهلية تقول اذا مطروا مطرنا بنوء كذا وقال القشيري هو قسم ولله أن يقسم بما يريد وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة (فان قيل) لو تعلمون جوابه ماذا أجيب بأنه مقدر تقديره لعظمتموه أى لو كنتم من ذوى العلم لعلمتم عظم هذا القسم ولكنكم ما علمتموه فعلم أنكم لا تعلمون وقرأ بموقع حمزة والكسائى بسكون الواو ولا ألف بعدها والباقون بفتح الواو وألف بعدها وقوله تعالى (انه) أى القرآن الذى أفهمته النجوم بعموم افهامها (القرآن) أى جامع سهل ذو أنواع جليلة (كريم) أى بالغ الكرم منزه عن كل شائبة لؤم ودناءة هو المقسم عليه وفى الكلام اعتراضان أحدهما الاعتراض بقوله تعالى وانه لقسم بين القسم والمقسم عليه والثانى الاعتراض بقوله تعالى لو تعلمون بين الصفة والموصوف *(تنبيه)* من كرم هذا القرآن العظيم كونه من الملك الاعلى الى خير الخلق بسفارة روح القدس مشتملا على أصول العلوم المهمة فى اصلاح المعاش والمعاد وبلسان العرب الذين اتفقت علماء الفرق على أن لسانهم أفصح الالسن وعلى وجه أعجز العرب كافة وبقية الخلق أجمعين واختلف فى معنى قوله تعالى (فى كتاب) أى مكتوب (مكنون) أى مصون فالذى عليه الاكثر أنه المصحف سمى قرآنا لقرب الجوار على الاتساع ولان النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يسافر بالقرآن الى أرض العدو وأراد به المصحف وقوله تعالى (لا يمسه) خبر بمعنى النهى ولو كان باقيا على خبريته لزم منه الخلف لان غير المطهر يمسه وخبر الله تعالى لا يقع فيه خلف لان المراد بقوله تعالى (الا المطهرون) لا المحدثون وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم وبه قال مالك والشافعى رضى الله عنهما وقال

ابن عادل والصحيح ان المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا لما روى مالك وغيره ان كتاب عمرو ابن حزم لا يمس القرآن الا طاهر وقال ابن عمر قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تمس القرآن الا وأنت طاهر وقالت أخت لعمر عند اسلامه وقد دخل عليها ودعا بالمصحف لا يمسه الا المطهرون فقام فاغتسل وأسلم وعلى هذا قال قتادة وغيره معناه لا يمسه الا المطهرون من الاحداث والانجاس انتهى وقال ابن عباس مكنون محفوظ عن الباطل والكتاب هنا كتاب فى السماء وقال جابر هو اللوح المحفوظ أى لقوله تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ وقال عكرمة التوراة والانجيل فيهما ذكر القرآن وقال السدى الزبور وقيل لا من لا يمسه نافية والضمة فى لا يمسه ضمة اعراب وعلى هذا ففى الجملة وجهان أحدهما ان محلها الجر صفة لكتاب والمراد به اما اللوح المحفوظ والمطهرون حينئذ الملائكة أو المراد به المصحف والمراد بالمطهرون الملائكة كلهم والثانى محلها رفع صفة لقرآن والمراد بالمطهرين الملائكة فقط أى لا يطلع عليه لان نسبة المس الى المعانى متعذرة وقيل انها ناهية والفعل بعدها مجزوم لانه لو فك عن الادغام لظهر ذلك فيه كقوله تعالى لم يمسسهم سوء ولكنه أدغم ولما أدغم حرك بالضم لاجل هاء ضمير المذكر الغائب وفى الحديث انا لم نرده عليك الا انا حرم بضم الدال وان كان القياس يقتضى جواز فتحها تخفيفا وبهذا ظهر فساد رد من رد بأن هذا لو كان نهيا كان يقال لا يمسه بالفتح لانه خفى عليه جواز ضم ماقبل الهاء فى هذا النحو بل لا يجوز سيبويه غيره * واختلفوا فى المس المذكور فى الآية فقال أنس وسعيد ابن جبير لا يمس ذلك الا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة وقال أبو العالية وابن زيد هم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم وقال الكلبى هم السفرة الكرام البررة وهذا كله قول واحد وهو اختيار مالك وقال الحسن هم الملائكة الموصوفون فى سورة عبس فى قوله تعالى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة وقيل معنى لا يمسه لا ينزل به الا المطهرون أى الا الرسل من الملائكة على الرسل من الانبياء ولا يمس اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون الا الملائكة المطهرون ولو كان المراد طهر الحدث لقال المتطهرون أو المطهرون بتشديد الطاء ومن قال بالاول قال المطهرون يعنى المتطهرون

(تنبيه) اختلف العلماء فى مس المصحف وحمله على غير وضوء فالجمهور على المنع من مسه على غير طهارة لحديث عمرو بن حزم وهو مذهب على وابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد ابن زيد وعطاء والزهرى والنخعى والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى وأما الحمل فلانه أبلغ من المس سواء حمله بعلاقته أم فى كمه أم على رأسه وسواء مس نفس الاسطر أم ما بينها أم الحواشى أم الجلد أم العلاقة أم الخريطة أم الصندوق اذا كان المصحف فيهما وسواء مس بأعضاء الوضوء أم بغيرها وقال جماعة بجواز مسه وحمله واحتجوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل كتابا فيه قرآن وهرقل محدث يمسه هو وأصحابه وبأن الصبيان يحملون الالواح محدثين بلا انكار وبأنه اذا لم تحرم القراءة فالحمل والمس أولى وبأنه يجوز حمله

فى أمتعة وأجيب عن الاول بأن ذلك الكتاب كان فيه آيتان ولا يسمى مصحفا ولا ما فى معناه وبأنه لو كان كتابا قد تضمن مع القرآن دعاء الى الاسلام فلم يكن القرآن بانفراده مقصودا فجاز تغليبا للمقصود فيه وعن الثانى بأنه أبيح للصبيان للضرورة لانهم غير مكلفين وعن الثالث بأن القراءة أبيحت للحاجة وعسر الوضوء لها كل وقت وبأنا لا نسلم الاولوية المذكورة بدليل أن الكافر لا يمنع من القراءة ويمنع من حمل المصحف ومسه وعن الرابع بأن جواز حمل المصحف فى الامتعة محله اذا لم يكن المصحف مقصودا بالحمل وقال آخرون بحرمة المس دون الحمل واحتجوا بأن المحرم يحرم عليه مس الطيب دون حمله وأجيب عنه بأنه غير صحيح لان حمل المصحف أبلغ فى الاستيلاء عليه من مسه فلما حرم الادنى كان تحريم الاعلى أولى ولان تحريم المصحف انما هو لحرمته فاستوى فيه مسه وحمله بخلاف طيب المحرم فان تحريمه مقصور على الاستمتاع به وليس فى حمله استمتاع به ولو لف كمه على يده وقلب به أوراق المصحف حرم عليه لان القلب يقع باليد لا بالكم بخلاف قلب ذلك بعود ويحرم كتب شئ من القرآن أو من أسمائه تعالى بنجس أو على نجس ومسه به اذا كان غير معفو عنه ولو خاف على المصحف من حرق أو غرق أو وقوع نجاسة عليه أو وقوعه فى يد كافر جاز حمله مع الحدث بل يجب ذلك صيانة للمصحف ولو لم يجد من يودعه المصحف وعجز عن الوضوء فله حمله مع الحدث ويلزمه أن يتيمم ان وجد التراب ولا تجوز المسافرة بالمصحف الى أرض الكفار اذا خيف وقوعه فى أيديهم للنهى عنه فى الصحيحين وخرج بالمصحف غيره نحو كتب الفقه والحديث وكتب التفسير فلا يحرم حملها ولا مسها الا أن يكون القرآن أكثر من التفسير أو مساويا له فيحرم الحمل والمس لانه حينئذ فى معنى المصحف وفى ذلك زيادة ذكرتها فى شرح المنهاج وغيره وقوله تعالى (تنزيل) أى منزل الكم بالتدريج بحسب الوقائع والتقريب للافهام والتأنى والترقية من حال الى حال وحكم الى حكم بوسايط الرسل من الملائكة (من رب العالمين) أى الخالق العالم بتربيتهم صفة القرآن أى القرآن منزل من عند رب العالمين سمى المنزل تنزيلا على اتساع اللغة كقوله تعالى هذا خلق الله وأوثر المصدر لان تعلق المصدر بالفاعل أكثر وفى ذلك رد على قول من قال بأن القرآن شعر أو سحر أو كهانة (أفبهذا الحديث) أى القرآن الذى تقدمت أوصافه العالية وهو يتجدد الكم انزاله وقتا بعد وقت (أنتم مدهنون) أى متهاونون كمن يدهن فى الامر أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به قال ابن برجان الادهان والمداهنة الملاينة فى الامور والتغافل والركون الى التجاوز اه قال البقاعى فهو على هذا انكار على من سمع أحدا يتكلم فى القرآن بما لا يليق ثم لا يجاهره بالعداوة وأهل الاتحاد كابن عربى الطائى صاحب الفصوص وابن الفارض صاحب التائية أول من صوبت اليه هذه الآية فانهم تكلموا فى القرآن على وجه يبطل الدين أصلا ورأسا ويحله عروة عروة فهم أضر الناس على هذا الدين ومن يتأول لهم أو ينافح عنهم أو يعتذر لهم أو يحسن الظن بهم مخالف لاجماع الامة أنحس حالا منهم فان مراده ابقاء كلامهم الذى لا أفسد للاسلام منه من غير ان يكون لابقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه اه وجرى ابن المقرى فى روضه على

كفر من شك فى كفر طائفة ابن العربى الذين ظاهر كلامهم عند غيرهم الاتحاد وهو بحسب ما فهمه من ظاهر كلامهم ولكن كلام هؤلاء جار على اصطلاحهم اذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره والمعتقد منهم لمعناه معتقد لمعنى صحيح وأما من اعتقد ظاهره من جهلة الصوفية الذين لاعلم عندهم بل أكثرهم يدعى ان العلم حجاب ومدعى ذلك هو المحجوب فانه يعرف فان استمر على ذلك بعد معرفته صار كافرا فنسأل الله تعالى التوفيق والعصمة * ولما كان هذا القرآن متكفلا بسعادة الدارين قال تعالى (وتجعلون رزقكم) أى حظكم ونصيبكم وجميع ما تنتفعون به من هذا الكتاب وهو نفعكم كله (أنكم تكذبون) فتضعون الكذب مكان الشكر كقوله تعالى وما كان صلاتهم عند البيت الامكاء وتصدية أى لم يكونوا يصلون ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة قال القرطبى وفيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسايط التى جرت العادة بأن تكون أسبابا بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بشكر ان كان نعمة أو صبر ان كان مكروها تعبدا له وتذللا وعن ابن عباس ان المراد به الاستسقاء بالانواء وهو قول العرب مطرنا بنوء كذا ورواه على بن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر فقال بعضهم هذه رحمة الله تعالى وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا قال فنزلت هذه الآية فلا أقسم بمواقع النجوم حتى بلغ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون وفيه أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج فى سفر فعطشوا فقال النبى صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان دعوت الله تعالى لكم فسقيتم لعلكم أن تقولوا هذا المطر بنوء كذا فقالوا يا رسول الله ما هذا بحين الانواء فصلى ركعتين ودعا الله تعالى فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمطروا فمر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سقينا بنوء كذا ولم يقل هذا من رزق الله تعالى فنزلت وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون أى شكر الله على رزقه اياكم أنكم تكذبون بالنعمة وتقولون سقينا بنوء كذا كقول القائل جعلت احسانى اليك اساءة منك الى وجعلت انعامى لديك أن اتخذتنى عدوا قال الشافعى لا أحب لاحد أن يقول مطرنا بنوء كذا وان كان النوء عندنا الوقت لا يضر ولا ينفع ولا يمطر ولا يحبس شيأ من المطر والذى أحب أن يقول مطرنا وقت كذا كما يقول مطرنا شهر كذا ومن قال مطرنا بنوء كذا وهو يريد ان النوء أنزل الماء كما يقول أهل الشرك فهو كافر حلال دمه ان لم يتب وحاصله ان اعتقد أن النوء هو الفاعل حقيقة فهو كافر والا فيكره له ذلك كراهة تنزيه وسبب الكراهة انها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائلها ولانها من شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم ثم بين سبحانه أنه لا فاعل لشئ فى الحقيقة سواه بقوله تعالى (فلولا) وهى أداة تفهم طلبا بزجر وتوبيخ وتقريع بمعنى فهلا ولم لا (اذا بلغت الحلقوم) أى بلغت الروح منكم ومن غيركم عند الاحتضار الحلقوم أضمرت من غير ذكر لدلالة الكلام عليها دلالة ظاهرة

وفى الحديث ان ملك الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيأ فشيأ حتى تنتهى الى الحلقوم فيتوفاها ملك الموت والحلقوم مجرى الطعام فى الحلق والحلق مساغ الطعام والشراب معروف فكان الحلقوم أدنى الحلق الى جهة اللسان (وأنتم) أى والحال أنكم أيها العاكفون حول المحتضر المتوجعون له (حينئذ) أى بلغت الروح ذلك الموضع (تنظرون) أى الى أمرى وسلطانى أو الى الميت ولا حيلة لكم ولا فعل بغير النظر ولم يقل تبصرون لئلا يظن ان لهم ادراكا بالبصر لشئ من البواطن من حقيقة الروح ونحوها (ونحن) أى والحال أنا نحن بما لنا من العظمة (أقرب اليه) أى المحتضر بعلمنا وقدرتنا (منكم) على شدة قربكم منه قال عامر بن قيس ما نظرت الى شئ الا رأيت الله أقرب الى منه (ولكن لا تبصرون) من البصيرة أى لا تعلمون ذلك (فلولا) أى فهلا (ان كنتم) أيها المكذبون بالبعث (غير مدينين) أى مربوبين من دان السلطان الرعية اذا ساسهم أو مقهورين مملوكين مجزيين محاسبين بما عملتم فى دار البلاء التى أقامكم فيها أحكم الحاكمين من دانه اذا ذله واستعبده وأصل تركيب دان للذل والانقياد قاله البيضاوى (ترجعونها) أى الروح الى ما كانت عليه (ان كنتم) كونا ثابتا (صادقين) فيما زعمتم فلولا الثانية تأكيد للاولى واذ ظرف لترجعون المتعلق به الشرطان والمعنى أنكم فى جحودكم أفعال الله تعالى وآياته فى كل شئ ان أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم سحر وافتراء وان أرسل اليكم رسولا صادقا قلتم ساحر كذاب وان رزقكم مطرا يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدى الى الاهمال والتعطيل فما لكم لا ترجعون الروح الى البدن بعد بلوغه الحلقوم ان لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين فى تعطيلكم وكفركم بالمحيى المميت المبدئ المعيد * ثم ذكر تعالى طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال عز من قائل (فأما ان كان) المتوفى (من المقربين) السابقين الذين اجتذبهم الحق من أنفسهم فقربهم منه فكانوا مرادين قبل أن يكونوا مريدين وليس القرب قرب مكان لانه تعالى منزه عنه وانما هو بالتخلق بالصفات الشريفة على قدر الطاقة البشرية ليصير الانسان روحا خالصا كالملائكة لا سبيل الى الحظوظ والشهوات عليها وقوله تعالى (فروح) مبتدأ خبره مقدر قبله أى فله روح أى راحة ورحمة وما ينعشه من نسيم الريح وقال سعيد بن جبير فله فرح وقال الضحاك مغفرة ورحمة (وريحان) أى رزق عظيم ونبات حسن بهيج وأزاهير طيبة الرائحة وقال مقاتل هو بلسان حمير رزق يقال خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه وقيل هو الريحان الذى يشم قال أبو العالية لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه ثم تقبض روحه وقال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والريحان دخول دار القرار (وجنت) أى بستان جامع الفواكه والرياحين (نعيم) أى ذات تنعم ليس فيها غيره واهله مقصورة عليهم *(تنبيه)* جنت هنا مجرورة التاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى فالكسائى بالامالة فى الوقف على أصله والباقون بالتاء على المرسوم (وأما ان كان) المتوفى (من أصحاب اليمين) أى الذين هم فى الدرجة الثانية من أصحاب الميمنة (فسلام لك) أى يا صاحب اليمين

(من) اخوانك (أصحاب اليمين) أى يسلمون عليك كقوله تعالى الاقيلا سلاما سلاما وقال القرطبى فسلام لك من أصحاب اليمين أى است ترى منهم الاما تحب من السلامة فلاتهتم لهم فانهم يسلمون من عذاب الله تعالى وقيل المعنى سلام لك منهم أى أنت سالم من الاغتمام لهم والمعنى واحد وقيل أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلى الله عليك ويسلم وقيل معناه سلمت أيها العبد مما تكره فانك من أصحاب اليمين فحذف انك وقيل انه يحيى بالسلام تكرما وعلى هذا فى محل السلام ثلاثة أقوال أحدها عند قبض روحه فى الدنيا يسلم عليه ملك الموت قاله الضحاك وقال ابن مسعود اذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام الثانى عند مسئلته فى القبر يسلم عليه منكر ونكير الثالث عند بعثه فى القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله اليها قال القرطبى ويحتمل أن يسلم عليه فى المواطن الثلاثة ويكون ذلك اكراما بعد اكرام * ولما ذكر تعالى الصنفين الناجيين أتبعهما الهالكين جامعا لهم فى صنف واحد لان من أريدت له السعادة يكفيه ذلك ومن ختم له بالشقاوة والعياذ بالله تعالى لا ينفعه الاغلاظ والاكثار فقال تعالى (وأما ان كان) المتوفى (من المكذبين) الذى أخذناه من أصحاب المشأمة وأنتم حوله تتقطع أكبادكم له ولا تقدرون له على شئ أصلا (الضالين) أى عن الهدى وطريق الحق (فنزل من حميم) كما قال تعالى ثم انكم أيها الضالون المكذبون الى أن قال فشاربون شرب الهيم وقال تعالى ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم أى ماء متناه فى الحرارة بعد ما نالوا من العطش كما يرد أصحاب الميمنة الحوض كما يبادر به للقادم ليبرد به غلة عطشه ويغسل به وجهه ويديه (وتصلية جحيم) أى ونزل من تصلية جحيم والمعنى ادخال فى النار وقيل اقامة فى الجحيم ومقاساة لانواع عذابها يقال اصلاه النار وصلاه أى جعله يصلاها والمصدر هنا مضاف الى المفعول كما يقال لفلان اعطاء ماله أى يعطى المال (ان هذا) أى الذى ذكر فى هذه السورة من أمر البعث الذى كذبوا به فى قولهم أئنا لمبعوثون ومن قيام الادلة عليه (لهو حق اليقين) أى حق الخبر اليقين أى لما عليه من الادلة القطعية المشاهدة كأنه مشاهد مباشر وقيل انما جاز اضافة الحق الى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما وذلك من باب اضافة المترادفين ولما حقق له تعالى هذا اليقين سبب عن أمره لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتنزيه عما وصفوه به مما يلزم منه وصفه بالعجز فقال تعالى (فسبح) أى أوقع التنزيه كله عن كل شائبة نقص بالاعتقاد والقول والفعل بالصلاة وغيرها بأن تصفه بكل ما وصف به نفسه من الاسماء الحسنى وتنزهه عن كل ما نزه نفسه عنه (باسم ربك) أى المحسن اليك بما خصك به مما لم يعطه أحدا غيرك واذا كان هذا الاسم فكيف بما هو له (العظيم) الذى ملأت عظمته جميع الاقطار والاكوان وزادت على ذلك بما لا يعلمه حق العلم سواه لان من له هذا الخلق على هذا الوجه المحكم وهذا الكلام الاعز الاكرم لا ينبغى لشائبة نقص أن تلم بجنابه أو تدنو من فناء بابه وعن عقبة بن عامر قال لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال النبى صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت سبح اسم ربك الاعلى قال النبى صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى سجودكم خرجه أبو داود وعن

ابى ذر قال قال لى عليه الصلاة والسلام ألا أخبرك بأحب الكلام الى الله تعالى سبحان الله وبحمده وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم هذا الحديث آخر حديث فى البخارى وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة وروى أبو طيبة عن عبد الله بن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا ورواه البيهقى وغيره وكان أبو طيبة لا يدعها أبدا وأخرجه ابن الاثير فى كتابه جامع الاصول ولم يعزه

(سورة الحديد مكية او مدنية)

وهى تسع وعشرون آية وخمسمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وأربعمائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى أحاطت هيبته بجميع الموجودات (الرحمن) الذى وسعهم جوده فى جميع الحركات والسكنات (الرحيم) الذى خص أهل ولايته بما يرضيه من العبادات ولما ختمت الواقعة بالامر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه فقال تعالى (سبح لله) أى الملك المحيط بجميع صفات الكمال (ما فى السموات) أى الاجرام العالية والذى فيها (والارض) والذى فيها أى نزهه كل شئ فاللام مزيدة وجئ بما دون من تغليبا للاكثر (وهو) أى وحده (العزيز) الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى أتقن كل شئ صنعه وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها (له) أى وحده (ملك السموات والارض) وما فيهما وما بينهما ظاهرا أو باطنا فالملك الظاهر ماهو الآن موجود فى الدنيا من أرض مدحية وسماء مبنية وكواكب مضيئة وأفلاك ورياح وسحاب مرئية وغير ذلك مما يحيط به علمه تعالى والملك الباطن الغائب عنا وأعظمه المضاف الى الآخرة وهو الملكوت (يحيى) أى له صفة الاحياء فيحيى ماشاء من الخلق بأن يوجده على صفة الحياة كيف شاء فى أطوار يقلبها كيف شاء وممن شاء (ويميت) أى له هاتان الصفتان على سبيل الاختيار والتجدد والاستمرار فهو قادر على البعث بدليل ما ثبت له من صفة الاحياء (وهو على كل شئ) أى من الاحياء والاماتة وغيرهما من كل ممكن (قدير) أى بالغ القدرة (هو) أى وحده (الاول) بالازلية قبل كل شئ فلا أول له والقديم الذى منه وجود كل شئ وليس وجوده من شئ لان كل ما نشاهده متأثر لانه متغير وكل ما كان كذلك فلا بد له من موجد غير متأثر ولا متغير (والآخر) أى بالابدية الذى ينتهى اليه وجود كل شئ فى سلسلة الترقى وهو بعد فناء كل شئ باق فلا آخر له لانه يستحيل عليه نعت العدم لان كل ماسواه متغير وكل ما تغير بنوع من التغير جاز اعدامه وما جاز اعدامه فلا بد له من معدم يكون بعده ولا يمكن اعدامه (والظاهر) أى الغالب العلى على كل شئ (والباطن) أى العالم بكل شئ هذا معنى قول ابن عباس وقال يمان هو الاول القديم والآخر الرحيم والظاهر

الحكيم والباطن العليم وقال السدى هو الاول ببره اذ عرفك توحيده والآخر بجوده اذ عرفك التوبة على ماجنيت والظاهر بتوفيقه اذ وفقك للسجود له والباطن بستره اذ عصيته فستر عليك وقال الجنيد هو الاول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب وسأل عمر كعبا عن هذه الآية فقال معناها ان علمه بالاول كعلمه بالآخر وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن (وهو بكل شئ عليم) أى لكون الاشياء عنده على حد سواء والبطون والظهور انما هو بالنسبة الى الخلق وأما هو سبحانه وتعالى فلا باطن من الخلق عنده بل هم فى غاية الظهور لديه لانه الذى أوجدهم (فان قيل) مامعنى هذه الواوات (أجيب) بأن الواو الاولى معناها الدلالة على انه الجامع بين الصفتين الاولية والآخرية والثالثة انه الجامع بين الظهور والخفاء وأما الوسطى فعلى انه الجامع بين الصفتين الاوليين ومجموع الصفتين الاخريين فهو المستمر الوجود فى جميع الاوقات الماضية والحاضرة والآتية وهو فى جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور بالادلة والخفاء فلا يدرك بالحواس قال الزمخشرى وفى هذا حجة على من جوز ادراكه فى الآخرة بالحاسة وهذا على رأيه الفاسد وهو على رأى المعتزلة المنكرين رؤية الله تعالى فى الآخرة وأما أهل السنة فانهم يثبتون الرؤية للاحاديث الدالة على ذلك من غير تشبيه ولا تكييف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وعن سهل قال كان أبو صالح يأمرنا اذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الايمن ثم يقول اللهم رب السموات والارض رب العرش العظيم ربنا ورب كل شئ فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والانجيل والفرقان أعوذبك من شر كل شئ أنت آخذ بناصيته اللهم أنت الاول فليس قبلك شئ وأنت الآخر فليس بعدك شئ وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك شئ اقض عنا الدين وأغننا من فضلك وكان يروى ذلك عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم (هو) أى وحده (الذى خلق السموات) وجمعها العلم العرب بتعددها (والارض) أى الجنس الشامل للكل وأفردها العدم توصلهم الى العلم بتعددها وقال تعالى (فى ستة أيام) أى من أيام الدنيا أولها الاحد وآخرها الجمعة سنا للتأنى فى الامور وتقديرا للايام التى أوترها سابعها الذى خلق فيه الانسان الذى دل يوم خلقه باسمه الجمعة على أنه المقصود بالذات وبأنه السابع نهاية المخلوقات وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) أى السرير كناية عن انفراده بالتدبير واحاطة قدرته وعلمه كما يقال فى ملوكنا جلس فلان على سرير الملك بمعنى أنه انفرد بالتدبير لا يكون هناك سرير فضلا عن جلوس وأتى باداة التراخى تنبيها على عظمته (يعلم ما يلج) أى يدخل دخولا لا يغيب فيه (فى الارض) اى من النبات وغيره من أجزاء الاموات وغيرها وان كان ذلك فى غاية البعد فان الاماكن كلها بالنسبة اليه تعالى على حد سواء فى القرب والبعد (وما يخرج منها) كذلك * (تنبيه) * فى التعبير بالمضارع دلالة على ما أودع فى الخافقين من القوى فصارا بحيث يتجدد منهما ذلك بخلقه تجددا مستمرا الى حين خرابهما (وما ينزل من السماء) من الوحى والامطار والحر والبرد وغيرها من الاعيان والمنافع التى يوجدها سبحانه وتعالى

من مقادير أعمار بني آدم وارزاقهم وغيرها من جميع شؤنهم (ومايعرج) أي يصعد ويرتقي ويغيب (فيها) كالابخرة والانوار والكواكب والاعمال وغيرها ولم يجمع السماء لان المقصود حاصل بالواحدة مع افهام التعبير بها الجنس الشامل للكل (وهو معكم) بالعلم والقدرة أيها الخلق (أينما كنتم) لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال فهو عالم بجميع أموركم وقادر عليكم تعالى الله عن اتصال بالعالم ومماسة او انفصال عنه بغيبة أو مسافة (والله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (بما تعملون) أي على سبيل التجدد والاستمرار (بصير) أي عالم بجليله وحقيره فيجازيكم به وقدم الجار لمزيد الاهتمام والتنبيه على تحقيق الاحاطة (له) أي وحده (ملك السموات) وجمع لاقتضاء المقام له (والارض) وأفرد لخفاء تعددها عليهم مع ارادة الجنس ودل على ارادة ملكه واحاطته بقوله تعالى (والى الله) أي الملك الذي لا كفؤ له وحده (ترجع) بكل اعتبار على غاية السهولة (الامور) أي كلها حسا بالبعث ومعنى بالابتداء والافناء ودل على ذلك بقوله تعالى (يولج) أي يدخل ويغيب بالنقص والمحو (الليل في النهار) فاذا هو قد قصر بعد طوله وقد انمحى بعد شخوصه وحلوله وزاد النهار وملأ الضياء الاقطار بعد ذلك الظلام (ويولج النهار) الذي عم الكون ضياؤه (في الليل) الذي كان قد غاب في علمه فاذا الظلام قد طبق الآفاق فيزيد الليل والطول الذي كان في النهار قد صار نقصا (وهو) أي وحده (عليم) أي بالغ العلم (بذات الصدور) أي بما فيها من الاسرار والمعتقدات على كثرة اختلافها وتغيرها وان خفيت على أصحابها ولما قامت الادلة على تنزيهه سبحانه قال تعالى آمرا بالاذعان له ولرسوله صلى الله عليه وسلم (آمنوا) أي أيها الثقلان (بالله) أي الملك الاعظم الذي لا مثل له (ورسوله) الذي عظمته من عظمته ونزل في غزوة العسرة وهي غزوة تبوك (وأنفقوا) أي في سبيل الله (مما جعلكم مستخلفين فيه) أي من الاموال التي في أيديكم فانها أموال الله تعالى لانه بخلقه وانشائه لها وانما مولكم اياها وخولكم بالاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها فليست هي بأموالكم في الحقيقة وما أنتم فيها الا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره اذا أذن له فيه أو جعلكم مستخلفين عمن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه اياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم اليكم وسينتقل منكم الى من بعدكم فلا تبخلوا به وانفعوا بالانفاق منها أنفسكم ولما أمر تعالى بالانفاق ووصفه بما سهله سبب عنه ما رغب فيه فقال تعالى (فالذين آمنوا منكم وأنفقوا) من أموالهم في الوجوه التي ندب اليها على وجه الاصلاح على ما دل عليه التعبير بالانفاق (لهم أجر كبير) أي لا تبلغ عقولكم حقيقة كبره فاغتنموا الانفاق في أيام استخلافكم قبل عزلكم وتلافكم وخصهم بالذكر بقوله تعالى منكم لضيق في زمانهم وقيل ان ذلك اشارة الى عثمان فانه جهز جيش العسرة وقوله تعالى (وما) أي وأي شئ (لكم) من الاعذار أو غيرها في أنكم أو حال كونكم (لا تؤمنون بالله) أي تجددون الايمان تجديدا مستمرا بالملك الاعلى أي الذي له الملك كله والامر كله

خطاب للكفار أى لا مانع لكم بعد سماعكم ما ذكر (والرسول) أى والحال ان الذى له الرسالة العامة (يدعوكم) فى الصباح والمساء (لتؤمنوا) أى لاجل أن تؤمنوا (بربكم) الذى أحسن تربيتكم بأن جعلكم من أمة هذا النبى الكريم فشرفكم به (وقد) أى والحال انه قد (أخذ ميثاقكم) أى وقع أخذه فصار فى غاية القباحة ترك التوثق بسبب نصب الادلة والتمكين من النظر بابداع العقول وذلك كله منضم الى أخذ الذرية من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى وقرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر الخاء ورفع القاف على البناء للمفعول ليكون المعنى من أى آخذ كان من غير نظر الى معنين وقرأ الباقون بفتح الهمزة والخاء ونصب القاف على البناء للفاعل والآخذ هو الله القادر على كل شئ العالم بكل شئ والحاصل انهم نقضوا الميثاق فى الايمان فلم يؤاخذهم حتى أرسل الرسل (ان كنتم مؤمنين) أى مريدين الايمان فبادروا اليه (هو) أى لا غيره (الذى ينزل) أى على سبيل التدريج والموالاة بحسب الحاجة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (على عبده) الذى هو أحق الناس بحضرة جماله واكرامه وهو محمد صلى الله عليه وسلم (آيات) أى علامات هى من ظهورها حقيقة أن يرجع اليها ويتعبد بها (بينات) أى واضحات وهى آيات القرآن الكريم (ليخرجكم) أى الله بالقرآن أو عبده بالدعوة (من الظلمات) التى أنتم منغمسون فيها من الحظوظ والنقائص التى جبل عليها الانسان والغفلة الكاملة على تراكم الجهل فمن آتاه الله تعالى العلم والايمان فقد أخرجه من هذه الظلمات التى طرأت عليه (الى النور) الذى كان له وصفا لروحه وفطرته الاولى السليمة (وان الله) أى الذى له صفات الكمال (بكم لرؤف رحيم) أى حيث نبهكم بالرسل والآيات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد وورش على أصله بالمد والتوسط والقصر وليس قصره كقصر أبى عمرو ومن معه وانما قصره كمد قالون ومن وافقه (وما) أى وأى شئ يحصل (لكم) فى (أن لا تنفقوا) أى توجدوا الانفاق للمال (فى سبيل الله) أى فى كل ما رضى الملك الاعظم الذى له صفات الكمال ليكون لكم به وصلة فيخصكم بالرأفة التى هى أعظم الرحمة فانه ما يخل أحد عن وجه خير الا سلط الله عليه غرامة فى وجه شر (ولله) أى الذى له صفات الكمال لا سيما صفة الارث المقتضية للزهد فى الموروث (ميراث السموات والارض) أى يرث كل شئ فيهما فلا يبقى لاحد مال فمن تأمل أنه زائل هو وكل ما فى يده والموت من ورائه وطوارق الحوادث مطبقة به وعما قليل ينقل ما فى يده الى غيره هان عليه الجود بنفسه وماله ثم بين تعالى التفاوت بين المنفقين منهم فقال تعالى (لا يستوى منكم من أنفق) أى أوجد الانفاق فى ماله وجميع قواه وما يقدر عليه (من قبل الفتح) أى الذى هو فتح جميع الدنيا فى الحقيقة وهو فتح مكة الذى كان سببا لظهور الدين الحق (وقاتل) سعيا فى انفاق نفسه لمن آمن به قبل الاسلام وقوة أهله ودخول الناس فى دين الله أفواجا وقلة الحاجة الى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد

الفتح فحذف لوضوحه ودلالة ما بعده عليه وفضل الاول لما ناله اذ ذاك بالانفاق من كثرة المشاق لضيق المال حينئذ وفى هذا دليل على فضل أبى بكر فانه أول من أنفق لم يسبقه فى ذلك أحد وخاصم الكفار حتى ضرب ضربا شديدا أشرف منه على الهلاك روى محمد بن فضيل عن الكلبى ان هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعن ابن عمر قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر الصديق عليه عباءة قد خلها فى صدره بخلال فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها بخلال فقال انفق ماله على قبل الفتح قال فان الله عز وجل يقول اقرأ عليه السلام وقل له أراض انت عنى فى فقرك هذا أم ساخط فقال أبو بكر اسخط على ربى انى عن ربى راض (أولئك) أى المنفقون المقاتلون وهم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه لمبادرتهم الى الجود بالنفس والمال (أعظم درجة) وتعظيم الدرجة يكون لعظم صاحبها (من الذين أنفقوا من بعد) أى من بعد الفتح (وقاتلوا) أى من بعد الفتح (وكلا) أى وكل واحد من الفريقين (وعد الله) أى الذى له الجلال والاكرام (الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة مع تفاوت الدرجات وقرأ ابن عامر برفع اللام على الابتداء أى وكل وعده ليطابق ما عطف عليه والباقون بنصبها أى وعد كلا (والله) اى الذى له الاحاطة الكاملة بجميع صفات الكمال (بما تعملون) أى تجددون عمله على الاوقات (خبير) اى عالم بباطنه وظاهره علما لامزيد عليه بوجه فهو يجعل جزاء الاعمال على قدر النيات التى هى أرواح صورها * (تنبيه) * المتقدم والتأخر قد يكون فى أحكام الدين وقد يكون فى أحكام الدنيا فأما التقدم فى أحكام الدين فقالت عائشة أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم وأعظم المنازل مرتبة الصلاة وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مرضه مروا أبا بكر فليصل بالناس وقال يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وقال فليؤمكما أكبركما وأما أحكام الدنيا فهى مرتبة على أحكام الدين فمن قدم فى الدين قدم فى الدنيا وفى الحديث ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا وفى الحديث ما أكرم شاب شيخا لسنه الاقيض الله له عند سنه من يكرمه ثم رغب فى الانفاق بقوله تعالى (من) وأكد بالاشارة بقوله تعالى (ذا) لاجل ما للنفوس من الشح (الذى يقرض الله) أى يعطى الذى له جميع صفات الجلال والاكرام شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لانه اذا أعطى المستحق ماله لوجه الله تعالى فكأنه أقرضه اياه (قرضا حسنا) أى طيبا خالصا مخلصا فيه متحريا به أفضل الوجوه من غير من وكدر بتسويف وغيره (فيضاعفه له) أى يؤتى أجره من عشرة الى أكثر من سبعمائة كما ذكره فى البقرة الى ما شاء الله تعالى من الاضعاف وقيل القرض الحسن أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقال زيد بن أسلم هو النفقة على الاهل وقال الحسن التطوع بالعبادات وقرأ ابن عامر وعاصم بنصب الفاء بعد العين والباقون بالرفع وقرأ ابن كثير وابن عامر بغير ألف بعد الضاد وتشديد العين والباقون بألف بعد الضاد وتخفيف العين (وله) أى للقرض زيادة

على ذلك (أجر) لايعلم قدره الا الله تعالى وهو معنى وصفه بقوله تعالى (كريم) أى حسن طيب زاك نام وقوله تعالى (يوم) ظرف لقوله تعالى وله أجر كريم أو منصوب باضمار اذكر أى واذكر يوم (ترى) أى بالعين (المؤمنين والمؤمنات) أى الذين صار الايمان لهم صفة راسخة (يسعى نورهم) أى مايوجب نجاتهم وهدايتهم الى الجنة (بين أيديهم وبأيمانهم) لان السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما ان الاشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم فيجعل النور فى الجهتين شعارا لهم وآية لانهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا فاذا ذهب بهم الى الجنة ومروا على الصراط يسعون يسعى معهم ذلك النور جنيبا لهم ومتقدما والاول نور الايمان والمعرفة والاعمال المقبولة والثانى نور الانفاق لانه بالايمان نبه عليه الرازى وقال قتادة ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم قال من المؤمنين من يضئ نوره من المدينة الى عدن ودون ذلك حتى ان من المؤمنين من لايضئ نوره الا موضع قدميه وقال عبد الله بن مسعود يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نورا نوره على ابهامه فيطفأ مرة ويتقد أخرى ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة (بشراكم اليوم) أى بشارتكم العظيمة فى جميع ماتستقبلكم من الزمان *(تنبيه)* بشراكم اليوم مبتدأ واليوم ظرف وقوله تعالى (جنات) خبره على حذف مضاف أى دخول جنات وهو المبشر به ثم وصفها بما لا تكمل اللذة الا به بقوله (تجرى من تحتها الانهار) ثم آمنهم من خوف الانقطاع بقوله تعالى (خالدين فيها) أى مخلودا لا آخر له لان الله تعالى أورثهم ذلك فلا يورث عنه لان الجنة لاموت فيها (ذلك) أى هذا الامر العظيم المتقدم من النور والبشرى بالجنات المخلدة (هو الفوز العظيم) أى الذى ملأ بعظمته جميع جهاتهم ولما شرح تعالى حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين بقوله (يوم يقول المنافقون والمنافقات) وهم المظهرون الايمان المبطنون الكفر *(تنبيه)* يوم بدل من يوم ترى أو منصوب باذكر (للذين آمنوا) أى ظاهرا وباطنا (انظرونا) أى انتظرونا لانه يسرع بهم الى الجنة كالبرق الخاطف على ركائب ترف بهم وهؤلاء مشاة أو انظروا الينا لانهم اذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيؤن به وقرأ حمزة بقطع الهمزة فى الوصل وكسر الظاء والباقون بوصل الهمزة ورفع الظاء وأما الوقف على آمنوا والابتداء بانظرونا فحمزة على حاله كما يقرأ فى الوصل والباقون بضم همزة الوصل فى الابتداء والظاء على حالها من الضم (نقتبس) أى نستضئ (من نوركم) أى هذا الذى نراه لكم ولا يلحقنا منه شئ كما كان فى الدنيا نرى ايمانكم بما نرى من ظواهركم ولا نتعلق من ذلك بشئ جزاء وفاقا وذلك لان الله تعالى يعطى المؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطى المنافقين أيضا نورا خديعة لهم وهو قوله تعالى وهو خادعهم فبينما هم يمشون اذ بعث الله ريحا وظلمة فاطفأت نور المنافقين فذلك قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه الآية مخافة ان يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين والقبس الشعلة من النار أو السراج قال ابن عباس

وأبو امامة يغشى الناس يوم القيامة ظلمة قال الماوردي أظنها بعد فصل القضاء ثم يعطون نورا يمشون فيه وقال الكلبي بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فاذا سبقهم المؤمنون وبقوا في الظلمة قالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم قيل لهم جوابا لسؤالهم قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون أي قول ردّ وتوبيخ وتهكم وتنديم (ارجعوا وراءكم) أي ارجعوا الى الموقف حيث أعطينا النور (فالتمسوا نورا) هنالك فمن ثم يقتبس أو ارجعوا الى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الايمان أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا والتمسوا نورا آخر فلا سبيل لكم الى هذا النور وقد علموا أن لا نور وراءهم وانما هو تخييب واقناط لهم وقال قتادة تقول لهم الملائكة ارجعوا وراءكم من حيث جئتم وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها ولما كان التقدير فرجعوا أو فأقاموا في الظلمة سبب عنه وعقب قوله تعالى (فضرب بينهم) أي بين المؤمنين والمنافقين (بسور) أي حائط حائل بين شق الجنة وشق النار (له) أي لذلك السور (باب) موكل به حجاب لا يفتحون الا من أذن له الله تعالى من المؤمنين لما يهديهم اليه من نورهم الذي بين أيديهم بشفاعة أو نحوها (باطنه) أي ذلك السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة من جهة الذين آمنوا جزاء لايمانهم الذي هو غيب (فيه الرحمة) وهي مالهم من الكرامة لانه يلي الجنة التي هي ساترة تبطن من فيها بأشجارها وبأستارها كما كانت بواطنهم ملآنة رحمة (وظاهره) أي ماظهر لاهل النار (من قبله) أي من عنده ومن جهته (العذاب) وهو الظلمة والنار لانه يليها الاقتصار اهلها على الظواهر من غير أن يكون لهم نفوذ الى باطن وروى عن عبد الله بن عمر ان السور الذي ذكر الله تعالى في القرآن هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم وقال ابن سريج كان كعب يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس انه الباب الذي قال الله تعالى فضرب بينهم بسور له باب الآية وقيل السور عبارة عن منع المنافقين عن طلب المؤمنين (ينادونهم) أي ينادي المنافقون الذين آمنوا ويترققون لهم (ألم نكن معكم) أي في الدنيا نصلي ونصوم فنستحق المشاركة فيما صرتم اليه بسبب ذلك الذي كنا معكم فيه (قالوا) أي الذين آمنوا (بلى) أي كنتم معنا في الظاهر (ولكنكم فتنتم أنفسكم) أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة (وتربصتم) أي بالايمان والتوبة وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه (وارتبتم) أي شككتم في الدين وفي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفيما وعدكم به (وغرتكم الاماني) أي ما تمنون من الارادات التي معها شهوة عظيمة من الاطماع الفارغة التي لا سبب لها غير شهوة النفس اياها بما كنتم تتوقعون لنا من دوائر السوء (حتى جاء أمر الله) أي قضاء الملك المتصف بجميع صفات الكمال فلا كفؤ له ولا خلف وقرأ قالون وأبو عمرو باسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وأيضا لهما ابدالها والباقون بتحقيقهما وأمال الالف بعد الميم حمزة وابن ذكوان والباقون

فتح واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة الثانية مع المد والتوسط والقصر (وغركم بالله) أي الملك الذي له جميع العظمة (الغرور) أي من لا صنعة له الا الكذب وهو الشيطان فانه يزين لكم بغروره التسويف ويقول ان الله غفور رحيم وعفو كريم وماذا عسى أن تكون ذنوبكم عنده وهو عظيم ومحسن وحليم ونحو ذلك فلا يزال حتى يوقع الانسان فاذا أوقعه واصل عليه مثل ذلك حتى تمادى فاذا تمادى صار الباعث له حينئذ من قبل نفسه فصار طوع يده (فاليوم) أي بسبب أفعالكم تلك (لا يؤخذ منكم فدية) أي نوع من أنواع الفداء وهو البدل والعوض للنفس على أي حال كان من قلة أو كثرة لان الاله غني وقد فات محل العمل الذي شرعه لكم لانقياد أنفسكم وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير (ولا من الذين كفروا) أي الذين أظهروا كفرهم ولم يستروه كما سترتموه أنتم لمساواتكم لهم في الكفر وانما عطف الكافر على المنافق وان كان المنافق كافرا في الحقيقة لان للمنافق أبطن الكفر والكافر أظهره فصار غير المنافق فحسن عطفه على المنافق (مأواكم النار) أي منزلكم ومسكنكم لا مقر لكم غيرها تحرقكم كما كنتم تحرقون قلوب الاولياء باقبالكم على الشهوات واضاعة حقوق ذوي الحاجات وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وورش لا يبدل هذه الهمزة ثم أكد ذلك بقوله تعالى (هي) أي لا غيرها (مولاكم) أي هي أولى بكم وأنشد قول لبيد

فغدت كلا الفرجين تحسب انه * مولى المخافة خلفها وأمامها

والشاهد في مولى المخافة فمولى بمعنى أولى والفرجان الجانبان وهو الخلف والقدام وهو وصف بقرة وحشية أي غدت على حالة كلا جانبيها مخوف وحقيقته في الآية محراكم بحاء مهملة وراء أي مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم أي مكان كقول القائل انه لكريم ويجوز أن يراد هي ناصركم أي لا ناصر لكم غيرها والمراد نفي الناصر على البتات وقيل تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار ولما كان التقدير بئس المولى هي عطف عليه قوله تعالى (وبئس المصير) أي هذه النار واختلف في سبب نزول قوله تعالى (ألم يأن) أي يحن ويدرك وينتهي الى الغاية (للذين آمنوا) أي أقروا بالايمان (أن تخشع) أي تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن (قلوبهم لذكر الله) أي الملك الاعظم الذي لا خير الا منه فيصدق في ايمانه من كان كاذبا ويقوى في الدين من كان ضعيفا فيعرض عن الفاني ويقبل على الباقي ولا يطلب لداء دينه دواء ولا لمرض قلبه شفاء في غير القرآن فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن وعن ابن مسعود رضي الله عنه ما كان بين اسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية الا أربع سنين وعن الحسن أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤن من القرآن أقل ما تقرؤن فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق وقيل كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا وأصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت وعن أبي بكر رضي الله عنه ان هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة

فبكوا

فبكوا بكاء شديدا فنظر اليهم وقال هكذا كنا حتى قست القلوب وقال الشاعر

ألم يأن لي ياقلب أن تترك الجهلا * وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

وقوله تعالى (وما نزل من الحق) أي القرآن عطف على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر لان القرآن جامع للامرين للذكر والموعظة أو أنه حق نازل من السموات ويجوز أن يراد بالذكر أن يذكر الله تعالى وقرأ نافع وحفص بتخفيف الزاي والباقون بالتشديد وقوله تعالى (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) أي قبل ما نزل اليكم وهم اليهود والنصارى معطوف على تخشع والمراد النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله تعالى (فطال عليهم الامد) أي الاجل لطول أعمارهم أو آمالهم أو ما بينهم وبين أنبيائهم (فقست) أي بسبب الطول (قلوبهم) أي صلبت واعوجت بحيث لا تنفعل بالطاعات والخير فكانوا كل حين في تعنت جديد على أنبيائهم عليهم السلام يسألونهم المقترحات وأما بعد أنبيائهم فابعدوا في القساوة فمالوا الى دار الكدر وأعرضوا عن دار الصفاء فانجروا الى الهلاك باتباع الشهوات قال القشيري وقسوة القلب انما تحصل باتباع الشهوة فان الشهوة والصفوة لا يجتمعان وعن أبي موسى الاشعري أنه بعث الى قراء البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرؤا القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاقرؤه ولا تطاولوا عليكم الامد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم (وكثير منهم) أخرج منه قساوته عن الذين أصلا ورأسا فهم (فاسقون) أي عريقون في صفة الاقدام على الخروج من دائرة الحق التي حدها لهم الكتاب حتى تركوا الايمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقوله تعالى (اعلموا أن الله) أي الملك الاعظم الذي له الكمال كله فلا يعجزه شئ (يحيي) أي على سبيل التجديد والاستمرار كما تشاهدونه (الارض) أي بالنبات (بعد موتها) أي يبسها تمثيل لاحياء الاموات بجميع أجسادهم وافاضة الارواح عليها كما فعل بالنبات وكما فعل بالاجسام أول مرة ولاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة فاحذروا سطوته واخشوا غضبه وارجوا رحمته لاحياء القلوب فانه قادر على احيائها بروح الوحي كما أحيا الارض بروح الماء لتصير باحيائها بالذكر خاشعة بعد قسوتها كما صارت الارض رابية بعد خشوعها وموتها * ولما انكشف الامر بهذه غاية الانكشاف أنتج قوله تعالى (قد بينا) اي على ما لنا من العظمة (لكم الآيات) أي العلامات النيرات (لعلكم تعقلون) أي لتكونوا عند من يعلم ذلك ويسمعه من الخلائق على رجاء من حصول العقل لكم بما يتجدد لكم من فهمه على سبيل التواصل الدائم بالاستمرار وقرأ (ان المصدقين) أي العريقين في هذا الوصف من الرجال (والمصدقات) أي من النساء ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد فيهما من التصديق بالايمان والباقون بالتشديد فيهما من التصدق أدغمت التاء في الصاد أي الذين تصدقوا وقوله تعالى (وأقرضوا الله) أي الذي له الكمال كله عطف على معنى الفعل في المصدقين لان اللام بمعنى الذين واسم الفاعل بمعنى اصدقوا كأنه قيل ان الذين اصدقوا وأقرضوا الله (قرضا حسنا) أي بغاية ما يكون من طيب النفس واخلاص النية والنفقة

فى سبيل الخير وحسنه كما قاله الرازى أن يصرف بصره عن النظر الى فعله والنفقة والامتنان وطلب العوض عليه (يضاعف) أى ذلك القرض (لهم) من عشرة الى سبعمائة كما مرلان الذى كان له العرض كريم وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد العين ولا ألف بينها وبين الضاد والباقون بتخفيف العين وبينها وبين الضاد ألف (ولهم) أى مع المضاعفة (أجر كريم) أى ثواب حسن وهو الجنة والنظر الى وجهه الكريم ثم بين سبحانه وتعالى الحامل على الصدقة ترغيبا فيه وهو الايمان فقال تعالى (والذين آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة العظيمة فى أنفسهم (بالله) أى الملك الاعلى الذى له الجلال والاكرام (ورسله) أى كلهم لاجل مالهم من النسبة اليه فمن كذب واحدا منهم لم يكن مؤمنا بالله تعالى (أولئك) أى هؤلاء العالو الرتبة (هم الصديقون) أى الذين هم فى غاية الصدق والتصديق لما يحق له أن يصدقه من سمعه وقال القشيرى الصديق من استوى ظاهره وباطنه ويقال هو الذى يحمل الامر على الاشق ولا ينزل الى الرخص ولا يجنح للتأويلات وقال مجاهد كل من آمن بالله تعالى ورسله عليهم السلام فهو صديق وتلا هذه الآية وقال الضحاك الآية خاصة فى ثمانية نفر من هذه الامة سبقوا أهل الارض فى زمانهم الى الاسلام أبو بكر وعلى وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم الحقه الله تعالى بهم لما عرف من صدق نيته صلى الله عليه وسلم وعلى آله واختلف فى نظم قوله تعالى (والشهداء عند ربهم) أى المحسن اليهم بالتربية لمثل تلك الرتبة العالية فمنهم من قال هى متصلة بما قبلها والواو للنسق وأراد بالشهداء المؤمنين المخلصين وقال الضحاك هم التسعة الذين سماهم رضى الله عنهم وقال مجاهد كل مؤمن صديق وشهيد وتلا هذه الآية وقال قوم تم الكلام عند قوله تعالى هم الصديقون ثم ابتدأ بقوله تعالى والشهداء فهو مبتدأ وخبره (لهم أجرهم) أى جعله ربهم لهم (ونورهم) أى الذى زادهموه من فضله برحمته قالوا والواو للاستئناف وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ومسروق وجماعة ثم اختلفوا فيهم فمنهم من قال هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام الذين يشهدون على الامم يروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو قول مقاتل بن حبان وقال مقاتل بن سليمان هم الذين استشهدوا فى سبيل الله عز وجل * ولما ذكر تعالى أهل السعادة جعلنا الله تعالى ووالدينا ومحبينا منهم جامعا لاصنافهم اتبعهم أهل الشقاوة اذلك بقوله تعالى (والذين كفروا) أى ستروا مادلت عليه الادلة (وكذبوا بآياتنا) أى على مالها من العظمة بنسبتها الينا (أولئك) أى هؤلاء البعداء من كل خير (أصحاب الجحيم) أى النار التى هى غاية فى توقدها وفى ذلك دليل على ان الخلود فى النار مخصوص بالكفار من حيث ان التركيب يشعر بالاختصاص والصحبة تدل على الملازمة عرفا وأما غيرهم من العصاة فدخولهم فيها ليس على وجه الصحبة الدالة على الملازمة ولما ذكر تعالى حال الفريقين فى الآخرة حقر امر الدنيا بقوله تعالى (اعلموا) أى أيها العباد المبتلون بحب الدنيا (انما الحياة الدنيا) أى الحاضرة التى رغب فى الزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن وما مزيدة للتأكيد أى الحياة فى هذه الدار (لعب) أى لعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان (ولهو) أى

شئ يفرح به الانسان فيلهيه أى يشغله عما يعنيه ثم ينقضى كلهو الفتيان ثم أتبع ذلك أعظم مايلهى فى الدنيا بقوله تعالى (وزينة) أى شئ يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان واتبعها غيرتها بقوله تعالى (وتفاخر بينكم) أى كتفاخر الاقران يفتخر بعضهم على بعض فيجر ذلك الى الحسد والبغضاء واتبع ذلك بما يحصل به الفخر بقوله تعالى (وتكاثر) أى من الجانبين كتكاثر الرهبان (فى الاموال) أى التى لايفتخر بها الا أحمق لكونها امائلة (والاولاد) أى التى لايفتخر بها الاسفيه لانها زائلة وآفاتها هائلة وانما هى فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره ثم ذلك كله قد يكون ذهابه عن قريب فيكون على اضداد ما كان عليه فيكون أشد فى الحسرة ثم فى آخر ذلك يموت فاذا هو قد اضمحل أمره ونسى عما قليل ذكره وصار ماله لغيره وزينته متمتعا بها سواه فالدنيا حقيرة وأحقر منها طالبها لانها جيفة وطالب الجيفة ليس له خطر وأخسهم من بخل بها وقال على لعمار لاتحزن على الدنيا فان الدنيا ستة أشياء مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة وأكثر شرابها الماء ويستوى فيه جميع الحيوان وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة وأفضل مشمومها المسك وهو دم فأرة وأفضل المركوب الفرس وعليها تقتل الرجال وأما المنكوح فهو النساء وهو مبال فى مبال والله ان المرأة لتزين أحسنها فيراد منها أقبحها اه ويناسب بعض ذلك قول الشاعر

خير لباسها نسجات دود * وخير شرابها قئ الذباب

وأشهى ماينال المرء فيها * مبال فى مبال مستطاب

قال القشيرى وهذه الدنيا المذمومة هى مايشغل العبد عن الآخرة فكل مايشغله عن الآخرة فهو الدنيا اه أى وأما الطاعات ومايعين عليها فمن أمور الآخرة * ثم ضرب الله للدنيا مثلا بقوله تعالى (كمثل) أى هذا الذى ذكرته من أمرها يشبه مثل (غيث) أى مطر حصل بعد جدب وسوء حال (أعجب الكفار) أى الزراع الذين حصل منهم الحرث والبذر الذى يستره الحارث كما يستر الكافر حقيقة أنوار الايمان بما يحصل منه من الجحد والطغيان (نباته) أى نبات ذلك الغيث كما يعجب الكافر فى الغالب بسط الدنيا له استدراجا من الله تعالى (ثم يهيج) أى ييبس فيتم جفافه فيحين حصاده (فتراه) أى عقب كل ذلك وبالقرب منه (مصفرا) أى على حالة لا نمو بعدها (ثم) أى بعد تناهى الجفاف (يكون) أى كونا كأنه مطبوع عليه (حطاما) أى فتاتا يضمحل بالرياح * ولما ذكر تعالى الظل الزائل ذكر اثره الثابت الدائم مقسما له الى قسمين فقال تعالى (وفى الآخرة عذاب شديد) أى على من آثر الدنيا وأخذها بغير حقها معرضا عن ذكر الله تعالى وعن الآخرة هذا أحد القسمين وأما القسم الآخر فهو ماذكره بقوله تعالى (ومغفرة) أى ولمن أقبل على الآخرة ورفض الدنيا ولم تشغله عن ذكر الله تعالى مغفرة (من الله) أى الملك الاعظم (ورضوان) أى فى جنة عالية تفضلا منه تعالى ورحمة * وقوله تعالى جل وعلا (وما الحياة الدنيا) أى لكونها تشغل بزينتها مع أنها زائلة (الامتاع الغرور) أى هو فى نفسه غرور لا حقيقة له

الاذلك لانه لايسر بقدر مايضر تأكيدا لما سبق قال سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور اذا ألهتك عن طلب الآخرة فاما اذا دعتك الى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة * ثم أرشدهم الله تعالى الى المسابقة الى الخيرات لان الدنيا خيال ومحال والآخرة بقاء وكمال بقوله تعالى (سابقوا) أى سارعوا مسارعة المسابقين فى المضمار (الى مغفرة) أى ستر لذنوبكم عينا وأثرا (من ربكم) أى المحسن اليكم بأنواع الخيرات التى توجب المغفرة لكم من ربكم وقال الكلبى سارعوا بالتوبة لانها تؤدى الى المغفرة وقال مكحول هى التكبيرة الاولى مع الامام وقيل الصف الاول (وجنة) أى وبستان هو من عظم أشجاره واطراد انهاره بحيث يستر داخله (عرضها كعرض السماء والارض) أى السموات السبع والارضين السبع لو جعلت صفائح والزق بعضها ببعض لكان عرض الجنة فى قدرها جميعا وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد ان لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وقال مقاتل ان السموات السبع والارضين السبع لو جعلت صفائح والزق بعضها الى بعض لكانت عرض جنة واحدة من الجنان وسأل عمر ناس من اليهود اذا كانت الجنة عرضها ذلك فاين النار فقال لهم أرأيتم اذا جاء الليل أين يكون النهار واذا جاء النهار أين يكون الليل فقالوا انه لمثلها فى التوراة ومعناه انه حيث شاء الله وهذا عرضها ولا شك ان الطول أزيد من العرض فذكر العرض تنبيها على ان طولها اضعاف ذلك وقيل ان هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع فى انفسهم وأفكارهم واكثر ما يقع فى أنفسهم مقدار السموات والارض فشبه عرض الجنة بما تعرفه الناس (أعدت) أى هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من أمرها بأيسر أمر (للذين آمنوا) أى أوقعوا هذه الحقيقة (بالله) أى الذى له جميع العظمة لاجل ذاته مخلصين له الايمان (ورسله) فلم يفرقوا بين أحد منهم وفى هذا أعظم رجاء وأقوى أمل لانه ذكر ان الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله ولم يذكر مع الايمان شيأ آخر يدل عليه قوله تعالى فى سياق الآية (ذلك) أى الفضل العظيم جدا (فضل الله) أى الملك الذى لا كفؤ له فلا اعتراض عليه (يؤتيه من يشاء) فبين أنه لا يدخل أحد الجنة الا بفضل الله لا بعمله لما روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة أحدا منكم عمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدنى الله بفضل رحمته ولا ينافى ذلك قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون لان الباء فى الحديث عوضية وفى الآية سببية (فان قيل) يلزم على هذا ان يقطع بحصول الجنة لجميع العصاة وان يقطع بأنه لا عقاب عليهم (أجيب) بانا نقطع بحصول الجنة ولا نقطع بنفى العقاب عنهم لانهم اذا عذبوا مدة ثم نقلوا الى الجنة بقوا فيها أبد الآباد فكانت معدة لهم (والله) أى والحال ان الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الامر كله (ذو الفضل العظيم) أى الذى جل أن تحيط بوصفه العقول (ما أصاب من مصيبة فى الارض) أى من قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمرات وغلاء الاسعار وتتابع الجوائح وغير ذلك (ولا فى أنفسكم) أى من الامراض والفقر وذهاب الاولاد وضيق العيش وغير ذلك (الا فى كتاب) أى مكتوبة فى اللوح مثبتة فى علم الله تعالى

(من قبل ان نبرأها) أى نخلق ونوجد ونقدر المصيبة فى الارض والانفس وهذا دليل على ان اكتساب العباد بخلقه سبحانه وتعالى وتقديره (ان ذلك) أى الامر الجليل وهو علمه بالشئ وكتبه له على تفاصيله قبل أن يخلقه (على الله) أى لما له من الاحاطة بصفات الكمال (يسير) لان علمه محيط بكل شئ فقدرته شاملة لا يعجزه فيها شئ ثم بين ثمرة اعلامه بذلك بقوله تعالى (لكيلا) أى أعلمنا كم بانا على مالنا من العظمة قد فرغنا من التقدير فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير لا الحزن يدفعه ولا السرور يجلبه ويجمعه كما قال صلى الله عليه وسلم يا معاذ ليقل همك ما قدر يكن لاجل أن لا (تأسوا) أى تحزنوا حزنا كبيرا زائدا على ما فى اصل الجبلة فربما جر ذلك الى السخط وعدم الرضا بالقضاء (على ما فاتكم) أى من المحبوبات الدنيوية (ولا تفرحوا) أى تسروا سرورا يوصلكم الى البطر بالتمادى على ما فى أصل الجبلة وقوله تعالى (بما آتاكم) قرأه أبو عمرو بقصر الهمزة أى جاءكم منه والباقون بالمد أى اعطاكم قال جعفر الصادق رضى الله عنه مالك تأسف على مفقود ولا يرده عليك الفوت ومالك تفرح بموجود ولا يتركه فى يدك الموت اهـ ولقد عزى الله تعالى المؤمنين رحمة بهم فى مصائبهم وزهدهم فى رغائبهم بان اسفهم على فوت المطلوب لا يعيده وفرحهم بحصول المحبوب لا يفيده وبان ذلك لا مطمع فى بقائه الا بادخاره عند الله تعالى وذلك بأن يقول المصيبة قدر الله تعالى وما شاء فعل ويصبر وفى النعمة هكذا قضى وما أدرى ما آله هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر فلا يزال خائفا عند النعمة قائلا فى الحالين ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن وأكمل من هذا أن يكون مسرورا بذكر ربه فى كلتا الحالتين وقيمة الرجال انما تعرف بالواردات المغيرة فمن لم يتغير بالمضار ولم يتأثر بالمسار فهو سيد وقته كما أشار اليه القشيرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما ليس من أحد الا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرا وغنيمته شكرا والحزن والفرح المنهى عنهما هما اللذان تتعدى فيهما الى ما لا يجوز (والله) أى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يفعل فعل المحب بان يكرم (كل مختال) أى متكبر نظرا الى ما فى يده من الدنيا (فخور) أى به على الناس قال القشيرى الاختيال من بقايا النفس ورؤيتها والفخر من رؤية خطر ما به يفتخر وقوله تعالى (الذين يبخلون) بدل من كل مختال فخور فان المختال بالمال يضن به غالبا (ويأمرون الناس) أى كل من يعرفونه (بالبخل) ارادة أن يكونوا لهم رفقاء يعملون باعمالهم الخبيثة أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله تعالى (ومن يتول) أى يكلف نفسه الاعراض ضد ما فى فطرته من محبة الخير والاقبال على الله تعالى (فان الله) الذى له جميع صفات الكمال (هو) أى وحده (الغنى الحميد) لان معناه ومن يعرض عن الانفاق فان الله غنى أى عن ماله وعن انفاقه وكل شئ مفتقر اليه وهو مستحق للحمد سواء أحمده الحامدون أم لا (لقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (رسلنا) أى الذين لهم نهاية الجلال بما لنا من الاتصال من الملائكة الى الانبياء على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ومن الانبياء الى الامم (بالبينات) أى الحجج القواطع (وأنزلنا) أى بعظمتنا التى لا شئ أعلى منها (معهم الكتاب)

أى الكتب المتضمنة للاحكام وشرائع الدين (والميزان) أى العدل وقيل الآلة روى أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه الى نوح عليه السلام وقال مر قومك يزنوا به (ليقوم الناس بالقسط) اى ليتعاملوا بينهم بالعدل (وأنزلنا) أى خلقنا خلقا عظيما بالناس من القوة (الحديد) أى المعروف على وجه من القوة والصلابة واللين فلذلك سمى ايجاده انزالا وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد وروى من آلة الحدادين السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والابرة وحكاه القشيرى قال والميقعة ما يحدد به يقال وقعت الحديدة أقعها أى حددتها وفى الصحاح الميقعة الموضع الذى يألفه البازى فيقع عليه وخشبة القصار التى يدق عليها والمطرقة والمسن الطويل وروى ومعه المبرد والمسحاة وعن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء الى الارض أنزل الحديد والنار والماء والملح وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أنزل ثلاثة أشياء مع آدم عليه السلام الحجر الاسود وكان أشد بياضا من الثلج وعصا موسى عليه السلام وكانت من آس طولها عشرة أذرع مع طول موسى وعن الحسن وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى وأنزل لكم من الانعام وذلك ان أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه (فيه بأس) أى قوة وشدة (شديد) أى قوة شديدة فمنه جنة وهى آلة الدفع ومنه سلاح وهو آلة الضرب (ومنافع للناس) بما يعمل منه من مرافقهم لتقوم أحوالهم بذلك قال البيضاوى ما من صنعة الا والحديد آلتها وقال مجاهد يعنى جنة وقيل انتفاع الناس بالماعون الحديد كالسكين والفاس ونحو ذلك وروى ان الحديد أنزل فى يوم الثلاثاء فيه بأس شديد أى مهراق الدماء ولذلك نهى عن الفصد والحجامة فى يوم الثلاثاء لانه يوم يجرى فيه الدم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان فى يوم الثلاثاء ساعة لا يراق فيها الدم وقوله تعالى (وليعلم الله) أى الذى له جميع العظمة علم شهادة لاجل اقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم عطف على قوله تعالى ليقوم الناس أى لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم الله (من ينصره) أى ينصر دينه بآلات الحرب من الحديد وغيره وقوله تعالى (ورسله) عطف على مفعول ينصره أى وينصر رسله وقوله تعالى (بالغيب) حال من هاء ينصره أى غائبا عنهم فى الدنيا قال ابن عباس رضى الله عنهما ينصرونه ولا يبصرونه (ان الله) أى الذى له العظمة كلها (قوى) أى فهو قادر على اهلاك جميع أعدائه وتأييد من ينصره من أوليائه (عزيز) فهو غير مفتقر الى نصرة أحد وانما دعا عباده الى نصرة دينه ليقيم الحجة عليهم فيرحم من أراد بامتثال المأمور ويعذب من يشاء بارتكاب المنهى لبناء هذه الدار على حكمة ربط المسببات بالاسباب * ولما أجمل الرسل فى قوله تعالى لقد أرسلنا رسلنا فصل هنا ما أجمل من ارسال الرسل بالكتب فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (نوحا) وهو الاب الثانى وجعلنا الاغلب على رسالته مظهر الجلال (وابراهيم) وهو أبو العرب والروم وبنى اسرائيل الذى أكثر الانبياء من نسله وجعلنا الاغلب على رسالته تجلى الاكرام (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (فى ذريتهما النبوة)

فلا يوجد نبي الامن نسلهما (والكتاب) أى الكتب الاربعة وهى التوراة والانجيل والزبور والفرقان وعن ابن عباس رضى الله عنهما الكتاب الخط بالقلم يقال كتب كتابا وكتابة والضمير فى قوله تعالى (فمنهم مهتد) يعود على الذرية لتقدم ذكرها لفظا وقيل يعود على المرسل اليهم لدلالة أرسلنا أى هو بعين الرضا منا وهو من لزم طريقة الاصفياء وان كان من أولاد الاعداء (وكثير منهم) أى المذكورين (فاسقون) أى هم بعين السخط وان كانوا من أولاد الاصفياء والمراد بالفاسق ههنا الكافر لانه جعل الفساق ضد المهتدين وقيل هو الذى ارتكب الكبيرة سواء أكان كافرا أم لم يكن لاطلاق هذا الاسم وهو يشمل الكافر وغيره (ثم قفينا) أى اتبعنا بما لنا من العظمة (على آثارهم) أى الابوين المذكورين ومن مضى قبلهما من الرسل أو عاصرهما منهم (برسلنا) أى فارسلناهم واحدا فى اثر واحد كموسى والياس وداود وغيرهم ولا يعود الضمير على الذرية لانها باقية مع الرسل وبعدهم وأيضا الرسل المقفى بهم من الذرية (وقفينا) أى اتبعنا بما لنا من العظمة على آثارهم قبل أن تندرس (بعيسى بن مريم) وهو من ذرية ابراهيم من جهة أمه وهو آخر من جاء قبل النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام فامته أولى الامم باتباعه صلى الله عليه وسلم (وآتيناه) أى بما لنا من العظمة (الانجيل) كتابا ضابطا لما جاء به مقيما للملته مبشرا بالنبى العربى موضحا لامره مكثرا من ذكره (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (فى قلوب الذين اتبعوه) أى على دينه بغاية جهدهم فكانوا على منهاجه (رأفة) أى أشد رقة على من كان ينسب الى الاتصال بهم (ورحمة) أى رقة وعطفا على من لم يكن له سبب فى الاتصال بهم كما كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع ان قلوبهم فى غاية الصلابة فهم أعزة على الكافرين متوادين بعضهم لبعض وقوله تعالى (ورهبانية) منصوب بفعل مقدر يفسره الظاهر وهو قوله تعالى (ابتدعوها) قال أبو على ابتدعوا رهبانية ابتدعوها فتكون المسئلة من باب الاشتغال والى هذا نحا الفارسى والزمخشرى وأبو البقاء وجماعة الا أن هذا يقال انه اعراب المعتزلة وذلك أنهم يقولون ما كان من فعل الانسان فهو مخلوق له فالرحمة والرأفة لما كانتا من فعل الله تعالى نسب خلقهما اليه والرهبانية لما لم تكن من فعل الله تعالى بل من فعل العبد يستقل بفعلها نسب ابتداعها اليه وقيل ان رهبانية معطوفة على رأفة ورحمة وجعل اما بمعنى خلق أو بمعنى صيروا بتدعوها على هذا صفة الرهبانية وانما خصت بذكر الابتداع لان الرأفة والرحمة فى القلب أمر غريزى لا تكلف للانسان فيهما بخلاف الرهبانية فانها أفعال البدن وللانسان فيها تكسب لكن أبو البقاء منع هذا بأن ما جعله الله تعالى لا يبتدعونه وجوابه ما تقدم من انه لما كانت مكتسبة صح ذلك فيها والمراد من الرهبانية ترهبهم فى الجبال فارين من الفتنة فى الدين متحملين كلفا زائدة على العبادات التى كانت واجبة عليهم من الخلو واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد فى الكهوف والغيران روى ان ابن عباس رضى الله عنهما قال فى أيام الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم غير الملوك التوراة والانجيل فساح نفر وبقى نفر قليل فترهبوا وتبتلوا قال الضحاك

ان ملوكا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلثمائة سنة فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم فقال قوم بقي بعدهم نحن اذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع وقال قتادة الرهبانية التي ابتدعوها رفض النساء واتخاذ الصوامع وفي خبر مرفوع هي لحوقهم بالبراري والجبال وقوله تعالى (ما كتبناها) صفة رهبانية ويجوز أن يكون استئناف اخبار بذلك قال ابن زيد معناه مافرضناها (عليهم) ولا أمرناهم بها في كتابهم ولا على لسان رسولهم وقوله تعالى (الا ابتغاء رضوان الله) اى الملك الاعظم استثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وقيل متصل عما هو مفعول من أجله والمعنى ما كتبناها عليهم لشئ من الاشياء الا لابتغاء مرضاة الله ويكون كتب بمعنى قضى قضاء والمعنى كتبناها عليهم ابتغاء مرضاة الله (فما رعوها حق رعايتها) أي ماقاموا بها حق القيام بل ضموا اليها التثليث وكفروا بدين عيسى ودخلوا في دين ملكهم وبقي على دين عيسى كثير منهم وآمنوا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم (فآتينا) اى بمالنا من صفات الكمال (الذين آمنوا) أي بالنبي صلى الله عليه وسلم (منهم أجرهم) أي اللائق بهم وهو الرضوان المضاعف (وكثير منهم) أي من هؤلاء الذين ابتدعوها وضيعوا (فاسقون) أي عريقون في وصف الخروج عن الحدود التي حدها الله تعالى وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه السلام روى البغوي بسنده عن ابن مسعود أنه قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم فرقة غزت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى وفرقة لم يكن لهم طاقة بمعاداة الملوك ولا أن يقيموا بين أظهرهم فدعوهم الى دين الله تعالى ودين عيسى عليه السلام فساحوا في البلاد فترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون وعن ابن مسعود أيضا قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار فقال يا ابن أم عبد هل تدري من اين اتخذت بنو اسرائيل الرهبانية فقلت الله ورسوله أعلم قال ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بالمعاصي فغضب أهل الايمان فقاتلوهم فهزموا أهل الايمان ثلاث مرار فلم يبق منهم الا القليل فقالوا ان ظهرنا لهؤلاء قتلونا ولم يبق للدين أحد يدعو اليه فتعالوا نتفرق في الارض الى أن يبعث الله تعالى النبي الذي وعدنا عيسى عليه السلام يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ورهبانية ابتدعوها الى قوله تعالى فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم يعني من ثبت عليها أجرهم ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي قلت الله ورسوله أعلم قال الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل الله تعالى وعن ابن عباس قال كانت ملوك بني اسرائيل بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والانجيل

وكان فيهم مؤمنون يقرؤن التوراة والانجيل ويدعونهم الى دين الله تعالى فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم او دخلوا فيما نحن فيه فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والانجيل والا غيابدلوا منهما فقالوا نحن نكفيكم انفسنا فقالت طائفة ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا اليها ثم اعطونا شيأ نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم وقالت طائفة دعونا نسيح فى الارض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فان قدرتم علينا بأرض فاقتلونا وقالت طائفة ابنوا لنا دورا فى الفيافى نحتفر الآبار ونحترث البقر فلا نرد عليكم ولا نراكم ففعلوا بهم ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى عليه السلام وخلف قوم من بعدهم ممن غير الكتاب فجعل الرجل يقول نكون فى مكان فلان فنتعبد كما تعبد ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بايمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عز وجل "ورهبانية ابتدعوها" ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعنى الآخرين الذين جاؤا من بعدهم فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم يعنى الذين ابتغوها ابتغاء مرضاة الله وكثير منهم فاسقون هم الذين جاؤا من بعدهم قال فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم الا القليل انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا وصدقوا فقال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى بموسى وعيسى عليهما السلام ايمانا صحيحا (اتقوا الله) أى خافوا عقاب الملك الاعظم (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم ايمانا مضموما الى ايمانكم بمن تقدمه هذا اذا كان خطابا لمؤمنى أهل الكتاب وأما اذا كان خطابا للمؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم فالمعنى آمنوا برسوله ايمانا مضموما الى ايمانكم بالله تعالى فانه لا يصح الايمان بالله الا مع الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم (يؤتكم) أى يثبكم على اتباعه (كفلين) أى نصيبين ضخمين (من رحمته) يحصنانكم من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على العجز وهذا التحصين لاجل ايمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم وايمانكم بمن تقدمه مع خفة العمل ورفع الآصار ولا يبعد ان يثابوا على دينهم السابق وان كان منسوخا ببركة الاسلام وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا فى عصره صلى الله عليه وسلم وقال أبو موسى الاشعرى كفلين ضعفين بلسان الحبشة وقال ابن زيد كفلين أجر الدنيا وأجر الآخرة وعن أبى موسى الاشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث يؤتون أجرهم مرتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده (ويجعل لكم) أى مع ذلك (نورا) مجازيا فى الدنيا من العلوم والمعارف القلبية وحسيا فى الآخرة بسبب العمل (تمشون به) أى مجازا فى الدنيا بالتوفيق للعمل وحقيقة فى الآخرة بسبب العمل وقال مجاهد النور هو البيان والهدى وقال ابن عباس هو القرآن وقال الزمخشرى هو النور المذكور فى قوله تعالى نورهم يسعى وقيل يمشون فى الناس يدعونهم الى الاسلام فيكونون رؤساء فى دين الاسلام لا تزول عنكم رياستكم فيه وذلك أنهم خافوا ان تزول

رياستهم لو آمنوا باتباعه محمد صلى الله عليه وسلم وانما كانت ان يفوتهم اخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله تعالى لا الرياسة الحقيقية فى الدين (ويغفر لكم) أى ما فرط منكم من سهو وعمد وهزل وجد (والله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (غفور) أى بليغ المحو للذنوب عينا وأثرا (رحيم) أى بليغ الاكرام لمن يغفر له ويوفقه للعمل بما يرضيه * ولما بلغ من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين قالوا للمسلمين اما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لايمانه بكتابكم وبكتابنا ومن لم يؤمن منا فله أجره كأجوركم فما فضلكم علينا فأنزل الله تعالى (لئلا يعلم) أى ليعلم ولا زائدة للتأكيد (أهل الكتاب) الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (أن) مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشان والمعنى انهم (لا يقدرون على شئ) فى زمن من الازمان (من فضل الله) أى الملك الاعلى فلا أجر لهم ولا نصيب فى فضله ان لم يؤمنوا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم فنزلت هذه الآية وقال مجاهد قالت اليهود يوشك ان يخرج منا نبي يقطع الايدى والارجل فلما خرج من العرب كفروا به فنزلت الآية وروى أن مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت وقيل المراد من فضل الله الاسلام وقيل الثواب وقال الكلبي من رزق الله وقيل نعم الله تعالى التى لا تحصى (وان) أى وليعلموا أن (الفضل) أى الذى لا يحتاج اليه من هو عنده (بيد الله) الذى له الامر كله (يؤتيه من يشاء) لانه قادر مختار فآتى المؤمنين منهم أجرهم مرتين (والله) أى الذى أحاط بجميع صفات الكمال (ذو الفضل العظيم) أى مالكه ملكا لا ينفك ولا مالك لاحد فيه معه ولا تصرف بوجه أصلا فلذلك يخص من يشاء بما يشاء روى البخارى عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر انما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الامم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطى أهل الانجيل الانجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا قال هل ظلمتكم من أجركم شيأ قالوا لا قال فذلك فضلى أوتيه من أشاء وفى رواية فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا الحديث وفى رواية انما أجلكم فى أجل من كان قبلكم خلا من الامم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس وانما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال من يعمل لى الى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود الى نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لى من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار الى العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين الا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر الى مغرب الشمس ألا لكم الاجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء قال الله تعالى هل ظلمتكم من حقكم شيأ قالوا لا قال فانه فضلى أوتيه من شئت وعن أبى موسى الاشعرى

عن

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما الى الليل على أجر معلوم فعملوا الى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا الى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا باطل فقال لهم لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا فأبوا وتركوا واستأجر آخرين من بعدهم فقال أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذى شرطت لهم من الاجر فعملوا حتى اذا كان حين صلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الاجر الذى جعلت لنا فيه فقال أكملوا بقية عملكم فانما بقى من النهار شئ يسير فأبوا فاستأجر آخرين على أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كلاهما فذلك مثلهم ومثل ما بقوا من هذا النور * وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله حديث موضوع

(سورة المجادلة مدنية)

فى قول الجميع الا رواية عن عطاء الا العشر الاول منها مدنى وباقيها مكى وقال الكلبى نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم نزلت بمكة وهى ثنتان وعشرون آية وأربعمائة وثلاث وسبعون كلمة وألف وسبعمائة واثنان وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى تمت قدرته وكملت جميع صفاته (الرحمن) الذى شمل الخلائق جودا بالايجاد وارسال الهداة (الرحيم) الذى خص أصفياءه فتمت عليهم نعمة مرضاته ونزل فى خولة بنت ثعلبة وكانت تحت أوس بن الصامت وكان قد ظاهر منها (قد سمع الله) أى أجاب بعظيم فضله الذى أحاط بجميع صفات الكمال فوسع سمعه الاصوات (قول التى تجادلك) أى تراجعك أيها النبى (فى زوجها) المظاهر منها روى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر بها فى خلافته وهو على حمار والناس معه فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت يا عمر قد كنت تدعى عميرا ثم قيل لك عمر ثم قيل لك أمير المؤمنين فاتق الله يا عمر فانه من أيقن بالموت خاف الفوت ومن أيقن بالحساب خاف العذاب وهو واقف يسمع كلامها فقيل له يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الموقف فقال والله لو حبستنى من أول النهار الى آخره لا زلت الا للصلاة المكتوبة أتدرون من هذه العجوز هى خولة بنت ثعلبة سمع الله تعالى قولها من فوق سبع سموات أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر وعن عائشة تبارك الذى وسع سمعه كل شئ انى لاسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تقول يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى اذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى اللهم انى أشكو اليك فما برحت حتى نزل بهذه الآية قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها الآية وروى أنها كانت حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها فلما انصرفت أرادها فأبت فغضب عليها قال عروة وكان امرأ به لمم فأصابه بعض لممه فقال لها أنت على كظهر أمى وكان الايلاء والظهار من الطلاق فى الجاهلية فسألت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت

ان أوساتزوجنى وأناشابة مرغوب فى فلما علا سنى ونثرت بطنى أى كثر ولدى جعلنى عليه كأمه فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم حرمت عليه فقالت والله ماذكر طلاقا وانه أبو ولدى وأحب الناس الى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه فقالت أشكو الى الله فاقتى ووحدتى فقد طالت صحبتى ونفضت له بطنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراك الا حرمت عليه أولم أومر فى شانك بشئ فجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه هتفت وقالت أشكو الى الله فاقتى وشدة حالى وان لى صبية صغارا ان ضممتهم الى جاعوا وان ضممتهم اليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها الى السماء وتقول اللهم انى أشكو اليك فأنزل على لسان نبيك وكان هذا أول ظهار فى الاسلام فأنزل الله تعالى قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زوجها وقال ماحملك على ماصنعت قال الشيطان فهل من رخصة فقال نعم وقرأ عليه الاربع آيات فقال له هل تستطيع العتق فقال لا والله فقال هل تستطيع الصوم فقال لا والله انى ان أخطأنى أن آكل فى اليوم مرة أو مرتين لكل بصرى ولظننت أنى أموت قال فأطعم ستين مسكينا قال ماأجد الا أن تعيننى منك بعون وصلة فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا وأخرج أوس من عنده مثله فتصدق به على ستين مسكينا وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لها مريه أى يعتق رقبة فقالت أى رقبة والله لا يجد رقبة وماله خادم غيرى فقال مريه ان يصوم شهرين فقالت والله مايقدر على ذلك انه يشرب فى اليوم كذا كذا مرة فقال مريه فليطعم ستين مسكينا فقالت أنى له ذلك (وتشتكى) أى تعتمد بتلك المجادلة الشكوى منتهية (الى الله) أى سؤال الملك الاعظم الرحمة الذى أحاط بكل شئ علما (فان قيل) مامعنى قد فى قوله تعالى قد سمع (أجيب) بأن معناها التوقع لان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله تعالى مجادلتها وشكواها وينزل فى ذلك مايفرج عنها لصدقها فى شكواها وقطع رجائها فى كشف مابها من غير الله ان الله تعالى يكشف كربتها (والله) أى والحال أن الذى وسعت رحمته كل شئ لان له الامر كله (يسمع تحاوركما) أى تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب (ان الله) أى الذى أحاط بجميع صفات الكمال (سميع) أى بالغ السمع لكل مسموع (بصير) اى بالغ البصر لكل مايبصر فهما صفتان كالعلم والقدرة والحياة والارادة وهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه متصفا بهما * ولما أتم تعالى الخبر عن احاطة العلم استأنف الاخبار عن حكم الامر المجادل بسببه فقال تعالى (الذين يظهرون) أى يوجدون الظهار فى أى زمان كان وقوله تعالى (منكم) أى أيها العرب المسلمون توبيخ لهم وتهجين لعادتهم لان الظهار كان خاصا بالعرب دون سائر الامم فنبه تعالى على أن اللائق بهم أن يكونوا أبعد الناس عن هذا الكلام لان الكذب لم يزل مستهجنا عندهم فى الجاهلية ثم زاده الاسلام استهجانا (من نسائهم) أى يحرمون نساءهم على أنفسهم تحريم الله تعالى عليهم ظهور أمهاتهم والظهار لغة مأخوذ من الظهر لان صورته الاصلية أن يقول لزوجته أنت على كظهر أمى وخصوا الظهر دون البطن

والفخذ

والفخذ غيرهما لانه موضع الركوب والمرأة مركوب الزوج وقيل من العلو قال تعالى فما
اسطاعوا أن يظهروه أي أن يعلوه وكان طلاقا في الجاهلية وقيل في أول الاسلام ويقال كان
في الجاهلية اذا كره أحدهم امرأته ولم يرد أن تتزوج بغيره آلى منها أو ظاهر فتبقى لا ذات زوج
ولا خلية تنكح غيره فغير الشارع حكمه الى تحريمها بعد العود ولزوم الكفارة كما سيأتي وحقيقته
الشرعية تشبيه الزوجة غير البائن بأنثى لم تكن حلاله وسمى هذا المعنى ظهارا التشبيه الزوجة
بظهر الام وله اركان أربعة مظاهر ومظاهر منها وصيغة ومشبه به وشرط في المظاهر كونه زوجا
يصح طلاقه وشرط في المشبه به كونه كل أنثى محرم أو جزء أنثى محرم لم تكن حلاله كبنته وأخته
وشرط في الصيغة لفظ يشعر بالظهار صريح كانت أو رأسك أو بدنك كظهر أمي أو كجسمها أو
بدنها وكناية كانت أمي أو كعينها أو غيرها مما يذكر للكرامة كرأسها أو روحها ويصح تأقيته
وتعليقه وأصل يظهرون يتظهرون أدغمت التاء في الظاء وقرأ الذين يظاهرون والذين يظاهرون
عاصم بضم الياء وتخفيف الظاء وبعدها ألف وتخفيف الهاء مكسورة وقرأ ابن عامر وحمزة
والكسائي بفتح الياء وتشديد الظاء وتخفيف الهاء مع فتحها وبين الظاء والهاء ألف والباقون
بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء ولا ألف بينهما (ماهن) اى نساؤهم (أمهاتهم) أى على الحقيقة
(ان) أى ما (أمهاتهم) أى حقيقة (الا اللائى ولدنهم) ونساؤهم لم يلدنهم فلا يحرمن عليهم
حرمة مؤبدة للاكرام والاحترام ولاهن ممن ألحق بالامهات بوجه يصح كأزواج النبي صلى الله
عليه وسلم فانهن أمهات لما لهن من حق الاكرام والاحترام والاعظام لان النبي صلى الله عليه
وسلم أعظم في أبوة الدين من أبي النسب وكذا المرضعات لما لهن من حق الرضاع الذي هو وظيفة
الام بالاصالة وأما الزوجة فمباينة لجميع ذلك وقرأ قالون وقنبل بالهمزة المكسورة ولا ياء بعدها
وقرأ ورش والبزي وأبو عمرو بتسهيل الهمزة مع المد والقصر وللبزي وأبي عمرو أيضا موضع الهمزة
ياء ساكنة مع المد والباقون بهمزة مكسورة وبعدها ياء وهم على مراتبهم في المد (وانهم) أى
المظاهرون (ليقولون) أى في هذا التظهر على كل حالة (منكرا من القول) اذ الشرع
أنكره وهو حرام اتفاقا كما نقل عن الرافعي في باب الشهادات (وزورا) أى قولا مائلا عن
السداد منحرفا عن القصد لان الزوجة معدة للاستمتاع الذي هو في الغاية من الامتهان والام
في غاية البعد عن ذلك (فان قيل) المظاهر انما قال أنت على كظهر أمي فشبهه بامه ولم يقل انها
أمه فما معنى أنه منكر من القول وزور والزور الكذب وهذا ليس بكذب (أجيب) بأن قوله
هذا ان كان خبرا فهو كذب وان كان انشاء فهو كذلك لانه جعله سببا للتحريم والشرع لم يجعله
سببا لذلك وأيضا فانما وصف بذلك لان الام مؤبدة التحريم والزوجة لا يتأبد تحريمها بالظهار فهو
زور محض (فان قيل) قوله تعالى الا اللائى ولدنهم يقتضى ان لا أم الا الوالدة وهذا مشكل بقوله
تعالى وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم (أجيب) بأن الشارع
ألحقهن بالوالدات لما مر (وان الله) أى الملك الاعظم الذي لا أمر لاحد معه في شرع ولا غيره
(لعفو) أى من صفاته ان يترك عقاب من شاء (غفور) أى من صفاته ان يمحو عين الذنب وأثره

* ثم بين احكام الظهار بقوله تعالى (والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) والعود في ظهار غير موقت من غير رجعية أن يمسكها بعد ظهاره مع علمه بوجود الصفة في المعلق زمن امكان فرقة ولم يفارق لان العود للقول مخالفته يقال قال فلان قولا ثم عاد له وعاد فيه أي خالفه ونقضه وهو قريب من قولهم عاد في هبته ومقصود الظهار وصف المرأة بالتحريم وامساكها يخالفه فلو اتصل بظهاره جنونه أو اغماؤه أو فرقة بموت أو فسخ من أحدهما بمقتضيه كعيب بأحدهما أو بطلاق بائن أو رجعي ولم يراجع فلا عود والعود في ظهار غير موقت من رجعية سواء أطلقها عقب الظهار أم قبله ان يراجع ولو ارتد متصلا بالظهار بعد الدخول ثم أسلم في العدة فلا عود بالاسلام بل بعده والفرق أن الرجعة امساك في ذلك النكاح والاسلام بعد الردة تبديل للدين الباطل بالحق والحل تابع له فلا يحصل به امساك وانما يحصل بعده فالعود في ظهار موقت يحصل بتغييب حشفة أو قدرها من فاقدها في المدة ويجب في العود به وان حل نزع لما غيبه كما لو قال ان وطئتك فأنت طالق لحرمة الوطء قبل التكفير كما سيأتي وانقضاء المدة واستمرار الوطء وطء ولما كان المبتدأ الموصول يتضمن معنى الشرط أدخل الفاء في خبره ليفيد السببية فيتكرر الوجوب بتكرر سببه فقال عز من قائل (فتحرير) أي فعليهم بسبب هذا الظهار والعود تحرير (رقبة) مؤمنة فلا تجزئ كافرة قال تعالى في كفارة القتل فتحرير رقبة مؤمنة والحق بها غيرها قياسا عليها بجامع حرمة سببيهما من القتل والظهار أو حملا للمطلق على المقيد كما في حمل المطلق في قوله تعالى واستشهدوا شهيدين من رجالكم على المقيد في قوله تعالى وأشهدوا ذوي عدل منكم بلا عوض وبلا عيب يخل بعمل فيجزئ صغير ولو ابن يوم وأقرع وأعرج يمكنه تباع مشي بأن يكون عرجه غير شديد وأعور لم يضعف عوره بصر عينه السليمة ضعفا يخل بالعمل وأصم وأخرس يفهم الاشارة وتفهم عنه وأخشم وفاقد أنفه وأذنيه وأصابع رجليه لا فاقد رجل أو خنصر وبنصر من يد أو أنملتين من كل منهما أو فاقد أنملتين من اصبع غيرهما أو فاقد أنملة ابهام لاخلال كل من الصفات المذكورة بالعمل ولا يجزئ مريض لا يرجى برؤه ولم يبرأ كمسلول وهرم بخلاف من يرجى برؤه ومن لا يرجى برؤه اذا برئ ولا مجنون افاقته أقل من جنونه تغليبا للاكثر ويجزئ معلق عتقه بصفة بأن ينجز عتقه بنية الكفارة أو معلقه كذلك بصفة أخرى وتوجد قبل الاولى ويجزئ نصفا رقبتين أعتقهما عن كفارة باقيهما أو في أحدهما كما استظهره بعضهم ويجزئ اعتاق رقبتيه عن كفارتيه لا جعل العتق المعلق كفارة عند وجود الصفة ولا مستحق عتق كأم ولد وصحيح كتابة (من قبل أن يتماسا) أي يتجدد بينهما مس روى أبو داود وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل ظاهر من امرأته وواقعها لا تقربها حتى تكفر وكالتكفير مضي مدة المؤقت لانتهائه بها وحمل التماس هنا لشبه الظهار بالحيض على التمتع بما بين السرة والركبة ومن حمله على الوطء الحق به التمتع بغيره فيما بينهما ولو ظاهر من أربع بكلمة كأنتن كظهر أمي فان أمسكهن فأربع كفارات لوجود سببها أو ظاهر منهن بأربع كلمات ولو متوالية فعائد من غير أخيرة ولو كرر في امرأة متصلا تعدد الظهار ان قصد استئنافا ويصير المظاهر بالاستئناف عائدا

(ذلكم) أى ذلك الحكم بالكفارة (توعظون به) أى ان غلاظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه (والله) أى الذى له الاحاطة بالكمال (بما تعملون) أى تجددون فعله (خبير) أى عالم بظاهره وباطنه فهو عالم بما يكفره فافعلوا بما أمر به وقفوا عند حدوده وانما يلزم الاعتاق عن الكفارة من ملك رقبة أو ثمنه فاضلا عن كفاية ممونه من نفسه وغيره قال الرافعى وسكتوا عن تقدير مدة ذلك ويجوز أن تقدر بالعمر الغالب وان تقدر بسنة اه والذى عليه الجمهور هو الاول ولا يلزمه بيع عقار ورأس تجارة وماشية لا يفضل دخلها عن غلة العقار وربح مال التجارة وفوائد الماشية من نتاج وغيره عن كفاية ممونه ولا بيع مسكن ورقيق نفيسين الفهما ولا يلزمه شراء بغبن (فمن لم يجد) أى الرقبة بأن عجز المكفر عن الاعتاق حسا أو شرعا وقت اداء الكفارة (فصيام) أى فعليه صيام (شهرين متتابعين) عن كفارته فالرقيق لا يكفر الا بالصوم لانه معسر لا يملك شيأ وليس لسيده منعه من الصوم ان ضره وانما اعتبر العجز وقت الاداء لا وقت الوجوب قياسا على سائر العبادات ولو ابتدأ الصوم ثم وجد الرقبة لم يلزمه الانتقال عنه لانه أمر به حيث دخل فيه وقال أبو حنيفة يعتق قياسا على الصغيرة المعتدة بالشهور اذا رأت الدم قبل انقضاء عدتها فانها تستأنف الحيض اجماعا ويكفيه نية صوم الكفارة وان لم ينو الولاء فان انكسر الشهر الاول أتمه من الثالث ثلاثين لتعذر الرجوع فيه الى الهلال وينقطع التتابع بفوات يوم ولو بعذر كمرض أو سفر فيجب الاستئناف ولو كان الفائت اليوم الأخير أو اليوم الذى نسيت النية له بخلاف ما اذا فات بجنون أو اغماء مستغرق لمنافاة ذلك الصوم (من قبل أن يتماسا) كما مر فى العتق فان جامع ليلا عصى ولم ينقطع التتابع لانه ليس محلا للصوم بخلافه نهارا وقال أبو حنيفة ومالك يبطل بكل حال ويجب عليه ابتداء الكفارة لقوله تعالى من قبل أن يتماسا (فمن لم يستطع) بأن عجز عن صوم أو ولاء لمرض يدوم شهرين بالظن المستفاد من العادة فى مثله أو من قول الاطباء أو لمشقة شديدة تلحقه بالصوم أو بولائه ولو كانت المشقة لشدة شهوة الوطء أو خوف زيادة مرض (فاطعام) أى فعليه اطعام (ستين مسكينا) أى من قبل أن يتماسا حملا للمطلق على المقيد بأن يملك كل مسكين من أهل الزكاة مدا من جنس الفطرة كبر وشعير واقط ولبن فلا يجزئ لحم ودقيق وسويق ويخرج بأهل زكاة غيره فلا يجزئ دفعها لكافر ولا لهاشمى ومطلبى ولا لمواليهما ولا لمن تلزمه مؤنته ولا لرقيق لانها حق الله تعالى فاعتبر فيها صفات الكمال (ذلك) أى الترخيص العظيم لكم والرفق بكم والبيان الشافى من أمر الله الذى هو موافق للحنيفية السمحة ملة أبيكم ابراهيم عليه السلام (لتؤمنوا) أى ليتحقق ايمانكم (بالله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه فتطيعوا ابا الانسلاخ عن أمر الجاهلية (ورسوله) أى الذى تعظيمه من تعظيمه * ولما رغب فى هذا الحكم رهب فى التهاون به بقوله تعالى (وتلك) أى هذه الاحكام العظيمة المذكورة (حدود الله) أى أوامر الملك الاعظم ونواهيه التى يجب امتثالها والتعبد بها الترعى حق رعايتها فالتزموها وقفوا عندها ولا تعتدوها فانه لا يطاق انتقامه اذا تعدى نقضه وابرامه (وللكافرين) أى العريقين فى الكفر بها أو بشئ

من شرائعه (عذاب أليم) اى عالم او المؤمنين به من الاعتداء فان عجز عن جميع خصال الكفارة لم تسقط الكفارة عنه بل هى باقية فى ذمته الى أن يقدر على شئ منها فاذا قدر على خصلة من خصالها فعلها ولا يتبعض العتق ولا الصوم بخلاف الاطعام حتى لو وجد بعض مد أخرجه الانه لابدل له ويبقى الباقى فى ذمته قال الزمخشرى فان قلت فاذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة ان تدافعه قلت لها ذلك وعلى القاضى أن يجبره على أن يكفر وان يحبسه ولا شئ من الكفارات يجبر عليه ويحبس الا كفارة الظهار وحدها لانه يضربها فى ترك التكفير والامتناع بحق الاستمتاع فيلزم أبدا حقها (فان قلت) فان مس قبل ان يكفر (قلت) عليه ان يستغفر ولا يعود حتى يكفر لما روى أن سلمة بن صخر البياضى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرت من امرأتى ثم أبصرت خلخالها فى ليلة قمراء فواقعتها فقال عليه الصلاة والسلام استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر اه والمراد بالاستغفار هنا التوبة * ولما ذكر تعالى المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها بقوله تعالى (ان الذين يحادون الله) أى يغالبون الملك الاعلى على حدوده ليجعلوا حدودا غيرها وذلك صورته صورة العداوة لان المحادة المعاداة والمخالفة فى الحدود وهو كقوله تعالى ومن يشاقق الله (ورسوله) أى الذى عزه من عزه وقيل يحادون الله أى أولياء الله كما فى الخبر من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة والضمير فى قوله تعالى ان الذين يحادون الله ورسوله يحتمل أن يرجع الى المنافقين فانهم كانوا يوادون الكافرين ويظاهرونهم على النبى صلى الله عليه وسلم فأذلهم الله تعالى ويحتمل أن يرجع لجميع الكفار فأعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم انهم (كبتوا) أى أذلوا وقال أبو عبيدة والاخفش أهلكوا وقال قتادة أخذوا وقال ابو زيد عذبوا وقال السدى لعنوا وقال الفراء أغيظوا يوم الخندق وقيل يوم بدر (كما كبت الذين من قبلهم) أى المحادين المخالفين رسلهم كقوم نوح ومن بعدهم ممن أصر على العصيان قال القشيرى ومن ضيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو أحدث فى دينه بدعة انخرط فى هذا السلك (وقد أنزلنا) أى بما لنا من العظمة عليكم وعلى من قبلكم (آيات بينات) أى دلالات عظيمة هى فى غاية البيان لذلك ولكل ما يتوقف عليه الايمان كترك المحادة وتحصيل الاذعان (وللكافرين) اى الراسخين فى الكفر بالآيات أو بغيرها من أوامر الله تعالى (عذاب مهين) بما تكبروا واعتدوا على أولياء الله تعالى وشرائعه يهينهم ذلك العذاب ويذهب عزهم وشماختهم ويتركون به محادتهم وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر كما قاله الزمخشرى قال تعظيما لليوم أو بلهم أى بالاستقرار الذى تضمنه لوقوعه خبرا أو بفعل مقدر وقدره أبو البقاء يهانون أو يعذبون أو استقر ذلك يوم (يبعثهم الله) أى الملك الاعظم (جميعا) أى حال كونهم مجتمعين الكافرين المصرح بهم والمؤمنين المشار اليهم الرجال والنساء أحياء كما كانوا لا يترك منهم أحد وقيل مجتمعين فى حال واحد (فينبئهم) أى يخبرهم اخبارا عظيما مستقصى (بما عملوا) تخجيلا وتوبيخا وتشهيرا لحالهم (أحصاه الله) أى أحاط به عددا كما وكيفا وزمانا ومكانا بما له من صفات الكمال والجلال (ونسوه) لانهم تهاونوا به حيث ارتكبوه ولم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصى وانما تحفظ

قوله أولئك هم الكافرون الخ لعل الصواب ويقوله الكافرين

معظمات الامور أو لخروجه عن الحد فى الكثرة فكيف كل واحد على انفراده (والله) أى بماله من القدرة الشاملة والعلم المحيط (على كل شئ) أى على الاطلاق (شهيد) أى حفيظ حاضر لا يغيب ورقيب لا يغفل ثم انه تعالى أكد بيان كونه عالما بكل المعلومات فقال جل ذكره (ألم تر) أى تعلم علما هو فى وضوحه كالرؤية بالعين (ان الله) أى الذى له صفات الكمال كلها (يعلم ما فى السموات) كلها (وما فى الارض) كذلك كليات ذلك وجزئياته لا يغيب عنه شئ منه بدليل أن تدبيره محيط بذلك على أتم ما يكون وهو يخبر من شاء من أنبيائه وأصفيائه بما يشاء من أخبار ذلك القاصية والدانية والماضية والآتية فيكون كما أخبر وقوله تعالى (ما يكون من نجوى) يكون فيه من كان التامة ومن نجوى فاعلها ومن مزيدة فيه أى ما يقع من تناجى (ثلاثة) ويجوز أن يقدر مضاف أى أهل نجوى فيكون ثلاثة صفة لاهل وان يؤول نجوى بمتناجين جعلوا نجوى مبالغة فيكون ثلاثة صفة لنجوى واشتقاقها من النجوة وهى ما ارتفع من الارض فان السر يرتفع الى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه وقوله تعالى (الا هو رابعهم) استثناء من أعم الاحوال أى ما يوجد شئ من هذه الاشياء فى حال من الاحوال الا وهو يعلم نجواهم كانه حاضر معهم وشاهدهم كما تكون نجواهم عند الرابع الذى يكون معهم (ولا خمسة) أى من نجواهم (الا هو سادسهم) أى يعلم نجواهم كما مر (فان قيل) ما الداعى الى تخصيص الثلاثة والخمسة (أجيب) بوجهين أحدهما أن قوما من المنافقين تحلقوا للتناجى فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون الى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم مغايظة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة فقيل ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون (ولا أدنى من ذلك) أى من عددهم (ولا أكثر) أى من ذلك (الا هو معهم) يسمع ما يقولون (أينما) أى فى أى مكان (كانوا) فانه لا مسافة بينه وبين شئ فقد روى عن ابن عباس أنها نزلت فى ربيعة وخبيب ابنى عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوما يتحدثون فقال أحدهم أترى أن الله يعلم ما نقول فقال الآخر يعلم بعضا ولا يعلم بعضا وقال الثالث ان كان يعلم بعضه فهو يعلم كله وصدق لان من علم بعض الاشياء بغير سبب فقد علمها كلها لان كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كل معلوم والوجه الثانى انه قصد ان يذكر ما جرت عليه العادة من اعداد أهل النجوى والمتخالين للشورى والمندوبون لذلك ليسوا بكل أحد وانما هم طائفة مجتباة من أولى النهى والاحلام ورهط من أهل الرأى والتجارب وأول عددهم اثنان فصاعدا الى خمسة الى ستة الى ما اقتضته الحال وحكم به الاستصواب ألا ترى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كيف ترك الامر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها الى سابع فذكر عز وجل الثلاثة والخمسة وقال ولا أدنى من ذلك فدل على الاثنين والاربعة وقال ولا أكثر فدل على ما يلى هذا العدد ويقاربه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى خطبته الكبرى أخرجها الحرث ابن أبى أسامة رقى المنبر وقال يا أيها الناس ادنوا واسمعوا لمن خلفكم ثلاث مرات فدنا الناس وانضم بعضهم الى بعض والتفتوا فلم يروا أحدا فقال رجل منهم بعد الثالثة لمن نسمع

قوله غب

يارسول الله الملائكة فقال لا انهم اذا كانوا معكم لم يكونوا بين أيديكم ولا خلفكم ولكن عن ايمانكم وعن شمائلكم وعلى ذلك فليسوا فى مكان الايمان هنا والشمائل بل فى المكانة من ذلك فالله جل جلاله أعلى وأجل وأنزه مكانة وأكرم استواء (ثم ينبئهم) أى يخبر أصحاب النجوى اخبارا عظيما (بما عملوا) دقيقه وجليله (يوم القيامة) الذى هو المراد الاعظم من الوجود لاظهار الصفات العلا فيه أتم اظهار (ان الله) الذى له الكمال كله (بكل شئ) أى مماذكر وغيره (عليم) أى بالغ العلم فهو على كل شئ شهيد وهذا تحذير من المعاصى وترغيب فى الطاعات واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ألم تر) أى تعلم علما هو كالرؤية (الى الذين نهوا عن النجوى) فقيل فى اليهود وقيل فى المنافقين وقيل فى فريق من الكفار وقيل فى فريق من المسلمين لما روى أبو سعيد الخدرى قال كنا ذات ليلة نتحدث اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ماهذه النجوى فقلنا تبنا الى الله تعالى يارسول الله انا كنا فى ذكر المسيح يعنى الدجال فرقا منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بما هو أخوف عندى منه قلنا بلى يارسول الله قال الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل ذكره الماوردى وقال ابن عباس نزلت فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم يوهمون المؤمنين انهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنون لذلك ويقولون ما نراهم الا وقد بلغهم من اخواننا الذين خرجوا فى السرايا قتل أو موت أو هزيمة فيقع ذلك فى قلوبهم ويحزنهم فلما طال ذلك عليهم وأشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا الى مناجاتهم فأنزل الله تعالى ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى (ثم يعودون) أى على سبيل الاستمرار لانه وقع مرة وبادروا الى التوبة منها أو فلتة معفوا عنها (لما نهوا عنه) أى من غير أن يعتدوا لما يتوقع من جهة الناهى من الضرر عنده (ويتناجون) أى يقبل بعضهم على المناجاة اقبالا واحدا فيفعل كل منهم منها ما يفعله الآخر مرة بعد أخرى على سبيل الاستمرار وقرأ حمزة بعد الياء بنون ساكنة وبعدها تاء فوقية مفتوحة ولا ألف قبل الجيم وضم الجيم والباقون بتاء فوقية مفتوحة وبعدها نون مفتوحة وبعد النون ألف وفتح الجيم (بالاثم) أى بالشئ الذى لا يثبت عليهم به الذنب وبالكذب وبما لا يحل (والعدوان) أى العدوان الذى هو نهاية فى قصد الشر بالافراط فى مجاوزة الحدود (ومعصيت الرسول) أى مخالفة النبى الذى جاء اليهم من الملك الاعلى وهو كامل فى الرسالة لكونه مرسلا الى جميع الخلق وفى كل الازمان فلا نبى بعده فهو لذلك مستحق غاية الاكرام *(فائدة)* رسمت معصية فى الموضعين بالتاء المجرورة واذا وقف عليها فأبو عمرو وابن كثير والكسائى بالهاء فى الوقف والكسائى بالامالة فى الوقف على أصله ووقف الباقون بالتاء على الرسم واتفقوا فى الوصل على التاء (واذا جاؤك) أى يا أشرف الخلق (حيوك) أى واجهوك بما يعدونه تحية (بما لم يحيك به الله) أى الملك الاعلى الذى لا أمر لاحد معه وذلك ان اليهود كانوا يدخلون على النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون السام عليك والسام

الموت وهم يوهمون انهم يقولون السلام عليك وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرد عليهم فيقول وعليكم فقالت السيدة عائشة السام عليكم ولعنة الله وغضبه عليكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا ياعائشة عليك بالرفق واياك والعنف والفحش فقالت أولم تسمع ماقالوا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم تسمعي ماقلت رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في وقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ماقلت فأنزل الله تعالى واذا جاؤك حيوك بمالم يحيك به الله وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم بالواو وقال بعض العلماء ان الواو العاطفة تقتضى التشريك فيلزم منه أن ندخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت أومن سآمة ديننا وهو الملال يقال سئم يسأم سأمة وسآما وقال بعضهم الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر * فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى * أى لما أجزنا انتحى فزاد الواو وقال آخرون هي للاستئناف كأنه قيل والسام عليكم وقال آخرون هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك لانا نجاب عليهم ولا يجابون علينا كما تقدم في قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة *(تنبيه)* اختلف العلماء في رد السلام على أهل الذمة فقال ابن عباس والشعبي وقتادة هو واجب لظاهر الامر بذلك وقال مالك ليس بواجب فان رددت فقل وعليك وعندنا يجب أن يقول له وعليك لما مر في الحديث وقال بعضهم يقول في الرد علاك السلام أى ارتفع عنك وقال بعض المالكية يقال في الرد السلام عليك بكسر السين يعني الحجارة * ولما كانوا يخفون ذلك جهدهم ويظنون باملاء الله تعالى لهم أنه صلى الله عليه وسلم لايطلع عليه وان اطلع عليه لم يقدر أن ينتقم منهم عبر عن ذلك بقوله تعالى (ويقولون في أنفسهم) من غير أن يطلع عليه أحد (لولا) أى هلا ولم لا (يعذبنا الله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ (بما نقول) أى لو كان نبيا لعذبنا الله بما نقول وقيل قالوا انه يرد علينا ويقول وعليكم السام فلو كان نبيا لاستجيب له فينا ومتنا وهذا موضع تعجب منهم فانهم كانوا أهل الكتاب وكانوا يعلمون ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يغضبون فلا يعاجلون من يغضبهم بالعذاب (حسبهم) أى كافيهم في الانتقام (جهنم) أى الطبقة التى تلقاهم بالتجهم والعبوسة والفظاظة فان حصل لهم في الدنيا عذاب كان زيادة على الكفاية فاستعجالهم بالعذاب محض رعونة (يصلونها) أى يقاسون عذابها اذا أنما فانا قد أعددناها لهم (فبئس المصير) أى مصيرهم (ياأيها الذين آمنوا) أى ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة (اذا تناجيتم) أى اطلع كل منكم الكلام من نفسه فرفعه وكشفه لصاحبه سرا (فلا تتناجوا) أى توجدوا هذه الحقيقة (بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول) أى الكامل في الرسالة كفعل المنافقين واليهود وقال مقاتل أراد تعالى بقوله آمنوا المنافقين آمنوا بلسانهم وقال عطاء يريد الذين آمنوا بزعمهم وقيل ياأيها الذين آمنوا بموسى (وتناجوا بالبر والتقوى) أى الطاعة والعفاف عمانهى الله تعالى عنه (واتقوا الله) أى اقصدوا قصدا يتبعه العمل بأن تجعلوا بينكم وبين سخط الملك الاعظم وقاية (الذى اليه) خاصة (تحشرون) أى تجمعون

بأيسر أمر وأسهله بقهره وكره وهو يوم القيامة فيتجلى فيه سبحانه للحكم بين الخلق والانصاف بينهم بالعدل ومحاسبتهم على النقير والقطمير لا تخفى عليه خافية ولا تقي منه واقية (انما النجوى) أى المعهودة وهى المنهى عنها (من الشيطان) أى مبتدئة وممتدة من المحترق بطرده عن رحمة الله تعالى فانه الحامل عليها بتزيينها فاعلها تابع لاعدى أعدائه مخالف لاعظم أوليائه (ليحزن) أى الشيطان (الذين آمنوا) أى ليوهمهم أنها بسبب شئ وقع مما يؤذيهم والحزن هم غليظ وتوجع يرق يقال حزنه وأحزنه بمعنى قال فى القاموس أو أحزنه جعله حزينا وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى من أحزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاى من حزن والقراءة الاولى أشد فى المعنى على ما فى القاموس (وليس) أى الشيطان أو ما حمل عليه من التناجى (بضارهم) أى الذين آمنوا (شيأ) من الضرر وان قل (الا باذن الله) أى بمشيئة الملك المحيط علما وقدرة (فان قيل) كيف لا يضرهم ذلك ولا يحزنهم الا باذن الله (أجيب) بانهم كانوا يوهمون المؤمنين فى نجواهم وتغامزهم ان غزاتهم غلبوا وان أقاربهم قتلوا فقال تعالى لا يضرهم الشيطان والحزن بذلك الموهم الا باذن الله تعالى أى بمشيئته وهو أن يقضى الموت على أقاربهم والغلبة على الغزاة (وعلى الله) أى الملك الذى لا كفء له لا على أحد غيره (فليتوكل المؤمنون) أى الراسخون فى الايمان فى جميع أمورهم فانه القادر وحده على اصلاحها وافسادها فلا يحزنوا من أحد أن يكيدهم بسره ولا بجهره فانهم توكلوا عليه وفوضوا أمورهم اليه وخص الراسخين لامكان ذلك منهم فى العادة وأما أصحاب البدايات فلا يكون ذلك منهم الا خرق عادة روى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث الا باذنه فان ذلك يحزنه وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه فبين فى هذا الحديث غاية المنع وهو أن يجد الثالث من يتحدث معه كما فعل ابن عمر وذلك أنه كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعا فقال له وللاول تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة خرجه فى الموطا ونبه على العلة بقوله من أجل أن يحزنه أى يقع فى نفسه ما يحزن لاجله وعلى هذا يستوى فى ذلك كل الاعداد فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلا لوجود ذلك المعنى فى حقه بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع فيكون بالمنع أولى وانما خص الثلاثة بالذكر لانه أول عدد يتأتى ذلك فيه قال القرطبى وظاهر الحديث يعم جميع الازمان والاحوال وذهب اليه ابن عمر ومالك والجمهور وسواء كان التناجى فى واجب أو مندوب أو مباح فان الحزن ثابت به وقد ذهب بعض الناس الى أن ذلك كان فى أول الاسلام لان ذلك كان حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين فلما فشا الاسلام سقط ذلك وقال بعضهم ذلك خاص بالسفر وفى المواضع التى لا يأمن الرجل فيها صاحبه فأما فى الحضر وبين العمارة فلا لانه يجد من يغيثه بخلاف السفر فانه مظنة الاغتيال وعدم الغوث ولما نهى المؤمنين عما يكون سببا للتباغض والتنافر أمرهم الآن بما يصير سببا لزيادة

المحبة والمودة بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى الذين اتصفوا بهذا الوصف (اذا قيل لكم) أى من أى قائل كان فات الخير يرغب فيه لذاته (تفسحوا) أى توسعوا أى كلفوا أنفسكم فى اتساع المواضع (فى المجالس) أى الجلوس أو مكانه لاجل من يأتى فلا يجد مجلسا يجلس فيه قال قتادة ومجاهد كانوا يتنافسون فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض وقال ابن عباس المراد بذلك مجالس القتال اذا اصطفوا للحرب قال الحسن وزيد بن أبى حبيب كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الاول فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة فى القتال والشهادة فنزلت فيكون كقوله تعالى مقاعد للقتال وقال مقاتل كان النبى صلى الله عليه وسلم فى الصفة وكان فى المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والانصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجلس فقاموا قبل النبى صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان بعدد القائمين من أهل بدر فشق ذلك على من قام وعرف النبى صلى الله عليه وسلم الكراهة فى وجوههم فقال المنافقون والله ما عدل على هؤلاء ان قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ فنزلت الآية يوم الجمعة وروى عن ابن عباس قال نزلت الآية فى ثابت بن قيس بن شماس وذلك أنه دخل المسجد وقد أخذ القوم مجالسهم وكان يريد القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم للوقر أى الصمم الذى كان فى أذنيه فوسعوا له حتى قرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه وبينهم كلام فنزلت وقد تقدمت قصته فى سورة الحجرات وقرأ عاصم بفتح الجيم وألف بعدها جمعا لان لكل جالس مجلسا أى فليفسح كل واحد فى مجلسه والباقون بسكون الجيم ولا ألف افرادا قال البغوى لان المراد منه مجلس النبى صلى الله عليه وسلم وقال القرطبى الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير وللأجر سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة وان كل واحد أحق بمكانه الذى سبق اليه قال صلى الله عليه وسلم من سبق الى ما لم يسبق اليه فهو أحق به ولكن يوسع لاخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق من موضعه فيكون المراد بالمجلس الجنس ويؤيده قراءة الجمع (فافسحوا) أى وسعوا فيه عن سعة صدر (يفسح الله) أى الذى له الامر كله (لكم) فى كل ما تكرهون ضيقه من الدارين وقال الرازى هذا يطلق فيما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة قال ولا ينبغى للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح فى المجلس بل المراد منه ايصال الخير الى المسلم وادخال السرور فى قلبه (واذا قيل) أى من أى قائل كان كما مضى اذا كان يريد الاصلاح والخير (انشزوا) أى ارتفعوا وانهضوا الى الموضع الذى تؤمرون به أو يقتضيه الحال للتوسعة أو غيرها من الاوامر كالصلاة والجهاد (فانشزوا) أى فارتفعوا وانهضوا (يرفع الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (الذين آمنوا) وان كانوا غير علماء (منكم) أى أيها

المأمورون بالتفسح السامعون للأوامر المبادرون اليها بطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيامهم فى مجلسهم وتوسعهم لاخوانهم (والذين أوتوا العلم درجات) يجوز أن يكون معطوفا على الذين آمنوا فهو من عطف الخاص على العام فان الذين أوتوا العلم بعض المؤمنين ويجوز أن يكون والذين أوتوا العلم من عطف الصفات أى تكون الصفتان لذات واحدة كأنه قيل يرفع الله المؤمنين العلماء ودرجات مفعول ثان وقال ابن عباس تم الكلام عند قوله تعالى منكم وينتصب الذين أوتوا بفعل مضمر أى ويخص الذين أوتوا العلم درجات أو ويرفع درجات قال المفسرون فى هذه الآية ان الله تعالى رفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم قال ابن مسعود مدح الله تعالى العلماء فى هذه الآية والمعنى ان الله تعالى يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات فى دينهم اذا فعلوا بما أمروا به وقال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال تعالى وقل رب زدنى علما وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء والآيات فى ذلك كثيرة معلومة وأما الاحاديث فكثيرة مشهورة منها من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وروى أن عمر رضى الله عنه كان يقدم عبد الله ابن عباس على الصحابة رضى الله تعالى عنهم فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه فسألهم عن تفسير اذا جاء نصر الله والفتح فسكتوا فقال ابن عباس هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله اياه فقال عمر ما أعلم منها الا ما تعلم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها والمراد بالحسد الغبطة وهى أن تتمنى مثله ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال من جاءه أجله وهو يطلب العلم ليحيى به الاسلام لم يفضله النبيون الا بدرجة واحدة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وفى رواية كفضلى على أدناكم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله أوحى الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام انى عليم أحب كل عليم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال يشفع يوم القيامة ثلاثة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين فى مسجده أحد المجلسين يدعون الله تعالى ويرغبون اليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله عز وجل ويرغبون اليه وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمونه الجاهل فهؤلاء أفضل وانما بعثت معلما ثم جلس فيهم والاحاديث فى ذلك كثيرة جدا وأما أقوال السلف فلا تحصر فمنها ما قاله ابن عباس ان سليمان عليه السلام خير بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه وما قاله بعض الحكماء ليت شعرى أى شئ أدرك

من فاته العلم وأى شئ فات من أدرك العلم وما قاله الاحنف كاد العلماء يكونون أربابا وكل عز لم يؤكد بعلم فالى ذل مايصير وما قاله الزبيرى العلم ذكر فلا يحبه الاذكورة الرجال وما قاله أبو مسلم الخولانى مثل العلماء فى الارض مثل النجوم فى السماء اذا برزت للناس اهتدوا بها واذا خفيت عنهم تحيروا وما قاله معاذ تعلم العلم فان تعلمه لك حسنة وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لايعلمه صدقة وبذله لاهله قربة وما قاله على العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق وما قاله ابن عمر مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة وما قاله الشافعى من أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة وقال ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم وقال من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم فانه يحتاج اليه فى كل منهما وقد ذكرت فى أول شرح المنهاج من الاحاديث ومن أقوال السلف مايسر الناظر الراغب فى الخير وفيما ذكرته هنا كفاية لاولى الابصار (والله) أى والحال ان المحيط بكل شئ علما وقدرة (بماتعملون) أى حال الامر وغيره (خبير) أى عالم بظاهره وباطنه فان كان العلم مزينا بالعمل بامتثال الاوامر واجتناب النواهى وتصفية الباطن كانت الرفعة على حسبه وان كان على غير ذلك فكذلك واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا) أى ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة أغنياء كانوا أو فقراء (اذا ناجيتم الرسول) أى أردتم مناجاة الذى لاأكمل منه فى الرسالة الآية فقال ابن عباس ان المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكف كثير من الناس وقال الحسن ان قوما من المسلمين كانوا يستخلون بالنبى صلى الله عليه وسلم يناجونه فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم فى النجوى فشق عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه وقال زيد بن أسلم ان المنافقين واليهود كانوا يناجون النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون انه أذن يسمع كل ماقيل له وكان لايمنع أحدا من مناجاته فكان ذلك يشق على المسلمين لان الشيطان كان يلقى فى أنفسهم أنهم يناجون أن جموعا اجتمعت لقتال فنزلت ياأيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول أى أردتم مناجاته (فقدموا) أى بسبب هذه الارادة وقوله تعالى (بين يدى نجواكم) استعارة ممن له يدان والمعنى قبل نجواكم التى هى سركم الذى تريدون أن ترفعوه (صدقة) لقول عمر من أفضل ماأوتيت العرب الشعر يقدمه الرجل امام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم يريد قبل حاجته والصدقة تكون لكم برهانا على اخلاصكم كما ورد أن الصدقة برهان فهى مصدقة لكم فى دعوى الايمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وبكل ماجاء به عن الله تعالى * (تنبيه) * ظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجبا لان الامر للوجوب ويؤكد ذلك قوله تعالى بعده فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم وقيل كان مندوبا لقوله تعالى (ذلك) أى التصدق (خير لكم وأطهر) أى لانفسكم من الريبة وحب المال وهذا

انما يستعمل فى التطوع لا فى الواجب ولانه لو كان واجبا لما أزيل وجوبه والكلام متصل به وهو قوله تعالى فان لم تجدوا الآية وأجيب عن الاول بأن المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر فكذلك أيضا يوصف بهما الواجب وعن الثانى بأنه لا يلزم من اتصال الآيتين فى التلاوة كونهما متصلتين فى القول كما قيل فى الآية الدالة على وجوب الاعتداد أربعة أشهر وعشرا انها ناسخة للاعتداد بحول وان كان الناسخ متقدما فى التلاوة وعن على أنه قال لما نزلت دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما تقول فى دينار قلت لا يطيقونه قال كم قلت حبة أو شعيرة قال انك لزهيد فلما رأوا ذلك اشتد عليهم فارتدعوا أما الفقير فلعسرته وأما الغنى فلشحه واختلف فى مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ فى هذه الآية فقال الكلبى ما بقى ذلك التكليف الا ساعة من نهار ثم نسخ وقال مقاتل وابن حبان بقى ذلك التكليف عشرة أيام ثم نسخ لما روى عن على أنه قال ان فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى كان لى دينار فصرفته فكنت اذا ناجيته تصدقت بدرهم وفى رواية عنه فاشتريت به عشرة دراهم وكلما ناجيت النبى صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدى نجواى درهما ثم نسخت فلم يعمل بها أحد وعن ابن عباس رضى الله عنهما انهم نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناج أحد الا على تصدق بدينار وعدم عمل غيره لا يقدح فيه لاحتمال أن يكون لم يجد عند المناجاة شيأ أو أن لا يكون احتاج الى المناجاة ثم نزلت الرخصة وعن ابن عمر رضى الله عنه كان لعلى ثلاث لو كان لى واحدة منهن كانت أحب الى من حمر النعم تزويجه فاطمة واعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى واختلف فى الناسخ لذلك فقيل هى منسوخة بالزكاة وأكثر المفسرين انها منسوخة بالآية التى بعدها وهى أأشفقتم كما سيأتى وكان على يقول وخفف عن هذه الامة (فان لم تجدوا) أى ما تقدمونه (فان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (غفور رحيم) أى له صفتا الستر للمساوى والاكرام باظهار المحاسن على الدوام فهو يعفو ويرحم تارة بتقدم العقاب للعاصى وتارة بالتوسعة للضيق بأن ينسخ ما يشق الى ما يخف وقوله تعالى (أأشفقتم) أى خفتم العيلة لما يعدكم به الشيطان من الفقر خوفا كاد أن يفطر قلوبكم (أن تقدموا) أى باعطاء الفقراء وهم اخوانكم (بين يدى نجواكم) أى النبى صلى الله عليه وسلم (صدقات) وجمع لانه أكثر توبيخا من حيث انه يدل على أن النجوى تتكرر استفهام معناه التقرير وهو الناسخ عند الاكثر كما مر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بتحقيقهما ولا ادخال والاولى محققة بلا خلاف (فاذ) أى فحين (لم تفعلوا) أى ما أمرتكم به من الصدقة للنجوى بسبب هذا الاشفاق (وتاب الله) أى الملك الاعلى (عليكم) أى رجع بكم عنها بأن نسخها عنكم تخفيفا عليكم (فأقيموا) أى بسبب العفو عنكم شكرا أى على هذا الكرم والحلم (الصلوة) التى هى طهرة لارواحكم وصلة لكم بربكم (وآتوا الزكوة) التى هى براءة لابدانكم وتطهير ونماء لاموالكم وصلة لكم باخوانكم ولا تفرطوا فى شئ من ذلك فتهملوه فالصلاة نور يهدى الى المقاصد الدنيوية والاخروية ويعين على نوائب الدارين والصدقة برهان على صحة القصد فى الصلاة

ثم عمم بعد ان خصص أشرف العبادات البدنية واعلى المناسك المالية بقوله تعالى (وأطيعوا الله) أى الذى له الكمال كله (ورسوله) أى الذى عظمته من عظمته فى سائر ما يأمركم به فانه تعالى ما أمركم لاجل اكرام رسولكم صلى الله عليه وسلم الا بالحنيفية السمحة (والله) أى الذى أحاط بكل شئ علما وقدرة (خبير بما تعملون) أى يعلم بواطنكم كما يعلم ظواهركم لا تخفى عليه خافية (ألم تر) أى تنظر يا أشرف الخلق (الى الذين تولوا) أى تكلفوا بغاية جهدهم وهم المنافقون أى جعلوا أولياءهم الذين يتولون لهم أمورهم (قوما) وهم اليهود ابتغوا عندهم العزة اغترارا بما يظهر لهم منهم من القوة (غضب الله) أى الملك الاعلى الذى لا ند له (عليهم) أى المتولى والمتولى لهم (ما هم) أى المنافقون (منكم) أى المؤمنين (ولا منهم) أى اليهود بل هم مذبذبون وزاد فى الشناعة عليهم بأقبح الاشياء بقوله تعالى (ويحلفون) أى المنافقون يجددون الحلف على الاستمرار ودل بأداة الاستعلاء على انهم فى غاية الجراءة على استمرارهم على الايمان الكاذبة بأن التقدير مجترئين (على الكذب) فى دعوى الاسلام وغير ذلك مما يقعون فيه من عظائم الآثام فاذا عوتبوا عليه بادروا الى الايمان (وهم يعلمون) انهم كاذبون متعمدون روى أن عبد الله بن نبتل كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه الى اليهود فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرة من حجره اذ قال لاصحابه يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان فدخل ابن نبتل وكان أزرق العينين أسمر قصيرا خفيف اللحية فقال له النبى صلى الله عليه وسلم علام تشتمنى أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل فقال النبى صلى الله عليه وسلم فعلت فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت (أعد الله) أى الذى له العظمة الباهرة فلا كفء له (لهم عذابا) أى أمرا قاطعا لكل عذوبة (شديدا) أى لا طاقة لهم به * ثم علل عذابهم بما دل على انه واقع فى أتم مواقعة بقوله تعالى مؤكدا تقبيحا على من كان يستحسن فعالهم (انهم ساء) أى بلغ الغاية بما يسوء ودل على أن ذلك لهم كالجبلة بقوله تعالى (ما كانوا يعملون) أى يجددون عمله مستمرين عليه لا ينفكون عنه قال الزمخشرى أوهى حكاية ما يقال لهم فى الآخرة (اتخذوا أيمانهم) أى الكاذبة التى لا تهون على من فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان (جنة) وقاية وسترة من كل ما يفضحهم من النفاق كائنا ما كان (فصدوا) أى كان قبول ذلك منهم وتأخير عقابهم سببا لايقاعهم الصد (عن سبيل الله) أى شرع الملك الاعلى الذى هو طريق الى رضوانه الذى هو سبب الفوز العظيم فانهم كانوا يثبطون من لقوا عن الدخول فى الاسلام ويوهنون أمره ويحقرونه ومن رآهم قد خلصوا من المكاره بأيمانهم الخائنة ودرت عليهم الارزاق استدراجا وحصلت لهم الرفعة عند الناس بما يرضونه من أقوالهم المؤكدة بالايمان غره ذلك فاتبع سنتهم فى أقوالهم وأفعالهم ونسج على منوالهم غرورا بظاهر أمرهم معرضا عما توعدهم الله تعالى عليه من جزاء خداعهم وأمرهم وأجرى الامر على أسلوب التهكم باللام التى تكون فى المحبوب فقال تعالى (فلهم) أى فتسبب عن صدهم انه كان لهم (عذاب مهين) بجزاء ما طلبوا بذلك الصد اعزاز أنفسهم واهانة أهل الاسلام (ان

تغني) أي بوجه من الوجوه (عنهم أموالهم) أي في الدنيا ولا في الآخرة بالافتداء ولا بغيره (ولا أولادهم) أي بالنصرة والمدافعة (من الله) أي اغناء مبتدأ من الملك الاعلى (شيئاً) ولو قل جداً فهما أراد بهم سبحانه كان ونفذ ومضى لا يدفعه شيء تكذيباً لمن قال منهم لئن كان يوم القيامة لنكونن أسعد فيه منكم كما نحن الآن ولننجون بأنفسنا وأموالنا وأولادنا (أولئك) أي البعداء من كل خير (أصحاب النار هم) أي خاصة (فيها) أي خاصة (خالدون) أي دائمون لازمون الى غير نهاية وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر أي واذكر يوم (يبعثهم الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (جميعاً) فلا يترك أحداً منهم ولا من غيرهم الا أعاده الى ما كان قبل موته (فيحلفون) أي فيتسبب عن ظهور القدرة التامة لهم ومعاينة ما كانوا يكذبون به انهم يحلفون (له) أي لله في الآخرة انهم مسلمون فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك (كما يحلفون لكم) في الدنيا انهم مثلكم وقال ابن عباس رضي الله عنهما يحلفون لله تعالى يوم القيامة كذباً كما حلفوا لأوليائه في الدنيا وهو قولهم والله ربنا ما كنا مشركين (ويحسبون) أي في القيامة بأيمانهم الكاذبة (انهم على شيء) أي يحصل لهم به نفع بانكارهم وحلفهم وقيل يحسبون في الدنيا انهم على شيء لانهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار والاول أظهر والمعنى انهم لشدة توغلهم في النفاق ظنوا يوم القيامة انهم يمكنهم ترويج كذبهم بالايمان الكاذبة على علام الغيوب واليه الاشارة بقوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينادي منادٍ يوم القيامة أين خصماء الله تعالى فتقوم القدرية مسودة وجوههم مزرقة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا اتخذنا من دونك الهاً قال ابن عباس رضي الله عنهما صدقوا والله أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ثم تلا ويحسبون أنهم على شيء وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (ألا انهم هم الكاذبون) المحكوم بكذبهم في حسبانهم هم والله القدرية ثلاثاً (استحوذ) أي استولى (عليهم الشيطان) مع انه طريد محترق ووصل منهم الى ما يريده وملكهم ملكاً لم يبق لهم معه اختيار فصار واو رعيته وصار هو محيطاً بهم من كل جهة غالباً عليهم ظاهراً أو باطناً من قولهم حذت الابل وحذتها اذا استوليت عليها والحوذ أيضاً السوق السريع ومنه الاحوذي الخفيف في الشيء لحذقه واستحوذ مما جاء على الاصل وهو ثبوت الواو دون قلبها ألفاً (فأنساهم) أي فتسبب عن استحواذه عليهم ان أنساهم (ذكر الله) أي الذي له الاسماء الحسنى والصفات العليا (أولئك) أي البعداء البغضاء (حزب الشيطان) أي أتباعه وجنوده وطائفته وأصحابه (ألا ان حزب الشيطان) أي الطريد المحترق (هم الخاسرون) أي العريقون في هذا الوصف لانهم لم يظفروا بغير الطرد والاحتراق (ان الذين يحادون الله) أي يفعلون مع الملك الاعظم الذي لا كفؤ له فعل من ينازع آخر في الارض فيغلب على طائفة فيجعل لها حداً لا يتعداه خصمه (ورسوله) أي الذي عظمته من عظمته (أولئك) أي البعداء البغضاء (في الاذلين) أي في جملة من هو أذل خلق الله تعالى واختلف في معنى قوله عز وجل (كتب الله) أي الملك الذي لا كفؤ له

قوله هم والله القدرية الخ كذا في النسخ ولعله مؤخر من تقديم فيكون من كلام ابن عباس محله بعد قوله صدقوا

فقال

فقال أكثر المفسرين أي قضى الله عزوجل (لأغلبن) وقال قتادة كتب في اللوح المحفوظ وقال الفراء كتب بمعنى قال وقوله تعالى (أنا) تأكيد (ورسلي) أي من بعث منهم بالحرب ومن بعث منهم بالحجة فاذا انضم الى الغلبة بالحجة الغلبة بالحرب كان أغلب وأقوى وقال مقاتل قال المؤمنون لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم فقال عبدالله بن أبي ابن سلول أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها والله انهم لا كثر عددا وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم فنزل لأغلبن أنا ورسلي ونظيره قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقرأ نافع وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون (ان الله) أي الذي له الامر كله (قوي) أي على نصر أوليائه (عزيز) أي لا يغلب عليه في مراده ثم نهى تعالى عن موالاة أعداء الله تعالى بقوله سبحانه (لا تجد) أي بعد هذا البيان (قوما) أي ناسا لهم قوة على ما يريدون (يؤمنون) أي يجددون الايمان ويديمونه (بالله) أي الذي له صفات الكمال (واليوم الآخر) الذي هو موضع الجزاء لكل عامل بكل ما عمل الذي هو محط الحكمة (يوادون) أي يحصل منهم ود لا ظاهرا ولا باطنا (من حاد الله) أي عادى بالمناصبة في حدود الملك الاعلى (ورسوله) فان من حاده فقد حاد الذي أرسله بل لا تجدهم الا يحادونهم لأنهم يوادونهم وزاد ذلك تأكيدا بقوله تعالى (ولو كانوا آباءهم) أي الذين أوجب الله تعالى على الابناء طاعتهم في المعروف وذلك كما فعل أبو عبيدة بن الجراح حيث قتل أباه عبدالله بن الجراح يوم أحد (أو أبناءهم) أي الذين جبلوا على محبتهم ورحمتهم كما فعل أبو بكر فانه دعا ابنه يوم بدر الى المبارزة وقال دعني يا رسول الله أكن في الرعلة الاولى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم انك عندي بمنزلة سمعي وبصري (أو اخوانهم) أي الذين هم أعضادهم كما فعل مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد وخوف سعد بن أبي وقاص غير مرة فراغ منه روغان الثعلب فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عنه وقال أتريد أن تقتل نفسك وقتل محمد بن سلمة الانصاري أخاه من الرضاع كعب بن الاشرف اليهودي رأس بني النضير (أو عشيرتهم) أي الذين هم أنصارهم وأمدادهم كما قتل عمر خاله العاصي وهشام بن المغيرة يوم بدر وعلي وحمزة وعبيدة بن الحرث قتلوا يوم بدر بني عمهم عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وعن الثوري ان السلف كانوا يرون أن الآية نزلت فيمن يصحب السلطان اهـ ومدار ذلك على أن الانسان يقطع رجاءه من غير الله تعالى وان لم يكن كذلك لم يكن مخلصا في ايمانه * (تنبيه) * قدم الآباء أولا لانهم تجب طاعتهم على أبنائهم ثم ثنى بالابناء لانهم أعلق بالقلوب وهم حباتها ثم ثلث بالاخوان لانهم هم الناصرون بمنزلة العضد من الذراع قال الشاعر

أخاك أخاك ان من لا أخا له * كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه * وهل ينهض البازي بغير جناح

ثم ربع بالعشيرة لان بها يستغاث وعليها يعتمد والمعنى أن الميل الى هؤلاء أعظم أنواع المحبة ومع

هـذا فيجب أن يكون هذا الميل مطروحا بسبب الدين قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح لما قتل أباه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قتل خاله العاصي ابن هشام يوم بدر وروي انها نزلت في أبي بكر وذلك ان أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم فصكه صكة سقطت منها أسنانه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال أو فعلت قال نعم قال لا تعد اليه فقال والذي بعثك بالحق نبيا لو كان السيف مني قريبا لقتلته فهؤلاء لم يوادوا أقاربهم قال القرطبي استدل مالك بهذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم قال القرطبي وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم وعن عبد العزيز بن أبي دواد أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلا الآية وقال صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فاني وجدت فيما أوحيت الي لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر الآية (أولئك) أي العالو الهمة (كتب) أي أثبت قاله الربيع بن أنس رضي الله عنه وقيل خلق وقيل جعل كقوله تعالى فاكتبنا مع الشاهدين أي اجعلنا وقوله تعالى فسأكتبها للذين يتقون وقيل كتب (في قلوبهم الايمان) بما وفقهم فيه وشرح له صدرهم أي على قلوبهم كقوله تعالى في جذوع النخل وخص القلوب بالذكر لانها موضع الايمان قال البيضاوي وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الايمان فان جزء الثابت في القلب يكون ثابتا فيه وأعمال الجوارح لا تثبت فيه (وأيدهم) أي وقواهم وشددهم وشرفهم (بروح) أي نور شريف جدا يفهمون به ما أودع في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من نور العلم والعمل (منه) أي من الله تعالى أحياهم به فلا انفكاك لذلك عنهم في وقت من الاوقات فأعقبهم استقامة المناهج ظاهرا وباطنا فعملوا الاعمال الصالحة فكانوا للدنيا كالسرج فلا تجد شيأ أدخل في الاخلاص من موالاة أولياء الله تعالى ومعاداة أعدائه بل هو عين الاخلاص ومن جنح الى منحرف عن دينه أو داهن مبتدعا في عقيدته نزع الله تعالى نور التوحيد من قلبه قال الزمخشري ويجوز أن يكون الضمير للايمان أي بروح من الايمان على انه في نفسه روح لحياة القلوب به وقال ابن عباس رضي الله عنهما نصرهم على عدوهم وسمى تلك النصرة روحا لان بها يحيا أمرهم وقال الربيع بن أنس رضي الله عنه بالقرآن وحججه وقال ابن جريج بنور وبرهان وهدى وقيل برحمة وقيل أيدهم بجبريل عليه السلام (ويدخلهم جنات) أي بساتين تستر داخلها من كثرة أشجارها وأخبر عن ريها بقوله تعالى (تجري من تحتها) أي قصورها (الانهار) فهي بذلك كثيرة الرياض والاشجار وقال تعالى (خالدين فيها) لان ذلك لا يلذ الا بالدوام وقال تعالى (رضي الله) أي الملك الاعظم (عنهم) لان ذلك لا يتم الا برضا مالكها الذي له الملك كله (ورضوا عنه) أي لانه أعطاهم فوق ما يؤملون (أولئك) أي الذين هم في الدرجات العلى من العظامة لكونهم قصروا ودهم على الله تعالى علما منهم بأنه ليس الضر والنفع الا بيده (حزب الله) أي جند الملك الذي أحاط بجميع صفات الكمال (ألا ان حزب الله) اي جند الملك الاعلى وهم هؤلاء الموصوفون ومن والاهم (هم المفلحون) اي الذين حازوا الظفر بكل ما يؤملون في الدارين وقد علم من الرضا من الجانبين والحزبية والافلاح عدم الانفكاك عن السعادة وأغنى

ذلك عن تقييد الخلود بالتأبيد *(فائدة)* هذه السورة نصف القرآن عددا وليس فيها آية الا وفيها ذكر الجلالة الكريمة مرة أو مرتين أو ثلاثا وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله تعالى يوم القيامة حديث موضوع والله تعالى اعلم

(سورة الحشر مدنية)

فى قول الجميع وهى أربع وعشرون آية وأربعمائة وخمس وأربعون كلمة وألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفا (بسم الله) الملك الاعظم الذى لا خلف لميعاده (الرحمن) الذى عمت نعمة ايجاده (الرحيم) الذى خص أهل وده بالتوفيق فهم أهل السعادة ولما ختمت المجادلة بأنه يعز أهل طاعته ويذل أهل معصيته تنزه عن النقائص تأييدا للوعد بنصرهم فقال تعالى (سبح) أى أوقع التنزيه الاعظم عن كل شائبة نقص (لله) الذى أحاط بجميع صفات الكمال (ما فى السموات) أى كلها (وما فى الارض) أى كذلك وقيل ان اللام مزيدة أى نزهه وأتى بما تغليبا للاكثر وجمع السماء لانها أجناس قيل بعضها من فضة وبعضها من غير ذلك وأفرد الارض لانها جنس واحد (وهو) اى والحال أنه وحده (العزيز) الذى يغلب كل شئ ولا يمتنع عليه شئ (الحكيم) الذى نفذ علمه فى الظواهر والبواطن وأحاط بكل شئ فأتقن ما أراد فكل ما خلقه جعله على وحدانيته دليلا والى بيان ماله من العزة والحكمة سبيلا وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها قال المفسرون نزلت هذه السورة فى بنى النضير وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يكونوا عليه ولا له فلما غزا بدرا وظهر على المشركين قالوا هو النبى الذى نعته فى التوراة لا ترد له راية فلما غزا أحدا وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ونقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وركب كعب بن الاشرف فى أربعين راكبا من اليهود الى مكة فأتوا قريشا فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل أبو سفيان فى أربعين وكعب فى أربعين من اليهود المسجد وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة ثم رجع كعب وأصحابه الى المدينة فنزل جبريل عليه السلام وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما عاقد عليه كعب وأبو سفيان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل كعب ابن الاشرف فقتله محمد بن مسلمة فلما قتل كعب بن الاشرف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الناس بالمسير الى بنى النضير وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدهم ينوحون على كعب وقالوا يا محمد واعية على اثر واعية وباكية على اثر باكية قال نعم قالوا ذرنا نبكى شجونا ثم ائتمر أمرك فقال النبى صلى الله عليه وسلم اخرجوا من المدينة فقالوا الموت اقرب الينا من ذلك ثم تنادوا بالحرب وآذنوا بالقتال ودس المنافقون عبد الله بن ابى واصحابه اليهم ان لا تخرجوا من الحصن فان قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ولئن

خرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الازقة وحصنوها ثم انهم اجمعوا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلوا اليه ان اخرج فى ثلاثين رجلا من اصحابك ويخرج منا ثلاثون حتى نلتقى بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعون منك فان صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين من اصحابه وخرج اليه ثلاثون حبرا من اليهود حتى اذا كانوا فى براز من الارض قال بعض اليهود لبعض كيف تخلصون اليه ومعه ثلاثون من رجال اصحابه كلهم يحب الموت قبله ولكن أرسلوا اليه كيف نفهم ونحن ستون رجلا اخرج فى ثلاثة من اصحابك ويخرج اليك فى ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك فان آمنوا بك آمنا كلنا بك وصدقناك فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة من أصحابه واشتملوا على الخناجر وارادوا الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير الى اخيها وهو رجل مسلم من الانصار فأخبرته بما اراد بنوا النضير من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أخوها سريعا حتى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم فساره بخبرهم فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب فحاصرهم احدى وعشرين ليلة فقذف الله فى قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح فأبى عليهم الا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبى صلى الله عليه وسلم فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الابل من أموالهم الا الحلقة وهى السلاح وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم قال ابن عباس رضى الله عنهما على أن يحمل كل أهل بيت على بعير ما شاؤا من متاعهم وللنبى صلى الله عليه وسلم ما بقى وقال الضحاك على كل ثلاثة نفر بعيرا ووسقا من طعام ففعلوا ذلك وخرجوا من المدينة الى الشام الى أذرعات وأريحاء الا أهل بيتين من آل بنى الحقيق وآل حيى بن أخطب فانهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة فذلك قوله تعالى (هو) أى وحده من غير ايجاف خيل ولا ركاب (الذى أخرج) أى على وجه القهر (الذين كفروا) أى ستروا ما فى كتبهم من الشواهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه النبى الخاتم وما فى فطرتهم الاولى من اتباع الحق (من أهل الكتاب) أى الذى أنزله الله تعالى على رسوله موسى صلى الله عليه وسلم وهم بنو النضير وفى التعبير بكفروا اشعار بأنهم الذين أزالوا بالتبديل والاخفاء ما قدروا عليه مما بقى من التوراة (من ديارهم) أى مساكنهم بالمدينة عقوبة لهم لان الوطن عديل الروح لانه للبدن كالبدن للروح فكان الخروج منه فى غاية العسر قال ابن اسحق كان اجلاء بنى النضير مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من أحد وفتح قريظة عند مرجعه من الاحزاب وبينهما سنتان (لاول الحشر) هو حشرهم الى الشام وآخره أن اجلاهم عمر فى خلافته الى خيبر وقال مرة الهمدانى كان أول الحشر من المدينة والحشر الثانى من خيبر وجميع جزيرة العرب الى أذرعات وأريحا من الشام فى أيام عمر وقال القرطبى الحشر الجمع وهو على أربعة أضرب حشران فى الدنيا وحشران فى الآخرة أما الذى فى الدنيا فقوله تعالى هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر كانوا من سبط لم يصبهم جلاء وكان الله تعالى قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذبهم فى الدنيا وكان أول حشر فى الدنيا الى

قوله على كل الخ كذا فى النسخ ولعله على ان لكل الخ

الشام

الشام قال ابن عباس وعكرمة رضى الله عنهم من شك أنّ المحشر فى الشأم فليقرأ هذه الآية وأنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم اخرجوا قالوا الى أين قال الى أرض المحشر قال قتادة هذا أوّل الحشر قال ابن عباس رضى الله عنهما هو أوّل من حشر من أهل الكتاب وأخرج من داره وأما الحشر الثانى فحشرهم قرب القيامة قال قتادة تأتى نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وتأكل من تخلف منهم وهذا ثابت فى الصحيح وذكروا أنّ تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار وقال ابن العربى للحشر أوّل ووسط وآخر فالاوّل جلاء بنى النضير والاوسط جلاء خيبر والآخر حشر يوم القيامة وعن الحسن هم بنو قريظة وخالفه بقية المفسرين وقالوا بنو قريظة ما حشروا ولكنهم قتلوا حكاه الثعلبى (ما ظننتم) أيها المؤمنون (أن يخرجوا) أى يوقعوا الخروج من شئ أورثتموه منهم لما كان لكم من الضعف ولهم من القوّة لكثرتهم وشدّة بأسهم وقرب بنى قريظة منهم واهل خيبر ايضا غير بعيدين عنهم وكلهم اهل ملتهم والمنافقون من انصارهم فخابت ظنونهم فى جميع ذلك (وظنوا أنهم) وقوله تعالى (مانعتهم حصونهم) فيه وجهان احدهما ان تكون حصونهم مبتدأ ومانعتهم خبرا مقدّما والجملة خبر انهم الثانى ان تكون مانعتهم خبر انهم وحصونهم فاعل به نحو ان زيدا قائم ابوه وان عمرا قائمة جاريته وجعله أبو حيان اولى لان فى نحو قائم زيد على ان يكون خبرا مقدّما ومبتدأ مؤخرا خلافا والكوفيون يمنعونه فمحل الوفاق اولى وقال الزمخشرى فان قلت اى فرق بين قولك وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم اومانعتهم وبين النظم الذى جاء عليه قلت فى تقديم الخبر على المبتدإ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها اياهم وفى تصيير ضميرهم اسما لان واسناد الجملة اليه دليل على اعتقادهم فى انفسهم انهم فى عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم وليس ذلك فى قولك وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم اه وهذا الذى ذكره انما يأتى على الاعراب الاوّل وقد تقدّم انه مرجوح ودل على ضعف عقولهم بأن عبر عن جنده باسمه الاعظم بقوله تعالى (من الله) اى الملك الاعظم الذى لا عز الا له (فأتاهم الله) اى جاءهم الملك الاعظم الذى لا يحتملون مجيئه (من حيث لم يحتسبوا) بما صوّر لهم من حقارة انفسهم على حسبها وهى خذلان المنافقين رعبا كرعبهم وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بفتحها (وقذف) اى انزل انزالا كأنه قذف بحجارة فثبت (فى قلوبهم الرعب) اى الخوف الذى سكنها بعد ان كان الشيطان زين لهم غير ذلك وملأ قلوبهم من الاطماع الفارغة وقرأ فى قلوبهم الرعب وعليهم الجلاء ولاخوانهم الذين حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وابو عمرو بكسرهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم وحرك العين بالضم ابن عامر والكسائى والباقون بالسكون ثم بين تعالى حالهم عند ذلك وفسر قذف الرعب بقوله تعالى (يخربون بيوتهم) اى ليتقلوا ما استحسنوه منها من خشب وغيره وقرأ ابو عمرو بفتح الخاء وتشديد الراء والباقون بسكون الخاء وتخفيف الراء وهما بمعنى لان خرب عدّاه ابو عمرو بالتضعيف وهم بالهمزة وعن ابى عمرو انه فرق بمعنى آخر فقال خرب بالتشديد هدم وأفسد وأخرب بالهمزة ترك الموضع خرابا وذهب عنه وهو

قول الفراء قال المبرد ولا أعلم لهذا وجها وزعم سيبويه انهما متعاقبان فى بعض الكلام فيجرى كل واحد مجرى الآخر نحو فرحته وافرحته وقرأ ورش وابو عمرو وحفص بيوتهم بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها (بأيديهم وايدى المؤمنين) قال الزهرى وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما صالحهم على ان لهم ما أقلت الابل كانوا ينظرون الى الخشبة فى منازلهم فيهدمونها وينزعون ما استحسنوه منها فيحملونه على ابلهم ويخرب المؤمنون باقيها وقال قتادة والضحاك كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا واليهود من داخل ليبنوا ما خرب من حصنهم وقال مقاتل ان المنافقين أرسلوا اليهم أن لا تخرجوا ودربوا عليهم الازقة وكان المسلمون سائر الجوانب (فان قيل) ما معنى تخريبها لهم بأيدى المؤمنين (أجيب) بأنهم لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم اياه وقال أبو عمرو بن العلاء بأيديهم فى تركهم لها وبأيدى المؤمنين فى اجلائهم عنها ولما كان فى غاية الغرابة أن يعمل الانسان فى نفسه كما يفعل فيه عدوه تسبب عن ذلك قوله (فاعتبروا) أى اجملوا أنفسكم بالامعان فى التأمل فى عظيم قدرة الله تعالى والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شئ الى شئ ولهذا سميت العبرة عبرة لانها تنتقل من العين الى الخد وسمى علم التعبير لان صاحبه ينتقل من التخيل الى المعقول وسميت الالفاظ عبارات لانها تنقل المعانى عن لسان القائل الى عقل المستمع ويقال السعيد من اعتبر بغيره لانه ينتقل عقله من حال ذلك الغير الى حال نفسه ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره ولهذا قال القشيرى الاعتبار هو النظر فى حقائق الاشياء وجهات دلالاتها ليعرف بالنظر فيها شئ آخر من جنسها ثم بين ان الاعتبار لا يحصل الا للكمل بقوله تعالى (يا أولى الابصار) بالنظر بابصارهم وبصائرهم فى غريب هذا الصنع لتحققوا به ما وعدكم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من اظهار دينه واعزاز نبيه ولا تعتمدوا على غير الله تعالى كما اعتمد هؤلاء على المنافقين فان من اعتمد على مخلوق أسلمه ذلك الى صغاره ومذلته (ولولا أن كتب الله) أى فرض فرضا حتما الملك الذى له الامر كله (عليهم الجلاء) أى الخروج من ديارهم والجولان فى الارض فأما معظمهم فأجلاهم بختنصر من بلاد الشام الى العراق وأما هؤلاء فحماهم الله تعالى بمهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الجلاء وجعله على يده صلى الله عليه وسلم فأجلاهم فذهب بعضهم الى خيبر وبعضهم الى الشام مرة بعد مرة * (تنبيه) * قال الماوردى الجلاء أخص من الخروج لانه لا يقال الا للجماعة والاخراج يكون للجماعة والواحد وقال غيره الفرق بينهما ان الجلاء ما كان مع الاهل والولد بخلاف الاخراج فانه لا يستلزم ذلك (لعذبهم) أى بالقتل والسبى (فى الدنيا) كما فعل بقريظة من اليهود (ولهم) أى على كل حال أجلوا أو تركوا (فى الآخرة) التى هى دار البقاء (عذاب النار) وهو العذاب الاكبر (ذلك) أى الامر العظيم الذى فعله بهم من الجلاء ومقدماته فى الدنيا ويفعله بهم فى الآخرة (بأنهم شاقوا الله) أى الملك الاعلى الذى له الاحاطة التامة فكانوا فى شق غير شقه بان صاروا فى شق الاعداء المحاربين بعد ما كانوا الموادعين (و) شاقوا (رسوله) أى

الذى اجلاله من اجلاله (ومن يشاق الله) أى يوقع فى الباطن مشاقة الملك الاعلى الذى لا كفوء له فى الماضى والحال والاستقبال (فان الله) أى المحيط بجميع العظمة (شديد العقاب) وذلك كما فعل ببنى قريظة بعد هذا حيث نقضوا عهدهم وأظهروا المشاقة فى غزوة الاحزاب وكما فعل بأهل خيبر وقوله تعالى (ما) شرطية فى موضع نصب بقوله تعالى (قطعتم) وقوله تعالى (من لينة) بيان له واختلف فى معنى قوله تعالى من لينة فأكثر المفسرين على انها هى النخلة مطلقا كأنهم اشتقوها من اللين قال ذو الرمة

كأن قتودى فوقها عش طائر * على لينة سوقاء تهفو جنوبها

وقال الزهرى هى النخلة مالم تكن عجوة ولا برنية وقال جعفر بن محمد هى العجوة خاصة وذكر ان العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه الصلاة والسلام فى السفينة والعتيق الفحل وكانت العجوة أصل الاناث كلها فلذلك شق على اليهود قطعها حكاه الماوردى وقال سفيان هى ضرب من النخل يقال لثمرها اللون وهو شديد الصفرة يرى نواه من خارجه ويغيب فيه الضرس النخلة منها أحب اليهم من وصيف وقيل هى النخلة الكريمة أى القريبة من الارض وقيل هى الفسيلة أى بالفاء وهى صغار النخل لانها ألين من النخلة وقيل هى الاشجار كلها للينها بالحياة وقال الاصمعى هى الدقل قال ابن العربى والصحيح ما قاله الازهرى ومالك وجمع اللينة لين لانه من باب اسم الجنس كتمرة وتمر وقد تكسر على ليان وهو شاذ لان تكسير ما يفرق بتاء التأنيث شاذ كرطبة ورطب وأرطاب والضمير فى قوله تعالى (أو تركتموها قائمة) عائد على معنى ما ولما كان الترك يصدق بقائها مغروسة أو مقطوعة قال تعالى (على أصولها فباذن الله) أى فقطعها بتمكين الملك الاعظم روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل ببنى النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم واحراقها فجزع أعداء الله تعالى عند ذلك وقالوا يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخل وهل وجدت فيما زعمت انه أنزل عليك الفساد فى الارض فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا واختلفوا فى ذلك فقال بعضهم لا تقطعوا فانه مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعه فأنزل الله تعالى هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الاثم وان ذلك كان باذن الله وعن ابن عمر قال حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بنى النضير وقطع واللام فى قوله تعالى (وليخزى الفاسقين) متعلقة بمحذوف أى وأذن فى قطعها ليخزى اليهود فى اعتراضهم بأن قطع الشجر المثمر فساد وليسر المؤمنين ويعزهم وليخزى الفاسقين (فان قيل) لم خصت اللينة بالقطع (أجيب) بأنه ان كانت من الالوان فليستبقوا لانفسهم العجوة والبرنية وان كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد واحتجوا بهذه الآية على ان حصون الكفرة وديارهم يجوز هدمها وتحريقها وتغريقها وان ترمى بالمناجيق وكذا أشجارهم وعن ابن مسعود انهم قطعوا منها ما كان موضعا للقتال وروى ان رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا تركتها لرسول الله صلى

الله عليه وسلم وقال هذا قطعتم اغيظا للكفار وقد استدل به على جواز الاجتهاد وعلى جوازه بحضور النبي صلى الله عليه وسلم لانهما بالاجتهاد فعلا ذلك واحتج به من يقول كل مجتهد مصيب وقال الكيا الطبرى وان كان الاجتهاد يبعد فى مثله مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ولاشك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك وسكت فتلقوا الحكم من تقريره فقط قال ابن العربى وهذا باطل لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معهم ولا اجتهاد مع حضوره صلى الله عليه وسلم وانما يدل على اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل عليه أخذا بعموم الادلة للكفار ودخولا للاذن فى الكل بما يقضى عليهم بالبوار وذلك قوله تعالى وليخزى الفاسقين (وما أفاء الله) أى رد الملك الذى له الامر كله ردا سهلا بعد ان كان فى غاية العسر والصعوبة (على رسوله) فصيره فى يده بعد ان كان خروجه عنها بوضع أيدى الكفرة عليه ظلما وعدوانا كما دل عليه التعبير بالفىء الذى هو عود الظل الى الناحية التى كان امتد أمنها (منهم) أى ردا مبتدأ من الفاسقين فبين تعالى ان هذا فىء لا غنيمة ويدخل فى الفىء أموال من مات منهم بلا وارث وكذا الفاضل عن وارث له غير حائز وكذا الجزية وعشر تجاراتهم وما جلوا أى تفرقوا عنه ولو لغير خوف كضر أصابهم وأما الغنيمة فهى ما حصل لنا من الحربيين مما هو لهم بايجاف حتى ما حصل بسرقة أو التقاط وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ولو قبل شهر السلاح أو اهداه الكافر لنا والحرب قائمة ولم تحل الغنائم لاحد قبل الاسلام بل كانت الانبياء اذا غنموا ما لا جمعوه فتأتى نار من السماء فتأخذه ثم أحلت لنبينا صلى الله عليه وسلم وكانت فى صدر الاسلام له خاصة لانه كالمقاتلين كلهم نصرة وشجاعة بل أعظم ثم نسخ ذلك واستقر الامر على ما هو فى سورة الانفال فى قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ الآية وأما الفىء فهو مذكور هنا بقوله تعالى (فما أوجفتم) أى أسرعتم يا مسلمين (عليه) ومن فى قوله تعالى (من خيل) مزيدة أى خيلا وأكد باعادة النافى دفعا لظن من ظن انه غنيمة لاحاطتهم به بقوله تعالى (ولا ركاب) والركاب الابل غلب ذلك عليها من بين المركوبات واحدها راكبة ولا واحد لها من لفظها وقال الرازى العرب لا يطلقون لفظ الراكب الا على راكب البعير ويسمون راكب الفرس فارسا والمعنى لم تقطعوا اليها شقة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة فانها كانت من المدينة على ميلين قاله الفراء فمشوا اليها مشيا ولم يركبوا اليها خيلا ولا ابلا الا النبي صلى الله عليه وسلم ركب جملا وقيل حمارا مخطوما بليف فافتتحها صلحا قال الرازى ان الصحابة طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ان يقسم الفىء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم فذكر الله تعالى الفرق بين الامرين وأن الغنيمة هى التى تعبتم أنفسكم فى تحصيلها وأما الفىء فلم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكان الامر مفوضا فيه الى النبي صلى الله عليه وسلم يضعه حيث يشاء (ولكن الله) أى الذى له العز كله فلا كفؤ له (يسلط رسله) أى له هذه السنة فى كل زمن (على من يشاء) يجعل ما آتاهم سبحانه من الهيبة رعبا فى قلوب أعدائه (والله) أى الملك الذى له الكمال كله (على كل شئ) يصح أن تتعلق المشيئة به وهو كل ممكن من التسليط وغيره (قدير)

اى

أي بالغ القدرة الى أقصى الغايات فلاحق لكم فيه ويختص به النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذكر معه في الآية الثانية من الاصناف الاربعة على ما كان عليه القسمة من ان لكل منهم خمس الخمس وله صلى الله عليه وسلم الباقي يفعل فيه مايشاء ثم بين تعالى مصرف الفيء بقوله تعالى (ما أفاء الله) أي الذي اختص بالعزة والقدرة والحكمة (على رسوله من أهل القرى) أي قرية بني النضير وغيرها من وادي القرى والصفراء وينبع وماهنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عربية فيخمس ذلك خمسة أخماس وان لم يكن في الآية تخميس فانه مذكور في آية الغنيمة بحمل المطلق على المقيد وكان صلى الله عليه وسلم يقسم له أربعة أخماسه وخمس خمسه ولكل من الاربعة المذكورين معه خمس خمس وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح فقوله تعالى (فلله) أي الملك الاعلى الذي كله بيده ذلك للتبرك فان كل أمر لايبدأ فيه به فهو أجذم (وللرسول) أي الذي عظمته من عظمته تعالى وقد تقدم ما كان له صلى الله عليه وسلم وأما بعده صلى الله عليه وسلم فيصرف ما كان له من خمس الخمس لمصالح المسلمين وسد ثغور وقضاة وعلماء بعلوم تتعلق بمصالح المسلمين كتفسير وقراءة والمراد بالقضاة غير قضاة العسكر أما قضاته وهم الذين يحكمون لاهل الفيء في مغزاهم فيرزقون من الاخماس الاربعة لامن خمس الخمس يقدم وجوبا الاهم فالاهم وأما الاربعة المذكورة معه صلى الله عليه وسلم فاولها المذكور في قوله تعالى (ولذي القربى) أي منه وهم مؤمنو بني هاشم وبني المطلب لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسم عليهم مع سؤال غيرهم من بني عميهم نوفل وعبد شمس له ولقوله صلى الله عليه وسلم أما بنو هاشم وبنو المطلب فشيء واحد وشبك بين أصابعه فيعطون ولو أغنياء لانه صلى الله عليه وسلم أعطى العباس وكان غنيا ويفضل الذكر على الانثى كالارث فله سهمان ولها سهم لانه عطية من الله تعالى يستحق بقرابة الاب كالارث سواء الكبير والصغير والعبرة بالانتساب الى الآباء فلا يعطى أولاد البنات من بني هاشم والمطلب شيأ لانه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير وعثمان مع ان أم كل منهما كانت هاشمية وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين وأبو عمرو بين بين والباقون بالفتح وخالفهم أبو عمرو في واليتامى ثانيها المذكور في قوله تعالى (واليتامى) أي الفقراء منا لان لفظ اليتيم يشعر بالحاجة لانه مال أو نحوه أخذ من الكفار فاختص كسهم المصالح واليتيم صغير ولو أنثى لخبر لايتم بعد احتلام رواه أبو داود وحسنه النووي وان ضعفه غيره لا أب له وان كان له أم وجد اليتيم في البهائم من فقد أمه وفي الطير من فقد أباه وأمه ومن فقد أمه فقط من الآدميين يقال له منقطع ثالثها المذكور في قوله تعالى (والمساكين) الصادقين بالفقراء وهم أهل الحاجة منا وتقدم تعريفهما في سورة الانفال وكذا تعريف الرابع المذكور في قوله تعالى (وابن السبيل) أي الطريق الفقير منا ذكورا كانوا أو اناثا ولو اجتمع في واحد من هذه الاصناف يتم ومسكنة أعطي باليتم فقط لانه وصف لازم والمسكنة زائلة وللامام التسوية والتفضيل بحسب الحاجة ويعم الامام ولو بنائبه الاصناف الاربعة الاخيرة بالاعطاء وجوبا لعموم الآية فلا يخص

الحاضر بموضع حصول الفيء ولا من في كل ناحية منهم بالحاصل فيها نعم لو كان الحاصل لا يسد مسدا بالتعميم قدم الاحوج فالاحوج ولا يعم للضرورة ومن فقد من الاربعة صرف نصيبه للباقين منهم وأما الاخماس الاربعة فهي للمرتزقة وهم المرصدون للجهاد بتعيين الامام لهم يعمل الاولين به بخلاف المتطوعة فلا يعطون من الفيء بل من الزكاة عكس المرتزقة ويشرك المرتزقة قضاتهم كأمرؤ أئمتهم ومؤذنوهم وعمالهم ويجب على الامام أن يعطي كلا من المرتزقة بقدر حاجة ممونه من نفسه وغيرها كزوجاته ليتفرغ للجهاد ويراعى في الحاجة الزمان والمكان والرخص والغلاء وعادة الشخص مروأة وضدها ويزاد ان زادت حاجته بزيادة ولد أو حدوث زوجة فأكثر ومن لا عبد له يعطى من العبيد ما يحتاجه للقتال معه أو لخدمته ان كان ممن يخدم ويعطى مؤنته ومن يقاتل فارسا ولا فرس له يعطى من الخيل ما يحتاجه للقتال ويعطى مؤنته بخلاف الزوجات يعطى لهن مطلقا لانحصارهن في أربع ثم ما يدفعه اليه لزوجته وولده الملك فيه لهما حاصل من الفيء وقيل يملكه هو ويصير اليهما من جهته فان مات أعطى الامام أصوله وزوجاته وبناته الى أن يستغنوا ويسن أن يضع الامام ديوانا وهو الدفتر الذي يثبت فيه أسماء المرتزقة وأول من وضعه عمر رضي الله عنه وأن ينصب لكل جمع عريفا وان يقدم في اسم واعطاء قريشا لشرفهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ولخبر قدموا قريشا وأن يقدم منهم بني هاشم وبني المطلب فبني عبد شمس فبني عبد العزى فسائر بطون العرب الاقرب فالاقرب الى النبي صلى الله عليه وسلم فسائر العرب فالعجم ولا يثبت في الديوان من لا يصلح ومن مرض فكصحيح وان لم يرج برؤه ويمحى اسم كل من لم يرج وما فضل عنهم وزع عليهم بقدر مؤنتهم وللامام صرف بعضه في ثغور وسلاح وخيل ونحوها وله وقف عقار فيء أو بيعه وقسم غلته أو ثمنه كقسم المنقول أربعة أخماسه للمرتزقة وخمسه للمصالح وله أيضا قسمه كالمنقول لكن خمس الخمس الذي للمصالح لا سبيل الى قسمته ولما حكم سبحانه هذا الحكم في الفيء المخالف لما كانوا عليه في الجاهلية من اختصاص الاغنياء به بين علته المظهرة لعظمته بقوله تعالى (كي لا يكون) أي الفيء الذي يسره الله تعالى بقوته من قذف الرعب في قلوب أعدائه ومن حقه ان يعطاه الفقراء (دولة) أي متداولا (بين الاغنياء منكم) أي يتداوله الاغنياء ويدور بينهم كما كان في الجاهلية فانهم كانوا يقولون من عزبز ومنه قول الحسن اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به وقرأ هشام بخلاف عنه تكون بالتأنيث دولة بالرفع والباقون بالتذكير والنصب فأما الرفع فعلى ان كان تامة وأما التأنيث والتذكير فواضحان لانه تأنيث مجازي وأما النصب فعلى انها الناقصة واسمها ضمير عائد على الفيء والتذكير واجب لتذكير المرفوع ودولة خبرها وقيل دولة عائد على ما اعتبارا بلفظها وكي لا هنا مقطوعة في الرسم (وما آتاكم الرسول) أي وكل شيء أحضره لكم الكامل في الرسالة من الغنيمة أو مال الفيء أو غيره (فخذوه) أي فاقبلوه لانه حلال لكم وتمسكوا به فانه واجب الطاعة (وما نهاكم عنه) أي من جميع الاشياء (فانتهوا) لانه لا ينطق عن الهوى ولا يقول

ولا يفعل الا ما أمر به ربه عز وجل *(تنبيه)* هذه الآية تدل على أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى لان الآية وان كانت في الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها قال عبد الرحمن بن زيد لقي ابن مسعود رجلا محرما وعليه ثيابه فقال انزع عنك هذا فقال الرجل تقرأ علي بهذا آية من كتاب الله تعالى قال نعم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقال عبد الله بن محمد بن هرون الفريابي سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم قال فقلت له أصلحك الله ما تقول في المحرم يقتل الزنبور قال فقال بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن اسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب انه أمر بقتل الزنبور وهذا الجواب في غاية الحسن أفتى بقتل الزنبور في الاحرام وبين انه يقتدى فيه بعمر وان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به وان الله تعالى أمر بقبول ما يقوله صلى الله عليه وسلم فجواز قتله من الكتاب والسنة وسئل عكرمة عن أمهات الاولاد هل هن احرار فقال في سورة النساء في قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وفي صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله تعالى فبلغ ذلك امرأة من بني اسد يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله تعالى فقالت لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول فقال لئن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا قالت بلى قال فانه قد نهى عنه الحديث *(فائدة)* الوشم هو غرز العضو من الانسان بالابرة ثم يحشى بالكحل والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين ثناياها بصناعة وقيل تتفلج في مشيها في كل شئ منهي عنه وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح والهمزة ممدودة بلا اختلاف لانها بمعنى الاعطاء (واتقوا الله) أي واجعلوا لكم بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاية من عذاب الملك الاعظم المحيط علما وقدرة وعلل ذلك بقوله تعالى (ان الله) أي الذي له الجلال والاكرام على الاطلاق (شديد العقاب) أي العذاب الواقع بعد الذنب قال البقاعي ومن زعم ان شيأ مما في هذه السورة نسخ بشئ مما في سورة الانفال فقد أخطأ لان الانفال نزلت في بدر وهي قبل هذه بمدة وقوله تعالى (للفقراء) أي الذين كان الانسان منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويتخذ الحفرة في الشتاء لتقيه البرد وماله دثار غيرها بدل من لذي القربى وما عطف عليه

قاله الزمخشري والذي منع الابدال من لله وللرسول والمعطوف عليهما وان كان المعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى أخرج رسوله صلى الله عليه وسلم من الفقراء في قوله تعالى وينصرون الله ورسوله ولانه تعالى يترفع برسوله صلى الله عليه وسلم عن تسميته بالفقير وقال غيره انه خبر لمبتدا محذوف أي ولكن الفيء للفقراء وقيل تقديره ولكن يكون للفقراء وقيل تقديره اعجبوا الفقراء واقتصر على هذا التقدير الجلال المحلي وانما جعله الزمخشري بدلا من لذي القربى لانه حنفي والحنفية يشترطون الفقر في اعطاء ذوي القربى من الفيء ولذا قال البيضاوي ومن أعطى أغنياء ذوي القربى أي كالشافعي خصص الابدال بما بعده أو الفيء بفيء بني النضير اه أو انهم كانوا عند نزول الآية كذلك ثم خصص بالوصف بقوله تعالى (المهاجرين) وقيد ذلك بقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) لان الهجرة قد تطلق على من هجر أهل الكفر من غير مفارقة الوطن وقوله تعالى (وأموالهم) اشارة الى ان المال لما كان يستره الانسان كان كأنه ظرف له ولما كان طلب الدنيا من النقائص بين أنه اذا كان من الله لم يكن كذلك وأنه لا يكون قادحا في الاخلاص فقال تعالى (يبتغون) أي اخرجوا حال كونهم يطلبون على وجه الاجتهاد وبين انه لا يجب عليه سبحانه لاحد شيء بقوله تعالى (فضلا من الله) اى الملك الاعظم الذي لا كفء له لانه المختص بجميع صفات الكمال فيغنيهم بفضله عمن سواه (ورضوانا) بأن يوفقهم لما يرضيه عنهم ولا يجعل رغبتهم في العوض منه قادحا في الاخلاص فيوصلهم الى دار كرامته وقرأ شعبة بضم الراء والباقون بكسرها (وينصرون) أي على سبيل التجديد والاستمرار (الله) أي دين الملك الاعظم (ورسوله) الذي عظمته من عظمته بأنفسهم وأموالهم ليضمحل حزب الشيطان (أولئك) أي العالو الرتبة في الاخلاق الفاضلة (هم الصادقون) أي العريقون في هذا الوصف لان مهاجرتهم لما ذكر وتركهم لما وصف دل على كمال صدقهم فيما ادعوه من الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث نابذوا من عاداهما ووالوا أولياءهما وان بعدت دارهم وشطمزارهم ثم اتبع ذكر المهاجرين بذكر الانصار الذين كانوا في كل حال معه صلى الله عليه وسلم كالميت بين يدي الغاسل مهما شاء فعل ومهما أراد منهم صاروا اليه بقوله تعالى (والذين تبوّؤا) أي جعلوا بغاية جهدهم (الدار) أي الكاملة في الدور التي جعلها الله تعالى في الازل للهجرة وهيأها للنصرة وجعلها محل اقامتهم وفي قوله تعالى (والايمان) أوجه أحدها أنه ضمن تبوّؤا معنى لزموا فيصح عطف الايمان عليه اذ الايمان لا يتبوّأ ثانيها أنه منصوب بمقدر أي واعتقدوا أو وألفوا أو وأحبوا أو وأخلصوا كقول القائل * علفتها تبنا وماء باردا * وقول الآخر * ومقلدا سيفا ورمحا * ثالثها انه يجوز في الايمان فيجعل لاختلاطه بهم وثباتهم عليه كالمكان المحيط بهم فكأنهم نزلوه وعلى هذا فيكون جمع بين الحقيقة والمجاز في كلمة واحدة وفيه خلاف مشهور رابعها أن يكون الاصل دار الهجرة ودار الايمان فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف اليه وحذف المضاف من دار الايمان ووضع المضاف اليه مقامه خامسها أن يكون سمى المدينة به

لانها دار الهجرة ومكان ظهور الايمان قال هذين الوجهين الزمخشري وليس فيه الاقيام أل مقام المضاف اليه وهو محل خلاف وهو ان أل هل تقوم مقام الضمير المضاف اليه فالكوفيون يجوزونه كقوله تعالى فان الجنة هي المأوى أى مأواه والبصريون يمنعونه ويقولون الضمير محذوف أى المأوى له وأما كونها عوضا عن المضاف اليه فقال ابن عادل لا نعرف فيه خلافا سادسها انه منصوب على المفعول معه أى مع الايمان قال وهب سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال ان المدينة تبوّئت بالايمان والهجرة وان غيرها من القرى افتتحت بالسيف ثم قرأ والذين تبوّؤا الدار والايمان (من قبلهم) أى وهم الانصار (يحبون) أى على سبيل التجديد والاستمرار (من هاجر) وزادهم محبة فيهم بقوله تعالى (اليهم) لان القصد الى الانسان يوجب حقه عليه لانه لولا كمال محبته له ماخصه بالقصد اليه (ولا يجدون في صدورهم) أى التي هي مساكن قلوبهم فضلا عن أن تنطق ألسنتهم (حاجة) قال الحسن حسدا وحزازة وغيظا (مما أوتوا) أى آتى النبي المهاجرين من أموال بني النضير وغيرهم وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحزازة لان هذه الاشياء لاتنفك عن الحاجة فأطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية فعلى هذا يكون الضمير الاول للجائين بعد المهاجرين وفي أوتوا للمهاجرين وقيل ان الحاجة هنا على بابها من الاحتياج الا انها واقعة موقع المحتاج اليه والمعنى ولا يجدون طلب محتاج اليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره والمحتاج اليه يسمى حاجة تقول خذ منه حاجتك وأعطاه من ماله حاجته قاله الزمخشري والضميران على ماتقدم وقال أبو البقاء مس حاجة أى انه حذف المضاف للعلم به وعلى هذا فالضميران للذين تبوّؤا الدار والايمان قال القرطبي كان المهاجرون في دور الانصار فلما غنم صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير دعا الانصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في انزالهم اياهم منازلهم واشراكهم في الاموال ثم قال صلى الله عليه وسلم ان أحببتم قسمت ماأفاء الله علي من بني النضير بينكم وبينهم وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم وان أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ونادت الانصار رضينا وسلمنا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار واعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعط الانصار الاثلاثة نفر محتاجين أبادجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة ولما أخبر تعالى عن تخليهم عن الرذائل أتبعه الاخبار بتحليهم بالفضائل فقال عز من قائل (ويؤثرون على أنفسهم) فيبذلون لغيرهم كائنا من كان مافي أيديهم فان الايثار تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الاخروية وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة وذكر النفس دليل على انهم في غاية النزاهة عن الرذائل فان النفس اذا طهرت كان القلب أطهر وأكد ذلك بقوله تعالى (ولو كان) أى كونا هو في غاية المكنة (بهم) أى خاصة لابالمؤثر (خصاصة) أى فقر وحاجة الى مايؤثرون به روى عن أبي هريرة ان رجلا بات به ضيف

ولم يكن عنده الاقوته وقوت صبيانه فقال لامرأته نومى الصبية وأطفئى السراج وقربى للضيف ماعندك فنزلت هذه الآية وعنه أيضا قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال انى مجهود فأرسل الى بعض نسائه فقالت والذى بعثك بالحق ماعندى الاماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يضيف هذا الليلة رحمه الله فقام رجل من الانصار فقال أنا يا رسول الله فانطلق به الى رحله فقال لامرأته هل عندك شئ قالت لا الاقوت صبيانى قال فعلليهم بشئ فاذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج وذكر نحو الحديث الاول وفى رواية فقام رجل من الانصار يقال له أبو طلحة فانطلق به الى رحله وذكر المهدوى أنها نزلت فى ثابت بن قيس ورجل من الانصار يقال له أبو المتوكل ولم يكن عنده الاقوته وذكر القشيرى قال أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخى فلانا وعياله أحوج الى هذا منا فبعثها اليهم فلم يزل يبعث بها واحد الى آخر حتى تناولها سبعة أبيات حتى رجعت الى الاول فنزلت الآية وذكر القرطبى عن أنس قال أهدى لرجل من الصحابة رأس شاة وكان مجهودا فوجه بها الى جارله فتداولها سبعة أنفس فى سبعة أبيات ثم عادت الى الاول فنزلت (فان قيل) قد صح فى الخبر النهى عن التصدق بجميع ما يملكه المرء (أجيب) بأن محل النهى فيمن لا يوثق منه بالصبر على الفقر وخاف أن يتعرض للمسئلة اذا فقد ما ينفقه فاما الانصار الذين أثنى الله تعالى عليهم بالايثار على أنفسهم فكانوا كما قال تعالى والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس فكان الايثار فيهم أفضل من الامساك والامساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسئلة أولى من الايثار كما روى ان رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم بمثل البيضة من الذهب فقال هذه صدقة فرماه بها وقال يأتى أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس والايثار بالنفس فوق الايثار بالمال وان عاد الى النفس ومن الامثال * والجود بالنفس أعلى غاية الجود * وأفضل من الجود بالنفس الجود على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى الصحيح ان أبا طلحة ترس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتطلع ليرى القوم فيقول له أبو طلحة لا تشرف يا رسول الله لا يصيبونك نحرى دون نحرك ووقى بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلت وقال حذيفة الدورى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فاذا برجل يقول آه آه فأشار الى ابن عمى ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاصى فقلت أسقيك فأشار ان نعم فسمع آخر يقول آه آه فأشار هشام ان انطلق اليه فجئت اليه فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات وقال أبو يزيد البسطامى ما غلبنى أحد ما غلبنى شاب من أهل بلخ قدم الينا حاجا فقال لى يا أبا يزيد ما حد الزهد عندكم فقلت اذا وجدنا أكلنا واذا فقدنا صبرنا فقال هكذا كلاب بلخ فقلت وما حد الزهد عندكم فقال اذا فقدنا شكرنا واذا وجدنا آثرنا وسئل ذو النون ما حد الزهد قال ثلاث تفريق المجموع وترك طلب المفقود والايثار عند القوت وحكى عن أبى الحسن الانطاكى انه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية من قرى الرى و بينهم أرغفة معدودة لا تشبع

جمعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما فرغوا فاذا الطعام بحاله لم يأكل أحد منهم شيأ ايثار الصاحبه على نفسه (ومن يوق شح نفسه) أى يجعل بينه وبين أخلاقه الذميمة المشار اليها بالنفس وقاية تحول بينه وبينها فلا يكون مانعا لما عنده حريصا على ما عند غيره حسدا قال ابن عمر الشح أن تطمح عين الرجل فيما ليس له قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الشح فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وقال القرطبى الشح والبخل سواء وجعل بعض أهل اللغة الشح أشد من البخل وفى الصحاح الشح البخل مع حرص والمراد بالشح فى الآية الشح بالزكاة ومالبس بفرض من صلة ذوى الارحام والضيافة وما شاكل ذلك وليس بشحيح ولا بخيل من انفق فى ذلك وان أمسك عن نفسه ومن وسع على نفسه ولم ينفق فيما ذكر من الزكاة والطاعات فلم يوق شح نفسه روى الاموى عن ابن مسعود ان رجلا أتاه فقال انى أخاف ان أكون قد هلكت قال وما ذاك قال سمعت الله يقول ومن يوق شح نفسه وأنا رجل شحيح لا أكاد أخرج من يدى شيأ فقال ابن مسعود ليس ذلك الذى ذكر الله تعالى انما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما ولكن ذلك البخل وبئس الشئ البخل ففرق بين الشح والبخل وقال طاوس البخل أن يبخل الانسان بما فى يده والشح أن يشح بما فى أيدى الناس يحب أن يكون له ما فى أيديهم بالحل والحرام فلا يقنع وقال بعضهم ليس الشح أن يمنع الرجل ماله انما الشح ان تطمح عين الرجل فيما ليس له وقال ابن جبير الشح منع الزكاة وادخار الحرام وقال ابن عيينة الشح الظلم وقال الليث ترك الفرائض وانتهاك المحارم وقال ابن عباس رضى الله عنهما من اتبع هواه ولم يقبل الايمان فذلك الشحيح وقال ابن زيد من لم يأخذ شيأ نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع شيأ أمره الله تعالى باعطائه فقد وقاه الله تعالى شح نفسه وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال برئ من الشح من أدى الزكاة وأقرى الضيف وأعطى فى النائبة وعنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو اللهم انى أعوذ بك من شح نفسى واسرافها وسوأتها وقال ابن الهياج الاسدى رأيت رجلا فى الطواف يدعو اللهم قنى شح نفسى لا يزيد على ذلك فقلت له فقال اذا وقيت شح نفسى لم اسرق ولم أزن ولم أقتل فاذا الرجل عبد الرحمن بن عوف قال القرطبى ونزل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا وقال كسرى لاصحابه أى شئ أضر بابن آدم قالوا الفقر فقال الشح أضر من الفقر لان الفقير اذا وجد شبع والشحيح اذا وجد لم يشبع أبدا (فأولئك) أى العالو المنزلة (هم المفلحون) أى الكاملون فى الفوز بكل مراد قال القشيرى ويجرد القلب من الاعراض والاملاك صفة السادة والاكابر لا من أسرته الاخطار * ولما أثنى سبحانه وتعالى على المهاجرين والانصار بما هم عليه وأهله أتبعهم ذكر التابعين لهم باحسان الى يوم الدين فقال تعالى (والذين جاؤا) أى من أى طائفة كانوا (من بعدهم) أى بعد المهاجرين والانصار وهم من آمن

بعد انقطاع الهجرة بالفتح وبعد ايمان الانصار الذين أسلموا مع النبى صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة (يقولون) على سبيل التجديد والاستمرار تصديقا لايمانهم بدعائهم (ربنا) أى أيها المحسن الينا بايجادنا من مهد الدين قبلنا (اغفر لنا) أى أوقع ستر النقائص آثارها وأعيانها (ولاخواننا) أى فى الدين فانهم أعظم اخوة وبينوا العلة بقولهم (الذين سبقونا بالايمان) قال ابن أبى ليلى الناس على ثلاثة منازل المهاجرين والذين تبوّؤا الدار والايمان والذين جاؤا من بعدهم فاجتهد أن لا تخرج من هذه المنازل وقال بعضهم كن مهاجرا فان قلت لا أجد فكن أنصاريا فان لم تجد فاعمل بأعمالهم فان لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمر الله تعالى وقال مصعب بن سعد الناس على ثلاث منازل فمضت منزلتان وبقيت منزلة فاحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه جاءه رجل فقال له يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقول فى عثمان فقال له يا أخى أنت من قوم قال الله تعالى فيهم للفقراء المهاجرين الآية قال لا قال فأنت من قوم قال الله تعالى فيهم والذين تبوّؤا الدار والايمان الآية قال لا قال فوالله ان لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الاسلام وهى قوله تعالى والذين جاؤا من بعدهم الآية وروى أن نفرا من أهل العراق جاؤا الى محمد بن على بن الحسين فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان فأكثروا فقال لهم أمن المهاجرين الاولين أنتم فقالوا لا فقال أمن الذين تبوّؤا الدار والايمان قالوا لا قال فقد تبرأتم من هذين الفريقين أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى والذين جاؤا من بعدهم قوموا فعل الله بكم وفعل *(تنبيه)* هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين لانه جعل لمن بعدهم حظا فى الفىء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ومن أبغضهم أو واحدا منهم أو اعتقد فيهم شرا أنه لا حق له فى الفىء قال مالك من كان يبغض أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كان فى قلبه لهم غل فليس له حق فى فىء المسلمين ثم قرأ والذين جاؤا من بعدهم الآية وهى عامة فى جميع التابعين الآتين بعدهم الى يوم القيامة روى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج الى المقبرة فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون وددت لو رأيت اخواننا فقالوا يا رسول الله ألسنا اخوانك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنتم أصحابى واخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض فبين صلى الله عليه وسلم أن اخوانه كل من أتى بعدهم كما قال السدى والكلبى انهم الذين هاجروا بعد ذلك وعن الحسن أيضا ان الذين جاؤا من بعدهم من قصد الى النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة بعد انقطاع الهجرة وانما بدؤا فى الدعاء بأنفسهم لقوله صلى الله عليه وسلم ابدأ بنفسك وقال الشعبى تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود من خير أهل ملتكم فقالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم فقالوا أصحاب عيسى وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم فقالوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم وعن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تذهب هذه الامة حتى يلعن

آخرها أولها أعاذنا الله تعالى وحبيبنا من الاهواء المضلة (ولا تجعل فى قلوبنا غلا) أى ضغنا وحسدا وحقدا وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام (للذين آمنوا) أى أقروا بالايمان وان كانوا فى أدنى درجاته وقيد وا بالقلب لان رذائل النفس قل أن تنفك وأنها ان كانت مع صحة القلب أوشك أن لا تؤثر (ربنا) أى أيها المحسن الينا بتعليم مالم نكن نعلم وأكدوا اعلاما بانهم يعتقدون مايقولون بقولهم (انك رؤف) أى راحم أشد الرحمة لمن كانت له بك وصلة بفعل من أفعال الخير (رحيم) مكرم غاية الاكرام لمن أردت ولو لم يكن له وصلة فأنت جدير بأن تحبينا لانا بين أن تكون لنا وصلة فنكون من أهل الرأفة أولا فنكون من أهل الرحمة فقد أفادت هذه الآية ان من كان فى قلبه غل على أحد من الصحابة فليس ممن عنى الله تعالى بهذه الآية وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بكسر الهمزة والباقون بمدها * ولما ذكر حال المؤمنين اتبعهم بذكر حال المنافقين فقال تعالى (ألم تر) أى تعلم علما هو فى غاية الجزم كالمشاهدة يا أعلى الخلق وبين بعدهم عن جنابه العالى ومنصبه الشريف العالى بأداة الانتهاء فقال تعالى (الى الذين نافقوا) أى أظهروا غير ما أضمروا وبالغوا فى اخفاء عقائدهم وهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه قالوا والنفاق لفظ اسلامى لم تكن العرب تعرفه قبله وهو استعارة من الضب فى نافقائه وقاصعائه وصور حالهم بقوله تعالى (يقولون لاخوانهم الذين كفروا) أى غطوا أنوار المعارف التى دلتهم على الحق (من أهل الكتاب) وهم اليهود من بنى قريظة والنضير والاخوان هم الاخوة وهى هنا تحتمل وجوها أحدها الاخوة فى الآخرة لان اليهود والمنافقين اشتركوا فى عموم الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وثانيها الاخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة وثالثها الاخوة بسبب اشتراكهم فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا لليهود (لئن أخرجتم) أى من مخرج ما من المدينة (لنخرجن معكم) أى منها (ولا نطيع فيكم) أى فى خذلانكم (أحدا) أى يريد خذلانكم من الرسول والمؤمنين وأكدوا بقولهم (أبدا) أى مادمنا نعيش وبمثل هذا العزم يستحق الكافر الخلود الابدى فى العذاب (وان قوتلتم) أى من أى مقاتل كان يقاتلكم ولم تخرجوا (لننصرنكم) أى لنعيننكم ولنقاتلن معكم * ولما كان قولهم هذا كلاما يقضى عليه سامعه بالصدق من حيث كونه مؤكدا مع كونه مبتدأ من غير سؤال فيه بين حاله سبحانه بقوله تعالى (والله) أى يقولون ذلك والحال ان المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يشهد انهم) أى المنافقين (لكاذبون) أى فيما قالوا ووعدوا وهذا من أعظم دلائل النبوة لانه اخبار بغيب بعيد عن العادة ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين بقوله تعالى (لئن أخرجوا) أى بنو النضير من أى مخرج كان (لا يخرجون) أى المنافقون (معهم) أى حمية لهم لاسباب يعلمها الله تعالى (ولئن قوتلوا) أى اليهود من أى مقاتل كان فكيف بأشجع الخلق وأعلمهم صلى الله عليه وسلم (لا ينصرونهم) أى المنافقون ولقد صدق الله تعالى وكذبوا فى الامرين معا القتال والاخراج لانصروهم ولا خرجوا معهم فكان ذلك من أعلام النبوة وعلم به من كان شاكا فضلا عن الموفقين (ولئن نصروهم) أى المنافقون فى وقت من الاوقات (ليولن) أى

المنافقون ومن ينصرونه وحقرهم بقوله تعالى (الادبار) أى ولو قدر وجود نصرهم لولوا الادبار منهزمين (ثم لا ينصرون) أى لا يتجدد لفريقيهم ولا لواحد منهم مانصرة فى وقت من الاوقات ولم يزل المنافقون واليهود فى الذل (لانتم) أيها المؤمنون (أشد رهبة) أى خوفا (فى صدورهم) أى اليهود ومن ينصرهم (من الله) أى لتأخير عذابه وأصل الرهبة والرهب الخوف الشديد مع حزن واضطراب والمعنى أنهم يرهبونكم ويخافون منكم أشد الخوف وأشد من رهبتهم من الله لما مر (ذلك) أى الامر الغريب وهو خوفهم الثابت اللازم من مخلوق مثلهم ضعيف لرؤيتهم له وعدم خوفهم من الخالق على ماله من العظمة فى ذاته ولكونه غنيا عنهم (بأنهم قوم) أى على ما لهم من القوة (لا يفقهون) أى لا يتجدد لهم بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم فى وقت من الاوقات فهم بشرح صدورهم ليدركوا به أن الله تعالى هو الذى ينبغى أن يخشى لاغيره بل هم كالانعام لا نظر لهم الى الغيب انما هم مع المحسوسات والفقه هو العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلى وغامضه الخفى بسرعة فطنة وجودة قريحة (لا يقاتلونكم) أى اليهود والمنافقون (جميعا) أى قتالا تقصدونه مجاهرة وهم مجتمعون كلهم فى وقت من الاوقات ومكان من الاماكن (الا فى قرى محصنة) أى ممتنعة بحفظ الدروب وهى السكك الواسعة بالابواب والخنادق ونحوها (أو من وراء جدار) أى محيط بهم سواء كان بقربه أم بغيرها لشدة خوفهم وقد أخرج هذا ما حصل من بعضهم عن ضرورة كالاسير ومن كان ينزل من أهل خيبر من الحصن يبارز ونحو ذلك فانه لم يكن عن اجتماع أو يكون هذا خاصا ببنى النضير فى هذه الكرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها وامال الالف أبو عمرو والباقون بضم الجيم والدال (بأسهم) أى حربهم (بينهم شديد) أى بعضهم فظ على بعض وعداوة بعضهم بعضا شديدة وقيل بأسهم بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد فاذا خرجوا اليكم فهم أجبن خلق الله تعالى (تحسبهم) أى اليهود والمنافقين يا أعلى الخلق أو يا أيها الناظر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائى بكسر السين والباقون بفتحها (جميعا) لما هم فيه من اجتماع الاشباح (وقلوبهم شتى) أى متفرقة أشد افتراقا وموجب هذا الشتات اختلاف الاهواء التى لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم وان اجتمعوا فى عداوة أهل الحق كاجتماع البهائم فى الهرب من الذئب قال القشيرى اجتماع النفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصل كل فساد وموجب كل تخاذل ومقتض لتجاسر العدو واتفاق القلوب والاشتراك فى الهمة والتساوى فى القصد موجب كل ظفر وكل سعادة وقرأ شتى الحسن وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين وأبو عمرو بين بين والباقون بالفتح وهى على وزن فعلى (ذلك) أى الامر الغريب من الافتراق بعد الاتفاق الذى يحيل الاجتماع (بأنهم قوم) أى مع شدتهم (لا يعقلون) فلا دين لهم مثلهم فى ترك الايمان (كمثل الذين من قبلهم قريبا) أى بزمن قريب وهم كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بنو قينقاع من أهل دينهم اليهود أظهروا بأسا شديدا عند ما قصدهم النبى صلى الله عليه وسلم فى اثر غزوة بدر فوعظهم وحذرهم بأس الله تعالى

فقالوا لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم اما والله لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس ثم مكروا بامرأة من المسلمين فراودوها عن كشف وجهها فأبت فعقدوا طرف ثوبها من تحت خمارها فلما قامت انكشف سوقها فصاحت فغار لها شخص من الصحابة فقتل اليهودي الذي عقد ثوبها فقتلوه فانتقض عهدهم فأنزل الله النبي صلى الله عليه وسلم بساحتهم فأذلهم الله تعالى ونزلوا من حصنهم على حكمه صلى الله عليه وسلم وقد كانوا حلفاء ابن أبي ولم يغن عنهم شيأ غير أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في أن لا يقتلهم وألح عليه حتى كف عن قتلهم فذهبوا عن المدينة الشريفة بأنفسهم من غير حشر لهم بالالزام بالجلاء (ذاقوا وبال أمرهم) أي عقوبته في الدنيا من القتل وغيره (ولهم عذاب أليم) أي مؤلم في الآخرة ومثلهم أيضا في سماعهم من المنافقين وتخلفهم عنهم (كمثل الشيطان) أي البعيد من كل خير لبعده من الله تعالى المحترق بعذابه والشيطان هنا مثل المنافقين (اذ قال للانسان) وهو هنا مثل اليهود (اكفر) أي بالله بما زين له ووسوس اليه من اتباعه الشهوات القائم مقام الامر (فلما كفر) أي أوجد الانسان الكفر على أي وجه ودلت الفاء على اسراعه في متابعة تزيينه (قال) أي الشيطان الذي هو هنا عبارة عن المنافقين (انى برئ منك) أي ليس بيني وبينك علاقة في شئ أصلا ظنا منه ان هذه البراءة تنفعه شيأ مما استوجبه المأمور بقبوله لأمره وذلك مثل ضربه الله تعالى للمنافقين واليهود في انخذالهم وعدم الوفاء في نصرتهم وحذف حرف العطف ولم يقل وكمثل الشيطان لان حذف العطف كثير كقولك أنت عاقل أنت كريم أنت عالم وقوله كمثل الشيطان كالبيان لقوله تعالى كمثل الذين من قبلهم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الانسان الذي قال له الشيطان راهب نزلت عنده امرأة أصابها لمم ليدعو لها فزين له الشيطان فوطئها فحملت ثم قتلها خوفا من أن يفتضح فدل الشيطان قومها على موضعها فجاؤا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه فجاءه الشيطان فوعده ان سجد له أنجاه منهم فسجد له فتبرأ منه وروى عطاء وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال كان راهب يقال له برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله تعالى فيها طرفة عين وان ابليس أعياه في أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال ألا أجد فيكم من يكفيني برصيصا فقال له الابيض وهو صاحب الانبياء عليهم الصلاة والسلام وهو الذي تصدى للنبي صلى الله عليه وسلم وجاءه في صورة جبريل عليه السلام ليوسوس اليه على وجه الوحي فدفعه جبريل عليه السلام الى أقصى أرض الهند فقال الابيض لابليس انا أكفيك أمره فانطلق فتزيا بزي الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه وكان لا ينفتل عن صلاته الا في كل عشرة أيام مرة ولا يفطر في كل عشرة أيام الا مرة فلما رآه الابيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته فرأى الابيض قائما يصلي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم على نفسه حين لم يجبه فقال له انك حين ناديتني كنت مشتغلا عنك فما حاجتك قال حاجتي اني أحببت أن أكون معك فأتأدب بأدبك واقتبس من علمك ونجتمع على العبادة

وتدعو لي وادعو لك فقال برصيصا اني لفي شغل عنك فان كنت مؤمنا فان الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيبا ان استجاب الله لي ثم أقبل على صلاته وترك الابيض فأقبل الابيض يصلي فلم يلتفت اليه برصيصا أربعين يوما فلما التفت بعد هارآه قائما يصلي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاد الابيض قال له ما حاجتك قال حاجتي ان تأذن لي ان ارتفع اليك فأذن له فارتفع اليه في صومعته فأقام حولا يتعبد فلا يفطر الا في كل أربعين يوما مرة ولا ينفتل من صلاته الا كذلك وربما مد الى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت اليه نفسه واعجبه شأن الابيض فلما حال الحول قال الابيض لبرصيصا ان لي صاحبا غيرك ظننت انك اشد اجتهادا مما رأيت وكان بلغنا عنك انك غير الذي رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته للذي رآه من شدة اجتهاده فلما ودعه الابيض قال له ان عندي دعوات اعلمكها تدعو بهن فهن خير مما أنت فيه يشفي الله تعالى بها المريض ويعافي بها المبتلى والمجنون قال برصيصا اني اكره هذه المنزلة لان في نفسي شغلا واني اخاف ان علم به الناس يشغلوني عن عبادة ربي عز وجل فلم يزل به الابيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى ابليس فقال والله قد أهلكت الرجل فانطلق الابيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاءه في صورة رجل متطبب فقال لاهله ان بصاحبكم جنونا افاعالجه قالوا نعم فقال اني لا أقوى على جنيته ولكن سأرشدكم الى من يدعو الله تعالى فيعافيه انطلقوا الى برصيصا فان عنده الاسم الذي اذا دعا به أجيب فانطلقوا به اليه فسألوه فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان فكان الابيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم الى برصيصا فيدعو لهم فيعافون فانطلق الابيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني اسرائيل وكان لها ثلاثة اخوة وكان أبوهم هو الملك فلما مات استخلف أخاه فكان عمها ملك بني اسرائيل فقصدها وخنقها ثم جاء اليهم في صورة رجل متطبب فقال افأعالجها قالوا نعم قال ان الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكن سارشدكم الى رجل تثقون به تدعونها عنده اذا جاءها شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيت فتردونها صحيحة قالوا ومن هو قال برصيصا قالوا كيف لنا ان يجيبنا الى هذا وهو أعظم شأنا من ذلك قال ابنوا صومعة الى جنب صومعته ولتكن لزيق صومعته حتى يشرف عليها فان قبلها والا فضعوها في صومعتها ثم قولوا له هي امانة عندك فاحتسب امانتك فانطلقوا اليه فسألوه ذلك فأبى فبنوا صومعة على ما أمرهم به الابيض ووضعوا الجارية في صومعتها وقالوا يا برصيصا هذه أختنا أمانة عندك فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا من صلاته عاين الجارية وما هي عليه من الجمال فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم فجاءها الشيطان فخنقها فكانت تكشف عن نفسها وتتعرض لبرصيصا فجاء الشيطان وقال ويحك واقعها فلم تجد مثلها وستتوب بعد ذلك ويتم لك ما تريد من الامر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها فقال له الشيطان ويحك يا برصيصا قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب فان سألوك فقل ذهب بها شيطانها ولم أقو عليه فدخل فقتلها ثم انطلق بها فدفنها الى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلا فأخذ بطرف ازارها فبقي خارجا من التراب ثم

رجع برصيصا الى صومعته وأقبل على صلاته اذ جاء اخوتها يتعهدون أختهم وكانوا يجيئون في بعض الايام يسألون عنها ويوصونه بها فلما لم يجدوها قالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا فلما أمسوا مكروبين جاء الشيطان الى أكبرهم في منامه فقال ويحك ان برصيصا فعل بأختك كذا وكذا وانه دفنها في موضع كذا وكذا فقال الاخ هذا حلم وهو من عمل الشيطان برصيصا خير من ذلك فتابع عليه ثلاث ليال فلم يكترث فانطلق الى الاوسط بمثل ذلك فقال الاوسط له مثل ما قال الاكبر ولم يخبر به احدا فانطلق الى أصغرهم بمثل ذلك فقال الاصغر لاخويه والله لقد رأيت كذا وكذا فقال الاوسط أنا والله رأيت مثله وقال الاكبر أنا والله رأيت مثله فانطلقوا الى برصيصا وقالوا له ما فعلت بأختنا فقال أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم قد اتهمتموني فقالوا والله لا نتهمك واستحيوا منه وانصرفوا فجاءهم الشيطان وقال ويحكم انها مدفونة في موضع كذا وكذا وان طرف ازارها خارج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم فذهبوا اليه ومعهم غلمانهم ومواليهم بالفؤوس والمساحي فهدموا صومعة برصيصا وأنزلوه منها وكتفوه ثم أتوا به الى الملك فأقر على نفسه وذلك أن الشيطان أتاه فقال تقتلها ثم تكابر فيجتمع عليك أمران قتل ومكابرة اعترف فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة فلما صلب أتاه الابيض فقال يا برصيصا تعرفني قال لا قال أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك ويحك أما اتقيت الله تعالى في الامانة خنت أهلها وانك زعمت انك أعبد بني اسرائيل أما استحييت فلم يزل يعيره ثم قال ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وأشباهك من الناس فان مت على هذه الحالة فلم يفلح أحد من نظرائك قال فكيف أصنع قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه فآخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك قال وما هي قال تسجد لي قال أفعل فسجد له فقال يا برصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك الى أن كفرت بربك اني بريء منك (اني أخاف الله) أي الملك الذي لا أمر لاحد معه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها (رب العالمين) أي الذي أوجدهم من العدم ورباهم بما يدل على جميع الاسماء الحسنى والصفات العليا فلا يغني أحد من خلقه عن أحد شيأ الا باذنه (فكان) أي فتسبب عن قوله ذلك انه كان (عاقبتهما) أي الغار والمغرور (أنهما في النار) حال كونهما (خالدين فيها) لانهما ظلما ظلما لا فلاح معه (وذلك) أي العذاب الاكبر (جزاء الظالمين) أي كل من وضع العبادة في غير موضعها أو هم الكافرون لقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ضرب الله تعالى هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة فدس المنافقون اليهم وقالوا لا تجيبوا محمدا الى ما دعاكم اليه ولا تخرجوا من دياركم فان قاتلكم فانا معكم فأجابوهم وان أخرجوكم خرجنا معكم فأجابوهم فدربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين فناصبوهم الحرب فخذلوهم وتبرؤا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله فكان عاقبة الفريقين في النار قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكانت الرهبان بعد ذلك

في بني اسرائيل لايمشون الا بالتقية والكتمان وطمع أهل الفسوق في الاحبار ورموهم بالبهتان حتى وكان أمر جريج الراهب فلما برأه الله تعالى مما رموه به انبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس وكانت قصة جريج ماروى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وكان جريج رجلا عابدا فاتخذ صومعة فكان فيها فأتت أمه وهو يصلي فقالت ياجريج فقال رب أمي وصلاتي وأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقال مثل مقالته الاولى فقالت اللهم لاتمته حتى ينظر في وجوه المومسات فتذاكر بنو اسرائيل جريجا وعبادته وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها فقالت ان شئتم لافتننه لكم قال فتعرضت له فلم يلتفت اليها فأتت راعيا كان يأوي الى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال ماشأنكم فقالوا زنيت بهذه البغي فحملت منك فقال أين الصبي فجاؤا به فقال دعوه حتى أصلي فلما انصرف من صلاته أتى الصبي وطعن في بطنه وقال ياغلام من ابوك فقال فلان الراعي قال فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا انبني لك صومعتك من ذهب قال لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا والثالث كلم أمه وهي ترضعه في قصة مشهورة (ياأيها الذين آمنوا) أي أقروا بالايمان باللسان (اتقوا الله) أي اجعلوا لكم وقاية تقيكم سخط الملك الاعظم باتباع أوامره واجتناب نواهيه واحذروا عقوبته بسبب التقصير فيما حده لكم من أمر أونهي (ولتنظر نفس ماقدمت لغد) أي في يوم القيامة لان هذه الدنيا كلها كيوم واحد يجيء فيه ناس ويذهب آخرون والموت والآخرة لابد من كل منهما وكل مالابد منه فهو في غاية القرب والعرب تكني عن المستقبل بالغد وقيل ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة كقول القائل * وان غدا الناظره قريب * وقال الحسن وقتادة قرب الساعة حتى جعلها كغد لان كل آت قريب والموت لامحالة آت ومعنى ماقدمت أي من خير أوشر ونكر النفس لاستقلال الانفس التي تنظر فيما قدمت للآخرة كانه قال ولتنظر نفس واحدة في ذلك ونكر الغد لتعظيمه وابهام أمره كانه قال الغد لاتعرف كنهه لعظمته وقوله تعالى (واتقوا الله) أي الجامع لجميع صفات الكمال تأكيد وقيل كرر لتغاير متعلق التقويين فتعلق الاولى أداء الفرائض لاقترانه بالعمل والثانية ترك المعاصي لاقترانه بالتهديد والوعيد قال معناه الزمخشري (ان الله) أي الذي له الاسماء الحسنى والصفات العليا (خبير) أي عظيم الاطلاع على ظواهركم وبواطنكم والاحاطة (بما تعملون) فلا تعملون عملا الا كان بمرأى منه ومسمع فاستحيوا منه (ولاتكونوا) أيها المحتاجون الى التحذير وهم الذين آمنوا (كالذين نسوا الله) أي أعرضوا عن أوامر ونواهي الملك الاعظم وتركوها ترك الناسين لمن برزت عنه مع ماله من صفات الجلال والاكرام (فأنساهم) أي فتسبب عن ذلك ان أنساهم بما له من الاحاطة بالظواهر والبواطن (أنفسهم) أي فلم يقدموا لها ماينفعها وان قدموا شيأ كان مشوبا بالمفسدات من الرياء والعجب فكانوا ممن قال فيه تعالى وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة

الآية لانهم لم يدعوا بابا من أبواب الفسق فان رأس الفسق الجهل بالله ورأس العلم ومفتاح الحكمة معرفة النفس فأعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه (أولئك) أى البعداء من كل خير (هم الفاسقون) أى العريقون فى المروق من دائرة الدين (لا يستوى) أى بوجه من الوجوه (أصحاب النار) أى التى هى محل الشقاء الاعظم (وأصحاب الجنة) أى التى هى دار النعيم الاكبر لافى الدنيا ولافى الآخرة واستدل بهذه الآية على ان المسلم لايقتل بالكافر (أصحاب الجنة هم الفائزون) أى الناجون من كل مكروه المدركون لكل محبوب وأصحاب النار هم الهالكون فى الدارين كما وقع فى هذه الغزوة لفريقى المؤمنين وبنى النضير ومن والاهم من المنافقين فشتان ما بينهما (لو أنزلنا) أى بعظمتنا التى أبانها هذا الانزال (هذا القرآن) أى الجامع لجميع العلوم الفارق بين كل ملتبس المبين لجميع الحكم (على جبل) أى جبل كان أو جبل فيه تمييز كالانسان (لرأيته) يا أشرف الخلق وان لم يتأهل غيرك لتلك الرؤية (خاشعا) أى متذللا باكيا (متصدعا) أى متشققا غاية التشقق (من خشية الله) أى من الخوف العظيم ممن له الكمال كله وفى هذا حث على تأمل مواعظ القرآن وتدبر آياته (وتلك الامثال) أى التى لايضاهيها شئ (نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فيؤمنون والمعنى أنا لو أنزلنا هذا القرآن على الجبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده وأنتم أيها المقهورون باعجازه لاترغبون فى وعده ولاترهبون من وعيده والغرض من هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار وغلظ طباعهم ونظيره ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت وتصدع من نزوله عليه وقد أنزلناه عليك وثبتناك له فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لم تثبت له الجبال وقيل انه خطاب للامة والمعنى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله تعالى والانسان أقل قوة وأكثر ثباتا فهو يقوم بحقه ان أطاع ويقدر على رده ان عصى لانه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب * ولما وصف تعالى القرآن بالعظم ومعلوم ان عظم الصفة تابع لعظم الموصوف أتبع ذلك بوصف عظمته تعالى فقال عز من قائل (هو) أى الذى وجوده من ذاته فلا عدم له بوجه من الوجوه فلا شئ يستحق الوصف بهو غيره لانه الموجود دائما أزلا وأبدا فهو حاضر فى كل ضمير غائب بعظمته عن كل حس فلذلك تصدع الجبل من خشيته * ولما عبر عنه بأخص أسمائه أخبر عنه لطفا بنا وتنزلا لنا بأشهرها الذى هو مسمى الاسماء كلها بقوله تعالى (الله) أى المعبود الذى لاتنبغى العبادة والالوهية الاله (الذى لا اله الا هو) فانه لامجانس له ولايليق ولايصح ولايتصور أن يكافئه أو يدانيه شئ والاله أول اسم لله تعالى فلذلك لايكون أحد مسلما الا بتوحيده فتوحيده فرض وهو أساس كل فريضة (عالم الغيب) أى الذى غاب عن جميع خلقه (والشهادة) أى الذى وجد فكان بحسه ويطلع عليه بعض خلقه وقال ابن عباس معناه عالم السر والعلانية وقيل ما كان وما يكون وقال سهل عالم بالآخرة والدنيا وقيل استوى فى علمه السر والعلانية والموجود والمعدوم وقوله تعالى (هو الرحمن

(الرحيم) معناه ذو الرحمة ورحمة الله تعالى ارادته الخير والنعمة والاحسان الى خلقه وقيل ان رحمن أشد مبالغة من رحيم ولهذا قيل هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لانه تعالى باحسانه فى الدنيا يعم المؤمن والكافر وفى الآخرة يختص انعامه واحسانه بالمؤمنين (هو الله) أى الذى لا يقدر على تعميم الرحمة لمن أراد وتخصيصها بمن شاء الا هو (الذى لا اله) أى لا معبود بحق (الا هو الملك) أى فلا ملك فى الحقيقة الا هو لانه لا يحتاج الى شئ لانه مهما أراد كان فهو متصرف بالامر والنهى فى جميع خلقه فهم تحت ملكه وقهره وارادته (القدوس) أى البليغ فى النزاهة عن كل وصم يدركه حس أو يتصوره خيال أو يسبق اليه وهم أو يختلج اليه ضمير ونظيره السبوح وفى تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح (السلام) أى الذى سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق فهو بمعنى السلامة ومنه دار السلام وسلام عليكم وصف به مبالغة فى وصف كونه سليما من النقائص أو فى اعطائه السلامة (المؤمن) قال ابن عباس هو الذى أمن الناس من ظلمه وأمن من آمن به عذابه وقيل هو المصدق لرسله باظهار المعجزات لهم والمصدق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب وبما أوعد الكافرين من العذاب وقال مجاهد المؤمن الذى وحد نفسه لقوله تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو قال ابن عباس اذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبى حتى اذا لم يبق فيها من وافق اسمه اسم نبى قال الله تعالى لباقيهم أنتم المسلمون وأنا السلام وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين (المهيمن) قال ابن عباس أى الشهيد على عباده بأعمالهم الذى لا يغيب عنه شئ وقيل هو القائم على خلقه بقدرته وقيل هو الرقيب الحافظ لكل شئ مفيعل من الامن قلبت همزته هاء (العزيز) أى الذى لا يوجد له نظير وقيل هو الغالب القاهر (الجبار) الذى جبر خلقه على ما أراده أو جبر حالهم بمعنى أصلحه والجبار فى صفة الله صفة مدح وفى صفة الناس صفة ذم وكذا قوله تعالى (المتكبر) أى الذى تكبر على كل ما يوجب حاجة أو نقصا وهو فى حقه تعالى صفة مدح لانه له جميع صفات العلو والعظمة وفى صفة الناس صفة ذم لان المتكبر هو الذى يظهر من نفسه التكبر وذلك نقص فى حقه لانه ليس له كبر ولا علو بل له الحقارة والذلة فاذا أظهر الكبر كان كذابا فى فعله (سبحان الله) أى تنزه الملك الاعلى الذى اختص بجميع صفات الكمال تنزها لا تدرك العقول منه أكثر من أنه علا عن أوصاف الخلق فلا يدانيه شئ من نقص تعالى (عما يشركون) أى من هذه المخلوقات من الاصنام وغيرها مما فى الارض أو فى السماء من صغير وكبير وجليل وحقير (هو) أى الذى لا شئ يستحق أن يطلق عليه هذا الضمير غيره لان وجوده من ذاته ولا شئ غيره الا وهو ممكن * ولما ابتدأ بهذا الغيب المحض الذى هو أظهر الاشياء أخبر عنه بأشهر الاشياء الذى لم يقع فيه شركة بوجه فقال تعالى (الله) أى الذى ليس له سمى فلا كفء له فهو المعبود بالحق فلا شريك له بوجه (الخالق) أى المقدر للاشياء على مقتضى حكمته (البارئ) أى المخترع المنشئ للاشياء من العدم الى الوجود بريأ من التفاوت وقوله تعالى (المصور) أى الذى يخلق

صور الاشياء على ما يريد بكسر الواو ورفع الراء اما صفة واما خبر واحترزت بهذا الضبط عن قراءة أمير المؤمنين على بن أبى طالب والحسن فانهما قرآ بفتح الواو ونصب الراء وهى قراءة شاذة وانما تعرضت لها لا بين وجهها وهو أن تخرج هذه القراءة على أن يكون المصور منه وبا بالبارئ والمصور هو الانسان اما آدم واما هو وبنوه وعلى هذه القراءة يحرم الوقف على المصور بل يجب الوصل ليظهر النصب فى الراء والافقد يتوهم منه فى الوقف ما لا يجوز (له) أى خاصة (الاسماء الحسنى) التسعة والتسعون الوارد فيها الحديث وقد ذكرتها فى سورة الاسراء والحسنى تأنيث الاحسن (يسبح) أى يكرر التنزيه الاعظم عن كل شئ من شوائب النقص على سبيل التجدد والاستمرار (له) أى على وجه التخصيص (ما فى السموات) أى السموات وما فيها (والارض) وما فيها (وهو) أى والحال أنه وحده (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الجامع الكمالات بأسرها فانها راجعة الى الكمال فى القدرة والعلم وعن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث آيات من سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى وان مات فى ذلك اليوم مات شهيدا ومن قاله حين يمسى كان كذلك أخرجه الترمذى وقال حسن غريب وعن أبى هريرة أنه قال سألت خليلى أبا القاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الاعظم فقال عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها فأعدت عليه فأعاد علىّ وقال جابر بن زيد ان اسم الله الاعظم هو الله لمكان هذه الآية وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحشر غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حديث موضوع

(سورة الممتحنة مدنية)

وهى ثلاث عشرة آية وثلثمائة وثمان وأربعون كلمة وألف وخمسمائة وعشرة أحرف

(بسم الله) الذى من تولاه أغناه عمن سواه (الرحمن) الذى شمل برحمة البيان من حاطه بالعقل ورعاه (الرحيم) الذى خص بالتوفيق من أحبه وارتضاه * ونزل فى حاطب بن أبى بلتعة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى) أى وأنتم تدعون موالاتى (وعدوكم) أى العريق فى عداوتكم ما دمتم على مخالفته فى الدين (أولياء) وذلك ما روى ان مولاة لابى عمرو بن صيفى يقال لها سارة أتت النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها أمسلمة جئت قالت لا قال أفمهاجرة جئت قالت لا قال فما جاء بك قالت كنتم الاهل والموالى والعشيرة وقد ذهبت الموالى تعنى قتلوا يوم بدر فاحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى فقال صلى الله عليه وسلم فأين أنت عن شباب أهل مكة وكانت مغنية نائحة قالت ما طلب منى شئ بعد وقعة بدر فحث رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب على اعطائها فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بن أبى بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردا واستحملها

كتابا لاهل مكة نسخته من حاطب بن أبي بلتعة الى أهل مكة اعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم وقد توجه اليكم بجيش كالليل وأقسم بالله لولم يسر اليكم الا وحده لاظفره الله تعالى بكم وأنجز له موعده فيكم فالله وليه وناصره فخرجت سارة ونزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانا وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب من حاطب الى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فان أبت فاضربوا عنقها فادركوها فجحدت وحلفت مامعها كتاب ففتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا فهموا بالرجوع فقال علي والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسل سيفه وقال أخرجي الكتاب والا والله لاجردنك ولاضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من عقاص شعرها فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن جميع الناس يوم الفتح الا أربعة هي أحدهم فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال له هل تعرف هذا الكتاب قال نعم قال فما حملك عليه فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش وروى عزيزا فيهم أي غريبا ولم أكن من أنفسها وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يدا وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه وان كتابي لا يغني عنهم شيأ فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم واضافة العدو الى الله تعالى تغليظا في خروجهم وهذه السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار وتقدم نظيره في قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم روى أن حاطبا لما سمع يا أيها الذين آمنوا غشي عليه من الفرح بخطاب الايمان ثم انه تعالى استأنف ان هذا الاتخاذ بقوله تعالى مشيرا الى غاية الاسراع والمبادرة الى ذلك بالتعبير بقوله تعالى (تلقون) أي جميع ماهو في حوزتكم مما لا تطمعون فيه القاء الشئ الثقيل من علو (اليهم) على بعدهم منكم حسا ومعنى (بالمودة) أي بسببها قال القرطبي تلقون اليهم بالمودة يعني بالظاهر لان قلب حاطب كان سليما بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أما صاحبكم فقد صدق هذا نص في اسلامه وسلامة فؤاده وخلوص اعتقاده وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها وقوله تعالى (وقد كفروا) أي غطوا جميع مالكم من الادلة (بما) أي بسبب ما (جاءكم من الحق) أي الامر الثابت الكامل في الثبات الذي لاشئ أعظم ثباتا منه فيه أوجه أحدها الاستئناف ثانيها الحال من فاعل تتخذوا ثالثها الحال من فاعل تلقون أي لا تتولوهم ولا توادوهم وهذه حالهم وقوله تعالى (يخرجون الرسول) يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون تفسيرا لكفرهم فلا محل له على هذين وان يكون حالا

من فاعل كفروا وقوله تعالى (وإياكم) عطف على الرسول وقدم عليهم تشريفاله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أن تؤمنوا) أي توقعوا حقيقة الايمان مع التجدد والاستمرار (بالله) أي الذي اختص بجميع صفات الكمال (ربكم) أي المحسن اليكم تعليل ليخرجون والمعنى يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لان تؤمنوا بالله أي لاجل ايمانكم بالله قال ابن عباس وكان حاطب ممن أخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك تغليب المخاطب والالتفات من التكلم الى الغيبة للدلالة على مايوجب الايمان (ان كنتم خرجتم) أي عن أوطانكم وقوله تعالى (جهادا في سبيلي) أي بسبب ارادتكم تسهيل طريقي التي شرعتها لعبادي أن يسلكوها (وابتغاء مرضاتي) أي ولاجل تطلبكم أعظم الرغبة لرضاي عله للخروج وعمدة للتعليق وجواب الشرط محذوف دل عليه لاتتخذوا وقرأ الكسائي بالامالة محضة والباقون بالفتح وقوله تعالى (تسرون) أي توجدون جميع مايدل على مناصحتكم اياهم والتودد (اليهم بالمودة) أي بسببها بدل من تلقون قاله ابن عطية قال ابن عادل ويشبه أن يكون بدل اشتمال لان القاء المودة يكون سرا وجهرا أو استئناف واقتصر عليه الزمخشري (وأنا) أي والحال أني (أعلم) أي من كل أحد حتى من نفس الفاعل وقرأ نافع بمد الالف بعد النون (بما أخفيتم وما أعلنتم) قال ابن عباس بما أخفيتم في صدوركم وما أظهرتم بألسنتكم أي فأي فائدة لاسراركم ان كنتم تعلمون اني عالم به وان كنتم تتوهمون أني لاأعلمه فهي القاصمة (ومن يفعله) أي يوجد اسرار خبر اليهم ويكاتبهم (منكم) أي في وقت من الاوقات (فقد ضل) أي عمي ومال وأخطأ (سواء السبيل) أي قويم الطريق الواسع الموصل الى القصد قريبه وعدله قال القرطبي هذا كله معاتبة لحاطب وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق ايمانه فان المعاتبة لاتكون الامن محب لحبيب كما قال القائل

اذا ذهب العتاب فليس ود * ويبقى الود مابقي العتاب

وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الضاد والباقون بالادغام (ان يثقفوكم) أي يظفروا بكم في وقت من الاوقات ومكان من الاماكن (يكونوا لكم أعداء) أي ولا ينفعكم القاء المودة اليهم (ويبسطوا اليكم) أي خاصة وان كان هناك في ذلك الوقت من غيرمن قتل أعز الناس عليهم (أيديهم) أي بالضرب ان استطاعوا (وألسنتهم) أي بالشتم مضمومة الى فعل أيديهم فعل من ضاق صدره بما تجرع من آخر من الغصص حتى أوجب له غاية السفه (بالسوء) أي بكل مامن شأنه أن يسوء (وودوا) أي تمنوا قبل هذا (لو تكفرون) لان مصيبة الدين أعظم فهم اليها أسرع لان دأب العدو القصد الى أعظم ضرر يراه لعدوه وعبر بما يفهم التمني الذي يكون في المحالات ليكون المعنى انهم أحبوا ذلك غاية الحب وتمنوه وفيه بشرى بأنه من قبيل المحال وقدم الاول لانه أبين في العداوة وان كان الثاني أنكى * ولما كانت عداوتهم معروفة وانما غطاها محبة القرابات لان الحب للشئ يعمي ويصم فخطأ رأيهم في موالاتهم بما أعلمهم به من حالهم فقال تعالى مستأنفا اعلاما بأنها خطأ على كل حال

قوله وان كان هناك الخ المناسب وان لم يكن من قبل أعز الناس عليهم اه

(ان تنفعكم) بوجه من الوجوه (أرحامكم) أى قراباتكم الحاملة لكم على رحمتكم والعطف عليهم (ولا أولادكم) أى الذين هم أخص أرحامكم ان واليتم أعداء الله تعالى لاجلهم فينبغى أن لا تعدوا قربهم منكم بوجه أصلا ثم عال ذلك وبينه بقوله تعالى (يوم القيامة) أى القيام الاعظم (يفصل) أى يوقع الفصل وهو الفرقة العظيمة بانقطاع جميع الاسباب وقرأ عاصم بفتح الياء واسكان الفاء وكسر الصاد مخففة وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح الفاء وفتح الصاد مشددة وحمزة والكسائى كذلك الا أنهما يكسران الصاد والباقون بضم الياء وسكون الفاء (بينكم) أى أيها الناس فيدخل من يشاء من أهل طاعته الجنة ومن يشاء من أهل معصيته النار فلا ينفع أحد أحدا منكم بشئ من الاشياء الا ان كان قد أتى الله تعالى بقلب سليم فيأذن الله تعالى فى اكرامه بذلك (والله) أى الذى له الاحاطة التامة (بما تعملون) أى من كل عمل فى كل وقت (بصير) فيجازيكم عليه فى الدنيا والآخرة * ولما نهى تعالى عن موالاة الكفار ذكر قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأن من سيرته التبرى من الكفار بقوله تعالى (قد كانت) أى وجدت وجودا تاما وكان تأنيث الفعل اشارة الى الرضا بها ولو كانت على أدنى الوجوه (لكم) أى أيها المؤمنون (اسوة) أى موضع اقتداء وتأسية فى ابراهيم وطريقة مرضية وقرأ اسوة فى الموضعين عاصم بضم الهمزة والباقون بكسرها (حسنة) أى يرغب فيها (فى ابراهيم) أى فى قول أبى الانبياء عليهم الصلاة والسلام (والذين معه) أى من كان قبله من الانبياء قاله القشيرى وممن آمن به فى زمانه كابن أخته لوط عليه الصلاة والسلام وهم قدوة أهل الجهاد والهجرة وقيل المراد بمن معه أصحابه من المؤمنين وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وبعدها ياء أى فاقتدوا به الا فى استغفاره لابيه قال القرطبى الآية نص فى الامر بالاقتداء بابراهيم عليه الصلاة والسلام فى فعله وذلك يدل على أن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله وقيل انه شرع لنا اذا ورد فى شرعنا ما يقرره وقيل ليس بشرع لنا مطلقا وهو الاصح عندنا (اذ) أى حين (قالوا) وقد كان من آمن به أقل منكم وأضعف (لقومهم) أى الكفرة وقد كانوا أكثر من عدوكم وأقوى وكان لهم فيهم أرحام وقرابات ولهم فيهم رجاء بالقيام والمحاولات (انا برآء) أى متبرؤن تبرئة عظيمة (منكم) وان كنتم أقرب الناس الينا ولا ناصر لنا منهم غيركم (ومما تعبدون) أى توجدون عبادته فى وقت من الاوقات (من دون الله) أى الملك الاعظم (كفرنا بكم) أى جحدناكم وأنكرنا دينكم (وبدا) أى ظهر ظهورا عظيما (بيننا وبينكم العداوة) وهى المباينة فى الافعال بأن يعدو كل أحد على الآخر (والبغضاء) وهى المباينة بالقلوب للبغض العظيم * ولما كان ذلك قد يكون سريع الزوال قالوا (أبدا) أى على الدوام وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بابدال الهمزة الثانية المفتوحة بعد المضمومة واوا خالصة والباقون بتحقيقها وهم على مراتبهم فى المد واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة الفا مع المد والتوسط والقصر ولهما أيضا التسهيل مع المد والقصر والروم معهما * ولما كان ذلك مؤيسا من صلاح

الحال وقد يكون لحظ النفس بينوا غايته بقولهم (حتى تؤمنوا بالله) أى الملك الذى له الكمال كله (وحده) أى تكونوا مكذبين بكل مايعبد من دون الله تعالى وقوله تعالى (الاقول ابراهيم لابيه) فيه أوجه أحدها انه استثناء متصل من قوله تعالى فى ابراهيم ولكن لابد من حذف مضاف ليصح الكلام تقديره فى مقالات ابراهيم الاقوله كيت وكيت ثانيها انه مستثنى من اسوة حسنة واقتصر على ذلك الجلال المحلى وجاز ذلك لان القول أيضا من جملة الاسوة لان الاسوة الاقتداء بالشخص فى أقواله وأفعاله فكانه قيل لكم فيه اسوة فى جميع أحواله من قول وفعل الاقوله كذا وهو أوضح لانه غير محوج الى تقدير مضاف وغير مخرج للاستثناء من الاتصال الذى هو أصله الى الانقطاع ولذلك لم يذكر الزمخشرى غيره ثالثها قال ابن عطية ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبرى والقطيعة التى ذكرت أى لم تبق صلة الا كذا رابعها أنه استثناء منقطع أى لكن قول ابراهيم وهذا بناء من قائله على أن القول لم يندرج تحت قوله اسوة وهو ممنوع قال القرطبى معنى قوله تعالى الاقول ابراهيم لابيه (لأستغفرن لك) أى فلا تتأسوا به فى الاستغفار فتستغفروا للمشركين فانه كان عن موعدة منه له قاله قتادة ومجاهد وغيرهما وقيل معنى الاستثناء ان ابراهيم هجر قومه وباعدهم الا فى الاستغفار لابيه ثم بين عذره فى سورة التوبة وفى هذا دلالة على تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء لانا حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمرا مطلقا فى قوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا وحين أمرنا بالاقتداء بابراهيم استثنى بعض أفعاله وهذا انما جرى لانه ظن انه أسلم فلما بان أنه لم يسلم تبرأ منه وعلى هذا فيجوز الاستغفار لمن يظن انه أسلم وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن فلم توالونهم وقوله (وما أملك لك من الله) أى من عذاب أو ثواب الملك الاعلى المحيط بنعوت الجلال (من شئ) من تمام قوله المستثنى ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أحواله وقوله (ربنا) أى أيها المحسن الينا (عليك) أى لا على غيرك (توكلنا) أى فوضنا أمرنا اليك يجوز أن يكون من مقول ابراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه فهو من جملة الاسوة الحسنة وفصل بينهما بالاستثناء ويجوز أن يكون منقطعا عما قبله على اضمار قول وهو تعليم من الله تعالى لعباده كانه قال لهم قولوا ربنا عليك توكلنا (واليك) أى وحدك (أنبنا) أى رجعنا بجميع ظواهرنا وبواطننا (واليك) أى وحدك (المصير) أى الرجوع فى الآخرة (ربنا) أى أيها المربى لنا والمحسن الينا (لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) أى بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نحتمله أو فيظنوا انهم على حق فيفتتنوا بذلك وقيل لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك وقيل لا تسلط عليهم الرزق دوننا فان ذلك فتنة لهم (واغفر لنا) أى استر ماوقع منا من الذنوب وامح عينه وأثره (ربنا) أى أيها المحسن الينا وأكدوا اعلاما بشدة رغبتهم فى حسن الثناء عليه فقالوا (انك أنت) أى وحدك لا غيرك (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى يضع الاشياء فى أوفق محالها فلا يستطاع نقضها ومن كان كذلك فهو حقيق بأن يعطى من أمله ما طلب وقوله

تعالى (لقد كان لكم) أى يا أمة محمد جواب قسم مقدر (فيهم) أى ابراهيم ومن معه من الانبياء والاولياء (أسوة حسنة) أى فى التبرى من الكفار وكرر للتاكيد وقيل نزل الثانى بعد الاول بمدة قال القرطبي وما أكثر المكررات فى القران على هذا الوجه وقوله تعالى (لمن كان يرجو الله) أى الملك المحيط بجميع صفات الكمال (واليوم الآخر) أى الذى يحاسب فيه على النقير والقطمير بدل من الضمير فى لكم بدل بعض من كل وفى ذلك بيان أن هذه الاسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة (ومن يتول) أى يوقع الاعراض عن أوامر الله تعالى فيميل الى الكفار (فان الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (هو) أى خاصة (الغنى) أى عن كل شئ (الحميد) أى الذى له الحمد المحيط لاحاطته بأوصاف الكمال فهو حميد فى نفسه وصفاته أو حميد الى أوليائه وأهل طاعته * ولما نزلت الآية الاولى عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين فعلم الله تعالى شدة وجد المسلمين فى ذلك فنزل (عسى الله) أى أنتم جديرون بأن تطمعوا فى الملك الاعلى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (أن يجعل) أى بأسباب لا تعلمونها (بينكم وبين الذين عاديتم منهم) أى كفار مكة (مودة) أى بأن يلهمهم الايمان فيصيروا لكم أولياء وقد جعل ذلك عام الفتح تحقيقا لما رجاه سبحانه لان عسى من الله تعالى وعد وهو لا يخلف الميعاد (والله) أى الذى له كمال الاحاطة (قدير) أى بالغ القدرة على كل ما يريده فهو يقدر على تقليب القلوب وتيسير العسير (والله) أى الذى له جميع صفات الكمال (غفور) أى محاء لاعيان الذنوب وآثارها (رحيم) يكرم الخاطئين اذا أراد بالتوبة ثم بالجزاء غاية الاكرام فيغفر لما فرط منكم فى موالاتهم من قبل وما بقى فى قلوبكم من ميل الرحم وقوله تعالى (لا ينهاكم الله) أى الذى اختص بالجلال والاكرام (عن الذين لم يقاتلوكم) أى بالفعل (فى الدين) الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم قال ابن زيد هذا كان فى أول الاسلام عند الموادعة وترك الامر بالقتال ثم نسخ قال قتادة نسخها فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقال ابن عباس نزلت فى خزاعة وذلك أنهم صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا فرخص الله تعالى فى برهم وقال أكثر أهل التأويل انها محكمة واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر قدمت أمها وهى مشركة عليها المدينة بهدايا فقالت أسماء لا أقبل منك هدية ولا تدخلى على بيتا حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تدخل منزلها وأن تقبل هديتها وتكرمها وتحسن اليها وفى ذلك اشارة الى الاقتصار فى العداوة والولاية كما قال صلى الله عليه وسلم أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما وروى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه طلق امرأته قتيلة فى الجاهلية وهى أم أسماء بنت أبى بكر فقدمت عليهم فى المدة التى كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش فأهدت الى أسماء بنت أبى بكر قرطا وأشياء فكرهت ان تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله

عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله تعالى لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين (ولم يخرجوكم من دياركم أن) أى لا ينهاكم عن أن (تبروهم) بنوع من أنواع البر الظاهرة فان ذلك غير صريح فى قصد المودة (وتقسطوا اليهم) أى تعطوهم قسطا من أموالكم على وجه الصلة قال ابن العربى وليس يريد به من العدل فان العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل وحكى أن القاضى اسمعيل بن اسحق دخل عليه ذمى فأكرمه فأخذ عليه الحاضرون فى ذلك فتلا عليهم هذه الآية (ان الله) أى الذى له الكمال كله (يحب) أى يثيب (المقسطين) أى الذين يزيلون الجور ويوقعون العدل (انما ينهاكم الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (عن الذين قاتلوكم) أى جاهدوكم متعمدين لقتالكم (فى الدين) أى عليه فليس شئ من ذلك خارجا عنه (وأخرجوكم من دياركم) أى بأنفسهم لبغضكم وهم عتاة أهل مكة (وظاهروا) أى عاونوا غيرهم (على اخراجكم) وهم مشركو مكة وقوله تعالى (ان تولوهم) بدل اشتمال من الذين أى تتخذوهم أولياء وقرأ البزى بتشديد التاء والباقون بالتخفيف ولما كان التقدير فمن أطاع فأولئك هم المفلحون عطف عليه قوله تعالى (ومن يتولهم) أى يكلف نفسه الحمل على غير ما تدعو اليه الفطرة الاولى من المنابزة وأطاق ولم يقيد بمنكم ليعم المهاجرين وغيرهم والمؤمنين وغيرهم (فأولئك) أى الذين أبعدوا عن العدل (هم الظالمون) أى الغريقون فى ايقاع الاشياء فى غير مواضعها ولما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك الى بلاد الاسلام وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة فبين أحكام مهاجرة النساء بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (اذا جاءكم المؤمنات) أى بأنفسهن (مهاجرات) أى من الكفار بعد الصلح معهم فى الحديبية (فامتحنوهن) أى بالحلف انهن ما هاجرن الارغبة فى الاسلام لا بغضا فى أزواجهن الكفار ولا عشقا لرجال من المسلمين كذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفهن قيل ان سبب الامتحان انه كان من أرادت منهن اضرار زوجها قالت سأهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بامتحانهن (الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (أعلم) أى منكم ومن أنفسهن (بايمانهن) هل هو كائن أم لا على وجه الرسوخ أم لا فانه المحيط بما غاب كاحاطته بما شوهد وانما وكل الامر اليكم فى ذلك سترا للناس (فان علمتموهن مؤمنات) أى العلم الممكن لكم وهو الظن المؤكد بالامارات الظاهرات بالحلف وغيره (فلا ترجعوهن) أى بوجه من الوجوه (الى الكفار) وان كانوا أزواجا قال ابن عباس لما جرى الصلح مع مشركى قريش عام الحديبية على ان من أتاه من أهل مكة رده اليهم جاءت سبيعة بنت الحرث الاسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعد فأقبل زوجها وكان كافرا وكان صيفى بن الراهب وقيل مسافر المخزومى فقال يا محمد اردد على امرأتى فانك شرطت ذلك وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى ان أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط جاءت للنبى صلى الله عليه وسلم فجاء أهلها

يسألونه أن يردها وقيل هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها اخواها عمارة والوليد فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ردها علينا للشرط فقال صلى الله عليه وسلم كان الشرط في الرجال لا في النساء فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن عروة قال كان مما اشترط سهل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية أن لا يأتيك منا أحد وان كان على دينك الارددته الينا وخليت بيننا وبينه فكره المؤمنون ذلك وأبي سهل الا ذلك فكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك فرد يومئذ أبا جندل الى أبيه سهل ابن عمرو ولم يأته أحد من الرجال الارده في تلك المدة وان كان مسلما حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل وهذا يومى الى ان الشرط في رد النساء نسخ بذلك وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن وقال بعض العلماء كله منسوخ بالقرآن وقالت طائفة لم يشترط ردهن في العقد لفظا وانما أطلق العقد في رد من أسلم فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال فبين الله تعالى خروجهن عن عمومه وفرق بينهن وبين الرجال لامرين أحدهما انهن ذوات فروج تحرم عليهن الثاني انهن أرق قلوبا وأسرع تقلبا منهم فأما المقيمة منهن على شركها فردودة عليهم (لاهن) أي المؤمنات (حل) أي موضع حل ثابت (لهم) أي الكفار باستمتاع ولا غيره وقوله تعالى (ولاهم) أي رجال الكفار (يحلون لهن) أي المؤمنات تأكيد للاول لتلازمهما وقال البيضاوي والتكرير للمطابقة والمبالغة والاولى لحصول الفرقة والثانية للمنع عن الاستئناف وقيل أراد استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل كما هو في الحال ماداموا مشركين وهن مؤمنات والمعنى لم يحل الله تعالى مؤمنة لكافر في حال من الاحوال وهذا أدل دليل على ان الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها الكافر اسلامها الاهجرتها وقال أبو حنيفة الذي فرق بينهما هو اختلاف الدارين والصحيح كما قال ابن عادل الاول لان الله تعالى بين العلة وهو عدم الحل بالاسلام لا باختلاف الدار ولما نهى عن الرد وعلله أمر بما قدم من الاقساط اليهم فقال تعالى (وآتوهم) أي اعطوا الازواج (ما أنفقوا) أي عليهن من المهور فان المهر في نظير أصل العشرة ودوامها وقد فوتتها المهاجرة فلا يجمع عليه خسارتان الزوجية والمالية وأما الكسوة والنفقة فانهما لما يتجدد من الزمان *(تنبيه)* أمر الله تعالى برد ما أنفقوا الى الازواج وان المخاطب بهذا الامام وهل يجب ذلك أو يندب ظاهر الآية الوجوب ولكن رجح الندب وعليه الشافعي لان البضع ليس بمال فلا يشمله الامان كما لا يشمل زوجية والآية وان كان ظاهرها الوجوب محتملة للندب الصادق بعدم الوجوب الموافق للاصل وقال مقاتل يرد المهر للذي يتزوجها من المسلمين وليس لزوجها الكافر شئ وقال قتادة الحكم في رد الصداق انما هو في نساء أهل الذمة فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد عليهم الصداق قال القرطبي والامر كما قال (ولا جناح) أي حرج وميل (عليكم) يا أيها المشرفون بالخطاب (ان تنكحوهن) أي تجددوا زواجكم بهن بعد الاستبراء وان كان أزواجهن من الكفار لم يطلقوهن لزوال العلق عنهن لان الاسلام فرق بينهم قال

الله تعالى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ولما كان قد أمر برد مهور الكفار فكان ربما ظن انه مغن عن تجديد مهر لهن اذا نكحهن المسلم نفى ذلك بقوله (اذا آتيتموهن) أى لاجل النكاح (أجورهن) أى مهورهن وفى شرط ايتاء المهر فى نكاحهن ايذان بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) جمع عصمة وهى هنا عقد النكاح أى من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمتها فلا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة زوجية والكوافر جمع كافرة كضوارب فى ضاربة قال النخعى المراد بالآية هى المرأة المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر وكان الكفار يتزوجون المسلمات والمسلمون يتزوجون المشركات ثم نسخ ذلك بهذه الآية فطلق عمر بن الخطاب حينئذ امرأتين له بمكة مشركتين قريبة بنت أبى أمية فتزوجها معاوية بن أبى سفيان وهما على شركهما بمكة وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية أم عبد الله بن المغيرة فتزوجها أبو جهم بن حذافة وهما على شركهما بمكة فلما ولى عمر قال أبو سفيان لمعاوية طلق قريبة فلا يرى عمر سلبه فى بيتك فأبى معاوية وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ففرق الاسلام بينهما ثم تزوجها فى الاسلام خالد بن سعيد بن العاص وكانت ممن فر الى النبى صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار فحبسها وزوجها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية وقال الشعبى كانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أبى العاص بن الربيع أسلمت ولحقت بالنبى صلى الله عليه وسلم وأقام أبو العاص بمكة مشركا ثم أتى المدينة وأسلم فردها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم روى أبو داود وعن عكرمة عن ابن عباس بالنكاح الاول ولم يحدث شيأ قال محمد بن عمرو فى حديث بعد ست سنين وقال الحسن بن على بعد سنتين قال أبو عمر فان صح هذا فلا يخلو من وجهين اما انها لم تحض حتى اسلم زوجها واما ان الامر فيها منسوخ بقوله تعالى وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك يعنى فى عدتهن وهذا مما لاخلاف فيه انه عنى به العدة قال الزهرى فى قصة زينب هذه كانت قبل أن تنزل الفرائض وقال قتادة كان هذا قبل ان تنزل سورة براءة بقطع العهود بينهم وبين المشركين *(تنبيه)* المراد بالكوافر هنا عبدة الاوثان ومن لا يجوز ابتداء نكاحها وقيل هى عامة نسخ منها نساء أهل الكتاب فعلى الاول اذا اسلم وثنى أو مجوسى ولم تسلم امرأته فرق بينهما وهو قول بعض أهل العلم منهم مالك والحسن وطاوس وعطاء وعكرمة وقتادة لقوله تعالى ولا تمسكوا بعصم الكوافر وقال بعضهم ينتظر بها تمام العدة وهو قول الزهرى والشافعى وأحمد واحتجوا بأن أبا سفيان بن الحرث أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته وكان اسلامه بمر الظهران ثم رجع الى مكة وهند بها كافرة مقيمة على كفرها فأخذت بلحيته وقالت اقتلوا الشيخ الضال ثم أسلمت بعده بأيام فاستقرا على نكاحهما لان عدتها لم تكن انقضت قالوا ومثله حكيم بن حزام أسلم قبل امرأته ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما قال الشافعى ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى بعصم الكوافر لان نساء المؤمنين محرمات على الكفار كان المسلمين لا تحل لهم الكوافر الوثنيات ولا المجوسيات لقوله تعالى

لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن ثم بينت السنة ان مراد الله تعالى من قوله هذا أنه لا يحل بعضهم لبعض الا ان أسلم الثانى منهما فى العدة وقال أبو حنيفة وأصحابه فى الكافرين الذميين اذا أسلمت المرأة عرض على الزوج الاسلام فان أسلم والا فرق بينهما قالوا ولو كانا حربيين فهى امرأته حتى تحيض ثلاث حيض اذا كانا جميعا فى دار الحرب أو فى دار الاسلام وان كان أحدهما فى دار الحرب والآخر فى دار الاسلام انقطعت العصمة بينهما وقد تقدم ان اعتبار الدار ليس بشئ وهذا الخلاف انما هو فى المدخول بها فأما غير المدخول بها فلا نعلم خلافا فى انقطاع العصمة بينهما اذ لا عدة عليها وكذا يقول مالك فى المرأة يرتد زوجها المسلم تنقطع العصمة بينهما لقوله تعالى ولا تمسكوا بعصم الكوافر وهو قول الحسن البصرى والحسن ابن صالح وقال الشافعى وأحمد ينتظر بها تمام العدة فان كان الزوجان نصرانيين فاسلمت الزوجة فمذهب مالك والشافعى وأحمد الى تمام العدة وهو قول مجاهد وكذا الوثنى تسلم زوجته ان أسلم فى عدتها فهو أحق بها كما ان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل أحق بزوجتيهما لما أسلما فى عدتهما ما ذكر مالك فى الموطأ قال بعض العلماء كان بين اسلام صفوان وبين اسلام امرأته نحو من شهر قال ولم يبلغنا ان امرأة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها كافر مقيم بدار الحرب الا فرقت هجرتها بينها وبين زوجها الا أن يقدم زوجها مهاجرا قبل ان تنقضى عدتها وقال بعضهم ينفسخ النكاح بينهما لما روى يزيد بن علقمة قال أسلم جدى ولم تسلم جدتى ففرق بينهما عمر وهو قول طاوس وعطاء والحسن وعكرمة قالوا لا سبيل له عليها الا بخطبة (واسألوا) أى أيها المؤمنون الذين ذهبت زوجاتهم الى الكفار مرتدات (ما أنفقتم) أى من مهور نسائكم (وليسألوا) أى الكفار (ما أنفقوا) أى من مهور أزواجهم اللاتى أسلمن قال المفسرون كان من ذهب من المسلمات مرتدات الى الكفار من اهل العهد يقال للكفار هاتوا مهرها ويقال للمسلمين اذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة ردوا الى الكفار مهرها وكان ذلك نصفا وعدلا بين الحالين (ذلكم) أى الحكم الذى ذكر فى هذه الآيات البعيد التعلق الرتبة عن كل سفيه (حكم الله) أى الملك الذى له صفات الكمال فلا تلحقه شائبة نقص (يحكم) أى الله اذ حكمه على سبيل المبالغة (بينكم) أى فى هذا الوقت وفى غيره على هذا المنهاج البديع وذلك لاجل الهدنة التى كانت وقعت بين النبى صلى الله عليه وسلم وبينهم وأما قبل الحديبية فكان النبى صلى الله عليه وسلم يمسك النساء ولا يرد الصداق (والله) أى الذى له الاحاطة التامة (عليم) أى بالغ العلم لا يخفى عليه شئ (حكيم) أى فهو لتمام علمه يحكم كل أموره غاية الاحكام فلا يستطيع أحد نقض شئ منها روى ان المسلمين قالوا رضينا بما حكم الله تعالى وكتبوا الى المشركين فامتنعوا فنزل قوله تعالى (وان فاتكم شئ من أزواجكم) أى واحدة فأكثر منهن أو شئ من مهورهن بالذهاب (الى الكفار مرتدات (فعاقبتم) فغزوتم وغنمتم من أموال الكفار بجاءت نوبة ظفركم بأداء المهر الى اخوانكم طاعة وعدلا عقب نوبتهم التى اقتطعوا فيها ما أنفقتم ظلما (فآتوا) أى فاحضروا

واعطوا من مهر المهاجرة (الذين ذهبت أزواجهم) أى منكم من الغنيمة (مثل ما أنفقوا) أى لفواته عليهم من جهة الكفار روى الزهرى عن عروة عن عائشة انها قالت حكم الله تعالى بينهم فقال جل ثناؤه واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا فكتب اليهم المسلمون قد حكم الله تعالى بيننا بانه ان جاءتكم امرأة منا أن توجهوا الينا صداقها وان جاءتنا امرأة منكم وجهنا اليكم بصداقها فكتبوا أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيأ فان كان لنا عندكم شئ فوجهوا به فأنزل الله تعالى وان فاتكم شئ من أزواجكم الآية وقال ابن عباس فى قوله تعالى ذلكم حكم الله أى بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة يرد بعضهم على بعض قال الزهرى ولولا العهد لامسك النساء ولم يرد عليهم صداقا وقال قتادة ومجاهد انما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفىء والغنيمة وقالا هى فيمن بيننا وبينه عهد وقالا معنى فعاقبتم فاقتصصتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل مثل ما أنفقوا أى من المهور وقال ابن عباس معنى الآية ان لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة وليس بينكم وبينهم عهد ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فاعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل ان تخمس وقال الزهرى يعطى من مال الفىء وعنه يعطى من صداق من لحق بها *(تنبيه)* محصل مذهب الشافعى فى هذه الآية ان الهدنة لو عقدت بشرط ان يردوا من جاءهم منا مرتدا صح ولزمهم الوفاء به سواء أكان رجلا أو امرأة حرا أو رقيقا فان امتنعوا من رده فناقضون للعهد لمخالفتهم الشرط أو عقدت على أن لا يردوه جاز ولو كان المرتد امرأة فلا يلزمهم رده لانه صلى الله عليه وسلم شرط ذلك فى مهادنة قريش حيث قال لسهل بن عمرو وقد جاء رسولا منهم من جاءنا منكم رددناه ومن جاءكم منا فسحقا سحقا ومثله مالو أطلق العقد كما فهم بالاولى ويغرمون فيهما مهر المرتدة (فان قيل) لم غرموا مهر المرتدة ولم نغرم نحن مهر المسلمة على ما تقدم من الخلاف (أجيب) بأنهم قد فوتوا عليه الاستتابة الواجبة علينا وأيضا المانع جاء من جهتها والزوج غير متمكن منها بخلاف المسلمة الزوج متمكن منها بالاسلام وكذا يغرمون قيمة رقيق ارتد دون الحر فان عاد الرقيق المرتد الينا بعد أخذنا قيمته رددناها عليهم بخلاف نظيره فى المهر لان الرقيق بدفع القيمة يصير ملكا لهم والنساء لا يصرن زوجات (فان قيل) كونه يصير ملكا لهم مبنى على جواز بيع المرتد للكافر والصحيح خلافه (أجيب) بأن هذا ليس مبنيا عليه لان هذا ليس بيعا حقيقة فاغتفر ذلك لاجل المصلحة وان شرطنا عدم الرد (فان قيل) هل يغرم الامام لزوج المرتدة ما أنفق من صداقها لانا بعقد الهدنة حلنا بينه وبينها ولولاه لقاتلناهم حتى يردوها (أجيب) بأن هذا ينبنى على ان الامام هل يغرم لزوج المسلمة المهاجرة ما أنفق وقد تقدم الكلام على ذلك *(فائدة)* روى عن ابن عباس انه قال لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبى سفيان وكانت تحت شداد بن عياض الفهرى وفاطمة بنت أبى أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان وعزة بنت عبد العزيز

ابن نضلة وزوجها عمرو بن عبد ود وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص ابن وائل وأم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر بن الخطاب رجعن عن الاسلام فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة ولما كان التحرى فى مثل ذلك عسرا فان المهور تتفاوت تارة وتتساوى أخرى قال تعالى (واتقوا) أى فى الاعطاء والمنع وغير ذلك (الله) الذى له صفات الكمال وقد أمركم بالتخلق بصفاته على قدر ما تطيقون (الذى أنتم به مؤمنون) أى متمكنون فى رتبة الايمان ولما خاطب المؤمنين الذين هم موضع الحماية والنصرة للدين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد الحكم بايمانهن بمبايعتهن بقوله تعالى (يا أيها النبى) مخاطبا له بالوصف المقتضى للعلم (اذا جاءك المؤمنات) جعل اقبالهن عليه صلى الله عليه وسلم لا سيما مع الهجرة مصححا لاطلاق الهجرة عليهن (يبايعنك على أن لا يشركن) أى كل واحدة منهن تبايعك على عدم الاشراك فى وقت من الاوقات (بالله) أى الملك الذى لا كفوء له (شيأ) أى من اشراك على الاطلاق (ولا يسرقن) أى يأخذن مال الغير بغير استحقاق فى خفية (ولا يزنين) أى يمكن أحدا من وطئهن بغير عقد صحيح (ولا يقتلن أولادهن) أى بالوأد كما كان يفعل فى الجاهلية من وأد البنات أى دفنهن احياء خوفا العار والفقر (ولا يأتين ببهتان) أى بولد ملقوط أو شبهة بأن (يفترينه) أى يتعمدن كذبه بأن ينسبنه للزوج ووصفه بصفة الولد الحقيقى بقوله تعالى (بين أيديهن) أى بالحمل فى البطون لان بطنها التى تحمل فيها الولد بين يديها (وأرجلهن) أى بالوضع من الفروج لان فرجها الذى تلد منه بين رجليها أو لان الولد اذا وضعته سقط بين يديها ورجليها وقيل بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة ومعنى بين أرجلهن فروجهن وقيل ما بين أيديهن من قبلة أو جسة وبين أرجلهن الجماع وروى ان هندا لما سمعت ذلك قالت والله ان البهتان لامر قبيح وما يأمر الا بالارشد ومكارم الاخلاق (ولا يعصينك) أى على حال من الاحوال (فى معروف) وهو ما وافق طاعة الله تعالى كترك النياحة وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيب وخمش الوجه (فبايعهن) أى التزم لهن بما وعدن على ذلك من اعطاء الثواب فى نظير ما الزمن أنفسهن من الطاعة فبايعهن صلى الله عليه وسلم بالقول ولم يصافح واحدة منهن قالت عائشة رضى الله عنها والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قط الا بما أمر الله عز وجل وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط وروى انها قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية أن لا يشركن بالله شيأ الى آخرها قالت وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة الا امرأة يملكها وقالت أميمة بنت رقيقة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة فقال فيما استطعتن أطعن فقلت رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحم بنا من أنفسنا وقلت يا رسول الله صافحنا فقال انى لا أصافح النساء انما قولى لامرأة كقولى لمائة امرأة وروى انه صلى الله عليه وسلم بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب وكان يشترط عليهن وقالت أم عطية لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الانصار فى بيت ثم أرسل الينا

عمر بن الخطاب فقام على الباب فسلم فرددن عليه السلام فقال أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكن أن لا تشركن بالله شيأ الآية فقلن نعم فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال اللهم اشهد وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه فغمسن أيديهن فيه وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بيعة الرجال يوم الفتح لمكة وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه وهو يبايع النساء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغهن عنه أن لا يشركن بالله شيأ وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة يوم أحد فقالت والله انك لتأخذ علينا أمرا ما رأيتك أخذته على الرجال وكان بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم ولا يسرقن فقالت هند ان أبا سفيان رجل شحيح واني أصيب من ماله قوتنا فلا أدري أيحل لي أم لا فقال أبو سفيان ما أصبت من شئ فيما مضى وما غبر فهو لك حلال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها وانك لهند بنت عتبة قالت نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك وروى انها قالت يا رسول الله ان أبا سفيان رجل مسيك فهل علي حرج ان أخذت ما يكفيني وولدي قال لا الا بالمعروف فخشيت هند ان تقتصر على ما يعطيها فتضيع أو تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أي لا حرج عليك فيما أخذت بالمعروف يعني من غير استطالة الى أكثر من الحاجة ثم قال ولا يزنين فقالت هند أوتزني الحرة فقال ولا يقتلن أولادهن أي بالوأد ولا يسقطن الاجنة فقالت هند ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا وأنت وهم أعلم وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن فقالت والله ان البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق فقال ولا يعصينك في معروف فقالت والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا ان نعصيك في شئ قال أكثر المفسرين معناه لا يلحقن بأزواجهن ولدا من غيرهن وكانت المرأة تلتقط ولدا تلحقه بزوجها وتقول هذا ولدي منك فكان هذا من البهتان والافتراء وهذا عام في الاتيان بولد والحاقه بالزوج وان سبق النهي عن الزنا *(تنبيه)* ذكر تعالى في هذه الآية لرسوله صلى الله عليه وسلم في صفة البيعة خصالا ستا صرح فيهن بأركان النهي ولم يذكر أركان الامر وهي ست أيضا الشهادة والزكاة والصلاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة وذلك لان النهي دائم في كل زمان وكل الاحوال فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد وقيل ان هذه المناهي كانت في النساء كثيرا من يرتكبها ولا يحجزهن عنها شرف النسب فخصت بالذكر لهذا ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت فنبههم على ترك المعصية في شرب الخمر دون سائر المعاصي لانها كانت شهوتهم وعادتهم واذا ترك المرء شهوته من المعاصي هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها ولما كان

الانسان محل النقصان لاسيما النسوان رجاهن سبحانه بقوله تعالى (واستغفر) أى اسأل (لهن الله) أى الملك الاعظم ذا الجلال والاكرام فى الغفران ان وقع منهن تقصير وهو واقع لانه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (غفور) أى بالغ الستر للذنوب عينا وأثرا (رحيم) أى بالغ الاكرام بعد الغفران تفضلا منه واحسانا وروى ان ناسا من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا) أى لا تعالجوا أنفسكم أن تولوا (قوما) أى ناسا لهم قوة على ما يحاولونه فغيرهم من باب أولى (غضب الله) أى أوقع الملك الأعلى الغضب (عليهم) لاقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا فهو عام فى كل من اتصف بذلك يتناول اليهود تناولا أوليا (قد يئسوا) أى تحققوا عدم الرجاء (من الآخرة) اى من ثوابها مع ايقانهم بها لعنادهم النبى صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه الرسول المبعوث فى التوراة (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) أى من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء وقيل من أصحاب القبور بيان للكفار أى كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة اذ تعرض عليهم مقاعدهم من الجنة لو كانوا آمنوا وما يصيرون اليه من النار فيتبين لهم قبح حالهم وسوء منقلبهم وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة حديث موضوع

﴿سورة الصف مدنية﴾

فى قول الاكثرين وذكر النحاس عن ابن عباس انها مكية وهى أربع عشرة آية ومائتان واحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف

(بسم الله) الملك الاعظم الذى لا كفء له (الرحمن) الذى عم بفضله كل أحد من خلقه (الرحيم) الذى خص من شاء من عباده فهيأه لعبادته وأهله (سبح لله) أى أوقع التنزيه الاعظم للملك الاعظم (ما فى السموات) من جميع الاشياء من الملائكة وغيرها كالافلاك والنجوم (وما فى الارض) كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار وقيل اللام مزيدة أى نزه الله وأتى بما دون من قال الجلال المحلى تغليبا للاكثر اه (فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى قال فى بعض السور سبح لله بلفظ الماضى وفى بعضها يسبح بلفظ المضارع وفى بعضها فسبح بلفظ الامر (أجيب) بأن الحكمة فى ذلك تعليم العبد ان يسبح الله تعالى على الدوام كما ان الماضى يدل عليه فى الماضى من الزمان والمستقبل يدل عليه فى المستقبل من الزمان والامر يدل عليه فى الحال (فان قيل) هلا قيل سبح لله السموات والارض وما فيهما وهو أكثر مبالغة (أجيب) بأن المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها وبالارض جهة السفل فيشمل الارض وما فيها (وهو) أى وحده (العزيز) أى الغالب على غيره أى شئ كان ذلك الغير ولا يمكن ان يغلب عليه غيره (الحكيم) أى الذى يضع الاشياء فى أتقن مواضعها وروى الدارمى

في مسنده قال أنبأنا محمد بن كثير عن الاوزاعي عن يحيي بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن
سلام قال قعدنا مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي
الاعمال أحب الى الله تعالى لعملناه فأنزل الله تعالى سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو
العزيز الحكيم (يا أيها الذين آمنوا) أي ادعوا الايمان (لم تقولون ما لا تفعلون) حتى ختمها قال
عبد الله فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها قال أبو سلمة قرأها علينا عبد الله بن
سلام حتى ختمها قال يحيي فقرأها علينا أبو سلمة فقرأها علينا أبو يحيي فقرأها علينا الاوزاعي
فقرأها علينا محمد فقرأها علينا الدارمي انتهى ولي بقراءتها سند متصل الى النبي صلى الله عليه وسلم
وقال عبد الله بن عباس قال عبد الله بن رواحة لو علمنا أحب الاعمال الى الله تعالى لعملناه فلما
نزل الجهاد كرهوه وقال الكلبي قال المؤمنون يارسول الله لو علمنا أحب الاعمال الى الله تعالى
لسارعنا اليه فنزل هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم فمكثوا زمانا يقولون لو نعلمها
لاشتريناها بالاموال والانفس والاهلين فدلهم الله تعالى عليها بقوله تعالى تؤمنون بالله ورسوله
وتجاهدون في سبيل الله الآية فابتلوا يوم أحد ففروا فنزلت هذه الآية تعييرا لهم بترك الوفاء
وقال محمد بن كعب لما أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بدر قالت الصحابة اللهم
اشهد لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فعيرهم الله تعالى بذلك وقال قتادة
والضحاك نزلت في قوم كانوا يقولون نحن جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا وقيل قد آذى المسلمين رجل
ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر فقال عمر لصهيب اخبر النبي صلى الله عليه وسلم انك
قتلته فقال انما قتلته لله ولرسوله فقال عمر يارسول الله قتله صهيب قال كذلك يا أبا يحيي قال نعم
فنزلت في المنتحل وقال ابن زيد نزلت في المنافقين ونداؤهم بالايمان تهكم بهم وبايمانهم وكانوا
يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ان خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا فلما خرجوا
نكصوا عنهم وتخلفوا وقال القرطبي هذه الآية توجب على كل من الزم نفسه عملا فيه طاعة ان
يفي به وفي صحيح مسلم عن أبي موسى أنه بعث الى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرؤا
القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الامد فتقسو قلوبكم
كما قست قلوب من قبلكم وانا كنا نقرأ سورة فشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني قد
حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب
وكنا نقرأ سورة فشبهها باحدى المسبحات فأنسيتها غير اني حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لم تقولون
ما لا تفعلون فلبثت شهادة في أعناقكم فتسئلون عنها يوم القيامة قال ابن العربي وهذا كله ثابت
في الدين لفظا ومعنى في هذه السورة وأما قوله شهادة في أعناقكم فتسئلون عنها يوم القيامة فمعنى
ذلك ثابت في الدين فان من التزم شيأ لزمه شرعا وقال القرطبي ثلاث آيات منعتني ان أقضي على
الناس أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ويا أيها
الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت
ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت قلت من هؤلاء

يا جبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرؤن كتاب الله ولا يعملون به

(تنبيه) قوله تعالى لم تقولون ما لا تفعلون استفهام على وجه الانكار والتوبيخ على ان يقول الانسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله اما في الماضي فيكون كذبا واما في المستقبل فيكون خلفا وكلاهما مذموم قال الزمخشري لم هي لام الاضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك بم وفيم ومم وعم والام وعلام وانما حذفت الالف لان ما والحرف كشئ واحد ووقع استعمالهما كثيرا في كلام المستفهم وقد جاء استعمال الاصل قليلا والوقف على زيادة هاء السكت أو الاسكان ومن أسكن في الوصل فلاجرائه مجرى الوقف كما سمع ثلاثه أربعه بالهاء والقاء حركة الهمزة عليها محذوفة اهـ ووقف البزي لمه بهاء السكت بخلاف عنه (كبر) أي عظم وقوله تعالى (مقتا) تمييز والمقت أشد البغض وزاد في تشنيعه زيادة في التنفير منه بقوله تعالى (عند الله) أي الملك الاعظم الذي يحقر عنده كل متعاظم وقيل ان كبر من أمثلة التعجب وقد عده ابن عصفور في التعجب المبوب له في النحو فقال صيغة ما أفعله وأفعل به وفعل نحو كرم الرجل واليه نحا الزمخشري فقال هذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه قصد في كبر التعجب من غير لفظه كقوله *غلت ناب كليب بواؤها* ومعنى التعجب تعظيم الامر في قلوب السامعين لان التعجب لا يكون الا من شئ خارج عن نظائره وأشكاله وقوله تعالى (ان تقولوا) أي عظم من تلك الجهة ان يقع في وقت من الاوقات أو حال من الاحوال قولكم (ما لا تفعلون) فاعل كبر قال الرازي وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو ان في السورة التي قبلها بين الخروج الى الجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله تعالى ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي وفي هذه السورة بين ما يحمل المؤمن ويحثه على الجهاد بقوله تعالى (ان الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (يحب) أي يفعل فعل المحب مع (الذين يقاتلون) أي يوقعون القتال (في سبيله) أي بسبب تسهيل طريقه الموصلة الى رضاه وقوله تعالى (صفا) حال أي مصطفين حتى كأنهم في اتحاد المراد على قلب واحد كما كانوا في التساوي في الاصطفاف كالبدن الواحد (كأنهم) من شدة التراص والمساواة بالعدو ورد المناكب والثبات في المركز (بنيان) وزاد في التأكيد بقوله تعالى (مرصوص) اي ملزوق بعض الى بعض ثابت كثبوت البناء وقال ابن عباس يوضع الحجر على الحجر ثم يرص باحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه فيسميه أهل مكة المرصوص وقال الرازي يجوز أن يكون المعنى على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص قال القرطبي استدل بعضهم بهذه الآية على ان قتال الراجل أفضل من قتال الفارس لان الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة قال المهدوي وذلك غير مستقيم لما جاء في فضل الفارس من الاجر والغنيمة ولا يخرج الفرسان من معنى الآية لان معناها الثبات ولهذا يحرم الخروج من الصف ان قاومناهم الا متحرفا لقتال كمن ينصرف ليكمن في موضع ويهجم أو ينصرف من مضيق ليتبعه العدو الى متسع سهل للقتال أو متحيزا الى فئة يستنجد بها ولو بعيدة قليلة أو كثيرة فيجوز انصرافه لقوله تعالى الا متحرفا

لقتال وتجوز المبارزة لكافر لم يطلبها بلا كره وندب لقوي أذن له الامام أو نائبه لاقراره صلى الله عليه وسلم عليها وهي ظهور اثنين من الصفين للقتال من البروز وهو الظهور فان طلبها كافر سنت للقوي المأذون له للامر بها في خبر أبي داود ولان في تركها حينئذ اضعافا لنا وتقوية لهم والا كرهت * ولما ذكر تعالى الجهاد ذكر قصة موسى وعيسى عليهما السلام تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذى قومه مبتدئا بقصة موسى عليه السلام لتقدمه فقال تعالى (واذ) أي واذكر يا أشرف الخلق اذ (قال موسى لقومه) أي بني اسرائيل وقوله (يا قوم) استعطاف لهم واستنهاض الى رضا ربهم (لم تؤذونني) أي تجددون أذاي مع الاستمرار وذلك حين رموه بالادرة كما مر في سورة الاحزاب ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون أنه دس الى امرأة تدعي على موسى الفجور ومن الأذى قولهم اجعل لنا الها كما لهم آلهة وقولهم فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون وقولهم أنت قتلت هرون وغير ذلك وقوله تعالى (وقد تعلمون) جملة حالية أي علمتم علما قاطعا مع تجدده لكم كل وقت بتجدد أسبابه بما أتيتكم به من المعجزات والكتاب الحافظ لكم من الزيغ (اني رسول الله) الملك الاعظم الذي لا كفؤ له (اليكم) ورسوله يعظم ويحترم لأنه تنتهك جلالته وتحترم وأنا لا أقول لكم شيأ الا عنه ولا أنطق عن الهوى (فلما زاغوا) أي عدلوا عن الحق بمخالفة أوامر الله تعالى وبايذائه وقرأ حمزة بالامالة والباقون بالفتح (أزاغ الله) أي الملك الذي له الامر كله (قلوبهم) أي أمالها عن الهدى على وفق ما قدره في الازل (والله) أي الذي له الحكمة البالغة لانه المستجمع لصفات الكمال (لا يهدي) أي بالتوفيق بعد هداية البيان (القوم الفاسقين) أي العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة فلم يحملهم على الفسق ضعف فاحذروا ان تكونوا مثالهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم وهذا تنبيه على عظم ايذاء الرسل حتى ان اذاهم يؤدي الى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ثم ذكر القصة الثانية بقوله تعالى (واذ) أي واذكر يا أشرف المرسلين اذ (قال عيسى) ووصفه بقوله (ابن مريم) ليعلم أنه من غير أب وثبتت نبوته بالمعجزات (يا بني اسرائيل) فذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما أوصى به بنيه من التمسك بالاسلام ولم يقل يا قوم كما قال موسى عليه السلام لانه لا أب له فيهم وان كانت أمه منهم فان النسب انما هو من جهة الاب وأكد لانكار بعضهم فقال (اني رسول الله) أي الملك الاعظم (اليكم) أي لا الى غيركم (مصدقا لما بين يدي) أي قبلي (من التوراة) التي تعلمون ان الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام وهي أول الكتب التي نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون فتصديقي لها مع تأييدي بها مؤيد لان من الدلائل حق ومبين انها دليلي فيما لم أنسخه منها كما يستدل بما قدامه من الاعلام فيبصره وقرأ ابو عمرو وابن ذكوان والكسائي بالامالة محضة وقرأ حمزة ونافع بين بين عنه عن قالون والباقون بالفتح (ومبشرا) في حال تصديقي للتوراة (برسول) أي الى جملته الربوبية (يأتي من بعدي) أي يصدق بالتوراة فكأنه قيل ما اسمه قال (اسمه) المعنى أرسلت اليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة وفي حال تبشيري برسول

يأتي من بعدي يعني ان دين التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر (فان قيل) بم انتصب مصدقا ومبشرا أبما في الرسول من معنى الارسال أم بالبكم (أجيب) بأنه بمعنى الارسال لان البكم صلة للرسول فلا يجوز ان يعمل شيأ لان حروف الجر لا تعمل بانفسها ولكن بما فيها من معنى الفعل فاذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل وعن كعب ان الحواريين قالوا لعيسى يارسول الله هل بعدنا من أمة قال نعم أمة احمد حكماء علماء ابرار أتقياء كانهم من الفقه انبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل وعن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة اسماء انا محمد وانا احمد وانا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وانا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وانا العاقب الذي ليس بعدي نبي وقد سماه الله تعالى رؤفا رحيما وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اسمي في التوراة احيد لاني أحيد امتي عن النار واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الاوثان واسمي في الانجيل احمد وفي القرآن محمد لاني محمود في اهل السماء والارض بل ذكر بعض العلماء أنه له الف اسم قال البغوي والالف في احمد للمبالغة في الحمد وله وجهان احدهما انه مبالغة من الفاعل اي ومعناه ان الانبياء حمادون لله تعالى وهو اكثر حمدا من غيره والثاني أنه مبالغة من المفعول اي ومعناه ان الانبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو اكثر مبالغة واجمع للفضائل والمحاسن والاخلاق التي يحمد بها اه وعلى كلا الوجهين منعه من الصرف للعلمية والوزن الغالب الا انه على الاحتمال الاول يمتنع معرفة وينصرف نكرة وعلى الثاني يمتنع تعريفا وتنكيرا لانه يخلف العلمية الصفة واذا نكر بعد كونه علما جرى فيه خلاف سيبويه والاخفش وهي مسئلة مشهورة بين النحاة وأنشد حسان يمدحه وصرفه

صلى الاله ومن يحف بعرشه * والطيبون على المبارك أحمد

أحمد بدل أو بيان للمبارك وأما محمد فمنقول من صفة أيضا وهو في معنى محمود ولكن في معنى المبالغة والتكرار فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة قال القرطبي كما ان المكرم من اكرم مرة بعد مرة وكذلك الممدح ونحو ذلك واسم محمد مطابق لمعناه والله سبحانه وتعالى سماه قبل ان يسمي به نفسه فهذا علم من اعلام نبوته وكان اسمه صادقا عليه فهو محمود في الدنيا لما هدى اليه ونفع به من العلم والحكمة وهو محمود في الآخرة بالشفاعة فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ ثم انه لم يكن محمدا حتى كان أحمد حمد ربه فنبأه وشرفه فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد فذكره عيسى فقال اسمه أحمد وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه تلك أمة أحمد فقال اللهم اجعلني من أمة محمد فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد لان حمده لربه كان قبل حمد الناس له فلما وجد وبعث كان محمدا بالفعل وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته فدل ذلك على انه صلى الله عليه وسلم أشرف الانبياء فاتحا لهم وخاتما عليهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الياء والباقون بالسكون وقوله تعالى (فلما جاءهم) يحتمل ان يعود فيه الضمير لاحمد أي جاء الكفار واقتصر على ذلك الجلال المحلي

ويحتمل عوده لعيسى أى جاء لبنى اسرائيل (بالبينات) اى من المعجزات العظيمة التى لا يسوغ لعاقل الا التسليم لها ومن الكتاب المبين (قالوا) اى عند مجيئهم امن غير نظرة لتأمل (هذا) اى الماتى به من البينات أو الآتى بها على المبالغة (سحر) فكانوا أول كافر به لان هذا وصف لهم لازم سواء بلغهم ذلك أم لا (مبين) اى فى غاية البيان فى سحريته وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء وهذه القراءة مناسبة للتفسير الثانى والباقون بكسر السين وسكون الحاء وهذه مناسبة للتفسير الاول (ومن) اى لا احد (أظلم) أى أشد ظلما (ممن افترى) أى تعمد (على الله) أى الملك الاعلى (الكذب) أى بنسبة الشريك والولد اليه ووصف آياته بالسحر ووصف أنبيائه بالسحرة (وهو) أى والحال أنه (يدعى) أى من أى داع كان (الى الاسلام) اى الذى هو أحسن الاشياء فان له فيه سعادة الدارين فيجعل مكان اجابته افتراء الكذب على الله تعالى (والله) أى الذى له الامر كله فلا أمر لاحد معه (لا يهدى القوم) أى لا يخلق الهداية فى قلوب من فيهم قوة المجادلة للامور الصعاب (الظالمين) أى الذين يخبطون فى عقولهم خبط من هو فى الظلام (يريدون) أى يوقعون ارادة ردهم للرسالة بافترائهم (ليطفئوا) اى لاجل أن يطفئوا (نور الله) أى الملك الذى لا شئ يكافئه (بأفواههم) أى بما يقولون من كذب لا منشأ له غير الافواه لانه لا اعتقاد له فى القلوب *(تنبيه)* الاطفاء هو الاخماد يستعملان فى النار وفيما يجرى مجراها من الضياء والظهور ويفرق بين الاطفاء والاخماد من حيث ان الاطفاء يستعمل فى القليل فيقال أطفأت السراج ولا يقال أخمدت السراج وفى هذه اللام أوجه أحدها أنها تعليلية كما مر ثانيها أنها مزيدة فى مفعول الارادة وقال الزمخشرى أصله يريدون ان يطفئوا كما فى سورة التوبة وكان هذه اللام زيدت مع فعل الارادة توكيدا له لما فيها من معنى الارادة فى قولك جئتك لا كرامك كما زيدت اللام فى لا أب لك تأكيدا لمعنى الاضافة فى لا أباك قال الماوردى وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحى أربعين يوما فقال كعب بن الاشرف يا معشر يهود أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه وما كان ليتم امره فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحى بعدها واختلف فى المراد بالنور فقال ابن عباس هو القرآن أى يريدون ابطاله وتكذيبه بالقول وقال السدى الاسلام أى يريدون دفعه بالكلام وقال الضحاك انه محمد صلى الله عليه وسلم أى يريدون هلاكه بالاراجيف وقال ابن جريج حجج الله تعالى ودلائله يريدون ابطالها بانكارهم وتكذيبهم وقيل انه مثل مضروب أى من أراد اطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا ممتنعا كذلك من أراد اطفاء الحق (والله) أى الذى لا مدافع له لتمام عظمته (متم نوره) فلا يضره ستر أحد له بتكذيبه ولا ارادة اطفائه وزاد ذلك بقوله تعالى (ولو كره) اى اتمامه له (الكافرون) اى الراسخون فى جهة الكفر المجتهدون فى المحاماة عنه (هو) اى الذى ثبت أنه جامع لصفات الكمال والجلال وحده من غير ان يكون له شريك أو وزير (الذى أرسل رسوله) اى الحقيق

بان يعظمه كل من بلغه أمره لان عظمته من عظمته ولم يذكر حرف الغاية اشارة الى عموم
الارسال الى كل من شمله الملك كما مضى (بالهدى) اى البيان الشافى بالقرآن او المعجزة (ودين
الحق) أى والملة الحنيفية (ليظهره) أى يعليه مع الشهرة واذلال المنازع (على الدين) اى
جنس الشريعة التى ستجعل ليجازى من يسلكها ومن يزغ عنها بما يشرع فيها من الاحكام
(كله) فلا يبقى دين الا كان دونه والتحق به وذل أهله ذلا لا يقاس به ذل (ولو كره) اى اظهاره
(المشركون) أى المعاندون فى كفرهم الراسخون فى سلك المعاندة (فان قيل) قال أولا ولو كره
الكافرون وقال ثانيا ولو كره المشركون فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأنه تعالى أرسل رسوله
وهو من نعم الله تعالى والكافرون كلهم فى كفران النعم سواء فلهذا قال ولو كره الكافرون لان لفظ
الكافر أعم من لفظ المشرك فالمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون فلفظ
الكافر اليق به وأما قوله تعالى ولو كره المشركون فذلك عند انكارهم التوحيد واصرارهم عليه
لانه صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا اله الا الله فلم يقولوها فلهذا قال ولو كره
المشركون واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى اقروا بالايمان (هل
أدلكم) أى وأنا المحيط علما وقدرة فهى ايجاب فى المعنى ذكر بلفظ الاستفهام تشريفا ليكون
أوقع فى النفس (على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) أى مؤلم فقال مقاتل نزلت فى عثمان بن
مظعون قال يارسول الله لو أذنت لى طلقت خولة وترهبت واختصيت وحرمت اللحم ولا أنام
بليل أبدا ولا أفطر بنهار أبدا فقال صلى الله عليه وسلم ان من سنتى النكاح ولا رهبانية فى الاسلام
انما رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله وخصاء أمتى الصوم ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم
ومن سنتى أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتى فليس منى فقال عثمان والله لوددت
يارسول الله أى التجارة أحب الى الله تعالى فأتجر فيها فنزلت. وقيل أدلكم أى سأدلكم والتجارة
الجهاد قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم الآية وهذا خطاب لجميع
المؤمنين وقيل نزل هذا حين قالوا لو نعلم أى الاعمال أحب الى الله تعالى لعملنا به قال البغوى
ويجعل هذا بمنزلة التجارة لانهم يربحون بها رضا الله تعالى ونيل جنته والنجاة من النار وقرأ ابن
عامر بفتح النون وتشديد الجيم والباقون بسكون النون وتخفيف الجيم ثم بين سبحانه تلك
التجارة بقوله تعالى (تؤمنون) أى تدومون على الايمان (بالله) أى الذى له جميع صفات
الكمال وعلى هذا فلا ينافى ذلك قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا وقيل المراد من هذه الآية
المنافقون وهم الذين آمنوا فى الظاهر وقيل أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فانهم آمنوا
بالكتب المتقدمة (ورسوله) الذى تصديقه آية الاذعان للعبودية (وتجاهدون) بيانا لصحة
ايمانكم على سبيل التجديد والاستمرار (فى سبيل الله) أى الملك الاعظم الذى لا أمر لغيره
(بأموالكم وأنفسكم) وقدم الاموال لعزتها فى ذلك الزمان ولانها قوام الانفس فمن بذل ماله
كله لم يبخل بنفسه لان المال قوامها وقال القرطبى ذكر الاموال أولا لانها التى يبدأ بها
فى الانفاق (ذلكم) أى الامر العظيم من الايمان وتصديقه بالجهاد (خير لكم) اى من أموالكم

وانفسكم

وأنفسكم (ان كنتم تعلمون) أى ان كان يمكن ان يتجدد لكم علم فى وقت فأنتم تعلمون ان ذلك خير لكم فاذا علمتم أنه خير أقبلتم عليه فكان لكم به أمر عظيم وان كانت قلوبكم قد طمست طمس الارجاء لصلاحه فصلوا على أنفسكم صلاة الموت وقوله تعالى (يغفر لكم) فيه أوجه أحدها أنه مجزوم على جواب الخبر بمعنى الامر أى آمنوا وجاهدوا والثانى أنه مجزوم فى جواب الاستفهام كما قاله الفراء والثالث أنه مجزوم بشرط مقدر أى ان تؤمنوا يغفر لكم قال القرطبى وأدغم بعضهم فقرأ يغفر لكم والاحسن ترك الادغام لان الراء متكرر قوى فلا يحسن الادغام فى اللام لان الاقوى لا يدغم فى الاضعف اه وتقدم فى آخر سورة البقرة مثل ذلك للزمخشرى والبيضاوى ورد عليهما (ذنوبكم) أى يمحو أعيانها وآثارها كلها (ويدخلكم) أى بعد التزكية بالمغفرة رحمة لكم (جنات) أى بساتين (تجرى من تحتها) أى من تحت أشجارها وغرفها وكل متنزه فيها (الانهار) فهى لا تزال غضة زهراء ولم يحتج هذا الاسلوب الى ذكر الخلود لاغناء ما بعده عنه ودل على الكثرة المفرطة فى الدور بقوله فى صيغة منتهى الجموع (ومساكن طيبة) روى الحسن قال سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن قوله تعالى ومساكن طيبة فقالا على الخبير سقطت سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال قصر من لؤلؤة فى الجنة فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا فى كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام فى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى الله تعالى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك كله (فى جنات عدن) أى بساتين هى أهل للاقامة بها لا يحتاج فى اصلاحها الى شئ خارج يحتاج فى تحصيله الى الخروج عنها قال حمزة الكرمانى فى كتابه جوامع التفسير هى أى جنات عدن قصبة الجنان ومدينة الجنة أقربها الى العرش (ذلك) أى الامر العظيم جدا (الفوز العظيم) أى السعادة الدائمة الكبيرة وأصل الفوز الظفر بالمطلوب * ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم فى الآخرة بشرهم بنعمة فى الدنيا بقوله تعالى (وأخرى تحبونها) أى ولكم الى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة وفى تحبونها تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل وقوله تعالى (نصر من الله) أى الذى أحاطت عظمته بكل شئ خبر مبتدأ مضمر أى تلك النعمة أو الخصلة الاخرى نصر من الله (وفتح قريب) أى غنيمة فى عاجل الدنيا قيل فتح مكة قال الكلبى هو النصر على قريش وقال ابن عباس يريد فتح فارس والروم وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على محذوف مثل قل يا أيها الذين آمنوا وبشر أو على يؤمنون فانه فى معنى الامر كأنه قال آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم يا أشرف الرسل بالنصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بذلك (كونوا) أى بغاية جهدكم (أنصار الله) أى لدينه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأنصارا بالتنوين وجر اللام من الاسم الجليل وترقيقها والباقون بغير تنوين وتفخيم اللام (كما) أى كونوا الاجل انى ندبتكم أنا بقولى من غير واسطة ولذ تكم بخطابى مثل ما كان الحواريون أنصار الله حين (قال

عيسى بن مريم) حين أرسله الى بنى اسرائيل ناسخا الشرع بعد موسى عليه السلام (للحواريين) أى خلص أصحابه وخاصته منهم (من أنصارى الى الله) أى المحيط بكل شئ أى انصروا دين الله تعالى مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى عليه السلام من أنصارى الى الله أى من ينصرنى مع الله تعالى (قال الحواريون) معلمين انهم جادون فى ذلك جد الامر بدعليه لعلمهم أن اجابته اجابة الله تعالى لانه لا ينطق عن الهوى فليس كلامه الاعن الله تعالى (نحن) أى بأجمعنا وكانوا اثنى عشر رجلا وهم أول من آمن بعيسى (أنصار الله) أى الملك الاعلى القادر على تمام نصرنا لو كان عدونا كل أهل الارض * ولما كان التقدير ثم دعوا كل من خالفهم من بنى اسرائيل وبارزهم تسبب عنه قوله تعالى (فآمنت) أى به (طائفة) أى ناس منهم أهل الاستدارة لما لهم من الكثرة (من بنى اسرائيل) قومه (وكفرت طائفة) أى منهم وأصل الطائفة القطعة من الشئ وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه اليه وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه اليه وهم المؤمنون واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى (فأيدنا) أى قوينا بعد رفع عيسى عليه السلام (الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان الخالص (على عدوهم) أى الذين عادوهم لاجل ايمانهم (فأصبحوا) أى صاروا بعدما كانوا فيه من الذل (ظاهرين) أى عالين غالبين قاهرين فى أقوالهم وأفعالهم لايخافون أحدا ولايستخفون منه وروى المغيرة عن ابراهيم قال فأصبحت حجة من آمن بعيسى عليه السلام ظاهرة بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام كلمة الله وعبده ورسوله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له مادام فى الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه حديث موضوع

(سورة الجمعة مدنية)

وهى احدى عشرة آية ومائة وثمانون كلمة وسبعمائة وعشرون حرفا

روى مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة الا فى يوم الجمعة وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب الاول من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله تعالى لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه هدانا الله له وقال يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى (بسم الله) الذى أحاط علمه بكل معلوم فتم بيانه (الرحمن) الذى تمت نعمة بيانه فهو العظيم شأنه (الرحيم) الذى خص حزبه بالتوفيق فثبت عندهم حبه وايمانه (يسبح) أى يوقع التنزيه الاعظم الانهى الاكمل (لله) أى الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما (مافى السموات) أى من جميع الاشياء من الملائكة وغيرها كالافلاك والنجوم (ومافى الارض)

كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار وقيل اللام مزيدة أي ينزه الله وأتى بما دون من
قال الجلال المحلى تغليبا للاكثر يحتمل أن يكون المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء ومافيها
وبالارض جهة السفل فيشمل الارض ومافيها (الملك) أى الذى ثبت له جميع الكمالات فهو
ينصر من يشاء من جنده ولو كان ذليلا فيصبح ظاهرا (القدوس) أى المنزه عما لا يليق به وعن
احاطة أحد من الخلق بعلمه وادراك كنه ذاته فليس فى أيدى الخلق الا التردد فى شهود افعاله
والتدبر لمفاهيم نعوته وجلاله وأحقهم بالقرب والعداد فى حزبه المتخلق بأوصافه على قدر
اجتهاده فينبغى للمؤمن التنزه عن ان يقول مالا يفعل أو يبنى شيأ من أموره على غير احكام
(العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى يوقع كل ما أراد فى أحكم
مواقعه وأتمها واتقنها (هو) أى وحده (الذى بعث فى الاميين) أى العرب لان أكثرهم
لا يكتبون ولا يقرؤن والامى من لا يقرأ ولا يكتب (رسولا منهم) أى من جملتهم أميا مثلهم وهو
محمد صلى الله عليه وسلم ومامن حى من العرب الا وله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة وقد ولدوه قال
ابن اسحق الا بنى تغلب فان الله تعالى طهر نبيه صلى الله عليه وسلم منهم فلم يجعل لهم عليه ولادة
وكان أميا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم صلى الله عليه وسلم علمه الله مالم يكن يعلم من غير تطاب
فكانت آثار البشرية عنه مندرسة وأنوار الحقائق عليه لائحة وذلك لئلا يتوهم الافتقار الى
الاستعانة بالكتب لان مشاكلته لحال من بعث فيهم أقرب الى مساواتهم له لو أمكنهم فيكون
معنى عدم امكان المساواة أدل على الاعجاز وبعثه الى العرب لا ينفى بعثه الى غيرهم لاسيما مع
ماورد فيه من صرائح الدلائل القطعية فذكر موضع البعث وابتداءه فتكون الغاية مطلقة
تقديرها الى عامة الخلق (يتلو) أى يقرأ قراءة يتبع بعضها بعضا على وجه الكثرة والعلو
والرفعة (عليهم) مع كونه أميا مثلهم (آياته) أى يأتيهم بها على سبيل التجدد والمواصلة وهى
القرآن الذى أعجز الجن والانس ان يأتوا بسورة من مثله (ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك
والاخلاق الرذيلة والعقائد الزائغة فكانت تزكيته لهم مدة حياته بنظره الشريف اليهم
وتعليمه لهم وتلاوته عليهم فربما نظر الى الانسان نظرة محبة فزكاه الله تعالى بها بحسب
القابليات والامور التى قضى الله تعالى أن تكون مهيآت فكان له أعشق فكان لاتباعه ألزم
فكان فى كتاب الله وسنته أرسخ (ويعلمهم الكتاب) أى القران المنزل عليه الجامع لكل خير
دينى ودنيوى فى الاولى والاخرى (والحكمة) وهى غاية الحكم للكتاب فى قوة فهمه والعمل
به فهى العمل المزين بالعلم المتقن به وقال الحسن الكتاب القرآن والحكمة السنة وقال ابن
عباس الكتاب الخط بالقلم والحكمة السنة لان الخط انما فشا فى العرب بالشرع لما أمروا
بالتقييد بالخط وقال مالك بن أنس الحكمة الفقه فى الدين (وان) أى والحال أنهم (كانوا)
أى كونا هو كالجبلة لهم (من قبل) أى قبل ارساله اليهم (لفى ضلال) أى بعد عن
المقصود (مبين) أى ظاهر فى نفسه منادلغيره انه ضلال باعتقادهم الاباطيل الظاهرة وظنهم
انهم على شئ وعموم الجهل لهم ورضاهم به واختيارهم له وقوله تعالى (وآخرين منهم) فيه

وجهان أحدهما انه مجرور عطفا على الاميين أى وبعث فى الآخرين من الأميين أى الموجودين والآتين منهم بعدهم (لما) أى لم (يلحقوا بهم) فى السابقة والفضل والثانى انه منصوب عطفا على الضمير المنصوب فى يعلمهم أى ويعلم آخرين لما يلحقوا بهم وسيلحقون وكل من تعلم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى آخر الزمان فرسول الله صلى الله عليه وسلم معلمه بالقوة لانه أصل ذلك الخير العظيم والفضل الجسيم * (تنبيه) * الذين لم يلحقوا بهم هم الذين لم يكونوا فى زمنهم وسيجيئون بعدهم قال ابن عمر وسعيد بن جبير هم العجم وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ نزلت عليه سورة الجمعة فلما قرأ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال رجل من هؤلاء يا رسول الله فلم يراجعه النبى صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثا قال وفينا سلمان الفارسى قال فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال لو كان الايمان عند الثريا لتناوله رجل من هؤلاء وفى رواية لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجال من فارس أو قال من أبناء فارس حتى تتناوله وقال عكرمة هم التابعون وقال مجاهد هم الناس كلهم يعنى من بعد العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن زيد ومقاتل بن حبان هم من دخل فى الاسلام بعد النبى صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وروى سهل بن سعد الساعدى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى أصلاب أمتى رجالا ونساء يدخلون الجنة بغير حساب ثم تلا وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال ابن عادل والقول الاول أثبت وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال رأيتنى أسقى غنما سودا ثم اتبعتها غنما عفرا أولها يا أبا بكر قال يا نبى الله أما السود فالعرب وأما العفر فالعجم تتبعك بعد العرب فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذلك أولها الملك يعنى جبريل عليه الصلاة والسلام رواه ابن أبى ليلى عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه (وهو) أى والحال انه وحده (العزيز) أى الذى يقدر على كل ما أراده ولا يغلبه شئ فهو يزكى من يشاء ويعلمه ما أراد من أى طائفة كان ولو كان أجهل أهل تلك الطائفة لان الاشياء كلها بيده (الحكيم) فهو اذا أراد شيأ موافقا شرعه وأمره جعله على أتقن الوجوه وأوثقها فلا يستطاع نقضه ومهما أراده كيف كان فلا بد من انفاذه فلا يطاق رده بوجه * ولما كان هذا أمرا باهرا عظمه بقوله تعالى على وجه الاستثمار من قدرته (ذلك) الامر العظيم الرتبة من تفضيل الرسول وقومه وجعلهم متبوعين بعد أن كان العرب اتباعا لا وزن لهم عند غيرهم من الطوائف (فضل الله) أى الذى له جميع صفات الكمال والفضل ما لم يكن مستحقا بخلاف الفرض (يؤتيه من يشاء) قال ابن عباس حيث ألحق العجم بقريش وقال الكلبى يعنى الاسلام فضل الله يؤتيه من يشاء وقال مقاتل يعنى الوحى والنبوة وقيل انه المال ينفق فى الطاعة لما روى أبو صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه ان فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال وما ذاك فقالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

أفلا أعلمكم شيأ تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم الا من صنع مثل ماصنعتم قالوا بلى يارسول الله قال تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة قال أبو صالح فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع اخواننا من أهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقيل انه انقياد الناس الى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم ودخولهم فى دينه ونصرته (والله) الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما (ذو الفضل العظيم) ولما ترك اليهود العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة) أى كلفوا والزموا حمل الكتاب الذى آتاه الله تعالى لبنى اسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام بأن علمهم اياها سبحانه وكلفهم حفظ ألفاظها عن التغيير والنسيان ومعانيها عن التحريف والتلبيس وحدودها وأحكامها عن الاهمال والتضييع (ثم لم يحملوها) أى بأن حملوا ألفاظها ولم يعملوا بما فيها من الوصية باتباع عيسى عليه الصلاة والسلام اذا جاءهم ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم اذا جاء فهى ضارة لهم بشهادتها عليهم فاذا ابهم النار من غير نفع أصلا (كمثل) أى مثل مثل (الحمار) أى الذى هو أبلد الحيوان فهو مثل فى الغباوة حال كونه (يحمل أسفارا) أى كتبا كبارا من كتب العلم جمع سفر وهو الكتاب الكبير المسفر عما فيه فى عدم الانتفاع بها لانه يمشى ولا يدرى منها الا ما يضر بجنبيه وظهره من الكد والتعب وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ومثل ذلك قول الشاعر

زوامل للاسفار لا علم عندهم * بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدرى البعير اذا غدا * باحماله أو راح ما فى الغرائر

من انشاد الشيخ ابن الخباز (بئس مثل القوم) أى الذين لهم قوة شديدة على محاولة ما يريدون (الذين كذبوا) أى عمدا على علم (بآيات الله) أى دلالات الملك الاعظم على رسله ولاسيما محمد صلى الله عليه وسلم والمخصوص بالذم محذوف تقديره هذا المثل (والله) أى الذى له جميع صفات الكمال (لا يهدى القوم) أى لا يخلق الهداية فى قلوب الذين تعمدوا الزيغ (الظالمين) أى الذين تعمدوا الظلم بمنابذة الهدى الذى هو البيان الذى لم يدع لبسا حتى صار الظلم لهم صفة راسخة * ولما ادعت اليهود الفضيلة وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه نزل قوله تعالى (قل) أى يا أشرف الرسل (يا أيها الذين هادوا) أى تدينوا باليهودية (ان زعمتم) أى قلتم قولا هو معرض للتكذيب ولذلك أكذبتموه (انكم أولياء لله) أى الملك الاعلى الذى لا أمر لاحد معه خصكم بذلك خصوصية مبتدأة (من دون) أى أدنى رتبة من رتب (الناس) فلم تنفذ الولاية وتلك الرتبة فى الدنيا الى أحد منهم غيركم بل خصكم بذلك عن كل من فيه أهلية الحركة لاسيما الاميين (فتمنوا الموت) وأخبروا عن أنفسكم بذلك للنقلة من دار البلاء الى محل الكرامة والآلاء (ان كنتم) أى كونا راسخا (صادقين) أى عريقين عند أنفسكم فى الصدق فان من علامات المحبة الاشتياق الى المحبوب ومن المقطوع به ان من كان فى كدر

وكان له ولي قد وعده عند الوصول اليه الراحة التي لا يشوبها أمر يرقى النقلة الى وليه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم الا غص بريقه فلم يقلها منهم أحد علما منهم بصدقه صلى الله عليه وسلم فلم يقولوا ولم يؤمنوا عنادا منهم ثم أخبر الله تعالى عنهم انهم لا يتمنونه في المستقبل أيضا بقوله تعالى (ولا يتمنونه) أي في المستقبل (أبدا بما قدمت أيديهم) أي بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصي التي أحاطت بهم فلم تدع لهم حظا في الآخرة *(تنبيه)* قال تعالى هنا ولا يتمنونه وفي البقرة ولن يتمنوه قال الزمخشري لا فرق بين لا ولن في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل الا أن في لن تأكيدا وتشديدا ليس في لا فأتى مرة بلفظ التأكيد ولن يتمنوه ومرة بغير لفظه ولا يتمنونه قال أبو حيان وهذا رجوع منه عن مذهبه وهو أن لن تقتضي النفي على التأبيد الى مذهب الجماعة وهي أنها لا تقتضيه قال بعضهم وليس فيه رجوع غاية ما فيه انه سكت عنه وتشريكه بين لا ولن في نفي المستقبل لا ينفي اختصاص لن بمعنى آخر اه ودعواهم الولاية الى التوسل الى الجنة لا يلزم منها الاختصاص بالنعم بدليل ان الدنيا ليست خالصة للاولياء المحقق لهم الولاية بل البر والفاجر مشتركون فيها (والله) أي الذي له الاحاطة بكل شئ قدرة وعلما (عليم) بالغ العلم محيط بهم هكذا كان الاصل ولكنه تعالى قال (بالظالمين) تعميما وتعليقا بالوصف لا بالذات فالمعنى انه عالم بأصحاب هذا الوصف الراسخين فيه منهم ومن غيرهم فهو مجازيهم على ظلمهم (قل) أي لهؤلاء يا أشرف الرسل (ان الموت الذي تفرون منه) بالكف عن التمني (فانه ملاقيكم) أي لا تفوتونه لاحق بكم *(تنبيه)* في هذه الفاء وجهان أحدهما انها دخلت لما تضمنه الاسم من معنى الشرط وحكم الموصوف بالموصول حكم الموصول في ذلك قال الزجاج لا يقال ان زيدا فمنطلق وههنا قال فانه ملاقيكم لما في معنى الذي من الشرط والجزاء أي ان فررتم منه فانه ملاقيكم ويكون مبالغة في الدلالة على انه لا ينفع الفرار منه الثاني انها مزيدة محضة لا للتضمن المذكور* ولما كان الحبس في البرزخ أمر الابد منه مهولا نبه عليه وعلى طوله بأداة التراخي فقال تعالى (ثم تردون الى عالم الغيب) أي السر (والشهادة) أي العلانية أو كل ما غاب عن الخلق وكل ما شوهد (فينبئكم) أي يخبركم اخبارا عظيما مستقصى مستوفى (بما كنتم) أي بما هو لكم كالجبلة (تعملون) أي بكل جزء منه بما برز الى الخارج وبما كان في جبلاتكم ولو بقيتم لفعلتموه ليجازيكم (يا أيها الذين آمنوا) أي اقروا بألسنتهم بالايمان (اذا نودي) أي من أي مناد كان من أهل النداء (للصلاة) أي صلاة الجمعة (من) أي في (يوم الجمعة) كقوله تعالى أروني ماذا خلقوا من الارض أي في الارض والمراد بهذا النداء الاذان عند قعود الامام على المنبر للخطبة لانه لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه كان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر أذن بلال وعن السائب بن يزيد قال كان النداء يوم الجمعة أوله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الدور زاد في رواية فثبت الامر على ذلك وعن أبي داود قال كان يؤذن بين يدي رسول الله

صلى الله عليه وسلم اذا جلس يوم الجمعة على المنبر على باب المسجد روى انه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد فكان اذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فاذا نزل أقام الصلاة ثم كان أبو بكر وعمر وعلى بالكوفة على ذلك حتى اذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد أذانا آخر فأمر بالتأذين الاول على داره التى تسمى زوراء فاذا سمعوا أقبلوا حتى اذا جلس عثمان على المنبر أذن الاذان الثانى الذى كان على زمن النبى صلى الله عليه وسلم فاذا نزل أقام الصلاة فلم يعب ذلك عليه لقوله صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى قال الماوردى أما الاذان الاول فحدث فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها وكان عمر أمر أن يؤذن فى السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن سوقهم فاذا اجتمعوا أذن فى المسجد فجعله عثمان أذانين فى المسجد قال ابن العربى وفى الحديث الصحيح ان الاذان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا فلما كان زمن عثمان زاد النداء الثالث على الزوراء وسماه فى الحديث ثالثا لانه أضافه الى الاقامة كقوله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة لمن شاء يعنى الاذان والاقامة وتوهم بعض الناس انه أذان أصلى فجعلوا المؤذنين ثلاثة قال ابن عادل فكان وهما ثم جمعوهم فى وقت واحد فكان وهما على وهم واختلفوا فى تسمية هذا اليوم جمعة فمنهم من قال لان الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام روى مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام وفيه أهبط وفيه مات وفيه تاب الله عليه وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم المزيد وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال أتانى جبريل وفى كفه مرآة بيضاء وقال هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولامتك من بعدك وهو سيد الايام عندنا ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد ومنهم من قال لان الله تعالى فرغ من خلق الاشياء فاجتمعت فيه المخلوقات ومنهم من قال لاجتماع الجماعات فيه للصلاة وقيل أول من سمى هذا اليوم جمعة كعب بن لؤى قال أبو سلمة أول من قال أما بعد كعب بن لؤى وكان أول من سمى الجمعة جمعة وكان يقال له يوم العروبة وعن ابن سيرين قال جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة وقيل ان الانصار قالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فهلموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله تعالى فيه ونصلى فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الاحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا الى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ثم أنزل الله تعالى آية الجمعة فهى أول جمعة كانت فى الاسلام وروى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب انه كان اذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة فقلت له اذا سمعت النداء ترحمت لأسعد ابن زرارة قال لانه أول من جمع بنا فى هزم النبت من حرة بنى بياضة فى بقيع يقال له بقيع الخضمات قلت له كم كنتم يومئذ قال أربعين أخرجه أبو داود وأما أول جمعة جمعها النبى

صلى الله عليه وسلم بأصحابه فقال أهل السير لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مهاجرا نزل قباء على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول حين اشتد الضحى ومن تلك السنة يعد التاريخ فأقام بها الى يوم الخميس وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامدا المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجدا فجمع بهم وخطب وهي أول خطبة خطبها بالمدينة وقال فيها الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادي من يكفر به وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الاجل من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا أوصيكم بتقوى الله فان خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يامره بتقوى الله واحذروا ما حذركم الله من نفسه فان تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عنوان صدق على ما تبغون من الآخرة ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي به الا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد وهو الذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فانه يقول ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فانه من يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له أجرا ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما وان تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه وان تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب وترفع الدرجة خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله فقد علمكم في كتابه وأوضح لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين وأحسنوا كما أحسن الله اليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ولا حول ولا قوة الا بالله فأكثروا ذكر الله تعالى واعملوا لما بعد الموت فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه الله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قال بعضهم قد أبطل الله تعالى قول اليهود في ثلاث افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم الله بالحمار يحمل أسفارا وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم يوم الجمعة *(تنبيه)* سمى الله تعالى الجمعة ذكر الله قال أبو حنيفة ان اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكر الله كقوله الحمد لله سبحان الله جاز وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال الحمد لله فارتج عليه فقال ان أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وانكم الى امام فعال أحوج منكم الى امام قوال وستأتيكم الخطب ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر

عليه أحد وعند صاحبيه والشافعى لابدّ من كلام يسمى خطبة ولها أركان وشروط مذكورة فى الفقه (فان قيل) كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله (أجيب) بأنّ ما كان من ذكر رسوله والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو فى حكم ذكر الله وأمّا ما عدا ذلك من ذكر الظلمة والقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحق بعكس ذلك فمن ذكر الشيطان وهو من ذكر الله على مراحل فانّ المنصت للخطبة اذا قال لصاحبه صه فقد لغا أفلا يكون الخطيب المغالى فى ذلك لاغيا نعوذ بالله من غربة الاسلام ومن نكد الايام وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفا لهم وتكريما فقال يا أيها الذين آمنوا ثم خصه بالنداء وان كان قد دخل فى عموم قوله تعالى واذا ناديتم الى الصلاة ليدل على وجوبه وتأكد فرضه وقال بعض العلماء كون الصلاة الجمعة ههنا معلوم بالاجماع لا من نفس اللفظ وقال ابن العربى وعندى انه معلوم من نفس اللفظ بنكتة وهى قوله تعالى من يوم الجمعة وذلك يفيده لانّ النداء الذى يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة وأمّا غيرها فهو عام فى سائر الايام ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها واضافته اليها معنى فلا فائدة فيه واختلف فى معنى قوله تعالى (فاسعوا) أى لتكونوا أولياء الله ولا تتهاونوا فى ذلك فقال الحسن والله ما هو سعى على الاقدام ولكنه سعى بالقلوب والنية وقال الجمهور السعى العمل لقوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وقوله تعالى انّ سعيكم لشتى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وعن أبى هريرة أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا واختلفوا أيضا فى معنى قوله تعالى (الى ذكر الله) أى الملك الاعظم فقال سعيد بن المسيب هو موعظة الامام وقال غيره الخطبة والصلاة المذكرة بالملك الاعظم الذى من انقطع عن خدمته هلك * ولما أمر بالمبادرة الى تجارة الآخرة قال تعالى ناهيا عن تجارة الدنيا التى تعوق عن الجمعة (وذروا البيع) أى اتركوا البيع والشراء لانّ اسم البيع يتناولهما جميعا وانما يحرم البيع والشراء عند الاذان الثانى وقال الزهرى عند خروج الامام وقال الضحاك اذا زالت الشمس حرم البيع والشراء وانما خص البيع من بين الامور الشاغلة عن ذكر الله تعالى لانّ يوم الجمعة يوم تهبط الناس فيه من بواديهم وقراهم وينصبون الى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم واختصاص الاسواق بهم اذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة وحينئذ تنجز التجارة ويتكاثر البيع والشراء فلما كان ذلك الوقت مظنة للذهول بالبيع عن ذكر الله والمضى الى المسجد قيل بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا الى ذكر الله (ذلكم) أى الامر العالى الرتبة من فعل السعى وترك الاشتغال بالدنيا (خير لكم) لانّ الامر الذى أمركم به الذى له الامر كله وهو يريد تطهيركم فى أديانكم وأبدانكم وأموالكم وبيده اسعادكم واشقاؤكم (فان قيل) اذا كان البيع فى هذا الوقت محرما فهل هو فاسد (أجيب) بأنّ عامة العلماء على أنّ ذلك لا يوجب فساد البيع قالوا

لان البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة فى الارض المغصوبة والثوب المغصوب والوضوء بماء مغصوب وعن بعض الناس انه فاسد وزاد فى الحث على ذلك بقوله تعالى (ان كنتم) أى بما هو لكم كالجبلة (تعلمون) أى يتجدد لكم علم فى يوم من الايام فأنتم ترون ذلك خيرا فاذا علمتموه خيرا أقبلتم عليه فكان ذلك خيرا لكم وصلاة الجمعة فرض عين تجب على كل من جمع الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورة والاقامة اذا لم يكن له عذر مما ذكره الفقهاء ومن تركها استحق الوعيد قال صلى الله عليه وسلم لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله تعالى على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونا بها طبع الله تعالى على قلبه قال ابن عادل ونقل عن بعض الشافعية ان الجمعة فرض على الكفاية أما من به عذر يعذر به فى ترك الجماعة مما تصورهنا فلا تجب عليه وتجب على أعمى وجد قائدا وشيخ هرم وزمن وجد امركبا لا يشق ركوبه عليهما واختلف أهل العلم فى موضع اقامة الجمعة وفى العدد الذى تنعقد به الجمعة وفى المسافة التى يجب أن يؤتى منها فذهب قوم الى أن كل قرية اجتمع فيها أربعون رجلا بالصفة المتقدمة تجب عليهم اقامة الجمعة فيها وهو قول عبد الله بن عمر وعمر ابن عبد العزيز وبه قال الشافعى وأحمد واسحق قالوا لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلا على هذه الصفة وشرط عمر بن عبد العزيز مع الاربعين أن يكون فيهم وال وعند أبى حنيفة تنعقد بأربعة والوالى شرط ولا تقام عنده الا فى مصر جامع وقال الاوزاعى وأبو يوسف تنعقد بثلاثة ان كان فيهم وال وقال الحسن وأبو ثور تنعقد باثنين كسائر الصلوات وقال شعبة تنعقد باثنى عشر رجلا ولا تجب الجمعة على أهل البوادى الا اذا سمعوا النداء من موضع تقام فيه الجمعة فيلزمهم الحضور وان لم يسمعوا فلا جمعة عليهم وبه قال الشافعى وأحمد واسحق والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهورى الصوت فى وقت تكون الاصوات هادئة والرياح ساكنة فكل قرية تكون من موضع الجمعة فى القرب على هذا القدر يجب على أهلها حضور الجمعة وقال سعيد بن المسيب تجب الجمعة على من آواه المبيت قال الزهرى تجب على من كان على ستة أميال وقال ربيعة على أربعة أميال وقال مالك والليث على ثلاثة أميال وقال أبو حنيفة لا جمعة على أهل البوادى سواء كانت القرية قريبة أم بعيدة دليل الشافعى ومن وافقه ماروى البخارى عن ابن عباس أن أول جمعة جمعت بعد جمعة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد عبد القيس بجوانا من البحرين ولابى داود نحوه وفيه بجوانا قرية من قرى البحرين *(تنبيه)* فضل يوم الجمعة مشهور وأحاديثه كثيرة مشهورة تقدم بعضها ومنها ان الله يعتق فى كل جمعة ستمائة عتيق من النار وعن كعب ان الله تعالى فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الايام الجمعة وقال صلى الله عليه وسلم من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر وفى الحديث اذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الاول فالاول على مراتبهم قال

الزمخشري وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة بالمبكرين الى الجمعة يمشون بالسرج وقيل أول بدعة أحدثت في الاسلام ترك البكور الى الجمعة وعن ابن مسعود أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه ويقول أراك رابع أربعة وما رابع أربعة ببعيد وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة أي مثل غسلها ثم راح في الساعة الاولى كان كمن قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فاذا خرج الامام حضرت الملائكة يستمعون الذكر وروى النسائي في الخامسة كالذي يهدي عصفورا وفي السادسة بيضة فمن جاء في أول ساعة منها ومن جاء في آخرها مشتركان في تحصيل البدنة مثلا لكن بدنة الاول أكمل من بدنة الآخر وبدنة المتوسط متوسطة وهذا في حق غير الامام أما هو فيسن له التأخير الى وقت الخطبة اتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ويسن اكثار الدعاء يومها وليلتها أما يومها فلرجاء أن يصادف ساعة الاجابة وهي ساعة خفية وأرجاها من جلوس الخطيب الى آخر الصلاة كما في خبر مسلم قال النووي وأما خبر يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة فيه ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله شيأ الا أعطاه اياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر فيحتمل ان هذه الساعة منتقلة تكون يوما في وقت ويوما في آخر كما هو المختار في ليلة القدر وأما ليلتها فبالقياس على يومها وقد قال الشافعي بلغني ان الدعاء يستجاب في ليلة الجمعة ويسن اكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في يومها وليلتها لخبر أكثروا علي من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا واكثار قراءة سورة الكهف يومها وليلتها لخبر من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق وخبر من قرأها يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين وفي هذا القدر كفاية ولما حث على الصلاة وأرشد الى أن وقتها لا يصلح لطلب شئ غيرها بين لهم وقت المعاش بقوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة) أي وقع الفراغ منها على أي وجه كان (فانتشروا) أي فدبوا وتفرقوا مجتهدين (في الارض) أي جميعها للتجارة والتصرف في حوائجكم ان شئتم لاجناح عليكم ولا حرج رخصة من الله تعالى لكم (وابتغوا) أي اطلبوا الرزق (من فضل الله) أي الذي بيده كل شئ ولا شئ لغيره وهذا أمر اباحة كقوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا قال ابن عباس ان شئت فاخرج وان شئت فاقعد وان شئت فصل الى العصر وقيل فانتشروا في الارض ليس لطلب دنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله تعالى وقال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم (واذكروا الله) أي الذي له الامر كله (كثيرا) أي بحيث لا تغفلون عنه بقلوبكم أصلا ولا بألسنتكم حتى عند الدخول الى الخلاء وعند أول الجماع واستثنى من الثاني وقت التلبس بالقذر كوقت قضاء الحاجة والجماع (لعلكم تفلحون) أي تفوزون بالجنة والنظر الى وجهه الكريم وعن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائما يوم الجمعة

فجاءت عير من الشأم فانفتل الناس اليها حتى لم يبق الا اثنا عشر رجلا وفى رواية أنا فيهم فأنزل الله تعالى (واذا رأوا تجارة) أى حمولا هى موضع للتجارة (أولهوا) أى ما يلهى عن كل نافع (انفضوا) أى نفروا متفرقين من المجلس (اليها) اى التجارة لانها مطلوبهم دون اللهو وأيضا العطف بأو فافراد الضمير أولى وقال الزمخشرى تقديره اذا رأوا تجارة انفضوا اليها أولهوا انفضوا اليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه وذكر الكلبى وغيره ان الذى قدم بها دحية بن خليفة الكلبى من الشأم عن مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما يحتاج اليه الناس من بر ودقيق وغيره فنزل عند احجار الزيت وضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه فخرج الناس الا اثنى عشر رجلا وقيل احد عشر رجلا وقال ابن عباس فى رواية الكلبى لم يبق فى المسجد الا ثمانية رهط وقال الحسن وأبو مالك أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فلما رأوه قاموا اليه بالبقيع خشوا ان يسبقوا اليه فلما لم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم الا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادى نارا وقال مقاتل بن حبان ومقاتل بن سليمان بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة اذ قدم دحية بن خليفة الكلبى من الشام بالتجارة وكان اذا قدم المدينة لم يبق بالمدينة عاتق الا أتته وكان يقدم بكل ما يحتاج اليه من دقيق وغيره فينزل عند أحجار الزيت وكانت فى سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج اليه الناس ليتبايعوا منه فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب فخرج اليه الناس ولم يبق فى المسجد الا اثنا عشر رجلا وامرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا هؤلاء لرميت عليهم الحجارة من السماء وأنزل الله تعالى هذه الآية والمراد باللهو الطبل وقيل كانت العير اذا قدمت المدينة استقبلوا بالطبل والتصفيق وقال علقمة سئل عبد الله أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائما أو قاعدا فقال أما تقرأ وتركوك قائما وعن جابر بن عبد الله قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة خطبتين قائما يفصل بينهما بجلوس وذكر أبو داود فى مراسيله السبب الذى ترخصوا لانفسهم فى ترك سماع الخطبة وقد كانوا خليقا لفضلهم أن لا يفعلوا فقال حدثنا محمد بن خالد قال حدثنا الوليد قال أخبرنى أبو معاذ بكير بن معروف انه سمع مقاتل بن حبان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الجمعة قبل الخطبة كالعيدين حتى كان يوم جمعة والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل يقال له دحية بن خليفة قدم بتجارة وكان دحية اذا قدم تلقاه اهله بالدفوف فخرج الناس فلم يظنوا الا أنه ليس فى ترك الخطبة شئ فأنزل الله تعالى هذه الآية فقدم النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة الخطبة وأخر الصلاة وكان لا يخرج أحد لرعاف او حدث بعد النهى حتى يستأذن النبى صلى الله عليه وسلم يشير اليه باصبعه التى تلى الابهام فيأذن له النبى صلى الله عليه وسلم ثم يشير اليه بيده فكان فى المنافقين من تثقل عليه الخطبة والجلوس فى المسجد فكان

اذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق الى جنبه مستترا به حتى يخرج فأنزل الله تعالى قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا الآية قال السهيلي وهذا الخبر وان لم ينقل من وجه ثابت فالظن الجميل بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوجب أن يكون صحيحا وقال قتادة و بلغنا انهم فعلوه ثلاث مرات كل مرة عير تقدم من الشام وكل ذلك يوافق يوم الجمعة وقيل ان خروجهم لقدوم دحية بتجارته ونظرهم الى العير وهي تمر لهو لا فائدة فيه الا أنه كان مما لا اثم فيه لو وقع على ذلك الوجه ولكنه لما اتصل به الاعراض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والانفضاض عن حضرته غلظ وكبر ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللهو ما نزل وقوله تعالى (وتركوك) أي تخطب حتى بقيت في اثني عشر رجلا قال جابر أنا أحدهم (قائما) جملة حالية من فاعل انفضوا وقد مقدرة عند بعضهم * (تنبيه) * في قوله تعالى قائما تنبيه على مشروعيته في الخطبتين وهو من الشروط للقادر على القيام وأما أركانهما فخمسة حمد الله تعالى وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظهما ووصية بتقوى الله وهذه الثلاثة في كل من الخطبتين وقراءة آية مفهمة ولو في احداهما والاولى أولى ودعاء للمؤمنين والمؤمنات في ثانية ومن الشروط كونهما عربيتين وكونهما في الوقت وولاء وطهر وستر كالصلاة (قل) يا أشرف الخلق للمؤمنين (ما عند الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (خير) ما موصولة مبتدأ وخير خبرها (من اللهو ومن التجارة) والمعنى ما عند الله تعالى من ثواب صلاتكم خير من لذة لهوكم وفائدة تجارتكم وقيل ما عند الله من رزقكم الذي قسمه لكم خير مما اقتسمتموه من لهوكم وتجارتكم (والله) أي ذو الجلال والاكرام وحده (خير الرازقين) أي خير من رزق وأعطى فاطلبوا منه واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الجمعة أعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها في أمصار المسلمين حديث موضوع

(سورة المنافقين مدنية)

(وهي احدى عشرة آية ومائة وثمانون كلمة وسبعمائة وستة وسبعون حرفا)

(بسم الله) الذي له الاحاطة العظمى علما وقدرة (الرحمن) الذي ستر بعموم رحمته من أراد من عباده (الرحيم) الذي وفق أهل وده لما يحبه ويرضاه (اذا جاءك) يا أيها الرسول المبشر بك في التوراة والانجيل وقرأ حمزة وابن ذكوان بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف حمزة سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها ألفا مع المد والقصر (المنافقون) أي العريقون في وصف النفاق وهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه (قالوا) مؤكدين لاجل استشعارهم تكذيب من يسمعهم لما عندهم من الارتياب (نشهد) قال الحسن هو بمنزلة اليمين كأنهم قالوا نقسم (انك لرسول الله) أي الملك الذي له الاحاطة الكاملة فوافقوا الحق بظاهر

أحوالهم وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم وقوله تعالى (والله يعلم) أي وعلمه هو العلم في الحقيقة وإكذ سبحانه بحسب انكار المنافقين فقال تعالى (انك لرسوله) سواء أشهد المنافقون بذلك أم لا فالشهادة بذلك حق ممن يطابق لسانه قلبه جملة معترضة بين قولهم نشهد انك لرسول الله وبين قوله تعالى والله يشهد لفائدة قال الزمخشري لو قال قالوا نشهد انك لرسول الله والله يشهد انهم لكاذبون لكان يوهم ان قولهم هذا كذب فوسط بينهما قوله والله يعلم انك لرسوله ليميط هذا الايهام (والله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (يشهد) شهادة هي الشهادة لانها محيطة بدقائق الظاهر والباطن (ان المنافقين) أي الراسخين في وصف النفاق (لكاذبون) أي في اخبارهم عن أنفسهم انهم يشهدون لان قلوبهم لا تطابق ألسنتهم فهم لا يعتقدون ذلك ومن شرط قول الحق ان يتصل ظاهره بباطنه وسره بعلانيته ومتى تخالف ذلك فهو كذب ألا ترى انهم كانوا يقولون بألسنتهم نشهد انك لرسول الله وسماه الله تعالى كذبا لان قولهم خالف اعتقادهم (اتخذوا أيمانهم) أي كلها من شهادتهم وكل يمين سواها (جنة) أي سترة عن أموالهم ودمائهم روى البخاري عن زيد بن أرقم قال كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فذكرت ذلك لعمي فذكره عمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبني فأصابني هم لم يصبني مثله فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل اذا جاءك المنافقون الى قوله تعالى هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله وقوله ليخرجن الاعز منها الاذل فأرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ان الله قد صدقك وروى الترمذي عن زيد بن أرقم قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معنا أناس من الاعراب فكنا نبتدر الماء وكان الاعراب يسبقونا فيسبق الاعرابي أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه قال فأتى رجل من الانصار أعرابيا فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى ان يدعه فانتزع حجرا ففاض الماء فرفع الاعرابي خشبة فضرب بها رأس الانصاري فشجه فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبي ثم قال لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله يعني الاعراب وكانوا يحضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الطعام فقال عبد الله اذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمدا بالطعام فليأكل هو ومن عنده ثم قال لاصحابه لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل قال زيد وأنا ردف عمي فسمعت عبد الله بن أبي فأخبرت عمي فانطلق فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف وجحد قال فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبني قال فجاء عمي الي فقال ما أردت الا ان مقتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبك المنافقون قال فوقع علي من جرائهم مالم يقع على أحد قال فبينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر قد خفقت

رأسى من الهم اذ أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرك اذنى وضحك فى وجهى فكان ما يسرنى ان لى بها الخلد فى الدنيا ثم ان أبا بكر لحقنى فقال ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت ما قال لى شيأ الا أنه عرك اذنى وضحك فى وجهى فقال أبشر ثم لحقنى عمر فقلت له مثل قولى لابى بكر فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المنافقين قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وروى انه صلى الله عليه وسلم حين لقى بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه وسنان الجهنى حليف لعبد الله بن أبى واقتتلا فصرخ جهجاه بالمهاجرين وسنان بالانصار فاعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا فقال عبد الله لجعال وأنت هناك وقال ما صحبنا محمد الا لنلطم وجوهنا والله ما مثلنا ومثلهم الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل عنى بالاعز نفسه وبالاذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقومه ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولاوشكوا ان يتحولوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال أنت والله الذليل القليل المبغض فى قومك ومحمد فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين فقال عبد الله اسكت فانما كنت ألعب فاخبر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر دعنى اضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله فقال اذن ترعد أنف كثيرة بيثرب قال فان كرهت ان يقتله مهاجرى فأمر به انصاريا قال فكيف اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه وقال صلى الله عليه وسلم لعبد الله أنت صاحب الكلام الذى بلغنى قال والله الذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيأ من ذلك وان زيدا الكاذب فهو قوله تعالى اتخذوا ايمانهم جنة فقال الحاضرون يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال له لعلك غضبت عليه قال لا قال فلعله أخطأ سمعك قال لا قال فلعله شبه عليك قال لا فلما نزلت لحق صلى الله عليه وسلم زيدا من خلفه فعرك اذنه وقال وعت اذنك يا غلام ان الله قد صدقك وكذب المنافقين *(تنبيه)* سئل حذيفة بن اليمان عن المنافق فقال الذى يصف الايمان ولا يعمل به وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وروى عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا ائتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وروى عن الحسن انه ذكر هذا الحديث فقال ان بنى يعقوب حدثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا وائتمنوا فخانوا انما هذا القول من النبى صلى الله عليه وسلم على سبيل الانذار للمسلمين والتحذير لهم ان يعتادوا هذه الخصال شفقة ان تفضى بهم الى النفاق وليس المعنى أن من ندرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد انه منافق وقال عليه الصلاة والسلام المؤمن اذا حدث صدق واذا وعد نجز واذا ائتمن وفى

والمعنى المؤمن الكامل (فصدوا) أي فسبب لهم اتخاذهم هذا ان أعرضوا بأنفسهم مع سوء البواطن وحرارة ما في الصدور وحملوا غيرهم على الاعراض (عن سبيل الله) أي عن طريق الملك الاعظم الذي شرعه لعباده ليصلوا به الى محل رضوانه ووصلوا الى ذلك بخداعهم ومكرهم بجراءتهم على الايمان الخائنة (انهم ساء ما كانوا) أي جبلة وطبعا (يعملون) أي يجددون عمله مستمرين عليه بما هو كالجبلة من جراءتهم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وخلص عباده بالايمان الخائنة ولما كانت المعاصي تعمي القلوب فكيف بأعظمها علله بقوله تعالى (ذلك) أي سوء عملهم (بأنهم آمنوا ثم كفروا) (فان قيل) ان المنافقين لم يكونوا الا على الكفر الثابت الدائم فما معنى قوله تعالى آمنوا ثم كفروا (أجيب) بثلاثة أوجه أحدها آمنوا أي نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل في الاسلام ثم كفروا أي ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما اطلع عليه من قولهم ان كان ما يقول محمد حقا فنحن حمير وقولهم في غزوة تبوك أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات ونحوه قوله يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم أي وظهر كفرهم بعد ان أسلموا ونحوه لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم والثاني آمنوا أي نطقوا بالايمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالاسلام بقوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا الى قوله انما نحن مستهزؤن وهذا اعلام من الله تعالى بأن المنافقين كفار الثالث ان يراد ان ذلك في قوم آمنوا ثم ارتدوا (فطبع) أي فحصل الطبع وهو الختم مع أنه معلوم أنه لا يقدر على ذلك غيره سبحانه (على قلوبهم) أي لاجل اجترائهم على ما هو أكبر الكبائر على وجه النفاق (فهم) أي فتسبب عن ذلك انهم (لا يفقهون) أي لا يقع لهم فقه في شيء من الاشياء فهم لا يميزون صوابا من خطا ولا حقا من باطل (واذا رأيتهم) أي أيها الرسول على مالك من الفطنة ونفوذ الفراسة أو أيها الرائي كائنا من كان بعين البصر (تعجبك أجسامهم) لضخامتها وصباحتها لفات عنايتهم كلها باصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق قال ابن عباس كان ابن أبي جسيما صحيحا فصيحا ذلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤساء المدينة وكانوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ويستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصاحة الالسن وكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم (وان يقولوا) أي يوجد منهم قول في وقت من الاوقات (تسمع لقولهم) أي لفصاحته فيلذ السمع ويروق الفكر (كأنهم) أي في حسن ظواهرهم وسوء بواطنهم وفي عدم الانتفاع بهم في شيء (خشب) جمع كثرة لخشبة وهو دليل على كثرتهم (مسندة) أي قطعت من مغارسها ممالة الى الجدار وقرأ أبو عمرو والكسائي بسكون الشين والباقون بضمها (يحسبون) أي لضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم لكثرة ما يباشرون من سوء أعمالهم (كل صيحة) أي من نداء مناد في انشاد ضالة أو انفلات دابة أو نحو ذلك واقعة (عليهم) وضارة لهم لجبنهم وهلعهم لما في قلوبهم من الرعب ان ينزل فيهم ما يبيح دماءهم ومنه أخذ الاخطل

مازلت تحسب كل شئ بعدهم * خيلا تكر عليهم ورجالا
ومنه قول الآخر

كأن بلاد الله وهي عريضة * على الخائف المطلوب كفة حابل
يخال اليه ان كل ثنية * تيممها ترمى اليه بقاتل

(هم العدو) أى الكامل العداوة بعادل عليه الاخبار بالمفرد الذى يقع على الجمع اشارة الى انهم فى شدة عداوتهم للاسلام وأهله وكمال قصدهم وشدة سعيهم فيه على قلب رجل واحد وان أظهروا التودد فى الكلام والتقرب به الى أهل الاسلام فان ألسنتهم معكم اذ القوكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم فهم عيون لهم عليكم (فاحذرهم) لان أعدى عدوك من يعاشرك وتحت ضلوعه الداء لكنه يكون بلطف الله دائم الخذلان منكوسا فى أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسر قوله تعالى (قاتلهم الله) أى أحلهم الملك المحيط قدرة وعلما محل من يقاتله عدو قاهر له أشد مقاتلة على عادة الفعل الذى يكون بين اثنين وقال ابن عباس أى لعنهم الله وقال أبو مالك هى كلمة ذم وتوبيخ وقد تقول العرب قاتله الله ما أشعره فيضعونه موضع التعجب (أنى) أى كيف ومن أى جهة (يؤفكون) أى يصرفهم عن قبح ماهم عليه صارف ما كائن ما كان ليرجعوا عماهم عليه وقال ابن عباس أنى يؤفكون أى يكذبون وقال مقاتل أى يعدلون عن الحق وقال الحسن يصرفون عن الرشد وقيل معناه كيف تضل عقولهم عن هذا مع وضوح الدلائل وهو من الافك (واذا قيل لهم) اى من أى قائل كان (تعالوا) أى ارفعوا أنفسكم مجتهدين فى ذلك بالمجىء الى أشرف الخلق الذى لا يزال مكانه عاليا العلو مكانته (يستغفر لكم) أى يطلب الغفران لاجلكم خاصة من أجل هذا الكذب أى الذى أنتم مصرون عليه (رسول الله) أى أقرب الخلق الى الملك الاعظم الذى لا شبيه لوجوده (لووا رؤسهم) أى فعلوا اللى بغاية الشدة والكثرة وهو الصرف الى جهة أخرى اعراضا وعتوا واظهارا للبغض والنفرة (ورأيتهم) أى بعين البصيرة (يصدون) أى يعرضون اعراضا قبيحا عما دعوا اليه مجددين لذلك كلما دعوا اليه والجملة فى موضع المفعول الثانى لرأيت (وهم مستكبرون) أى ثابتو الكبر عما دعوا اليه وعن احلال أنفسهم فى محل الاعتذار فهم لشدة غلظهم لا يدركون قبح ماهم عليه ولا يهتدون الى دوائه واذا أرشدهم غيرهم ونبههم لا ينتبهون فقد روى انه لما نزل القرآن فيهم أتاهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا ويحكم افتضحتم وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا اليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم فلووا رؤسهم أى حركوها اعراضا واباء قاله ابن عباس وعنه انه كان لعبد الله بن أبى موقف فى كل سبت يحض على طاعة الله وطاعة رسوله فقيل له وما ينفعك ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليك غضبان فأته يستغفر لك فأبى وقال لا أذهب اليه وروى ان ابن أبى رأسهم لوى رأسه وقال لهم أشرتم على بالايمان فآمنت وأشرتم على بأن أعطى زكاة مالى ففعلت ولم يبق الا أن تأمرونى بالسجود لمحمد فنزل واذا قيل لهم تعالوا الآية ولم يلبث الا أياما قلائل حتى اشتكى

ونمات ولما كان صلى الله عليه وسلم يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم وربما ندبه الى ذلك بعض أقاربهم قال تعالى منبها على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار لانهم لا يؤمنون (سواء عليهم أستغفرت لهم) استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل (أم لم تستغفر) الله (لهم) أى سواء عليهم الاستغفار وعدمه لانهم لا يلتفتون اليه ولا يعتدون به لكفرهم (لن يغفر الله) أى الملك الاعظم (لهم) لرسوخهم فى الكفر (ان الله) أى الذى له كمال الصفات (لا يهدى القوم) أى الناس الذين لهم قوة فى أنفسهم على ما يريدونه (الفاسقين) أى لانهم لا عذر لهم فى الاصرار على الفسق وهو المروق من حصن الاسلام بخرقه وهتكه مرة بعد مرة والتمرن عليه حتى استحكم فهم راسخون فى النفاق والخروج عن مظنة الاصلاح (هم) أى خاصة بخالص بواطنهم (الذين يقولون) أى أوجدوا هذا القول للانصار ولا يزالون يجددونه لانهم كانوا مربوطين بالاسباب محجوبين عن شهود التقدير (لا تنفقوا) أى أيها المخلصون فى النصرة (على من) أى الذين (عند رسول الله) أى الملك المحيط بكل شئ وهم فقراء المهاجرين (حتى ينفضوا) أى يتفرقوا فيذهب كل أحد منهم الى أهله وشغله الذى كان له قبل ذلك قال البقاعى وما درى الاجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح الله تعالى غيرهم للانفاق أو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا فى الشئ اليسير فصار كثيرا أو كان بحيث لا ينفد أو اعطى كلا يسيرا من طعام على كيفية لا ينفد معها كتمر أبى هريرة وشعير عائشة وعكة أم أيمن وغير ذلك كما روى غير مرة ولكن من يضلل الله فما له من هاد ولذلك عبر فى الرد عليهم بقوله تعالى (ولله) أى قالوا ذلك واستمروا على تجديد قوله والحال ان للملك الذى لا أمر لغيره (خزائن السموات) أى كلها (والارض) كذلك من الاشياء المعدومة الداخلة تحت مقدوره انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون ومن الاشياء التى أوجدها فهو يعطى من يشاء منها حتى مما فى أيديهم لا يقدر أحد على منع شئ من ذلك لا مما فى يده ولا مما فى يد غيره ونبه على سوء غباوتهم وأنهم تقيدوا بالوهم حتى سفلوا عن رتبة البهائم كما قال بعضهم ان كان محمد صادقا فنحن شر من البهائم بقوله تعالى (ولكن المنافقين) أى العريقين فى وصف النفاق (لا يفقهون) أى لا يتجدد لهم فهم أصلا كالبهائم بل هم أضل لان البهائم اذا رأت شيأ ينفعها يوما فى مكان طلبته مرة أخرى وهؤلاء رأوا غير مرة ما أخرج الله تعالى من خوارق البركات على يد رسوله صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم ذلك ودل على عدم نفعهم بقوله تعالى (يقولون) أى يوجدون هذا القول ويجددونه مؤكدين لاستشعارهم بأن أكثر قومهم ينكره (لئن رجعنا) أى أيتها العصابة المنافقة (الى المدينة) أى من غزاتنا هذه وهى غزوة بنى المصطلق حى من هذيل خرج اليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد الى الساحل (ليخرجن الاعز) يعنون أنفسهم (منها) أى المدينة (الاذل) يعنون النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه وهم كاذبون فى هذا لكونهم تصوروا الشدة غباوتهم ان العزة لهم وانهم يقدرون على اخراج المؤمنين (ولله) أى والحال ان كل من له نوع بصيرة يعلم ان الملك الاعلى هو الذى له وحده

(العزة)

(العزة) أى الغلبة كلها (ولرسوله) لان عزته من عزته (وللمؤمنين) فعزة الله قهره من دونه وكل من عداه دونه وعزة رسوله اظهار دينه على الاديان كلها وعزة المؤمنين نصر الله تعالى اياهم على أعدائهم (ولكن المنافقين) أى الذين استحكم فيهم مرض القلوب (لايعلمون) اى لا يوجد لهم علم الآن ولا يتجدد فى حين من الاحيان فلذلك هم يقولون مثل هذا الخراف روى انه لما نزلت هذه الآية جاء عبد الله ولد عبد الله بن أبى ابن سلول الذى نزلت هذه الآيات بسببه كما مر الى أبيه وذلك فى غزوة المريسيع ابنى المصطلق فأخذ بزمام ناقته وقال أنت والله الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ولما أراد أن يدخل المدينة عبد الله بن أبى اعترضه ابنه حباب وهو عبد الله غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه وقال ان حبابا اسم شيطان وكان مخلصا وقال وراءك والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعز وأنا الاذل فلم يزل حبيسا فى يده حتى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخليته وروى أنه قال لئن لم تقر لله ولرسوله بالعزة لاضربن عنقك فقال ويحك أفاعل أنت قال نعم فلما رأى منه الجد قال أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لابنه جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا (فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى ختم الآية الاولى بقوله تعالى لا يفقهون وختم الثانية بقوله تعالى لايعلمون (أجيب) بأنه ليعلم بالاولى قلة كياستهم وفهمهم وبالثانية حماقتهم وجهلهم ويفقهون من فقه يفقه كعلم يعلم او من فقه يفقه كعظم يعظم فالاول لحصول الفقه بالتكلف والثانى لا بالتكلف فالاول علاجى والثانى مزاجى ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا) اى اقروا بالايمان وقلوبهم مذعنة كظواهرهم (لاتلهكم) اى لاتشغلكم (أموالكم ولا اولادكم) سواء كان ذلك فى اصلاحها او التمتع بها بحيث تغفلون (عن ذكر الله) أى الملك الاعظم حذر المؤمنين اخلاق المنافقين أى لاتشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون اذ قالوا لاجل الشح بأموالهم لاتنفقوا على من عند رسول الله وقوله تعالى عن ذكر الله قال الضحاك أى عن الصلوات الخمس نظيره قوله تعالى لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وقال الحسن عن جميع الفرائض كأنه قال عن طاعة الله تعالى وقيل عن الحج والزكاة وقيل عن قراءة القرآن وقيل عن ادامة الذكر وقيل هذا خطاب للمنافقين أى آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب * ولما كان التقدير فمن انتهى فهو من الفائزين عطف عليه قوله تعالى (ومن يفعل) أى يوقع فى زمن من الازمان على سبيل التجديد والاستمرار فعل (ذلك) أى الامر البعيد عن أفعال ذوى الهمم من الانقطاع الى الاشتغال بالفانى والاعراض عن الباقى (فأولئك) البعداء عن الخير (هم الخاسرون) أى العريقون فى الخسارة فى تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى حتى كأنهم مختصون بها دون الناس وذلك بضد ما أرادوا (وأنفقوا) أى ما أمرتم به من واجب أو مندوب كما قاله بعض المفسرين وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد زكاة الاموال وهو ظاهر الامر ثم ان الله تعالى زاد فى الترغيب بالرضا منهم باليسير بقوله تعالى (مما رزقناكم) أى بعظمتنا قال الزمخشرى من فى مما رزقناكم للتبعيض والمراد الانفاق

الواجب اهـ ثم قال تعالى محذرا من الاغترار بالتسويف فى أوقات السلامة (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) أى يرى دلائله وأماراته وكل لحظة مرت فهى دلائله وأماراته قال القرطبى وهذا دليل على وجوب تعجيل اخراج الزكاة ولا يجوز تأخيرها أصلا أى بلا عذر وكذا سائر العبادات اذا دخل وقتها وقال الرازى وبالجملة فقوله تعالى لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله تنبيه على المحافظة على الذكر قبل الموت وقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناكم تنبيه على الشكر كذلك ولما كانت الشدة تقتضى الاقبال الى الله تعالى سبب عن ذلك قوله تعالى (فيقول) أى سائلا فى الرجعة وأشار الى ترقيقها للقلوب بقوله (رب لولا) أى هلا ولم لا (أخرتنى) أى أخرت موتى امهالا (الى أجل) أى زمان وقوله (قريب) بين به أن مراده استدراك ما فات ليس الا وقيل لا زائدة ولو للتمنى أى لو أخرتنى الى أجل قريب (فأصدق) أى للتزود فى سفرى هذا الطويل الذى أنا مستقبله وعن ابن عباس رضى الله عنهما تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل وعنه ما يمنع أحدكم اذا كان له مال أن يزكى واذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها وعنه أنها نزلت فى مانعى الزكاة ووالله لو رأى خيرا ما سأل الرجعة فقيل له أما تتقى الله يسأل المؤمنون الكرة قال نعم أنا أقرأ عليكم قرآنا يعنى أنها نزلت فى المؤمنين وهم المخاطبون بها وكذا عن الحسن ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج الا سأل الرجعة وقال الضحاك لا ينزل بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة الموت الا وسأل الرجعة وعن عكرمة نزلت فى أهل القبلة وقيل نزلت فى المنافقين ولهذا نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال هذه الآية تدل على أن القوم لم يكونوا من أهل التوحيد لانه لا يتمنى الرجوع الى الدنيا والتأخير فيها أحد له عند الله تعالى خير فى الآخرة أى اذا لم يكن بالصفة المتقدمة قال القرطبى الا الشهيد فانه يتمنى الرجوع حتى يقتل لما يرى من الكرامة وقرأ (وأكون من الصالحين) أى العريقين فى هذا الوصف بالتدارك أبو عمرو بواو بعد الكاف ونصب النون عطفا على فأصدق والباقون بحذف الواو لالتقاء الساكنين وجزم النون واختلفت عبارات الناس فى ذلك فقال الزمخشرى عطفا على محل فأصدق كأنه قيل ان أخرتنى أصدق وأكن وقال ابن عطية عطفا على الموضع لان التقدير ان أخرتنى أصدق وأكن هذا مذهب أبى على الفارسى وقال القرطبى عطفا على موضع الفاء لان قوله فأصدق لو لم تكن الفاء لكان مجزوما أى أصدق ثم زاد تعالى فى الحث على المبادرة بالطاعات قبل الفوات بقوله تعالى مؤكدا لاجل عظم الرجاء من هذا المحتضر بالتأخير عاطفا على ما تقديره فلا يؤخره الله فيفوته ما أراد (ولن يؤخر الله) أى الملك الاعظم الذى لا كفء له فلا اعتراض عليه (نفسا) أى نفس كانت وحقق الاجل بقوله تعالى (اذا جاء أجلها) أى وقت موتها الذى حده الله تعالى لها فلا يؤخر الله تعالى نفس هذا القائل لانها من جملة النفوس التى شملها النفى وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية بعد تحقيق الاولى ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيقهما (والله) أى الذى له الاحاطة الشاملة علما وقدرة (خبير) أى

بالغ

بالغ الخبرة والعلم ظاهرا وباطنا (بما تعملون) أى توقعون عمله فى الماضى والحال والمآل كله باطنه وظاهره وقرأ شعبة بالياء التحتية على الغيبة على الخبر عمن مات وقال هذه المقالة والباقون بالفوقية على الخطاب وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المنافقين برئ من النفاق حديث موضوع

(سورة التغابن مدنية)

فى قول الاكثرين وقال الضحاك مكية وقال الكلبى مدنية ومكية وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن سورة التغابن نزلت بمكة الا آيات من آخرها نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك الاشجعى شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده فأنزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم الى آخرها وهى ثمانى عشرة آية ومائتان واحدى وأربعون كلمة وألف وسبعون حرفا

(بسم الله) مالك الملك فلا كفء له ولا مثيل (الرحمن) الذى وسع الخلائق بره الجليل (الرحيم) الذى خص من عمه فوفقهم للجميل (يسبح) أى يوقع التنزيه التام مع التجديد والاستمرار (لله) أى الذى له الاحاطة بأوصاف الكمال (ما فى السموات) أى كلها (وما فى الارض) كذلك وقيل اللام زائدة أى ينزه الله تعالى قال الجلال المحلى وأتى بما دون من تغليبا للاكثر (له) أى وحده (الملك) أى كله مطلقا فى الدنيا والآخرة (وله) أى وحده (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال كلها فلذلك نزهه جميع مخلوقاته وقدم الظرفين ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك بأن الملك على الحقيقة له لانه مبدئ كل شئ ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه وكذا الحمد لان أصول النعم وفروعها منه وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده (وهو على كل شئ قدير هو) أى وحده (الذى خلقكم) اى أنشأكم على ما أنتم عليه (فمنكم) أى فتسبب عن خلقه لكم وتقديره (كافر) أى عريق فى صفة الكفر (ومنكم مؤمن) أى راسخ فى الايمان فى حكم الله تعالى فى الازل قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الله خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا ويعيدهم فى القيامة مؤمنا وكافرا وروى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية فذكر شيأ مما يكون فقال تولد الناس على طبقات شتى يولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت مؤمنا ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت كافرا ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت مؤمنا أى وسكت عن القسم الآخر وهو أن يولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت كافرا اكتفاء بالمقابل وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم خلق الله تعالى فرعون فى بطن أمه كافرا وخلق يحيى بن زكريا عليهما السلام فى بطن أمه مؤمنا وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع او باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع او باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل

الجنة فيدخلها وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليعمل عمل اهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وان الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من اهل الجنة قال القرطبي قال علماؤنا والمعنى تعلق العلم الازلي بكل معلوم فيجري ما علم واراد وحكم فقد يريد ايمان شخص على عموم الاحوال وقد يريده الى وقت معلوم وكذلك الكفر وقيل في الكلام محذوف تقديره فمنكم مؤمن ومنكم كافر ومنكم فاسق فحذف لما في الكلام من الدلالة عليه قاله الحسن وقال غيره لا حذف لان المقصود ذكر الطرفين وقيل انه خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا والتقدير هو الذي خلقكم ثم وصفهم فقال فمنكم كافر ومنكم مؤمن كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء ثم قال تعالى فمنهم من يمشي على بطنه الآية قالوا فانه خلقهم والمشي فعلهم وهذا اختيار الحسين بن الفضل قال لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم في قوله تعالى فمنكم كافر ومنكم مؤمن واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه قال البغوي وروينا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذي قتله الخضر طبع على الكفر وقال تعالى ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وروى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وكل الله بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فاذا أراد الله أن يقضي خلقها قال يا رب ذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق فما الاجل فيكتب ذلك في بطن أمه وقال الضحاك فمنكم كافر في السر مؤمن في العلانية كالمنافق ومنكم مؤمن في العلانية والسر كعمار وزيد وقال عطاء بن أبي رباح فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب يعني في شأن الانواء كما جاء في الحديث قال القرطبي وقال الزجاج وهو أحسن الاقوال والذي عليه الائمة ان الله خالق الكافر وكفره فعل له وكسب واختيار وخالق المؤمن وايمانه فعل له وكسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته فالمؤمن بعد خلق الله اياه يختار الايمان لان الله تعالى اراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه والكافر بعد خلق الله اياه يختار الكفر لان الله تعالى قدره عليه وعلمه منه ولا يجوز ان يوجد من كل منهما غير الذي قدره عليه وعلمه منه لان وجود خلاف المقدور عجز ووجود خلاف المعلوم جهل فلا يليقان بالله تعالى قال البغوي وهذا طريق اهل السنة من سلكه اصاب الحق وسلم من الجبر والقدر قال الرازي فان قيل انه تعالى حكيم وقد سبق في علمه انه تعالى اذا خلقهم لم يفعلوا الا الكفر فأي حكمة دعت الى خلقهم فالجواب اذا علمنا انه تعالى حكيم علمنا ان أفعاله كلها على وفق الحكمة فيكون خلقه تعالى هذه الطائفة على وفق الحكمة ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لا يكون كذلك بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة (والله) أي الذي له الاحاطة الكاملة (بما تعملون) أي توقعون عمله كسبا (بصير) أي بالغ العلم بذلك فهو الذي خلق جميع أعمالكم التي نسب كسبها اليكم وهو خالق جميع الاستعدادات والصفات كما خالق الذوات خلافا للقدرية لانه لا يتصور أن يخلق

الخالق ما لا يعلمه ولو سئل الانسان كم مشى فى يومه من خطوة لم يدر فكيف لو سئل أين موضع مشيه ومتى زمانه فكيف وانه ليمشى أكثر مشيه وهو غافل عنه ومن جهل أفعاله كما وكيفا وأينا وغير ذلك لم يكن خالقا لها بوجه * ولما ذكر المظروف ذكر ظرفه دالا على تمام احاطته بالبواطن والظواهر وقوله تعالى (خلق السموات) أى على علوها وكبرها (والارض) على سعتها (بالحق) أى بالامر الذى يطابقه الواقع لما أراد (وصوركم) أى آدم عليه السلام خلقه بيده كرامة له قال مقاتل وقيل بجميع الخلائق على صور لا توافق شيأ من صور العلويات ولا السفليات ولا فيها صور توافق الاخرى من كل وجه (فأحسن صوركم) فجعلها أحسن الحيوانات كلها كما هو مشاهد وبدليل أن الانسان لا يتمنى أن يكون على خلاف ما يرى من سائر الصور ومن حسن صورته أن خلقه منتصبا غير منكب كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم كما يأتى ان شاء الله تعالى (فان قيل) قد يوجد فى افراد هذا النوع من كل مشوه الخلقة سمج الصورة (أجيب) بأنه لا سماجة لان الحسن فى المعانى وهو على طبقات ومراتب فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقه لا يمنع حسنه فهو داخل فى حيز الحسن غير خارج عن حده فقبح القبيح منه انما هو بالنسبة الى أحسن منه ولذا قال الحكماء شيآن لا غاية لهما الجمال والبيان فقدرة الله سبحانه وتعالى لا تتناهى قال البقاعى فاياك أن تصغى لما وقع فى كتب الغزالى انه ليس فى الامكان أبدع مما كان فان ذلك يحل الى أنه سبحانه لا يقدر أن يخلق أحسن من هذا العالم وهذا لا يقوله أحد اه وهو لا ينقص مقدار الغزالى فان كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه كما قال الامام مالك وعزاه الغزالى نفسه الى ابن عباس رضى الله عنهما وقال الشافعى صنفت هذه الكتب وما ألوت فيها جهدا وانى لاعلم أن فيها الخطأ لان الله تعالى يقول ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا * ولما كان التقدير فكان منه سبحانه المبدأ عطف عليه قوله تعالى (واليه) وحده (المصير) أى المرجع بعد البعث فيجازى كلا بعمله (يعلم) أى علمه حاصل فى الماضى والحال والمآل (ما) أى كل شئ (فى السموات) أى كلها (والارض) كذلك (ويعلم) أى على سبيل الاستمرار (ما تسرون) أى تخفون (وما تعلنون) أى تظهرون من الكليات والجزئيات (والله) أى الذى له الاحاطة التامة (عليم) أى بالغ العلم (بذات) أى صاحبة (الصدور) من الاسرار والخواطر التى لم تبرز فى الخارج سواء كان صاحب الصدر قد علمها أم لا وعلمه لكل ذلك على حد سواء لا تفاوت فيه بين علم الخفى وعلم الجلى نبه بعلمه ما فى السموات والارض ثم بعلم ما يسره العباد ويعلنونه ثم بعلمه ذوات الصدور ان شيأ من الجزئيات والكليات غير خاف عليه ولا عازب عنه ولا يجترأ على شئ مما يخالف رضاه وتكرير العلم فى معنى تكرير الوعيد وكل ما ذكره بعد قوله فمنكم كافر ومنكم مؤمن كما ترى فى معنى الوعيد على الكفر وانكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته (ألم يأتكم) أيها الناس ولا سيما الكفار (نبأ) أى خبر (الذين كفروا من قبل) كقوم نوح وهود وصالح (فذاقوا) أى باشروا مباشرة الذائق (وبال أمرهم) أى ضرر كفرهم فى الدنيا وأصله الثقل ومنه الوبيل لطعام يثقل على المعدة والوابل المطر الثقيل القطر (ولهم عذاب أليم)

أى مؤلم فى البرزخ ثم يوم القيامة التى هى موضع الفصل الاعظم (ذلك) أى الامر العظيم من الوبال الدال قطعا على أن الكفر أبطل الباطل وأنه مما يغضب الخالق (بأنه) أى بسبب ان الشان العظيم البالغ فى الفظاعة (كانت تأتيهم) على عادة مستمرة (رسلهم) أى رسل الله الذين أرسلهم اليهم (بالبينات) أى الحجج الظاهرات على الايمان (فقالوا) أى الكل لرسلهم منكرين غاية الانكار تكبرا وقولهم (أبشر يهدوننا) يجوز أن يرتفع بشر على الفاعلية ويكون من الاشتغال وهو الارجح لان الاداة تطلب الفعل ويجوز أن يكون مبتدأ وخبرا وجمع الضمير فى يهدوننا اذ البشر اسم جنس وقد يأتى الواحد بمعنى الجمع فيكون اسما للجنس وقد يأتى الجمع بمعنى الواحد كقوله تعالى ماهذا بشرا فانكروا على الملك الاعظم ارساله لهم (فكفروا) أى بهذا القول اذ قالوه استصغارا ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء الى عباده (وتولوا) عن الايمان (فان قيل) قوله تعالى فكفروا تعميم يفهم منه التولى فما الحاجة الى ذكره (أجيب) بأنهم كفروا وقالوا أبشر يهدوننا وهذا فى معنى الانكار والاعراض بالكلية وهذا هو التولى فكأنهم كفروا وقالوا قولا يدل على التولى فلهذا قال فكفروا وتولوا وقيل كفروا بالرسل وتولوا بالبرهان وأعرضوا عن الايمان والموعظة ونبه بقوله تعالى (واستغنى الله) أى الملك الاعظم الذى لا أمر لاحد معه على أن هذا انما هو لمصالح الخلق فهو غنى عن كل شئ (فان قيل) قوله تعالى وتولوا واستغنى الله يوهم وجود التولى والاستغناء معا والله تعالى لم يزل غنيا (اجيب) بأن معناه وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم الى الايمان ولم يضطرهم اليه مع قدرته على ذلك (والله) اى المستجمع الصفات الكمال (غنى) عن خلقه (حميد) اى محمود فى أفعاله (زعم الذين كفروا) اى اوقعوا الستر لما دلت عليه العقول من وحدانية الله تعالى ولو على أدنى الوجوب وزعم قال ابن عربى كنية الكذب وقال الزمخشرى الزعم ادعاء العلم ومنه قوله عليه الصلاة والسلام زعموا مطية الكذب وعن شريح لكل شئ كنية وكنية الكذب زعموا وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه عند أبى داود بئس مطية الرجل زعموا (أن لن يبعثوا) أى من أى باعث ما بوجه من الوجوه (قل) أى يا أشرف الرسل لهؤلاء البعداء (بلى) أى لتبعثن ثم أكد بصريح القسم فقال (وربى) اى المحسن الى بالانتقام ممن كذب بى (لتبعثن) أى بأهون شئ وايسر أمر (ثم لتنبؤن) اى تخبرن اخبارا عظيما ممن يقيمه الله تعالى لاخباركم (بما عملتم) اى بأعمالكم لتجزون عليها (وذلك) اى الامر العظيم عندكم من البعث والحساب (على الله) أى المحيط بصفات الكمال وحده (يسير) اذ الاعادة أسهل من الابتداء (فان قيل) كيف يفيد القسم فى اخباره عن البعث وهم قد أنكروا الرسالة (أجيب) بأنهم أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون انه يعتقد ربه اعتقادا جازما فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه الا وأن يكون الاخبار عنده صدقا أظهر من الشمس فى اعتقاده ثم انه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم ثم انه تعالى لما أخبر عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الايمان قال تعالى (فآمنوا بالله) أى الملك الذى له الاحاطة الكاملة بكل شئ (ورسوله) أى كل من أرسله ولا سيما محمدا صلى الله عليه وسلم (والنور) أى القرآن (الذى أنزلنا)

أي بما النسا من العظمة لانه نور يهتـدي به من ظلمة الضلالة كما يهتدي بالنور في الظلمات (فان قيل) هلا قيل ونوره بالاضافة كما قال ورسوله (أجيب) بأن الالف واللام في النور بمعنى الاضافة فكأنه قال ورسوله ونوره (والله) أي المحيط علما وقدرة (بما تعملون خبير) أي بالغ العلم بما تسرون وما تعلنون فراقبوه في السر والعلانية وقوله تعالى (يوم يجمعكم) منصوب بقوله تعالى لتنبؤن عنـد النحاس وبخبير عنـد الحوفي لما فيه من معنى الوعيد كأنه قال والله يعاقبكم يوم يجمعكم وباذكر مضمرا عند الزمخشري فيكون مفعولا به أو بما دل عليه الكلام أي تتفاوتون يوم يجمعكم قاله أبو البقاء (ليوم الجمع) أي لاجل ما يقع في ذلك اليوم وهو يوم القيامة الذي يجمع الله تعالى فيه الاولين والآخرين من الانس والجن وجميع أهل السماء والارض وقيل يوم يجمع الله بين كل عبـد وعمله وقيل يجمع فيـه بين الظالم والمظلوم وقيل يجمع فيه بين كل نبي وأمته وقيل يجمع فيه ثواب أهل الطاعة وعقاب أهل المعاصي بل هو جامع لجميع ما ذكر (ذلك) أي اليوم العظيم (يوم التغابن) والتغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضا لنزول السعداء منازل الاشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الاشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء وفيه تهكم بالاشقياء لان نزولهم ليس بغبن ولهذا قيل التفاعل هنا من واحد لا من اثنين وفي الحديث ما من عبد أدخل الجنة الا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا وما من عبد يدخل النار الا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة وهو معنى ذلك يوم التغابن وقـد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم استعظاما له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقـة لا التغابن في أمور الدنيا وان جلت وعظمت وذكر في بعض التفاسير أن التغابن هو أن يكتسب الرجل مالا من غير وجهه ايرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله فيدخل الاول النار والثاني الجنـة بذلك المال فـذلك هو الغبن البين والمغابن ما انثنى من البدن نحو الابطين والفخـذين والمغبون من غبن في أهله ومنازله في الجنة ويظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الايمان وغبن كل مؤمن بتقصيره في الاحسان وتضييعه الأيام قال الزجاج ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة بالنسبة الى من هو أعلى منزلة منه (فان قيل) فأي معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها (أجيب) بأنه تمثيل للغبن في الشراء والبيع كقوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم فلما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا ذكر أيضا انهـم غبنوا وذلك ان أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة وهـذا نوع مبادلة اتساعا ومجازا وقـد فرق الله تعالى الخلق فريقين فريقا للجنـة وفريقا للنار وقال الحسـن وقتادة بلغنا أن التغابن على ثلاثة أصـناف رجل علم علما فضـيعه ولم يعمل به فشقي به ورجل علم علما وعمل به فنجا به ورجل اكتسب مالا من وجوه يسأل عنها وشح عليه وفرط في طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيـه خيرا وتركه لوارث لا حساب عليه فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه ورجل كان له عبد فعمل ذلك العبد بطاعة ربه فسعد وعمل السيد بمعصية ربه فشقي وروى القرطبي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة

بين يديه فيقول الله تعالى لهما قولا ما أتيتما قائلان فيقول الرجل يارب أوجبت نفقتها على فنفقتها من حرام ومن حلال وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ولم يبق لى ما أوفى فتقول المرأة يارب وما عسى أن يقول اكتسبه حراما وأكلته حلالا وعصالك فى مرضاتى ولم أرض له بذلك فبعدا له وسحقا فيقول الله تعالى قد صدقت فيؤمر به الى النار ويؤمر بها الى الجنة فتطلع عليه من طبقات الجنة فتقول له غبنا لك غبنا لك سعدنا بما شقيت أنت به فذلك يوم التغابن وقال بعض علماء الصوفية ان الله تعالى كتب الغبن على الخلق أجمعين فلا يلقى أحد ربه الا مغبونا لانه لا يمكنه الاستيفاء العمل حتى يحصل له استيفاء الثواب قال صلى الله عليه وسلم لا يلقى الله أحد الا نادما ان كان مسيأ ان لم يحسن وان كان محسنا ان لم يزدد *(تنبيه)* استدل بعض العلماء بقوله تعالى ذلك يوم التغابن انه لا يجوز الغبن فى المعاملات الدنيوية لان الله تعالى خصص التغابن بيوم القيامة فقال تعالى ذلك يوم التغابن وهذا الاختصاص يفيد أن لا غبن فى الدنيا فكل من اطلع على غبن فى مبيع فانه مردود اذا زاد على الثلث واختاره البغداديون واحتجوا عليه بقوله صلى الله عليه وسلم لحسان بن سعد اذا بايعت فقل لا خلابة ولك الخيار ثلاثا ولان الغبن فى الدنيا ممنوع منه بالاجماع فى حكم الدين اذ هو من باب الخداع المحرم شرعا فى كل ملة لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه فمضى فى البيوع اذ لو حكمنا برده ما نفذ بيع أبدا لانه لا يخلو منه فاذا كان كثيرا أمكن الاحتراز عنه فوجب الرد به والفرق بين القليل والكثير فى الشريعة غير معلوم فقدر بالثلث وهذا الحد اعتبره الشارع فى الوصية وغيرها ويكون معنى الآية على هذا يوم التغابن الجائز مطلقا من غير تفصيل وذلك يوم التغابن الذى لا يستدرك أبدا (ومن يؤمن) أى يوقع الايمان ويجدده على سبيل الاستمرار (بالله) أى الملك الاعظم الذى لا كفء له (ويعمل) تصديقا لايمانه (صالحا) أى عملا هو مما ينبغى الاهتمام بتحصيله لانه لا مثل له فى جلب المصالح ودفع المضار (يكفر عنه سيئاته) التى غلبه عليها نقصان الطبع واتبع ذلك الحامل الآخر وهو التوجيه بجلب المسار لان الانسان يطير الى ربه سبحانه بجناحى الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والنذارة والبشارة (ويدخله) أى رحمة له واكراما وفضلا (جنات) أى بساتين ذات أشجار عظيمة وأغصان ظليلة تستر داخلها ورياض مديدة متنوعة الازاهير عطرة النشر بهيج ريها وأشار الى دوام ريها بقوله تعالى (تجرى من تحتها) أى من تحت قصورها وأشجارها (الانهار) وقرأ نكفر عنه وندخله نافع وابن عامر بالنون فيهما أى نحن بما لنا من العظمة والباقون بالياء التحتية أى الله الواحد القهار (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) وأكده بقوله (أبدا) ولا خروج لهم منها (ذلك) أى الامر العالى جدا من الغفران والاكرام (الفوز العظيم) لانه جامع لجميع المصالح ودفع المضار وجلب المسار ومن جملة ذلك النظر الى وجه الله الكريم ولما ذكر تعالى الفائز بلزومه التقوى ترغيبا اتبعه بضده ترهيبا فقال عز من قائل (والذين كفروا) أى غطوا أدلة ذلك اليوم فكانوا فى الظلام (وكذبوا) أى أوقعوا جميع التغطية وجميع التكذيب (بآياتنا) أى بسببها مع ما لها من العظمة باضافتها الينا وهى القرآن

فلم يعملوا به (أولئك) أى البعداء البغضاء (أصحاب النار خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها وبئس المصير) هى قال الرازى فان قيل قال تعالى فى حق المؤمنين ومن يؤمن بالله بلفظ المستقبل وفى الكفار قال والذين كفروا بلفظ الماضى فالجواب أن تقدير الكلام ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار اه (فان قيل) قال تعالى يؤمن بلفظ الوحدان وخالدين فيها بلفظ الجمع (أجيب) بأن ذلك بحسب اللفظ وهذا بحسب المعنى (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى وبئس المصير بعد قوله تعالى خالدين فيها وذلك بئس المصير (أجيب) بأن ذلك وان كان فى معناه فهو تصريح بما يؤكده كما فى قوله أبدا (ما أصاب) أحدا (من مصيبة) أى مصيبة كانت دينية أو دنيوية فى نفس أو مال أو قول أو فعل تقتضى همًّا أو توجب عقابا آجلا أو عاجلا (الا باذن الله) أى بتقدير الملك الاعظم وقال الفراء يريد الا بأمر الله وقيل الا بعلم الله وقيل سبب نزول هذه الآية ان الكفار قالوا لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله تعالى عن المصائب فى الدنيا فبين الله تعالى ان ما أصاب من مصيبة الا بقضائه وقدره (فان قيل) بم يتصل قوله تعالى ما أصاب من مصيبة الا باذن الله (أجيب) بأنه يتعلق بقوله تعالى فآمنوا بالله ورسوله (ومن يؤمن بالله) يصدق بأنه لا تصيبه مصيبة الا بقضاء الله الملك الاعظم وتقديره واذنه (يهد قلبه) قال ابن عباس رضى الله عنهما هو أن يجعل فى قلبه اليقين حتى يعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه أى فيسلم لقضاء الله وقدره وقال الكلبى هو اذا ابتلى صبر واذا أنعم عليه شكر واذا ظلم غفر وقيل يهد قلبه الى نيل الثواب فى الجنة وقيل يثبته على الايمان وقال أبو عثمان الحيرى من صح ايمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة وقيل يهد قلبه عند المصيبة فيقول انا لله وانا اليه راجعون قاله ابن جبير (والله) أى الملك الذى لا نظير له (بكل شئ) مطلقا من غير استثناء (عليم) فلا يخفى عليه تسليم من انقاد لامره فاذا تحقق من هدى قلبه ذلك زاح عنه كل اعتقاد باطل من كفر أو بدعة أو صفة خبيثة (وأطيعوا الله) أى الملك الاعلى الذى له الامر كله (وأطيعوا الرسول) أى هونوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله تعالى واعملوا بكتابه وأطيعوا الرسول فى العمل بسنته (فان توليتم) أى عن الطاعة (فانما على رسولنا) أضافه اليه على وجه الكمال تعظيما له وتهديدا لمن يتولى عنه (البلاغ المبين) أى الظاهر فى نفسه المظهر لكل أحد انه أوضح له غاية الايضاح ولم يدع لبسا وليس اليه خلق الهداية فى القلوب (الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (لا اله الا هو) فهو القادر على خلق الهداية فى القلوب والاقبال بها لا يقدر على ذلك غيره (وعلى الله) أى الذى له الامر لا على غيره (فليتوكل المؤمنون) أى لان ايمانهم بأن الكل منه يقتضى ذلك وقال الزمخشرى هذا بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه والتقوى به فى أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم) أى وان أظهرن غاية المودة (وأولادكم) أى وان أظهروا غاية الشفقة (عدوا لكم) فقال ابن عباس نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك

الاشجعي شكا الى النبي صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده فنزلت ذكره النحاس وحكاه الطبري عن عطاء بن يسار قال نزلت سورة التغابن كلها بمكة الا هؤلاء الآيات يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فانها نزلت في عوف بن مالك الاشجعي كان ذا أهل وولد وكان اذا أراد الغزو بكوه ورققوه وقالوا الى من تدعنا فيرق فيقيم فنزلت هذه الآية الى آخر السورة بالمدينة وروى الترمذي عن ابن عباس وسئل عن هذه الآية قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد تفقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية حديث حسن صحيح وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان قعد لابن آدم في طريق الايمان فقال له أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك أهلك ومالك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك فخالفه فجاهد فقتل فحق على الله أن يدخله الجنة وقعود الشيطان يكون بوجهين أحدهما يكون بالوسوسة والثاني أن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب قال تعالى وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وفي حكمة عيسى عليه الصلاة والسلام من اتخذ أهلا ومالا وولدا كان في الدنيا عبدا وقال عليه الصلاة والسلام تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد القطيفة ولا دناءة أعظم من دناءة الدينار والدرهم ولا أخس من همة ترتفع بثوب جديد ويدخل في قوله تعالى ان من أزواجكم الذكر والانثى فكما أن الرجل تكون زوجته عدوا له كذلك المرأة يكون زوجها عدوا لها بهذا المعنى (فاحذروهم) أي أن تطيعوهم في التخلف عن الخير ولا تأمنوا غوائلهم (وان تعفوا) أي توقعوا المجاوزة عن ذنوبهم بعدم العقاب عليها فانه لا فائدة في ذلك فان من طبع على شيء لا يرجع عنه وانما النافع الحذر الذي أرشد اليه تعالى لئلا يكون سببا للذم المنهي عنه (وتصفحوا) أي بالاعراض عن المقابلة بالتثريب باللسان (وتغفروا) أي بأن تستروا ذنوبهم سترا تاما شاملا للعين والاثر بالتجاوز (فان الله) أي الجامع لصفات الكمال (غفور) أي بالغ المحو لاعيان الذنوب وآثارها جزاء لكم على غفرانكم لهم وهو جدير بان يصلحهم لكم بسبب غفرانكم (رحيم) فيكرمكم بعد ذلك الستر بالانعام فتخلقوا بأخلاقه تعالى يزدكم من فضله (انما أموالكم) أي عامة (وأولادكم) كذلك (فتنة) أي اختبار من الله تعالى لكم وهو أعلم بما في نفوسكم منكم لكي ليظهر في عالم الشهادة من يميله ذلك فيكون عليه نقمة ممن لا يميله فيكون عليه نعمة فربما رام الانسان صلاح ماله وولده فبالغ فأفسد نفسه ثم لا يصلح ذلك ماله ولا ولده روى أبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال يؤتى برجل يوم القيامة فيقال أكل عياله حسناته وعن بعض السلف العيال سوس الطاعات ويكفي في فتنة المال قصة ثعلبة بن حاطب أحد من نزل فيه قوله تعالى ومنهم من عاهد الله وعن ابن

مسعود لا يقولن أحدكم اللهم اعصمني من الفتنة فانه ليس أحد منكم يرجع الى مال ولا ولد الا وهو مشتمل على فتنة ولكن ليقل اللهم انى أعوذ بك من مضلات الفتن وقال الحسن فى قوله تعالى ان من أزواجكم وأولادكم أدخل من للتبعيض لانهم كلهم ليسوا اعداء ولم يذكر فى قوله تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة لانهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما روى الترمذى وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يخطب فجاء الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال صدق الله عز وجل انما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ثم أخذ فى خطبته * (تنبيه) * قدم الاموال على الاولاد لان فتنة المال أكثر وترك ذكر الازواج فى الفتنة قال البقاعى لان منهن من يكون صلاحا وعونا على الآخرة (والله) أى ذو الجلال (عنده) وناهيك بما يكون منه بسبيل جلاله وعظمته (أجر) ثم وصفه بقوله تعالى (عظيم) أى لمن ائتمر بأوامره التى أمره بها وقوله تعالى (فاتقوا الله) أى الملك الاعلى (ما استطعتم) أى جهدكم ووسعكم ناسخ لقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته قاله قتادة والربيع ابن أنس والسدى وذكر الطبرى عن ابن زيد فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته قال جاء أمر شديد قال ومن يعرف قدر هذا ويبلغه فلما علم الله تعالى أنه قد اشتد عليهم نسخه عنهم وجاء بهذه الآية الاخرى فقال فاتقوا الله ما استطعتم وقال ابن عباس وهى محكمة لا نسخ فيها ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فيه حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم (فان قيل) اذا كانت الآية غير منسوخة فكيف الجمع بين الآيتين وما وجه الامر باتقائه حق تقاته مطلقا من غير تخصيص ولا مشروطا بشرط والامر باتقائه بشرط الاستطاعة (أجيب) بأن قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم معناه فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعله فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر الى أرض الاسلام فتتركوا الهجرة وأنتم مستطيعون وذلك أن الله تعالى قد عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم الى قوله تعالى فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم فأخبر تعالى انه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا بالاقامة فى دار الشرك فكذلك معنى قوله تعالى ما استطعتم فى الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام أن تتركوها فتنة أموالكم وأولادكم ويدل على صحة هذا أن قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم عقب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ولا خلاف بين علماء التأويل فى أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام بتثبيط أولادهم اياهم عن ذلك كما تقدم وهذا اختيار الطبرى وقال ابن جبير قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم أى فيما يتطوع به من نافلة أو صدقة فانه لما نزل

قوله تعالى اتقوا الله حق تقاته اشتدت على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفا فيهم فاتقوا الله ما استطعتم فنسخت الاولى قال الماوردي ويحتمل أن يثبت هذا النقل لان المكره على المعصية غير مؤاخذ بها لانه لا يستطيع اتقاءها (واسمعوا) أى سماع اذعان وتسليم لما توعظون به وبجميع أوامره (وأطيعوا) أى وصدقوا ذلك الاذعان بمباشرة الافعال الظاهرة فى الاسلاميات من القيام بأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله فى كل أمر ونهى على حسب الطاقة وحذف المتعلق ليصدق الامر بكل طاعة (وأنفقوا) أى أوقعوا الانفاق كما حدلكم فيما وجب أو ندب اليه والانفاق لا يخص نوعا بل يكون بكل ما رزق الله من الذاتى والخارجى وقوله تعالى (خيرا لانفسكم) فى نصبه أوجه أحدها قال سيبويه انه مفعول بفعل مقدر دل عليه وأنفقوا تقديره قدموا خيرا لانفسكم كقوله تعالى انتهوا خيرا لكم الثانى تقديره يكن الانفاق خيرا فهو خبر كان المضمرة وهو قول أبى عبيدة الثالث أنه نعت مصدر محذوف وهو قول الكسائى والفراء أى انفاقا خيرا لانفسكم فان الله يعطى خيرا منه فى الدنيا مع ما تزكى به النفس ويدخر عليه من الجزاء فى الآخرة مما لا يدرى كنهه فلا يغرنكم عاجل شئ من ذلك فانما هو زخرف * ولما ذكر ما فى الانفاق من الخير عمم فى جميع الاوامر بقوله تعالى (ومن يوق شح نفسه) فيفعل فى ماله جميع ما أمر به موقنا به مطمئنا اليه حتى يرتفع عن قلبه الاخطار ويتحرر عن رق المكونات والشح خلق باطنى هو الداء العضال والبخل فعل ظاهر ينشأ عن الشح والنفس تارة تشح بترك الشهوة من المعاصى فتفعلها وتارة باعطاء الاعضاء فى الطاعات فتتركها وتارة بانفاق المال ومن فعل ما فرض عليه خرج من الشح * ولما كان الواقى هو الله تعالى سبب عن وقايته قوله تعالى (فأولئك) أى العالو الرتبة (هم المفلحون) أى الفائزون الذين حازوا جميع المرادات بما اتقوا الله فيه ثم رغب فى الانفاق بقوله تعالى (ان تقرضوا الله) أى الملك الاعلى ذا الغنى المطلق الحائز لجميع صفات الكمال (قرضا حسنا) والقرض الحسن هو التصدق من الحلال مع طيب النفس ومع الاخلاص والمبادرة (يضاعفه لكم) أى لاجلكم خاصة أقل ما يكون بالواحد عشرا الى ما لا يتناهى على حسب النيات قال القشيرى يتوجه الخطاب بهذا على الاغنياء فى بذل أموالهم وعلى الفقراء فى اخلاء أيامهم وأوقاتهم من مرادتهم وايثار مراد الحق على مراد أنفسهم فالغنى يقال له آثر حكمى على مرادك فى مالك وغيره والفقير يقال له آثر حكمى فى نفسك وقلبك ووقتك * ولما كان الانسان لما له من النقصان وان اجتهد لا يبلغ جميع ما أمر به لان الدين وان كان يسيرا فهو متين لن يشاده أحد الا غلبه قال تعالى (ويغفر لكم) أى يوقع الغفران وهو محو ما فرط عينه وأثره (والله) أى الذى لا تقاس عظمته بشئ (شكور) أى بليغ الشكر لمن يعطى لاجله ولو كان قليلا فيثيبه ثوابا جزيلا خارجا عن الحصر وهو ناظر الى المضاعفة (حليم) فلا يعجل بالعقوبة على ذنب من الذنوب وان عظم بل يمهل طويلا ليتذكر العبد الاحسان مع العصيان فيتوب ولا يهمل ولا يغتر بحلمه فان غضب الحليم لا يطاق وهو

راجع الى الغفران (عالم الغيب) وهو ماغاب عن الخلق كلهم فيشمل ماهو داخل القلب مما تؤثره الجبلة ولا علم لصاحب القلب به فضلا عن غيره (والشهادة) وهو كل ماظهر وكان بحيث يعلمه الخلق وهذا الوصف داع الى الاحسان من حيث انه موجب للمؤمن ترك ظاهر الاثم وباطنه وكل قصور وفتور وغفلة وتهاون فيعبد الله تعالى كأنه يراه (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى بالغ الحكمة التى يعجز عن ادراكها الخلائق وقال ابن الانبارى الحكيم هو المحكم لخلق الاشياء فصرف عن مفعل الى فعيل ومنه قوله تعالى الم تلك آيات الكتاب الحكيم معناه المحكم فصرف عن مفعل الى فعيل وماقاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة حديث موضوع

(سورة الطلاق مدنية)

وهى احدى عشرة آية وقيل اثنتا عشرة آية وقيل ثلاث عشرة آية وماتتان وتسع وأربعون كلمة وألف وستون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع صفات الكمال (الرحمن) الذى عم برحمته والنوال (الرحيم) الذى خص بتمام النعمة ذوى الهمم العوال وقرأ (يا أيها النبى) نافع بالهمزة وسهل الهمزة من اذا وأبدلها أيضا وا واخصه صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب لان النبى امام أمته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم يافلان افعلوا كيت وكيت اظهارا لتقدمته واعتبارا لرآسته وانه لسان قومه والذى يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه فكان هو وحده فى حكم كلهم وسادا مسد جميعهم وقيل انه على اضمار قول أى يا أيها النبى قل لامتك (اذا طلقتم النساء) أى أردتم طلاق هذا النوع واحدة منهن فأكثر وقيل انه خطاب له ولامته والتقدير يا أيها النبى وأمته فحذف المعطوف لدلالة مابعده عليه كقوله اذا حذفته رجلها أى ويدها وكقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر وقيل انه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم خوطب بلفظ الجمع تعظيما له كقوله

فان شئت حرمت النساء سواكم * وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

قال الرازى وجه تعلق أول هذه السورة بآخر التى قبلها هو أنه تعالى أشار فى آخر التى قبلها الى كمال علمه بقوله تعالى عالم الغيب والشهادة وفى أول هذه السورة اشارة الى كمال علمه بمصالح النساء والاحكام المخصوصة بطلاقهن فكأنه بين ذلك الكلى بهذه الجزئيات وروى ابن ماجه عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها وعن أنس قال طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء وقيل له راجعها فانها صوامة قوامة وهى من أزواجك فى الجنة ذكره الماوردى والقشيرى وزاد القشيرى ونزل فى خروجها الى أهلها قوله تعالى لا تخرجوهن من بيوتهن وقال الكلبى سبب نزول هذه الآية غضب رسول الله صلى الله عليه

وسلم على حفصة لما أسر اليها حديثا فاظهرته لعائشة فطلقها تطليقة فنزلت وقال السدى نزلت
فى عبد الله بن عمر طلق امرأته حائضا تطليقة واحدة فأمره النبى صلى الله عليه وسلم
بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فان شاء أمسكها وان شاء طلقها قبل
أن يجامع فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء وهو قوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن)
أى فى الوقت الذى يشرعن فيه فى العدة وقد قيل ان رجالا فعلوا مثل مافعل عبد الله بن عمر منهم
عبد الله بن عمرو بن العاص وعمر بن سعيد بن العاص وعتبة بن غزوان فنزلت الآية فيهم
وروى الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال الطلاق على أربعة وجوه وجهان حلالان ووجهان
حرامان فأما الحلال فأن يطلقها طاهرا عن غير جماع وأن يطلقها حاملا مستبينا حملها
وأما الحرام فأن يطلقها حائضا أو أن يطلقها حين يجامعها لايدرى أشتمل الرحم على ولد أم لا
(تنبيه) الطلاق ينقسم الى سنى وبدعى ولا ولا فطلاق موطوأة ولو فى دبر تعتد باقراء سنى
ان ابتدأتها الاقراء عقب الطلاق ولم يطأها فى طهر طلقها فيه أو علق طلاقها بمضى بعضه
ولا وطئها فى نحو حيض قبله ولا فى نحو حيض طلق مع آخره أو علق بآخره وذلك لاستعقابه
الشروع فى العدة وعدم الندم فيمن ذكرت والا فبدعى وان سألته طلاقا بلا عوض وطلاق
غير الموطوأة المذكورة بأن لم توطأ أو كانت صغيرة أو آيسة أو حاملا منه وخلع زوجته فى زمن
حيض بعوض لاسنى ولابدعى والبدعى حرام للنهى عنه وقسم جماعة الطلاق الى واجب
كطلاق المولى أى واجب مخيران لم يكن عذر ومعين ان كان عذر شرعى كالاحرام ومندوب
كطلاق غير مستقيمة الحال كسيئة الخلق ومكروه كمستقيمة الحال وحرام كطلاق البدعة
وأشار الامام الى المباح بطلاق من لايهواها ولا تسمح نفسه بمؤنتها من غير تمتع بها وروى
الثعلبى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من أبغض الحلال الى الله
الطلاق وعن على عن النبى عليه الصلاة والسلام قال تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه
العرش وعن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعاذ ماخلق الله تعالى شيأ
على وجه الارض أحب اليه من العتاق ولا خلق الله تعالى شيأ أبغض اليه من الطلاق
وعن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحل الله شيأ أبغض اليه من
الطلاق واختلفوا فى الاستثناء فى الطلاق والعتق فقالت طائفة بجوازه وهو مروى عن
طاوس وبه قال حماد الكوفى والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى وقال مالك والاوزاعى لايجوز
الاستثناء فى الطلاق والعتق وقال قتادة لايجوز الاستثناء فى الطلاق خاصة قال ابن المنذر
وبالقول الاول أقول* ولما كان نظر الشارع الى العدة شديدا صرح بصيغة الامر فقال تعالى
(وأحصوا) أى اضبطوا ضبطا كانه فى اتقانه محسوس (العدة) ليعرف زمان الرجعة والنفقة
والسكنى وحل النكاح لاخت المطلقة مثلا ونحو ذلك من الفوائد الجليلة (واتقوا) أى
فى ذلك (الله) أى الملك الاعظم الذى له الخلق والامر (ربكم) أى لاحسانه فى تربيتكم
فى جعلكم على الحنيفية السمحة ورفع جميع الآصار عنكم (لاتخرجوهن) أى أيها الرجال

فى حال

في حال العدة (من بيوتهن) أي المساكن التي وقع الفراق فيها وهي مساكنهن التي يسكنها قبل العدة وهي بيوت الازواج وأضيفت اليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها (ولا يخرجن) أي من بيوتهن حتى تنقضي عدتهن ولو وافق الزوج على ذلك وعلى الحاكم المنع منه لان في العدة حقا لله تعالى وقد وجبت في ذلك المسكن وقوله تعالى (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) مستثنى من الاول والمعنى الا أن تبذو على الزوج فانه كالنشوز في اسقاط حقها وقال ابن عباس الفاحشة المبينة أن تبذو على أهل زوجها فيحل اخراجها لسوء خلقها وقال ابن مسعود أراد بالفاحشة المبينة أن تزني فتخرج لاقامة الحد عليها ثم ترد الى منزلها وقال قتادة الفاحشة النشوز وذلك أن يطلقها على النشوز فتحول عن بيته ويجوز أن يكون مستثنى من الثاني للمبالغة في النهي والدلالة على أن خروجها فاحشة هذا كله عند عدم العذر أما العذر كشراء غير من لها نفقة على المفارق نحو طعام كقطن وكان نهارا وغزلها ونحوه كحديثها وتأنيسها عند جارتها ليلا وترجع وتبيت ببيتها فانه جائز للحاجة الى ذلك وكخوف على نفس أو مال من نحو هدم وغرق وفسقة مجاورين لها وشدة تأذيها بجيران وشدة تأذيهم بها للحاجة الى ذلك بخلاف الاذى اليسير اذ لا يخلو منه أحد ومن الجيران الاحماء وهم أقارب الزوج نعم ان اشتد أذاها بهم أو عكسه وكانت الدار ضيقة نقلهم الزوج عنها وخرج بالجيران ما لو طلبت بيت أبويها وتأذت بهما أو هما بها فلا نقل لان الوحشة لا تطول بينهما ولو انتقلت لبلد أو مسكن باذن زوجها فوجبت العدة ولو قبل وصولها اليه اعتدت فيه لانها مأمورة بالمقام فيه فان انتقلت لذلك بلا اذن فتعتد في الاول وان وجبت العدة بعد وصولها للثاني لعصيانها بذلك نعم ان أذن لها بعد انتقالها أن تقيم في الثاني فكما لو انتقلت بالاذن ولو أذن لها في الانتقال فوجبت العدة قبل خروجها اعتدت في الاول ولو سافرت باذن زوجها فوجبت في الطريق فعودها أولى من مضيها فان مضت وجب عودها بعد انقضاء حاجتها ان سافرت لها أو بعد انقضاء مدة الاذن ان قدر لها مدة أو مدة اقامة المسافر ان لم تقدر لها مدة في سفر غير حاجتها ولو خرجت فطلقها وقال ما أذنت في الخروج أو قال وقد قالت أذنت في نقلتي أذنت لا للنقلة صدق بيمينه ولو كان المسكن ملكا له ويليق بها تعين لان تعتد فيه كما مر ويصح بيعه في عدة أشهر كالمكترى أو كان مستعارا أو مكرى وانقضت مدة الكراء انتقلت منه ان امتنع المالك وان كان ملكا لها تخيرت بين الاستمرار فيه باعارة أو اجارة والانتقال منه كما لو كان المسكن خسيسا ويخيرهو ان كان نفيسا وسكنى المعتدة عن فرقة واجب على الزوج حيث تجب نفقتها عليه لو لم تفارق سواء أكانت الفرقة بطلاق أو فسخ أو وفاة لقوله تعالى اسكنوهن من حيث سكنتم وقيس به الفسخ بأنواعه بجامع فرقة النكاح في الحياة ولخبر فريعة بنت مالك في الوفاة ان زوجها قتل فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أن ترجع الى أهلها وقالت ان زوجي لم يتركني في منزل يملكه فأذن لها في الرجوع قالت فانصرفت حتى اذا كنت في الحجرة أو في المسجد دعاني فقال امكثي في بيتك

حتى يبلغ الكتاب أجله قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا صححه الترمذى وغيره وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء التحتية والباقون بكسرها (وتلك) أى الاحكام العالية جدا لما فيها من الجلالة وبانتسابها الى الملك الاعلى من هذا الذى ذكر فى هذه السورة وغيرها (حدود الله) أى الملك الاعظم (ومن يتعد) اى يقع منه فى وقت من الاوقات انه تعمد أن يعدو (حدود الله) أى الملك الذى لا كفء له أو بعضها كأن طلق بدعيا (فقد ظلم نفسه) أى عرضها للعقاب. وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الظاء والباقون بالادغام (لاتدرى) أى النفس أو أنت يا أيها النبى أو المطلق (لعل الله) أى الذى بيده القلوب ومقاليد جميع الامور (يحدث) أى يوجد شيأ حادثا لم يكن ايجادا ثابتا لا تقدر الخلق على التسبب فى زواله (بعد ذلك) أى الحادث من الاساءة والبغض (أمرا) بأن يقلب قلبه من بغضها الى محبتها ومن الرغبة عنها الى الرغبة فيها ومن عزيمة الطلاق الى الندم عليه فيراجعها وقال أكثر المفسرين أراد بالامر هنا الرغبة فى الرجعة ومعنى الكلام التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث وهذا أحسن الطلاق وأحله فى السنة وأبعده عن الندم ويدل عليه ماروى عن ابراهيم النخعى ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ان لا يطلقوا للسنة الا واحدة ثم لا يطلقون غير ذلك حتى تنقضى العدة وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثا فى ثلاثة أطهار وقال مالك بن أنس لا أعرف طلاق السنة الا واحدة وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو مفرقة وأما أبو حنيفة وأصحابه فانما كرهوا مازاد على الواحدة فى طهر واحد فأما مفرقا فى الاطهار فلا لماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهى حائض ماهكذا أمرالله انما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة وروى أنه قال لعمر مرابنك فليراجعها ثم ليدعها تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها ان شاء فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء وعند الشافعى لابأس بارسال الثلاث وقال لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح ومالك يراعى فى طلاق السنة الواحدة والوقت وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت والشافعى يراعى الوقت وحده قال الزمخشرى (فان قلت) هل يقع الطلاق المخالف للسنة (قلت) نعم وهو آثم لماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا طلق امرأته ثلاثا بين يديه فقال أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم وفى حديث ابن عمر أنه قال يارسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثا فقال له قال اذا عصيت وبانت منك امرأتك وعن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثا الا أوجعه ضربا وأجاز ذلك عليه وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين ان من خالف السنة فى الطلاق فأوقعه فى حيض أو ثلث لم يقع وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف (فان قيل) قوله تعالى اذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الاقراء والآيسات والصغائر والحوامل فكيف صح تخصيصه بذوات الاقراء المدخول بهن (أجيب) بأنه لا عموم ثم ولا خصوص ولكن النساء اسم جنس للاناث من الانس وهذه الجنسية معنى قائم فى كلهن

وفى بعضهنّ مجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك فلما قيل فطلقوهنّ لعدتهنّ علم أنه أطلق على بعضهنّ وهنّ المدخول بهنّ من المعتدات بالحيض * ولما حدّ سبحانه ما يفعل فى العدة أتبعه ما يفعل عند انقضائها بقوله تعالى (فاذا بلغن) أى المطلقات (أجلهنّ) أى شارفن انقضاء العدة مشارفة عظيمة (فامسكوهنّ) أى بالمراجعة وهذا يدل على أنّ الاولى من الطلاق مادون البائن لاسيما الثلاث (بمعروف) أى حسن عشرة لا لقصد المضارة بطلاق آخر لاجل ايجاب عدة أخرى أو غير ذلك (أو فارقوهنّ) بعدم المراجعة لتتمّ العدة فتملك نفسها (بمعروف) أى بايفاء الحق مع حسن الكلام وكل أمر حسنه الشرع فلا يقصد أذاها بتفريقها عن ولدها مثلا أو عنه ان كانت عاشقة له لقصد الاذى فقط من غير مصلحة وكذا ما أشبه ذلك من أنواع الضرر بالفعل والقول فقد تضمنت الآية بافصاحها الحث على فعل الخيرات وبافهامها اجتناب المنكرات *(تنبيه)* قال بعض العلماء فى قوله تعالى فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف وقوله تعالى فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ان الزوج له حق فى بدن الزوجة ولها حق فى بدنه وذمته فكل من له دين فى ذمة غيره سواء أكان مالا أو منفعة من ثمن أو مثمن أو أجرة أو بدل متلف أو ضمان مغصوب أو نحو ذلك فعليه أن يؤدّى ذلك الحق الواجب باحسان وعلى صاحب الحق أن يتبع باحسان كما قال تعالى فى آية القصاص فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان وكذا الحق الثابت فى بدنه مثل حق الاستمتاع والاجارة على عينه ونحو ذلك فالطالب يطلب بمعروف والمؤدّى يؤدّى باحسان * ولما كان الاشهاد أقطع للنزاع قال تعالى حاثا على الكيس واليقظة والبعد عن أفعال المغفلين العجزة (وأشهدوا) أى على الرجعة أو المفارقة وقيل المعنى واشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعا (ذوى عدل منكم) قطعا للنزاع وهذا الاشهاد مندوب اليه عند الجمهور كقوله تعالى واشهدوا اذا تبايعتم وأوجب الاشهاد فى الرجعة الامام أحمد فى احدى الروايتين عنه والشافعى كذلك لظاهر الامر وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعىّ فى القول الآخر انّ الرجعة لا تفتقر الى القبول فلم تفتقر الى الاشهاد كسائر الحقوق واذا جامع أو قبل أو باشر يريد بذلك الرجعة فليس بمراجع وقال أبو حنيفة وأصحابه اذا قبل أو باشر أو لمس بشهوة فهو رجعة وكذا النظر الى الفرج رجعة وقال الشافعىّ وأبو ثور اذا تكلم بالرجعة فهى رجعة وقيل وطؤه مراجعة على كل حال نواها أو لم ينوها وهو مذهب أحمد واليه ذهب الليث وبعض المالكية قال القرطبى وكان مالك يقول اذا وطئ ولم ينو الرجعة فهو وطء فاسد ولا يعود الى وطئها حتى يستبرئها من مائه الفاسد وله الرجعة فى بقية العدة الاولى وليست له الرجعة فى هذا الاستبراء *(تنبيه)* قوله تعالى منكم قال الحسن من المسلمين وعن قتادة من أحراركم وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الاناث لانّ ذوى للمذكر وقوله تعالى (وأقيموا) أى أيها المأمورون حيث كنتم شهودا (الشهادة) التى تحملتموها بأدائها على أكمل أحوالها (لله) أى مخلصين لوجه الملك الاعلى لا لاجل المشهود له والمشهود عليه ولا لشئ سوى وجه الله تعالى

وفيه حث على أداء الشهادة لما فيه من العسر على الشاهد بترك مهماته وعسر لقاء الحاكم الذي يؤدى عنده وربما بعد مكانه وكان للعدل فى الاداء عوائق أيضا (ذلكم) أى الذى ذكرت لكم أيها الامة من هذه الامور البديعة النظام العالية المرام وأولاها بذلك هذا الاشهاد واقامة الشهادة (يوعظ) أى يلين ويرقق (به من كان) أى كونا راسخا من جميع الناس (يؤمن بالله) أى الذى له الكمال كله (واليوم الآخر) فانه المحط الاعظم للترقيق واما من لم يكن متصفا بذلك فكأنه لقساوة قلبه ما وعظ به لانه لم ينتفع به وقوله تعالى (ومن يتق الله) أى يخف الملك الاعظم فيجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية بما يرضيه وهو اجتلاب ما أمر به واجتناب مانهى عنه من الطلاق وغيره ظاهرا وباطنا لان التقوى اذا انفردت فى القرآن عن مقارن عمت الامر والنهى وان اقترنت بغيرها نحو احسان أو رضوان خصت المناهى (يجعل) أى بسبب التقوى (له مخرجا) جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق بالوعد على اتقائه عما نهى عنه صريحا أو ضمنا من الطلاق فى الحيض والاضرار بالمعتدة واخراجها من المسكن وتعدى حدود الله تعالى روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عمن طلق ثلاثا أو ألفا هل له من مخرج فتلاها وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والشعبى والضحاك هذا فى الطلاق خاصة أى من طلق كما أمره الله تعالى يكن له مخرج فى الرجعة فى العدة وأن يكون كأحد الخطاب بعد العدة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أيضا يجعل له مخرجا ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة وقيل المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه قاله على بن صالح وقال الكلبى ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار الى الجنة وقال الحسن مخرجا مما نهى الله عنه وقال أبو العالية مخرجا من كل شدة وقال الربيع بن خيثم مخرجا من كل شئ ضاق على الناس وقال الحسين بن الفضل ومن يتق الله فى أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة (ويرزقه) أى الثواب (من حيث لا يحتسب) أى يبارك له فيما آتاه وقال سهل بن عبد الله ومن يتق الله فى اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة البدع ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب وقال أبو سعيد الخدرى ومن تبرأ من حوله وقوته بالرجوع الى الله تعالى يجعل له مخرجا مما كلفه الله بالمعونة له وتأول ابن مسعود ومسروق الآية على العموم وهذا هو الذى يقوى عندى وقال أبو ذر قال النبى صلى الله عليه وسلم انى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم وتلا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب قال مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة وقال أكثر المفسرين نزلت فى عوف بن مالك الاشجعى أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكى اليه الفاقة وقال ان العدو أسر ابنى وجزعت الام فما تأمرنى فقال صلى الله عليه وسلم اتق الله واصبر وآمرك واياها أن تكثرا من قول لا حول ولا قوة الا بالله فعاد الى بيته وقال لامرأته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى واياك أن نكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فقالت نعم ما أمرنا به فجعلا يقولان فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها الى المدينة وهى أربعة آلاف شاة فنزلت الآية وجعل النبى صلى الله عليه وسلم تلك الاغنام له وروى

أنه جاء وقد أصاب ابلا من العدو وكان فقيرا فقال الكلبي انه أصاب خمسين بعيرا وفي رواية ذأفلت ابنه من الاسر وركب ناقة لقوم فمر بسرح لهم فاستاقه وقال مقاتل أصاب غنما ومتاعا فقال أبوه للنبي صلى الله عليه وسلم أيحل لي أن آكل مما أتى به ابني قال نعم ونزل ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وروى الحسن عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها وقال الزجاج اى اذا اتقى وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه ان كان ذا ضيقة ورزقه من حيث لا يحتسب وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب (ومن يتوكل) أي يسند أموره كلها معتمدا فيها (على الله) أي الملك الذي بيده كل شيء ولا كفء له (فهو) أي الله في غيبه فضلا عن الشهادة بسبب توكله (حسبه) اى كافيه ما أهمه وحذف المتعلق للتعميم وحرف الاستعلاء للاشارة الى أنه كان حمل أموره كلها عليه سبحانه لانه القوي العزيز الذي يدفع عنه كل ضار ويجلب له كل سار الى غير ذلك من المعاني الكبار فلا يبدو له في عالم الشهادة شيء يشينه وقيل من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفايته ولم يرد الدنيا لان المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل وفي الحديث لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ويؤخذ من هذا أن التوكل يكون مع مباشرة الاسباب لانه صلى الله عليه وسلم قال تغدو وتروح وهي من المقامات العظيمة قال البقاعي نقلا عن المولوي والا كان اتكالا وليس بمقام بل خسة همة وعدم مروأة لانه ابطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتب المسببات على الاسباب اهـ * ولما كان ذلك أمرا لا يكاد يحيط به الوهم علله بقوله تعالى مهولا له بالتأكيد والاظهار في موضع الاضمار (ان الله) أي المحيط بكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص (بالغ أمره) أي جميع ما يريده فلا بد من نفوذه سواء حصل توكل أم لا قال مسروق يعني قاض أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه الا أن من توكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا وقرأ حفص بالغ بغير تنوين وأمره بالجر مضاف اليه على التخفيف والباقون بالتنوين وأمره بنصب الراء وضم الهاء قال ابن عادل وهو الاصل خلافا لابي حيان (قد جعل الله) أي الملك الذي لا كفء له ولا معقب لحكمه جعلا مطلقا من غير تقييد بجهة ولا حيثية (لكل شيء) كرخاء وشدة (قدرا) أي تقديرا لا يتعداه في مقداره وزمانه وجميع عوارضه وأحواله وان اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه فمن توكل استفاد الاجر وخفف عنه الالم وقذف في قلبه السكينة ومن لم يتوكل لم ينفعه ذلك وزاد ألمه وطال غمه بشدة سعيه وخيبة أسبابه التي يعتقد أنها هي المنجية فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط جف القلم فلا يزاد في المقادير شيء ولا ينقص منها شيء ويحكى أن رجلا أتى عمر فقال أولني مما أولاك الله فقال أتقرأ القرآن قال لا قال انا لا نولي من لا يقرأ القرآن فانصرف الرجل واجتهد حتى تعلم القرآن رجاء أن يعود الى عمر فيوليه فلما تعلم

القرآن تخلف عن عمر فرآه ذات يوم فقال ياهذا أهجرتنا فقال يا أمير المؤمنين لست ممن يهجر ولكني تعلمت القرآن فاغناني الله عن عمر وعن باب عمر قال فأي آية أغنتك قال قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا فمن توكل على غيره سبحانه ضاع لانه لايعلم المصالح وان علم لايعلم كيف يستعملها وهو سبحانه المنفرد بعلم ذلك كله ولايعلمه حق علمه غيره * (تنبيه) * الآية تفهم ان من لم يتق الله يقتر عليه وهو موافق لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لايرد القدر الا الدعاء ولا يزيد في العمر الا البر وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وتفهم ان من لم يتوكل لم يكف شيأ من الاشياء وقال عبد الله بن رافع لما نزل قوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنحن اذا توكلنا عليه نرسل ما كان لنا ولانحفظه فنزل ان الله بالغ أمره فيكم وعليكم وقال الربيع بن خيثم ان الله قضى على نفسه ان من توكل عليه كفاه ومن آمن به هداه ومن أقرضه جازاه ومن وثق به نجاه ومن دعاه أجاب له وتصديق ذلك في كتاب الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان * ولما بين تعالى أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الاقراء عرفهم في هذه السورة عدة التي لاترى الدم قال أبو عثمان عمر بن سليمان نزلت عدة النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها قال أبي بن كعب يارسول الله ان ناسا يقولون قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شئ الصغار والكبار وذوات الحمل فنزل (واللائي يئسن) أي من المطلقات (من المحيض) أي الحيض الآية وقال مقاتل لما ذكر قوله تعالى والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء قال خلاد بن النعمان يارسول الله فما عدة التي لم تحض وعدة التي انقطع حيضها وعدة الحبلى فنزلت وقيل ان معاذ بن جبل سأل عن عدة الكبيرة التي يئست فنزلت وقال مجاهد الآية واردة في المستحاضة لاتدري دم حيض هو أودم علة واختلف في سن اليأس فالذي عليه الاكثر أنه اثنان وستون سنة وقيل خمس وخمسون وقيل ستون وقيل سبعون * ولما كان هذا الحكم خاصا بازواج المسلمين لحرمة فرشهم وحفظ أنسابهم قال تعالى (من نسائكم) أي أيها المسلمون سواء كن مسلمات أومن أهل الكتاب (ان ارتبتم) أي شككتم في عدتهن (فعدتهن ثلاثة أشهر) كل شهر يقوم مقام حيضة لان أغلب عوائد النساء أن يكون كل قرء في شهر (واللائي لم يحضن) أي لصغرهن أولانهن لاحيض لهن أصلا وان كن بالغات فعدتهن ثلاثة أشهر أيضا هذا كله في غير المتوفى عنهن أزواجهن اماهن فعدتهن مافي آية يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا وقرأ واللائي في الموضعين ابن عامر والكوفيون بالهمز وياء بعده وقرأ قالون وقنبل بالهمز ولاياء بعده وللبزي وأبي عمرو أيضا ابدال الهمزة ياء ساكنة مع المد لاغير * ولما فرغ من ذكر الحوائل أتبعه ذكر الحوامل بقوله تعالى (واولات الاحمال) أي من جميع الزوجات المسلمات والكافرات المطلقات والمتوفى عنهن (أجلهن) أي لمنتهى العدة سواء كان لهن مع الحمل حيض أم لا (أن

يضعن حملهن) وهذا على عمومه مخصص لآية يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا لان المحافظة على عمومه اولى من المحافظة على عموم ذاك فى قوله تعالى أزواجا لان عموم هذه بالذات لان الموصول من صيغ العموم وعموم أزواجا بالعرض لانه بدل لا يصلح لجميع الازواج فى حال واحد والحكم معلل هنا بوصف الحملية بخلاف ذاك ولان هذه الآية متأخرة النزول عن آية البقرة فتقديمها على تلك تخصيص وتقديم تلك فى العمل بعمومها رفع لما فى الخاص من الحكم فهو نسخ والاول هو الراجح للوفاق ولان سبيعة بنت الحرث وضعت حملها بعد وفاة زوجها بليال فأذن لها النبى صلى الله عليه وسلم ان تتزوج *(تنبيه)* اذا وضعت المرأة ما فى بطنها من علقة أو مضغة حلت عند مالك وقال الشافعى وأحمد وأبو حنيفة لا تحل الا بوضع ما يتبين فيه شئ من خلق الانسان فان كانت حاملا بتوأمين لم تنقض عدتها حتى تضع الثانى منهما ولا بد أن يكون الحمل منسوبا للذى العدة أما اذا كان من زنا فلا حرمة له والعدة بالحيض * ولما كانت أمور النساء فى المعاشرة والمفارقة فى غاية المشقة كرر الحث على التقوى اشارة الى ذلك وترغيبا فى لزوم ما حده سبحانه فقال عاطفا على ما تقديره فمن لم يحفظ هذه الحدود عسر الله تعالى عليه أموره (ومن يتق الله) أى يوجد الخوف من الملك الاعظم ايجادا مستمرا ليجعل بينه وبين سخطه وقاية من طاعته اجتلابا للمأمور واجتنابا للمنهى (يجعل له) أى يوجد ايجادا مستمرا باستمرار التقوى ان الله لا يمل حتى تملوا (من أمره) أى كله فى النكاح وغيره (يسرا) أى سهولة وفرجا وخيرا فى الدارين بالدفع والنفع وذلك أعظم من مطلق المخروج المتقدم فى الآية الاولى وقال مقاتل ومن يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا فى توفيقه لطاعته (ذلك) أى الامر المذكور من جميع هذه الاحكام العالية المراتب (أمر الله) أى الملك الاعلى الذى له الكمال كله (أنزله اليكم) وبينه لكم (ومن يتق الله) أى الذى لا أمر لأحد معه فى احكامه فيراعى حقوقها (يكفر) أى يغط تغطية عظيمة (عنه سيآته) ليتخلى عن المبعدات فان الحسنات يذهبن السيآت (ويعظم له أجرا) بأن يبدل سيآته حسنات ويوفيه أجرها فى الدارين مضاعفة فيتحلى بالقربات وهذا أعظم من مطلق اليسر المتقدم (أسكنوهن) قال الرازى أسكنوهن وما بعده بيان لما شرط من التقوى فى قوله تعالى ومن يتق الله كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات فقيل أسكنوهن وقوله تعالى (من حيث سكنتم) فيه وجهان أحدهما ان من للتبعيض قال الزمخشرى مبعضها محذوف معناه أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم أى بعض مكان سكناكم كقوله تعالى يغضوا من أبصارهم أى بعض أبصارهم قال قتادة ان لم يكن الا بيت واحد أسكنها فى بعض جوانبه قال الرازى وقال الكسائى من صلة والمعنى أسكنوهن حيث سكنتم والثانى أنها لابتداء الغاية قاله الحوفى وأبو البقاء قال أبو البقاء والمعنى تسببوا الى اسكانهن من الوجه الذى تسكنون أنفسكم ودل عليه قوله تعالى (من وجدكم) أى من وسعكم أى مما تطيقونه وفى اعرابه وجهان أحدهما انه عطف بيان لقوله تعالى من حيث سكنتم واليه ذهب الزمخشرى وتبعه البيضاوى قال ابن عادل أظهرهما أنه بدل من قوله من حيث بتكرار

العامل واليه ذهب أبو البقاء كانه قيل اسكنوهن من وسعكم (ولا تضاروهن) أى حال السكنى فى المسكن ولا فى غيره (لتضيقوا عليهن) حتى تلجؤهن الى الخروج (وان كن) أى المطلقات (أولات حمل) أى من الازواج من طلاق بائن أو رجعى (فانفقوا عليهن) وان مضت الاشهر (حتى يضعن حملهن) فيخرجن من العدة وهذا يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات البوائن والاحاديث تؤيده قال القرطبى اختلف العلماء فى المطلقة ثلاثا على ثلاثة أقوال فذهب مالك والشافعى ان لها السكنى ولا نفقة لها ومذهب ابى حنيفة واصحابه ان لها السكنى والنفقة ومذهب أحمد واسحق وأبى ثور لا نفقة لها ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس قالت دخلت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى اخو زوجى فقلت ان زوجى طلقنى وان هذا يزعم ان ليس لى سكنى ولا نفقة قال بل لك السكنى والنفقة فقال ان زوجها طلقها ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم انما السكنى والنفقة لمن له عليها رجعة فلما قدمت الكوفة طلبنى الاسود ابن يزيد ليسألنى عن ذلك فان أصحاب عبد الله يقولون ان لها السكنى والنفقة وعن الشعبى قال لقينى الاسود بن يزيد فقال يا شعبى اتق الله وارجع عن حديث فاطمة بنت قيس فان عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة فقلت لا أرجع عن شئ حدثتنى فاطمة بنت قيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولانه لو كان لها سكنى لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن تعتد فى بيت ابن أم مكتوم وأجيب عن ذلك بما روت عائشة أنها قالت كانت فاطمة فى مكان وحش تخيف على ناحيتها وقال سعيد بن المسيب انما نقلت فاطمة لطول لسانها على احمائها وقال قتادة وابن أبى ليلى لا سكنى الا للرجعية لقوله تعالى لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا وقوله تعالى أسكنوهن راجع لما قبله وهى المطلقة الرجعية (فان أرضعن لكم) أى بعد انقضاء علقة النكاح (فآتوهن اجورهن) أى على ذلك الارضاع وللرجل ان يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر اجنبية ولا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه الاستئجار اذا كان الولد منهن مالم تبن ويجوز عند الشافعى مطلقا وقوله تعالى (وأتمروا) خطاب للازواج والزوجات أى ليأمر بعضكم بعضا فى الارضاع والاجر فيه وغير ذلك وليقبل بعضكم أمر بعض وقال الكسائى ائتمروا وتشاوروا وتلا قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك وأنشد قول امرئ القيس * ويعدو على المرء ما يأتمر * وزادهم رغبة فى ذلك بقوله تعالى (بينكم) أى ان هذا الخير لا يعدوكم وأكد ذلك بقوله تعالى (بمعروف) ونكره سبحانه تخفيفا على الامة بالرضا بالمستطاع وهو يكون مع الاخلاق بالاتصاف ومع النفس بالخلاف (وان تعاسرتم) أى طلب كل منكم ما يعسر على الآخر كأن طلبت المرأة الاجرة وطلب الزوج ارضاعها مجانا (فسترضع له) أى الاب (أخرى) أى مرضعة غير الام ويغنى الله تعالى عنها وليس له أن يكرهها على ذلك نعم اذا لم يقبل ثدى غيرها أو لم يوجد غيرها أجبرت على ذلك بالاجرة وهذا الحكم لا يختص بالمطلقة بل المنكوحة كذلك واختلفوا فيمن يجب عليه رضاع الولد فقال مالك رضاع الولد على الزوجة مادامت الزوجية الا لشرفها وموضعها فعلى الاب رضاعه حينئذ فى ماله وقال أبو حنيفة لا يجب على الام بحال وقيل يجب

عليها بكل حال ولو طلبت الام اجرة المثل وهناك أجنبية ترضع بدون اجرة المثل أو متبرعة تخير الاب بينهما ولا يضيق على الاب بدفع الاجرة لانه صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما أو قطيعة رحم وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح (لينفق ذو سعة) أى مال واسع ولم يكلفه تعالى بجميع وسعه بل قال تعالى (من سعته) أى لينفق الزوج على زوجته وولده الصغير على قدر وسعه فيوسع اذا كان موسعا عليه (ومن قدر) أى ضيق (عليه رزقه) فعلى قدر ذلك فيقدر النفقة بحسب حال المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى العادة قال تعالى وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقال صلى الله عليه وسلم لهند خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف لكن نفقة الزوجة مقدرة عند الشافعى محدودة فلا اجتهاد للحاكم ولا للمفتى فيها وتقديرها هو بحسب حال الزوج وحده من يسار واعسار ولا اعتبار بحالها فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس فيلزم الزوج الموسر مدان والمتوسط مد ونصف والمعسر مد لظاهر قوله تعالى لينفق ذو سعة من سعته فجعل الاعتبار بالزوج فى اليسر والعسر ولان الاعتبار بحالها يؤدى الى الخصومة لان الزوج يدعى أنها تطلب فوق كفايتها وهى تزعم أنها تطلب قدر كفايتها فقدرت قطعا للخصومة وقوله تعالى (فلينفق) أى وجوبا على المرضع وغيرها من كل ما أوجبه الله تعالى عليه (مما آتاه الله) أى الملك الذى لا ينفد ما عنده ولو من رأس المال ومتاع البيت (لا يكلف الله) أى الذى له الملك كله (نفسا) أى نفس كانت (الا ما آتاها) أى أعطاها من المال (سيجعل الله) أى الملك الذى له الكمال كله فلا خلف لوعده (بعد عسر) أى بعد كل عسر (يسرا) وقد صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين بعد نزول الآية ففتح عليهم جميع جزيرة العرب ثم فارس والروم حتى صاروا أغنى الناس وصدق الآية دائم غير انه فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين لان ايمانهم أتم قال القشيرى وانتظار اليسر من الله صفة المتوسطين فى الاحوال الذين انحطوا عن درجة الرضا وارتقوا عن حد اليأس والقنوط ويعيشون فى افناء الرجال ويتعللون بحسن المواعيد اه * ولما ذكر الاحكام والمواعظ والترغيب لمن اطاع حذر من خالف بقوله تعالى (وكأين) هى كاف الجر دخلت على اى بمعنى كم (من قرية) أى وكثير من القرى وقرأ ابن كثير بالالف بعد الكاف وبعد الالف همزة مكسورة وقفا ووصلا وقرأ الباقون فى الوصل بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعد الهاء ياء تحتية مكسورة مشددة وعبر عن أهل القرية بها مبالغة فقال (عتت) أى استكبرت وجاوزت الحد فى عصيانها وطغيانها فأعرضت عنادا (عن أمر ربها) أى الذى أحسن اليها ولا يحسن اليها غيره (ورسله) فلم تقبل منهم ما جاؤا به عن الله تعالى فان طاعتهم من طاعته (فحاسبناها) أى فى الآخرة وان لم تجئ لتحقق وقوعها (حسابا شديدا) أى بالمناقشة والاستقصاء (وعذبناها عذابا نكرا) أى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وقيل العذاب فى الدنيا فيكون على حقيقته أى جازيناها بالعذاب فى الدنيا وعذبناها عذابا نكرا فى الآخرة وقيل فى الكلام تقديم وتأخير أى فعذبناها عذابا نكرا فى الدنيا بالجوع والقحط

والسيف والخسف والمسخ وسائر المصائب وحاسبناها حسابا شديدا في الآخرة وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة بضم الكاف والباقون بسكونها (فذاقت) أي فتسبب عن ذلك أنها ذاقت (وبال) أي عقوبة (أمرها) أي كفرها (وكان عاقبة أمرها خسرا) أي في الدنيا بالاسر وضرب الجزية وغير ذلك وفي الآخرة بعذاب النار فان من زرع الشوك كما قال القشيري لا يجني الورد ومن أضاع حق الله تعالى لا يطاع في حظ نفسه ومن احترف بمخالفة أمر الله تعالى فليصبر على عقوبته ثم استأنف الجواب عمن يقول هل لها غير هذا في غير هذه الدار بقوله تعالى (أعد الله) أي الملك الاعظم (لهم) بعد الموت وبعد البعث (عذابا شديدا) وفي ذلك تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها (فاتقوا الله) أي الذي له الامر كله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه (يا أولي الالباب) أي يا أصحاب العقول الصافية النافذة من الظواهر الى البواطن وقوله تعالى (الذين آمنوا) منصوب باضمار أعني بيانا للمنادى في قوله تعالى يا أولي الالباب أو يكون عطف بيان للمنادى أو نعتا له أي خلصوا من دائرة الشرك وأوجدوا الايمان حقيقة (قد أنزل الله) أي الذي له صفات الكمال (اليكم ذكرا) هو القرآن وفي نصب (رسولا) أوجه أحدها قال الزجاج والفارسي انه منصوب بالمصدر المنون قبله لانه ينحل لحرف مصدري وفعل كأنه قيل أن ذكر رسولا ويكون ذكره الرسول قوله محمد رسول الله والمصدر المنون عامل كقوله تعالى أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما الثاني جعل نفس الذكر مبالغة فأبدل منه ويكون محمولا على المعنى كأنه قال قد أظهر لكم ذكرا رسولا فيكون من باب بدل الشئ من الشئ وهو هو الثالث أنه بدل منه على حذف مضاف من الاول تقديره أنزل ذا ذكر رسولا الرابع أنه بدل منه على حذف مضاف من الثاني أي ذكرا ذكر رسول الخامس أنه منصوب بفعل مقدر أي وأرسل رسولا (يتلو عليكم آيات الله) هي دلائل الملك الاعظم الظاهرة جدا حال كونها (مبينات) أي لا لبس فيها بوجه واختلف الناس في رسولا هل هو النبي صلى الله عليه وسلم أو جبريل الاكثر على الاول واقتصر عليه الجلال المحلي واقتصر الزمخشري على الثاني وهو قول الكلبي وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسر الياء بعد الموحدة والباقون بالفتح (ليخرج الذين آمنوا) أي أقروا بالشهادتين (وعملوا) تصديقا لما قالوه بألسنتهم وتحقيقا لانه من قلوبهم (الصالحات) أي ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الايمان والعمل الصالح أو ليخرج من علم أو قدر أنه مؤمن (من الظلمات) أي الضلالة (الى النور) أي الهدى (ومن يؤمن بالله) أي يجدد في كل وقت على الدوام الايمان بالملك الاعلى بأن لا يزال في ترق في معارج معارفه (ويعمل) على التجديد المستمر (صالحا) لله وفي الله فله دوام النعماء وهو معنى ادخاله الجنة كما قال تعالى (يدخله) أي عاجلا مجازا بما يفتح الله له من لذات المعارف ويفتح له من الانس وآجلا حقيقة (جنات) أي بساتين هي في غاية ما يكون من جمع جميع الاشجار وحسن الدار وبين دوام ريها بقوله تعالى (تجري من تحتها) أي من تحت غرفها (الانهار) فهي في غاية الري بحيث ان ساكنها يجري في أي موضع أراد نهرا وقرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون والباقون بالياء التحتية (خالدين فيها)

وأكد معنى الخلود بقوله تعالى (أبدا) ليفهم الدوام بلا انقضاء وقوله تعالى (قد أحسن الله) أى الملك الاعلى ذو الجلال والاكرام (له) أى خاصة (رزقا) أى عظيما عجيبا فيه تعجب وتعظيم لما رزقوا من الثواب وقال القشيرى الحسن ما كان على حد الكفاية لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه كذلك أرزاق القلوب أحسنها أن يكون له من الاحوال ما يستقل به امن غير نقصان ولا زيادة لا يقدر على الاستمرار عليها* ثم بين كمال قدرته بقوله تعالى (الله) أى الذى له جميع صفات الكمال التى القدرة الشاملة احداها (الذى خلق) أى أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه على هذا المنوال الغريب البديع (سبع سموات) أى وأنتم تشهدون عظمة ذلك وتشهدون أنه لا يقدر عليه الا تام القدرة والعلم الكامل (ومن الارض مثلهن) أى سبعا أما كون السموات سبعا بعضها فوق بعض فلا خلاف فيه لحديث الاسراء وغيره وأما الارضون فقال الجمهور انها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والارض وفى كل أرض سكان من خلق الله وقال الضحاك انها سبع أرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات قال القرطبى والاول أصح لان الاخبار دالة عليه كما روى البخارى وغيره روى أبو مروان عن أبيه ان كعبا حلف له بالله الذى فلق البحر لموسى أن صهيبا حدثه أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها الا قال حين يراها اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الارضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين انا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر من فيها وروى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من ظلم قيد شبر من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين قال البقاعى رأيت فى التعدد حقيقة حديثا صريحا لكن لا أدرى حاله ذكره ابن برجان فى اسمه تعالى الملك من شرحه الاسماء الحسنى قال ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما تحت هذه الارض قالوا الله ورسوله أعلم قال هواء أتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال أرض أتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم حتى عد سبع أرضين ثم رأيته فى الترمذى عن أبى رزين العقيلى ولفظه هل تدرون ما الذى تحتكم قالوا الله ورسوله أعلم قال انها الارض ثم قال أتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ان تحتها أرضا أخرى خمسمائة سنة حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ثم رأيت فى الفردوس عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما بين السماء الى السماء خمسمائة عام وعرض كل سماء وثخانة كل سماء خمسمائة عام وما بين السماء السابعة وبين الكرسى والعرش مثل ذلك وما بين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام والارضون وعرضهن وثخانتهن مثل ذلك اهـ قال الماوردى وانها سبع ارضين تختص دعوة الاسلام بأهل الارض العليا ولا تلزم من فى غيرها من الارضين وان كان فيها من يعقل من خلق مميز وفى مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من ارضهم ويستمدون الضياء منها قال

ابن عادل وهذا قول من جعل الارض مبسوطة الثانى انهم لايشاهدون السماء وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه قال ابن عادل وهذا قول من جعل الارض كرية وحكى الكلبى عن ابى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما انها سبع ارضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار وتظل جميعهم السماء فعلى هذا ان لم يكن لاحد من أهل الارض وصول الى أرض أخرى اختصت دعوة الاسلام بهذه الارض وان كان لقوم منهم وصول الى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الاسلام لامكان الوصول اليهم لان فصل البحار اذا أمكن سلوكها لايمنع من لزوم ماعم حكمه واحتمل أن لاتلزمهم دعوة الاسلام لانها لولزمتهم لكان النص بها واردا ولكان النبى صلى الله عليه وسلم بها مأمورا وقال بعض العلماء السماء فى اللغة عبارة عما علاك فالاولى بالنسبة الى السماء الثانية أرض وكذلك السماء الثانية بالنسبة الى الثالثة أرض وكذا البقية بالنسبة الى ماتحته سماء وبالنسبة الى مافوقه أرض فعلى هذا تكون السموات السبع وهذه الارض الواحدة سبع سموات وسبع أرضين (يتنزل) أى بالتدريج (الامر) قال مقاتل وغيره أى الوحى وعلى هذا يكون قوله تعالى (بينهن) اشارة الى مابين هذه الارض العليا التى هى أولاها وبين السماء السابعة التى هى أعلاها والاكثرون على أن الامر هو القضاء والقدر فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى بينهن اشارة الى مابين الارض السفلى التى هى أقصاها وبين السماء السابعة التى هى أعلاها فيجرى أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن وعن قتادة فى كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه وقيل هو مايدبر فيهن من عجائب تدبيره وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن نافع ابن الازرق سأله هل تحت الارض من خلق قال نعم قال فما الخلق قال اما ملائكة أو جن وقال مجاهد يتنزل الامر من السموات السبع الى الارضين السبع وقال الحسن بين كل سماءين أرض وأمر وقيل يتنزل الامر بينهن بحياة بعض وموت بعض وغنى قوم وفقر قوم وقيل مايدبر فيهن من عجيب تدبيره فينزل المطر ويخرج النبات ويأتى بالليل والنهار والصيف والشتاء ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيآتها فينقلهم من حال الى حال قال ابن كيسان وهذا على اتساع اللغة كما يقال للموت أمر الله وللريح والسحاب ونحوها وقوله تعالى (لتعلموا) متعلق بمحذوف أى اعلمكم بذلك الخلق والانزال لتعلموا (أن الله) اى الملك الاعلى الذى له الاحاطة كلها (على كل شئ) اى من غير هذا العالم يمكن ان يدخل تحت المشيئة (قدير) بالغ القدرة فيأتى بعالم آخر مثل هذا العالم وابدع منه وابدع من ذلك الى مالانهاية له بالاستدلال بهذا العالم فان من قدر على ايجاد ذرة من العدم قدر على ايجاد ماهو دونها او مثلها وفوقها الى مالانهاية له لانه لافرق فى ذلك بين قليل وكثير وجليل وحقير ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت قال البقاعى واياك ان تصغى الى من قال انه ليس فى الامكان ابدع مما كان فانه مذهب فلسفى خبيث والآية تنص فى ابطاله وان نسبه بعض الملحدين الى الغزالى فانى لااشك انه مدسوس عليه وان مذهبه فلسفى خبيث بشهادة الغزالى كما بينت ذلك فى كتابى دلائل البرهان على ان فى الامكان أبدع مما كان قال ومع كونه مذهب الفلاسفة

أخذ أكفر المارقين ابن عربي وأودعه في فصوصه وغير ذلك من كتبه وأسنده في بعضها للغزالي والغزالي بري منه بشهادة ما وجد من عقائده في الاحياء وغيره انتهى والبقاعي ممن يقول بكفر ابن عربي وابن المقري يقول بكفره وكفر طائفته وقد تقدم الكلام على كلامهم (وان الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (قد أحاط) لتمام قدرته (بكل شئ) مطلقا (علما) فله الخبرة التامة بما يأمر به من الاحكام في العالم بمصالحه ومفاسده فلا يخرج شئ عن علمه وقدرته فعاملوه معاملة من يعلم أنه رقيب عليه تسلموا في الدنيا وتسعدوا في الآخرة * (تنبيه) * علما منصوب على المصدر المؤكد لان أحاط بمعنى علم وقيل بمعنى والله أحاط احاطة علما وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

(سورة التحريم مكية)

وهي ثنتا عشرة آية ومائتان وأربعون كلمة وألف وستون حرفا

(بسم الله) الذي له الكمال كله على الدوام (الرحمن) الذي عم عباده بعظيم الانعام (الرحيم) الذي أتم على خواصه نعمة الاسلام واختلف في سبب نزول قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله) أي الذي لا أمر لأحد معه (لك) فقالت عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان عند زينب بنت جحش فشرب عندها عسلا قالت فتواطيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل اني أجد منك ريح مغافير فدخل على احداهما فقالت له ذلك فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزل لم تحرم ما أحل الله لك الى قوله تعالى ان تتوبا الى الله لعائشة وحفصة وعنها أيضا قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوا والعسل فكان اذا صلى العصر دار على نسائه فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت اليها امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شربة فقلت أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت لها اذا دخل عليك فانه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغافير فانه سيقول لك لا فقولي ما هذه الريح وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه أن يوجد منه الريح فانه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرست نحله العرفط وسأقول ذلك له وقولي أنت يا صفية ذلك فلما دخل على سودة قالت سودة والله الذي لا اله غيره لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت وانه لعلى الباب فرقا منك فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت له يا رسول الله أكلت مغافير قال لا قلت فما هذه الريح قال سقتني حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط فلما دخل علي قلت له مثل ذلك ثم دخل على صفية فقالت مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت يا رسول الله الا أسقيك منه قال لا حاجة لي به قالت تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه منه قالت فقلت لها اسكتي ففي هذه الرواية أن التي شرب عندها النبي صلى الله عليه وسلم حفصة وفي الاولى زينب وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله

عنهما أنه شربه عند سودة وقيل انما هي أم سلمة رواه اسباط عن السدى وقاله عطاء بن أبي مسلم
(تنبيه) شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما قولها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوا بالمد والقصر قاله فى المصباح وهو على كل شئ حلو وذكر العسل بعدها وان كان داخلا فى جملة الحلوا تنبيها على شرفه ومرتبته وهو من باب الخاص بعد العام وقولها فتواطيت أنا وحفصة هكذا وقع فى الرواية وأصله فتوطأت بالهمز أى اتفقت أنا وحفصة وقولها انى لاجد منك ريح مغافير هو بغين معجمة وفاء بعدها ياء وراء وهو صمغ حلو كالناطف وله ريح كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط بضم العين المهملة والفاء يكون بالحجاز وقيل العرفط نبات له ورق يفرش على الارض له شوك وثمره خبيث الرائحة وقال أهل اللغة العرفط من شجر العضاه وهو كل شجر له شوك وقيل رائحته كرائحة النبيذ وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه رائحة كريهة قولها جرست نحله العرفط بالجيم والراء وبالسين المهملتين ومعناه أكلت نحله العرفط فصار منه العسل قال القاضى عياض والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ذكره النووى فى شرح مسلم وكذا ذكره أيضا القرطبى وقال أكثر المفسرين فى سبب نزول ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زيارة أبيها فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جاريته مارية القبطية فادخلها بيت حفصة فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقا فجلست عند الباب فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يقطر عرقا وحفصة تبكى فقال صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقالت انما أذنت لى من أجل ذلك أدخلت أمتك بيتى ثم وقعت عليها فى يومى على فراشى أما رأيت لى حرمة وحقا ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس هى جاريتى قد أحلها الله لى فهى حرام على ألتمس بذلك رضاك فلا تخبرى بهذا امرأة منهن فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قرعت حفصة الجدار الذى بينها وبين عائشة فقالت ألا أبشرك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه أمته مارية وان الله قد أراحنا منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضبت عائشة فلم يزل نبى الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أمة يطؤها فلم تزل عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فأنزل الله تعالى يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك الآية أخرجه النسائى (فان قيل) قوله تعالى لم تحرم ما أحل الله لك يوهم أن الخطاب بطريق العتاب وخطاب النبى صلى الله عليه وسلم ينافى ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم (اجيب) بأنه ليس بطريق العتاب بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغى (فان قيل) تحريم ما احل الله غير ممكن فكيف قال لم تحرم ما أحل الله لك (اجيب) بأن المراد بهذا التحريم هو الامتناع من الانتفاع بالازواج لا اعتقاد كونه حراما بعد ما احله الله تعالى والنبى صلى الله عليه وسلم امتنع من الانتفاع بها مع اعتقاد كونها حلالا فان من اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما احل الله فقد كفر فكيف

يضاف الى النبي صلى الله عليه وسلم (تبتغي) اى تريد ارادة عظيمة من مكارم اخلاقك وحسن صحبتك (مرضاة ازواجك) اى الاحوال والامور والمواضع التي يرضين بها وهن أولى بأن يبتغين رضاك وكذا جميع الخلق لتتفرغ لما يوحى اليك من ربك لكن ذلك للزوجات آكد (والله) اى الملك الاعلى (غفور رحيم) اى محاء ستور لما يشق على خاص عباده مكرم لهم فقد غفر لك هذا التحريم ثم عال وبين ذلك بقوله تعالى (قد فرض الله) اى قدر ذو الجلال والاكرام الذى لاشريك له ولا امر لاحد معه وعبر بالفرض حثا على قبول الرخصة اشارة الى أن ذلك لا يقدح في الورع ولا يخل بحرمة اسم الله تعالى لان اهل الهمم العوالى لا يجوزون النقلة من عزيمة الى رخصة بل من رخصة الى عزيمة او عزيمة الى مثلها * ولما كان التخفيف على أمته تعظيما له صلى الله عليه وسلم قال تعالى (لكم) أيتها الامة التي أنت رأسها (تحلة) اى تحليل (أيمانكم) بالكفارة المذكورة في سورة المائدة وقيل قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك حالل فلان في يمينه اذا استثنى بمعنى استثن في يمينك اذا أطلقتها بأن تقول ان شاء الله متصلا بحلفك وتنويه قبل الفراغ منه واختلف اهل العلم في لفظ التحريم فقال قوم هو ليس بيمين فان قال لزوجته انت حرام أو حرمتك فان نوى به طلاقا فهو طلاق وان نوى به ظهارا فهو ظهار وان نوى تحريم ذاتها واطلق فعليه كفارة يمين وان قال لطعام حرمته على نفسي فلا شيء عليه وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه واليه ذهب الشافعي وروى الدارقطني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه اتاه رجل فقال انى جعلت امرأتي على حراما فقال كذبت ليست عليك بحرام وتلا هذه الآية وذهب جماعة الى أنه يمين فان قال ذلك لزوجته او جاريته فلا تجب الكفارة مالم يقربها كما لو حلف لا يأكله فلا كفارة عليه مالم يأكله يروى ذلك عن ابي بكر وعائشة وبه قال الاوزاعي وابو حنيفة وعند ابي حنيفة ان نوى الطلاق بالحرام كان بائنا وان قال كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب اذا لم ينو والا فعلى ما نوى نقله الزمخشري وعن عمر اذا نوى الطلاق فرجعي وعن علي ثلاث وعن زيد واحدة بائنة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال اذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها وقال لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة قال مقاتل فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الواقعة رقبة قال زيد بن أسلم وعاد الى مارية وقال الحسن لم يكفر عليه السلام لانه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكفارة اليمين في هذه السورة انما أمر بها الامة قال ابن عادل والاول أصح وأن المراد بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ثم الامة تقتدى به في ذلك (والله) اى والحال أن المختص بأوصاف الكمال (مولاكم) أي يفعل معكم فعل القريب الصديق فهو سيدكم ومتولى أموركم (وهو) أي وحده (العليم) أي البالغ العلم بمصالحكم وغيرها الى ما لا نهاية له (الحكيم) أى الذى يضع كل ما يصدر عنه لكم في أتقن محاله بحيث لا يقدر غيره أن يغيره ولا شيأ منه والعامل في قوله تعالى (واذ) اذكر فهو مفعول به لا ظرف والمعنى اذكر اذ (أسر النبي) أي الذى شأنه أن يرفعه الله تعالى دائما فانه ما ينطق عن الهوى (الى بعض أزواجه) وأبهمها ولم يعينها تشريفا له صلى الله عليه وسلم ولها وهي حفصة صيانة لهن لان

حرمتهن من حرمته صلى الله عليه وسلم (حديثا) ليس هو من شأن الرسالة ولو كان من شأنها لعم به ولم يخص به ولا أسره وذلك هو تحريمه فتاته على نفسه وقوله لحفصة لا تخبري بذلك أحدا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أسر أمر الخلافة بعده فحدثت حفصة وقال الكلبي أسر اليها ان اباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي وقال ميمون بن مهران اسر أن أبا بكر خليفتي من بعدي (فلما نبأت) اى أخبرت (به) عائشة ظنا منها انه لا حرج عليها في ذلك (وأظهره الله) اى أطلعه الملك الذي له الاحاطة بكل شئ (عليه) أي الحديث على لسان جبريل عليه السلام بانه قد أفشى مناصحة له في اعلامه بما يقع في غيبته ليحذره ان كان شرا ويثبت عليه ان كان خيرا وقيل أظهر الله الحديث على النبي صلى الله عليه وسلم من الظهور (عرف) أي النبي صلى الله عليه وسلم التي اسر اليها (بعضه) أي بعض ما فعلت (وأعرض عن بعض) أي اعلام بعض تكرما منه أن يستقصي في العبارات وحياء وحسن عشرة قال الحسن ما استقصى كريم قط وقال سفيان ما زال التغافل من فعل الكرام وانما عاتبها على ذكر الامامة واعرض عن ذكر الخلافة خوفا من أن ينتشر في الناس فربما أثار حسد بعض المنافقين واورث الحسود للصديق كيدا وقال بعض المفسرين انه أسر الى حفصة شيأ فحدثت به غيرها فطلقها مجازاة على بعضه ولم يؤاخذها بالباقي وهو من قبيل قوله تعالى وما تفعلوا من خير يعلمه الله أي يجازيكم عليه وقيل المعرف حديث الامامة والمعرض عنه حديث مارية وروى انه قال لها ويلك ألم أقل لك اكتمي علي قالت والذي بعثك بالحق نبيا ما ملكت نفسي فرحا بالكرامة التي خص الله تعالى بها أباها (فلما نبأها به) أي بما فعلت على وجه لم يغادر من ذلك الذي عرفها به شيأ منه ولا من عوارضه لتزداد بصيرة روى أنها قالت لعائشة سرا فأنا اعلم انها لا تظهره قاله المولى وهو معنى قوله تعالى (قالت) اى ظنا منها أن عائشة افشت عليها (من أنبأك هذا) اى من اخبرك أني أفشيت السر (قال نبأني) وحذف المتعلق اختصارا للفظ وتكثيرا للمعنى بالتعميم اشارة انه اخبره بجميع ما دار بينها وبين عائشة على أتم ما كان (العليم) اى المحيط العلم (الخبير) اى المطلع على الضمائر والظواهر فهو أولى ان يحذر فلا يتكلم سرا وجهرا الا بما يرضيه وقوله تعالى (ان تتوبا الى الله) اى الملك الاعظم شرط وفي جوابه وجهان احدهما قوله تعالى (فقد صغت قلوبكما) والمعنى ان تتوبا فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حب ما يحب وكراهة ما يكره وصغت مالت وزاغت عن الحق قال القرطبي وليس قوله فقد صغت قلوبكما جواب الشرط لان هذا الصغو كان سابقا فجزاء الشرط محذوف للعلم به اى ان تتوبا كان خيرا لكما اذ قد صغت قلوبكما الثاني أن الجواب محذوف تقديره فذلك واجب عليكما أو فتاب الله عليكما قاله ابو البقاء ودل على المحذوف فقد صغت لان اصغاء القلب الى ذلك ذنب قال بعضهم وكأنه زعم أن ميل القلب ذنب وكيف يحسن ان يكون جوابا وقد غفل عن المعنى المصحح لكونه جوابا * (تنبيه) * قوله تعالى قلوبكما من افصح الكلام حيث اوقع الجمع موقع المثنى استثقالا لمجيء تثنيتين لو قيل قلباكما ومن شأن العرب اذا ذكروا الشيئين

قوله روى الخ كذا في الاصول ولعل فيه سقطا

من

من اثنين جمعوهما الا انه لا يشكل والاحسن فى هذا الباب الجمع ثم الافراد ثم التثنية كقوله

فتخالسا نفسيهما بنواقد الـ * ـغيظ الذى من شأنه لم يرقع

وقال ابن عصفور لا يجوز الافراد الا فى ضرورة كقوله

حمامة بطن الواديين ترنمى * سقاك من الغر الغوادى مطيرها

وتبعه ابوحيان وغلط ابن مالك فى كونه جعله احسن من التثنية قال ابن عادل وليس بغلط لكراهة توالى تثنيتين مع امن اللبس وقوله تعالى ان تتوبا فيه التفات من الغيبة الى الخطاب والمراد بهذا الخطاب امّا المؤمنتان بنتا الشيخين الكريمين عائشة وحفصة حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل الى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهما كرها ما أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من احباب جاريته واحباب العسل وكان صلى الله عليه وسلم يحب العسل والنساء وقال ابن زيد مالت قلوبكما بأن سرّهما أن يحتبس عن أمّ ولده فسرّهما ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل قد مالت قلوبكما الى التوبة روى مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجا فخرجت معه فلما رجع وكان ببعض الطريق عدل الى الاراك لحاجة له فوقفت حتى فرغ ثم سرت معه باداوة ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ فلما رجع قلت يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال تلك حفصة وعائشة قال فقلت له والله ان كنت لاريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك قال فلا تفعل ما ظننت أنّ عندى من علم فسلنى عنه فان كنت أعلمه أخبرتك وفى رواية قال واعجبا لك يا ابن عباس قال الزهرى كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه قال هما عائشة وحفصة ثم اخذ يسوق الحديث قال كنت أنا وجار لى من الانصار وكان منزلى فى بنى أمية وهم من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على النبى صلى الله عليه وسلم فينزل يوما وأنزل يوما فاذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحى أو غيره واذا نزل فعل مثل ذلك وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة على الانصار اذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فصخبت على امرأتى فراجعتنى فانكرت أن تراجعنى قالت لم تنكر أن أراجعك فوالله انّ ازواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وانّ احداهن لتهجره اليوم حتى الليل فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت لها اى حفصة اتغاضب احداكن النبى صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل قالت نعم فقلت قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله لا تراجعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيأ وسلينى ما بدا لك ولا يغرنك ان كانت جارتك هى اوسم واحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عائشة رضى الله عنها قال عمر وكنا قد تحدثنا انّ غسان تنعل الخيل لتغزونا فنزل الانصارى يوما نوبته ثم اتانى عشاء فضرب بابى ضربا شديدا ففزعت فخرجت اليه فقال قد حدث اليوم امر عظيم قلت ما هو أجاء غسان قال لا بل أعظم من ذلك وأهول طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه فقلت خابت حفصة وخسرت قد كنت اظنّ هذا يوشك ان يكون حتى اذا صليت

الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت اطلقكن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قالت لا أدري ها هو ذا معتزل في المشربة فأتيت غلاما له أسود فقلت استأذن
لعمر فدخل ثم خرج الى فقال قد ذكرتك له فصمت ثم انطلقت حتى أتيت المنبر فاذا عنده رهط
جلوس يبكي بعضهم فجلست قليلا ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل
ثم خرج فقال ذكرتك له فصمت فوليت مدبرا فاذا الغلام يدعوني فقال ادخل فقد أذن لك
فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه
فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئا على وسادة من أدم حشوها ليف ثم قلت وأنا قائم يا رسول الله
أطلقت نساءك فرفع الى بصره وقال لا فقلت الله أكبر ثم قلت وأنا قائم لو رأيتنا يا رسول الله
وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فتبسم النبي
صلى الله عليه وسلم ثم قلت يا رسول الله لو رأيتني دخلت على حفصة فقلت لها لا يغرنك أن كانت
جارتك هي أوسم وأحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عائشة فتبسم النبي صلى الله عليه
وسلم تبسمة أخرى فجلست حين رأيته تبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيأ يرد
البصر غير أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فان فارسا والروم قد وسع
عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان متكئا وقال أوفي
هذا أنت يا ابن الخطاب ان أولئك قوم عجلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا فقلت يا رسول الله استغفر
الله لي فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة الى عائشة
تسعا وعشرين ليلة وكان قال ما أنا بداخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله
تعالى فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له عائشة يا رسول الله انك
كنت أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وانما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها عدا فقال
الشهر تسع وعشرون وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين ليلة قالت عائشة ثم أنزل الله التخيير
فبدأ بي أول امرأة من نسائه فاخترته ثم خيرهن فقلن مثلها وفي رواية أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه قالت فبدأ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال اني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك وقد علم أن أبوي لم يكونا
يأمراني بفراقه قالت ثم قال ان الله تعالى قال يا أيها النبي قل لأزواجك الى تمام الآيتين
فقلت أوفي هذا استأمر أبوي فاني أريد الله ورسوله والدار الآخرة وفي رواية ان عائشة
قالت له لا تخبر نساءك اني اخترتك فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله أرسلني مبلغا
وفي رواية قال دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من أمر
النساء فان كنت طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون
معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام الا رجوت أن الله يصدق قولي الذي أقول ونزلت هذه
الآية عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن وان تظاهرا عليه الآية وفي رواية انه
استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخبر الناس انه لم يطلق نساءه فأذن له وانه قام على باب

المسجد ونادى بأعلى صوته لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه *(شرح بعض ألفاظ هذا الحديث)* قوله فعدلت معه أى ملت معه بالاداوة أى الركوة والعوالى جمع عالية وهى اماكن بأعلى أرض المدينة وقوله لا يغرنك ان كانت جارتك يريد بها الضرة وهى عائشة وأوسم منك أى أكثر حسنا وقوله فكنا نتناوب النزول التناوب هو أن يفعله الانسان مرة ويفعله آخر بعده والمشربة بضم الراء وفتحها الغرفة وقوله فاذا هو متكئ على رمال حصير يقال رملت الحصير اذا ظفرته ونسجته والمراد أنه لم يكن على السرير وطاء سوى الحصير وقوله ما رأيت فيه ما يرد البصر الا أهبة ثلاث الاهبة والاهب جمع اهاب وهو الجلد وقوله من شدة موجدته الموجدة الغضب وقرأ (وان تظاهرا) الكوفيون بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها أى تعاونا (عليه) أى النبى صلى الله عليه وسلم فيما يكرهه (فان الله) أى الملك الاعظم الذى لا كفء له وقوله تعالى (هو) يجوز أن يكون فصلا وقوله (مولاه) الخبر وان يكون مبتدأ ومولاه خبره والجملة خبر ان والمعنى فان الله وليه وناصره فلا يضره ذلك التظاهر منهما وقوله تعالى (وجبريل وصالح المؤمنين) معطوف على محل اسم ان فيكونون ناصريه ويجوز ان يكون جبريل مبتدأ وما بعده عطف عليه وظهير خبر الجميع فتختص الولاية بالله واختلف فى صالح المؤمنين فقال عكرمة هو أبو بكر وعمر وقال المسيب بن شريك هو أبو بكر وقال سعيد بن جبير هو عمر وعن أسماء بنت عميس هو على بن أبى طالب وقال الطبرى هو خيار المؤمنين وصالح اسم جنس كقوله تعالى ان الانسان لفى خسر وقال قتادة هم الانبياء وقال ابن زيد هم الملائكة وقال السدى هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والاولى أن يشمل هذه الاقوال كلها (والملائكة) أى كلهم (بعد ذلك) اى الامر العظيم الذى تقدم ذكره (ظهير) أى ظهراء أعوان له فى نصره عليكما *(تنبيه)* أخبر عن الجمع باسم الجنس اشارة الى أنهم على كلمة واحدة ومنهم جبريل عليه السلام فهو مذكور خصوصا وعموما ثلاث مرات على القول بأن صالح المؤمنين هم الملائكة ان قلنا بالعموم وذلك اظهار لشدة محبته وموالاته للنبى صلى الله عليه وسلم وهذه الآية عكس آية البقرة وهى قوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فانه ذكر الخاص بعد العام تشريفا له وهنا ذكر العام بعد الخاص قال ابن عادل ولم يذكر الناس الا القسم الاول وفى جبريل لغات تقدم ذكرها فى البقرة *ولما كان أشد ما على المرأة أن تطلق ثم اذا طلقت ان يستبدل بها ثم يكون البدل خيرا منها قال تعالى محذرا لهن (عسى ربه) أى المحسن اليه بجميع أنواع الاحسان التى عرفتموها وما لم تعرفوه منها أكثر جدير وحقيق ووسط بين عسى وخبرها اهتماما وتخويفا قوله تعالى (ان طلقكن) أى بنفسه من غير اعتراض عليه جميعكن أو بعضكن قيل كل عسى فى القرآن واجب الا هذه الآية وقيل هو واجب ولكن الله تعالى علقه بشرط وهو التطليق ولم يطلقهن فان طلقكن شرط معترض بين اسم عسى وخبرها وجوابه محذوف أو متقدم اى ان طلقكن فعسى ربه وقوله تعالى (ان يبدله) اى بمجرد طلاقه وقرأ نافع وابو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال (أزواجا خيرا منكن) خبر عسى والجملة جواب الشرط ولم يقع التبدل

لعدم وجود الشرط (فان قيل) كيف تكون المبدلات خيرا منهن ولم يكن على وجه الارض نساء خيرا منهن لانهن أمهات المؤمنين (أجيب) بأنه اذا طلقهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعصيانهن وايذائهن اياه كان غيرهن من الموصوف بالصفات الآتية مع الطاعة له صلى الله عليه وسلم خيرا أوان هذا على سبيل الفرض وهو عام فى الدنيا والآخرة فلا يقتضى وجود من هو خير منهن مطلقا وان قيل بوجوده فى خديجة لما جرّب من تحاملها على نفسها فى حقه صلى الله عليه وسلم و بلوغها فى حبه والادب معه ظاهرا و باطنا الغاية القصوى ومريم أحصنت حين كانت من القانتين فذلك فى الآخرة وتعليق تطليق الكل لايدل على أنه لم يطلق حفصة فقد روى أنه طلقها ولم يزدها ذلك الا فضلا لان الله تعالى أمره ان يراجعها لانها صوامة قوامة * ثم بين تعالى الخيرية بقوله تعالى (مسلمات) الى آخره وهو اما نعت أو حال أو منصوب على الاختصاص قال سعيد بن جبير مسلمات يعنى مخلصات وقيل مسلمات لامر الله عز وجل وأمر رسول الله خاضعات لله تعالى بالطاعات (مؤمنات) أى مصدقات بتوحيد الله تعالى وقيل مصدقات بما أمرن به ونهين عنه وقيل مسلمات مقرات بالاسلام مؤمنات مخلصات (قانتات) أى مطيعات والقنوت الطاعة وقيل داعيات (تائبات) أى راجعات من الهفوات والزلات سريعا ان وقع منهن شئ من ذلك وقيل راجعات الى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركات لمحاب أنفسهن (عابدات) أى كثيرات العبادات لله تعالى وقال ابن عباس كل عبادة فى القرآن فهو التوحيد (سائحات) قال ابن عباس صائمات وقال الحسن مهاجرات وقال ابن زيد وليس فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة الا الهجرة والسياحة الجولان فى الارض وقال الفراء وغيره سمى الصائم سائحا لان السائح لازاد معه فلا يزال ممسكا الى أن يجد ما يطعمه فشبه به الصائم فى امساكه الى أن يجئ وقت افطاره وقيل ذاهبات فى طاعة الله تعالى من ساح الماء اذا ذهب (ثيبات) جمع ثيب وهى التى تزوجت ثم بانت بوجه من الوجوه أو زالت بكارتها بوطء من غير نكاح (وأبكارا) أى عذارى جمع بكر وهى ضد الثيب وسميت بذلك لانها على أول حالها التى خلقت بها وقدم الثيبات لانهن أخبر بالعشرة التى هذا سياقها ووسط الواو بين الثيبات والابكار لتنافى الوصفين دون سائر الصفات (فان قيل) كيف ذكر الثيبات فى مقام المدح وهن من جملة ما يقل رغبة الرجال فيهن (أجيب) بأنه يمكن ان يكون بعض الثيبات خيرا من كثير من الابكار لاختصاصهن بالمال والجمال * ولما بالغ سبحانه فى عتاب نساء النبى صلى الله عليه وسلم مع صيانتهن عن التشبه اكراما له صلى الله عليه وسلم أتبع ذلك أمر الامة بالتأسى به فى هذه الاخلاق الكاملة فقال تعالى منبها لهن بالموعظة الخاصة بموعظة عامة دالة على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر للاقرب فالاقرب (يا أيها الذين آمنوا) أى اقروا بذلك (قوا أنفسكم) أى اجعلوا لها وقاية بالتأسى به صلى الله عليه وسلم وترك المعاصى وفعل الطاعات وفى أدبه مع الخالق والخلق (وأهليكم) من النساء والاولاد وكل من يدخل فى هذا الاسم قوهم (نارا) بالنصح والتأديب ليكونوا متخلقين بأخلاق أهل النبى صلى الله عليه وسلم كما روى الطبرانى عن سعيد بن العاص ما نحل والد ولدا

أفضل من أدب حسن وفي الحديث رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معهم في الجنة وقيل ان أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله فان لم تقم رش على وجهها الماء ورحم الله امرأة قامت من الليل تصلي وأيقظت زوجها فان لم يقم رشت على وجهه من الماء وقال بعض العلماء لما قال قوا أنفسكم دخل فيه الاولاد لان الولد بعض منه كما دخلوا في قوله تعالى ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم وقوله عليه الصلاة والسلام ان أحل ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه فلم يفرد بالذكر افرادسائر القرابات فيعلمه الحلال والحرام وقال عليه الصلاة والسلام حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه اذا بلغ * ثم بين تعالى وصف تلك النار بقوله عز وجل (وقودها) أي الذي توقد به (الناس) أي الكفار (والحجارة) كأصنامهم منها وعن ابن عباس أنها حجارة الكبريت وهي أشد الاشياء حرا اذا أوقد عليها والمعنى أنها مفرطة الحرارة تتقد بما ذكر لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه (عليها ملائكة) خزنتها عدتهم تسعة عشر كما سيأتي ان شاء الله تعالى في سورة المدثر (غلاظ) أي غلاظ القلوب لا يرحمون اذا استرحموا خلقوا من الغضب وحبب اليهم عذاب الخلق كما حبب لبني آدم أكل الطعام والشراب (شداد) أي شداد الابدان وقيل غلاظ الاقوال شداد الافعال يدفع واحدهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفا في النار لم يخلق الله فيهم الرحمة وقيل في أخذهم أهل النار شداد عليهم يقال فلان شديد على فلان أي قوي عليه يعذبه بأنواع العذاب وقيل غلاظ أجسامهم ضخمة شداد أي أقوياء قال ابن عباس ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة وقال صلى الله عليه وسلم في خزنة جهنم ما بين منكبي كل واحد منهم كما بين المشرق والمغرب (لا يعصون الله) أي الملك الاعلى في وقت من الاوقات وقوله تعالى (ما أمرهم) بدل من الجلالة أي لا يعصون أمر الله وقوله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) تأكيد هذا ما جرى عليه الجلال المحلي وقال الزمخشري (فان قلت) أليست الجملتان في معنى واحد قلت لا فان معنى الاولى أنهم يقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه وقيل لا يعصون الله ما أمرهم فيما مضى ويفعلون ما يؤمرون فيما يستقبل وصدر بهذا البيضاوي (فان قيل) انه تعالى خاطب المشركين في قوله تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين فجعلها معدة للكافرين فما معنى مخاطبته للمؤمنين بذلك (أجيب) بأن الفساق وان كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فانهم مع الكفار في دار واحدة فقيل للذين آمنوا قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الذين أعدت لهم هذه الدار الموصوفة ويجوز أن يأمرهم بالتوقي عن الارتداد والندم على الدخول في الاسلام وان يكون خطابا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون قال الزمخشري ويعضد ذلك قوله تعالى على الاثر (يا أيها الذين كفروا) أي بالاخلال بالادب مع النبي صلى الله عليه وسلم فأداهم ذلك الى الاخلال بالادب مع الله تعالى وبالادب مع

سائر خلقه (لا تعتذروا) أى تبالغوا فى اظهار العذر وهو ايساغ الحيلة فى وجه يزيل ما ظهر من التقصير (اليوم) فانه يوم الجزاء لا يوم الاعتذار وقد فات زمان الاعتذار وصار الامر الى ما صار وهذا النهى لتحقق الياس (انما تجزون) أى فى هذا اليوم (ما كنتم) أى مما هو لكم كالجبلة والطبع (تعملون) فى الدنيا ونظيره فاليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم قال البقاعى ولا بعد على الله فى أن يصور لكل انسان صورة عمله بحيث لا يشك انه عمله ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذى يجد فيه من الالم ما علم الله تعالى انه بمقدار استحقاقه * ولما بين تعالى أن المعذرة لا تنفع فى ذلك اليوم أمر بالتوبة فى الدنيا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا) أى ارجعوا رجوعا تاما (الى الله) أى الملك الذى لا نظير له (توبة) وقوله (نصوحا) صيغة مبالغة أسند النصح اليها مجازا وهى من نصح الثوب اذا خاطه فكان التائب يرقع بالمعصية وقيل من قولهم ناصح اى خالص وقرأ شعبة بضم النون والباقون بفتحها * (تنبيه) * أمرهم بالتوبة وهى فرض على الاعيان فى كل الاحوال وفى كل الازمان واختلفوا فى معناها فقال عمر ومعاذ التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود الى الذنب كما لا يعود اللبن فى الضرع وقال الحسن هى أن يكون العبد نادما على ما مضى مجمعا على أن لا يعود فيه وقال الكلبى ان يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن وعن حوشب أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار وعن سماك ان تنصب الذنب الذى أقللت فيه الحياء من الله تعالى امام عينيك وتتبعه نظرك وعن السدى لا تصح الا بنصيحة النفس ونصيحة المؤمنين لان من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله وقال سعيد بن المسيب توبة ينصحون فيها أنفسهم وقال القرطبى يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان والاقلاع بالابدان واضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سىء الاخوان وقال الفقهاء التوبة التى لا تعلق لحق آدمى فيها لها ثلاثة شروط أحدها أن يقلع عن المعصية وثانيها أن يندم على ما فعله وثالثها أن يعزم على أن لا يعود اليها فاذا اجتمعت هذه الشروط فى التوبة كانت نصوحا وان فقد شرط منها لم تصح توبته وان كانت تتعلق بآدمى فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة والرابع ان يبرأ من حق صاحبها فان كانت المعصية مالا ونحوه رده الى مالكه وان كانت حد قذف ونحوه مكنه من نفسه أو طلب العفو منه وان كانت غيبة استحله منها قال العلماء التوبة واجبة من كل معصية كبيرة أو صغيرة على الفور ولا يجوز تأخيرها وتجب من جميع الذنوب وان تاب من بعضها صحت توبته عما تاب منه وبقى عليه الذى لم يتب منه هذا مذهب أهل السنة والجماعة وقد قال صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس توبوا الى الله فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة وعن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة وعن أبى موسى الاشعرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر وعن على انه سمع اعرابيا يقول

اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك فقال ياهذا ان سرعة الاستغفار بالتوبة توبة الكذابين قال وما التوبة قال يجمعها ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة وللفرائض الاعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وان تعزم على ان لا تعود وان تذيب نفسك فى طاعة الله كما أذبتها فى المعصية وان تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصى وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه وقوله تعالى (عسى ربكم) أى المحسن اليكم (أن يكفر) أى يغطى تغطية عظيمة (عنكم سيآتكم) أى ما بدا منكم مما يسوء بالتوبة اطماع من الله لعباده فى قبول التوبة وذلك تفضلا وتكرما لا وجوبا عليه واذا كان التائب على خطر فما ظنك بالمصر ولكن الفضل واسع * ولما ذكر نفع التوبة فى دفع المضار ذكر نفعها فى جلب المسار بقوله تعالى (ويدخلكم) أى يوم الفصل (جنات) أى بساتين كثيرة الاشجار تستر داخلها (تجرى من تحتها) أى تحت غرفها وأشجارها (الانهار) فهى لا تزال ريا وقوله تعالى (يوم لا يخزى الله) اى الملك الاعظم (النبى) اى الذى نبأه الله تعالى بما يوجب له الرفعة الثابتة من الاخبار التى هى فى غاية العظمة منصوب بيدخلكم أو باضمار اذكر ومعنى يخزى هنا يعذب أى لا يعذبه وقوله تعالى (والذين آمنوا معه) يجوز فيه وجهان أحدهما ان يكون منسوقا على النبى أى ولا يخزى الذين آمنوا معه وعلى هذا يكون قوله تعالى (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) مستأنفا أو حالا الثانى ان يكون مبتدأ وخبره نورهم يسعى الى آخره وقوله تعالى (يقولون) خبر ثان أو حال *(تنبيه)* التقييد بالايمان لا ينفى ان لهم نورا عن شمائلهم بل لهم نور لكن لا يلتفتون اليه لانهم اما من السابقين واما من أهل اليمين فهم يمشون فى هاتين الجهتين ويؤتون صحائف أعمالهم منهما وأما أصحاب الشمال فيعطونها من وراء ظهورهم ومن شمائلهم وهم عمالهم من النوران قالوا سمع لهم وان شفعوا (ربنا) أى أيها المتفضل علينا بهذا النور وبكل خير كان أو يكون فيه (أتمم لنا نورنا) أى الذى مننت به علينا حتى يكون فى غاية التمام قال ابن عباس يقولون ذلك اذا طفئ نور المنافقين اشفاقا وعن الحسن الله متمه لهم ولكنهم يدعون تقربا الى الله كقوله تعالى واستغفر لذنبك وهو مغفور له وقيل يقوله أدناهم منزلة لانهم يعطون من النور قدر ما يبصرون مواطئ اقدامهم لان النور على قدر الاعمال فيسألون اتمامه تفضلا وقيل السابقون الى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوا وزحفا وأولئك الذين يقولون ربنا أتمم لنا نورنا (واغفر لنا) أى وامح عنا كل نقص كان يميل بنا الى أحوال المنافقين عينه وأثره وهذا النور من صور أعمالهم فى الدنيا لان الآخرة تظهر فيها حقائق الاشياء وتتبع الصور معانيها وهو شرع الله الذى شرعه وهو الصراط الذى يضرب بين ظهرانى جهنم لان الفضائل فى الدنيا متوسطة بين الرذائل فكل فضيلة يكتنفها رذيلتان افراط وتفريط فالفضيلة هى الصراط المستقيم والرذيلتان ما كان من جهنم عن يمينه وشماله فمن كان يمشى فى الدنيا على ما أمر به سواء من غير افراط ولا تفريط كان نوره تاما ومن امالته الشهوات طفئ نوره فى بعض الاوقات واختطفته كلاليب هى صور الشهوات فميل به فى النار بقدر ميله اليها والمنافق يظهر له نور

اقراره بكلمة التوحيد فاذا مشى طفى لان اقراره لاحقيقة له (انك) أى وحدك (على كل شئ) يمكن دخول المشيئة فيه (قدير) أى بالغ القدرة * ولما ذكر ماتقدم من لينه صلى الله عليه وسلم لاضعف الناس وحسن أدبه وكرم عشرته لانه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم أمره سبحانه بالغلظة والشدة على اعدائه بقوله تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار) اى بكل مايجهدهم فيكفهم من السيف ومادونه من المواعظ الحسنة والدعاء الى الله تعالى ليعرف أن ذلك اللين لاهل الله تعالى انما هو من تمام عقلك وغزير علمك وفضلك (والمنافقين) أى جاهدهم بما يليق بهم من الحجة والسيف ان احتيج اليه ان أبدوا نوع مظاهرة وعرفهم أحوالهم فى الآخرة وانهم لانور لهم يجوزون به على الصراط مع المؤمنين وقال الحسن وجاهدهم باقامة الحدود عليهم (واغلظ عليهم) بالفعل والقول بالتوبيخ والزجر والابعاد والهجر فالغلظة عليهم من اللين لله تعالى كما ان اللين لاهل الله من خشية الله تعالى وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (ومأواهم) اى فى الآخرة (جهنم وبئس المصير) اى هى * ولما كان للكفار قرابات بالمسلمين ربما توهموا انها تنفعهم وللمسلمين قرابات بالكفار توهم انها تضرهم ضرب لكل مثلا وبدأ بالاول فقال تعالى (ضرب الله) أى الملك الذى أحاط بكل شئ قدرة وعلما (مثلا) يعلم به من فيه قابلية العلم ويتعظ به من له أهلية الاتعاظ (للذين كفروا) أى غطوا الحق على أنفسهم وعلى غيرهم وقوله تعالى (امرأت نوح) عليه السلام الذى أهلك الله تعالى من كذبه بالغرق (وامرأت لوط) عليه السلام الذى أهلك الله تعالى من كذبه بالحصب والخسف يجوز أن يكون بدلا من قوله مثلا على تقدير حذف المضاف أى ضرب الله مثلا مثل امرأة نوح وامرأة لوط ويجوز ان يكونا مفعولين وضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على انه لايغنى أحد عن قريب ولانسيب فى الآخرة اذا فرق بينهما الدين قال مقاتل وكان اسم امرأة نوح والهة واسم امرأة لوط والعة وقال الضحاك عن عائشة ان جبريل عليه السلام نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره أن اسم امرأة نوح واعلة واسم امرأة لوط والهة * (تنبيه) * رسمت امرأت فى الثلاثة وابنت بالتاء المجرورة فوقف عليهن بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ووقف الباقون بالتاء وقوله تعالى (كانتا) اى مع كونهما كافرتين (تحت عبدين) جملة مستأنفة كأنها مفسرة لضرب المثل ولم يأت بضميرهما فيقال تحتهما أى تحت نوح ولوط لما قصد من تشريفهما بهذه الاضافة الشريفة قال القائل

لاتدعنى الا بياعبدها * فانه أشرف أسمائى

ودل على كثرة عبيده تنبيها على غناه بقوله تعالى (من عبادنا) ووصفهما بأجل الصفات وهو قوله تعالى (صالحين) واختلف فى معنى قوله تبارك وتعالى (فخانتاهما) فقال عكرمة والضحاك بالكفر وعن ابن عباس كانت امرأة نوح تقول للناس انه مجنون واذا آمن به أحد أخبرت الجبابرة من قومه وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه وعن ابن عباس مابغت امرأة نبى قط وانما كانت خيانتهما فى الدين وكانتا مشركتين وقيل كانتا منافقتين وقيل خيانتهما النميمة اذا أوحى اليهما شئ أفشتاه الى المشركين قاله الضحاك وقيل كانت امرأة لوط اذا نزل به ضيف

دخنت لتعلم قومها انه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من اتيان الرجال (فلم) أي فتسبب عن ذلك ان العبدين الصالحين لم (يغنيا عنهما) أي المرأتين بحق النكاح (من الله) أي من عذاب الملك الذي له الامر كله فلا أمر لغيره (شيأ) أي من اغناء لاجل خيانتهما (وقيل) أي للمرأتين ممن أذن له في القول النافذ الذي لا مرد له (ادخلا النار) أي قيل لهما ذلك عند موتهما أو يوم القيامة (مع الداخلين) أي مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الانبياء فلم يغن نوح ولوط عن امرأتيهما شيأ من عذاب الله تعالى وفي هذا المثل تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما وتحذير لهما على أعلى وجه وأشده وفيه تنبيه على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة وقيل ان كفار مكة استهزؤا وقالوا ان محمدا يشفع لنا فبين تعالى ان الشفاعة لا تنفع كفار مكة وان كانوا أقرباء كما لا ينفع نوح امرأته ولا لوط امرأته مع قربهما لهما لكفرهما * ثم شرع تعالى في ضرب المثل الثاني فقال تعالى (وضرب الله) أي الملك الاعلى الذي له صفات الكمال (مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون) واسمها آسية وهي بنت مزاحم آمنت وعملت صالحا فلم تضرها الوصلة بالكافر بالزوجية التي هي من أعظم الوصل ولا نفعه ايمانها كل امرئ بما كسب رهين وأثابها ربها تعالى أن جعلها في الآخرة زوجة خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في دار كرامته بصبرها على عبادة الله تعالى وهي في حبالة عدوه وأسقط وصفه بالعبودية دليلا على تحقيره وعدم رحمته له لانه من أعدى أعدائه وقوله تعالى (اذ قالت) ظرف للمثل المحذوف أي مثلهم مثلها حين قالت (رب) أي أيها المحسن الي بالهداية وأنا في حبالة هذا الكافر الجبار (ابن لي عندك بيتا) وبينت مرادها بالعندية فقالت (في الجنة) أي دار المقربين وقد أجابها سبحانه بان جعلها زوجة أكمل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم فكانت معه في منزله الذي هو أعلى المنازل (ونجني من فرعون) أي فلا أكون عنده (وعمله) فلا تسلطه علي بما يضرني عندك في الآخرة فلا أعمل بشيء من عمله وهو شركه وقال ابن عباس جماعه (ونجني) اعادت العامل تأكيدا (من القوم الظالمين) أي الناس الاقوياء العريقين الذين يضعون أعمالهم في غير موضعها فاستجاب الله تعالى دعاءها وأحسن اليها لاجل محبتها للمحبوب وهو كليم الله موسى عليه السلام كما يقال * صديق صديقي داخل في صداقتي * وذلك أن موسى عليه السلام لما غلب السحرة آمنت به فلما تبين لفرعون ايمانها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس فاذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة وفي القصة ان فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوها بالصخرة قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة فأبصرته من مرمرة بيضاء فانتزعت روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألما وقال الحسن وابن كيسان رفع الله تعالى امرأة فرعون الى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب وقوله تعالى (ومريم ابنت عمران) عطف على امرأة فرعون تسلية للارامل (التي أحصنت فرجها) اي عفت عن السوء وجميع مقدماته كانت كالحصن العظيم المانع من العدو فاستمرت على حالها الى الممات فزوجها الله تعالى في الجنة جزاء لها بخير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم وقال بعض المفسرين أراد بالفرج هنا الجيب لقوله تعالى (فنفخنا)

أي بما الثامن العظمة بواسطة ملكنا جبريل عليه السلام (فيه) اى في جيب درعها قال البقاعي أو في فرجها الحقيقي وعلى هذا فلا حاجة الى التأويل (من روحنا) أي من روح خلقناه بلا تواسط أصل وهو روح عيسى عليه السلام (وصدقت بكلمات ربها) أي الحسن اليها وانخلف في تلك الكلمات فقال مقاتل يعني بالكلمات عيسى وأنه نبي وعيسى كلمة الله وقال البغوي يعني الشرائع التي شرعها الله تعالى للعباد بكلماته المنزلة وقيل هي قول جبريل عليه السلام لها انما أنا رسول ربك الآية وعلى كل قول استحقت ان تسمى لذلك صديقه وقرأ (وكتبه) أبو عمرو وحفص بضم الكاف والتاء جمعا والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبعدها ألف افرادا والمراد منه الكثرة فالمراد به الجنس فيكون في معنى كل كتاب أنزله الله تعالى على ولدها أو غيره وقوله تعالى (وكانت من القانتين) يجوز في من وجهان أحدهما انه الابتداء الغاية والثاني انه التبعيض وقد ذكرهما الزمخشري فقال من للتبعيض ويجوز أن تكون لابتداء الغاية على انها ولدت من القانتين لانها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما وعلى سائر الانبياء وآلهم أجمعين قال الزمخشري فان قلت لم قيل من القانتين على التذكير قلت لان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على اناثه وقيل أراد من القوم القانتين ويجوز أن يرجع هذا الى أهل بيتها فانهم كانوا مطيعين لله والقنوت الطاعة وقال عطاء من المصلين بين المغرب والعشاء وعن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لخديجة وهي تجود بنفسها اذا قدمت على ضراتك فأقرئيهن مني السلام مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كمل من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وروى الشيخان عن أبي موسى الاشعري كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحا حديث موضوع

(سورة الملك مكية)

وتسمى الواقية والمنجية وتدعى في التوراة المانعة لانها تقي وتنجي من عذاب القبر وعن ابن شهاب انه كان يسميها المجادلة لانها تجادل عن صاحبها في القبر وهي ثلاثون آية وثلثمائة وثلاثون كلمة وألف وثلثمائة حرف

(بسم الله) الذي خضعت لكمال عظمته الملوك (الرحمن) الذي عم بنعمة الايجاد كل من في الوجود (الرحيم) الذي خص أولياءه بالنعيم بدار الخلود (تبارك) أي تكبر وتقدس وتعالى وتعاظم وثبت ثباتا لا مثل له مع اليمن والبركة وقيل دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه (الذي بيده) أي بقدرته وتصرفه لا بقدرة غيره (الملك) أي له الامر والنهي

وملك السموات فى الدنيا والآخرة وقال ابن عباس بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ويحيي ويميت ويغني ويفقر ويعطي ويمنع قال الرازي وهذه الكلمة تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكا ومالكا كما يقال بيد فلان الامر والنهي والحل والعقد وذكر اليد انما هو تصوير للاحاطة ولتمام القدرة لانها محلها مع التنزه عن الجارحة وعن كل ما يفهم حاجة أو شبها (وهو على كل شئ) أي من الممكنات (قدير) أي تام القدرة * (تنبيه) * احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يؤثر الا قدرة الله تعالى وابطلوا القول بالطبائع كقول الفلاسفة وابطلوا القول بالمولدات كقول المعتزلة وابطلوا القول بكون العبد موجد الافعال نفسه لقوله تعالى وهو على كل شئ قدير ودلت هذه الآية على الوحدانية لانا لو قدرنا الها ثانيا فاما أن يقدر على ايجاد شئ أولا فان لم يقدر على ايجاد شئ لم يكن الها وان قدر كان مقدور ذلك الاله الثاني شيأ فيلزم كون ذلك الشئ مقدورا للاله الاول لقوله وهو على كل شئ قدير فيلزم وقوع مخلوق من خالقين وانه محال لانه اذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد يلزم أن يستغني كل واحد منهما عن كل واحد منهما فيكون محتاجا اليهما وغنيا عنهما وذلك محال وقرأ وهو على كل شئ قدير وهو العزيز الغفور وهو اللطيف وما أشبه ذلك أبو عمرو وقالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها وخرج بقولنا من الممكنات أنه تعالى ليس قادرا على نفسه وأجاب بعضهم بأن هذا عام مخصوص ودل على تمام قدرته قوله تعالى (الذي خلق) أي قدر وأوجد (الموت والحياة) قيل خلق الموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة وقدم الموت على الحياة لان الموت الى القهر أقرب كما قدم البنات على البنين فقال يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور وقيل قدمه لانه أقدم لان الاشياء فى الابتداء كانت فى حكم الموت كالنطف والتراب ونحوه وقال قتادة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله أذل بني آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه الفقر والمرض والموت وقيل انما قدم الموت على الحياة لان من نصب الموت بين عينيه كان أقوى الدواعي الى العمل وحكي عن ابن عباس والكلبي ومقاتل ان الموت والحياة جسمان والموت فى هيئة كبش لا يمر بشئ ولا يجد ريحه الا مات وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء وهي التي كان جبريل عليه السلام والانبياء عليهم السلام يركبونها خطوتها مد البصر فوق الحمار ودون البغل لا تمر بشئ ولا يجد ريحها الا حيي ولا تطأ على شئ الا حيي وهي التي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل فحيي حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس وعن مقاتل خلق الموت يعني النطفة والعلقة والمضغة وخلق الحياة يعني خلق انسانا فنفخ فيه الروح فصار انسانا قال القرطبي وهذا حسن يدل عليه قوله تعالى (ليبلوكم) أي يعاملكم وهو أعلم بكم من أنفسكم معاملة المختبر لاظهار ما عندكم من العمل بالاختبار (أيكم أحسن عملا) أي من جهة العمل أي عمله أحسن من عمل غيره

وروى عن عمر مرفوعا أحسن عملا أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله وقال الفضيل بن عياض أحسن عملا أخلصه وأصوبه وقال العمل لا يقبل حتى يكون خالصا صوابا فالخالص اذا كان لله والصواب اذا كان على السنة وقال الحسن أيكم أزهد فى الدنيا واترك لها وقال السدى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن استعدادا وأشد خوفا وحذرا وقيل يعاملكم معاملة المختبر فيبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره وبالحياة ليبين شكره وقيل خلق الله تعالى الموت للبعث والجزاء وخلق الله الحياة للابتلاء (فان قيل) الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصى وذلك فى حق الله تعالى العالم بجميع الاشياء محال (أجيب) بأن الابتلاء من الله تعالى هو ان يعامل عبده معاملة تشبه المختبر كما مرت الاشارة اليه (وهو) أى والحال أنه وحده (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الغفور) أى الذى مع ذلك يفعل فى محو الذنوب عينا وأثرا فعل المبالغ فى ذلك ويتلقى من أقبل اليه أحسن تلق كما قال تعالى فى الحديث القدسى ومن أتانى يمشى أتيته هرولة وقوله تعالى (الذى خلق) أى أبدع على هذا التقدير من غير مثال سبق (سبع سموات) يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتا أو بيانا أو بدلا وأن يكون منقطعا عنه خبر مبتدا محذوف أو مفعول فعل مقدر وقوله تعالى (طباقا) صفة لسبع وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه جمع طبق نحو جبل وجبال والثانى أنه جمع طبقة نحو رحبة ورحاب والثالث أنه مصدر طابق يقال طابق مطابقة وطباقا ثم اما أن يجعل نفس المصدر مبالغة واما على حذف مضاف أى ذات طباق واما أن ينتصب على المصدر بفعل مقدر أى طوبقت طباقا من قولهم طابق النعل أى جعله طبقة فوق طبقة أخرى وروى عن ابن عباس طباقا أى بعضها فوق بعض قال البقاعى بحيث يكون كل جزء منها مطابقا للجزء من الاخرى ولا يكون جزء منها خارجا عن ذلك قال وهى لا تكون كذلك الا أن تكون الارض كرة والسماء الدنيا محيطة بها احاطة قشر البيضة من جميع الجوانب والثانية محيطة بالدنيا وهكذا الى أن يكون العرش محيطا بالكل والكرسى الذى هو أقربها بالنسبة اليه كحلقة ملقاة فى فلاة فما ظنك بما تحته وكل سماء فى التى فوقها بهذه النسبة وقد قرر أهل الهيئة انها كذلك وليس فى الشرع ما يخالفه بل ظواهره توافقه ولاسيما التشبيه بالحلقة الملقاة فى فلاة فسبحان اللطيف الخبير ولا شك ان من تفكر فى هذه العظمة مع ما لطف بنا فيما هيأ فيها للناس من المنافع آثره سبحانه بالحب وأفرده عن كل ضد فانقطع بالتجا اليه ولم يعول الا عليه فى كل دفع ونفع وسارع فى مرضاته ومحابه فى كل خفض ورفع * (تنبيه) * دلت هذه الآية على القدرة من وجوه أحدها من حيث بقاؤها فى جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة ثانيها ان كلا منها اختص بحركة خاصة متقدرة بقدر معين من السرعة والبطء الى جهة معينة ثالثها كونها فى ذاتها محدثة وكل ذلك يدل على اسنادها الى قادر تام القدرة وقوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن) أى للسموات ولغيرها خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب وكذا القول فى قوله تعالى فارجع البصر ثم ارجع

البصر ينقلب اليك البصر (من تفاوت) أى من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين بل هى مستقيمة مستوية دالة على خالقها وان اختلف صورة وقيل المراد بذلك السموات خاصة أى ماترى فى خلق السموت من عيب وأصله من الفوت وهو ان يفوت بعضها بعضا فيقع الخلل لعدم استوائها يدل عليه قول ابن عباس من تفرق وقال السدى أى من اختلاف وعيب يقول الناظر لو كان كذا لكان أحسن وقيل المراد من التفاوت الفطور لقوله تعالى بعد ذلك فارجع البصر هل ترى من فطور ونظيره قوله تعالى ومالها من فروج قال القفال ويحتمل أن يكون المعنى ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فى الدلالة على حكم الصانع وأنه لم يخلقها عبثا *(تنبيه)* دلت هذه الآية على كمال علم الله تعالى وذلك ان الحس دل على ان هذه السموات السبع أجسام مخلوقة على وجه الاحكام والاتقان وكل فاعل كان فعله محكما متقنا فلابد وأن يكون عالما فدلت الآية على كونه تعالى عالما بالمعلومات فقوله تعالى ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت اشارة الى كونها محكمة متقنة وقرأ ماترى وهل ترى أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وأدغم لام هل فى التاء أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائى وقرأ من تفوت حمزة والكسائى بغير ألف بعد الفاء وتشديد الواو والباقون بألف بعد الفاء وتخفيف الواو وقوله تعالى (فارجع البصر) مسبب عن قوله تعالى ماترى وقوله تعالى (هل ترى من فطور) جملة يجوز أن تكون معلقة لفعل محذوف يدل عليه فارجع البصر أى فارجع البصر فانظر هل ترى وأن يكون فارجع البصر مضمنا معنى انظر لانه بمعناه فيكون هو المعلق والفطور جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر ومنه فطر ناب البعير كما يقال شق ومعناه شق اللحم وطلع قال المفسرون الفطور الصدوع والشقوق قال القائل

شققت القلب ثم ذررت فيه * هواك فليط فالتأم الفطور

(ثم ارجع البصر) وقوله تعالى (كرتين) نصب على المصدر كرتين وهو مثنى لايراد به حقيقته بل التكثير بدليل قوله تعالى (ينقلب اليك البصر خاسئا) أى صاغرا ذليلا بعيدا عن اصابة المطلوب كأنه طرد عنه طردا بالصغار (وهو حسير) أى كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة وهذان الوصفان لايأتيان بنظرتين ولا ثلاث وانما المعنى كرات وهذا كقولهم لبيك وسعديك وحنانيك ودواليك وهذاذيك لايريدون بهذه التثنية تشفيع الواحد انما يريدون التكثير أى اجابة لك بعد اجابة والا لتناقض الغرض والتثنية تفيد التكثير لقرينة كما يفيده أصلها وهو العطف لقرينة كقوله * لوعد قبر وقبر كنت أكرمه * أى قبور كثيرة ليتم المدح وقال ابن عطية كرتين معناه مرتين ونصبهما على المصدر وقيل الاولى ليرى حسنها واستواءها والثانية ليبصر كواكبها فى سيرها وانتهائها وهذا ظاهره يفهم التثنية فقط وروى البغوى عن كعب أنه قال السماء الدنيا موج مكفوف والثانية مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر أو قال نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء وبين

السماء السابعة والحجب السبعة صحارى من نور ثم ذكر تعالى دلالة أخرى بعد تلك الدلالة تدل على تمام قدرته بقوله تعالى (ولقد زينا) بما لنا من العظمة (السماء الدنيا) أى القربى لانها أقرب السموات الى الارض وهى التى تشاهدونها (بمصابيح) جمع مصباح وهو السراج أى بنجوم متقدة عظيمة جدا تفوت الحصر ظاهرة سائرة مضيئة ظاهرة زاهرة وهى الكواكب التى تنور الارض بالليل انارة السرج التى تتوردون بها سقوف دوركم وسمى الكواكب مصابيح لاضاءتها وزينة لان الناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح فكأنه قال ولقد زينا سقف الدار التى اجتمعتم فيها بمصابيح والتزين بها لايمنع أن تكون مركوزة فيما فوقها من السموات وهى تتراءى بحسب الشفوف وبما للاجرام السموات من الصفاء ولتلك المصابيح من شدة الاضاءة (وجعلناها) أى المصابيح بما لنا من العظمة مع كونها زينة واعلاما للهداية (رجوما للشياطين) أى الذين يحق لهم الطرد من الجن لما لهم من الاحتراق حراسة للسماء التى هى محل تنزل أمرنا بالقضاء والقدر وانزال هذا الذكر الحكيم لئلا يفسدوا باستراق السمع فيها على الناس دينهم الحق ويلبسوا عليهم أمرهم بخلط الحق الذى قد ختمنا به الاديان بالباطل والرجوم جمع رجم وهو مصدر فى الاصل أطلق على المرجوم به كضرب الامير ويجوز أن يكون باقيا على مصدريته ويقدر مضاف أى ذات رجوم وجمع المصدر باعتبار أنواعه والشهاب المرجوم به منفصل من نار الكوكب وهو قار فى فلكه على حاله كقبس النار يؤخذ منها وهى باقية لاتنقص وذلك مسوغ لتسميتها بالنجوم فمن لحقه الشهاب منهم قتله أو وضع أمره وخبله وقال أبو على جوابا لمن قال كيف تكون زينة وهى رجوم لاتبقى كيفية الرجم أن يؤخذ نار من ضوء الكوكب يرمى بها الشيطان والكوكب فى مكانه لايرجم به وقيل الرجوم هنا الظنون والشياطين شياطين الانس كما قال القائل * وماهو عنها بالحديث المرجم * فيكون المعنى جعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الانس وهم المنجمون يتكلمون بها رجما بالغيب فى أشياء من عظيم الابتلاء وعن قتادة خلقت النجوم لثلاث زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وتكلف مالاعلم له به وتعدى وظلم (وأعتدنا) أى هيأنا فى الآخرة مع هذا الذى فى الدنيا بما لنا من العظمة (لهم) أى للشياطين (عذاب السعير) أى التى فى غاية الاتقاد فى الآخرة قال المبرد سعرت النار فهى مسعورة وسعير مثل مقتولة وقتيل وهذه الآية تدل على ان النار مخلوقة الآن لأن قوله تعالى وأعتدنا لهم خبر عن الماضى ولما أخبر تعالى عن تهيئة العذاب لهم بالخصوص أخبر عن تهيئته لكل عامل بأعمالهم على وجه اندرجوا هم فيه فقال عز من قائل (وللذين كفروا) أى أوقعوا التغطية لما من حقه أن يظهر ويشهر من الاذعان للاله (بربهم) أى الذى تفرد بايجادهم والاحسان اليهم فانكروا ايجاده لهم بعد الموت كفرا بما شاهدوا من اختراعه لهم من العدم (عذاب جهنم) أى الدركة النارية التى تلقاهم بالتجهم والعبوسة والغضب (وبئس المصير) أى هى (اذا ألقوا) أى طرح الكفار (فيها) أى فى نار جهنم من أى طارح أمرناه بطرحهم كما يطرح الحطب فى النار العظيمة (سمعوا لها)

أى جهنم نفسها (شهيقا) أى صوتا هائلا أشد نكارة من أول صوت الحمار لشدة توقدها وغليانها قال ابن عباس الشهيق لجهنم عند القاء الكفار فيها كشهيق البغلة للشعير أو لأهلها على حذف مضاف كما قال عطاء الشهيق للكفار أى سمعوا من أنفسهم شهيقا كقوله تعالى لهم فيها زفير وشهيق قال القرطبى الشهيق فى الصدر والزفير فى الحلق وقد مضى فى سورة هود (وهى تفور) أى تغلى بهم ومنه قول حسان

تركتم قدركم لاشئ فيها * وقدر القوم حامية تفور

قال ابن عباس تغلى بهم كغلى المراجل وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بكسرها (تكاد تميز) أى تقرب من أن ينفصل بعضها من بعض كما يقال يكاد فلان ينشق من غيظه وفلان غضب فطارت شقة منه فى الارض وشقة فى السماء كناية عن شدة الغضب وقرأ البزى بتشديد التاء من تميز فى الوصل والسوسى على أصله بادغام الدال فى التاء (من الغيظ) أى عليهم وقال سعيد بن جبير تكاد تميز من الغيظ يعنى ينقطع وينفصل بعضها من بعض وقال ابن عباس تمزق من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى وذلك كله لغضب سيدها وتأتى يوم القيامة تقاد الى المحشر بألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها به وهى من شدة الغيظ تقوى على الملائكة وتحمل على الناس فتقطع الازمة جميعا وتحطم أهل المحشر فلا يردها عنهم الا النبى صلى الله عليه وسلم يقابلها بنوره فترجع مع ان لكل ملك من القوة مالو أمر أن يقلع الارض وما عليها من الجبال ويصعد بها فى الجو فعل من غير كلفة وهذا كما أطفأها فى الدنيا بنفخه روى أبو داود عن ابن عمر أنه قال انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر صلاته الى أن قال ثم نفخ فى آخر سجوده فقال اف اف ألم تعدنى أن لا تعذبهم وأنا فيهم ألم تعدنى أن لا تعذبهم وهم يستغفرون ولما ذكر تعالى حالها أتبعه حالهم فقال تعالى (كلما ألقى فيها) أى فى جهنم بدفع الزبانية لهم (فوج) أى جماعة فى غاية الاسراع والافواج الجماعات فى تفرقة ومنه قوله تعالى فتأتون أفواجا والمراد هنا بالفوج جماعة من الكفار (سألهم) أى ذلك الفوج (خزنتها) أى النار وهم مالك واعوانه سؤال توبيخ وتقريع (ألم يأتكم) أى فى الدنيا (نذير) أى رسول يخوفكم هذا اليوم حتى تحذروا قال الزجاج وهذا التوبيخ زيادة لهم فى العذاب (قالوا بلى) قرأه حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح والوقف عليها كما فى الوصل (قد جاءنا نذير) أى محذر بليغ التحذير * (تنبيه) * فى ذلك دليل على جواز الجمع بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها اذ لو قالوا بلى لفهم المعنى ولكنهم أظهروه تحسرا وزيادة فى تغمتهم على تفريطهم فى قبول قول النذير وليعطفوا عليه قولهم (فكذبنا) أى فتسبب عن مجيئه انا أوقعنا التكذيب بكل ما قاله النذير (وقلنا) أى زيادة فى التكذيب (ما نزل الله) اى الذى له الكمال كله عليكم ولا على غيركم (من شئ) لا وحيا ولا غيره وما كفانا هذا الفجور حتى قلنا مؤكدين (ان) أى ما (أنتم) أى أيها النذر المذكورون فى نذير المراد به الجنس (الا فى ضلال) أى بعد عن الطريق (كبير) فبالغنا فى التكذيب والسفه

بالاستجهال والاستخفاف وقيل قوله تعالى ان أنتم الا فى ضلال كبير من كلام الملائكة للكفار حين أخبروا بالتكذيب (وقالوا) أى الكفار زيادة فى توبيخ أنفسهم (لو كنا) أى بمالنا من الغريزة (نسمع) أى كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتمادا على مالاح من صدقهم بالمعجزات (أو نعقل) أى بما أدته الينا حاسة السمع فنفكر فى حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين (ما كنا) أى كونا دائما (فى أصحاب السعير) أى فى عداد من أعدت له النار التى هى فى غاية الايقاد *(تنبيه)* فى الآية أعظم فضيلة للعقل روى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لكل شئ دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل الآية (فاعترفوا) أى بالغوا فى الاعتراف حيث لا ينفعهم الاعتراف (بذنبهم) أى فى دار الجزاء كما بالغوا فى التكذيب فى دار العمل والذنب لم يجمع لانه فى الاصل مصدر والمراد به تكذيب الرسل (فسحقا) أى فبعدا لهم من رحمة الله تعالى وهو دعاء عليهم مستجاب (لاصحاب السعير) أى الذين قضت عليهم أعمالهم بملازمتها وقال سعيد بن جبير وأبو صالح هو واد فى جهنم يقال له السحق وقرأ الكسائى بضم الحاء والباقون بسكونها ولما ذكر أصحاب السعير أتبعهم ذكر أضدادهم بقوله تعالى (ان الذين يخشون) أى يخافون (ربهم) أى المحسن اليهم خوفا أرق قلوبهم وأرق أعينهم بحيث لا يقر لهم قرار من توقعهم العقوبة كلما ازدادوا طاعة ازدادوا خشية يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة (بالغيب) أى حال كونهم غائبين عن عذابه سبحانه أو وعيده غائبا عنهم أو وهم غائبون عن أعين الناس فهم مع الناس يتكلمون وقلوبهم تلظى بنيران الخوف وتكلم بسيوف الهيبة فيتركون المعصية حيث لا يراهم أحد من الناس ولا يكون لهم هذا الا برياضة عظيمة فعلى العاقل أن يطوع نفسه لترجع مطمئنة بأن ترضى بالله ربا بالتدخل فى رق العبودية وبالاسلام دينا المصير غريقا فيها فلا ينازع الملك فى ردائه الكبرياء وازاره العظمة وتاجه الجلال وحلته الجمال ولا ينازعه فيما يذبره من الشرائع ويظهره من المعارف ويحكم به على عبيده من قضائه وقدره (لهم مغفرة) أى عظيمة تأتى على جميع ذنوبهم (وأجر) أى من فضل الله تعالى (كبير) يكون لهم به من الاكرام ما ينسيهم ما قاسوه فى الدنيا من شدائد الايلام ويصغر فى جنبه لذائذ الدنيا العظام (وأسروا) أى أيها الخلائق (قولكم) أى خيرا كان أو شرا (أو اجهروا به) فانه يعلمه ويجازيكم به اللفظ لفظ الامر والمراد به الخبر يعنى ان أخفيتم كلامكم فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره أو جهرتم به فسواء (انه) أى ربكم (عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى بحقيقتها وكنهها وحالها وجبلتها وما يحدث عنها من الخير والشر وقال ابن عباس نزلت فى المشركين كانوا ينالون من النبى صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل عليه السلام فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كى لا يسمع رب محمد فأسروا قولكم أو اجهروا به يعنى وأسروا قولكم فى محمد صلى الله عليه وسلم وقال غيره انه خطاب عام لجميع الخلق فى جميع الاعمال والمراد ان قولكم وعملكم على أى سبيل وجد

فالحال واحد فى علمه تعالى فاحذروا من المعاصى سرا كما تحذرون عنها جهرا فان ذلك لا يتفاوت بالنسبة الى علم الله تعالى ولما قال تعالى انه عليم بذات الصدور ذكر الدليل على انه عالم فقال تعالى (ألا يعلم من خلق) أى من خلق لابد وأن يكون عالما بما خلقه لان الخلق هو الايجاد والتكوين على سبيل القصد والقاصد الى الشئ لابد وأن يكون عالما بحقيقة ذلك المخلوق كيفية وكمية والمعنى ألا يعلم السر من خلق السر يقول أنا خلقت السر فى القلب أفلا أكون عالما بما فى قلوب العباد قال أهل المعانى ان شئت جعلته من أسماء الخالق تعالى ويكون المعنى ألا يعلم الخالق خلقه وان شئت جعلته من أسماء المخلوق والمعنى ألا يعلم الله من خلقه ولابد أن يكون الخالق عالما بما خلقه وما يخلقه قال ابن المسيب بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع فى نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق فنودى من جانب الغيضة بصوت عظيم ألا يعلم من خلق (وهو) أى والحال انه هو (اللطيف) الذى يعلم ما به فى القلوب (الخبير) أى البالغ العلم بالظواهر والبواطن فكيف يخفى عليه شئ من الاشياء وقال أبو اسحق الاسفراينى من أسماء صفات الذات ما هو للعلم منها العليم ومعناه تعميم جميع المعلومات ومنها الحكيم ويختص بأن يعلم دقائق الاوصاف ومنها الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ومعناه أن لا يغيب عنه شئ ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى شيأ ومنها المحصى ويختص بأنه لا يشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الاوراق فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق وقد قال ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ولما كان هذا أمرا غامضا دل عليه بأمر مشاهد أبدعه بلطفه وأتقنه بخبره فقال مستأنفا (هو) أى وحده (الذى جعل لكم الارض) على سعتها وعظمها وحزونة كثير منها (ذلولا) أى مسخرة لا تمنع ان توصلوا الى منافعكم فيها قابلة للانقياد لما تريدون منها من مشى وزرع حبوب وغرس أشجار وغير ذلك وقيل ثبتها بالجبال لئلا تزول بأهلها ولو كانت متمايلة لما كانت منقادة لنا وقيل لو كانت مثل الذهب والحديد لكانت تسخن جدا فى الصيف وتبرد جدا فى الشتاء * (تنبيه) * فى ذكر هذه الآية بعد الآية المتقدمة تهديد للكفرة كقول السيد لعبده الذى أساء اليه سرا يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس فى هذه الدار التى وهبتها لك وكل هذا الخبز الذى هيأته لك ولا تأمن مكرى وتأديبى فكأنه تعالى يقول يا أيها الكفار أنا عالم بسركم وجهركم وضمائركم نخافونى فان الارض التى هى قراركم أنا ذللتها لكم ولو شئت خسفت بكم وقوله تعالى (فامشوا) أى الهوينا مكتسبين وغير مكتسبين ان شئتم من غير صعوبة توجب لكم وثوبا أو حبوا (فى مناكبها) مثل لفرط التذلل ومجاوزته الغاية لان المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شئ من البعير وأنباه عن ان يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه فاذا جعلها فى الذل بحيث يمشى فى مناكبها لم يترك شيأ وهذا أمر اباحة وفيه اظهار الامتنان وقيل خبر بلفظ الامر أى لكى تمشوا فى اطرافها ونواحيها أو آكامها وجبالها وقال ابن عباس وبشير بن كعب وقتادة فى مناكبها فى جبالها وتذليلها أدل على

تذليل غيرها ولكن مشيكم فيها وتصرفاتكم بذل واخبات وسكون استصغار الانفسكم وشكرا لمن سخر لكم ذلك وروى أن بشير بن كعب كانت له سرية فقال لها ان أخبرتيني ما مناكب الارض فأنت حرة فقالت مناكبها جبالها فقال لها صرت حرة فأراد ان يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال دع ما يريبك الى ما لا يريبك وقال مجاهد فى اطرافها وعنه أيضا فى طرقها وفجاجها وهو قول السدى والحسن وقال الكلبى فى جوانبها ومنكبا الرجل جانباه (فائدة) حكى قتادة عن أبى الخلد ان الارض أربعة وعشرون ألف فرسخ للسودان اثنا عشر ألفا وللروم ثمانية آلاف وللفرس ثلاثة آلاف وللعرب ألف ثم ذكرهم تعالى بأنه سهل لها الاخراج البركات بقوله تعالى (وكلوا) ودل على ان الرزق فوق الكفاية بقوله تعالى (من رزقه) الذى أودعه لكم فيها قال الحسن مما أحل لكم وقيل مما خلقه الله لكم رزقا فى الارض (واليه) أى وحده (النشور) وهو اخراج جميع الحيوانات التى أكلتها الارض وأفسدتها يخرجها سبحانه فى الوقت الذى يريده على ما كان كل منها عليه عند الموت كما أخرج تلك الارزاق لا فرق بين هذا وذاك غير انكم لا تتأملون فيا فوز من شكر ويا هلاك من كفر فعودوا أنفسكم بالخيرات لعلها تنقاد كما قيل * هى النفس ما عودتها تتعود * ولما كان لم يكن بعد الاستعطاف الا الانذار قال تعالى مهددا للمكذبين (أأمنتم) قرأ قنبل فى الوصل بابدال الهمزة بعد راء النشور واوا وسهل الهمزة الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وحققها الباقون وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير ادخال وقوله تعالى (من فى السماء) فيه وجوه أحدها من ملكوته فى السماء لانها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها ينزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه والثانى أن ذلك على حذف مضاف أى أأمنتم خالق من فى السماء والثالث ان فى بمعنى على أى على السماء كقوله ولاصلبنكم فى جذوع النخل أى على جذوع النخل وانما احتاج القائل بهذين الوجهين الى ذلك لانه اعتقد أن من واقعة على البارى تعالى شأنه وهو الظاهر وثبت بالدليل القطعى أنه ليس بمتحيز لئلا يلزم التجسيم ولا حاجة الى ذلك فان من هنا المراد بها الملائكة سكان السماء وهم الذين يتولون الرحمة والنقمة والرابع أنهم خوطبوا بذلك على اعتقادهم فان القوم كانوا مجسمة مشبهة وأنه فى السماء وأن الرحمة والعذاب نازلان منه وكانوا يدعونه من جهتها فقيل لهم على حسب اعتقادهم أأمنتم من فى السماء أى من تزعمون أنه فى السماء قال الرازى هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها باجماع المسلمين لان ذلك يقتضى احاطة السماء به من جميع الجوانب فيكون أصغر منها والعرش أكبر من السماء بكثير فيكون حقيرا بالنسبة الى العرش وهو باطل بالاتفاق ولانه تعالى قال قل لمن ما فى السموات والارض فلو كان فيها لكان مالكا لنفسه فالمعنى اما من فى السماء عذابه واما ان ذلك بحسب ما كانت العرب تعتقده واما من فى السماء سلطانه وملكه وقدرته كما قال تعالى وهو الله فى السموات وفى الارض فان الشئ الواحد لا يكون دفعة فى مكانين والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله سبحانه وتعظيم قدرته والمراد الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام وقوله تعالى

(ان)

(أن يخسف بكم الارض) بدل من من فى السماء بدل اشتمال وقال القرطبي يحتمل أن يكون المعنى آأمنتم خالق من فى السماء أن يخسف بكم الارض كما خسفها بقارون وقرأ من فى السماء ابن نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية المفتوحة بعد الكسرة ياء فى الوصل والباقون بتحقيقهما (فاذا هى) أى الارض التى أنتم عليها (تمور) أى تضطرب وهى تهوى بكم وتجرى هابطة فى الهواء وتتكفأ الى حيث شاء سبحانه قال فى القاموس المور الاضطراب والجريان على وجه الارض والتحرك وقال الرازى ان الله تعالى يحرك الارض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها يذهبون والارض فوقهم تمور فتقلبهم الى أسفل السافلين وقال القرطبي قال المحققون أأمنتم من فوق السماء كقوله تعالى فسيحوا فى الارض اى فوقها لا بالمماسة والتحيز بل بالقهر والتدبير والاخبار فى هذا صحيحة كثيرة منتشرة مشيرة الى العلو لا يدفعها الا ملحد أو جاهل أو معاند والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلو والعظمة لا بالاماكن والجهات والحدود لانها صفات الاجسام وانما ترفع الايدى بالدعاء الى السماء لان السماء مهبط الوحى ومنزل القطر ومحل القدس ومعدن المطهرين من الملائكة واليها ترفع أعمال العباد وفوقها عرشه وجنته كما جعل الله تعالى الكعبة قبلة للصلاة ولانه تعالى خلق الامكنة وهو غير متحيز وكان فى أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان وقوله تعالى (أم أمنتم) أى أيها المكذبون (من فى السماء أن يرسل) بدل من من فى السماء بدل اشتمال (عليكم) أى من السماء (حاصبا) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل وقيل ريح فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها وقيل هى سحاب فيها حجارة (فستعلمون) أى عن قريب بوعد لا يخلف عند معاينة العذاب (كيف نذير) أى انذارى البليغ اذا شاهدتم العذاب وهو بحيث لا يستطاع ولا تتعلق الاطماع بكشف له ولا دفاع قال البقاعى وحذف الياء منه ومن نكير اشارة الى أنه وان كان خارجا عن الطوق ليس منتهى مقدوره بل لديه مزيد لا غاية له بوجه ولا تحرير أى على قراءة أكثر القراء فقد قرأ ورش بالياء فى الوصل فيهما دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) أى انكارى عليهم لما أصبتهم به من العذاب ولما ذكر تعالى ما تقدم من الوعيد ذكر البرهان على كمال قدرته بقوله تعالى (أولم يروا) أجمع القراء على القراءة بالغيب لان السياق للرد على المكذبين بخلاف ما فى النحل وأشار الى بعد الغاية بحرف النهاية فقال تعالى (الى الطير) وهو جمع طائر (فوقهم) أى فى الهواء وقوله تعالى (صافات) أى باسطات أجنحتهن يجوز أن يكون حالا من الطير وأن يكون حالا من فوقهم اذا جعلناه حالا فتكون متداخلة وفوقهم ظرف لصافات على الاول أو ليروا وقوله تعالى (ويقبضن) عطف الفعل على الاسم لانه بمعناه أى وقابضات فالفعل هنا مؤول بالاسم عكس قوله تعالى ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا فان الاسم هنالك مؤول بالفعل وقال ابو حيان وعطف الفعل على الاسم لما كان فى معناه ومثله قوله تعالى فالمغيرات صبحا فأثرن عطف الفعل على الاسم

لما كان المعنى فاللاتى أغرن فأثرن ومثل هذا العطف فصيح وكذا عكسه الا عند السهيلى فانه قبيح وقال الزمخشرى صافات باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها لانهن اذا بسطنها صففن قوادمها صفا ويقبضن ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن (فان قلت) لم قال ويقبضن ولم يقل قابضات (قلت) لان اصل الطيران هو صف الاجنحة لان الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء والاصل فى السباحة مد الاطراف وبسطها وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجئ بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى انهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح اه وقال أبو جعفر النحاس يقال للطائر اذا بسط جناحيه صاف واذا ضمهما فأصابا جنبيه قابض لانه يقبضهما وقيل ويقبضن أجنحتهن بعد بسطها اذا وقفن عن الطيران (ما يمسكهن) أى عن الوقوع فى حال البسط والقبض (الا الرحمن) أى الملك الذى رحمته عامة لكل شئ بأن هيأهن بعد ان أفاض عليهن رحمة الايجاد على اشكال مختلفة وخصائص مفترقة هيأهن للجرى فى الهواء (انه) أى الرحمن سبحانه (بكل شئ بصير) أى بالغ البصر والعلم بظواهر الاشياء وبواطنها فهما أراد كان والمعنى أولم يستدلوا بثبوت الطير فى الهواء على قدرتنا أن نفعل بهم ما تقدم وغيره من العذاب وقوله تعالى (أمن) مبتداء وقوله تعالى (هذا) خبره وقوله تعالى (الذى) بدل من هذا وقوله تعالى (هو جند) أى أعوان (لكم) صلة الذى وقوله تعالى (ينصركم) صفة جند (من دون الرحمن) أى غيره يدفع عنكم عذابه أى لا ناصر لكم وقال ابن عباس رضى الله عنهما جند لكم أى حزب ومنعة لكم ولفظ الجند يوحد ولذلك قال تعالى هذا الذى هو جند لكم وهو استفهام انكارى أى لا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله من دون الرحمن أى من سوى الرحمن وقرأ أبو عمرو بسكون الراء وللدورى اختلاس الضمة أيضا والباقون بالرفع (ان الكافرون) أى ما الكافرون (الا فى غرور) أى من الشيطان يغرهم بأن لا عذاب ولا حساب قال بعض المفسرين كان الكفار يمتنعون عن الايمان ويعاندون النبى صلى الله عليه وسلم معتمدين على شيئين أحدهما قوتهم بمالهم وعددهم والثانى اعتقادهم أن الاوثان توصل اليهم جميع الخيرات وتدفع عنهم جميع الآفات فأبطل الله تعالى عليهم الاول بقوله تعالى أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم الآية ورد عليهم الثانى بقوله تعالى (أمن هذا الذى يرزقكم) أى على سبيل التجدد والاستمرار (ان أمسك رزقه) بامساك الاسباب التى ينشأ عنها كالمطر ولو كان الرزق موجودا وكثيرا وسهل التناول فوضع الاكل فى فمه فأمسك الله تعالى عنه قوة الازدراد عجز أهل السموات والارض عن أن يسوغوه تلك اللقمة وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أى فمن يرزقكم أى لا رازق لكم غيره (بل لجوا) أى تمادوا سفاهة لا احتياطا وشجاعة قال الرازى فى اللوامع واللجاج تقحم الامر مع كثرة الصوارف عنه (فى عتو) أى مظروفين لعناد وتكبر عن الحق وخروج الى فاحش الفساد (ونفور) أى تباعد عن الحق واستولى ذلك عليهم حتى أحاط بهم مع انه لا قوة لاحد منهم فى جلب سار ولا دفع ضار والداعى الى ذلك الشهوة والغضب (أفمن يمشى مكبا) أى واقعا (على

وجهه أهدى أمّن يمشى سويا) أى معتدلا (على صراط) أى طريق (مستقيم) وخبر من الثانية محذوف دل عليه خبر الاولى أى أهدى والمثل فى المؤمن والكافر أى أيهما أهدى وقيل المراد بالمكب الأعمى فانه يتعسف فينكب وبالسوىّ البصير وقيل المكب هو الذى يحشر على وجهه الى النار ومن يمشى سويا الذى يحشر على قدميه الى الجنة وقال ابن عباس والكلبى رضى الله عنهم عنى بالذى يمشى مكبا على وجهه أبا جهل وبالذى يمشى سويا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل أبو بكر وقيل حمزة وقيل عمار بن ياسر قال عكرمة وقيل عام فى الكافر والمؤمن أى أن الكافر لا يدرى أعلى حق هو أم على باطل أى أهذا الكافر أهدى أم المسلم الذى يمشى سويا معتدلا يبصر الطريق وهو على صراط مستقيم وهو الاسلام وقرأ قنبل بالسين وقرأ خلف بالاشمام أى بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة (قل) أى يا أشرف الخلق وأشفقهم عليهم مذكرا لهم بما رفع عنهم الملك من المفسدات وجمع لهم من المصلحات ليرجعوا اليه ولا يعولوا فى حال من أحوالهم الا عليه (هو) أى الذى شرفكم بهذا الذكر وبين لكم هذا البيان (الذى أنشأكم) أى أوجدكم ودرجكم فى مدارج التربية حيث طوركم فى أطوار المختلفة فى الرحم ويسر لكم بعد الخروج اللبن حيث كانت المعدة ضعيفة عن أكثف منه (وجعل لكم السمع) أى لتسمعوا ما تعقله قلوبكم فيهديكم ووحده لقلة التفاوت فيه ليظهر سر تصرفه سبحانه فى القلوب بغاية المفاوتة مع أنه أعظم الطرق الموصلة للمعانى اليها (والابصار) لتنظروا صنائعه فتعتبروا وتزدجروا عما يرديكم (والافئدة) أى القلوب التى جعلها سبحانه فى غاية التوقد بالادراك لما لا يدركه بقية الحيوان لتتفكروا وتقبلوا على ما يعليكم وجمعهما لكثرة التفاوت فى نور الابصار وادراك الافئدة (قليلا ما تشكرون) أى باستعمالها فيما خلقت لاجله وما مزيدة والجملة مستأنفة مخبرة بقلة شكرهم جدا على هذه النعم وهم يدعون أنهم أشكر الناس للاحسان وأعلاهم فى العرفان (قل هو) أى وحده (الذى ذرأكم) أى خلقكم وبثكم ونشركم وكثركم وأنشأكم بعدما كنتم كالذر أطفالا ضعفاء (فى الارض) التى تقدم انه ذللها لكم ورزقكم منها النبات وغيره (واليه) أى وحده بعد موتكم (تحشرون) شيأ فشيأ الى البرزخ ودفعة واحدة يوم البعث للحساب فيجازى كلا بعمله (ويقولون) أى يجددون هذا القول تجديدا مستمرا استهزاء وتكذيبا (متى هذا) وزادوا فى الاستهزاء بقولهم (الوعد) أى يوم القيامة والعذاب الذى توعدوننا به (ان كنتم صادقين) أى فى أنه لا بد لنا منه وأنكم مقربون عند الله فلو كان لهم ثبات الصبر لما كانوا طاشوا هذا الطيش بابراز هذا القول القبيح ثم انه تعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله عز وجل (قل) أى يا أكرم الخلق لهؤلاء البعداء (انما العلم) أى علم وقت قيام الساعة ونزول العذاب (عند الله) أى الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال فهو الذى يكون عنده وبيده جميع ما يراد منه لا يطلع عليه غيره (وانما أنا نذير) أى كامل فى أمر النذارة التى يلزم منها البشارة لمن أطاع النذير لا وظيفة لى عند الملك الاعظم غير ذلك فلا وصول الى سؤاله عما لا يؤذن لى فى السؤال عنه (مبين) أى بين الانذار باقامة الادلة حتى يصير ذلك كأنه مشاهد لمن له قبول

العلم (فلما رأوه) أى العذاب بعد الحشر (زلفة) أى ذا قرب عظيم منهم (سيئت) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى اسودت (وجوه) وأظهر فى موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف فقال تعالى (الذين كفروا) أى أظهروا السوء وغاية الكراهة فى وجوه من أوقع هذا الوصف * (تنبيه) * الاصل ساء أى احزن وجوههم العذاب ورؤيته ثم بنى للمفعول وساء هنا ليست المرادفة لبئس وأشم كسرة السين نافع وابن عامر والكسائى والباقون باخلاص الكسرة (وقيل) أى قال لهم الخزنة تقريعا وتوبيخا (هذا الذى كنتم) اى جبلة وطبعا (به) اى بسببه ومن اجله (تدعون) اى تتمنون وتسألون وتزعمون أنكم لا تبعثون وهذه حكاية حال تأتى عبر عنها بطريق المضى لتحقق وقوعها وقرأ هشام والكسائى بضم القاف والباقون بكسرها (قل) اى يا اكرم الخلق لهؤلاء الذين طال تضجرهم منك وهم يتمنون هلاكك كما قال تعالى ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون (أرأيتم) أى أخبرونى خبرا انتم فى الوثوق به على ما هو كالرؤية (ان اهلكنى الله) اى اماتنى بعذاب او غيره الذى له من الجلال والاكرام ما يعصم به وليه ويقصم عدوه وقرأ قل ارأيتم فى الموضعين نافع بتسهيل الهمزة بعد الواو ولورش ايضا ابدالها الفا واسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق واذا وقف حمزة سهل الهمزة وقرأ ان اهلكنى الله حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها ومن سكن الياء رقق اللام من الاسم الجليل ومن فتحها فخم (ومن معى) اى من المؤمنين (أو رحمنا) اى بالنصر واظهار الاسلام كما نرجو فأنجانا بذلك من كل سوء ووقانا كل محذور وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بالسكون (فمن يجير الكافرين) اى العريقين فى الكفر بأن يدفع عنهم ما يدفع الجار عن جاره (من عذاب اليم) اى لا مجير لهم منه (قل) أى يا خير الخلق (هو) اى الله وحده (الرحمن) اى الشامل الرحمة (آمنا به) أى أنا ومن معى (وعليه) أى وحده (توكلنا) أى لانه لا شئ فى يد غيره والا لرحم من يريد عذابه أو عذب من يريد رحمته فكل ما جرى على أيدى خلقه من رحمة أو نقمة فهو الذى أجراه لانه الفاعل بالذات المستجمع لما يليق به من الصفات فنحن نرجو خيره ولا نخاف غيره (فستعلمون) أى عند معاينة العذاب عما قليل بوعد لا خلف فيه (من هو فى ضلال مبين) أى بين أنحن أم أنتم وقرأ الكسائى بعد السين بياء الغيبة نظرا الى قول الكافرين والباقون بتاء الخطاب اما على الوعيد واما على الالتفات من الغيبة المرادة فى قراءة الكسائى وهو تهديد لهم (قل) أى يا اعظم خلقنا وأعلمهم بنا (أرأيتم) أى أخبرونى اخبارا لا لبس فيه (ان أصبح ماؤكم) أى الذى تعدونه فى أيديكم بما نبهت عليه الاضافة (غورا) أى غائرا ذاهبا فى الارض لا تناله الدلاء وكان ماؤهم من بئرين بئر زمزم وبئر ميمونة (فمن يأتيكم) على ضعفكم حينئذ وانخلاع قلوبكم واضطراب أفكاركم (بماء معين) أى دائم لا ينقطع وظاهر للاعين سهل المأخذ وقال ابن عباس رضى الله عنهما بماء معين أى ظاهر تراه العيون فهو مفعول وقيل هو من معن الماء أى كثر فهو على هذا فعيل وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا أن المعنى فمن يأتيكم بماء عذب أى لا يأتيكم به الا الله فكيف تنكرون أن يبعثكم ويستحب أن يقول القارئ عقب معين الله رب العالمين كما فى الحديث

وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال تأتي به الفؤوس والمعاول فذهب ماء عينيه وعمي نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان سورة من كتاب الله ماهي الا ثلاثون آية شفعت لرجل يوم القيامة فأخرجته من النار وأدخلته الجنة وهي سورة تبارك وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال اذا وضع الميت في قبره يؤتى من قبل رجليه فيقال ليس لكم عليه سبيل لانه قد كان يقوم بسورة الملك ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول لسانه ليس لكم عليه سبيل كان يقرأ بي سورة الملك ثم قال هي المانعة من عذاب الله وهي في التوراة سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وددت أن تبارك الملك في قلب كل مؤمن وأما مارواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر فحديث موضوع

﴿ سورة ن وتسمى القلم مكية ﴾

في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس وقتادة رضي الله عنهم من أولها الى قوله تعالى سنسمه على الخرطوم مكي ومن بعد ذلك الى قوله تعالى يعاون مدني ومن بعد ذلك الى قوله تعالى فهم يكتبون مكي ومن بعد ذلك الى قوله تعالى من الصالحين مدني وباقيها مكي قاله الماوردي وهي اثنتان وخمسون آية وثلثمائة كلمة وألف ومائتان وستة وخمسون حرفا

(بسم الله) أي الذي له الاحاطة الكاملة فهو بكل شيء عليم (الرحمن) الذي عمت نعمة ايجاده لاهل معاده البريء منهم والسقيم (الرحيم) الذي اتم تلك النعمة على من وفقه لطاعته فألزمه صراطه المستقيم وقوله تعالى (ن) كقوله تعالى ص والقرآن وجواب القسم الجملة المنفية بعدها واختلفوا في تفسير ذلك فقال ابن عباس رضي الله عنهما هو الحوت الذي على ظهره الارض وهو قول مجاهد ومقاتل والسدي والكلبي وروى أبو ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أول ما خلق الله تعالى القلم فجرى بما هو كائن الى يوم القيامة ثم خلق النون فبسط الارض على ظهره فتحرك النون فمادت الارض فأثبتت بالجبال فان الجبال لتفخر على الارض ثم قرأ ابن عباس ن الآية واختلفوا في اسمه فقال الكلبي ومقاتل يهموت وقال الواقدي ليوثا وقال كعب لوثا وقال علي تلهوت وقال الرواة لما خلق الله تعالى الارض وفتقها بعث من تحت العرش ملكا فهبط الى الارض حتى دخل تحت الارضين حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله عز وجل من الفردوس ثورا له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأخذ الله تعالى ياقوتة خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها خمسمائة عام ووضعها بين سنام الثور الى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الارض ومنخراه في البحر فهو يتنفس كل يوم نفسا فاذا تنفس يمد البحر واذا رد نفسه جزر البحر فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع أرضين

فاستقرت قوائم الثور عليها وهى الصخرة التى قال لقمان لابنه فتكن فى صخرة ولم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم ووضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة تقل الدنيا كلها بما عليها حرفان قال لها الجبار كونى فكانت قال كعب الاحبار ان ابليس تغلغل الى الحوت الذى على ظهره الارض فوسوس اليه فقال له أتدرى ما على ظهرك يالويثا من الامم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك فهم لويثا أن يفعل فبعث الله تعالى دابة فدخلت منخره فوصلت الى دماغه فعج الحوت الى الله تعالى منها فأذن الله تعالى لها فخرجت فوالذى نفسى بيده انه لينظر اليها وتنظر اليه ان هم بشئ من ذلك عادت اليه كما كانت وقال بعضهم نون آخر حروف الرحمن وهى رواية عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال الحسن وقتادة والضحاك النون الدواة وهو مروى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال القرطبى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أوّل ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهى الدواة ومنه قول الشاعر * اذا ما الشوق برح بى اليهم * ألقت النون بالدمع السجام *

ويكون على هذا أقسم بالدواة والقلم فان المنفعة بهما عظيمة بسبب الكتابة فان التفاهم يحصل تارة بالنطق وتارة بالكتابة وقيل النون لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يؤمرون به رواه معاوية ابن قرة مرفوعا وقيل النون هو المداد الذى تكتب به الملائكة وقال عطاء وأبو العالية هو افتتاح اسمه تعالى نصير ونور وناصر وقال محمد بن كعب أقسم الله تعالى بنصرة المؤمنين وقال الزمخشرى هذا الحرف من حروف المعجم وأما قولهم هو الدواة فما أدرى أهو وضع لغوى ام شرعى ولا يخلو اذا كان اسما للدواة من أن يكون جنسا أو علما فان كان جنسا فأين الاعراب والتنوين وان كان علما فأين الاعراب وأيهما كان فلابد له من موقع فى تأليف الكلام فان قلت هو مقسم به وجب ان كان جنسا أن تجره وتنونه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة كأنه قيل ودواة (والقلم) وان كان علما أن تصرفه وتجره أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث وكذلك التفسير بالحوت اما أن يراد نون من النينان أو يجعل علما لليهموت الذى يزعمون والتفسير باللوح من نور او ذهب والنهر فى الجنة نحو ذلك اه *(تنبيه)* فى القلم المقسم به قولان أحدهما أن المراد به الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به فى السماء والارض قال تعالى وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ولانه ينتفع به كما ينتفع بالنطق قال تعالى خلق الانسان علمه البيان فالقلم يبين كما يبين اللسان فى المخاطبة بالكتابة للغائب والحاضر والثانى انه القلم الذى جاء فى الخبر عن ابن عباس رضى الله عنهما أوّل ما خلق الله تعالى القلم ثم قال له اكتب قال ما أكتب قال ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة قال ثم ختم فم القلم فلم ينطق ولا ينطق الى يوم القيامة قال وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والارض وروى مجاهد أوّل ما خلق الله تعالى القلم فقال اكتب المقدر فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة وانما يجرى فى الناس على أمر قد فرغ منه قال ابن عادل قال القاضى هذا الخبر يجب حمله على المجاز

لان القلم آلة مخصوصة للكتابة لا يجوز أن يكون حياعاقلا فيؤمر وينهى فان الجمع بين كونه حيوانا مكلفا وبين كونه آلة للكتابة محال بل المراد منه انه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو قوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون فانه ليس هناك أمر ولا تكليف بل هو مجرد نفاذ القدرة فى المقدور من غير منازعة ولا مدافعة اه وقوله فان الجمع الى قوله محال ممنوع فان الله تعالى خلق فيه ذلك كما قال تعالى للسموات والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقال الزمخشري أقسم بالقلم تعظيما له لما فى خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التى لا يحيط بها الوصف وقيل القلم المذكور ههنا هو العقل وانه شئ كالأصل لجميع المخلوقات قالوا والدليل عليه انه روى فى الاخبار أول ما خلق الله تعالى القلم وفى خبر آخر أول ما خلق الله تعالى العقل فقال الجبار ما خلقت خلقا أعجب الى منك وعزتى وجلالى لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت قال ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الناس عقلا أطوعهم لله وأعلمهم بطاعته وفى خبر آخر أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فذابت وسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الارض قالوا وهذه الاخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التى هى أصل المخلوقات شئ واحد والاحصل التناقض وقال البغوي القلم هو الذى كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والارض ويقال أول ما خلق الله تعالى القلم ونظر اليه فانشق نصفين ثم قال اجر بما هو كائن الى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك وقرأ قالون وابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة وورش بخلاف عنه باظهار النون عند الواو وهنا والباقون بالادغام (وما يسطرون) أى الملائكة من الخير والصلاح وقيل وما تكتب به الملائكة الحفظة من أعمال بنى آدم وقيل ما يكتبون أى الناس ويتفاهمون به وقال ابن عباس رضى الله عنهما معنى وما يسطرون وما يعملون وما موصولة أو مصدرية قال الزمخشري ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير فى يسطرون لهم كأنه قيل وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وسطرهم ويراد بهم كل من يسطر أو الحفظة وقال البقاعى وما يسطرون أى قلم القدرة وجمعه وأجراه مجرى أولى العلم للتعظيم لانه فعل أفعالهم أو الاقلام على ارادة الجنس ويجوز أن يكون الاسناد الى الكاتبين به لما دل عليهم من ذكره واما الملائكة ان كان المراد ما كتب فى الكتاب المبين واللوح المحفوظ وغيره مما يكتبونه واما كل من يكتب منهم ومن غيرهم وقوله تعالى (ما أنت) أى يا أعلى المتأهلين لخطابنا (بنعمة) أى بسبب انعام (ربك) أى المربى لك بمثل تلك الهمم العالية والسجايا الكاملة بأن خصك بالقرآن الذى هو الجامع لكل علم وحكمة (بمجنون) جواب القسم وهو نفى قال الزجاج أنت هو اسم ما وبمجنون الخبر وقوله تعالى بنعمة ربك كلام وقع فى الوسط أى انتفى ذلك الجنون بنعمة ربك كما يقال أنت بحمد ربك عاقل بل الذى وصفك بهذا هو الحقيق باسم الجنون وقال [illegible]ى ما أنت بنعمة ربك بنبوة ربك بمجنون أى انك لا تكون مجنونا وقد أنعم الله تعالى عليك بالنبوة والحكمة وقيل بعصمة ربك وقيل هو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله وقيل معناه ما أنت

بمجنون والنعمة لربك كقولهم سبحانك اللهم وبحمدك أى والحمد لك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم غاب عن خديجة الى حرا فطلبته فلم تجده فاذا به ووجهه متغير امتلا غبارا فقالت له مالك فذكر جبريل عليه السلام وأنه قال له اقرأ باسم ربك فهو أول ما نزل من القرآن قال ثم نزل بى الى قرار الارض فتوضأ وتوضأت ثم صلى وصليت معه ركعتين وقال هكذا الصلاة يا محمد فذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لخديجة فذهبت به خديجة الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد خالف دين قومه ودخل فى النصرانية فسألته فقال أرسلى الى محمدا فأرسلته فقال هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو أحدا قال لا فقال والله لئن بقيت الى دعوتك لانصرنك نصرا عزيزا ثم مات قبل دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت تلك الواقعة فى السنة كفار قريش فقالوا انه مجنون وأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون وهو خمس آيات من أول هذه السورة وقال ابن عباس أول ما نزل قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى وهذه الآية هى الثانية نقله الرازى وذكر القرطبى ان المشركين كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم مجنون به شيطان وهو قولهم يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون فأنزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لقولهم ما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أى برحمة ربك والنعمة ههنا الرحمة وقال عطاء وابن عباس يريد بنعمة ربك عليك بالايمان والنبوة وقال القرطبى يحتمل أن النعمة ههنا قسم تقديره ما أنت ونعمة ربك بمجنون لان الواو والباء من حروف القسم وقال الرازى انه تعالى وصفه بصفات ثلاث الاولى نفى الجنون عنه ثم قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها لان قوله بنعمة ربك يدل على أن نعم الله تعالى ظاهرة فى حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة واذا كانت هذه النعم المحسوسة ظاهرة ووجودها ينافى حصول الجنون فالله تعالى نبه على ان هذه الدقيقة جارية مجرى الدلالة اليقينية على كذبهم فى قولهم مجنون الصفة الثانية قوله تعالى (وان لك) أى على ما تحملت من أثقال النبوة وعلى صبرك عليهم فيما يرمونك به وهو تسلية له صلى الله عليه وسلم (لاجرا) أى ثوابا (غير ممنون) أى مقطوع ولا منقوص فى دنيا ولا آخرة يقال مان الشئ اذا ضعف ويقال مننت الحبل اذا قطعته وحبل منين اذا كان غير متين قال لبيد* غبسا كواسب لا يمن طعامها * أى لا يقطع يصف كلابا ضارية ونظيره قوله تعالى غير مجذوذ وقال مجاهد ومقاتل والكلبى غير ممنون أى غير محسوب عليك قال الزمخشرى لانه ثواب تستحقه على عملك وليس بتفضل ابتداء وانما تمن الفواضل لا الاجور على الاعمال انتهى وهذا قول المعتزلة فان الله تعالى لا يجب عليه شئ وقال الحسن غير مكدر بالمن وقال الضحاك رضى الله تعالى عنه اجرا بغير عمل واختلفوا فى هذا الاجر على أى شئ حصل فقيل معناه ما مر وقيل معناه ان لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجرا عظيما دائما وقيل ان لك فى اظهار النبوة والمعجزات وفى دعاء الخلق الى الله تعالى وفى بيان الشرع لهم هذا الاجر الخالص الدائم فلا تمنعك نسبتهم اياك الى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم فان لك بسببه المنزلة

العالية الصفة الثالثة قوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) استعظم خلقه لفرط احتمال
الممضات من قومه وحسن مخالقته ومداراته لهم قال ابن عباس ومجاهد على دين عظيم من
الاديان ليس دين أحب الى الله تعالى ولا أرضى عنده منه وروى مسلم عن عائشة ان خلقه
كان القرآن وقال على هو أدب القرآن وقيل رفقه بأمته واكرامه اياهم وقال قتادة هو ما كان
يأمر به من الله وينتهى عنه بما نهى الله تعالى عنه وقيل انك على طبع كريم وقيل هو
الخلق الذى أمر الله تعالى به فى قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال
الماوردى حقيقة الخلق فى اللغة ما يأخذه الانسان فى نفسه من الادب سمى خلقا لانه يصير
كالخلقة فيه فأما ما طبع عليه من الادب فهو الخيم فيكون الخلق الطبع المتكلف والخيم
الطبع الغريزى قال القرطبى ما ذكره مسلم فى صحيحه عن عائشة أصح الاقوال وسئلت أيضا
عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقرأت قد أفلح المؤمنون الى عشر آيات قال الرازى وهذا
اشارة الى ان نفسه القدسية الشريفة كانت بالطبع منجذبة الى عالم الغيب والى كل ما يتعلق
به وكانت شديدة التعرى عن اللذات البدنية والسعادات الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة
وقالت ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعاه أحد من الصحابة ولا
من أهل بيته الا قال لبيك ولذلك قال الله تعالى وانك لعلى خلق عظيم ولم يذكر خلق محمود الا
وكان للنبى صلى الله عليه وسلم منه الحظ الاوفر وقال الجنيد سمى خلقه عظيما لاجتماع مكارم
الاخلاق فيه بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثنى لتمام مكارم الاخلاق وتمام محاسن
الافعال وعن أبى اسحق قال سمعت البراء يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن
الناس وجها وأحسن الناس خلقا ليس بالطويل البائن ولا بالقصير وعن أنس بن مالك قال
خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى اف قط وما قال لشئ صنعته لم صنعته
ولا لشئ تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ولا مسست
خزا قط ولا حريرا ولا شيأ كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا ولا
عنبرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشا وكان يقول خياركم أحسنكم أخلاقا وعن أنس ان امرأة
عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق من طرق المدينة فقالت يا رسول الله ان لى اليك
حاجة فقال يا أم فلان اجلسى فى أى سكك المدينة شئت أجلس اليك قال ففعلت فقعد اليها
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قضيت حاجتها وعن أنس بن مالك قال كانت الامة من اماء
أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت وعن أنس أيضا
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا صافح رجلا لم ينزع يده حتى يكون هو الذى يصرف
وجهه عن وجهه ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له وعن عائشة قالت ما ضرب رسول
الله صلى الله عليه وسلم بيده شيأ قط الا ان يجاهد فى سبيل الله تعالى ولا ضرب خادما ولا امرأة
وعنها قالت ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما

فان كان اثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فى شئ قط الا ان تنتهك حرمة الله فينتقم وعن أنس قال كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى فجبذه جبذة شديدة حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال مر لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك وأمر له بعطاء وعنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا وكان لى أخ يقال له أبو عمير وهو فطيم كان اذا جاءنا قال يا أبا عمير ما فعل النغير لنغير كان يلعب به والنغير طائر صغير يشبه العصفور الا أنه أحمر المنقار وعن الاسود قال سألت عائشة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فى بيته قالت كان فى مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة توضأ ويخرج الى الصلاة والمهنة الخدمة وعن عبد الله بن الحرث قال ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أم الدرداء تحدث عن أبى الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أثقل شئ يوضع فى ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن وان الله يبغض الفاحش البذئ وعن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه أتدرون أكثر ما يدخل الناس النار قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أكثر ما يدخل الناس النار الاجوفان الفرج والفم أتدرون أكثر ما يدخل الناس الجنة قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق وعن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان المؤمن يدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار (فستبصر) أى فستعلم عن قرب بوعد لا خلف فيه علما أنت فى تحققه كالمبصر بالحس الباصر (ويبصرون) أى يعلم الذين رموك بالبهتان علما هو كذلك وقوله تعالى (بأييكم المفتون) فيه أربعة أوجه أحدها ان الباء مزيدة فى المبتدا والتقدير أيكم المفتون فزيدت كزيادتها فى نحو بحسبك زيد والى هذا ذهب قتادة قال ابن عادل الا أنه ضعيف من حيث ان الباء لا تزاد فى المبتدا الا فى حسبك فقط الثانى ان الباء بمعنى فى فهى ظرفية كقولك زيد بالبصرة أى فيها والمعنى فى أى فرقة وطائفة منكم المفتون أى المجنون أفى فرقة الاسلام أم فى فرقة الكفر واليه ذهب مجاهد والفراء الثالث انه على حذف مضاف أى بأيكم فتن المفتون فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه واليه ذهب الاخفش وتكون الباء سببية الرابع ان المفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور والتقدير بأيكم الفتنة وقيل المفتون المعذب من قول العرب فتنت الذهب بالنار اذا أحميته قال تعالى يوم هم على النار يفتنون أى يعذبون وقيل الشيطان لانه مفتون فى دينه وكانوا يقولون انه به شيطان وعنوا بالمجنون هذا فقال تعالى سيعلمون غدا بايهم الشيطان الذى يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل *(فائدة)* بأييكم رسمت ههنا بياءين (ان ربك) أى الذى رباك أحسن تربية وفضلك على سائر الخلائق (هو) أى وحده (أعلم) اى من كل أحد (بمن ضل) أى حاد (عن سبيله) أى دينه وسلك غير سبيل القصد واخطأ موضع الرشد (وهو) أى

وحده (أعلم بالمهتدين) أى الثابتين على الهدى وهم أولوا الاحلام والنهى أى لذو علم بمعنى عالم * (تنبيه) * قوله تعالى وهو أعلم وهو مكظوم وهو مذموم قرأه قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها وقوله تعالى (فلا تطع المكذبين) أى العريقين فى التكذيب وهم مشركو مكة فانهم كانوا يدعونه الى دين آبائه فنهاه ان يطيعهم بنتج التصميم على معاداتهم (ودوا) أى تمنوا وأحبوا محبة واسعة متجاوزة للحد قد عامع الاستمرار على ذلك (لو) مصدرية (تدهن فيدهنون) قال الضحاك لو تكفر فيكفرون وقال الكلبى لو تلين لهم فيلينون لك وقال الحسن لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك فى دينهم وقال زيد بن أسلم لو تنافق وترائى فينافقون ويراؤن وقال ابن قتيبة أرادوا أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة وقال ابن العربى ذكر المفسرون فى ذلك نحو عشرة أقوال كلها دعاوى على اللغة والمعنى وأمثلها ودوا لو تكذب فيكذبون ودوا لو تكفر فيكفرون وقال القرطبى كلها ان شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى * (تنبيه) * فى رفع فيدهنون وجهان أحدهما انه عطف على تدهن فيكون داخلا فى حيز لو والثانى انه خبر مبتدا مضمر أى فهم يدهنون وقال الزمخشرى فان قلت لم رفع فيدهنون ولم ينصب باضمار ان وهو جواب التمنى قلت قد عدل به الى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدا محذوف أى فهم يدهنون كقوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا على معنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم فى ادهانك * واختلفوا فى سبب نزول قوله تعالى (ولا تطع كل حلاف) أى كثير الحلف بالباطل فقال مقاتل يعنى الوليد بن المغيرة عرض على النبى صلى الله عليه وسلم مالا وحلف له ان يعطيه ان رجع عن دينه وقال ابن عباس هو أبو جهل بن هشام وقال عطاء هو الاخنس بن شريق لانه حليف ملحق فى بنى زهرة فلذلك سمى زنيما وقال مجاهد هو الاسود بن عبد يغوث (مهين) أى ضعيف حقير قيل هو فعيل من المهانة وهى قلة الرأى والتمييز وقال ابن عباس كذاب وهو قريب من الاول لان الانسان انما يكذب لمهانة نفسه عليه وقال الحسن وقتادة هو المكثار فى الشر وقال الكلبى المهين العاجز (هماز) أى كثير العيب للناس فى غيبتهم وقال الحسن هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس وقال ابن زيد الهماز الذى يهمز الناس بيده ويضربهم واللماز باللسان وقيل الهماز الذى يذكر الناس فى وجوههم واللماز الذى يذكرهم فى غيبتهم وقال مقاتل بالعكس وقال مرة هما سواء ونحوه عن ابن عباس وقتادة (مشاء) أى كثير المشى (بنميم) أى فتان يلقى النميمة بين الناس ليفسد بينهم فينقل ما قاله الانسان فى آخر واذاعة سر لا يريد صاحبه اظهاره على وجه الافساد البين مبالغ فى ذلك (مناع) أى كثير المنع شديده (للخير) أى كل خير من المال والاعيان وغيرهما من نفسه وغيره من الدين والدنيا وقال ابن عباس مناع للخير أى الاسلام يمنع ولده وعشيرته من الاسلام وكان له عشرة من الولد يقول لئن دخل أحد منكم فى دين محمد لا أنفعه بشئ أبدا (معتد) أى ثابت التجاوز للحدود فى كل ذلك (أثيم) أى مبالغ فى ارتكاب ما يوجب الاثم فيترك الطيبات ويأخذ الخبائث يرغب فى المعاصى

ويتطلبها اويدع الطاعات ويزهدفيها (عتل) العتل الغليظ الجافى وقال الحسن هو الفاحش الخلق السيئ الخلق وقال الفراء هو الشديد الخصومة فى الباطل وقال الكلبى هو الشديد فى كفره وكل شديد عند العرب عتل وأصله من العتل وهو الدفع بالعنف وقال أبو عبيدة بن عمير العتل الاكول الشروب القوى الشديد الذى لا يزن فى الميزان شعيرة يدفع الملك من أولئك سبعين ألفا دفعة واحدة (بعد ذلك) أى مع ذلك يريد مع ما وصفناه به (زنيم) وهو الدعى الملصق بالقوم وليس منهم وقال عطاء عن ابن عباس يريد مع هذا هو دعى فى قريش وقال مرة الهمدانى انما ادعاه ابوه بعد ثمانى عشرة سنة وقيل الزنيم الذى له زنمة كزنمة الشاة وروى عكرمة عن ابن عباس انه قال فى هذه الآية نعت فلم يعرف حتى قيل زنيم فعرف وكانت زنمة فى عنقه يعرف بها وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها وقال مجاهد زنيم كانت له ستة أصابع فى يده فى كل ابهام له اصبع زائدة وقال ابن قتيبة لا نعلم ان الله تعالى وصف أحدا ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فالحق به عارا لا يفارقه فى الدنيا والآخرة وعن حارثة بن وهب الخزاعى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أخبركم باهل الجنة كل ضعيف متضعف لو يقسم على الله لابره الا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر وفى رواية كل جواظ زنيم متكبر الجواظ الجموع المنوع وقيل الكثير اللحم المختال فى مشيته وقيل القصير البطين وقال عكرمة هو ولد الزنا الملحق فى النسب بالقوم وكان الوليد دعيا فى قريش ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده قال الشاعر فيه

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغى الام ذو حسب لئيم

قيل بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت الآية وهذا لان الغالب ان النطفة اذا خبثت خبث الولد كما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة ولد زنا ولا ولده ولا ولد ولده وقال عبد الله بن عمر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أولاد الزنا يحشرون يوم القيامة فى صور القردة والخنازير ولعل المراد به الدخول مع السابقين والا فمن مات مسلما دخل الجنة وقالت ميمونة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال أمتى بخير مالم يفش فيهم ولد الزنا فاذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعذابه وقال عكرمة اذا كثر ولد الزنا قحط المطر قال القرطبى ومعظم المفسرين على ان هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان يطعم أهل منى حيسا ثلاثة أيام وينادى الالا يوقدن أحد تحت برمة الالا يدخن أحد بكراع الا من أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة وكان ينفق فى الحجة الواحدة عشرين ألفا وأكثر ولا يعطى المسكين درهما واحدا وقيل مناع للخير وفيه نزل وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ولما كان حطام هذه الدنيا كله عرضا فانيا وظلا متقلصا زائلا لا يفتخر به ولا يلتفت اليه الا من كان بهذه الاوصاف فاذا كان ذلك أكبر همه ومبلغ علمه أعز له الترفع على الحقوق والتكبر على العباد قال الله تعالى (أن) أى لاجل ان (كان) أى هذا الموصوف (ذا مال) أى مذكور بالكثرة (وبنين) أنعمنا عليه بهما فصار يطاع لاجلهما فكان بحيث يجب عليه شكر نا بسببهما

(اذا تتلى) أى تذكر على سبيل المتابعة (عليه) ولو كان ذلك على سبيل الخصوص له (آياتنا) أى العلامات الدالة دلالة هى فى غاية الظهور على الملك الاعلى وعلى ماله من صفات العظمة (قال) أى مفاجأة من غير تأمل ولا توقف عوضا عن شكرنا (أساطير) جمع سطور جمع سطر (الاولين) أى أشياء سطروها ودونوها وفرغوا منها فحمله دنىء طبعه على تكثره بالمال فورطه فى التكذيب بأعظم ما يمكن سماعه فجعل الكفر موضع الشكر ولم يستح من كونه يعرف كذبه كل من سمعه فأعرض عن الشكر ووضع موضعه الكفر فكان هذا دليلا على جميع تلك الصفات السابقة مع التعليل بالاستناد الى ما هو عند العاقل أوهى من بيت العنكبوت والاستناد اليه وحده كاف فى الاتصاف بالرسوخ فى الدناءة وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة بهمزتين مفتوحتين وابن عامر يسهل الثانية وشعبة وحمزة بتحقيقهما وهشام على أصله يدخل بينهما الفا والباقون بهمزة واحدة مفتوحة قال القرطبي فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين فهو استفهام والمراد به التوبيخ ويحسن له أن يقف على زنيم ويبتدئ أن كان على معنى ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه ويجوز أن يكون التقدير ألأن كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين ويجوز أن يكون التقدير ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر ودل عليه ما تقدم من الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام ومن قرأ أن كان بغير استفهام فهو مفعول من أجله والعامل فيه فعل مضمر والتقدير يكفر لأن كان ذا مال وبنين ودل على هذا الفعل اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين ولا يعمل فى اذا تتلى ولا قال لان ما بعد اذا لا يعمل فيما قبلها لان اذا تضاف الى الجمل التى بعدها ولا يعمل المضاف اليه فيما قبل المضاف وقال جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء اذ حكم العامل أن يكون قبل المعمول فيه وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط فيصير مقدما مؤخرا فى حال واحد ويجوز أن يكون المعنى لا تطعه لان كان ذا يسار وعدد قال ابن الانبارى ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على زنيم لان المعنى لأن كان ذا مال كان فأن متعلقة بما قبلها وقال غيره يجوز ان تتعلق بقوله تعالى مشاء بنميم والتقدير يمشى بنميم لان كان ذا مال وبنين وأجاز أبو على ان تتعلق بعتل ومعنى أساطير الاولين أباطيلهم وترهاتهم (سنسمه) أى نجعل له سمة أى علامة يعرف بها (على الخرطوم) أى الانف يعبر به ما عاش قال ابن عباس سنسمه سنخطمه بالسيف قال وقد خطم الذى نزلت فيه يوم بدر بالسيف فلم يزل مخطوما الى ان مات والتعبير عن الانف بهذا للاستهانة والاستخفاف وقال قتادة سنسمه يوم القيامة على أنفه سمة يعرف بها وقال الكسائى سنكويه على وجهه وقال أبو العالية ومجاهد سنسمه على الخرطوم أى على أنفه ونسود وجهه فى الآخرة فيعرف بسواد وجهه قال تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فهى علامة ظاهرة ونحشر المجرمين يومئذ زرقا وهذه علامة أخرى ظاهرة وأفادت هذه الآية علامة ثالثة وهى الوسم على الانف بالنار وهذا كقوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم قال القرطبي والخرطوم الانف من الانسان ومن

السباع موضع الشفة وخراطيم القوم ساداتهم قال الفراء وان كان الخرطوم قد خص بالسمة فانه فى معنى الوجه لان بعض الشئ يعبر به عن الكل وقال القرطبي نبين أمره تبيانا واضحا فلا يخفى عليهم كالا تخفى السمة على الخراطيم وهذا كله نزل فى الوليد بن المغيرة ولا شك ان المبالغة العظيمة فى ذمه بقيت على وجه الدهر ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغ منه فألحق به عارا لا يفارقه فى الدنيا ولا فى الآخرة كالوسم على الخرطوم وقيل ما ابتلاه الله تعالى به فى الدنيا فى نفسه وأهله وماله من سوء وذل وصغار وقال النضر بن شميل المعنى سنحده على شرب الخمر والخرطوم الخمر وجمعه خراطيم قال الرازى كالزمخشرى وهذا تعسف اه وقيل للخمر الخرطوم كما قيل لها السلافة وهى ما سلف من عصير العنب أو لانها تطير فى الخياشيم * (تنبيه) * الانف أكرم موضع فى الوجه لتقدمه له ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الانفة وقالوا الانف فى الانف وحمى أنفه وفلان شامخ العرنين وقالوا فى الذليل جدع أنفه ورغم أنفه فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الاذلال والاهانة لان السمة على الوجه شين واذلال فكيف بها على أكرم موضع منه ولقد وسم العباس أباعره فى وجوهها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الوجوه فوسمها فى جواعرها ولما ذكر تعالى فى أول الملك انه خلق الموت والحياة للابتلاء فى الاعمال وختم هذا بعيب من يغتر بالمال والبنين وهو يعلم ان الموت وراءه أعاد ذكر الابتلاء وأكده بقوله تعالى (انا) أى بما لنا من القهر والعظمة (بلوناهم) أى عاملنا أهل مكة بما وسعنا عليهم به معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر والباطن فغرهم ذلك وظنوا انهم أحباب ومن قترنا عليهم من أوليائنا أعداء واستهانوا بهم ونسبوهم لاجل تقللهم من الدنيا الى السفه والجنون وكان ابتلاؤنا لهم بالقحط الذى دعا عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكلوا الجيف (كما بلونا) أى اختبرنا (أصحاب الجنة) بأن عاملناهم معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر وحاصله انه استخراج ما فى البواطن ليعلمه العباد فى عالم الشهادة كما يعلم الخالق فى عالم الغيب أو انه كناية عن الجزاء وعرف الجنة لانها كانت شهيرة عندهم وهى بستان عظيم كان دون صنعاء بفرسخين يقال له الضروان يطؤه أهل الطريق كان صاحبه ينادى الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأ المنجل أو القتة الريح أو بعد عن البساط الذى يبسط تحت النخلة وكان يجتمع لهم شئ كثير فلما مات شح بنوه بذلك وقالوا ان فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الامر ونحن ذوو عيال فحلفوا على ان يجذوها قبل الشمس حتى لا تأتى الفقراء الا بعد فراغهم وذلك معنى قوله تعالى (اذ) أى حين (اقسموا) ودل على تأكيد القسم بالتأكيد فقال (ليصرمنها) عبر به عن الجذاذ لدلالته على القطع البائن المستأصل المانع للفقراء من الصريم الذى يعرض على فم الجدى لئلا يرضع أو من الصرماء للمفازة التى لا ماء بها والناقة القليلة اللبن (مصبحين) داخلين فى أول وقت الصباح لئلا تشعر بهم المساكين فلا يعطوهم منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها (ولا) أى والحال انهم لا (يستثنون) فى يمينهم أى ولا يقولون ان شاء الله (فان قيل) لم سمى استثناء وانما هو شرط

(أجيب) بأنه سمى استثناء لانه اخراج لشئ يكون حكمه غير المذكور أولا وكان الاصل فيه الا ان يشأ الله فالحق به ان شاء الله لرجوعه اليه فى اتحاد الحكم (فطاف) أى فتسبب عن فعلهم هذا أن طاف (عليها) أى جنتهم (طائف) أى عذاب مهلك محيط وهو نار احرقتها ليلا لم تدع منها شيأ والطائف غلب فى الشر وقال الفراء هو الامر الذى يأتى ليلا ورد عليه بقوله اذا مسهم طائف من الشيطان وذلك لايختص بليل ولانهار وقوله تعالى (من ربك) يجوز ان يتعلق بطاف وان يتعلق بمحذوف صفة لطائف (وهم) أى والحال ان أصحاب الجنة المقسمين (نائمون) وقت ارسال الطائف (فأصبحت) أى فتسبب عن هذا الطائف الذى ارسله القادر الذى لايغفل ولاينام على مال من لايزال أسير العجز والنوم فعلا أو قوة (كالصريم) أى كالاشجار التى صرم عنها ثمرها أو كالليل المظلم الاسود لانه يقال الصريم لسواده والصريم أيضا النهار وقيل الصبح لانه انصرم من الليل قاله الاخفش وهو من الاضداد وقيل كالرماد الاسود بلغة خزيمة قاله ابن عباس لان ذلك الطائف أتلفها لم يدع فيها شيأ لانهم طلبوا الكل فلم يزكوه بما يمنع عنه الطوارق لضد ما كان لابيهم من ثمرة عمله الصالح من الدفع عن ماله والبركة فى جميع أحواله قال القرطبى والآية دليل على ان العزم مما يؤاخذ به الانسان لانهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ونظيره قوله تعالى ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه وهذا محمول على العزم المصمم أما ما كان يخطر بالبال من غير عزم فلا يؤاخذ به (فتنادوا مصبحين) أى فى حال أول دخولهم فى الاصباح وقوله تعالى (أن اغدوا) أى بكروا جدا مقبلين ومستولين وقادرين ويجوز أن تكون ان المفسرة لانه تقدمها ماهو بمعنى القول (على حرثكم) أى محل فائدتكم الذى أصلحتموه وتعبتم فيه فلا يستحقه غيركم قال مقاتل لما أصبحوا قال بعضهم لبعض اغدوا على حرثكم يعنى بالحرث الثمار والزروع والاعناب ولذلك قال صارمين لانهم أرادوا قلع الثمار من الاشجار قال الزمخشرى (فان قلت) هلا قال اغدوا الى حرثكم وما معنى على قلت لما كان الغدو اليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليه كما تقول غدا عليهم العدو قال الزمخشرى ويجوز ان يضمن الغدو معنى الاقبال أى فأقبلوا على حرثكم (ان كنتم صارمين) أى مريدين القطع وجواب الشرط دل عليه ما قبله أى فاغدوا ويجوز أن تكون أن المصدرية أى تنادوا بهذا الكلام *(تنبيه)* مقتضى كلام الزمخشرى ان غدا متعد فى الاصل بالى فاحتاج الى تأويل فقدره بعلى قال ابن عادل وفيه نظر لورود تعديه بعلى فى غير موضع كقوله

وقد أغدو على ثبة * نشاوى واجدين لما نشاء

واذا كانوا قد غدوا مرادفه بعلى فليعدوه وقرأ أن اغدوا أبو عمرو وعاصم وحمزة فى الوصل بكسر النون والباقون بضمها واتفقوا على الابتداء بالهمزة بالضم (فانطلقوا) أى فتسبب عن هذا الحث عقبه كأنهم كانوا استيقنين (وهم) أى والحال انهم (يتخافتون) أى يقولون فى حال انطلاقهم قولا

هو في غاية السر كأنهم ذاهبون الى سرقة من دار هي في غاية الحراسة من الخفوت وهو الهمود وخفاء وخفت وخفد ثلاثيتها في معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش ثم فسر ما يتخافتون به بقوله تعالى (أن لا يدخلنها) وأن لا ههنا مقطوعة كما ترى وأكدوه لانه لا يصدق ان أحدا يصل الى هذه الوقاحة وان جدا ذا يخلو من سائل (اليوم) أي في جميع النهار بما دل عليه نزع الخافض لتكروا عليه مرارا وتفتشوه فلا تدعوا به ثمرة واحدة ولا موضعا يطمع فيه أحد في قصدكم (عليكم) وأنتم بها (مسكين) وهي نهي للمسكين في اللفظ للمبالغة في نهي أنفسهم أن لا يدعوه يدخل عليهم أي لا يمكنوه من الدخول حتى يدخل كقولك لا أرينك ههنا فقال لهم أوسطهم سنا وخيرهم نفسا وأعدلهم طبعا بما يدل عليه ما يأتي لا تقولوا هكذا واصنعوا من الاحسان ما كان يصنع أبوكم قال البقاعي وكأنه طواه سبحانه لانه مع الدلالة عليه بما يأتي لم يؤثر شيأ (وغدوا) أي ساروا اليها غدوة (على حرد) أي منع للمساكين قال أبو عبيدة على حرد أي منع من حاردت الابل حرادا أي قل لبنها والحرود من النوق القليلة الدر وحاردت السنة قل مطرها وخيرها وقال الشعبي وسفيان على حنق وغضب من المساكين وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على قدرة (قادرين) عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد أي بدليل عدم استثنائهم فان الجزم على الفعل في المستقبل فضلا عن أن يكون مع الحلف فعل من لا كفء له وقال الحسن وقتادة على جد وجهد وقال القرطبي وعكرمة على أمر مجتمع ودل على قربها من منزلتهم بالفاء فقال تعالى (فلما رأوها) أي بعد سير يسير وليس للزرع ولا للثمر بها أثر (قالوا انا لضالون) عن طريق جنتنا لانها صارت لسوء حالها من ذلك الطائف بعيدة عن حال ما كانت عليه عند تواعدهم وتغيير نياتهم فأدهشهم منظرها وحيرهم خبرها وأكدوا الان ضلالهم لا يصدق مع قرب عهدهم وكثرة ملابستهم لها وقوة معرفتهم بها ولما انجلى ما أدهشهم في الحال قالوا مضربين عن الضلال (بل نحن محرومون) أي ثابت حرماننا ما كان فيه من الخير الذي لم نغب عنه الا سواد الليل فحرمنا الله تعالى اياه بما عزمنا عليه من حرمان المساكين ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وقرأ الكسائي بادغام اللام في النون والباقون بالاظهار (قال أوسطهم) أي رأيا وعقلا وسنا وفضلا منكرا عليهم (ألم أقل لكم) أي ما فعلتموه لا ينبغي وان الله تعالى بالمرصاد لمن غير ما في نفسه وحاد (لولا) أي هلا ولم لا (تسبحون) أي تستثنون فكان استثناؤهم تسبيحا قال مجاهد وغيره وهذا يدل على ان هذا الاوسط كان يأمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه قال أبو صالح كان استثناؤهم سبحان الله فقال لهم هلا تسبحون الله أي تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم وقال النحاس أصل التسبيح التنزيه لله عز وجل فجعل مجاهد التسبيح في موضع ان شاء الله لان المعنى تنزيه الله أن يكون شيء الا بمشيئته وقال الرازي التسبيح عبارة عن تنزيهه عن كل سوء فلو دخل شيء في الوجود على خلاف ارادة الله تعالى لنسب النقص الى قدرة الله تعالى فقولك ان شاء الله يزيل هذا النقص فكان ذلك تسبيحا وقيل المعنى هلا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون اليه من خبث نيتكم قيل ان القوم لما عزموا

على منع الزكاة فاغتروا بالمال والقوة قال لهم أوسطهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب فلما رأوا العذاب ذكرهم أوسطهم كلامه الاول وقال ألم أقل لكم لولا تسبحون فحينئذ اشتغلوا بالتوبة بأن (قالوا) أى من غير تلعثم بما عاد عليهم من بركة أبيهم (سبحان ربنا) أى تنزه المحسن الينا التنزيه الاعظم أن يكون وقع منه فيما فعل بنا ظلم وأكدوا قباحة فعلهم هضما لانفسهم وخضوعا لربهم وتحقيقا للتوبة بقولهم (انا كنا) أى بما فى جبلاتنا من الفساد (ظالمين) أى مجاوزين الحدود فيما فعلنا من التقاسم على منع المساكين وعلى جذها فى الصباح من غير استثناء (فأقبل بعضهم) أى فى الحال مبادرة فى الخضوع (على بعض يتلاومون) أى يلوم بعضهم بعضا يقول هذا لهذا انت أشرت علينا بهذا الرأى ويقول ذلك لهذا أنت الذى خوفتنا بالفقر ويقول الثالث لغيره أنت رغبتنى فى جمع المال ثم نادوا على أنفسهم بالويل بأن (قالوا) منادين لما شغلهم قربه منهم وملازمته لهم عن كل شئ (ياويلنا) أى هذا وقت حضورك أيها الويل ايانا ومنادمتك لنا فانه لانديم لنا الآن غيرك والويل الهلاك والاشراف عليه (انا كنا) أى جبلة وطبعا (طاغين) أى عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء وقال ابن كيسان طاغين نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل ثم رجعوا الى أنفسهم فقالوا (عسى ربنا) أى الذى أحسن الينا بتربية هذه الجنة واهلاك ثمرها الآن تأديبا لنا (أن يبدلنا) من جنتنا شيأ (خيرا منها) يقيم لنا أمر معايشنا فتنقلب أحوالنا هذه التى نحن فيها من الهموم والبذاذة بسرور ولذاذة وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال (انا الى ربنا) أى المحسن الينا والمربى لنا بالايجاد ثم الابقاء خاصة لا الى غيره (راغبون) أى ثابتة رغبتنا ورجاؤنا الخير والاكرام وقد قيل ان الله تعالى قبل رجوعهم وأخلف عليهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان كان القطف الواحد منها يحمله وحده من كبره البغل رواه البغوى عن ابن مسعود وقال أبو خالد اليمانى دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الاسود القائم وقال الحسن قول أهل الجنة انا الى ربنا راغبون لا أدرى ايمانا كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين اذا أصابتهم الشدة فتوقف فى كونهم مؤمنين وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار قال لقد كلفتنى تعبا والاكثرون يقولون انهم تابوا وأخلصوا احكاه القشيرى * ولما كان المقام لترهيب من ركن الى ماله واحتقر الضعفاء من عباد الله تعالى ولم يجلهم بجلاله طوى ذكر ما أنعم به عليهم وذكر ما يخوفهم فقال تعالى مرهبا (كذلك) أى مثل هذا الذى بلوناه به أصحاب الجنة من اهلاك ما كان عند أنفسهم فى غاية القدرة عليه والثقة به مع الاستحسان لفعلهم والاستصواب وهدد نابه أهل مكة فلم يبادروا الى المتاب (العذاب) أى الذى نحذرهم منه ونخوفهم به فى الدنيا فاذا تم الاجل الذى قدرناه له أخذناهم به غير مستعجلين ولا مفرطين لانه لا يعجل الا ناقص يخاف الفوت (ولعذاب الآخرة) أى الذى يكون فيها للعصاة (أكبر) أى من كل ما يتوهمون (لو كانوا) أى الكفار (يعلمون) أى لو كان لهم علم بشئ من غرائزهم فى وقت من الاوقات لرجعوا عما هم فيه * ولما ذكر

مالاهل الجود الذين لايجوزون الممكنات ذكر تعالى أضدادهم فقال تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (ان للمتقين) أى العريقين فى صفة التقوى (عند ربهم) أى المحسن اليهم فى موضع دوم أولئك وجنة آمالهم (جنات) جمع جنة وهى لغة البستان الجامع وفى عرف الشرع مكان اجتمع فيه جميع السرور وانتفى عنه جميع الشرور (النعيم) أى جنات ليس فيها الا النعيم الخالص لايشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا قال مقاتل لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين ان الله تعالى فضلنا عليكم فى الدنيا فلابد وأن يفضلنا عليكم فى الآخرة فان لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (أفنجعل المسلمين) أى الذين هم عريقون فى الانقياد لاوامرنا والصلة لما أمرنا بوصله طلبا لمرضاتنا فلا اختيار لهم معنا فى نفس ولاغيرها الحسن جبلاتهم (كالمجرمين) أى الراسخين فى قطع ماأمرنا به أن يوصل وأنتم لاتقرون بمثل هذا ففى ذلك انكار لقول الكفرة فانهم كانوا يقولون أيضا ان صح انا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالا منهم كما نحن عليه فى الدنيا وقوله تعالى (مالكم) أى أى شئ يحصل لكم من هذه الاحكام الجائرة البعيدة عن الصواب (كيف تحكمون) أى أى عقل دعاكم الى هذا الحكم الذى يتضمن التسوية من السيد بين المحسن من عبيده والمسىء مع التفاوت فيه تعجب من حكمهم واستبعاد له واشعار بأنه صادر عن اختلال فكر واعوجاج رأى (أم) أى بل أ (لكم كتاب) أى سماوى معروف أنه من عند الله خاص بكم (فيه) أى لافى غيره من أساطير الاولين (تدرسون) أى تقرؤن قراءة أيقنتكم (ان لكم) أى خاصة على وجه التأكيد الذى لارخصة فى تركه (لما تخيرون) أى ما تختارونه وتشتهونه وكسرت وكان حقها الفتح لولا اللام لان مابعدها هو المدروس ويجوز أن تكون الجملة حكاية للمدروس وأن تكون استئنافية (أم لكم أيمان) أى عهود ومواثيق (علينا) قد حملتمونا اياها (بالغة) أى واثقة نعت لايمان وقوله تعالى (الى يوم القيامة) متعلق بما تعلق به لكم من الاستقرار أى ثابتة لكم الى يوم القيامة أى مبالغة أى تبلغ الى ذلك اليوم وتنتهى اليه وقوله تعالى (ان لكم لما تحكمون) جواب القسم لان معنى أم لكم أيمان علينا أى أقسمنا لكم * ولما عجب منهم وتهكم بهم ذيل ذلك بتهكم أعلى منه يكشف عوارهم غاية الكشف فقال تعالى (سلهم) باأشرف الرسل (أيهم بذلك) أى الامر العظيم الذى يحكمون به لانفسهم من أنهم يعطون فى الآخرة أفضل من المؤمنين (زعيم) أى كفيل وضامن أو سيد أو رئيس أو متكلم بحق أو باطل التزم فى ادعائه صحة ذلك (أم لهم شركاء) موافقون لهم فى هذا القول يكفلونه لهم فان كانوا كذلك (فليأتوا بشركائهم) أى الكافلين لهم به (ان كانوا صادقين) أى عريقين فى هذا الوصف كما يدعونه وقوله تعالى (يوم) منصوب بقوله تعالى فليأتوا أى فليأتوا بشركائهم يوم (يكشف) أى يحصل الكشف فيه بنى للمفعول لان المخيف وقوع الكشف الذى هو كناية عن تفاقم الامر وخروجه عن حد الطوق لا كونه من معين مع أنه من المعلوم أنه لافاعل هناك غيره سبحانه وتعالى (عن ساق) أى يشتد فيه الامر غاية الاشتداد لان من اشتد

عليه الامر وجد فى فصله شمر عن ساقه لاجله وشمرت حرمه عن سوقهن غير محتشمات فهو كناية عن هذا ولذلك ذكره تهويلا له وتعظيما نقل هذا التأويل عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما وعن انكشاف جميع الخلائق وظهور الجلائل فيه والدقائق من الاهوال وغيرها كما كشفت هذه الآيات جميع الشبه فتركت السامع لها فى مثل ضوء النهار ويجوز أن يكون منصوبا باضمار اذكر فيكون على هذا مفعولا به وعلى الاول لا يوقف على صادقين *(تنبيه)* علم مما تقرر ان كشف الساق كناية عن الشدة قال الراجز

عجبت من نفسى ومن اشفاقها * ومن طرادى الطير عن أرزاقها
فى سنة قد كشفت عن ساقها * حمراء تبرى اللحم عن عراقها

(وقال الطائى)

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها * وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

(وقال آخر)

قد شمرت عن ساقها فشدوا * وجدت الحرب بكم فجدوا

وقال أبو عبيدة اذا اشتد الامر أو الحرب قيل كشف الامر عن ساقه والاصل فيه أن من وقع فى شئ يحتاج فيه الى الجد شمر عن ساقه فاستعير الساق والكشف عنها فى موضع الشدة وقال القرطبى وأما ما روى أن الله تعالى يكشف عن ساقه فانه تعالى متعال عن الاعضاء والابعاض وأن ينكشف ويتغطى ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره وقيل يكشف عن نوره عز وجل وروى أبو موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى عن ساق قال يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا وروى أبو بردة عن أبى موسى قال حدثنى أبو موسى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون فى الدنيا فيذهب كل قوم الى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون ان لنا ربا كنا نعبده فى الدنيا ولم نره قال أو تعرفونه اذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال فكيف تعرفونه ولم تروه قالوا انه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون الله تعالى فيخرون له سجدا ويبقى أقوام ظهورهم كصياصى البقر فينظرون الى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى يوم يكشف عن ساق (ويدعون) أى من داعى الملك الديان (الى السجود) توبيخا على تركه الآن وتنديما وتعنيتا لا تعبدا وتكليفا نريدونه ليفدوا أنفسهم مما يرون من المخاوف (فلا) أى فتسبب عن ذلك انهم لا (يستطيعون) لانهم غير سالمين لا أعضاء لهم تنقاد به مع شدة معالجتهم لانفسهم فيقول الله تعالى أى للساجدين عبادى ارفعوا رؤسكم فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلا من اليهود والنصارى فى النار قال أبو بردة فحدثت هذا الحديث عمر ابن عبد العزيز فقال لى والله الذى لا اله الا هو لقد حدثك أبوك بهذا الحديث فحلف له ثلاثة أيمان فقال ما سمعت فى أهل التوحيد حديثا هو أحب الى من هذا الحديث وأما غير الساجدين فعن ابن مسعود تعقم أصلابهم أى ترد عظامها بلا مفاصل لا تنثنى عند الرفع والخفض

وفى الحديث وتبقى أصلابهم طبقا واحدا أى فقارة واحدة وقوله تعالى (خاشعة) حال من
مرفوع يدعون وقوله تعالى (أبصارهم) فاعل به ونسب الخشوع للابصار لان مافى القلب يعرف
فى العين وذلك ان المؤمنين يرفعون رؤسهم من السجود ووجوههم أضوأ من الشمس ووجوه
الكافرين والمنافقين سود مظلمة (ترهقهم) أى تغشاهم (ذلة) أى عظيمة لانهم استعملوا
الاعضاء التى أعطاهم وها الله سبحانه ليتقربوا بها اليه فى دار العمل فى غير طاعته (وقد) أى
والحال انهم قد (كانوا يدعون الى السجود) أى فى الدنيا من كل داع يدعو الينا وقال
ابراهيم التيمى أى يدعون بالاذان والاقامة فيأبون وقوله تعالى (وهم سالمون) أى معافون
أصحاء حال من مرفوع يدعون الثانية وقال سعيد بن جبير كانوا يسمعون حى على الفلاح
فلا يجيبون وقال كعب الاحبار والله مانزلت هذه الآية الا فى الذين يتخلفون عن الجماعات
* ولما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد فى التخويف بما عنده وفى قدرته فقال تعالى لنبيه
صلى الله عليه وسلم (فذرنى) أى اتركنى على أى حالة اتفقت (ومن يكذب) أى يوقع
التكذيب لمن يتلو ماجددت انزاله من كلامى القديم على أى حالة كان ايقاعه وأفرد الضمير
نصا على تهديد كل واحد من المكذبين (بهذا الحديث) أى القرآن أى خل بينى وبينهم لاتشغل
قلبك به فانى أكفيك أمره لانه لامانع منه فلا تهتم به أصلا (سنستدرجهم) أى سنأخذهم
بعظمتنا على التدريج لا على غرة الى عذاب لاشك فيه (من حيث) أى من جهات (لايعلمون)
أى لا يتجدد لهم علم ما فى وقت من الاوقات فعذبوا يوم بدر وقال أبو روق كلما أحدثوا خطيئة
جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار وقال سفيان الثورى نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر
وقال الحسن كم مستدرج بالاحسان اليه وكم مفتون بالثناء عليه وكم مغرور بالستر عليه وقال
ابن عباس سنمكر بهم وروى أن رجلا من بنى اسرائيل قال يارب كم أعصيك وأنت لاتعاقبنى
فأوحى الله الى نبى زمانهم أن قل له كم من عقوبة لى عليك وأنت لاتشعر ان جمود عينيك وقساوة
قلبك استدراج منى وعقوبة لو عقلت والاستدراج ترك المعاجلة وأصله النقل من حال الى حال
كالتدرج ومنه قيل درجات وهى منزلة بعد منزلة واستدرج فلان فلانا أى استخرج ماعنده
قليلا قليلا ويقال درجه الى كذا واستدرجه معناه أدناه منه على التدريج فتدرج ومعنى
الآية انا لما أنعمنا عليهم اعتقدوا ان ذلك الانعام تفضيل لهم على المؤمنين وهو فى الحقيقة
والواقع سبب لهلاكهم (وأملى لهم) أى أمهلهم وأطيل المدة كقوله تعالى انما نملى لهم ليزدادوا
اثما والملاوة المدة من الدهر وأملى الله له أى أطال له والملوان الليل والنهار وقيل لا أعاجلهم
بالموت والمعنى واحد والملا مقصورا الارض الواسعة سميت بها لامتدادها (ان كيدى) أى
سترى لاسباب الهلاك عمن أريد اهلاكه وابدائى ذلك له فى ملابس الاحسان (متين) أى قوى
شديد فلا يفوتنى أحد وسمى احسانه كيدا كما سماه استدراجا لكونه فى صورة الكيد ووصفه
بالمتانة لقوة أثر احسانه فى التسبب للهلاك (أم تسألهم) أى أنت يا أعف الخلق وأعلاهم همما
(أجرا) على تبليغ الرسالة (فهم) أى فتسبب عن ذلك وتعقب انهم (من مغرم) أى غرامة

كلفتهم بها (مثقلون) أى ثقل حمل الغرامات عليهم فى بذل المال فثبطهم ذلك عن الايمان والمعنى ليس عليهم كلفة فى متابعتك بل يستمولون بالايمان على خزائن الارض ويصلون الى جنات النعيم (أم عندهم) أى خاصة (الغيب) أى علمه من اللوح المحفوظ أو غيره (فهم) أى بسبب ذلك (يكتبون) أى ما يريدون منه ليكونوا قد اطلعوا على أن هذا الذكر ليس من عند الله أو أنهم لا دليل عليهم فى التكذيب به فقد علم من هذا أنهم لا شهوة لهم فى ذلك عادية ولا شبهة وانما كيدهم مجرد خبث طباع وظلمة نفوس وأمانى فارغة وأطماع (فاصبر) أى أوقع الصبر وأوجده على كل ما يقولونه فيك وعلى غير ذلك من كل ما يقع منهم ومن غيرهم من مر القضاء (لحكم ربك) أى القضاء الذى قضاه وقدره المحسن اليك الذى أكرمك بما أكرمك به من الرسالة وألزمك بما ألزمك من البلاغ وخذاهم بالتكذيب ومداهم على ذلك فى الاجل وأسبغ عليهم النعم وأخر ما وعدك به من النصر وقال ابن بحر فاصبر لنصر ربك وقيل ان ذلك منسوخ بآية السيف وقال قتادة ان الله تعالى يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم ويأمره بالصبر ولا يعجل (ولا تكن) أى ولا يكن حالك يا أشرف الخلق فى الضجر والعجلة (كصاحب) اى كحال صاحب (الحوت) وهو يونس عليه السلام وقوله تعالى (اذ) منصوب بمضاف محذوف أى ولا يكن حالك كحاله أو قصتك كقصته حين (نادى) أى ربه فى الظلمات من بطن الحوت وظلمة ما يحيط به من الجثة وظلمة اللجج لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ويدل على المحذوف ان الذوات لا ينصب عليها النهى انما ينصب على أحوالها وصفاتها وقوله تعالى (وهو مكظوم) جملة حالية من الضمير من نادى والمكظوم الممتلئ حزنا أو غيظا ومنه كظم السقاء اذا ملأه قال ذو الرمة

وأنت من حب مى مضمر حزنا * عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

وقال القرطبى ومعنى وهو مكظوم أى مملوء غما وقيل كربا فالاول قول ابن عباس ومجاهد والثانى قول عطاء وأبى مالك قال الماوردى والفرق بينهما ان الغم فى القلب والكرب فى الانفاس وقيل مكظوم محبوس والكظم الحبس ومنه قولهم كظم غيظه أى حبس غضبه والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه * ولما تشوف السامع الى ما كان من أمره بعد هذا الامر العجيب قال تعالى (لولا أن تداركه) أى أدركه ادراكا عظيما (نعمة) أى عظيمة جدا * (تنبيه) * حسن تذكير الفعل لفصل الضمير فى تداركه (من ربه) أى الذى أحسن اليه بارساله وتهذيبه للرسالة والتوبة عليه والرحمة وقال الضحاك النعمة هنا النبوة وقال ابن جبير عبادته التى سلفت وقال ابن زيد نداؤه بقوله لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين وقال ابن بحر اخراجه من بطن الحوت وقوله تعالى (لنبذ) أى لولا هذه الحالة السنية التى أنعم الله تعالى عليه بها لطرح طرحا هينا جدا (بالعراء) أى الارض القفراء الواسعة التى لا بناء فيها ولا جبال ولا نبات البعيدة عن الانس جواب لولا وقيل جوابها مقدر أى لولا هذه النعمة لبقى فى بطن الحوت (وهو) أى والحال انه (مذموم) أى ملوم على الذنب وقيل مبعد

من كل خير وقال الرازى وهو مذموم على كونه فاعلا للذنب قال والجواب من ثلاثة أوجه الاول ان كلمة لولا دالة على أن هذه المذمومية لم تحصل الثانى لعل المراد من المذمومية ترك الافضل فان حسنات الابرار سيآت المقربين الثالث لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله تعالى (فاجتباه) أى اختاره لرسالته (ربه) والفاء للتعقيب قيل ان هذه الآية نزلت بأحد حين حل برسول الله صلى الله عليه وسلم ما حل فأراد أن يدعو على الذين انهزموا وقيل حين أراد أن يدعو على ثقيف ثم سبب عن اجتبائه قوله تعالى (فجعله من الصالحين) أى الذين رسخوا فى رتبة الصلاح فصلحوا فى أنفسهم للنبوة والرسالة وصلح بهم غيرهم فنبذ حينئذ بالعراء وهو محمود قال ابن عباس رد الله تعالى اليه الوحى وشفعه فى نفسه وفى قومه وقبل توبته وجعله من الصالحين بأن أرسله الى مائة ألف أو يزيدون بسبب صبره فمن صبر أعظم من صبره كان أعظم أجرا من أجره وأنت كذلك فأنت أشرف العالمين * (تنبيه) * استدل أهل السنة على أن فعل العبد خلق لله تعالى بقوله سبحانه فجعله من الصالحين لان الصلاح انما حصل بجعل الله تعالى وخلقه وقال الجبائى يحتمل أن يكون معنى جعل انه أخبر بذلك ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح اذ الجعل يستعمل فى اللغة فى هذه المعانى والجواب أن ذلك مجاز والاصل فى الكلام الحقيقة (وان) هى المخففة أى وانه (يكاد الذين كفروا) أى ستروا ما قدروا عليه مما جئت به من الدلائل وأظهر موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف * ولما كانت ان مخففة أتى باللام التى هى علمها فقال (ليزلقونك بأبصارهم) أى ينظرون اليك نظرا شديدا يكاد أن يصرعك من قامتك الى الارض كما يزلق الانسان فينطرح لما يتراءى فى عيونهم أو يهلكونك من قولهم نظر الى نظرا يكاد يصرعنى ويكاد يأكلنى أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الاكل لفعل قال القائل

يتقارضون اذا التقوا فى موطن * نظرا يزل مواطئ الاقدام

وقيل أرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر اليه قوم من قريش وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه وقيل كانت العين فى بنى اسرائيل فكان الرجل منهم يجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شئ فيقول لم أر كاليوم مثله الا عانه حتى ان البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول يا جارية خذى المكتل والدرهم فأتينا من لحم هذه الناقة فما تبرح الناقة حتى تقع للموت فتنحر وقال الكلبى كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيأ يومين أو ثلاثة ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الابل أو الغنم فيقول لم أر كاليوم ابلا ولا غنما أحسن من هذه فلا تذهب الا قليلا حتى تسقط منها طائفة هالكة فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعين فأجابهم فلما مر النبى صلى الله عليه وسلم أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيدا * واخال انك سيد معيون

فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية وذكر الماوردى ان العرب كانت اذا أراد أحدهم أن يصيب أحدا بعين فى نفسه أو ماله يجوع ثلاثة أيام ثم يتعرض لنفسه وماله

فيقول تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكبر منه ولا أحسن فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى أبو نعيم أنه صلى الله عليه وسلم قال ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وعن أسماء بنت عميس قالت يا رسول الله ان بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم قال نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين وقال الحسن دواء الاصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية وقرأ نافع بفتح الياء والباقون بضمها وهما لغتان يقال زلقه يزلقه زلقا وأزلقه يزلقه ازلاقا وقال ابن قتيبة ليس يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه وانما أراد أنهم ينظرون اليك (لما سمعوا الذكر) أى القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك وقال الزجاج يعنى من شدة عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك (ويقولون) أى قولا لا يزالون يجددونه حسدا وبغضا على أنهم لم يزدهم تمادى الزمان الا حنقا (انه لمجنون) أى ينسبونه الى الجنون اذا سمعوه يقرأ القرآن فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (وما هو) أى القرآن (الا ذكر للعالمين) قال ابن عباس موعظة للمؤمنين قال الجلال المحلى الانس والجن وظاهره اخراج الملائكة وهو ما جرى عليه فى شرحه على جمع الجوامع وظاهر الآية انه أرسل لجميع الخلائق وهو كما قال بعض المتأخرين الظاهر ويدل له قول البيضاوى لما جننوه لاجل القرآن بين أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه الا من كان أكمل الناس عقلا وأمتنهم رأيا وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم حديث موضوع

(سورة الحاقة مكية)

وهى اثنان وخمسون آية وألف وأربعة وستون حرفا

(بسم الله) اى الذى له الكمال كله (الرحمن) الذى عم العالمين جوده (الرحيم) الذى خص أهل وده بالوقوف عند حدوده وقوله تعالى (الحاقة) مبتدأ وقوله تعالى (ما الحاقة) مبتدأ وخبر والجملة خبر الاول والاصل الحاقة ما هى أى أى شئ هى تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لانه أهول لها والحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجىء التى هى آتية لا ريب فيها أو التى فيها حواق الامور من البعث والحساب والثواب والعقاب أو التى تحق فيها الامور أى تعرف على الحقيقة من قولك لا أحق هذا أى لا أعرف حقيقته جعل الفعل لها وهو لاهلها وقيل سميت القيامة بذلك لانها أحقت لاقوام الجنة ولاقوام النار وقوله تعالى (وما أدراك) أى أى شئ أعلمك (ما الحاقة) زيادة تعظيم لشأنها فما الاولى مبتدأ وما بعدها خبره وما الثانية وخبرها فى محل المفعول الثانى لادرى يعنى انك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها على أنه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية أحد ولا وهمه والنبى صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن لا علم له بكنهها وصفتها فقيل له ذلك تفخيما لشأنها كأنك لست تعلمها اذ لم تعاينها وقال يحيى بن سلام بلغنى ان كل شئ فى القرآن وما أدراك فقد دراه

وعلمه وكل شئ قال ومايدريك فانه مما لم يعلمه وقال سفيان بن عيينة كل شئ قال فيه وما أدراك فانه أخبره به وكل شئ قال فيه ومايدريك فانه لم يخبره به وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى وابن ذكوان بخلاف عنه بالامالة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح * ولما ذكر الساعة وفخمها أتبع ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيرا لاهل مكة وتخويفا لهم من عاقبة تكذيبهم فقال تعالى (كذبت ثمود) قدمهم لان بلادهم أقرب الى قريش وواعظ القرب أكبر واهلاكهم بالصيحة وهى أشبه بصيحة النفخ فى الصورة المبعثرة لما فى القبور (وعاد بالقارعة) أى القيامة سميت بذلك لانها تقرع قلوب العباد بالمخافة أو لانها تقرع الناس بأهوالها يقال أصابتهم قوارع الدهر أى أهواله وشدائده وقوارع القرآن الآيات التى يقرؤها الانسان اذا فزع من الانس أو الجن نحو آية الكرسى كأنه يقرع الشيطان بها وقال المبرد القارعة مأخوذة من القرعة من رفع قوم وحط آخرين وقوارع القيامة انفطار السماء بانشقاقها والارض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع فى الحاقة زيادة فى وصف شدتها وقيل عنى بالقارعة العذاب الذى نزل بهم فى الدنيا وكان نبيهم يخوفهم بذلك فيكذبونه وثمود قوم صالح وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشأم والحجاز قال ابن اسحق وهو وادى القرى وكانوا عربا وأما عاد فقوم هود وكانت منازلهم بالاحقاف رمل بين عمان الى حضرموت واليمن كله وكانوا عربا ذوى بسطة فى الخلق (فأما ثمود فأهلكوا) أى بأيسر أمر من أوامرنا (بالطاغية) أى الواقعة التى جاوزت الحد فى الشدة فرجفت منها القلوب واختلف فيها فقيل الرجفة وعن ابن عباس الصاعقة وعن قتادة بعث الله تعالى عليهم صيحة فأهمدتهم وقال مجاهد بالذنوب وقال الحسن بالطغيان فهو مصدر كالكاذبة والعاقبة أى أهلكوا بطغيانهم وكفرهم قال الزمخشرى وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله تعالى بريح صرصر لكن قال ابن عادل ويوضحه كذبت ثمود بطغواها أهلكوا بها ولاجلها قال والباء سببية على الاقوال كلها الا على قول قتادة فانها فيه للاستعانة كعملت بالقدوم (وأما عاد فأهلكوا) أى بأشق مايكون عليهم وبأيسر مايكون علينا (بريح صرصر) أى شديدة الصوت لها صرصرة وقيل هى الباردة من الصر كأنها التى كرر فيها البرد وكثر فهى تحرق بشدة بردها وقال مجاهد هى الشديدة السموم (عاتية) أى مجاوزة للحد فى شدة عصفها والعتو استعارة أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء فى حفرة فانها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم وقيل عتت على خزانها فخرجت بلا كيل ولا وزن وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أرسل الله تعالى سفينة من ريح الا بمكيال ولا قطرة من مطر الا بمكيال الا يوم عاد ويوم نوح فان الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية وان الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ بريح صرصر عاتية (سخرها) أرسلها (عليهم) وقال مقاتل رضى الله عنه سلطها عليهم (سبع ليال) أى لا تفتر فيها الريح ساعة (وثمانية أيام) كذلك قال وهب هى الايام

التي تسميها العرب العجوز ذات برد وريح شديدة قيل سميت عجوزا لانها في عجز الشتاء وقيل سميت بذلك لان عجوزا من قوم عاد دخلت سربا فتبعتها الريح فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب (حسوما) قال مجاهد وقتادة رضي الله عنهما متتابعة ليس فيها فترة فعلى هذا هو من حسم الكي وهو أن يتابع على موضع الداء المكواة حتى يبرأ ثم قيل لكل شئ يقطع حاسم وجمعه حسوم مثل شاهد وشهود وقال الكلبي حسوما دائما وقال النضر بن شميل حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم والحسم القطع والمنع ومنه حسم الداء وقال عطية حسوما شؤما كأنها حسمت الخير عن أهلها * (تنبيه) * في اعراب حسوما أوجه أحدها أن ينتصب نعتا لما قبله ثانيها أن ينتصب على الحال أي ذات حسوم ثالثها أن ينتصب على المصدر بفعل من لفظها أي تحسمهم حسوما واختلفوا في أولها فقال السدي غداة يوم الاحد وقال الربيع بن أنس رضي الله عنه غداة يوم الجمعة وقال يحيى بن سلام ووهب بن منبه رضي الله عنهم غداة يوم الاربعاء وهو اليوم النحس المستمر قيل كان آخر أربعاء في السنة وآخرها يوم الاربعاء وقال البقاعي وهي من صبيحة الاربعاء لثمان بقين من شوال غروب الاربعاء الآخر وهو آخر الشهر وقد لزم من زيادة عدد الايام أن الابتداء كان بها قطعا والالم تكن الليالي سبعا فتأمل ذلك اه وهو ظاهر *ولما كان الحاسم المهلك تسبب عنه قوله تعالى مصورا لحالهم الماضية (فترى القوم) أي الذين هم غاية في القدرة على ما يحاولونه (فيها) أي تلك المدة من الايام والليالي لم يتأخر أحد منهم عنهم (صرعى) أي مجندلين على الارض موتى جمع صريع وهي حال نحو قتيل وقتلى وجريح وجرحى والضمير فيها للايام والليالي كما مر أو للبيوت أو للريح قال ابن عادل والاول أظهر لقربه (كأنهم أعجاز) أي أصول (نخل) قد شاخت وهرمت فهي في غاية العجز (خاوية) أي متأكلة الاجواف ساقطة من خوى النجم اذا سقط للغروب ومن خوى المنزل اذا خلا من قطانه قالوا كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم والوصف بذلك لعظم أجسامهم وتقطيع الريح لهم وقطعها رؤسهم وخلوهم من الحياة وتسويدها لهم (فهل ترى) أي أيها المخاطب الخبير بالناس في جميع الاقطار (لهم) أي خصوصا وأغرق في النفي وعبر بالمصدر الملحق بالهاء مبالغة فقال تعالى (من باقية) فيكون المراد بالباقية البقاء كالطاغية بمعنى الطغيان أي من باق والاحسن أن تكون صفة لفرقة أو لطائفة أو نفس أو بقية أو نحو ذلك وقيل فاعلة بمعنى المصدر كالعافية والباقية قال المفسرون والمعنى هل ترى لهم أحدا باقيا قال ابن جريج كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله تعالى من الريح فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر فذلك قوله تعالى فهل ترى لهم من باقية وقوله تعالى فأصبحوا لاترى الامساكنهم ونجى الله تعالى صالحا عليه السلام ومن آمن به من بين ثمود ولم تضرهم الصاعقة وهودا عليه السلام ومن آمن به من عاد ولم يهلك منهم أحد فدل ذلك دلالة واضحة على أن له تعالى تمام العلم بالجزئيات كما أن له تمام الاحاطة بالكليات وعلى قدرته واختياره وحكمته فلا يجعل المسلم كالمجرم ولا المسيء كالمحسن وجواب هل لم يبق

منهم أحد (وجاء فرعون) أى الذى ملكناه طائفة من الارض وتجبر وادعى الالهية ناسيا نعمتنا وقدرتنا وقوله تعالى (ومن قبله) قرأه أبو عمرو والكسائى بكسر القاف وفتح الباء الموحدة أي ومن عنده من اتباعه وقرأه الباقون بفتح القاف وسكون الباء الموحدة على أنه ظرف أى ومن تقدمه من الامم الكافرة (والمؤتفكات) أى أهلها وهى قرى قوم لوط أى المنقلبات بأهلها حتى صار عاليها سافلها لما حصل لاهلها من الانقلاب (بالخاطئة) أى بالفعلات ذات الخطا الذى يتخطى منها الى نفس الفعل القبيح من اللواط والصفع والضراط مع الشرك وغير ذلك من أنواع الفسق* ولما كانت الرسل كالفرد الواحد لاتفاقهم وتعاضدهم فى الدعاء الى الله تعالى والحل على طاعته قال مسببا عن مجيئهم بذلك موحدا فى اللفظ ماهو صالح لكثير بارادة الجنس (فعصوا) اى خالفوا (رسول ربهم) أى خالفت كل أمة من أرسله المحسن اليها بابداعها من العدم وابداعها القوى وترزيقها وبعث رسولها الارشادها اغترارا باحسانه ولم يجوزوا أن المحسن يقدر على الضر كما قدر على النفع لانه الضار كما أنه النافع فللتنبيه على مثل ذلك لا يجوز فصل أحد الاسمين عن الآخر وسبب عن العصيان قوله تعالى (فأخذهم) أى ربهم أخذ قهر وغضب (أخذة) لم تبق من أمة منهم أحدا ممن كذب الرسول فلم يكن كمن ينصر على عدو من المؤمنين لا بدّ ان يفوته كثير منهم وان اجتهد فى الطلب وماذاك الا لتمام علمه سبحانه بالجزئيات والكليات وشمول قدرته وتلك الاخذة مع كونها بهذه العظمة من أنها أخذتهم كنفس واحدة جعلها سبحانه (رابية) أى عالية عليهم زائدة فى الشدة على غيرها وعلى عذاب الامم يقال ربا الشئ يربو اذا زاد ومنه الربا اذا أخذ فى الذهب والفضة أكثر مما اعطى والمعنى أنها كانت زائدة فى الشدة على عقوبات سائر الكفار كما ان أفعالهم كانت زائدة فى القبح على أفعال سائر الكفار وقيل لان عقوبة آل فرعون متعلقة بعذاب الآخرة لقوله تعالى اغرقوا فادخلوا نارا وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا فتلك العقوبة كانت كأنها تنمو وتربو* ثم ذكر تعالى قصة قوم نوح عليه السلام وهى قوله تعالى (انا) أى على عظمتنا (لما طغى الماء) أى زاد على الحد حتى علا على اعلى جبل فى الارض بقدر ما يغرق من كان عليه حين أغرقنا قوم نوح عليه السلام به فلم يطيقوا ضبطه ولا قدره بوجه من الوجوه وقال صلى الله عليه وسلم طغى على خزانه من الملائكة غضبا لربه تعالى فلم يقدروا على حبسه قال المفسرون زاد على كل شئ خمسمائة ذراع وقال ابن عباس رضى الله عنهما طغى الماء زمن نوح عليه السلام على خزانه فكثر عليهم فلم يدروا كم خرج وليس من الماء قطرة تنزل قبله ولا بعده الا بكيل معلوم غير ذلك اليوم والمقصود من قصص هذه الامم وذكر ما حل بهم من العذاب زجر هذه الامة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول ثم منّ الله عليهم بأن جعلهم ذرية من نجى من الغرق بقوله تعالى (حملناكم) اى فى ظهور آبائكم (فى الجارية) اى السفينة التى جعلناها بحكمتنا عريقة فى الجريان حتى كأنه لا جارية غيرها على وجه الماء الذى جعلناه من شأنه الاغراق والمحمول فى الجارية انما هو نوح عليه السلام واولاده وكل من على وجه الارض من نسل أولئك والجارية من اسماء السفينة ومنه قوله تعالى وله الجوار المنشآت فى

البحر كالاعلام وغلب استعمال ا ... كقوله

رأيت جارية في بطن جارية * في بطنها رجل ...

ونوح عليه السلام اول من صنع السفينة واغا صنعها بوحي ...
اجعلها كهيئة صدر الطائر ليكون مايجري في الماء مقاربا لما يجري في ...
كان في تلك السفينة من جميع اهل الارض من آدمي وغيره (لنجعلها) ...
وهي انجاء المؤمنين بحيث لايهلك منهم بهذا العذاب أحد واهلاك ...
أحد وكذا السفينة التي حملنا فيها نوحا عليه السلام ومن معه (لكم) ايها ...
عبرة ودلالة على قدرته تعالى وعظمته ورحمته وقهره فيقود كم ذلك اليه ...
وقوله تعالى (وتعيها) عطف منصوب على لنجعلها اي ولتحفظ قصة السفينة ...
حفظا ثابتا مستقرا كأنه يحوي في وعاء (أذن) اي عظيمة النفع (واعية) اي من شأنها ...
ماينبغي حفظه من الاقوال والافعال الالهية والاسرار الربانية انفع عباد الله تعالى ...
عليه السلام ومن معه وهم قليل سببا لادامة النسل والبركة فيه حتى امتلأت منه ...
والوعي الحفظ في النفس والايعاء الحفظ في الوعاء قال الزمخشري فان قلت لم قيل اذن واعية ...
التوحيد والتنكير قلت للايذان بان الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم وللدلالة على
ان الاذن الواحدة اذا وعت عقلت عن الله تعالى فهو السواد الاعظم عند الله وأن ماسواها
لايبالي بهم بالة وان ملؤا مابين الخافقين اهـ وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها * ولما ذكر
تعالى القيامة وهول أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها شرع سبحانه وتعالى في تفاصيل أحوالها
وبدأ بذكر مقدماتها بقوله تعالى (فاذا نفخ) وبنى الفعل للمجهول دلالة على هوان ذلك عليه وأن
مايتأثر عنه لايتوقف على نافخ معين بل من أقامه لذلك من جنده تأثر عنه مايريده (في الصور) أي
القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام قال البقاعي كأنه عبر عنه به دون القرن مثلا لانه
يتأثر عنه تارة اعدام الصورة وتارة ايجادها وردها الى اشكالها وسعته كما بين السماء والارض
(نفخة واحدة) للفصل بين الخلائق قال الزمخشري فان قلت هما نفختان فلم قيل واحدة قلت
معناه انها لاتثنى في وقتها ثم قال فان قلت فأي النفختين هي قلت الاولى لان عندها فساد العالم
وهكذا الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد روى عنه انها الثانية اهـ قال البقاعي وظاهر
السياق أنها الثانية التي بها البعث وخراب ماذكر بعد قيامهم انسب لانه أهيب وكونها الثانية
احدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما اهـ واقتصر البيضاوي على أنها الاولى والجلال
المحلي على أنها الثانية وهو الانسب كما قاله البقاعي ثم ان الزمخشري سأل سؤالا على انها النفخة
الاولى بقوله فان قلت أما قال بعد يومئذ تعرضون والعرض انما هو عند النفخة الثانية قلت
جعل اليوم اسما للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب
فلذلك قيل يومئذ تعرضون كما تقول جئتك عام كذا وانما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته
اهـ * ولما ذكر التأثير في الاحياء اتبعه التأثير في الجمادات وبدأ منها بالسفليات الابسها الانسان

فتكون عبرته بها أكثر فقال تعالى (وحملت الارض والجبال) أى التى بها اثباتها حملتهما الريح أو الملائكة أو القدرة من أماكنهما (فدكتا) أى مسحت الجملتان الارض وأوتادها وبسطت ودق بعضها ببعض (دكة واحدة) أى فصارتا كثيبا مهيلا بأيسر أمر فلم يميز شئ منهما عن الآخر بل صارتا فى غاية الاستواء ومنه اندك سنام البعير اذا انفرش فى ظهره وقال الفراء لم يقل فدككن لانه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة والارض كالجملة الواحدة ومثله أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما ولم يقل كن وهذا الدك كالزلزلة لقوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها وقوله تعالى (فيومئذ) منصوب بوقعت وقوله تعالى (وقعت الواقعة) لابد فيه من تأويل وهو أن تكون الواقعة صارت علما بالغلبة على القيامة او الواقعة العظيمة والافقام القائم لايجوز اذ لافائدة فيه والتنوين فى يومئذ للعوض من الجملة تقديره يوم اذ نفخ فى الصور ونوع تعالى أسماء القيامة بالحاقة والواقعة والقارعة تهويلا لها * ولما ذكر تأثير العالم السفلى ذكر العلوى بقوله تعالى (وانشقت السماء) اى ذلك الجنس اشدة هول ذلك اليوم اى انصدعت وتفطرت وقيل انشقت لنزول الملائكة بدليل قوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (فهى يومئذ واهية) اى ضعيفة متساقطة خفيفة لا تماسك كالعهن المنفوش بعدما كانت محكمة يقال وهى البناء يهى وهيا فهو واه اذا ضعف جدا ويقال كلام واه اى ضعيف وقيل واهية اى متخرقة مأخوذ من قولهم وهى السقاء اذا تخرق ومن أمثالهم

خل سبيل من وهى سقاؤه * ومن هريق بالفلاة ماؤه

أى من كان ضعيف العقل لايحفظ نفسه وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى بسكون الهاء والباقون بكسرها (والملك) أى هذا النوع (على أرجائها) أى نواحى السماء وأطرافها وحواشى مالم ينشق منها قال الضحاك يكونون بها حتى يأمرهم الله تعالى فينزلون فيحيطون بالارض ومن عليها وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه المعنى والملك على حافات الدنيا أى ينزلون الى الارض ويحرسون أطرافها وقيل اذا صارت السماء قطعا تقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشققة فى أنفسها والارجاء فى اللغة النواحى والاقطار بلغة هذيل واحدها رجا مقصور وتثنيته رجوان مثل عصا وعصوان قال القائل

فلا ترمى بى الرجوان انى * أقل القوم من يغنى مكانى

قال ابن عادل وربما هنا يكتب بالالف عكس رحى لانه من ذوات الواو (فان قيل) الملائكة يموتون فى الصعقة الاولى لقوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض فكيف يقال لهم انهم يقفون على أرجاء السماء (أجيب) من وجهين الاول انهم يقفون لحظة على أرجاء السماء ثم يموتون والثانى المراد الذين استثنوا فى قوله تعالى الا من شاء الله وقيل ان الناس اذا رأوا جهنم هالهم امرها فيندوا كما تند الابل فلا يأتون قطرا من أقطار الارض الا رأوا الملائكة فيرجعوا من حيث جاؤا وقيل على ارجائها ينتظرون ما يؤمرون به فى أهل النار من السوق اليها وفى أهل الجنة من التحية والكرامة وهذا كله يرجع الى قول ابن جبير رضى الله عنه ويدل عليه

قوله

قوله تعالى ونزل الملائكة تنزيلا قال الزمخشري فان قلت ما الفرق بين قوله والملك وبين أن يقال والملائكة قلت الملك أعم من الملائكة الاترى أن قولك مامن ملك الا وهو شاهد أعم من قولك مامن ملائكة اه قال أبو حيان ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة لان المفرد المحلى بالالف واللام قصاراه أن يكون مرادا به الجمع المحلى ولذلك صح الاستثناء منه ثم قال ولان قوله على أرجائها يدل على الجمع لان الواحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد بل في أوقات والمراد والله أعلم ان الملائكة على أرجائها لا انه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات * ولما كان الملك يظهر في يوم العرض سرير ملكه ومحل عزه قال تعالى (ويحمل عرش ربك) أى المحسن اليك بكل ما تريد لاسيما في ذلك اليوم بما يقع من رفعتك على سائر الخلق والضمير في قوله تعالى (فوقهم يومئذ) أى في يوم وقعت الواقعة يجوز أن يعود على الملك لانه بمعنى الجمع كما تقدم وأن يعود على الحاملين في قوله تعالى (ثمانية) وقيل يعود على جميع العالم اى ان الملائكة تحمل عرش الله تعالى فوق العالم كله واختلف في هذه الثمانية فقال ابن عباس رضى الله عنهما ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال ابن زيد هم ثمانية أملاك وعن الحسن رضى الله عنه الله أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية آلاف أم ثمانية صفوف وفي الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال ان حملة العرش اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أمدهم الله تعالى بأربعة أخرى فكانوا ثمانية على صورة الاوعال وفي رواية ثمانية أوعال من أظلافهم الى ركبهم كما بين سماء الى سماء وفي حديث آخر لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس (فان قيل) اذا لم يكن فيهم صورة الوعل فكيف سموا أوعالا (أجيب) بأن وجه الثور اذا كانت له قرون أشبه الوعل وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أذن لى أن احدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ان ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام أخرجه أبو داود باسناد صحيح وعن ابن عباس رضى الله عنهما حملة العرش ما بين أخمص أحدهم الى كعبه مسيرة خمسمائة عام ومن كعبه الى ركبته خمسمائة ومن ترقوته الى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال الذين يحملون العرش ما بين موق أحدهم الى مؤخر عينه خمسمائة عام وفي الخبر ان فوق السماء السابعة ثمانية اوعال بين اظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء الى سماء وفوق ظهورهن العرش وفي حديث مرفوع أن حملة العرش ثمانية املاك على صورة الاوعال ما بين أظلافها الى ركبها مسيرة سبعين عاما للطائر المسرع وروى أن أرجلهن في الارض السابعة واضافة العرش الى الله تعالى كاضافة البيت اليه وليس البيت للسكنى فكذلك العرش ليس للجلوس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فانه الخالق للعرش ولحملة العرش ولا تحيط به جهة وهو العلى العظيم وعن شهر بن حوشب قال حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك * ولما بلغ تعالى النهاية في تحذير العباد من يوم التناد وكان لهم حالتان عامة وخاصة فالعامة العرض والخاصة التقسيم الى محسن ومسىء زاده عظما

ومردود وذكر سبحانه المقبول بادئا به تشويقا الى حاله وتغبيطا بعاقبته وحسن حاله أتبعه المردود تنفيرا عن أعماله بما ذكر من قبائح أحواله فقال تعالى (وأما من أوتي كتابه) أي صحيفة حسابه (بشماله فيقول) أي لما يرى من سوء عاقبته التي كشف له عنها الغطاء حتى لم يشك فيها لما رأى من قبائحه التي قدمها (ياليتني) تمنيا للمحال (لم أوت) أي من أي مؤت ما (كتابيه) أي هذا الذي ذكرني خبائث أعمالي وعرفني بجزاءها (ولم) أي وياليتني لم (أدرما) حقيقة (حسابيه) من ذكر العمل وذكر جزائه بل استمريت جاهلا لذلك كما كنت في الدنيا ثم يتمنى الموت ويقول (ياليتها) أي الموتة الاولى وان لم تكن مذكورة الا أنها لظهورها كانت كالمذكورة (كانت القاضية) أي القاطعة لحياتي بأن لا أبعث بعدها ولم ألق ما وصلت اليه قال قتادة رضي الله عنه يتمنى الموت ولم يكن في الدنيا عنده شيء أكره من الموت وشر من الموت ما يطلب منه الموت قال الشاعر

وشر من الموت الذي ان لقيته * تمنيت منه الموت والموت أعظم

والمعنى ياليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت علي وقوله (ما أغنى عني ماليه) يجوز أن يكون نفيا تأسفا على فوات ما كان يرجو من نفعه والمفعول على هذا التقدير محذوف للتعميم ويجوز أن يكون استفهام توبيخ لنفسه حيث سولت له ما أثر له كل سوء وكل محال أي أي شيء أغنى ما كان لي من اليسار الذي منعت منه حق الفقراء وتعظمت به على عباد الله تعالى (هلك عني سلطانيه) أي ملكي وتسلطي على الناس وبقيت فقيرا ذليلا وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في الاسود بن عبد الاشد وعن فناخسرة الملقب بالعضد انه لما قال

عضد الدولة وابن ركنها * ملك الاملاك غلاب القدر

لم يفلح بعده وجن فكان لا ينطق لسانه الا بهذه الآية وقال ابن عباس رضي الله عنهما ضلت عني حجتي ومعناه بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا وذكر الضحاك ان الآية الاولى في اخي الاسود عبد الله بن عبد الاسد المخزومي * ولما كان كأنه قيل هذا ما قال فما يقال له أجيب بأنه يقال للزبانية على رؤس الاشهاد (خذوه) أي أيتها الزبانية الذين كان يستهزئ بهم عند سماع ذكرهم (فغلوه) أي اجمعوا يديه الى عنقه ورجليه الى وراء قفاه الى ناصيته (ثم الجحيم) أي النار العظمى التي تجحم على من يريد دفاعها ويجحم عنها من رآها لانها في غاية الحر والتوقد والتغيظ والتشدد (صلوه) أي بالغوا في تصليته اياها وكرروها بغمسة في النار كالشاة المصلية مرة بعد أخرى لانه كان يتعاظم على الناس فناسب أن يصلى أعظم النيران وعبر أيضا بأداة التراخي لعلو رتبة مدخولها فقال مؤذنا بعدم الخلاص وتقديم المفعول يفيد الاختصاص عند بعضهم ولذلك قال الزمخشري ثم لا يصلوه الا الجحيم قال أبو حيان وليس ما قاله مذهبا لسيبويه ولا الحذاق النحاة اهـ لكن كلام النحاة لا يأبى ما قاله (ثم في سلسلة) أي عظيمة جدا وقوله تعالى (ذرعها سبعون ذراعا) يحتمل أن يكون هذا العدد حقيقة وعلى هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما سبعون ذراعا بذراع الملك فتدخل في دبره وتخرج من منخره وقيل تدخل من فيه وتخرج من دبره وقال نوف البكالي سبعون ذراعا كل ذراع سبعون باعا كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان

فى رحبة الكوفة وقال سفيان كل ذراع سبعون ذراعا وقال الحسن رضى الله عنه الله أعلم أى ذراع هو ويحتمل أن يكون مبالغة كما قال تعالى ان تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة لانها اذا طالت كان الارهاق أشد والذى يدل على هذا ما رواه الترمذى وقال اسناده حسن عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن رصاصة مثل هذه وأشار الى مثل الجمجمة أرسلت من السماء الى الارض وهى مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الارض قبل الليل ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها وقعرها وعن كعب رضى الله عنه أنه قال لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها أجارنا الله تعالى ومحبينا منها وجميع المسلمين فأشار سبحانه الى ضيقها على ما تحيط به من بدنه بتعبيره بالسلك فقال تعالى (فاسلكوه) أى أدخلوه بحيث يكون كأنه السلك أى الحبل الذى يدخل فى ثقب الخرزة بعسر لضيق ذلك الثقب اما باحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف قال الزمخشرى والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك مثله فى تقديم الجحيم على التصلية أى لا تسلكوه الا فى هذه السلسلة كأنها أفظع من سائر مواضع الارهاق فى الجحيم ومعنى ثم الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية وما بينهما وبين السلك فى السلسلة لا على تراخى المدة اه * ولما ذكر سبحانه على الاجمال عقابه أتبعه أسبابه فقال تعالى (انه كان) أى جبلة وطبعا وان أظهر شيأ يلبس به على الضعفاء ويدلس على الاغبياء (لا يؤمن) أى الآن ولا فى مستقبل الزمان (بالله) أى الملك الاعلى الذى يعلم السر وأخفى (العظيم) أى الكامل العظم وهذا تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كأنه قيل ماله يعذب هذا العذاب الشديد أجيب بذلك وفى قوله تعالى (ولا يحض) أى يحث (على) بذل (طعام المسكين) دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المسكين أحدهما عطفه على الكفر وجعله قرينة له والثانى ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل وما أحسن قول القائل

اذا نزل الاضياف كان عذورا * على الحى حتى تستقل مراحله

يريد حضهم على القرى واستعجالهم وعن أبى الدرداء رضى الله عنه انه كان يحض امرأته على تكثير المرق لاجل المساكين وكان يقول خلعنا نصف السلسلة بالايمان أفلا نخلع نصفها الثانى بالطعام وقيل هو منع الكفار وقولهم أنطعم من لو يشاء الله أطعمه والمعنى على بذل طعام المسكين * ولما وصفه سبحانه بأقبح العقائد وأشنع الرذائل تسبب عنه قوله تعالى (فليس له اليوم ههنا) أى فى مجمع القيامة كله (حميم) أى صديق خالص يحميه من العذاب لانهم كلهم له أعداء كما أنه كان لا يرق على الضعفاء لما هم فيه من الاقلال من حطام الاموال (ولا طعام الا من غسلين) أى غسالة أهل النار وصديدهم وقيحهم فعلين من الغسل (لا يأكله الا الخاطؤن) أى أصحاب الخطايا من خطئ الرجل اذا تعمد الذنب وهم المشركون لا من الخطا المضاد للصواب وهذا الطعام يغسل ما فى بطونهم من الاعيان والمعانى التى بها قوام صاحبها وهى بمنزلة ما كانوا يشحون من أموالهم التى أبطنوها وادخروها فى خزائنهم واستأثروا بها على الضعفاء (فلا أقسم) أى لا يقع منى اقسام (بما

تبصرون) من المخلوقات (وما لا تبصرون) منها أي بكل الموجودات واجبها وجائزها معقولها ومحسوسها لانها لا تخرج عن قسمين مبصر وغير مبصر وقيل الدنيا والآخرة والاجسام والارواح والانس والجن والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة لان الامر أوضح من أن يحتاج الى اقسام وان كنت أقسم في غير هذا الموضع بما شئت ولو قيل بهذا في الواقعة لكان حسنا وقيل لا زائدة وجرى على ذلك الجلال المحلي (انه) أي القرآن (لقول) أي تلاوة (رسول) أي أنا أرسلته به وعني أخذه وليس فيه شيء من تلقاء نفسه انما هو كله رسالة واضحة جدا أنا شاهد بها عاله من الاعجاز الذي يشهد أنه كلامي (كريم) أي على الله تعالى فهو في غاية الكرم الذي هو البعد من مساوي الاخلاق باظهار معاليها الشرف النفس وشرف الآباء وهو محمد صلى الله عليه وسلم وكرم الشيء اجتماع الكمالات فيه اللائقة به وقيل هو جبريل عليه السلام قاله الحسن والكلبي رضي الله عنهما لقوله تعالى رسول كريم ذي قوة واستدل للاول بقوله تعالى (وما هو بقول شاعر) أي يأتي بكلام مقفى موزون بقصد الوزن قال مقاتل رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال ان محمدا صلى الله عليه وسلم ساحر وقال أبو جهل شاعر وقال عقبة كاهن فرد الله تعالى عليهم بذلك (فان قيل) كيف يكون كلاما لله تعالى ولجبريل عليه السلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم (أجيب) بأن الاضافة يكفي فيها أدنى ملابسة فالله سبحانه وتعالى أظهره في اللوح المحفوظ وجبريل عليه السلام بلغه للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بلغه للامة (قليلا ما تؤمنون) منصوب نعتا لمصدر أو زمان محذوف أي ايمانا قليلا أو زمانا قليلا والناصب يؤمنون وما مزيدة للتأكيد وقال ابن عطية ونصب قليلا بفعل مضمر يدل عليه يؤمنون وما يحتمل أن تكون نافية فينتفي ايمانهم البتة ويحتمل أن تكون مصدرية وتتصف بالقلة فهو الايمان اللغوي لا الشرعي لانهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيأ وهو اخلاصهم بالوحدانية عند الاضطرار وافرادهم الخالق بالخلق والربوبية (ولا بقول كاهن) وهو المنجم الذي يخبر عن الاشياء وأعلمها ليس له صحة وقوله تعالى (قليلا ما تذكرون) يأتي فيه ما تقدم في قليلا ما تؤمنون وقال البغوي أراد بالقليل نفي اسلامهم أصلا كقولك لمن لا يزورك قلما تأتينا وأنت تريد ما تأتينا أصلا وقرأ قليلا ما يؤمنون قليلا ما يذكرون ابن كثير وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالياء التحتية فيهما والباقون بالفوقية وخفف الذال حمزة والكسائي وحفص وشددها الباقون وقوله تعالى (تنزيل) خبر لمبتدا مضمر أي هو تنزيل على وجه التنجيم قال البقاعي وأشار الى الرسالة الى جميع الخلق من أهل السموات والارض بقوله تعالى (من رب العالمين) أي موجدهم ومدبرهم بالاحسان اليهم بما يفهم كل منهم من هذا الذكر الذي رباهم به ورتب سبحانه نظمه على وجه سهل على كل منهم يكفي في هدايته اه وهذا يدل على انه صلى الله عليه وسلم أرسل للملائكة وهو الذي ينبغي وان لم يكونوا مكلفين تشريفا لهم زيادة في شرفه بارساله صلى الله عليه وسلم اليهم (ولو تقول) أي كلف نفسه أن يقول مرة من الدهر كذبا (علينا) أي على ما لنا من العظمة (بعض الاقاويل) أي التي لم نقلها أو قلناها ولم نأذن له فيها قال الزمخشري التقول افتعال القول لان فيه

تكلفا من المفتعل وسمى الاقوال المنقولة أقاويل تصغير الها وتحقيرا كقولك الاعاجيب والاضاحيك كأنها جمع افعولة من القول والمعنى لو نسب الينا قولا لم نقله أولم نأذن له فى قوله (لاخذنا) أى لنلنا (منه) أى عقابا (باليمين) أى بالقوة والقدرة *(تنبيه)* الباء على أصلها غير مزيدة والمعنى لاخذناه بقوة منا فالباء حالية والحال من الفاعل وتكون منه فى حكم الزائدة واليمين هنا مجاز عن القوة والغلبة فان قوة كل شئ فى ميامنه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم ومنه قول الشماخ

اذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

وقال أبو جعفر الطبرى هذا الكلام خرج مخرج الاذلال على عادة الناس فى الاخذ بيد من يعاقب ويجوز أن تكون الباء مزيدة والمعنى لاخذنا منه يمينه والمراد باليمين الجارحة كما يفعل بالمقتول صبرا يؤخذ بيمينه ويضرب بالسيف فى جيده مواجهة وهو أشد عليه وقال الحسن رضى الله عنه لقطعنا يده اليمنى وقال الزمخشرى المعنى ولو ادعى علينا شيأ لم نقله لقتلناه صبرا كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول وهو أن يؤخذ بيده فتضرب رقبته وخص اليمين عن اليسار لان القتال اذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذه بيساره واذا أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره الى السيف أخذ بيمينه اه وقال نفطويه المعنى لقبضنا بيمينه عن التصرف وقال السدى ومقاتل رضى الله عنهما المعنى انتقمنا منه بالحق واليمين على هذا بمعنى الحق كقوله تعالى انكم كنتم تأتوننا عن اليمين أى من قبل الحق (ثم لقطعنا) أى بما لنا من العظمة قطعا يتلاشى عنده كل قطع (منه الوتين) أى نياط القلب وهو يتصل من الرأس اذا انقطع مات صاحبه قال أبو زيد وجمعه الوتن وثلاثة أوتنة والموتون الذى قطع وتينه وقال الكلبى هو عرق بين العلباء والحلقوم وهما علباوان بينهما العرق والعلباء عصب العنق وقيل عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر وقال مجاهد رضى الله عنه هو حبل القلب الذى فى الظهر وهو النخاع فاذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه وقال محمد بن كعب رضى الله عنه انه القلب ومراقه وما يليه وقال عكرمة رضى الله عنه ان الوتين اذا قطع لا ان جاع عرف ولا ان شبع عرف وقيل الوتين من مجمع الوركين الى مجمع الصدر بين الترقوتين ثم تنقسم منه سائر العروق الى سائر الجسد ولا يمكن فى العادة الحياة بعد قطعه وقال ابن قتيبة لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد أنه لو كذب لامتناه فكان كمن قطع وتينه ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم مازالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع أبهرى والابهر عرق متصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال هذا أوان يقتلنى السم وحينئذ صرت كمن انقطع أبهره (فما منكم) أى أيها الناس وأغرق فى النفى فقال (من أحد عنه) أى القتل (حاجزين) أى لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه أى الرسول صلى الله عليه وسلم أى لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه *(تنبيه)* من احدا اسم ما ومن زائدة لتأكيد النفى ومنكم حال من أحد وعنه حاجزين خبر ما وجمع لان أحدا فى سياق النفى بمعنى

الجمع وضميرعنه للقتل أوالنبي كامرّ (وانه) أى القرآن (لتذكرة للمتقين) أى لانهم المنتفعون به لاقبالهم عليه اقبال مستفيد (وانا) أى بمالنا من العظمة (لنعلم) أى علما عظيما محيطا (أنّ منكم) اى أيها الناس (مكذبين) بالقرآن ومصدقين فأنزلنا الكتب وأرسلنا الرسل لنظهر منكم الى عالم الشهادة ما كنا نعلم فى الازل غيبا من تكذيب وتصديق فتستحقون بذلك الثواب والعقاب فلذلك وجب فى الحكمة أن نعيد الخلق الى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل الموت لنحكم بينهم فنجازى كلا بما يليق به اظهارا للعدل (وانه) أى القرآن (لحسرة) أى ندامة (على الكافرين) أى اذا رأوا ثواب المصدقين وعقاب المكذبين به (وانه) أى القرآن أو الجزاء يوم الجزاء (لحق اليقين) أى الامر الثابت الذى لا يقبل الشك فهو يقين مؤكد بالحق من اضافة الصفة الى الموصوف وهو فوق علم اليقين وقال ابن عباس رضى الله عنهما انما هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين (فسبح) أى أوقع التنزيه الكامل عن كل شائبة نقص (باسم) أى بسبب علمك بصفات (ربك) أى الموجد والمربى لك والمحسن اليك بأنواع الاحسان (العظيم) أى الذى ملأ ت الاقطار كلها عظمته وزادت على ذلك بما شاءه سبحانه مما لا تسعه العقول وقال ابن عباس رضى الله عنهما أى فصل لربك العظيم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حسابا يسيرا حديث موضوع

(سورة المعارج مكية)

وهى أربع وأربعون آية ومائتان وست عشرة كلمة وألف وواحد وستون حرفا

(بسم الله) أى الذى تنقطع الاعناق والآمال دون علياته (الرحمن) الذى لا مطمع لاحد فى حصر أوصافه (الرحيم) الذى اصطفى من عباده من وفقه فكان من أوليائه (سال سائل) أى دعا داع (بعذاب واقع) فضمن سأل معنى دعا فلذلك عدى تعديته وقيل الباء بمعنى عن كقوله تعالى فاسأل به خبيرا أى عنه أى سأل سائل عن عذاب واقع والاول أولى لان التجوز فى الفعل أولى منه فى الحرف لقوته واختلف فى هذا الداعى فقال ابن عباس رضى الله عنهما هو النضر ابن الحرث حيث قال اللهمّ ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزل سؤاله وقتل يوم بدر صبرا هو وعتبة بن أبى معيط لم يقتل صبرا غيرهما وقيل هو الحرث بن النعمان وذلك أنه لما بلغه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى علىّ من كنت مولاه فعلىّ مولاه ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالابطح ثم قال يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك وأن نصلى خمسا ونزكى أموالنا فقبلناه منك وأن نصوم شهر رمضان فى عام فقبلناه منك وأن نحج فقبلناه منك ثم لم ترض حتى فضلت ابن عمك علينا أفهذا شئ منك أم من الله تعالى فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم والذى لا اله الا هو ما هو الا من الله فولى الحرث وهو يقول اللهمّ ان كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فوالله ما وصل الى ناقته حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره

فقتله

فتنتسله فنزلت وقال الربيع هو أبو جهل وقيل انه قول جماعة من كفار قريش وقيل هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين وقيل هو نبينا صلى الله عليه وسلم استعجل بعذاب الكافرين ويدل عليه قوله تعالى بعد ذلك فاصبر صبرا جميلا أى لا تستعجل فانه قريب وقرأ نافع وابن عامر بغير همز بعد السين والباقون بهمزة مفتوحة بعد السين * (تنبيه) * ما تقدم من الوجهين فى كون سأل ضمن أو ان الباء بمعنى عن هو على القراءة بالهمز وأما على عدمه ففيه وجهان أحدهما أنه لغة فى السؤال يقال سال يسال كخاف يخاف وعين الكلمة واو قال الزمخشرى وهى من لغة قريش والثانى انه من السيل ومعناه اندفع عليهم واد بعذاب وقيل سال واد من أودية جهنم وقوله تعالى (للكافرين) فيه أوجه أحدها أنه يتعلق بسال مضمنا معنى دعا كما مر أى دعا لهم بعذاب واقع الثانى انه يتعلق بواقع واللام للعلة أى نازل لاجلهم الثالث أن يتعلق بمحذوف صفة ثانية للعذاب أى كائن للكافرين الرابع أن يكون جوابا للسائل فيكون خبر مبتدا مضمر أى هو للكافرين الخامس أن تكون اللام بمعنى على أى واقع على الكافرين (ليس له) أى بوجه من الوجوه ولا حيلة من الحيل (دافع) يرده وقوله تعالى (من الله) أى الملك الاعلى الذى لا كفؤ له يجوز أن يتعلق بدافع بمعنى ليس له دافع من جهته اذا جاء وقته لتعلق ارادته به وأن يتعلق بواقع وبه بدأ الزمخشرى أى واقع من عنده (ذى المعارج) أى المصاعد وهى الدرجات التى يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح أو يترقى فيها المؤمنون فى سلوكهم أو فى دار ثوابهم أو مراتب الملائكة أو السموات قال ابن عباس رضى الله عنهما أى ذى السموات سماها معارج الملائكة لان الملائكة يعرجون فيها فوصف نفسه بذلك أو ذى العلو والدرجات الفواضل والنعم لانها تصل الى الناس على مراتب مختلفة قاله ابن عباس وقتادة رضى الله عنهم فالمعارج مراتب انعامه على الخلق وقيل ذى العظمة والعلا وقيل المعارج الغرف أى انه ذو الغرف أى جعل لاوليائه الجنة غرفا وقرأ (تعرج الملائكة) الكسائى بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية وأدغم جيم المعارج فى تاء تعرج هنا السوسى واستضعف بعضهم ذلك من حيث ان مخرج الجيم بعيد من مخرج التاء وأجيب عن ذلك بأن الادغام يكون لمجرد الصفات وان لم يتقاربا فى المخرج والجيم تشارك التاء فى الاستفال والانفتاح والشدة والجملة من تعرج مستأنفة وقوله تعالى (والروح) من عطف الخاص على العام ان أريد بالروح جبريل عليه السلام كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما لقوله تعالى نزل به الروح الامين أو ملك آخر من جنسهم عظيم الخلقة وقال أبو صالح انه خلق من خلق الله كهيئة الناس وليس بالناس وقال قبيصة بن ذؤيب انه روح الميت حين يقبض (اليه) أى مهبط أمره من السماء وقيل هو كقول ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى أى الى الموضع الذى أمرنى به وقيل الى عرشه وعلق بالعروج أو بواقع قوله تعالى (فى يوم) أى من أيامكم وبين عظمه بقوله تعالى (كان) أى كونا هو فى غاية الثبات (مقداره) أى لو كان الصاعد فيه آدميا (خمسين ألف سنة) أى من سنى الدنيا وذلك أن تصعد من منتهى أمر الله تعالى من أسفل الارض السابعة روى عن مجاهد رضى الله عنه أن مقدار هذا خمسين ألف سنة وقال

محمد بن اسحق لو سار بنو آدم من الدنيا الى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة وقال عكرمة وقتادة رضي الله عنهما هو يوم القيامة وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا ليس يعني به أن مقدار طوله هكذا دون غيره لان يوم القيامة ليس له أول وليس له آخر لانه يوم ممدود ولو كان له آخر لكان منقطعا وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين الف سنة وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه انه قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان مقداره خمسين الف سنة فما أطول هذا اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا وقيل معناه لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله تعالى لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة قال عطاء رضي الله عنه ويفرغ الله تعالى في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا وقيل فيه خمسون موطنا على الكافر كل موطن ألف سنة وما ورد ذلك على المؤمن الا كما بين الظهر والعصر وروي عن الكلبي انه قال يقول الله تعالى لو وليت حساب ذلك الملائكة والانس والجن وطوقتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة وأنا أفرغ منه في ساعة من النهار وقال يمان هو يوم القيامة فيه خمسون موطنا كل موطن ألف سنة وفيه تقديم وتأخير كأنه قال ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح اليه (فان قيل) كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة في يوم كان مقداره ألف سنة (أجيب) بأنه يحتمل أن من اسفل العالم الى أعلى العرش خمسين الف سنة ومن اعلى سماء الدنيا الى الارض الف سنة لان عرض كل سماء خمسمائة سنة وما بين اسفل الى قرار الارض خمسمائة فقوله في يوم من ايام الدنيا وهو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه الى سماء الدنيا ومقدار خمسين ألف سنة لو صعدوا الى أعلى العرش وقوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) متعلق كما قال الرازي بسأل سائل لان استعجالهم بالعذاب كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصبر والمعنى جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر على أذى قومك والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله تعالى وقيل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى من هو وقال ابن زيد والكلبي رضي الله عنهم هذه الآية منسوخة بالامر بالقتال (انهم) أي الكفار (يرونه) أي ذلك اليوم الطويل أو عذابه (بعيدا) أي زمن وقوعه لانهم يرونه غير ممكن أو يفعلون أفعال من يستبعده (ونراه) أي لما لنا من العظمة التي قضت بوجوده وهو علينا هين (قريبا) سواء أريد بذلك قرب الزمان أو قرب المكان فهو هين على قدرتنا وهو آت لا محالة وكل آت قريب والقريب والبعيد عندنا على حد سواء وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يوم تكون السماء) متعلق بمحذوف أي يقع فيه من الاهوال (كالمهل) أي كدردي الزيت وعن ابن مسعود رضي الله عنه كالفضة البيضاء في تلونها (وتكون الجبال) أي التي هي أشد الارض وأثقل ما فيها (كالعهن) أي كالصوف في الخفة والطيران بالريح وقيل أول ما تتفرق الجبال تصير رملا ثم عهنا منفوشا ثم هباء منثورا منبثا

ولا

(ولا يسأل) أى من شدة الاهوال (حميم حميما) أى قريب فى غاية القرب والصداقة قريبا مثله عن شئ من الاشياء لفرط الشواغل ولانه قد كشفت لهم انه لاتغنى نفس عن نفس شيأ وانه قد تقطعت الاسباب وتلاشت الانساب وعلم انه لاعز الا بالتقوى (يبصرونهم) أى يبصرهم بهم مبصر فلا يخفى أحد على أحد وان بعد مكانه (يود المجرم) أى يتمنى الكافر أو هذا النوع سواء كان كافرا أم مسلما عاصيا علم أنه يعذب بعصيانه (لو) بمعنى أن (يفتدى) أى يفدى نفسه (من عذاب يومئذ) أى يوم اذ كانت هذه المخاوف وقرأ نافع والكسائى بفتح الميم والباقون بكسرها (ببنيه) أى بأقرب الناس اليه وأعلقهم بقلبه لشدة ما يرى * ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعزمن يلزمه نصره والذب عنه اتبعه ما يليه فى الرتبة والمودة بقوله تعالى (وصاحبته) أى زوجه التى يلزمه الذب عنها الاسيما عند العرب من أقبح العار ولكونه دائما معها * ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة أتبعها الشقيق الذى هو عليه شفيق بقوله تعالى (وأخيه) أى الذى له به النصرة على من يريد قال الشاعر

أخاك أخاك ان من لا أخاله * كأنزل الهيجا بغير سلاح

*ولما كان من بقى من الاقارب بعد ذلك متقاربين فى الرتبة ذكر أقربهم بقوله تعالى (وفصيلته) أى عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه وقال ثعلب الفصيلة الآباء الادنون وقال أبو عبيدة رضى الله عنه الفخذ وقال مجاهد وابن زيد رضى الله عنهم عشيرته الاقربون (التى تؤويه) أى تضمه اليها عند الشدائد وتحميه لانه أقرب الناس اليها وأعزهم عليها * ولما خصص عمم بقوله تعالى (ومن فى الارض) أى من الثقلين وغيرهم سواء كان فيهم صديق لاصبر عنه ولا بد فى كل حال منه أم لا ثم أكد ذلك بقوله تعالى (جميعا) وقوله تعالى (ثم ينجيه) أى ذلك الافتداء عطف على يفتدى وقوله تعالى (كلا) رد وردع وزجر لما يوده وقال القرطبى وانها تكون بمعنى حقا وبمعنى لا وهى هنا تحتمل الامرين فاذا كانت بمعنى حقا كان تمام الكلام ينجيه واذا كانت بمعنى لا كان تمام الكلام عليها اذ ليس من عذاب الله افتداء * ولما كان الاضمار قبل الذكر لتعظيم ذلك المضمر أشار الى أنه مستحضر فى الذهن لا يغيب قال تعالى (انها) أى النار وان لم يجر لها ذكر لدلالة لفظ عذاب عليها وقيل الضمير للقصة وقيل مبهم يفسره قوله تعالى (لظى) أى ذات اللهب الخالص المتناهى فى الحر اسم لجهنم تتلظى أى تتوقد فتأكل بسببه بعضها بعضا ان لم تجد ما تأكله وتأكل كل ما وجدته كائنا ما كان وقوله تعالى (نزاعة للشوى) جمع شواة وهى جلدة الرأس أى شديدة النزع لجلود الرؤس وقال فى القاموس اليدان والرجلان والاطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل اه وقرأ حفص بالنصب على الاختصاص والحال المؤكدة والمستقلة على ان لظى متلظية والباقون بالرفع على انها خبران (تدعو من أدبر وتولى) عن الايمان تقول الى يا مشرك الى يا فاسق ونحو هذا ثم تلتقطهم التقاط الطير للحب * ولما كانت الدنيا والآخرة ضرتين فكان الاقبال على أحدهما دالا على الاعراض عن الاخرى قال تعالى دالا على ادباره بقلبه (وجمع) أى كل ما كان منسوبا الى الدنيا (فأوعى) أى جعل ما جمعه فى وعاء وكنزه حرصا وطول

أمل ولم يعط حق الله تعالى منه فكان همه الاعطاء لا ابطاء ما وجب من الحق اقبالا على الدنيا واعراضا عن الآخرة وقرأ لظى وللشوى وتولى فأوعى حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح (ان الانسان) أى الجنس عبر به لما له من الانس بنفسه والرؤية لمحاسنها والنسيان لربه ولدينه (خلق هلوعا) أى جبل جبلة هو فيها بليغ الهلع وهو أفحش الجزع مع شدة الحرص وقلة الصبر والشح على المال والسرعة فيما لا ينبغى وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه الحريص على ما لا يحل له وروى عنه أن تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى (اذا مسه) أى أدنى مس (الشر) أى هذا الجنس وهو ما تطاير شرره من الضرر (جزوعا) أى عظيم الجزع وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقد نصفين ويتفتت (واذا مسه) كذلك (الخير) هذا الجنس وهو ما يلائمه فيجمعه من السعة فى المال وغيره من أنواع الرزق (منوعا) أى مبالغا فى الامساك عما يلزمه من الحقوق للانهماك فى حب العاجل وقصور النظر عليه وقوفا مع المحسوس لغلبة الجمود والبلادة وهذا الوصف ضد الايمان لانه نصفان شكر وصبر (فان قيل) حاصل هذا الكلام انه نفور عن المضار طالب للراحة وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه الله تعالى عليه (أجيب) بأنه انما ذمه عليه لقصور نظره على الامور العاجلة والواجب عليه أن يكون شاكرا راضيا فى كل حال وقوله تعالى (الا المصلين) استثناء للموصوفين بالصفات الآتية من المطبوعين على الاحوال المذكورة قبل مضادة تلك الصفات لها من حيث انها دالة على الاستغراق فى طاعة الحق والاشفاق على الخلق والايمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وايثار العاجل على الآجل وتلك ناشئة عن الانهماك فى حب العاجل وقصور النظر عليها (الذين هم) أى بكلية ضمائرهم وظواهرهم (على صلاتهم) أى التى هى معظم دينهم وهى النافعة لهم لا لغيرهم بما أفادته الاضافة والمراد الجنس الشامل لجميع الانواع الا أن معظم المقصود الفرض ولذلك عبر بالاسم الدال على الثبات فى قوله تعالى (دائمون) أى لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها وقال عقبة بن عامر هم الذين اذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا والدائم الساكن ومنه نهى عن البول فى الماء الدائم أى الساكن وقال ابن جريج والحسن هم الذين يكثرون فعل التطوع منها (فان قيل) كيف قال تعالى على صلاتهم دائمون وقال تعالى فى موضع آخر على صلواتهم يحافظون (أجيب) بأن دوامهم عليها أن لا يتركوها فى وقت ومحافظتهم عليها ترجع الى الاهتمام بحالها حتى تأتى على أكمل الوجوه من المحافظة على شرائطها والاتيان بها فى الجماعة وفى المساجد الشريفة وفى تفريغ القلب عن الوسواس والرياء والسمعة وأن لا يلتفت يمينا ولا شمالا وأن يكون حاضر القلب فاهما للاذكار مطلعا على حكم الصلاة متعلق القلب بدخول أوقات الصلاة * ولما ذكر تعالى زكاة الروح أتبعه زكاة عديلها فقال تعالى مبينا للرسوخ فى الوصف بالعطف بالواو (والذين فى أموالهم) التى من الله سبحانه بها عليهم (حق معلوم) أى من الزكوات وجميع النفقات الواجبة وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أدى زكاة ماله فلا جناح عليه أن لا يتصدق (للسائل) أى الذى

يسأل (والمحروم) أى الذى لايسأل فيحسب غنيا فيحرم فهو يتلظى بناره في ليله ونهاره ولامفزع له بعدربه المالك لعلانيته وسره الاالى افاضة مدامعه بذلة وانكسار وهذا من الله تعالى حث على تفقد أرباب الضرورات ممن لا كسب له ومن افتقر بعد الغنى وقد كان للسلف الصالح في هذا قصب السبق حكى عن زين العابدين انه لمامات وجد فى ظهره آثار سواد كانها السيور فعجبوا منها فقال بعد موته نسوة أرامل كان شخص يأتى الينا ليلا بقرب الماء على ظهره وأجربة الدقيق ففقدناه واحتجنا فعلوا أنه هو وان تلك السيور من ذلك وحكى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما ان شخصا رآه ماشيا فى زمن خلافته فى الليل فتبعه فجاء الى بيت نسوة أرامل فقال أعندكن ماء والا املأ لكن فأعطينه جرة فأخذها وذهب فملأها على كتفه وأتى بها اليهن والحكايات عنهم فى هذا كثيرة (والذين يصدقون) أى يوقعون التصديق لمن يخبرهم ويجددونه كل وقت (بيوم الدين) أى الجزاء الذى مامثله يوم وهو يوم القيامة الذى يقع الحساب فيه على النقير والقمطير والتصديق به حق التصديق الاستعداد له بالاعمال الصالحة فالذين يعملون لذلك اليوم هم العمال وأما المصدقون بمجرد الاقوال فلهم الوبال وان أنفقوا أمثال الجبال (والذين هم) أى بجميع ضمائرهم وظواهرهم (من عذاب ربهم) أى المحسن اليهم لامن عذاب غيره فان المحسن أولى بأن يخشى ولومن قطع احسانه (مشفقون) أى خائفون فى هذه الدار خوفا عظيما هو فى غاية الثبات من أن يعذبهم فى الآخرة أو فى الدنيا أو فيهما فهم لذلك لا يفعلون الامايرضيه سبحانه (ان عذاب ربهم) أى الذى هم مغمورون باحسانه وهم عارفون بأنه قادر على الانتقام ولو بقطع الاحسان (غير مأمون) أى لا ينبغى لاحد أن يأمنه بل يجوز أن يحل به وان بالغ فى الطاعة لان الملك مالك وهو تام الملك له أن يفعل ماشاء ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن موجباته غاية الابعاد ولم يزل مترجحا بين الخوف والرجاء (والذين هم) أى ببواطنهم الغالبة على ظواهرهم (لفروجهم) أى سواء أكانوا ذكورا أم اناثا (حافظون) أى حفظا ثابتا دائما عن كل مانهى الله تعالى عنه (الا على أزواجهم) أى من الحرائر بعقد النكاح وقدمهن لشرفهن وشرف الولد بهن ثم أتبعه قوله تعالى (أوماملكت أيمانهم) أى من السرارى التى هى محل الحرث والنسل واللاتى هن أقل عقلا من الرجال ولهذا عبر بما التى هى فى الاغلب لغير العقلاء وفى ذلك اشارة الى اتساع النطاق فى احتمالهن (فانهم) أى بسبب اقبالهم بالفروج عليهن وازالة الحجاب من اجل ذلك (غير ملومين) أى فى الاستمتاع بهن من لائم ما كما نبه عليه البناء للمفعول فهم يصحبونهن للتعفف وصون النفس وابتغاء الولد للتعاون على طاعة الله تعالى واكتفى فى مدحهم بنفى اللوم لاقباله على تحصيل ماله من المرام (فمن ابتغى) أى طلب وعبر بصيغة الافتعال لان ذلك لا يقع الاعن اقبال عظيم من النفس واجتهاد فى الطلب وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وراء ذلك) أى شيأ من هذا خارجا عن هذا الامر الذى أحله الله تعالى له والذى هو أعلى المراتب فى أمر النكاح وقضاء اللذة وأحسنها وأجملها (فأولئك) أى الذين هم

فى الحضيض من الدناءة وغاية البعد عن مواطن الرحمة (هم) أى بضمائرهم وظواهرهم (العادون) اى المختصون بالخروج عن الحد المأذون فيه (والذين هم لاماناتهم) أى من كل ما ائتمنهم الله تعالى عليه من حقه وحق غيره وقرأ ابن كثير بغير ألف بعد النون على التوحيد والباقون بالالف على الجمع (وعهدهم) أى ما كان من الامانات بربط وتوثيق (راعون) أى حافظون لها معترفون بها على وجه نافع غير ضار (والذين هم) أى بغاية ما يكون من توجه القلوب (بشهاداتهم) التى شهدوا بها أو يستشهدون بها بطلب أو غيره وتقديم المعمول اشارة الى أنهم فى فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها كأنهم لاشاغل لهم سواها (قائمون) أى يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام والحسن أداء من هو متهيئ لها واقف فى انتظارها وقرأ حفص بألف بعد الدال على الجمع اعتبارا بتعدد الانواع والباقون بغير ألف على التوحيد اذ المراد الجنس قال الواحدى والافراد أولى لانه مصدر فيفرد كما تفرد المصادر وان أضيف الى الجمع كصوت الحمير قال أكثر المفسرين يقومون بالشهادة على من كانت عليه من قريب وبعيد يقومون بها عند الحكام ولا يكتمونها وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بشهاداتهم أن الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله (والذين هم على صلاتهم) أى من الفرض والنفل (يحافظون) أى يبالغون فى حفظها ويجددونه حتى كأنهم يبادرونها الحفظ ويسابقونها فيه فيحفظونها ويحفظهم ويسابقون غيرهم فى حفظها وتقدم ان المداومة غير المحافظة فدوامهم عليها محافظتهم على أوقاتها وشروطها وأركانها ومستحباتها فى ظواهرها وبواطنها من الخشوع والمراقبة وغير ذلك من خلال الاحسان التى اذا فعلوها كانت ناهية لفاعلها ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فتحمل على جميع هذه الاوامر وتبعد عن اضدادها فالدوام يرجع الى نفس الصلاة والمحافظة الى أحوالها ذكره القرطبى * ولما ذكر تعالى خلالهم أتبعه ما أعطاهم فقال عز من قائل مستأنفا أو منتجا من غير فاء اشارة الى أن رحمته هى التى أوصلتهم الى ذلك من غير سبب منهم فى الحقيقة (أولئك) أى الذين فى غاية العلو لما لهم من الاوصاف العالية (فى جنات) أى فى الدنيا والآخرة أما فى الآخرة فواضح وأما فى الدنيا فلانهم لما جاهدوا فيه باتعاب أنفسهم فى هذه الاوصاف حتى تخلقوا بها أعطاهم بمباشرتها الذاذات من أنس القرب وحلاوة المناجاة لايساويها شئ اصلا والجنة محل اجتمع فيه جميع الراحات والمستلذات والسرور وانتفى عنه جميع المكروهات والشرور وضدها النار وزادهم على ذلك بقوله تعالى (مكرمون) معبرا باسم المفعول اشارة الى عموم الاكرام من الخالق والخلق الناطق وغيره لانه سبحانه قضى بأن يعلى مقدارهم فيكرمهم بأنواع الكرامات فيتلقاهم بالبشرى حين الموت وفى قبورهم ومن حين قيامهم من قبورهم الى دخولهم الى قصورهم هذا حال المؤمنين وأما حال الكافرين فقال الله تعالى فى حقهم (فما للذين كفروا) وقف أبو عمرو على الالف بعد الميم والكسائى يقف على الالف وعلى اللام ووقف الباقون على اللام وأما الابتداء فالجميع يبتدؤن أول الكلمة أى أى شئ من السعادات للذين ستروا مرائى عقولهم عن الاقرار بما يعون هذا

الكلام الذى هو أوضح من الشمس حال كونهم (قبلك) أى نحوك أيها الرسول الكريم وفيما أقبل عليك (مهطعين) أى مسرعين مع مد الاعناق وادامة النظر اليك فى غاية العجب من مقالك هيئة من يسعى الى أمر لا حياة له بدونه (عن) أى متجاوزين اليك مكانا عن جهة (اليمين) أى منك حيث يتيمنون به (وعن الشمال) أى منك وان كانوا يتشاءمون به وقوله تعالى (عزين) حال من الذين كفروا وقيل من الضمير فى مهطعين فتكون حالا متداخلة أى جماعات جماعات وحلقا حلقا متفرقين فرقا شتى أفواجا لا يتهالون ليأتوا جميعا جمع عزة وأصلها عزوة لان كل فرقة تعتزى الى غير ما تعتزى اليه الاخرى فهم متفرقون قال الكميت

ونحن وجندل باغ تركنا * كتائب جندل شتى عزينا

وجمع عزة جمع سلامة شذوذا وقيل كان المستهزؤن خمسة أرهط روى ان المشركين كانوا يجتمعون حول النبى صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ويستهزؤن به ويكذبونه ويقولون ان دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فندخلها قبلهم فرد الله تعالى عليهم بقوله عز من قائل (أيطمع) أى هؤلاء البعداء البغضاء وعبر بالطمع اشارة الى أنهم بلغوا الغاية فى السفه لكونهم طلبوا أعز الاشياء من غير سبب تعاطوه ولما كان اتيانهم على هيئة التفرق من غير انتظار جماعة لجماعة قال تعالى (كل امرئ منهم) أى على انفراده (أن يدخل) أى وهو كافر من غير ايمان بزكيه كما يدخل المسلم فيستوى المسيء والمحسن (جنة نعيم) أى لاشئ فيها غير النعيم وقوله تعالى (كلا) ردع لهم عن طمعهم ودخولهم الجنة أى لا يكون ما طمعوا فيه أصلا لان ذلك تمن فارغ لا سبب له بما دل عليه التعبير بالطمع دون الرجاء ثم علل ذلك بقوله تعالى (انا خلقناهم) أى بالقدرة التى لا يقدر أحد أن يقاومها (مما يعلمون) اى انهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة كما خلق سائر جنسهم فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة وانما تستوجب بالايمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى وقيل كانوا يستهزؤن بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى انا خلقناهم مما يعلمون أى من القذر وهو منصبهم الذى لا منصب أوضع منه ولذلك أبهم وأخفى اشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره فلا يليق بهم هذا التكبر ويدعون التقدم ويقولون ندخل الجنة قبلهم قال قتادة فى هذه الآية انما خلقت يا ابن آدم من قذر فاتق الله وروى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب بن أبى صفرة يتبختر فى مطرف خز وجبة خز فقال له يا عبد الله ما هذه المشية التى يبغضها الله تعالى فقال له أتعرفنى قال نعم أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وانت فيما بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته * (فائدة) * قال ابن عربى فى الفتوحات خلق الله الناس على أربعة أقسام قسم لا من ذكر ولا من انثى وهو آدم عليه السلام وقسم من ذكر فقط وهو حواء وقسم من أنثى فقط وهو عيسى عليه السلام وقسم من ذكر وأنثى وهو بقية الناس (فلا) زيدت فيه لا (أقسم برب) أى سيد ومبدع ومدبر (المشارق) أى التى تشرق الشمس والقمر والكواكب السيارة كل يوم فى موضع منها على المنهاج الذى دبره والطريق والقانون الذى أتقنه وبحره ستة أشهر صاعدة وستة أشهر هابطة

(والمغارب) كذلك وهي التي ينشأ عنها الليل والنهار والفصول الاربعة فكان به اصلاح العالم بمعرفة الحساب واصلاح المآكل والمشارب وغير ذلك من المآرب فيوجد كل من الملوين بعد ان لم يكن والنبات من النجم والشجر كذلك عادة مستمرة دالة على انه تعالى قادر على الايجاد والاعدام لكل ما يريده كما يريده من غير كلفة ما كما قال تعالى (انا) أي على ما لنا من العظمة (لقادرون على أن نبدل) أي تبديلا عظيما بما لنا من الجلالة عوضا عنهم (خيرا منهم) أي بالخلق أو بتحويل الوصف فيكونون أشد بطشا في الدنيا وأكثر أموالا وأولادا وأعلى قدرا وأكثر حشما وجاها وخدما فيكونون عندك على قلب واحد في سماع قولك وتوقيرك وتعظيمك والسعي في كل ما يشرح صدرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء والتصفيق والصفير وكل ما يضيق به صدرك وقد فعل ذلك سبحانه بالمهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان بالسعة في الرزق بأخذ أموال الجبارين من كسرى وقيصر والتمكين في الارض حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة ففرجوا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا في مرضاته الانفس والاموال (وما نحن بمسبوقين) أي لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده بوجه من الوجوه (فذرهم) أي اتركهم ولو على أسوأ أحوالهم (يخوضوا) أي في باطلهم من مقالهم وفعالهم (ويلعبوا) أي يفعلوا في دنياهم فعل اللاعب الذي لا فائدة لفعله الا ضياع الزمان واشتغل أنت بما أمرت به (حتى يلاقوا) أي يلقوا (يومهم الذي يوعدون) وهو يوم كشف الغطاء الذي أول مجيئه عند الغرغرة وتناهيه النفخة الثانية ودخول كل من الفريقين في داره ومحل استقراره وهذه الآية منسوخة بآية السيف كما قاله البقاعي وابن عادل وقوله تعالى (يوم يخرجون) يجوز أن يكون بدلا من يومهم أو منصوبا باضمار أعني (من الاجداث) أي القبور التي صاروا بتغييبهم فيها تحت وقع الحوافر والخف فهم بحيث لا يدفعون شيأ يفعل بهم بل هم كلهم في فم ماضغ فان الجدث القبر والجدثة صوت الحافر والخف ومضغ اللحم وقوله تعالى (سراعا) أي نحو صوت الداعي ذاهبين الى المحشر حال من فاعل يخرجون جمع سريع كظراف في ظريف وقرأ قوله تعالى (كأنهم الى نصب) ابن عامر وحفص بضم النون والصاد والباقون بفتح النون واسكان الصاد على أنه مصدر بمعنى المفعول كما تقول هذا نصب عيني وضرب الامير والنصب كل ما نصب فعبد من دون الله (يوفضون) أي يسرعون الى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون الى أنصابهم وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الى نصب أي الى غاية وهي التي ينتصب اليها بصرك وقال الكلبي هو شيء منصوب علم أو راية وقال الحسن كانوا يبتدرون اذا طلعت الشمس الى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى لا يلوي أولهم على آخرهم وقوله تعالى (خاشعة) حال اما من فاعل يوفضون وهو أقرب أو من فاعل يخرجون وفيه بعد منه وفيه تعدد الحال لذي حال واحدة وفيه الخلاف المشهور وقوله تعالى (أبصارهم) فاعل والمعنى ذليلة خاضعة لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله تعالى (ترهقهم) أي تغشاهم فتعمهم وتحمل عليهم فتكلفهم كل عسر وضيق على وجه الاسراع عليهم (ذلة) أي ضد ما كانوا عليه في الدنيا

لان من تعزز فى الدنيا على الحق ذل فى الآخرة ومن ذل للحق فى الدنيا عز فى الآخرة (ذلك) أى الامر الذى هو فى غاية ما يكون من علو الرتبة فى العظمة (اليوم الذى كانوا يوعدون) أى يوعدون فى الدنيا ان لهم فيه العذاب وأخرج الخبر بلفظ الماضى لأن ما وعد الله تعالى به فهو حق كائن لامحالة وهذا هو العذاب الذى سألوا عنه اول السورة فقد رجع آخرها على أولها وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة سأل سائل أعطاه الله تعالى ثواب الذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون حديث موضوع

(سورة نوح عليه السلام مكية)

وهى سبع وعشرون آية ومائتان وأربع وعشرون كلمة وتسعمائة وتسعة وعشرون حرفا

(بسم الله) ذى الجلال والاكرام (الرحمن) الذى عم بما أفاضه من ظاهر الانعام (الرحيم) الذى حفظ أولياءه من الابتداء الى الختام ولما ختمت سأل بالانذار للكفار وكانوا عباد أوثان بعذاب الدنيا والآخرة أتبعها أعظم عذاب كان فى الدنيا على تكذيب الرسل بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى (انا) أى بمالنا من العظمة البالغة (أرسلنا نوحا الى قومه) أى الذين كانوا فى غاية القوة على القيام بما يحاولونه وهم بصدد أن يجيبوه ويكرموه لما بينهم من القرب بالنسب واللسان وكانوا جميع أهل الارض من الآدميين روى قتادة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أول نبى أرسل نوح عليه السلام وأرسل الى جميع أهل الارض ولذلك لما كفروا أغرق الله تعالى أهل الارض جميعا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام قال وهب وكل مؤمنون أرسل الى قومه وهو ابن خمسين سنة وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وهو ابن أربعين سنة وقال عبد الله بن شداد بعث وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة ويجوز فى قوله تعالى (أن أنذر) أى حذر تحذيرا عظيما (قومك) أى الاستمرار على الكفر أن تكون أن مفسرة فلا يكون لها موضع من الاعراب لان فى الارسال معنى الامر فلا حاجة الى اضمار ويجوز أن تكون المصدرية أى أرسلناه بالانذار وقال الزمخشرى والمعنى أرسلناه بأن قلنا له أنذر قومك أى أرسلناه بالامر بالانذار اهـ وهذا الذى قدره جواب عن سؤال وهو أن قولهم ان أن المصدرية يجوز أن توصل بالامر مشكل لانه ينسبك منها ومما بعدها مصدر وحينئذ فتفوت الدلالة على الامر ألا ترى أنك اذا قدرت كتبت اليه بأن قم كتبت اليه القيام تفوت الدلالة على الامر حال التصريح بالمصدر فينبغى أن يقدر كما قاله الزمخشرى أى كتبت اليه بأن قلت له قم أى كتبت اليه بالامر بالقيام وقال القرطبى أى بأن أنذر قومك (من قبل أن يأتيهم) أى على ماهم عليه من الاعمال الخبيثة (عذاب أليم) أى عذاب الآخرة أو الطوفان (قال) أى نوح عليه السلام (ياقوم) فاستعطفهم بتذكيرهم انه أحدهم يهمه ما يهمهم (انى لكم نذير) أى مبالغ فى انذاركم (مبين) أى أمرى بين فى نفسه بحيث انه صار فى شدة وضوحه كانه مظهر لما يتضمنه

منادبذلك للقريب والبعيد والفطن والغبي ويجوز في قوله تعالى (أن اعبدوا الله) أي الملك الاعظم الذي له جميع الكمال أن تكون أن تفسيرية لنذير وأن تكون مصدرية والكلام فيها كما تقدم في أختها وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر النون والباقون بالضم والمعنى وحدوا الله (واتقوه) أي اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية تمنعكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه فلا تتحركوا حركة ولا تسكنوا سكنة الا في طاعته وهذا هو العمل الواقي من كل سوء (وأطيعون) أي لاعرفكم ما تقصر عنه عقولكم من صفات معبودكم ودينكم ودنياكم ومعادكم وأدلكم على اجتلاب آداب تهديكم واجتناب شبه ترديكم ففي طاعتي فلاحكم برضا الملك عنكم وقوله (يغفر لكم) جواب الامر وفي من في قوله (من ذنوبكم) أوجه أحدها أنها تبعيضية الثاني أنها لابتداء الغاية الثالث أنها مزيدة قال ابن عطية وهو مذهب كوفي ورد بأن مذهبهم ليس ذلك لانهم يشترطون تنكير مجرورها ولا يشترطون غيره والاخفش لا يشترط شيأ فالقول بزيادتها هنا ماش على قوله لا على قولهم قاله القرطبي وقيل لا يصح كونها زائدة لان من لا تزاد في الموجب وانما هي هنا للتبعيض وهو بعض الذنوب وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين (ويؤخركم) أي بلا عذاب تأخيرا ينفعكم (الى أجل مسمى) أي قد سماه الله تعالى وعلمه قبل ايجادكم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه فيكون موتكم على العادة أو يأخذكم جميعا فالامور كلها قد قدرت وفرغ من ضبطها الاحاطة العلم والقدرة فلا يزاد فيها ولا ينقص انما أن الارسال انما هو مظهر لما قدره في الازل ولا يظن أنه قالب للاعيان بتغيير ما سبق به القضاء من الطاعة والعصيان وقرأ ويؤخركم ولا يؤخر ورش بابدال الهمزة واوا وقفا ووصلا وحمزة في الوقف دون الوصل والباقون بالهمز (ان أجل الله) أي الذي له الكمال كله فلا راد لامره (اذا جاء لا يؤخر) أي اذا جاء الموت لا يؤخر بعذاب كان أو بغير عذاب وأضاف الاجل اليه سبحانه لانه الذي أثبته وقد يضاف الى القوم كقوله تعالى اذا جاء أجلهم لانه مضروب لهم (لو كنتم تعلمون) أي لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك ولكنهم لانهماكهم في حب الدنيا كأنهم شاكون في الموت * ولما كان عليه السلام أطول الانبياء عمرا وكان قد طال نصحه لهم ولم يزدادوا الا طغيانا وكفرا (قال) مناديا لمن أرسله لانه تحقق أن لا قريب منه غيره (رب) أي يا سيدي وخالقي (اني دعوت) أي أوقعت الدعاء الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة (قومي) أي الذين هم جديرون باجابتي لمعرفتهم بي وقربهم مني وفيهم قوة المحاولة لما يريدون (ليلا ونهارا) أي دائما متصلا لا أفتر عن ذلك وقيل معناه سرا وجهرا (فلم يزدهم دعائي) أي شيأ من أحوالهم التي كانوا عليها (الا فرارا) أي بعدا واعراضا عن الايمان كأنهم حمر مستنفرة استثناء مفرغ وهو مفعول ثان وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء والباقون بفتحها وهم على مراتبهم في المد (واني كلما) أي على تكرار الاوقات وتعاقب الساعات (دعوتهم) أي الى الاقبال اليك بالايمان بك والاخلاص لك (لتغفر لهم) أي ليؤمنوا فتمحو ما فرطوا فيه في حقك فافرطوا الاجله في التجاوز في الحد محوا بالغا فلا يبقى لشيء من ذلك عين ولا أثر حتى لا تعاقبهم عليه ولا تعاتبهم

(جعلوا أصابعهم) كراهة منهم واحتقارا للداعى (فى آذانهم) حقيقة لئلا يسمعوا الدعاء اشارة الى أنا لا نريد أن نسمع ذلك منك فان ابيت الا الدعاء فانا لا نسمع لسد أسماعنا ودل على الافراط فى كراهة الدعاء بما ترجم عنه قوله (واستغشوا ثيابهم) أى أوجدوا التغطية لرؤسهم بثيابهم لئلا يبصروه كراهة للنظر الى وجه من ينصحهم فى دين الله تعالى وهكذا حال النصحاء مع من ينصحونه دائما (وأصروا) أى اكبوا على الكفر وعلى المعاصى من أصر الحمار على العانة وهى القطيع من الوحش اذا صر أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها (واستكبروا) أى أوجدوا الكبر طالبين له راغبين فيه وأكد ذلك بقوله (استكبارا) تنبيها على أن فعلهم مما ينابذ الحكمة وقد أفادت هذه الآيات بالصريح فى غير موضع انهم عصوا نوحا عليه السلام وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهرا بتعطيل الاسماع والابصار وباطنا بالاصرار والاستكبار (ثم انى دعوتهم جهارا) أى معلنا بالدعاء قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بأعلى صوتى (ثم انى أعلنت لهم) أى كررت لهم الدعاء معلنا وقرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بسكونها (وأسررت لهم اسرارا) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سرا بينى وبينه أدعوه الى عبادتك وتوحيدك (فقلت) أى فى دعائى لهم (استغفروا ربكم) أى اطلبوا من المحسن اليكم المبدع لكم المدبر لاموركم أن يمحو ذنوبكم أعيانها وآثارها بأن تؤمنوا بالله وتتقوه (انه كان) أى أزلا وأبدا ودواما سرمدا (غفارا) أى متصفا بصفة الستر على من رجع اليه (يرسل السماء) أى المظلة لان المطر منها ويجوز أن يراد السحاب والمطر (عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين) أى ويكثر أموالكم وأولادكم وذلك أن قوم نوح عليه السلام لما كذبوه زمانا طويلا حبس الله تعالى عنهم المطر وعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أموالهم ومواشيهم فقال لهم نوح استغفروا ربكم من الشرك أى استدعوه المغفرة بالتوحيد يرسل السماء عليكم مدرارا روى الشعبى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما خرج يستسقى بالناس فلم يزد على الاستغفار فلما نزل قيل يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت فقال لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التى بها يستنزل القطر ثم قرأ هذه الآية شبه الاستغفار بالانواء الصادقة التى لا تخطئ وعن الحسن أن رجلا شكا اليه الجدب فقال استغفر الله وشكا اليه آخر الفقر وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح أتاك رجال يشكون أبوابا ويسألون أنواعا فأمرتهم كلهم بالاستغفار فتلا الآية وقال القشيرى من وقعت له حاجة الى الله تعالى فلن يصل الى مراده الا بتقديم الاستغفار وقال ان عمل قوم نوح كان بضد ذلك كلما ازداد نوح عليه السلام فى الضمان ووجوه الخير والاحسان ازدادوا فى الكفر والنسيان (ويجعل لكم) أى فى الدارين (جنات) أى بساتين عظيمة وأعاد العامل للتأكيد فقال (ويجعل لكم أنهارا) أى يخصكم بذلك عمن لم يفعل ذلك فان من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم وقال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا (مالكم لا ترجون لله) أى الملك الذى له الامر كله (وقارا) أى مالكم لا تأملون له توقيرا أى تعظيما والمعنى مالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله اياكم فى دار الثواب ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة الوقار فان بالمعرفة تزكو الاعمال وتصلح الاقوال انما سبق أبو بكر رضى الله عنه بشئ وقر فى صدره وانما يصح تعظيمه سبحانه بأن لا ترى لك عليه حقا ولا تنازع له اختيارا وتعظم أمره ونهيه بعدم المعارضة (وقد) أى والحال أنه قد أحسن اليكم مرة بعد مرة بما لا يقدر عليه غيره فدل ذلك على تمام قدرته ثم لم يقطع احسانه عنكم فاستحق أن تؤمنوا به لانه هل جزاء الاحسان الا الاحسان ورجاء لدوام احسانه وخوفا من قطعه لانه (خلقكم) أى أوجدكم من العدم مقدرين (أطوارا) أى تارات عناصر أولا ثم مركبات تغذى الحيوانات ثم اخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما وأعصابا ودماء ثم خلقا آخر تاما ناطقا ذكرانا وإناثا الى غير ذلك من الامور الدالة على قدرته على كل مقدور ومن قدر على هذا ابتداء كان على الاعادة أعظم قدرة (ألم تروا) أى أيها القوم (كيف خلق الله) أى الذى له العلم التام والقدرة البالغة والعظمة الكاملة (سبع سموات) هن فى غاية العلو والسعة والاحكام والزينة (طباقا) أى متطابقة بعضها فوق بعض وكل واحدة فى التى تليها محيطة بها ما لها من فروج ولا يكون تمام المطابقة كذلك الا بالاحاطة من كل جانب (وجعل القمر) أى الذى ترونه (فيهن نورا) أى لامعا منتشرا كاشفا للمرئيات أحد وجهيه يضىء لاهل الارض والثانى لاهل السموات قال الحسن يعنى فى السماء الدنيا كما تقول أتيت بنى فلان وانما أتيت بعضهم وفلان متوار فى دور بنى فلان وهو فى دار واحدة وبدأ به لقربه وسرعة حركته وقطعه جميع البروج فى كل شهر وغيبوبته فى بعض الليالى ثم ظهوره وذلك أعجب فى القدرة ولما كان نوره مستفادا من نور الشمس قال تعالى (وجعل) أى فيها (الشمس) أى فى السماء الرابعة (سراجا) أى نورا عظيما كاشفا لظلمة الليل عن وجه الارض وهى فى السماء الرابعة كما مر وقيل فى الخامسة وقيل فى الشتاء فى الرابعة وفى الصيف فى السابعة روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وابن عمر أن الشمس والقمر وجوههما مما يلى السماء وأقفيتهما الى الارض وجعلهما سبحانه آية على رؤية عباده المؤمنين له فى الجنة (والله) أى الملك الاعظم الذى له الامر كله (أنبتكم) أى بخلق أبيكم آدم عليه السلام (من الارض) أى كما ينبت الزرع وعبر بذلك تذكيرا لنا بما كان من خلق أبينا آدم عليه السلام لانه أدل على الحدوث والتكون من الارض (نباتا) أى أنشأكم منها انشاء فاستعير الانبات له لانه أدل على الحدوث والتكون وأصله أنبتكم فنبتم نباتا فاختصر اكتفاء بالدلالة الالتزامية (ثم يعيدكم) على التدريج (فيها) أى الارض بالموت والاقبار وان طالت الآجال (ويخرجكم) أى منها بالاعادة وأكد بالمصدر الجارى على الفعل اشارة الى شدة العناية به وتحتم وقوعه لانكارهم له فقال تعالى (اخراجا) أى غريبا ليس هو كما تعلمون بل تكونون به فى غاية ما يكون من الحياة الباقية تلابس أرواحكم بها أجسامكم ملابسة

لاانفكاك بعدها الاحكاما عن الآخر (والله) أى المستجمع لجميع الجلال والاكرام (جعل لكم) أى نعمة عليكم اهتماما بأمركم (الارض بساطا) أى سهل عليكم التصرف فيها والتقلب عليها سهولة التصرف فى البساط ثم علل ذلك بقوله تعالى (لتسلكوا) أى متخذين (منها) أى الارض مجددين ذلك (سبلا) أى طرقا واضحة مسلوكة بكثرة (فجاجا) أى ذوات اتساع لتوصلوا الى البلاد الشاسعة برا وبحرا فيتم الانتفاع بجميع البقاع فالذى قدر على احداثكم وأقدركم على التصرف فى أصلكم مع ضعفكم قادر على اخراجكم من أجداثكم التى لم تزل طوع أمره ومحل عظمته وقهره * ولما أكثروا مع نوح عليه السلام الجدال ونسبوه الى الضلال وقابلوه بأشنع الاقوال والافعال (قال نوح) أى بعد رفقه بهم ولينه لهم (رب) أى أيها المحسن الى المدبر لى المتولى لجميع أمرى (انهم) أى قومى الذين دعوتهم اليك مع صبرى عليهم ألف سنة الا خمسين عاما (عصونى) أى فيما أمرتهم به ودعوتهم اليه فأبوا أن يجيبوا دعوتى وشردوا عنى أشد شراد وخالفونى أقبح مخالفة (واتبعوا) أى بغاية جهدهم نظرا الى المظنون العاجل (من) أى رؤساءهم البطرين بأموالهم المغترين بأولادهم وفسرهم بقوله تعالى (لم يزده) أى شيأ من الاشياء (ماله) أى كثرته (وولده) كذلك (الاخسارا) أى بالبعد من الله تعالى فى الدنيا والآخرة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح الواوين واللام والباقون بضم الواو الثانية واسكان اللام (ومكروا) أى هؤلاء الرؤساء فى تنفير الناس عنى (مكرا) وزاده تأكيدا بصيغة هى النهاية فى المبالغة بقوله (كبارا) فانه أبلغ من كبار المخفف الابلغ من كبير واختلفوا فى معنى مكرهم فقال ابن عباس قالوا قولا عظيما وقال الضحاك افتروا على الله تعالى وكذبوا رسله وقيل منع الرؤساء أتباعهم عن الايمان بنوح عليه السلام فلم يدعوا أحدا منهم بذلك المكر يتبعه وحرشوهم على قتله (وقالوا) أى لهم (لاتذرن) أى تتركن (آلهتكم) أى عبادتها على حالة من الحالات لاقبيحة ولاحسنة وأضافوها اليهم تحبيبا فيها ثم خصوا بالتسمية زيادة فى الحث وتصريحا بالمقصود فقالوا مكررين النهى والعامل تأكيدا (ولاتذرن ودا) قرأ نافع بضم الواو والباقون بفتحها وأنشدوا بالوجهين قول الشاعر

حياك وودّ من هداك لفتية * وخوص بأعلى ذى فضالة مسعد

وقال القرطبى قال الليث ودّا بفتح الواو صنم كان لقوم نوح ووُدّا بالضم صنم لقريش وبه سمى عمرو بن ود وفى الصحاح والود بالفتح الوتد فى لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها فى الدال اه ثم أعادوا النفى تأكيدا فقالوا (ولاسواعا) وأكدوا هذا التأكيد وأبلغوا فيه فقالوا (ولايغوث) * ولما بلغ التأكيد نهايته وعلم ان القصد النهى عن كل فرد فردلا عن المجموع تركوا التأكيد فى قولهم (ويعوق ونسرا) للعلم بارادته واختلف المفسرون فى هذه الاسماء فقال ابن عباس وغيره هى أصنام وصور كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور وقيل انها للعرب لم يعبدها غيرهم وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم فلذلك خصوها بالذكر بعد قولهم لاتذرن آلهتكم وقال عروة بن الزبير اشتكى آدم عليه السلام وعنده

بنو ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وكان ود أكبرهم وأبرهم به قال محمد بن كعب
كان لآدم عليه السلام خمسة بنين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وكانوا عبادا فمات رجل
منهم فحزنوا عليه فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله اذا نظرتم اليه ذكرتموه قالوا افعل فصوره
فى المسجد من صفر ورصاص ثم مات آخر فصوره حتى ماتوا كلهم وصورهم وتناقصت الاشياء
كما تناقصت اليوم الى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين فقال لهم الشيطان مالكم لا تعبدون
شيأ قالوا ومانعبد قال آلهتكم وآلهة آبائكم ألا ترون أنها فى مصلاكم فعبدوها من دون الله
تعالى حتى بعث الله نوحا عليه السلام فقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا الآية
وقال محمد بن كعب أيضا ومحمد بن قيس بل كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح عليهما السلام وكان
لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا زين لهم ابليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم
وليتسلوا بالنظر اليها فصوروهم فلما ماتوا جاء آخرون فقالوا ليت شعرى ماهذه الصور التى كان
يعبدها آباؤنا فجاءهم الشيطان فقال كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر فعبدوها
فابتدئ عبادة الاوثان من ذلك الوقت وبهذا المعنى فسر ماجاء فى الصحيحين من حديث عائشة
ان أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة تسمى مارية فيها تصاوير لرسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أولئك كانوا اذا مات منهم
الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله يوم
القيامة وروى عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام كان يحرس جسد آدم عليه السلام على
جبل الهند فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره فقال لهم الشيطان ان هؤلاء يفخرون عليكم
ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم وانما هو جسد وأنا أصور لكم مثله تطوفون به فصور لهم هذه
الاصنام الخمسة وحملهم على عبادتها فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء فلم تزل
مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركى العرب وكان للعرب أصنام أخر فاللات كانت لقديد
واساف ونائلة وهبل كانت لاهل مكة وكان اساف حيال الحجر الاسود ونائلة حيال الركن
اليمانى وكان هبل فى جوف الكعبة وقال الماوردى أما ود فهو أول صنم معبود فسمى ودا
لودهم له وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل فى قول ابن عباس وعطاء وأما سواع فكان
لهذيل بساحل البحر فى قولهم وقال الرازى وسواع لهمدان وأما يغوث فكان لغطيف
من مراد بالجرف من سبا فى قول قتادة وقال المهدوى لمراد ثم لغطفان وقال أبو عثمان
الهندى رأيت يغوث وكان من رصاص وكانوا يحملونه على جمل أجرد ويسيرون معهم
ولا يهيجونه حتى يبرك بنفسه فاذا برك نزلوا وقالوا قد رضى لكم المنزل وأما يعوق فكان لهمدان
وقيل لمراد وأما نسر فكان لذى الكلاع من حمير فى قول قتادة ومقاتل وقال الواقدى كان
ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس
ونسر على صورة نسر من الطير قال البقاعى ولا يعارض هذا انهم صور لناس صالحين لان
تصويرهم لهم يمكن أن يكون منتزعا من معانيهم فكان ود الكامل فى الرجولية وكان سواع امرأة

كاملة فى العبادة وكان يغوث شجاعا وكان يعوق سابقا قويا وكان نسر عظيما طويل العمر اه
ولما ذكرهم مكرهم وما أظهروا من قولهم عطف عليه ما توقع السامع من أمرهم فقال تعالى
(وقد أضلوا) أى الرؤساء أو الاصنام وجمعهم جمع العقلاء معاملة لهم معاملة العقلاء كقوله
رب انهن أضللن (كثيرا) من عبادك الذين خلقتهم على الفطرة السليمة من أهل زمانهم ومن أتى
بعدهم فانهم أول من سن هذه السنة السيئة فعليهم وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة
وقول نوح عليه السلام (ولا تزد الظالمين) أى الراسخين فى الوصف الموجب للنار (الا ضلالا)
أى طبعا على قلوبهم حتى يعموا عن الحق عطف على قد أضلوا دعا عليهم بعد ما أعلمه الله تعالى
أنهم لا يؤمنون بقوله تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن وكذلك دعا موسى وهرون
عليهما السلام فى الشد على قلوب فرعون وملئه لئلا يؤمنوا فى حال ينفعهم فيه وما فى قوله تعالى
(مما خطاياهم) أى من أجل خطياتهم مزيدة للتأكيد والتفخيم وقرأ أبو عمرو بفتح الطاء
وبعدها ألف وبعد الالف ياء وبعد الياء ألف وضم الهاء على وزن قضاياهم والباقون بكسر الطاء
وبعدها ياء تحتية ساكنة وبعد الياء همزة مفتوحة بعدها ألف وبعد الالف تاء فوقية مكسورة
وكسر الهاء على وزن قضياتهم (أغرقوا) أى بالطوفان طاف عليهم جميع الارض السهل
والجبل فلم يبق منهم أحد وكذا الكلام فيما تسبب عنه وتعقبه فى قوله (فأدخلوا) فى الآخرة
التى أولها البرزخ يعرضون فيه على النار بكرة وعشيا (نارا) أى عظيمة جدا أخفها ما يكون
من مباديها فى البرزخ قال الملوى عذبوا فى الدنيا بالغرق وفى الآخرة بالحرق وقال الضحاك
فى حالة واحدة كانوا يغرقون من جانب ويحترقون فى الماء من جانب بقدرة الله تعالى (فلم يجدوا
لهم) أى عندما أناخ الله بهم سطوته وأحل بهم نقمته (من دون الله) أى الملك الاعظم الذى
تضمحل المراتب تحت رتبة عظمته وتذل لعزه وجليل سطوته (أنصارا) تنصرهم على من أراد
بهم ذلك ليمنعوه مما أراده سبحانه من اغراقهم من غير أن يتخلف منهم أحد على كثرتهم وقوتهم
لكونهم أعداءه وانجاء نبيه عليه السلام ومن آمن معه على ضعفهم وقلتهم لم يفقد منهم أحد
لكونهم أولياءه كما أنه لم يسلم ممن أراد اغراقهم أحد على كثرتهم وقوتهم قال البقاعى فمن قال
عن عوج ما تقوله القصاص فهو ضلال أشد ضلال قال وقائل ذلك هو ابن عربى صاحب
الفصوص الذى لم يرد بتصنيفه الا هدم الشريعة وزاد فى الحط عليه وعلى ابن الفارض وعلى
الحلاج وعلى من شابههم وأمر هؤلاء الى الله تعالى فانه العالم بحقائق الامور وما تخفى الصدور
(وقال نوح) وأسقط الاداة كما هو عادة أهل الحضرة فقال (رب لا تذر) أى لا تترك (على الارض)
أى كلها (من الكافرين) أى الراسخين فى الكفر (ديارا) أى أحدا يدور فيها وهو من ألفاظ
العموم التى تستعمل فى النفى فيعال من الدور أو الدار لا فعال والا لكان دوارا قال قتادة
دعا عليهم بعد أن أوحى الله تعالى اليه أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فأجاب الله تعالى
دعوته وأغرق أمته وهذا كقول النبى صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب وهازم الاحزاب
اهزمهم وزلزلهم وقيل سبب دعائه ان رجلا من قومه حمل ولدا صغيرا على كتفه فمر بنوح

عليه السلام فقال احذر هذا فانه يضلك فقال يا أبت أنزلني فأنزله فرماه فشجه فحينئذ غضب ودعا عليهم (فان قيل) مافعل صبيانهم حين أغرقوا (أجيب) بأنهم أغرقوا معهم لا على وجه العقاب ولكن كما يموتون بالانواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والامهات اذا أبصروا أطفالهم يغرقون ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال علم الله تعالى براءتهم فأهلكهم بغير عذاب وقال محمد بن كعب ومقاتل انما قال هذا حين أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم أرحام أمهاتهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة وقيل بسبعين سنة فأخبر الله تعالى نوحا عليه السلام أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمنا كما قال تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فحينئذ دعا عليهم فأجاب الله تعالى دعاءه فأهلكهم كلهم ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب لان الله تعالى قال وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ولم يوجد التكذيب من الاطفال وقال ابن عربي دعا نوح عليه السلام على الكافرين أجمعين ودعا النبي صلى الله عليه وسلم على من تحزب على المؤمنين وكفى بهذا أصلا في الدعاء على الكافرين في الجملة وأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه لأن مآله عندنا مجهول وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة وانما خص النبي صلى الله عليه وسلم عتبة وشيبة وأصحابه لعلمه بمآلهم وما كشف الله له من الغطاء عن حالهم * ولما كان الرسل عليهم السلام لا يقولون ولا يفعلون الا ما كان فيه مصلحة الدين علل دعاءه بقوله (انك) أي يارب (ان تذرهم) أي تتركهم على أي حالة كانت في ابقائهم سالمين على وجه الارض ولو كانت حالة دنيئة (يضلوا عبادك) أي الذين آمنوا بك وبي والذين يولدون على الفطرة السليمة (ولا يلدوا) أي ان قدرت بقاءهم (الافاجرا) أي مارقا عن كل ما ينبغي الاعتصام به (كفارا) أي بليغ الستر لما يجب اظهاره من آيات الله (فان قيل) بم علم أن أولادهم يكفرون وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة (أجيب) بأنه لبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فعرف طباعهم وأحوالهم وكان الرجل ينطلق بابنه اليه ويقول احذر هذا فانه كذاب وان أبي حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك وقد أخبر الله تعالى أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ومعنى ولا يلدوا الا فاجرا كفارا لم يلدوا الا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون اليه كقوله صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلا فله سلبه * ولما دعا على أعداء الله تعالى دعا لاوليائه وبدأ بنفسه فقال مسقط الاداة على عادة أهل الخصوص (رب) أي أيها المحسن الي باتباع من اتبعني وتجنب من تجنبني (اغفر لي) أي فانه لا يسعني وان كنت معصوما الا حلمك وعفوك ومغفرتك (ولوالدي) وكانا مؤمنين يريد أبويه اسم أبيه لمك بن متوشلخ وأمه شمخا بنت أنوش وعن ابن عباس لم يكفر لنوح عليه السلام أب فيما بينه وبين آدم عليه السلام وقيل هما آدم وحواء وأعاد الجار اظهارا للاهتمام فقال (ولمن دخل بيتي) أي منزلي وقيل مسجدي وقيل سفينتي (مؤمنا) أي مصدقا بالله تعالى فمؤمنا حال وعن ابن عباس أي دخل في ديني (فان قيل) على هذا يصير قوله مؤمنا

تكرارا (أجيب) بأن من دخل فى دينه ظاهرا قد يكون مؤمنا وقد لا يكون فالمعنى ولمن دخل دخولا مع تصديق القلب (وللمؤمنين والمؤمنات) خص نفسه أولا بالدعاء ثم من يتصل به لانهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات الى يوم القيامة قاله الضحاك وقال الكلبى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل من قومه والاول أولى وأظهر ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال (ولا تزد الظالمين) أى العريقين فى الظلم فى حال من الاحوال (الا تبارا) أى هلاكا ودمارا والمراد بالظالمين الكافرون فهى عامة فى كل كافر ومشرك وقيل أراد مشركى قومه وتبارا مفعول ثان والاستثناء مفرغ وقيل الهلاك الخسران وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام حديث موضوع

(سورة الجن وتسمى سورة قل اوحى مكية)

وهى ثمان وعشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وسبعون حرفا

(بسم الله) المحيط بالكمال (الرحمن) الذى عم برحمته الناس بالارسال (الرحيم) الذى خص من بين أهل الدعوة من شاء بمحاسن الاعمال ولما كان نوح عليه السلام أول رسول أرسله الله تعالى الى المخالفين من أهل الارض وكان نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فهو آخر رسول بعثه الله تعالى الى أهل الارض وغيرهم ناسب ذكره بعد نوح فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى يا أشرف الرسل للناس (أوحى الى) وقال ابن عباس قل يا محمد لامتك أوحى الى على لسان جبريل (أنه استمع نفر من الجن) والنفر الجماعة ما بين الثلاثة الى العشرة قال البغوى وكانوا تسعة من جن نصيبين وقيل كانوا سبعة وفى هذه العبارة دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولا قرأ عليهم وانما اتفق حضورهم عند قراءته ففى صحيح مسلم عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا ما لكم قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب فقالوا ما ذاك الا من شئ حدث فاضربوا مشارق الارض ومغاربها فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الارض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو وأصحابه بنخلة قاصدين سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء وهل هذا الاستماع هو المذكور فى الاحقاف أو غيره قال أبو حيان المشهور أنه هو وقيل غيره والجن الذين أتوه جن نصيبين والذين أتوه بنخلة جن نينوى والسورة التى استمعوها قال عكرمة العلق وقيل الرحمن ولم يذكرها ولا فى الاحقاف انه رآهم وعن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن يذهب فسكتوا ثم قال الثانية فسكتوا ثم قال الثالثة فقلت أنا أذهب معك يا رسول الله قال فانطلق حتى جاء الحجون عند شعب ابن أبى دب خط على خطا فقال لا تجاوزه ثم مضى الى الحجون فانحدروا عليه

أمثال الحجل كأنهم رجال الزط قال ابن الاثير فى النهاية الزط قوم من السودان والهنود وكان
وجوههم المكاكى يقرعون فى دفوفهم كما تقرع النسوة فى دفوفها حتى غشوه فغاب عن بصرى
فقمت فأومأ الى بيده ان اجلس ثم تلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ولصقوا بالارض حتى صرت
لا أراهم وفى رواية أخرى فقالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم من أنت قال أنا نبى قالوا فمن يشهد
لك على ذلك فقال هذه الشجرة تعالى يا شجرة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع حتى انتصبت بين يديه
فقال على ماذا تشهدى فى قالت أشهد أنك رسول الله قال اذهبى فرجعت كما جاءت حتى صارت
كما كانت قال ابن مسعود فلما عاد الى قال أردت أن تأتينى قلت نعم يا رسول الله قال ما كان
ذلك لك هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ثم ولوا الى قومهم منذرين فسألونى الزاد فزودتهم
العظم والبعر فلا يستطمين أى يستنجى أحدكم بعظم ولا بعر وفى رواية أنه عليه الصلاة والسلام
لما فرغ وضع رأسه على حجر ابن مسعود فرقد ثم استيقظ فقال هل من وضوء قال لا الا أن معى
اداوة نبيذ فقال هل هو الا تمر وماء فتوضأ منه قال الرازى وطريق الجمع بين رواية ابن عباس
ورواية ابن مسعود من وجوه أحدها لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولا فأوحى الله تعالى اليه
بهذه السورة ثم أمر بالخروج اليهم بعد ذلك كما روى عن ابن مسعود أى فالواقعة متعددة ثانيها
انها واقعة واحدة الا أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولا عرف ماذا قالوا ولا أى شئ فعلوا
فالله تعالى أوحى اليه انه كان كذا وكذا وفعلوا كذا وكذا ثالثها أنها كانت واحدة وأنه صلى
الله عليه وسلم رآهم وسمع كلامهم وهم آمنوا به ثم رجعوا الى قومهم قالوا لهم على سبيل الحكاية
انا سمعنا قرآنا عجبا وكان كذا وكذا فأوحى الله تعالى الى نبيه صلى الله عليه وسلم ما قالوه لقومهم
قال ابن عربى ابن مسعود أعرف من ابن عباس لانه شاهده وابن عباس سمعه وليس الخبر
كالمعاينة وقال القرطبى ان الجن أتوا النبى صلى الله عليه وسلم دفعتين احداهما بمكة وهى التى
ذكرها ابن مسعود والثانية بنخلة وهى التى ذكرها ابن عباس وقال البيهقى الذى حكاه
ابن مسعود انما هو فى أول ما سمعت الجن قراءة النبى صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله وفى ذلك
الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه ابن عباس ثم أتاه داعى الجن مرة أخرى فذهب معه
وقرأ عليهم القرآن كما حكاه ابن مسعود وقال القشيرى لما رجم ابليس بالشهب فرق ابليس
جنوده لعلم ذلك فأتى سبعة منهم بطن نخلة فاستمعوا قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فآمنوا
ثم أتوا قومهم فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يعنى ولم يرجعوا الى ابليس لما علموه من كذبه وسفاهته
وجاؤا الى النبى صلى الله عليه وسلم فى سبعين من قومه فأسلموا فذلك قوله تعالى واذ صرفنا اليك
نفرا الآيات (فقالوا) أى فتسبب عن استماعهم ان قالوا (انا سمعنا) أى حين تعمدنا الاصغاء
وألقينا اليه أفهامنا (قرآنا) أى كلاما هو فى غاية الانتظام فى نفسه والجمع لجميع ما يحتاج اليه
وقرأ ابن كثير بالنقل وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف دون الوصل والباقون بغير نقل وقفا ووصلا
ثم وصفوا القرآن بالمصدر مبالغة فى أمره فقالوا (عجبا) أى بديعا خارجا عن عادة أمثاله من جميع
الكتب الالهية فضلا عن جميع الناس فى جلالة النظم واعجاز التركيب (يهدى) أى يبين

غاية البيان (الى الرشد) أى الحق والصواب (فآمنا) أى كل من استمع منا لم يتخلف منا أحد ولا توقف بعد الاستماع (به) أى القرآن أى فاهتدينا به وصدقنا انه من عند الله (ولن نشرك بربنا أحدا) أى لا نرجع الى ابليس ولا نطيعه ولا نعود الى ما كنا عليه من الاشراك وهذا يدل على أن أولئك الجن كانوا مشركين قال الرازي واعلم أن قوله تعالى قل أمر لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يظهر لاصحابه ما أوحى اليه فى واقعة الجن وفيه فوائد أحدها أن يعرفوا بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى الجن كما بعث الى الانس ثانيها أن تعلم قريش ان الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن وعرفوا اعجازه آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ثالثها أن يعلم القوم ان الجن مكلفون كالانس رابعها أن يعلم ان الجن يستمعون كلاما تفهمه من لغتنا خامسها ان يظهر المؤمن منهم بدعوى غيره من الجن الى الايمان وفى هذه الوجوه مصالح كثيرة اذا عرفها الناس *(تنبيهات)* أحدها اختلف العلماء فى أصل الجن فروى عن الحسن البصرى ان الجن ولد ابليس والانس ولد آدم ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون وهم شركاء فى الثواب والعقاب فمن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان وروى الضحاك عن ابن عباس ان الجن هم ولد الجان وليسوا شياطين ومنهم المؤمن ومنهم الكافر والشياطين ولد ابليس لا يموتون الا مع ابليس وروى أن ذلك النفر كانوا يهودا وذكر الحسن ان منهم يهودا ونصارى ومجوسا ومشركين * ثانيها اختلفوا فى دخول الجن الجنة على حسب الاختلاف فى أصلهم فمن زعم انهم من الجان لا من ذرية ابليس قال يدخلون الجنة بايمانهم ومن قال انهم من ذرية ابليس فلهم فيهم قولان أحدهما وهو قول الحسن يدخلونها والثانى وهو رواية مجاهد لا يدخلونها * ثالثها قال القرطبى قد أنكر جماعة من كفرة الاطباء والفلاسفة الجن وقالوا انهم بسائط ولا يصح طعامهم اجتراء على الله تعالى والقرآن والسنة يردان عليهم وليس فى المخلوقات بسيط بل مركب مزدوج انما الواحد الواحد سبحانه وغيره مركب ليس بواحد وليس بممتنع أن يراهم النبى صلى الله عليه وسلم فى صورهم كما يرى الملائكة وأكثر ما يتصورون لنا فى صور الحيات ثم عطفوا على قولهم انا سمعنا (وأنه) أى الشان العظيم قال الجن (تعالى) أى انتهى فى العلو الى حد لا يستطاع (جد) أى عظمة وسلطان وكمال غنى (ربنا) يقال جد الرجل اذا عظم ومنه قول أنس كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا أى عظم قدره وقال السدى جد ربنا أى أمر ربنا وقال الحسن غنى ربنا ومنه قيل الحظ جد ورجل مجدود أى محظوظ وفى الحديث ولا ينفع ذا الجد منك الجد قال أبو عبيد والخليل أى ذا الغنى منك الغنى انما تنفعه الطاعة وقال ابن عباس قدرة ربنا وقال الضحاك فعله وقال القرطبى آلاؤه ونعماؤه على خلقه وقال الاخفش علا ملك ربنا والاولى جميع هذه المعانى وقرأ وانه تعالى جد ربنا وما بعده الى قوله تعالى وانا منا المسلمون وهى اثنا عشر موضعا ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بفتح الهمزة فى الجميع والباقون بالكسر * ولما وصفوه بهذا التعالى الاعظم المستلزم للغنى المطلق والتنزه عن كل شائبة نقص بينوه بنفى ما ينافيه من قولهم ابطالا للباطل

(ما اتخذ صاحبة) أى زوجة لان الصاحبة لابد وأن تكون من نوع صاحبها ومن له نوع فهو مركب تركيبا عقليا من صفة مشتركة وصفة مميزة (ولا ولدا) لان الولد لابد وأن يكون جزأ منفصلا عن والده ومن له أجزاء فهو مركب تركيبا حسيا ومن المقطوع به ان ذلك لا يكون الا لمحتاج وان الله تعالى متعال عن ذلك من تركيب حسى أو عقلى قال القشيرى ويجوز اطلاق لفظ الجد فى حق الله تعالى اذ لو لم يجز لما ذكر فى القرآن غير أنه لفظ موهم فتجنبه أولى أى لانه قيل انهم عنوا بذلك الجد الذى هو أبو الاب ويكون ذلك من قول الجن قال ابن جعفر الصادق ليس لله تعالى جد وانما قاله الجن للجهالة فلم يؤاخذوا به وقال القرطبى معنى الآية وأنه تعالى جد ربنا أن يتخذ ولدا أو صاحبة للاستئناس بهما أو الحاجة اليهما والرب تعالى عن ذلك كما تعالى عن الانداد والنظراء (وانه) أى وقالوا ان الشان هذا على قراءة الكسر وآمنا بأنه على قراءة الفتح (كان يقول) أى قولا هو فى عراقته فى الكذب بمنزلة الجبلة (سفيهنا) هو للجنس فيتناول ابليس رأس الجنس تناولا أوليا وكل من تبعه ممن لم يعرف الله تعالى لان ثمرة العقل العلم وثمرة العلم معرفة الله تعالى فمن لم يعرفه فهو الذى يقول (على الله) الذى له صفات الكمال المنافية لقول هذا السفيه (شططا) أى كذبا وعدوانا وهو وصفه بالشريك والولد والشطط والاشطاط الغلو فى الكفر وقال أبو مالك هو الجور وقال الكلبى هو الكذب وأصله البعد فعبر به عن الجور لبعده عن العدل وعن الكذب لبعده عن الصدق (وانا) أى يا معشر المسلمين من الجن (ظننا) أى حسبنا بالسلامة فطرتنا (أن) أى أنه وزادوا فى التأكيد فقالوا (ان تقول) وبدؤا بأفضل الجنسين فقالوا (الانس) وأتبعوهم قرناءهم فقالوا (والجن على الله) أى الملك الاعلى الذى بيده النفع والضر (كذبا) أى قولا هو لعراقته فى مخالفة الواقع نفس الكذب وانما كانظنهم صادقين فى قولهم ان لله صاحبة وولدا حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحق قيل انقطع الاخبار عن الجن ههنا (وانه) أى الشان (كان رجال) أى ذوو قوة وبأس (من الانس) أى النوع الظاهر فى عالم الحس (يعوذون) أى يلتجؤن ويعتصمون خوفا على أنفسهم وما معهم اذا نزلوا واديا (برجال من الجن) أى القبيل المستتر عن الابصار وذلك ان القوم منهم كانوا اذا نزلوا واديا أو غيره من القفر تعبث بهم الجن فى بعض الاحيان لانه لا مانع لهم منهم من ذكر الله ولا دين صحيح ولا كتاب من الله تعالى صريح فحملهم ذلك على أن يستجيروا بعظمائهم فكان الرجل يقول عند نزوله أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه فيبيت فى أمن وفى جوارهم حتى يصبح فلا يرى الا خيرا وربما هدوه الى الطريق وردوا عليه ضالته قال مقاتل كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن من بنى حنيفة ثم فشا ذلك فى العرب فلما جاء الاسلام عاذوا بالله تعالى وتركوهم وقال كرم بن أبى السائب الانصارى خرجت مع أبى الى المدينة فى حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قال وانا المبيت الى راعى غنم فلما انتصف النهار جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم فوثب الراعى وقال يا عامر الوادى جارك فنادى مناد لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمة فكان ذلك فتنة للانس

باعتقادهم

باعتقادهم فى الجن غير ماهم عليه فتبعوهم فى الضلال وفتنة للجن بأن يغتروا بأنفسهم ويقولوا سدنا الانس والجن فيضلوا ويضلوا ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فزادوهم) أى الانس والجن باستعاذتهم (رهقا) أى ضيقا وشدة وغشيانا لخباءهم فيه من أحوال الضلال التى يلزم منها الضيق والشدة وقال مجاهد الرهق الاثم وغشيان المحارم ورجل رهق اذا كان كذلك ومنه قوله تعالى وترهقهم ذلة وقال الاعشى

لاشئ ينفعنى من دون رؤيتها * هل يشتفى عاشق مالم يصب رهقا

يعنى اثما وقال مجاهد أيضا زادوهم أى ان الانس زادوا الجن طغيانا بهذا التعوذ حتى قالت الجن سدنا الانس والجن وقيل لا يطلق لفظ الرجال على الجن فالمعنى وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الانس من شر الجن فكان الرجل مثلا يقول أعوذ بحذيفة بن بدر من جن هذا الوادى قال القشيرى وفى هذا تحكم اذ لا يبعد اطلاق لفظ الرجل على الجن * (تنبيه) * قوله تعالى من الانس صفة لرجال وكذا قوله من الجن (وانهم) أى الانس (ظنوا) والظن قد يصيب وقد يخطئ وهو أكثر (كما ظننتم) أى أيها الجن ويجوز العكس (أن) مخففة أى انه (ان يبعث الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (أحدا) أى بعد موته لما لبس به ابليس عليهم حتى رأوا حسنا مالبس بالحسن أو أحدا من الرسل يزيل به عماية الجهل وقد ظهر بالقرآن ان هذا الظن كاذب وانه لابد من البعث فى الامرين قال الجن (وانا لمسنا السماء) اى رمنا استراق السمع منها قال الكلبى السماء الدنيا أى التمسنا أخبارها على ما كان من عادتنا من استماع ماتغوى به الانس واللمس المس فاستعير للطلب لان الماس طالب متعرف والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها (فوجدناها) فى وجد وجهان أظهرهما انها متعدية لواحد لان معناها أصبنا وصادفنا وعلى هذا فالجملة من قولهم (ملئت) فى موضع نصب على الحال على اضمار قد والثانى انها متعدية لاثنين فتكون الجملة فى موضع المفعول الثانى ويكون (حرسا) منصوبا على التمييز نحو امتلأ الاناء ماء والحرس اسم جمع لحارس نحو خدم لخادم وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجمع تكسيرا على احراس والحارس الحافظ الرقيب والمصدر الحراسة (وشديدا) صفة لحرس على اللفظ ولو جاء على المعنى لقيل شدادا بالجمع لان المعنى ملئت ملائكة شدادا كقولك السلف الصالح يعنى الصالحين قال القرطبى ويجوز أن يكون حرسا مصدرا على معنى حرست حراسة شديدة (وشهبا) جمع شهاب ككتاب وكتب وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم المانع لهم عن استراق السمع (وانا كنا) أى فيما مضى (نقعد منها) أى السماء (مقاعد) أى كثيرة قد علمناها لا حرس فيها صالحة (للسمع) أى أن نسمع منها بعض ما تتكلم به الملائكة مما أمروا بتدبيره وقد جاء فى الخبر ان صفة قعودهم هو ان يكون الواحد منهم فوق الآخر حتى يصلوا الى السماء فيكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها الى الكهان فيزيدون معها الكذب (فمن يستمع الآن) أى فى هذا الوقت وفيما يستقبل لأنهم أرادوا وقت قولهم فقط (يجدله) أى لاجله (شهابا) أى شعلة من نار ساطعة تحرقه (رصدا) أى أرصد به ليرمى به

ما أحسن ما قال حسبنا أنه يصفه بالقسط والعدل فقال الحجاج يا جهلة اغا سماني ظالما مشركا وتلا لهم قوله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (فمن أسلم) أى أوقع الاسلام كله بأن أسلم ظاهره وباطنه من الجن وغيرهم (فأولئك) أى العالو الرتبة (تحروا) أى توخوا وقصدوا واجتهدوا (رشدا) أى صوابا عظيما وسدادا كان لما عندهم من النقائص شاردا عنهم فعالجوا أنفسهم حتى ملكوه فجعلوه لهم منزلا (وأما القاسطون) أى العريقون فى صفة الجور عن الصواب من الانس والجن فأولئك اهملوا أنفسهم فلم يتحروا الهدى فضلوا فأبعدوا عن الطريق القويم فوقعوا فى المهالك التى لا منجى منها (فكانوا لجهنم) أى النار البعيدة القعر التى تلقاهم بالتجهم والكراهة والعبوسة (حطبا) أى توقد بهم النار فهى فى اتقاد ما داموا أحياء ما دامت تتقد لا يموتون فيستريحون ولا يحيون فينتعشون *(تنبيه)* قوله تعالى فكانوا أى فى علم الله عز وجل (فان قيل) لم ذكروا عقاب القاسطين ولم يذكروا ثواب المسلمين (أجيب) بأنهم فى مقام الترهيب فذكروا ما يحذروه وأما ما يجب للعلم به لان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا بل لابد ان يزيد عليه تسعة اضعافه وعنده المزيد أو أنهم ذكروه بقولهم تحروا رشدا أى تحروا رشدا عظيما لا يعلم كنهه الا الله تعالى ومثل هذا لا يتحقق الا فى الثواب (فان قيل) ان الجن مخلوقون من النار فكيف يكونون حطبا للنار (أجيب) بأنهم وان خلقوا منها لكنهم تغيرون عن تلك الكيفية فيصيرون لحما ودما هكذا قيل وهذا آخر كلام الجن وأن فى قوله تعالى (وأن) هى المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى وأنهم وهو معطوف على أنه استمع أى وأوحى الى أن الشأن العظيم (لو استقاموا على الطريقة) أى طريقة الاسلام (لأسقيناهم) أى لجعلنا لهم بعالنا من العظمة (ماء غدقا) أى لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم فى الدنيا ولبسطنا لهم فى الرزق وضرب الماء الغدق مثلا لان الخير والرزق كله فى المطر كما قال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم الآية وقال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم الآية وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا الآية وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الى قوله ويمددكم بأموال وبنين الآية (لنفتنهم) أى نعاملهم معاملة المختبر بمالنا من العظمة (فيه) اى فى ذلك الماء الذى يكون عنده أنواع النعم لينكشف حال الشاكر والكافر قال الرازى وهذا بعد ما حبس عنهم المطر سنين اهـ قال الجلال المحلى سبع سنين وقال عمر رضى الله تعالى عنه أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة وقال الحسن وغيره كانوا اسامعين مطيعين ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر ففتنوا بها فوثبوا بامامهم فقتلوه يعنى عثمان رضى الله تعالى عنه قال البقاعى ويجوز ان يكون مستعارا للعلم وأنواع المعارف الناشئة عن العبادات التى هى للنفوس كالنفوس للابدان وتكون الفتنة بمعنى التخليص من الهموم والرذائل فى الدنيا والنعم فى الآخرة من فتنت الذهب اذا خلصته من غشه (ومن يعرض) اى اعراضا مستمرا الى الموت (عن ذكر ربه) أى مجاوزا عن عبادة المحسن اليه المربى له الذى لا احسان عنده من غيره وقيل المراد بالذكر

القرآن وقيل الوحي وقيل الموعظة (نسلكه) اى ندخله (عذابا) يكون مظروفا فيه كالخيط فى ثقب الخرزة فى غاية الضيق (صعدا) أى شاقا شديدا يعلوه و يغلبه و يصعد عليه و يكون كل يوم أعلى مما قبله جزاء وفاقا وقال ابن عباس هو جبل فى جهنم قال الخدرى كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت وعن ابن عباس أن المعنى مشقة من العذاب لان الصعد فى اللغة هو المشقة تقول تصعدنى الامر اذا شق عليك ومنه قول عمر ما تصعدنى شئ ما تصعدنى فى خطبة النكاح يريد ما شق على وما غلبنى والمشى فى الصعود يشق وقال عكرمة هو صخرة ملساء فى جهنم يكلف صعودها فاذا انتهى الى أعلاها احدر الى جهنم وقال الكلبى يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلا فى النار من صخرة ملساء يجذب من أمامه بسلاسل و يضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ولا يبلغ فى أربعين سنة فاذا بلغ أعلاها أحدر الى أسفلها ثم يكلف أيضا الصعود فذلك دأبه أبدا وهو قوله تعالى سأرهقه صعودا وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالياء التحتية على الغيبة لاعادة الضمير على الله تعالى والباقون بالنون على الالتفات وهذا كما فى قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ثم قال باركنا حوله لنريه من آياتنا واتفقوا على فتح الهمزة فى قوله تعالى (وأن) أى وأوحى الى أن (المساجد لله) أى مختصة بالملك الاعظم والمساجد قيل جمع مسجد بالكسر وهو موضع السجود وقال الحسن أراد بها كل البقاع لان الارض جعلت كلها مسجدا للنبى صلى الله عليه وسلم يقول أينما كنتم فصلوا وأينما صليتم فهو مسجد وقيل انه جمع مسجد بالفتح مرادا به الاعضاء الواردة فى الحديث الجبهة والانف والركبتان واليدان والقدمان وهو قول سعيد بن المسيب وابن حبيب والمعنى ان هذه الاعضاء أنعم الله تعالى بها عليك فلا تسجد لغيره فتجحد نعمة الله قال عطاء مساجدك اعضاؤك التى أمرت بالسجود عليها لا تذللها لغير خالقها قال صلى الله عليه وسلم أمرت أن أسجد على سبعة أعظم وذكر الحديث وقال صلى الله عليه وسلم اذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب قال ابن الاثير الآراب الاعضاء وهذا القول اختيار ابن الانبارى وقيل بل جمع مسجد وهو مصدر بمعنى السجود ويكون الجمع لاختلاف الانواع وقال القرطبى المراد بها البيوت التى تبنيها أهل الملل للعبادة قال سعيد بن جبير قالت الجن كيف لنا ان نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤن عنك فنزلت وأن المساجد لله أى بنيت لذكر الله تعالى وطاعته وقال ابن عباس المساجد هنا مكة التى هى القبلة وسميت مكة مساجد لان كل أحد يسجد اليها قال القرطبى والقول بأنها البيوت المبنية للعبادة أظهر الاقوال ان شاء الله تعالى وهو مروى عن ابن عباس واضافة المساجد الى الله تعالى اضافة تشريف وتكريم وخص منها المسجد العتيق بالذكر فقال تعالى وطهر بيتى وهى وان كانت لله ملكا وتشريفا فقد تنسب الى غيره تعريفا قال صلى الله عليه وسلم صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام وفى رواية ان صلاة فيه خير من مائة صلاة فى مسجدى هذا قال القرطبى وهذا حديث صحيح وفى حديث سابق صلى الله عليه وسلم بين الخيل التى لم تضمر من الثنية الى مسجد بنى زريق و يقال مسجد فلان لانه حبسه ولا خلاف بين الامة فى تحبيس

ختم به النبوة والرسالة فجعل رسالته محيطة بجميع المال فى التوحيد وغيره على سبيل الجزر (فان له) اى خاصة (نار جهنم) اى التى تلقاه بالعبوسة والغيظ وقوله تعالى (خالدين فيها أبدا) حال مقدرة من الهاء فى له والمعنى مقدر خلودهم والعامل الاستقرار الذى تعلق به هذا الجار وحمل على معنى من فعل ذلك فوحد أولا للفظ وجمع للمعنى وأكد بقوله تعالى (فيها) رداعلى من يدعى الانقطاع قال البقاعى وأمامن يدعى أنه الاتحرق وان عذابها اعذوبة فليس احدا جن منه الامن تابعه على ضلاله وغيه ومحاله وليس لهم دواء الا السيف فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بما سموه عذوبة وهم صائرون اليه وموقوفون عليه وحتى فى قوله تعالى (حتى اذا رأوا) ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر قبلها أى لايزالون على كفرهم الى أن يروا (مايوعدون) من العذاب فى الآخرة أوفى الدنيا كوقعة بدر (فسيعلمون) اى فى ذلك اليوم بوعدلاخلف فيه (من أضعف ناصرا) أى من جهة الناصر أناوان كنت فى هذا الوقت وحيدا مستضعفا أوهم (وأقل عددا) وان كانوا الآن بحيث لايحصيهم عددا الا الله تعالى فما لله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذى بيده الملك وله جنود السموات والارض بخلاف الجبابرة فانهم لا كلام لهم الافى تعظيم أنفسهم وازدراء غيرهم قال مقاتل لما سمعوا قوله تعالى حتى اذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قال النضر بن الحرث متى يكون هذا الذى توعدنا به قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء فى جوابهم باتيانهم العذاب وسألوا استهزاء عن وقت وقوعه (ان) أى ما (أدرى) بوجه من الوجوه (أقريب ماتوعدون) أى فيكون الآن أوقريبا من هذا الاوان بحيث يتوقع عن قرب وقوله (أم يجعل) اى أم بعيد يجعل (له) أى لهذا الوعد (ربى) اى المحسن الى ان قدمه أوأخره (أمدا) أى أجلا مضروبا فلا يتوقع دون ذلك الامد فهو فى كل حال متوقع فكونوا على غاية الحذر لانه لابد من وقوعه لا كلام فيه وانما الكلام فى تعيين وقته وليس الى (فان قيل) أليس انه صلى الله عليه وسلم قال بعثت أنا والساعة كهاتين فكان عالما بقرب وقوع القيامة فكيف قال ههنا لا أدرى أقريب ام بعيد (اجيب) بأن المراد بقرب وقوعه هو ان مابقى من الدنيا اقل مما انقضى فهذا القدر من القرب معلوم فأما معرفة مقدار القرب المرتب وعدم ذلك فغير معلوم * (تنبيه) * أقريب خبر مقدم وما توعدون مبتدأ مؤخر ويجوز ان يكون قريب مبتدأ لاعتماده على الاستفهام وما توعدون فاعل به أى أقريب الذى توعدون نحو أقائم أبواك وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وقوله تعالى (عالم الغيب) بدل من ربى أوبيان أوخبر مبتدأ مضمر أى هو عالم الغيب كله وهو مالم يبرز الى عالم الشهادة فهو مختص بعلمه سبحانه فلذلك تسبب عنه قوله تعالى (فلا يظهر) اى بوجه من الوجوه فى وقت من الاوقات (على غيبه) الذى غيبه عن غيره فهو مختص به (أحدا) لعزة علم الغيب ولانه خاصة الملك (الامن ارتضى) وقوله تعالى (من رسول) تبيين لمن ارتضى أى الامن يصطفيه لرسالته ونبوته فيظهره على مايشاء من الغيب وتارة يكون ذلك الرسول ملكا وتارة يكون بشرا وتارة يظهره على ذلك بواسطة ملك وتارة بغير واسطة

كموسى عليه السلام فى أوقات المناجاة ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فى العالم الاعلى فى حضرة قاب قوسين أو أدنى وقال القرطبى المعنى فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فانه يظهره على ما يشاء من غيبه لان الرسل مؤيدون بالمعجزات ومنها الاخبار عن بعض المغيبات كما ورد فى التنزيل فى قوله تعالى وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم وقال الزمخشرى فى هذه الآية ابطال الكرامات لان الذين تضاف اليهم وان كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خص الله تعالى الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وفيها ابطال الكهانة والتنجيم لان أصحابهما أبعد شئ من الارتضاء وأدخله فى السخط اه وانكار الكرامات مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فيثبتونها فانه يجوز أن يلهم الله تعالى بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع فى المستقبل فيخبر به وهو من اطلاع الله اياه على ذلك ويدل على صحة ذلك ما روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لقد كان فيمن قبلكم من الامم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء وان يكن فى أمتى أحد فانه عمر أخرجه البخارى قال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون ولمسلم عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول فى الامم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى منهم أحد فان عمر بن الخطاب منهم ففى هذا اثبات كرامات الاولياء فان قيل لو جازت الكرامة للولى لما تميزت معجزة النبى من غيرها وانسد الطريق الى معرفة الرسول من غيره (أجيب) بأن معجزة النبى أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقترن بالتحدى ولا يجوز للولى ان يدعى خرقا للعادة مع التحدى اذ لو ادعاه الولى لكفر من ساعته فبان الفرق بين المعجزة والكرامة وأما الكهانة وما ضاهاها فقال القرطبى ان العلماء قالوا لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ثم استثنى من ارتضاه من الرسل فأعلمهم ما شاء من غيبه بطريق الوحى اليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم وليس المنجم ومن ضاهاه ومن يضرب بالحصا وينظر فى الكواكب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه قال بعض العلماء وليت شعرى ما يقول المنجم فى سفينة ركب فيها ألف انسان مختلفى الاحوال والرتب فيهم الملك والسوقة والعالم والجاهل والغنى والفقير والكبير والصغير مع اختلاف طوالعهم وتباين مواليدهم ودرجات نجومهم فعمهم حكم الغرق فى ساعة واحدة فان قال قائل انما أغرقهم الطالع الذى ركبوا فيه فيكون على مقتضى ذلك ان هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم وما يقتضيه طالعه المخصوص به فلا فائدة اذا فى عمل المواليد ولا دلالة فيها على شقى وسعيد ولم يبق الا معاندة القرآن الكريم ولقد أحسن القائل

حكم المنجم ان طالع مولدى * يقضى على بميتة الغرق
قل للمنجم صبحة الطوفان هل * ولد الجميع بكوكب الغرق

وقيل لعلى رضى الله عنه لما أراد لقاء الخوارج تلقهم والقمر فى العقرب فقال فأين قمرهم

وكان ذلك فى آخر السنة فانظر الى هذه الكلمة التى أجاب بها وما فيها من المبالغة فى الرد على من يقول بالنجم وقال له مسافر بن عوف يا أمير المؤمنين لا تسر فى هذه الساعة وسر بعد ثلاث ساعات تمضين من النهار فقال له على ولم قال له انك ان سرت فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد وان سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظهرت وظفرت وأصبت ما طلبت فقال على ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم ولا لنا من بعده ثم قال فمن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون اتخذ من دون الله ندا أو ضدا اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ثم قال للمتكلم نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها ثم أقبل على الناس فقال يا أيها الناس اياكم وتعلم النجوم الا ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر انما المنجم كالكافر والكافر فى النار والمنجم كالساحر والساحر فى النار والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم أو تعمل بها لاخلدنك فى الحبس ما بقيت وبقيت ولاحرمنك العطاء ما كان لى سلطان ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها فلقى القوم فقتلهم وهى وقعة النهروان الثابتة فى صحيح مسلم ثم قال لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال انما كان ذلك بتنجيمى وما لمحمد منجم وما لنا بعده وقد فتح الله تعالى علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ثم قال يا أيها الناس توكلوا على الله وثقوا به فانه يكفى عمن سواه (فانه) أى الله سبحانه يظهر ذلك الرسول على ما يريد من ذلك الغيب وذلك أنه اذا أراد اظهاره عليه (يسلك) أى يدخل ادخال السلك فى الجوهرة فى تقومه ونفوذه من غير أدنى تعويج الى غير المراد (من بين يديه) أى الجهة التى يعلمها ذلك الرسول (ومن خلفه) أى الجهة التى تغيب عن علمه فصار ذلك كناية عن كل جهة قال البقاعى ويمكن أن يكون ذكر الجهتين دلالة على الكل وخصهما لان العدو متى أعريت واحدة منهما أتى منها ومتى حفظتا لم يأت من غيرهما لانه يصير بين الاولين والآخرين (رصدا) أى حرسا من جنوده يحرسونه ويحفظونه من الشياطين أن يسترقوا السمع من الملائكة ويحفظونه من الجن أن يسمعوا الوحى فيلقوه الى الكهنة قبل الرسول فيطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم حتى يبلغ ما يوحى اليه وقال مقاتل وغيره كان الله اذا بعث رسولا أتاه ابليس فى صورة ملك يخبر فبعث الله تعالى من بين يديه ومن خلفه رصدا من الملائكة يحرسونه ويطردون الشياطين فاذا جاءه شيطان فى صورة ملك أخبروه بأنه شيطان فاحذره واذا جاءه ملك قالوا له هذا رسول ربك وعن الضحاك ما بعث نبى الا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك (ليعلم) أى الله علم ظهور كقوله تعالى حتى نعلم المجاهدين (أن) مخففة من الثقيلة أى أنه (قد أبلغوا) أى الرسل (رسالات ربهم) وحد أولا على اللفظ فى قوله تعالى من بين يديه ومن خلفه ثم جمع على المعنى كقوله تعالى فان له نار جهنم خالدين فيها والمعنى ليبلغوا رسالات ربهم كما هى محروسة من الزيادة والنقصان وقيل ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن جبريل قد بلغ رسالات ربه وقيل ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم (وأحاط بما لديهم) أى بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شئ ولا ينسى منها حرفا فهو مهيمن عليها حافظ لها (وأحصى)

أى الله سبحانه وتعالى (كل شئ) أى من القطر والرمل وورق الاشجار وزبد البحر وغير ذلك (عددا) ولو على أقل مقادير الذر فيما لم يزل وفيما لا يزال فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه وقال ابن جبير رضى الله عنه ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط بما لديهم فيبلغوا رسالاته *(تنبيه)* هذه الآية تدل على أنه تعالى عالم بالجزئيات وبجميع الموجودات وعددا يجوز أن يكون تمييزا منقولا من المفعول به والاصل أحصى عدد كل شئ كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا أى عيون الارض وأن يكون منصوبا على الحال أى وضبط كل شئ معدودا محصورا وأن يكون مصدرا فى معنى الاحصاء وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنى صدق محمدا وكذب به عتق رقبة حديث موضوع

(سورة المزمل مكية)

فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس رضى الله عنهما الا آيتين منها واصبر على ما يقولون والتى تليها ذكره الماوردى وقال الثعلبى ان ربك يعلم أنك تقوم الى آخر السورة فانه نزل بالمدينة وهى تسع عشرة أو عشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وثمانية وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى من توكل عليه كفاه فى جميع الاحوال (الرحمن) الذى عم بنعمة الايجاد المهتدى والضال (الرحيم) الذى خص حزبه بالسداد فى الافعال والاقوال وقوله تعالى (يا أيها المزمل) أصله المتزمل فأدغمت التاء فى الزاى يقال ازمل يتزمل تزملا فاذا أريد الادغام اجتلبت همزة الوصل وهذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وفيه ثلاثة أقوال الاول قال عكرمة يا أيها المزمل بالنبوة والملتزم للرسالة وعنه يا أيها الذى ازمل هذا الامر أى حمله ثم فتر والثانى قال ابن عباس رضى الله عنهما يا أيها المزمل بالقرآن والثالث قال قتادة رضى الله عنه يا أيها المزمل بثيابه قال النخعى كان متزملا بقطيفة عائشة بمرط طوله أربعة عشر ذراعا قالت عائشة رضى الله عنها كان نصفه على وأنا نائمة ونصفه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى والله ما كان خزا ولا قزا ولا مرعزى ولا ابريسما ولا صوفا كان سداه شعرا ولحمته وبرا ذكره الثعلبى ولحمة الثوب بفتح اللام وضمها والفتح أفصح ولحمة النسب كذلك والضم أفصح ولحمة البازى بالضم لاغير لانها كاللقمة قال القرطبى وهذا القول من عائشة رضى الله عنها يدل على أن السورة مدنية فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يبن بها الا بالمدينة والقول بأنها مكية لا يصح وقال الضحاك تزمل لمنامه وقيل بلغه من المشركين قول سوء فيه فاشتد عليه فتزمل وتدثر فنزلت يا أيها المزمل ويا أيها المدثر وقيل كان هذا فى ابتداء ما أوحى اليه فانه صلى الله عليه وسلم لما جاءه الوحى فى غار حراء رجع الى خديجة رضى الله عنها زوجته يرجف فؤاده فقال زملونى زملونى لقد خشيت على نفسى أى أن يكون هذا مبادى شعر أو كهانة وكل ذلك من الشيطان وأن يكون الذى ظهر له بالوحى ليس الملك وكان صلى الله عليه وسلم يبغض الشعر والكهانة غاية البغضة فقالت له وكانت وزيرة صدق

رضى الله تعالى عنها كلا والله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ونحو هذا من الكمال الذى ينبت وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان نائما فى الليل متزملا فى قطيفة فنبه ونودى بما يهجن تلك الحالة التى كان عليها من التزمل فى قطيفته فقيل له يا أيها المزمل (قم الليل) أى الذى هو وقت الخلوة والخفية والستر فصل لنا فى كل ليلة من هذا الجنس وقف بين يدينا بالمناجاة والانس بما أنزل عليك من كلامنا فانا نريد اظهارك واعلاء قدرك فى البر والبحر والسر والجهر وقيام الليل فى الشرع معناه الصلاة فلذا لم يقيده وهى جامعة لانواع الاعمال الظاهرة والباطنة وهى عمادها فذكرها دال على ما عداها * ولما كان للبدن حظ فى الراحة قال تعالى مستثنيا من الليل (الا قليلا) أى من كل ليلة فان الاشتغال بالنوم فعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن ألا ترى الى قول ذى الرمة

وكائن تخطت ناقتى من مفازة * ومن نائم عن ليلها متزمل

يريد الكسلان المتقاعس الذى لا ينهض فى معاظم الامور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ونحوه * سهدا اذا ما نام ليل الهوجل * ومن أمثالهم

أوردها سعد وسعد مشتمل * ماهكذا توردياسعد الابل

فذمه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس وأمر بأن يختار على الهجود التهجد وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة فى الله لا جرم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر وأقبلوا على احياء لياليهم ورفضوا له الرقاد والدعة وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم وظهرت السيما فى وجوههم وتراقى أمرهم الى حد رحمهم له ربهم فخفف عنهم وقال الكلبى انما تزمل صلى الله عليه وسلم بثيابه ليتهيأ للصلاة وهو اختيار الفراء فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التى كان عليها وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه وعن عكرمة رضى الله عنه أن المعنى يا أيها الذى زمل أمرا عظيما أى حمله والزمل الحمل قال البغوى قال الحكماء كان هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فى أول الوحى قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعد بالنبى والرسول وقال السهيلى ليس المزمل من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم كما ذهب اليه بعض الناس وعدوه فى أسمائه صلى الله عليه وسلم وانما المزمل اسم مشتق من حاله التى كان عليها حين الخطاب وكذلك المدثر وفى خطابه بهذا الاسم فائدتان احداهما الملاطفة فان العرب اذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التى هو عليها كقول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى حين غاضب فاطمة رضى الله تعالى عنهما فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له قم أبا تراب اشعارا له بأنه غير عاتب عليه وملاطفة له وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة قم يا نومان وكان نائما ملاطفة له واشعارا بترك العتب والتأنيب فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم يا أيها المزمل قم فيه تأنيس وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقد ليله أن ينتبه الى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه لان الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من

عمل

عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة والليل مدة من غروب الشمس الى طلوع الفجر قال القرطبي واختلف هل كان قيامه فرضا أو نفلا والدلائل تقوى أن قيامه كان فرضا لان المندوب لا يقع على بعض الليل دون بعض لان قيامه ليس مخصوصا بوقت دون وقت * واختلف هل كان فرضا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده أو عليه وعلى من كان قبله من الانبياء أو عليه وعلى أمته على ثلاثة أقوال الاول قول سعيد بن جبير رضى الله عنه لتوجه الخطاب اليه الثانى قول ابن عباس رضى الله عنهما قال كان قيام الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم والانبياء قبله الثالث قول عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أيضا انه كان فرضا عليه وعلى أمته لما روى مسلم أن هشام بن عامر قال لعائشة رضى الله عنها أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ألست تقرأ يا أيها المزمل فقلت بلى فقالت فان الله عز وجل افترض قيام الليل فى أول هذه السورة فقام نبى الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثنى عشر شهرا فى السماء حتى أنزل الله عز وجل فى آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة وقيل عسر عليهم تمييز القدر الواجب فقاموا الليل كله وشق عليهم فنسخ بقوله تعالى آخرها فاقرؤا ما تيسر من القرآن وكان بين الوجوب ونسخه سنة وقيل نسخ التقدير بمكة وبقى التهجد حتى نسخ بالمدينة وروى وكيع ويعلى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزلت يا أيها المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها وكان بين نزول أولها وآخرها نحوا من سنة وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه مكث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزلت بعد عشر سنين ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل فخفف الله تعالى عنهم وقيل كان قيام الليل واجبا ثم نسخ بالصلوات الخمس والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم بعث يوم الاثنين فى رمضان وهو ابن أربعين سنة وقيل ثلاث وأربعين وآمنت به خديجة رضى الله عنها ثم بعدها قيل على رضى الله عنه وهو ابن تسع سنين وقيل ابن عشر وقيل أبو بكر وقيل زيد بن حارثة ثم أمر بتبليغ قومه بعد ثلاث من مبعثه فأول ما فرض عليه صلى الله عليه وسلم بعد الانذار والدعاء الى التوحيد من قيام الليل ما ذكر فى أول السورة ثم نسخ بما فى آخرها ثم نسخ بايجاب الصلوات الخمس ليلة الاسراء الى بيت المقدس بمكة بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر ليلة سبع وعشرين من رجب هذا ما ذكره النووى فى روضته وقال فى فتاويه بعد النبوة بخمس أو ست وجعل الليلة من ربيع الاول وخالفهما فى شرح مسلم وجزم بأنها من ربيع الآخر وقلد فيها القاضى عياضا والذى عليه الاكثر ما فى الروضة واستمر يصلى الى بيت المقدس مدة اقامته بمكة وبعد الهجرة ستة عشر شهرا أو سبعة عشر ثم أمر باستقبال الكعبة ثم فرض الصوم بعد الهجرة بسنتين تقريبا وفرضت الزكاة بعد الصوم وقيل قبله وفى السنة الثانية قيل فى نصف شعبان وقيل فى رجب حولت القبلة وفيها فرضت صدقة الفطر وفيها ابتدأ صلى الله عليه وسلم صلاة عيد الفطر ثم عيد الاضحى ثم فرض الحج سنة ست وقيل سنة خمس ولم يحج صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة الا حجة

الوداع واعتمر أربعا وتوفى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة من الهجرة * (فائدة) * الانبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم معصومون قبل النبوة من الكفر وفى المعاصى خلاف وبعدها من الكبائر وكذا من الصغائر ولو سهوا عند المحققين وقوله تعالى (نصفه) بدل من قليلا وقلته بالنظر الى الكل (أو انقص منه) أى من النصف (قليلا) أى الثلث (أو زد عليه) أى على النصف الى الثلثين وأو للتخيير فكان صلى الله عليه وسلم مخيرا بين هذه المقادير الثلاثة وكان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب وكذا بعض أصحابه واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم وقد تقدم أن ذلك نسخ بايجاب الصلوات الخمس فصار قيام الليل تطوعا فينبغى للمتعبد المواظبة عليه خصوصا فى الوقت الذى يتبارك الله تعالى بالتجلى فيه فانه صح أنه ينزل سبحانه عن أن تشبه ذاته شيأ أو نزوله نزول غيره بل هو كناية عن فتح باب السماء الذى هو كناية عن وقت استجابة الدعاء حتى يبقى ثلث الليل وفى رواية حتى يبقى شطر الليل الآخر الى سماء الدنيا فيقول سبحانه هل من سائل فأعطيه هل من تائب فأتوب عليه هل من كذا هل من كذا حتى يطلع الفجر * ولما أمر بالقيام وقدر وقته وعينه أمر بهيئة التلاوة التى هى روح الصلاة على وجه عام فقال تعالى (ورتل القرآن) أى اقرأه على ترسل وتؤدة وتبيين حروفه واشباع حركاته بحيث يتمكن السامع من عدها ويجىء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل وهو المفلج المشبه بنور الاقحوان وأن لا يهذه هذا ولا يسرده سردا كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه شر السير الحقحقة وشر القراءة الهذرمة وقال ابن مسعود رضى الله عنه ولا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر ولكن قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة وقوله تعالى (ترتيلا) تأكيد فى الامر به وأنه لا بد منه للقارئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما اقرأ على هينتك ثلاث آيات أو أربعا أو خمسا وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قام حتى أصبح بآية والآية ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وسئلت عائشة رضى الله عنها عن قراءته صلى الله عليه وسلم فقالت لا كسردكم هذا لو أراد السامع ان يعد حروفها لعدها وسئل أنس رضى الله عنه كيف كانت قراءة النبى صلى الله عليه وسلم قال كانت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم وجاء رجل الى ابن مسعود رضى الله عنه فقال قرأت المفصل الليلة فى ركعة فقال هذا كهذ الشعر لقد عرفت النظائر التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين فى ركعة وروى الحسن رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم مر برجل يقرأ آية ويبكى فقال ألم تسمعوا الى قول الله عز وجل ورتل القرآن ترتيلا هذا الترتيل وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن عوف قال قال النبى صلى الله عليه وسلم يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة فيوقف فى أول درج الجنة ويقال له اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها وندب اصغاء اليه وبكاء عند القراءة وتحسين صوت بها وتعوذ بها جهرا واعادته لفصل طويل وجلوس لها واستقبال وتدبر وتخشع وكرهت

بفم نجس وجازت بحمام وهى نظرا فى المصحف أفضل منها على ظهر قلب نعم ان زاد خشوعه وحضور قلبه فى القراءة عن ظهر قلب فهى أفضل فى حقه وهى أفضل من ذكر لم يخص بمحل وحرم توسد مصحف وندب كتبه وايضاحه ونقطه وشكله ويحرم كتبه بنجس ومسه بنجس غير معفو عنه وتحرم القراءة بالشواذ وهى مانقل آحادا وبعكس الآى وكره العكس فى السور الا فى تعليم وندب ختم القرآن أول نهار وأول ليل وختمه فى الصلاة أفضل من ختمه خارجها وندب صيام يوم الختم الا أن يصادف يوما نهى الشرع عن صيامه وندب الدعاء بعده وحضوره والشروع بعده فى ختمة أخرى وندب كثرة تلاوته ونسيانه كبيرة وكذا نسيان شئ منه ويحرم تفسيره بلا علم (انا) أى بمالنا من العظمة (سنلقى) أى بوعد لاخلف فيه (عليك قولا) أى قرآنا واختلف فى معنى قوله تعالى (ثقيلا) فقال قتادة رضى الله عنه ثقيل والله فرائضه وحدوده وقال مجاهد رضى الله عنه حلاله وحرامه وقال محمد بن كعب رضى الله عنه ثقيلا على المنافقين لانه يهتك أسرارهم ويبطل أديانهم وقيل على الكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وسب آلهتهم قال السدى رضى الله عنه ثقيلا بمعنى كريم مأخوذ من قولهم فلان ثقل على أى كرم على وقال الفراء ثقيلا أى رزينا وقال الحسين بن الفضل ثقيلا أى لا يحمله الا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد وقال ابن زيد هو والله ثقيل مبارك كما ثقل فى الدنيا ثقل فى الميزان يوم القيامة وقيل ثقيل أى ثابت كثبوت الثقيل فى محله ومعناه انه ثابت الاعجاز لا يزول اعجازه أبدا وقيل ثقيلا بمعنى ان العقل الواحد لايفى بادراك فوائده ومعانيه بالكلية فالمتكلمون غاصوا فى بحار معقولاته والفقهاء بحثوا فى أحكامه وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعانى ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل اليها المتقدمون فعلمنا أن الانسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله فصار كالجبل الثقيل الذى يعجز الخلق عن حمله والاولى أن تحمل هذه المعانى كلها فيه وقيل المراد هو الوحى كما جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أوحى اليه وهو على ناقته وضعت جرانها أى صدرها على الارض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه وعن الحرث بن هشام أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهذا أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا أى يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفاصد وقوله فيفصم عنى أى ينفصل عنى ويفارقنى وقد وعيت أى حفظت ما قال وقال القشيرى القول الثقيل هو قول لا اله الا الله لانه ورد فى الخبر لا اله الا الله خفيفة على اللسان ثقيلة فى الميزان وقال الزمخشرى هذه الآية اعتراض ثم قال واراد بهذا الاعتراض أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التى ورد بها القرآن لان الليل وقت السبات والراحة والهدو فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه اه فالاعتراض من حيث المعنى لا من حيث الصناعة وذلك أن قوله تعالى (ان ناشئة الليل) أى القيام بعد النوم (هى أشد وطأ) أى مواطأة

السمع للقلب على تفهم القرآن هي أشد مطابق لقوله قم الليل فكأنه شابه الاعتراض من حيث دخوله بين هذين المناسبين والمعنى سنلقي عليك باقتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله لأن الليل للمنام فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك الا بحمل مشقة شديدة على النفس ومجاهدة الشيطان فهو أمر ثقيل على العبد * ولما كان التهجد يجمع القول والفعل وبين ما في الفعل لانه أشق فكان بتقديم الترغيب بالمدحة أحق أتبعه القول فقال (وأقوم قيلا) أي وأعظم سدادا من جهة القيل في فهمه ووقعه في القلوب لخلو القلب لان الاصوات هادية والدنيا ساكنة فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه وقال قتادة ومجاهد رضي الله عنهم أصوب للقراءة وأثبت للقول لانه زمان التفهم لرياقة الليل بهدو الاصوات وتجلي الرب سبحانه بحصول البركات وأخلص من الرياء فبين الله تعالى بهذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للاجر وأجلب للثواب كان علي بن الحسين رضي الله عنه يصلي بين المغرب والعشاء ويقول هو ناشئة الليل وقال عطاء وعكرمة رضي الله عنهم هو بدء الليل وقال في الصحاح ناشئة الليل أول ساعاته وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما هي الليل كله لانه ينشأ بعد النهار وهو اختيار مالك قال ابن عربي وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة وقالت عائشة وابن عباس أيضا ومجاهد رضي الله عنهم انما الناشئة القيام بالليل بعد النوم ومن قام قبل النوم فما قام ناشئة وقال يمان بن كيسان هو القيام من آخر الليل وأما قوله تعالى أشد وطأ أي أثقل على المصلي من ساعات النهار لان الليل وقت منام وراحة فاذا قام الى صلاة الليل فقد تحمل المشقة العظيمة هذا على قراءة كسر الواو وفتح الطاء وبعدها ألف ممدودة وهمزة منونة وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر وقرأ الباقون بفتح الواو وسكون الطاء وبعدها همزة منونة فهي مصدر وطأت وطأ ومواطأة أي وافقت على الامر من الوفاق تقول فلان يواطئ اسمه اسمي أي يوافقه فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان لانقطاع الاصوات والحركات قاله مجاهد وغيره قال تعالى ليواطئوا عدة ما حرم الله أي ليوافقوا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اشدد وطأتك على مضر وقيل أشد مهادا للتصرف في الفكر والتدبر وقيل أشد ثباتا من النهار فان الليل يخلو فيه الانسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل والوطء الثبات تقول وطأت الارض بقدمي وفي الجملة عبادة الليل أشد نشاطا وأتم اخلاصا وأكثر بركة وأبلغ في الثواب (ان لك) أي أيها المتهجد أو يا أكرم الخلق ان كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (في النهار) الذي هو محل السعي في مصالح الدنيا (سبحا طويلا) أي تصرفا وتقلبا واقبالا وادبارا في حوائجك وأشغالك والسبح مصدر سبح استعير للتصرف في الحوائج من السباحة في الماء وهي البعد فيه. وقال القرطبي السبح الجري والدوران ومنه السباحة في الماء لتقلبه بيديه ورجليه وفرس سابح شديد الجري وقيل السبح الفراغ أي ان لك فراغا لحاجات النهار وعن ابن عباس رضي الله عنهما سبحا طويلا يعني فراغا طويلا لنومك وراحتك فاجعل ناشئة الليل لعبادتك وقيل ان فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه (واذكر اسم ربك)

أى المحسن اليك والموجد والمدبر لك بكل ما يكون ذكرا من اسم وصفة وثناء وخضوع وتسبيح وتحميد وصلاة وقراءة ودعاء واقبال على علم شرعى وادب مرعى ودم على ذلك فى ليلك ونهارك واحرص عليه فاذا عظمت الاسم بالذكر فقد عظمت المسمى بالتوحيد والاخلاص وذلك عون لك على مصالح الدارين أما الآخرة فواضح وأما الدنيا فقد أرشد النبى صلى الله عليه وسلم أعز الخلق عليه فاطمة ابنته رضى الله تعالى عنها لما سألته خادما يقيها التعب الى التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم (وتبتل) أى اجتهد فى قطع نفسك عن كل شاغل والاخلاص فى جميع أعمالها بالتدريج قليلا قليلا منتهيا (اليه) ولا تزل على ذلك حتى يصير ذلك لك خلقا فتكون نفسك كأنها منقطعة بغير قاطع وقوله تعالى (تبتيلا) مصدر تبتل جىء به رعاية للفواصل وهو ملزوم التبتيل قال الزمخشرى فان قلت كيف قيل تبتيلا مكان تبتلا قلت لان معنى تبتل بتل نفسه فجىء به على معناه مراعاة لحق الفواصل اه والتبتيل الانقطاع ومنه امرأة بتول أى منقطعة عن النكاح وفى الحديث انه نهى عن التبتل وقال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة أى مؤن النكاح فليتزوج والمراد به فى الآية الكريمة الانقطاع الى عبادة الله تعالى كما مرت الاشارة اليه دون ترك النكاح والتبتل فى الاصل الانقطاع عن الناس والجماعات وقيل ان أصله عند العرب التفرد قاله ابن عرفة وقال ابن العربى هذا فيما مضى وأما اليوم فقد مرجت عهود الناس وخفت أماناتهم واستولى الحرام على الحطام فالعزلة خير من الخلطة والعزبة أفضل من التأهل ولكن معنى الآية وانقطع عن الاوثان والاصنام وعن عبادة غير الله تعالى وكذلك قال مجاهد رضى الله عنه معناه أخلص له العبادة ولم يرد التبتيل فصار التبتل مأمورا به فى القرآن منهيا عنه فى السنة ومتعلق الامر غير متعلق النهى فلا يتناقضان وانما بعث لتبيين ما أنزل اليهم فالتبتل المأمور به الانقطاع الى الله تعالى باخلاص العبادة كما قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين والتبتل المنهى عنه هو سلوك مسلك النصارى فى ترك النكاح والترهب فى الصوامع لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواضع القطر يفر بدينه من الفتن * ولما كان الواجب على كل أحد شكر المنعم بين سبحانه الذى أنعم بسكن الليل الذى أمرنا بالتهجد فيه ومنتشر النهار الذى أمر بالسبح فيه فقال تعالى (رب المشرق) أى موجد محل الانوار التى بها ينمحى هذا الليل الذى أنت قائم فيه ويضىء بها الصباح وعند الصباح يحمد القوم السرى قال العلامة تقى الدين بن دقيق العيد

كم ليلة فيك وصلنا السرى * لا نعرف الغمض ولا نستريح

واختلف الاصحاب ماذا الذى * يزيل من شكواهم أو يريح

فقيل تعريسهم ساعة * وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

(والمغرب) أى الذى يكون عنده الليل الذى هو موضع السكون ومحل الخلوات ولذيذ المناجاة فلا تغرب شمس ولا قمر ولا نجم الا بتقديره (لا اله) أى لا معبود بحق (الا هو) أى ربك الذى دلت تربيته لك على مجامع العظمة وأبهى صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقرأ ابن

ابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي بكسر الباء على البدل من ربك وعن ابن عباس رضي الله عنهما على القسم باضمار حرف القسم كقولك الله لافعلن وجوابه لا اله الا هو كما تقول لا أحد في الدار الا زيد والباقون برفعها على انه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره لا اله الا هو (فاتخذه) أي خذه بجميع جهدك وذلك بافرادك اياه بكونه (وكيلا) أي على كل من خالفك بأن تفوض جميع أمورك اليه فانه يكفيكها كلها فانه المنفرد بالقدرة عليها ولا شئ في يد غيره فلا تهتم بشئ أصلا قال البقاعي وليس ذلك بأن يترك الانسان كل عمل فان ذلك طمع فارغ بل بالاجمال في طلب كل ماندب الانسان الى طلبه ليكون متوكلا في السبب لا من دون سبب فانه يكون حينئذ كمن يطلب الولد من غير زوجة وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الاسباب ولو لم يكن في افراده بالوكالة الا أنه يفارق الوكلاء بالعظمة والشرف والرفق من جميع الوجوه فان وكيلك من الناس دونك وأنت تتوقع أن يكلمك كثيرا في مصالحك وربك أعظم العظماء وهو يأمرك بأن تكلمه كثيرا في مصالحك وتسأله طويلا ووكيلك من الناس اذا حصل مالك سألك الاجرة وهو سبحانه يوفر مالك ويعطيك الاجر ووكيلك من الناس ينفق عليك من مالك وهو سبحانه يرزقك وينفق عليك من ماله ومن تمسك بهذه الآية عاش حرا كريما ومات خالصا شريفا واتقى الله تعالى عبدا صافيا مختارا تقيا ومن شرط الموحد أن يتوجه الى الواحد ويقبل عليه ويبذل له نفسه ويفوض اليه أمره ويترك التدبير ويثق به ويركن اليه ويتذلل لربوبيته ويتواضع لعظمته (واصبر على ما يقولون) أي المخالفون المفهومون من الوكالة من الاذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من قولهم ولا تمتنع من دعواهم وفوض أمرهم الي فاني اذا كنت وكيلا لك أقوم باصلاح أمرك أحسن من قيامك بأمور نفسك (واهجرهم) أي أعرض عنهم (هجرا جميلا) أي لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم فان ذلك ترك للدعاء الى الله تعالى وكان هذا قبل الامر بالقتال فانه صلى الله عليه وسلم منع في أول الاسلام من قتال الكفار وأمر هو وأصحابه بالصبر على أذاهم بقوله تعالى لتبلون في أموالكم الآية ثم أمر به اذا ابتدؤا بقوله تعالى وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ثم أبيح له ابتداؤه في غير الاشهر الحرم ثم أمر به مطلقا من غير تقييد بشرط ولا زمان بقوله تعالى واقتلوهم حيث ثقفتموهم (وذرني) أي اتركني (والمكذبين) أي لا تهتم الى الظفر بمرادك ومشتهاك الا أن تخلي بيني وبينهم بأن تكل أمرهم الي وتستكفينيه فان في ما يفرغ بالك ويجلي همك وليس ثم منع حتى تطلب اليه ان تذره واياه الا ترك الاستكفاء والتفويض كأنه اذا لم يكل اليه أمره فكأنه منعه منه فاذا وكله اليه فقد أزال المنع وتركه واياه وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب ويغايظ عليه واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت في المطعمين يوم بدر وهم عشرة فلم يكن الا يسيرا حتى قتلوا ببدر وقال يحيى بن سلام انهم بنو المغيرة وقال سعيد بن جبير أخبرت انهم اثنا عشر رجلا وقال البغوي نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين وقوله تعالى (أولي النعمة)

نعت للمكذبين أى أصحاب التنعم والترفه *(فائدة)* النعمة بالفتح التنعم وبالكسر الانعام وبالضم المسرة (ومهلهم) أى اتركهم برفق وتأن وتدريج ولا تهتم بشأنهم وقوله تعالى (قليلا) نعت لمصدر أى تمهيلا قليلا أو لظرف زمان محذوف أى زمانا قليلا فقتلوا بعد يسير يبدر وقوله تعالى (ان لدينا أنكالا) جمع نكل بالكسر وهو القيد الثقيل الذى لا ينفك أبدا وقال الكلبى أغلالا من حديد (وجحيما) أى نارا حامية جدا شديدة الاتقاد عما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب والتنعم برقيق اللباس وتكلف أنواع الراحة (وطعاما ذا غصة) أى يغص به فى الحلق وهو الزقوم أو الضريع أو الغسلين أو الشوك من نار لا يخرج ولا ينزل (وعذابا أليما) أى مؤلما ومعنى الآية ان لدينا فى الآخرة ما يضاد تنعمهم فى الدنيا وهى هذه الامور الاربعة النكال والجحيم والطعام الذى يغص به والعذاب الاليم والمراد به سائر أنواع العذاب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق وعن الحسن أنه أمسى صائما فأتى بطعام فعرضت له هذه الآية فقال ارفعه ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال ارفعه وكذلك الليلة الثالثة فأخبر ثابت البنانى ويزيد الضبى ويحيى البكاء فجاؤا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق وقوله تعالى (يوم ترجف) منصوب بالاستقرار المتعلق به لدينا والرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة فتزلزل (الارض) أى كلها (والجبال) أى التى هى أشدها (وكانت) أى وتكون (الجبال) التى هى مراسى الارض وأوتادها وعبر عن شدة الاختلاط والتلاشى بالتوحيد فقال تعالى (كثيبا) أى رملا مجتمعا من كثب الشئ اذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول فى أصله ومنه الكثبة من اللبن (مهيلا) قال ابن عباس رملا سائلا يتناثر وقال الكلبى هو الذى اذا أخذت منه شيأ تبعك ما بعده قال القرطبى وأصله مهيول وهو مفعول من قولك هلت عليه التراب أهيله اهالة وهيلا اذا صببته يقال مهيل ومهيول ومكيل ومكيول ومعين ومعيون قال الشاعر

قد كان قومك يحسبونك سيدا * واخال انك سيد معيون

وقال عليه الصلاة والسلام حين شكوا اليه الجدوبة اتكيلون أم تهيلون قالوا نهيل قال كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه وأصل مهيل مهيول استثقلت الضمة على الياء فنقلت الى الهاء فالتقى ساكنان فسيبويه واتباعه حذفوا الواو وكانت أولى بالحذف لانها زائدة وان كانت القاعدة أن ما يحذف لالتقاء الساكنين الاول ثم كسروا الهاء لتصح الياء ووزنه حينئذ مفعل والكسائى ومن تبعه حذفوا الياء لان القاعدة حذف الاول كما مر ولما خوف تعالى المكذبين أولى النعمة بأهوال يوم القيامة خوفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا فقال تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (أرسلنا اليكم) يا أهل مكة بشر فالكم خاصة والى كل من بلغته الدعوة عامة (رسولا) أى عظيما جدا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وامامهم وأجلهم وأفضلهم قدرا (شاهدا عليكم) أى بما تصنعون ليؤدى الشهادة عند طلبها منه يوم تنزع من كل أمة شهيدا وهو يوم القيامة (كما أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (الى فرعون) أى ملك مصر

(رسولا) وهو موسى عليه الصلاة والسلام وهذا تهديد لاهل مكة بالاخذ الوبيل قال مقاتل وانما ذكر موسى وفرعون دون سائر الرسل لان أهل مكة ازدروا محمدا صلى الله عليه وسلم واستخفوا به لانه ولد فيهم كما أن فرعون ازدرى بموسى عليه السلام لانه رباه ونشأ فيما بينهم كما قال تعالى حكاية عن فرعون ألم نربك فينا وليدا وذكر الرازي السؤال والجواب قال ابن عادل وهو ليس بالقوي لان ابراهيم عليه السلام ولد ونشأ فيما بين قوم نمروذ وكان آزر وزير نمروذ وعلى ماذكره المفسرون وكذا القول في هود ونوح وصالح ولوط لقوله تعالى في قصة كل واحد منهم لفظة أخاهم لانه من القبيلة التي بعث اليها انتهى وقد يقال الجامع بين محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام التربية فان أبا طالب تربى عنده النبي صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام تربى عند فرعون ولم يكن ذلك لغيرهما (فعصى فرعون الرسول) انما عرفه لتقدم ذكره وهذه أل العهدية والعرب اذا قدمت اسما ثم أتوا به ثانيا أتوا به معرفا بال أو أتوا بضميره لئلا يلتبس بغيره نحو رأيت رجلا فأكرمت الرجل أو فأكرمته ولو قلت فأكرمت رجلا لتوهم أنه غير الاول وقال المهدوي ودخلت الالف واللام في الرسول لتقدم ذكره ولذا اختير في أول الكتب سلام عليكم وفي آخرها السلام عليكم ثم تسبب عن عصيانه قوله تعالى (فأخذناه) أي فرعون بما لنا من العظمة وبين انه أخذ قهر وغضب بقوله تعالى (أخذا وبيلا) أي ثقيلا شديدا وضرب وبيل وعذاب وبيل أي شديد قاله ابن عباس ومجاهد ومنه مطر وابل أي شديد قاله الاخفش وقال الزجاج أي ثقيلا غليظا ومنه قيل للمطر وابل وقيل مهلكا والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة وفي ذلك تخويف لاهل مكة ثم خوفهم بيوم القيامة فقال تعالى (فكيف تتقون ان كفرتم) أي توجدون الوقاية التي تقي أنفسكم اذا كفرتم في الدنيا والمعنى لاسبيل لكم الى التقوى اذا رأيتم القيامة وقيل معناه فكيف تتقون العذاب يوم القيامة اذا كفرتم في الدنيا وقوله تعالى (يوما) مفعول تتقون أي عذابه أي بأي حصن تتحصنون من عذاب الله يوم (يجعل الولدان) وقوله تعالى (شيبا) جمع أشيب والاصل في الشين الضم وكسرت لمجانسة الياء ويقال في اليوم الشديد يوم يشيب نواصي الاطفال وهو مجاز ويجوز أن يراد في الآية الحقيقة والمعنى يصيرون شيوخا شمطا من هول ذلك اليوم وشدته وذلك حين يقال لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ذريتك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك وفي رواية والخير في يديك فينادي بصوت ان الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ابشروا فان من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ثم قال أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الاسود وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار وهي بفتح الراء وسكون القاف الاثر

الذى فى بطن عضد الحمار وانى لارجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبر القوم ثم قال فثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال شطر أهل الجنة فكبروا وفى هذا اشارة الى الاعتناء بهم لان اعطاء الانسان مرة بعد مرة دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته وفى هذا أيضا حملهم على تجديد شكر الله تعالى وحده على انعامه عليهم وهو تكبيرهم لهذه البشارة العظيمة ثم وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى (السماء منفطر) اى ذات انفطار أى انشقاق (به) أى بسبب ذلك اليوم لشدته فالباء سببية وجوز الزمخشرى أن تكون للاستعانة فانه قال والباء فى به مثلها فى قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به وقال القرطبي معنى به أى فيه أى فى ذلك اليوم وقيل به أى بالامر أى السماء منفطر بما يجعل الولدان شيبا وقيل منفطر بالله أى بأمره *(تنبيه)* انما لم تؤنث الصفة لوجوه منها قال ابو عمرو بن العلاء لانها بمعنى السقف تقول هذا سماء البيت قال تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا ومنها أنها على النسبة أى ذات انفطار نحو امرأة مرضع وحائض أى ذات ارضاع وذات حيض ومنها أنها تذكر وتؤنث أنشد الفراء

فلو رفع السماء اليه قوما * لحقنا بالسماء وبالسحاب

ومنها أنه اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء فيقال سماءة واسم الجنس يذكر ويؤنث ولهذا قال أبو على الفارسى هو كقوله تعالى منتشر وأعجاز نخل منقعر يعنى فجاء على أحد الجائزين أولان تأنيثها ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز تذكيره قال الشاعر * والعين بالاثمد الحيرى مكحول * والضمير فى قوله تعالى (كان وعده مفعولا) يجوز أن يكون لله وان لم يجر له ذكر للعلم به فيكون المصدر مضافا للفاعل ويجوز أن يكون لليوم فيكون مضافا للمفعول والفاعل وهو الله تعالى مقدر قال المفسرون كان وعده بالقيامة والحساب والجزاء مفعولا كائنا لا شك فيه ولا خلف وقال مقاتل كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله (ان هذه) أى الآيات الناطقة بالوعيد الشديد أو السورة (تذكرة) أى تذكير عظيم هو أهل لان يتعظ به ويعتبر به المعتبر ولا سيما ماذكر فيها لاهل الكفر من العذاب ولما كان سبحانه قد جعل للانسان عقلا يدرك به الحسن والقبيح واختيارا يتمكن به من اتباع ما يريد فلم يبق له مانع من جهة اختيار الاصلح والاحسن الا قهر المشيئة التى لا اطلاع له عليها ولا حيلة له فيها سبب عن ذلك قوله تعالى (فمن شاء اتخذ) أى بغاية جهده (الى ربه) أى المحسن اليه خاصة لا الى غيره (سبيلا) أى طريقا الى رضاه ورحمته فليرغب فقد أمكن له لانه أظهر له الحجج والدلائل قيل نسخت بآية السيف وكذلك قوله تعالى فمن شاء ذكره قال الثعلبى والاشبه أنه غير منسوخ (ان ربك) أى المدبر لامرك على مايكون احسانا اليك ورفقا بك (يعلم أنك تقوم) أى فى الصلاة كما أمرت به أول السورة (أدنى) أى زمانا أقل والادنى مشترك بين الاقرب والادون الانزل رتبة لان كلا منهما يلزم عنه قلة المسافة (من ثلثى الليل) وقرأ (ونصفه وثلثه) ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى بنصب الفاء بعد الصاد ونصب المثلثة بعد اللام ورفع الهاء فيهما عطف على أدنى والباقون بكسر الفاء والمثلثة وكسر الهاء فيهما عطف على ضمير تقوم وقيامه كذلك مطابق لما وقع التخيير فيه أول السورة من قيام النصف

بتمامه أو الناقص منه وهو الثلث أو الزائد عليه وهو الثلثان أو الاقل من الاقل من النصف وهو الربع وقوله تعالى (وطائفة من الذين معك) عطف على ضمير تقوم وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة من أصحابه كذلك للتأسي به ومنهم من كان لايدرى كم يصلى من الليل وكم بقى منه فيكان يقوم الليل كله احتياطا فناموا حتى انتفخت اقدامهم سنة وأكثر فخفف عنهم بقوله تعالى (والله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يقدر) أى تقديرا عظيما هو فى غاية التحرير (الليل والنهار) أى هو العالم بمقادير الليل والنهار فيعلم القدر الذى تقومون من الليل والذى تنامون منه (علم أن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى انه (لن تحصوه) أى الليل لتقوموا فيما يجب القيام فيه الابقيام جميعه وذلك يشق عليكم (فتاب عليكم) أى رجع بكم الى التخفيف بالترخص لكم فى ترك القيام المقدر أول السورة وقوله تعالى (فاقرؤا ماتيسر) أى سهل (من القرآن) فيه قولان أحدهما أن المراد بهذه القراءة القراءة فى الصلاة وذلك أن القراءة أحد أجزاء الصلاة فأطلق اسم الجزء على الكل والمعنى فصلوا ماتيسر عليكم قال الحسن يعنى فى صلاة المغرب والعشاء قال قيس بن أبى حازم صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ فى أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة ثم ركع ثم قام فى الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا فقال ان الله تعالى يقول فاقرؤا ماتيسر منه قال القشيرى والمشهور أن نسخ قيام الليل كان فى حق الامة وبقيت الفريضة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه بل نسخ بالكلية فلا تجب صلاة الليل أصلا واذا ثبت أن القيام ليس فرضا فقوله تعالى فاقرؤا ماتيسر من القرآن معناه اقرؤا ان تيسر عليكم ذلك وصلوا ان شئتم والقول الثانى أن المراد بقوله تعالى فاقرؤا ماتيسر من القرآن دراسته وتحصيل حفظه وأن لايعرض للنسيان سواء كان فى صلاة أم غيرها قال كعب من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين وقال سعيد خمسين آية قال القرطبى قول كعب أصح لقوله صلى الله عليه وسلم من قام بعشر آيات من القرآن لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين خرجه أبو داود والطيالسى وروى أنس ابن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ خمسين آية فى يوم أو فى ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتى آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الاجر فقوله من المقنطرين أى أعطى قنطارا من الاجر وجاء فى الحديث أنه ألف ومائتا أوقية والاوقية خير مما بين السماء والارض وقال أبو عبيدة القناطير واحدها قنطار ولاتجد العرب تعرف وزنه ولا واحد للقنطار من لفظه وقال ثعلب المعول عليه عند العرب أنه أربعة آلاف دينار فاذا قالوا قناطير مقنطرة فهى اثنا عشر ألف دينار وقيل ان القنطار ملء جلد ثور ذهبا وقيل ثمانون ألفا وقيل هو جملة كثيرة مجهولة من المال نقله ابن الاثير قال القرطبى والقول الثانى أصح حملا للخطاب على ظاهر اللفظ والقول الاول مجاز لانه من تسمية الشئ ببعض ماهو من أعماله واذا كان ذلك على قيام لا فى

قدر القراءة فلا دليل فيه على أن الفاتحة لا تتعين في الصلاة بل هي متعينة في كل ركعة لخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ولخبر لا تجزي صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب رواه ابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما ولفعله صلى الله عليه وسلم كما في مسلم مع خبر البخاري صلوا كما رأيتموني أصلي ويحمل قوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه مع خبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن على الفاتحة أو على العاجز عنها جمعا بين الادلة ولما كان هذا نسخا لما كان واجبا من قيام الليل أول السورة لعلمه سبحانه بعدم احصائه فسر ذلك العلم المجمل بعلم مفصل بيانا لحكمة أخرى للنسخ فقال تعالى (علم أن) مخففة من الثقيلة أى أنه (سيكون) أى بتقدير لا بد منه (منكم مرضى) جمع مريض وهذه السورة من أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ففي ذلك اشارة بأن أهل الاسلام يكثرون جدا (وآخرون) غير المرضى (يضربون) أى يوقعون الضرب (في الارض) أى يسافرون لان الماشي يجد ويضرب برجله في الارض (يبتغون) أى يطلبون طلبا شديدا (من فضل الله) أى بعض ما أوجده الملك الاعظم لعباده بالتجارة وغيرها (وآخرون) أى منكم أيها المسلمون (يقاتلون) أى يطلبون ويوقعون قتل أعداء الله تعالى ولذلك بينه بقوله تعالى (في سبيل الله) أى الملك الاعظم وكل من الفرق الثلاث يشق عليهم ما ذكر في قيام الليل وسوى سبحانه في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين للمال الحلال لنفقته على نفسه وعياله والاحسان فكان هذا دليلا على ان كسب المال بمنزلة الجهاد لانه جمعه مع الجهاد في سبيل الله قال صلى الله عليه وسلم ما من جالب يجلب طعاما من بلد الى بلد فيبيعه بسعر يومه الا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله وقال ابن مسعود أيما رجل جلب شيأ الى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء وقرأ وآخرون الآية وقال ابن عمر ما خلق الله تعالى موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله احب الي من الموت بين شعبتي رجل ابتغي من فضل الله ضاربا في الارض وقال طاوس الساعي على الارملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأعاد قوله تعالى (فاقرؤا ما تيسر منه) أى من القرآن للتأكيد (وأقيموا الصلاة) أى المكتوبة وهي خمس بجميع الامور التي تقوم بها من أركانها وشروطها وأبعاضها وهيآتها (وآتوا الزكاة) أى زكاة اموالكم وقال عكرمة وقتادة صدقة الفطر لان زكاة الاموال وجبت بعد ذلك وقيل صدقة التطوع وقيل كل فعل خير وقال ابن عباس طاعة الله تعالى والاخلاص (وأقرضوا الله) أى الملك الاعلى الذي له جميع صفات الكمال التي منها الغنى المطلق من أبدانكم وأموالكم في أوقات صحتكم ويساركم (قرضا حسنا) من نوافل الخيرات كلها برغبة تامة وعلى هيئة جميلة في ابتدائه وانتهائه وقال زيد بن أسلم القرض الحسن النفقة على الاهل وقيل صلة الرحم وقرى الضيف وقال عمر بن الخطاب هو النفقة في سبيل الله (وما تقدموا لانفسكم) أى خاصة سلفا لاجل ما بعد الموت حيث لا تقدرون على الاعمال (من خير) أى

خير كان من عبادات البدن والمال (تجدوه) أي محفوظا لكم (عند الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما (هو) أي لا غيره (خيرا) أي لكم وجاز ضمير الفصل بين غير معرفتين لأن أفعل منه كالمعرفة ولذلك يمتنع دخول أداة التعريف عليه والمعنى هو خير من الذي تدخرونه الى الوصية عند الموت قاله ابن عباس وقال الزجاج خيرا لكم من متاع الدنيا وروى البغوي بسنده عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيكم ماله أحب اليه من مال وارثه قالوا يا رسول الله ما منا من أحد الا ماله أحب اليه من مال وارثه قال اعلموا ما تقولون قالوا ما نعلم الا ذلك يا رسول الله قال انما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر (وأعظم أجرا) قال أبو هريرة يعني الجنة ويحتمل أن يكون أعظم أجرا الاعطائه بالجنة أجرا ولما كان الانسان اذا عمل ما يمدح عليه ولا سيما اذا كان المادح له ربه ربما أدركه الاعجاب بين له أنه لا يقدر بوجه على ان يقدر الله تعالى حق قدره فلا يزال مقصرا فلا يسعه الا العفو فقال عز من قائل (واستغفروا الله) أي اطلبوا وأوجدوا ستر الملك الاعظم الذي لا تحيطون بمعرفته فكيف بأداء حق خدمته لتقصيركم عينا وأثرا بفعل ما يرضيه واجتناب ما يسخطه (ان الله) أي الملك الاعظم (غفور) أي بالغ الستر لاعيان الذنوب وآثارها حتى لا يكون عنها عقاب ولا عتاب (رحيم) أي بالغ الاكرام بعد الستر افضالا واحسانا وتشريفا امتنانا وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة حديث موضوع

(سورة المدثر مكية)

(وهي خمس أو ست وخمسون آية ومائتان وخمس وخمسون كلمة وألف وعشرة أحرف)

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذي عم برحمته الابرار والفجار (الرحيم) الذي خص أصفياءه بما يوصلهم الى دار القرار ولما ختمت المزمل بالبشارة لارباب البصارة بعد ما بدئت بالاجتهاد في الخدمة المهيئ للقيام بأعباء الدعوة افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة فقال تعالى (يا أيها المدثر) روي عن يحيى بن أبي كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال يا أيها المدثر قلت يقولون اقرأ باسم ربك الذي خلق قال أبو سلمة سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ذلك الذي قلت فقال لي جابر لا أحدثك الا مثل ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جاورت بحرا شهرا فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيأ ونظرت عن شمالي فلم أر شيأ ونظرت عن خلفي فلم أر شيأ فرفعت رأسي فرأيت شيأ فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء باردا قال فنزل يا أيها المدثر الآية وذلك قبل ان تفرض الصلاة وفي رواية فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي وذكر نحوه وفيه فاذا قاعد على عرش في الهواء يعني جبريل عليه السلام فأخذتني رجفة شديدة وعن جابر من رواية الزهري عن أبي سلمة عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسلم يحدث عن فترة الوحى فقال لى فى حديثه فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والارض فجئثت منه رعبا فقلت زملونى زملونى فدثرونى فأنزل الله عزوجل يا أيها المدثر الى قوله فاهجر وفى رواية فجئثت منه حتى هويت الى الارض فجئت الى أهلى وذكره ثم حمى الوحى وتتابع (فان قيل) ان هذا الحديث دال على أن سورة المدثر أول مانزل ويعارضه حديث عائشة المخرج فى الصحيحين فى بدء الوحى وسيأتى فى موضعه ان شاء الله تعالى وفيه فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ مالم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده الحديث (أجيب) بأن الذى عليه العلماء ان أول مانزل من القرآن على الاطلاق اقرأ باسم ربك الذى خلق كما صرح به فى حديث عائشة ومن قال ان سورة المدثر أول مانزل من القرآن فضعيف وانما كان نزولها بعد فترة الوحى كما صرح به فى رواية الزهرى عن أبى سلمة عن جابر ويدل عليه مافى الحديث وهو يحدث عن فترة الوحى الى أن قال وأنزل الله تعالى يا أيها المدثر ويدل عليه قوله أيضا فاذا الملك الذى جاءنى بحراء وحاصله ان أول مانزل من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة اقرأ باسم ربك وان أول مانزل بعد فترة الوحى سورة المدثر وبهذا يحصل الجمع بين الحديثين * قوله فاذا هو قاعد على عرش بين السماء والارض يريد به السرير الذى يجلس عليه وقوله يحدث عن فترة الوحى أى عن احتباسه وعدم تتابعه وتواليه فى النزول وقوله فجئثت منه روى بجيم مضمومة ثم همزة مكسورة ثم ثاء مثلثة ساكنة ثم تاء الضمير وروى بثاءين مثلثتين بعد الجيم ومعناها فرعبت منه وفزعت وقوله حمى الوحى وتتابع أى كثر نزوله وازداد بعد فترته من قولهم حميت الشمس والنار اذا ازداد حرها وقوله وصبوا على ماء باردا فيه أنه ينبغى لمن فزع أن يصب عليه الماء ليسكن فزعه وأصل المدثر المتدثر وهو الذى يتدثر فى ثيابه ليستدفئ بها وأجمعوا على أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما سمى مدثرا لوجوه أحدها قوله صلى الله عليه وسلم دثرونى وثانيها أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما متدثرا بثيابه فجاءه جبريل عليه السلام وأيقظه صلى الله عليه وسلم وقال يا أيها المدثر (قم فانذر) أى حذر الناس من العذاب ان لم يؤمنوا والمعنى قم من مضجعك واترك التدثر بالثياب واشتغل بهذا المنصب الذى نصبك الله عزوجل له وثالثها ان الوليد بن المغيرة وأبا جهل وابا لهب والنضر بن الحرث اجتمعوا وقالوا ان وفود العرب يجتمعون فى أيام الحج وهم يسألون عن أمر محمد وقد اختلفتم فى الاخبار عنه فمن قائل هو مجنون وقائل ساحر وقائل كاهن وتعلم العرب ان هذا كله لايجتمع فى رجل واحد فيستدلون باختلاف الاجوبة على أنها أجوبة باطلة سموا محمدا باسم واحد تجتمعون عليه وتسميه العرب به فقام رجل منهم فقال انه شاعر فلما سمع صلى الله عليه وسلم ذلك اشتد عليه ورجع الى بيته محزونا فتدثر بقطيفة فأنزل الله تعالى يا أيها المدثر وقيل انه ليس المراد التدثر بالثياب وعلى هذا ففيه وجوه أيضا أحدها قال عكرمة المعنى يا أيها المدثر بالنبوة والرسالة من قولهم ألبسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم قال ابن العربى

وهذا مجاز بعيد لانه لم يكن نبيا بعد أى على القول بأنها أول سورة نزلت وأما على أنها نزلت بعد فترة الوحى فليس ببعيد وثانيها ان المدثر بالثوب يكون كالمختفى فيه وهو صلى الله عليه وسلم كان فى جبل حراء كالمختفى من الناس فكانه قال يا أيها المدثر بدثار الاختفاء قم بهذا الامر واخرج من زاوية الخمول واشتغل بانذار الخلق والدعوة الى معرفة الحق وثالثها أنه تعالى جعله رحمة للعالمين فكأنه قيل له يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم والخلق الكريم والرحمة الكاملة قم فانذر عذاب ربك وعلى كلا القولين فى ندائه بذلك ملاطفة فى الخطاب من الكريم الى الحبيب اذ ناداه بحاله وعبر عنه بصفته ولم يقل يا محمد (وربك) أى خاصة (فكبر) أى عظمه عما يقول عبدة الاوثان وصفه بأنه أكبر من أن تكون له صاحبة أو ولد وفى الحديث انهم قالوا بم نفتتح الصلاة فنزل وربك فكبر أى صفه بأنه أكبر قال ابن العربى وهذا القول وان كان يقتضى بعمومه تكبير الصلاة فانه يرادفه تكبير التقديس والتنزيه بخلع الانداد والاصنام دونه ولا يتخذ وليا غيره ولا يعبد سواه وروى أن أباسفيان قال يوم أحد اعل هبل وهو اسم صنم كان لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم قولوا الله أعلى وأجل وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع فى تكبير العبادات كلها أذانا وصلاة وذكرا بقول الله أكبر وحمل عليه لفظ النبى صلى الله عليه وسلم الوارد على الاطلاق موارده امنها قوله تحريمها التكبير وتحليلها التسليم والشرع يقتضى بعرفه ما يقتضى بعزمه ومن موارده أوقات الاهلال بالله تعالى تخليصا له من الشرك واعلاما باسمه بالنسك وافراد الما شرع من أمره بالنسك والمنقول عن النبى صلى الله عليه وسلم فى التكبير فى الصلاة هو لفظ الله أكبر وقال المفسرون لما نزل قوله تعالى وربك فكبر قام النبى صلى الله عليه وسلم وقال الله أكبر فكبرت خديجة رضى الله تعالى عنها وفرحت وعلمت انه وحى من الله تعالى ذكره القشيرى وقال مقاتل هو أن يقال الله أكبر وقيل المراد منه التكبير فى الصلاة (واستشكل) ذلك على القول بأنها أول سورة نزلت فان الصلاة لم تكن فرضت (وأجيب) بأنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان له صلوات تطوع فأمر أن يكبر فيها *(تنبيه)* دخلت الفاء فى قوله تعالى فكبر وفيما بعده لافادة معنى الشرط كانه قيل وما يكن فكبر ربك أو للدلالة على أن المقصود الاول من الامر بالقيام أن يكبر ربه عن الشرك والتشبيه فان أول ما يجب معرفة الصانع وأول ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه والقوم كانوا مقرين به (وثيابك فطهر) أى من النجاسات لان طهارة الثياب شرط فى صحة الصلاة لا تصح الا بها وهى الاولى والاحب فى غير الصلاة وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا قال الرازى اذا حملنا التطهير على حقيقته ففى الآية ثلاث احتمالات الاول قال الشافعى المقصود من الآية الاعلام بأن الصلاة لا تجوز الا فى ثياب طاهرة من الانجاس وثانيها روى أنهم ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلا شاة فشق عليه فرجع الى بيته حزينا وتدثر فى ثيابه صلى الله عليه وسلم فقيل يا أيها المدثر قم فانذر ولا تمنعك تلك الشناعة عن الانذار وربك فكبر على أن لا ينتقم منهم وثيابك فطهر عن تلك النجاسات والقاذورات وثالثها قال عبد الرحمن بن زيد بن

أسلم كان المشركون لا يصونون ثيابهم عن النجاسات فأمره الله تعالى أن يصون ثيابه عنها وقيل هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب فى تطويلهم الثياب وجرهم الذيول وذلك مما لا يؤمن معه اصابة النجاسة قال صلى الله عليه وسلم ازار المؤمن الى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من ذلك ففى النار فجعل صلى الله عليه وسلم الغاية فى لباس الازار الكعب وتوعد على ما تحته بالنار فما بال رجال يرسلون أذيالهم ويطيلون ثيابهم ثم يتكلفون رفعها بأيديهم وهذه حالة الكبر وقال صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله الى من جر ثوبه خيلاء وفى رواية من جر ازاره خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيامة قال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله ان أحد شقى ازارى يسترخى الا أنى أتعاهد ذلك منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لست ممن يصنعه خيلاء وقيل هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الافعال ويستهجن من العادات يقال فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل اذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الاخلاق وفلان دنس الثياب للغادر وذلك لان الثوب يلابس الانسان ويشتمل عليه فكنى به عنه ألا ترى الى قولهم أعجبنى زيد ثوبه كما تقول أعجبنى زيد عقله وخلقه ويقولون المجد فى ثوبه والكرم تحت حلته ولان الغالب أن من طهر باطنه ونقاه عنى بتطهير الظاهر وتنقيته وأبى الا اجتناب الخبيث وايثار الطهر فى كل شئ وقال عكرمة سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى وثيابك فطهر فقال لا تلبسها على معصية ولا على غدر ثم قال أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى

وانى بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول فى وصف الرجل بالصدق والوفاء طاهر الثياب ويقولون لمن غدر انه لدنس الثياب وقال أبى بن كعب لا تلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على اثم البسها وأنت بر طاهر وقال الحسن والقرظى وخلقك فحسن وقال سعيد بن جبير وقلبك وبيتك فطهر وقال مجاهد وابن زيد وعملك فاصلح وروى منصور عن أبى رزين قال يقول وعملك أصلح قال واذا كان الرجل خبيث العمل قالوا ان فلانا نجس الثياب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يحشر المرء فى ثوبيه اللذين مات عليهما يعنى عمله الصالح والطالح ذكره الماوردى وقيل المراد بالثياب الاهل أى طهرهم من الخطايا بالموعظة والتأديب والعرب تسمى الاهل ثوبا ولباسا وازارا قال تعالى هن لباس لكم وأنتم لباس لهن وقيل المراد به الدين أى ودينك فطهر جاء فى الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال رأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدى ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر بن الخطاب وعليه ازار يجره قالوا يا رسول الله فما أولت ذلك قال الدين وقوله تعالى (والرجز) فسره النبى صلى الله عليه وسلم بالاوثان (فاهجر) أى دم على هجره وقيل الزاى فيه منقلبة من السين والعرب تعاقب بين السين والزاى لقرب مخرجيهما دليل هذا التأويل قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان وروى عن ابن عباس ان معناه اترك المآثم وقرأ حفص بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان ومعناهما واحد وقال أبو العالية الرجز بضم الراء الصنم

وبالكسر النجاسة والمعصية وقال الضحاك يعني الشرك وقال الكلبي يعني العذاب قال البغوي ومجاز الآية اهجر ما أوجب لك العذاب من الاعمال وقوله تعالى (ولا تمنن تستكثر) مرفوع منصوب المحل على الحال أي لا تعط مستكثرا رائيا لما تعطيه كثيرا او اجعله خالصا لله تعالى ولا تطلب عوضا أصلا ومعنى تستكثر أي طالبا للكثرة كارها أن ينقص المال بسبب العطاء فيكون الاستكثار هنا عبارة عن طلب العوض كيف كان ليكون عطاؤه صلى الله عليه وسلم خاليا عن انتظار العوض والتفات النفس اليه وقيل لا تعط شيأ طالبا للكثير نهى عن الاستقرار وهو أن يهب شيأ وهو يطمع أن يعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث المستغزر يثاب من هبته وفيه وجهان أحدهما أن يكون نهيا خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر الآية لان الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الاخلاق والثاني أنه نهي تنزيه لا تحريم له ولامته وقيل انه تعالى لما أمره بأربعة أشياء انذار القوم وتكبير الرب وتطهير الثياب وهجر الرجز ثم قال ولا تمنن تستكثر أي لا تمنن على ربك بهذه الاعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله (ولربك فاصبر) أي على الاوامر والنواهي متقربا بذلك اليه غير ممتن به عليه وقال الحسن بحسناتك تستكثرها وقال ابن عباس ولا تعط عطية ملتمسا بها أفضل منها وقيل لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين والوحي مستكثرا بذلك الانعام فانك انما فعلت ذلك بأمر الله تبارك وتعالى فلا منة لك به عليهم ولهذا قال تعالى ولربك فاصبر وقيل لا تمنن عليهم بنبوتك لتستكثر أي لتأخذ منهم أجرا على ذلك تستكثر به مالك وقال مجاهد والربيع لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير فانه مما أنعم الله تعالى به عليك وقال ابن كيسان لا تستكثر عملك فتراه من نفسك انما عملك منة من الله تعالى عليك اذ جعل لك الله تعالى سبيلا الى عبادته وقال زيد بن أسلم اذا أعطيت عطية فأعطها لربك لا تقل دعوت فلم يستجب لي وقيل لا تفعل الخير لترائي به الناس * ولما ذكر تعالى ما يتعلق بارشاد النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بعده وعيد الاشقياء بقوله تعالى (فاذا نقر) أي نفخ (في الناقور) أي في الصور وهو القرن النفخة الثانية فاعول من النقر من أي التصويت وأصله القرع الذي هو سبب الصوت والفاء للسببية كأنه قال تعالى اصبر على زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وأعداؤك عاقبة ضرهم واذا ظرف لما دل عليه قوله تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين) لان معناه عسر الامر على الكافرين وذلك اشارة الى وقت النقر وهو مبتدأ خبره يوم عسير ويومئذ بدل أو ظرف لخبره اذ التقدير فذلك الوقت وقوع يوم عسير وقرأ على الكافرين وأصحاب النار أبو عمرو والدوري عن الكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح * ولما كان العسر قد يطلق على الشيء وفيه يسر من بعض الجهات أو يعالج فيرجع يسيرا بين أنه ليس كذلك بقوله تعالى (غير يسير) لجمع فيه بين اثبات الشيء ونفي ضده تحقيقا للامر ودفعا للمجاز عنه وتقييده بالكافرين يشعر بيسره على المؤمنين فانهم لا يناقشون الحساب ويحشرون بيض الوجوه ثقال الموازين قال الرازي ويحتمل أنه عسير على المؤمنين والكافرين الا أنه على

الكافرين أشد * (تنبيه) * قال الحليمي سمي الصور باسمين فان كان هو الذي ينفخ فيه النفختان فان نفخة الاصعاق بخلاف نفخة الاحياء وجاء في الاخبار أن في الصور ثقبا بعدد الارواح كلها وأنها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية فتخرج عند النفخ من كل ثقبة روح الى الجسد الذي نزعت منه فيعود الجسد حيا باذن الله تعالى (ذرني) أي اتركني على أي حالة اتفقت (ومن خلقت) معطوف على المفعول أو مفعول معه وقوله تعالى (وحيدا) فيه أوجه أحدها انه حال من الياء في ذرني أي ذرني وحدي معه فأنا أكفيك في الانتقام منه الثاني أنه حال من التاء في خلقت أي خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد فأنا أهلكه الثالث أنه حال من عائد المحذوف أي خلقته وحيدا فوحيدا على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف أي خلقته في بطن أمه وحيدا لا مال له ولا ولد ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته قاله مجاهد الرابع أن ينتصب على الذم لانه يقال ان وحيدا كان لقبا للوليد بن المغيرة المخزومي ومعنى وحيد اذ لما قيل انه كان يزعم انه وحيد في فضله وماله وليس في ذلك ما يقتضي صدق مقالته لان هذا اللقب له شهرة به وقد يلقب الانسان بما لا يتصف به واذا كان لقبا تعين نصبه على الذم قال ابن عباس كان الوليد يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لي في العرب نظير ولا لابي المغيرة نظير قال الرازي ورد هذا القول بعضهم بأنه تعالى لا يصدقه في دعواه تلك بأنه وحيد لا نظير له ذكره الواحدي وهو ضعيف من وجوه ثلاثة لانه قد يكون الوحيد علما فيزول السؤال لان اسم العلم لا يفيد في المسمى صفة بل هو قائم مقام الاشارة الثاني أن يكون ذلك بحسب ظنه واعتقاده كقوله عز وجل ذق انك أنت العزيز الكريم الثالث أنه وحيد في كفره وعناده وخبثه لان لفظ الوحيد ليس فيه أنه وحيد في العلو والشرف الرابع قال أبو سعيد الوحيد الذي لا أب له كما تقدم في الزنيم (وجعلت له) أي بأسباب أوجدتها أنا وحدي لا بحول منه ولا قوة بدليل أن غيره أقوى منه بدنا وقلبا وأوسع فكرا وعقلا وهو دونه في ذلك (مالا ممدودا) أي مالا واسعا كثيرا قال ابن عباس هو ما كان للوليد بمكة والطائف من الابل والبقر والغنم والحجور والجنان والعبيد والجواري واختلفوا في مبلغه فقال مجاهد وسعيد بن جبير ألف دينار وقال قتادة ستة آلاف دينار وقال سفيان الثوري مرة أربعة آلاف دينار ومرة ألف ألف دينار وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة وقال الرازي الممدود هو الذي يكون له مدد يأتي منه الجزء بعد الجزء دائما ولذلك فسره عمر غلة شهر بشهر وقال النعمان الممدود بالزيادة كالزروع والضروع وأنواع التجارات وقال مقاتل كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفا (وبنين) أي وجعلت له بنين (شهودا) أي حضورا معه لغناهم عن الاسفار بكثرة المال وانتشار الخدم وقوة الاعوان وهم مع حضورهم في الذروة من الحضور بتمام العقل وقوة الحذق فهم في غاية المعرفة ومع ذلك فهم أعيان المجالس وصدور المحافل كانه لا شاهد به غيرهم قال مجاهد وقتادة كانوا عشرة وقال السدي والضحاك كانوا اثني عشر رجلا وعن الضحاك سبعة ولدوا بمكة وخمسة بالطائف وقال مقاتل كانوا سبعة ولعله اقتصر على من ولد بمكة وعلى كل قول أسلم منهم ثلاثة خالد الذي

من الله تعالى على المسلمين باسلامه فكان سيف الله وسيف رسوله صلى الله عليه وسلم وهشام وعمارة (ومهدت) أي بسطت (له) العيش والعمر والولد والتمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة ومنه مهد الصبي وقال ابن عباس أي وسعت له ما بين اليمن الى الشأم وعن مجاهد انه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش فلم يرع هذه النعمة العظيمة وقوله تعالى (تمهيدا) تأكيد (ثم) أي بعد الامر العظيم الذي ارتكبه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم (يطمع) أي بغير سبب يدلي به مما جعلناه سبب المزيد من الشكر (ان أزيد) أي فيما آتيته في دنياه أو في آخرته وهو يكذب رسولنا صلى الله عليه وسلم وقال الحسن ثم يطمع أن أدخله الجنة وكان الوليد يقول ان كان محمد صادقا فما خلقت الجنة الا لي فقال الله تعالى ردا عليه وتكذيبا له (كلا) أي وعزتنا وجلالنا لا تكون له زيادة على ذلك أصلا وأما النقصان فسيرى ان استمر على تكذيبه فلم تدع عن هذا الطمع ولينزجر وليرتجع فانه حمق محض وزخرف بحت وغرور صرف قالوا فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك فقيرا * (تنبيه) * كلا قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة فيكون متصلا بالكلام الاول وقيل كلا بمعنى حقا ويبتدأ بقوله تعالى (انه) أي هذا الموصوف (كان) أي بخلق كأنه جبلة له وطبع لا يقدر على الانفكاك عنه (لآياتنا) على مالها من العظمة خاصة لكونها هادية الى الوحدانية لا الى غيرها من الشبه القائدة الى الشرك (عنيدا) قال قتادة أي جاحدا وقال مقاتل معرضا وقال مجاهد انه المجانب للحق وجمع العنيد عند مثل رغيف ورغف والعنيد بمعنى المعاند والعناد كما قال الملوي من كبر في النفس ويبس في الطبع وشراسة في الاخلاق أو خبل في العقل وقد جمع ذلك كله ابليس لعنه الله تعالى لانه خلق من نار وهي من طبعها اليبوسة وعدم الطواعية * (تنبيه) * في الآية اشارة الى أن الوليد كان معاندا في أمور كثيرة منها انه كان يعاند في دلائل التوحيد وصحة النبوة وصحة البعث ومنها ان كفره كان عنادا لانه كان يعرف هذه الاشياء بقلبه وينكرها بلسانه وكفر العناد أفحش أنواع الكفر ومنها أن قوله تعالى كان يدل على أن هذه حرفته من قديم الزمان (سأرهقه) أي أكلفه (صعودا) أي مشقة من العذاب لا راحة له فيها وروى الترمذي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوي وفي رواية أنه كلما وضع يده في معالجة الصعود ذابت فاذا رفعها عادت وكذا رجله وقال الكلبي انه صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه بسلاسل الحديد ويضرب من خلفه بمقامع الحديد فيصعدها في أربعين عاما فاذا بلغ ذروتها أسقط الى أسفلها ثم يكلف أن يصعدها فذلك دأبه أبدا (انه) أي هذا العنيد (فكر) أي ردد فكره وأداره تابعا لهواه لاجل الوقوع على شيء يطعن به في القرآن أو النبي صلى الله عليه وسلم (وقدر) أي أوقع تقدير الامور التي يطعن بها وقاسها في نفسه لعلمه أنها أقرب الى القبول وذلك ان الله تعالى لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الى قوله تعالى المصير قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يستمع قراءته فلما فطن النبي

صلى

صلى الله عليه وسلم لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بنى مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه ثم انصرف الى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم فقال أبو جهل أنا أكفيكموه فانطلق فقعد الى جنب الوليد حزينا فقال له الوليد مالى أراك حزينا يا ابن أخى قال وما يمنعنى أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد وانك داخل على ابن ابى كبشة وابن أبى قحافة تسأل من فضل طعامهم فغضب الوليد وقال ألم تعلم انى من أكثرهم مالا وولدا وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ثم قام مع أبى جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط قالوا اللهم لا قال تزعمون انه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن فقالوا اللهم لا قال تزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط قالوا اللهم لا قال تزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيأ من الكذب قالوا اللهم لا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الامين قبل النبوة من صدقه فقالت قريش للوليد فما هو فتفكر فى نفسه وقدر وما أسر قال الله تعالى (فقتل) أى هلك وطرد ولعن فى دنياه هذه (كيف قدر) أى على أى كيفية أوقع تقديره هذا (ثم قتل) أى هلك ولعن هذا العنيد هلاكا ولعنا هو فى غاية العظمة فيما بعد الموت فى البرزخ والقيامة (كيف قدر) فثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الاولى ونحوه قوله * ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى * ومعنى قول القائل قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره للاشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك وأما ثم المتوسطة بين الافعال التى بعدها فهى للدلالة على أنه تأنى فى التأمل وتمهل وكان بين الافعال المتناسقة تراخ وتباعد وقوله تعالى (ثم نظر) عطف على فكر وقدر والدعاء اعتراض بينهما والنظر اما فى وجوه قومه واما فيما يقدح به فى القرآن (ثم عبس) أى قبض وجهه وكلحه ونظر مع تقبض جلد ما بين العينين بكراهة شديدة كالمهتم للتفكر فى شئ وهو لا يجد فيه فرجا لانه ضاقت عليه الحيل لكونه لم يجد فيما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم مطعنا وقيل عبس وجهه فى وجوه المؤمنين وذلك أنه لما قال لقريش ان محمدا ساحر مر على جماعة من المسلمين فدعوه الى الاسلام فعبس فى وجوههم وقيل عبس على النبى صلى الله عليه وسلم حين دعاه (وبسر) أى زاد فى القبض والكلح يقال وجه باسر أى منقبض أسود كالح متغير اللون قاله قتادة (ثم) اى بعد هذا التروى العظيم (أدبر) أى عما أداه اليه فكره من الايمان بسلامة المنظور فيه وعلوه عن المطاعن فحاد عن وجوه الافكار الى أقفيتها (واستكبر) أى أوجد الكبر عن الاعتراف بالحق ايجاد من هو فى غاية الرغبة فيه (فقال) أى عقب ما جره اليه طبعه الخبيث من ايقاع الكبر على هذا الوجه لكونه رآه نافعا لهم فى الدنيا (ان) أى ما (هذا) أى الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم (الا سحر) أى أمور تخييلية لا حقائق لها وهى لدقتها بحيث تخفى أسبابها أمارأيتموه يفرق

بين الرجل وأهله وماله وولده ومواليه فما هو الاسحر (يؤثر) أي من شأنه أن ينقله السامع عن غيره فهو ينقله من مسيلمة وأهل بابل كما قال (ان) أي ما (هو) أي القرآن (الاقول البشر) أي ليس فيه شئ عن الله تعالى فلا يغتر أحد به ولا يعرج عليه فارتج النادي فرحا ثم تفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه قيل وهذا شبيه بما قال بعضهم

لو قيل كم خمس وخمس لاغتدى * يوما وليلته يعد ويحسب
ويقول معضلة يعجب أمرها * ولئن فهمت لها الامر أعجب
خمس وخمس ستة أو سبعة * قولان قالهما الخليل وثعلب

فكان قوله هذا سبب هلاكه فكان كما قال بعضهم

احفظ لسانك أيها الانسان * لا يلدغنك انه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه * كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقوله تعالى (سأصليه) أي أدخله (سقر) أي جهنم بوعد لا بد منه عن قريب بدل من سأرهقه صعودا وقوله تعالى (وما أدراك ما سقر) تعظيم لشأنها وقوله تعالى (لا تبقي ولا تذر) بيان لذلك أو حال من سقر والعامل فيها معنى التعظيم والمعنى لا تبقي شيأ يلقى فيها الا أهلكته فاذا أهلكته لم تذره هالكا حتى يعاد أو لا تبقي على شئ ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة وسميت سقر من سقرته الشمس اذا أذابته ولا تنصرف للتعريف والتأنيث قال ابن عباس سقر اسم للطبقة السادسة فان درك النار سبعة جهنم ولظى والحطمة والسعير والجحيم وسقر والهاوية (لواحة) من لوح الهجير قال

تقول ما لاحك يا مسافر * يا ابنة عمي لاحني الهواجر

(للبشر) أي محرقة لظاهر الجلد فتدعه أشد سوادا من الليل قال تعالى تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون والبشر اعالي البشرة وهو جمع بشرة وجمع البشر أبشار وعن الحسن تلوح للناس كقوله تعالى ثم لترونها عين اليقين وقيل اللوح شدة العطش يقال لاحه العطش ولوحه أي غيره وقال الاخفش والمعنى انها معطشة للبشر أي لاهلها وأنشد

سقتني على لوح من الماء شربة * سقاها من الله الرهام الغواديا

يعني باللوح شدة العطش والرهام جمع رهمة بالكسر وهي المطرة الضعيفة وأرهمت السحابة أتت بالرهام (عليها تسعة عشر) أي من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر وقيل التسعة عشر نقباء وقال أكثر المفسرين تسعة عشر ملكا بأعيانهم وقيل تسعة عشر ألف ملك قال ابن جريج نعت النبي صلى الله عليه وسلم خزنة جهنم فقال أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصي وأشعارهم تمس أقدامهم يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة نزعت منهم الرحمة يدفع أحدهم سبعين ألفا فيرميهم حيث أراد من جهنم قال عمرو بن دينار واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر قال ابن الاثير الصياصي قرون البقر قال ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال

ابو

أبو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم يعني الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم فقال أبو الاشد بن كالدة بن خلف الجمحي أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري وسبعة على بطني فاكفوني أنتم اثنين وروى أنه قال أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فادفع عشرة بمنكبي الايمن وسبعة بمنكبي الايسر في النار ونمضي فندخل الجنة فأنزل الله عز وجل (وماجعلنا) أي بمالنا من العظمة وان خفي وجه العظمة فيه على من عمي قلبه (أصحاب النار) أي خزنتها (الاملائكة) أي لم نجعلهم رجالا فتغالبونهم وانما جعلناهم ملائكة لانهم خلاف جنسي الفريقين من الجن والانس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرحمة والرأفة ولانهم أشد بأسا وأقوى بطشا فقوتهم أعظم من قوة الانس والجن ولذلك جعل الرسول الى البشر من جنسهم ليكون له رأفة ورحمة بهم (فان قيل) ثبت في الاخبار أن الملائكة مخلوقون من النور فكيف تطيق المكث في النار (أجيب) بأن الله تعالى قادر على كل الممكنات فكما أنه لا استبعاد في أنه يبقى الحي في مثل ذلك العذاب الشديد أبد الآباد ولا يموت فكذا لا استبعاد في ابقاء الملائكة هناك من غير ألم (وماجعلنا) أي بمالنا من العظمة (عدتهم) أي مذكورة ومحصورة (الافتنة) أي بلية (للذين كفروا) وقال ابن عباس رضي الله عنه ماضلالة وفتنة مفعول ثان على حذف مضاف أي الاسبب فتنة وللذين صفة الفتنة وليست فتنة مفعولا له وقول البيضاوي وماجعلنا عددهم الا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر تبعا للزمخشري قال أبو حيان انه تحريف لكتاب الله اذ زعم أن معنى الافتنة للذين كفروا الاتسعة عشر وهذا لا يذهب اليه عاقل ولا من له أدنى ذكاء وقال الرازي انما صار هذا العدد سببا لفتنة الكفار من وجهين الاول ان الكفار يستهزؤن ويقولون لم لا يكونون عشرين وما المقتضي لتخصيص هذا العدد والثاني ان الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر العالم من الجن والانس من أول ماخلق الله الى قيام الساعة (وأجيب) عن الاول بأن هذا السؤال لازم على كل عدد يفرض وعن الثاني بأنه لا يبعد ان الله تعالى يرزق ذلك العدد القليل قوة تفي بذلك فقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ورفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأيضا فأحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا ولا للعقل فيها مجال وذكر أرباب المعاني في تقرير هذا العدد وجهين أحدهما ماقاله أرباب الحكمة أن سبب فساد النفس الانسانية في قوتها النظرية والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية فالقوى الحيوانية هي الخمسة الظاهرة والخمسة الباطنة والشهوة والغضب فهذه اثنا عشر وأما القوى الطبيعية فهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة فالمجموع تسعة عشر فلما كانت هذه منشآت الآبرم كان عدد الزبانية هكذا ثانيهما ان أبواب جهنم سبعة فستة منها للكفار وواحد للفساق ثم ان الكفار يدخلون النار لامور ثلاثة ترك الاعتقاد وترك الاقرار وترك العمل فيكون لكل باب من تلك الابواب الستة ثلاثة فالمجموع ثمانية عشر وأما باب الفساق

فليس هنالك الا ترك العمل فالمجموع تسعة عشر مشغولة بغير العبادة فلا جرم صار عدد الزبانية تسعة عشر وقوله تعالى (ليستيقن الذين) متعلق بجعلنا الا بفتنة وقيل بفعل مضمر أى فعلنا ذلك ليستيقن الذين (أوتوا الكتاب) أى أعطوا التوراة والانجيل فانه مكتوب فيهما أنه تسعة عشر فذلك موافقة لما عندهم (ويزداد الذين آمنوا) أى من أهل الكتاب (ايمانا) أى تصديقا بالموافقة النبي صلى الله عليه وسلم لما فى كتبهم (ولا يرتاب) أى يشك (الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) فى عددهم (فان قيل) قد أثبت الاستيقان لاهل الكتاب وزيادة الايمان للمؤمنين فما فائدة ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون (أجيب) بأن الانسان اذا اجتهد فى أمر غامض دقيق الحجة كثير الشبه فحصل له اليقين فربما غفل عن مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق فيعود الشك فاثبات اليقين فى بعض الاحوال لا ينافى طريان الارتياب بعد ذلك ففائدة هذه الجملة نفى ذلك الشك وأنه حصل لهم يقين جازم لا يحصل عقبه شك البتة (وليقول الذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق وان قل ونزول هذه السورة قبل وجود المنافقين فهو علم من أعلام النبوة فانه اخبار بمكة عما سيكون بالمدينة بعد الهجرة ولا ينكر جعل الله تعالى بعض الامور علة اصلاح ناس وفساد آخرين لانه لا يسئل عما يفعل على أن العلة قد تكون مقصودة لشئ بالقصد الاول ثم يترتب عليها شئ آخر يكون قصده بالقصد الثانى تقول خرجت من البلد لمخافة الشر ومخافة الشر لا يتعلق بها الغرض (والكافرون) أى ويقول الراسخون فى الكفر الجازمون بالتكذيب الساترون لما دلت عليه الادلة من الحق (ماذا) أى أى شئ (أراد الله) أى الملك الذى له جميع العظمة (بهذا) اى العدد القليل فى جنب عظمته (مثلا) قال الجلال المحلى سموه لغرابته بذلك وأعرب حالا وقال الليث المثل الحديث ومنه مثل الجنة التى وعد المتقون أى حديثها والخبر عنها وقال الرازى انما سموه مثلا لانه لما كان هذا العدد عددا عجيبا ظن القوم انه ربما لم يكن مراد الله تعالى منه ما أشعر به ظاهره بل جعله مثلا لشئ آخر وتنبيها على مقصود آخر لا جرم سموه مثلا على سبيل الاستعارة لانهم لما استغربوه ظنوا أنه ضرب مثلا لغيره ومثلا تمييزا وحال وتسمية هذا مثلا على سبيل الاستعارة لغرابته * ولما كان التقدير أراد بهذا اضلال من ضل وهو لا يبالى وهداية من اهتدى وهو لا يبالى كان كأنه قيل هل يفعل مثل ذلك فى غير هذا فقال تعالى (كذلك) أى مثل هذا المذكور من الاضلال والهداية (يضل الله) أى الذى له مجامع العظمة ومعاقد العز (من يشاء) بأى كلام شاء كاضلال الله تعالى أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم (ويهدى) بقدرته التامة (من يشاء) بنفس ذلك الكلام أو بغيره كهداية أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهذه الآية تدل على مذهب أهل السنة لانه تعالى قال فى أول الآية وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا الخ ثم قال تعالى كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء (وما يعلم جنود ربك) أى المحسن اليك بأنواع الاحسان المدبر لامرك (الا هو) أى الله سبحانه وتعالى قال مقاتل رضى الله عنه وهذا جواب لابى جهل حيث قال ما لمحمد أعوان الا تسعة عشر وقال مجاهد رضى الله عنه وما يعلم جنود ربك يعنى من الملائكة الذين خلقهم

لتعذيب أهل النار ولا يعلم عدتهم الا الله تعالى والمعنى أن تسعة عشر هم خزنة النار ولهم من الاعوان والجنود من الملائكة مالا يعلم عدتهم الا الله تعالى ولو أراد لجعل الخزنة أكثر من ذلك فقد روى أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة لا تعود لهم نوبة أخرى وروى أن الارض فى السماء كحلقة ملقاة فى فلاة وكل سماء فى التى فوقها كذلك وورد فى الخبر أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع وفى رواية موضع قدم الا وفيه ملك قائم يصلى وفى رواية ساجد وانما خص هذا العدد لحكم لا يعلمها الا هو * ثم رجع الى ذكر سقر فقال تعالى (وما هى) أى النار التى هى من أعظم جنوده (الا ذكرى للبشر) أى ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله وأنه سبحانه لا يحتاج الى أعوان وأنصار وللبشر مفعول بذكرى واللام فيه مزيدة وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع لمن أنكرها أو انكار لان يتذكروا بها قاله البيضاوى وقال البغوى هذا قسم يقول حقا وقال الجلال المحلى استفتاح بمعنى الا (والقمر) أى الذى هو آية الليل الهادية من ضل بظلامه (والليل اذ أدبر) أى مضى فانقلب راجعا من حيث جاء فانكشف ظلامه وقرأ نافع وحمزة وحفص بسكون الذال المعجمة والدال المهملة بعدها وهمزة قطع مفتوحة بين المعجمة والمهملة الساكنين والباقون بفتح الذال المعجمة وبعدها ألف وفتح المهملة بعد الالف فالقراءة الاولى اذ أدبر والثانية اذا دبر وكلاهما لغة يقال دبر الليل وأدبر اذا ولى مدبرا ذاهبا قال أبو عمرو ودبر لغة قريش وقال قطرب دبر أى أقبل تقول العرب دبرنى فلان أى جاء خلفى فالليل يأتى خلف النهار وقوله تعالى (والصبح اذا أسفر) أى أضاء وتبين وقوله تعالى (انها لاحدى الكبر) جواب للقسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كالتاء فلما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظير ذلك القواصع فى جمع القاصعاء كأنها جمع فاعلة أى لاحدى البلايا والدواهى الكبر ومعنى كونها احداهن انها من بينهن واحدة فى العظم لا نظير لها كما تقول هو أحد الرجال وهى احدى النساء وقوله تعالى (نذيرا) تمييز من احدى على معنى انها لاحدى الدواهى انذارا كما تقول هى احدى النساء عفافا وقيل هى حال وقيل هو متصل بأول السورة أى قم نذيرا (للبشر) قال الزمخشرى وهو من بدع التفاسير وقوله تعالى (لمن شاء) أى بارادته (منكم) بدل من البشر (أن يتقدم) أى الى الخير أو الى الجنة بالايمان (أو يتأخر) أى الى الشر أو النار بالكفر (كل نفس) أى ذكر أو أنثى على العموم (بما كسبت) أى خاصة لا بما كسب غيرها (رهينة) أى مرهونة مأخوذة وليست بتأنيث رهين فى قوله تعالى كل امرئ بما كسب رهين لتأنيث النفس لانه لو قصدت الصفة لقيل رهين لان فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث وانما هى اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل كل نفس بما كسبت رهن ومنه بيت الحماسة

أبعد الذى بالنعف نعف كويكب * رهينة رمس ذى تراب وجندل

كأنه قال والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك (الا أصحاب اليمين) وهم المؤمنون

فانهم فكوا رقابهم بايمانهم وبما أحسنوا من أعمالهم وقيل هم الملائكة وروى عن على أنهم أطفال المسلمين وقال مقاتل رضى الله عنه هم أهل الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق حين قال لهم الله هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وعنه أيضا هم الذين أعطوا كتبهم بايمانهم وقال الحسن رضى الله عنه هم المسلمون الخالصون وقال القاسم كل نفس مأخوذة بكسبها خيرا أو شرا الا من اعتمد على الفضل فكل من اعتمد على الكسب فهو رهين به ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ ولما أخرجهم من حكم الارتهان الذى أطلق على الاهلاك لانه سببه استأنف بيان حالهم فقال تعالى (فى جنات) أى بساتين فى غاية العظم لانهم أطلقوا أنفسهم وفكوا رقابهم فلم يرتهنوا (يتساءلون) أى فيما بينهم يسأل بعضهم بعضا أو يسألون غيرهم (عن المجرمين) أى عن أحوالهم ويقولون لهم بعد اخراج الموحدين من النار (ما) محتملة للاستفهام والتعجب والتوبيخ (سلككم) أى أدخلكم أيها المجرمون ادخالا هو فى غاية الضيق حتى كأنكم السلك فى الثقب وقرأ السوسى بادغام الكاف فى الكاف والباقون بالاظهار (فى سقر) فأجابوا بأن (قالوا لم نك من المصلين) أى صلاة يعتدبها فكان هذا تنبيها على أن رسوخ القدم فى الصلاة مانع من مثل حالهم وعلى أنهم معاقبون على فروع الشريعة وان كانت لا تصح منهم فلو فعلوها قبل الايمان لم يعتدبها وعلى أن الصلاة أعظم الاعمال وأن الحسنات بها تقدم على غيرها (ولم نك نطعم المسكين) أى نعطيه ما يجب علينا اعطاؤه له (وكنا نخوض) أى نوجد الكلام الذى هو فى غير مواقعه ولا علم لنا به ايجاد الماشى من الخائض فى ماء غمر (مع الخائضين) بحيث صار لنا هذا وصفا راسخا فنقول فى القرآن انه سحر وانه شعر وانه كهانة وغير هذا من الاباطيل لا نتورع عن شئ من ذلك ولا نقف مع عقل ولا نرجع الى صحيح نقل فليأخذ الذين يبادرون الى الكلام فى كل ما يسألون عنه من أنواع العلم من غير تثبت منزلتهم من هنا (وكنا نكذب) أى بحيث صار ذلك وصفا ثابتا (بيوم الدين) أى بيوم البعث والجزاء (حتى أتانا اليقين) أى الموت أو مقدماته الذى قطعنا عن دار العمل قال الله تعالى حتى يأتيك اليقين (فان قيل) لم أخر التكذيب وهو أخس الخصال الاربع (أجيب) بأنهم بعد اتصافهم بتلك الامور الثلاثة كانوا مكذبين بيوم الدين والغرض تعظيم الذنب كقوله تعالى كان من الذين آمنوا * ولما أتروا على أنفسهم بما أوجب العذاب الدائم فكانوا ممن فسد مزاجه فتعذر علاجه سبب عنه قوله تعالى (فما تنفعهم) أى فى حال اتصافهم بهذه الصفات (شفاعة الشافعين) أى لا شفاعة لهم فلا انتفاع بها وليس المراد أن ثم شفاعة غير نافعة كقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهذه الآية تدل على صحة الشفاعة للمذنبين من المؤمنين بمفهومها لان تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدل على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يشفع نبيكم عليه الصلاة والسلام رابع أربعة جبرائيل ثم ابراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ويبقى قوم فى جهنم يقال لهم ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين الى قوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين

قال

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فهؤلاء الذين فى جهنم (فما لهم عن التذكرة معرضين) أى فما لأهل مكة قد أعرضوا وولوا عن القرآن قال مقاتل رضى الله عنه معرضين عن القرآن من وجهين أحدهما الجحود والانكار والثانى ترك العمل بما فيه وقيل المراد بالتذكرة العظة بالقرآن وغيره من المواعظ ومعرضين حال من الضمير فى الجار الواقع خبرا عن ما الاستفهامية ومثل هذه الحال تسمى حالا لازمة وعن التذكرة متعلق به أى أى شئ حصل لهم فى اعراضهم عن الاتعاظ (كأنهم) فى اعراضهم عن التذكرة من شدة النفور (حمر) أى من حمر الوحش وهى أشد الأشياء نفارا ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب فى وصف الابل بسرعة السير بالحمر فى عدوها اذا وردت ماء فأحست بما يريبها (مستنفرة) أى موجدة للنفار بغاية الرغبة حتى كأنها تطلبه من أنفسها لانه شأنها وطبعها وقرأ ابن عامر ونافع بفتح الفاء على انه اسم مفعول أى نفرها القناص والباقون بكسرها بمعنى نافرة (فرت من قسورة) قال مجاهد رضى الله عنه هى جماعة الرماة الذين يتصيدونها لا واحد له من لفظه وهى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه هو القناص وعن زيد بن أسلم فريق من رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسور وقسورة وعن أبى المتوكل هى لغط القوم وأصواتهم وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال حبال الصيادين وقال أبو هريرة رضى الله عنه هى الاسد وهو قول عطاء والكلبى وذلك ان الحمر الوحشية اذا عاينت الاسد هربت كذلك هؤلاء المشركون اذا سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن هربوا وعن عكرمة رضى الله عنه ظلمة الليل ويقال لسواد الليل قسورة وفى تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما فى قوله تعالى كمثل الحمار يحمل أسفارا شهادة عليهم بالبله وقلة العقل * ولما كان الجواب قطعا لا شئ لهم فى اعراضهم هذا أضرب عنه بقوله تعالى (بل يريد) أى على دعواهم فى زعمهم (كل امرئ منهم) أى المعرضين من ادعائه الكمال فى المروأة (أن يؤتى) أى من السماء (صحفا) أى قراطيس مكتوبة (منشرة) أى مفتوحة وذلك ان أبا جهل وجماعة من قريش قالوا يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين الى فلان بن فلان ونؤمر فيه باتباعك ونظيره لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه وعن ابن عباس رضى الله عنهما كانوا يقولون ان كان محمد صادقا ليصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته من النار وقال الكلبى رضى الله عنه ان المشركين قالوا يا محمد بلغنا أن الرجل من بنى اسرائيل كان يصبح مكتوبا عند رأسه ذنبه وكفارته فائتنا بمثل ذلك وقالوا اذا كانت ذنوب الانسان تكتب عليه فما لنا لا نرى ذلك قال البغوى والصحف جمع الصحيفة ومنشرة منشورة قال الله تعالى (كلا) أى لا يؤتون الصحف وقيل حقا قال البغوى وكل ما ورد عليك منه فهذا وجهه قال ابن عادل والاول أجود لانه رد لقولهم * ثم بين تعالى سبب اعراضهم بقوله تعالى (بل لا يخافون) أى فى زمن من الازمان (الآخرة) فهذا هو السبب فى اعراضهم وقوله تعالى (كلا) استفتاح قاله الجلال المحلى وقال البيضاوى ردع عن اعراضهم وقال البغوى وتبعه ابن عادل حقا (انه) أى القرآن (تذكرة) أى عظيمة توجب ايجابا

عظيما اتباعه وعدم الانفكاك عنه بوجه فليس لاحد أن يقول أنا مغرور ولم أجد مذكرا ولا معترفا فان عنده أعظم مذكر وأشرف معترف (فمن شاء) أى أن يذكره (ذكره) أى اتعظ به وجعله نصب عينيه وعلم معناه وتخلق به فمن فعل ذلك سهل عليه لفظه وبعض معانيه فانه كالبحر الفرات فمن شاء اغترف (وما يذكرون) أى فى وقت من الاوقات (الا أن يشاء الله) أى الملك الاعظم الذى لا أمر لاحد معه ذكرهم أو مشيئتهم كقوله تعالى وما تشاؤن الا أن يشاء الله وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى وقرأ نافع بتاء الخطاب وهو التفات من الغيبة الى الخطاب والباقون بياء الغيبة حملا على ما تقدم من قوله تعالى كل امرئ (هو) أى الله سبحانه وتعالى وحده (أهل التقوى) أى أن يتقيه عباده ويحذروا غضبه بكل ما تصل قدرهم اليه لما له من الجلال والعظمة والقهر وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وأبو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين (وأهل المغفرة) أى وحقيق أن يطلب غفرانه للذنوب لاسيما اذا اتقاه المذنب لان له الجمال واللطف وهو القادر ولا قدرة لغيره فلا ينفعه شئ ولا يضره روى الترمذى وأحمد والحاكم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية هو أهل التقوى وأهل المغفرة يقول الله تعالى أنا أهل أن أتقى فمن اتقى أن يشرك بى غيرى فأنا أهل أن أغفر له ووقف الكسائى على أهل المغفرة بالامالة على أصله وورش بترقيق الراء وقفا ووصلا على أصله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المدثر أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به حديث موضوع

(سورة القيامة مكية)

وهى تسع وثلاثون آية ومائة وسبع وتسعون كلمة وستمائة واثنان وخمسون حرفا

(بسم الله) الذى له الجلال والكمال (الرحمن) الذى عم بنعمة الايجاد أهل الهدى والضلال (الرحيم) الذى سدد أهل العناية فى الافعال والاقوال * واختلف فى لا فى قوله تعالى (لا أقسم) على أوجه أحدها انها نافية لكلام المشركين المنكرين للبعث أى ليس الامر كما زعموا ثم ابتدأ أقسم (بيوم القيامة) قال القرطبى ان القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار فجاء الاقسام بالرد عليهم كقولك لا والله لا أفعل فلا رد لكلام قد مضى كقولك لا والله ان القيامة لحق كأنك أكذبت قوما أنكروه الثانى انها مزيدة مثلها فى لئلا يعلم أهل الكتاب واعترضوا هذا بأنها انما زاد فى وسط الكلام لا فى أوله وأجيب بأن القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض يدل على ذلك انه قد يجئ ذكر الشئ فى سورة ويذكر جوابه فى سورة أخرى كقوله تعالى يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وجوابه فى سورة أخرى ما أنت بنعمة ربك بمجنون واذا كان كذلك كان أول هذه السورة جاريا مجرى الوسط ورد هذا بأن القرآن فى حكم السورة الواحدة فى عدم التناقض لا أن تقرن سورة بما بعدها فذلك غير جائز الثالث قال الزمخشرى ادخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم واشعارهم قال امرؤ القيس

لا وأبيك ابنة العامرى * لا يدعى القوم انى أفر

وفائدتها توكيد القسم ثم قال الزمخشرى بعد ان ذكر وجه الزيادة والاعتراض والجواب كما تقدم والوجه أن يقال هى للنفى والمعنى فى ذلك انه لا يقسم بالشئ الا اعظاما له يدل عليه قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم فكأنه بادخال حرف النفى يقول ان اعظامى له باقسامى به كلا اعظام يعنى انه يستأهل فوق ذلك قال بعضهم قول الزمخشرى والوجه أن يقال الى آخره تقريراته وله ادخال لا النافية فيه على فعل القسم مستفيض الى آخره وحاصل كلامه يرجع الى انها نافية وأن النفى متسلط على فعل القسم بالمعنى الذى شرحه وليس فيه نفع لفظا ولا معنى وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزى بغير ألف بعد اللام والهمزة مضمومة والباقون بالالف ويعبر عن قراءة ابن كثير بالقصر وعن قراءة الباقين بالمد ولا خلاف فى قوله تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) فى المد والكلام فى لا المتقدمة وجرى الجلال المحلى على انها زائدة فى الموضعين واختلف فى النفس اللوامة فقيل هى نفس المؤمن الذى لا تراه يلوم الا نفسه تقول ما أردت بكذا ولا تراه يعاتب الا نفسه وقال الحسن رضى الله عنه هى والله نفس المؤمن ماترى المؤمن الا يلوم نفسه ما أردت بكلامى ما أردت بأكلى ما أردت بحديثى والفاجر لا يحاسب نفسه وقال مجاهد رضى الله عنه هى التى تلوم على مافات فتلوم نفسها على الشر لم فعلته وعلى الخير لم لا تستكثر منه وقيل تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها وقيل المراد آدم عليه السلام لم يزل لائما نفسه على معصيته التى أخرج بها من الجنة وقيل هى الملومة فتكون صفة ذم وهو قول من نفى أن تكون قسما وعلى الاول صفة مدح فيكون القسم بها سائغا وقال مقاتل رضى الله عنه هى نفس الكافر يلوم نفسه تحسرا فى الآخرة على مافرط فى جنب الله تعالى وجواب القسم محذوف اى لتبعثن دل عليه قوله تعالى (أيحسب الانسان) أى هذا النوع الذى جبل على الانس بنفسه والنظر فى عطفه وأسند الفعل الى النوع كله لان أكثرهم كذلك لغلبة الحظوظ على العقل الا من عصم الله تعالى وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (ألن) أى انا لا (نجمع) أى على مالنا من العظمة (عظامه) أى التى هى قالب بدنه فنعيدها كما كانت بعد تفرقها وتفتتها للبعث والحساب وقيل نزلت فى عدى بن ربيعة حليف بنى زهرة ختن الاخنس ابن شريق الثقفى وذلك ان عديا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد حدثنى عن القيامة متى تقوم وكيف أمرها وحالها فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقال لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أومن بك أو يجمع الله العظام بعد تفرقها ورجوعها رميما ورفاتا مختلطا بالتراب وبعد مانسفتها الرياح وطيرتها فى أباعد الارض ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اكفنى جارى السوء عدى بن ربيعة والاخنس بن شريق وقيل نزلت فى عدو الله أبى جهل أنكر البعث بعد الموت وذكر العظام والمراد نفسه كلها لان العظام قالب الخلق *(تنبيه)* ألن هنا موصولة وليس بين الهمزة واللام نون فى الرسم كما ترى وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد النفى المنسحب عليه الاستفهام وهو وقف حسن ثم يبتدئ بقوله تعالى (قادرين) وقيل المعنى بل

نجمعها قادرين مع جمعها (على أن نسوى بنانه) أى أصابعه وسلامياته وهى عظامه الصغار التى فى يده خصها بالذكر لانها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه أى نجمع بعضها على بعض على ما كانت عليه قبل الموت لانا قدرنا على تفصيل عظامه وتفتيتها فنقدر على جمعها وتوصيلها وقدرنا على جمع صغار العظام فنحن على جمع كبارها أقدر وقال ابن عباس وأكثر المفسرين على أن نسوى بنانه أى نجعل أصابع يديه ورجليه شيأ واحدا كخف البعير أو كحافر الحمار أو كظلف الخنزير فلا يمكنه أن يعمل بها شيأ ولكنا فرقنا أصابعه حتى يفعل بها ما شاء وقيل نقدر أن نصير الانسان فى هيئة البهائم فكيف فى صورته التى كان عليها وهو كقوله تعالى وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون وقوله تعالى (بل يريد الانسان) عطف على أيحسب فيجوز أن يكون استفهاما وأن يكون جوابا للجواز أن يكون الاضراب عن المستفهم وعن الاستفهام (ليفجر أمامه) أى ليدوم على فجوره فيما يستقبله من زمان لا يبرح عنه ولا يتوب هذا قول مجاهد رضى الله عنه وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه يقدم الذنب ويؤخر التوبة فيقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على أشر أحواله وأسوأ أعماله وقال الضحاك رضى الله عنه هو الامل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت وقال ابن عباس رضى الله عنهما يكذب بما أمامه من البعث والحساب وأصل الفجور الميل وسمى الكافر والفاسق فاجرا لميله عن الحق (يسأل) أى سؤال استهزاء واستبعاد (أيان) أى أى وقت يكون (يوم القيامة) ولما كان الجواب يوم يكون كذا وكذا اعدل عنه الى ما سبب عن استبعاده لانه أهول فقال تعالى (فاذا برق البصر) اى شخص ووقف لما يرى مما كان يكذب به هذا على قراءة نافع بفتح الراء وأما على قراءة كسرها فالمعنى تحير ودهش مما يرى وقيل هما لغتان فى التحير والدهشة (وخسف القمر) أى أظلم وذهب ضوءه وقد اشتهر أن الخسوف للقمر والكسوف للشمس وقيل يكونان فيهما يقال خسفت الشمس وكسفت وخسف القمر وكسف وقيل الكسوف أوله والخسوف آخره ولم تلحق علامة التأنيث فى قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) لان التأنيث مجازى وقيل لتغليب التذكير ورد لانه لا يقال قام هند وزيد عند الجمهور من العرب وقال الكسائى حمل على جمع النيران وقال الفراء لم يقل جمعت لان المعنى جمع بينهما قال الفراء والزجاج جمع بينهما فى ذهاب ضوئهما فلا ضوء للشمس كالا ضوء للقمر بعد خسوفه وقال ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران فى النار وقال عطاء بن يسار رضى الله عنه يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار الله الكبرى وقيل يجمعان فى نار جهنم لانهما قد عبدا من دون الله تعالى ولا تكون النار عذابا لهما لانهما جماد وانما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبكيت الكفار وحسرتهم وقوله تعالى (يقول الانسان) أى لشدة روعه جريا مع طبعه جواب اذا من قوله تعالى فاذا برق البصر (يومئذ) أى اذا كانت هذه الاشياء وقوله تعالى (أين المفر) منصوب المحل بالقول والمفر مصدر بمعنى الفرار قال الماوردى ويحتمل وجهين أحدهما أين المفر من الله تعالى استحياء منه والثانى

أين المفر من جهنم حذرا منها ويحتمل هذا القول من الانسان وجهين أحدهما أن يكون من الكافر خاصة في عرصة القيامة دون المؤمن لثقة المؤمن ببشرى ربه تعالى والثانى أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ماشاهدوا منها وقيل أبو جهل خاصة وقوله تعالى (كلا) ردع عن طلب المفر (لا وزر) أى لا ملجأ ولا حصن استعير من الجبل قال السدى كانوا فى الدنيا اذا فزعوا تحصنوا فى الجبال فقال الله تعالى لهم لا وزر يعصمكم منى يومئذ واشتقاقه من الوزر وهو الثقل (الى ربك) أى المحسن اليك بأنواع الاحسان لا الى شىء غيره (يومئذ) اى اذ كانت هذه الامور (المستقر) أى استقرار الخلق كلهم ناطقهم وصامتهم ومكان قرارهم وزمانه الى حكمه سبحانه ومشيئته ظاهرا وباطنا لا حكم لغيره بوجه من الوجوه فى ظاهر ولا باطن كما هو فى الدنيا وقال ابن مسعود المصير والمرجع قال الله تعالى الى ربك الرجعى واليه المصير وقال السدى المنتهى نظيره وان الى ربك المنتهى (ينبأ) أى يخبر تخبيرا عظيما (الانسان يومئذ) أى اذا كان الزلزال الاكبر (بما قدم) قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهم بما قدم قبل موته من عمل صالح وسىء (وأخر) بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها وقال ابن عطية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة وقال قتادة بما قدم من طاعة الله وآخر من حق الله فضيعه وقال مجاهد بأول عمله وآخره وقال عطاء بما قدم فى أول عمره وما أخر فى آخر عمره وقال يزيد بن اسلم بما قدم من أموال نفسه وما أخر خلفه للورثة والاولى أن يقال ينبأ بجميع ذلك اذ لا منافاة بين هذه الاقوال (بل الانسان) أى كل واحد من هذا النوع (على نفسه) أى خاصة (بصيرة) أى حجة بينة على أعماله والهاء للمبالغة يعنى أنه فى غاية المعرفة باحوال نفسه فيشهد عليه بعمله سمعه وبصره وجوارحه قال الله تعالى كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا قال البغوى ويحتمل أن يكون معناه بل للانسان على نفسه يعنى جوارحه فحذف حرف الجر كقوله تعالى وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم أى لاولادكم ويجوز أن يكون نعتا لاسم مؤنث أى بل الانسان على نفسه عين بصيرة (ولو ألقى) أى ذكر بغاية السرعة ذلك الانسان من غير تلعثم دلالة على غاية الصدق والاهتمام والتماق وقوله تعالى (معاذيره) جمع معذرة على غير قياس قاله الجلال المحلى أى لو جاء بكل معذرة ماقبلت منه وقال الزمخشرى المعاذير ليس بجمع معذرة وانما هو اسم جمع لها ونحوه المناكير فى المنكر اه قال أبو حيان وليس هذا البناء من ابنية أسماء الجموع وانما هو من أبنية جموع التكسير اه وقيل معاذير جمع معذار وهو الستر والمعنى ولو أرخى ستوره والمعاذير الستور بلغة اليمن قاله الضحاك وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولو ألقى معاذيره أى ولو تجرد عن ثيابه * ولما كان صلى الله عليه وسلم اذا لقن الوحى نازع جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر الى أن يتمها مسارعة الى الحفظ وخوفا من أن ينفلت منه أمره الله تعالى بأن ينصت له ملقيا اليه بقلبه وسمعه حتى يقضى الله تعالى وحيه ثم يعقبه بالدراسة الى أن يرسخ فيه بقوله تعالى (لا تحرك به) أى بالقرآن (لسانك) مادام جبريل عليه السلام يقرؤه (لتعجل به) أى

لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك فان هذه العجلة وان كانت من الكمالات بالنسبة اليك والى اخوانك من الانبياء عليهم السلام كما قال موسى عليه السلام وعجلت اليك رب لترضى نقل صلى الله عليه وسلم من مقام كامل الى أكمل منه ثم علل النهى عن العجلة بقوله تعالى (ان علينا) أى بما لنا من العظمة لا على أحد سوانا (جمعه) أى فى صدرك حتى تثبته وتحفظه (وقرآنه) أى قراءتك اياه يعنى جريانه على لسانك (فاذا قرأناه) عليك بقراءة جبريل عليه السلام (فاتبع) أى بغاية جهدك بالقاء سمعك واحضار قلبك (قرآنه) أى قراءته مجموعة على حسب ما أداه رسولنا وجمعناه لك فى صدرك وكرر تلاوته حتى يصير لك به ملكة عظيمة ويصير لك خلقا فيكون قائدك الى كل خير وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل جبريل بالوحى كان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه وكان يعرف منه فأنزل الله تعالى الآية التى فى لا أقسم بيوم القيامة لا تحرك به لسانك الآية فكان صلى الله عليه وسلم اذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق فاذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى قال سعيد بن جبير قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما فأنزل الله عز وجل الآية (ثم ان علينا) أى بما لنا من العظمة (بيانه) أى بيان ألفاظه ومعانيه لك سواء أسمعته من جبريل عليه السلام على مثل صلصلة الجرس أم بكلام الناس المعتاد بالصوت والحروف ولغيرك على لسانك وعلى ألسنة العلماء من أمتك والآية مشيرة الى ترك مطلق العجلة لانه اذا نهى عنها فى أعظم الاشياء وأهمها كان غيره بطريق الاولى والمناسبة بين هذه الآية وما قبلها ان تلك تضمنت الاعراض عن آيات الله تعالى وهذه تضمنت المبادرة اليها بحفظها وقوله تعالى (كلا) استفتاح بمعنى ألا وقال الزمخشرى ردع للنبى صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وقال جماعة من المفسرين حقا والاول جرى عليه الجلال المحلى وهو أظهر (بل يحبون) متجددة على تجدد الزمان (العاجلة) بدليل أنهم يقبلون غاية الاقبال عليها وحبها أوجب لهم ارتكاب ما يعلمون قبحه فان الآخرة والاولى ضرتان من تقرب من أحدهما لا بد من تباعده عن الاخرى فان حبك للشئ يعمى ويصم (ويذرون) أى يتركون على أى وجه كان ولو أنه غير مستحسن (الآخرة) لانهم يبغضونها لارتكابهم ما يضرهم فيها وجمع الضمير وان كان مبنى الخطاب مع الانسان للمعنى وقرأ يحبون ويذرون ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بياء الغيبة فيهما حملا على لفظ الانسان المذكور أولا لان المراد به الجنس لان لانسان بمعنى الناس والباقون بتاء الخطاب فيهما اما خطابا بالكفار قريش أى تحبون يا كفار قريش العاجلة أى الدار الدنيا وما فيها وتتركون الآخرة والعمل لها واما التفاتا عن الاخبار عن الجنس المتقدم والاقبال عليه بالخطاب * ولما ذكر تعالى الآخرة التى أعرضوا عنها ذكر ما يكون فيها بيانا لجهلهم وسفههم وقلة عقولهم وترهيبا لمن أدبر عنها وترغيبا لمن أقبل عليها لطفا بهم ورحمة لهم فقال تعالى (وجوه) أى من المحشورين وهم جميع الخلائق (يومئذ) أى اذ تقوم الساعة (ناضرة) من النضرة بالضاد

وهى النعمة والرفاهية أى هى بهية مشرقة عليها أثر النعمة بحيث يدل ذلك على نعمة أصحابها
(الى ربها) أى المحسن اليها خاصة باعتبار أن عد النظر الى غيره كلا نظر (ناظرة) أى دائماهم
محدقون أبصارهم لا غفلة لهم عن ذلك فاذا رفع الحجاب عنهم أبصروه بأعينهم بدليل التعدى بالى
وذلك النظر جهرة من غير اكتنام ولا تضام ولا زحام كما قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهم
وأكثر المفسرين وجميع أهل السنة وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام فى الاحاديث
الصحيحة من وجوه كثيرة بحيث اشتهر غاية الشهرة وتكون الرؤية كما مثلت فى الاحاديث
كما يرى القمر ليلة البدر أى كل من يريد رؤيته من بيته يراه مجليا له هذا وجه الشبه لأنه فى جهة
ولا فى حالة لها شبيه تعالى الله الكريم عن التشبيه فمن تلك الاحاديث ما روى عن جرير بن عبد الله
قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر فقال صلى الله عليه وسلم
انكم سترون ربكم عيانا كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة
قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل
غروبها وفى كتاب النسائى عن وهب قال ينكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم
شيأ أحب اليهم من النظر ولا أقر لأعينهم وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يتجلى ربنا عز وجل حتى ننظر الى وجهه فيخرون له سجدا فيقول تعالى ارفعوا رؤسكم فليس هذا
يوم عبادة وقدم الجار الدال على الاختصاص اشارة الى أن هذا النظر مباين للنظر الى غيره
فلا يعد ذلك نظرا بالنسبة اليه وعبر بالوجوه عن أصحابها لانها أدل ما يكون على السرور وليكون
ذكرها أصرح فى أن المراد بالنظر حقيقته روى مسلم فى قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى
وزيادة كان ابن عمر يقول أكرم أهل الجنة على الله من ينظر الى وجهه غدوة وعشية ثم تلا هذه
الآية وأنكر الرؤية المعتزلة واحتجوا بقوله تعالى لا تدركه الابصار ويقولون النظر المقرون بالى
ليس اسما للرؤية بل لمقدمة الرؤية وهى تقليب الحدقة نحو المرئى التماسا لرؤيته ونظر العين بالنسبة
الى الرؤية كنظر القلب بالنسبة الى المعرفة وكالاصغاء بالنسبة الى السمع ويدل على ذلك قوله
تعالى وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون فأثبت النظر حال عدم الرؤية فتكون الرؤية غاية
النظر وان النظر يحصل والرؤية غير حاصلة قالوا ويمكن أن يكون معنى قوله تعالى ناظرة
منتظرة كقولك انا أنظر اليك فى حاجتى وأجيب عن استدلالهم بقوله تعالى لا تدركه الابصار
بأن لا تدركه بالاحاطة والجهة فلا يكون ذلك مانعا للرؤية على هذا الوجه وعن بقية استدلالهم
بما ذكروه بجوابين أحدهما أن نقول النظر هو الرؤية لقول موسى عليه السلام أرنى أنظر
اليك فلو كان المراد تقليب الحدقة نحو المرئى لاقتضت الآية اثبات الجهة والمكان ولانه اخر
النظر عن الاراءة فلا يكون تقليب الحدقة الجواب الثانى سلمنا ما ذكروه من ان النظر تقليب
الحدقة تعذر حمله على الحقيقة فيجب حمله على الرؤية اطلاقا لاسم السبب على المسبب وهو أولى
من حمله على الانتظار لعدم الملازمة لان تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ولا تعلق بينه وبين
الانتظار وأما قولهم بحمله على الانتظار فأجيب عنه أيضا بأن الذى هو بمعنى الانتظار فى القرآن

غير مقرون بالى كقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم هل ينظرون الا أن والذى ندعيه ان النظر المقرون بالى ليس الا بمعنى الرؤية لان وروده بمعنى الرؤية ظاهر فلا يكون بمعنى الانتظار دفعا للاشتراك * ولما ذكر تعالى أهل النعمة أتبعه أضدادهم من أهل النقمة فقال سبحانه وتعالى (ووجوه يومئذ) أى فى ذلك اليوم بعينه (باسرة) أى شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هى فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه وقال السدى باسرة متغيرة (تظن) أى تتوقع أربابها بما ترى من المخايل (أن يفعل بها) أى بهم فانه اذا أصيب الوجه الذى هو أشرف ما فى الجملة كان ما عداه أولى (فاقرة) وهى الداهية العظيمة قال أبو عبيدة سميت بذلك لانها تكسر فقار الظهر يقال فقرته الفاقرة أى كسرت فقار ظهره ومنه سمى الفقير لانكسار فقاره من القل وقال قتادة الفاقرة الشر وقال السدى الهلاك وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما دخول النار وقال الكلبى هى أن تحجب عن رؤية الرب عز وجل وقوله تعالى (كلا) ردع عن ايثار الدنيا على الآخرة قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى وزاد الزمخشرى كأنه قيل ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا الى ما بين أيديكم من الموت الذى عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنقلبون الى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين (اذا بلغت) النفس (التراقى) وأضمر النفس وان لم يجر لها ذكر لان الكلام الذى وقعت فيه يدل عليها كما قال حاتم

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وتقول العرب أرسلت يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء والتراقى جمع ترقوة وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ولكل انسان ترقوتان قال البقاعى ولعله جمع المثنى اشارة الى شدة انتشارها بغاية الجهد لما فيه من الكرب لاجتماعها من أقاصى البدن الى هنالك اه وهذا كناية عن الاشفاء على الموت ذكرهم صعوبة الموت وهو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقى ودنا زهوقها (وقيل) أى قال حاضر وصاحبها وهو المحتضر بعضهم لبعض (من راق) أى أيكم يرقيه مما به ليحصل له الشفاء وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو من كلام ملائكة الموت أى أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب فالاول اسم فاعل من رقا يرقى بمعنى الرقية بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع والثانى الذى بمعنى الصعود بالكسر فى الماضى والفتح فى المضارع (وظن) أى أيقن المحتضر لما لاح له من أنوار الآخرة وقيل القائل من راق من أجله (انه) أى الشأن العظيم الذى هو فيه (الفراق) لما كان أى فيه من محبوب العاجلة الذى هو الفراق الاعظم الذى لا فراق مثله ففى الجبران العبد ليعالج كرب الموت وسكراته وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقنى وأفارقك الى يوم القيامة وسمى اليقين هنا بالظن لان الانسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه فانه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها أو ان المراد الظن الغالب اذ لا يحصل يقين الموت مع رجاء الحياة وقيل سماه بالظن تهكما قال الرازى وهذه الآية تدل على ان الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن لانه تعالى سمى الموت فراقا والفراق انما يكون

اذا كانت الروح باقية فان الفراق والوصال صفة والصفة تستدعي وجود الموصوف (والتفت الساق بالساق) أي اجتمعت احداهما بالاخرى اذ الالتفاف الاجتماع قال تعالى جئنا بكم لفيفا ومعنى الكلام اتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والحسن وغيرهما وقال الشعبي التفت ساق الانسان عند الموت من شدة الكرب قال قتادة أما رأيته اذا أشرف على الموت يضرب برجله على الاخرى وقال سعيد بن المسيب هما ساقا الانسان اذا التفتا في الكفن وقال زيد بن أسلم التفت ساق الكفن بساق الميت وقال الضحاك الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه وقال السدى لا يخرج من كرب الا جاءه أشد منه وأول الاقوال كما قال النحاس أحسنها واعرب لا تذكر الساق الا في الشدائد والمحن العظام ومنه قولهم قامت الحرب على ساق قال أهل المعاني لان الانسان اذا دهمته شدة شمر لها عن ساقيه فقيل للامر الشديد ساق قال الجعدى

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها * وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ولما صور وقت تأسفه على الدنيا واعراضه عنها ذكر غاية ذلك فقال تعالى مفردا النبي صلى الله عليه وسلم بالخطاب اشارة الى أنه لا يفهم هذا حق فهمه غيره (الى ربك) أي المحسن اليك بجميع ما أنت فيه (يومئذ) أي اذ وقع هذا الامر (المساق) أي السوق الى حكمه تعالى فقد انقطعت عنه أحكام الدنيا فاما أن تسوقه الملائكة الى سعادة واما الى شقاوة والضمير في قوله تعالى (فلا صدق) راجع للانسان المذكور في أيحسب الانسان أي فلا صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبره به مما كان يعمل من الاعمال الخبيثة ولا في ماله بالانفاق في وجوه الخير التي ندب اليها واجبة كانت أو مندوبة وحذف المعمول لانه أبلغ في التعميم (ولا صلى) أي ما أمر به من فرض وغيره فلا تمسك بحبل الخالق ولا وصل حبل الخلائق وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يصدق بالرسالة ولا صلى أي دعا لربه عز وجل وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة فلا صدق بكتاب الله تعالى ولا صلى لله جل ذكره (ولكن) أي فعل ضد ما أمر به بأن (كذب) أي بما أتاه به النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن وغيره (وتولى) أي أعرض عنه وهذا الاستدراك واضح اذ لا يلزم من نفي التصديق والصلاة التكذيب والتولي وقال القرطبي معناه كذب بالقرآن وتولى عن الايمان وقيل نزلت في أبي جهل (ثم ذهب) أي هذا الانسان او أبو جهل (الى أهله) غير متفكر في عاقبة ما فعل من التكذيب حالة كونه (يتمطى) أي يتبختر افتخارا بتكذيبه واعراضه وعدم مبالاته بذلك وأصله يتمطط أي يتمدد لان المتبختر يمد خطاه وانما أبدلت الطاء الثانية ياء كراهة اجتماع الامثال وقيل هو من المطا وهو الظهر لانه يلويه تبخترا في مشيته وقوله تعالى (أولى لك) فيه التفات من الغيبة والكلمة اسم فعل واللام للتبيين أي وليك ما تكرهه (فأولى) أي فهو أولى بك من غيرك وقوله تعالى (ثم أولى لك فأولى) تأكيد وقيل هذه الكلمة تقولها العرب لمن قاربه المكروه وأصلها من الولي وهو القرب قال الله تعالى قاتلوا الذين يلونكم وقال قتادة ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب

أبى جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى فقال أبو جهل أتوعدنى يا محمد فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيأ وانى والله لاعز من مشى بين جبليها فلما كان يوم بدر صرعه الله شر مصرع وقتله أسوأ قتلة قال وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول لكل أمة فرعون وان فرعون هذه الامة أبو جهل (أيحسب) أى يجوز لقلة عقله (الانسان) أى الذى هو عبد مربوب ضعيف عاجز محتاج بما يرى من نفسه وأبناء جنسه (أن يترك) أى يكون تركه بالكلية (سدى) أى هملا لاغيا لا يكلف ولا يجازى ولا يعرض على الملك الاعظم الذى خلقه فيسأله عن شكره فيما أسدى اليه فان ذلك مناف للحكمة فانها تقتضى الامر بالمحاسن والنهى عن المساوى والجزاء على كل منهما وأكثر الظالمين والمظلومين يموتون من غير جزاء فاقتضت الحكمة أنه لا بد من البعث للجزاء (ألم يك) أى الانسان (نطفة) أى شيأ يسيرا (من منى) أى ماء من صلب الرجل وترائب المرأة (تمنى) أى تصب فى الرحم سبب الله تعالى للانسان المعالجة فى اخراجها بما ركب فيه من الشهوة وجعل له من الزوج التى يسرها القضاء وطره حتى ان وقت صبها فى الرحم تصب منه بغير اختياره حتى كانه لا فعل له فيها أصلا (فان قيل) ما فائدة تمنى بعد قوله تعالى من منى (أجيب) بأن فيه اشارة الى حقارة حاله كانه قيل انه مخلوق من المنى الذى يجرى على مجرى النجاسة فلا يليق بمثل هذا أن يتمرد عن طاعة الله تعالى الا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز كما فى قوله تعالى فى عيسى عليه السلام وأمه مريم كانا يأكلان الطعام والمراد منه قضاء الحاجة (ثم كان) أى كونا محكما (علقة) أى دما أحمر غليظا شديد الحمرة والغلظ (فخلق) أى قدر سبحانه عقب ذلك لحمه وعظامه وعصبه وغير ذلك من جواهره وأعراضه (فسوى) أى عدل من ذلك خلقا آخر غاية التعديل شخصا مستقلا (فجعل) أى بسبب النطفة (منه) أى من المنى الذى صار علقة أى قطعة دم ثم مضغة أى قطعة لحم (الزوجين) أى النوعين (الذكر والانثى) يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر تارة قال القرطبى وقد احتج بهذه الآية من رأى اسقاط الخنثى وأجيب بأن هذه الآية وقرينتها خرجت مخرج الغالب أو أنه فى نفس الامر ذكر أو أنثى (أليس ذلك) أى الخالق المسوى الاله الاعظم الذى قدر على تمييز ما يصلح من ذلك للذكر وما يصلح منه للانثى (بقادر على أن يحيى الموتى) أى ان يعيد هذه الاجسام كهيئتها للبعث بعد البلا روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأها قال سبحانك اللهم بلى رواه أبو داود والحاكم وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من قرأ سبح اسم ربك الاعلى اماما كان أو غيره فليقل سبحان ربى الاعلى ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة الى آخرها فليقل سبحانك اللهم بلى اماما كان أو غيره وروى البغوى بسنده من طريق أبى داود عن اعرابى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى الى آخرها أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل بلى وانا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى الى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى فليقل بلى ومن قرأ والمرسلات فبلغ فبأى حديث بعده يؤمنون فليقل آمنا بالله وروى ان رجلا كان يصلى فوق بيته فكان اذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيى

الموتى قال سبحانك اللهم بلى فسألوه عن ذلك فقال سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أن كان مؤمنا حديث موضوع

﴿ سورة الانسان ﴾

وتسمى هل أتى والامشاج والدهر مكية أو مدنية وهي احدى وثلاثون آية ومائتان وأربعون كلمة وألف وأربعة وخمسون حرفا

واختلف فيها هل هي مكية أو مدنية فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومقاتل والكلبي مكية وجرى عليه البيضاوي والزمخشري وقال الجمهور مدنية وقال الجلال المحلي مكية أو مدنية ولم يجزم بشئ وقال الحسن وعكرمة هي مدنية الا آية وهي قوله تعالى فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا وقيل فيها مكي من قوله تعالى انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا الى آخر السورة وما تقدمه مدني

(بسم الله) الذي له الاسماء الحسنى (الرحمن) الذي عم بنعمه الذكر والانثى (الرحيم) الذي خص منهم من شاء بالمقام الاسنى * ولما تم الاستدلال على البعث والقدرة عليه تلاه بهذا الاستفهام وهو قوله تعالى (هل أتى) قال الزمخشري بمعنى قد في الاستفهام خاصة والاصل أهل بدليل قول الشاعر

سائل فوارس يربوع بشدتنا * أهل رأونا بسفح القاع ذي الاكم

فالمعنى أقد أتى على التقرير والتقريب جميعا أي أتى (على الانسان) قبل زمان قريب (حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا) أي كان شيأ منسيا غير مذكور نطفة في الاصلاب اهـ فقوله على التقرير يعني المفهوم من الاستفهام وقوله والتقريب يعني المفهوم من قد التي وقع موقعها هل ومعنى قوله في الاستفهام خاصة أن هل لا تكون بمعنى قد الا ومعها الاستفهام لفظا كالبيت المتقدم أو تقديرا كالآية الكريمة ولو قلت هل جاء زيد بمعنى قد جاء من غير استفهام لم يجز وغيره جعلها بمعنى قد من غير هذا القيد وجرى عليه الجلال المحلي واعترض على الزمخشري بأنه لم يذكر غير كونها بمعنى قد وبقي قيد آخر وهو أن يقول في الجمل الفعلية لانها متى دخلت على جملة اسمية استحال كونها بمعنى قد لان قد مختصة بالافعال وأجيب عنه بأن هذا لا يحتاج اليه لانه تقرر ان قد لا تباشر الاسماء واختلف في المراد من الانسان فقال قتادة وعكرمة والشعبي هو آدم عليه السلام مرت عليه أربعون سنة قبل أن تنفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية الضحاك أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ثم من صلصال أربعين سنة ثم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وحكى الماوردي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان الحين المذكور هنا هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره وقال الحسن خلق الله

كل الاشياء ما يرى ومالا يرى من دواب البر والبحر فى الايام الست التى خلق الله تعالى فيها السموات والارض وآخرها خلق آدم عليه السلام فهو قوله تعالى لم يكن شيأ مذ كورا روى ان أبا بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية قال ليتها تمت فلا نبتلى أى ليت هذه المدة التى أتت على آدم عليه السلام لم يكن شيأ مذ كورا تمت على ذلك فلا يلد ولا تبتلى أولاده وسمع عمر رجلا يقرأ لم يكن شيأ مذ كورا قال عمر ليتها تمت يقول ليته بقى على ما كان هذا وهما جميعا صلى الله عليه وسلم ولكن بقدر القرب يكون الخوف (فان قيل) ان الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان انسانا والآية تقتضى أنه مضى على الانسان حال كونه انسانا حين من الدهر مع انه فى ذلك الحين ما كان شيأ مذ كورا (أجيب) بأن الطين والصلصال اذا كان مصورا بصورة الانسان ويكون محكوما عليه بأنه سينفخ فيه الروح ويصير انسانا صح تسميته بأنه انسان روى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى لم يكن شيأ مذ كورا لا فى السماء ولا فى الارض بل كان جسدا مصورا ترابا وطينا لا يذكر ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذ كورا قال ابن سلام لم يكن شيأ لانه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوانا وقال الزمخشرى وتبعه جماعة من المفسرين ان المراد بالانسان جنس بنى آدم بدليل قوله تعالى (انا خلقنا الانسان) أى بعد خلق آدم عليه السلام (من نطفة) أى مادة هى شئ يسير جدا من الرجل والمرأة وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه

مالى اراك تكرهين الجنة * هل أنت الا نطفة فى شنه

وعلى هذا فالمراد بالحين المدة التى هو فيها فى بطن أمه لم يكن شيأ مذ كورا اذ كان علقة ومضغة لانه فى هذه الحالة جماد لا خطر له وقوله تعالى (أمشاج) أى أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين نعت لنطفة ووقع الجمع نعتا لمفرد لانه فى معنى الجمع كقوله رفرف خضر أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فوصفت بالجمع وقال الزمخشرى نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكياش وهى ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للافراد ويقال أيضا نطفة مشيج قال الشماخ

طوت أحشاء مرتجة لوقت * على مشج سلالته مهين

ولا يصح امشاج أن يكون تكسيرا له بل هما مثلان فى الافراد لوصف المفرد بهما انه فقد منع أن يكون امشاجا جمع مشج بالكسر قال أبو حيان وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن افعالا لا يكون مفردا وأجاب بعضهم بأن الزمخشرى انما قال بوصف به المفرد ولم يجعل افعالا مفردا فكأنه جعل كل قطعة من البرمة برمة وكل قطعة من البرد بردا فوصفهما بالجمع والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الماآن وكل منهما مختلف الاجزاء متباين الاوصاف فى الرقة والثخن والقوام والخواص يجمع من الاخلاط وهى العناصر الاربعة ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له وعن ابن عباس رضى الله

تعالى عنهما قال يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة قال القرطبي وقد روى هذا مرفوعا ذكره البزار وعن قتادة أمشاج ألوان وأطوار يريد أنها تكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم خلقا آخر وعن ابن مسعود رضي الله عنه هي عروق النطفة وقال مجاهد نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء والغرض من هذا التنبيه على ان الانسان محدث فلابد له من محدث قادر على تصويره وقد صوره على صور مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل وقصير ومستدير وعريض ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه جعل بين العظام مفاصل ثم أوصلها بأوتار وعروق ولحم ودور الرأس وشق في جانبيه السمع وفي مقدمه البصر والانف والفم وشق في البدن سائر المنافذ ثم مد اليدين والرجلين وقسم رؤسها بالاصابع وركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة فسبحان من خلق تلك الاشياء من نطفة مخيفة أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى * وقوله تعالى (نبتليه) يجوز فيه وجهان أحدهما أنه حال من فاعل خلقنا أى خلقناه حال كوننا مبتلين له والثاني أنه حال من الانسان وصح ذلك لان في الجملة ضميرين كل منهما يعود على ذى الحال ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنة ان كان المعنى نبتليه نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأن تكون مقدرة ان كان المعنى نبتليه نختبره بالتكليف لانه وقت خلقه غير مكلف وفيما نختبره به وجهان أحدهما قال الكلبي نختبره بالخير والشر والثاني قال الحسن نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء وقيل نبتليه نكلفه بالعمل بعد الخلق قال مقاتل رضي الله عنه وقيل نكلفه ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي (فجعلناه) أى بما لنا من العظمة بسبب ذلك (سميعا بصيرا) أى عظيم السمع والبصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره وسماع الآيات بسمعه ومعرفة الحجج ببصيرته فيصح تكليفه وابتلاؤه فتقدم العلة الغائية لانها متقدمة في الاستحضار على التابع لها المصحح لورودها وقدم السمع لانه أنفع في المخاطبات ولان الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية وخصهما بالذكر لانهما أنفع الحواس ولان البصر يفهم البصيرة وهي تتضمن الجميع وقال بعضهم في الكلام تقديم وتأخير والاصل انا جعلناه سميعا بصيرا نبتليه أى جعلنا له ذلك للابتلاء وقيل المراد بالسميع المطيع كقولك سمعا وطاعة وبالبصير العالم يقال لفلان بصر في هذا الامر (انا) أى بما لنا من العظمة (هديناه السبيل) اى بيناله وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعثة الرسل وقال مجاهد رضي الله عنه بيناله السبيل الى السعادة والشقاوة وقال السدى رضي الله عنه السبيل هنا خروجه من الرحم وقيل منافعه ومضاره التي يهتدى اليها بطبعه وكمال عقله قال الرازى والآية تدل على أن العقل متأخر عن الحواس قال وهو كذلك وقوله تعالى (اما شاكرا) أى لانعام ربه عليه (واما كفورا) أى بليغ الكفر بالاعراض والتكذيب نصب على الحال وفيه وجهان أحدهما انه حال من مفعول

هديناه أي هديناه مبينا له كما حالتيه والثاني انه حال من السبيل على المجاز قال الزمخشري ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي عرفناه السبيل اما سبيلا شاكرا واما سبيلا كفورا كقوله تعالى وهديناه النجدين فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازا وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه الحديث وعن جابر رضي الله عنه كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا ولما قسمهم الى قسمين ذكر جزاء كل فريق فقال تعالى (انا) أي على ما لنا من العظمة (أعتدنا) أي هيأنا وأحضرنا بشدة وغلظة (للكافرين) أي العريقين في الكفر خاصة وقدم الاسهل في العذاب فالاسهل فقال تعالى (سلاسل) جمع سلسلة أي يقادون ويوثقون بها (وأغلالا) أي في أعناقهم تشد فيها السلاسل فتجمع أيديهم الى أعناقهم (وسعيرا) أي نارا حامية جدا شديدة الاتقاد وقرأ نافع وهشام وشعبة والكسائي سلاسلا وصلا بالتنوين والباقون بغير تنوين وأما الوقف على الثانية فوقف عليها بغير ألف قنبل وحمزة ووقف البزي وابن ذكوان وحفص بغير ألف وبالالف ووقف الباقون بالالف ولا وقف على الاولى والرسم بالالف اما من نون سلاسل فوجه بأوجه منها انه قصد بذلك التناسب لان ماقبله ومابعده منون منصوب ومنها ان الكسائي وغيره من أهل الكوفة حكوا عن بعض العرب انهم يصرفون جميع مالا ينصرف الا أفعل منك وقال الاخفش سمعنا من العرب من يصرف كل مالا ينصرف لان الاصل في الاسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها وروى عن بعضهم انه يقول رأيت عمرا بالالف يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأيضا هذا الجمع قد جمع وان كان قليلا قالوا صواحب وصواحبات وفي الحديث انكن صواحبات يوسف ومنها أنه مرسوم في الامام أي مصحف الحجاز والكوفة بالالف رواه أبو عبيدة ورواه قالون عن نافع وروى بعضهم ذلك عن مصاحف البصرة أيضا وقال الزمخشري فيه وجهان أحدهما أن يكون هذا التنوين بدلا من حرف الاطلاق ويجري الوصل مجرى الوقف والثاني أن يكون صاحب هذه القراءة ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف اه قال بعض المفسرين وفي هذه العبارة فظاظة وغلظة لاسيما على مشايخ الاسلام وأئمة العلماء الاعلام وأما من لم ينونه فوجهه ظاهر لانه على صيغة منتهى الجموع وقولهم قد جمع نحو صواحبات لا يقدح لان المحذور جمع التكسير وهذا جمع تصحيح وأما من لم يقف بالالف فواضح * ولما أوجز في جزاء الكافر أتبعه جزاء الشاكر وأطنب تأكيدا للترغيب فقال تعالى (ان الابرار) جمع بر كأرباب جمع رب أو بار كأشهاد جمع شاهد وفي الصحاح وجمع البار البررة وهم الصادقون في ايمانهم المطيعون لربهم الذين سمت هممهم عن المستحقرات فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة وروى ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال انما سماهم الله تعالى الابرار لانهم بروا الآباء والابناء كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق وقال الحسن رضي الله عنه البر الذي لا يؤذي الذر وقال قتادة رضي الله عنه الابرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر وفي الحديث الابرار الذين لا يؤذون

أحدا (يشربون من كأس) هو اناء شرب الخمر وهي فيه والمراد من خمر تسمية للحال باسم المحل ومن للتبعيض (كان مزاجها) أى ماتمزج به (كافورا) لبرده وعذوبته وطيب عرفه وذكره على الكون يدل على أن له شأنا فى المزج عظيما يكون فيه كأنه من نفس الجبلة لا كما يعهد والكافور نبت معروف وكان اشتقاقه من الكفر وهو الستر لانه يغطى الاشياء برائحته والكافور أيضا كمام الشجر الذى هو ثمرتها والكافر البحر والكافر الليل والكافر الساتر لنعم الله تعالى والكافر الزارع لتوريته الحب فى الارض قال الشاعر

وكافرمات على كفره * وجنة الفردوس للكافر

والكفارة تغطية الاثم فى اليمين الفاجرة والنذور الكاذبة بالمغفرة والكافور ماء جوف الشجر مكفوز فيغرزونه بالحديد فيخرج الى ظاهر الشجر فيضربه الهواء فيجمد وينعقد كالصمغ الجامد على الاشجار (فان قيل) مزج الكافور بالمشروب لايكون لذيذا فما السبب فى ذكره (أجيب) بأوجه أحدها قال ابن عباس رضى الله عنهما الكافور اسم عين فى الجنة يقال لها عين الكافور أى يمازجها ماء هذه العين التى تسمى كافورا فى بياض الكافور ورائحته وبرده ولكن لا يكون فيه طعمه ولامضرته ثانيها أن رائحة الكافور عرض والعرض لايكون الافى جسم فخلق الله تعالى تلك الرائحة فى جرم ذلك الشراب فسمى ذلك الجسم كافورا وان كان طعمه طيبا فيكون الكافور ريحها لاطعمها ثالثها ان الله تعالى يخلق الكافور فى الجنة مع طعم طيب لذيذ ويسلب عنه مافيه من المضرة ثم انه تعالى يمزجه بذلك الشراب كما انه تعالى يسلب عن جميع المأكولات والمشروبات مامعها فى الدنيا من المضار وقال سعيد عن قتادة رضى الله عنهم يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك وقيل يخلق فيها رائحة الكافور وبياضه فكأنها مزجت بالكافور وقوله تعالى (عينا) فى نصبه أوجه أحدها انه بدل من كافورا لان ماءها فى بياض الكافور وفى رائحته وبرده واقتصر على هذا الجلال المحلى الثانى انه بدل من محل من كاس قاله مكى ولم يقدر حذف مضاف وقدر الزمخشرى على هذا الوجه حذف مضاف قال كانه قيل يشربون خمرا خمر عين الثالث انه نصب على الاختصاص قاله الزمخشرى الرابع أنه باضمار أعنى قاله القرطبى وقيل غير ذلك (يشرب بها) قال الجلال المحلى منها وقال البقاعى أى بمزاجها وقال الزمخشرى بها الخمر قال كما تقول شربت الماء بالعسل والاول أوضح (عباد الله) أى أولياؤه (فان قيل) الكفار عباد الله وهم لايشربون منها بالاتفاق (أجيب) بأن لفظ عباد الله مختص بأهل الايمان ولكن يشكل بقوله تعالى ولا يرضى لعباده الكفر فانه يصير تقدير الآية ولايرضى لعباده المؤمنين الكفر مع أنه سبحانه لايرضى الكفر للكافر ولا لغيره وقد يجاب بأن هذا أكثرى لا كلى أو يقال حيث أضيف العباد أو العبد الى اسم الله الظاهر سواء كان بلفظ الجلالة أم لا فالمراد به المؤمن وان أضيف الى ضميره تعالى فيكون بحسب المقام فتارة يختص بالمؤمن كقوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وتارة يعم كقوله تعالى ولا يرضى لعباده الكفر وقوله تعالى نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم (يفجرونها) أى يجرونها حيث شاؤا من منازلهم وان علت (تفجيرا) سهلا لايمتنع عليهم

* ولما ذكر جزاءهم ذكر وصفهم الذي يستحقون عليه ذلك بقوله تعالى (يوفون بالنذر) وهذا يجوز أن يكون مستأنفا ويجوز أن يكون خبرا لكان مضمرة قال الفراء التقدير كانوا يوفون بالنذر في الدنيا وكانوا يخافون وقال الزمخشري يوفون جواب من عسى يقول ماله‍م يرزقون ذلك قال أبو حيان واستعمل عسى صلة لمن وهو لا يجوز وأتى بالمضارع بعد عسى غير مقرون بأن وهو قليل أو في الشعر والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لان من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله تعالى كان بما أوجبه الله تعالى عليه أوفى وقال الكلبي يوفون بالنذر أي يتمون العهود لقوله تعالى وأوفوا بعهد الله أوفوا بالعقود أمروا بالوفاء بها لانهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الايمان قال القرطبي والنذر حقيقة ما أوجبه المكلف على نفسه من شئ يفعله وان شئت قلت في حده هو ايجاب المكلف على نفسه من الطاعات مالو لم يوجبه لم يلزمه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه * ولما دل وفاؤهم على سلامة طباعهم قال تعالى عاطفا دلالة على جمعهم للامرين المتعاطفين فهم يفعلون الوفاء لا لاجل شئ بل لكرم الطبع (ويخافون) أي مع فعلهم للواجبات (يوما) قال ابن عبد السلام شر يوم أو أهوال يوم (كان) أي كونا هو في جبلته (شره) أي ما فيه من الشدائد (مستطيرا) أي فاشيا منتشرا غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو أبلغ من طار وقال قتادة رضي الله عنه كان شره فاشيا في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة ونسفت الجبال وغارت المياه وتكسر كل شئ على الارض من جبل وبناء وفي ذلك اشعار بحسن عقيدتهم واحتياطهم واجتنابهم عن المعاصي فان الخوف أدل دليل على عمارة الباطن قالوا ما فارق الخوف قلبا الا خرب ومن خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل (فان قيل) لم قال تعالى كان شره ولم يقل سيكون (أجيب) بأنه كقوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقد قيل في ذلك يقال هنا (ويطعمون الطعام) أي على حسب ما يتيسر لهم من عال ودون وقوله تعالى (على حبه) حال اما من الطعام أي كائنين على حبهم اياه فهو في غاية المكنة منهم والاستعلاء على قلوبهم لقلته وشهوتهم له وحاجتهم اليه كما قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ليفهم انهم للفضل أشد بذلا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في حق الصحابة رضي الله عنهم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه لقلة الموجود اذ ذاك وكثرته بعد واما من الفاعل والضمير في حبه لله أي على حب الله وعلى التقديرين فهو مصدر مضاف للمفعول وقال الفضيل بن عياض على حب اطعام الطعام (مسكينا) أي محتاجا احتياجا يسيرا فصاحب الاحتياج الكثير أولى (ويتيما) أي صغيرا لا أب له (وأسيرا) أي في أيدي الكفار وخص هؤلاء بالذكر لان المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه عما يكفيه واليتيم مات من يكتسب له وبقي عاجزا عن الكسب لصغره والاسير لا يتمكن لنفسه نصرا ولا حيلة وقال مجاهد وسعيد بن جبير رضي الله عنهم الاسير المحبوس فيدخل في ذلك المملوك والمسجون والكافر الذي في أيدي المسلمين وقد نقل في غزوة بدر أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يؤثر

أسيره على نفسه بالخبز وكان الخبز إذ ذاك عزيزا حتى كان ذلك الاسير يعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه الى الاسلام وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم لما دفعهم اليهم قال استوصوا بهم خيرا وقيل الاسير المملوك وقيل المرأة لقول النبي صلى الله عليه وسلم اتقوا الله في النساء فانهن عندكم عوان أي أسرى وقوله تعالى (انما نطعمكم) على اضمار القول أي يقولون بلسان المقال أو الحال انما نطعمكم أيها المحتاجون (لوجه الله) أي لذات الملك الذي استجمع الجلال والاكرام لكونه أمرنا بذلك وعبر بالوجه لان الوجه يستحي منه ويرجى ويخشى عند رؤيته (لا نريد منكم) لاجل ذلك (جزاء) أي لنا من اعراض الدنيا (ولا شكورا) أي لشيء من قول ولا فعل روى أن عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تبعث بالصدقة الى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا فان ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله تعالى ثم عللوا قولهم هذا على وجه التأكيد بقولهم (انا نخاف من ربنا) أي الخالق لنا المحسن الينا (يوما) أي أهوال يوم هو في غاية العظمة وبينوا عظمته بقولهم (عبوسا) قال ابن عباس رضي الله عنهم ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين أن يوصف بصفة أهله من الاشقياء كقولك نهارك صائم روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران وأن يشبه في شدته وضرره بالاسد العبوس أو بالشجاع الباسل (قمطريرا) قال ابن عباس رضي الله عنهما طويلا وقال مجاهد وقتادة رضي الله عنهم القمطرير الذي يقبض الوجوه والجباه بالتعبس وقال الكلبي العبوس الذي لا انبساط فيه والقمطرير الشديد وقال الاخفش القمطرير أشد ما يكون من الايام وأطوله في البلاد يقال يوم قمطرير وقماطير اذا كان شديدا كريها * ولما كان فعلهم هذا خالصا لله تعالى سبب عنه جزاءهم فقال تعالى (فوقاهم الله) أي الملك الاعظم بسبب خوفهم (شر ذلك اليوم) أي العظيم ولا بد لهم من نعيم ظاهر وباطن ومسكن يقيمون فيه وملبس وقد أشار الى الاول بقوله تعالى (ولقاهم) أي أعطاهم (نضرة) أي حسنا دائما في وجوههم وأشار الى الثاني بقوله تعالى (وسرورا) أي في قلوبهم دائما في مقابلة خوفهم في الدنيا وأشار الى الثالث بقوله تعالى (وجزاهم بما صبروا) أي بسبب ما أوجدوا من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة واجتناب المعصية ومنع أنفسهم الشهوات وبذل المحبوبات (جنة) أي ادخلوا بستانا جامعا يأكلون منه ما يشتهون جزاء على ما كانوا يطعمون وان كان غيرهم يشاركهم في ذلك دونهم في الجزاء وأشار الى الرابع بقوله تعالى (وحريرا) أي ألبسوه أي هو في غاية العظمة وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري عن ابن عباس أن الحسن والحسين رضي الله عنهما مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس فقالوا يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما صوم ثلاثة أيام ان برئا فشفيا وما معهما شيء فاستقرض علي من شمعون اليهودي الخيبري ثلاثة آصع من شعير وطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا

الا الماء وأصبحوا صياما فلما أمسوا وضعوا الطعام بين أيديهم فوقف عليهم يتيم فآثروه ووقف عليهم أسير فى الثالثة ففعلوا مثل ذلك زاد فى الكشاف فلما أصبحوا أخذ على رضى الله تعالى عنه بيد الحسن والحسين فأقبلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال ما أشد ما يسوءنى ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يا محمد أى السورة هنأك الله فى أهل بيتك فأقرأه السورة حديث موضوع ثم بين حالهم فيها بقوله تعالى (متكئين فيها) أى الجنة واختلفوا فى اعراب متكئين فقال الجلال المحلى حال من مرفوع ادخلوها المقدر وقال أبو البقاء يجوز أن يكون حالا من المفعول فى جزاهم وأن يكون صفة واعترض عليه فى كونه صفة بأنه لا يجوز عند البصريين لانه كان يلزم الضمير فيقال متكئين هم فيها لجريان الصفة على غير من هى له وقيل انه من فاعل صبروا واعترض أن الصبر كان فى الدنيا والاتكاء فى الآخرة وأجيب بأنه يصح أن يكون حالا مقدرة لان مآلهم بسبب صبرهم الى هذه الحالة * ثم أشار الى زيادة راحتهم بقوله تعالى (على الارائك) أى السرر فى الحجال ولا تكون أريكة الا مع وجود الحجلة وقيل الارائك الفرش على السرر وقوله تعالى (لا يرون فيها) أى الجنة حال ثانية على الخلاف المتقدم فى الاولى ومن جوز أن تكون الاولى صفة جوزه فى الثانية وقيل انها حال من الضمير المرفوع المستكن فى متكئين فتكون حالا متداخلة (شمسا) أى حرا (ولا) يرون فيها (زمهريرا) أى بردا شديدا فالآية من الاحتباك دل بنفى الشمس أولا على نفى القمر ودل بنفى الزمهرير الذى هو سبب البرد ثانيا على نفى الحر الذى سببه الشمس فأفاد هذا ان الجنة غنية عن النيرين لانها نيرة بذاتها وأهلها غير محتاجين الى معرفة زمان اذ لا تكليف فيها بوجه وأنها ظليلة معتدلة دائما بخلاف الدنيا فان فيها الحاجة الى ذلك والحر والبرد فيها من فيح جهنم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكت النار الى ربها فقالت يا رب أكل بعضى بعضا فجعل لها نفسين نفسا فى الشتاء ونفسا فى الصيف فشدة ما تجدونه من البرد من زمهريرها وشدة ما تجدونه من الحر من سمومها وقيل الزمهرير القمر بلغة طيء وأنشدوا

وليلة ظلامها قد اعتكر * قطعتها والزمهرير ما زهر

ويروى ما ظهر (ودانية) أى قريبة مع الارتفاع (عليهم ظلالها) أى شجرها من غير أن يحصل منه ما يزيل الاعتدال واختلف فى نصب دانية فقال البغوى عطف على متكئين وقال الجلال المحلى عطف على محل لا يرون وذكره البغوى بعد الاول بصيغة قيل وقال البيضاوى أو عطف على جنة أى وجنة أخرى دانية لانهم وعدوا الجنتين لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان (فان قيل) ان الظل انما يوجد حيث توجد الشمس والجنة لا شمس فيها فكيف يحصل الظل (أجيب) بأن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الاشجار مظللة منها وان كان لا شمس ولا قمر كما ان أمشاطهم الذهب والفضة وان كان لا وسخ ولا شعث (وذللت قطوفها) جمع قطف بالكسر وهو العنقود واسم للثمار المقطوفة أى المجتناة (تذليلا) أى سهل تناولها تسهيلا عظيما لا يرد اليد

عنها بعد ولا شول لكل من يريد أخذها على أى حالة كانت من اتكاء وغيره فان كانوا قعودا أو مضطجعين تدلت اليهم وان كانوا قياما وكانت على الارض ارتفعت اليهم وقال البراء ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاؤا فمن أكل قائما لم يؤذه ومن أكل جالسا لم يؤذه ومن أكل مضطجعا لم يؤذه وهذا جزاؤهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لامر الله تعالى * ولما وصف تعالى طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف شرابهم بقوله تعالى (ويطاف) أى من أى طائف كان لكثرة الخدم (عليهم بآنية) جمع اناء كسقاء وأسقية وجمع الآنية أوان وهى ظروف للمياه ومعنى يطاف أى يدور على هؤلاء الابرار الخدم اذا أرادوا الشرب ثم بين تلك الآنية بقوله تعالى (من فضة) قال ابن عباس رضي الله عنهما ليس فى الدنيا شئ مما فى الجنة الا الاسماء أى الذى فى الجنة أشرف وأعلى ولم ينف الآنية الذهبية بل المعنى يسقون فى الاوانى الفضة وقد يسقون فى الاوانى الذهب كما قال تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد فنبه بذكر أحدهما على الآخر * ولما جمع الآنية خص فقال تعالى (وأكواب) جمع كوب وهو كوز لا عروة له فيسهل الشرب منه من كل موضع فلا يحتاج عند التناول الى ادارة (كانت) أى تلك الاكواب كونا هو من جبلتها (قوارير) أى كانت بصفة القوارير من الصفاء والرقة والشفوف والاشراق جمع قارورة وهى ما أقر فيه الشراب ونحوه من كل اناء رقيق صاف وقيل هو خاص بالزجاج * ولما كان رأس آية وكان التعبير بالقوارير ربما أفهم انها من الزجاج وكان فى الزجاج من النقص سرعة الانكسار لافراط الصلابة قال تعالى معيدا اللفظ أول الآية الثانية تأكيدا للاتصاف بالصالح من أوصاف الزجاج وبيانا لنوعها (قوارير من فضة) أى قد جمعت صفتى الجوهرين المتباينين صفاء الزجاج وشفوفه وبريقه وبياض الفضة وشرفها ولينها وقال الكلبي ان الله تعالى جعل قوارير كل قوم من تراب ارضهم وان أرض الجنة من فضة فجعل منها قوارير يشربون منها (٣) وقرأ نافع وشعبة والكسائى وصلا بالتنوين فيهما ووافقهم ابن كثير فى الاول دون الثانى والباقون بغير تنوين وأما الوقف فمن نون وقف بالالف ومن لم ينون وقف بغير ألف الا هشاما فانه وقف على الثانى بالالف وفى الوصل لم ينون فالقرا آت حينئذ على خمس مراتب احداها تنوينهما معا والوقف عليهما بالالف الثانية مقابله وهو عدم تنوينهما وعدم الوقف عليهما بالالف الثالثة عدم تنوينهما والوقف عليهما بالالف الرابعة تنوين الاول دون الثانى والوقف على الاول بالالف وعلى الثانى بدونها الخامسة عدم تنوينهما معا والوقف على الاول بالالف وعلى الثانى بدونها وأما من نونهما فلما مر فى تنوين سلاسل لانهما صيغة منتهى الجموع ذالة على مفاعل وذا على مفاعيل والوقف بالالف التى هى بدل التنوين فأما عدم تنوينهما وعدم الوقف بالالف فظاهر وأما من نون الاول دون الثانى فانه ناسب بين الاول وبين رؤس الآى ولم يناسب بين الثانى وبين الاول والوجه فى وقفه على الاول بالالف وعلى الثانى بغير ألف ظاهر وأما من لم ينونهما ووقف على الاول بالف وعلى الثانى بدونها فلان الاول رأس آية فناسب بينه وبين رؤس الآى فى الوقف بالالف وفرق بينه وبين الثانى لانه ليس برأس آية وأما من لم ينونهما ووقف عليهما بالالف فانه ناسب بين الاول

وبين رؤس الآى وناسب بين الثانى وبين الاول وقال الزمخشرى وهذا التنوين بدل من ألف الاطلاق لانها فاصلة وفى الثانى لاتباعه الاول يعنى انهم يأتون بالتنوين بدلا من حرف الاطلاق الذى للترنم كقوله * ياصاح ماهاج العيون الذرفن * وقوله تعالى (قدروها تقديرا) صفة لقوارير من فضة وفى الواو فى قدروها وجهان أحدهما أنه للمطاف عليهم ومعنى تقديرهم لها انهم قدروها فى أنفسهم أن تكون على تقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروا والثانى انه للطائفين بها دل عليه قوله تعالى ويطاف عليهم على انهم قدروا شرابها على قدر الرى وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنه ولا يعجز وعن مجاهد رضى الله عنه لاتغيض ولا تفيض وعن ابن عباس رضى الله عنهما قدروها على ملء الكف حتى لاتؤذيهم بثقل أو بافراط صغر وجوز أبو البقاء أن تكون الجملة مستأنفة (ويسقون) أى ممن أرادوه من خدمهم الذين لايحصون كثرة (فيها) أى فى الجنة أو تلك الاكواب (كأسا) أى خمرا فى اناء (كان مزاجها) أى ماتمزج به على غاية الاحكام (زنجبيلا) أى غاية اللذة وكانت العرب تلتذ بالشراب الممزوج به لهضمه وتطييبه الطعم والزنجبيل نبت معروف وسمى الكأس بذلك لوجود طعم الزنجبيل فيها قال الاعشى كأن القرنفل والزنجبيل * باتا بفيها وأريا مشورا

وقال المسيب بن علس

وكان طعم الزنجبيل به * اذاذقته وسلافة الخمر

وقوله تعالى (عينا فيها) أى الجنة بدل من زنجبيلا وكون الزنجبيل عينا فيه خرق للعوائد لان الزنجبيل عندنا شجر يحتاج فى تناوله الى علاج فبين انه هنالك عين لايحتاج فى صيرورته زنجبيلا الى ان تحيله الارض بتخميره فيها حتى يصير شجرا يتحول عن طعم الماء الى طعم الزنجبيل (تسمى) أى تلك العين لسهولة اساغتها ولذة طعمها وسمو وصفها (سلسبيلا) والمعنى ان ماء تلك العين كالزنجبيل الذى تلتذ به العرب سهل المساغ فى الحلق فليس هو كزنجبيل الدنيا يلذع فى الحلق فتصعب اساغته والسلسبيل والسلسل والسلسال ما كان من الشراب غاية فى السلاسة زيدت فيه الباء زيادة فى المبالغة فى هذا المعنى وقال مقاتل وابن حبان رضى الله عنهما سميت سلسبيلا لانها تسيل عليهم فى الطرق وفى منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن الى أهل الجنان قال البغوى وشراب الجنة فى برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك من غير لذع وقال مقاتل رضى الله عنه يشربها المقربون صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة * ولما ذكر تعالى المطوف به لانه الغاية المقصودة وصف الطائف لما فى طوافه من العظمة المشهودة بقوله تعالى (ويطوف عليهم) أى بالشراب وغيره من الملاذ والمحاب (ولدان) أى غلمان هم فى سن من هو دون البلوغ لان الفقهاء قالوا الناس غلمان وصبيان وأطفال وذرارى الى البلوغ ثم هم بعد البلوغ شبان وفتيان الى الثلاثين ثم هم بعدها كهول الى الاربعين ثم بعدها شيوخ واستنبط بعضهم ذلك من القرآن فى حق بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى فى حق يحيى وآتيناه الحكم صبيا وفى حق عيسى يكلم الناس فى المهد وكهلا وعن ابراهيم قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له

ابراهيم وعن يعقوب ان له أباشيئا كبيرا قالوا وأقل أهل الجنة من يخدمه ألف غلام ويعطى في الجنة قدر الدنيا عشر مرات وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها * ثم وصف تعالى تلك الغلمان بقوله تعالى (مخلدون) أي قد حكم من لا يرد حكمه بأن يكونوا كذلك دائما من غير علة ولا ارتفاع عن ذلك الخدمع انهم مزينون بالحلى وهو الحلق والاساور والقرط والملابس الحسنة (اذا رأيتهم) أي يا أعلى الخلق وأنت أثبت الناس نظرا أو أيها الرائى الشامل لكل راء في أى حالة رأيتهم فيها (حسبتهم) أي من بياضهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في الخدمة (لؤلؤا منثورا) أي من سلكه أو من صدفه وهو أحسن منه في غير ذلك قال بعض المفسرين هم غلمان ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين وقال بعضهم أطفال المؤمنين لانهم ماتوا على الفطرة وقال ابن برجان وأرى والله أعلم انهم من علم الله تعالى ايمانه من أولاد الكفار وتكون خدما لاهل الجنة كما كانوا الناس في الدنيا سبيا وخداما وأما أولاد المؤمنين فيلحقون بآبائهم سرورا لهم ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم في ابنه ابراهيم عليه السلام ان له لظئرا تتم رضاعه في الجنة فانه يدل على انتقال شانه فيما هنالك وكنقله في الاحوال في الدنيا ولا دليل على خصوصيته بذلك وقرأ السوسى وشعبة بابدال الهمزة الاولى الساكنة وقفا ووصلا واذا وقف حمزة أبدل الاولى والثانية * ولما ذكر المخدوم والخدم ذكر المكان بقوله تعالى (واذا رأيت) أي وجدت منك الرؤية (ثم) أي هنالك في أي مكان كان في الجنة وأى شئ كان فيها وقوله تعالى (رأيت) جواب اذا أي رأيت (نعيما) أي ليس فيه كدر بوجه من الوجوه ولا يقدر على وصفه واصف (وملكا كبيرا) أي لم يخطر على باله مما هو فيه من السعة وكثرة الموجود والعظمة قال سفيان الثورى بلغنا ان الملك الكبير تسليم الملائكة عليهم وقيل كون التيجان على رؤسهم كما تكون على رؤس الملوك وقال الحكيم الترمذي هو ملك التكوين اذا ارادوا شيأ قالوا له كن فيكون وفي الخبر ان الملك الكبير هو ان أدناهم منزلة أي ومافيهم دنيء الذي في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه وان أعظمهم منزلة من ينظر الى وجه ربه سبحانه وتعالى كل يوم أي قدر يوم من أيام الدنيا مرتين * ولما ذكر الدار وساكنيها من مخدوم وخدم ذكر لباسهم بقوله تعالى (عاليهم) أي فوقهم (ثياب سندس) هو مارق من الحرير (خضر واستبرق) وهو ماغلظ من الديباج فهو البطائن والسندس الظهائر وقرأ نافع وحمزة عاليهم بسكون الياء بعد اللام وكسر الهاء والباقون بفتح الياء وضم الهاء لان الياء لما سكنت كسرت الهاء ولما تحركت ضمت الهاء فأما قراءة نافع وحمزة ففيها أوجه أظهرها أن يكون خبرا مقدما وثياب مبتدأ مؤخر وأما قراءة الباقين ففيها أيضا أوجه أظهرها أن يكون خبرا مقدما وثياب مبتدأ مؤخرا كأنه قال فوقهم ثياب قال أبو البقاء لان عاليهم بمعنى فوقهم والضمير المتصل به للمطوف عليهم أو للخادم والمخدوم جميعا وان كانت تتفاوت بتفاوت الرتب وقرأ نافع وحفص خضر واستبرق برفعهما وقرأ حمزة والكسائي بخفضهما وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر وجر استبرق وقرأ ابن كثير وشعبة بجر خضر ورفع استبرق وحاصل القرآآت

فى ذلك أربع مراتب الاولى رفعهما الثانية خفضهما الثالثة رفع الاول وخفض الثانى الرابعة عكس ذلك فأما القراءة الاولى فان رفع خضر على النعت لثياب ورفع استبرق نسق على الثياب ولكن على حذف مضاف أى وثياب استبرق وأما القراءة الثانية فيكون جر خضر على النعت لسندس ثم استشكل على هذا وصف المفرد بالجمع فقال مكى هو اسم جمع وقيل هو جمع سندسة كتمر وتمرة ووصف اسم الجنس بالجمع صحيح قال تعالى وينشئ السحاب الثقال وأعجاز نخل منقعر ومن الشجر الاخضر واذا كانوا قد وصفوا المحلى لكونه مرادا به الجنس بالجمع فى قولهم أهلك الناس الدينار الحمر والدرهم البيض وفى التنزيل أو الطفل الذين فلأن يوجد ذلك فى أسماء الجموع أو أسماء الاجناس الفارق بينها وبين واحدها تاء التأنيث بطريق الاولى وجر استبرق نسقا على سندس لان المعنى ثياب من سندس وثياب من استبرق وأما القراءة الثالثة فرفع خضر نعتا للثياب وجر استبرق نسقا على سندس أى ثياب خضر من سندس ومن استبرق فعلى هذا يكون الاستبرق أيضا أخضر وأما القراءة الرابعة فجر خضر على أنه نعت لسندس ورفع استبرق على النسق على ثياب بحذف مضاف أى وثياب استبرق * ثم أخبر تعالى عن تحليتهم بقوله سبحانه (وحلوا) أى المخدوم والخادم (أساور من فضة) وان كانت تتفاوت تتفاوت الرتب وهى بالغة من الاعضاء ما يبلغه التحجيل فى الوضوء كما قال صلى الله عليه وسلم الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء فلذلك كان أبو هريرة يرفع الى المنكبين والى الساقين *(تنبيه)* قال هنا أساور من فضة وفى سورة فاطر يحلون فيها من أساور من ذهب وفى سورة الحج يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ فقيل حلى الرجال الفضة وحلى النساء الذهب وقيل تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة وقيل يجمع فى يدى أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضة وسواران من لؤلؤ لتجتمع لهم محاسن الجنة قاله سعيد بن المسيب وقيل يعطى كل أحد ما رغب فيه وتميل نفسه اليه وقيل أسورة الفضة انما تكون للولدان وأسورة الذهب للنساء وقيل هذا للنساء والصبيان وقيل هذا يكون بحسب الاوقات والاعمال (وسقاهم ربهم) أى أوجد لهم المحسن اليهم المدبر لمصالحهم (شرابا طهورا) أى ليس هو كشراب الدنيا سواء أكان من الخمر أم من الماء أم من غيرهما فهو بالغ الطهارة وقال على رضى الله عنه اذا توجه أهل الجنة الى الجنة مروا بشجرة يخرج من ساقها عينان فيشربون من احداهما فتجرى عليهم نضرة النعيم فلا تتغير أبشارهم ولا تشعث شعورهم أبدا ثم يشربون من الاخرى فيخرج ما فى بطونهم من الاذى ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقال النخعى وأبو قلابة هو اذا شربوه بعد أكلهم طهرهم وصار ما أكلوه وشربوه رشح مسك وضمرت بطونهم وقال مقاتل هو من عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله تعالى ما كان فى قلبه من غش وغل وحسد وما كان فى جوفه من أذى وعلى هذا فيكون فعول للمبالغة وقال الرازى قوله تعالى طهورا فى تفسيره احتمالات أحدها أن لا يكون نجسا كخمر الدنيا وثانيها المبالغة فى البعد عن الامور المستقذرة لانه لم تعصره الايدى الوضرة

وتدوسه الارجل الدنسة ولم يجعل فى الدنان والاباريق التى لم يعن بتنظيفها وثالثها أنه لا يؤل الى النجاسة لانها ترشح عرقا من أبدانهم له ريح كريح المسك وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهرا لانه يطهر بواطنهم من الاخلاق الذميمة والاشياء المؤذية (فان قيل) هل هذا نوع آخر غير ماذكر قبل ذلك من أنهم يشربون من الكافور والزنجبيل والسلسبيل أم لا (أجيب) بأنه نوع آخر لوجوه أولها رفع ثانيها انه تعالى أضاف هذا الشراب الى نفسه بقوله تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا وذلك يدل على فضل هذا دون غيره ثالثها ماروى انه تقدم اليهم الاطعمة والاشربة فاذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر ذلك بطونهم وبفيض عرقا من جلودهم مثل ريح المسك وهذا يدل على أن ذلك الشراب مغاير لتلك الاشربة ولان هذا الشراب يهضم سائر الاشربة ثم ان له مع هذا الهضم تأثيرا عجيبا وهو أنه يجعل سائر الاطعمة والاشربة عرقا يفوح منه ريح كريح المسك ويطهر شاربه عن الميل الى اللذات الخسيسة والركون الى ماسوى الحق فيتجرد لمطالعة جلاله متلذذا بلقائه باقيا ببقائه وهو منتهى درجات الصديقين وكل ذلك يدل على المغايرة وقوله تعالى (ان) على اضمار القول أى ويقال لهم ان (هذا كان لكم جزاء) أى على أعمالكم التى كنتم تجاهدون فيها أنفسكم عن هواها الى مايرضى ربكم والاشارة الى ماتقدم من عطاء الله تعالى لهم (وكان) أى على وجه الثبات (سعيكم مشكورا) أى لانضيع شيأ منه ونجازى بأكثر منه أضعافا مضاعفة * ولما بين تعالى بهذا القرآن العظيم الوعد والوعيد ذكر سبحانه أنه من عنده وليس هو بسحر ولا كهانة ولا شعر بقوله تعالى (انا نحن) أى على مالنا من العظمة التى لانهاية لها الا غيرنا (نزلنا عليك) وأنت أعظم الخلق انزالا استعلى حتى صار المنزل خلقا لك (القرآن) أى الجامع لكل هدى (تنزيلا) قال ابن عباس متفرقا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة قال الرازى والمقصود من هذه الآية تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وشرح صدره فيما نسبوه اليه صلى الله عليه وسلم من كهانة وسحر فذكر تعالى ان ذلك وحى من الله تعالى فكانه تعالى يقول ان كان هؤلاء الكفار يقولون ان ذلك كهانة فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد ان ذلك وحى حق وتنزيل صدق من عندى وفى ذلك فائدتان الاولى ازالة الوحشة الحاصلة بسبب طعن الكفار لان الله تعالى عظمه وصدقه الثانية تقويته على تحمل مشاق التكليف فكانه تعالى يقول له انى مانزلت القرآن عليك متفرقا الا لحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شئ بوقت معين وقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الاذن فى القتال (فاصبر لحكم ربك) أى المحسن اليك قال ابن عباس اصبر على أذى المشركين ثم نسخ بآية القتال وقيل اصبر لما يحكم عليك به من الطاعات أو انتظر حكم الله اذ وعدك بالنصر عليهم ولا تستعجل فانه كائن لامحالة (ولا تطع منهم) أى الكفرة الذين هم ضد الشاكرين (آثما) أى داعيا الى اثم سواء كان مجردا عن مطلق الكفر أو مصاحباله (أو كفورا) أى مبالغا فى الكفر وداعيا اليه وان كان كبيرا وعظيما فى الدنيا فان الحق أكبر من كل كبير وقال قتادة أراد بالآثم والكفور أبا جهل وذلك انه

قوله أوا… فى القـ… أولها… ماتقـ… وقال ع…

لما فرضت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم نهاه أبو جهل عنها وقال لئن رأيت محمدا يصلي لاطأن على عنقه وقال مقاتل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة وبالكفور الوليد بن المغيرة وكانا أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الاموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة عرض عليه عتبة ابنته وكانت من أجمل النساء وعرض عليه الوليد أن يعطيه من الاموال حتى يرضى ويترك ما هو عليه فقرأ عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات من أول حم السجدة الى قوله تعالى فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فانصرفا عنه وقال أحدهما ظننت ان الكعبة ستقع علي (فان قيل) كانوا كلهم كفرة فما معنى القسمة في قوله آثما أو كفورا (أجيب) بأن معناه ولا تطع منهم راكبا لما هو اثم داعيا لك اليه أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك اليه لانهم اما أن يدعوه الى مساعدتهم على فعل هو اثم أو كفر أو غير اثم ولا كفر فنهي أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث ثم قال (فان قيل) معنى أو ولا تطع أحدهما فهلا جيء بالواو ليكون نهيا عن اطاعتهما جميعا (أجيب) بأنه لو قال ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما واذا قيل ولا تطع أحدهما علم أن الناهي عن طاعة أحدهما نهى عن طاعتهما جميعا كما اذا نهى أن يقول لابويه أف علم أنه نهى عن ضربهما بطريق الاولى (فان قيل) انه صلى الله عليه وسلم ما كان يطيع أحدا منهم فما فائدة هذا النهي (أجيب) بأن المقصود بيان أن الناس محتاجون الى التنبيه والارشاد لاجل ما ركب فيهم من الشهوة الداعية الى النساء وان الواحد لو استغنى عن توفيق الله تعالى وارشاده لكان أحق الناس به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم دائما أبدا ومتى ظهر لك ذلك عرفت ان كل مسلم لا بد له من الرغبة الى الله تعالى والتضرع اليه أن يصونه عن الشهوات (واذكر) أي في الصلاة (اسم ربك) أي المحسن اليك بكل جميل (بكرة) أي الفجر (وأصيلا) أي الظهر والعصر (ومن الليل) أي بعضه والباقي للراحة بالنوم (فاسجد له) أي المغرب والعشاء (وسبحه ليلا طويلا) أي صل التطوع فيه كما تقدم من ثلثيه أو نصفه أو ثلثه أو اذكره بلسانك بكرة عند قيامك من منامك الذي هو الموتة الصغرى وتذكر انه يحيي الموتى ويحشرهم جميعا وأصيلا أي عند انقراض نهارك وتذكر انقراض دنياك وطي هذا العالم لاجل يوم الفصل وفي ذكر الوقتين اشارة الى دوام الذكر وذكر اسمه لازم لذكره والذي عليه أكثر المفسرين الاول قال ابن عباس وسفيان كل تسبيح في القرآن فهو صلاة لان الصلاة أفضل الاعمال البدنية لانها أعظم الذكر لانها ذكر اللسان والجنان والاركان فوظفت فيها أركان لسانية وحركات وسكنات على هيآت مخصوصة من عادتها أن لا تفعل الا بين يدي الملوك * ولما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعظيم والامر والنهي عدل سبحانه الى شرح أحوال الكفار والمتمردين فقال تعالى (ان هؤلاء) أي الذين يغفلون عن الله من الكفار والمتمردين (يحبون) أي محبة تجدد عندهم زيادتها في كل وقت (العاجلة) لقصور نظرهم وجمودهم على المحسوسات التي الاقبال عليها دناءة البلادة والقصور ومعدن

الإمراض للقلوب التي في الصدور ومن تعاطى أسباب الامراض مرض وسمي كفورا ومن تعاطى ضد ذلك شفي وسمي شاكرا (ويذرون) أي ويتركون (وراءهم) أي قدامهم على وجه الإحاطة بهم وهم عنه معرضون كما يعرض الانسان عما وراءه أو خلف ظهورهم لا يعبؤن به وقوله تعالى (يوما) مفعول يذرون لا ظرف وقوله تعالى (ثقيلا) وصف له استعير له الثقل لشدته وهوله من الشيء الثقيل الباهظ لحامله ونحوه ثقلت في السموات والارض (نحن خلقناهم) أي بما لنا من العظمة لا غيرنا (وشددنا) أي قوينا (أسرهم) أي توصيل عظامهم بعضها ببعض وتوثيق عظامهم بالاعصاب بعد أن كانوا نطفا أمشاجا في غاية الضعف وأصل الاسر الربط والتوثيق ومنه أسر الرجل اذا وثق بالقيد وهو الإسار وفرس مأسور الخلق (واذا شئنا) أي بما لنا من العظمة أن نبدل ما نشاء من صفاتهم أو ذواتهم (بدلنا أمثالهم) أي جئنا بأمثالهم بدلا منهم اما بأن نهلكهم ونأتي ببدلهم ممن يطيع واما بتغيير صفاتهم كما شوهد في بعض الاوقات من المسخ وغيره وقوله تعالى (تبديلا) تأكيد قال الجلال المحلي ووقعت اذا موقع ان نحو ان يشأ يذهبكم لانه تعالى لم يشأ ذلك واذا لما يقع وفي ذلك رد لقول الزمخشري وحقه أن يجيء بان لا باذا كقوله وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ان يشأ يذهبكم (ان هذه) أي السورة أو الآيات القريبة (تذكرة) أي عظة للخلق فان في تصفحها تنبيهات للغافلين وفي تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر قلبه وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى اليه سمعه (فمن شاء) أي بأن اجتهد في وصوله الى ربه (اتخذ) أي أخذ بجهده في مجاهدة نفسه ومغالبة هواه (الى ربه) أي المحسن اليه الذي ينبغي له أن يحبه بجميع جوارحه وقلبه ويجتهد في القرب منه (سبيلا) أي طريقا واضحا سهلا واسعا بأفعال الطاعة التي أمر بها لانا بينا الامور غاية البيان وكشفنا اللبس وأزلنا جميع موانع الفهم فلم يبق مانع من استطراق الطريق غير مشيئتنا (وما تشاؤن) أي في وقت من الاوقات شيأ من الاشياء وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب واذا وقف حمزة سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها واوا مع المد والقصر (الا) وقت (أن يشاء الله) أي الملك الاعلى الذي له الامر كله والملك كله على حسب ما يريد ويقدر وقد صح بهذا ما قال الاشعري وسائر أهل السنة من أن للعبد مشيئة تسمى كسبا لا تؤثر الا بمشيئة الله تعالى وانتفى مذهب القدرية الذين يقولون انا نخلق أفعالنا ومذهب الجبرية القائلين لا فعل لنا أصلا ومثل المولى ذلك بمن يريد قطع بطيخة فحدد سكينة وهيأها وأوجد فيها أسباب القطع وأزال عنها موانعه ثم وضعها على البطيخة فهي لا تقطع دون أن يتحامل عليها التحامل المعروف لذلك ولو وضع عليها ما لا يصلح للقطع كخشبة مثلا لم تقطع ولو تحامل فالعبد كالسكين خلقه الله تعالى وهيأه بما أعطاه من القدرة للفعل فمن قال أنا أخلق فعلي مستقلا به فهو كمن قال السكين تقطع بمجرد وضعها من غير تحامل ومن قال الفاعل هو الله من غير نظر الى العبد أصلا كان كمن قال هو يقطع البطيخة بتحامل يده أو قصبة ملساء من غير سكين والذي يقول انه باشر بقدرته المهيأة لفعل

يخلقه الله تعالى لها فى ذلك الفعل لكن قال ان السكين قطعت بالتحامل عليها بهذا أجرى الله سبحانه وتعالى عادته فى الناس ولو شاء غير ذلك فعل ولا يخفى ان هذا هو الحق الذى لامرية فيه ثم علل ذلك باحاطته بمشيئتهم بقوله تعالى (ان الله) أى المحيط علما وقدرة (كان) أى أزلا وأبدا (عليما) أى بما يستأهل كل أحد (حكيما) أى بالغ الحكمة فهو يمنع منعا محكما من أن يشاء غيره مالم يأذن فيه فمن علم فى جبلته خيرا أعانه عليه ومن علم منه الشر ساقه اليه وحمله عليه وهو معنى قوله تعالى (يدخل من يشاء) أى ممن علمه من أهل السعادة (فى رحمته) أى جنته وهم المؤمنون وقوله تعالى (والظالمين) أى الكافرين منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (أعد لهم) مثل أوعد وكافأ ليطابق الجمل المعطوف عليها (عذابا أليما) أى مؤلما فهم فيه خالدون أبد الآبدين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريرا حديث موضوع

(سورة والمرسلات عرفا مكية)

فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس وقتادة الا آية منها وهى قوله تعالى واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون فمدنية

وقال ابن مسعود نزلت والمرسلات عرفا على النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير حتى أوينا الى غار منى فنزلت فبينما نحن نتلقاها منه وان فاه رطب بها اذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت فقال النبى صلى الله عليه وسلم وقيتم شرها كما وقيت شركم اه والغار المذكور مشهور فى منى وقد زرته ولله الحمد وعن كريب مولى ابن عباس قال قرأت سورة والمرسلات عرفا فسمعتنى أم الفضل امرأة العباس فبكت وقالت والله يابنى لقد أذكرتنى بقراءتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى صلاة المغرب وهى خمسون آية واحدى وثمانون كلمة وثمانمائة وستة عشر حرفا (بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) المنعم على الخلق أجمعين (الرحيم) الذى خص بكرامته عباده المؤمنين (والمرسلات عرفا) أى الرياح متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضها بعضا ونصبها على الحال هذا ما عليه الجمهور من أنها الرياح قال تعالى وأرسلنا الرياح وقال تعالى ويرسل الرياح وروى مسروق عن عبد الله قال هى الملائكة أرسلت بالعرف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحى وهو قول أبى هريرة ومقاتل والكلبى وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم الانبياء عليهم السلام أرسلوا بلا اله الا الله وقال أبو صالح هم الرسل ترسل بما يعرفون به من المعجزات وقيل المراد السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت اليه ومن أرسلت اليه (فالعاصفات) أى الرياح الشديدة (عصفا) أى عظيما بما لها من النتائج الصالحة وقيل الملائكة شبهت لسرعة جريها فى أمر الله تعالى بالرياح وقيل الملائكة تعصف بروح الكافر يقال عصف بالشئ اذا أباده وأهلكه وناقة عصوف أى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة

وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم وقيل يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف (والناشرات نشرا) أي الرياح اللينة تنشر المطر وقال الحسن هي الرياح التي يرسلها الله تعالى بين يدي رحمته وقيل الامطار لانها تنشر النبات بمعنى تحييه وروى عن السدي أنها الملائكة تنشر كتب الله تعالى وروى الضحاك انها الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد *(تنبيه)* انما قال الله تعالى والناشرات بالواو لانه استئناف قسم آخر (فالفارقات فرقا) أي الرياح تفرق السحاب وتبدده قاله مجاهد وعن ابن عباس هي الملائكة تفرق الاقوات والارزاق والآجال وقيل هم الرسل فرقوا بين ما أمر الله تعالى به ومانهى عنه أي بينوا ذلك وقيل آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام (فالملقيات ذكرا) أي الملائكة تنزل بالوحي الى الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وقيل هو جبريل عليه السلام وحده سمي باسم الجمع تعظيما (فان قيل) ما المناسبة على هذا بين الرياح والملائكة في القسم (أجيب) بان الملائكة روحانيون فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم كالرياح وقيل المراد به الرسل يلقون الى أممهم ما أنزل عليهم وذكرا مفعول به ناصبه الملقيات (عذرا أو نذرا) مصدران من عذر اذا محا الاساءة ومن أنذر اذا خوف على فعل كالكفر والشكر ويجوز أن يكون جمع عذير بمعنى المعذور وجمع نذير بمعنى الانذار أو بمعنى العاذر والمنذر ونصبهما اما على البدل من ذكرا على الوجهين الاولين أو على المفعول له واما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عاذرين أو منذرين . وقرأ أو نذرا نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بضم الذال والباقون بسكونها وقوله تعالى (انما توعدون لواقع) جواب القسم ومعناه ان الذي توعدونه من مجيء القيامة كائن لامحالة وقال الكلبي المراد ان كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع ثم بين وقت وقوعه فقال تعالى (فاذا النجوم) أي على كثرتها (طمست) أي محي نورها أو ذهب نورها ومحقت ذواتها وهو موافق لقوله تعالى انتثرت وانكدرت قال الزمخشري ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور (واذا السماء) أي على عظمها (فرجت) أي فتحت وشققت فكانت أبوابا والفرج الشق ونظيره اذا السماء انشقت (واذا الجبال) أي على صلابتها (نسفت) أي ذهب بها كلها بسرعة من نسفت الشيء اذا اختطفته أو نسفت كالحب اذا نسف بالمنسف ونحوه وبست الجبال بسا وكانت الجبال كثيبا مهيلا (واذا الرسل) أي الذين أنذروا الناس ذلك اليوم فكذبوا (أقتت) قال مجاهد والزجاج المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على أممهم أي جمعت لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة والوقت الاجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر اليه فالمعنى جعل لها وقت أجل للفصل والقضاء بينهم وبين الامم كقوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقرأ أبو عمرو بواو مضمومة والباقون بهمزة مضمومة وهما لغتان والعرب تعاقب بين الواو والهمزة كقولهم وكدت وأكدت وقوله تعالى (لأي يوم) أي عظيم متعلق بقوله تعالى (أجلت) وهذه الجملة معمولة لقول مضمر أي يقال لأي يوم أجلت وهذا القول المضمر يجوز أن يكون جوابا لاذا وأن يكون حالا من مرفوع

أقتت أى مة ولافيه الاى يوم أجلت أى أخرت وهذا تعظيم لذلك اليوم وتعجيب له وقوله تعالى (ليوم الفصل) بيان ليوم التأجيل وقيل اللام بمعنى الى ذكره مكى قال ابن عباس يوم فصل الرحمن بين الخلائق كقوله تعالى ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ثم أتبع هذا التعظيم تعظيما آخر بقوله تعالى (وما أدراك مايوم الفصل) أى ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله فى شدته ومهابته وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى وابن ذكوان بخلاف عنه بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح ثم أتبعه تهويلا ثالثا بقوله تعالى (ويل يومئذ) أى اذ يكون يوم الفصل (للمكذبين) أى بذلك قال القرطبى ويل عذاب وخزى لمن كذب بالله تعالى وبرسله وكتبه وبيوم الفصل وهو وعيد وكرره فى هذه السورة عند كل آية كأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم فان لكل مكذب بشئ عذابا سوى عذاب تكذيبه بشئ آخر ورب شئ كذب به هو أعظم جرما من تكذيبه لغيره لانه أقبح فى تعظيمه وأعظم فى الرد على الله تعالى وانما يقسم لهم من الويل على قدر ذلك وعلى قدر وفاقه وهو قوله تعالى جزاء وفاقا وقيل كرره لمعنى تكرار التخويف والوعيد وروى عن النعمان بن بشير قال ويل واد فى جهنم فيه ألوان العذاب وقاله ابن عباس وغيره وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال عرضت على جهنم فلم أر فيها واديا أعظم من الويل وروى أيضا أنه مجمع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم وانما يسيل الشئ فيما سفل من الارض وقد علم العباد فى الدنيا ان شر المواضع ما استنقع فيها مياه الادناس والاقذار والغسالات والجيف وماء الحمامات فذكر أن الوادى مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ليعلم العاقل انه لاشئ أقذر منه قذارة ولا أنتن منه نتنا * (تنبيه) * ويل مبتدأ وسوغ الابتداء به الدعاء ويومئذ ظرف للويل وللمكذبين خبره وقال الزمخشرى فان قلت كيف وقع النكرة مبتدأ قلت هو فى أصله مصدر منصوب ساد مسد فعله لكنه عدل به الى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ونحوه سلام عليكم واعترض بأن الذى ذكره ليس من المسوغات التى ذكرها النحويون وانما المسوغ كونه دعاء وفائدة العدول الى الرفع ماذكره (ألم نهلك) أى بما لنا من العظمة (الاولين) من لدن آدم عليه السلام الى زمن محمد صلى الله عليه وسلم كقوم نوح وعاد وثمود بتكذيبهم أى أهلكناهم (ثم نتبعهم الآخرين) أى ممن كذبوا ككفار مكة فنهلكهم كما أهلكنا الاولين ونسلك بهم سبيلهم لانهم كذبوا مثل تكذيبهم (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (نفعل بالمجرمين) أى بكل من أجرم فيما يستقبل اما بالسيف واما بالهلاك (ويل يومئذ) أى اذ يوجد ذلك الفعل (للمكذبين) أى بآيات الله وأنبيائه قال البيضاوى فليس تكرارا وكذا ان أطلق التكذيب أو علق فى الموضعين بواحد لان الويل الاول لعذاب الآخرة وهذا للاهلاك فى الدنيا مع أن التكرير للتوكيد حسن شائع فى كلام العرب (ألم نخلقكم) أى أيها المكذبون بما لنا من العظمة التى لا تغيرها عظمة (من ماء مهين) أى ضعيف حقير وهو المنى وهذا نوع آخر من تخويف الكفار وهو من وجهين الاول انه تعالى ذكرهم عظيم انعامه عليهم وكل ما كان نعمه عليه أكثر كان جنايته فى حقه أقبح وأفحش الثانى

أنه تعالى ذكرهم انه قادر على الابتداء والقادر على الابتداء قادر على الاعادة فكما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة لاجرم قال تعالى فى حقهم ويل يومئذ للمكذبين وهذه الآية نظير قوله تعالى ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وقرأ كل القراء بادغام القاف فى الكاف وابقاء الصفة ولهم أيضا ادغام الصفة مع الحذف (فجعلناه) أى بما لنا من القدرة والعظمة بالانزال للماء فى الرحم (فى قرار) أى مكان (مكين) أى حريز وهو الرحم (الى قدر معلوم) أى وهو وقت الولادة كقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة الى قوله ويعلم ما فى الارحام (فقدرنا) أى ذلك دون غيرنا (فنعم القادرون) نحن وقرأ نافع والكسائى بتشديد الدال فيصح على هذه القراءة أن يكون المعنى فقدرناه والباقون بالتخفيف وقال على كرم الله وجهه ولا يبعد أن يكون المعنى فى التخفيف والتشديد واحدا لان العرب تقول قدر وقدر عليه الموت (ويل يومئذ) أى اذ كان ذلك (للمكذبين) أى بقدرتنا على ذلك أو على الاعادة وقوله تعالى (ألم نجعل) أى نصير بما لنا بما لنا من العظمة (الارض كفاتا) مصدر كفت بمعنى ضم وعاء ضامة (أحياء) أى على ظهرها فى الدور وغيرها (وأمواتا) أى فى بطنها فى القبور وغيرها وقيل الاحياء والاموات ترجع الى الارض أى الارض منقسمة الى حى وهو الذى ينبت والى ميت وهو الذى لا ينبت وقيل كفاتا جمع كافت كصيام وقيام جمع صائم وقائم وقال الخليل تقليب الشئ ظهر البطن أو بطنا الظهر ويقال انكفت القوم الى منازلهم أى انقلبوا فمعنى الكفات انهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون اليها فيدفعون فيها (وجعلنا) أى بما لنا من القدرة التامة (فيها) أى الارض (رواسى) أى جبالا لولاها لمادت بأهلها ومن العجائب مراسيها من فوقها خلافا لمراسى السفن (شامخات) أى مرتفعات جمع شامخ وهو المرتفع جدا ومنه شمخ بأنفه اذا تكبر جعل كناية عن ذلك كثنى العطف وصعر الخد كما قال لقمان لابنه ولا تصعر خدك للناس (وأسقيناكم) أى بما لنا من العظمة (ماء) أى من الانهار والعيون والغدران والآبار وغير ذلك (فراتا) أى عذبا تشربون منه ودوابكم وتسقون منه زرعكم وهذه الامور أعجب من البعث روى فى الارض من الجنة سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة (ويل يومئذ) أى اذ تقوم الساعة (للمكذبين) أى بأمثال هذه النعم وقوله تعالى (انطلقوا) على ارادة القول اى يقال للمكذبين يوم القيامة انطلقوا (الى ما كنتم به تكذبون) من العذاب يعنى النار فقد شاهدتموها عيانا (انطلقوا الى ظل) أى ظل دخان جهنم لقوله تعالى وظل من يحموم (ذى ثلاث شعب) أى تتشعب لعظمه كما يرى الدخان العظيم يتفرق ذوائب وقيل يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ حسابهم والمؤمنون فى ظل العرش وقيل ان الشعب الثلاث هى الضريع والزقوم والغسلين لانها أوصاف النار وقوله تعالى (لا ظليل) أى كنين يظلهم من حر ذلك اليوم تهكم بهم ورد لما يوهم لفظ الظل (ولا يغنى) أى ولا يرد عنهم شيأ (من اللهب) أى لهب النار فليس كالظل الذى يقى حر الشمس وهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين واللهب ما يعلو

على النار اذا اضطربت من أحمر وأصفر وأخضر (انها) أى النار (ترمى) أى من شدة الاشتعال (بشرر) وهو ما تطاير من النار (كالقصر) أى كل شررة كالقصر من البناء فى عظمه وارتفاعه قال ابن مسعود يعنى الحصون وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ترمى بشرر كالقصر قيل هى الخشب العظام المقطعة قال وكنا نعمد الى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ندخرها للشتاء فكنا نسميها القصر وقال سعيد بن جبير والضحاك هى أصول النخل والشجر العظام واحدتها قصرة مثل جمرة وجمر وقوله تعالى (كأنه) أى الشرر (جمالات) قرأه حمزة والكسائى وحفص بغير ألف بعد اللام على التوحيد والباقون بالالف على الجمع جمع جمالة وهى التى قرأها أولا وهى جمع جمل مثل حجارة وحجر وقوله تعالى (صفر) جمع أصفر أى فى هيئتها ولونها وفى الحديث شرار النار أصفر كالقير والعرب تسمى سود الابل صفرا لشوب سوادها بصفرة فقيل صفر فى الآية يعنى سودا لما ذكروا فى شعر عمران بن حطان الخارجى

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم ＊ بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

قال الترمذى وهذا القول ضعيف ومحال فى اللغة أن يكون من يشوبه شئ قليل فينسب كله الى ذلك الشائب فالعجب ممن قد قال هذا وقد قال الله تعالى جمالات صفر فلا نسلم من هذا شيأ فى اللغة وقيل شبه الشرر بالجمالات لسرعة سيرها وقيل لمتابعة بعضها بعضا (ويل يومئذ) أى اذ يكون ذلك (للمكذبين) أى بهذه الامور العظام (هذا) أى يوم القيامة (يوم لا ينطقون) أى بشئ من فرط الدهشة والحيرة وهذا نوع آخر من أنواع تخويف الكفار بين أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح وهذا فى بعض المواقف فان يوم القيامة يوم طويل ذو مواطن ومواقيت ينطقون فى وقت ولا ينطقون فى وقت ولذلك ورد الامران فى القرآن الكريم ففى بعضها يختصمون ويتكلمون وفى بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون وروى عكرمة أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما سأله ابن الازرق عن قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا تسمع الا همسا وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فقال ان الله تعالى يقول وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون فان لكل مقدار من هذه الايام لونا من هذه الالوان وقال الحسن فيه اضمار أى هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة نافعة فجعل نطقهم كلا نطق لانه لا ينفع ولا يسمع ومن نطق بما لا ينفع فكأنه ما نطق كما يقال لمن تكلم بكلام لا يفيد ما قلت شيأ وقيل ان هذا وقت جوابهم اخسؤا فيها ولا تكلمون (ولا يؤذن لهم) أى فى العذر وقوله تعالى (فيعتذرون) عطف على يؤذن من غير تسبب عنه فهو داخل فى حيز النفى أى لا اذن فلا اعتذار (ويل يومئذ) أى اذ كان هذا الموقف (للمكذبين) أى الذين لا تقبل منهم معذرة (هذا يوم الفصل) وهذا نوع آخر من أنواع تهديد الكفار وتخويفهم أى يقال لهم هذا اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق فيتبين المحق من المبطل (جمعناكم) أيها المكذبون من هذه الامة بما لنا من العظمة (والاولين) من المكذبين قبلكم فتحاسبون وتعذبون جميعا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما جمع الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم والذين كذبوا النبيين من قبل وقوله تعالى (فان كان لكم

كيد) أى حيلة فى دفع العذاب عنكم (فكيدون) أى فاحتالوا لانفسكم وقاوون ولن تجدوا ذلك تقريع لهم على كيدهم لدين الله تعالى وذويه وتسجيل عليهم بالعجب وقيل ان ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم فيكون كقول هود عليه السلام فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون (ويل يومئذ) أى اذ يقال لهم هذا الكلام فيكون زيادة فى عذابهم (للمكذبين) أى الراسخين فى التكذيب فى ذلك * ثم ذكر ضد المكذبين بقوله تعالى (ان المتقين) أى الذين اتقوا الشرك لانهم فى مقابلة المكذبين (فى ظلال) أى تكاثف أشجار اذ لا شمس يظل من حرها (وعيون) أى من ماء وعسل ولبن وخمر كما قال تعالى فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص بضم العين والباقون بكسرها (وفواكه مما يشتهون) فى هذا اعلام بأن المأكل والمشرب فى الجنة بحسب شهواتهم بخلاف الدنيا فبحسب ما يجد الناس فى الاغلب وقوله تعالى (كلوا واشربوا) فى موضع الحال من ضمير المتقين فى الظرف الذى هو فى ظلال أى هم مستقرون فى ظلال مقولا لهم ذلك وقوله تعالى (هنيئا) حال أى متهنئين (بما) أى بسبب ما (كنتم تعملون) من طاعات الله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (كذلك) أى كما جزينا المتقين هذا الجزاء العظيم (نجزى المحسنين) أى نثيب الذين أحسنوا فى تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم فى الدنيا (ويل يومئذ) أى اذ يكون هذا النعيم للمتقين المحسنين (للمكذبين) أى يمحض لهم العذاب المخلد ضد النعيم المؤبد وقوله تعالى (كلوا وتمتعوا) خطاب للكفار فى الدنيا (قليلا) أى من الزمان وغايته الى الموت وهو زمان قليل لانه زائل مع قصر مدته فى زمن الآخرة وفى هذا تهديد لهم ويجوز أن يكون ذلك خطابا لهم فى الآخرة ايذانا بأنهم كانوا فى الدنيا احقاء بان يقال لهم وكانوا من أهله تذكيرا بحالهم السمجة بما جنوا على أنفسهم من ايثار المتاع القليل على النعيم والملك الخالد وهذا ما جرى عليه الزمخشرى أولا وذكر الاول ثانيا واقتصر الجلال المحلى على ما ذكرته أولا وهو أولى قال بعض العلماء التمتع بالدنيا من افعال الكافرين والسعى لها من افعال الظالمين والاطمئنان اليها من افعال الكاذبين والسكون فيها على حد الاذن والاخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين والاعراض عنها من أفعال الزاهدين وأهل الحقيقة أجل خطرا من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها * ثم علل ذلك مؤكدا بقوله تعالى لانهم ينكرون وصفهم بذلك (انكم مجرمون) نفيه دلالة على أن كل مجرم يتمتع أياما قلائل ثم البقاء فى الهلاك أبدا (ويل يومئذ) أى اذ تعذبون بأجرامكم (للمكذبين) حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل (واذا قيل لهم) أى لهؤلاء المجرمين من أى قائل كان (اركعوا) أى صلوا الصلاة التى فيها الركوع كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما وأطلقوه عليها تسمية لها باسم جزئها وخص هذا الجزء لانه يقال على الخضوع والطاعة ولانه خاص بصلاة المسلمين (لا يركعون) أى لا يصلون قال الرازى وهذا ظاهر لان الركوع من أركانها فبين تعالى ان هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم اذا دعوا الى الصلاة لا يصلون ويجوز أن يكون اركعوا بمعنى

اخشعوا وتواضعوا لله بقبول وحيه واتباع دينه واطرحوا هذا الاستكبار لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم وأن يكون بمعنى اركعوا في الصلاة اذ روي أنها نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فقالوا لا نجبي فانها مسبة علينا فقال صلى الله عليه وسلم لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود قال في القاموس جبى تجبية وضع يديه على ركبتيه أو على الارض أو انكب على وجهه والتجبية أن تقوم قيام الراكع واستدل بهذه الآية على ان الكفار مخاطبون بفروع الشريعة وأنهم حال كفرهم يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة لان الله تعالى ذمهم حال كفرهم وعلى أن الامر للوجوب لان الله تعالى ذمهم بمجرد ترك المأمور به وهو يدل على ان الامر للوجوب (فان قيل) انما ذمهم لكفرهم (أجيب) بأنه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه الا أنه تعالى انما ذمهم في هذه الآية لتركهم المأمور به وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها (ويل يومئذ) أي اذ يكون الفصل (للمكذبين) أي بما أمروا به قال الرازي انه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة الى آخرها بهذه الوجوه العشرة المذكورة وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار وبين أنهم اذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل القطعية مع تجليها ووضوحها (فبأي حديث بعده) أي القرآن (يؤمنون) أي لا يمكن ايمانهم بغيره من كتب الله تعالى بعد تكذيبهم به لاشتماله على الاعجاز الذي لم يشتمل عليه غيره واستدل بعض المعتزلة بهذه الآية على ان القرآن حادث لان الله تعالى وصفه بأنه حديث والحديث ضد القديم والضدان لا يجتمعان فاذا كان حديثا وجب أن لا يكون قديما وأجيب بأن المراد منه هذه الالفاظ ولا نزاع في أنها محدثة وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والمرسلات كتب الله تعالى له أنه ليس من المشركين حديث موضوع

(سورة عم يتساءلون)

وتسمى سورة النبا مكية وهي أربعون أو احدى وأربعون آية ومائة وثلاثة وسبعون كلمة وسبعمائة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذي له الملك كله (الرحمن) الذي عم الوجود بفضله (الرحيم) الذي تمحضت أولياؤه جنته وقوله تعالى (عم) أصله عن ما على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية وأدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما كقوله فيم واستعمال الاصل قليل ومنه قول حسان

على ما قام يشتمني لئيم * كخنزير تمرغ في رماد

ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال عن أي شئ (يتساءلون) ونحوه قولك زيد ما زيد جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شئ خفي عليك فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول ما الغول وما العنقاء تريد أي شئ هو من الاشياء هذا أصله ثم جرد للعبارة عن التفخيم حتى وقع في كلام من لا تخفى عليه خافية واذا ما وقف البزي ألحق الميم هاء السكت بخلاف عنه والضمير في يتساءلون لاهل مكة كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم وذلك أن النبي

صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى التوحيد وأخبرهم بالبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون ماذا جاء به محمد ويسألون الرسول والمؤمنين عنه استهزاء وقيل الضمير للمسلمين والكافرين جميعا وكانوا جميعا يتساءلون عنه أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا وأما الكافر فليزداد استهزاء * ثم ذكر أن تساءلهم عماذا فقال تعالى (عن النبا العظيم) قال مجاهد والاكثرون هو القرآن دليله قوله تعالى قل هو نبأ عظيم وقال قتادة هو البعث (فان قيل) اذا كان الضمير يرجع للكافر فكيف يكون قوله تعالى (الذى هم) أى بضمائرهم مع ادعائهم أنها أقوى الضمائر (فيه مختلفون) مع ان الكفار كانوا متفقين على انكار البعث (أجيب) بأنا لانسلم اتفاقهم على ذلك بل كان فيهم من يثبت المعاد الروحانى وهم جمهور النصارى وأما المعاد الجسمانى فمنهم من يقطع القول بانكاره ومنهم من يشك وأما اذا كان المتساءل عنه القرآن فقد اختلفوا فيه كثيرا وقيل المتساءل عنه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (كلا) ردع للمتسائلين هزؤا (سيعلمون) ما يحل بهم على انكارهم له وقوله تعالى (ثم كلا سيعلمون) تأكيد وجيء فيه بثم للايذان بان الوعيد الثانى أشد من الاول وقال الضحاك الاولى للكفار والثانية للمؤمنين أى سيعلم الكافرون عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم * ثم أومأ تعالى الى القدرة على البعث بقوله تعالى (ألم نجعل) أى بما لنا من العظمة (الارض مهادا) أى فراشا كالمهد للصبى وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر كضرب الامير (والجبال) أى التى تعرفون شدتها وعظمها (أوتادا) أى تثبت بها الارض كما تثبت الخيام بالاوتاد والاستفهام للتقرير فيستدل بذلك على قدرته على جميع الممكنات واذا ثبت ذلك ثبت القول بصحة البعث وانه قادر على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها وعلى ايجاد عالم الآخرة * (تنبيه) * مهادا مفعول ثان لان الجعل بمعنى التصيير ويجوز أن يكون بمعنى الخلق فتكون حالا مقدرة (وخلقناكم) أى بما دل على ذلك من مظاهر العظمة (أزواجا) أى أصنافا ذكورا واناثا وقيل ألوانا (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (نومكم سباتا) أى راحة لابدانكم قال الزجاج السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فيه وقيل معناه جعلنا نومكم قطعا لاعمالكم وقيل المسبوت الميت من السبت وهو القطع لانه مقطوع عن الحركة والنوم أحد التوفيتين وقوله تعالى (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (الليل) أى بعد ذهاب الضياء حتى كانه لم يكن (لباسا) فيه استعارة أى يستركم عن العيون بظلمته كما اذا أردتم هربا من عدو أو بياتا له أو اخفاء ما لاتحبون الاطلاع عليه من كثير من الامور وقال الشاعر

وكم لظلام الليل عندى من يد * تخبر أن المانوية تكذب

ولما جعل النوم موتا جعل اليقظة معاشا فقال تعالى (وجعلنا) أى بما لنا من القدرة التامة (النهار) أى الذى آيته الشمس (معاشا) أى حياة تبعثون فيه عن نومكم أو وقت معاش تتقلبون فيه فى حوائجكم ومكاسبكم لتحصيل ما تعيشون به فمعاشا على هذا اسم زمان (وبنينا) بما لنا من الملك التام (فوقكم سبعا) أى سبع سموات وقوله تعالى (شدادا) جمع شديدة أى قوية

محكمة لا يؤثر فيها مر الزمان لافطور فيها ولا فروج ونظيره قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة مما لا يقدر عليه غيرنا (سراجا) أى منيرا متلألئا (وهاجا) أى وقادا وهى الشمس (وأنزلنا) أى بما لنا من كمال الاوصاف (من المعصرات) أى السحاب اذا اعصرت أى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كقولك أجز الزرع أى حان أن يجز وأعصرت الجارية اذا دنت أن تحيض وعن الحسن وقتادة هى السموات وتأويله ان الماء ينزل من السماء الى السحاب فكان السموات يعصرن وقيل من الرياح التى حان لها ان تعصر السحاب وقيل الرياح ذوات الاعاصير وانما جعلت مبدأ للانزال لانها تنشئ السحاب وتدر أخلافه (ماء ثجاجا) أى منصبا بكثرة يقال ثجه وثج بنفسه وفى الحديث أفضل الحج العج والثج أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مثجا يسيل غربا يعنى يثج الكلام ثجا فى خطبته (لنخرج) أى بعظمتنا التى ربطنا بها المسببات بالاسباب (به) أى بذلك الماء (حبا) أى نجما اذا حب مما يقوت به كالحنطة والشعير والارز (ونباتا) أى ما يعتلف به كالتبن والحشيش كما قال تعالى كلوا وارعوا أنعامكم والحب ذو العصف والريحان (وجنات) أى بساتين تجمع أنواع الاشجار والنبات المقتات وغيره (ألفافا) أى ملتفة بالشجر جمع لفيف كشريف وأشراف وقيل هو جمع الجمع يقال جنة لفاء وجمعها لف بضم اللام وجمع الجمع ألفاف وقيل لا واحد له كالاوزاع والاخياف وقيل الواحد لف قال صاحب الاقليد أنشدنى الحسن بن على الطوسى

جنة لف وعيش مغدق * وندامى كلهم بيض زهر

وقال الزمخشرى ولو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولا وجيها (ان يوم الفصل) أى بين الخلائق (كان) أى فى علم الله تعالى وفى حكمه كونا لا بد منه (ميقاتا) أى وقتا للثواب والعقاب أو وقتا توقت به الدنيا وتنتهى عنده مع ما فيها من الخلائق وقوله تعالى (يوم ينفخ فى الصور) أى القرن بدل من يوم الفصل أو بيان له والنافخ اسرافيل عليه السلام أو من أذن الله تعالى له فى ذلك (فتأتون) أى بعد القيام من القبور الى الموقف (أفواجا) أى جماعات مختلفة وعن معاذ أنه سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الامور ثم أرسل عينيه باكيا وقال تحشر عشرة أصناف من أمتى بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عميا وبعضهم صما بكما وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهى مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتنا من الجيف وبعضهم ملبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ثم فسر هؤلاء بقوله فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس يعنى النمام وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت وأما المنكبون على وجوههم فأكلة الربا وأما العمى فالذين يجورون فى الحكم وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم وأما الذين

يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم فعلهم وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس الى السلطان وأما الذين أشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون الشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى فى أموالهم وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء اه وقد تكلم فى صحة هذا الحديث نعوذ بالله تعالى من هؤلاء ونسأله التوفيق لنا ولاحبابنا فانه كريم جواد لا يرد من سأله (وفتحت السماء) أى شققت لنزول الملائكة (فكانت أبوابا) فان قيل هذه الآية تقتضى ان السماء بجملتها تصير أبوابا أجيب بوجوه أولها أن تلك الابواب لما كثرت صارت كأنها ليست الا أبوابا مفتحة كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا كأن كلها عيون تتفجر ثانيها أنه على حذف مضاف أى فكانت ذات أبواب ثالثها أن الضمير فى قوله تعالى فكانت أبوابا يعود الى مضمر والتقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة أبوابا وقيل الابواب الطرق والمسالك أى تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقا لا يسدها شئ وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف التاء بعد الفاء والباقون بتشديدها (وسيرت الجبال) أى ذهب بها عن أماكنها (فكانت سرابا) أى لاشئ كما ان السراب كذلك يظنه الرائى ماء وليس بماء قال الرازى ان الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ويمكن الجمع بينها بأن نقول أول أحوالها الاندكاك وهو قوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة والحالة الثانية أن تصير كالعهن المنفوش وهو قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وهو قوله تعالى وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا الحالة الرابعة أن تنسف لانها مع الاحوال المتقدمة قارة فى مواضعها فترسل عليها الرياح فتنسفها عن وجه الارض فتطيرها فى الهواء وهو قوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا الحالة الخامسة ان تصير سرابا أى لاشئ كما يرى السراب من بعد وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بادغام تاء التأنيث فى السين والباقون بالاظهار (ان جهنم) أى النار التى تلقى أصحابها متجهمة لهم بغاية ما يكرهون (كانت مرصادا) أى ترصد الكفار أو موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار أو خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها فى مرورهم عليها وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان على جسر جهنم سبع مجالس يسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فان جاء بها تامة جاز الى الثانى فيسئل عن الصلاة فان جاء بها تامة جاز الى الثالث فيسئل عن الزكاة فان جاء بها تامة جاز الى الرابع فيسئل عن الصوم فان جاء به تاما جاز الى الخامس فيسئل عن الحج فان جاء به تاما جاز الى السادس فيسئل عن العمرة فان جاء بها تامة جاز الى السابع فيسئل عن المظالم فان خرج منها والا يقال انظروا ان كان له تطوع أكملوا أعماله فاذا فرغ انطلق به الى الجنة وأما الكافر فهو مستقر فيها كما قال تعالى (للطاغين) أى الكافرين (مآبا) أى مرجعا يرجعون اليه وقرأ حمزة (لابثين فيها) بغير ألف بين اللام والباء الموحدة والباقون بألف وهما لغتان والاولى أبلغ قاله البيضاوى وقوله تعالى (أحقابا) جمع حقب والحقب الواحد

ثمانون سنة كل سنة اثنا عشر شهرا كل شهر ثلاثون يوما كل يوم ألف سنة روى ذلك عن علي بن
أبي طالب رضي الله عنه وقال مجاهد الاحقاب ثلاثة وأربعون حقبا وقال الحسن ان الله
تعالى لم يجعل لاهل النار مدة بل قال لابثين فيها أحقابا فوالله ماهو الا أنه اذا مضى حقب دخل
آخر الى الابد فليس للاحقاب عدة الا الخلود روى عن عبد الله انه قال لو علم أهل النار أنهم
يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى
الدنيا لحزنوا وقال مقاتل بن حيان الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة قال وهذه الآية
منسوخة نسختها فلن نزيدكم الا عذابا يعني ان العدد قد ارتفع والخلود قد دخل وعلى تقدير عدم
النسخ فهو من قبيل المفهوم فلا يعارض المنطوق الدال على خلود الكفار ويجوز أن يراد
لابثين فيها أحقابا (لا يذوقون) أي غير ذائقين (فيها) أي النار (بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا)
ثم يبدلون بعد الاحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب ويجوز أن يكون جمع
حقب من حقب عامنا اذا قل مطره وخيره وحقب فلان اذا أخطأ الرزق فهو حقب وجمعه
أحقاب فينتصب حالا عنهم يعني لابثين فيها حقبين جهدين وقوله تعالى لا يذوقون فيها بردا
ولا شرابا تفسير له والاستثناء منقطع يعني لا يذوقون فيها بردا قال عطاء والحسن أي راحة
وروحا أي ينفس عنهم حر النار ولا شرابا يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميما أي ماء
حارا غاية الحرارة وغساقا وهو ما يسيل من صديد أهل النار فانهم يذوقونه وروى عن ابن
عباس رضي الله تعالى عنهما ان البرد النوم ومثله قال الكسائي وأبو عبيدة تقول العرب منع
البرد البرد أي أذهب البرد النوم قال الشاعر

فلو شئت حرمت النساء سواكم * وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

وقرأ حمزة والكسائي وجعفر بتشديد السين والباقون بتخفيفها وعن ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده جوزوا بذلك (جزاء وفاقا) أي موافقا لعملهم قال
مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الكفر ولا عذاب أعظم من النار وقوله تعالى
(انهم كانوا لا يرجون حسابا) بيان لما وافقه هذا الجزاء أي لا يخافون أن يحاسبوا والمعنى أنهم
كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا أنهم يحاسبون (وكذبوا بآياتنا) أي بما جاءت به الانبياء عليهم السلام
وقيل القرآن وقرأ (كذابا) غير الكسائي بالتشديد أي تكذيبا قال الفراء وهي لغة يمانية
فصيحة يقولون في مصدر التفعيل فعال وقال الزمخشري وفعال في باب فعل كله فاش في كلام
فصحاء من العرب لا يقولون غيره وسمعني بعضهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فسارا ما سمع بمثله
وقرأ الكسائي بالتخفيف مصدر كذب بدليل قول الشاعر

فصدقتها وكذبتها * والمرء ينفعه كذابه

قال الزمخشري وهو مثل قوله أنبتكم من الارض نباتا يعني وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا
أو تنصبه بكذبوا لانه يتضمن معنى كذبوا لانه كل مكذب بالحق كاذب وان جعلته بمعنى المكاذبة
فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة أو كذبوا بها مكاذبين لانهم اذا كانوا عند المسلمين كاذبين

وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة أو لانهم يتكلمون بما هو افراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده (وكل شئ) أي من الاعمال وغيرها (أحصيناه) أي ضبطناه وقوله تعالى (كتابا) فيه وجهان أحدهما انه مصدر في موضع احصاء والاحصاء والكتب يتشاركان في معنى الضبط ثانيهما أن يكون حالا بمعنى مكتوبا في اللوح المحفوظ كقوله تعالى وكل شئ أحصيناه في امام مبين وقيل أراد ما تكتبه الملائكة الموكلون بالعباد بأمر الله تعالى اياهم بالكتابة لقوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين والجملة اعتراض وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم) أي شيأ من الاشياء في وقت من الاوقات (الا عذابا) تسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات قال الرازي وفي هذه الآية مبالغات منها التأكيد ومنها الالتفات ومنها اعادة قوله تعالى فذوقوا بعد ذكر العذاب قال أبو بردة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشد آية في القرآن فقال صلى الله عليه وسلم قوله تعالى فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا اي كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب وكلما خبت زدناهم سعيرا * ولما ذكر تعالى ما للكافرين أتبعه بذكر ما للمؤمنين فقال تعالى (ان للمتقين مفازا) أي مكان فوز في الجنة وقوله تعالى (حدائق) أي بساتين فيها أنواع الاشجار المثمرة بدل من مفازا بدل الاشتمال أو البعض أو بيان له وقوله تعالى (وأعنابا) أي كروما عطف على مفازا (وكواعب) أي جواري تكعب ثديهن جمع كاعب (أترابا) أي على سن واحد جمع ترب بكسر التاء وسكون الراء وقيل الاتراب اللدات (وكأسا دهاقا) أي خمرا مالئة محالها وفي القتال وأنهار من خمر والدهاق المترعة ودهق الحوض ملأه حتى قال قطني وقال ابن عباس مترعة مملوأة وقال عكرمة صافية (لا يسمعون فيها) أي الجنة في وقت ما عند شرب الخمر وغيره من الاحوال (لغوا) اي لغطا يستحق أن يلغى بأن يكون ليس له معنى وقوله تعالى (ولا كذابا) قرأه بالتخفيف الكسائي وبالتشديد الباقون أي تكذيبا من واحد لغيره بخلاف ما يقع في الدنيا عند شرب الخمر (جزاء من ربك) أي المحسن اليك بما أعطاهم جزاهم بذلك جزاء وقوله تعالى (عطاء) بدل من جزاء وهو اسم مصدر وجعله الزمخشري منصوبا بجزاء نصب المفعول به ورده أبو حيان بأنه جعل جزاء مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة التي هي ان للمتقين قال والمصدر المؤكد لا يعمل لانه لا ينحل لحرف مصدري والفعل ولا نعلم في ذلك خلافا (حسابا) أي كافيا وافيا يقال أحسبت فلانا أي أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي وقال ابن قتيبة أي عطاء كثيرا وقيل جزاء بقدر أعمالهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (رب السموات والارض وما بينهما الرحمن) برفع رب والرحمن وابن عامر وعاصم بخفضهما والآخران بخفض الاول ورفع الثاني أما رفعهما فمن أوجه أحدها أن يكون رب خبر مبتدا مضمر أي هو رب والرحمن كذلك أو مبتدا خبره لا يملكون ثانيها أن يجعل رب مبتدأ والرحمن خبره ولا يملكون خبرا ثانيا أو مستأنفا ثالثها أن يكون رب مبتدا والرحمن نعته ولا يملكون خبر رب رابعها أن يكون رب مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبره والجملة خبر الاول وحصل الربط بتكرير المبتدا بمعناه وهو

رأى الاخفش ويجوز أن يكون لايملكون حالا وتكون لازمة وأما جرهما فعلى البيان والنعت أو بجعل رب السموات تابعا للاول والرحمن تابعا للثانى وأما جر الاول فعلى التبعية للاول ورفع الثانى فعلى الابتداء والخبر الجملة الفعلية وهى لايملكون أى الخلق (منه) أى من الله تعالى (خطابا) والضمير فى لايملكون لاهل السموات والارض أى ليس فى أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به فى أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه أو لايملكون أن يخاطبوا بشئ من نقص العذاب أو زيادة فى الثواب الا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه وقوله تعالى (يوم) متعلق بلايملكون أو لايتكلمون (يقوم الروح والملائكة) وقوله تعالى (صفا) حال أى مصطفين والروح أعظم خلقا من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو ملك عظيم ما خلق الله تعالى بعد العرش خلقا أعظم منه فاذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفا وقامت الملائكة كلهم صفا واحدا فيكون عظم خلقه مثلهم وقال الشعبى هو جبريل عليه السلام وقيل ملك موكل على الارواح وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال الروح ملك أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة وهو فى السماء الرابعة يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة يخلق من كل تسبيحة ملك يجئ يوم القيامة صفا وحده وقال مجاهد وقتادة رضى الله عنهم الروح خلق على صورة بنى آدم وليسوا بناس يقومون صفا والملائكة صفا هؤلاء جند وهؤلاء جند وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خلق على صورة بنى آدم وما ينزل من السماء ملك الا معه واحد منهم وقال الحسن رضى الله عنه هو بنو آدم ورواه قتادة عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال هذا مما كان يكتمه ابن عباس وقيل هو جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل يأكلون الطعام وقيل أرواح بنى آدم وقال زيد بن أسلم هو القرآن وقرأ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا واذا كان هؤلاء (لايتكلمون) وهم من أفضل الخلق وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه تعالى لايملكون التكلم فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والارض ويجوز رجوع الضمير للخلق أجمعين (الا من أذن له) أى فى الكلام اذنا خاصا (الرحمن) أى الملك الذى لاتكون النعمة الا منه (وقال) قولا (صوابا) فى الدنيا أى حقا من المؤمنين والملائكة وهما شريطتان أن يكون المتكلم مأذونا له فى الكلام وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وقيل القول الصواب لا اله الا الله (ذلك) أى المشار اليه لبعد مكانته وعظم رتبته وعلو منزلته (اليوم الحق) أى الكائن لامحالة وهو يوم القيامة (فمن شاء اتخذ الى ربه) أى المحسن اليه (مآبا) أى مرجعا وسبيلا لطاعته ليسلم من العذاب فى ذلك اليوم فان الله تعالى جعل لهم قوة واختيارا ولكن لايقدر أحد منهم على مشيئة شئ الا بمشيئة الله تعالى (انا) أى على ما لنا من العظمة (أنذرناكم) أى يا كفار مكة (عذابا قريبا) أى عذاب يوم القيامة الآتى وكل آت قريب وقوله تعالى (يوم) ظرف لعذابا بصفته (ينظر المرء) أى كل امرئ سواء كان مؤمنا أو كافرا انتظار الاعتبار فيه (ما) أى الذى (قدمت يداه) أى كسبه فى الدنيا من خير وشر

وقال الحسن رضي الله عنه أراد بالمرء المؤمن أي يجد لنفسه عملا وأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا ولانه تعالى قال (ويقول الكافر) فعلم انه أراد بالمرء المؤمن وقيل هو الكافر لقوله تعالى انا أنذرناكم فيكون الكافر ظاهرا وضع موضع الضمير لزيادة الذم ومعنى ماقدمت يداه من الشر كقوله تعالى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدمت أي ينظر أي شئ قدمت يداه أو موصولة منصوبة بينظر يقال نظرته بمعنى نظرت اليه والراجع الى الصلة محذوف وقال مقاتل رضي الله عنه نزل قوله تعالى يوم ينظر المرء ماقدمت يداه في أبي سلمة بن عبد الاسد المخزومي ويقول الكافر (ياليتني كنت ترابا) في أخيه الاسود بن عبد الاسد وقال الثعلبي سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول الكافر هنا ابليس وذلك انه عاب آدم عليه السلام بأنه خلق من تراب وافتخر بأنه خلق من نار فاذا عاين يوم القيامة مافيه آدم وبنوه من الثواب والراحة ورأى ماهو فيه من الشدة والعذاب تمنى انه كان بمكان آدم فيقول ياليتني كنت ترابا قال ورأيته في بعض التفاسير قال البغوي قال أبو هريرة رضي الله عنه فيقول التراب لا ولا كرامة لكل من جعلك مثلي وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وانسان ثم يقال للبهائم والطير كونوا ترابا فعند ذلك يقول الكافر ياليتني كنت ترابا أي فلا اعذب وقيل معنى ياليتني كنت ترابا اى لم ابعث وقال ابو الزناد اذا قضى بين الناس وامر بأهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار قيل لسائر الامم ولمؤمني الجن عودوا ترابا فيعودون ترابا فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم ياليتني كنت ترابا وقال ليث بن ابي سليم مؤمنو الجن يعودون ترابا وقال عمر بن عبد العزيز ومجاهد وغيرهما مؤمنو الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها والذي عليه الاكثر أنهم مكلفون مثابون ومعاقبون كبني آدم وقيل يحشر الله تعالى الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم رده ترابا فيود الكافر حاله وماقاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة عم سقاه الله تعالى برد الشراب يوم القيامة حديث موضوع

(سورة النازعات مكية)

وهي خمس أوست وأربعون آية ومائة وسبعون كلمة وسبعمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذي أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذي أنعم على سائر الموجودات (الرحيم) الذي خص أولياءه بالجنات (والنازعات) أي الملائكة تنزع أرواح الكفار (غرقا) أي تنزع أرواحهم من أجسادهم بشدة كما يغرق النازع في القوس ليبلغ بها غاية المد بعدما نزعها حتى اذا كادت تخرج ردها الى جسده فهذا عملهم بالكفار وقال علي وابن مسعود رضي الله عنهما يريد نفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم من تحت كل شعرة ومن تحت الاظافير وأصول القدمين نزعا كالسفود ينزع من الصوف الرطب ثم يغرقها أي يرجعها الى أجسادهم ثم ينزعها فهذا عمله في الكفار وقال السدي رضي الله عنه والنازعات هي النفوس حين تغرق

فى الصدور وقال مجاهد رضى الله عنه هى الموت ينزع النفوس وقال الحسن وقتادة رضى الله عنهم هى النجوم تنزع من أفق الى أفق تطلع ثم تغيب وقال عطاء وعكرمة رضى الله عنهم هى النفوس وقيل الغزاة * (تنبيه) * غرقا يجوز أن يكون مصدرا على حذف الزوائد بمعنى اغراقا وانتصابه بما قبله لملاقاته فى المعنى وأن يكون على الحال أى ذوات اغراق يقال أغرق فى الشئ يغرق فيه اذا أوغل وبلغ أقصى غايته (والناشطات نشطا) أى الملائكة تنشط أرواح المؤمنين أى تسلها برفق فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير اذا حل عنه وفى الحديث كأنما نشط من عقال وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى أنفس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة لان الجنة تعرض عليهم قبل الموت وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه هى الملائكة تنشط أرواح الكفار مما بين الجلد والاظفار حتى تخرجها من أفواههم بالكد والغم والنشط الجذب والنزع يقال نشط الدلو نشطا انتزعها وقال السدى رضى الله عنه هى النفس تنشط من بين القدمين أى تجذب وقال قتادة رضى الله عنه هى النجوم تنشط من أفق الى أفق أى تذهب يقال نشط من بلد الى بلد اذا خرج فى سرعة ويقال حمار ناشط ينشط من بلد الى بلد وقال الجوهرى يعنى النجوم تنشط من برج الى برج كالثور الناشط من بلد الى بلد (والسابحات سبحا) أى الملائكة تسبح من السماء بأمره أى ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد يقال له سابح اذا أسرع فى جريه وقال على رضى الله عنه هى الملائكة تسبح بارواح المؤمنين قال الكلبى كالذى يسبح فى الماء فأحيانا ينغمس وأحيانا يرتفع يسلونها اسلالا رفيقا بسهولة ثم يدعونها حتى تستريح وعن مجاهد رضى الله عنه السابحات الموت يسبح فى نفوس بنى آدم وقال قتادة والحسن رضى الله عنهم هى النجوم تسبح فى أفلاكها وكذا الشمس والقمر قال تعالى كل فى فلك يسبحون وقال عطاء هى السفن فى الماء وقال ابن عباس رضى الله عنهما أرواح المؤمنين تسبح شوقا الى لقاء الله تعالى ورحمته حتى تخرج وقيل هى خيل الغزاة قال عنترة

والخيل تعلم حين تسبح فى حياض الموت سبحا

(فالسابقات سبقا) أى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين الى الجنة وقال مجاهد رضى الله عنه هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح وقال ابن مسعود رضى الله عنه هى أنفس المؤمنين تسبق الى الملائكة الذين يقبضونها شوقا الى لقاء الله تعالى وكرامته وقد عاينت السرور وقال قتادة رضى الله عنه هى النجوم يسبق بعضها بعضا فى السير وقال عطاء هى الخيل التى تسبق فى الجهاد وقيل هى ما يسبق من الارواح قبل الاجساد الى جنة أو نار قال الجرجانى ذكر السابقات بالفاء لانها مسببة عن الذى قبلها أى واللاتى يسبحن فيسبقن قال الواحدى وهذا غير مطرد فى قوله تعالى (فالمدبرات أمرا) أى الملائكة تدبر أمر الدنيا أى تنزل بتدبيره قال الرازى ويمكن الجواب بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض وقال ابن عباس رضى الله عنهما المدبرات هى الملائكة وكلوا بأمور عرفهم الله تعالى العمل بها قال عبد الرحمن بن سابط يدبر الامر فى الدنيا أربعة من الملائكة جبريل

وميكائيل وملك الموت واسرافيل عليهم السلام فأما جبريل فوكل بالرياح والجنود وأما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات وأما ملك الموت فوكل بقبض الارواح وأما اسرافيل فهو ينزل بالامر عليهم وليس في الملائكة أقرب منه وبينه وبين العرش خمسمائة عام وقيل هي الكواكب السبع حكي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وفي تدبيرها بالامور وجهان أحدهما تدبير طلوعها وأفولها والثاني في تدبير ما قضى الله تعالى فيهما من تقليب الاحوال أقسم سبحانه وتعالى بهذه الامور على قيام الساعة والبعث وانما حذف لدلالة ما بعده عليه ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه وأما العباد فلا يصح لهم أن يقسموا بغير الله تعالى وصفاته وقوله تعالى (يوم ترجف) أي تضطرب اضطرابا كثيرا منزعجا (الراجفة) أي الصيحة منصوب بالجواب أي لتبعثن يا كفار مكة يوم ترجف الراجفة وهي النفخة الاولى بها يرجف كل شيء أي يتزلزل ويتحرك لها كل شيء ويموت منها جميع الخلائق فوصفت بما يحدث منها (تتبعها الرادفة) أي الصيحة التابعة لها وهي النفخة الثانية ردفت الاولى وبينهما أربعون سنة والجملة حال من الراجفة واليوم واسع للنفختين وغيرهما فصح ظرفيته للبعث الواقع عقيب الثانية وقال قتادة رضي الله عنه هما صيحتان فالاولى تميت كل شيء والاخرى تحيي كل شيء باذن الله سبحانه وتعالى وقال عطاء الراجفة القيامة والرادفة البعث روى عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذهب ربع الليل قام وقال يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه (قلوب يومئذ) أي اذ قام الخلائق بالصيحة التابعة للاولى (واجفة) أي خائفة قلقة مضطربة من الوجيف وهو صفة القلوب وقال مجاهد رضي الله عنه وجلة وقال السدي زائلة عن أماكنها نظيره اذ القلوب لدى الحناجر (ابصارها) أي أبصار أصحابها فهو من الاستخدام (خاشعة) أي ذليلة من الخوف ولذا أضافها الى القلوب كقوله تعالى خاشعين من الذل (يقولون) أي أرباب القلوب والابصار في الدنيا استهزاء وانكارا للبعث (أئنا لمردودون) أي بعد الموت (في الحافرة) أي في الحياة التي كنا فيها قبل الموت وهي حالتنا الاولى فنصير أحياء بعد الموت كما تقول العرب رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء والحافرة عندهم اسم لابتداء الشيء وأول الشيء وقال بعضهم الحافرة وجه الارض التي تحفر فيها قبورهم سميت حافرة بمعنى المحفورة كقوله تعالى عيشة راضية أي مرضية وقيل سميت حافرة لانها مستقر الحوافر أي أئنا لمردودون الى الارض فنبعث خلقا جديدا نمشي عليها وقال ابن زيد الحافرة النار (أئذا كنا) أي كونا صار جملة لنا (عظاما نخرة) أي بالية متفتتة نحيا بعد ذلك وقرأ أئنا واذا نافع وابن عامر والكسائي بالاستفهام في الاول والخبر في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو والباقون بالتحقيق وأدخل بين الهمزتين قالون وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه ألفا والباقون بغير ادخال وقرأ نخرة حمزة وشعبة والكسائي بالالف بعد النون والباقون بغير ألف وهما لغتان مثل الطمع والطامع والحذر والحاذر ومعناهما البالية وفرق قوم بينهما فقالوا النخرة البالية والنخرة المجوفة التي تمر فيها الريح فتنخر أي تصوت (قالوا) أي المنكرون

للبعث (تلك) أى رجعتنا العجيبة الى الحياة (اذا) اى ان صحت (كرة) اى رجعة (خاسرة) اى ذات خسران أو خسار أصحابها والمعنى ان صحت فنحن اذا خاسرون بتكذيبنا وهو استهزاء منهم وعن الحسن رضى الله عنه ان خاسرة بمعنى كاذبة اى ليست كائنة قال الله تعالى (فانما هى) اى الرادفة التى يتبعها البعث (زجرة) أى صيحة بانتهار تتضمن الامر بالقيام والسوق الى المحشر والمنع من التخلف (واحدة) عبر بالزجرة لانه أشد من النهى لانها صيحة لا يتخلف عنها القيام أصلا فكان كأنه بلسان قال عن تلك الصيحة أيها الاجساد البالية انتهى عن الرقاد وقومى الى المعاد بما حكمنا به من المعاد فقد انتهى زمن الحصاد وآن أوان الاجتناء لما قدم من الزاد فيا خسارة من ليس له زاد (فاذا هم) أى فتسبب عن تلك النفخة وهى الثانية ان كل الخلائق (بالساهرة) أى صاروا على وجه الارض بعد ما كانوا فى جوفها والعرب تسمى الفلاة ووجه الارض ساهرة قال بعض أهل اللغة تراهم سموها ساهرة لان فيها نوم الحيوان وسهرهم قال سفيان رضى الله عنه هى أرض الشأم وقال قتادة رضى الله عنه هى جهنم (فان قيل) بم يتعلق فانما هى زجرة واحدة (اجيب) بأنه متعلق بمحذوف معناه لا تستصعبوها فانما هى زجرة واحدة يعنى لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله تعالى فانها سهلة هينة فى قدرته تعالى وقال الزمخشرى الساهرة الارض البيضاء المستوية سميت بذلك لان السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة أى جارية الماء وفى ضدها نائمة قال الاشعث بن قيس

وساهرة يضحى السراب مجللا * لاقطارها قد جبتها متلثما

أولان سالكها لا ينام خوف الهلكة وقال الراغب هى وجه الارض وقيل أرض القيامة وحقيقتها التى يكثر الوطء بها كأنها سهرت من ذلك والاسهران عرقان فى الانف والساهور غلاف القمر الذى يدخل فيه عند كسوفه وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال الساهرة أرض من فضة لم يعص الله عليها قط جعلها حينئذ وقيل الساهرة اسم للارض السابعة يأتى بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق وذلك حين تبدل الارض غير الارض وقال وهب بن منبه جبل بيت المقدس وقال عثمان بن أبى العاتكة انه اسم مكان من الارض بعينه بالشأم وهو الصقع الذى بين جبل اريحاء وجبل حسان يمده الله تعالى كيف شاء ثم ان الله تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (هل اتاك) يا أشرف الخلق (حديث موسى) اى أليس قد اتاك حديثه فيسليك على تكذيب قومك ويهددهم عليه بأن يصيبهم مثل ما اصاب من هو أعظم منهم فانه كان اقوى اهل الارض بما كان له من كثرة الجنود فلما أصر على التكذيب ولم يرجع ولا افاده التأديب أغرقناه وآله ولم نبق منهم أحدا وقد كانوا لا يحصون عددا بحيث قيل ان طليعته كانت على عدد بنى اسرائيل ستمائة ألف فكيف بقومك الضعاف وقوله تعالى (اذ) أى حين (ناداه) منصوب بحديث لا بأتاك (ربه) أى المحسن اليه بالرسالة وغيرها (بالوادى المقدس) أى المطهر غاية الطهر بتشريف الله تعالى له بانزال النبوة المفيضة للبركات وقوله تعالى (طوى) اسم الوادى وهو الذى طوى فيه الشر عن بنى اسرائيل ومن أراد الله تعالى من خلقه وتشرفه

بركات النبوة على جميع أهل الارض المسلم باسلامه وغيره برفع عذاب الاستئصال عنه فان العلماء قالوا ان عذاب الاستئصال ارتفع حين أنزلت التوراة وهو واد بالطور بين ايلة ومصر وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير تنوين فى الوصل والباقون بالتنوين وقوله تعالى (اذهب الى فرعون) أى ملك مصر الذى كان يستعبد بنى اسرائيل على ارادة القول (انه طغى) أى تجاوز الحد فى الكفر وعلا وتكبر وقال الرازى لم يبين أنه طغى فى أى شئ فقيل تكبر على الله تعالى وكفر به وقيل تكبر على الخلق واستعبدهم وروى عن الحسن رضى الله عنه قال كان فرعون علجا من همدان وقال مجاهد رضى الله عنه كان من أهل اصطخر وعن الحسن أيضا كان من أصبهان يقال له ذو الظفر طوله أربعة أشبار وقوله تعالى (فقل) أى له (هل لك) أى هل لك سبيل (الى أن تزكى) أى تتطهر من الكفر والطغيان قال ابن عباس رضى الله عنهما بأن تشهد أن لا اله الا الله وقال أبو البقاء لما كان المعنى أدعوك جاء بالى وقال غيره يقال هل لك فى كذا وهل لك الى كذا كما تقول هل ترغب فيه وهل ترغب اليه وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاى والاصل تتزكى والباقون بتخفيفها (وأهديك الى ربك) أى وأنبهك على معرفة المحسن اليك (فتخشى) لان الخشية لا تكون الا بالمعرفة قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء أى العلماء به وذكر الخشية لانها ملاك الامر من خشى الله تعالى أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل بدأ بمخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه هل لك أن تنزل بنا وأردفه الكلام الرفيق ليستدعيه للتلطف فى القول ويستنزله بالمداراة من علوه كما أمر بذلك فى قوله تعالى فقولا له قولا لينا الآية وقال الرازى سائر الآيات تدل على انه تعالى لما نادى موسى عليه السلام ذكر له اشياء كثيرة نودى أنا ربك الى قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى فدل قوله تعالى اذهب الى فرعون انه طغى أنه من جملة ما ناداه به لا كل ما ناداه به وأيضا فليس الغرض انه عليه السلام كان مبعوثا الى فرعون فقط بل الى كل من كان فى الطور الا أنه خصه بالذكر لان دعوته جارية مجرى كل القوم والفاء فى قوله تعالى (فأراه) عاطفة على محذوف يعنى فذهب فأراه (الآية الكبرى) كقوله تعالى اضرب بعصاك الحجر فانفجرت اى فضرب فانفجرت واختلفوا فى الآية الكبرى أى العلامة العظمى وهى المعجزة فقال عطاء وابن عباس رضى الله عنهم هى العصا وقال مقاتل والكلبى رضى الله عنهما هى اليد البيضاء تبرق كالشمس والاول أولى لانه ليس فى اليد الا انقلاب لونها وهذا حاصل فى العصا لانها لما انقلبت حية لابد وأن يتغير اللون الاول فاذن كل ما فى اليد فهو حاصل فى العصا وأمور أخر وهى الحياة فى الجرم الجمادى وتزايد أجزائه وحصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة وابتلاعها أشياء كثيرة وزوال الحياة والقدرة عنها وذهاب تلك الاجزاء التى عظمت وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حية وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزا مستقلا فى نفسه فعلمنا أن الآية الكبرى هى العصا وقال مجاهد رضى الله عنه هى مجموع العصا واليد وقيل فلق البحر وقيل جميع آياته التسع (فكذب) أى فتسبب عن رؤيته ذلك

أن كذب موسى عليه السلام (وعصى) الله تعالى بعد ظهور الآية وتحقيق الأمر وقيل كذب بالقول وعصى بالتمرد والتجبر (ثم أدبر) أي تولى وأعرض عن الإيمان بعد المهل والأناة إعراضا عظيما بالتمادي على أعظم ما كان فيه من الطغيان بعد خطوب جليلة ومشاهد طويلة حال كونه (يسعى) أي يعمل بالفساد في الأرض أو أنه لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا يسعى أي يسرع في مشيته قال الحسن رضي الله عنه كان رجلا طياشا خفيفا وتولى عن موسى عليه السلام يسعى ويجتهد في مكايدته أو أريد ثم أقبل يسعى كما تقول أقبل فلان يفعل كذا بمعنى أنشأ يفعل فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال (فحشر) أي فتسبب عن إدباره أنه جمع السحرة للمعارضة وجنوده للقتال (فنادى) حينئذ بأعلى صوته قال حمزة الكرماني قال له موسى عليه السلام إن ربي أرسلني إليك لئن آمنت بربك تكون أربعمائة سنة في النعيم والسرور ثم تموت فتدخل الجنة فقال حتى أستشير هامان فاستشاره فقال أتصير عبدا بعدما كنت ربا فعند ذلك جمع بعث الشرط وجمع السحرة والجنود فلما اجتمعوا قام عدو الله على سريره (فقال أنا ربكم الأعلى) أي لا رب فوقي وقيل أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربها وربكم وقيل أمر مناديا فنادى في الناس بذلك وقيل قام فيهم خطيبا فقال ذلك (فأخذه الله) أي أهلكه بالغرق الملك الأعظم الذي لا كفء له (نكال) أي عقوبة (الآخرة) أي هذه الكلمة وهي قوله أنا ربكم الأعلى (والأولى) وهي قوله ما علمت لكم من إله غيري قال ابن عباس رضي الله عنهما وكان بين الكلمتين أربعون سنة والمعنى أمهله في الأولى ثم أخذه في الآخرة فعذبه بكلمتيه وقال الحسن رضي الله عنه نكال الآخرة والأولى هو أن أغرقه في الدنيا وعذبه في الآخرة وعن قتادة رضي الله عنه الآخرة هي قوله أنا ربكم الأعلى والأولى تكذيبه لموسى عليه السلام * ثم إنه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى (إن في ذلك) أي الأمر العظيم الذي فعله فرعون والذي فعل به حين كذب وعصى (لعبرة) أي لعظة (لمن يخشى) أي لمن يخاف الله تعالى لأن الخشية أساس الخير كما مرت الإشارة إليه * ثم خاطب تعالى منكري البعث بقوله تعالى (أأنتم) أي أيها الأحياء مع كونكم خلقا ضعيفا (أشد خلقا) أي أخلقتكم بعد الموت أشد في تقديركم (أم السماء) أي فمن قدر على خلق السماء على عظمها من السعة والكبر والعلو والمنافع قدر على الإعادة وهذا كقوله تعالى لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس والمقصود من الآية الاستدلال على منكري البعث ونظيره قوله تعالى أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ومعنى الكلام التقريع والتوبيخ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير إدخال وقوله تعالى (بناها) بيان لكيفية خلقه إياها فالوقف على السماء والابتداء بما بعدها وقوله تعالى (رفع سمكها) جملة مفسرة لكيفية البناء والسمك الارتفاع أي جعل مقدار ارتفاعها سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة خمسمائة عام (فسواها) أي فعدلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور أو فتممها بما علم أنها تتم به وأصلحها من قولك سوى فلان أمر فلان (وأغطش) أي أظلم (ليلها) أي

بجعله مظلما بغياب شمسها أو أخفى ضياءها بامتداد ظل الارض على كل ما كانت الشمس ظهرت عليه فصار لا يهتدى معه الى ما كان فى حال الضياء وأضاف الليل الى السماء لان الليل يكون بغروب الشمس والشمس تضاف الى السماء ويقال نجوم الليل لان ظهورها بالليل وقوله تعالى (وأخرج ضحاها) فيه حذف أى ضحى شمسها أو أضاف الليل والضحى اليها للملابسة التى بينها وبينهما لان الليل ظلها والشمس هى السراج المثقب فى جوها وانما عبر عن النهار بالضحى لان الضحى أكمل أجزاء النهار بالنور والضوء (والارض بعد ذلك) اى بعد المذكور كله (دحاها) اى بسطها ومهدها للسكنى وبقية المنافع وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو فلا معارضة بينها وبين آية فصلت لانه خلق الارض أولا غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحا الارض قال ابن عباس رضى الله عنهما خلق الله تعالى الارض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء فسواها سبع سموات ثم دحا الارض بعد ذلك وقيل معناه والارض مع ذلك دحاها كقوله تعالى عتل بعد ذلك اى مع ذلك ومنه قولهم انت احمق وانت بعد هذا سيئ الخلق وقيل بعد بمعنى قبل كقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أى من قبل وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال خلق الله تعالى الكعبة ووضعها على الماء على اربعة اركان قبل ان يخلق الدنيا بألفى عام ثم دحيت الارض من تحت البيت (اخرج منها) اى الارض (ماءها) اى بتفجير عيونها واضافتها اليها دليل على أنه مودوع فيها (ومرعاها) اى النبات الذى يرعى مما يأكله الناس والانعام من العشب والشجر والثمر والحب حتى النار والملح لان النار من العيدان قال تعالى أفرأيتم النار التى تورون الآية والملح من الماء واستعير الرعى للانسان كما استعير الرتع فى قوله تعالى عن اخوة يوسف عليه السلام نرتع ونلعب والمرعى فى الاصل موضع الرعى * (تنبيه) * اخرج حال باضمار قد أى مخرجا واضمار قد هو قول الجمهور وخالف الكوفيون والاخفش (والجبال ارساها) اى اثبتها على وجه الارض لتسكن ونظيره قوله تعالى والجبال اوتادا وقوله تعالى (متاعا) مفعول له لمقدر أى فعل ذلك منفعة أو مصدر لعامل مقدر اى متعكم تمتيعا (لكم) وقوله تعالى (ولانعامكم) جمع نعم وهى الابل والبقر والغنم وذكر الانعام لكثرة الانتفاع بها (فاذا جاءت الطامة الكبرى) أى الداهية التى تطم على الدواهى أى تعلو وتغلب وفى أمثالهم جرى الوادى فطم على القرى قال ابن عباس وهى النفخة الثانية التى يكون معها البعث وقال الضحاك هى القيامة سميت بذلك لانها تطم على كل شئ فتغمره وقال القاسم بن الوليد الهمدانى هى الساعة التى تساق فيها أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار وقوله تعالى (يوم يتذكر) أى تذكرا عظيما (الانسان) أى الخلق الآنس بنفسه الغافل عما خلق له بدل من اذا (ماسعى) فى الدنيا من خير أو شر يعنى اذا رأى اعماله مدونة فى كتابه تذكرها وكان قد نسيها كقوله تعالى أحصاه الله ونسوه وما فى ماسعى موصولة أو مصدرية (وبرزت الجحيم) أى أظهرت النار المحرقة اظهارا بينا مكشوفا (لمن يرى) أى لكل راء كقولهم قد تبين الصبح لذى عينين يريدون لكل من له بصر وهو مثل فى الامر المنكشف الذى لا يخفى على أحد لكن الناجى لا ينصرف بصره اليها فلا يراها كما قال تعالى لا يسمعون

حسبها وجواب اذا قوله (فأمّا من طغى) أى تجاوز الحد فى العدوان حتى كفر بربه (وآثر) أى قدم واختار (الحياة الدنيا) أى انهمك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس (فإنّ الجحيم) أى النار الشديدة التوقد العظيمة (هى) أى خاصة (المأوى) أى مأواه كما تقول للرجل غض الطرف تريد طرفك وليست الالف واللام بدلا عن الاضافة ولكن لما علم أنّ الطاغى هو صاحب المأوى وانه لايغض الرجل طرف غيره تركت الاضافة * (تنبيه) * هى يجوز أن تكون فصلا أو مبتدأ (وأمّا من خاف مقام ربه) أى قيامه بين يديه لعلمه بالمبدإ والمعاد وقال مجاهد خوفه فى الدنيا من الله تعالى عند مواقعة الذنب فيقلع عنه نظيره ولمن خاف مقام ربه جنتان (ونهى النفس) أى الامارة بالسوء (عن الهوى) وهو اتباع الشهوات وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على ايثار الخير (فإنّ الجنة) أى البستان لكل مايشتهى (هى) أى خاصة (المأوى) أى ليس له سواها مأوى وحاصل الجواب أنّ العاصى فى النار والطائع فى الجنة قال الرازى هذان الوصفان مضادان للوصفين المتقدمين فقوله تعالى فأمّا من خاف مقام ربه ضد قوله تعالى فأمّا من طغى ونهى النفس عن الهوى ضد قوله تعالى وآثر الحياة الدنيا فكما دخل فى ذينك الوصفين جميع القبائح دخل فى هذين الوصفين جميع الطاعات وقال عبد الله بن مسعود أنتم فى زمان يقود الحق الهوى وسيأتى زمان يقود الهوى الحق فتعوذوا بالله من ذلك الزمان * (تنبيه) * اختلف فى سبب نزول هاتين الآيتين فقيل نزلتا فى مصعب بن عمير وأخيه روى الضحاك عن ابن عباس قال أمّا من طغى فهو أخو مصعب بن عمير أسر يوم بدر وأخذته الانصار فقالوا من أنت قال أنا أخو مصعب بن عمير فلم يشدوه فى الوثاق وأكرموه وبيتوه عندهم فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه فقال ماهو لى بأخ شدوا أسيركم فانّ أمه أكثر أهل البطحاء حليا ومالا فأوثقوه حتى بعثت أمه فداءه وأمّا من خاف مقام ربه فمصعب بن عمير وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص فى جوفه والمشاقص جمع مشقص وهو السهم العريض فلما رآه صلى الله عليه وسلم متشحطا فى دمه قال صلى الله عليه وسلم عند الله احتسبك وقال صلى الله عليه وسلم لاصحابه لقد رأيته وعليه بردان مانعرف قيمتهما وانّ شراك نعله من ذهب وعن ابن عباس أيضا نزلت فى رجلين ابى جهل بن هشام ومصعب بن عمير وقال السدى نزلت الآية الثانية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقال الكلبى هما عامّتان * ولما سمع المشركون أخبار القيامة ووصفها بالاوصاف الهائلة مثل الطامة الكبرى والصاخة والقارعة وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء متى تكون الساعة نزل (يسئلونك) يا أشرف الخلق (عن الساعة) أى البعث الآخر لكثرة ماتتوعدهم به من أمرها (أيان مرساها) أى فى أى وقت ارساؤها أى اقامتها أراد وامتى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكونها أو أيان منتهاها ومستقرها كما أنّ مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهى اليه فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (فيم) أى فى أى شئ (أنت من ذكراها) أى من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به * (تنبيه) * فيم خبر مقدم وأنت مبتدأ مؤخر ومن ذكراها متعلق بما تعلق به الخبر والمعنى أنت فى أى شئ من ذكراها أى ما أنت من

ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيء وعن عائشة رضي الله عنها لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها كأنه قيل في أي شغل واهتمام أنت من ذكراها والسؤال عنها والمعنى انهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها (الى ربك) أي المحسن اليك بأنواع النعم (منتهاها) أي منتهى علمها لم يؤت علمها أحدا من خلقه كقوله تعالى انما علمها عند ربي وقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة قال القرطبي ويجوز أن يكون انكارا على المشركين في مسئلتهم أي فيم أنت من ذلك حتى يسألونك بيانه ولست ممن يعلمه روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل الوقف على قوله تعالى فيم وهو خبر مبتدأ مضمر أي فيم هذا السؤال ثم يبتدأ بقوله تعالى أنت من ذكراها أي أرسلناك وأنت خاتم الانبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة ذكر من ذكراها وعلامة من علاماتها فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ولا معنى لسؤالهم عنها (انما أنت) أي يا أشرف الرسل (منذر) أي انما بعثت لانذار (من يخشاها) أي لتخويف من يخاف هولها وهو لا يناسب تعيين الوقت وتخصيص من يخشى لانه المنتفع به أي انما ينفع انذارك من يخافها وان كنت منذرا للكل مكلف (كأنهم) قال البغوي يعني كفار قريش (يوم يرونها) أي يعلمون قيام الساعة علما هو كالرؤية ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور مع علمهم بما مر من زمانهم وما أتى فيه (لم يلبثوا) أي في الدنيا أو في القبور (الا عشية) أي من الزوال الى غروب الشمس (أو ضحاها) أو ضحى عشية من العشايا وهو البكرة الى الزوال والعشية بعد ذلك اضيف اليها الضحى لانهما من النهار والاضافة تحصل بأدنى ملابسة وهي هنا كونهما من نهار واحد فالمراد ساعة من نهار من أوله أو آخره لم يستكملوا نهارا تاما ولم يجمعوا بين طرفيه وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع (فان قيل) هلا قال الا عشية أو ضحى وما فائدة الاضافة (أجيب) بأن ذلك للدلالة على ان مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه فلما ترك اليوم اضافه الى عشيته فهو كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وحسن الاضافة وقوع الكلمة فاصلة * (تنبيه) * قرأ حديث موسى طوى طغى تزكى فتخشى وعصى يسعى فنادى الاعلى والاولى يخشى ماسعى طغى الدنيا المأوى عن الهوى المأوى حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش وأبو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وقرأ أفاراه الآية الكبرى الطامة الكبرى لمن يرى من ذكراها أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح في الجميع وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله تعالى في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة مكتوبة حديث موضوع.

(سورة عبس مكية وتسمى سورة السفرة)

وهي اثنان وأربعون آية ومائة وثلاثون كلمة وثلثمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الواحد القهار (الرحمن) الذي عم بانعامه الابرار والفجار (الرحيم) الذي خص
أولياءه برحمته في دار القرار (عبس) أي كلح وجهه النبي صلى الله عليه وسلم (وتولى) أي أعرض
بوجهه لاجل (أن جاءه الاعمى) وهو ابن أم مكتوم وأم مكتوم أم أبيه واسمها عاتكة بنت عامر
ابن مخزوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي وذلك أنه
جاءه وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب
وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء أن يسلم أولئك الاشراف الذين
كان يخاطبهم فيتأيد بهم الاسلام ويسلم باسلامهم أتباعهم فتعلو كلمة الله تعالى فقال يارسول الله
أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله
عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد انما أتبعه
العميان والعبيد والسفلة فعبس وجهه وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله
تعالى هذه الآيات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه واذا رآه قال مرحبا بمن
عاتبني فيه ربي ويبسط له رداءه ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين
غزاهما قال أنس بن مالك رأيته يوم القادسية راكبا وعليه درع وله راية سوداء (ومايدريك) أي
اي شيء يجعلك داريا بحاله (لعله) أي الاعمى (يزكى) فيه ادغام التاء في الاصل في الزاي أي يتطهر
من الذنوب بما يسمع منك وفي ذلك ايماء بأن اعراضه كان لتزكية غيره (أو يذكر) فيه ادغام التاء في
الذال أي يتعظ وتسبب عن تزكيته وتذكره قوله تعالى (فتنفعه الذكرى) أي العظة المسموعة
منك وقرأ عاصم بنصب العين والباقون برفعها فمن رفع فهو نسق على قوله تعالى أو يذكر ومن
نصب فعلى جواب الترجي كقوله تعالى في غافر فأطلع الى اله موسى وقال ابن عطية في جواب
التمني لان قوله تعالى أو يذكر في حكم قوله تعالى لعله يزكى واعترض عليه أبو حيان بأن هذا ليس
تمنيا وانما هو ترج وأجيب عنه بأنه انما يريد التمني المفهوم وقت الذكرى وقرأ الذكرى أبو عمرو وحمزة
والكسائي بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقيل الضمير في لعله للكافر يعني
أنك طمعت في أن يتزكى بالاسلام أو يذكر فتقربه الذكرى الى قبول الحق ومايدريك أن ماطمعت
فيه كائن (أما من استغنى) أي بالمال وقال ابن عباس رضي الله عنهما استغنى عن الله وعن الايمان
بماله من المال (فأنت له) أي دون الاعمى (تصدى) أي تتعرض له بالاقبال عليه والمصادة المعارضة
وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الصاد بادغام التاء الثانية في الاصل فيها والباقون بالتخفيف (وما)
أي فعلت ذلك والحال انه ما (عليك) أي وليس عليك بأس (ألا يزكى) أي في أن لا يتزكى بالاسلام
حتى يبعثك الحرص على اسلامه الى الاعراض عمن أسلم ان عليك الا البلاغ (وأما من جاءك)
حال كونه (يسعى) أي يسرع في طلب الخير وهو ابن أم مكتوم (وهو) أي والحال انه (يخشى)
أي الله أو الكفار في أذاهم على الاتيان اليك وقيل جاء وليس معه قائد فهو يخشى الكبوة وقرأ
قالون وأبو عمرو والسدي بسكون الهاء والباقون بضمها (فأنت عنه تلهى) فيه حذف التاء
الآخرة في الاصل أي تتشاغل وقرأ وتولى الاعمى يزكى من استغنى تصدى يزكى يسعى يخشى

الهى حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله (فان قيل) ما فعله ابن أم مكتوم كان يستحق عليه التأديب والزجر فكيف عاتب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على تاديبه لانه وان كان اعمى فقد سمع مخاطبته صلى الله عليه وسلم لاولئك الكفار وكان بسماعه يعرف شدة اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بشأنهم فكان اقدامه على قطع كلامه صلى الله عليه وسلم لغرض نفسه قبل تمام كلام النبي صلى الله عليه وسلم معصية عظيمة وأيضا فان الاهم يقدم على المهم وكان قد أسلم وتعلم ما يحتاج من أمر الدين وأما أولئك الكفار فلم يكونوا أسلموا وكان اسلامهم سببا لاسلام غيرهم فكان كلام ابن ام مكتوم كالسبب فى قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل وذلك يحرم وأيضا فان الله تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات بمجرد ندائهم فهذا النداء الذى هو كالصارف للكفار عن الايمان أولى أن يكون ذنبا وأيضا فمع هذا الاعتناء كيف لقب بالاعمى وأيضا فالنبي صلى الله عليه وسلم له أن يؤدب أصحابه بما يراه مصلحة والتعبيس من ذلك القبيل (أجيب) بأن ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الادب لو كان عالما بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره وأنه يرجو اسلامهم ولكنه لم يعلم بذلك وأيضا الله سبحانه وتعالى انما عاتبه على ذلك حتى لا تنكسر قلوب الضعفاء أوليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغنى الكافر وقال ابن زيد انما عبس النبي صلى الله عليه وسلم لابن أم مكتوم وأعرض عنه لانه أشار الى الذى كان يقوده أن يكفه فدفعه ابن أم مكتوم وأبى الا أن يتكلم مع النبي صلى الله عليه وسلم فكان فى هذا نوع جفاء منه ومع هذا نزل فى حقه ذلك وأما ذكره بلفظ الاعمى فليس للتحقير بل كأن بسبب عماه يستحق أن يزيده تعطفا وترؤفا وتقريبا وترحيبا ولقد تأدب الناس بأدب الله تعالى فى هذا تأدبا حسنا فقد روى عن سفيان الثورى رضى الله عنه أن الفقراء كانوا بمجلسه امراء وأما كونه صلى الله عليه وسلم كان مأذونا له فى تأديب أصحابه فلان تقديمهم ربما يوهم ترجيح تقديم الاغنياء على الفقراء فلهذا السبب عوتب قال الحسن رضى الله عنه لما تلا جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات عاد وجهه كأنما نسف فيه الرماد ينتظر ما يحكم الله تعالى عليه فلما قال كلا سرى عنه أى لا تفعل مثل ذلك وقد بينا نحن ان ذلك محمول على ترك الاولى ثم قال الله تعالى (انها) أى هذه السورة وقال مقاتل رضى الله عنه آيات القرآن وقيل القرآن وأنثه لتأنيث خبره وهو قوله تعالى (تذكرة) أى عظة للخلق يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها (فمن شاء ذكره) أى كان حافظا له غير ناس وذكر الضمير لان التذكرة فى معنى الذكر والوعظ ثم ان الله تعالى أخبر عن جلالة ذلك عنده فقال سبحانه (فى صحف) أى منتسخة من اللوح المحفوظ وقيل هى كتب الانبياء عليهم السلام دليله قوله تعالى ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى (مكرمة) أى عند الله تعالى (مرفوعة) أى فى السماء السابعة أو مرفوعة المقدار (مطهرة) أى منزهة عن أيدى الشياطين لا يمسها الا أيدى ملائكة كرام مطهرين كما قال تعالى (بأيدى سفرة) أى كتبة ينسخونها من اللوح المحفوظ وهم الملائكة الكرام الكاتبون

واحدهم سافر يقال سفرت أى كتبت ومنه قيل للكتاب سفر وجمعه أسفار وقيل هم الرسل من الملائكة واحدهم سفير وهو الرسول وسفير القوم هو الذى يسعى بينهم بالصلح وسفرت بين القوم اذا أصلحت بينهم ثم أثنى تعالى عليهم بقوله سبحانه (كرام) أى على الله تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما فى كرام قال مكرمون أن يكونوا مع ابن آدم الا اذا خلا بزوجته أو برز لغائط وقيل يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم وقوله (بررة) جمع بار ككافر وكفرة وفاجر وفجرة والبار هو الصادق المطيع ومنه بر فلان فى يمينه أى صدق وفلان يبر خالقه أى يطيعه فمعنى بررة مطيعين صادقين لله تعالى فى أعمالهم * ولما ذكر تعالى ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين عجب عباده المؤمنين من ذلك فقال سبحانه (قتل الانسان) أى لعن الكافر وقوله تعالى (ما أكفره) استفهام توبيخ أى ما أشد تغطيته للحق وجحده له وعناده فيه لانكاره البعث واشراكه بربه وغير ذلك مما حمله على الكفر وقوله تعالى (من أى شئ خلقه) استفهام تقرير ثم بينه بقوله تعالى (من نطفة) أى ماء يسير جدا الا من غيره (خلقه) أى أوجده مقدرا على ما هو عليه من التخطيط (فقدره) أى علقة ثم مضغة الى آخر خلقه فكأنه قيل وأى سبب فى هذا الترفع مع ان أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو فيما بين الوقتين حامل عذرة فان خلقة الانسان تصلح أن يستدل بها على وجود الصانع لانه يستدل بها على أحوال البعث والحشر قيل نزلت فى عتبة بن أبى لهب والظاهر العموم (فان قيل) الدعاء على الانسان انما يليق بالعاجز فالقادر على الكل كيف يليق به ذلك والتعجب أيضا انما يليق بالجاهل بسبب الشئ فالعالم به كيف يليق به ذلك (أجيب) بأن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب لبيان استحقاقهم لاعظم العقاب حيث أتوا بأعظم القبائح كقولهم اذا تعجبوا من شئ قاتله الله ما أحسنه وأخزاه الله ما أظلمه والمعنى اعجبوا من كفر الانسان بجميع ما ذكرنا بعد هذا وقيل الاستفهام استفهام تحقير له فذكر أول مراتبه وهو قوله تعالى من نطفة خلقه ولا شك أن النطفة شئ حقير مهين ومن كان أصله ذلك كيف يتكبر وقوله تعالى فقدره أى أطوارا وقيل سواه كقوله تعالى ثم سواك رجلا وقدر كل عضو فى الكيفية والكمية بالقدر اللائق لمصلحته كقوله تعالى وخلق كل شئ فقدره تقديرا * ثم ذكر المرتبة الوسطى بقوله تعالى (ثم) بعد انتهاء المدة (السبيل) أى طريق خروجه من بطن أمه (يسره) أى سهل له أمره فى خروجه بأن فتح له الرحم وألهمه الخروج منه ولا شك أن خروجه من أضيق المسالك من أعجب العجائب يقال انه كان رأسه فى بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت فاذا جاء وقت الخروج انقلب فمن الذى أعطاه ذلك الالهام المراد ومنه قوله تعالى وهديناه النجدين أى التمييز بين الخير والشر وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال سبيل الشقاء والسعادة وقال ابن زيد سبيل الاسلام قال أبو بكر بن طاهر يسر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه لقوله صلى الله عليه وسلم كل ميسر لما خلق له * ثم ذكر المرتبة الاخيرة بقوله تعالى (ثم أماته) وأشار الى ايجاب المبادرة بالتجهيز بالفاء المعقبة فى قوله تعالى (فأقبره) أى جعله فى قبر يستره اكراما له ولم يجعله ممن يلقى على وجه الارض تأكله الطير وغيرها (ثم اذا شاء أنشره) أى أحياه بعد موته للبعث ومفعول شاء

محذوف

محذوف أي شاء انشاره وأنشره جواب اذا وقرأ قالون وأبو عمرو والبزي باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل الثانية ورش وقنبل ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (كلا) ردع للانسان عما هو عليه وقيل معناها حقا قال الاول الزمخشري وتبعه البيضاوي وقال الثاني الجلال المحلي (لما يقض) أي يفعل (ما أمره) به ربه من الايمان وترك التكبر وقيل لم يوف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم عليه السلام وقيل المعنى ان ذلك الانسان الكافر لم يقض ما أمره به من التأمل في دلائل الله تعالى والتدبر في عجائب خلقه * ولما كانت عادة الله تعالى جارية في القرآن انه كلما ذكر دلائل الانسان ذكر عقبها دلائل الآفاق بدأ من ذلك بما يحتاج اليه الانسان بقوله تعالى (فلينظر الانسان) أي يوقع النظر التام بكل شيء يقدر على النظر به من بصره وبصيرته (الى طعامه) أي الذي هو قوام حياته كيف هيأله أسباب المعاش ليستعد بها للمعاد قال الحسن ومجاهد فلينظر الى طعامه الى مدخله ومخرجه وروى عن الضحاك انه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ضحاك ما طعامك قلت يا رسول الله اللحم واللبن قال فثم ايش ماذا قلت الماء قد علمته قال فان الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا وروى عن ابن عمر ان الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه فيأتيه الملك فيقول انظر الى ما تحليت به الام صار وقرأ (انا صببنا) أي بما لنا من العظمة (الماء) عاصم وحمزة والكسائي بفتح الهمزة على أنه بدل اشتمال بمعنى أن صب الماء سبب في اخراج الطعام فهو مشتمل عليه بهذا التقدير أو انه على تقدير لام العلة أي فلينظر لانا ثم حذف الخافض وقال البغوي انا بالفتح على تكرير الخافض مجازه فلينظر الى أنا وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف تعديدا للنعمة تعالى عليه وقوله تعالى (صبا) تأكيد والمراد بالماء المطر * ولما كان الانسان محتاجا الى جميع ما في الوجود ولو نقص منه شيء اختل امره وبدأ اولا بالسماوي لانه اشرف وبالماء الذي هو حياة كل شيء تنبيها له على ابتداء خلقه ثنى بالارض التي هي كالانثى بالنسبة الى السماء فقال تعالى (ثم) أي بعد مهلة من انزال الماء (شققنا) اي بما لنا من العظمة (الارض) أي بالنبات الذي هو في غاية الضعف عن شق اضعف الاشياء فكيف بالارض اليابسة وقوله تعالى (شقا) تأكيد ثم سبب عن الشق ما هو كالتفسير له فقال تعالى (فأنبتنا) أي بما لنا من القدرة التامة (فيها) أي بسبب الشق (حبا) أي قمحا وشعيرا وسلتا وسائر ما يحصد ويدخر وقدم ذلك لانه كالاصل في التغذية (وعنبا) وذكره بعد الحب لانه غذاء من وجه وفاكهة من وجه (وقضبا) قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الرطب لانه يقتضب من النخل أي يقطع ورجح بعضهم لذكره بعد العنب لانهما يقترنان كثيرا وقيل القت الرطب وقيل كل ما يقضب من البقول لبني آدم وقيل هو الرطبة والمقضاب أرضه سمي بمصدر قضبه اذا قطعه لانه يقضب مرة بعد اخرى وقال الحسن القضب العلف للدواب (وزيتونا) وهو ما يعصر منه الزيت يكون فيه حرافة وغضاضة فيه اصلاح المزاج وقوله تعالى (ونخلا) جمع نخلة وكل من هذه الاشجار مخالف للآخر في الشكل والحمل وغير ذلك مع المرافقة في الارض والسقي وقوله تعالى (وحدائق غلبا) جمع أغلب وغلباء

حكمر فى أجر وحمر اء أى بساتين كثيرة الاشجار والاصل فى الوصف بالغلب الرقاب يقال رجل أغلب وامرأة غلباء غليظا الرقبة فاستعير قال عمرو بن معديكرب

يمشى بها غلب الرجال كأنهم * بزل كسين من الكحيل جلالا

وقال مجاهد ومقاتل الغلب الملتفة الشجر بعضه فى بعض وقال ابن عباس رضى الله عنهما الطوال وقيل غلاظ الاشجار (وفاكهة) وهى ما تأكله الناس من ثمار الاشجار كالتين والخوخ قال النووى فى منهاجه ويدخل فى فاكهة رطب وعنب ورمان وأترج ورطب ويابس أى كالتمر والزبيب قال قلت وليمون ونبق وبطيخ ولب فستق وبندق وغيرها فى الاصح (وأبا) وهو ما تأكله الدواب لانه يؤب أى يؤم وينتجع اليه وقال عكرمة الفاكهة ما يأكله الناس والأب ما تأكله الدواب وقيل التبن وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن الأب فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله تعالى مالا علم لى به وعن عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال كل هذا عرفناه فما الأب ثم رفض عصا كانت بيده ثم قال هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدرى ما الأب ثم قال اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه (فان قيل) هذا يشبه النهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته (أجيب) بأنه لم يذهب الى ذلك ولكن القوم كانت أكثر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشئ من العلم الذى لا يعمل به تكلفا عندهم فأراد أن الآية مسوقة عندهم فى الامتنان على الانسان بمطعمه واستدعاء شكره وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله تعالى للانسان متاعا له أو لانعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله تعالى على ما بين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذى هو اسم له واكتف بالمعرفة الجلية الى أن يتبين لك من مشكلات القرآن (متاعا) أى العشب أى منفعة أو تمتيعا كما تقدم فى السورة قبلها (لكم) أى الفاكهة (ولانعامكم) وتقدم أيضا فى السورة التى قبلها معرفة الانعام والحكمة فى الاقتصار عليها * ولما ذكر تعالى هذه الاشياء وكان المقصود منها ثلاثة أولها الدلائل الدالة على التوحيد وثانيها الدلائل الدالة على القدرة والمعاد وثالثها أن هذا الاله الذى أحسن الى عبيده بهذه الانواع العظيمة من الاحسان لا يليق بالعاقل أن يتمرد على طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع ذلك بما يكون كالمؤكد لهذه الاغراض وهو شرح أحوال القيامة فان الانسان اذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف الى التأمل فى الدلائل والايمان بها والاعراض عن الكفر ويدعوه أيضا الى ترك التكبر على الناس والى اظهار التواضع فقال تعالى (فاذا جاءت) أى كانت ووجدت لان كل ما هو كائن لا قبل وجاء اليك (الصاخة) أى صيحة القيامة وهى النفخة الثانية التى تصخ الاذن أى تصمها الشدة وقعها مأخوذة من صخه بالحجر أى صكه به وقال الزمخشرى صخ لحديثه مثل أصاخ فوصفت النفخة بالصاخة مجازا لان الناس يصخون لها وقال ابن العربى الصاخة التى تورث الصمم وانها المسمعة وهذا من بديع الفصاحة كقوله

أصبى سرّهم أيام فرقتهم * وهل سمعتم بسرّ يورث الصمما

وجواب اذا محذوف دل عليه قوله تعالى فاذا جاءت الصاخة اى اشتغل كل واحد بنفسه وقوله تعالى (يوم يفرّ المرء) بدل من اذا (من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته) أى زوجته (وبنيه) لاشتغاله بما هو مدفوع اليه ولعله أنهم لا يغنون عنه شيأ كقوله تعالى يوم لا يغنى مولى عن مولى شيأ فيفرّ المرء من هؤلاء الذين كان يفرّ اليهم فى دار الدنيا ويستجير بهم لكثرة ما يشغله وبدأ بالاخ لانه أدناهم رتبة فى الحب والذب ثم بالام لانها كانت مشاركة له فى الالف ويلزم من حمايتها أكثر مما يلزم للاخ وهو لها آلف وعليها أحن وعليها أرق وأعطف ثم بالاب لانه أعظم منها فى الالف لانه أقرب منها فى النوع وللولد عليه من المعاطفة ماله من مزيد النفع أكثر ممن قبله ثم بالصاحبة لانّ الزوجة التى هى أهل لان تصحب ألصق بالفؤاد وأعرق فى الوداد وكان الانسان أذب عنها عند الشدائد ثم بالولد لان له من المحبة والمعاطفة بالسرور والمشاورة فى الامر ما ليس لغيره ولذلك يضيع عليه رزقه وعمره فقدم أدناهم مرتبة فى الحب والذب فأدناهم على سبيل الترقى وأخر الاوجب فى ذلك فالاوجب بخلاف ما فى سورة سأل فكأنه قيل يفرّ المرء من أخيه بل من أمّه بل من أبيه بل من صاحبته بل من بنيه وقيل يفرّ منهم حذرا من مطالبتهم بالتبعات يقول الاخ لم تواسنى بمالك والابوان قصرت فى برّنا والصاحبة أطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا وقيل أول من يفرّ من أخيه هابيل ومن أبويه ابراهيم عليه السلام ومن صاحبته نوح ولوط ومن ابنه نوح * ولما ذكر الفرار أتبعه سببه فقال تعالى (لكل امرئ) وان كان أعظم الناس مروءة (منهم يومئذ) أى اذ تكون هذه الدواهى العظام والشدائد والآلام (شأن) أى أمر عظيم وقوله تعالى (يغنيه) حال أى يشغله عن شأن غيره وعن سودة رضى الله تعالى عنها زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث الناس حفاة عراة غرلا أى بالقلفة قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان فقلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا الى بعض فقال صلى الله عليه وسلم قد شغل الناس لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وقال قتيبة يغنيه أى يصرفه عن قرابته ومنه يقال أغن عنى وجهك أى اصرفه وقال أهل المعانى يغنيه أى ذلك الهم الذى حصل له قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهم آخر فصار شبيها بالغنى فى أنه ملك شيأ كثيرا * ولما ذكر تعالى حال القيامة فى الهول بين انّ المكلفين على قسمين سعداء وأشقياء فوصف سبحانه السعيد بقوله تعالى (وجوه يومئذ) أى اذ كان ما تقدم من الفرار وغيره (مسفرة) أى مضيئة متهللة من أسفر الصبح اذا أضاء وعن ابن عباس من قيام الليل لما روى فى الحديث من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما اغبرّت فى سبيل الله تعالى (ضاحكة) أى مسرورة فرحة قال الكلبىّ يعنى بالفراغ من الحساب (مستبشرة) أى بما آتاها الله تعالى من الكرامة ثم وصف الشقى بقوله تعالى (ووجوه يومئذ) أى اذ وجد ما ذكر (عليها غبرة) أى غبار (ترهقها) اى تعلوها (قترة) أى سواد كالدخان ولا يرى أوحش من

اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه كما يرى فى وجوه الزنوج اذا اغبرت (أولئك) أى البعداء البغضاء الذين يصنع بهم هذا (هم) أى خاصة (الكفرة الفجرة) جمع الكافر والفاجر وهو الكاذب والمفترى على الله تعالى فجمع تعالى الى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور الى الكفر وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر حديث موضوع وكان من حق البيضاوى أن لا يعبر بقال بل بعن كالزمخشرى أو نحوها ويأتى مثله فى نظائره

(سورة التكوير مكية)

وهى تسع وعشرون آية ومائة وأربع كلمات وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذى عم بجوده سائر البريات (الرحيم) الذى خص حزبه بنعيم الجنات واختلف فى معنى قوله تعالى (اذا الشمس) أى التى هى أعظم آيات السماء الظاهرة وأوضحها للحس (كورت) فقال ابن عباس أظلمت وقال قتادة ذهب ضوءها وقال سعيد بن جبير غورت وقال مجاهد اضمحلت وقال الزجاج لفت كما تلف العمامة يقال كرت العمامة على رأسى أكورها كورا وكورتها تكويرا اذا لففتها وأصل التكوير جمع بعض الشئ الى بعض فمعناه أن الشمس يجمع بعضها الى بعض ثم تلف فاذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها قال ابن عباس يكور الله تعالى الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ثم يبعث عليها ريحا دبورا فتضرمها فتصير نارا وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الشمس والقمر يكوران يوم القيامة *(تنبيه)* ارتفاع الشمس على الفاعلية ورافعها فعل مضمر يفسره كورت لان اذا تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط (واذا النجوم) أى كلها كبارها وصغارها (انكدرت) أى انقضت وتساقطت على الارض قال تعالى واذا الكواكب انتثرت والاصل فى الانكدار الانصباب قال العجاج فى مدحه لعمرو بن معديكرب

اذا الكرام ابتدروا الباع ابتدر * تقضى البازى اذا البازى كسر

أبصر خربان فضاء فانكدر *

أى فانقض وسقط والخربان جمع خرب وهو ذكر الحبارى والباع يستعمل فى الكرم يقال فلان كريم الباع والمعنى أن الكرام اذا ابتدروا فعل المكرمات بدرهم عمرو أى أسرع كانقضاض البازى وروى عن ابن عباس أن النجوم قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من نور بأيدى الملائكة عليهم السلام فاذا مات من فى السموات ومن فى الارض تساقطت تلك الكواكب من أيدى الملائكة لانه مات من كان يمسكها (واذا الجبال) التى هى فى العالم السفلى كالنجوم فى العالم العلوى وهى أصلب ما فى الارض (سيرت) أى ذهب بها عن وجه الارض فصارت هباء منبثا وصارت الارض قاعا صفصفا (واذا العشار) أى النوق الحوامل جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء وهى التى أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها الى

أن تضع لتمام السنة وهى أنفس ما يكون عند أهلها روى أنه صلى الله عليه وسلم مرّ فى أصحابه بعشار من النوق فغض بصره فقيل له هذه أنفس أموالنا فلم لا تنظر اليها فقال قد نهانى الله عن ذلك ثم تلا ولا تمدن عينيك الآية (عطلت) أى تركت مسيبة مهملة بلا راع أو عطلها أهلها عن الحلب والصر لاشتغالهم بانفسهم أو السحاب عطلت عن المطر والعرب تشبه السحاب بالحامل والاول على وجه المثل لان فى القيامة لا تكون ناقة عشراء والمعنى أن يوم القيامة بحالة لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه (واذا الوحوش) أى دواب الارض التى لا تأنس بأحد التى تظن أنه لا عبرة بها ولا التفات اليها فما ظنك بغيرها (حشرت) أى جمعت بعد البعث ليقتص لبعضها من بعض ثم تصير ترابا قال قتادة يحشر كل شئ حتى الذباب للقصاص وقيل اذا قضى بينها ردت ترابا فلا يبقى منها الا ما فيه سرور لبنى آدم واعجاب بصورته كالطاوس ونحوه وعن ابن عباس حشرها موتها يقال اذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة وقرأ (واذا البحار سجرت) أى على كثرتها ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الجيم والباقون بتشديدها قال ابن عباس أوقدت فصارت نارا تضطرم وقال مجاهد فجر بعضها فى بعض العذب والملح فصارت البحار كلها بحرا واحدا وقال القشيرى يرفع الله تعالى الحاجز الذى ذكره فاذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت الارض كلها وصارت بحرا واحدا وروى أبو العالية عن أبى بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس فى أسواقهم اذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك اذ تناثرت النجوم فبينماهم كذلك اذ وقعت الجبال على الارض فتحركت واضطربت وفزعت الجن الى الانس والانس الى الجن واختلطت الدواب والطير والوحش وماج بعضهم فى بعض فذلك قوله تعالى واذا الوحوش حشرت أى اختلطت واذا البحار سجرت قال الجن للانس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا الى البحر فاذا هو نار تأجج قال فبينماهم كذلك اذ تصدعت الارض صدعة واحدة الى الارض السابعة السفلى والى السماء السابعة العليا فبينماهم كذلك اذ جاءتهم الريح فأماتتهم وعن ابن عباس قال هى اثنتا عشرة خصلة ستة فى الدنيا وستة فى الآخرة وهى ما ذكر من بعد (واذا النفوس) أى من كل ذى نفس من الناس وغيرهم (زوجت) أى قرنت بأجسادها وروى ان عمر سئل عن هذه الآية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار وقال الحسن وقتادة ألحق كل امرئ بشيعته اليهود باليهود والنصارى بالنصارى وقال عطاء زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الشياطين بالكافرين (واذا الموؤدة) أى الجارية المدفونة حية كان الرجل فى الجاهلية اذ ولد له بنت فاراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الابل والغنم فى البادية وان أراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية فيقول لامها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها الى أحمائها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء فيذهب بها الى البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى بالارض وقال ابن عباس كانت الحامل

اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة واذا ولدت ولدا حبسته وكانوا يفعلون ذلك لخوف لحوق العار بهم من أجلهن أو الخوف من الاملاق كما قال تعالى ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق وكانوا يقولون ان الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به فهو أحق بهن وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد وفيه افتخر الفرزدق فى قوله

ومنا الذى منع الوائدات * واحيا الوئيد فلم توأد

(سئلت بأى) أى بسبب أى (ذنب) يا أيها الجاهلون (قتلت) أى استحقت به عندكم القتل وهى لم تباشر سوأ لكونها لم تصل الى حد التكليف (فان قيل) ما معنى سؤالها عن ذنبها الذى قتلت به وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها (أجيب) بأن سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت فى قوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى ان أقول ما ليس لى بحق وروى أن قيس بن عاصم جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى وأدت ثمان بنات كن لى فى الجاهلية فقال صلى الله عليه وسلم أعتق عن كل واحدة منهن رقبة قال يا رسول الله انى صاحب ابل فقال له صلى الله عليه وسلم أهد عن كل واحدة منهن بدنة ان شئت وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان المرأة التى تقتل ولدها تأتى يوم القيامة متعلقا ولدها بيدها ملطخا بدمائه فيقول يا رب هذه أمى وهذه قتلتنى (واذا الصحف نشرت) أى فتحت بعد أن كانت مطوية والمراد صحف الاعمال التى كتبت الملائكة فيها أعمال العباد من خير وشر تطوى بالموت وتنشر فى القيامة فيقف كل انسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وروى عن عمر أنه كان اذا قرأها قال اليك يساق الامر يا ابن آدم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يحشر الناس حفاة عراة فقالت أم سلمة كيف بالنساء فقال شغل الناس يا أم سلمة قالت وما يشغلهم قال نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الشين والباقون بتشديدها على تكرير النشر للمبالغة فى تقريع العاصى وتبشير المطيع وقيل لتكرير ذلك من الانسان (واذا السماء) أى هذا الجنس كله أفرده لانه يعلم بالقدرة على بعضه القدرة على الباقى (كشطت) أى نزعت عن أماكنها كما ينزع الجلد عن الشاة والغطاء عن الشئ قال القرطبى يقال كشطت البعير كشطا نزعت جلده ولا يقال سلخت لان العرب لا تقول فى البعير الا كشطته أو جلدته والمعنى أزيلت عما فوقها وقال القرطبى طويت (واذا الجحيم) أى النار الشديدة التأجج (سعرت) أى أججت فأضرمت للكفار وزيد فى احمائها يقال سعرت النار وأسعرتها روى أنه صلى الله عليه وسلم قال أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة واحتج بهذه الآية من قال النار مخلوقة الآن لانه يدل على أن سعيرها معلق بيوم القيامة وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم بتشديد العين والباقون بتخفيفها (واذا الجنة) أى البستان

ذو الاشجار الملتفة والرياض المعجبة (أزلفت) أى قربت لاهلها ليدخلوها وقال الحسن انهم يقربون منها الا أنها تزول عن موضعها وقال عبد الله بن زيد زينت والزلفى فى كلام العرب القربة وقوله تعالى (علمت نفس) جواب اذا أول السورة وما عطف عليها أى علمت كل نفس من النفوس وقت هذه المذكورات وهو يوم القيامة فالتنكير فيه مثله فى تمرة خير من جرادة ودلالة هذا السياق للهول على ذلك يوجب اليقين فيه (ما) أى كل شئ (أحضرت) من خير وشر روى عن ابن عباس وعمر أنهما قرآ فلما بلغا علمت نفس ما أحضرت قالا لهذا أجريت القصة قال الرازى ومعلوم ان العمل لا يمكن احضاره فالمراد اذن ما أحضرته فى صحائفها أو ما أحضرته عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الاعمال وعن ابن مسعود أن قارئا قرأها عنده فلما بلغ علمت نفس ما أحضرت قال واقطع ظهراه (فلا أقسم) لا مزيدة أى أقسم (بالخنس الجوار الكنس) هى النجوم الخمسة زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد تخنس بضم النون أى ترجع فى مجراها وراءها بينا ترى النجم فى آخر البرج اذ كر راجعا الى أوله وتكنس بكسر النون تدخل فى كناسها أى تغيب فى المواضع التى تغيب فيها فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس وقيل هى جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل أى تطلع فى أماكنها كالوحش فى كنسها (والليل) أى الذى هو محل ظهور النجوم وزوال خنوسها وذهاب كنوسها (اذا عسعس) قال البغوى قال الحسن أقبل بظلامه وقال آخرون أدبر تقول العرب عسعس الليل وسعسع اذا أدبر ولم يبق منه الا القليل (والصبح اذا تنفس) أى امتد حتى يصير نهارا بينا يقال للنهار اذا زاد تنفس ومعنى التنفس خروج النسيم من الجوف وفى كيفية المجاز قولان الاول انه اذا أقبل الصبح أقبل باقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز فقيل تنفس الصبح الثانى أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذى حبس بحيث لا يتحرك فاذا تنفس وجد راحة فهنا لما طلع الصبح فكانه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وقوله تعالى (انه) أى القرآن (لقول رسول كريم) هو المقسم عليه والمعنى انه لقول رسول عن الله تعالى كريم على الله تعالى أى انتفت عنه وجوه المذام كلها وثبت له وجوه المحامد كلها وهو جبريل عليه السلام وأضاف الكلام اليه لانه قاله عن الله عز وجل (ذى قوة) أى شديد القوى روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه فرفعها الى السماء ثم قلبها وأبصر ابليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الارض المقدسة فنفخه بجناحه نفخة ألقاه الى أقصى جبل بالهند وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ويهبط من السماء الى الارض ويصعد فى أسرع من الطرف (عند ذى العرش) أى الملك الاعلى المحيط عرشه بجميع الاكوان الذى لا عند فى الحقيقة الا له وهو الله سبحانه وتعالى وقوله تعالى (مكين) أى ذى مكانة متعلق به عند أى ذى منزلة ومكانة ليس عندية جهة بل عندية اكرام وتشريف كقوله تعالى أنا عند المنكسرة قلوبهم وقيل قوى فى أداء طاعة الله تعالى وترك الاخلال بها (مطاع ثم) أى فى السموات

قال الحسن فرض الله تعالى على أهل السموات طاعة جبريل عليه السلام كما فرض على أهل الارض طاعة محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس من طاعة جبريل عليه السلام الملائكة أنه لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان افتح له ففتح فدخلها فرأى ما فيها (أمين) أي بليغ الامانة على الوحي الذي يجيء به وقيل الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى حينئذ ذي قوة على تبليغ الوحي مطاع أي يطيعه من أطاع الله تعالى (وما صاحبكم) أي الذي طالت صحبته لكم وأنتم تعلمون أنه في غاية الكمال حتى انه ليس له وصف عندكم الا الامين وهو محمد صلى الله عليه وسلم وهذا عطف على انه الى آخر المقسم عليه وأغرق في النفي فقال تعالى (بمجنون) أي كما زعمتم بهتهم في قوله بل جاء بالحق وصدق المرسلين فما القرآن الذي يتلوه عليكم قول مجنون ولا قول متوسط في العقل بل قول أعقل العقلاء وأكمل الكمل * (تنبيه) * استدل بذلك بعضهم على فضل جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم حيث عد فضائل جبريل عليه السلام واقتصر على نفي الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو كما قال البيضاوي ضعيف اذ المقصود منه نفي قولهم انما يعلمه بشر وقولهم أفترى على الله كذبا وقولهم أم به جنة لا تعديد فضله والموازنة بينهما (ولقد رآه) أي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته التي خلق عليها وله ستمائة جناح (بالافق المبين) أي البين وهو الافق الاعلى الذي عند سدرة المنتهى حيث لا يكون لنس أصلا ولا يكون للشيطان على ذلك المكان سبيل فعرفه حق المعرفة وقال مجاهد وقتادة بالافق الاعلى من ناحية المشرق وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام اني أحب أن أراك على صورتك التي تكون فيها في السماء قال لن تقوى على ذلك قال بلى قال فأين تشاء أن أتخيل لك قال بالابطح قال لا يسعني قال فبمنى قال لا تسعني قال فبعرفات قال ذلك بالحرى أن يسعني فواعده فخرج النبي صلى الله عليه وسلم للوقت فاذا هو بجبريل قد أقبل من جبل عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجلاه في الارض فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم خر مغشيا عليه قال فتحول جبريل عن صورته فضمه الى صدره وقال يا محمد لا تخف فكيف لو رأيت اسرافيل ورأسه تحت العرش ورجلاه في التخوم السابعة وان العرش لعلى كاهله وانه ليتضاءل احيانا من مخافة الله تعالى حتى يصير مثل الوصع يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك الا عظمته وقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل بالافق المبين وهو قول ابن مسعود وقد مر ذلك في سورة النجم (وما) أي والحال انه ما (هو) أي محمد صلى الله عليه وسلم (على الغيب) أي ما غاب من الوحي وخبر السماء ورؤيته جبريل وغير ذلك مما أخبر به وقرأ (بظنين) ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء المشالة من الظنة وهي التهمة أي فليس بمتهم والباقون بالضاد موافقة للمرسوم من الضن وهو البخل أي فليس ببخيل بالوحي فيزوي بعضه أو يسئل تعليمه فلا يعلمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلوانا وهو في مصحف عبد الله بالظاء وفي مصحف أبي بالضاد وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ

بهما قال الزمخشري واتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ومعرفة مخرجيهما مما لابد منه للقارئ فان أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وان فرقوا ففرقا غير صواب وبينهما بون بعيد فان مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الاضراس من يمين اللسان أو يساره وكان عمر بن الخطاب أضبط يعمل بكلتا يديه وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه وهي أحد الاحرف الشجرية أخت الجيم والشين وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا وهي أحد الاحرف الذولقية أخت الذال والثاء ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب فان قلت فان وضع المصلي أحد الحرفين مكان صاحبه قلت هو كوضع الذال مكان الجيم والثاء مكان السين لان التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما اه كلامه بحروفه (وما هو) أي القرآن الذي من جملة معجزاته الاخبار بالمغيبات وأغرق في النفي بالتأكيد بالباء فقال تعالى (بقول شيطان) أي مسترق للسمع فيوحيه اليه كما يوحيه الى بعض الكهنة (رجيم) أي مرجوم مطرود بعيد من الرحمة وذلك ان قريشا كانوا يقولون ان هذا القرآن يجيء به شيطان فيلقيه على لسانه يريدون بالشيطان الابيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه فنفى الله تعالى ذلك وقوله تعالى (فأين) منصوب بقوله تعالى (تذهبون) لانه ظرف مبهم وقال أبو البقاء أي الى أين فحذف الجار أي فأي طريق تسلكون في انكاركم القرآن واعراضكم عنه وفي هذا استضلال لهم فيما يسلكون من أمر النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن كقولك لتارك الجادة أين تذهب (ان) أي ما (هو) أي القرآن الذي أتاكم به الرسول (الا ذكر) أي عظة وشرف (للعالمين) من انس وجن وملك وقوله تعالى (لمن شاء منكم) بدل من العالمين باعادة الجار (أن يستقيم) باتباع الحق قال أبو جهل الامر الينا ان شئنا استقمنا وان شئنا لم نستقم وهذا هو القدر وهو رأس القدرية فنزل (وما تشاؤن) الاستقامة على الحق (الا أن يشاء الله) أي الا وقت أن يشاء الملك الاعظم الذي بيده كل شيء مشيئتكم الاستقامة عليه (رب العالمين) أي مالك الخلق وفي هذا اعلام ان أحدا لا يعمل خيرا الا بتوفيق الله تعالى ولا شرا الا بخذلانه ونقل البغوي في أول السورة باسناده الى ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن ينظر في يوم القيامة فليقرأ اذا الشمس كورت وأما قول البيضاوي تبعا للزمخشري أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته فحديث موضوع

(سورة الانفطار مكية)

وهي تسع عشرة آية وثمانون كلمة وثلثمائة وسبعة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا (الرحمن) الذي دبر الكائنات تدبيرا (الرحيم) الذي أرسل رسوله للخلق نذيرا (اذا السماء) أي على شدة احكامها واتساقها وارتفاعها (انفطرت)

أى انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام (واذا الكواكب) أى النجوم الصغار والكبار كلها الغراء الزاهرة المتوقدة توقد النار المرصعة ترصيع المسامير (انتثرت) أى تساقطت متفرقة لان عند انتقاض تركيب السماء تنتثر النجوم على الارض (واذا البحار) المتفرقة فى الارض وهى ضابطة لها أتم ضبط لنفع العباد على كثرتها (فجرت) أى فتح بعضها فى بعض فاختلط العذب بالملح وزال البرزخ الذى بينها فصارت البحار بحرا واحدا وروى أن الارض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية وهو معنى التسجير عند الحسن فى قوله تعالى واذا البحار سجرت وقال هنا فجرت بغت (واذا القبور) أى مع ذلك كله (بعثرت) أى قلبت يقال بعثره وبحثره بالعين والحاء قال الزمخشرى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة اليهما أى فهما بمعنى والمعنى قلب أعلاها أسفلها وقلب باطنها ظاهرها وخرج ما فيها من الموتى احياء وقيل التبعثر اخراج ما فى بطنها من الذهب والفضة ثم تخرج الموتى بعد ذلك وجواب اذا أول السورة وما عطف عليه (علمت نفس) أى كل نفس وقت هذه المذكورات وهو يوم القيامة (ما قدمت) من عمل (وأخرت) أى جميع ما عملت من خير أو شر أو غيرهما (فان قيل) أى وقت من القيامة يحصل هذا العلم قال الرازى اما العلم الاجمالى فيحصل فى أول زمان الحشر لان المطيع يرى آثار السعادة والعاصى يرى آثار الشقاوة فى أول الامر * وأما العلم التفصيلى فانما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة وقوله تعالى (يا أيها الانسان) أى البشر الآنس بنفسه الناسى لما يعنيه خطاب لمنكرى البعث وروى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى أبى الشريق ضرب النبى صلى الله عليه وسلم فلم يعاقبه الله تعالى فى أول أمره وقيل تتناول جميع العصاة لان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (ما غرك بربك) أى ما خدعك وسول لك الباطل حتى تركت ما أوجب عليك المحسن اليك وأتيت بالمحرمات (الكريم) أى الذى له الكمال كله المقتضى لان لا يهمل الظالم ولا يسوى بين المحسن والمسىء هذا اذا حملنا الانسان على جميع العصاة فان حملناه على الكافر وهو ظاهر الآية فالمعنى ما الذى دعاك الى الكفر وانكار الحشر والنشر (فان قيل) كونه كريما يقتضى أن يغتر الانسان بكرمه لانه جواد مطلق والجواد الكريم يستوى عنده طاعة المطيع وعصيان المذنب وهذا يوجب الاغترار كما روى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه صيح بغلام له مرات فلم يلبه فنظر فاذا هو بالباب فقال له لم لا تجيبنى فقال لثقتى بحلمك وأمنى عقوبتك فاستحسن جوابه وأعتقه وقالوا أيضا من كرم ساء أدب غلمانه واذا ثبت أن كرمه يقتضى الاغترار به فكيف جعله ههنا مانعا من الاغترار (أجيب) بأن حق الانسان أن لا يغتر بكرم الله تعالى عليه حيث خلقه حيا وتفضل عليه فهو من كرمه لا يعاجل بالعقوبة بسطا فى مدة التوبة وتأخير الجزاء الى أن يجمع الناس للجزاء فالحاصل ان تأخير العقوبة لاجل الكرم وذلك لا يقتضى الاغترار بهذا التفضيل فانه منكر خارج عن حد الحكمة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها غره جهله وقال عمر غره حمقه وجهله وقال الحسن

غره والله شيطانه الخبيث أي زين له المعاصي وقال له افعل ماشئت فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولا وهو متفضل عليك آخرا حتى ورّطه وقيل للفضيل بن عياض ان أقامك الله يوم القيامة وقال لك ماغرك بربك الكريم ماذا تقول له قال أقول غرني ستورك المرخاة وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ فى الاغترار بالستر وليس باعتذار كما يظنه الطماع ويظن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم انما قال بربك الكريم دون سائر صفاته ليلقن عبده الجواب حتى يقول غرني كرم الكريم وقال مقاتل غره عفو الله حيث لم يعاقبه أول مرة وقال السدى غره رفق الله تعالى به وقال قتادة سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان وقال ابن مسعود مامنكم من أحد الاسيخلو الله تعالى به يوم القيامة فيقول ماغرك بي يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين (الذى خلقك) أى أوجدك من العدم مهيأ بتقدير الاعضاء (فسوّاك) عقب تلك الاطوار بتصوير الاعضاء والمنافع بالفعل (فعدلك) أى جعل كل شئ من ذلك سليما مودعا فيه قوة المنافع التى خلقه الله تعالى لها *(تنبيه)* قوله تعالى الذى يحتمل الاتباع على البدل والبيان والنعت والقطع الى الرفع والنصب * واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الامور الثلاثة كالدلالة على تحقيق ذلك الكرم فقوله سبحانه الذى خلقك أى بعد أن لم تكن لاشك أنه كرم لانه وجود والوجود خير من العدم والحياة خير من الموت كما قال تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم وقوله تعالى فسوّاك أى جعلك مستوى الخلقة سالم الاعضاء غاية فى الكرم كما قال تعالى أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا أى معتدل الخلق والاعضاء وقال ذو النون المصرى أى سخر لك المكونات أجمع وما جعلك مسخرا لشئ منها ثم أنطق لسانك بالذكر وقلبك بالعقل وروحك بالمعرفة ومدّك بالايمان وشرفك بالامر والنهى وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الدال والباقون بالتشديد بمعنى جعلك متناسب الاطراف فلم يجعل احدى يديك أو رجليك أطول ولا احدى عينيك أوسع فهو من التعديل وهو كقوله تعالى بلى قادرين على أن نسوّى بنانه وقال عطاء عن ابن عباس جعلك قائما معتدلا حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية وقال أبو على الفارسى عدلك خلقك فى أحسن تقويم مستويا على جميع الحيوان والنبات وواصلا فى الكمال الى مالم يصل اليه شئ من أجسام هذا العالم وأما قراءة التخفيف فتحتمل هذا أى عدل بعض اعضائك ببعض ويحتمل أن يكون من العدول أى صرفك الى ماشاء من الهيآت والاشكال ونقل القفال عن بعضهم انهما لغتان بمعنى واحد (فى أى صورة) أى من الصور التى تعرفها والتى لا تعرفها من الدواب والطيور وغير ذلك من الحيوان وغيره وما فى قوله تعالى (ماشاء) مزيدة وفى أى متعلق بركب فى قوله تعالى (ركبك) أى ركبك فى أى صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة فى الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والانوثة والشبه ببعض الاقارب وخلاف الشبه (فان قيل) هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ماقبلها (اجيب) بأنها بيان لعدلك ويجوز أن تتعلق بمحذوف أى ركبك حاصلا فى بعض

الصور ومحله النصب على الحال ان علق بمحذوف ويجوز ان يتعلق بعدلك ويكون في أي معنى التعجب أي فعدلك في صورة عجيبة ثم قال ماشاء ركبك من التراكيب يعني تركيبا حسنا وقوله تعالى (كلا) ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى والتعلق به وهو موجب الشكر والطاعة الى عكسهما الذي هو الكفر والمعصية وقوله تعالى (بل تكذبون) أي يا كفار مكة (بالدين) اضراب الى ماهو السبب الاصلي في اغترارهم والمراد بالدين الجزاء على الاعمال والاسلام (وان) أي والحال ان (عليكم) أي عن أعمالكم من جندنا من الملائكة (لحافظين) أي على أعمالكم بحيث لا يخفى عليهم منها جليل ولا حقير (كراما) أي على الله تعالى (كاتبين) أي لهذه الاعمال في الصحف كما يكتب الشهود بينكم العهود ليقع الجزاء على غاية التحرير * (تنبيه) * هذا الخطاب وان كان خطاب مشافهة الا ان الامة أجمعت على عموم هذا الخطاب في حق المكلفين وقوله تعالى حافظين جمع يحتمل أن يكونوا حافظين لجميع بني آدم من غير أن يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخر ويحتمل ان يكون الموكل بكل واحد منهم جماعة من الملائكة كما قيل اثنان بالليل واثنان بالنهار او كما قيل انهم خمسة واختلفوا في الكفار هل عليهم حفظة فقيل لا لان أمرهم ظاهر وعملهم واحد قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وقيل عليهم حفظة وهو ظاهر قوله تعالى بل تكذبون بالدين وان عليكم لحافظين وقوله تعالى وأما من أوتي كتابه بشماله وقوله تعالى وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فأخبر أن لهم كتابا وأن عليهم حفظة (فان قيل) فأي شئ يكتب الذي عن يمينه ولا حسنة له (أجيب) بأن الذي عن شماله يكتب باذن صاحبه ويكون صاحبه شاهدا على ذلك وان لم يكتب وفي هذه الآية دلالة على أن الشاهد لا يشهد الا بعد العلم لوصف الملائكة بكونهم حافظين كراما كاتبين (يعلمون) أي على التجدد والاستمرار (ماتفعلون) فدل على أنهم يكونون عالمين بها حتى انهم يكتبونها فاذا كتبوها يكونون عالمين عند أداء الشهادة وفي تعظيم الكتبة تعظيم لامر الجزاء فانه عند الله من جلائل الامور ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه وفيه انذار وتهويل للعصاة ولطف بالمؤمنين وعن الفضيل انه كان اذا قرأها قال ما أشدها من آية على الغافلين * ولما وصف تعالى الكرام الكاتبين لاعمال العباد ذكر أحوال العاملين وقسمهم قسمين وبدأ بقسم أهل السعادة فقال تعالى (ان الابرار) أي المؤمنين الصادقين في ايمانهم باداء فرائض الله تعالى واجتناب معاصيه (لفي نعيم) أي يحيط بهم أبد الآبدين وهو نعيم الجنة الذي لا نهاية له * ثم ذكر قسم أهل الشقاوة بقوله تعالى (وان الفجار) الذين من شأنهم الخروج عما ينبغي الاستقرار فيه من رضا الله تعالى الى سخطه وهم الكفار (لفي جحيم) أي نار محرقة تتوقد غاية التوقد فهم فيها أبد الآبدين (يصلونها) أي يدخلونها او يقاسون حرها (يوم الدين) أي يوم الجزاء وهو يوم القيامة (وماهم عنها) أي الجحيم (بغائبين) أي بمخرجين ويجوز ان يراد يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك في قبورهم وقيل أخبر الله تعالى في هذه السورة أن لابن آدم ثلاث حالات حالة الحياة التي يحفظ فيها عمله وحالة الآخرة التي يجازى فيها وحالة البرزخ وهو قوله تعالى وماهم

عنها

عنها بغائبين وروى أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني ليت شعري مالنا عند الله قال اعرض عملك على كتاب الله تعالى فانك تعلم مالك عند الله تعالى قال فأين أجد ذلك في كتاب الله قال عند قوله تعالى ان الابرار لفي نعيم الآية قال سليمان فأين رحمة الله تعالى قال قريب من المحسنين * ثم عظم سبحانه وتعالى ذلك اليوم فقال (وما أدراك) أي وما أعلمك وان اجتهدت في تطلب الدراية به (ما يوم الدين) أي أي شئ هو في طوله وهوله وفظاعته وزلزاله ثم كرره تعجيبا لشأنه فقال تعالى (ثم ما أدراك) أي كذلك (ما يوم الدين) أي ان يوم الدين الذي بحيث لا تدرك دراية دارك نهه في الهول والشدة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه والتكرير لزيادة التهويل ثم أجمل تعالى القول في وصفه فقال سبحانه (يوم لا تملك) أي بوجه من الوجوه في وقت ما (نفس) أي أي نفس كانت (لنفس شيأ) أي قل أوجل وقرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع يوم على أنه خبر مبتدا مضمر أي هو يوم وجوز الزمخشري أن يكون بدلا مما قبله يعني يوم الدين والباقون بالفتح باضمار أعني أو اذكر (والامر) أي كله (يومئذ) أي اذ كان البعث للجزاء (لله) أي ملك الملوك لا امر لغيره فيه فلا يملك الله تعالى في ذلك اليوم أحدا شيأ كما ملكهم في الدنيا وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة حديث موضوع

(سورة المطففين مدنية)

في قول الحسن وعكرمة ومقاتل قال مقاتل وهي أول سورة نزلت بالمدينة وقال ابن عباس وقتادة مدنية الا ثمان آيات وهي قوله تعالى ان الذين أجرموا الى آخرها فهو مكي وقال الكلبي وجابر بن زيد نزلت بين مكة والمدينة ولعل هذا هو سبب الاختلاف وقال ابن مسعود والضحاك مكية وهي ست وثلاثون آية ومائة وتسع وتسعون كلمة وسبعمائة وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي من توكل عليه كفاه (الرحمن) الذي عم بجوده الابرار والعصاة (الرحيم) الذي خص أهل طاعته بهداه (ويل) مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه دعاء وهو اما كلمة عذاب أو هلاك ثابت عظيم في كل حال من أحوال الدنيا والآخرة أو واد في جهنم وقوله تعالى (للمطففين) خبره والتطفيف البخس في الكيل والوزن لان ما يبخس شئ طفيف حقير قال الزجاج وانما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لانه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان الا الشئ اليسير الطفيف وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكانوا من أبخس الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم وقال خمس بخمس قيل يا رسول الله ما خمس قال ما نقض قوم العهد الا سلط الله تعالى عليهم عدوهم ولا حكموا بغير ما أنزل الله الا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة الا فشا فيهم الموت ولا طففوا المكيال الا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم المطر وقال السدي قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وبها رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان

يكيل بأحدهما ويكال بالآخر فنزلت وقيل كان أهل المدينة تجارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت وعن على أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له أقم الوزن بالقسط ثم أرجح بعد ذلك ماشئت كأنه أمر بالتسوية أولا ليعتادها ويفصل الواجب من النفل وعن ابن عباس انكم معشر الاعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان وخص الاعاجم لانهم يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفرقين فى الحرمين كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول اتق الله وأوف الكيل فان المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى ان العرق ليلجمهم الى انصاف آذانهم وعن عكرمة أشهد أن كل كيال ووزان فى النار فقيل له ان ابنك كيال أووزان فقال أشهد أنه فى النار وعن أبى لا التمس الحوائج ممن رزقه فى رؤس المكاييل وألسن الموازين * ثم بين تعالى المطففين من هم بقوله تعالى (الذين اذا اكتالوا) أى عاملوا الكيل (على الناس) أى كائنين من كانوا لايخافون شيأ ولايراعون أحدا بل صارت الديانة والوقاحة لهم دينا (يستوفون) أى اذا كالوا منهم وأبدل على مكان من للدلالة على أن اكتيالهم من الناس اكتيال يضرهم ويتحامل فيه عليهم ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ويقدم المفعول على الفعل لافادة الخصوصية أى يستوفون على الناس خاصة وأما أنفسهم فيستوفون لها وقال الفراء من وعلى يتعاقبان فى هذا الموضع لانه حق عليه فاذا قال اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ماعليك واذا قال اكتلت منك فكقوله استوفيت منك (واذا كالوهم) اى كالوا للناس أى حقهم اى مالهم من الحق (أووزنوهم) اى وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال القائل

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا * ولقد نهيتك عن بنات الاوبر

وقال آخر والحريص يصيدك لا الجواد بمعنى جنيت لك ويصيد لك ويقال وزنتك حقك وكلتك طعامك أى وزنت لك وكلت لك ونصحتك ونصحت لك وكسبتك وكسبت لك والاكمؤ جمع كمأة والعساقل ضرب منها وأصله عساقيل لان واحدها عسقول كعصفور فحذفت الياء للضرورة وبنات أوبر ضرب من الكمأة ردىء (يخسرون) جواب اذا وهو يتعدى بالهمزة يقال خسر الرجل وأخسرته أنا ومفعوله محذوف أى يخسرون الناس متاعهم وقيل يخسرون أى ينقصون بلغة فارس أى ينقصون الكيل أو الوزن وقوله تعالى (ألايظن أولئك) أى الاخساء البعداء الأراذل (أنهم مبعوثون ليوم) أى لاجله أوفيه وزاد التهويل بقوله تعالى (عظيم) انكارا وتعجيبا من حالهم فى الاجتراء على التطفيف كأنهم لايخطرون ببالهم ولايخمنون تخمينا انهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة وقيل الظن بمعنى اليقين وقوله تعالى (يوم) يجوز نصبه بمبعوثون أو باضمار اعنى أو بدل من محل ليوم فناصبه يبعثون (يقوم الناس) أى من قبورهم (لرب العالمين) أى الخلائق لاجل أمره وجزائه وحسابه وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه الى انصاف أذنيه وعن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من

العباد

العباد حتى تكون قيد ميل أو اثنين قال سليم لا أدرى أى الميلين يعنى مسافة الارض أو الميل الذى تكتحل به العين قال فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق بقدر أعمالهم فنهم من يأخذه الى عقبيه ومنهم من يأخذه الى ركبتيه ومنهم من يأخذه الى حقويه ومنهم من يلجمه الجاما فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشير بيده الى فيه يقول الجمه الجاما وعن قتادة أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك واعدل كما تحب ان يعدل لك وعن الفضيل بخس الميزان سواد الوجوه يوم القيامة وعن عبد الملك بن مروان أن اعرابيا قال له قد سمعت ما قال الله فى المطففين أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذى سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن وفى هذا الانكار والتعجب وكلمة الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله تعالى خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم فى التطفيف وفيما كان فى مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل فى كل أخذ واعطاء بل فى كل قول وعمل وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين بكى نحيبا وامتنع من قراءة ما بعده وعن بعض المفسرين أن لفظ التطفيف يتناول التطفيف فى الوزن والكيل وفى اظهار العيب واخفائه وفى طلب الانصاف والانتصاف ويقال من لم يرض لاخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف والمعاشرة والصحبة فى هذه المادة والذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه وقوله تعالى (كلا) ردع أى ليس الامر على ماهم عليه فليرتدعوا وههنا تم الكلام وقال الحسن كلا ابتداء متصل بما بعده على معنى حقا وجرى الجلال المحلى وأكثر المفسرين على الاول (ان كتاب الفجار) أى كتب اعمال الكفار وأظهر موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف واختلف فى معنى قوله سبحانه وتعالى (لفى سجين) فقيل هو كتاب جامع وهو ديوان الشر دون الله تعالى فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والانس وقيل هو مكان تحت الارض السابعة وهو محل ابليس وجنوده وقال عبد الله بن عمر سجين فى الارض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سجين أسفل سبع أرضين وعليون فى السماء السابعة تحت العرش وقال الكلبى هو صخرة تحت الارض السابعة خضراء خضرة السموات منها يجعل كتاب الفجار فيها وقال وهب هى آخر سلطان ابليس وعن كعب الاحبار ان روح الفاجر يعنى الكافر يصعد بها الى السماء فتأبى السماء ان تقبلها ثم يهبط بها الى الارض فتأبى الارض أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها الى سجين وهو موضع جند ابليس وذلك استهانة بها ويشهدها الشياطين المدحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون وقال عكرمة لفى سجين أى فى خسار وضلال (وما أدراك) أى جعلك داريا وان اجتهدت فى ذلك (ما سجين) وقال الزجاج أى ليس لك ذلك ما كنت تعلمه أنت ولا قومك وقوله تعالى (كتاب مرقوم) ليس تفسيرا لسجين بل هو بيان للكتاب المذكور فى قوله تعالى ان كتاب الفجار أى هو كتاب مرقوم أى مسطور

بين الكتابة مكتوب فيه أعمالهم مثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى حتى يجازون به أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وقيل الرقم الختم بلغة حمير واقتصر على هذا الجلال المحلي وقال قتادة رقم عليه بشر كأنه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر والمعنى ان ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان وسمي سجينا فعيلا من السجن وهو الحبس والتضييق في جهنم أو لانه مطروح تحت الارض كما مر (فان قيل) سجين هل هو اسم أو صفة (أجيب) بأنه اسم علم منقول من وصف كحاتم وهو منصرف لانه ليس فيه الا سبب واحد وهو التعريف (ويل) أي أعظم الهلاك (يومئذ) أي اذ تقوم الناس لما تقدم (للمكذبين) أي بذلك أو بالحق وقوله تعالى (الذين يكذبون بيوم) أي بسبب الاخبار بيوم (الدين) أي الجزاء الذي هو سر الوجود بدل أو بيان للمكذبين * ثم أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين بثلاث صفات ذكر أولها بقوله تعالى (وما) أي والحال أنه ما (يكذب به) أي بذلك اليوم (الا كل معتد) أي متجاوز عن النظر غال في التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه فاستحال منه الاعادة * ثم ذكر الصفة الثانية بقوله تعالى (أثيم) أي منهمك في الشهوات المحرجة بحيث اشتغل عما وراءها وحملته على الانكار لما عداها * ثم ذكر الصفة الثالثة بقوله تعالى (اذا تتلى عليه آياتنا) أي القرآن (قال أساطير الاولين) أي الحكايات سطرت قديما جمع أسطور بالضم وذلك لفرط جهله واعراضه عن الحق فلا تنفعه شواهد النقل كما لا تنفعه دلائل العقل وهذا عام في كل موصوف بذلك وقال الكلبي هو الوليد بن المغيرة وقيل هو النضر بن الحرث وقوله تعالى (كلا) ردع وزجر أي ليس هو أساطير الاولين وقال الحسن معناها حقا كما مر (بل ران) أي غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم السماء (على قلوبهم) أي كل من قال هذا القول (ما كانوا يكسبون) أي كما يركب الصدأ من اصرارهم على الكبائر وتسويف التوبة حتى طبع على قلوبهم فلا تقبل الخير ولا تميل اليه روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا أذنب ذنبا نكتت نكتة سوداء في قلبه فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها واذا زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه المبين وقال أبو معاذ الران أن يسود القلب من الذنوب والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الران والاقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب قال تعالى أم على قلوب أقفالها وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب ويغشى فيموت القلب قال صلى الله عليه وسلم اياكم والمحقرات من الذنوب فان الذنب على الذنب يوقد على صاحبه جحيما ضخمة وعن الحسن الذنب بعد الذنب يسود القلب يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا والغين الغيم ويقال ران فيه النوم رسخ فيه ورانت به الخمرة ذهبت به وقرأ حمزة وشعبة والكسائي بالامالة محضة والباقون بالفتح وسكت حفص على اللام وقفة لطيفة من غير قطع والباقون بغير سكت وقوله تعالى (كلا) ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم وقيل بمعنى حقا كما مر (انهم عن ربهم) أي المحسن اليهم (يومئذ لمحجوبون) أي فلا يرونه بخلاف المؤمنين فانهم يرونه كما ثبت لك في الاحاديث الصحيحة وقال الحسن لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد

لزهقت أنفسهم في الدنيا وسئل مالك عن هذه الآية فقال لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لاوليائه حتى رأوه وفي قوله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون دلالة على أن أولياء الله يرون الله تعالى ومن نفى الرؤية كالزمخشري جعله تمثيلا للاستخفاف بهم واهانتهم لانه لا يؤذن على الملوك الا الا للوجهاء والمكرمين لديهم ولا يحجب عنهم الا الاذناب المهانون عندهم وعن ابن عباس وقتادة محجوبون عن رحمته وعن ابن كيسان عن كرامته (ثم انهم) أي بعد ما شاء الله تعالى من امهالهم (لصالوا الجحيم) أي لداخلوا النار المحرقة (ثم يقال) أي تقول لهم الخزنة (هذا) اى العذاب (الذي كنتم به تكذبون) أي في دار الدنيا وقوله تعالى (كلا) ردع عن التكذيب وقيل معناها حقا كما مر وقال البيضاوي تكرير للاول ليعقب بوعد الابرار كما عقب بوعيد الفجار اشعارا بأن التطفيف فجور والايفاء بر وردع عن التكذيب (ان كتاب الابرار) اى كتب اعمال المؤمنين الصادقين في ايمانهم (لفي عليين) وعليون علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما عملته صلحاء الثقلين منقول من جمع فعيل من العلو كسجين من السجن سمي بذلك اما لانه سبب الارتفاع الى أعالي الدرجات في الجنة واما لانه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريما له وتعظيما وروى ان الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقبلونه فاذا انتهوا به الى ما شاء الله من سلطانه أوحى اليهم انكم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه وانه أخلص عمله فاجعلوه في عليين وقد غفرت له وانها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فاذا انتهوا به الى ما شاء الله أوحى اليهم أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على قلبه وانه لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين وعن البراء مرفوعا عليين في السماء السابعة تحت العرش وقال ابن عباس هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيها وقال كعب وقتادة هو قائمة العرش اليمنى وقال عطاء عن ابن عباس هو الجنة وقال الضحاك سدرة المنتهى وقال بعض أهل المعاني علو بعد علو وشرف بعد شرف ولذلك جمعت بالياء والنون قال الفراء هو اسم موضوع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظه مثل عشرين وثلاثين (وما أدراك) أي جعلك داريا وان بالغت في الفحص (ما عليون) أي ما كتاب عليين هو (كتاب) أي عظيم (مرقوم) أي فيه ان فلانا أمن من النار رقما بالغا له من رقم ما أبهاه وأجله (يشهده المقربون) يحضرونه فيشهدون على ما فيه يوم القيامة أو يحفظونه ولما عظم كتابهم عظم منزلتهم بقوله تعالى (ان الابرار لفي نعيم) أي في الجنة ثم بين ذلك النعيم بأمور ثلاثة أولها قوله تعالى (على الارائك) أي الاسرة في الحجال ولا يسمى اريكة الا اذا كان كذلك والحجال بكسر الحاء جمع حجلة وهي بيت يزين بالثياب والستور والاسرة قاله الجوهري (ينظرون) أي الى ما شاؤا وامتد أعينهم اليه من مناظر الجنة والى ما أولاهم الله تعالى من النعمة والكرامة والى أعدائهم يعذبون في النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الادراك وقال الرازي ينظرون الى ربهم بدليل قوله تعالى (تعرف) أي أيها الناظر اليهم (في وجوههم) عند رؤيتهم (نضرة النعيم) أي بهجته وحسنه ورونقه كما ترى في وجوه الاغنياء وأهل الترفه أو الخطاب اما للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل ناظر وقال الحسن النضرة في الوجه والسرور في

القلب وهذا هو الامر الثانى وأما الثالث فهو قوله تعالى (يسقون من رحيق) أى خمر صافية طيبة وقال مقاتل الخمر البيضاء وقال الرازى لعله الخمر الموصوف بقوله تعالى لا فيها غول (مختوم) أى ختم ومنع من أن تمسه يد الى أن يفك ختمه الابرار وقال القفال يحتمل أن يكون ختم عليه تكريما له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان وهناك خمر أخرى تجرى أنهارا لقوله تعالى وأنهار من خمر لذة للشاربين الا أن هذا المختوم أشرف من الجارى (ختامه مسك) أى آخر شربه يفوح منه مسك فالمختوم الذى له ختام أى آخر شربه وختم كل شئ الفراغ منه وقال قتادة يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك وقال ابن زيد ختامه عند الله مسك وقيل طينه مسك وقيل تختم أوانيه من الاكواب والاباريق بمسك مكان الطينة (وفى ذلك) أى الامر العظيم البعيد التناول وهو العيش والنعيم أو الشراب الذى هذا وصفه (فليتنافس) أى فليرغب غاية الرغبة بجميع الجهد والاختيار (المتنافسون) أى الذين من شأنهم المنافسة وهو أن يطلب كل منهم ان يكون ذلك المنافس فيه لنفسه خاصة دون غيره لانه نفيس جدا والنفيس هو الذى تحرص عليه نفوس الناس وتتغالى فيه والمنافسة فى مثل هذا بكثرة الاعمال الصالحة والنيات الخالصة وقال مجاهد فليعمل العاملون نظيره قوله تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون وقال مقاتل ابن سليمان فليسارع المتسارعون وقال عطاء فليستبق المستبقون وقال الزمخشرى فليرتقب المرتقبون والمعنى فى الجميع واحد وأصله من الشئ النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه وينفس فيه على غيره أى يضن (ومزاجه) أى ما يمزج به ذلك الرحيق (من تسنيم) وهو علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذى هو مصدر سنمه اذا رفعه لانها تأتيهم من فوق على ماروى انها تجرى فى الهواء مسنمة فتصب فى أوانى أهل الجنة على مقدار الحاجة فاذا امتلأت أمسكت وقوله تعالى (عينا) نصب على المدح وقال الزجاج نصب على الحال (يشرب بها) اى بسببها على طريقة المزج منها (المقربون) وضمن يشرب معنى يلتذ فهم يشربونها صرفا وتمزج سائر أهل الجنة (ان الذين أجرموا) اى قطعوا ما أمر الله به ان يوصل وهم رؤساء قريش (كانوا من الذين آمنوا) وهم فقراء الصحابة عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين (يضحكون) اى استهزاء بهم (واذا مروا) اى المؤمنون (بهم) اى بالذين اجرموا (يتغامزون) اى يشير المجرمون الى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء بهم وقيل يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم قيل جاء على بن ابى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا الى أصحابهم فقالوا رأينا اليوم الاصلع وضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل على الى النبى صلى الله عليه وسلم (واذا انقلبوا) أى رجع الذين أجرموا برغبتهم فى الرجوع واقبالهم عليه من غير تكره (الى أهلهم) اى منازلهم التى هى عامرة بجماعتهم وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وأبو عمرو بكسر الهاء والباقون بكسر الهاء وضم الميم (انقلبوا) حالة كونهم (فاكهين) اى متلذذين بما كان من مكنتهم ورفعتهم التى أوصلتهم الى الاستهزاء بغيرهم قال ابن برجان روى عنه عليه الصلاة والسلام ان الدين بدا غريبا وسيعود

غريبا كما بدا يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر وفي اخرى يكون المؤمن فيهم اذل من الامة وفي اخرى العالم فيهم انتن من جيفة حمار فالله المستعان وقرأ حفص بغير الف بين الفاء والكاف والباقون بالالف قيل هما بمعنى وقيل فكهين فرحين وفاكهين ناعمين وقيل فاكهين أصحاب فاكهة ومزاح (واذا رأوهم) اى رأى المجرمون المؤمنين (قالوا) اى المجرمون (ان هؤلاء) اى المؤمنين (لضالون) اى لايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم يرون أنهم على شئ وهم على ضلال في تركهم التنعيم الحاضر بسبب شئ لايدرى هل له وجود ام لا قال الله تعالى (وما) اى والحال أنهم ما (ارسلوا) اى الكفار (عليهم) اى على المؤمنين (حافظين) اى موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم بهم وقيل هو من جملة قول الكفار وانهم اذا رأوا المسلمين قالوا ان هؤلاء لضالون وانهم لم يرسلوا عليهم حافظين انكارا لصدهم اياهم عن الشرك ودعائهم الى الاسلام وجدهم في ذلك وقوله تعالى (فاليوم) منصوب بيضحكون ولا يضر تقديمه على المبتدا لانه لو تقدم العامل هنا لجاز اذ لا لبس بخلاف زيد قام في الدار لا يجوز في الدار زيد قام ومعنى فاليوم أى في الآخرة (الذين آمنوا) ولو كانوا في أدنى درجات الايمان (من الكفار يضحكون) وفي سبب هذا الضحك وجوه منها أن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر والبؤس وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفه ومنها أنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شئ وأنهم باعوا الباقي بالفاني ومنها أنهم يرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الابد ومنها قال أبو صالح يقال لاهل النار وهم فيها اخرجوا وتفتح لهم أبوابها فاذا رأوها وقد فتحت أبوابها أقبلوا اليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون اليهم فاذا انتهوا الى أبوابها غلقت دونهم يفعل ذلك بهم مرارا فذلك سبب الضحك ومنها أنهم اذا دخلوا الجنة وأجلسوا على الارائك ينظرون الى الكفار كما قال تعالى (على الارائك) أى الاسرة العالية (ينظرون) اليهم كيف يعذبون في النار ويرفعون أصواتهم بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضا * (تنبيه) * ينظرون حال من يضحكون أى يضحكون ناظرين اليهم والى ما هم فيه من الهوان وقال كعب بين الجنة والنار كوى اذا أراد المؤمن أن ينظر الى عدو له كان في الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى كما قال تعالى فاطلع فرآه في سواء الجحيم فاذا اطلعوا من الجنة على أعدائهم وهم يعذبون في النار ضحكوا قال الله تعالى (هل ثوب الكفار) أى هل جوزوا (ما كانوا يفعلون) أى جزاء استهزائهم بالمؤمنين ومعنى الاستفهام ههنا التقرير وثوبه وأثابه بمعنى واحد اذا جازاه قال أوس

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب * وحسبك ان يثنى عليك وتحمدى

وقرأ الكسائي وهشام بادغام اللام في الثاء والباقون بالاظهار وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المطففين سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم يوم القيامة حديث موضوع

(سورة الانشقاق مكية)

وهى ثلاث أو خمس وعشرون آية ومائة وسبع كلمات وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى شقق الارض بالنبات (الرحمن) الذى عم جوده أهل الارض والسموات (الرحيم) الذى خص أهل طاعته بالجنات وقوله تعالى (اذا السماء) أى على مالها من الاحكام والعظمة (انشقت) كقوله تعالى اذا الشمس كورت فى اضمار الفعل وعدمه وفى اذا هذه احتمالان أحدهما أن تكون شرطية والثانى أن تكون غير شرطية فعلى الاول فى جوابها أوجه أحدها أنه محذوف ليذهب المقدر كل مذهب أو اكتفاء بما علم فى مثلها من سورتى التكوير والانفطار وهو قوله تعالى علمت نفس الثانى جوابها مادل عليه فملاقيه الثالث أنه يا أيها الانسان على حذف الفاء وعلى كونها غير شرطية فهى مبتدأ وخبرها اذا الثانية والواو مزيدة تقديره وقت انشقاق السماء وقت مد الارض أى يقع الامران فى وقت قاله الاخفش وقيل انه منصوب مفعولا به باضمار اذكر وانشقاقها بالغمام وهو من علامات القيامة كقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام وعن على تنشق من المجرة قال ابن الاثير المجرة هى البياض المعترض فى السماء والسراب من جانبها (وأذنت) أى سمعت وأطاعت فى الانشقاق (لربها) أى لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذى ورد عليه الامر من جهة المطاع فأنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع كقوله أتينا طائعين (وحقت) أى حق لها أن تسمع وتطيع بأن تنقاد ولا تمتنع يقال حق بكذا فهو محقوق وحقيق (واذا الارض) أى على مالها من الصلابة (مدت) أى زيد فى سعتها كمد الاديم ولم يبق عليها بناء ولا جبل كما قال تعالى فاعاها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا وعن ابن عباس مدت مد الاديم العكاظى لان الاديم اذا مد زال كل انثناء فيه وأمت واستوى (وألقت) أى أخرجت (مافيها) من الكنوز والموتى كقوله تعالى وأخرجت الارض أثقالها (وتخلت) أى خلت منها حتى لم يبق فى بطنها شئ وذلك يؤذن بعظم الامر كما تلقى الحامل مافى بطنها عند الشدة ووصفت الارض بذلك توسعا والا فالتحقيق أن الله تعالى هو المخرج لتلك الاشياء من الارض وقوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) تقدم تفسيره وهذا ليس بتكرار لان الاول فى السماء وهذا فى الارض وتقدم جواب اذا ومن جملة ماقيل فيه وما عطف عليه أنه محذوف دل عليه مابعده تقديره لقى الانسان عمله وذلك كله يوم القيامة * واختلف فى الانسان فى قوله تعالى (يا أيها الانسان) أى الآنس بنفسه الناسى لامر ربه (انك كادح) فقيل المراد جنس الانسان كقولك يا أيها الرجل فكأنه خطاب خص به أحد من الناس قال القفال وهو أبلغ من العموم لانه قائم مقام التنصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين بخلاف اللفظ العام وقيل المراد منه رجل بعينه فقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى انك كادح فى ابلاغ رسالات الله تعالى وارشاد عباده وتحمل الضرر من الكفار فابشر فانك تلقى الله تعالى بهذا العمل وقال

ابن عباس هو أبي بن خلف وكدحه هو جده واجتهاده فى طلب الدنيا وايذاء النبى صلى الله عليه وسلم والاصرار على الكفر والكدح جهد النفس فى العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها من كدح جلده اذا خدشه ومعنى كادح (الى ربك) أى جاهد الى لقائه وهو الموت اى هذا الكدح يستمر الى هذا الزمن وقال القفال تقديره انك كادح فى دنياك (كدحا) تصير الى ربك وقوله تعالى (فملاقيه) يجوز أن يكون عطفا على كادح والسبب فيه ظاهر وأن يكون خبر مبتدا مضمر أى فأنت ملاقيه وقيل جواب اذا والضمير فى ملاقيه اما للرب اى ملاقى حكمه لامفر لك منه واما للكدح الا أن الكدح عمل وهو غرض لايبقى فلاقاته ممتنعة فالمراد جزاء كدحك من خير أو شر وقال الرازى المراد ملاقاة الكتاب الذى فيه بيان تلك الاعمال ويؤكد هذا قوله تعالى بعده (فأما من أوتى كتابه) اى كتاب عمله الذى كتبته الملائكة (بيمينه) أى من أمامه وهو المؤمن المطيع (فسوف يحاسب) أى يقع حسابه بوعد لاخلف فيه وان طال الامد لاظهار الجبروت والكبرياء والقهر (حسابا يسيرا) هو عرض عمله عليه كما فسر فى حديث الصحيحين وفيه من نوقش الحساب هلك وفى رواية من حوسب عذب قالت عائشة اليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب حسابا يسيرا فقال انما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب وانما حوسب حسابا سهلا لانه كان يحاسب نفسه فلا تقع له المخالفة الا ذهولا فلاجل ذلك تعرض أعماله فيقبل حسنها ويعفى عن سيئها (وينقلب) أى يرجع بنفسه من غير مزعج برغبة وقبول (الى أهله) أى الذين أهله بهم فى الجنة من الحور العين والآدميات والذريات اذا كانوا مؤمنين (مسرورا) أى قد أوتى جنة وحريرا فانه كان فى الدنيا فى أهله مشفقا من العرض على الله يحاسب نفسه حسابا عسيرا مع ماهو فيه من نكد الاهل وضيق العيش (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره) وهو الكافر تغل يمناه الى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه (فسوف يدعو) أى بوعد لاخلف فى وقوعه (ثبورا) يقول ياثبوراه والثبور الهلاك كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا (ويصلى سعيرا) أى يدخل النار الشديدة وقرأ أبو عمرو وعاصم بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام والباقون بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين واذا فخم ورش غلظ اللام واذا أمال رقق والباقون بالفتح (انه كان) أى بما هو له كالجبلة (فى أهله) أى عشيرته فى الدنيا (مسرورا) قال القفال أى منعما مستريحا من التعب بأداء العبادات واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة والجهاد مقدما على المعاصى آمنا من الحساب والثواب والعقاب لايخاف الله تعالى ولايرجوه فأبدله الله تعالى بذلك السرور غما باقيا لاينقطع وقيل ان قوله تعالى انه كان فى أهله مسرورا كقوله تعالى واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فاكهين أى متنعمين فى الدنيا معجبين بما هم عليه من الكفر بالله تعالى والتكذيب بالبعث يضحكون ممن آمن بالله تعالى وصدق بالحساب كما قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (انه ظن) أى لضعف نظره (أن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى أنه (لن يحور) أى لن يرجع الى الله تعالى

تكذيبا بالمعاد يقال لا يحور ولا يحول أى لا يرجع ولا يتغير قال لبيد

وما المرء الا كالشهاب وضوئه * يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

وعن ابن عباس ما كنت أدرى ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها حورى أى ارجعى وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد النفى فى لن يحور أى بلى ليحورن (ان ربه) أى الذى ابتدأ انشاءه ورباه (كان) اى أزلا وأبدا (به بصيرا) أى من يوم خلقه الى يوم بعثه أو باعماله لا ينساها وقال عطاء بصيرا بما سبق عليه فى أم الكتاب من الشقاوة * واختلفوا فى الشفق فى قوله تعالى (فلا أقسم بالشفق) فقال مجاهد هو النهار كله وقال عكرمة ما بقى من النهار وقال ابن عباس وأكثر المفسرين هو الحمرة التى تبقى فى الافق بعد غروب الشمس وقال قوم هو البياض الذى يعقب تلك الحمرة * (تنبيه) * سمى بذلك لرقته ومنه الشفقة على الانسان رقة القلب عليه واللام فى لا أقسم مزيدة للتأكيد (والليل) أى الذى يغلبه ويذهبه (وما وسق) أى ما جمع وضم يقال وسقه فاتسق واستوسق قال الشاعر * مستوسقات لو يجدن سائقا * ونظيره فى وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع ومعناه وما جمعه وستره وآوى اليه من الدواب وغيرها (والقمر) أى الذى هو آيته (اذا اتسق) أى اذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة وقال قتادة استدار وهو افتعل من الوسق * (تنبيه) * قد اختلف العلماء فى القسم بهذه الاشياء هل هو قسم بها أو بخالقها فذهب المتكلمون الى أن القسم واقع بربها وان كان محذوفا لان ذلك معلوم من حيث ورود الحظر بأن يقسم بغير الله تعالى أو بصفة من صفاته وقدمر أن ذلك يكره فى حق الانسان فان الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وجواب القسم (لتركبن) أى أيها الناس أصله لتركبونن حذفت نون الرفع لتوالى الامثال والواو لالتقاء الساكنين وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بفتح الباء الموحدة على خطاب الانسان والباقون بضمها على خطاب الجمع وهو معنى الانسان اذ المراد به الجنس أى لتركبن أيها الانسان (طبقا) مجاوزا (عن طبق) أى حالا بعد حال قال عكرمة رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ وعن ابن عباس الموت ثم البعث ثم العرض وعن عطاء مرة فقيرا ومرة غنيا وقال أبو عبيدة لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم لما روى انه صلى الله عليه وسلم قال لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وقوله تعالى (فما لهم) أى الكفار (لا يؤمنون) استفهام انكار أى أى مانع لهم من الايمان أو أى حجة لهم فى تركه بعد وجود براهينه (و) ما لهم (اذا قرئ) أى من أى قارئ قراءة مشروعة (عليهم القرآن) أى الجامع لكل ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم الفارق بين كل ملتبس (لا يسجدون) أى لا يخضعون بأن يؤمنوا به لاعجازه أو لا يصلون قاله مقاتل أو لا يسجدون لتلاوته لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ واسجد واقترب فسجد ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق رؤسهم فنزلت وعن أبى هريرة أنه قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقرأ باسم ربك واذا السماء انشقت وعن نافع قال صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ

اذا السماء انشقت فسجد فقلت ماهذه قال سجدت بها خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه وليس فى ذلك دلالة على وجوبها فهى مندوبة وعن الحسن هى واجبة واحتج أبو حنيفة على وجوب السجود بأنه تعالى ذم من سمعه ولم يسجد وعن ابن عباس ليس فى المفصل سجدة وماروى عن أبى هريرة يخالفه وعن أنس صليت خلف أبى بكر وعمر وعثمان فسجدوا (بل الذين كفروا يكذبون) أى بالقرآن والبعث (والله أعلم بما يوعون) أى بما يجمعون فى صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغى والبغضاء أو بما يجمعون فى صحفهم من الكفر والتكذيب وأعمال السوء ويدخرون لانفسهم من أنواع العذاب وقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) أى مؤلم استهزاء بهم أو ان البشارة بمعنى الاخبار أى أخبرهم وقوله تعالى (الا) استثناء منقطع أى لكن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (لهم أجر غير ممنون) أى غير مقطوع ولا منقوص ولا ممنون به عليهم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ اذا السماء انشقت أعاذه الله تعالى ان يعطيه كتابه وراء ظهره حديث موضوع

(سورة البروج مكية)

وهى اثنتان وعشرون آية ومائة وتسع كلمات وأربعمائة وثمانية وخمسون حرفا

(بسم الله) الذى أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذى عم جوده سائر المخلوقات (الرحيم) الذى خص أهل السعادة بالجنات وقوله تعالى (والسماء) أى العالية غاية العلو المحكمة غاية الاحكام (ذات البروج) قسم أقسم الله تعالى به وتقدم الكلام على ذلك مرارا وفى البروج أقوال فقال مجاهد هى البروج الاثنا عشر شبهت بالقصور لانها تنزلها السيارات وقال الحسن هى النجوم وقيل هى منازل القمر وقال عكرمة هى قصور فى السماء وقيل عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها وقيل أبواب السماء وقوله تعالى (واليوم الموعود) قسم آخر وهو يوم القيامة قال ابن عباس وعد أهل السماء وأهل الارض أن يجتمعوا فيه واختلفوا فى قوله سبحانه وتعالى (وشاهد ومشهود) فقال أبو هريرة وابن عباس الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وروى مرفوعا اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة خرجه الترمذى فى جامعه قال القشيرى فيوم الجمعة يشهد على عامل بما عمل فيه قال القرطبى وكذا سائر الايام والليالى لما روى أبو نعيم الحافظ عن معاوية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليس من يوم يأتى على العبد الا ينادى فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك شاهد فاعمل فى خيرا أشهد لك به غدا فانى اذا مضيت لم ترنى أبدا ويقول الليل مثل ذلك حديث غريب وحكى القشيرى عن عمر أن الشاهد يوم الاضحى وقال ابن المسيب الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة وروى عن على الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر وقال مقاتل أعضاء الانسان هى الشاهد لقوله تعالى يوم تشهد عليهم

ألستم الآية وقال الحسين بن الفضل الشاهد هذه الامة والمشهود سائر الامم لقوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا الآية وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى انا أرسلناك شاهدا وقيل آدم وقيل الحفظة الشاهد والمشهود أولاد آدم وقيل غير ذلك وكل ذلك صحيح * واختلف في جواب القسم فقال الجلال المحلي جواب القسم محذوف صدره أى لقد (قتل) أى لعن (أصحاب الاخدود) وقال الزمخشري محذوف ويدل عليه قوله قتل أصحاب الاخدود وكانه قيل أقسم بهذه الاشياء أنهم ملعونون يعنى كفار قريش كما لعن أصحاب الاخدود فان السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم واستظهر هذا البيضاوى والاخدود هو الشق المستطيل فى الارض كالنهر وجمعه أخاديد واختلف فيهم فعن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك انى قد كبرت فابعث الى غلاما أعلمه السحر فبعث اليه غلاما وكان فى طريقه اذا سلك اليه راهب فقعد اليه وسمع كلامه فأعجبه فكان اذا أتى الساحر مر بالراهب فقعد اليه فاذا أتى الساحر ضربه واذا رجع من عند الساحر قعد الى الراهب وسمع كلامه فاذا أتى أهله ضربوه فشكا الى الراهب فقال اذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى واذا خشيت اهلك فقل حبسنى الساحر فبينما هو كذلك اذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر فأخذ حجرا ثم قال اللهم ان كان أمر الراهب أحب اليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى تمضى الناس فرماها فقتلها فمضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أى بنى انت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى وانك ستبتلى فان ابتليت فلا تدل على فكان الغلام يبرئ الاكمه والابرص ويداوى الناس من سائر الادواء فسمع جليس الملك وكان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال هذا لك أجمع ان أنت شفيتنى فقال انى لا أشفى أحدا انما يشفى الله فان آمنت به دعوت الله تعالى فشفاك فآمن بالله فشفاه الله تعالى فأتى الملك فجلس اليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك قال ربى قال ربك رب غيرى قال ربى وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الاكمه والابرص وتفعل وتفعل قال انى لا أشفى أحدا انما يشفى الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقال ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى ففعل به كالراهب ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعه الى نفر من أصحابه وقال اذهبوا به الى جبل كذا فاصعدوا به فاذا بلغتم ذروته فان رجع عن دينه والا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى الى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله فدفعه الى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه فى قرقور وتوسطوا به البحر فان رجع عن دينه والا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت السفينة بهم فغرقوا وجاء يمشى

الى

الى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله تعالى فقال للملك انك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك قال وما هو قال تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس وقل بسم الله رب الغلام ثم ارمنى فانك اذا فعلت ذلك قتلتنى فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ووضع السهم فى كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ثلاثا فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس فأمر بالاخدود بأفواه السكك فخدت واضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له اقتحم قال ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبى لها فتقاعست ان تقع فيها فقال الصبى يا أماه اصبرى فانك على الحق فاقتحمت قال البغوى هذا حديث صحيح وقيل ان الصبى قال لها قعى ولا تقاعسى وقيل ماهى الاغميضة فصبرت وذكر محمد بن اسحق عن وهب بن منبه أن رجلا كان قد بقى على دين عيسى فوقع على نجران فأجابوه فسار اليه ذو نواس اليهودى بجنود من حمير وخيرهم بين النار واليهودية فأبوا عليه فخد الاخاديد وأحرق اثنى عشر ألفا فى الاخاديد وقيل سبعين ألفا ثم غلب ارياط على اليمن فخرج ذو نواس هاربا واقتحم البحر بفرسه فغرق قال الكلبى وذو نواس قتل عبد الله بن التامر رضى الله عنه وقال محمد بن اسحق عن عبد الله بن أبى بكر ان خربة احترقت فى زمن عمر فوجدوا عبد الله بن التامر واضعا يده على ضربة فى رأسه اذا اميطت يده عنها انبعث دما واذا تركت ارتدت مكانها وفى يده خاتم من حديد فيه ربى الله فبلغ ذلك عمر فكتب ان أعيدوا عليه الذى وجدتم عليه * وعن ابن عباس قال كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل فى الفترة قبل أن يولد النبى صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة وكان فى بلاده غلام يقال له عبد الله بن تامر وكان أبوه سلمه الى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بدا من طاعة أبيه فجعل يختلف الى المعلم وكان فى طريقه راهب حسن الصوت فأعجبه ذلك وذكر قريبا من معنى حديث صهيب الى ان قال الغلام للملك انك لا تقدر على قتلى الا أن تفعل ما أقول قال فكيف اقتلك قال تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فترمينى بسهم على اسم الهى ففعل الملك فقتله فقال الناس لا اله الا اله عبد الله بن التامر لا دين الا دينه فغضب الملك وأغلق باب المدينة واخذ أفواه السكك واخذ أخدودا وملأه نارا ثم عرضهم رجلا رجلا فمن رجع عن الاسلام تركه ومن قال دينى دين عبد الله بن تامر ألقاه فى الاخدود وأحرقه وكان فى مملكته امرأة فأسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع فقال لها الملك ارجعى عن دينك والا ألقيتك وأولادك فى النار فأبت فأخذ ابنها الاكبر فألقاه فى النار ثم قال لها ارجعى فأبت فأخذوا الصبى منها ليلقوه فى النار فهمت المرأة بالرجوع فقال لها الصبى يا أماه لا ترجعى عن الاسلام فانك على الحق ولا بأس عليك فألقى الصبى فى النار وألقيت أمه على اثره * وعن على أنهم حين اختلفوا فى أحكام المجوس قال هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم

فتناولها بعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج ان تخطب الناس فتقول يا أيها الناس ان الله تعالى أحل لكم نكاح الاخوات ثم تخطبهم بعد ذلك أن الله تعالى حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت ابسط فيهم السوط فلم يقبلوا فأمرت بالاخاديد وايقاد النيران وطرح من أبى فيها فهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله قتل أصحاب الاخدود وعن مقاتل كانت الاخاديد ثلاثة واحدة بنجران باليمن وأخرى بالشأم وأخرى بفارس حرقوا بالنار أما التى بالشأم فهو ابطاموس الرومى وأما التى بفارس فبختنصر وأما التى بأرض العرب فهو يوسف ذونواس فأما التى بفارس والشأم فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآنا وأنزل فى التى كانت بنجران وذلك ان رجلا مسلما ممن يقرأ الانجيل أجر نفسه فى عمل وجعل يقرأ الانجيل فرأت بنت المستأجر النور يضىء من قراءة الانجيل فذكرت ذلك لابيها فرمقه فرآه فسأله فلم يخبره فلم يزل به حتى أخبره بالدين والاسلام فتابعه هو وسبعة وثمانون انسانا ما بين رجل وامرأة وهذا بعد ما رفع عيسى عليه السلام الى السماء فسمع ذلك يوسف ذونواس فخدلهم فى الارض وأوقد فيها فعرضهم على الكفر فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار ومن رجع عن دين عيسى لم يقذفه وأن امرأة جاءت ومعها ولد صغير لا يتكلم فلما قامت على شفير الخندق نظرت الى ابنها فرجعت عن النار فضربت حتى تقدمت فلم تزل كذلك ثلاث مرات فلما كانت فى الثالثة ذهبت ترجع فقال لها ابنها يا أماه انى أرى أمامك نارا لا تطفأ فلما سمعت ذلك قذفا جميعا أنفسهما فى النار فجعلها الله وابنها فى الجنة فقذف فى النار فى يوم واحد سبعة وسبعون انسانا فذلك قوله تعالى قتل أصحاب الاخدود وقوله تعالى (النار) بدل اشتمال من الاخدود وقوله تعالى (ذات الوقود) وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وابدان الناس واللام فى الوقود للجنس وقوله تعالى (اذ هم عليها قعود) ظرف لقتل أى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها ومعنى عليها على ما يدنو منها من حافات الاخدود كقوله

وبات على النار الندى والمحلق * وكما تقول مررت عليه تريد مستعليا المكان الذى يدنو منه

فكانوا يقعدون حولها على الكراسى وقال القرطبى عليها (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين) بالله من تعذيبهم بالالقاء فى النار ان لم يرجعوا عن ايمانهم (شهود) أى يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به أو شهود بمعنى حضور اذ روى ان الله تعالى أنجى المؤمنين الملقين فى النار بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار الى القاعدين فأحرقتهم قال الرازى يمكن أن يكون المراد بأصحاب الاخدود القاتلين ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين والمشهور أن المقتولين هم المؤمنون وروى ان المقتولين هم الجبابرة روى انهم لما ألقوا المؤمنين فى النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين والى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواحدى وتأولوا قوله تعالى فلهم عذاب جهنم أى فى الآخرة ولهم عذاب الحريق أى فى الدنيا فان فسر أصحاب الاخدود بالقاتلين فيكون قوله تعالى قتل أصحاب الاخدود دعاء عليهم كقوله تعالى قتل الانسان ما أكفره وان فسر بالمقتولين كان المعنى

ان المؤمنين قتلوا بالنار فيكون ذلك خبرا لا دعاء والمقصود من هذه الآية تثبيت قلوب المؤمنين واخبارهم بما كان يلقاه من قبلهم من الشدائد وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من أذى الكفار ليتأسوا بهذا الغلام في صبره على الأذى والصلب وبذل نفسه في اظهار دعوته ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وكذلك صبر الراهب على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار وكذلك أكثر الناس لما آمنوا بالله تعالى (وما نقموا) أي وما انكروا وكرهوا (منهم) من الخلات وكان ذنبا ونقصا (الا أن يؤمنوا) أي يجددوا الايمان مستمرين عليه (بالله) أي الذي له الكمال كله (العزيز) في ملكه الذي يغلب من أراد ولا يغلبه شئ (الحميد) أي المحيط بجميع صفات الكمال فهو يثيب من أطاعه أعظم ثواب وينتقم ممن عصاه بأشد العذاب وهذا استثناء على طريقة قول القائل

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

أي من ضرابها والكتائب بالتاء المثناة جمع كتيبة وهي الجيش وقال ابن الرقيات

ما نقموا من بني أمية الا أنهم يحلمون ان غضبوا

ونظيره قوله تعالى هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله * ولما ذكر تعالى الاوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد وهو كونه عزيزا غالبا قادرا يخشى عقابه حميدا منعما يجب الحمد على نعمه ويرجى ثوابه قرر ذلك بقوله تعالى (الذي له) أي خاصة (ملك السموات والارض) أي على جهة العموم مطلقا فكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له تقريرا لان ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه الا مبطل منهمك في الغي وان الناقمين أهل لانتقام الله تعالى منهم بعذاب لا يعدله عذاب (والله) الملك الاعظم الذي له الاحاطة الكاملة (على كل شئ شهيد) فلا يغيب عنه شئ وهذا لان الله علم ما فعلوا وهو مجازيهم عليه * ولما ذكر قصة أصحاب الاخدود أتبعها ما يتفرع من أحكام الثواب والعقاب فقال تعالى (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) أي أحرقوهم بالنار يقال فتنت الشئ اذا أحرقته والعرب تقول فتن فلان الدرهم والدينار اذا أدخله الكور لينظر جودته ونظيره يوم هم على النار يفتنون قال الرازي ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك قال وهذا أولى لان اللفظ عام والحكم عام والتخصيص ترك للظاهر من غير دليل * ولما كانت التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان عبر سبحانه بأداة التراخي فقال تعالى (ثم لم يتوبوا) أي عن كفرهم وعما فعلوا (فلهم عذاب جهنم) أي بكفرهم (ولهم عذاب الحريق) أي عذاب احراقهم المؤمنين في الآخرة وقيل في الدنيا بأن خرجت النار فأحرقتهم كما تقدم ومفهوم الآية أنهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد وذلك يدل على أن الله تعالى يقبل التوبة من القاتل المتعمد خلاف ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما * ولما ذكر سبحانه وعيد المجرمين ذكر ما أعد للمؤمنين بقوله تعالى (ان الذين آمنوا) أي أقروا بالايمان من المقذوفين في النار وغيرهم من كل طائفة في كل زمان (وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (لهم جنات) أي بساتين تفضلا منه تعالى (تجري من تحتها) أي تحت غرفها وأسرتها وجميع أماكنها (الانهار) يتلذذون ببردها

فى نظير ذلك الحر الذى صبروا عليه فى الدنيا ويزول عنهم برؤية ذلك مع خضرة الجنان جميع المضار والاحزان (ذلك) أى الامر العالى الدرجة العظيم البركة (الفوز) أى الظفر بجميع المطالب (الكبير) وهو رضا الله تعالى لادخول الجنة وقال تعالى ذلك الفوز ولم يقل تلك لان ذلك اشارة الى اخبار الله تعالى بحصول الجنان وتلك اشارة الى الجنة الواحدة واخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضيا (ان بطش ربك) أى أخذ المحسن اليك المربى لك المدبر لامرك الجبابرة والظلمة (لشديد) كقوله تعالى وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد قال المبرد ان بطش ربك جواب القسم والبطش هو الاخذ بعنف فاذا وصف بالشدة فقد تضاعف * ولما كان هذا البطش لا يأتى الا لكامل القدرة دل على كمال قدرته واختصاصه بذلك بقوله تعالى مؤكدا لما له من الانكار (انه هو) أى وحده (يبدئ) أى يوجد ابتداء أى خلق أراد الى أى هيئة أراد (ويعيد) أى ذلك المخلوق عند البعث وروى عكرمة قال عجب الكفار من أحياء الله تعالى الاموات أى فنزلت وقال ابن عباس رضى الله عنهما يبدئ لهم عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة وهذا اختيار الطبرى وقيل يبدئ البطش ويعيده فيبطش بهم فى الدنيا والآخرة أودل باقتداره على الابداء والاعادة على شدة بطشه أو أوعد الكفرة بأن يعيدهم كما بدأهم ليبطش بهم اذ لم يشكروا نعمة الابداء وكذبوا بالاعادة (وهو) أى وحده (الغفور) أى الستور لعباده المؤمنين وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها وقوله تعالى (الودود) مبالغة فى الود قال ابن عباس رضى الله عنهما هو المتودد لعباده بالمغفرة وعن المبرد هو الذى لا ولد له وأنشد

وأركب فى الروع عريانة * ذلول الجماع لقاحا ودودا

أى لا ولد لها تحن اليه وقيل هو فعول بمعنى مفعول كالركوب والحلوب بمعنى المركوب والمحلوب وقيل يغفر ويود أن يغفر (ذو العرش) أى خالقه ومالكه أى ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه وان لم يكن على سرير ويقال ثل عرشه أى ذهب سلطانه أو السرير الدال على اختصاص الملك بالملك وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة الذى به قوام الامور وقرأ (المجيد) حمزة والكسائى بجر الدال على انه نعت للعرش أو لربك فى قوله تعالى ان بطش ربك قال مكى وقيل لا يجوز أن يكون نعتا للعرش لانه من صفات الله تعالى اه وهذا ممنوع لان مجد العرش علوه وعظمه كما قاله الزمخشرى وقد وصف العرش بالكريم فى آخر المؤمنين وقرأ الباقون برفع الدال على أنه خبر بعد خبر وقيل هو نعت لذو واستدل بعضهم على تعدد الخبر بهذه الآية ومن منع قال لانها فى معنى خبر واحد أى جامع بين هذه الاوصاف الشريفة أو كل منها خبر لمبتدا مضمر والمجد هو النهاية فى الكرم والفضل والله سبحانه موصوف بذلك وتقدم وصف عرشه بذلك (فعال) أى على سبيل التكرار والمبالغة (لما يريد) قال القفال أى يفعل ما يريد على ما يراه لا يعترض عليه أحد ولا يغلبه غالب فيدخل أولياءه الجنة لا يمنعه مانع ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر ويمهل العصاة على ما يشاء الى أن يجازيهم ويعاجل بعضهم بالعقوبة اذا شاء

فهو يفعل ما يريد وعن أبي السفر دخل ناس من الصحابة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه يعودونه فقالوا ألا نأتيك بطبيب قال قد رآني قالوا فماذا قال لك قال قال اني فعال لما أريد وقال الزمخشري فعال خبر مبتدأ محذوف وانما قال فعال لان ما يريد ويفعل في غاية الكثرة وقال الطبري رفع فعال وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لاعراب الغفور الودود * (تنبيه) * دلت هذه الآية أن جميع أفعال العباد مخلوقة لله تعالى قال بعضهم ودلت على ان الله تعالى لا يجب عليه شيء لانها دالة على أنه يفعل ما يريد (هل) أي قد (أتاك) أي يا أشرف الرسل (حديث) أي خبر (الجنود) أي الجموع الكافرة المكذبة لانبيائهم وقوله تعالى (فرعون وثمود) يجوز أن يكون بدلا من الجنود واستشكل كونه بدلا لانه لم يكن مطابقا للمبدل منه في الجمعية وأجيب بأنه على حذف مضاف أي جنود فرعون وأن المراد فرعون وقومه واستغنى بذكره عن ذكرهم لانهم أتباعه ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أعني لانه لما لم يطابق ما قبله وجب قطعه والمعنى انك قد عرفت ما فعل الله تعالى بهم حين كذبوا رسلهم كيف هلكوا بكفرهم فقومك ان لم يؤمنوا بك فعل بهم كما فعل بهؤلاء فاصبر كما صبر الانبياء قبلك على أممهم (بل الذين كفروا) أي من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك (في تكذيب) لك لا يرعوون عنه ومعنى الاضراب أن حالهم أعجب من حال هؤلاء فانهم سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم وكذبوا أشد من تكذيبهم وانما خص فرعون وثمود لان ثمود في بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة وان كانوا من المتقدمين وأمر فرعون كان مشهورا عند أهل الكتاب وغيرهم وكان من المتأخرين في الهلاك فدل بهما على أمثالهما وقوله تعالى (والله) أي والحال ان الملك الذي له الكمال كله (من ورائهم محيط) وفيه وجوه أحدها أن المراد وصف اقتداره عليهم وأنهم في قبضته وحصره كالمحاط اذا أحيط به من ورائه ينسد عليه مسلكه فلا يجد مهربا يقول الله تعالى فهم كذا في قبضتي وأنا قادر على اهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم اياك فلا تجزع من تكذيبهم اياك فليسوا يفوتونني اذا أردت الانتقام منهم ثانيها أن يكون المراد من هذه الاحاطة قرب اهلاكهم كقوله تعالى وظنوا أنهم أحيط بهم فهو عبارة عن مشارفة الهلاك ثالثها انه تعالى محيط بأعمالهم أي عالم بها فيجازيهم عليها (بل هو) أي هذا القرآن الذي كذبوا به وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (قرآن) أي جامع لكل منفعة جليلة بالغ الذروة العليا في كل شرف (مجيد) أي شريف وحيد في اللفظ والمعنى وليس كما زعم المشركون انه شعر وكهانة (في لوح) هو في الهواء فوق السماء السابعة وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال ان في صدر اللوح لا اله الا الله وحده دينه الاسلام ومحمد عبده ورسوله فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة قال واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والارض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه نور وكلامه نور معقود بالعرش وأصله في حجر ملك وقرأ (محفوظ) بالرفع نافع على انه نعت القرآن والباقون بالجر على انه نعت للوح وقال مقاتل اللوح المحفوظ عن يمين العرش وقال البغوي وهو أم الكتاب ومنه تنسخ الكتب محفوظ من الشياطين ومن الزيادة فيه

والنقصان وقول البيضاوي تبعا للزمخشري انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في الدنيا عشر حسنات حديث موضوع

(سورة الطارق مكية)

وهي سبع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان واحدى وسبعون حرفا

(بسم الله) مالك الخلق أجمعين (الرحمن) الذي عم جوده المؤمنين والكافرين (الرحيم) الذي وخص رحمته بعباده المؤمنين وقوله تعالى (والسماء والطارق) قسم أقسم الله تعالى به وقد أكثر الله تعالى في كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر لان أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة * ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمه أولا ثم عظم القسم به بقوله تعالى (وما أدراك) أي أعلمك يا أشرف خلقنا وان حاولت معرفة ذلك وبالغت في الفحص عنه (ما الطارق) وهذا مبتدأ وخبر في محل المفعول الثاني لأدرى وما بعد ما الاولى خبرها وفيه تعظيم لشأن الطارق وأصله كل آت ليلا ومنه النجوم لطلوعها ليلا وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة وابن ذكوان بخلاف عنه بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح ثم فسر الطارق بقوله تعالى (النجم الثاقب) أي المضيء لثقبه الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل دري لانه يدرؤه أي يدفعه والمراد جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها وقال محمد بن الحسين هو زحل وقال ابن زيد هو الثريا وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو الجدي وقال علي هو نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم فاذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع الى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وحين يرجع وفي الصحاح الطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح قال الماوردي وأصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وسمي النجم طارقا لانه يطرق الجني أي يقتله روي أن أبا طالب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل اذ انحط نجم فامتلأت الارض نورا ففزع أبو طالب وقال أي شيء هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا نجم رمي به وانه آية من آيات الله تعالى فعجب أبو طالب فنزلت السورة وقال مجاهد الثاقب المتوهج وجواب القسم (ان كل نفس) أي من الانفس مطلقا لاسيما نفوس الناس (لما عليها) أي بخصوصها (حافظ) وقرأ ابن عامر وعاصم بتشديد الميم والباقون بتخفيفها فعلى تخفيفها ما تكون مزيدة وان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انه واللام فارقة وعلى تشديدها فان نافية * ولما بمعنى الا والحافظ هو المهيمن الرقيب وهو الله تعالى وكان الله على كل شيء رقيبا وكان الله على كل شيء مقيتا أو ملك يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خير وشر وروى الزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه كما يذب أحدكم عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين اختطفته الشياطين * ولما ذكر تعالى أن على كل نفس حافظا أتبعه بوصية الانسان بالنظر في حاله فقال تعالى (فلينظر الانسان) أي الآنس بنفسه الناظر في عطفه نظر اعتبار في أمره ونشأته

الاولى حتى يعلم أن من أنشأه قادر على اعادته فيعمل ليوم الاعادة والجزاء ولايملى على حافظه الامايسره فى عاقبته وقوله تعالى (مم خلق) استفهام أى من أى شئ وجوابه (خلق) أى الانسان على أيسر وجه وأسهله بعد خلق أبيه آدم عليه السلام من تراب وأمه حواء رضى الله تعالى عنها من ضلعه (من ماء دافق) أى مدفوق فاعل بمعنى مفعول كقوله تعالى عيشة راضية أو دافق على النسب أى ذى دفق أو اندفاق وقال ابن عطية يصح أن يكون الماء دافقا لان بعضه يدفق بعضا أى يدفعه فمنه دافق ومنه مدفوق والدفق الصب أى مصبوب فى الرحم ولم يقل تعالى من ماءين فانه من ماء الرجل وماء المرأة لان الولد مخلوق منهما لامتزاجهما فى الرحم فصارا كالماء الواحد واتحادهما حين ابتدئ فى خلقه (يخرج من بين الصلب) أى للرجل وهو عظام الظهر (والترائب) أى للمرأة جمع تريبة وهى عظام الصدر حيث تكون القلادة وعن عكرمة الترائب مابين ثدييها وقيل الترائب التراقى وقيل أضلاع الرجل التى أسفل الصدر وحكى الزجاج أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من يسرة الصدر وقال ابن عادل جاء فى الحديث أن الولد يخلق من ماء الرجل يخرج من صلبه العظم والعصب ومن ماء المرأة يخرج من ترائبها اللحم والدم وحكى القرطبى أن ماء الرجل ينزل من الدماغ ثم يجتمع فى الانثيين وهذا لايعارضه قوله تعالى من بين الصلب والترائب لانه ينزل من الدماغ الى الصلب ثم يجتمع فى الانثيين قال المهدوى ومن جعل يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة فالضمير للانسان والضمير فى قوله تعالى (انه) للخالق المدلول عليه بخلق لانه معلوم أن لاخالق سواه سبحانه وتعالى وفى الضمير فى قوله تعالى (على رجعه) وجهان أحدهما انه ضمير الانسان أى بعثه بعد موته (لقادر) وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما والثانى انه ضمير الماء أى رجع المنى فى الاحليل أو الصلب وهذا قول مجاهد وعن الضحاك أن المعنى انه على رد الانسان من الكبر الى الشباب ومن الشباب الى الكبر وقال ابن زيد انه على حبس ذلك الماء حتى لايخرج لقادر وقال الماوردى يحتمل انه قادر على أن يعيده الى الدنيا بعد بعثه الى الآخرة لان الكفار يسألون فيها الرجعة وقوله تعالى (يوم) منصوب برجعه ومن يجعل الضمير فى رجعه للماء وفسره برجعه الى مخرجه من الصلب والترائب أو الاحليل وحاله الاولى نصب الظرف بمضمر أى واذكر يوم (تبلى) تختبر وتكشف (السرائر) أى ماأسر فى القلوب من العقائد والنيات وغيرهما وماأخفى من الاعمال وذلك يوم القيامة وبلاؤها تعرفها وتصفحها والتمييز بين ماطاب منها وماخبث وعن الحسن انه سمع رجلا ينشد

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا * سريرة ود يوم تبلى السرائر

فقال ماأغفله عما فى والسماء والطارق وقال عطاء بن رباح ان السرائر فرائض الاعمال كالصوم والصلاة والوضوء والغسل من الجنابة فانها سرائر بين الله تعالى وبين العبد ولوشاء العبد لقال صمت ولم يصم وصليت ولم يصل واغتسلت ولم يغتسل فيختبر حتى يظهر من أداها ممن ضيعها وقال ابن عمر يبدى الله تعالى كل سر فيكون زينا فى وجوه وشينا فى وجوه يعنى فمن أداها كان وجهه مشرقا ومن لم يؤدها كان وجهه أغبر (فماله) أى لهذا الانسان المنكر للبعث الذى

أخرجت سرائره * وأعرق فى النفى والتعميم فقال تعالى (من قوة) أى منعة فى نفسه يمتنع بها (ولا ناصر) أى ينصره من عذاب الله تعالى فيدفعه عنه ثم ذكر تعالى قسما آخر فقال تعالى (والسماء) أى التى تقدم الاقسام بها وصفها بما يؤكد العلم بالبعث فقال تعالى (ذات الرجع) أى التى ترجع بالدوران الى الموضع الذى تحرك عنه فترجع الاحوال التى كانت وتصرمت من الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول من الشتاء وما فيه من برد ومطر والصيف وما فيه من حر وصفاء وسكون وغير ذلك وقيل ذات النفع وقيل ذات الملائكة الرجوعهم فيها بأعمال العباد وقيل ذات المطر لعوده كل حين أولما قيل من ان السحاب تحمل الماء من البحار ثم ترجعه الى الارض وعلى هذا يجوز أن يراد بالسماء السحاب (والارض) أى مسكنكم الذى أنتم ملابسوه ومعاينوه كل وقت (ذات الصدع) أى تتصدع عن النبات والشجر والثمار والانهار والعيون نظيره قوله تعالى ثم شققنا الارض شقا الآية والصدع بمعنى الشق لانه يصدع الارض فتنصدع به فكأنه قال تعالى والارض ذات النبات وقال مجاهد ذات الطرق التى تصدعها المشاة وقيل ذات الحرث لانه يصدعها وقيل ذات الاموات لاصداعهم عنها للنشور قال الرازى واعلم انه تعالى كما جعل كيفية خلقة الحيوان دليلا على معرفة المبدا والمعاد ذكر فى هذا القسم كيفية خلقة النبات فقوله تعالى والسماء ذات الرجع كالاب وقوله تعالى والارض ذات الصدع كالام وكلاهما من النعم العظام لان نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء مكررا وعلى ما ينبت من الارض كذلك ثم أردف هذا القسم بالمقسم عليه وهو قوله تعالى (انه لقول فصل) وفى هذا الضمير قولان أحدهما ما قاله القفال وهو أن المعنى ان ما أخبرتكم به من قدرتى على احيائكم يوم تبلى السرائر قول فصل وحق والثانى انه عائد على القرآن أى القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان قال الرازى والاول أولى لان عود الضمير الى المذكور السالف أولى انتهى وأكثر المفسرين على الثانى والفصل الحكم الذى ينفصل به الحق من الباطل ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم الجزم ويقال هذا قول فصل قاطع للشر والنزاع معناه جد لقوله تعالى (وما هو) أى فى باطنه ولا ظاهره (بالهزل) أى باللعب والباطل بل هو جد كله لا هوادة فيه ومن حقه وقد وصفه الله تعالى بذلك أن يكون مهيبا فى الصدور معظما فى القلوب يترفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح وأن يلقى ذهنه الى أن جبار السموات والارض يخاطبه فيأمره وينهاه ويعده ويوعده حتى ان لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية فأدنى أمره أن يكون جادا غير هازل فقد نفى الله تعالى عن المشركين ذلك فى قوله تعالى وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون والغوا فيه هذا على عود الضمير للقرآن وعلى جعله للاول فيكون الشخص خائفا وجلا من ذلك الذى تبلى فيه السرائر (انهم) أى الكفار أعداء الله تعالى (يكيدون كيدا) أى يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكرا واختلف فى ذلك الكيد فقيل القاء الشبهات كقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا من يحيى العظام وهى رميم أجعل الآلهة الها واحدا وما أشبه ذلك وقيل قصدهم قتله لقوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا

الآية وأما قوله تعالى (وأكيد) أى أنا بتمام اقتدارى (كيدا) فاختلف فيه أيضا فقيل معناه اجازيهم جزاء كيدهم وقيل هو ما أوقع الله تعالى بهم يوم بدر من القتل والاسر وقيل استدراجهم من حيث لا يعلمون وقيل كيد الله تعالى لهم بنصره واعلاء درجته تسمية لاحد المتقابلين باسم الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقول الشاعر

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكقوله تعالى نسوا الله فنسيهم يخادعون الله وهو خادعهم * ولما كان هذا معلما بأنهم عدم لا اعتبار بهم قال تعالى مسببا عنه تهديدا لهم (فمهل الكافرين) أى فهل يا أشرف الخلق هؤلاء البعداء ولا تستعجل بالانتقام منهم ولا بالدعاء عليهم باهلاكهم فانا لا نعجل لان العجلة وهى ايقاع الشئ فى غير وقته الاليق به نقص وقوله تعالى (أمهلهم) تأكيد حسنه مخالفة اللفظ أى أنظرهم (رويدا) أى قليلا وهو مصدر مؤكد لمعنى العامل مصغر رودا وارواد على الترخيم وقد أخذهم الله تعالى ببدر ونسخ الامهال بالامر بالجهاد والقتال وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات حديث موضوع

﴿سورة الاعلى مكية﴾

فى قول الجمهور وقال الضحاك مدنية قال النووى وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحبها الكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات وهى تسع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وأربعة وثمانون حرفا

(بسم الله) عالم الغيب فلا تخفى عليه خافية (الرحمن) الذى عم جوده كل انس وجن وملك ودابة (الرحيم) الذى خص أولياءه بعرفتهم احسانه * واختلف فى قوله سبحانه وتعالى (سبح اسم ربك) فالاكثرون على ان المعنى نزه ربك المحسن اليك بعدايجادك على صفة الكمال عما لا يليق به فاسم زائد كقول لبيد * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * وقيل عظم ربك (الاعلى) والاسم زائد كامر قصد به تعظيم المسمى وذكر الطبرى ان المعنى نزه اسم ربك الاعلى عن أن تسمى به أحدا سواه وقيل نزه تسمية ربك وذكرك اياه أن تذكره الا وأنت خاشع معظم لذكره وقال الرازى معنى سبح اسم ربك الاعلى أى نزهه عن كل ما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه أما فى ذاته فان تعتقد أنها ليست من الجواهر والاعراض وأما فى صفاته فان تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة وأما فى أفعاله فان تعتقد أنه سبحانه مالك مطلق لا اعتراض لاحد عليه فى أمر من الامور وأما فى أسمائه فأن لا تذكره سبحانه الا بالاسماء التى لا توهم نقصا بوجه من الوجوه سواء ورد الاذن فيها أم لم يرد وأما فى أحكامه سبحانه فأن تعلم أنه ما كلفنا لنفع يعود اليه بل لمحض المالكية قال البغوى ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحدا لان أحدا لا يقول سبحان الله وسبحان اسم ربنا انما يقول سبحان الله وسبحان ربنا فكان معنى سبح اسم

ربك سبح ربك اه وكون الاسم عين المسمى أو غيره قدذكرتهما فى مقدمتى على البسملة والحمدلة وعن ابن عباس رضى الله عنهما سبح أى صل بأمر ربك وذهب جماعة من الصحابة والتابعين على ان المراد قل سبحان ربى الاعلى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ سبح اسم ربك الاعلى فقال سبحان ربى الاعلى وعن عقبة بن عامر انه لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل سبح اسم ربك الاعلى قال اجعلوها فى سجودكم وروى انه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك وروى ان أول من قال سبحان ربى الاعلى ميكائيل * ولما أمر تعالى بالتسبيح فكان سائلا قال الاشتغال بالتسبيح انما يكون بعد المعرفة فما الدليل على وجود الرب تعالى فقال تعالى (الذى خلق) أى اوجد من العدم فله صفة الايجاد لكل ما اراده لايعسر عليه شئ (فسوّى) اى مخلوقه وقال الرازى يحتمل ان يريد الناس خاصة ويحتمل ان يريد الحيوان ويحتمل ان يريد كل شئ خلقه تعالى فمن حمله على الانسان ذكر للتسوية وجوها أحدها اعتدال قامته وحسن خلقه كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وأثنى على نفسه بسبب خلقه اياه بقوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين ثانيها كل حيوان مستعد لنوع واحد من الاعمال فقط وأما الانسان فانه خلق بحيث يمكنه أن يأتى بجميع الاعمال بواسطة الآلات ثالثها انه تعالى هيأه للتكليف والقيام بأداء العبادات وقال بعضهم خلق فى أصلاب الآباء وسوّى فى أرحام الامّهات ومن حمله على جميع الحيوانات فمعناه انه أعطى كل حيوان ما يحتاج اليه من الآلات والاعضاء ومن حمله على جميع المخلوقات كان المراد من التسوية هو انه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات يخلق ما أراد على وفق ارادته موصوفا بالاحكام والاتقان مبرأ عن النقص والاضطراب وقرأ (والذى قدر) الكسائى بتخفيف الدال والباقون بالتشديد قال البغوى وهما بمعنى واحد أى أوقع تقديره فى أجناس الاشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها وغير ذلك من أحوالها فجعل البطش لليد والمشى للرجل والسمع للاذن والبصر للعين ونحو ذلك (فهدى) قال مجاهد هدى الانسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة وهدى الانعام لمراعيها وقال مقاتل والكلبى فى قوله تعالى فهدى عرّف خلقه كيف يأتى الذكر الانثى كما قال تعالى فى سورة طه أعطى كل شئ خلقه ثم هدى أى الذكر للانثى وقال عطاء جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له وقيل قدر أقواتهم وأرزاقهم وهداهم لمعاشهم ان كانوا اناسا ولمراعيهم ان كانوا وحوشا وقال السدى قدر مدة الجنين فى الرحم ثم هداه الى الخروج من الرحم ومن ذلك هدايات الانسان الى مصالحه من أغذيته وأدويته وأمور دنياه ودينه والهامات البهائم والطيور وهوام الارض الى معايشها ومصالحها يقال ان الافعى اذا أتى عليها ألف سنة عميت وقد ألهمها الله تعالى أن تمسح عينيها بورق الرازيانج الغض فيرد اليها بصرها فربما كانت فى برية بينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعماها حتى تهجم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لاتخطئها فتحك بها عينيها فترجع باصرة باذن الله تعالى وقيل فهدى اى دلهم بافعاله على توحيده وكونه عالما قادرا

والاستدلال بالخلق والهداية معتمد الانبياء قال ابراهيم عليه السلام الذى خلقنى فهو يهدين وقال موسى عليه السلام لفرعون ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى * ولماذكر سبحانه مايختص بالناس اتبعه مايختص بالحيوان فقال تعالى (والذى أخرج المرعى) أى أنبت ماترعاه الدواب وقال ابن عباس رضى الله عنهما المرعى الكلأ الاخضر (فجعله) أى بعد أطوار من زمن اخراجه بعد خضرته (غثاء) أى جافا هشيما (أحوى) اى أسود يابسا قال الزمخشرى ويجوز أن يكون أحوى حالا من المرعى أى أخرجه أحوى أى اسود من شدة الخضرة والرى فجعله غثاء بعد حويه وقال ابن زيد هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها وقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) بشارة من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم باعطاء آية بينة وهى أن يقرأ عليه جبريل مايقرأ عليه من الوحى وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه فهو نفى أخبر الله تعالى أن نبيه صلى الله عليه وسلم لا ينسى وقيل نهى والالف مزيدة للفاصلة كقوله تعالى السبيلا أى فلا تغفله كرامة وتكريره لئلا ينساه ومنعه مكى لانه لا ينهى عما ليس باختياره (وأجيب) بأن هذا غير لازم اذ المعنى النهى عن تعاطى أسباب النسيان وهو شائع قال الرازى وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين الاول انه كان رجلا أميا فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة ولا تكرار خارق للعادة فيكون معجزا الثانى ان هذه السورة من أول مانزل بمكة فهذا اخبار عن أمر عجيب مخالف للعادة سيقع فى المستقبل وقد وقع فكان هذا اخبارا فيكون معجزا وفى المشيئة فى قوله تعالى (الا ماشاء الله) أى الملك الذى له الامر كله وجوه أحدها التبرك بهذه الكلمة كقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فكأنه تعالى يقول انى عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الامور على التفصيل ومع ذلك لا أخبر بوقوع شئ فى المستقبل الامع هذه الكلمة فأنت وأمتك يا أشرف الخلق أولى بها ثانيها قال الفراء انه تعالى ماشاء أن ينسى محمدا صلى الله عليه وسلم شيأ الا ان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان انه تعالى لو أراد أن يصيره ناسيا لذلك لقدر عليه كقوله تعالى ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم انا نقطع انه تعالى ماشاء ذلك ونظيره قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك مع انه صلى الله عليه وسلم ما أشرك البتة ففائدة هذا الاستثناء ان الله تعالى يعرفه قدرته حتى يعلم ان عدم النسيان من فضل الله تعالى واحسانه لا من قوته ثالثها ان الله تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوز صلى الله عليه وسلم فى كل ماينزل عليه من الوحى أن يكون ذلك هو المستثنى فلا جرم بالغ فى التثبت والتحفظ فى جميع المواضع فكان المقصود من ذكر الاستثناء بقاءه صلى الله عليه وسلم على التيقظ فى جميع الاحوال رابعها أن ينساه بنسخ تلاوته وحكمه وكان صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام خوف النسيان فكأنه قيل له لا تعجل بها انك لا تنسى ولا تتعب نفسك بالجهر بها (انه) أى الذى مهما شاء كان (يعلم الجهر) أى القول والفعل (ومايخفى) أى منهما وعن ابن عباس رضى الله عنهما مافى قلبك ونفسك وقال محمد بن حاتم يعلم اعلان الصدقة واخفاءها وقيل الجهر ماحفظته من القرآن فى صدرك ومايخفى مانسخ من صدرك وقوله تعالى (ونيسرك

لليسرى) عطف على سنقرئك فهو داخل فى حيز التنفيس ومابينهما من الجملة اعتراض قال الضحاك واليسرى هى الشريعة اليسرى وهى الحنيفية السهلة وقال ابن مسعود اليسرى الجنة أى نيسرك الى العمل المؤدى الى الجنة وقيل اليسرى الطريقة اليسرى وهى اعمال الخير والامر فى قوله تعالى (فذكر) للنبى صلى الله عليه وسلم أى فذكر بالقرآن (ان نفعت الذكرى) أى الموعظة وان شرطية وفيه استبعاد لتذكرهم ومنه قول القائل

لقد أسمعت لو ناديت حيا * ولكن لا حياة لمن تنادى

ولانه صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده فى تذكيرهم وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى الاعتوا وطغيانا وكان صلى الله عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا ويزداد جهدا فى تذكيرهم وحرصا عليه فقيل ان نفعت الذكرى وذلك بعد الزام الحجة بتكرير التذكير وقيل ان بمعنى اذ كقوله تعالى وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين أى اذ كنتم مؤمنين وقيل بعده شئ محذوف تقديره ان نفعت الذكرى وان لم تنفع كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد قاله الفراء والنحاس وقيل ان بمعنى ما لا بمعنى الشرط لان الذكرى باقية بكل حال * ثم بين تعالى من تنفعه الذكرى بقوله سبحانه (سيذكر) أى بوعد لا خلف فيه (من يخشى) أى يخاف الله تعالى فهى كآية فذكر بالقرآن من يخاف وعيد وان كان النبى صلى الله عليه وسلم يجب عليه تذكيرهم نفعتهم الذكرى أم لم تنفعهم وقال ابن عباس نزلت فى ابن أم مكتوم وقيل فى عثمان بن عفان قال الماوردى وقد تذكر من يرجوه الا أن تذكر الخاشع أبلغ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء وقال القشيرى المعنى عمم أنت بالتذكير والوعظ وان كان الوعظ انما ينفع من يخشى ولكن يحصل لك ثواب الدعاء (فان قيل) التذكير انما يكون بشئ قد علم وهؤلاء لم يزالوا كفارا معاندين (أجيب) بأن ذلك لظهوره وقوة دليله كانه معلوم لكنه يزول بسبب التقليد والفساد * (تنبيه) * السين فى قوله تعالى سيذكر يحتمل أن تكون بمعنى سوف وسوف من الله تعالى واجب كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى ويحتمل أن يكون المعنى ان من خشى فانه يتذكر وان كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر * ولما بين تعالى من ينتفع بالذكرى بين من لا ينتفع بها بقوله تعالى (ويتجنبها) أى الذكرى أى يتركها جانبا لا يلتفت اليها (الاشقى الذى يصلى النار) وهو الكافر (فان قيل) الاشقى يستدعى وجود شقى فكيف قال هذا القسم (أجيب) بأن لفظ الاشقى من غير مشاركة كقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا وقوله تعالى وهو أهون عليه وقال الرازى الفرق ثلاثة العارف والمتوقف والمعاند فالسعيد هو العارف والمتوقف له بعض الشقاوة والاشقى هو المعاند وقال الزمخشرى الاشقى هو الكافر لانه أشقى من الفاسق أو الذى هو اشقى الكفرة لتوغله فى معاداة النبى صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة وعقبة بن ربيعة واختلف فى قوله تعالى (الكبرى) أى العظمى على وجوه أحدها قال الحسن هى نار جهنم والصغرى نار الدنيا ثانيها ان فى الآخرة نيرانا ودركات متفاضلة فكما ان الكافر أشقى العصاة فكذلك يصلى أعظم النيران ثالثها ان النار الكبرى هى النار السفلى فهى نصيب

الكفار كما قال تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار (فان قيل) قوله تعالى (ثم لايموت فيها ولا يحيى) يقتضى ان ثم حالة غير الحياة والموت وذلك غير معقول (أجيب) عن ذلك بوجهين أحدهما لايموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه كما قال تعالى لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها وهذا جاء على مذهب العرب يقولون للمبتلى بالبلاء الشديد لاهو حى ولاهو ميت ثانيهما ان نفس أحدهم فى النار فى حلقة لاتخرج فيموت ولاترجع الى موضعها فيحيا *(تنبيه)* قوله تعالى ثم للتراخى بين الرتب فى الشدة * ولما ذكر تعالى وعيد من أعرض عن النظر فى دلائل الله تعالى أتبعه بالوعد لضده فقال تعالى (قد أفلح) أى فاز بكل مراد (من تزكى) أى تطهر من الكفر بالايمان لما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قد أفلح من تزكى أى شهد أن لا اله الا الله وخلع الانداد وشهد أنى رسول الله وقيل تطهر للصلاة وأدى الزكاة (وذكر اسم ربه) أى بقلبه ولسانه مكبرا (فصلى) أى الصلوات الخمس قال الزمخشرى وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لان الصلاة معطوفة عليها وقال قتادة تزكى عمل صالحا وعن عطاء نزلت فى صدقة الفطر قال ابن سيرين قد أفلح من تزكى قال خرج فصلى بعدما أدى زكاة الفطر وصلى صلاة العيد قال بعضهم لاأدرى ماوجه هذا التأويل فان هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر وأجاب البغوى بأنه يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم كقوله تعالى وأنت حل بهذا البلد والسورة مكية وظهر أثر الحل يوم الفتح قال صلى الله عليه وسلم أحلت لى ساعة من نهار وقيل المراد زكاة الاعمال لازكاة الاموال أى زكى أعماله من الرياء والتقصير وروى عن عطاء أنه قال ان هذه الآية نزلت فى عثمان وذلك انه كان بالمدينة منافق له نخلة مائلة الى دار رجل من الانصار اذا هبت الريح تساقط منها بسر ورطب فى دار الانصارى فيأكل هو وعياله من ذلك فخاصمه المنافق فذكر الانصارى ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأرسل خلف المنافق وهو لايعلم نفاقه فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ان أخاك الانصارى ذكر ان بسرك ورطبك يقع فى منزله فيأكل هو وعياله منه فهل لك أن أعطيك نخلة فى الجنة بدلها قال أبيع عاجلا بآجل لاأفعل فذكروا ان عثمان قد أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته يقول فيه قد أفلح من تزكى وفى المنافق ويتجنبها الاشقى وقال الضحاك نزلت فى أبى بكر وقرأ (بل تؤثرون الحياة الدنيا) أبو عمرو بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ومعناه على القراءة الاولى بل يؤثرون الاشقون وعلى القراءة الثانية بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا الدنية بالعز الحاضر مع أنها شر وفانية اشتغالا بها لاجل حضورها كالحيوانات التى هى مقيدة بالمحسوسات على الاستكثار من الثواب (والآخرة) أى والحال ان الدار التى هى غاية القصد المبرأة عن العيب المنزهة عن الخروج عن الحكمة (خير) أى من الدنيا (وأبقى) لانها تشتمل على السعادة الجسمانية والروحانية والدنيا ليست كذلك فالآخرة خير من الدنيا ولان الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام والآخرة ليست كذلك ولان الدنيا فانية والآخرة باقية والباقى خير من الفانى وعن عمر

ما الدنيا في الآخرة الا كنفجة أرنب وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة قلنا لا قال لان الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها وان الآخرة نعتت لنا وزويت عنا فأحببنا العاجل وتركنا الآجل والاشارة في قوله تعالى (ان هذا لفي الصحف الاولى) الى قوله قد أفلح من تزكى الى قوله خير وأبقى أي هذا الكلام وارد في تلك الصحف وقيل الى ما في السورة كلها وهو رواية عكرمة عن ابن عباس وقال الضحاك ان هذا القرآن لفي الصحف الاولى ولم يرد ان هذه الالفاظ بعينها في تلك الصحف وانما معناه ان معنى هذا الكلام في تلك الصحف ثم بين تلك الصحف وهي المنزلة قبل القرآن بقوله تعالى (صحف ابراهيم) وقدمه لان صحفه أقرب الى الوعظ كما نطق به حديث أبي ذر (وموسى) وختم به لان الغالب على كتابه الاحكام والمواعظ فيه قليلة ومنها الزواجر البليغة كاللعن لمن خالف أوامر التوراة التي أعظمها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وروى عن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كم أنزل الله تعالى من كتاب فقال مائة وأربعة كتب منها على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسون صحيفة وعلى اخنوخ وهو ادريس ثلاثون صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف والتوراة والانجيل والزبور والفرقان وقيل في صحف ابراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظا للسانه عارفا بزمانه مقبلا على شانه وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين اللتين يوتر بعدهما بسبح اسم ربك الاعلى وقل يا أيها الكافرون وفي الوتر بقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وقرأ الاعلى فسوى فهدى المرعى أحوى فلا تنسى وما يخفى من يخشى الاشقى ولا يحيي من تزكى فصلى الدنيا وأبقى الاولى وموسى حمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل أما الاعلى الذي والاشقى الذي اذا وقف عليهما فالامالة وان وصلا فلا امالة والباقون بالفتح وقرأ الذكرى الكبرى أبو عمرو والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على ابراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام حديث موضوع

﴿سورة الغاشية مكية بالاجماع﴾

وهي ست وعشرون آية واثنان وتسعون كلمة وثلثمائة واحدى وثمانون حرفا

(بسم الله) علام الغيوب (الرحمن) كاشف الكروب (الرحيم) الذي خص أولياءه بالعفو عن الذنوب وقوله سبحانه وتعالى (هل أتاك حديث الغاشية) فيه وجهان أحدهما ان هل بمعنى قد أي قد جاءك يا أشرف الخلق حديث الغاشية كقوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر قال قطرب والثاني انه استفهام على حاله وتسميه أهل البيان التشويق والمعنى ان لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك وهو معنى قول الكلبي والغاشية الداهية التي تغشى الناس

بشدائدها وتلبسهم أهوالها وهي القيامة من قوله يوم يغشاهم العذاب وقيل هي النار من قوله تعالى وتغشى وجوههم النار ومن فوقهم غواش وقيل المراد النفخة الثانية للبعث لانها تغشى الخلق وقيل الغاشية أهل النار يغشونها ويقتحمون فيها (وجوه) أي كثيرة جدا كائنة (يومئذ) أي يوم اذ غشيت (خاشعة) أي ذليلة من الخجل والفضيحة والخوف من العذاب والمراد بالوجوه في الموضعين أصحابها (عاملة ناصبة) أي ذات نصب وتعب قال سعيد بن جبير عن قتادة تكبرت في الدنيا عن طاعة الله تعالى فأعملها الله تعالى وأنصبها في النار بجر السلاسل الثقال وحمل الاغلال والوقوف حفاة عراة في العرصات في يوم كان مقداره ألف سنة وقال ابن مسعود تخوض في النار كما تخوض الابل في الوحل وقال الحسن لم تعمل لله في الدنيا ولم تنصب له فأعملها وأنصبها في جهنم وقال ابن عباس هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله تعالى على الكفر مثل عبدة الاوثان والرهبان وغيرهم لا يقبل الله تعالى منهم الا ما كان خالصا له وعن علي أنهم الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الحديث وقرأ (تصلى) أبو عمرو وشعبة بضم التاء الفوقية على ما لم يسم فاعله والباقون بفتحها على تسمية الفاعل والضمير على كلتا القراءتين للوجوه والمعنى تدخل (نارا حامية) أي شديدة الحر قد أحميت وأوقدت مدة طويلة ومنه حمي النهار بالكسر أي اشتد حره وحكى الكسائي اشتد حمي الشمس وحموها بمعنى قال صلى الله عليه وسلم أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة وقيل المصلي عند العرب أن يحفروا حفيرا فيجمعون فيه جمرا كثيرا ثم يعمدوا الى شاة فيدسوها وسطه فأما ما شوي فوق الجمر او على المقلى أو في التنور فلا يسمى مصليا * ولما بين تعالى مكانهم ذكر شرابهم فقال تعالى (تسقى من عين آنية) أي شديدة الحرارة كقوله تعالى من حميم آن أي متناه في الحرارة روى انه لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لاذابتها * ولما ذكر تعالى شرابهم أتبعه بذكر طعامهم فقال تعالى (ليس لهم طعام الا من ضريع) قال مجاهد هو نبت ذو شوك لاطئ بالارض تسميه قريش الشبرق فاذا هاج يسمونه الضريع وهو أخبث طعام وأبشعه قال الكلبي لا تقربه دابة اذا يبس وقال ابن زيد اما في الدنيا فان الضريع الشوك اليابس الذي ليس له ورق وهو في الآخرة شوك من نار وجاء في الحديث عن ابن عباس يرفعه الضريع شئ في النار يشبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حرا من النار قال أبو الدرداء والحسن ان الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بالضريع ذي غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة ثم يسقون من عين آنية لا هنيئة ولا مريئة فلما أدنوه من وجوههم سلخ جلود وجوههم وشواها فاذا وصل بطونهم قطعها فذلك قوله تعالى وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم قال بعض المفسرين فلما نزلت هذه

الآية قال المشركون ان ابلنا التسمن على الضريع وكذبوا فى ذلك فان الابل انما ترعاه مادام رطبا ويسمى شبرقا فاذا يبس لا يأكله شئ قال ذؤيب يصف حمارا

رعى الشبرق الريان حتى اذا ذوى * وصار ضريعا بان عنه النحائص

والنحوص من الاتن التى لا لبن لها * ولما قالوا ذلك أنزل الله تعالى تكذيبا لهم (لا يسمن ولا يغنى) أى يكفى كفاية مبتداة (من جوع) فلا يحفظ الصحة ولا يمنع الهزال فنفى السمن والشبع عنه وعلى تقدير أن يصدقوا فيكون المعنى ان طعامكم من ضريع ليس من جنس ضريعكم انما هو ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع (فان قيل) كيف قيل ليس لهم طعام الا من ضريع وفى الحاقة ولا طعام الا من غسلين (أجيب) بأن العذاب ألوان والمعذبون طبقات فنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع لكل باب منهم جزء مقسوم * ولما ذكر تعالى وعيد الكفار أتبعه بشرح أحوال المؤمنين فقال تعالى (وجوه يومئذ) أى يوم تغشى الناس ووصفها بصفات الاولى قوله تعالى (ناعمة) أى ذات بهجة وحسن كقوله تعالى تعرف فى وجوههم نضرة النعيم أو متنعمة قال مقاتل فى نعمة وكرامة الصفة الثانية قوله تعالى (لسعيها) أى فى الدنيا بالاعمال الصالحة (راضية) أى فى الآخرة بثواب سعيها حين رأت ما أداهم اليه من الكرامة الصفة الثالثة قوله تعالى (فى جنة) ثم وصف الجنة بصفات الاولى قوله تعالى (عالية) أى علية المحل والقدر الصفة الثانية قوله تعالى (لا يسمع فيها لاغية) قرأ بالتاء الفوقية نافع مضمومة لاغية بالرفع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء التحتية مضمومة لاغية بالرفع لقيامها مقام الفاعل والباقون بالتاء الفوقية مفتوحة لاغية بالنصب فيجوز أن تكون التاء للخطاب أى لا تسمع أنت وأن تكون للتأنيث أى لا تسمع الوجوه واللغو قال ابن عباس الكذب والبهتان والكفر بالله تعالى وقال قتادة لا باطل ولا اثم وقال الحسن هو الشتم وقال الفراء الحلف الكاذب والاولى كما قيل لا يسمع فى كلامهم كلمة ذات لغو وانما يتكلمون بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم وهذا أحسن الأقوال قاله القفال وقال الكلبى لا يسمع فى الجنة حالف بيمين لا برة ولا فاجرة الصفة الثالثة قوله تعالى (فيها) أى الجنة (عين جارية) قال الزمخشرى يريد عيونا فى غاية الكثرة كقوله تعالى علمت نفس وقال القفال فيها أعين شراب جارية على وجه الارض فى غير اخدود وتجرى لهم كما أرادوا الصفة الرابعة قوله تعالى (فيها سرر مرفوعة) أى عالية فى الهواء قال ابن عباس ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة فى السماء مالم يجئ أهلها فاذا أرادوا أن يجلسوا عليها تواضعت ثم ترتفع الى مواضعها الصفة الخامسة قوله تعالى (وأكواب موضوعة) جمع كوب وهى الكيزان التى لا عرى لها قال قتادة فهى دون الاباريق وفى قوله تعالى موضوعة وجوه أحدها انها معدة لاهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيأ فيقول هو ههنا موضوع بمعنى معد ثانيها موضوعة على حافات العين الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشراب ثالثها موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم اياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جواهر

وتلذذهم

وتلذذهم بالشرب فيها رابعها أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبرأى هى أوساط بين الكبر والصغر كقوله قدّروها تقديرا الصفة السادسة قوله تعالى (ونمارق) وهى الوسائد واحدها نمرقة بضم النون والراء وكسرهما لغتان أشهرهما الاولى وهى وسادة صغيرة قالت

نحن بنات طارق * نمشى على النمارق

(مصفوفة) أى واحدة الى جنب واحدة أخرى قال الشاعر

كهولا وشبانا حسانا وجوههم * لهم سرر مصفوفة ونمارق

الصفة السابعة قوله تعالى (وزرابى) وهى جمع زربية بفتح الزاى وكسرها لغتان مشهورتان وهى بسط عراض فاخرة وقال ابن عباس هى الطنافس التى لها خمل أى وبر رقيق واختلف فى قوله تعالى (مبثوثة) فقال قتادة مبسوطة وقال عكرمة بعضها فوق بعض وقال الفراء كثيرة وقال القتيبى مفرّقة فى المجالس قال القرطبى وهذا أصح فهى كثيرة متفرّقة ومنه قوله تعالى وبث فيها من كل دابة * ولما ذكر تعالى أمر الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوه وأنكروه فذكرهم الله تعالى صنعه وقدرته بقوله تعالى (أفلا ينظرون) أى المنكرون لقدرته سبحانه وتعالى على الجنة وماذكر فيها والنار وماذكر فيها أى نظر اعتبار (الى الابل) ونبه على أنه عجيب خلقها مما ينبغى أن تتوفر الدعاوى على الاستفهام والسؤال عنه بأداة الاستفهام فقال تعالى (كيف خلقت) أى خلقا عجيبا دالا على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها للنهوض بالاثقال وجرّها الى البلاد النائية فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لاتعارض ضعيفا ولاتنازع صغيرا وبرأها طوال الاعناق لتنوء بالاوقار وعن بعض الحكماء انه حدّث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ فى بلاد لا ابل بها فتفكر ثم قال يوشك أن تكون طوال الاعناق وحين أراد بها أن تكون سفائن البرّ صبّرها على احتمال العطش حتى ان ظماءها لترتفع الى عشر فصاعدا ليتأتى لها قطع البرارى والمفاوز مع مالها من منافع أخر ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المبثوثة فى الحيوانات التى هى أشرف المركبات وأكثرها صنعا ولانها أعجب ما عند العرب من هذا النوع لانها ترعى كل شئ نابت فى البرارى والمفاوز مما لاترعاه سائر البهائم وعن سعيد بن جبير قال لقيت شريحا القاضى فقلت له أين تريد قال أريد الكناسة قلت وما تصنع بها قال انظر الى الابل كيف خلقت *(تنبيه)* الابل اسم جمع واحده بعير وناقة وجمل ولا واحد لها من لفظها وقال المبرد الابل هنا القطع العظيمة من السحاب قال الثعلبى ولم أجد لذلك أصلا فى كتب الأئمة وقال الماوردى وفى الابل وجهان أظهرهما انها الابل والثانى انها السحاب فان كان المراد بها السحاب فلما فيها من الآيات والدلالات الدالة على قدرته والمنافع العامة لجميع خلقه وان كان المراد بها الابل فلان الابل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات لان ضروب الحيوان أربعة حلوبة وركوبة وأكولة وحمولة والابل تجمع هذه الخلال الاربع فكانت النعمة بها أعم وظهور القدرة فيها أتم وقيل للحسن الفيل أعظم فى الاعجوبة فقال العرب بعيدة العهد بالفيل

ثم هو لا يؤ كل لحمه ولا يركب ظهره ولا يحلب دره (والى السماء) التى هى من جملة مخلوقاتنا (كيف رفعت) أى رفعا بعيدا بلا امساك وبغير عمد على ما لها من السعة والكبر والنقل والاحكام وما فيها من الكواكب والغرائب والعجائب (والى الجبال) أى الشامخة وهى أشد الارض (كيف نصبت) نصبا ثابتا فهى راسية لا تميل ولا تزول كما قال تعالى وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بكم (والى الارض) أى على سعتها (كيف سطحت) سطحا بتمهيد وتوطئة فهى مهاد للتقلب عليها واستدل بعضهم بذلك على أن الارض ليست بكرة قال الرازى وهو ضعيف لان الكرة اذا كانت فى غاية العظمة تكون كل قطعة منها كالسطح (فان قيل) كيف حسن ذكر الابل مع السماء والجبال والارض ولا مناسبة (أجيب) بان من فسرها بالسحاب فالمناسبة ظاهرة وذلك على طريق التشبيه والمجاز ومن فسرها بالابل فالمناسبة بينها وبين السماء والارض والجبال من وجهين أحدهما ان القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيرا ويسيرون عليها فى أوديتهم وبواديهم مستوحشين ومنفردين عن الناس والانسان اذا انفرد أقبل على التفكر فى الاشياء لانه ليس معه من يحادثه وليس هناك ما يشغل به سمعه وبصره فلا بد من أن يجعل دأبه التفكر فاذا تفكر فى تلك الحال فأول ما يقع بصره على البعير الذى هو راكبه فيرى منظرا عجيبا وان نظر الى فوق لم ير غير السماء وان نظر يمينا وشمالا لم ير غير الجبال وان نظر الى تحت لم ير غير الارض فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر ثانيهما ان جميع المخلوقات دالة على الصانع جلت قدرته الا أنها قسمان منها ما للشهوة فيه حظ كالوجه الحسن والبساتين النزهة والذهب والفضة فهذه مع دلالتها على الصانع قد يمنع استحسانها عن كمال النظر فيها ومنها ما لا حظ فيه للشهوة كهذه الاشياء فأمر بالنظر فيها اذ لا مانع من كمال النظر فيها وقال عطاء عن ابن عباس كأن الله تعالى يقول هل يقدر أحد أن يخلق مثل الابل أو يرفع مثل السماء أو ينصب مثل الجبال أو يسطح مثل الارض غيرى * ولما بين تعالى الدلائل على صحة التوحيد والمعاد قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم (فذكر) أى بنعم الله تعالى ودلائل توحيده وعظهم بذلك وخوفهم يا أشرف الخلق (انما أنت مذكر) فلا عليك أن لا ينظروا ولم يذكروا وما عليك الا البلاغ كما قال تعالى ان عليك الا البلاغ (لست عليهم بمسيطر) أى بمسلط فتقتلهم وتكرههم على الايمان كقوله تعالى وما أنت عليهم بجبار وهذا قبل الامر بالجهاد وقرأ هشام بالسين وقرأ حمزة بخلاف عن خلف باشمام الصاد كالزاى والباقون بالصاد الخالصة وقوله تعالى (الا من تولى) استثناء منقطع أى لكن من تولى عن الايمان (وكفر) أى بالقرآن (فيعذبه الله) أى الذى له الكمال كله بسبب تكبره عن الحق ومخالفته لامرك (العذاب الاكبر) اى عذاب الآخرة لانهم عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والقتل والاسر وقيل استثناء متصل فان جهاد الكفار وقتلهم تسلط فكأنه أوعدهم بالجهاد فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة وقيل هو استثناء من قوله تعالى فذكر الا من انقطع طمعك من ايمانه وتولى فاستحق العذاب

الا كبر وما بينهما اعتراض (ان الينا) أى خاصة بنا لا الى غيرنا من العظمة (ايابهم) أى رجوعهم بعد البعث (ثم ان علينا) أى خاصة بنا لا بغيرنا من القدرة والتنزه عن نقص العيب والجور وكل نقص لا على غيرنا (حسابهم) أى جزاءهم فلا نتركه أبدا وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان يشق عليه تكذيبهم (فان قيل) ما معنى تقديم الظرف (أجيب) بأن معناه التشديد فى الوعيد وان ايابهم ليس الا الى الجبار المقتدر على الانتقام وان حسابهم ليس الا عليه وهو الذى يحاسب على النقير والقطمير وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ الغاشية حاسبه الله حسابا يسيرا حديث موضوع .

(سورة الفجر مكية)

وقيل مدنية وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية ومائة وتسع وثلاثون كلمة وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفا

(بسم الله) الملك المعبود (الرحمن) الذى عم خلقه بالكرم والجود (الرحيم) الذى سدد أهل عنايته بفضله فهو الحليم الودود وقوله تعالى (والفجر) أى فجر كل يوم قسم كما أقسم بالصبح فى قوله تعالى والصبح اذا أسفر والصبح اذا تنفس وقال قتادة هو فجر أول يوم من المحرم تتفجر منه السنة وقال الضحاك فجر ذى الحجة وقيل ذلك على مضاف محذوف أى وصلاة الفجر وقيل ورب الفجر وتقدم ان الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته واختلف فى قوله تعالى (وليال عشر) فقال مجاهد وقتادة هو عشر ذى الحجة وقال الضحاك هو العشر الاول من رمضان وعن ابن عباس انه العشر الاخير من رمضان وعن يمان بن رباب هو العشر الاول من المحرم التى عاشرها يوم عاشوراء ولصومه فضل عظيم (فان قيل) لم نكر الليالى من بين ما أقسم به (أجيب) بأن ذلك للتعظيم (والشفع) أى الزوج (والوتر) أى الفرد وقيل الشفع الخلق كلهم قال الله تعالى وخلقناكم أزواجا والوتر هو الله تعالى قاله أبو سعيد الخدرى وقال مجاهد ومسروق الشفع الخلق كله قال الله تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين الكفر والايمان والهدى والضلال والسعادة والشقاوة والليل والنهار والسماء والارض والبر والبحر والشمس والقمر والجن والانس والوتر هو الله تعالى قل هو الله أحد وقال قتادة هما الصلوات منها شفع ومنها وتر روى ذلك عن عمران بن حصين مرفوعا وعن ابن عباس الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب وقال الحسين بن الفضل الشفع درجات الجنة لانها ثمان والوتر دركات النار لانها سبع دركات وسئل أبو بكر الوراق عن الشفع والوتر فقال الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل والقدرة والعجز والقوة والضعف والعلم والجهل والبصر والعمى والوتر انفراد صفات الله سبحانه وتعالى عز بلا ذل وقدرة بلا عجز وقوة بلا ضعف وعلم بلا جهل وحياة بلا موت وعن عكرمة الوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر واختاره النحاس وقال هو الذى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم فيوم عرفة وتر لانه تاسعها ويوم النحر شفع لانه عاشرها

وقال ابن الزبير الشفع الحادى عشر والثانى عشر من أيام منى والوتر الثالث عشر وقال الضحاك الشفع عشر ذى الحجة والوتر أيام منى الثلاثة وقيل الشفع والوتر آدم عليه السلام كان وترا فشفع بزوجته حواء حكاه القشيرى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقرأ حمزة والكسائى بكسر الواو والباقون بفتحها وهما لغتان الفتح لغة قريش ومن والاها والكسر لغة تميم وقوله تعالى (والليل اذا يسر) قسم خامس بعد ما أقسم بالليالى العشر على الخصوص أقسم به على العموم ومعنى يسر يسار وذهب كما قال الله تعالى والليل اذ أدبر وقال قتادة اذا جاء وأقبل وقيل معنى يسر أى يسرى فيه كما يقال ليل نائم ونهار صائم ومنه قوله تعالى بل مكر الليل والنهار وقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء بعد الراء وصلا لا وقفا وأثبتها ابن كثير فى الحالين وحذفها الباقون فى الحالين لسقوطها فى خط المصحف الكريم واثباتها هو الاصل لانه لام فعل مضارع مرفوع ومن فرق بين حالتى الوقف والوصل فلان الوقف محل استراحة وسئل الاخفش عن العلة فى سقوط الياء فقال الليل لا يسرى ولكن يسرى فيه فهو مصروف فلما صرفه تجنبه حظه من الاعراب كقوله تعالى وما كانت أمك بغيا ولم يقل بغية لانه صرفه عن باغية وهذه الاسماء كلها مجرورة بالقسم والجواب محذوف تقديره لتعذبن يا كفار مكة بدليل قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد الى قوله تعالى فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد وما بينهما اعتراض وقوله تعالى (هل فى ذلك) أى القسم والمقسم به (قسم) أى حلف أو محلوف (لذى حجر) استفهام معناه التقرير كقولك ألم أنعم عليك اذا كنت قد أنعمت أو المراد منه التأكيد لما أقسم به واقسم عليه كمن ذكر حجة بالغة ثم قال هل فيما ذكرته حجة والمعنى ان من كان ذا لب علم ان ما أقسم الله تعالى به من هذه الاشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه والحجر العقل لانه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغى كما يسمى عقلا ونهية لانه يعقل وينهى وحصاة من الاحصاء وهو الضبط وقال الفراء يقال انه لذو حجر اذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها وقوله تعالى (ألم تر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكن المراد به العموم والمراد بالرؤية العلم أى ألم تعلم يا أشرف رسلنا (كيف فعل ربك) أى المحسن اليك بأنواع النعم (بعاد ارم) وهو ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ثم انهم جعلوا لفظ عاد اسما للقبيلة كما يقال لبنى هاشم هاشم ولبنى تميم تميم ثم قيل للاولين منهم عاد الاولى وارم تسمية لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الاخيرة فارم فى قوله تعالى عاد ارم عطف بيان لعاد وايذان بأنهم عاد الاولى القديمة وقيل ارم بلدتهم وأرضهم التى كانوا فيها وقوله تعالى (ذات) أى صاحبة (العماد) فينظر فيه ان كانت صفة للقبيلة فالمعنى انهم كانوا بدويين أهل عمد وطوال الاجسام على تشبيه قدودهم بالاعمدة وقيل ذات البناء الرفيع وان كانت صفة للبلدة فالمعنى انها ذات أساطين وروى انه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الامر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال أبنى مثلها فبنى ارم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهى مدينة عظيمة قصورها من

الذهب

الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الاشجار والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث الى كعب فسأله فقال هى ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج فى طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وقوله تعالى (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) صفة أخرى لارم فان كانت للقبيلة فلم يخلق مثل عاد فى البلاد عظم أجرام وقوة . قال الزمخشرى كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها فيقلبها على الحى فيهلكهم وروى عن مالك انه كانت تمر بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة وان كانت للبلدة فلم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فان الله تعالى بين انه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل مع الذى اختصوا به من هذه الوجوه فلان تكونوا مثل ذلك أيها الكفار اذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم أولى وقد ذكر الله تعالى ثلاث قصص هذه القصة الاولى وأما الثانية فهى فى قوله تعالى (وثمود الذين جابوا) أى قطعوا (الصخر) جمع صخرة وهى الحجر واتخذوها بيوتا كقوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا (بالواد) أى وادى القرى قيل أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة وقيل سبعة آلاف مدينة كلها من الحجارة *(تنبيه)* أثبت الياء ورش وابن كثير وصلا وأثبتها وقفا ابن كثير بخلاف عن قنبل واما القصة الثالثة فهى فى قوله تعالى (وفرعون) أى وفعل بفرعون (ذى الاوتاد) واختلف فى تسميته بذلك على وجهين أحدهما انه سمى بذلك على كثرة جنوده ومضاربهم التى كانوا يضربونها اذا نزلوا والثانى انه كان يتد أربعة أوتاد يشد اليها يدى ورجلى من يعذبه وعن عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان فرعون انما سمى ذا الاوتاد لانه كانت امرأة وهى امرأة خازنه حزقيل وكان مؤمنا كتم ايمانه مائة سنة وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هى ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون اذ اسقط المشط من يدها فقالت تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك اله غير أبى فقالت الهى واله أبيك واله السموات والارض واحد لا شريك له فقامت فدخلت على أبيها وهى تبكى قال ما يبكيك فقالت الماشطة امرأة خازنك تزعم ان الهك والهها واله السموات والارض واحد لا شريك له فأرسل اليها فسألها عن ذلك فقالت صدقت فقال لها ويحك اكفرى بالهك وأقرى بأنى الهك قالت لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب وقال لها اكفرى بالله والا عذبتك بهذا العذاب شهرين فقالت له لو عذبتنى سبعين شهرا ما كفرت بالله وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على فيها وقال لها اكفرى بالله والا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعا فقالت لو ذبحت من فى الارض على فى ما كفرت بالله عز وجل فأتى بابنتها فلما اضجعت على صدرها وأراد ذبحها جزعت المرأة

فأنطق الله تعالى لسان ابنتها فتكلمت وهي من الاربعة الذين تكلموا أطفالا وقالت يا أماه لا تجزعي فان الله تعالى قد بنى لك بيتا في الجنة فاصبري فانك تفضين الى رحمة الله تعالى وكرامته فذبحت فلم تلبث ان ماتت فأسكنها الله تعالى الجنة قال وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه فقيل لفرعون انه قد زوى في موضع كذا في جبل كذا فبعث رجلين في طلبه فانتهيا اليه وهو يصلي ويليه صفوف من الوحوش خلفه يصلون خلفه فلما رأيا ذلك انصرفا فقال حزقيل اللهم أنت تعلم اني كتمت ايماني مائة سنة ولم يظهر على أحد فأيما هذين الرجلين أظهر على فعجل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة الى النار فانصرف الرجلان الى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤس الملا فقال له فرعون وهل معك غيرك قال نعم فلان فدعى به فقال حق ما يقول هذا قال لا ما رأيت كما قال شيأ فأعطاه فرعون فأجزل وأما الآخر فقتله ثم صلبه قال وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني اسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة فقالت وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي من فرعون وأنا مسلمة وهو كافر فبينما هي كذلك تؤامر نفسها اذ دخل عليها فرعون فجلس قريبا منها فقالت يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثه عمدت الى الماشطة فقتلتها فقال لعل بك الجنون الذي كان بها قالت ما بي من جنون وان الهي والهها والهك واله السموات والارض واحد لا شريك له فمزق ما عليها وضربها وأرسل الى أبويها فدعاهما فقال لهما ألا تريان ان الجنون الذي كان بالماشطة أصابها قالت أعوذ بالله من ذلك اني أشهد أن ربي وربك ورب السموات والارض واحد لا شريك له فقال أبوها يا آسية ألست من خير نساء العماليق وزوجك اله العماليق قالت أعوذ بالله من ذلك ان كان ما يقول حقا فقولا له أن يتوجني تاجا تكون الشمس امامه والقمر خلفه والكواكب حوله فقال لهما فرعون أخرجا عني فمدها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها بابا الى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله فقبض الله تعالى روحها وأدخلها الجنة وروى عن أبي هريرة ان فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وجعل على صدرها رحا واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها الى السماء وقالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ففرج الله تعالى عن بيتها في الجنة فرأته وقوله تعالى (الذين طغوا) أي تجبروا (في البلاد) في محل نصب على الذم ويجوز أن يكون مرفوعا على هم الذين طغوا في البلاد أو مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون فالضمير يرجع لعاد وثمود وفرعون وقيل يرجع الى فرعون خاصة (فأكثروا) أي طغاتهم (فيها الفساد) أي بالقتل والكفر والمعاصي قال القفال وبالجملة فالفساد ضد الصلاح فكما ان الصلاح يتناول جميع أقسام البر فالفساد يتناول جميع أقسام الاثم فمن عمل بغير أمر الله تعالى وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد (فصب) أي أنزل انزالا هو في غاية القوة (عليهم) أي في الدنيا (ربك) أي المحسن اليك بكل جميل (سوط) أي نوع (عذاب) وقال قتادة يعني ألوانا من العذاب صبه عليهم وقال أهل المعاني هذا على

الاستعارة لان السوط عندهم غاية العذاب وقال الفراء هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب وأصل ذلك ان السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى الى كل عذاب اذا كان فيه غاية العذاب وقال الزجاج جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب وعن الحسن انه كان اذا أتى على هذه الآية قال ان الله تعالى عنده أسواط كثيرة فأخذهم بسوط منها وقال قتادة كل شئ عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب وشبه بصب السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه (ان ربك) أي المحسن اليك بالرسالة (لبالمرصاد) أي يرصد أعمال العباد لا يفوته منها شئ ليجازيهم عليها والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد مفعال من رصده كالميقات من وقته وهذا مثل لارصاد العصاة بالعقاب وانهم لا يفوتونه وعن بعض العرب انه قيل له أين ربك فقال بالمرصاد وعن عمرو بن عبيد انه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه فقال ان ربك لبالمرصاد يا أبا جعفر عرض له في هذا النداء بأنه بعض من توعده بذلك من الجبابرة قال الزمخشري فلله دره أي أسد فراس كان بين ثوبيه يدق الظلمة بانكاره ويقصع أهل الاهواء والبدع باحتجاجه وقوله تعالى (فأما الانسان) متصل بقوله تعالى ان ربك لبالمرصاد فكأنه قيل ان الله تعالى يريد من الانسان الطاعة والسعي للعاقبة وهو لا يهمه الا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها (اذا ما ابتلاه) أي اختبره بالنعمة (ربه) أي الذي أبدعه وأحسن اليه بما يحفظ وجوده ليظهر شكره أو كفره (فأكرمه) أي جعله عزيزا بين الناس وأعطاه ما يكرمونه به من الجاه والمال (ونعمه) أي جعله متلذذا مترفها بما وسع الله تعالى عليه وقوله تعالى (فيقول) أي سرورا بذلك وافتخارا (ربي أكرمن) أي فضلني بما أعطاني خبر المبتدا الذي هو الانسان ودخول الفاء لما في أما من معنى الشرط والظرف المتوسط بين المبتدا والخبر في تقدير التأخير كأنه قيل فأما الانسان فقائل ربي أكرمن وقت الابتداء بالانعام فيظن ان ذلك عن استحقاق فيرتفع به وكذا قوله تعالى (وأما اذا ما ابتلاه فقدر) أي ضيق (عليه رزقه) التقدير وأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه أي بالفقر ليوازي قسيمه (فيقول) أي الانسان بسبب الضيق (ربي أهانن) فيهتم لذلك ويضيق به ذرعا ويكون أكبر همه وهذا في حق الكافر لقصور نظره وسوء فكره فيرى الكرامة والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته وقال الكلبي ومقاتل نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في عتبة بن ربيعة وقيل أبي بن خلف (فان قيل) كيف سمى كلا الامرين من بسط الرزق وتقتيره ابتلاء (أجيب) بأن كل واحد منهما اختبار للعبد فاذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر واذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع فالحكمة فيهما واحدة ونحوه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فان قيل) هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه (أجيب) بأن البسط اكرام من الله تعالى لعبده بانعامه عليه متفضلا من غير سابقة وأما التقتير فليس باهانة له لان الاخلال بالتفضل لا يكون اهانة ولكن ترك للكرامة وقد يكون المولى مكرما ومهينا وغير مكرم ولا مهين واذا أهدى لك زيد هدية قلت أكرمني بالهدية ولا تقول أهانني ولا أكرمني اذا لم يهد اليك (فان

قيل) قد قال تعالى فأكرمه فصحح اكرامه وأثبته ثم أنكر قوله ربى أكرمن وذمه عليه كما أنكر قوله أهانن وذمه عليه (أجيب) بوجهين أحدهما انما أنكر قوله ربى اكرمن وذمه عليه لانه قاله على قصد خلاف ما صححه الله تعالى عليه وأثبته وهو قصده الى أن الله تعالى أعطاه ما أعطاه اكراما له مستحقا ومستوجبا على عادة افتخارهم وجلالة اقدارهم عندهم كقوله انما أوتيته على علم عندى وانما أعطاه الله تعالى على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتد الله تعالى الا به وهو التقوى دون الانساب والاحساب التى كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها ثانيهما ان ينساق الانكار والذم الى قوله ربى أهانن يعنى انه اذا تفضل عليه بالخير واكرم به اعترف بتفضل الله واكرامه واذا لم يتفضل عليه يسمى ترك التفضل هوانا وليس بهوان قال الزمخشرى ويعضد هذا الوجه ذكر الاكرام فى قوله تعالى فأكرمه وقرأ ما بتلاه فى الموضعين حمزة بالامامة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ ربى أكرمن ربى أهانن نافع باثبات الياء فيهما وصلا لا وقفا وقرأ البزى باثباتها فيهما وقفا ووصلا وعن أبى عمرو فيهما فى الوصل الاثبات والحذف عنه فى الوصل أعدل والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقرأ ابن عامر فقدر عليه رزقه بتشديد الدال والباقون بتخفيفها وهما لغتان معناهما ضيق وقيل قدر بمعنى قتر وقدر أعطاه ما يكفيه ثم رد الله تعالى على من ظن ان سعة الرزق اكرام وان الفقر اهانة بقوله تعالى (كلا) أى ليس الاكرام بالغنى والاهانة بالفقر انما هما بالاطاعة والمعصية وكفار مكة لا ينتبهون لذلك (بل) لهم فعل أشر من هذا القول وهو انهم (لا يكرمون اليتيم) أى لا يحسنون اليه مع غناهم أو لا يعطونه حقه من الميراث قال مقاتل كان قدامة بن مظعون يتيما فى حجر أمية بن خلف فكان يدفعه عن حقه فنزلت (ولا يحضون) أى يحثون حثا عظيما (على طعام) أى اطعام (المسكين) فيكون اسم مصدر بمعنى الاطعام ويجوز أن يكون على حذف مضاف أى على بذل أو على اعطاء وفى اضافته اليه اشارة الى انه شريك للغنى فى ماله بقدر الزكاة (ويأكلون) على سبيل التجدد والاستمرار (التراث) أى الميراث والتاء فى التراث بدل من واو لانه من الوراثة (أكلا لما) أى ذا لم واللم الجمع الشديد يقال لممت الشئ لما أى جمعته جمعا قال الحطيئة

اذا كان لما يتبع الذم ربه * فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا

والجمع بين الحلال والحرام فانهم كانوا يورثون النساء والصبيان ويأكلون انصباءهم ويأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك فيلمون فى الاكل بين حلاله وحرامه ويجوز أن يذم الوارث الذى ظفر بالمال مهلا مهلا من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف فى انفاقه ويأكله أكلا واسعا جامعا بين ألوان المشتهيات من الاطعمة والاشربة والفواكه كما يفعل البطالون * ولما دل على حب الدنيا بأمر خارجى دل عليه فى الانسان فقال تعالى (ويحبون) أى على سبيل الاستمرار (المال) أى هذا النوع من أى شئ كان وأكده بالمصدر والوصف فقال تعالى (حبا جما) أى كثيرا شديدا مع الحرص والشره ومنع الحقوق وقوله تعالى (كلا) ردع لهم عن

ذلك

ذلك وانكار لفعلهم * ثم أخبر تعالى عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم فقال عز من قائل (اذا دكت الارض) أى حصل دكها ورجها وزلزالها التسوية بها فتكون كالاديم الممدود بشدة المط لاعوج فيها بوجه (دكا دكا) أى مرة بعد مرة وكسر كل شئ على ظهرها من جبل وبناء وشجر فلم يبق على ظهرها شئ وينعدم (وجاء ربك) قال الحسن أمره وقضاؤه (والملك) أى الملائكة وقوله تعالى (صفا صفا) حال أى مصطفين أى ذوى صفوف كثيرة فتنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والانس (وجئ) أى بأسهل أمر (يومئذ) أى اذ وقع ماذكر (بجهنم) أى النار التى تتجهم من يصلاها كقوله تعالى وبرزت الجحيم ويروى انها لما نزلت تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف فى وجهه حتى اشتد على أصحابه فاخبروا عليا فجاء فاحتضنه من خلفه وقبل ما بين عاتقيه ثم قال يا نبى الله بأبى أنت وامى ما الذى حدث اليوم وما الذى غيرك فتلا عليه الآية فقال له على كيف يجاء بها قال يجئ بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لاحرقت أهل الجمع ثم تعرض لى جهنم فتقول مالك ولى يا محمد ان الله تعالى قد حرم لحمك على فلا يبقى أحد الا قال نفسى نفسى الا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول رب أمتى أمتى وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه تقاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام بيد ألف ملك لها تغيظ وزفير حتى تنصب على يسار العرش وقوله تعالى (يومئذ) أى يوم يجاء بجهنم بدل من اذ وجوابها (يتذكر الانسان) أى يتذكر الكافر ما فرط أو يتعظ لانه يعلم قبح معاصيه فيندم عليها (وأنى له الذكرى) أى ومن أين له منفعة الذكرى قال الزمخشرى لابد من حذف مضاف والا فبين يتذكر وبين وأنى له الذكرى تناف وتناقض * (تنبيه) * أنى خبر مقدم والذكرى مبتدأ مؤخر وله متعلق بما تعلق به الظرف وقرأ وأنى حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وقرأ الدورى عن أبى عمرو بالامالة بين بين والباقون بالفتح وقرأ الذكرى أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح (يقول) أى يقول مع تذكره (يا) للتنبيه (ليتنى قدمت لحياتى) أى فى حياتى فاللام بمعنى فى أو قدمت الاعمال والخير لحياة لاموت فيها أو وقت حياتى فى الدنيا (فيومئذ) أى يوم يقول الانسان ذلك وقرأ (لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) الكسائى بفتح الذال والثاء على البناء للمفعول والباقون بكسرهما على البناء للفاعل فأما قراءة الكسائى فضمير عذابه ووثاقه للكافر والمعنى لا يعذب أحد مثل تعذيبه ولا يوثق مثل ايثاقه وأما على قراءة الباقين فالضمير فيهما لله تعالى أى لا يكل عذابه الى غيره أو الزبانية المتولين العذاب بأمر الله تعالى * ولما وصف الله تعالى حال من اطمأن الى الدنيا وصف حال من اطمأن الى معرفته وعبوديته وسلم أمره اليه فقال تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة) قال الحسن أى المؤمنة الموقنة وقال مجاهد الراضية بقضاء الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بثواب الله تعالى وقال ابن كيسان المخلصة وقال ابن زيد التى بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع ويقال لها عند الموت (ارجعى الى ربك) أى الى أمره وارادته وقال ابن عباس رضى الله تعالى

عنهما الى صاحبك وجسدك وقال الحسن الى ثواب ربك (راضية) أى بما أوتيته (مرضية) أى عند الله تعالى بعملك أى جامعة بين الوصفين لانه لا يلزم من أحدهما الآخر وهما حالان قال القفال هذا وان كان أمرا فى الظاهر فهو خبر فى المعنى والتقدير ان النفس اذا كانت مطمئنة رجعت الى الله تعالى فى القيامة بسبب هذا الامر (فادخلى فى) أى فى جملة (عبادى) أى الصالحين والوافدين على الذين هم أهل الاضافة الى أو فى أجساد عبادى التى خرجت فى الدنيا منها (وادخلى جنتى) أى معهم هى جنة عدن وهى أعلى الجنان ويجئ الامر بمعنى الخبر كثيرا فى كلامهم كقولهم اذا لم تستح فاصنع ماشئت وقال سعيد بن زيد قرأ رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال أبو بكر ما أحسن هذا يارسول الله فقال له ان الملك سيقوله لك ياأبا بكر وقال سعيد بن جبير مات ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بالطائف فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط فدخل نعشه ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لايدرى من تلاها ياأيتها النفس الآية وروى الضحاك انها نزلت فى عثمان حين وقف بئر رومة وقيل فى خبيب بن عدى الذى صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه الى المدينة فقال اللهم ان كان لى عندك خير فحول وجهى نحو قبلتك فحول الله تعالى وجهه نحوها فلم يستطع أحد ان يحوله وقيل نزلت فى حمزة بن عبد المطلب قال الزمخشرى والظاهر العموم وقول البيضاوى تبعا له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الفجر فى الليالى العشر غفر له ومن قرأها فى سائر الايام كانت له نورا يوم القيامة حديث موضوع

(سورة البلد مكية)

وهى عشرون آية واثنان وثمانون كلمة وثلثمائة وعشرون حرفا

(بسم الله) الملك الذى لاراد لأمره (الرحمن) الذى عم سائر خلقه بفضله (الرحيم) الذى خص أهل طاعته بجنته واختلف فى لا فى قوله تعالى (لا أقسم) فقال الاخفش انها مزيدة أى أقسم كما تقدم فى قوله تعالى لا أقسم بيوم القيامة وقد أقسم به سبحانه وتعالى قال الشاعر

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة * وكاد صميم القلب لا يتقطع

أى يتقطع ودخل حرف لا صلة وكقوله تعالى مامنعك أن لا تسجد وقد قال تعالى فى ص مامنعك أن تسجد واجاز الاخفش أيضا ان تكون بمعنى الا وقيل هى نفى صحيح والمعنى لا أقسم بهذا البلد اذا لم تكن فيه بعد خروجك منه حكاه مكى وأجمعوا على أن المراد بالبلد فى قوله تعالى (بهذا البلد) أى الحرام وهو مكة وفضلها معروف فانه تعالى جعلها حرما آمنا وقال تعالى ومن دخله كان آمنا وجعل مسجده قبلة لاهل المشرق والمغرب فقال تعالى وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وأمر الناس بحج البيت فقال تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع وقال تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا وقال تعالى واذ بوأنا لابرهيم مكان البيت وقال تعالى وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق وشرف مقام ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى واتخذوا من

مقام ابراهيم مصلى وحرم صيده وجعل البيت المعمور بازائه ودحيت الارض من تحته فهذه الفضائل وأكثر منها انما اجتمعت فى مكة لاجرم أقسم الله تعالى بها (وأنت) أى يا أشرف الخلق (حل) أى حلال لك مالم يحل لغيرك من قتل من تريد ممن يدعى أنه لاقدرة لاحد عليه (بهذا البلد) بأن يحل لك فتقاتل فيه وقد أنجز الله له هذا الوعد يوم الفتح وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل ماشاء وحرم ماشاء قتل ابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبى سفيان ثم قال ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهى حرام الى أن تقوم الساعة لم تحل لاحد قبلى ولن تحل لاحد بعدى ولم تحل لى الاساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها الالمنشدها فقال العباس يارسول الله الا الاذخر فانه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال صلى الله عليه وسلم الا الاذخر ونظير وأنت حل فى معنى الاستقبال قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ومثله واسع فى كلام العرب تقول لمن تعده الاكرام والحباء لانت مكرم محبو وهو فى كلام الله تعالى واسع لان الاحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة وكفاك دليلا قاطعا على انه للاستقبال وان تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية وأين الهجرة من وقت نزولها فمابال الفتح والجملة اعتراض بين المقسم به وماعطف عليه واختلف فى قوله تعالى (ووالد وماولد) فقال الزمخشرى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ولده اقسم ببلده الذى هو مسقط رأسه وحرم ابيه ابراهيم ومنشأ أبيه اسمعيل وبمن ولده وبه وقال البغوى هما آدم وذريته وقيل كل والد وولده (فان قيل) هلا قيل ومن ولد (أجيب) بأن فيه مافى قوله تعالى والله أعلم بما وضعت أى بأى شئ وضعت يعنى موضوعا عجيب الشأن أوان ما بمعنى من والذى عليه أكثر المفسرين هما آدم وذريته لانهم أعجب ماخلق الله تعالى على وجه الارض لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم وفيهم الانبياء والدعاة الى الله تعالى والانصار لدينه وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الاسماء كلها ولقد قال الله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم وقيل هما آدم والصالحون من ذريته وأما الطالحون فكأنهم بهائم كما قال تعالى ان هم الا كالانعام بل هم أضل صم بكم عمى فهم لا يرجعون والمقسم عليه قوله تعالى (لقد خلقنا الانسان) أى الجنس (فى كبد) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أى شدة ونصب وعنه أيضا فى شدة من حمله وولادته ورضاعه ونبت اسنانه وسائر أحواله وعن عكرمة منتصبا فى بطن أمه والكبد الاستواء والاستقامة فهذا امتنان عليه فى الحقيقة ولم يخلق الله تعالى دابة فى بطن أمها الامنكبة على وجهها الا ابن آدم فانه منتصب انتصابا وقال ابن كيسان منتصبا فى بطن أمه فاذا أراد الله تعالى أن يخرجه من بطن أمه قلب رأسه الى رجلى أمه وقال الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة وقال يمان لم يخلق الله تعالى خلقا يكابد مايكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق قال بعض العلماء أول مايكابد قطع سرته ثم اذا قمط قماطا وشدر باطا يكابد الضيق والتعب ثم يكابد الارتضاع ولوفاته ضاع ثم يكابد نبت اسنانه ثم يكابد الفطام الذى هو أشد من اللطام ثم يكابد

الختان والاوجاع ثم المعلم وصولته والمؤدب وسياسته والاستاذ وهيبته ثم يكابد شغل التزويج وشغل الاولاد والخدم وشغل المسكن والجيران ثم الكبر والهرم وضعف الركب والقدم فى مصائب يكثر تعدادها من صداع الرأس ووجع الاضراس ورمد العين وهم الدين ووجع السن وألم الاذن ويكابد محنا فى المال والنفس من الضرب والحبس ولا يمضى عليه يوم الا يقاسى فيه شدة ثم يكابد بعد ذلك مشقة الموت ثم بعده سؤال الملك وضغطة القبر وظلمته ثم البعث والعرض على الله تعالى الى أن يستقر به القرار اما فى الجنة واما فى النار فدل هذا على أن له خالقا دبره وقضى عليه بهذه الاحوال ولو كان الامر اليه ما اختار هذه الشدائد فليمتثل أمر خالقه وقال ابن زيد المراد بالانسان هنا آدم عليه السلام وقوله تعالى فى كبد أى فى وسط السماء وقال مقاتل فى كبد أى فى قوة نزلت فى أبى الاشدين واسمه أسيد بن كلدة بن جمح وكان شديدا قويا يضع الاديم العكاظى تحت قدميه فيقول من أزالنى عنه فله كذا وكذا فيجذبه عشرة فيتمزق الاديم من تحت قدميه ولا تزول قدماه ويبقى موضع قدميه وكان من اعداء النبى صلى الله عليه وسلم وفيه نزل (أيحسب) اى أيظن الانسان قوى قريش وهو ابو الاشدين بقوته (أن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف اى انه (لن يقدر عليه) اى خاصة (احد) اى من اهل الارض او السماء فيغلبه حتى انه يعاند خالقه والله تعالى قادر عليه فى كل وقت وقيل نزلت فى المغيرة بن الوليد المخزومى (يقول) أى يفتخر بقوته وشدته (أهلكت) أى على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم (مالا لبدا) اى كثيرا بعضه على بعض (أيحسب) اى هذا الانسان العنيد بقلة عقله (أن) اى انه (لم يره احد) قال سعيد بن جبير أى أظن ان الله تعالى لم يره ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وقال الكلبى انه كان كاذبا فى قوله انه أنفقه ولم ينفق جميع ما قال والمعنى أيظن ان الله تعالى لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته وقرأ أيحسب فى الموضعين ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها * ثم ذكره نعمه عليه ليعتبر بقوله تعالى (ألم نجعل) أى بمالنا من القدرة التامة (له عينين) يبصر بهما المرئيات والا لتعطل عليه أكثر ما يريد شققناهما وهو فى الرحم فى ظلمات ثلاث على مقدار مناسب لا تزيد احداهما على الاخرى شيأ وقدرنا البياض والسواد والشهلة والزرقة وغير ذلك على ما ترون وأودعناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن ادراكها (ولسانا) يترجم به عن ضمائره (وشفتين) يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والاكل والشرب والنفخ وغير ذلك قال قتادة نعم الله تعالى عليه متظاهرة فيقرره بها كى يشكره قال البغوى وجاء فى الحديث ان الله تعالى يقول يا ابن آدم ان نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وان نازعك بصرك الى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وان نازعك فرجك الى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق (وهديناه) أى آتيناه من العقل (النجدين) قال اكثر المفسرين بينا له طريق الخير والشر والهدى والضلال والحق والباطل كقوله تعالى انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا وصار بما جعلناه له من ذلك سميعا بصيرا عالما فصار موضعا للتكاليف روى الطبرانى أنه صلى الله عليه وسلم قال يا أيها

الناس هلموا الى ربكم فان ماقل وكفى خير مما كثر وألهى يا أيها الناس انما هما نجدان نجد خير ونجد شر فلم جعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير قال المنذرى النجد هنا الطريق وقال ابن عباس رضي الله عنهما بيناله الشديين وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك وأصله المكان المرتفع (فلا اقتحم العقبة) أى فهلا أنفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب واطعام المساكين والايتام بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى ان الانفاق على هذا الوجه هو الانفاق المرضى النافع عند الله تعالى لاأن يهلك مالا لبدا فى الرياء والفخر وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم فيكون على هذا الوجه كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم الآية وقيل معناه لم يقتحمها ولا جاوزها والاقتحام الدخول فى الامر الشديد وذكر العقبة مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان فى أعمال البر فجعله كالذى يتكلف صعود العقبة يقول الله تعالى لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة والاطعام وهذا معنى قول قتادة وقيل انه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بعقبة فاذا أعتق رقبة وأطعم المساكين كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها وروى عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل فى جهنم وقال الحسن هى عقبة شديدة فى النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله تعالى ومجاهدة النفس وقال مجاهد هى الصراط يضرب على متن جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة صعودا وهبوطا واستواء وان بجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان فناج مسلم وناج مخدوش ومكردس فى النار منكوس وفى الناس من يمر كالبرق الخاطف ومنهم من يمر كالريح العاصف ومنهم من يمر كالرجل يعدو ومنهم من يمر كالرجل يسير ومنهم من يزحف زحفا ومنهم الزالون ومنهم من يكردس فى النار وقال ابن زيد فهلا سلك طريق النجاة وقوله تعالى (وما أدراك) أى أعلمك أيها السامع لكلامنا الراغب فيما عندنا (ما العقبة) تعظيم لشأنها والجملة اعتراض قال سفيان بن عيينة كل شئ قال فيه وما أدراك فانه أخبر به وما كان قال وما يدريك فانه لم يخبر به ثم بين سبب جوازها بقوله تعالى (فك) أى الانسان (رقبة) أى خلصها من الرق وذلك بأن يعتق رقبة فى ملكه أو يعطى مكاتبا ما يصرفه فى فك رقبته روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه وقال الزمخشرى وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال تعتق النسمة وتفك الرقبة قال أوليسا سواء قال لا اعتاقها أن تنفرد بعتقها وفكها أن تعين فى تخليصها من قود أو غرم والعتق والصدقة من أفضل الاعمال وعن أبى حنيفة أن العتق أفضل من الصدقة وعن صاحبيه الصدقة أفضل قال الزمخشرى والآية أدل على قول أبى حنيفة لتقديم العتق على الصدقة وقال عكرمة يعنى فك رقبته من الذنوب وقال الماوردى ويحتمل أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه باجتناب المعاصى وفعل الطاعات ولا يمنع الخبر من هذا التأويل وهو أشبه بالصواب (أو أطعم) أى دفع الاطعام لشئ له قابلية ذلك (فى يوم ذى مسغبة) أى مجاعة والسغب الجوع (يتيما) أى انسانا صغيرا لا أب له (ذا مقربة) أى ذا قرابة لك بأن كان بينك وبينه قرابة يقال فلان ذو قرابتى وذو مقربتى (أو مسكينا)

وهو من له مال أو كسب يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه (ذا متربة) أي لصوق بالتراب لفقره يقال ترب اذا افتقر ومعناه التصق بالتراب وأما أترب فاستغنى أي صار ذا مال كالتراب في الكثرة كما قيل أثرى وعنه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ذا متربة الذي مأواه المزابل قال ابن عباس رضي الله عنهما هو المطروح على الطرق الذي لا بيت له وقال مجاهد هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره وقال قتادة انه ذو العيال واحتج بهذه الآية على أن المسكين يملك شيأ لانه لو كان لا يملك شيأ لكان تقييده بقوله تعالى ذا متربة تكريرا وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة برفع الكاف وجر رقبة وكسر همزة اطعام وفتح العين وبعدها ألف ورفع الميم منونة والباقون فك بنصب الكاف رقبة بالنصب أطعم بفتح الهمزة والعين والميم بغير تنوين ولا ألف بين العين والميم (فان قيل) قوله تعالى فلا اقتحم العقبة الى آخره ذكر لا مرة واحدة قال الفراء والزجاج والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي حتى تعيد لا كقوله تعالى فلا صدق ولا صلى (أجيب) بأنه انما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه فيجوز أن يكون قوله تعالى (ثم كان من الذين آمنوا) قائما مقام التكرير فكأنه قال فلا اقتحم العقبة ولا آمن وقال الزمخشري هي متكررة في المعنى لان معنى فلا اقتحم العقبة فلا فك رقبة ولا أطعم مسكينا ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك قال ابو حيان ولا يتم له هذا الا على قراءة فك فعلا ماضيا وعن مجاهد ان قوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا يدل على أن لا بمعنى لم ولا يلزم التكرير مع لم فان كررت لا كقوله تعالى فلا صدق ولا صلى فهو كقوله تعالى لم يسرفوا ولم يقتروا *(تنبيه)* ثم كان معطوف على اقتحم وثم للترتيب الذكري والمعنى كان وقت الاقتحام من الذين آمنوا وقال الزمخشري جاء بثم لتراخي الايمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت لان الايمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح الا به (وتواصوا) أي وصبروا وأوصى بعضهم بعضا (بالصبر) أي على الطاعة وعن المعصية والمحن التي يبتلى بها المؤمن (وتواصوا بالمرحمة) أي بالرحمة على عباده بأن يكونوا متراحمين متعاطفين أي بما يؤدي الى رحمة الله تعالى (أولئك) أي الموصوفون بهذه الصفات (أصحاب الميمنة) أي الجانب الذي فيه اليمن والبركة والنجاة من كل هلكة قال محمد بن كعب أي الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم وقال يحيى بن سلام لانهم ميامين على أنفسهم وقال ابن زيد لانهم أخذوا من شق آدم الايمن وقال ميمون بن مهران لان منزلتهم عن اليمين وقال الزمخشري الميمنة اليمين أو اليمن (والذين كفروا) أي ستروا ما ظهر لهم من أنوار بصائرهم من العلم (بآياتنا) أي على ما لها من العظمة بالاضافة الينا والظهور الذي لا يمكن خفاؤه من القرآن وغيره (هم أصحاب المشأمة) أي الخصلة المكسبة للشؤم والحرمان قال محمد بن كعب أي الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقال يحيى بن سلام لانهم مشائيم على أنفسهم وقال ابن زيد لانهم أخذوا من شق آدم الايسر عليه السلام وقال ميمون لان منزلتهم عن اليسار وقال الزمخشري المشأمة الشمال أو الشؤم قال القرطبي ويجمع هذه الاقوال أصحاب الميمنة هم أصحاب الجنة وأصحاب المشأمة هم أصحاب النار (عليهم) أي خاصة (نار مؤصدة) أي مطبقة وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة بالهمزة والباقون بغير

همزة

همزة أى بوا وساكنة وهما لغتان يقال أصدت الباب وأوصدته اذا أغلقته وأطبقته وقيل معنى المهموز المطبقة وغير المهموز المغلقة واذا وقف حمزة أبدل على أصله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الامان من غضبه يوم القيامة حديث موضوع

(سورة والشمس مكية)

وهى خمس عشرة آية وأربع وخمسون كلمة وماءتان وسبعة وأربعون حرفا

(بسم الله) الذى له الاسماء الحسنى (الرحمن) الذى يعلم السر وأخفى (الرحيم) الذى خص خواصه بالفردوس الاعلى وقوله تعالى (والشمس) أى الجامعة بين النفع والضر بالنور والحر (وضحاها) قسم وقد تقدم الكلام على أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وقيل التقدير ورب الشمس الى تمام القسم * واختلف فى قوله تعالى وضحاها فقال مجاهد والكلبى ضوءها وقال قتادة هو النهار كله وقال مقاتل هو حرها وقال لقوله تعالى فى طه ولا تضحى أى لا يؤذيك الحر وقال اليزيدى انبساطها قال الرازى انما أقسم بالشمس لكثرة ما يتعلق بها من المصالح فان أهل العالم كانوا كالاموات فى الليل فلما ظهر الصبح فى المشرق صار ذلك الضوء كالروح الذى تنفخ فيه الحياة فصارت الاموات أحياء ولا تزال تلك الحياة فى القوة والزيادة الى غاية كمالها وقت الضحوة وذلك يشبه استقرار أهل الجنة (والقمر) أى المكتسب من نورها كما ان أنوار النفوس من أنوار العقول (اذا تلاها) أى تبعها وذلك اذا سقطت رؤى الهلال قال الليث يقال تلوت فلانا اذا تبعته وقال ابن زيد اذا غربت الشمس فى النصف الاول من الشهر تلاها القمر بالطلوع وفى آخر الشهر يتلوها بالغروب وقال الفراء تلاها أى أخذ منها يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس وقال الزجاج تلاها أى حين استوى ودار وكان مثلها فى الضياء والنور وذلك فى الليالى البيض (والنهار) أى الذى هو محل الانتشار فيما جرت به الاقدار (اذا جلاها) أى الشمس بارتفاعه لان الشمس تنجلى فى ذلك الوقت تمام الانجلاء وقيل الضمير للظلمة أو للدنيا أو للارض وان لم يجر لها ذكر كقولهم أصبحت باردة يريدون الغداة وأرسلت يريدون السماء (والليل) أى الذى هو ضد النهار فهو محل السكون والانقباض (اذا يغشاها) أى يغطيها بظلمته فتغيب وتظلم الآفاق وقيل الكناية للارض أى يغشى الدنيا بالظلمة فتظلم الآفاق فالكناية ترجع الى غير مذكور وجىء بغشاها مضارعا دون ماقبله ومابعده مراعاة للفواصل اذ لو أتى به ماضيا لكان التركيب اذا غشيها فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع * (تنبيه) * اذا فى الثلاثة لمجرد الظرفية والعامل فيها فعل القسم (والسماء وما) أى ومن (بناها) أى خلقها على هذا السقف المحكم أقسم تعالى بنفسه وبأعظم مخلوقاته وقوله تعالى (والارض) أى التى هى فراشكم (وما) أى ومن (طحاها) أى بسطها وسطحها على الماء كذلك وكذا قوله تعالى (ونفس) أى أى نفس جمع فيها سبحانه العالم بأسره (وما) أى ومن (سواها) أى عدلها على هذا القانون الاحكم فى أعضائها ومافيها من

الجواهر والاعراض والمعانى وغير ذلك (فان قيل) لم نكرت النفس (أجيب) بوجهين أحدهما انه يريد نفسا خاصة من بين النفوس وهى نفس آدم عليه السلام كأنه قال تعالى وواحدة من النفوس ثانيهما انه يريد كل نفس ونكره للتكثير على الطريقة المذكورة فى قوله تعالى علمت نفس وانما أوثرت ما على من فيما ذكر لارادة الوصفية بماضمنا وان لم يوصف بلفظها اذ المراد انها تقع على نوع من يعقل وعلى صفته ولذلك مثلوا بقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم وقدروها بانكحوا الطيب وهذا تنفرد به ما دون من وهذه الاسماء كلها مجرورة على القسم أقسم الله تعالى بأنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لان الذى يقسم الله تعالى به يحصل به روح فى القلب فتكون الدواعى الى تأمله أقرب (فألهمها) أى النفس (فجورها وتقواها) قال ابن عباس رضى الله عنهما بين لها الخير والشر وعنه علمها الطاعة والمعصية وعن ابى صالح عرفها ما تأتى وما تتقى وقال سعيد بن جبير ألزمها فجورها وتقواها وقال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه اياها للتقوى وخذلانه اياها للفجور واختار الزجاج هذا وحمل الالهام على التوفيق والخذلان قال البغوى وهذا بين أن الله تعالى خلق فى المؤمن التقوى وفى الكافر الفجور وعن أبى الاسود الديلى قال قال لى عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشئ قضى عليهم ومضى عليهم من قدر سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم وثبتت الحجة عليهم قلت بل شئ قضى عليهم ومضى عليهم فقال أفلا يكون ظلما قال ففزعت منه فزعا شديدا وقلت انه ليس شئ الا وهو خلقه وملك يده لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فقال لى سددك الله انما سألتك لأختبر عقلك ان رجلا من جهينة أو مزينة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكادحون فيه أشئ قضى الله عليهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وأكدت به الحجة فقال فى شئ قد مضى عليهم قال فقلت ففيم العمل الآن قال من كان الله خلقه لاحدى المنزلتين يهيئه الله لها وتصديق ذلك فى كتاب الله تعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها وعن جابر قال جاء سراقة ابن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير أو فيما يستقبل قال بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير قال ففيم العمل قال اعملوا وكل ميسر لما خلق له * واختلف فى جواب القسم فأكثر المفسرين على أنه (قد أفلح) أى ظفر بجميع المرادات والاصل لقد وانما حذفت لطول الكلام وقيل انه ليس بجواب وانما جئ به تابعا لقوله تعالى فألهمها فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم فى شئ والجواب محذوف تقديره ليدمدمن الله عليهم أى أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لانهم قد كذبوا صالحا أو لتبعثن وقيل هو على التقديم والتأخير من غير حذف والمعنى قد أفلح (من زكاها) أى طهرها من الذنوب ونماها وأصلحها ووصفاها تصفية عظيمة مما يسره الله تعالى له من العلوم النافعة والاعمال الصالحة (وقد خاب) أى خسر (من دساها) أى أغواها اغواء عظيما وأفسدها وأهلكها

بخبائث الاعتقادات ومساوى الاعمال وقبائح السيآت والشمس وضحاها وفاعل زكاها ودساها ضمير من وقيل ضمير البارى سبحانه أى قد أفلح من زكاها بالطاعة وقد خاب من دساها أى خسرت نفس دساها الله تعالى بالمعصية وأنكر الزمخشرى على صاحب هذا القول لمنافرته مذهبه ولكن قال بعض المفسرين الحق انه خلاف الظاهر لا كما قاله الزمخشرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما خابت نفس أضلها الله تعالى وأغواها وأصل الزكاة النمو والزيادة ومنه زكى الزرع اذا كثر ريعه ومنه تزكية القاضى الشاهد لانه يرفعه بالتعديل وأصل دساها دسسها من التدسيس وهو اخفاء الشئ فأبدل من السين الثانية ياء والمعنى أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية وعن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذبك من العجز والكسل والبخل والجبن والهم وفى رواية والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسى تقواها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم انى أعوذبك من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع ومن قلب لا يخشع ومن دعوة لا يستجاب لها (كذبت ثمود) وهم قوم صالح كذبوا رسولهم صالحا عليه السلام وأنث فعلهم لضعف أثر تكذيبهم لان كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم (بطغواها) أى أوقعت التكذيب لرسولها بكل ما أتى به عن الله تعالى أى طغيانها وقيل ان الباء للاستعانة قال الزمخشرى مثلها فى كتبت بالقلم والطغوى من الطغيان فصلوا بين الاسم والصفة فى فعلى من بنات الياء بأن قلبوا الياء واوا فى الاسم وتركوا القلب فى الصفة فقالوا امرأة خزيا وصديا يعنى فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول ظلمنى بجراءته على الله تعالى وقيل كذبت بما أوعدت به من عذاب ذى الطغوى كقوله تعالى فأهلكوا بالطاغية (اذ) أى تحقق تكذيبهم أو طغيانهم بالفعل حين (انبعث أشقاها) أى قام وأسرع وذلك انهم لما كذبوا بالعذاب وكذبوا صالحا عليه السلام انبعث أشقى القوم وهو قدار بن سالف وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا فعقر الناقة وعن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يخطب فذكر الناقة والذى عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى أهله مثل أبى زمعة وقوله عارم أى شديد ممتنع قال الزمخشرى ويجوز أن يكونوا جماعة والتوحيد لتسويتك فى افعل التفضيل اذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث * (تنبيه) * اذ منصوب بكذبت أو بطغواها (فقال لهم) أى بسبب الانبعاث أو التكذيب الذى دل على قصدهم لها بالاذى (رسول الله) أى صالح عليه السلام وعبر بالرسول لان وظيفته الابلاغ والتحذير الذى ذكر هنا ولذلك قال تعالى مشيرا بحذف العامل الى ضيق الحال عن ذكره لعظم الهول وسرعة التعذيب عند مسها بالاذى وزاد فى التعظيم باعادة الجلالة (ناقة الله) أى الملك الاعظم الذى له الامر كله وهى منصوبة على التحذير كقولك الاسد الاسد والصبى الصبى باضمار اتقوا أو احذروا ناقة الله (وسقياها) أى وشربها فى يومها وكان لها يوم ولهم يوم لانهم لما اقترحوا الناقة فأخرجها لهم من الصخرة جعل لهم شرب يوم من بئرهم ولها شرب يوم فشق عليهم واضافة الناقة الى الله تعالى اضافة تشريف كبيت الله (فكذبوه) أى صالحا عليه السلام بطغيانهم

فى وعيدهم بالعذاب (فعقروها) أى عقرها الاشقى بسبب ذلك التكذيب وأضيف الى الكل لانهم رضوا بفعله وان كان العاقر جماعة فواضح وقال قتادة بلغنا انه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان أفضل الناس وهذان خير الناس وهذه المرأة أشقى القوم ولهذا لم يقل أشقياها (فدمدم) أى فأطبق (عليهم ربهم) أى الذى أحسن اليهم فغمرهم احسانه فقطعه عنهم بسبب تكذيبهم فأهلكهم وأطبق عليهم العذاب يقال دمدمت عليه القبر أطبقته عليه (بذنبهم) أى بسبب كفرهم وتكذيبهم وعقرهم الناقة وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما دمدم عليهم ربهم بذنبهم أى بجرمهم وقال القشيرى وقيل دمدمت على الميت التراب أى سويته عليه فالمعنى على هذا فجعلهم تحت التراب (فسوّاها) أى فسوّى عليهم الارض فجعلهم تحت التراب وعلى الاول فسوّى الدمدمة عليهم أى عمهم بها فلم يفلت منهم احدا وقرأ (ولا يخاف) نافع وابن عامر بالفاء والباقون بالواو فالفاء تقتضى التعقيب والواو يجوز أن تكون للحال وأن تكون للاستئناف الاخبارى وضمير الفاعل فى يخاف الاظهر عوده على الله تعالى لانه أقرب مذكور وهو قول ابن عباس ويؤيده قراءة الفاء المسببة عن الدمدمة والتسوية والهاء فى قوله تعالى (عقباها) ترجع الى الفعلة وذلك لانه تعالى يفعل ذلك بحق وكل من فعل فعلا بحق فانه لا يخاف عاقبة فعله وقيل المراد تحقيق ذلك الفعل والله تعالى أجل من أن يوصف بذلك وقيل المعنى انه تعالى بالغ فى الانذار اليهم مبالغة كمن لا يخاف عاقبة عذابهم وقيل يرجع ذلك الى رسولهم صالح عليه السلام أى لا يخاف عقبى هذه العقوبة لانذاره اياهم ونجاه الله وأهلكهم وقال السدى يرجع الضمير الى أشقاها أى انبعث لعقرها والحال انه غير خائف عاقبة هذه الفعلة الشنعاء وقرأ الكسائى جميع رؤس آى هذه السورة بالامالة محضة وقرأها أبو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وأمال حمزة مثل الكسائى الا تلاها وضحاها ففتحهما والباقون بالفتح واتفقوا على فتح فعقروها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والشمس فكأنما تصدق بكل شئ طلعت عليه الشمس والقمر حديث موضوع

(سورة والليل مكية)

وهى احدى وعشرون آية واحدى وسبعون كلمة وثلثمائة وعشرة أحرف

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) الذى عم رزقه العالمين (الرحيم) الذى خص بجنته المؤمنين وقوله تعالى (والليل) أى الذى هو آلة الظلام (اذا يغشى) قسم وقد مرّ الكلام على ذلك ولم يذكر تعالى مفعولا للعلم به فقيل يغشى بظلمته كل ما بين السماء والارض وقيل يغشى النهار وقيل الارض وقيل الخلائق قال قتادة أوّل ما خلق الله تعالى النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما والنور نهارا مضيئا مبصرا وقوله تعالى (والنهار) أى الذى هو سبب انكشاف الامور (اذا تجلى) أى تكشف وظهر قسم آخر قال الرازى أقسم بالليل الذى يأوى

فيه كل حيوان الى مأواه وتسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذى جعله الله تعالى راحة لابدانهم وغذاء لارواحهم ثم أقسم بالنهار اذا تجلى لان النهار اذا جاء انكشف بضوئه ماكان فى الدنيا من الظلمة وجاء الوقت الذى تحرك فيه الناس لمعايشهم وتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكانها فلو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش ولو كان كله نهارا لبطلت الراحة لكن المصلحة فى تعاقبهما كما قال تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة وقال تعالى وسخر لكم الليل والنهار (وما) بمعنى من أى ومن (خلق الذكر والانثى) أى فيكون قد أقسم بنفسه أو مصدرية أى وخلق الله الذكر والانثى وجاز اضمار اسم الله تعالى لانه معلوم لانفراده بالخلق اذ لا خالق سواه والذكر والانثى آدم وحواء عليهما السلام أو كل ذكر وأنثى من سائر الحيوانات والخنثى وان أشكل أمره عندنا فهو عند الله تعالى غير مشكل معلوم بالذكورة أو الانوثة فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكرا ولا أنثى وقد لقى خنثى مشكلا كان حانثا لانه فى الحقيقة ذكر أو أنثى وان كان مشكلا عندنا وقيل كل ذكر وأنثى من الآدميين فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته وقوله تعالى (ان سعيكم) أى عملكم (لشتى) جواب القسم والمعنى ان أعمالكم لمختلف فعامل للجنة بالطاعة وعامل للنار بالمعصية ويجوز أن يكون محذوفا كما قيل فى نظائره المتقدمة وشتى واحده شتيت مثل مريض ومرضى وانما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه أى ان عملكم المتباعد بعضه من بعض لشتى لان بعضه ضلال وبعضه هدى أى فيكم مؤمن وبر وكافر وفاجر ومطيع وعاص وقيل لشتى أى لمختلف الجزاء فمنكم مثاب بالجنة ومعاقب بالنار وقيل لمختلف الاخلاق فمنكم راحم وقاس وحليم وطائش وجواد وبخيل قال بعض المفسرين نزلت هذه الآية فى أبى بكر وأبى سفيان بن حرب وروى أبو مالك الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها أى مهلكها وقوله تعالى (فأما من أعطى) أى وقع منه اعطاء على ما حددناه له وأمرناه به (واتقى) أى ووقعت منه التقوى وهى ايجاد الوقايات من الطاعات واجتناب المعاصى خوفا من سطواتنا (وصدق بالحسنى) تفصيل مبين لتشتيت المساعى واختلف فى الحسنى فقال ابن عباس أى بلا اله الا الله وقال مجاهد بالجنة لقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وقال زيد ابن أسلم الصلاة والزكاة والصوم (فسنيسره) أى نهيئه بما لنا من العظمة بوعد لا خلف فيه (لليسرى) أى لاسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها وقال زيد بن أسلم لليسرى أى للجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نفس منفوسة الا كتب الله تعالى مدخلها فقال القوم يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال صلى الله عليه وسلم بل اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فانه ميسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فانه ميسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى (وأما من بخل) أى أوجد هذه الحقيقة الخبيثة فمنع ما أمر به وندب اليه (واستغنى) أى طلب الغنى عن الناس وعما وعد به من الثواب أو وجده بما زعمت له نفسه الخائنة

ويظنونه الكاذبة فلم يحسن إلى الناس ولا عمل للعقبى (وكذب) أي أوقع التكذيب لمن يستحق التصديق (بالحسنى) أي فأنكرها وكان عامداً مع المحسوسات كالبهائم (فسنيسره) أي نهيئه (للعسرى) أي للخلة المؤدية إلى العسرة والشدة كدخول النار وعن ابن عباس قال نزلت في أمية بن خلف وعنه فسنيسره للعسرى أي سأحول بينه وبين الايمان بالله ورسوله وعنه أيضاً وأما من بخل أي بماله واستغنى عن ربه وكذب بالحسنى أي بالخلف الذي وعده الله تعالى في قوله سبحانه وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وقال مجاهد وكذب بالحسنى أي بالجنة وعنه بلا إله إلا الله ويجوز في ما في قوله تعالى (وما يغني عنه ماله) أن تكون نافية أي لا يغني عنه ماله شيئاً وأن تكون استفهاماً انكارياً أي أي شيء يغني عنه ماله (اذا تردى) قال أبو صالح أي اذا سقط في جهنم وقيل هو كناية عن الموت كما قال القائل

نصيبك مما تجمع الدهر كله * رداآن تطوى فيهما وحنوط

* ولما عرفهم سبحانه أن سعيهم شتى وبين ما للمحسنين من اليسرى وما للمسيئين من العسرى أخبرهم بأن عليه بيان الهدى من الضلال بقوله تعالى (ان علينا) أي بما لنا من القدرة والعظمة (للهدى) أي للارشاد إلى الحق بموجب قضائنا أو بمقتضى حكمتنا فنبين طريق الهدى من طريق الضلال ليمتثل أمرنا بسلوك الاول ونهينا عن ارتكاب الثاني وقال الفراء معناه ان علينا للهدى والاضلال فحذف المعطوف كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر وهو معنى قول ابن عباس يريد أرشد أوليائي للعمل بطاعتي وأحول بين أعدائي أن يعملوا بطاعتي وهو معنى الاضلال وقيل معناه من سلك سبيل الهدى فعلى الله تعالى سبيله كقوله تعالى وعلى الله قصد السبيل (وان لنا للآخرة والاولى) أي لنا ما في الدنيا والآخرة فنعطي في الدارين ما نشاء لمن نشاء فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق وعن ابن عباس قال ثواب الدنيا والآخرة وهو كقوله تعالى من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة (فأنذرتكم) أي حذرتكم وخوفتكم يا أيها الخالقون للطريق الذي بينته (ناراً تلظى) بحذف احدى التاءين من الاصل أي تتلهب وتتوقد وتتوهج يقال تلظت النار تلظياً ومنه سميت جهنم لظى وقرأ البزي في الوصل بتشديد التاء وهو عسر لالتقاء الساكنين على غير حدهما وهو نظير قوله تعالى اذ تلقونه والباقون بغير تشديد (لا يصلاها) أي لا يقاسي شدتها على طريق اللزوم والانغماس (الا الاشقى) أي الذي هو في الذروة من الشقاوة وهو الكافر فان الفاسق وان دخلها لم يلزمها ولذلك سماه أشقى ووصفه بقوله تعالى (الذي كذب) النبي صلى الله عليه وسلم (وتولى) أي عن الايمان أو كذب الحق وأعرض عن الطاعة أو الاشقى بمعنى الشقي كقوله لست فيها بأوحد أي بواحد والحصر مؤول لقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فيكون المراد الصلي المؤبد (وسيجنبها) أي النار الموصوفة بوعد لا خلف فيه (الاتقى) أي الذي اتقى الشرك والمعاصي فانه لا يدخلها فضلاً أن يدخلها ويصلاها ومفهوم ذلك على التفسير الاول أن من اتقى الشرك دون المعصية لا يجنبها ولا يلزم ذلك صليها ولا يخالف الحصر السابق أو الاتقى

بمعنى

يعنى التقى على وزان ما مر (الذى يؤتى ماله) أى يصرفه فى وجوه الخير لقوله تعالى (يتزكى) فانه بدل من يؤتى أو حال من فاعله فعلى الاول لا محل له لانه داخل فى حكم الصلة والصلة لا محل لها وعلى الثانى محله نصب قال البغوى يعنى أبابكر الصديق رضى الله عنه فى قول الجميع قال ابن الزبير كان يبتاع الضعفة فيعتقهم فقال له أبوه أى بنى لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك فقال منع ظهرى أريد فأنزل الله تعالى وسيجنبها الاتقى الى آخر السورة وذكر محمد ابن اسحق قال كان بلال لبعض بنى جمح وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامة وكان صادق الاسلام طاهر القلب وكان أمية بن خلف يخرجه اذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد فيقول وهو فى ذلك أحد أحد قال محمد بن اسحق عن هشام بن عروة عن أبيه قال مر به أبو بكر يوما وهم يصنعون به ذلك وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح فقال لامية ألا تتقى الله تعالى فى هذا المسكين قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى قال أبو بكر أفعل عندى غلام أسود أجلد منه وهو على دينك أعطيكه قال قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه وكان قد أعتق ست رقاب على الاسلام قبل أن يهاجر وبلال سابعهم وهم عامر بن هبيرة شهد بدرا وأحدا وقتل يوم بئر معونة شهيدا وأعتق أم عميس فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش ما أذهب بصرها الا اللات والعزى فقالت كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان فرد الله تعالى بصرها وأعتق النهدية وابنتها وكانتا لامرأة لبنى عبد الدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما يحتطبان لها وهى تقول لهما والله لا أعتقكما أبدا فقال أبو بكر كلا يا أم فلان فقالت كلا أنت أفسدتهما فأعتقهما قال فبكم قالت بكذا وكذا قال قد أخذتهما وهما حرتان ومر بجارية من بنى المرسل وهى تعذب فابتاعها فأعتقها وقال سعيد بن المسيب بلغنى ان أمية بن خلف قال له أبو بكر فى بلال أتبيعه قال نعم أبيعه بقسطاس عبد لابى بكر صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش وكان مشركا حمله أبو بكر على الاسلام على أن يكون ماله له فأبى فأبغضه أبو بكر فلما قال له أمية أبيعه بغلامك قسطاس اغتنمه أبو بكر وباعه به وروى الضحاك عن ابن عباس قال عذب المشركون بلالا وبلال يقول أحد أحد فمر النبى صلى الله عليه وسلم فقال أحد يعنى الله تعالى ينجيك ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر يا أبا بكر ان بلالا يعذب فى الله فعرف أبو بكر الذى يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف الى منزله فأخذ رطلا من ذهب ومضى به الى أمية بن خلف فقال له أتبيعنى بلالا قال نعم فاشتراه فأعتقه فقال المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال الا ليد كانت لبلال عنده فأنزل الله تعالى (وما لاحد عنده) أى أبى بكر (من نعمة تجزى) أى يد يكافئه عليها وقوله تعالى (الا ابتغاء) استثناء منقطع أى لم يفعل ذلك مجازاة لاحد بيد كانت له عنده لكن فعله ابتغاء (وجه ربه) أى المحسن اليه (الاعلى) وطلب رضاه ويجوز أن يكون منصوبا على المفعول له على المعنى لان معنى الكلام لا يؤتى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى لا لمكافأة نعمة (ولسوف يرضى) أى بما يعطى من الثواب فى الجنة وروى عن على قال قال رسول الله

قوله
فى ا
فى
فيه
اه

صلى الله عليه وسلم رحم الله أبابكر زوجني ابنته وحملني الى دار الهجرة وأعتق بلالا والآية تشمل من فعل مثل فعله فيبعد عن النار ويثاب وقرأ حمزة والكسائي يغشى تجلى والانثى لشقى من أعطى واتقى وصدق بالحسنى واستغنى بالحسنى تردى للهدى والاولى تلظى الاشقى وتولى الاتقى يتزكى تجزى الاعلى يرضى بالامالة محضة في جميع ذلك وأمال ورش جميع ذلك بين بين والفتح عنه قليل وله في من أعطى الفتح وبين اللفظين سواء وأمال أبو عمرو بين بين الامن أعطى لانه ليس برأس آية والباقون بالفتح وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي لليسرى للعسرى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وأمال حمزة والكسائي يصلاها محضة ولورش الفتح وبين اللفظين واذا فتح غلظ اللام واذا أمال رققها وأما الاشقى والاتقى فلا يميلان الافي الوقف دون الوصل وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والليل أعطاه الله تعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر حديث موضوع

﴿سورة والضحى مكية﴾

وهي احدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وسبعون حرفا ولما نزلت كبر النبي صلى الله عليه وسلم فسن التكبير آخرها وروى الامر به خاتمتها وخاتمة كل سورة بعدها وهو الله أكبر أو لا اله الا الله والله أكبر

(بسم الله) الملك ذي الجلال والاكرام (الرحمن) الذي عم بنعمته الخاص والعام (الرحيم) الذي خص أهل وده باتمام الانعام وقوله تعالى (والضحى) قسم وقدمر الكلام على ذلك وخصه بالقسم لانها الساعة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وألقى السحرة فيها سجدا وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها لقوله تعالى وأن يحشر الناس ضحى وقال البغوي أراد النهار كله بدليل أنه قابله بالليل في قوله تعالى (والليل) أي الذي به تمام الصلاح (اذا سجى) أي سكن وركد ظلامه يقال ليلة ساجية ساكنة الريح وقيل معناه سكون الناس والاصوات فيه وسجى البحر سكنت أمواجه وطرف ساج فاتر وقال قتادة أقسم بالضحى الذي كلم الله تعالى فيه موسى وبليلة المعراج التي عرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم (فان قيل) ما الحكمة في أنه تعالى قدم هنا الضحى وفي السورة التي قبلها الليل (أجيب) بأن لكل منهما أثرا عظيما في صلاح العالم ولليل فضيلة السبق لقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وللنهار فضيلة النور فقدم سبحانه هذا تارة وهذا أخرى كالركوع والسجود في قوله تعالى اركعوا واسجدوا وقوله تعالى واسجدي واركعي مع الراكعين أو أنه قدم الليل في سورة أبي بكر لان أبابكر سبقه كفر وقدم الضحى في سورة محمد صلى الله عليه وسلم لانه نور محض ولم يتقدمه ذنب أو أن سورة والليل سورة أبي بكر وسورة والضحى سورة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم أنه لا واسطة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر رضي الله تعالى عنه (فان قيل) ما الحكمة في كونه تعالى ذكر الضحى وهو ساعة وذكر الليل بجملته (أجيب) بان في ذلك

اشارة

اشارة الى ان ساعة من نهار توازن جميع الليل كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يوازن جميع
الانبياء عليهم السلام وأيضا الضحى وقت السرور والليل وقت الوحشة ففيه اشارة الى أن
سرور الدنيا أقل من شرورها وان هموم الدنيا أدوم من سرورها فان الضحى ساعة والليل ساعات
ويروى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء ونادت ماذا أمطر فأجيبت أن امطرى
السرور ساعة فلهذا ترى الهموم والاحزان دائمة والسرور قليلا ونادرا وقدم ذكر الضحى
وأخر الليل لانه يشبه الموت وقوله تعالى (ماودعك) أى تركك يا أشرف الرسل تركا تحصل به
فرقة كفرقة المودع ولو على أحسن الوجوه الذى هو مراد المودع (ربك) أى المحسن اليك
جواب القسم (وماقلى) أى وما أبغضك بغضا ما وتركت الكاف لانه رأس آية كقوله تعالى
والذاكرين الله كثيرا والذاكرات آى الله *(تنبيه)* اختلفوا فى سبب نزول هذه الآية على
ثلاثة أقوال أحدها ما روى البخارى عن جندب بن سفيان قال اشتكى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ليلتين أو ثلاثا فجاءت أم جميل امرأة أبى لهب فقالت يا محمد انى لارجو أن يكون
شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فنزلت ثانيها ما روى أبو عمرو وقال أبطأ
جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم حتى شق عليه فجاءه وهو واضع جبهته على
الكعبة يدعو وأنزل عليه الآية ثالثها ما روى أن خولة كانت تخدم النبى صلى الله عليه
وسلم فقالت ان جروا دخل البيت فدخل تحت السرير فمات فمكث النبى صلى الله عليه وسلم
أياما لا ينزل عليه الوحى فقال صلى الله عليه وسلم يا خولة ماحدث فى بيتى ان جبريل عليه السلام
لا يأتينى قالت خولة فكنست فأهويت بالمكنسة تحت السرير فاذا بجرو ميت فأخذته فألقيته
خلف الجدار فجاء نبى الله صلى الله عليه وسلم ترعد لحياه وكان اذا نزل عليه الوحى استقبلته
الرعدة فقال يا خولة دثرينى فأنزل الله تعالى هذه السورة * ولما نزل جبريل عليه السلام
سأله النبى صلى الله عليه وسلم عن التأخير فقال أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة
رابعها ما روى ان اليهود سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح وذى القرنين وأصحاب
الكهف فقال صلى الله عليه وسلم سأخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس عنه الوحى الى
أن نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله
فأخبره بما سئل عنه وفى هذه القصة نزلت ماودعك ربك واختلفوا فى مدة احتباس الوحى عنه
فقال ابن جريج اثنا عشر يوما وقال ابن عباس خمسة عشر يوما وقال مقاتل أربعون يوما
قالوا وقال المشركون ان محمدا ودعه ربه وقلاه فأنزل الله تعالى هذه السورة فقال النبى صلى
الله عليه وسلم يا جبريل ما جئت حتى اشتقت اليك فقال جبريل عليه السلام انى كنت اليك
أشد شوقا ولكنى عبد مأمور وأنزل الله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك (وللآخرة) التى هى
المقصود من الوجود بالذات لانها باقية خالصة عن شوائب الكدر (خير لك) أى لما فيها من
الكرامات لك (من الاولى) أى الدنيا الفانية التى لاسرور فيها خالص وقيد تعالى بقوله سبحانه
لك لانها ليست خيرا لكل أحد قال البقاعى ان الناس على أربعة أقسام منهم من له

الخير فى الدارين وهم أهل الطاعة الاغنياء ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء ومنهم من له صورة خير فى الدنيا وشر فى الآخرة وهم الكفرة الاغنياء ومنهم من له صورة شر فى الدنيا وخير فى الآخرة وهم المؤمنون الفقراء وروى البغوى بسنده عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا (ولسوف يعطيك) أى بوعد لا خلف فيه وان تأخر وقته بما أفهمته الاداة (ربك) أى المحسن اليك بسائر النعم فى الآخرة من الخيرات عطاء جزيلا (فترضى) أى به فقال صلى الله عليه وسلم اذا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم رفع يديه وقال اللهم أمتى أمتى وبكى فقال الله تعالى يا جبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك وعن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته وانى اختبأت دعوتى شفاعة لامتى يوم القيامة فهى نائلة من مات لا يشرك بالله شيأ وعن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتانى آت من عند ربى يخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة فهى نائلة من مات ولم يشرك بالله شيأ وعن شريح قال سمعت أبا جعفر محمد بن على يقول انكم معشر أهل العراق تقولون أرجى آية فى القرآن قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وانا أهل البيت نقول أرجى آية فى كتاب الله ولسوف يعطيك ربك فترضى وفى هذا موعد لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من الفتح والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس فى الدين أفواجا والغلبة على قريظة والنضير واجلائهم وبث عساكره وسراياه فى بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين فى أقطار الارض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الاكاسرة وما قذف فى قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الاسلام وفشو الدعوة واستيلاء المسلمين ولما أعطاه فى الآخرة من الثواب الذى لا يعلم كنهه الا الله تعالى قال ابن عباس له فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك (فان قيل) ما هذه اللام الداخلة على سوف (أجيب) بأنها لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولانت سوف يعطيك وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء فلام القسم لا تدخل على المضارع الا مع نون التوكيد فبقى أن تكون لام ابتداء ولام الابتداء لا تدخل الا على الجملة من المبتدا والخبر فلا بد من تقدير مبتدا وخبر وأن يكون أصله ولانت سوف يعطيك (فان قيل) ما معنى الجمع بين حرفى التأكيد والتأخير (أجيب) بأن معناه ان العطاء كائن لا محالة وان تأخر لما فى التأخير من المصلحة على أنه تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بالحال التى كان عليها فقال جل ذكره (ألم يجدك) وهو استفهام تقرير أى وجدك (يتيما) وذلك ان أباه مات وهو جنين قد أتيت عليه ستة أشهر وقيل مات قبل ولادته وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين (فآوى) أى بأن ضمك الى عمك أبى طالب فأحسن تربيتك وعن مجاهد هو من قول العرب درة يتيمة اذا لم يكن لها نظير فالمعنى ألم يجدك

يتيما واحدا فى شرفك لانظير لك فآوالك الله تعالى بأصحاب يحفظونك ويحوطونك وهذا خلاف الظاهر من الآية ولهذا قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير انه من قولهم درة يتيمة وأن المعنى ألم يجدك واحدا فى قريش عديم النظير فآواك (فان قيل) كيف ان الله تعالى من بنعمه والمن بها لايليق ولهذا ذم فرعون فى قوله لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا (أجيب) بأن ذلك يحسن اذا قصد به تقوية قلبه ووعده بدوام النعمة فامتنان الله تعالى زيادة نعمة بخلاف امتنان الآدمى واختلفوا فى قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) فأكثر المفسرين على أنه كان ضالا عما هو عليه الآن من الشريعة فهداه الله تعالى اليها وقيل الضلال بمعنى الغفلة كقوله تعالى لايضل ربى ولا ينسى أى لايغفل وقال تعالى فى حق نبيه صلى الله عليه وسلم وان كنت من قبله لمن الغافلين وقال الضحاك المعنى لم تكن تدرى القرآن وشرائع الاسلام فهداك الى القرآن وشرائع الاسلام وقال السدى وجدك ضالا أى فى قوم ضلال فهداهم الله تعالى بك أو فهداك الى ارشادهم وقيل وجدك ضالا عن الهجرة فهداك اليها وقيل ناسيا شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فذكرك كقوله تعالى أن تضل احداهما وقيل وجدك طالبا للقبلة فهداك اليها كقوله تعالى قد نرى تقلب وجهك فى السماء الآية ويكون الضلال بمعنى الطلب لان الضال طالب وقيل وجدك ضائعا فى قومك فهداك اليهم ويكون الضلال بمعنى المحبة كما قال تعالى قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم أى فى محبتك قال الشاعر

هذا الضلال أشاب منى المفرقا * والعارضين ولم أكن متحققا

عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى * بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وروى الضحاك عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم ضل فى شعاب مكة وهو صبى صغير فرآه أبو جهل منصرفا من أغنامه فرده الى عبد المطلب وقال سعيد بن المسيب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب فى قافلة ميسرة عبد خديجة فبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة ناقة فجاء ابليس فأخذ بزمام الناقة فعدل بها عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ ابليس نفخة وقع منها الى أرض الحبشة ورده الى القافلة فمن الله تعالى عليه بذلك وقيل وجدك ضالا نفسك لاتدرى من أنت فعرفك نفسك وحالك وقال كعب ان حليمة لما قضت حق الرضاع جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لترده على عبد المطلب فسمعت عند باب مكة هنيأ لك يابطحاء مكة اليوم يرد اليك النور والبهاء والجمال قالت فوضعته لاصلح شأنى فسمعت هدة شديدة فالتفت فلم أره فقلت معشر الناس أين الصبى فقالوا لم نر شيأ فصحت واحمداه فاذا شيخ فان يتوكأ على عصاه فقال اذهبى الى الصنم الاعظم فان شاء أن يرده اليك فعل ثم طاف الشيخ بالصنم وقبل رأسه وقال يارب لم تزل منتك على قريش وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل فرده ان شئت فانكب على وجهه وتساقطت الاصنام وقالت اليك عنا أيها الشيخ فهلاكنا على يد محمد فألقى الشيخ عصاه وارتعد وقال ان لابنك ربا لايضيعه فاطلبيه

على جهل فانحشرت قريش الى عبد المطلب وطلبوه في جميع مكة فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع الى الله تعالى أن يرده وقال

يارب رد ولدي محمدا * اردده ربي واصطنع عندي يدا

فسمعوا مناديا ينادي من السماء معاشر الناس لاتضجوا فان لمحمد ربا لايخذله ولايضيعه وان محمدا بوادي تهامة عند شجرة السمر فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل فاذا النبي صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالاغصان وبالورق وفي رواية مازال عبد المطلب يردد البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة ومحمد صلى الله عليه وسلم بين يديه وهو يقول ألاتدري ماذا جرى من ابنك فقال عبد المطلب ولم فقال اني أنخت الناقة وأركبته خلفي فأبت الناقة أن تقوم فلما أركبته أمامي قامت الناقة قال ابن عباس رده الله تعالى الى جده بيد عدوه كما فعل بموسى عليه السلام حين حفظه عند فرعون وقيل وجدك ضالا ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لاتعرف الطريق فهداك الى ساق العرش وقال بعض المتكلمين اذا وجدت العرب شجرة منفردة من الارض لاشجر معها سموها ضالة فيهتدى بها الى الطريق فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالا أي لا أحد على دينك بل أنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق الي وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره فقوله تعالى ووجدك ضالا فهدى أي وجد قومك ضلالا فهداهم بك وقيل غير ذلك قال الزمخشري ومن قال كان على أمر قومه أربعين سنة فان أراد أنه كان على خلوهم من العلوم السمعية فنعم وان اراد انه كان على كفرهم ودينهم فمعاذ الله والانبياء عليهم الصلاة والسلام يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة فما بال الكفر والجهل بالصانع ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر (ووجدك عائلا) أي فقيرا (فأغنى) قال مقاتل فرضاك بما أعطاك من الرزق واختاره الفراء وقال لم يكن غنى عن كثرة المال ولكن الله تعالى أرضاه بما أعطاه وذلك حقيقة الغنى قال صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وقال صلى الله عليه وسلم قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه وقيل أغناك بمال خديجة وتربية أبي طالب ولما اختل ذلك أغناه بمال أبي بكر ولما اختل ذلك أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم روى الزمخشري أنه صلى الله عليه وسلم قال جعل رزقي تحت ظل رمحي وقال الرازي العائل ذو العيلة ثم أطلق على الفقير ويجوز أن يراد ووجدك ذا عيال لاتقدر على التوسعة عليهم فأغناك بما جعل لك من ربح التجارة ثم من كسب الغنائم وروى البغوي باسناد الثعلبي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت ربي مسئلة وددت اني لم أكن سألته قلت يارب انك آتيت سليمان بن داود ملكا عظيما وآتيت فلانا كذا وفلانا كذا قال يامحمد ألم أجدك يتيما فآويتك قلت بلى يارب قال ألم أجدك ضالا فهديتك قلت بلى يارب قال ألم أجدك عائلا فأغنيتك قلت بلى يارب وفي رواية ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك قلت بلى يارب ثم أوصاه باليتامى والمساكين

والفقراء

والفقراء فقال تعالى (فأما اليتيم) أى هذا النوع (فلا تقهر) قال مجاهد لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيما وقال الفراء لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه كما كانت العرب تفعل فى أموال اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه ثم قال باصبعيه أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وهو يشير باصبعيه *(تنبيه)* اليتيم منصوب بتقهر وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل ألا ترى ان اليتيم منصوب بالمجزوم وقد تقدم على الجازم ولو تقدم على لا لامتنع لان المجزوم لا يتقدم على جازمه كالمجرور لا يتقدم على جاره وفى الآية دلالة على اللطف باليتيم وبره والاحسان اليه وقال صلى الله عليه وسلم من ضم يتيما وكان فى نفقته وكفاه مؤنته كان له حجابا من النار يوم القيامة وقال من مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة وقال قتادة كن لليتيم كالاب الرحيم (فان قيل) ما الحكمة فى أن الله تعالى اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم اليتم (أجيب) بوجوه أحدها أن يعرف حرارة اليتم فيرفق باليتيم ثانيها يشاركه فى الاسم فيكرمه لاجل ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم اذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له فى المجلس ثالثها ليستند من أول عمره على الله تعالى فيشبه ابراهيم عليه السلام فى قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى رابعها ان اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا عيبا لم يجدوا فيه مطعنا خامسها جعله يتيما ليعلم كل أحد ان فضيلته ابتداء من الله تعالى لا من تعليم لان من له أب فانه يؤدبه ويعلمه سادسها اليتم والفقر نقص فى العادة فكونه صلى الله عليه وسلم مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلبا للعادة فيكون معجزة (وأما السائل) أى الذى أحوجته العيلة أوغيرها الى السؤال (فلا تنهر) أى فلا تزجر يقال نهره وأنهره اذا زجره وأغلظ عليه القول ولكن رده ردا جميلا قال ابراهيم بن أدهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا الى الآخرة وقال ابراهيم النخعى السائل بريدنا الى الآخرة يجىء الى باب أحدكم فيقول هل تبعثون الى أهليكم بشئ وقيل المراد بالسائل هنا الذى يسأل عن الدين وروى الزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا رددت السائل ثلاثا فلم يرجع فلا عليك ان تزبره وقيل أما انه ليس السائل المستجدى ولكن طالب العلم اذا جاءك فلا تنهره (وأما بنعمة ربك) أى المحسن اليك بالنبوة وغيرها (فحدث) بها فان التحدث بها شكرها وانما يجوز لغيره صلى الله عليه وسلم مثل هذا اذا قصد به اللطف وأن يقتدى به غيره وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن فى الذكر الا التشبه بأهل الرياء والسمعة لكفى والمعنى انك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك الله وهداك وأغناك فمهما يكن من شئ فلا تنس نعمة الله عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد ذقت اليتم وهوانه ورأيت كيف فعل الله تعالى بك وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر وحدث بنعمة الله كلها ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتديا بالله تعالى فى أن هداه من الضلالة وقال مجاهد تلك النعمة هى القرآن والتحديث به أن يقرأه ويقرئ غيره وعنه أيضا تلك النعمة هى النبوة أى بلغ ما أنزل اليك من ربك وقيل تلك

النعمة هي ان وفقك الله سبحانه وتعالى فراعيت حق اليتيم والسائل فحدث بها ليقتدي بك غيرك وعن الحسن بن علي قال اذا عملت خيرا فحدث به اخوانك ليقتدوا بك الا أن هذا لا يحسن الا اذا لم يتضمن رياء وظن ان غيره يقتدي به كما علم مما مر وروى ان شخصا كان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فرآه رث الثياب فقال له صلى الله عليه وسلم ألك مال قال نعم فقال له صلى الله عليه وسلم اذا آتاك الله مالا فليرا أثره عليك وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله جميل يحب الجمال ويحب ان يرى أثر النعمة على عبده (فان قيل) ما الحكمة في أن الله تعالى اخر حق نفسه عن حق اليتيم والسائل (أجيب) بكأنه يقول أنا أغنى الاغنياء وهما محتاجان وحق المحتاج أولى بالتقديم واختار قوله سبحانه وتعالى فحدث على قوله تعالى فأخبر ليكون ذلك حديثا عنه لا ينساه ويعيده مرة بعد أخرى وقرأ والضحى سجى قلى الاولى فترضى فآوى فهدى فأغنى حمزة والكسائي بامالة محضة لكن حمزة لم يمل سجى وأمال ورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وروى أبي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا بلغ الضحى كبر بين كل سورتين الى أن يختم القرآن ويفصل بينهما بسكتة وكان المعنى في ذلك ان الوحي تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما فقال ناس من المشركين قد ودعه صاحبه وقلاه فنزلت هذه السورة فقال صلى الله عليه وسلم الله أكبر قال مجاهد قرأت على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأمرني به وأخبر أنه صلى الله عليه وسلم أمره به وبعض القراء لا يكبر لان ذلك ذريعة الى الزيادة في القرآن وقال القرطبي القرآن ثبت نقله بالتواتر سوره وآياته وحروفه بغير زيادة ولا نقصان فالتكبير ليس بقرآن وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل حديث موضوع

(سورة الم نشرح مكية)

وهي ثمان آيات وتسع وعشرون كلمة ومائة وثلاثة أحرف

(بسم الله) الظاهر الباطن الملك العلام (الرحمن) الذي عم المخلوقين بالانعام (الرحيم) الذي خص أولياءه بدار السلام وقوله تعالى (ألم نشرح) استفهام تقرير أي شرحنا بما يليق بعظمتنا (لك) يا أشرف الخلق (صدرك) بالنبوة وغيرها حتى وسع مناجاتنا ودعوة الخلق أو فسحناه بما أودعنا فيه من الحكم والعلوم وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي كان يكون معه العمى والجهل وعن الحسن ملئ حكمة وعلما وقيل انه اشارة الى ما روى ان جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم في صباه أو في يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه ايمانا وعلما (فان قيل) لم قال تعالى صدرك ولم يقل قلبك (أجيب) بان محل الوسوسة هو الصدر كما قال تعالى يوسوس في صدور الناس فأزال تلك الوسوسة وأبدلها بدواعي الخير فلذلك خص الشرح بالصدر دون القلب وقال محمد بن علي الترمذي القلب محل العقل والمعرفة والشيطان يجيء الى الصدر الذي

هو حصن القلب فاذا وجد مسلكا أغار فيه وبث جنده فيه وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للاسلام حلاوة فاذا طرد العدو فى الابتداء حصل الامن وانشرح الصدر (فان قيل) لم قال تعالى ألم نشرح لك صدرك ولم يقل ألم نشرح صدرك (أجيب) بوجهين أحدهما كانه تعالى يقول لام بلام فأنت انما تفعل جميع الطاعة لاجلى وأنا ايضا جميع ما أفعله لاجلك ثانيهما ان فيه تنبيها على ان منافع الرسالة عائدة اليك لاجلك لا لاجلنا واختلف فى قوله تعالى (ووضعنا) أى بمالنا من العظمة (عنك وزرك) فقال الحسن ومجاهد حططنا عنك الذى سلف منك فى الجاهلية وهو قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وقال الحسين بن الفضل يعنى الخطأ والسهو وقيل ذنوب أمتك وأضافها اليه لاشتغال قلبه بها (الذى أنقض) أى أثقل (ظهرك) قال أبو عبيدة خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها حتى لا تثقل عليك وقيل كان فى الابتداء يثقل عليه الوحى حتى يكاد يرمى نفسه من شاهق الى ان جاءه جبريل عليه السلام وأزال عنه ما كان يخاف من تغير العقل وقيل عصمناك من احتمال الوزر وحفظناك قبل النبوة فى الاربعين من الادناس حتى نزل عليك الوحى وأنت مطهر (ورفعنا) أى بمالنا من القدرة التامة (لك ذكرك) روى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال يقول الله عز وجل لاذكرت الا ذكرت معى فى الاذان والاقامة والتشهد ويوم الجمعة على المنابر ويوم الفطر ويوم الاضحى ويوم عرفة وأيام التشريق وعند الجمار وعلى الصفا والمروة وفى خطبة النكاح ومشارق الارض ومغاربها ولو أن رجلا عبد الله تعالى وصدق بالجنة والنار وكل شئ ولم يشهد ان محمدا رسول الله لم ينتفع بشئ وكان كافرا وقيل أعلينا ذكرك فذكرناك فى الكتب المنزلة على الانبياء قبلك وأمرناهم بالبشارة بك ولا دين الا ودينك يظهر عليه وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء وفى الارض عند المؤمنين ونرفع فى الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات وقال الضحاك لا تقبل صلاة الا به ولا تجوز خطبة الا به وقال مجاهد يعنى التأذين وفيه يقول حسان بن ثابت

أغر عليه للنبوة خاتم * من الله مشهور يلوح ويشهد
وضم الاله اسم النبى الى اسمه * اذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين والزامهم الايمان به والاقرار بفضله وقيل عام فى كل ما ذكر وهذا أولى وكم من موضع فى القرآن يذكر فيه النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز وقوله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولما كان المشركون يعيرونه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق الى وهمه انهم رغبوا عن الاسلام لافتقار أهله واحتقارهم ذكره ما أنعم الله به عليه من جلائل النعم ثم وعده اليسر والرخاء بعد الشدة فقال تعالى (فان مع العسر) أى ضيق الصدر والوزر المنقض للظهر وضلال القوم وايذائهم (يسرا) أى كالشرح والوضع والتوفيق

للاهتداء والطاعة فلا تيأس من روح الله اذا عراك ما يهمك فان مع العسر الذى أنتم فيه يسرا
(فان قيل) ان مع للصحبة فما معنى اصطحاب العسر واليسر (أجيب) بأن الله تعالى أراد أن
يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن
للعسر زيادة فى التسلية وتقوية القلوب وقوله تعالى (ان مع العسر يسرا) استئناف وعد الله
تعالى بأن العسر متبوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك للصائم فرحة ثم فرحة أى فرحة عند
الافطار وفرحة عند لقاء الرب ويجوز أن يراد باليسرين ما تيسر من الفتوح فى أيام رسول الله
صلى الله عليه وسلم وما تيسر لهم أيام الخلفاء وقيل تكرير (فان قيل) ما معنى قول ابن عباس رضى
الله عنه وابن مسعود رضى الله عنهم لن يغلب عسر يسرين وقد روى مرفوعا أنه صلى الله عليه
وسلم خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين (أجيب) بأن هذا حمل على الظاهر
وبناء على قوة الرجاء وأن موعد الله لا يحمل الا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه والقول عنه أنه
يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريرا للاولى كما كرر فى قوله تعالى ويل يومئذ للمكذبين لتقرير
معناها فى النفوس وتمكينها فى القلوب وكما تكرر المفرد فى قولك زيد زيد وأن تكون الاولى
عدة بأن العسر مردف بيسر لا محالة والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر فهما يسران
على تقدير الاستئناف وانما كان العسر واحدا لانه لا يخلو اما أن يكون تعريفه للعهد وهو
العسر الذى كانوا فيه فهو هو لان حكمه حكم زيد فى قولك ان مع زيد مالا ان مع زيد مالا وأما
أن يكون للجنس الذى يعلمه كل أحد فهو هو أيضا وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس فاذا
كان الكلام الثانى مستأنفا غير مكرر فقد تناول بعضا غير البعض الاول بغير اشكال أو بأن
لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذى وعد الله المؤمنين فيها واليسر الذى وعدهم فى الآخرة انما
يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا فأما يسر الآخرة فدائم غير زائل أى لا يجتمعان فى الغلبة كقوله
صلى الله عليه وسلم شهرا عيد لا ينقصان أى لا يجتمعان فى النقصان (فان قيل) فما معنى هذا التنكير
(أجيب) بأنه للتفخيم كأنه قيل ان مع العسر يسرا عظيما وأى يسر روى عن ابن مسعود رضى
الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان العسر فى جحر ضب لتبعه اليسر حتى
يخرجه وللطبرانى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان العسر فى جحر لدخل اليسر
حتى يخرجه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية * ولما عدد تعالى على نبيه صلى الله عليه
وسلم نعمه السابقة ووعده الآنفة حثه على الشكر والاجتهاد فى العبادة بقوله تعالى (فاذا
فرغت) قال ابن عباس رضى الله عنهما فرغت من صلاتك المكتوبة (فانصب) أى انصب
فى الدعاء وقال ابن مسعود رضى الله عنه فاذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل وقال
الشعبى اذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك وقال الحسن وزيد بن أسلم اذا فرغت
من جهاد عدوك فانصب فى عبادة ربك وصل وقال ابن حيان عن الكلبى اذا فرغت من تبليغ
الرسالة فانصب استغفر لذنبك وللمؤمنين قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه انى أكره أن أرى
أحدكم فارغا لا فى عمل الدنيا ولا فى عمل الآخرة (والى ربك) أى المحسن اليك بفضائل النعم

خصوصا بعد ذكر في هاتين السورتين (فارغب) أي اجعل رغبتك اليه خصوصا ولا تسأل الا فضله متوكلا عليه وقيل تضرع اليه راغبا في الجنة راهبا من النار عصمنا الله تعالى وأحبابنا منها بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني حديث موضوع

(سورة والتين والزيتون مكية)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة مدنية وهي ثمان آيات وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسون حرفا

(بسم الله) الذي له الملك كله (الرحمن) الذي وسع الخلائق عدله (الرحيم) الذي خص أولياءه بتوفيقه فظهر عليهم جوده وفضله وقوله تعالى (والتين والزيتون) قسم وتقدم نظائر ذلك أقسم بهما لانهما عجيبتان من بين أصناف الاشجار المثمرة روى أنه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لاصحابه كلوا فلو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لان فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس ومر معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبا واستاك به وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة وسمعته يقول هي سواكي وسواك الانبياء من قبلي وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو تينكم هذا الذي تأكلون وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت وقال عكرمة هما جبلان من الارض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لانهما منبتا التين والزيتون وقيل التين جبال ما بين حلوان وهمدان والزيتون جبال الشام لانها منابتهما كانه قيل ومنابت التين والزيتون وقال محمد بن كعب التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد ايليا وقال الضحاك مسجدان بالشأم وقال ابن زيد التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وحسن القسم بهما لانهما موضع الطاعة وقيل التين مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجودي والزيتون مسجد بيت المقدس (وطور سينين) أي الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه عز وجل وسينين وسينا اسمان للموضع الذي هو فيه فأضيف الجبل الى المكان الذي هو فيه وقال مقاتل والكلبي سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط ولم ينصرف سينين كما لا ينصرف سينا لانه جعل اسما للبقعة أو الارض ولو جعل اسما للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف لانك سميت مذكرا بمذكر وانما أقسم بهذا الجبل لانه بالشأم وهي الارض المقدسة وقد بارك فيها قال الله تعالى الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله ولا يجوز أن يكون سينين نعتا للطور لاضافته اليه (وهذا البلد الامين) أي الآمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهي مكة حرسها الله تعالى لانها الحرم الذي يأمن الناس فيه في الجاهلية والاسلام لا ينفر صيده ولا يعضد ورقه أي شجره ولا تلتقط لقطته الا لمنشد أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله قال الزمخشري ومعنى القسم بهذه

الاشياء الابانة عن شرف البقاع المباركة وماظهر منها من الخير والبركة بسكنى الانبياء والصالحين فمنبت التين والزيتون مهاجر ابراهيم عليه السلام ومولد عيسى عليه السلام ومنشؤه والطور المكان الذى نودى منه موسى عليه السلام ومكة البيت الذى هو هدى للعالمين ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه اهـ وقوله تعالى (لقد خلقنا) أى قدرنا وأوجدنا بمالنا من العظمة والقدرة التامة (الانسان) جواب القسم والمراد بالانسان الجنس الذى يجمع فيه الشهوة والعقل وفيه من الانس بنفسه ما ينسيه أكثر همه الشامل لآدم عليه السلام وذريته وقيل نزلت فى منكرى البعث وقيل فى الوليد بن المغيرة وقيل كلدة بن أسيد وقوله تعالى (فى أحسن تقويم) صفة لمحذوف أى فى تقويم أحسن تقويم وقال أبو البقاء فى أحسن تقويم فى موضع الحال من الانسان وأراد بالتقويم القوام لان التقويم فعل وذلك وصف للخالق لا للمخلوق ويجوز أن يكون التقدير فى أحسن قوام التقويم فحذف المضاف ويجوز أن تكون فى زائدة أى قومناه أحسن تقويم اهـ وأحسن التقويم أعدله لانه تعالى خلق كل شئ منكبا على وجهه وخلق الانسان مستويا وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها قال ابن العربى ليس لله تعالى خلق أحسن من الانسان فان الله تعالى خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلما سميعا بصيرا مدبرا حكيما وهذه صفات الله تعالى وعبر عنها بعض العلماء ووقع البيان بقوله ان الله تعالى خلق آدم على صورته يعنى على صفاته المتقدم ذكرها وفى رواية على صورة الرحمن ومن أين يكون للرحمن صورة شخصية فلم تكن الامعانى روى أن عيسى بن يوسف الهاشمى كان يحب زوجته حبا شديدا فقال لها يوما أنت طالق ثلاثا ان لم تكونى أحسن من القمر فنهضت واحتجبت عنه وقالت طلقتنى فبات بليلة عظيمة فلما أصبح غدا الى دار المنصور فأخبره الخبر فاستحضر الفقهاء واستشارهم فقال جميع من حضر قد طلقت الارجلا واحدا من أصحاب أبى حنيفة فانه كان ساكتا فقال له المنصور مالك لاتتكلم فقال الرجل بسم الله الرحمن الرحيم والتين والزيتون الى قوله تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم يا أمير المؤمنين فالانسان أحسن الاشياء ولاشئ أحسن منه فقال المنصور لعيسى الامر كما قال الرجل فأقبل على زوجتك فأرسل المنصور اليها أطيعى زوجك فما طلقك وهذا يدل على ان الانسان أحسن خلق الله تعالى ولذلك قيل انه العالم الاصغر اذ كل ما فى المخلوقات اجتمع فيه (ثم رددناه) أى بعض افراده بمالنا من القدرة الكاملة (أسفل سافلين) أى الى الهرم وارذل العمر فيضعف بدنه وينقص عقله والسافلون هم الضعفاء والزمنى والاطفال والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعا لانه لايستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا فقوس ظهره بعد اعتداله وابيض شعره بعد اسوداده وكل بصره وسمعه وكانا حديدين وتغير كل شئ منه فمشيه دليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف وقيل ثم رددناه الى النار لانها دركات بعضها أسفل من بعض فقوله تعالى (الا الذين آمنوا وعملوا) أى تصديقا لدعواهم الايمان (الصالحات) أى الطاعات استثناء متصل على الثانى على ان المعنى رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا يعنى أقبح من قبح صورة

وأشوهه خلقة وهم أهل النار وأسفل من سفل من أهل الدركات فالاتصال على هذا واضح وعلى الاول منقطع أى لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى (فلهم) أى فتسبب عن ذلك أن كان لهم (أجر غير ممنون) أى ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى لهم بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم وفى الحديث اذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجزعن العمل كتب له ما كان يعمل وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال الا الذين قرؤا القرآن وقال من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر ثم قال تعالى الزاما للحجة (فما يكذبك) أى أيها الانسان الكافر (بعد) أى بعد ماذكر من خلق الانسان من نطفة وتقويمه بشرا سويا وتدريجه فى مراتب الزيادة الى أن يستوى ويكمل ويصير فى أحسن تقويم ثم يرد الى أرذل العمر الدال على القدرة على البعث فيقول ان الذى فعل ذلك قادر على أن يعيدنى ويحاسبنى فما سبب تكذيبك أيها الانسان (بالدين) أى الجزاء بعد هذا الدليل القاطع وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا يكون المعنى فما الذى يكذبك فيما تخبر به من الجزاء أو البعث بعد هذه العبر التى يوجب النظر فيها صحة ما قلت وقوله تعالى (أليس الله) أى الملك الاعظم على ماله من صفات الكمال (بأحكم الحاكمين) أى بأقضى القاضين وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله وفى الحديث من قرأ التين الى آخرها فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والتين أعطاه الله تعالى خصلتين العافية واليقين ما دام فى دار الدنيا واذا مات أعطاه الله من الاجر بعدد من قرأ هذه السورة حديث موضوع

﴿سورة العلق مكية﴾

وهى عشرون آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له صفة الكمال المستحق للالهية (الرحمن) الذى عم جوده سائر البرية (الرحيم) الذى خص أهل طاعته بالطافه السنية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد أن أول سورة نزلت من القرآن (اقرأ باسم ربك) وأول ما نزل خمس آيات من أولها الى قوله تعالى ما لم يعلم وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة ولمسلم الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وفى رواية حتى فجئه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال له اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ قال فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ قال فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك حتى بلغ ما لم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت له خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله تعالى أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخى ماذا ترى فاخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذى أنزل على موسى يا ليتنى أكون فيها جذعا ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أومخرجى هم فقال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى زاد البخارى قال وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا حتى يتردى من رؤس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل عليه السلام فقال له يا محمد انك لرسول الله حقا فيسكن لذلك جاشه وتقر نفسه فيرجع فاذا طالت عليه فترة الوحى غدا مثل ذلك فاذا وافى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك ففى هذا الحديث دليل صحيح على أن سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن وفيه رد على من قال ان المدثر أول ما نزل من القرآن وعلى من قال ان الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم وهذا الحديث من مراسيل الصحابة ومرسل الصحابى حجة عند جميع العلماء الا ما انفرد به الاستاذ أبو اسحق الاسفراينى وانما ابتدئ صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك فيأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تحملها القوى البشرية فبدئ بأوائل علامة النبوة توطئة للوحى *(تنبيه)* محل باسم ربك النصب على الحال أى اقرأ مفتتحا باسم ربك أو مستعينا به قل بسم الله ثم اقرأ وقال أبو عبيدة مجازه اقرأ اسم ربك يعنى ان الباء زائدة والمعنى اذكر اسمه أمر أن يبتدئ القراءة باسم الله تعالى تأديبا وقيل الباء بمعنى على أى اقرأ على اسم ربك كما فى قوله تعالى وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها قاله الاخفش (فان قيل) كيف قدم هذا الفعل على الجار وقدم مؤخرا فى بسم الله الرحمن الرحيم أى على سبيل الاولوية كما فى اياك نعبد واياك نستعين ولانه تعالى مقدم ذاتا لانه قديم واجب الوجود لذاته فيقدم ذكرا (أجيب) بأن هذا فى ابتداء القراءة وتعليمها المأمر أنها أول سورة نزلت فكان الامر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض وان كان ذكر الله تعالى أهم فى نفسه وذكرت أجوبة غير هذا فى مقدمتى على البسملة والحمدلة وقوله تعالى (الذى خلق) يجوز أن لا يقدر له مفعول ويراد أنه الذى حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه وأن يقدر له مفعول ويراد خلق كل شئ فيتناول كل مخلوق لانه مطلق فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض وقوله تعالى (خلق الانسان) أى هذا الجنس الذى من شأنه الانس بنفسه وما رأى من أخلاقه وحسنه وما ألفه من أبناء

جنسه تخصيص بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لان التنزيل اليه وهو أشرف ما على الارض ويجوز أن يراد الذى خلق الانسان كما قال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان فقيل الذى خلق مبهما ثم فسره بقوله تعالى خلق الانسان تفخيما لخلق الانسان ودلالة على عجيب فطرته وقوله تعالى (من علق) جمع علقة وهى الدم الجامد فاذا جرى فهو المسفوح * ولما كان الانسان اسم جنس فى معنى الجمع جمع العلق ولمشاكلة رؤس الآى أيضا وقوله تعالى (اقرأ) تكرير للمبالغة أو الاول مطلق والثانى للتبليغ أو فى الصلاة قال البيضاوى ولعله لما قيل له اقرأ باسم ربك قال ما أنا بقارئ فقيل له اقرأ (وربك الاكرم) أى الزائد فى الكرم على كل كريم فانه ينعم على عباده النعم التى لا تحصى ويحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهى فى اطراحهم الاوامر ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم فالكرمه غاية ولا أمد وكأنه ليس وراء التكرم بافادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال الاكرم (الذى علم) أى بعد الحلم عن معاجلتهم بالعقاب جودا منه تعالى من غير مانع من خوف عاقبة ولا رجاء منفعة (بالقلم) أى الخط بالقلم (علم الانسان مالم يعلم) فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده مالم يعلموه ونقلهم من ظلمة الجهل الى نور العلم ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها الا هو وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الاولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة الا بالكتابة ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل الا أمر القلم والخط لكفى به ولبعضهم فى صفة القلم

ورواقم رقش كمثل اراقم * قطف الخطا نيالة أقصى المدى
سود القوائم ما يجد مسيرها * الا اذا لعبت بها بيض المدى

وقال قتادة القلم نعمة من الله تعالى ولولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش فدل على كمال كرمه تعالى وروى عبد الله بن عمر قال قلت يا رسول الله أكتب ما أسمع منك من الحديث قال نعم فاكتب فان الله تعالى علم بالقلم ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال ريح لا يبقى قال فما قيده قال الكتابة وعن عمر قال خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده ثم قال تعالى لسائر الحيوان كن فكان وهى القلم والعرش وجنة عدن وآدم عليه السلام وفيمن علم بالقلم ثلاثة أقوال أحدها قال كعب أول من كتب بالقلم آدم عليه الصلاة والسلام ثانيها قال الضحاك ادريس عليه السلام ثالثها انه جميع من كتب بالقلم لانه ما علم الا بتعليم الله تعالى وقال القرطبى الاقلام ثلاثة فى الاصل القلم الاول الذى خلقه الله تعالى بيده وأمره أن يكتب فى اللوح المحفوظ والثانى قلم الملائكة الذى يكتبون به المقادير والكوائن والثالث أقلام الناس يكتبون بها كلامهم ويصلون بها الى مآربهم وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا تعلموهن الكتابة قال بعض العلماء وانما حذرهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك لان فى اسكانهن الغرف اطلاعا الى الرجال وليس فى ذلك تحصين لهن ولا تستر وذلك انهن لا يملكن أنفسهن حين يشرفن على الرجال فتحدث الفتنة فحذر من ذلك وكذلك تعليم الكتابة ربما كان سببا للفتنة

لانها قد تكتب لمن تهوى والكتابة عين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب والخط اشارة اليد وفيها تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان فهى أبلغ من اللسان فأحب صلى الله عليه وسلم أن يقطع عن المرأة أسباب الفتنة تحصينا لها وقوله تعالى (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وان لم يذكره لدلالة الكلام عليه فانه تعالى قد عدّ مبدأ أمر الانسان ومنتهاه اظهارا لما أنعم عليه من أن نقله من أخس المراتب الى أعلاها تقريرا للربوبيته وتحقيقا لاكرميته (ان الانسان) أى هذا النوع الذى من شأنه الانس بنفسه والنظر فى عطفه (ليطغى) أى من شأنه الا من عصمه الله تعالى أن يزيد على الحد الذى لا ينبغى له مجاوزته (أن رآه) أى رأى نفسه (استغنى) أى وجد له الغنى بالمال وقيل أن يرتفع عن منزلته فى اللباس والطعام وغير ذلك نزلت فى أبى جهل كان اذا زاد ماله زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون أتاه أبو جهل فقال يا محمد أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهبا لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد خيرهم فى ذلك فان شاؤا فعلنا بهم ما أرادوا فان لم يفعلوا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء ابقاء لهم وقيل ان رآه استغنى بالعشيرة والانصار والاعوان وحذف اللام من قوله تعالى أن رآه كما يقال انكم لتطغون أن رأيتم غناكم فرأى علمية واستغنى مفعول ثان وأن رأى مفعول له (ان الى ربك) أى المحسن اليك بالرسالة التى رفع بها ذكرك لا الى غيره (الرجعى) مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع ففى ذلك تخويف للانسان بأن يجازى العاصى بما يستحقه وقوله تعالى (أرأيت) فى مواضعها الثلاث للتعجب (الذى ينهى) أى على سبيل التجدد والاستمرار وهو أبو جهل (عبدا) أى من العبيد وهو النبى صلى الله عليه وسلم (اذا صلى) أى خدم سيده الذى لا يقدر أحد أن ينكر سيادته بايقاع الصلاة التى هى أعظم العبادات نزلت فى أبى جهل وذلك انه نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم فقالوا نعم فقال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لاطأن على رقبته ولاعفرن وجهه فى التراب قال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ليطأ على رقبته فنكص على عقبيه وهو يتقى بيده فقيل له مالك فقال ان بينى وبينه خندقا من النار وهولا وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا فأنزل الله تعالى هذه الآية وفى رواية لو فعله لاخذته الملائكة زاد الترمذى عيانا وعن الحسن انه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة وفائدة التنكير فى قوله تعالى عبدا الدلالة على انه كامل العبودية كأنه قيل ينهى أشد الخلق عبودية عن العبادة وهذا عين الجهل وقيل ان هذا الوعيد يلزم كل من ينهى عن الصلاة وعن طاعة الله تعالى ولا يدخل فى ذلك المنع من الصلاة فى الدار المغصوبة وفى الاوقات المكروهة لانه قد ورد النهى عن ذلك فى الاحاديث الصحيحة ولا يدخل أيضا منع السيد عبده والرجل زوجته عن صوم التطوع وقيام الليل والاعتكاف لان ذلك مصلحة الا أن يأذن

فيه

فيه السمد والزوج (أرأيت ان كان) أى المنهى وهو النبى صلى الله عليه وسلم (على الهدى) وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء وعن ورش ابدالها ألفا وأسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق وقوله تعالى (أو أمر بالتقوى) أى الاخلاص والتوحيد للتقسيم * (تنبيه) * قوله تعالى أرأيت تكرير للاول وكذا الذى فى قوله (أرأيت ان كذب) وهو أبو جهل (وتولى) عن الايمان (ألم يعلم) أى يقع له علم يوما من الايام (بأن الله) الذى له صفات الكمال (يرى) ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك أى اعجب منه يا مخاطب فى نهيه عن الصلاة من حيث ان المنهى على الهدى آمر بالتقوى وفى وجه التعجب وجوه أحدها انه صلى الله عليه وسلم قال اللهم أعز الاسلام اما بأبى جهل واما بعمر بن الخطاب وهو ينهى عبدا اذا صلى الثانى انه يلقب بأبى الحكم فقيل أيلقب بهذا وهو ينهى عن الصلاة فيتعجب منه ومن حيث ان الناهى مكذب متول عن الايمان الثالث انه كان يأمر وينهى ويعتقد وجوب طاعته ثم انه ينهى عن طاعة الله تعالى وقوله تعالى (كلا) ردع للناهى (لئن لم ينته) أى عما هو فيه واللام لام قسم (لنسفعا بالناصية) أى لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها الى النار والسفع القبض على الشئ وجذبه بشدة قال عمرو ابن معديكرب

قوم اذا نقع الصريخ رأيتهم * ما بين ملجم مهره أو سافع

والنقع الصوت * ولما علم انها ناصية المذكور اكتفى باللام عن الاضافة والآية وان كانت فى أبى جهل فهى عظة للناس وتهديد لمن يمنع غيره عن طاعة الله تعالى وقوله تعالى (ناصية) بدل من الناصية قال الزمخشرى وجاز بدلها عن المعرفة وهى نكرة لانها وصفت أى بـ (كاذبة خاطئة) واستقلت بفائدة واعترض عليه بأن هذا مذهب الكوفيين فانهم لا يجيزون ابدال نكرة من معرفة الا بشرط وصفها أو كونها بلفظ الاول ومذهب البصريين لا يشترط شئ والمعنى لنأخذن بناصية أبى جهل الكاذبة فى قولها الخاطئة فى فعلها والخاطئ معاقب مأخوذ والمخطئ غير مأخوذ ووصفت الناصية بالكاذبة الخاطئة كوصف الوجوه بالنظر فى قوله تعالى الى ربها ناظرة وانما وصفت الناصية بالكاذبة لانه كان يكذب على الله تعالى فى أنه لم يرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وعلى رسوله فى أنه ساحر وليس بنبى ووصفت بأنها خاطئة لان صاحبها اتمرد على الله تعالى كما قال تعالى لا يأكله الا الخاطئون فهما فى الحقيقة لصاحبها وفيه من الحسن والجزالة ما ليس فى قولك ناصية كاذب خاطئ وروى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فقال ألم أنهك فأغلظ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتنهرنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا فوالله لاملأن عليك هذا الوادى ان شئت خيلا جردا ورجالا مردا فأنزل الله تعالى (فليدع) أى دعاء استغاثة (ناديه) أى أهل ناديه ليعينوه فهو على حذف مضاف لان النادى هو المجلس الذى ينتدى فيه القوم قال تعالى وتأتون فى ناديكم المنكر أى يتحدثون فيه أو على التجوز لانه مشتمل على الناس كقوله تعالى واسأل القرية ولا يسمى المكان ناديا حتى يكون فيه أهله والمعنى فليدع عشيرته فليستنصر بهم (سندع) أى بوعد لا خلف فيه (الزبانية) قال ابن عباس رضى الله عنهما

يريد زبانية جهنم سموا بها لانهم يدفعون أهل النار اليها بشدة جمع زبنى مأخوذ من الزبن وهو الدفع وقال الزمخشرى الزبانية فى كلام العرب الشرط الواحد زبنية وقال الزجاج هم الملائكة الغلاظ الشداد قال ابن عباس رضى الله عنهما لو دعا ناديه لاخذته زبانية الله تعالى وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ الى قوله تعالى لنسفعا بالناصية قال أبو جهل أنا أدعو قومى حتى يمنعوا عنى ربك قال الله تعالى فليدع ناديه سندع الزبانية فلما ذكر الزبانية رجع فزعا فقيل له خشيت منه قال لا ولكن رأيت عنده فارسا وهددنى بالزبانية فلا أدرى الزبانية ومال الى الفارس فخشيت منه أن يأكلنى قال ابن عباس رضى الله عنهما والله لو دعا ناديه لاخذته ملائكة العذاب من ساعته وقوله تعالى (كلا) ردع لابى جهل أى ليس الامر على ما يظنه أبو جهل (لا تطعه) أى فيما دعاك اليه من ترك الصلاة كقوله تعالى ولا تطع المكذبين وقوله تعالى (واسجد) يحتمل أن يكون بمعنى السجود فى الصلاة وأن يكون سجود التلاوة فى هذه السورة ويدل لهذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اذا السماء انشقت وفى اقرأ باسم ربك الذى خلق سجدتين وهذا نص أن المراد سجود التلاوة ويدل للاول قوله تعالى أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى الى قوله تعالى كلا لا تطعه واسجد أى ودم على سجودك قال الزمخشرى يريد الصلاة لانه لا يرى سجود التلاوة فى المفصل والحديث عليه (واقترب) أى وتقرب الى ربك بطاعته وبالدعاء اليه قال صلى الله عليه وسلم أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أى حقيق أن يستجاب لكم وكان صلى الله عليه وسلم يكثر فى سجوده من البكاء والتضرع حتى قالت عائشة رضى الله عنها قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا وفى رواية أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء وقرأ ليطغى استغنى اذا صلى على الهدى بالتقوى وتولى حمزة والكسائى جميع ذلك بالامالة محضة وورش وابو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة العلق أعطى من الاجر كأنما قرأ المفصل كله حديث موضوع

(سورة القدر مدنية)

فى قول أكثر المفسرين وحكى الماوردى عكسه وذكر الواحدى انها أول سورة نزلت بالمدينة وهى خمس آيات وثلاثون كلمة ومائة واثنا عشر حرفا

(بسم الله) الملك الاعظم الذى لا يعبد الا اياه (الرحمن) الذى عم بجوده جميع خلقه أقصاه وأدناه (الرحيم) الذى قرب أهل طاعته وأبعد من عاداهم وأشقاه وقوله تعالى (انا أنزلناه) أى بما لنا من العظمة أى القرآن فيه تعظيم له من ثلاثة أوجه أحدها انه أسند انزاله اليه وجعله مختصا به دون غيره والثانى انه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن

التنبيه عليه والثالث الرفع من مقدار الوقت الذى أنزل فيه وهو قوله تعالى (فى ليلة القدر وما أدراك) أى أعلمك يا أشرف الخلق (ما ليلة القدر) فان فى ذلك تعظيما لشأنها روى أنه أنزله جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا وأملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحاجة اليه وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نزل فى شهر رمضان وفى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السفرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عليه السلام عشرين سنة ونجمه جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم عشرين سنة قال ابن العربى وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله تعالى واسطة ولا بين جبريل وبين محمد صلى الله عليه وسلم واسطة وعن الشعبى انا بدأنا انزاله فى ليلة القدر وقيل المعنى أنزل فى شأنها وفضلها فليست ظرفا وانما هو كقول عمر رضى الله عنه خشيت أن ينزل فى قرآن وقول عائشة رضى الله عنها لانا أحقر فى شأنى أن ينزل فى قرآن وسميت ليلة القدر لان الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره الى السنة القابلة من أمر الموت والاجل والرزق وغيره ويسلمه الى مدبرات الامور من الملائكة وهم اسرافيل وميكائيل وعزرائيل وجبرائيل عليهم السلام كقوله تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى يقضى الاقضية فى ليلة نصف شعبان ويسلمها الى أربابها فى ليلة القدر وهذا يصلح أن يكون جمعا بين القولين فى قوله تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم فانه قيل انها الليلة النصف من شعبان وقيل ليلة القدر وحينئذ لا خلاف وقيل سميت بذلك لتضيقها بالملائكة قال الخليل لان الارض تضيق فيها بالملائكة كقوله تعالى ومن قدر عليه رزقه وقيل سميت بذلك لعظمها وشرفها وقدرها من قولهم لفلان قدر أى شرف ومنزلة قاله الازهرى وغيره وقيل سميت بذلك لان للطاعة قدرا عظيما وثوابا جزيلا وقيل لانه أنزل فيها كتابا ذا قدر على رسول ذى قدر الى أمة ذات قدر ومعنى أن الله تعالى يقدر الآجال والارزاق انه يظهر ذلك للملائكة ويأمرهم بفعل ما هو من سعتهم وضيقهم بأن يكتب لهم ما قدره فى تلك السنة ويعرفهم اياه وليس المراد أنه يحدث فى تلك الليلة لان الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والارض فى الازل قيل للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله تعالى المقادير قبل أن يخلق السموات والارض قال نعم قيل له فما معنى ليلة القدر قال سوق المقادير الى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر واختلفوا هل هى باقية أو لا فقيل انها كانت مرة ثم انقطعت وقيل انها رفعت بعد النبى صلى الله عليه وسلم والصحيح انها باقية الى يوم القيامة وروى عن عبد الله بن محسن مولى معاوية قال قلت لابى بكر زعموا أن ليلة القدر قد رفعت قال كذب من قال ذلك قلت هى فى كل شهر رمضان أستقبله قال نعم وعن سعيد بن المسيب أنه سئل عن ليلة القدر أهى شئ كان فذهب أم هى فى كل عام فقال بل هى لامة محمد صلى الله عليه وسلم ما بقى منهم اثنان واستدل من قال برفعها بقوله صلى الله عليه وسلم حين تلاحى الرجلان انى خرجت لاخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيرا لكم وهذا غفلة من هذا

القائل ففي آخر الحديث فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة فلو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها واختلفوا في وقتها فأكثر أهل العلم انها مختصة برمضان واحتجوا بقوله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وقال تعالى انا انزلناه في ليلة القدر فوجب أن لا تكون ليلة القدر الا في رمضان لئلا يلزم التناقض وروى عن أبي بن كعب أنه قال والله الذي لا اله الا هو انها لفي رمضان حلف بذلك ثلاث مرات وعن ابن عمر قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال هي في كل رمضان وقيل هي دائرة في جميع السنة لا تختص برمضان حتى لو علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر لا يقع مالم تنقض سنة من حين حلف يروى ذلك عن أبي حنيفة وعن ابن مسعود أنه قال من يقم الحول يصبها وذكر عن أبي الحسن الشاذلي انه قال من أراد أن يعرف ليلة القدر فلينظر الى غرة رمضان أي الى أوله فان كان يوم الاحد فليلة القدر ليلة تسع وعشرين وان كان يوم الاثنين فليلة القدر احدى وعشرين وان كان يوم الثلاثاء فليلة سبع وعشرين وان كان يوم الاربعاء فليلة تسعة عشر وان كان يوم الخميس فليلة خمس وعشرين وان كان ليلة الجمعة فليلة سبعة عشر وان كان يوم السبت فليلة ثلاث وعشرين وعلى القول الاول هل هي في كل رمضان أو في العشر الاخير قولان أحدهما انها في كل شهره واختلفوا في أي ليلة منه فقال ابن رزين هي الليلة الاولى من رمضان وقال الحسن البصري السابعة عشر وقال أنس التاسعة عشر وقال محمد بن اسحق الحادية والعشرون وقال ابن عباس الثالثة والعشرون وقال ابي بن كعب السابعة والعشرون وقيل التاسعة والعشرون وقيل ليلة الثلاثين وكل استدل على قوله بما يطول الكلام عليه والقول الثاني وهو ما عليه الاكثرون انها مختصة بالعشر الاخير منه واستدل لذلك بأشياء منها ماروى عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال في رمضان فالتمسوها في العشر الاواخر ومنها ماروى عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتمسوها في العشر الاواخر من رمضان وعن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر الاواخر مالا يجتهد في غيرها وعنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله واختلفوا في انها أي ليلة من العشر هل في ليلة من ليالي العشر كله أو في أوتاره فقط وهل تلزم ليلة بعينها أو تنتقل في جميعه أقوال والذي عليه الاكثر أنها في جميعه ولكن أرجاها أوتاره وأرجى الاوتار عند امامنا الشافعي رضي الله عنه ليلة الحادي والعشرين أو الثالث والعشرين يدل للاول خبر الصحيحين وللثاني خبر مسلم وأنها تلزم عنده ليلة بعينها وقال المزني صاحب الشافعي وابن خزيمة انها منتقلة في ليالي العشر جمعا بين الاحاديث قال النووي وهو قوي وقال في مجموعه انه الظاهر المختار وخصها بعض العلماء بأوتار العشر الاواخر وبعضهم بأشفاعه وقال ابن عباس وأبي هي ليلة سبع وعشرين وهو مذهب أكثر أهل العلم واستنبط ذلك بعضهم من أن ليلة القدر ذكرت ثلاث مرات وهي تسعة أحرف واذا ضربت تسعة في ثلاثة تكن سبعة وعشرين وبعضهم استنبط ذلك من عدد كلمات السورة

وقال

وقال انها ثلاثون كلمة وفاقا وقوله تعالى هى السابع والعشرون وهى كناية عن هذه الليلة فبان أنها الليلة السابع والعشرين وهو استنباط لطيف وليس بدليل كما قيل وفيها نحو الثلاثين قولا وبضع وعشرون حديثا وأفردت بالتصنيف وفيما ذكرناه كفاية وذكروا للسبب فى اخفائها عن الناس وجوها احدها انه تعالى أخفاها ليعظموا جميع السنة على القول بأنها فيها أو جميع رمضان على القول به أو جميع العشر الاخير على القول به كما أخفى رضاه فى الطاعات ليرغبوا فى كلها وأخفى غضبه فى المعاصى ليحذروها كلها وأخفى وليه فى المسلمين ليعظموهم كلهم وأخفى الاجابة فى الدعاء ليبالغوا فى الدعوات وأخفى ساعة الاجابة فى يوم الجمعة ليجتهدوا فى العبادة فى جميع أوقاته فى غير الاوقات المنهى عنها طمعا فى ادراكها وأخفى الاسم الاعظم ليعظموا كل أسمائه تعالى وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل وأخفى التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسامها وأخفى قيام الساعة ليكونوا على وجل من قيامها بغتة ثانيها ان العبد اذا لم يتيقن ليلة القدر واجتهد فى الطاعة رجاء أن يدركها فيباهى الله تعالى به ملائكته و يقول تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء وهذا جده واجتهاده فى الليلة المظنونة فكيف ولو جعلتها معلومة فحينئذ يظهر انى أعلم ما لا تعلمون ثالثها ليجتهدوا فى طلبها والتماسها فينالوا بذلك أجر المجتهدين فى العبادة بخلاف ما لو عينت فى ليلة بعينها لحصل الاقتصار عليها ففاتت العبادة فى غيرها * ثم ذكر الله تعالى فضلها من ثلاثة أوجه أحدها ما ذكره بقوله سبحانه (ليلة القدر) أى التى خصصناها بانزالنا له فيها (خير من ألف شهر) ليس فيها ليلة القدر فالعمل الصالح فيها خير منه فى ألف شهر ليست فيها ليلة قدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بنى اسرائيل حمل السلاح على عاتقه فى سبيل الله ألف شهر فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك وتمنى ذلك لامته فقال يارب جعلت أمتى أقصر الامم أعمارا وأقلها أعمالا فأعطاه الله تعالى ليلة القدر فقال تعالى ليلة القدر خير من ألف شهر التى حمل فيها الاسرائيلى السلاح فى سبيل الله لك ولامتك الى يوم القيامة أى فهى من خصائص هذه الامة وعن مالك أنه سمع من يثق به من أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الناس قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذى بلغ غيرهم فأعطاه الله تعالى ليلة القدر التى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وقيل ان الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا ليلة ان أحيوها كانوا أحق بان يسموا عابدين من أولئك العباد وهى أفضل ليالى السنة ويدخل فى ذلك ليلة الاسراء فهى افضل منها ان لم تكن ليلة الاسراء ليلة القدر كما قيل ان الاسراء كان فى رمضان وانما كان كذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع فيكتب فيها جميع خير السنة وشرها ورزقها وأجلها وبلائها ورخائها ومعاشها الى مثلها من السنة ولا يشكل ذلك بما قيل ان الآجال تقطع من شعبان الى شعبان حتى ان الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه فى الموتى لما ورد ان الله تعالى يامر بنسخ ما يكون فى السنة من الآجال والامراض والارزاق ونحوها فى ليلة النصف من شعبان فاذا كان ليلة القدر فيسلمها

الى أربابها وقيل يقدر فى ليلة النصف من شعبان الآجال والامراض وفى ليلة القدر الامور التى فيها الخير والبركة والسلامة * الوجه الثانى من فضائلها ماذكره الله تعالى فى قوله جل ذكره (تنزل) أى تتنزل امتدرجا متواصلا على غاية مايكون من الخفة والسرعة بما أشار اليه حذف التاء (الملائكة) أى الى الارض وروى انه اذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة وهم سكان سدرة المنتهى (والروح) أى جبريل عليه السلام (فيها) أى فى الليلة ومعه أربعة ألوية فينصب لواء على قبر النبى صلى الله عليه وسلم ولواء على ظهر بيت المقدس ولواء على ظهر المسجد الحرام ولواء على ظهر طور سيناء ولايدع بيتا فيه مؤمن ولامؤمنة الادخله وسلم عليهم يقول يامؤمن ويامؤمنة السلام يقرئك السلام الاعلى مدمن خمر وقاطع رحم وآكل لحم خنزير وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام فى كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى وهذا يدل على أن الملائكة كلهم لاينزلون وظاهر الآية نزول الجميع وجمع بين ذلك بماروى انهم ينزلون فوجا فوجا كما ان اهل الحج يدخلون الكعبة فوجا بعد فوج وان كانت لاتسعهم دفعة واحدة كما ان الارض لاتسع الملائكة دفعة واحدة ولذلك ذكر بلفظ تنزل الذى يقتضى المرة بعد المرة أى ينزل فوج ويصعد فوج والله أعلم بذلك وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان الملائكة فى تلك الليلة أكثر من عدد الحصى وقال بعضهم الروح ملك تحت العرش ورجلاه فى تخوم الارض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى كل رأس ألف وجه وفى كل وجه ألف فم وفى كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بكل لسان ألف نوع من التسبيح والتحميد والتمجيد ولكل لسان لغة لاتشبه لغة أخرى فاذا فتح أفواهه بالتسبيح خرت ملائكة السموات السبع سجدا مخافة أن تحرقهم أنوار أفواهه وانما يسبح الله تعالى غدوة وعشية فينزل فى ليلة القدر لشرفها وعلو شأنها فيستغفر للصائمين والصائمات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بتلك الافواه كلها الى طلوع الفجر وعن على أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة أسرى بى ملكا رجلاه جاوزت من الارض السابعة السفلى ورأسه من السماء السابعة العليا ومن لدن رأسه الى قدميه وجوه وأجنحة فى كل وجه فم ولسان يسبح الرحمن تسبيحا لايسبحه العضو الآخر ولو أمره الله تعالى أن يلتقم السموات السبع والارضين السبع لقمة واحدة كما يلتقم أحدكم اللقمة لأطاق ذلك ثم لم تكن تلك فى فيه الا كاللقمة أحدكم فى فيه ولوسمع أهل الدنيا صوته بالتسبيح لصعقوا مابين شحمة أذنه الى منكبه خفقان الطير السريع سبعة آلاف سنة وهو رأس الملائكة وقيل الروح طائفة من الملائكة لاتراهم الملائكة الافى تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس الى طلوع الفجر (باذن ربهم) أى بأمر المحسن اليهم المربى لهم (من كل أمر) أى قضاه الله تعالى فيها لتلك السنة الى قابل وتقدم الجمع بينها وبين ليلة النصف من شعبان ومن سببية بمعنى الباء * الوجه الثالث فضائلها ماذكره تعالى بقوله سبحانه (سلام) أى عظيم جدا وهو خبر مقدم والمبتدأ (هى) جعلت سلاما لكثرة السلام فيها من الملائكة لايمرون بمؤمن ولامؤمنة الاسلمت عليه ويستمرون

على

على ذلك من غروب الشمس (حتى) أي الى (مطلع الفجر) أي وقت مطلعه أي طلوعه وقرأ الكسائي بكسر اللام على انه كالمرجع او اسم زمان على غير قياس كالمشرق والباقون بفتحها * ومن فضائلها أن من قامها غفرت له ذنوبه ففي الصحيحين من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه قال النووي في شرح مسلم ولا ينال فضلها الا من اطلعه الله تعالى عليها فلو قامها انسان ولم يشعر بها لم ينل فضلها قال الاذرعي وكلام المتولي ينازعه حيث قال يستحب التعبد في كل ليالي العشر حتى يحوز الفضيلة على اليقين اه وهذا أولى نعم حال من اطلق أكمل اذا قام بوظائفها وعن أبي هريرة مرفوعا من صلى العشاء الاخيرة في جماعة من رمضان فقد أدرك ليلة القدر أي أخذ حظا منها ويسن لمن رآها أن يكتمها ويسن أن يكثر من الدعاء والتعبد في ليالي رمضان وأن يكون من دعائه اللهم انك عفو كريم تحب العفو فاعف عني ومن علاماتها أن الشمس تطلع صبيحتها لاشعاع لها رواه مسلم عن أبي بن كعب وعن ابن مسعود قال ان الشمس تطلع كل يوم بين قرني شيطان الاصبيحة ليلة القدر فانها تطلع يومئذ بيضاء ليس لها شعاع (فان قيل) لافائدة في هذه العلامة فانها قد انقضت (أجيب) بأنه يستحب أن يجتهد في ليلتها ويبقى يعرفها كما مر عن الشافعي أنها تلزم ليلة واحدة وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القدر أعطى من الاجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر حديث موضوع

(سورة لم يكن)

وتسمى القيمة وتسمى المنفكين مكية في قول يحيى بن سلام ومدنية في قول الجمهور وهي ثمان آيات وأربع وتسعون كلمة وثلثمائة وتسعون حرفا

(بسم الله) الذي لايخرج شئ عن مراده (الرحمن) الذي عم بنعمه جميع عباده (الرحيم) الذي خص أولياءه باسعاده * ولما كان الكفار جنسين أهل كتاب ومشركين ذكرهم الله تعالى في قوله سبحانه (لم يكن الذين كفروا) أي في مطلق الزمان الماضي والحال والاستقبال (من أهل الكتاب) أي من اليهود والنصارى الذين كان أصل دينهم حقا فألحدوا فيه بالتبديل والتحريف والاعوجاج في صفات الله تعالى ثم نسخه الله تعالى بما شرع من مخالفته في الفروع وموافقته في الاصول فكذبوا (والمشركين) أي بعبادة الاصنام والنار والشمس ونحو ذلك ممن هم عريقون في دين لم يكن له أصل في الحق بأن لم يكن لهم كتاب *(تنبيه)* من للبيان وقوله تعالى (منفكين) خبر يكن أي منفصلين وزائلين عما كانوا عليه من دينهم انفكاكا يزيلهم عنه بالكلية بحيث لا تبقى لهم به علقة ويثبتون على ذلك الانفكاك وأصل الفك الفتح والانفصال لما كان ملتحما من فك الكتاب والختم والعظم اذا أزيل ما كان ملتصقا أو متصلا به أو عن الموعد باتباع الحق اذا جاءهم الرسول المبشر به فان أهل الكتاب كانوا يستفتحون به والمشركين كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من

احدى الامم (فان قيل) لم قال تعالى كفروا بلفظ الماضى وذكر المشركين باسم الفاعل (أجيب) بأن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الامر لانهم كانوا مصدقين بالتوراة والانجيل وبمبعث محمد صلى الله عليه وسلم بخلاف المشركين فانهم ولدوا على عبادة الاوثان وذلك يدل على الثبات على الكفر وقوله تعالى (حتى) أى الى أن (تأتيهم البينة) متعلق بيكن أو بمنفكين والبينة الآية التى هى فى البيان كالفجر المنير الذى لا يزداد بالتمادى الا ظهورا وضياء ونورا وذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم وما معه من الآيات التى أعظمها الكتاب وهو القرآن وقوله تعالى (رسول) أى عظيم جدا بدل من البينة بنفسه أو بتقدير مضاف أى بينة رسول أو مبتدأ أو زاد عظمته بقوله تعالى واصفا له (من الله) أى الذى له الجلال والاكرام وهو محمد صلى الله عليه وسلم لانه فى نفسه بينة وحجة ولذلك سماه الله تعالى سراجا منيرا ولان اللام فى البينة للتعريف أى هو الذى سبق ذكره فى التوراة والانجيل على لسان موسى وعيسى عليهم السلام وقد يكون التعريف للتفخيم اذ هو البينة التى لا مزيد عليها والبينة كل البينة وكذا التنكير وقد جمعهما الله تعالى ههنا فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم ونظيره قوله تعالى حين أثنى على نفسه ذو العرش المجيد فعال لما يريد فنكر بعد التعريف وقال أبو مسلم المراد من البينة مطلق الرسول وما معه من الآيات التى أعظمها الكتاب سواء التوراة أو الزبور أو الانجيل أو القرآن وعبر بالمضارع لتجدد البيان فى كل وقت بتجدد الرسالة والتلاوة وقال البغوى لفظه مستقبل ومعناه الماضى أى حتى أتتهم البينة وتبعه على ذلك الجلال المحلى وقوله تعالى (يتلو صحفا) صفة الرسول أو خبره والرسول صلى الله عليه وسلم وان كان أميا لكنه لما تلا مثل ما فى الصحف كان كالتالى لها وقيل المراد جبريل عليه السلام وهو التالى للصحف المنتسخة من اللوح التى ذكرت فى سورة عبس ولا بد من مضاف محذوف وهو الوحى والصحف جمع صحيفة وهى القرطاس والمراد ما فيها اعبر بها عنه لشدة المواصلة (مطهرة) أى فى غاية الطهارة والنزاهة من كل قذر مما جعلنا لها من البعد عن الادناس بأن الباطل من الشرك بالاوثان وغيرها من كل زيغ لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها وأنها لا يمسها الا المطهرون (فيها) أى تلك الصحف (كتب) أى أحكام مكتوبة (قيمة) أى مستقيمة ناطقة بالحق والعدل الذى لا مرية فيه ليس فيه شرك ولا اعوجاج بنوع من الانواع (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) أى عما كانوا عليه وخص أهل الكتاب بالتفرق دون غيرهم وان كانوا مجموعين مع الكافرين لانهم يظنون بهم علما فاذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف (الا من بعد ما جاءتهم البينة) أى أتتهم البينة الواضحة والمعنى به محمد صلى الله عليه وسلم أتى بالقرآن موافقا للذى فى أيديهم من الكتاب بنعته وصفته وذلك أنهم كانوا مجمعين على نبوته فلما بعث صلى الله عليه وسلم جحدوا نبوته وتفرقوا فمنهم من كفر بغيا وحسدا ومنهم من آمن كقوله تعالى وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم وقال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقد كان مجىء البينة يقتضى اجتماعهم على الحق لا تفرقهم

فيه وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف بعد الجيم محضة والباقون بالفتح * ولما كان حال من أضل على علم أشنع زاد في فضيحتهم فقال تعالى (وما أمروا) أى هؤلاء الكفار فى التوراة والانجيل (الا ليعبدوا الله) أى يوحدوا الاله الذى له الامر كله ولا أمر لاحد غيره واللام بمعنى ان كقوله تعالى يريد الله ليبين لكم وقوله تعالى (مخلصين له الدين) فيه دليل على وجوب النية فى العبادات لان الاخلاص من عمل القلب وهو أن يراد به وجه الله تعالى لا غيره ومن ذلك قوله انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (حنفاء) أى مائلين عن الاديان كلها الى دين الاسلام وأصل الحنف فى اللغة الميل وخصه العرف بالميل الى الخير وسموا الميل الى الشر الحادا والحنيف المطلق الذى يكون متبرئا عن أصول الملل الخمسة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين وعن فروعها من جميع النحل الى الاعتقادات وعن توابعها من الخطا والنسيان الى العمل الصالح وهو مقام التقى وعن المكروهات الى المستحبات وهو المقام الاول من الورع وعن الفضول شفقة على خلق الله وهو ما لا يعنى الى ما يعنى وهو المقام الثانى من الورع وعما يجر الى الفضول وهو مقام الزهد فالآية جامعة لمقامى الاخلاص الناظر أحدهما الى الحق والثانى الى الخلق * ولما ذكر أصل الدين أتبعه الفروع وبدأ بأعظمها الذى هو مجمع الدين وموضع التجرد عن العوائق فقال عز من قائل (ويقيموا) أى يعدلوا من غير اعوجاج بجميع الشرائط والاركان والحدود (الصلاة) لتصير بذلك أهلا بأن تقوم بنفسها وهى من التعظيم لامر الله تعالى ولما ذكر تعالى صلة الخالق أتبعها صلة الخلائق بقوله تعالى (ويؤتوا الزكاة) أى يدفعوها المستحقيها شفقة على خلق الله تعالى اعانة على الدين أى ولكنهم حرفوا ذلك وبدلوه بطباعهم المعوجة وتدخل الزكاة عند أهل الله تعالى فى كل ما رزق الله من عقل وسمع وبصر ولسان ويد ورجل وجاه وغير ذلك كما هو واضح من قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون (وذلك) أى والحال ان هذا الموصوف من العبادة على الوجه المذكور (دين القيمة) أى الملة المستقيمة وأضاف الدين الى القيمة وهى نعته لاختلاف اللفظين وأنث القيمة ردا بها الى الملة وقيل الهاء للمبالغة فيه وقيل القيمة هى الكتب التى جرى ذكرها أى وذلك دين الكتب القيمة فيما تدعو اليه وتأمر به كما قال تعالى وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقال النضر بن شميل سألت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى وذلك دين القيمة فقال القيمة جمع القيم والقيم والقائم واحد قال البغوى ومجاز الآية وذلك دين القائمين لله تعالى بالتوحيد ثم ذكر تعالى ما للفريقين فقال سبحانه (ان الذين كفروا) اى وقع منهم الستر لما أى عقولهم بعدم صرفها للنظر الصحيح فضلوا واستمروا على ذلك وان لم يكونوا عريقين فيه (من أهل الكتاب) أى اليهود والنصارى (والمشركين) أى العريقين فى الشرك (فى نار جهنم) أى النار التى تلقاهم بالتجهم والعبوسة (خالدين فيها) أى يوم القيامة أو فى الحال لسعيهم لموجباتها واشتراك الفريقين فى جنس العذاب لا يوجب التساوى فى النوع بل يختلف بحسب اشتداد الكفر وخفته (أولئك) أى هؤلاء البعداء البغضاء (هم) أى خاصة بما لضمائرهم من الخبث (شر البرية) أى

الخليقة الذين أهملوا اصلاح أنفسهم وفرطوا فى حوائجهم وما ربهم وهذا يحتمل أن يكون على التعميم وأن يكون بالنسبة لعصر النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى وانى فضلتكم على العالمين أى عالمى زمانهم ولا يبعد أن يكون فى كفار الامم قبل من هو شر منهم مثل فرعون وعاقر ناقة صالح * ولما ذكر تعالى الاعداء وبدأ بهم لان ذلك أردع لهم أتبعه الاولياء فقال تعالى مؤكدا لما للكفار من الانكار (ان الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى هذا النوع (أولئك) أى هؤلاء العالو الدرجات (هم) أى خاصة (خير البرية) أى على التعميم أو برية عصرهم يأتى فيه ما مر وقرأ نافع وابن ذكوان بالهمز فى الحرفين لانه من قولهم برأ الله الخلق والباقون بالياء المشددة بعد الراء كالذرية ترك همزه فى الاستعمال ثم ذكر ثوابهم بقوله تعالى (جزاؤهم) أى على طاعاتهم وعظمه بقوله تعالى (عند ربهم) أى المربى لهم والمحسن اليهم (جنات عدن) أى اقامة لا يتحولون عنها (تجرى) أى جريا دائما لا انقطاع له (من تحتها) أى تحت أشجارها وغرفها (الانهار خالدين فيها) أى يوم القيامة أو فى الحال لسعيهم فى موجباتها وأكد معنى الخلود تعظيما لجزائهم بقوله تعالى (أبدا رضى الله) أى بما له من نعوت الجلال والجمال (عنهم) أى بما كان سبق لهم من العناية والتوفيق (ورضوا عنه) لانهم لم يبق لهم أمنية الا أعطاهموها مع علمهم انه تفضل فى جميع ذلك لا يجب عليه لاحد شئ ولا يقدره أحد حق قدره فلو آخذ الخلق بما يستحقونه لاهلكهم كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس ورضوا عنه بثواب الله عز وجل (ذلك) أى الامر العالى الذى جوزوا به (لمن خشى ربه) أى خاف المحسن اليه خوفا يليق به فلم يركن الى التسويف والتكاسل فان الخشية ملاك الامر والباعث على كل خير وهى للعارفين فان الانسان اذا استشعر عذابا يأتيه تلحقه حالة يقال لها الخوف وهى انخلاع القلب عن طمأنينته فان اشتد سمى وجلا لجولانه فى نفسه فان اشتد سمى رهبا لادائه الى الهرب وهى حالة المؤمنين الفارين الى الله تعالى ومن غلب عليه الحب لاستغراقه فى شهود الجماليات لحقته حالة تسمى مهابة ووراء هذا الخشية انما يخشى الله من عباده العلماء فمن خاف ربه هذا الخوف انفك عن جميع ما عنده مما لا يليق بجنابه تعالى وما فارق الخوف قلبا الا خرب روى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لابى بن كعب ان الله أمرنى أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا قال أبى وسمانى لك قال النبى صلى الله عليه وسلم نعم فبكى أبى قال البقاعى سبب تخصيصه بذلك أنه وجد اثنين من الصحابة قد خالفاه فى القراءة فرفعهما الى النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهما فعرضا عليه فحسن لهما قال فسقط فى نفسى من التكذيب أشد ما يكون فى الجاهلية فضرب صلى الله عليه وسلم فى صدرى ففضت عرقا وكأنما أنظر الى الله فرقا أى خوفا ثم قص على خبر التخفيف بالسبعة الاحرف وكانت السورة التى وقع فيها الخلاف النحل وفيها انه تعالى يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم يوم البعث شهيدا وانه نزل عليه الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وأنه نزل عليه روح القدس بالحق ليثبت الذين آمنوا

وان اليهود اختلفوا فى السبت وسورة لم يكن على قصرها حاوية اجمالا لكل ما فى النحل على طولها وزيادة وفيها التحذير من الشك بعد البيان وتقبيح حال من فعل ذلك وأن حاله يكون كحال الكفرة من أهل الكتاب فى العناد فيكون شر البرية فقرأها صلى الله عليه وسلم عليه تذكيرا له بذلك كله على وجه أبلغ وأخصر ليكون أسرع له تصورا فيكون أرسخ فى النفس وأثبت فى القلب وأعشق للطبع فاختصه الله بالتثبيت وأراد له الثبات فكان من المريدين المرادين لما وصل الى قلبه بركة ضربة النبى صلى الله عليه وسلم لصدره وصار كلما قرأ هذه السورة الجامعة غائبا عن تلاوة نفسه مصغيا باذن قلبه الى روح النبوة يتلو عليه ذلك فيدوم له حال الشهود الذى وصل اليه بسر تلك الضربة ولثبوته فى هذا المقام * قال صلى الله عليه وسلم اقرؤكم أبى * قال القرطبى وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم وقال بعضهم انما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على أبى ليعلم الناس التواضع لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه فى المنزلة وقيل ان أبيا كان أسرع أخذا الالفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد بقراءته عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليه ويعلم غيره وفيه فضيلة عظيمة لابى اذ أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ عليه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلا حديث موضوع

﴿سورة الزلزلة مدنية﴾

فى قول ابن عباس وقتادة ومكية فى قول ابن مسعود وعطاء وجابر وهى ثمان آيات وخمس وثلاثون كلمة ومائة وتسع وأربعون حرفا

(بسم الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما (الرحمن) الذى عم الخلق بنعمته الظاهرة قسما (الرحيم) الذى أتم النعمة على خواصه حقيقة عينا واسما * ولما قال تعالى للمؤمنين جزاؤهم عند ربهم جنات عدن كان المكلف قال متى يكون ذلك فقيل له (اذا زلزلت الارض) أى تحركت واضطربت لقيام الساعة فالعاملون كلهم يكونون فى الخوف وأنت فى ذلك الوقت تنال جزاءك وتكون آمنا لقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (زلزالها) أى تحريكها الشديد المناسب لعظم جرم الارض وعظمة ذلك وذلك كما تقول أكرم التقى اكرامه وأهن الفاسق اهانته تريد ما يستوجبانه من الاكرام والاهانة * ولما كان الاضطراب العظيم يكشف عن الخفى فى المضطرب قال تعالى (وأخرجت الارض) أى كلها ولم يضمر تحقيقا للعموم (أثقالها) أى مما هو مدفون فيها من الكنوز والاموات قال أبو عبيدة والاخفش اذا كان الميت فى بطن الارض فهو ثقل لها واذا كان فوقها فهو ثقل عليها وقال ابن عباس ومجاهد أثقالها أمواتها تخرجهم فى النفخة الثانية ومنه قيل للجن والانس الثقلان وقيل أثقالها كنوزها ومنه الحديث تلقى الارض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة فيجئ القاتل فيقول

فى هذا قتلت ويجىء القاطع فيقول فى هذا قطعت رحمى ويجىء السارق فيقول فى هذا قطعت يدى ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيأ فيعطيها الله تعالى قوة اخراج ذلك كله كما كان يعطيها قوة أن تخرج النبات الصغير اللطيف الطرى الذى هو أنعم من الحرير فتشق الارض الصلبة التى تكل عنها المعاويل شق النواة مع مالها من الصلابة التى استعصت بها على الحديد فتنفلق نصفين وينبت منها ساق يحمل ما يريده سبحانه وتعالى فالذى قدر على ذلك قادر على تكوين الموتى فى بطن الارض واعادتهم على ما كانوا عليه كما يكون الجنين فى البطن ويشق جميع منافذه من السمع والبصر والفم وغير ذلك من غير أن يدخل هناك بيكار ولا منشار ثم يخرج من البطن هكذا اخراج الموتى من غير فرق كل ذلك عليه هين سبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه (وقال الانسان) أى هذا النوع الصادق بالقليل والكثير لما له من النسيان لما أكد عنده من أمر البعث بما له من الانس بنفسه والنظر فى عطفه على سبيل التعجب أو الدهش والحيرة أو الكافر كما يقول من بعثنا من مرقدنا فيقول له المؤمن هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (مالها) أى أى شئ ثبت للارض فى هذه الزلزلة الشديدة التى لم يعهد مثلها ولفظت ما فى بطنها (يومئذ) أى اذ كان ما ذكر من الزلزال وما لزم عنه وقوله تعالى (تحدث أخبارها) جواب اذا وهو الناصب لها عند الجمهور ومعنى تحدث أى تخبر الارض بما عمل عليها من خير أو شر يومئذ ثم قيل هو من قول الله تعالى وقيل من قول الانسان أى يقول الانسان مالها تحدث أخبارها متعجبا روى الترمذى عن أبى هريرة أنه قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية يومئذ تحدث أخبارها قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا كذا وكذا قال فهذه أخبارها * (تنبيه) * فى تحديثها بأخبارها ثلاثة أقوال أحدها أن الله تعالى يقلبها حيوانا ناطقا فتتكلم بذلك ثانيها أن الله تعالى يحدث فيها الكلام ثالثها أن يكون فيها بيان يقوم مقام الكلام وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديره يومئذ تحدث أخبارها فيقول الانسان مالها أى تخبر الارض بما عمل عليها (بأن ربك) متعلق بتحدث ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها والباء سببية أى تحدث بسبب أن ربك المحسن اليك بأنواع النعم (أوحى لها) أى أذن لها أن تتكلم بذلك المذكور بالقال أو بالحال على ما مر قال البقاعى وعدل عن قوله اليها الى قول الله تعالى لها ايذانا بالاسراع فى الايحاء وقال البغوى أوحى لها وأوحى اليها واحد وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يومئذ) بدل من يومئذ قبله أو منصوب بقوله تعالى (يصدر) أو باذكر مقدرا أى واذكر يوم اذ كان ما تقدم وهو حين يقوم الناس من القبور يصدر (الناس) أى يرجعون من قبورهم الى ربهم الذى كان لهم بالمرصاد ليفصل بينهم وقرأ حمزة والكسائى باشمام الصاد بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة (أشتاتا) أى متفرقين بحسب مراتبهم فى الذوات والاحوال من مؤمن وكافر وآمن وخائف ومطيع وعاص وعن ابن عباس متفرقين على قدر أعمالهم أهل الايمان على حدة وأهل الكفر على حدة أو متفرقين فأخذ ذات اليمين

الى

الى الجنة واخذذات الشمال الى النار (ليروا) أى يرى الله تعالى المحسن منهم والمسىء بواسطة من شاء من جنوده أو بغير واسطة حين يكلم سبحانه كل أحد من غير ترجمان ولا واسطة كما أخبر بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم (أعمالهم) فيعلموا اجزاءها أو صادرين عن الموقف كل الى داره ليرى بجزاء عمله ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلا الجملة التى قبله (فمن يعمل) من محسن أو مسىء مسلم أو كافر (مثقال ذرة خيرا) أى من جهة الخير (يره) أى يرى ثوابه حاضرا لا يغيب عنه شئ منه لان المحاسب له الاحاطة علما وقدرة (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فالمؤمن يراه ليشتد سروره به والكافر يوقف على عمله انه أحبط لبنائه على غير أساس الايمان أو على انه جوزى فى الدنيا فهو صورة بلا معنى ليشتد ندمه وتبقى حسرته وعن ابن عباس من يعمل من الكفار خيرا يره فى الدنيا ولا يثاب عليه فى الآخرة ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه فى الآخرة مع عقاب الشرك ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره فى الدنيا ولا يعاقب عليه فى الآخرة اذا تاب ويتجاوز عنه وان عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه ويضاعف فى الآخرة وفى بعض الاحاديث ان الذرة لا زنة لها وهذا مثل ضربه الله تعالى ليبين انه لا يغفل عن عمل ابن آدم صغيرا ولا كبيرا وهو كقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وذكر بعض أهل اللغة ان الذر ان يضرب الرجل يده على الارض فما علق من التراب فهو الذر وعن ابن عباس اذا وضعت يدك على الارض ورفعتها فكل واحدة مما لزق من التراب ذرة وفسرها بعضهم بالنملة الصغيرة وبعضهم بالهباءة التى ترى طائرة فى الشعاع الداخل من الكوة وقال محمد بن كعب القرظى فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه فى الدنيا فى نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى خير ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته فى الدنيا فى نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى شر ودليله ماروى أنس أن هذه الآية نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل فأمسك وقال يارسول الله وانا لنرى ما عملنا من خير وشر فقال صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر ما رأيت فى الدنيا مما تكره فمثاقيل ذر الشر ويدخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تعطوه يوم القيامة قال أبو ادريس ان مصداقه من كتاب الله عز وجل وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وقال مقاتل نزلت فى رجلين أحدهما كان يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ويقول انما وعد الله تعالى النار على الكبائر فنزلت هذه الآية لترغبهم فى القليل من الخير يعطوه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة وتحذرهم من اليسير من الذنب ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لعائشة اياك ومحقرات الذنوب فان لها من الله تعالى طالبا وقال ابن مسعود هذه الآية أحكم آية فى القرآن وأصدق وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية وقال كعب الاحبار لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آيتان أحصتا ما فى التوراة والانجيل والزبور والصحف فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وكان صلى الله عليه وسلم يسمى هذه الجامعة الفاذة

حين سئل عن زكاة الحمير فقال ما نزل على فيها شئ غير هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وروى مالك فى الموطا ان مسكينا استطعم عائشة رضى الله عنها و بين يديها عنب فقالت لانسان خذ حبة فأعطه اياها فجعل ينظر اليها و يتعجب فقالت أتعجب كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة وكذا تصدق عمر رضى الله عنه وانما فعلا ذلك لتعليم الغير والافهما من كرماء الصحابة قال الربيع بن خثيم مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه الآية فلما بلغ آخرها قال حسبى قد انتهت الموعظة *(تنبيه)* قوله تعالى يره جواب الشرط فى الموضعين وقرأ هشام بسكون هاء يره وصلا فى الحرفين والباقون بضمها وصلا وساكنة وقفا كسائر هاء الكناية وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ اذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله رواه الثعلبى بسند ضعيف لكن يشهد له ما رواه ابن أبى شيبة مرفوعا اذا زلزلت تعدل ربع القرآن

(سورة والعاديات مكية)

فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ومدنية فى قول ابن عباس وأنس ابن مالك وقتادة وهى احدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وثلاثة وستون حرفا

(بسم الله) الذى له الامر كله فلا يسئل عما يفعل (الرحمن) الذى نعمته أتم نعمة وأشمل (الرحيم) الذى خص أولياءه بتوفيقه وأتم نعمته عليهم وأكمل وقوله سبحانه وتعالى (والعاديات ضبحا) قسم أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة تعدو فتضبح والضبح صوت أنفاسها اذا عدون وعن ابن عباس أنه حكاه فقال أح أح قال عنترة

والخيل تكدح حين تضـ * ـبح فى حياض الموت ضبحا

وانتصاب ضبحا على يضبحن ضبحا أو بالعاديات كأنه قيل والضابحات ضبحا لان الضبح يكون مع العدو أو على الحال أى ضابحات والعاديات جمع عادية وهى الجارية بسرعة من العدو وهو المشى بسرعة وعن ابن عباس كنت جالسا فى الحجر فجاء رجل فسألنى عن العاديات ضبحا ففسرتها بالخيل فذهب الى على رضى الله عنه وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت فقال ادعه لى فلما وقفت على رأسه قال تفتى الناس بما لا علم لك به والله ان كانت لاول غزوة فى الاسلام بدر وما كان معنا الا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد العاديات ضبحا الابل من عرفة الى المزدلفة ومن المزدلفة الى منى قال الزمخشرى فان صحت الرواية فقد استعير الضبح للابل كما استعير المشافر والحافر للانسان والشفتان للمهر وما أشبه ذلك قال ابن عباس وليس شئ من الحيوان يضبح غير الفرس والكلب والثعلب ونقل غيره ان الضبح يكون فى الابل والاسود من الحيات والبوم والنمر والارنب والثعلب والفرس ثم اتبع عدوها ما ينشأ عنه فقال تعالى عاطفا بأداة التعقيب (فالموريات قدحا) قال عكرمة والضحاك هى الخيل تورى النار بحوافرها اذا سارت فى الحجارة لاسيما عند سلوك الاوعار وقدحا منصوب بما انتصب به ضبحا قال

الزمخشري ففيه الثلاثة أوجه المتقدمة وعن ابن عباس أورت بحوافرها غبارا وهذا انما يناسب من فسر العاديات بالابل وقال ابن مسعود هي الابل تطأ الحصى فتخرج منه النار وأصل القدح الاستخراج ومنه قدحت العين اذا أخرجت منها الماء الفاسد وعن قتادة وابن عباس أيضا ان الموريات قدحا مكر الرجال في الحرب والعرب تقول اذا أرادوا أن الرجل يمكر بصاحبه والله لامكرن بك ثم لاورين لك وعن ابن عباس أيضا هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل لحاجتهم وطعامهم وعنه أيضا انها نيران المجاهدين اذا كثرت ارهابا لعدوهم العدو كثيرا قال القرطبي وهذه الاقوال مجاز كقولهم فلان يورى زناد الضلالة والاول الحقيقة وان الخيل من شدة عدوها تقدح النار بحوافرها قال مقاتل تسمى تلك النار نار أبي حباب وأبو حباب كان شيخا من مضر في الجاهلية من أبخل الناس وكان لا يوقد نار الخبز ولا غيره حتى تنام العيون فيوقد نويرة تقد مرة وتخمد أخرى فان استيقظ لها أحد أطفأها كراهة أن ينتفع بها أحد فشبهت العرب هذه النار بناره لانه لا ينتفع بها * ولما ذكر العدو وما يتأثر عنده ذكر نتيجته وغايته بقوله تعالى (فالمغيرات) أي باغارة أهلها عليها وقوله تعالى (صبحا) ظرف أي التي تغير وقت الصبح يقال أغار يغير اغارة اذا باغت عدوه لنهب أو قتل أو أسر قال الشاعر

فليت لي بهم قوما اذا ركبوا * شنوا الاغارة فرسانا وركبانا

وغار لغية (فأثرن) أي فهيجن (به) أي بفعل الاغارة ومكانها وزمانها من شدة العدو (نقعا) أي غبار الشدة حركتهن والنقع الغبار * (تنبيه) * عطف الفعل وهو فأثرن على الاسم لانه في تأويل الفعل لوقوعه صلة لأل وقال الزمخشري معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه لان المعنى واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن (فوسطن به) أي بذلك النقع أو العدو أو الوقت (جمعا) من العدو أي صرن وسط العدو وهو الكتيبة يقال وسطت القوم بالتخفيف ووسطتهم بالتشديد وتوسطتهم بمعنى واحد وقال القرطبي يعني جمع منى وهو من دلفة فوجه القسم على هذا ان الله تعالى أقسم بالابل لما فيها من المنافع الكثيرة وتعريضه بابل الحج للترغيب فيه وفيه تعريض على من لم يحج بعد القدرة عليه كما في قوله تعالى ومن كفر أي من لم يحج فان الله غني عن العالمين وجواب القسم قوله تعالى (ان الانسان) أي هذا النوع بماله من الانس بنفسه والنسيان لما ينفعه (لربه) المحسن اليه بابداعه ثم بابقائه وتدبيره وتربيته (لكنود) قال ابن عباس لكفور جحود لنعم الله تعالى وقال الكلبي هو بلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كندة وحضرموت العاصي وقال الحسن هو الذي يعد المصائب وينسى النعم وقال أبو عبيدة هو قليل الخير والارض الكنود التي لا تنبت شيأ وفي الحديث عن أبي أمامة هو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده وقال الفضيل بن عياض الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الاساءة الخصال الكثيرة من الاحسان والشكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الاحسان الخصال الكثيرة من الاساءة (وانه) أي الانسان (على ذلك)

أى الكنود العظيم حيث أقدم على مخالفة الملك الاعظم المحسن مع الكفر لاحسانه (لشهيد) أى يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه أو ان الله تعالى على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد (وانه) أى الانسان من حيث هو (لحب) أى لاجل حب (الخير) أى المال الذى لا يعد غيره لجهله خيرا (لشديد) أى بخيل بالمال ضابط له ممسك عليه أو بليغ القوة فى حبه لان منفعته فى الدنيا وهو متقيد بالعاجل الحاضر المحسوس مع علمه بان أقل ما فيه أنه يشغله عن حسن الخدمة لربه تعالى ومع ذلك فهو لحب المال وايثار الدنيا وطلبها قوى مطيق وهو لحب عبادة ربه وشكر نعمته ضعيف متقاعس ثم سبب عن ذلك قوله تعالى (أفلا يعلم) أى هذا الانسان الذى أنساه أنسه بنفسه (اذا بعثر) أى انثر بغاية السهولة وأخرج (ما فى القبور) أى من الموتى قال أبو عبيدة بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه قال محمد بن كعب ذلك حين يبعثون (فان قيل) لم قال ما فى القبور ولم يقل من ثم قال بعد ذلك ان ربهم بهم (أجيب) عن الاول بأن ما فى الارض غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الاغلب أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل يصيرون كذلك بعد البعث فلذلك كان الضمير الاول ضمير غير العقلاء والضمير الثانى ضمير العقلاء (وحصل) أى أخرج وجمع بغاية السهولة (ما فى الصدور) من خير وشر مما بطن مضمره انه لا يعلمه أحد أصلا وظهر مكتوبا فى صحائف الاعمال وهذا يدل على أن النيات يحاسب عليها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها وتخصيص الصدر بذلك لانه محل القلب (ان ربهم) أى المحسن اليهم بخلقهم وخلقهم وتربيتهم (بهم يومئذ) أى اذ كانت هذه الامور وهو يوم القيامة (لخبير) أى لمحيط بهم من جميع الجهات عالم غاية العلم ببواطن أمورهم فكيف بظواهرها ومعنى علمه بهم يوم القيامة مجازاته لهم والا فهو خبير بهم فى ذلك اليوم وفى غيره فكيف ينبغى للعاقل أن يعلق آماله بالمال فضلا عن أن يؤثره على الباقى وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعاديات أعطى من الاجر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا حديث موضوع

(سورة القارعة مكية)

وهى احدى عشرة آية وست وثلاثون كلمة ومائة واثنان وخمسون حرفا

(بسم الله) الملك الاعلى (الرحمن) الذى عمت نعمة ايجاده جميع الورى (الرحيم) الذى خص أولياءه بالتوفيق لما يحب ويرضى * ولما ختم العاديات بالبعث ذكر صيحته بقوله تعالى (القارعة) أى الصيحة أو القيامة التى تقرع القلوب بأهوالها والاجرام الكثيفة بالتشقق والانفطار والاشياء الثابتة بالانتشار وقوله تعالى (ما القارعة) تهويل لشأنها وهما مبتدأ وخبر خبر القارعة وأكد تعظيمها اعلاما بأنه مهما خطر فى بالك من عظمها فهى أعظم منه فقال تعالى (وما أدراك) أى أعلمك (ما القارعة) أى انك لا تعرفها الانك لم تعهد مثلها وما الاولى مبتدأ وما بعدها خبره وما الثانية وخبرها فى محل المفعول الثانى لادرى واختلف فى ناصب (يوم) على

وجهين أحدهما أنه بمضمر دل عليه القارعة أى تقرعهم يوم وقيل تقديره تأتى القارعة يوم (يكون الناس) والثانى انه اذكر مقدرا فهو مفعول به لاظرف وقوله تعالى (كالفراش المبثوث) يجوز أن يكون خبرا للناقصة وأن يكون حالا من فاعل التامة أى يؤخذون ويحشرون شبه الفراش شبههم فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير الى الداعى من كل جانب كما يتطاير الفراش الى النار والفراش طائر معروف قال قتادة الفراش الطير الذى يتساقط فى النار والسراج الواحدة فراشة وقال الفراء هو الهمج من البعوض والجراد وغيرهما وبه يضرب المثل فى الطيش والهوج يقال أطيش من فراشة وأنشدوا

فراشة الحلم فرعون العذاب وان * تطلب نداه فكلب دونه كاب

وفى أمثالهم أضعف من فراشة وأذل وأجهل وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره وروى مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى وفى تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى منها الطيش الذى يلحقهم وانتشارهم فى الارض وركوب بعضهم بعضا والكثرة والضعف والذلة والمجىء من غير ذهاب والقصد الى الداعى من كل جهة والتطاير الى النار قال جرير

ان الفرزدق ما علمت وقومه * مثل الفراش غشين نار المصطلى

والمبثوث المتفرق وقال تعالى فى موضع آخر كأنهم جراد منتشر (فان قيل) كيف شبه الشئ الواحد بالصغير والكبير معا لانه شبههم بالجراد المنتشر والفراش المبثوث (اجيب) بأن التشبيه بالفراش فى ذهاب كل واحد الى غير جهة الآخر وأما التشبيه بالجراد فبالكثرة والتتابع (وتكون الجبال) على ما هى عليه من الشدة والصلابة وانها صخور راسخة (كالعهن) أى الصوف المصبوغ ألوانا لانها ملونة قال تعالى ومن الجبال جدد بيض وحمر أى وغير ذلك (المنفوش) أى المندوف المفرق الاجزاء فتراها لذلك متطايرة فى الجو كالهباء المنثور كما قال تعالى فى موضع آخر هباء منبثا حتى تعود الارض كلها لا عوج فيها ولا أمتا ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلا لهم (فأما من ثقلت موازينه) أى برجحان الحسنات وفى الموازين قولان أحدهما أنه جمع موزون وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله تعالى وهذا قول الفراء والثانى قال ابن عباس انه جمع ميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه الا الاعمال فتوزن فيه الصحف المكتوبة فيها الحسنات والسيآت أو الاعمال أنفسها فيؤتى بحسنات المؤمن فى أحسن صورة فتوضع فى كفة الميزان فاذا رجحت فالجنة له ويؤتى بسيآت الكافر فى أقبح صورة فيخف ميزانه فيدخل النار وقيل انما توزن أعمال المؤمنين فمن ثقلت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن ثقلت سيآته على حسناته دخل النار فيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها فيدخل الجنة أو يعفو الله عنه فيدخل الجنة بفضله ورحمته وأما الكافر فقد قال الله تعالى فى حقه فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ثم قيل انه ميزان واحد بيد جبريل

عليه السلام يزن به أعمال بنى آدم فعبر عنه بلفظ الجمع وقيل موازين لكل حادثة ميزان وقيل الموازين الحجج والدلائل قاله عبد العزيز بن يحيى واستشهد بقول الشاعر

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة * عندى لكل مخاصم ميزانه

(فهو) أى بسبب رجحان حسناته (فى عيشة) أى حياة يتقلب فيها قال البقاعى ولعله ألحقها بالهاء الدالة على الوحدة والمراد العيش ليفهم أنها على حالة واحدة فى الصفاء واللذة وليست ذات ألوان كحياة الدنيا (راضية) أى ذات رضا أو مرضية لان أمه جنة عالية (وأما من خفت) أى طاشت (موازينه) أى غلبت سيآته أو لم تكن له حسنة لاتباعه الباطل وخفته عليه فى الدنيا (فأمه) أى التى تؤويه وتضمه اليها كما يقال للارض أم لانها تقصد لذلك ويسكن اليها كما يسكن الى الام وكذا المسكن (هاوية) أى نار نازلة سافلة جدا فهو بحيث لا يزال يهوى فيها نازلا فهو فى عيشة ساخطة فالآية من الاحتباك ذكر العيشة أولا دليلا على حذفها ثانيا وذكر الام ثانيا دليلا على حذفها أولا والهاوية اسم من أسماء جهنم وهى المهواة لا يدرك قعرها وقال قتادة هى كلمة عربية كان الرجل اذا وقع فى أمر شديد يقال هوت أمه وقيل أراد أم رأسه يعنى انهم يهوون فى النار على رؤسهم والى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح وروى عن أبى بكر أنه قال وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباع الحق وثقله فى الدنيا وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحسنات أن يثقل وانما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل وخفته فى الدنيا وحق لميزان لا يوضع فيه الا السيآت أن يخف (وما أدراك) أى وأى شئ أعلمك وان اشتد تكلفك (ماهيه) أى الهاوية والاصل ماهى فدخلت الهاء للسكت وقرأ حمزة فى الوصل بغيرها بعد الياء المفتوحة ووقف بها والباقون باثباتها وصلا ووقفا (فان قيل) قال هنا وما أدراك ماهيه وقال أول السورة وما أدراك ما القارعة ولم يقل وما أدراك ما الهاوية (أجيب) بأن كونها قارعة أمر محسوس وكونها هاوية ليس كذلك فظهر الفرق وقوله تعالى (نار حامية) خبر مبتدا مضمر أى هى أى الهاوية نار شديدة الحرارة روى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزأ من حر جهنم قالوا وانها لكافية يارسول الله قال فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلها مثل حرها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة حديث موضوع

(سورة التكاثر مكية)

وهى ثمان آيات وثمانية وعشرون كلمة ومائة وعشرون حرفا

(بسم الله) ذى الجلال والاكرام (الرحمن) الذى عم بالايجاد بعد الاعدام (الرحيم) الذى خص أولياءه بتمام الانعام * ولما ختم القارعة بالشقى افتتح هذه بفعل الشقاوة ومبتدا الحشر لينزجر السامع فقال تعالى (ألهاكم التكاثر) أى شغلكم المباهاة والمفاخرة والمكاثرة بكثرة

المال

المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه (حتى زرتم المقابر) أى الهاكم التكاثر بالاموال والاولاد الى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم فى طلب الدنيا والاستباق اليها والتهالك عليها الى أن أتاكم الموت لاهم لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعى لعاقبتكم والعمل لآخرتكم وزيارة القبر عبارة عن الموت قال الاخطل

لن يخلص العام خليل عشرا * ذاق الضماد أو يزور القبرا

(تنبيه) حتى غاية لقوله تعالى الهاكم وهو عطف عليه والمعنى حتى أتاكم الموت فصرتم فى المقابر زوارا ترجعون منها كرجوع الزائر الى منزله من جنة أو نار يقال لمن مات قد زار قبره (فان قيل) شأن الزائر أن ينصرف قريبا والاموات ملازمون للقبور فكيف يقال انه زار القبر وأيضا حتى زرتم اخبار عن الماضى فكيف يحمل على المستقبل (أجيب) عن الاول بأن سكان القبور لابد أن ينصرفوا عنها فان كل آت قريب وعن الثانى لتحققه عبر عنه بالماضى كقوله تعالى أتى أمر الله وقال أبو مسلم ان الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييرا للكفار وهم فى ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور وقال مقاتل والكلبى نزلت فى حيين من قريش بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا أيهم أكثر عددا فكثرهم بنو عبد مناف وقالت بنو سهم ان البغى أهلكنا فى الجاهلية فعادونا بالاحياء والاموات فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لانهم كانوا فى الجاهلية أكثر عددا والمعنى انكم تكاثرتم بالاحياء حتى استوعبتم عددهم ثم صرتم الى المقابر فتكاثرتم بالاموات عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكما بهم وانما حذف الملهى عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدين للتعظيم والمبالغة وقال قتادة فى اليهود قالوا نحن أكثر من بنى فلان وبنو فلان أكثر من بنى فلان شغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالا أو أنهم كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم والمعنى ألهاكم ذلك وهو مما لا يعنيكم ولا يجدى عنكم فى دنياكم وآخرتكم عما يعنيكم من أمر الدين الذى هو أهم وأعنى من كل مهم من المقابر والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها ويسمى سعيدا المقبرى لانه كان يسكن المقابر قال القرطبى لم يأت فى التنزيل ذكر المقابر الا فى هذه السورة واعترضه ابن عادل بأن الله تعالى قال فى سورة أخرى ثم أماته فأقبره وهذا ممنوع فانه قال المقابر فلفظ هذه الآية غير لفظ تلك وزيارة القبور من أعظم الادوية للقلب القاسى لانها تذكر الموت والآخرة وذلك يحمل على قصر الامل والزهد فى الدنيا وترك الرغبة فيها قال صلى الله عليه وسلم كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور فتكره لهن لقلة صبرهن وكثرة جزعهن نعم زيارة النبى صلى الله عليه وسلم سنة لهن ويلحق به بقية الانبياء والاولياء والعلماء وينبغى لمن زار القبور أن يتأدب بآدابها ويحضر قلبه فى اتيانها ولا يكون حظه منها الطواف عليها فقط فان هذه حالة يشاركه فيها البهائم بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى واصلاح فساد قلبه ونفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن والدعاء ويتجنب الجلوس عليها ويسلم اذا دخل المقابر فيقول السلام عليكم

دار قوم مؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون واذا وصل الى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضا وأتاه من قبل وجهه لانه فى زيارته كمخاطبه حيا ثم يعتبر بمن صار تحت التراب وانقطع عن الاهل والاحباب ويتأمل حال من مضى من اخوانه كيف انقطعت آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم ومحى التراب على محاسنهم ووجوههم وافترقت فى التراب أجزاؤهم وترمل من بعدهم نساؤهم وشمل ذل اليتم أولادهم وأنه لا بد صائر الى مصيرهم وأن حاله كحالهم وماله كما لهم وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت وعن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله وقرأ الهاكم حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع وتنبيه على انه لا ينبغى للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه وقوله تعالى (سوف تعلمون) انذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم وقوله تعالى (ثم كلا سوف تعلمون) تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الاول وأشد كما يقال للمنصوح أقول لك لا تفعل والمعنى سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه اذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى وان هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم وعن على كرم الله وجهه ورضى الله عنه كلا سوف تعلمون فى الدنيا ثم كلا سوف تعلمون فى الآخرة فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التغاير بينهما لاجل تغاير المتعلقين وثم على بابها من المهلة وعن ابن عباس كلا سوف تعلمون ما ينزل بكم من العذاب فى القبور ثم كلا سوف تعلمون فى الآخرة اذا حل بكم العذاب فالتكرار للحالتين وروى زر بن حبيش عن على كنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة فأشار الى أن قوله تعالى كلا سوف تعلمون فى القبور وقيل كلا سوف تعلمون اذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسل ربكم بنزع أرواحكم ثم كلا سوف تعلمون فى القيامة انكم معذبون وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر وعرض وسؤال الى غير ذلك من أهوال القيامة وقال الضحاك كلا سوف تعلمون يعنى الكفار ثم كلا سوف تعلمون أيها المؤمنون فالاول وعيد والثانى وعد ولما كان هذا أمرا صادقا أشار تعالى الى انه يكفى هذه الامة المرحومة التأكيد بمرة واحدة فقال سبحانه مرددا الامر بين تأكيد الردع تاليا بالاداة الصالحة له ولان يكون بمعنى حقا كما يقوله أئمة القراءة (كلا) أى ليشتد ارتداعكم عن التكاثر فانه أساس كل بلاء فانكم (لو تعلمون) أى أيها الكافرون (علم اليقين) أى لو يقع لكم علم على وجه اليقين مرة من الدهر لعلمتم ما بين ايديكم فلم يلهكم التكاثر ولضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تجأرون فحذف الجواب أخوف ليذهب الوهم معه كل مذهب ولا يجوز أن يكون (لترون الجحيم) جوابها لان هذا مثبت وجواب لو يكون منفيا ولانه تعالى عطف عليه ثم لتسألن وهو مستقبل لا بد من وقوعه وحذف جواب لو كثير قال الاخفش التقدير لو تعلمون علم اليقين لا الهاكم بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به

ما أنذرهم منه بعد ابهامه تفخيما وقوله تعالى (ثم لترونها) تكرير للتأكيد والاولى اذا رأتهم من مكان بعيد والثانية اذا وردوها او المراد بالاولى المعرفة والثانية الابصار (عين اليقين) أى الرؤية التى هى نفس اليقين فان علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين قال الرازى واليقين مركب الاخلاص فى هذا الطريق وهو غاية درجات العامة وأول خطرة الخاصة قال صلى الله عليه وسلم خير ما ألقى فى القلب اليقين وعلمه قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق وقال قتادة اليقين هنا الموت وعنه أيضا البعث أى لو تعلمون علم الموت أو البعث فعبر عن الموت باليقين والعلم من أشد البواعث على العمل وقيل لو تعلمون اليوم فى الدنيا علم اليقين بما امامكم مما وصفت لترون الجحيم بعيون قلوبكم فان علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك وقرأ لترون ابن عامر والكسائى بضم التاء والباقون بالفتح (ثم لتسئلن) حذف منه نون الرفع لتوالى النونات والواو لالتقاء الساكنين (يومئذ) أى يوم رؤيتها (عن النعيم) وهو ما يلتذ به فى الدنيا من الصحة والفراغ والامن والمطعم والمشرب وغير ذلك والمراد بذلك ما يشغله عن الطاعة للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده وقوله تعالى كلوا من الطيبات وقال الحسن لا يسأل عن النعيم الا أهل النار لان أبا بكر رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية قال يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك فى بيت أبى الهيثم من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أيكون من النعيم الذى يسأل عنه فقال صلى الله عليه وسلم انما ذلك للكفار ثم قرأ صلى الله عليه وسلم وهل يجازى الا الكفور ولان ظاهر الآية يدل على ذلك لان الكفار الهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذى ظنوه لسعادتهم كان من أعظم الاسباب لشقاوتهم وقيل السؤال عام فى حق المؤمن والكافر لقوله صلى الله عليه وسلم أول ما يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له ألم نصحح جسمك ألم نروك من الماء البارد وقيل الزائد على ما لا بد منه وقيل غير ذلك قال الرازى والاولى على جميع النعم لان الالف واللام تفيد الاستغراق وليس صرف اللفظ الى البعض أولى من صرفه الى الباقى فيسأل عنها هل شكرها أم كفرها واذا قيل ان هذا السؤال للكافر فقيل هو فى موقف الحساب وقيل بعد دخول النار يقال لهم انما حل بكم هذا العذاب لاشتغالكم فى الدنيا بالنعيم عن العمل الذى ينجيكم من هذه النار ولو صرفتم عمركم الى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ الهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذى أنعم به عليه فى دار الدنيا واعطى من الاجر كانما قرأ ألف آية حديث موضوع الا آخره فرواه الحاكم بلفظ ألا يستطيع أحدكم ان يقرأ ألف آية فى كل يوم قالوا ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية قال أوما يستطيع أحدكم أن يقرأ الهاكم التكاثر

﴿سورة العصر مكية﴾

وروى عن ابن عباس وعبادة انها مدنية وهى ثلاث آيات وأربع عشرة كلمة وثمانية وستون حرفا

(بسم الله) الذى كل شئ هالك الا وجهه (الرحمن) الذى عم الوجود بانعامه فليس شئ يشبهه (الرحيم) الذى أعز أولياءه فكانوا للدهر غرة ولاهله جبهه وقوله تعالى (والعصر) قسم واختلف فى المراد به فقال ابن عباس والدهر أقسم به لان فيه عبرة للناظر بتصرف الاحوال وتبدلها ومافيها من الدلالة على الصانع وقيل معناه ورب العصر ومرّ الكلام فى امثاله وقال ابن كيسان أراد بالعصر الليل والنهار يقال لهما العصران وقال الحسن بعد زوال الشمس الى غروبها وقال قتادة آخر ساعة من ساعات النهار وقال مقاتل أقسم بصلاة العصر وهى الصلاة الوسطى وهذا أشبه قال صلى الله عليه وسلم من فاتته الصلاة الوسطى فكأنما وتر أهله وماله ولان التكليف فى ادائها أشق لتهافت الناس فى تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بعشائهم ونقل ابن عادل عن مالك أن من حلف أن لا يكلم الرجل عصرا لم يكلمه سنة قال ابن العربى انما حمل مالك يمين الحالف على السنة لانه أكثر ما قيل فيه ونقل عن الشافعى يبر بساعة الا أن تكون له نية وجواب القسم (ان الانسان) أى الجنس (لفى خسر) أى نقص بحسب مساعيهم فى أهوائهم وصرف أعمارهم فى اغراضهم لما لهم بالطبع من الميل الى الحاضر والاعراض عن الغائب والاغترار بالفانى *(تنبيه)* تنكير خسر يحتمل التهويل والتحقير فان حمل على الاول وهو الظاهر كان المعنى ان الانسان لفى خسر عظيم لا يعلم كنهه الا الله تعالى لان الذنب يعظم اما لعظم من فى حقه الذنب أولانه وقع فى مقابلة النعم العظيمة فلذلك كان الذنب فى غاية العظم وان حمل على الثانى كان المعنى ان خسران الانسان دون خسران الشيطان ولما كان الحكم على الجنس حكما على الكل لانهم ليس لهم من ذواتهم الا ذلك وكان فيهم من خاصة الله تعالى مما طبع عليه الانسان وحفظه عن الميل استثناهم بقوله عز من قائل (الا الذين آمنوا) أى أوجد والايمان وهو التصديق بما علم بالضرورة مجيء النبى صلى الله عليه وسلم به من توحيده سبحانه والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (وعملوا) أى تصديقا لما أقروا به من الايمان (الصالحات) أى هذا الجنس من ايقاع الاوامر واجتناب النواهى واشتروا الآخرة بالدنيا فلم يلههم التكاثر ففازوا بالحياة الابدية والسعادة السرمدية فلم يلحقهم شئ من الخسران وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح المراد بالانسان الكافر وقال فى رواية الضحاك يريد به جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل والاسود بن عبد المطلب وقيل لفى خسر غبن وقال الاخفش لفى هلكة وقال الفراء لفى عقوبة وقال ابن زيد لفى شر وروى ابن عوف عن ابراهيم قال أراد ان الانسان اذا عمر فى الدنيا وأهرم لفى ضعف ونقص وتراجع الا المؤمنين فانه يكتب لهم أجورهم التى كانوا يعملونها فى حال شبابهم ونظيره قوله تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا ولما كان الانسان بعد كماله فى نفسه بالاعمال لا ينتفى عنه مطلق الخسر الا بتكميل غيره وحينئذ كان وارثا لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام بعثوا للتكميل قال تعالى مخصصا لما دخل فى الاعمال الصالحة منبها على عظمه (وتواصوا) أى أوصى بعضهم بعضا بلسان الحال والمقال (بالحق) أى الامر الثابت وهو كل ما

حكم الشرع بصحته ولا يسوغ انكاره وهو الخير كله من توحيد الله تعالى وطاعته واتباع كتبه ورسله والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة (وتواصوا) أيضا (بالصبر) عن المعاصى وعلى الطاعات وعلى ما يبتلى الله به عباده من الامراض وغيرها ويروى عن أبى بن كعب انه قال قرأت على النبى صلى الله عليه وسلم والعصر ثم قلت ما تفسيرها يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم والعصر قسم من الله أقسم ربكم بآخر النهار ان الانسان لفى خسر أبو جهل الا الذين آمنوا أبو بكر وعملوا الصالحات عمر وتواصوا بالحق عثمان وتواصوا بالصبر على " وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفا عليه وقال قتادة بالحق أى بالقرآن وقال السدى الحق هنا الله عز وجل وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى " صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر حديث موضوع

(سورة الهمزة مكية)

وهى تسع آيات وثلاثون كلمة ومائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الحكم العدل (الرحمن) الذى عم جوده أهل الجهل وأولى العدل (الرحيم) الذى خص أولياءه بزيادة الفضل وقوله تعالى (ويل) فيه قولان أحدهما انه كلمة عذاب والثانى انه واد فى جهنم (لكل همزة لمزة) قال ابن عباس هم المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاحبة الباغون للبرآء العيب فعلى هذا هما بمعنى وقال صلى الله عليه وسلم شر عباد الله المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون للبرآء العيب وقال مقاتل الهمزة الذى يعيبك فى الغيب واللمزة الذى يعيبك فى الوجه وقال أبو العالية والحسن الهمزة الذى يغتاب ويطعن فى وجه الرجل واللمزة الذى يغتابه من خلفه وهذا اختيار النحاس ومنه قوله تعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات وقال سعيد بن جبير الهمزة الذى يأكل لحوم الناس ويغتابهم واللمزة الطعان عليهم وقال ابن زيد الهمزة الذى يهمز الناس بيده ويضربهم واللمزة الذى يلمزهم بلسانه ويعيبهم وقال سفيان الثورى يهمز بلسانه ويلمز بعينه وقال ابن كيسان الهمزة الذى يؤذى جليسه بسوء اللفظ واللمزة الذى يكسر عينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه وحاصل هذه الاقاويل يرجع الى أصل واحد وهو الطعن واظهار العيب ويدخل فى ذلك من يحاكى الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منهم وأصل الهمز الكسر واللمز الطعن ثم خصا بالكسر من أعراض الناس والطعن فيهم حتى صار ذلك عادة لانه خلق ثابت فى جبلتهم والذى دل على الاعتياد صيغة فعلة بضم ففتح كما يقال ضحكة للذى يفعل الضحك كثيرا حتى صار عادة له وضرى به واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال الكلبى نزلت فى الاخنس بن شريق الثقفى كان يقع فى الناس ويغتابهم وقال محمد بن اسحق مازلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت فى أمية بن خلف الجمحى " وقال مقاتل نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبى " صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطعن عليه فى وجهه وقال مجاهد هى عامة فى حق من هذه صفته وقوله تعالى (الذى جمع مالا) بدل من كل

أو ذم منصوب أو مرفوع وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد الميم على المبالغة والتكثير ولانه يوافق قوله تعالى (وعدده) والباقون بتخفيفها وهي محتملة للتكثير وعدمه ومعنى عدده أحصاه وجعله عدة للحوادث وقال الضحاك أعد ماله لمن يرثه من أولاده وقيل فاخر بعدده وكثرته والمقصود الذم على امساك المال عن سبيل الطاعة كقوله تعالى مناع للخير وقوله تعالى جمع فأوعى (يحسب) أي يظن لجهله (أن ماله أخلده) اي أوصله الى رتبة الخلد في الدنيا فيصير خالدا فيها لا يموت او يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الاشجار وعمارة الارض عمل من يظن أن ماله أبقاه حيا أو هو تعريض بالعمل الصالح وانه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم فأما المال فما أخلد أحدا فيه وروى أنه كان للاخنس أربعة آلاف دينار وقيل عشرة آلاف دينار وعن الحسن أنه عاد موسرا فقال ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لئيم ولا تفضلت بها على كريم قال لماذا قال لنبوة الزمان وجفوة السلطان ونوائب الدهر ومخافة الفقر قال اذا تدعه لمن لا يحمدك وترد على من لا يعذرك وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها وقوله تعالى (كلا) ردع له عن حسبانه وقيل معناه حقا وقوله تعالى (لينبذن) جواب قسم محذوف أي ليطرحن بعد موته (في الحطمة) أي الطبقة من جهنم التي من شأنها أن تحطم أي تكسر بشدة وعنف كل ما طرح فيها فيكون أخسر الخاسرين ويقال للرجل الاكول انه لحطمة (وما أدراك) أي وأي شيء أعلمك ولو بمحاولة منك للعلم واجتهاد في التعرف مع كونك اعلم الحكماء (ما الحطمة) أي الدركة النارية التي سميت هذا الاسم بهذه الخاصة وانه ليس في الوجود الذي شاهدتموه ما يقاربها ليكون مثالا لها ثم فسرها بقوله تعالى (نار الله) أي الملك الاعظم الذي له الملك كله (الموقدة) أي التي وجد وتحتم ايقادها ومن الذي يطيق محاولة ما أوقده فهي لا يزال لها هذا الاسم ثابتا روى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة (التي تطلع) أي اطلاعا شديدا (على الافئدة) جمع فؤاد وهو القلب الذي يكاد يحترق من شدة ذكائه فكان ينبغي أن يجعل ذكاءه في أسباب الخلاص واطلاعها عليه بأن تعلو وسطه وتشتمل عليه اشتمالا بليغا سمي بذلك لشدة توقده وخص لانه ألطف ما في البدن واشد تألما بادنى شئ من الاذى ولانه منشأ العقائد الفاسدة ومعدن حب المال الذي هو منشأ حب الفساد والضلال وعنه تصدر الافعال القبيحة وقيل معنى تطلع على الافئدة أي تعلم ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب يقال اطلع على كذا أي علمه * ثم أشار الى خلودهم فيها بقوله تعالى مؤكدا لانهم يكذبون بها (انها عليهم مؤصدة) قال الحسن مطبقة أي بغاية الضيق وقال مجاهد مغلقة بلغة قريش يقال أصدت الباب أي أغلقته ومنه قول عبد الله بن قيس

ان في القصر لو دخلنا غزالا * مصفقا مؤصدا عليه الحجاب

ثم بين حال عذابهم بقوله تعالى (في) أي في حال كونهم موثقين في (عمد) قرأ حمزة والكسائي وشعبة بضم العين والميم جمع عمود نحو رسول ورسل وقيل جمع عماد ككتاب وكتب والباقون

بفتحهما فقيل هو اسم جمع لعمود وقيل بل هو جمع له قال الفراء كأديم وأدم وقال أبو عبيدة هو جمع عماد (ممدة) أى معترضة كأنها موضوعة على الارض فهى فى غاية المكنة فلا يستطيع الموثوق بها على نوع حيلة فى أمرها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث عليهم ملائكة باطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فيطبق عليهم بتلك الاطباق وتسد بتلك المسامير وتمد بتلك العمد فلا يبقى فيها خلل يدخل منه روح ولا يخرج منه غم فيكون كلامهم فيها زفيرا وشهيقا وقال قتادة عمد تعذبون بها واختاره الطبرى وقال ابن عباس ان العمد الممددة اغلال فى أعناقهم وقال أبو صالح قيود فى أرجلهم وقال القشيرى العمد أوتاد الاطباق وقيل المعنى فى دهور ممدودة لا انقطاع لها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه حديث موضوع

(سورة الفيل مكية)

وهى خمس آيات وعشرون كلمة وستة وتسعون حرفا

(بسم الله) الذى قدرته فى كل شئ عاملة (الرحمن) الذى له النعمة الشاملة (الرحيم) الذى يخص أهل الاصطفاء بالنعمة الكاملة وقوله تعالى (ألم تر) استفهام تعجب أى اعجب (كيف فعل ربك) أى المحسن اليك (بأصحاب الفيل) فهو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وهو وان لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها وانما قال تعالى كيف دون ما لان المراد ذكر ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم * وكانت قصة الفيل ما روى أن ابرهة بن الصباح الاشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس واراد أن يصرف اليها الحاج وكتب الى النجاشى انى قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها ولست منتهيا حتى أصرف اليها حاج العرب فسمع بذلك رجل من بنى مالك بن كنانة فخرج اليها فدخلها ليلا فقعد فيها ولطخ بالعذرة قبلتها فبلغ ذلك أبرهة فقال من اجترأ علىّ فقيل صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع الذى قلت فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن الى الكعبة حتى يهدمها فكتب الى النجاشى يخبره بذلك وسأله أن يبعث اليه بفيله وكان له فيل يقال له محمود وكان فيلا لم ير مثله عظما وجسما وقوة فبعث به اليه فخرج أبرهة فى الحبشة سائرا الى مكة وخرج معه بالفيل واثنى عشر فيلا غيره وقيل ثمانية عشر وقيل كان معه ألف فيل وقيل كان وحده فسمعت العرب بذلك فأعظموه ورأوا جهاده حقا عليهم فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر فقال له أيها الملك استبقنى فان استبقائى خير لك من قتلى فاستبقاه فأوثقه وكان ابرهة رجلا حليما ثم سار حتى اذا دنا من بلاد خثعم خرج له نفيل بن حبيب الخثعمى فى خثعم ومن اجتمع اليه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلا فقال نفيل أيها الملك انى دليل بارض العرب وهاتان

يداى على قومى بالسمع والطاعة فاستبقاه وخرج معه يدله حتى اذا مر بالطائف خرج اليه مسعود ابن مغيث فى رجال من ثقيف فقال أيها الملك نحن عبيدك ليس عندنا خلاف لك انما تريد البيت الذى بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا ابا رغال مولى لهم فخرج حتى اذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذى يرجم قبره وبعث ابرهة من المغمس رجلا من الحبشة يقال له الاسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغارة على نعم الناس فجمع الاسود اليه أموال الحرم وأصاب لعبد المطلب مائتى بعير ثم ان أبرهة بعث بحناطة الحميرى الى أهل مكة فقال سل عن شريفها ثم أبلغه ما أرسلك به اليه أخبره أنى لم آت لقتال انما جئت لاهدم هذا البيت فانطلق حتى دخل مكة فلقى عبد المطلب بن هاشم فقال ان الملك أرسلنى اليك لاخبرك انه لم يأت لقتال انما جئت لاهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم فقال عبد المطلب ماله عندنا قتال ولا لنا به يدانا سنخلى بينه وبين ماجاء اليه فان هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام فان يمنعه فهو بيته وحرمه وان يخل بينه وبين ذلك فوالله مالنا به قوة قال فانطلق معى الى الملك قال بعض العلماء انه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض بنيه حتى قدم العسكر وكان ذونفر صديقا لعبد المطلب فأتاه فقال ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا فقال ماغناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشيا ولكن سأبعث الى أنيس سائس الفيل فانه لى صديق فأسأله ان يصنع لك عند الملك مااستطاع من خير ويعظم خطرك ومنزلتك عنده فارسل الى أنيس فأتاه فقال له ان هذا سيد قريش صاحب عين مكة يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال وقد أصاب الملك له مائتى بعير فان استطعت ان تنفعه عنده فانفعه فانه صديق لى أحب ماوصل اليه من الخير فدخل أنيس على ابرهة فقال أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال يستأذن عليك وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فأذن له وكان عبد المطلب رجلا جسيما وسيما فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه وكره ان يجلس معه على السرير وان يجلس تحته فهبط الى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه ثم قال لترجمانه قل له ماحاجتك الى الملك فقال الترجمان ذلك فقال عبد المطلب حاجتى الى الملك ان يرد الى مائتى بعير اصابها لى فقال ابرهة لترجمانه قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ولقد زهدت فيك قال لم قال جئت الى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لاهدمه لم تكلمنى فيه وتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها قال عبد المطلب أنا رب هذه الابل وللبيت رب سيمنعه قال ماكان ليمنعه منى قال فأنت وذاك فأمر بابله فردت عليه وقيل عرض عليه عبد المطلب أموال تهامة ليرجع فابى فلما ردت الابل على عبد المطلب خرج فأخبر قريشا الخبر وأمرهم ان يتفرقوا فى الشعاب ويتحرزوا فى رؤس الجبال تخوفا عليهم من معرة الجيش ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول

يارب لاارجو لهم سواكا * يارب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا * امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضا * لاهم ان المرء يمـ * ـنع رحله فامنع حلالك *
* لايغلبن صليبهم * ومحالهم عدوا محالك *
جروا جموع بلادهم * والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم * جهلا وما رقبوا جلالك
ان كنت تاركهم وكعـ * ـبتنا فأمر مابدالك *

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه فى بعض تلك الوجوه مع قومه فأصبح ابرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه وهيأ فيله فأقبل نفيل الى الفيل الاعظم ثم أخذ باذنه وقال ابرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فانك فى بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه بالمعول فى رأسه فأبى فوجهوه راجعا الى اليمن فقام مهرولا فوجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك فضربوه الى الحرم فبرك وأبى أن يقوم وخرج عبد المطلب يشتد حتى صعد الجبل فارسل الله تعالى عليهم ماقصه فى قوله سبحانه (ألم يجعل) أى جعل بماله من الاحسان الى العرب لاسيما قريش (كيدهم) أى فى هدم الكعبة (فى تضليل) أى خسارة وهلاك (وارسل عليهم) أى خاصة من بين ماهنالك من كفار العرب (طيرا) اى طيورا اسودا وقيل خضرا وقيل بيضا (أبابيل) أى جماعات بكثرة متفرقة يتبع بعضها بعضا من نواحى شتى فوجا فوجا وزمرة زمرة امام كل فرقة منها طائر يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق وقيل أبابيل كالابل المؤبلة قال الفراء لاواحد لها من لفظها وقيل واحدها ابالة وقال الكسائى كنت أسمع النحويين يقولون واحدها ابول كعجول وعجاجيل وقال ابن عباس كانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كاكف الكلاب وقال عكرمة لها رؤس كرؤس السباع وقال سعيد ابن جبير طير خضر لها مناقير صفر وقال قتادة طير سود (ترميهم) أى الطير (بحجارة) أى عظيمة فى الكثرة والفعل صغيرة فى المقدار والجرم مع كل طائر حجر فى منقاره وحجران فى رجليه اكبر من العدسة وأصغر من الحمصة وعن ابن عباس انه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بالحمرة كالجزع الظفارى فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا فى كل طريق ومنهل واما أبرهة فتساقطت أنامله كلما سقطت أنملة اتبعها مدة وقيح ودم فانتهى الى صنعاء وهو مثل فرخ الطير ومامات حتى انصدع صدره من قلبه وانفلت وزيره ابو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه لان تلك الحجارة كانت (من سجيل) أى طين متحجر مصنوع للعذاب فى موضع هو فى غاية العلو ولما تسبب عن هذا الرمى هلاكهم وكان ذلك بفعل الله تعالى لانه الذى خلق الاثر قطعا الاان مثله لا ينشأ عنه ماانشأ من الهلاك قال الله تعالى (فجعلهم) أى ربك المحسن اليك باحسانه الى قومك لاجلك بذلك (كعصف مأكول) أى كورق زرع أكلته فراشه فيبس وتفرقت أجزاؤه شبه قطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث قال مجاهد العصف ورق الحنطة وقال قتادة هو التبن وقال عكرمة كالحب اذا أكل وصار أجوف لان الحجر كان يأتى فى الرأس فيحرق

قوله وخرج عبد المطلب يشتد فى حاشية الجمل يشتد أى يسرع اه

عماله من الحرارة وشدة الوقع كلما مر به حتى يخرج من الدبر ويصير موضع تجويفه أسود لما له من النارية وقال ابن عباس هو القشر الخارج الذى يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف له وروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما فى جوفه فيبقى كقشر الحنطة اذا خرجت منه الحبة وعن عكرمة من أصابه جدره وهو أول جدرى ظهر وعن أبى سعيد الخدرى انه سئل عن الطير فقال حمام مكة منها وقيل جاءت عشية ثم صبحتهم واختلف فى تاريخ عام الفيل فقيل كان قبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة وقيل بثلاث وعشرين سنة والاكثرون على انه كان فى العام الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم وعن عائشة قالت رأيت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس وقال عبد الملك بن مروان لعتاب بن أسيد أنت أكبر أم النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أسن منه ولد صلى الله عليه وسلم عام الفيل وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس بل قيل لم يكن بمكة أحد الا رأى قائد الفيل وسائسه أعميين يتكففان الناس لان عائشة مع صغر سنها رأتهما وقال ابن اسحق لما رد الله تعالى الحبشة عن مكة المشرفة عظمت العرب قريشا وقالوا أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فكان ذلك نعمة من الله عليهم وقال بعض العلماء كانت قصة الفيل مما نعده من معجزاته صلى الله عليه وسلم وان كانت قبله لانها كانت توكيدا لامره وتمهيدا لشأنه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ حديث موضوع

(سورة قريش مكية)

فى قول الجمهور ومدنية فى قول الضحاك والكلبى وهى أربع آيات وسبع عشرة كلمة وثلاثة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع الكمال (الرحمن) ذى النعم والافضال (الرحيم) الذى خص أولياءه بالقرب والاجلال وقوله تعالى (لايلاف قريش) فى متعلقه أوجه أحدها أنه ما فى السورة قبلها من قوله تعالى فجعلهم كعصف مأكول قال الزمخشرى وهذا بمنزلة التضمين فى الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذى قبله تعلقا لا يصح الا به وهما فى مصحف أبى سورة واحدة بلا فصل وعن عمر أنه قرأهما فى الثانية من صلاة المغرب وقرأ فى الاولى والتين اه والى هذا ذهب الاخفش وقال الرازى المشهور أنهما سورتان ولا يلزم من التعلق الاتحاد لان القرآن كسورة واحدة ثانيها أنه مضمر تقديره فعلنا ذلك وهو ابقاءهم للايلاف وهو الفهم لبلدهم الذى نشأ عنه طمأنينتهم وهيبة الناس لهم وقيل تقديره اعجبوا لايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت ثالثها أنه متعلق بقوله تعالى فليعبدوا أمرهم أن يعبدوه لاجل ايلافهم الرحلتين لانهما أظهر نعمة عليهم وهذا هو الذى صدر به الزمخشرى كلامه وفى هذا اشارة الى تمام قدرته سبحانه وانه اذا أراد شيأ يسر سببه لان التدبير كله له يخفض من يشاء وان عز

ويرفع

ويرفع من يشاء وان ذل وقريش هم ولد النضر بن كنانة ومن ولده النضر فهو قرشي ومن لم يلده النضر فليس بقرشي قال صلى الله عليه وسلم ان الله اصطفى كنانة من بني اسمعيل واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وأخرج الحاكم وصححه البيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فضل الله قريشا بسبع خلال أني منهم وأن النبوة فيهم وأن الله نصرهم على الفيل وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم وان الحجابة والسقاية فيهم وأن الله انزل فيهم سورة من القرآن وسموا قريشا من القرش وهو التكسب والجمع يقال فلان يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب وهم كانوا تجارا حراصا على جمع المال وقال أبو ريحانة سأل معاوية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لم سميت قريش قريشا قال لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه تعبث بالسفن ولا تطاق الا بالنار يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين الا أكلته وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى قال وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم فأنشده شعر الجمحي

وقريش هي التي تسكن البحـ * ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين فلا تتـ * ـرك فيه لذي الجناحين ريشا
هكذا في الكتاب حي قريش * يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولهم آخر الزمان نبي * يكثر القتل منهم والخموشا

وقيل هو من تقرش الرجل اذا تنزه عن مدانس الامور أو من تقارشت الرماح في الحرب اذا دخل بعضها في بعض وقوله تعالى (ايلافهم) بدل من الايلاف الاول وقرا ابن عامر لالاف بغير ياء بعد الهمزة والباقون لايلاف بياء بعدها وأجمع الكل على اثبات الياء في الثاني وهو ايلافهم بالياء بعد الهمزة قال ابن عادل ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين ان القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الاول مع اتفاق المصاحف على اثباتها خطا واتفقوا على اثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منها خطا وهذا أدل دليل على ان القراء متبعون الاثر والرواية لا مجرد الخط وقوله تعالى (رحلة الشتاء) منصوب بايلافهم مفعول به كما نصب يتيما باطعام وهي التي يرحلونها في زمنه الى اليمن لانها بلاد حارة ينالون منها متاجر الحبوب (والصيف) التي يرحلونها الى الشأم في زمنه لانها بلاد باردة ينالون فيها منافع الثمار وهم آمنون من سائر العرب لاجل عزهم بالحرم المعظم وبيت الله والناس يتخطفون من حولهم ولا يجترئ أحد عليهم والايلاف من قولك ألفت المكان أولفه ايلافا اذا بلغته فأنا مؤالف والاصل رحلتي الشتاء والصيف ولكنه أفرد ليشمل كل رحلة كما هو شأن المصادر وأسماء الاجناس وفي ذلك اشارة الى انهم يتمكنون من الرحلة الى أي بلاد أرادوا لشمول الامن لهم قال مالك الشتاء نصف السنة والصيف نصفها وقال قوم الزمان أربعة أقسام شتاء وربيع وصيف وخريف وقيل شتاء وصيف وقيظ وخريف قال القرطبي والذي قاله مالك أصح لان الله تعالى قسم الزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثا وروى عكرمة عن ابن

عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف وقال آخرون كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة احداهما في الشتاء الى اليمن لانها أدفأ * والاخرى في الصيف الى الشأم وكان الحرم واديا جدبا لازرع فيه ولاضرع وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم ولولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ولولا الامن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف وكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم وفي ذلك يقول الشاعر

قل للذى طلب السماحة والندى * هلامررت بآل عبد مناف

هلامررت بهم تريد قراهم * منعوك من ضر ومن اتلاف

الرائشين وليس يوجد رائش * والقائلين هلم للاضياف

والخالطين فقيرهم بغنيهم * حتى يكون فقيرهم كالكافى

والقائلين بكل وعد صادق * والراحلين برحلة الايلاف

عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

سفرين سنهما له ولقومه * سفر الشتاء ورحلة الاصياف

وتبع هاشما على ذلك اخوته فكان هاشم يؤالف الى الشام وعبد شمس الى الحبشة والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس وكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار بجاه هذه الاخوة أى بعهودهم التي أخذوها بالامان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي * ولما كان هذا التدبير لهم من الله تعالى كافيا لهمومهم الظاهرة بالغنى والباطنة بالامن وكان شكر المنعم واجبا قال تعالى (فليعبدوا) أى قريش على سبيل الوجوب شكرا على هذه النعمة خاصة ان لم يشكروه على جميع نعمه التي لاتحصى لانهم يدعون أنهم أشكر الناس للاحسان وأبعدهم عن الكفران (رب هذا البيت) أى الموجد له والمحسن الى أهله بحفظه من كل طاغ وباذلال الجبابرة له ليكمل احسانه اليهم وعطفه عليهم باكمال اعزازه لهم في الدنيا والآخرة والمراد به الكعبة عبر عنها بالاشارة تعظيما لشأنها * ثم وصف نفسه الاقدس بما هو ثمرة الرحلتين ومظهر لزيادة شرف البيت بقوله تعالى (الذى أطعمهم) أى قريشا بحمل الميرة الى مكة بالرحلتين اطعاما مبتدأ (من جوع) أى عظيم فيه غيرهم من العرب أو كانوا هم فيه قبل ذلك لان بلدهم ليس بذى زرع فهم عرضة للفقر الذى ينشأ عنه الجوع فكفاهم ذلك وحده ولم يشركه أحد في كفايتهم فليس من الشكر اشراكهم غيره معه في عبادته ولامن البر بأبيهم ابراهيم عليه السلام الذى دعا لهم بالرزق بقوله عليه السلام وارزقهم من الثمرات ونهى أشد النهى عن عبادة الاصنام ولم يقل أشبعهم لانه ليس كلهم كان يشبع ولان من كان يشبع منهم طالب لا كثر مما هو عنده ولايملأ جوف ابن آدم الا التراب (وآمنهم) أى تخصيصا لهم (من خوف) أى شديد جدا من أصحاب الفيل الذين أرادوا خراب البيت الذى به نظامهم ومما ينال من حولهم من التخطف بالقتل والنهب والغارات ومن الجذام بدعوة أبيهم ابراهيم عليه السلام

ومن

ومن الطاعون والدخان بتأمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن زيد كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضهم بعضا فأمنت قريش ذلك لمكان الحرم وقيل شق عليهم السفر في الشتاء والصيف فألقى الله تعالى في قلوب الحبشة أن يحملوا اليهم طعاما في السفن فحملوا نخافت قريش منهم وظنوا أنهم قدموا لحربهم فخرجوا اليهم متحرزين فاذاهم قد جلبوا اليهم الطعام وأعانوهم بالاقوات فكان أهل مكة يخرجون الى جدة بالابل والحمر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين وقيل ان قريشا لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف فاشتد القحط فقالوا يا محمد ادع الله لنا فانا مؤمنون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن فحملوا الطعام الى مكة وأخصب أهلها وقال الضحاك والربيع في قوله تعالى وآمنهم من خوف اى من خوف الحبشة وقال علي وآمنهم من خوف أن تكون الخلافة الا فيهم قال الزمخشري ومن بدع التفاسير وآمنهم من خوف أن تكون الخلافة في غيرهم اه لكن ان ثبت ذلك عن علي كرم الله وجهه فليس كما قال وقيل كفاهم أخذ الايلاف من الملوك وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لئيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها حديث موضوع

(سورة الدين وتسمى سورة الماعون مكية)

في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس رضي الله عنهما ومدنية في قول له آخر وهو قول قتادة وغيره وهي سبع آيات وخمس وعشرون كلمة ومائة وثلاثة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذي له كل كمال (الرحمن) الذي عم بجميع عباده بالنوال (الرحيم) الذي خص أولياءه بنعمة الافضال وقوله تعالى (أرأيت) استفهام معناه التعجب وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش أيضا ابدالها ألفا وأسقطها الكسائي قال الزمخشري وليس بالاختيار لان حذفها مختص بالمضارع ولم يصح عن العرب ريت ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام ونحوه

صاح هل ريت أو سمعت براع * رد في الضرع ما قرى في الحلاب

وخففها الباقون والمعنى أرأيت (الذي يكذب) أي يوقع التكذيب لمن يخبره كائنا من كان (بالدين) أي بالجزاء والحساب أي هل عرفته أم لم تعرفه (فذلك) بتقدير هو بعد الفاء أي البغيض البعيد المبعد من كل خير (الذي يدع) أي يدفع دفعا عظيما بغاية القسوة (اليتيم) ولا يحث على اكرامه لان الله تعالى نزع الرحمة من قلبه ولا ينزعها الا من شقي لانه لا حامل على الاحسان اليه الا الخوف من الله تعالى فكان التكذيب بجزائه مسببا للغلظة عليه وقال قتادة يقهره ويظلمه فانهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار ويقولون انما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام وقال صلى الله عليه وسلم من ضم يتيما من المسلمين حتى يستغني فقد وجبت له

الجنة واختلف فيمن نزل ذلك فيه فقال مقاتل فى العاصى بن وائل السهمى وقال السدى فى الوليد بن المغيرة وقال الضحاك فى عمرو بن عايذ المخزومى وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما فى رجل من المنافقين وقيل فى أبى جهل (ولا يحض) أى يحث نفسه ولا غيره (على طعام المسكين) أى بذله له واطعامه اياه بل يعقته ولا يكرمه ولا يرحمه وقد تضمن هذا أن علامة التكذيب بالبعث ايذاء الضعيف والتهاون بالمعروف* ولما كان هذا حاله مع الخلائق أتبعه حاله مع الخالق بقوله تعالى (فويل) أى عذاب أو واد فى جهنم (للمصلين الذين هم) أى بظواهرهم وخالص سرائرهم (عن صلاتهم) التى هى جديرة بأن تضاف اليهم لوجوبها عليهم وايجابها الاجل مصالحهم ومنافعهم بالتزكية وغيرها (ساهون) أى عريقون فى الغفلة عنها وتضييعها وعدم المبالاة بها وقلة الالتفات اليها وروى البغوى بسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال هو اضاعة الوقت وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال هم المنافقون يتركون الصلاة اذا غابوا عن الناس ويصلونها فى العلانية مع الناس اذا حضروا لقوله تعالى (الذين هم) أى بجملة سرائرهم (يراؤن) أى بصلاتهم وغيرها الناس لانهم يفعلون الخير ليراهم الناس لا لرجاء الثواب ولا لخوف العقاب من الله تعالى ولذلك يتركون الصلاة اذا غابوا عن الناس وقال ابراهيم هو الذى يلتفت فى صلاته وقال قطرب هو الذى لا يقرأ ولا يذكر الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما لو قال فى صلاتهم ساهون لكانت فى المؤمنين وقال عطاء الحمد لله الذى قال تعالى عن صلاتهم ساهون ولم يقل فى صلاتهم فدل على أن الآية فى المنافقين وقال قتادة ساه عنها لا يبالى صلى أم لم يصل وقال مجاهد غافلون عنها متهاونون بها وقال الحسن هو الذى ان صلاها صلاها رياء وان فاتته لم يندم وقيل هم الذين يسهون عنها قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف ولكن ينقرونها نقرا من غير خشوع ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات لا يدرى الواحد منهم عن كم انصرف ولا ما قرأ من السورة وكما ترى صلاة أكثر من ترى من الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم والمعنى ان هؤلاء أحق أن يكون سهوهم عن الصلاة التى هى عماد الدين والفارق بين الايمان والكفر والرياء الذى هو شعبة من الشرك ومنع الزكاة التى هى شقيقة الصلاة وقنطرة الاسلام علما على أنهم مكذبون بالدين وكم ترى من المتسمين بالاسلام بل بالعلم من هو منهم على هذه الصفة فيا مصيبتاه (فان قيل) كيف جعل المصلين قائما مقام ضمير الذى يكذب وهو واحد (أجيب) بأن معناه الجمع لان المراد به الجنس (فان قيل) أى فرق بين قوله تعالى عن صلاتهم وقولك فى صلاتهم (أجيب) بأن معنى عن انهم ساهون عنها سهو ترك وقلة التفات اليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشياطين من المسلمين ومعنى فى أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو فى صلاته فضلا عن غيره ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو فى كتبهم وعن أنس الحمد لله على أن لم يقل فى صلاتهم وقد مرت

الاشارة الى بعض ذلك (فان قيل) مامعنى المراآة (أجيب) بأنه امفاعلة من الاراءة لان المرائى يرى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والاعجاب به ولا يكون الرجل مرائيا باظهار العمل الصالح ان كان فريضة فمن حق الفرائض الاعلان بها وتشهيرها لقوله صلى الله عليه وسلم ولا غمة فى فرائض الله لانها أعلام الاسلام وشعائر الدين ولان تاركها يستحق الذم والمقت فوجب اناطة الهمة بالاظهار وان كان تطوعا فحقه أن يخفى لانه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه فان أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا وانما الرياء أن يقصد بالاظهار أن تراه الاعين فتثنى عليه بالصلاح وعن بعضهم انه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال ما أحسن هذا لو كان فى بيتك وانما قال هذا لانه توسم فيه الرياء والسمعة على أن اجتناب الرياء صعب الا على المرتاضين بالاخلاص ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة المظلمة على المسح الاسود * ثم بين أن من هو بهذه الصفة يغلب عليه الشح بقوله تعالى (ويمنعون) أى على تجدد الاوقات (الماعون) أى حقوق الاموال والشئ اليسير من المنافع وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه الماعون الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك وهى رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال مجاهد الماعون أعلاها الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع وعن على انها الزكاة وقال محمد بن كعب والكلبى الماعون المعروف كله الذى يتعاطاه الناس فيما بينهم وقال قطرب أصل الماعون من القلة تقول العرب ماله سعنة ولا معنة أى شئ قليل فسمى الزكاة والصدقة والمعروف ماعونا لانه قليل من كثير وقيل الماعون مالا يحل منعه مثل الماء والملح والنار وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة أرأيت غفرله ان كان للزكاة مؤديا حديث موضوع

(سورة الكوثر وتسمى سورة النحر مكية)

فى قول ابن عباس رضى الله عنهما والكلبى ومقاتل ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وهى ثلاث آيات وعشر كلمات واثنان وأربعون حرفا

(بسم الله) الذى لاحد لفائض فضله (الرحمن) الذى شمل الخلائق بجوده فلا راد لامره (الرحيم) الذى خص حزبه بالاعتصام بحبله وقوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (أعطيناك) أى خولناك مع التمكين العظيم يا أشرف الخلق (الكوثر) أى نهرا فى الجنة هو حوضه صلى الله عليه وسلم ترد عليه أمته لما روى عن أنس أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا اذ غفا اغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزل على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر الى آخرها ثم قال أتدرون ما الكوثر قلنا الله ورسوله أعلم قال فانه نهر وعدنيه ربى خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول رب انه من أمتى فيقول ما تدرى ما أحدث بعدك وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر

والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فاذا أنا بنهر يجري بياضه بياض اللبن وأحلى من العسل وحافتاه خيام الدر فضربت بيدى فاذا الثرى مسك أذفر فقلت لجبريل ما هذا قال الكوثر أعطاكه الله تعالى . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها لا يظمأ أبدا وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا فرطكم على الحوض وليرفعن الى رجال منكم حتى اذا أهويت اليهم لانا واهم اختلجوا دوني فأقول أى رب أصحابي فيقال انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عرضه فقال من مقامي الى عمان وسئل عن شرابه فقال أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي أو قال من أمتي فيجلون عن الحوض فأقول أى رب أصحابي فيقول انه لا علم لك بما أحدثوا بعدك انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ولمسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ترد على أمتي الحوض وانا أذود الناس عنه كما يذود الرجل ابل الرجل عن ابله قالوا يا نبي الله تعرفنا قال نعم لكم سيما ليست لاحد غيركم تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء وليصدن عنى طائفة منكم فلا يصلون فأقول يارب هؤلاء من أصحابي فيجيبني فيقول وهل تدرى ما أحدثوا بعدك وأحاديث الحوض كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لأولى الالباب فنسأل الله تعالى أن يروينا منه نحن وأحبابنا ويدخلنا واياهم الجنة بغير حساب قال القاضي عياض أحاديث الحوض صحيحة والايمان به فرض والتصديق به من الايمان وقال ابن عادل وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولا يختلف فيه وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة اه وقيل الكوثر القرآن العظيم وقيل هو النبوة والكتاب والحكمة وقيل هو كثرة أتباعه وقيل الكوثر الخير الكثير الذى أعطاه الله تعالى اياه وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما الكوثر الخير الكثير قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير ان ناسا يزعمون ان الكوثر نهر في الجنة فقال سعيد النهر الذى في الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله تعالى اياه وأصل الكوثر فوعل من الكثرة والعرب تسمى كل شئ كثير في العدد أو كثير القدر والخطر كوثرا قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر آب ابنك قالت آب بكوثر وقال الشاعر

وأنت كثير يا ابن مروان طيب * وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

وقيل الكوثر الفضائل الكثيرة التى فضله بها على جميع الخلائق *(تنبيه)* لا منافاة بين هذه الاقوال كلها فقد أعطيها النبي صلى الله عليه وسلم أعطى صلى الله عليه وسلم النبوة والحكمة والعلم والشفاعة والحوض المورود والمقام المحمود وكثرة الاتباع واظهاره على الاديان كلها والنصر على الاعداء وكثرة الفتوح في زمنه وبعده الى يوم القيامة وأولى الاقاويل في الكوثر وهو الذى

عليه جمهور العلماء انه نهر فى الجنة * ولما كمل له سبحانه من النعم مالا يأتى عليه حصر مع الاشارة باب أدناه نعيم الدنيا بجملتها سبب عنه قوله تعالى آمرا بما هو جامع لمجامع الشكر (فصل) أى بقطع العلائق عن الخلائق بالوقوف بين يدى الله تعالى فى حضرة المراقبة شكرا لاحسان المنعم خلافا للساهى عنها والمرائى فيها (لربك) أى المحسن اليك بأنواع النعم مراغما من شئت فلا سبيل لاحد عليك (وانحر) أى أنفق له الكوثر من المال على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنعهم الماعون والنحر أفضل نفقات العرب لان الجزور الواحد يغنى مائة مسكين واذا أطلق العرب المال انصرف الى الابل وقال محمد بن كعب ان ناسا كانوا يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله فأمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يصلى وينحر لله عز وجل وقال عكرمة وعطاء وقتادة فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانحر نسكك واقتصر على هذا الجلال المحلى وقال سعيد بن جبير ومجاهد فصل الصلاة المفروضة بجمع أى مزدلفة وانحر البدن بمنى وعن ابن عباس رضى الله عنهما وضع اليمين على الشمال فى الصلاة عند النحر وعن على أن معناه أن يرفع يديه فى التكبير الى نحره وقال الكلبى استقبل القبلة بنحرك وعن عطاء أمره أن يستوى بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره (ان شانئك) أى مبغضك والشانئ المبغض يقال شنأه يشنؤه أى أبغضه (هو الابتر) أى المنقطع عن كل خير وأما أنت فقد أعطيت مالا غاية لكثرته من خير الدارين الذى لم يعطه أحد غيرك فمعطى ذلك كله هو الله رب العالمين فاجتمعت لك العطيتان السنيتان اصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم أو المنقطع العقب لا أنت لان كل من يولد الى يوم القيامة من المؤمنين فهم أعقابك وأولادك وذكرك مرفوع على المنابر والمنائر وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر يبدأ بذكر الله تعالى ويثنى بذكرك ولك فى الآخرة مالا يدخل تحت الوصف فمثلك لا يقال له أبتر انما الابتر هو شانئك المسيء فى الدنيا والآخرة وقال الرازى هذه السورة كالمقابلة للتى قبلها فانه ذكر فى الاولى البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الماعون وذكر ههنا فى مقابلة البخل انا أعطيناك الكوثر وفى مقابلة الصلاة فصل أى دم على الصلاة وفى مقابلة الرياء لربك أى لرضاه خالصا وفى مقابلة منع الماعون وانحر أى تصدق بلحم الاضاحى ثم ختم السورة بقوله تعالى ان شانئك هو الابتر أى ان المشاقق الذى أتى بتلك الافعال القبيحة سيموت ولا يبقى له أثر وأما أنت فيبقى لك فى الدنيا الذكر الجميل وفى الآخرة الثواب الجزيل واختلف المفسرون فى الشانئ فقيل هو العاص بن وائل وكانت العرب تسمى من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقى البنات أبتر فقيل ان العاص وقف مع النبى صلى الله عليه وسلم يكلمه فقال له جمع من صناديد قريش مع من كنت واقفا فقال مع ذلك الابتر وكان قد توفى قبل ذلك عبد الله ابن النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان أهل الجاهلية اذا مات ابن الرجل قالوا بتر فلان فلما توفى عبد الله ابن النبى صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل الى أصحابه فقال بتر محمد فنزلت وقال السدى ان قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده قد بتر فلان فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم بمكة وابراهيم بالمدينة قالوا بتر محمد

فليس له من يقوم بأمره من بعده فترات وقيل لما أوحى الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم دعا قريشا الى الايمان قالوا ابتر منا محمد أى خالفنا وانقطع عنا فترات * (تنبيه) * قال أهل العلم قد احتوت هذه السورة على قصرها على معان بليغة وأساليب بديعة منها دلالة استهلال السورة على انه تعالى أعطاه كثيرا من كثير ومنها اسناد الفعل الى المتكلم المعظم نفسه ومنها ايراده بصيغة الماضى تحقيقا لوقوعه كما فى قوله تعالى أتى أمر الله ومنها تأكيد الجملة بان ومنها بناء الفعل على الاسم ليفيد الاسناد مرتين ومنها الاتيان بصيغة تدل على مبالغة الكثرة ومنها حذف الموصوف بالكوثر لان فى حذفه من فرط الشياع والابهام ماليس فى اثباته ومنها تعريفه بأل الجنسية الدالة على الاستغراق ومنها فاء التعقيب الدالة على السبب فان الانعام سبب للشكر والعبادة ومنها التعريض بمن كانت صلاته ونحره لغير الله تعالى ومنها ان الامر بالصلاة اشارة الى الاعمال الدينية التى الصلاة قوامها وأفضلها والامر بالنحر اشارة الى الاعمال البدنية التى النحر أسناها ومنها حذف متعلق انحر اذ التقدير فصل لربك وانحر له ومنها مراعاة السجع فانه من صناعة البديع العارى عن التكلف ومنها قوله تعالى لربك فى الاتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنى دلالة على أنه المربى له والمصلح بنعمه فلا يلتمس كل خير الا منه ومنها الالتفات من ضمير المتكلم الى الغائب فى قوله تعالى لربك ومنها الامر بترك الاهتمام بشانئه للاستئناف وجعله خاتمة للاعراض عن الشانئ ولم يسمه ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة القبيحة ولو كان المراد شخصا معينا لعينه الله تعالى ومنها التنبيه بذكر هذه الصفة القبيحة على أنه لم يتصف الا بمجرد قيام الصفة به من غير أن تؤثر فيمن يشنؤه شيأ البتة لان من يشنأ شخصا قد يؤثر فيه شنؤه شيأ ومنها تأكيد الجملة بان المؤذنة بتأكيد الخبر ولذلك يتلقى بها القسم وتقدير القسم يصلح هنا ومنها الاتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد ان جعلناه فصلا وان جعلناه مبتدأ فكذلك يفيد التأكيد اذ يصير الاسناد مرتين ومنها تعريف الابتر بال المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة كأنه قيل الكامل فى هذه الصفة ومنها اقباله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بالخطاب من أول السورة الى آخرها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر فى الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد فى يوم النحر أو يقربونه حديث موضوع

(سورة الكافرون مكية)

فى قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك وتسمى أيضا سورة المعابدة والاخلاص لانها فى اخلاص العبادة والدين كما أن قل هو الله أحد فى اخلاص التوحيد واجتماع النفاق فيهما محال لمن اعتقدهما وعمل بهما ويقال لها وللسورة الاخلاص المقشقشتان أى المبرئتان من النفاق قال الشاعر

أعيذك بالمقشقشتين مما * أحاذره ومن نظر العيون

وهي ست آيات وستة وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذي لا يستطيع أحد أن يقدره حق قدره (الرحمن) الذي عم برحمته من أوجب عليهم شكره (الرحيم) الذي وفق أهل وده فالتزموا نهيه وأمره وقوله تعالى (قل) أي يا أشرف الخلق (يا أيها الكافرون) الى آخر السورة نزل في رهط من قريش منهم الحرث بن قيس السهمي والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب بن أسد وأمية ابن خلف قالوا يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كله تعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة فان كان الذي جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه وأخذنا حظنا منه وان كان الذي بأيدينا خيرا كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه فقال معاذ الله أن نشرك به غيره قالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد الهك قال حتى انظر ما يأتي الي من ربي فأنزل الله تعالى هذه السورة فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا منه عند ذلك وأذوه وأصحابه وفي مناداتهم بهذا الوصف الذي يسترذلونه في بلدهم ومحل عزهم وحميتهم ايذان بأنه محروس منهم علم من أعلام النبوة (فان قيل) ما الحكمة في قوله تعالى في التحريم يا أيها الذين كفروا وههنا قال قل يا أيها الكافرون (أجيب) بأن في سورة التحريم انما يقال لهم يوم القيامة وثم لا يكون رسولا اليهم فأزال الواسطة فيكونون في ذلك الوقت مطيعين لا كافرين فلذلك ذكره تعالى بلفظ الماضي وأما هنا فكانوا موصوفين بالكفر وكان الرسول رسولا اليهم فقال تعالى قل يا أيها الكافرون أي الذي قد حكم بثباتهم على الكفر فلا انفكاك لهم عنه فستروا ما تدل عليه عقولهم من الاعتقاد الحق لو جردوها من ادناس الحظ وهم كفرة مخصوصون وهم من حكم بموته على الكفر بمطابقة من الواقع ودل عليه التعبير بالوصف دون الفعل واستغرق اللام كل من كان على هذا الوصف في كل مكان وكل زمان والتعبير بالجمع الذي هو أصل في القلة وقد يستعار للكثرة اشارة الى البشارة بقلة المطبوع على قلبه من العرب المخاطبين بهذا في حياته صلى الله عليه وسلم وقال الله تعالى له قل يا أيها الكافرون لانه صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بالرفق واللين في جميع الامور كما قال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وقال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم وقال تعالى بالمؤمنين رؤف رحيم ثم كان مأمورا بأن يدعوهم الى الله تعالى بالوجه الاحسن فلذا خاطبهم بيا أيها فكانوا يقولون كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق فأجاب بأني مأمور بهذا الكلام لا أني ذكرته من عند نفسي * ولما كان القصد اعلامهم بالبراءة منهم من كل وجه وأنه لا يبالي بهم بوجه لانه محفوظ منهم قال (لا أعبد) أي الآن (ما تعبدون) من دون الله من المعبودات الظاهرة والباطنة بوجه من وجوه العبادات في سر ولا علن لانه لا يصلح للعبادة بوجه (ولا أنتم عابدون) أي الآن (ما أعبد) وهو الله تعالى وحده (ولا أنا عابد) أي في الاستقبال (ما عبدتم) من دون الله تعالى (ولا أنتم عابدون) أي في الاستقبال (ما أعبد) وهو الله وحده لا شريك له وهذا خطاب لمن علم الله تعالى

منهم أنهم لا يؤمنون واطلاق ما على الله تعالى على جهة المقابلة وبهذا زال التكرار ووجه التكرار كما قال أكثر أهل المعاني هو ان القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم ومن مذاهبهم التكرار لارادة التأكيد والافهام كما أن من مذاهبهم الاختصار لارادة التخفيف والايجاز فالقائل بالتأكيد يقول قوله تعالى ولا أنا عابد ما عبدتم تأكيد لقوله تعالى لا أعبد ما تعبدون وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد ثانيا تأكيد لقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد ومثله فبأى آلاء ربكما تكذبان وويل يومئذ للمكذبين في سورتيهما وكلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون وفي الحديث فلا اذن فلا اذن ثم لا اذن انما فاطمة بضعة مني وفائدة التأكيد هنا قطع أطماع الكفار وتحقيق الاخبار وهو اقامتهم على الكفر وأنهم لا يسلمون أبدا وعلى الاول قد تقيدت كل جملة بزمان غير الزمان الآخر قال ابن عادل وفيه نظر كيف يقيد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفى عبادته لما يعبدون بزمان وهذا مما لا يصح اه وقد يرد هذا بأنه صلى الله عليه وسلم نفى في الجملة الاولى الحال وفي الثانية الاستقبال وقول البيضاوى فان لا لا تدخل الا على مضارع بمعنى الاستقبال كما ان ما لا تدخل الا على المضارع بمعنى الحال جرى على الغالب فيهما ولما أيس منهم صلى الله عليه وسلم قال (لكم دينكم) أى الذى أنتم عليه من الشرك (ولى دين) أى الذى أنا عليه من التوحيد وهو دين الاسلام وفي هذا معنى التهديد كقوله تعالى لنا أعمالنا ولكم أعمالكم أى ان رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا وهذا كما قال الجلال المحلى قبل أن يؤمر بالحرب وقيل السورة كلها منسوخة وقيل ما نسخ منها شئ لانها خبر ومعنى لكم دينكم أى جزاء دينكم ولى دين أى جزاء ديني وسمى دينهم دينا لانهم اعتقدوه وقيل المعنى لكم جزاؤكم ولى جزائي لان الدين الجزاء وحذفت ياء الاضافة من دين للتبعية وقفا ووصلا وقرأ نافع وهشام وحفص والبزى بخلاف عنه بفتح الياء والباقون باسكانها * (فائدة) * قال الرازى جرت العادة بأن الناس يتمثلون بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز لانه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه فيعمل بموجبه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكافرين فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الاكبر حديث موضوع الا الجملة الاولى منه فرواها الترمذى

(سورة النصر مدنية)

بالاجماع وتسمى سورة التوديع وهي ثلاث آيات وستة عشرة كلمة وتسعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له الامر كله فهو العليم الحكيم (الرحمن) الذى أرسلك رحمة من الله العلى العظيم (الرحيم) الذى خص أهل وده بفضله العميم وقوله تعالى (اذا) منصوب بسبح (جاء نصر الله) أى الملك الاعظم الذى لا مثل له ولا أمر لاحد معه باظهارك اياك على أعدائك ومعنى جاء استقر وثبت في المستقبل بمجيء وقته المضروب له في الازل وزاد في تعظيمه بالاضافة ثم بكونها

الى اسم الذات وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف بعد الجيم محضة والباقون بالفتح والاعلام به قبل كونه من اعلام النبوة روى أنها نزلت فى أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع (والفتح) أى فتح مكة وهو الفتح الذى يقال له فتح الفتوح وقصته مشهورة فى البغوى وغيره فلا نطيل بذكرها وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وطوائف العرب وأقام بها خمس عشرة ليلة ثم خرج الى هوازن وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا أهل مكة ماترون انى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الله تعالى قد أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيأ فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الاسلام فى دين الله تعالى فى ملة الاسلام التى لا دين له يضاف اليه غيرها ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وقيل المراد جنس نصر الله تعالى المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم (فان قيل) ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه (أجيب) بأن النصر الاعانة والاظهار على العدو ومنه نصر الله تعالى الارض أغاثها قال الشاعر

اذا انسلخ الشهر الحرام فودعى * بلاد تميم وانصرى آل عامر

ويروى اذا دخل الشهر الحرام فجاوزى * بلاد تميم وانصرى أرض عامر

والفتح فتح البلاد وقال الرازى الفرق بين النصر والفتح أن الفتح هو الاعانة على تحصيل المطلوب الذى كان متعلقا به والنصر كالسبب للفتح فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه (فان قيل) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائما منصورا بالدلائل والمعجزات فما المعنى بتخصيص لفظ النصر بفتح مكة (أجيب) بأن المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع (فان قيل) النصر لا يكون الا من الله تعالى قال الله تعالى وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم فما فائدة التقييد بنصر الله (أجيب) بأن معناه نصر لا يليق الا بالله تعالى كما يقال هذا صنعة زيد اذا كان مشهورا باحكام الصنعة والمقصود منه تعظيم حال تلك الصنعة فكذا ههنا (فان قيل) الذين أعانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة هم أصحابه من المهاجرين والانصار ثم انه تعالى سمى نصرتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم نصر الله فما السبب فى ذلك (أجيب) بأن النصر وان كان على يد الصحابة لكن لا بد له من داع وباعث وهو من الله تعالى (فان قيل) فعلى هذا الجواب يكون فعل العبد مقدما على فعل الله تعالى وهذا بخلاف النصر لانه تعالى قال ان تنصروا الله ينصركم فجعل نصره مقدما على نصره لنا (أجيب) بأنه لا امتناع فى أن يكون فعل العبد سببا لفعل آخر يصدر عن الله تعالى فان أسباب الحوادث ومسبباتها على ترتيب عجيب تعجز عن ادراكه العقول البشرية * ولما عبر عن المعنى بالمجىء عبر عن المرئى بالرؤية فقال تعالى (ورأيت) أى ببصرك (الناس) أى العرب الذين كانوا حقيرين عند جميع الامم فصاروا بك هم الناس كما دلت عليه لام

الكمال وصار سائر أهل الارض لهم اتباعا وبالنسبة اليهم رعاعا حال كونهم (يدخلون) شيأ فشيأ متجددا دخولهم مستمرا (فى دين الله) أى شرع من لم تزل كلمته هى العليا (أفواجا) أى جماعات كثيفة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له فى ذلك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دخل الناس فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا وقال عكرمة ومقاتل أراد بالناس أهل اليمن وذلك أنه وردمن اليمن سبعمائة انسان مؤمنين طائعين بعضهم يؤذنون وبعضهم يقرؤن القرآن وبعضهم يهللون فسر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك قال أبو هريرة لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الايمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن وفى هذا تأويلات أحدها انه الفرج لتتابع اسلامهم أفواجا الثانى ان الله تعالى نفس الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن وهم الانصار وعن الحسن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا أما اذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ومن كل من أرادهم فكانوا يدخلون فى الاسلام أفواجا من غير قتال أمة بعد أمة قال الضحاك والامة أربعون رجلا *(تنبيه)* دين الله تعالى هو الاسلام لقوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه واضافة الدين الى الاسم الدال على الالهية اشارة الى أنه يجب ان يعبد لكونه الها وللدين اسماء أخر منها الصراط قال تعالى صراط الله ومنها النور يريدون ليطفؤا نور الله ومنها الهدى قال تعالى هدى الله يهدى به من يشاء ومنها العروة الوثقى قال تعالى ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ومنها الحبل المتين قال تعالى واعتصموا بحبل الله ومنها صبغة الله ومنها فطرة الله *(تنبيه)* جمهور الفقهاء وأكثر المتكلمين على أن ايمان المقلد صحيح واحتجوا بهذه الآية قالوا ان الله تعالى حكم بصحة ايمان أولئك الافواج وجعله من أعظم المنن على نبيه صلى الله عليه وسلم فلو لم يكن ايمانهم صحيحا لما ذكره فى هذا المعرض ثم انا نعلم قطعا انهم ما كانوا يعرفون حدوث الاجسام بالدليل ولا اثبات كونه تعالى عالما بجميع المعلومات التى لا نهاية لها ولا اثبات الصفات والتنزيهات بالدليل والعلم بأن أولئك الاعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضرورى فعلمنا ان ايمان المقلد صحيح (فان قيل) انهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لان أصول هذه الدلائل ظاهرة بل كانوا جاهلين بالتفاصيل (أجيب) بأن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان فان الدليل اذا كان مثلا من عشر مقدمات فمن علم تسعة منها وكان فى المقدمة العاشرة مقلدا كان فى النتيجة مقلدا لا محالة * ولما كمل الدين أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يشتغل بنفسه فقال عز من قائل (فسبح) أى نزه بقولك وفعلك بالصلاة وغيرها تسبيحا ملتبسا (بحمد ربك) أى الذى أنجز لك الوعد باكمال الدين وقمع المعتدين المحسن اليك بجميع ذلك لان هذا كله لكرامتك والا فهو عزيز

حمـد على كل حال تعجبا لتيسـير الله تعالى لهـذا الفتح الذى لم يخطر ببال أحد حامدا له عليه أو فصل له حامدا على نعمه قاله ابن عباس روى أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة بدأ بالسجود فدخل الكعبة وصلى ثمان ركعات (واستغفره) أى اطلب غفرانه لتقتدى بك أمتك فى المواظبة على الامان الثانى فان الامان الاول الذى هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه الى معدنه فى الرفيق الاعلى والمحل الاقدس وفى ذلك اشارة الى أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره كما أشار الى ذلك الاستغفار عقب الصلاة التى هى أعظم العبادات وفى الصحيحين عن عائشة أنها قالت ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة اذا جاء نصر الله والفتح الا يقول أستغفر الله وأتوب اليه قال فانى أمرت بها ثم قرأ اذا جاء نصر الله والفتح الى آخرها وقال عكرمة لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم قط أشد اجتهادا فى أمور الآخرة ما كان عند نزولها وقال مقاتل لما نزلت قرأها النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص والعباس ففرحوا واستبشروا وبكى العباس فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عم قال نعيت اليك نفسك قال انه كما قلت فعاش بعدها ستون يوما ما رؤى فيها ضاحكا مستبشرا وقيل نزلت فى منى بعد أيام التشريق فى حجة الوداع فبكى عمر والعباس فقيل لهما هذا يوم فرح فقالا بل فيه نعى النبى صلى الله عليه وسلم وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى فى حجة الوداع ثم نزل اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى فعاش صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوما ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوما ثم نزلت لقد جاءكم رسول من أنفسكم فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما ثم نزل واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فعاش بعدها أحدا وعشرين يوما وقال مقاتل سبعة أيام وقيل غير ذلك وقال الرازى اتفق الصحابة على ان هـذه السورة دلت على نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه أحدها انهم عرفوا ذلك لما خطب صلى الله عليه وسلم عقب السورة وذكر التخيير وهو قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته لما نزلت هذه السورة ان عبدا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله فقال أبو بكر رضى الله عنه فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا ثانيها انه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس فى الدين أفواجا دل ذلك على حصول الكمال والتمام وذلك يستعقبه الزوال كما قيل

اذا تم أمر بدا نقصه * توقع زوالا اذا قيل تم

ثالثها انه تعالى أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقا واشتغاله بذلك يمنعه من الاشتغال بأمر الامة فكان هذا كالتنبيه على ان أمر التبليغ قد تم وكمل وذلك يقتضى انقضاء الاجل اذ لو بقى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لكان كالمعزول من الرسالة وذلك غير جائز وعن ابن عباس ان عمر كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر فقال عبد الرحمن أتأذن لهذا الفتى معنا وفى أبنائنا من هو مثله فقال انه من قد علمتم قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم فسألهم عن قول الله تعالى اذا جاء نصر الله والفتح ولا أراه سألهم الا من أجلى فقال بعضهم أمر الله

تعالى نبيه اذا فتح عليه ان يستغفره ويتوب اليه فقلت ليس كذلك ولكن نعيت اليه نفسه فقال عمر ما أعلم منها الا مثل ما تعلم ثم قال كيف تلومونى عليه بعد ما ترون وروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة رضى الله عنها فقال يا بنتاه انى نعيت الى نفسى فبكت فقال لا تبكى فانك أول أهلى لحوقابى وعن عائشة كان صلى الله عليه وسلم يكثر قبل موته ان يقول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب اليك وعنها أيضا ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت اذا جاء نصر الله والفتح الا يقول فيها سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى وقالت أم سلمة رضى الله عنها كان النبى صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب الا قال سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه قال فانى أمرت بها ثم قرأ اذا جاء نصر الله والفتح الى آخرها وقيل استغفره هضما لنفسك واستصغارا لعملك واستدراكا لما فرط منك بالالتفات الى غيره وعنه عليه الصلاة والسلام انى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة وقيل استغفر لامتك وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق الى الخلق كما قيل ما رأيت شيأ الا ورأيت الله قبله * ولما أمره الله تعالى بالتسبيح والاستغفار أرشده الى التوبة بقوله تعالى (انه) أى المحسن اليك بالنصر والفتح وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر (كان) أى ولم يزل (توابا) أى رجاعا بمن ذهب به الشيطان من أهل رحمته فهو الذى رجع بأنصارك عما كانوا عليه من الاجتماع على الكفر والاختلاف والعداوات فأيدك الله تعالى بدخولهم فى الدين شيأ فشيأ الى ان دخلت مكة بعشرة آلاف وهو أيضا رجع بك الى الحالة التى يزداد بها ظهور رفعتك فى الرفيق الاعلى قال الله تعالى وللآخرة خير لك من الاولى فتفوز بتلك السعادات العالية وعن ابن مسعود ان هذه السورة تسمى سورة التوديع قال قتادة ومقاتل عاش النبى صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين وهذا بناء على انها نزلت قبل فتح مكة وهو قول الاكثر فان الفتح كان فى سنة ثمان وأما من قال عاش دون ذلك كما مر فبناء على انها نزلت بمنى فى حجة الوداع كما مر أيضا *(تنبيه)* فى الآية سؤالات أحدها ان قوله تعالى كان توابا يدل على الماضى وحاجتنا الى قبوله فى المستقبل ثانيها هلا قال غفارا كما قال فى سورة نوح عليه السلام ثالثها انه قال تعالى نصر الله وقال تعالى فى دين الله وقال تعالى بحمد ربك ولم يقل بحمد الله (وأجيب) عن الاول بوجوه أحدها أن هذا أبلغ كأنه يقول انى تبت على من هو أقبح فعلا منكم كاليهود فانهم بعد ظهور المعجزات العظيمة كفلق البحر ونتق الجبل ونزول المن والسلوى عصوا ربهم وأتوا بالقبائح ولما تابوا قبلت توبتهم فاذا كنت قابلا لتوبة أولئك وهم دونكم أفلا أقبل توبتكم وأنتم خير أمة أخرجت للناس ثانيها انى شرعت فى توبة العصاة والشروع ملزم على قول النعمان فكيف فى كرم الرحمن ثالثها كنت توابا قبل أمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار رابعها كأنه أشار الى تخفيف جناياتهم أى انتم أول من جنى وتاب والمعصية اذا عمت خفت خامسها كأنه نظير ما يقال لقد أحسن الله اليك فيما مضى كذلك يحسن اليك فيما بقى (وأجيب) عن الثانى

بوجهين أحدهما العله خص هذه الامة بزيادة الشرف لانه لا يقال فى صفات العبد غفار ويقال تواب اذا كان آتيا بالتوبة فيقول تعالى كنت لى سميا من أول الامر أنت مؤمن وأنا مؤمن وان كان المعنى مختلفا فتب حتى تصير سميالى فى آخر الامر وأنت تواب وأنا تواب ثم التواب فى حق الله تعالى انه يقبل التوبة كثيرا فيجب على العبد أن يكون اتيانه بالتوبة كثيرا ثانيهما انه تعالى انما قال توابا لان القائل قد يقول أستغفر الله وليس بتائب كقوله عليه الصلاة والسلام المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزئ بربه (فان قيل) قد يقول أتوب وليس بتائب (أجيب) بأن ذا يكون كاذبا لان التوبة اسم للرجوع والندم بخلاف الاستغفار فانه لا يكون كاذبا فيه فصار تقدير الكلام واستغفره بالتوبة وفيه تنبيه على أن خواتيم الاعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار وكذا خواتيم الاعمار (وأجيب) عن الثالث بأنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين أحدهما الرب والثانى التواب ولما كانت التربية تحصل أولا والتوبة آخرا لاجرم ذكر اسم الرب أولا واسم التوبة آخرا فنسأل الله تعالى من فضله وكرمه ان يمن علينا بتوبة نصوح لا ننكث بعدها أبدا فانه كريم رحيم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة اذا جاء نصر الله أعطى من الاجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة حديث موضوع

﴿سورة تبت مكية﴾

وهى خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وسبعة وسبعون حرفا

(بسم الله) المتكبر الجبار المضل الهاد (الرحمن) الذى عم خلقه بنعمه بعد الاكرام بالايجاد (الرحيم) الذى خص بتوفيقه أهل الوداد وقوله تعالى (تبت يدا أبى لهب) دعاء عليه وسبب نزول ذلك ماروى عن ابن عباس أنه قال لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين صعد صلى الله عليه وسلم الصفا وجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا عنده فجعل الرجل اذا لم يستطع أرسل رسولا لينظر ماهو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتم لو أخبرتكم ان العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقون قالوا بلى قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبالك ألهذا دعوتنا جميعا فنزلت وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم خرج الى البطحاء فصعد الجبل ونادى ياصباحاه فاجتمعت اليه قريش وذكر نحوه وفى رواية فصعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا من هذا الذى يهتف فقالوا محمد فاجتمعوا اليه فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى قالوا ماجربنا عليك كذبا قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبالك أما جمعتنا الا لهذا فنزلت وعن أبى زيد ان أبا لهب أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ماذا أعطى ان آمنت بك يا محمد فقال صلى الله عليه وسلم كما يعطى المسلمون فقال مالى عليهم فضل فقال صلى الله عليه وسلم وأى شئ تبتغى قال تبا لهذا من دين أن أكون وهؤلاء سواء فنزلت ومعنى تبت قال ابن عباس خابت وقال قتادة خسرت وقال عطاء ضلت وقال ابن جبير هلكت والتباب الهلاك ومنه قولهم

اشابة أم تابة أى هالكة من الهرم والتعجيز والمعنى هلكت يداه لانه فيما يروى أخذ حجرا ليرمى به النبىّ صلى الله عليه وسلم وقيل رماه به فأدمى عقبه فلهذا ذكرت اليد وان كان المراد جملة البدن فهو كقولهم خسرت يده وكسبت يده فأضيفت الافعال الى اليد وذلك على عادة العرب فى التعبير ببعض الشئ عن كله وجميعه أو عبر باليدين لانّ الغالب انّ الاعمال تزاول بهما وقال عمان بن رباب صفرت من كل خير حكى الاصمعى عن أبى عمرو بن العلاء انه لما قتل عثمان سمع الناس هاتفا يقول لقد خلوك وانصرفوا * فما آبوا ولا رجعوا

ولم يوفوا نذورهم * فتبا للذى صنعوا

وقيل المراد باليدين دينه ودنياه أو أولاه وعقباه أو المراد بأحدهما جرّ المنفعة وبالاخرى دفع المضرّة أولانّ اليمين سلاح واليسرى جنة وأبو لهب هو ابن عبد المطلب عمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم واسمه عبد العزى (فان قيل) لماذا كنى بذلك ولم يكن له ولد اسمه لهب وأيضا فالتكنية من باب التعظيم (أجيب) عن الاول بأنّ الكنية قد تكون اسما كما سمى أبو سفيان وأبو طالب ونحو ذلك فانّ هؤلاء أسماؤهم كناهم أو لتلهب وجنتيه وكان مشرق الوجه أحمره (وأجيب) عن الثانى بوجوه أحدها أنه لما كان اسما خرج عن افادة التعظيم ثانيها انّ اسمه كان عبد العزى كما مرّ فعدل عنه الى كنيته لقبح اسمه لأنّ الله تعالى لم يضف العبودية فى كتابه الى صنم ثالثها انه لما كان من أهل النار ومآله الى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديرا بان يذكر بها كقولهم أبو الخير وأبو الشر لصدورهما منه أو لانّ الكنية كانت أغلب من الاسم أو لانها أنقص منه ولذلك ذكر الانبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم دون كناهم وقال الزمخشرى فان قلت لما كناه والكنية تكرمة ثم ذكر ثلاثة أجوبة امّا لشهرته بكنيته وامّا لقبح اسمه كما تقدّم وامّا لانه لما كان من أهل النار ومآله الى نار ذات لهب وافقت حالته كنيته اهـ وهذا يقتضى انّ الكنية أشرف من اللقب لا أنقص وهو عكس قول تقدّم وقرأ ابن كثير باسكان الهاء والباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى نحو النهر والنهر وقوله تعالى (وتب) خبر كما يقال أهلكه الله وقد هلك فالاول أخرج مخرج الدعاء عليه والثانى أخرج مخرج الخبر فحقق به ما أريد من الاسناد الى اليدين من الكناية عن الهلاك الذى لا بقاء بعده وقيل المراد بالاول ماله وملكه كما يقال فلان قليل ذات اليد يعنون به المال وبالثانى نفسه * ولما دعا صلى الله عليه وسلم أقربيه الى الله تعالى وخوفهم النار قال أبو لهب ان كان ما يقول ابن أخى حقا فانى أفتدى نفسى بمالى وولدى فأنزل الله تعالى (ما أغنى عنه) أى عن أبى لهب (ماله) أى الكثير الذى جرت العادة أنه منج من الهلاك فانه كان صاحب مواش كثيرة (وما كسب) أى من الولد والاصحاب والعز بعشيرته التى كان يؤذى بها النبىّ صلى الله عليه وسلم وكان ابنه عتبة شديد الاذى للنبىّ صلى الله عليه وسلم فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم اللهمّ سلط عليه كلبا من كلابك فكان أبو لهب يعرف أنّ هذه الدعوة لابدّ أن تدركه فسافر الى الشأم فأوصى به الرفاق لينجوه من هذه الدعوة فكانوا يحدقون به اذا نام ليكون وسطهم والجول محيطة بذوهم محيطون بها والركاب محيطة

بهم فلم ينفعه ذلك بل جاء الاسد فتشمم الناس حتى وصل اليه فاقتلع رأسه وانما كان الولد من الكسب لقوله صلى الله عليه وسلم أطيب ما يأكل أحدكم من كسبه وان ولده من كسبه *(تنبيه)* ما في ما أغنى يجوز فيها النفي والاستفهام فعلى الاستفهام تكون منصوبة المحل بما بعدها التقدير أي شئ أغنى المال وقدم لكونه له صدر الكلام ويجوز في ما في قوله تعالى وما كسب أن تكون بمعنى الذي فالعائد محذوف وأن تكون مصدرية أي وكسبه وأغنى بمعنى يغني ثم أوعده سبحانه بالنار فقال تعالى (سيصلى) أي عن قريب بوعد لا خلف فيه (نارا) يندس فيها وتنعطف عليه وتحيط به (ذات لهب) أي لا تسكن ولا تخمد أبدا لان ذلك مدلول الصحبة المعبر عنها بذات وذلك بعد موته ولما أخبر تعالى عنه بكمال التباب الذي هو نهاية الخسار زاده تحقيرا بذكر من يصونها بأزرى صورة وأشنعها بقوله تعالى (وامرأته) وهو عطف على ضمير يصلى سوغه الفصل بالمفعول وصفته وهي أم جميل وهي أخت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي مثل زوجها في التباب والصلي من غير ان يغني عنها شئ من مال ولا حسب ولا نسب وعدل عن ذكرها بكنيتها لان صفتها القباحة وهي ضد كنيتها قال البقاعي ومن هنا يؤخذ كراهة التلقيب بناصر الدين ونحوها لمن ليس متصفا بما دل عليه لقبه وقوله تعالى (حمالة الحطب) فيه وجهان أحدهما هو حقيقة قال قتادة وكانت تعير النبي صلى الله عليه وسلم بالفقر ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل وقال ابن زيد كانت تحمل العضاه والشوك تلقيه في الليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير وقال برة الهمداني كانت أم جميل تأتي في كل يوم بابالة من الحسك فتطرحها في طريق المسلمين فبينما هي ذات ليلة حاملة حزمة عييت فقعدت على حجر تستريح فجذبها الملك من خلفها فأهلكها الوجه الثاني ان ذلك مجاز عن المشي بالنميمة ورمي الفتن بين الناس ويقال للمشاء بين الناس بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب منهم أي يوقد بينهم النائرة ويثير الشر قال الشاعر

من البيض لم تصطد على ظهر لامة * ولم تمش بين الناس بالحطب الرطب

جعله رطبا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر وقال سعيد بن جبير حمالة الخطايا والذنوب من قولهم فلان يحتطب على ظهره قال تعالى يحملون أوزارهم على ظهورهم وقرأ عاصم بنصب التاء من حمالة على الشتم قال الزمخشري وأنا أستحب هذه القراءة وقد توسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب شتم أم جميل اه والباقون برفعها على أنها صفة امرأته فانها مرفوعة باتفاق اما بالعطف على الضمير في سيصلى كما مر ويكون قوله تعالى (في جيدها حبل) حالا من امرأته أو على الابتداء ففي جيدها حبل هو الخبر وحبل فاعل به ويجوز أن يكون في جيدها خبرا مقدما وحبل مبتدأ مؤخرا والجملة حالية أو خبر ثان والجيد العنق ويجمع على أجياد وقوله تعالى (من مسد) صفة لحبل والمسد ليف المقل وقيل الليف مطلقا وقال أبو عبيدة هو حبل يكون من صوف وقال الحسن هي حبال من شجر ينبت باليمن يسمى المسد وكانت تفتله

وقال الضحاك وغيره هذا في الدنيا وكانت تعير النبي صلى الله عليه وسلم بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف فخنقها الله عز وجل به فأهلكها وهو في الآخرة حبل من نار (فان قيل) ان كان ذلك حبلها فكيف يبقى في النار (أجيب) بأن الله تعالى قادر على تجدده كلما احترق كما يبقى اللحم والعظم والجلد أبدا في النار وعن ابن عباس قال هو سلسلة ذرعها سبعون ذراعا تدخل فيها وتخرج من أسفلها ويلوى سائرها على عنقها وقال قتادة هو قلادة من ودع وقال الحسن انما كان خرزا في عنقها وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت واللات والعزى لانفقنها في عداوة محمد ويكون ذلك عذابا في جيدها يوم القيامة وقيل ان ذلك اشارة الى الخذلان يعني انها مربوطة عن الايمان لما سبق لها من الشقاء كالمربوط في جيده بحبل من مسد والمسد الفتل يقال مسد حبله يمسده مسدا أي أجاد فتله والجمع امساد وروى أنها لما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر وفي يدها فهر من حجارة تريد أن ترميه به فلما وقفت عليه أخذ الله تعالى بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى الا أبا بكر فقالت يا أبا بكر أين صاحبك قد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه والله اني لشاعرة

مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت فقال أبو بكر يا رسول الله أما ترى ما رأتك قال صلى الله عليه وسلم ما رأتني لقد أخذ الله تعالى بصرها عني وكانت قريش انما تسمي محمدا صلى الله عليه وسلم مذمما ثم يسبونه وكان صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبوا لما صرف الله تعالى عني من أذى قريش يهجون مذمما وأنا محمد انظر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا الاذى ويحلم عليهم فينبغي لغيره أن يكون له به اسوة قال الله تعالى لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة *(تنبيه)* احتج أهل السنة على تكليف ما لا يطاق بانه تعالى كلف أبا لهب بالايمان بتصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه انه لا يؤمن فانه من أهل النار فانه قد صار مكلفا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال وذلك مذكور في أصول الفقه وقد تضمنت هذه الآيات الاخبار عن الغيب بثلاثة أوجه أحدها الاخبار عنه بالتباب والخسران وقد كان ذلك ثانيها الاخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده وقد كان ذلك ثالثها الاخبار عنه بأنه من أهل النار وقد كان ذلك لانه مات على الكفر هو وامرأته ففي ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وامرأته خنقها الله تعالى بحبلها كما مر وأبو لهب رماه الله تعالى بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال فمات وأقام ثلاثة أيام لا يدفن حتى أنتن ثم ان ولده غسله بالماء قذفا من بعيد مخافة عدوى العدسة وكانت قريش تتقيها كما تتقي الطاعون ثم احتملوه الى أعلى مكة وأسندوه الى جدار ثم رضموا عليه الحجارة وقيل ان الله تعالى يدخل امرأته جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الحطب ولا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من أصل شجرة الزقوم أو من الضريع وفي جيدها حبل من مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه وقول

البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة حديث موضوع

(سورة الاخلاص مكية)

في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي وهي أربع آيات وخمس عشرة كلمة وسبعة وأربعون حرفا

(بسم الله) الذي له جميع الكمال ذي الجلال والجمال (الرحمن) الذي أفاض على جميع خلقه عموم الافضال (الرحيم) الذي خص أهل وداده من نور الانعام بالاتمام والاكمال * واختلف في سبب نزول سورة (قل هو الله أحد) فروى أبو العالية عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فنزلت وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر الى من تدعونا يا محمد فقال الى الله تعالى قال صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب فنزلت وأهلك الله تعالى أربد بالصاعقة وعامر بن الطفيل بالطاعون وقال الضحاك وقتادة ومقاتل جاء ناس من أحبار اليهود الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فان الله تعالى أنزل صفته في التوراة فأخبرنا من أي شيء هو وهل يأكل ويشرب ومن ورث ومن يرثه فنزلت * (تنبيه) * هو ضمير الشأن وهو مبتدأ وخبره الله وأحد بدل أو خبر ثان يدل على مجامع صفات الجلال كما دل الله تعالى على جميع صفات الكمال اذ الواحد الحقيقي ما يكون منزه الذات عن التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للالوهية * (فائدة) * جاء في الواحد عن العرب لغات كثيرة يقال واحد وأحد ووحد ووحيد ووحاد وأحاد وموحد وأوحد وهذا كله راجع الى معنى الواحد وان كان في ذلك معان لطيفة ولم يجئ في صفات الله تعالى الا الواحد والاحد وقوله تعالى (الله) أي الذي ثبتت الهيته وأحديته لا غيره مبتدأ خبره (الصمد) واخلى هذه الجملة عن العاطف لانها كالنتيجة للاولى أو الدليل عليها والصمد السيد المصمود اليه في الحوائج والمعنى هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والارض وخالقكم وهو واحد متوحد بالالوهية لا يشارك فيها وهو الذي يصمد اليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما الصمد هو الذي لا جوف له وقال الشعبي هو الذي لا يأكل ولا يشرب وقال الربيع هو الذي لا تعتريه الآفات وقال مقاتل بن حيان هو الذي لا عيب فيه وقال قتادة هو الباقي بعد فناء خلقه وقال سعيد بن جبير هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وقال السدي هو المقصود اليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب تقول العرب صمدت فلانا أصمده صمدا بسكون الميم اذا قصدته وعن أبي بن كعب هو الذي (لم يلد) لان من يلد سيموت ومن يرث يورث عنه ففسر الصمد بما بعده وينبغي أن تجعل هذه

التفاسير كلها تفسيرا واحدا فانه متصف بجميعها فكونه لم يلد لانه لم يجانس ولم يفتقر الى من يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه لدوامه فى أبديته والاقتصار على الماضى لوروده ردّا على من قال الملائكة بنات الله أو العزير أو المسيح أو غيره * ولما بين أنه لافصل له ظهر أنه لاجنس له فدل عليه بقوله تعالى (ولم يولد) لانه لو تولد عنه غيره تولد هو عن غيره كما هو المعهود والمعقول فهو قديم لا أول له بل هو الاول الذى لم يسبقه عدم لان الولادة لاتكون ولا تتشخص الا بواسطة المادة وعلاقتها وكل ما كان ماديا أو كان له علاقة بالمادة كان متولدا عن غيره والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع ذلك (ولم يكن) أى لم يتحقق ولم يوجد بوجه من الوجوه ولا بتقدير من المقادير (له) أى خاصة (كفوا) أى مثلا ومساويا (أحد) على الاطلاق أى لايساويه فى قوة الوجود لانه لو ساواه فى ذلك لكانت مساواته باعتبار الجنس والفصل فيكون وجوده متولدا عن الازدواج الحاصل من الجنس الذى يكون كالام والفصل الذى يكون كالاب وقد ثبت انه لايصح بوجه من الوجوه أن يكون فى شئ من الولادة لان وجوب وجوده لذاته فانتفى أن يساويه شئ وكان الاصل ان يؤخر الظرف لانه صلة لكن لما كان المقصود نفى المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديما للاهم ويجوز أن يكون حالا من المستكن فى كفوا أو خبرا أو يكون كفوا حالا من أحد وعطف هاتين الجملتين على الجملة التى قبلهما لان الثلاث شرح الصمدية النافية لاقسام الامثال فهى كالجملة الواحدة روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه اياى يقول لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من اعادته وأما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد وقرأ حمزة بسكون الفاء والباقون بضمها وقرأ حفص كفوا بالواو وقفا ووصلا واذا وقف حمزة وقف بالواو وروى فى فضائل هذه السورة أحاديث كثيرة منها ماروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد يرددها فلما أصبح أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده انها لتعدل ثلث القرآن (فان قيل) لم كانت تعدل ثلث القرآن (أجيب) بأن القرآن أنزل أثلاثا ثلث أحكام وثلث وعد ووعيد وثلث أسماء وصفات فجمعت هذه السورة أحد الاثلاث وهو الاسماء والصفات وقيل انها تعدل القرآن كله مع قصر متنها وتقارب طرفيها وما ذاك الا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده وكفى بذلك دليلا لمن اعترف بفضلها ومنها ماروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية فكان يقرأ فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لاى شئ يصنع ذلك فسألوه فقال لانها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال صلى الله عليه وسلم أخبروه ان الله تعالى يحبه * ومنها ماروى الترمذى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال صلى الله عليه وسلم وجبت قلت ما وجبت قال الجنة * ومنها ماروى أنس أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال من قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة غفرت ذنوبه * ومنها ماروى سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بنى الله له قصرا فى الجنة ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين فى الجنة ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاث قصور فى الجنة فقال عمر اذن تكثر قصورنا فقال صلى الله عليه وسلم الله أوسع من ذلك * ومنها مارواه الطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد بعد صلاة الصبح اثنتى عشرة مرة فكأنما قرأ القرآن أربع مرات وكان أفضل أهل الارض يومئذ اذا اتقى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد فى مرضه الذى يموت فيه لم يفتتن فى قبره وأمن من ضغطة القبر وحملته الملائكة بأكفها حتى تجيزه من الصراط الى الجنة وقد أفردت أحاديثها بالتأليف وفى هذا القدر كفاية لاولى الالباب ولها أسماء كثيرة وزيادة الاسماء تدل على شرف المسمى أحدها أنها سورة التفريد ثانيها سورة التجريد ثالثها سورة التوحيد رابعها سورة الاخلاص خامسها سورة النجاة سادسها سورة الولاية سابعها سورة النسبة لقولهم انسب لنا ربك ثامنها سورة المعرفة تاسعها سورة الجمال عاشرها سورة المقشقشة حادى عشرها سورة المعوذة ثانى عشرها سورة الصمد ثالث عشرها سورة الاساس قال أسست السموات السبع والارضين السبع على قل هو الله أحد رابع عشرها المانعة لانها تمنع فتنة القبر ونفحات النار خامس عشرها سورة المحتضر لان الملائكة تحضر لاستماعها اذا قرئت سادس عشرها المنفرة لان الشياطين تنفر عند قراءتها سابع عشرها سورة البراءة لانها براءة من الشرك ثامن عشرها المذكرة لانها تذكر العبد خالص التوحيد تاسع عشرها سورة النور لانها تنور القلب المكمل للعشرين سورة الانسان قال صلى الله عليه وسلم اذا قال العبد الله قال الله دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى فنسأل الله تعالى أن يجيرنا من عذابه ويدخلنا الجنة نحن وجميع الاحباب بغير حساب لانه كريم حليم وهاب ومارواه البيضاوى من انها تعدل ثلث القرآن فرواه البخارى ومن انه صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرؤها الخ فرواه الترمذى والنسائى وغيرهما

﴿سورة الفلق مكية﴾

فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومدنية فى قول ابن عباس وقتادة
وهى خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع الحول (الرحمن) الذى استجمع كمال الطول (الرحيم) الذى أتم على أهل وده جميع النول واختلف فى سبب نزول سورة (قل أعوذ برب الفلق) فقال ابن عباس وعائشة رضى الله عنهم كان غلام من اليهود يخدم النبى صلى الله عليه وسلم فدنت اليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبى صلى الله عليه وسلم وعدة أسنان من مشطه وأعطاها اليهود فسحروه فيها وتولى ذلك لبيد بن الاعصم رجل من اليهود فنزلت هذه وقل أعوذ برب الناس فيه

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم طب أى سحر حتى كأنه يخيل اليه أنه
صنع شيأ وما صنعه وأنه دعى ربه ثم قال أشعرت ان الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه فقالت عائشة
رضى الله عنها وماذا ذاك يارسول الله قال جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند
رجلى فقال أحدهما للصاحبه ما وجع الرجل فقال الآخر مطبوب قال من طبه قال لبيد بن
الاعصم قال فيماذا قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال فى ذروان وذروان
بئر فى بنى زريق قالت عائشة رضى الله عنها فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع الى عائشة
فقال والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤس الشياطين قالت فقلت يارسول الله هل
أخرجته قال أما أنا فقد شفانى الله وكرهت أن أثير على الناس منه شرا وعن زيد بن ارقم قال
سحر النبى صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى ذلك أياما فأتاه جبريل عليه السلام فقال
ان رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقدا فى بئر كذا وكذا فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم
عليا فاستخرجها فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم
كأنما نشط من عقال قال فما ذكر ذلك اليهودى ولا رأى وجهه قط وروى انه كان تحت صخرة
فى البئر فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فاذا فيها مشاطة من رأسه صلى الله عليه وسلم
وأسنان مشطه وعن مقاتل والكلبى كان ذلك فى وتر عقد عليه أحدى عشرة عقدة وقيل كانت
مغروزة بالابرة فأنزل الله هاتين السورتين وهما احدى عشر آية سورة الفلق خمس آيات وسورة
الناس ست آيات كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها فقام صلى الله عليه وسلم كأنما
نشط من عقال وروى انه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليال فنزلت المعوذتان وروى انه
كان يخيل له أنه يطأ أزواجه وليس بواطئ قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر وعن أبى
سعيد الخدرى أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اشتكيت قال
نعم قال بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد والله يشفيك بسم الله
أرقيك (فان قيل) المستعاذ منه هل هو بقضاء الله وقدره أولا فان كان بقضاء الله وقدره فكيف
أمر بالاستعاذة مع أن ما قدر لابد واقع وان لم يكن بقضاء الله وقدره فذلك قدح فى القدرة
(أجيب) بأن كل ما وقع فى الوجود فهو بقضاء الله وقدره والاستشفاء بالتعوذ والرقى من قضاء
الله يدل على صحة ذلك ما روى الترمذى عن أبى خزامة عن أبيه قال سألت رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقلت يارسول الله أرأيت رقى نسترقى بها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل يرد من
قضاء الله شيأ قال هو من قدر الله قال الترمذى هذا حديث حسن وعن عمر نفر من قدر الله الى
قدر الله ومعنى أعوذ أستجير وألتجئ وأعتصم وأحترز والفلق الصبح فى قول الاكثرين ومنه
قوله تعالى فالق الاصباح لانه ظاهر فى تغير الحال ومحاكاة يوم القيامة الذى هو أعظم فلق يشق
ظلمة الفناء والهلاك بالبعث والاحياء وقال الملوى الفلق بالسكون والحركة كل شئ انفلق عنه
ظلمة العدم وأوجد من الكائنات جميعا وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سجن فى جهنم
وقال الكلبى واد فى جهنم وقال الضحاك يعنى الخلق وقيل المطمئن من الارض وجمعه فلقان مثل

خلق وخلقان وقيل الفلق الجبال والصخور تنفلق بالمياه أى تنشق وقيل هو التفليق بين الجبال لانها تنشق من خوف الله تعالى ولفظ الرب هنا أوقع من سائر أسمائه تعالى لان الاعاذة من المضار تربية * ولما كانت الاشياء قسمين عالم الخلق وعالم الامر وكان عالم الامر خيرا كله فكان الشر منحصرا فى عالم الخلق خصه بالاستعاذة فقال تعالى معمما فيها (من شر ما خلق) فخص عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشر فيه والشر يكون اختياريا من العاقل الداخل تحت مدلول ما وغيره من سائر الحيوانات كالكفر والظلم ونهش السباع ولدغ ذوات السموم وتارة طبيعيا كاحراق النار واهلاك السموم وقيل المراد به ابليس خاصة لانه لم يخلق الله خلقا شرا منه ولان السحر لا يتم الا به وباعوانه وجنوده وقيل من شر كل ذى شر وقوله تعالى (ومن شر غاسق اذا وقب) فيه أوجه أحدها ماروى عن عائشة قالت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الى القمر فقال يا عائشة استعيذى بالله من شر هذا فان هذا هو الغاسق اذا وقب أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح حسن فعلى هذا المراد به القمر اذا خسف واسود وذهب ضوءه أو اذا دخل فى المحاق وهو آخر الشهر وفى ذلك الوقت يتم السحر المؤثر للتمريض وهذا مناسب لسبب نزول هذه السورة ثانيها ماروى عن ابن عباس أن الغاسق الليل اذا وقب أى أقبل بظلمته من المشرق وسمى الليل غاسقا لانه أبرد من النهار والغسق البرد وانما أمرنا بالتعوذ من الليل لان فيه تنتشر الآفات ويقل الغوث ومنه قولهم الليل أخفى للويل وقولهم اعذر الليل لانه اذا أظلم كثر فيه العدو وفيه يتم السحر وأسند الشر اليه لملابسته له من حدوثه فيه ثالثها انه الثريا اذا سقطت وغابت ويقال ان الاسقام تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها فلهذا أمرنا بالتعوذ من الثريا عند سقوطها رابعها انه الاسود من الحيات ووقبه ضربه ونقبه والوقب النقب ومنه وقبت الثريد ولما كان السحر اعظم ما يكون لما فيه من تفريق المرء من زوجه وأبيه وابنه ونحو ذلك عقب ذلك بقوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) أى النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللواتى تعقد عقدا فى خيوط وينفثن عليها او يرقين عليها والنفث النفخ مع ريق وقال أبو عبيدة النفاثات من بنات لبيد بن أعصم اليهودى سحرن النبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) مامعنى الاستعاذة من شرهن (أجيب) بثلاثة أوجه أحدها انه يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ومن اثمهن فى ذلك ثانيها ان يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن ثالثها ان يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله تعالى ان كيدكن عظيم تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد أو اللاتى يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كانهن يسحرنهم بذلك * (تنبيه) * اختلف فى النفث فى الرقى فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ويدل عليه حديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذتين وروى محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام زعم انه لم يحفظه وروى ان قوما لدغ رجل منهم فأتوا أصحاب النبى صلى الله عليه

وسلم فقالوا هل فيكم من راق قالوا الا حتى تجعلوا لنا شيأ فجعلوا لهم قطيعا من الغنم فجعل رجل منهم يقرأ فاتحة الكتاب ويرقى ويتفل حتى برئ فأخذوه فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال وما يدريك أنها رقية خذوا واضربوا لى معكم بسهم وأنكر جماعة النفث والتفل فى الرقى وأجازوا النفخ بلا ريق وقال عكرمة لا ينبغى للراقى أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد وقيل ان النفث فى العقد انما يكون مذموما اذا كان سحرا مضرا بالارواح والابدان واذا كان النفث لاصلاح الارواح والابدان فلا يضر وليس بمذموم ولا مكروه بل هو مندوب اليه * ولما كان أعظم حامل على السحر وغيره من أذى الناس الحسد وهو تمنى زوال نعمة المحسود للحاسد أو غيره قال تعالى (ومن شر حاسد) أى ثابت الاتصاف بالحسد معروف فيه وأعظم الحساد الشيطان الذى ليس له دأب الا السعى فى ازالة نعم العبادات عن الانسان بالغفلات ثم قيد ذلك بقوله تعالى (اذا حسد) أى اذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغى الغوائل للمحسود لانه اذا لم يظهر أثر ما أضمر فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره وعن عمر بن عبد العزيز لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد وفى اشعار الآية ادعاء بما يحسد عليه من نعم الدارين لان خير الناس من عاش محسودا ومات محسودا (فان قيل) لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه (أجيب) بأن النفاثات عرفت لانه كل نفاثة شريرة ونكر غاسق لان كل غاسق لا يكون فيه الشر انما يكون فى بعض دون بعض وكذلك كل حاسد لا يضر ورب حسد محمود وهو الحسد فى الخيرات ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا حسد الا فى اثنتين الحديث وقال أبو تمام

* وما حاسد فى المكرمات بحاسد * وقال آخر * ان العلا حسن فى مثلها الحسد * (فائدة) * قال بعض الحكماء الحاسد بارز ربه من خمسة أوجه أولها أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره ثانيها أنه ساخط لقسمة ربه كأنه يقول لم قسمت هذه القسمة ثالثها انه ضاد فعل الله تعالى ان فضل الله يؤتيه من شاء وهو يبخل بفضل الله تعالى رابعها أنه خذل أولياء الله تعالى أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم خامسها انه أعان عدو الله ابليس والحاسد لا ينال فى المجالس الا ندامة ولا ينال عند الملائكة الا لعنة ولا ينال فى الدنيا الا جزعا وغما ولا ينال فى الآخرة الا حزنا واحتراقا ولا ينال من الله تعالى الا بعدا ومقتا وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم آكل الحرام ومكثر الغيبة ومن كان فى قلبه غل أو حسد للمسلمين وقيل المراد بالحاسد فى الآية اليهود فانهم كانوا يحسدون النبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) قوله تعالى من شر ما خلق تعميم فى كل ما يستعاذ منه فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد (أجيب) بأنه قد خص شر هؤلاء من كل شر لخفاء أمرهم وانه يلحق الانسان من حيث لا يعلم كأنما يغتال به وقالوا شر العداة المداجى الذى يكيدك من حيث لا تشعر وأخرج الامام احمد عن الزبير بن العوام أنه صلى الله عليه وسلم قال دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء ألا والبغضاء هى الحالقة فنسأل الله تعالى ان يحفظنا ومحبينا منه انه كريم جواد وروى مسلم انه صلى الله عليه وسلم قال لقد أنزلت على سورتان ما أنزل مثلهما وروى ابن ماجه انه صلى الله عليه وسلم قال وانك ان تقرأ سورتين

لاأحب ولاأرضى عندالله منهما يعنى المعوذتين وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا أخبرك بأفضل ماتعوذ به المتعوذون قلت بلى يارسول الله قال صلى الله عليه وسلم قال قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ومارواه الزمخشرى ولم ينقله البيضاوى هنا لكن قال فى آخر السورة الآتية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التى أنزلها الله تعالى حديث موضوع

(سورة الناس مكية)

وهى ست آيات وعشرون كلمة وتسعة وتسعون حرفا

(بسم الله) المحيط بكل باطن كاحاطته بكل ظاهر (الرحمن) الذى عمت نعمته كل باد وحاضر (الرحيم) الذى خص أهل وده باتمام النعمة فى جميع أمورهم الاول منها والاثناء والآخر ولما أمر الله تعالى نبيه بالاستعاذة مما تقدم أمره أن يستعيذ من شر الوسواس بقوله تعالى (قل) أى ياأشرف المرسلين (أعوذ) أى اعتصم والتجئ (برب) أى مالك وخالق (الناس) وخصهم بالذكر وان كان رب جميع المحدثات لامرين أحدهما ان الناس يعظمون فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وان عظموا الثانى انه أمر بالاستعاذة من شرهم فاعلم بذكرهم انه هو الذى يعيذ منهم قال الملوى والرب من له ملك الرق وجلب الخيرات من السماء والارض وانقاذها ودفع الشرور ورفعها والنقل من النقص الى الكمال والتدبير العام العائد بالحفظ والتميم على المربوب وقوله تعالى (ملك الناس) اشارة الى أن له كمال التصرف ونفوذ القدرة وتمام السلطان فاليه المفزع وهو المستغاث والملجأ والمنجا والمعاذ وقوله تعالى (اله الناس) اشارة الى انه تعالى كما انفرد بربوبيتهم وملكهم لم يشركه فى ذلك أحد فكذلك هو وحده الههم لايشركه فى ألوهيته أحد وقد اشتملت هذه الاضافات الثلاث على جميع قواعد الايمان وتضمنت معانى أسمائه الحسنى فان الرب هو القادر الخالق الى غير ذلك مما يتوقف الاصلاح والرحمة والقدرة الذى هو معنى الربوبية عليه من أوصاف الجمال والملك هو الآمر الناهى المعز المذل الى غير ذلك من الاسماء العائدة الى العظمة والجلال وأما الاله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل فيه جميع الاسماء الحسنى ولتضمنها لجميع معانى الاسماء الحسنى كان المستعيذ جديرا بأن يعاذ وقد وقع ترتيبها على الوجه الاكمل الدال على الواحدانية لان من رأى ماعليه من النعم الظاهرة والباطنة علم ان له مربيا فاذا درج فى العروج فى درج معارفه سبحانه علم أنه غنى عن الكل والكل اليه محتاج وعن أمره تعالى تجرى أمورهم فيعلم انه ملكهم ثم يعلم بانفراده بتدبيرهم بعد ابداعهم انه المستحق للالهية بلا مشارك له فيها * (فائدة) * قد أجمع جميع القراء فى هذه السورة على اسقاط الالف من مالك بخلاف الفاتحة كما مضى لان المالك اذا أضيف الى اليوم أفهم اختصاصه بجميع مافيه من جوهر وعرض وانه لاأمر لاحد معه ولامشاركة فى شئ من ذلك وهو معنى الملك بالضم وأما اضافة المالك الى الناس فانها لاتستلزم أن يكون ملكهم فلو قرئ به هنا لنقص الملك بالضم وأطبقوا فى آل

عمران على اثبات الالف فى المضاف وحذفها من المضاف اليه لان المقصود من السياق أنه سبحانه يعطى الملك من يشاء ويمنعه من يشاء والملك بكسر الميم أليق بهذا المعنى واسرار كلام الله تعالى أعظم من أن تحيط بها العقول وانما غايه أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها * (تنبيه) * يجوز فى ملك الناس واله الناس أن يكونا وصفين لرب الناس وان يكونا بدلين وأن يكونا عطف بيان واقتصر عليه الزمخشرى قال كقولك سيرة أبى حفص عمر الفاروق بين بملك الناس ثم زيد بيانا باله الناس لانه قد يقال لغيره رب الناس كقوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله وقد يقال ملك الناس وأما اله الناس فخاص لاشركة فيه فجعل غاية للبيان (فان قيل) هلا اكتفى باظهار المضاف اليه الذى هو الناس مرة واحدة (أجيب) بأن عطف البيان للبيان فكان مظنة للاظهار دون الاضمار (من شر الوسواس) وهو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال والمراد به شيطان سمى بالمصدر كأنه وسوس فى نفسه لانها صنعته وشغله الذى هو عاكف عليه او أريد ذو الوسواس والوسوسة الصوت الخفى ويقال لحس الصائد والكلاب وأصوات الحلى وسواس والشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم كما فى الصحيح فهو الذى يوسوس بالذنب سرا ليكون احلى ولايزال يزينه ويثير الشهوة الداعية اليه حتى يوقع الانسان فاذا أوقعه وسوس لغيره ان فلانا فعل كذا حتى يفضحه بذلك فاذا افتضح ازداد جراءة على امثال ذلك كأنه يقول قد وقع ما كنت أحذر من ايقاعه فلا يكون شئ غير الذى كان فيجترئ على الذنب * ولما كان الله تعالى لم ينزل داء الا أنزل له دواء غير السام وهو الموت وكان قد جعل دواء الوسوسة ذكره تعالى فانه يطرد الشيطان وينير القلب ويصفيه وصف سبحانه الموسوس عند استعماله الدواء بقوله تعالى (الخناس) أى الذى عادته ان يخنس أى يتوارى ويتأخر ويختفى بعد ظهوره مرة بعد مرة كلما كان الذكر خنس وكلما بطل عاد الى وسواسه فالذكر له كالمقامع التى تقمع المفسد فهو شديد النفور منه ولهذا كان شيطان المؤمن هزيلا كما حكى عن بعض السلف أن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى الرجل بعيره فى السفر قال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب وقيل كخرطوم الخنزير فى صدر الانسان فاذا ذكر العبد ربه خنس ويقال رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمسه ويحدثه فاذا ذكر الله تعالى خنس ورجع ووضع راسه فذلك قوله تعالى (الذى يوسوس) أى يلقى المعانى الضارة على وجه الخفاء والتكرير (فى صدور الناس) أى المضطربين اذا غفلوا عن ذكر ربهم من غير سماع وقال مقاتل ان الشيطان فى صورة خنزير يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه سلطه الله تعالى على ذلك وقال القرطبى وسوسته هى الدعاء الى طاعته بكلام خفى يصل مفهومه الى القلب من غير سماع صوت * (تنبيه) * يجوز فى محل الذى يوسوس الحركات الثلاث فالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ويحسن ان يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذى يوسوس على أحد هذين الوجهين وقوله تعالى (من الجنة) أى الجن الذين هم فى غاية الشر والتمرد والخفاء (والناس) أى أهل الاضطراب والذبذبة بيان

للذى يوسوس على ان الشيطان ضربان جنى وأنسى كما قال تعالى شياطين الانس والجن ويجوز
أن يكون بدلا من الذى يوسوس أى الموسوس من الجن والانس وأن يكون حالا من الضمير فى
يوسوس اى حال كونه من هذين الجنسين وقيل غير ذلك قال الحسن هما شيطانان لنا أما شيطان
الجن فيوسوس فى صدور الناس وأما شيطان الانس فيأتى علانية وقال قتادة ان من الجن
شياطين وان من الانس شياطين فنعوذ بالله من شياطين الجن والانس وعن أبى ذر قال لرجل هل
تعوذت بالله من شيطان الانس فقال أومن الانس شياطين قال نعم لقوله تعالى وكذلك جعلنا
لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن الآية وذهب قوم الى أن المراد بالناس هنا الجن سموا
ناسا كما سموا رجالا فى قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن
وكما سموا نفرا فى قوله تعالى قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن وكما سموا قوما نقل الفراء عن
بعض العرب أنه قال وهو يحدث جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل من أنتم فقالوا ناس من الجن
فعلى هذا يكون والناس عطفا على الجنة ويكون التكرير لاختلاف اللفظين والجنة
جمع جنى كما يقال انس وانسى والهاء لتأنيث الجماعة وقيل ان ابليس يوسوس فى صدور
الجن كما يوسوس فى صدور الناس فعلى هذا يكون فى صدور الناس عاما فى الجميع ومن
الجنة والناس بيانا لما يوسوس فى صدورهم وقيل معنى من شر الوسواس الوسوسة
التى تكون من الجنة والناس وهو حديث النفس قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى
تجاوز لامتى عما حدثت به أنفسها مالم تعمل أو تتكلم به وعن عقبة بن عامر قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ألم تر آيات نزلت الليلة لم ير مثلهن قط أعوذ برب الفلق وأعوذ برب
الناس وعنه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذ قلت
بلى قال قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وعن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم اذا أوى الى فراشه كل ليلة جمع كفيه فنفث فيهما وقرأ قل هو الله أحد
وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما رأسه
ووجهه وما أقبل من جسده يصنع ذلك ثلاث مرات وعنها أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان اذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ هما عليه وأمسح عنه
بيده رجاء بركتها وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحسد الا فى اثنين رجل
آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار وعن ابن عباس قال قال رجل يا رسول
الله أى الاعمال أحب الى الله تعالى قال الحال المرتحل قال وما الحال المرتحل قال الذى يضرب
من أول القرآن الى آخره كلما حل ارتحل وعن أبى هريرة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول
ما أذن الله لاحد ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به *(لطيفة)* نختم بها كما ختم
بها الفخر الرازى رحمه الله تعالى تفسيره وهى ان المستعاذ به فى السورة الاولى مذكور بصفة
واحدة وهى أنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهى الغاسق والنفاثات
والحاسد وأما فى هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث وهى الرب والملك والاله

والمستعاذمنه آفة واحدة وهى الوسوسة والفرق بين الموضعين ان الثناء يجب ان يقدر بقدر المطلوب فالمطلوب فى السورة الاولى سلامة النفس والبدن والمطلوب فى السورة الثانية سلامة الدين وهذا تنبيه على ان مضرة الدين وان قلت أعظم من مضار الدنيا وان عظمت ﷺ وهذا آخر مايسره الله تعالى من السراج المنير فى الاعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير فدونك تفسيرا كأنه سبيكة عسجد أودر منضد جمع من التفاسير معظمها ومن القرا آت متواترها ومن الاقاويل أظهرها ومن الاحاديث صحيحها وحسنها محرر الدلائل فى هذا الفن مظهر الدقائق استعملنا الفكر فيها اذا الليل جن فاذا ظفرت بفائدة شاردة فادع لى بالتجاوز والمغفرة اوبزلة قلم أولسان فافتح لها باب التجاوز والمعذرة

فلابد من عيب فان تجدنه * فسامح وكن بالستر أعظم مفضل

فمن ذا الذى ماساء قط ومن له الـ * محاسن قدتمت سوى خير مرسل

وأنا أعوذ بجميع كلمات الله الكاملة التامة وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامة من كل مايكلم الدين ويثلم اليقين أويعود فى العاقبة بالندم أويقدح فى الايمان المسوط باللحم والدم وأساله بخضوع العنق وخشوع البصر ووضع الخد لجلاله الاعظم الاكبر مستشفعا اليه بنوره الذى هو الشيبة فى الاسلام متوسلا اليه بسيد الانام عليه الصلاة والسلام وبالتوبة الممحصة للآثام وبما عنيت به من مصابرتى على تواكل من القوى وتخاذل من الخطا ثم أسأله بحق صراطه المستقيم وقرآنه المجيد الكريم وبما لقيت من كدح اليمين وعرق الجبين فى عمل هذا التفسير المبين عن حقائقه المخلص عن مضايقه المطلع على غوامضه المثبت فى مداحضه المكتنز بالفوائد التى لاتوجد الافيه المحيط بالآيات من بديع الفاظه ومعانيه مع الايجاز الحاذف للفضول وتجنب المستكره المملول متوسط الحجم وخير الامور أوساطها لاتفريطها ولا افراطها هذا ولسان التقصير فى طول مدحه قصير

أعيذه بالمصطفى * من حاسد قدهما

بذمه وقد غدا * من أجله مهتما

فليس يبغى ذمه * الا بغيض أعمى

كفاه ربى شرهم * وزان منه الرسما

وزاد فى تدبيرهم * تدميرهم والغما

وردهم بغيظهم * فلم ينالوا غنما

وزاده سعادة * ولازمته النعمى

فنسأل الله الكريم الذى به الضر والنفع والاعطاء والمنع أن يجعله لوجهه خالصا وان يداركنى بالطافه اذا الظل أضحى فى القيامة قالصا وأن يتجاوز عنى انه هو السميع العليم وأن يرفع به درجتى فى جنات النعيم وان يجعله ذخيرة لى عنده انه ذو الفضل العظيم وأن ينفع به من تلقاه بالقبول انه جواد كريم وان يخفف عنى كل تعب ومؤنه وأن يمدنى بحسن المعونه وان يهب

لى خاتمة الخير ويقينى مصارع السوء وان يتجاوز عن فرطاتى يوم التناد ولا يفضحنى بها على رؤس الاشهاد أنا ووالدى وأولادى وأقاربى ومشايخى وأحبابى ويحلنا دار المقام من فضله بواسع طوله وسابغ نوله انه هو الجواد الكريم الرؤف الرحيم وهذا شئ ما كان فى قدرتى فانى والله معترف بقصر الباع وكثرة الزلل ولكن فضل الله وكرمه لا يعلل بشئ من العلل فلهذا رجوت ان أكون متصفا باحدى الخصال الثلاث التى اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا منها بل أرجو من الله الكريم اجتماعها انه جواد كريم حليم (قال) المؤلف رحمه الله تعالى وكان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين المبارك ثالث عشر صفر الخير من شهور سنة ثمان وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد مؤلفه فقير رحمة ربه القريب محمد بن أحمد الشربينى الخطيب غفر الله تعالى له ذنوبه وستر فى الدارين عيوبه والمسلمين والحمد لله رب العالمين وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين والصحابة والتابعين أجمعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين

يقول المتوسل الى الله بالجاه الصديقى ابراهيم عبد الغفار الدسوقى مصحح دار الطباعه جعل الله طباعه قد تم طبع السراج المنير بعون الملك القدير وهذا الكتاب العجيب المنسوب للامام الخطيب قد اعتنت بتحريره دار الطباعه وبذلت فى تنقيره غاية الاستطاعه فازالت عنه ربقة التحريف وأطلقته من أسر التصحيف بمراجعة اصول اساليبه والبحث عن صواب تراكيبه فحملت بركاته وعمت نفحاته وأنار الآفاق بدر وجوده وروى العلماء قاموس فضله وجوده وتحلت بصحاح جواهر معانيه اجياد مباشريه ومبتاعيه ثم ان تمام بيعه فى اثنا طبعه أول دليل على عموم نفعه وهذا كما يقع فى خلدى ويقينى من كرامات مؤلفه محمد بن أحمد الشربينى وكان تمام طبعه بدار الطباعة العامرة الكائنة ببولاق مصر القاهرة على ذمة هذه المصلحة الميمونة التى هى بطالع السعد مقرونه فى سنة خمس وثمانين ومائتين وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف مشمولا بنظر الجحد فى نشر أوطانه الباذل مروأته فى قضاء حاج اخوانه من عليه احاسن اخلاقه تثنى حضرة حسين بك حسنى فانه لا يزال باحثا عن عموم المنافع عند وجود المقتضيات وزوال الموانع فى ظل من تعطرت الافواه بطيب شانه وبلغ من كل وصف جميل حد انتهائه ومحا ظالم الظلم بسنا صورته وأثبت مراسم العدل بحسن سيرته وأفاض على أهل مملكته غيوث انعامه واحسانه وشملهم بعظيم رأفته ومزيد امتنانه وبسط لهم بساط عدله وسلاهم بحلى جوده وفضله عزيز الديار المصريه وحامى حوزتها النيليه بشدة بأسه وعزمه الجلى سعادة أفندينا اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على لا زال ملحوظا بعين العناية الالهيه موفقا لسائر الآراء الخيريه محفوظ الجناب مقصود الاعتاب مسرورا بسائر الانجال بجاه خاتم رسل ذى الجلال ولما تهيأ التمام والكمال

وليس من حسن الطبع حلة الجمال انطلق لسان اليراع يقرظه وبعين الاطراء يلحظه فقال

كلام الله أفضل مارواه * رسول الله عن جبريل قطعا
عجائبه بحار اللب فيها * وليست تنقضي بدعا وصنعا
وخادمه بتفسير المعاني * أجل الناس منقبة ووضعا
ولاسيما الخطيب أبو المعالي * مبين الآي أفذاذا وشفعا
هو التفسير ايضاحا وبسطا * ومتبعوه أرقى الناس طبعا
ولما تم حسنا قلت أرخ * وفي أوب الخطيب وتم طبعا

٩٦٠ ٩ ٦٥٣ ٤٤٦ ٨٣

١٢٨٥

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على المؤيد
بباهر المعجزات وعلى أصحابه الكرام البررة وآل بيته
المنتخبين الخيرة ماتوالى الجديدان
وتعاقب النيران
تم

